في الأدب الحديث

تأليف
عمر الدسوقي

أستاذ الأدب ، ورئيس قسم الدراسات الأدبية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الجزء الأول

الطبعة الثامنة

مزيدة ومنقحة

دار الفكر

الطبعة الأولى ١٩٤٨

الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة ١٩٥١

الطبعة الثالثة مزيدة ومنقحة ١٩٥٤

الطبعة الرابعة مزيدة ومنقحة ١٩٥٩

الطبعة الخامسة « « ١٩٦١

الطبعة السادسة « « ١٩٦٤

الطبعة السابعة « « ١٩٦٦

الطبعة الثامنة « « ١٩٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

مقدمة الطبعة الأولى

في مستهل القرن التاسع عشر أخذت مصر والبلاد العربية تستيقظ من سبات طويل وتفرك عيوناً طالت هجمتها ، وتنظر دهشة إلى دنيا حافلة بالجديد في نظم العيش ، ووسائل التغلب على قوى الطبيعة وتذليلها للإنسان ، بالمخترعات الحديثة ، وفي نظم الفكر ، وعالم المعاني والآداب ، وما خلقه أدباء الغرب من صور ودبجوه من كتب ، ونظموه من شعر ، وسطروه من علم مبني على التجارب الممحصة ، ومن حقائق مؤيدة بالبراهين الساطعة . ومنذ ذلك الوقت ، ومصر والبلاد العربية تزداد بالغرب صلة ، وبأهله تعرفاً ، وبحضارته وثقافته ولوعاً . ولم تنس ماضيها وتراثها المجيد من الحضارة والثقافة ، فأحيت ما ورثته عن العرب

من آداب ضخمة . وأخذت تتناول من القديم ، وتتناول من الجديد وتمزج بين الثقافتين .

وكان اتصالها بالغرب عن طرق كثيرة : فمن بعثات ترى رأى العين . وتتلقى العلم على أساتذة مختصين ثمة ، وتعود فتنقل صوراً جديدة من العادات والحياة ، وأفكاراً وآراء لم تكن موجودة من قبل ، ومن ترجمات لآثار العلماء الغربيين ورجال الأدب والفكر ، والفن والقانون ، يطلع عليها جمهرة المتعلمين من الشعوب العربية ، ويدرسونها فيستقر ما بها من آراء في عقول الناس نتيجة التداول ، ومرور الزمن ، وتصير من تراث الأمة العقلي ، تظهر دون تعمد على ألسنة الخطباء ، وعلى أسلات الأقلام ، وفي ثنايا الأبيات الشعرية ، والصور الفنية ، وبذلك يتخذ الأدب والفن لوناً جديداً يميزه عن العصور السابقة ، ويطبعه بطابع خاص .

وكان التعليم المدني الذي وضع محمد علي أسسه في مصر ، ونماه إسماعيل واشتد عوده وأتى كله بعد ثورتنا القومية في سنة ١٩١٩ من أعظم العوامل التي ساعدت على اتصال الشرق بالغرب ؛ وكذلك فعلت النهضة التعليمية في سوريا ، وفي لبنان على الأخص ، ومجهودات الإرساليات التبشيرية في هذا المضمار لا تنكر . وصار الطالب العربي في مدارس القاهرة وبيروت ودمشق وبغداد ، حتى وهو في مرحلة الدراسة الثانوية يلم بشيء كثير من الأدب الغربي ، ويطلع على بعض صوره : من قصة ، وشعر ، ومقالة ، وحياة أدباء ، ويستوعب كل هذا ويؤدي فيه امتحاناً ثم يختزنه في عقله الواعي ، أو في عقله غير الواعي ؛ ولن يستطيع أن يتخلص من تأثيره حين يتكلم ، وحين يكتب ، وحين يقرض الشعر ، وحين يفكر وحده ، دع جانباً دراسة التخصص في الجامعات ، وما

تقوم به الهيئات والأفراد من بحوث وترجمات ، ونهضة الصحافـــة والتجديد في مادتها بنقل كثير من ألوان الصحافة الغربية وأبوابها لجمهرة القراء وعامة الشعب .

وليس الغرب أمة واحدة ، ذات ثقافة واحدة ، ولكنه أمم شتى ، ولها أذواق مختلفة وآداب متباينة ولغات عديدة ، ولكل شعب أسلوبه في التفكير ، وفلسفة خاصة في الحياة ، ولم يكن اتصال مصر والبلاد العربية قاصراً على شعب غربي دون آخر ، بل اتصلنا بكل بلاد الغرب إن لم يكن عن طريق البعثات فمن طريق الترجمة : اتصلنا بفرنسا ، وإنجلترة ، وألمانيا ، وإيطاليا ، وروسيا ، وأسبانيا ، والولايات المتحدة وغيرها ، وعرفنا صوراً وألواناً من آداب كل وفلسفة كل ولا سيما في الحقبة الأخيرة ، بعد ما انتشر الطيران ، وازداد العـالم اتصالاً بعضه ببعض .

ومن العسير أن نحدد مدى تأثر الأدب العربي بكـــل ثقافة من هذه الثقافات . بيد أننا نستطيع أن نقول على وجه التقريب : إننا تأثرنا بادىء الأمر بالحضارة الفرنسية ، فنقلنا عنها كل ما يتصل بأسباب الحياة من طب وهندسة ، وعلوم تجارية ، وقانون ومـا شاكل هذا ؛ وإن مصر تأثرت بالثقافه الإنجليزية ، ثم بالثقافة الفرنسية ، ثم أخذت ألواناً من ثقافات أخرى دون أن يكون لها تأثير كبير . أما لبنان فبالثقافة الفرنسية ، ثم بالثقافة الأمريكية والإنجليزية ، ثم سوى ذلك من الثقافات .

هذا التيار الغربي القوي الذي يجري في حياة الأمة العربية العقلية والأدبية ينافسه تيار آخر حبيب إلى نفوس الأمة ، ويمت إلى ماضيها المجيد ، ويعرض الشخصيات المألوفة لديها الأثيرة عندهـا ، التي تبعث

فيها العزة والكرامة ، وتقوي من شخصيتها ، وتزيد في اعتدادها بنفسها ، وذلك هو الأدب العربي القديم ، وهو أدب قوي ضخم ، غاص بكثير من آيات الفن ومعجزاته ، وهو قريب من نفسية الشعب العربي ، ويستطيع أن يتمثله بيسر ومسرة ، قريب من فكره وعاداته ، وعقيدته ومزاجه وشعوره ، فلا بدع إذا عظم هذا التيار واشتد وزاحم تيار الثقافة الغربية مزاحمة عنيفة .

والأدباء في العالم العربي – في خلال قرن من الزمن – قد تباينوا في تأثرهم بهذين التيارين : فمنهم من اقتصر على القديم بحكم ثقافته وبيئته ، والعوامل الاجتماعية الخاصة المحيطة به ، وإن لم ينج من التأثر بالأفكار الشائعة ، والألوان الأدبية المترجمة في الصحف والمجلات ، ودور العلم ، ولكن غلب القديم عليه في خياله وموضوعه وأسلوبه وطريقة عرضه ؛ ومنهم من كانت ألوان الثقافة الغربية غالبة على أدبه ، فتقرأ له وكأنما تقرأ لأديب فرنسي أو إنجليزي يكتب بالعربية ، ومنهم من حاول الجمع بين القديم والجديد ، فحذق من القديم متانة الأسلوب ، وطلاوة العبارة ، ووضوح الغرض ، وأخذ من الجديد حسن العرض ، وطرافة الموضوع ، أما الفكرة فتارة يأخذها من هنا ، وتارة يأخذها من هناك .

هذا وقد حاول بعض أدباء العربية في السنوات الأخيرة محاكاة المدارس الأدبية الأوربية ، التي نشأت بتطور تلك الأمم في الحياة والمدنية ، والتي كانت أثراً لعوامل اقتصادية واجتماعية وسياسية مختلفة .

حاولوا محاكاتها دون أن تحفزهم إلى هذه المحاكاة أو تدفعهم إلى لون خاص من الأدب دوافع قهرية كما كان في الغرب ، ولكنه حب التجديد ،

والتقليد للأدب الغربي فحسب .

ولذلك رأينا من يقلد المدرسة الإبداعية (Romantism) ومن يدعي أنه من المدرسة الواقعية (Realism) ، ومن يحاول أن يكون من المدرسة الرمزية (Symbolism) إلى آخر ما هنالك من مدارس .

وأدب هؤلاء المغرقين في التجديد ، المغرمين بالتقليد ، هو أدب غربي صرف ، جاء في ثوب عربي ضعيف النسيج ، ملون بألوان صارخة يمجها الذوق العربي .

هذه الأنماط المختلفة من الأدباء ، وهذه الألوان المتباينة من الأدب ، في عصر ازدحم بالعلوم والثقافات ، يجعل مهمة مؤرخ الأدب عسيرة في تعرف طريقه في درسها وتقسيمها وحصرها ، وإصدار أحكام عامة عليها ، وتبيان كل مدرسة ، والفريق الذي ينتمي إليها في كل بلاد العروبة ، ولا سيما والنهضة اليوم عامة ، وهناك عشرات من الأدباء اللامعين يستحقون الدراسة . ولا بد لمؤرخ الأدب كذلك من التعرض للعوامل السياسية والاجتماعية التي أثرت في الأدب العربي الحديث ، وتتبع نمو هذا الادب منذ عصر محمد علي ، حين كان يحاول التخلص من القيود التي كبل بها في عصور الانحطاط ، إلى أن قوي ، ووقف على قدميه حراً طليقاً ، ثم إلى أن صار مارداً عملاقاً في جيلنا الحاضر .

وأشهد أن هذا العمل الضخم يحتاج إلى دراسات واسعة قبل أن يتم ويصير عملاً تاريخياً علمياً له قيمته : فمن دراسة لتأثر الشعر العربي الحديث بالثقافة الغربية من حيث الفكرة والخيال ، والغرض والصورة ،

ومن دراسة للكلمات الدخيلة والمعربة التي استعملها الادباء ، ومن دراسة لتطور القصة في الادب الغربي قديماً وحديثاً ، ومن دراسة للأساليب الأدبية المتأثرة بالأساليب الغربية ، ومن دراسة لتطور النثر العربي ، وأدب المقالة ، إلى غير ذلك من الدراسات المنظمة المسهبة التي تأخذ جزءاً خاصاً من هذا العمل الضخم ، وتبحثه وتصدر عليه أحكاماً مدعومة بالأدلة والنماذج ، لتعين مؤرخ الأدب حين يتعرض إلى المدارس الأدبية في العصر الحديث ، ورجال كل مدرسة .

ولست أزعم أنني ضليع بهذا العبء وحدي وأنني حين أقدم هذا الكتاب للقارىء العربي قمت بهذه الدراسات المستفيضة ، وانتهيت من الأحكام العامة التي تؤدى إليها هذه الدراسات . ولكن هذا الكتاب ليس إلا محاضرات ألقيتها على طلبة كلية دار العلوم بجامعة القاهرة ، حاولت أن أعرض عليهم فيها نماذج من هذه التيارات المتباينة في الأدب الحديث ، وأسرد عليهم فيها كيف نما هذا الأدب وتطور ، في إجمال واختصار .

وقد ألحوا علي إلحاحاً شديداً في أن أقدمه للمطبعة ، حتى ينتفعوا به وينتفع غيرهم فيما يزعمون . ولقد ترددت طويلاً قبل أن أستجيب لرغبتهم ، لاعتقادي أن هذا العمل يتطلب جهداً عنيفاً ووقتاً طويلاً ، وأن الأولى به أن يظل دراسة حتى تستوفى عدتها ، وتكمل أهبتها ، وتوضع في غالبها على صورة كتاب .

فأنا لا أعفي كتابي هذا من التقصير ، وإذا لم يستوعب الأدب الحديث ومدارسه ، وكل الشعريات الأدبية الجديرة بالدرس ، فإني أول المعترفين بذلك ، المعتذرين عن تقصيرهم ، والذي يشفع لي عند القراء أنها محاولة لدرس الأدب الحديث ، علّ فيهم من يكون أقوى مني مُنَّة ، وأطول

باعاً فيستوفي الموضوع ويلم بكل أطرافه ، أو يكون فيهم من تستهويه ناحية خاصة ، أو أديب بعينه فيتخذه جالاً لدراسته ، وتزويد المكتبة العربية بها ، فيعين على تحديد معالم أدبنا المعاصر .

وبعد فإن المعاصرة حجاب ، وقد أتعرض في كتابي هذا بالنقد لبعض الأحياء من الأدباء ، والتعريف بآثارهم الأدبية . وقد يكون في كلامي ما لا يروقهم ، أو يثقل عليهم ولكني سألزم نفسي قول الحق مجرداً عن الأهواء والغايات ، ثم إني مجتهد ، فإن أصبت فلي ثوابان ، وإلا فلن أعدم ثواب الاجتهاد ، ولن تحول المعاصرة بيني وبين تقرير الحقيقة ، والله الموفق للصواب .

عمر الدسوقي

مقدمة الطبعة السادسة

لم أزل منذ صدرت الطبعة الأولى لهذا الجزء من الكتاب عام ١٩٤٨ أواصل دراسة الأدب الحديث ، وأبحث عن مصادره ، وقد تسنى لي في هذه الحقبة الاطلاع على كثير من المراجع ، وإني أتقدم اليوم بالطبعة السادسة إلى قراء العربية وفيها زيادات كثيرة في كل باب من أبواب الكتب وإفاضة في تراجم الشعراء والكتاب .

على أن هذه المرحلة من الأدب الحديث لا تزال في حاجة إلى الدراسة واستقصاء المصادر ، حتى تظهر واضحة مجهولة لدارس الادب ، فلست أزعم أن الكتاب قد بلغ الكمال أو قاربه ، وإني سأظـل عاكفاً على الاستزادة من الادب الحديث حتى أبلغ بالكتاب الغاية التي أصبو إليها إن شاء الله .

ومما يحفزني على ذلك ما وجدته في جمهرة القراء من تشجيع ؛ حتى نفدت الطبعات السابقة في أمد وجيز على الرغم مما تلاقيه الكتب الادبية من انصراف عنها ، وزهد فيها . وإني أقابل هذا التشجيع بالشكر راجياً أن يوفقني الله إلى إرضاء العلم وجمهور الادباء ، وطلاب البحث . والله هو الموفق للصواب .

عمر الدسوقي

الفَصل الأول

البَعث [٧]

- ١ -

قبيل البعث :

ظلت مصر وبلاد العروبة ثلاثة قرون تحت حكم الأتراك ، وهي في ظلام دامس ، وجهل فاضح ، تعاني مرارة الظلم ، وقسوة البغي .

قلب ما شئت من أسفار التاريخ فلن ترى إلا صفحات سوداء قاتمة ، تنبعث منها روائح الاستبداد والبطش ، وستسمع صراخ المظلومين يصم الآذان ، وتلمح دماء الفلاحين في كل صقع تسيل تحت سياط الجباة ، وتتمثل لك بلاد العروبة تخنقها يد غاشمة أصابعها : الفقر ، والمرض ، والجهل ، والذلة ، والانحلال .

لم يكن لولاة الأتراك هم إلا استدرار الأموال بأية وسيلة ، غير معيرين

صرخات الشعوب العربية التفاتاً ، وغير مهتمين بمـا يقاسونه من ضنك وبؤس وفاقة وجهل ، واشتد الخلف بين أمراء المماليك ، وسلبوا الوالي سلطته ، وشنوها حرباً شعواء كل على أخيه ، ينازعه السلطة والجاه . والضحية في هذا النزاع كله هم أبناء البلاد ، فلا غرو إذا أقفرت من أهلها ، وقد جاء القرن التاسع عشر ، وسكان مصر أقل من ثلاثـة ملايين ، أكثرهم من العرب المسلمين ، ويليهم الأقباط ثم الأتراك وكان الحاكم يفد من الأستانة ، ويقيم بالقلعة ويدعو للخليفـة ، ويضرب باسمه النقود .

ولكن السلطة الفعلية كانت في يد المماليك ، وهم أخلاط من الأتراك والشراكسة وجميع ثروة البلاد وإدارتها في أيديهم ، ولم يكن لهم عصبية لأنهم لم يتوارثوا الملك إلا نادراً وإنما الغلبة للقوي ، فضربة موفقة من حسام أحدهم تكسبه الصدارة بين أبناء جلدته ، ولم يكن حظه السعيد يغير من أخلاقه ، فهو في منصب الوالي تتقمصه روح العبد الوضيع وليس له من هم إلا الاستيلاء على النساء والخيل والأموال ، وكان الفلاح المسكين يغزى وتنهب أمواله ، ولم يكن التاجر المصري أو الأوربي الغريب بأحسن منه حالاً[1] ، ولا ريب في أن الحالة الاجتماعية والأدبية تتأثر الى حد كبير بالحالة السياسية ؛ فرعية همل ، ورعاة مستبدون ، وهيهات أن يكون للأدب نصيب في مثل هذه البيئة الجاهلة .

وقد زار (فولني) الرحالة الفرنسي مصر ؛ وبلاد الشرق العربي

---

(1) The Beginning of the Eygyptian question and the Rise of Mohamed Ali by Prof Shafik Gherbal p. 2.

وتركيا في أخريات القرن الثامن عشر فراعه ما بها من جهل مطبق وفساد شائع ، وهو في هذا يقول : « الجهل عام في هـذه البلاد ، وفي كل بلد تابع لتركيا ، وقد عم كل الطبقات ويتجلى في كل العوامل الأدبية وفي الفنون الجميلة ، حتى الصناعات اليدوية تراها في حالة بدائيـة ، ويندر أن تجد في القاهرة من يصلح الساعة وإذا وجد فهو أجنبي » .

ويقول في موضع آخر « ولى عصر الخلفاء وليس من الأتراك أو العرب اليوم علماء في الرياضيات أو الفلك ، أو الموسيقى أو الطب ، ويندر فيهم من يحسن الحجامة ، ويستخدمون النـــار في الكي ، وإذا عثروا بمتطبب أجنبي عدوه من آلهة الطب ، وصار علم الفلك والنجوم شعوذة وتنجيماً ، وإذا قيل لعلمائهم ورهبانهم إن الأرض تدور عدوا ذلك كفراً ، لأنه – في زعمهم – يخالف كتب الديانات » .

ولم تكن تركيا أحسن حالاً من البلاد الخاضعة لسلطانها ، وحسبك أنه حينما أراد بعض النابهين من الأتراك في القرن الثامن عشر [1] إدخال المطبعة لأول مرة في تركيا ، وجد من ولاة الأمور ، وجمهور الشعب، عنتاً وإرهاقاً ، واضطر إلى استصدار فتوى شرعية بعد أن بذل إبراهيم بك صهر السلطان مجهوداً كبيراً ، وقد سمحت الفتوى بطبع الكتب غير الدينية ، ثم أفتى علماء الشرع بعد ذلك – حين ظهرت فائدة المطبعة – بطبع كتب الدين اعتماداً على أن الأمور بمقاصدها » .

وقد حرم الأتراك مصر أغلى كنوزها فنقلوا أكثر الكتب التي كانت بخزائن المدارس إلى بلادهم ، ثم نقلوا كثيراً من العلمـــاء ، والأدباء ، والأمراء ، والمهندسين ، والوارقين ، وأرباب الحرف ، وقد ذكر ابن إياس

---

(١) هو محمد جلبي سفير الدولة العثمانية بباريس .

أسماء كثير من هؤلاء ، وقال : إنهم يبلغون ألفاً وثمانمائة ، وصادفهم النحس فغرقت بهم بعض السفن التي كانت تقلهم فمات كثير منهم ، مع أن ابن إياس[1] ، أرخ لمصر حتى أوائل الاحتلال العثماني ، ولم يشهد الاحتلال في أوج جبروته ، وما جره على البلاد من نكبات . وكان من نتائج هذا الاحتلال كذلك أن قلت أموال الأوقاف التي كانت محبوسة على العلماء وطلبة العلم ، فتفرق الطلاب ، وانفضت سوق العلم ولم يبق منه إلا ذماء يسير بالأزهر ، ومن البديهي أن اللغة العربية لم تجد في هذا العصر المظلم من يشد أزرها ، ويثيب الشعراء والكتاب المحتفين بها ؛ لأن اللغة التركية طغت وصارت اللغة الرسمية في الدواوين ، وفشت على ألسنة الناس ، ولأن الحكام لا يفقهون العربية ولا يقدرونها قدرها ، ولا يميزون بين الجيد والغث من الكلام حتى يلجأ إليهم الشعراء مادحين .

ولم يعد في استطاعة كثير من الكتاب أن يسلموا من اللحن الفاحش ، أو يأتوا بالمفهوم المقبول ، بل عز عليهم اللفظ الجزل والأسلوب القوي ، فلجئوا للزخرف والمحسنات يخفون بها عوار كلامهم ، وقد أكثروا من هذه الحلى اللفظية حتى استغلق الكلام . وأتوا بالغث السمج الذي إن حسن فيه شيء كان سرقة واغتصاباً من آثار من سبقوهم من الكتاب .

وحسبنا أن نقدم بعض النماذج دليلاً على ما وصلت اليه اللغة وآدابها

---

(١) هو ابن إياس الجركسي الحنبلي من رجال القرن التاسع والعاشر للهجرة ، وله كتاب « بدائع الزهور في وقائع الدهور » دون فيه تاريخ مصر حتى سنة ٩٢٨ هـ ١٥٢١ م ولغته ضعيفة أقرب إلى العامية منها إلى الفصحى .

نثراً ونظماً من الركّة والضعف :

(١) قال عبد الوهاب الحلبي في رسالة إلى الشهاب الخفاجي .

« لقد طفحت أفئدةُ العلماء بشراً ، وارتاحت أسرارُ الكاتبين سراً وجهراً ، وأفعمت من المسرة صدورُ الصدور ، وطارت الفضائل بأجنحة السرور ، بيُمن قدومٍ من اخضرّت رياضُ التحقيق بإقدامه ، وغرقت بحار التدقيق من سحائب أقلامه » .

(٢) قال عبد الرحمن الجبرتي من النثر المرسل مبيناً نشأة مدرسة الهندسة في عهد محمد علي :

« لما رغب الباشا في إنشاء محل لمعرفة علم الحساب والهندسة والمساحة ، تعين المترجم رئيساً ومعلماً لمن يكون متعلماً بذلك المكتب ، وذلك أنه تداخل بتحيلاته لتعليم مماليك الباشا الكتابة والحساب ونحو ذلك . ورتب له خروجاً وشهرياً ، ونجب تحت يده المماليك في معرفة الحسابيات ونحوها ، وأعجب الباشا ذلك فذاكره وحسن له بأن يفرد مكاناً للتعليم ويضم إلى مماليكه من يريد التعليم من أولاد الناس ، فأمر بإنشاء ذلك المكتب ، وأحضر له أشياء من آلات الهندسة والمساحة والهيئة الفلكية من بلاد الإنكليز وغيرهم » .

(٣) ولم يكن الشعر — إذا صح أن نسميه شعراً — أرقى حالاً من النثر وإنما كان صناعة لفظية غثة .

وهاك مثلا مما قاله عبد الله الشبراوي [١] يرثي أحمد الدلنجاوي

(١) كان عبد الله الشبراوي من أكابر شيوخ الأزهر ، واشتهر بقوله هذا النوع من الشعر ، وتوفي سنة ١١٧٢ هـ .

المتوفي سنة ١١٢٣ هـ :

سألتُ الشعر هـل لك من صديق   وقـد سكن الدلنجاويُّ لحـده
فصاح وخر مغشياً عليـه   وأصبح ساكناً في القبر عنـده
فقلت لمن أراد الشعر أقصر   فقد أرختُ مات الشعر بعده

٨١ ٦٠ ٤٤١

ومن ذلك قول الشهاب الخفاجي (١) :

فَديَتك يا من بالشجاعة يرتدي   وليس لغير السُّمْر في الحرب يَغرِسْ
فإنْ عشقَ الناس المها وعيونُها   من الدَّل في روض المحاسن تَنْعِسُ
فَدرْعُكَ قدْ ضمَّتك ضمَّة عاشق   وصارت جميعاً أعيناً لك تَحْرسُ

ومن هذه النماذج المتقدمة للأدب قبيل النهضة ، ندرك كيف كان النهوض صعباً بطيئاً ، يحتاج إلى عناء طويل ، وصبر كثير ، وزمن مديد ليبلغ أشده ، ويؤتي أكله .

---

(١) هو أحمد بن محمـد بن شهاب الدين الخفاجي المصري ولد بسرياقوس وتلقى دروسه بالقاهرة ثم رحل مع أبيـه إلى الحرمين ، ثم الأستانة ، ثم عين قاضياً للعسكر بمصر ، ثم استقال وسافر إلى دمشق فحلب فالأستانة وتوفي سنة ١٠٦٩ هـ ، ومن أشهر مؤلفاته « ريحانة الألباب » يشمل على تراجم أدباء عصره ، ثم « شفاء الغليل بما في لغة العرب من الدخيل » .

- ٢ -

البعث :

هبت مصر من سباتها العميق فزعة مذعورة حين دوّت في آفاقها مدافع نابليون سنة ١٧٩٨ م ، وأخذت تقلب الطرف دهشة في هـــذه الجيوش العجيبة ، والوجوه الغريبة ، فكان ذلك أول عهدها بالفرنجة منذ عصر صلاح الدين الأيوبي . ولكن شتان بين العهدين ، ففي الأول كانت قوية عزيزة لا تزال فيهـــا أثارة من علم وأدب ، وكانت أوربا لا تزال تتحسس طريقها نحو النور . فاقتبست من مهد العروبة وأفادت علمـــاً وحضارة ، وأخذت ترقى صُعُداً في سُلّم المدنية بخطوات ثابتة سريعة ، بينما أخذت مصر تهوي وتنحدر رويداً رويداً ويتراكم عليها الجهل والغفلة حتى جاءها (نابليون) وهي في الدرك الأسفل .

اصطحب (نابليون) معه كل عـــدد الاستعمار والاستغلال والإيقاظ . وكانت دهشة المصريين جدّ عظيمة مما رأوا من مظاهر هـــذه المدنية الجديدة ، إذ أنشأ نابليون مسرحـــاً للتمثيل كانوا يمثلون فيـــه رواية فرنسية كل عشر ليال ، ومدارس لأولاد الفرنسيين ، وجريدتين ، ومصانع ، ومعملاً للورق ، وأسّس مراصد فلكية ، وأماكن للأبحـــاث الرياضية ، والنقش والتصوير في حارة الناصرية ، وأسس مكتبة عامة وقد جُمعت بعض كتبها من المساجد والأضرحة ، وفيهـــا كثير من الكتب الفرنسية

التي أحضرتها الحملة معها ليفد إليها كل من يريـــد المطالعة ، وكان القائمون بأمرها يرحبون بمن يدخلها من المصريين . وكان بها عدد كبير من الكتب العربية ، وأنشأ المجمع العلمي المصري على نظام المجمع العلمي الفرنسي في أغسطس سنة ١٧٩٨ ، وكان من أغراضه :

١ – نشر المدنية وبعث العلوم والمعارف بمصر .

٢ – دراسة المسائل والأبحاث التاريخية والطبيعية والصناعية ، ونشر هذه الأبحاث في مجلة المجمع العلمي التي تنشأ لهذا الغرض .

٣ – إبداء رأيه في الأمور التي تستشيره فيها الحكومة .

وكان المجمع يتألف من أربعـــة أقسام : قسم الرياضيـات ، وقسم الطبيعيات ، وقسم الاقتصاد السياسي . وقسم الآداب والفنون ، ويتألف كل قسم من اثني عشر عضواً .

وقد أفاد هذا المجمع مصر والتاريخ بآثاره وأعمـال رجاله وصارت ابحاث أعضائه هي النواة الأولى لكل بحث خاص، بمصر ، ولا بدع إذا ظل المجمع العلمي هو الاثر الباقي حتى اليوم من آثار حملة نابليون ، وذلك لجليل فائدته . وهذا ما دعا بعض المؤرخين إلى القول بأن حملة نابليون على مصر كانت علمية اكثر منها حربية [١]

وبذل الفرنسيون غاية جهدهم في تقريب المصريين إليهم ، وترغيبهم في أسباب الحضارة وفي تاريخ الجبرتي وصف مستفيض لكل هـذا ، حتى موائد الفرنسيين ، وكيف يأكلون ويشربون ويلبسون ، وما شاهده من

---

(١) تاريخ مصر السياسي لمحمد رفعت ج ١ س ٣٩ .

سائر أعمالهم العلمية والكيميائية ، وكتبهم المصورة وأدواتهم . وهو يمثل بدهشته هذه حال كل عربي في أيامه . ولقد ظن كثير ممن شاهدوا التجارب العلمية التي أجراها الفرنسيون في معاملهم سحراً [١] بيد أن كل هذا ذهب بذهابهم سنة ١٨٠١ م .

كانت حملة نابليون هزة عنيفة لمصر ، أيقظتها من سباتها الطويل العميق وبينت لها أنها تعيش في عالم آخر ، وأن الدنيا تسير وأهلها واقفون غارقون في أحلامهم يجترون ماضيهم ، ولا يدركون مساويهم ، ويظنون أنهم الناس وأن غيرهم لا شيء .

وقد نظم نابليون شئون مصر الداخلية تنظيماً حسناً ، يشهد له بالنبوغ الإداري ، فوق نبوغه الحربي ، على الرغم من قصر المدة التي أقامها بمصر ، فأنشأ الدواوين ، في مصر والمدن الكبرى وانتخب لها أكفاء المصريين ، واختار من بين المصريين المسيحيين رجال المالية والإدارة ، بيد أن شراسة رجال الحملة ، واستهتارهم بالشعب المصري ودينه ، وتقاليده ، وانتهاكهم حرمات الأهالي جهاراً ، ونهبهم القرى الآمنة ، وإفزاع أهلها ، وفرض الضرائب على الأوقاف الخيرية التي كان يصرف ريعها على المساجد وطلاب العلم ، وفرضها كذلك على المنازل . جعل كل

---

(١) وصف الجبرتي بعض ما رآه في أحد هذه المعامل بقوله : « ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان أن بعض المتقيدين لذلك أخذ زجاجة من الزجاجات الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة ، فصب منها شيئاً في كأس ثم صب عليها شيئاً من زجاجة أخرى ، فعلا الماء وصعد منه دخان ملون حتى انقطع وجف ما في الكأس وصار حجراً أصفر ، فقلبه على البرجات حجراً يابساً أخذناه بأيدينا ونظرناه ، ثم فعل كذلك بمياه أخرى فجمد حجراً أزرق ، وبأخرى فجمد حجراً ياقوتياً » .

قلوب المصريين تنفر من نابليون وإصلاحاته ، وعلمه ، وتنظر إليه نظرة الغاصب المستبد ، ولقد ثار المصريون في أكتوبر سنة ١٧٩٨ ، فأخمد ثورتهم في قسوة عارمة ، وعنف وغلظة ، وانتهك حرمة المساجد الإسلامية [١] وعبثاً حاول بعد ذلك أن يتألف قلوبهم أو يستميلهم إلى المدنية الغربية . وإن كلفوا بها بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر ، واتخذوا ما وضعه لهم أساساً للإصلاح الداخلي [٢] .

وفي ذلك يقول المؤرخ الإنجليزي إلجود (Elgood) :

« لقد ترك الاحتلال الفرنسي في مصر أثراً لا يمحى ، فقد ظل المصريون يعجبون بنابليون بعد خروجه من ديارهم وظلت طرق الإدارة الفرنسية مهيمنة على حكومة مصر ، وظلت عادات التفكير الفرنسية تسيطر على الطبقة المستنيرة بمصر . وإن ما خلفته الحملة الفرنسية في مصر خلال ثلاثة أعوام لا غير ، لمن أضخم ما يتسنى إنجازه في هذا الأمد الوجيز [٣] » .

ثم أتيحت لمصر الفرصة لكي تنهض وتتبوأ مركزها بين أمم العالم المتمدين باستيلاء محمد علي على عرش مصر ، وحاول أن ينشىء دولة قوية خالصة لنفسه ولذريته من بعده فأفادت مصر من مجهوداته في هذا السبيل وإن حكمها حكماً استبدادياً خالصاً .

كان محمد علي طموحاً ، يريد أن يرى مصر ما بين طرفة عين

---

(1) Professor Shafik Gherbal , Ibid. pp . 73 - 5.

(٢) لمحة عامة إلى مصر لكلوت بك ج ٢ ، ص ٢٥٥ - ٢٦٨ .

(3) The Transit of Egypt, by p. G. Elgood, p. 45 Edward & Co. London 1928 .

وانتباهتها لا تقل في حضارتها وقوتها عن دول أوربا فوضع أسس نهضة شاملة : في الجيش ، والصناعة ، والزراعة ، والتعليم ، والإداره ، حتى يكون البعث عاماً ، يدفع بعضه بعضاً ، ولا يعنينا في مقامنا هذا إلا ما يمس اللغة والأدب .

وقد وجد محمد علي أن خير وسيلة تنهض بالشعب المصري وترفعه الى مستوى الأمم الناهضة الاهتمام بالتعليم ، وقد سلك في سبيل تعليم الشعب كل الطرق الناجحة : فمن بعثات وطباعة ، وفتح مدارس ، ونقل آثار الأمم الغربية في العلوم والآداب ، وتأسيس الصحافة لتنير الحياة أمام الشعب .

البعثـــات :

جاء محمد علي إلى مصر جندياً في الحملة التي اشتركت في إخراج الفرنسيين منها سنة ١٨٠١ م ، ولم تمض عليه أربع سنوات حتى استولى على مصر سنة ١٨٠٥ ؛ بعد أن ثار المصريون بقيادة الزعيم العالم السيد عمر مكرم على واليهم التركي خورشيد لعسفه واستبداده فقرروا عزله ، وكان محمد علي قد تقرب إليهم وأظهر حرصاً على استرضائهم والاستجابة لكل ما يأمرون به ، والخضوع لهم ، فاغتروا بمظهره وخداعه ، وبايعوه بالولاية وعلى رأسهم زعيم مصر الشعبي السيد عمر مكرم ، ولكنه ما لبث أن تنكر لهذا الزعيم الذي وضع بين يديه عرش مصر ، خوفاً من منافسته وتخلصاً من رقابته وحسداً لمكانتـه فنفاه . ورأى كذلك أنه لن يستقيم له الأمر حتى يقضي على المماليك لتمردهم وكثرة

شغبهم فأبادهم[1] ؛ وأنه لابد له من جيش قوي يُقر به الأمنَ ويصون هيبة الحُكم في الداخل ، ويدفع به غارة المغيرين من الخارج ، فانتدب طائفة من أساتذة الفنون العسكرية بأوربا ، وأرسلهم مع مماليكه إلى أطراف الصعيد ليدربوهم هناك

وفي سنة ١٨١٥ أسس مدرسة حربية إعدادية ، واتخذ لها قصر ابن العيني مكاناً ، وكان كل تلامذتها في أول الأمر من غير المصريين إلا أنهم لم ينجحوا فالتفت إلى المصريين ، ونقلها إلى أبي زعبل ، وأكثر بها من الأساتذة الفرنسيين ؛ وتعجلاً للفائدة كان قد سبق وأرسل في سنة ١٨١٣ طائفة من شبان المماليك لدراسة الفنون العسكرية بإيطاليا ، وفي سنة ١٨١٨ أرسل بعثة أخرى إلى إنجلترا لدراسة علم الحيل (الميكانيكا) وغيرها .

ورأى محمد علي أن الجيش في حاجة إلى أطباء يأسون جراحات الجند ، ويقاومون الأوبئة ، ويُعنَون بالمرضى ، وأن الطب لا أثر له ألبتة ، فخاصة المصريين كانوا يعتمدون في هذا على المأثور من نُسخ الأدوية في الكتب القديمة ، وعلى ما تمخضت عنه التجارب ، ومنها الكي والحجامة ، وأما الدهماء فكانوا في عامة شأنهم يعوذون بمدعي الطب من الدجالين والمشعوذين والسحرة ، أو يقنعون من طلب الاستشفاء بزيارة الأضرحة . فأنشأ في سنة ١٨٢٦ مدرسة للطب في جهة أبي زعبل ، وأقام بجوارها مستشفى كبيراً لمعالجة المرضى ، ولتمرين الطلبة ، واستقدم لها أساتذة

---

(١) احتال عليهم ودعاهم إلى وليمة بالقلعة (وكانت مقر الوالي حينذاك) ثم أوقع بهم بعد أن أمنوا له فقضى عليهم وكان ذلك في سنة ١٢٢٦ هـ . ١٨١١ م .

من الغرب ؛ وجعل رياستها إلى الدكتور (كلوت بك الفرنسي) . وكان الطلاب في هذه المدرسة من المصريين وغيرهم ، واختير كثير من أولئك من بين نوابغ طلاب الأزهر ، ثم نقلت هذه المدرسة إلى قصر ابن العيني في سنة ١٨٣٨ .

وقد كان لمدرسة الطب أثر لا ينكر في بعث اللغة العربية والنهوض بها ، واتصالها بالعلم الحديث ؛ لأن فصيح اللغة فوق أنه قد غمُم على الناس ، وعلى المصريين بخاصة من عهد بعيد ، وأن آدابها ومظاهر بلاغتها قد دبّ إليها الضعف والانحلال الى حد كبير ، فإنها قد تخلّفت عن متابعة العلم حِقَباً طويلة ، فلما استوى العلم وأدرك ، إذا هو في واد ، واذا حظ الناس من لغة العرب في واد آخر . وحين فوجئت مصر بهذه العلوم التي حذقها الغرب منذ عدة قرون تشايعها الألفاظ هناك ، وتدارجها الصيغ ، وتطبع لها المصطلحات التي تهيئها الهيئات العلمية المنظمة تبينَ العُسر أشدَّ العسر في تعليم هذه العلوم الحديثة لطلاب يجهلون لغات أهلها ، وخاصة من معلمين لا يعرفون العربية ، ولو عرفوها ما تهيأ لهم أن يدرسوا بها لعجزها عن أداء كثير ، والقليل مما تهيأ لهم أن تؤديه ليس في متناول اليد ، بل إنه يحتاج الى كثرة مراجعة ، وشدة تنقيب ، ويحتاج الى علماء عندهم شغف بالاطلاع ورغبة في البحث ، وجلد على العمل ، لهذا دعت الضرورة أول الأمر أن يقام بين الأساتذة وتلاميذهم جماعة من المترجمين يستمعون الدرس في اللغات الأجنبية ، ثم يؤدونه إلى هؤلاء بالعربية ، وكان هؤلاء المترجمون من المغاربة والسوريين والأرمن وغيرهم .

ولقد عانوْا كثيراً في القيام بهذه المهمة الشاقة ، ولكن كان عملهم هذا أول دعامة في صرح النهضة الحديثة ، فلقد حفزهم ذلك إلى مراجعة معجمات

اللغة ، والكتب الفنية القديمة كمفردات ابن البيطار ، وقانون ابن سينا ، وكليات ابن رشد ، وغيرها من الكتب العربية لاستخراج المصطلحات العلمية أو اصياغة ما يؤدي متطالب العلم الحديث ، إذا عجز القديم عن أدائه ، وإذا كانت قد غلبتهم الألفاظ الأجنبية في كثير من الأحيان ، ففضلهم في عقد الصلة بين الشرق والغرب لا يجحد .

رأى محمد علي أن تشمل نهضته جميع نواحي الحيـــاة . فأكثر من إنشاء المدارس العالية والابتدائية ، وقد بدأ بالمدارس العالية ، وكان على حق فيما فعل ، حتى يجد بجانبه جماعة من المتخصصين في المواد المختلفة يشرفون على مراحل التعليم الأخرى ، ويسيرون بالنهضة سريعاً ، فأسس مدرسة للصيدلة ، وأخرى للهندسة في القلعة ثم نقلت إلى بولاق ، ومدرسة للولادة والتمريض . ورأى أن الحاجة ماسة إلى أساتذة مختصين عالمين بعلوم الغرب وثقافته ، فجلب الأساتذة من فرنسا في كل فن من الفنون ، ولكنه أدرك أن النهضة الحقة لا تتم إلا على يد أبناء البلاد ، فأكثر من البعثات ، وفي سنة ١٨٢٦ أرسل بعثة الى فرنسا عدتها أربعة وأربعون طالباً ، ذكر اسماءهم (المسيو جومار) [١] — وقد عهد إليه محمد عـلي بالإشراف على بعثاته — في المجلـة الأسيوية ، Journal Asaitique [٢] وقد تخصصوا في شتى العلوم والفنون : من حقوق ، وعلوم سياسية ، وهندسة حربية ، وطب ، وزراعة ، وتاريخ طبيعي ، وميكانيكا ، وكيمياء ، وطباعة ، وحفر ، وغير ذلك مما استلزمته النهضة الحديثة ، ومن أشهرهم وأعظمهم أثراً إمام البعثة الشيخ رفاعة الطهطاوي . وسنترجم له فيما بعـد لجليل قدره وعظم أياديه على الترجمة والنهضة الأدبية .

---

(١) كان مهندساً في الجيش الفرنسي بمصر ثم عضواً في المجمع العلمي أيام حملة نابليون .

(٢) عدد أغسطس سنة ١٨٢٨ ص ١٠٩

ثم توالت البعثات ، ومن أشهرها البعثة الطبية الكبرى في سنة ١٨٣٢ وقد اختير طلبتها من نابهي مدرسة الطب المصرية ، ومن نوابغ رجالها محمد علي البقلي . وفي سنة ١٨٤٤ أرسلت بعثة ضمت خمسة من أمراء أسرة محمد علي ، ومنهم الأمير إسماعيل[١] ، ولذا سميت ببعثة الأنجال ، وهي أكبر بعثات محمد علي وآخر بعثاته الكبرى ، وقد اختار تلامذتها سليمان باشا الفرنساوي من نوابغ تلاميذ المدارس المصرية ، ومن أجل هذه البعثة فتح محمد علي مدرسة بباريس . ومن أشهر رجالها علي مبارك باشا ، وحسن أفلاطون باشا ، ومحمد عارف باشا ، ومحمد شريف باشا

وقد أرسل محمد علي إحدى عشرة بعثة آخرها سنة ١٨٤٧ ، وكان شديد العناية بأعضاء البعثات يتقصى أنباءهم ، ويشرف على دراستهم باهتمام ، ويكتب لهم من حين لآخر رسائل يستحثهم فيها على العمل والاجتهاد ، وينبههم الى واجباتهم ، وذلك لشدة حاجته في نهضته الى من يقف بجانبه ، وينفذ مشروعاته الضخمة ، وقد ذكر رفاعة الطهطاوي نموذجاً من الرسائل التي وجهها محمد علي الى طلبة البعثات ، يوبخهم فيها على تقصيرهم ، ويحثهم على الاجتهاد ، ويتعجلهم في قطف ثمار تحصيلهم[٢] .

كان لهذه البعثات كلها أثر بالغ في تقدم مصر ونهضتها ، وإرسال نور العلم دافقاً قوياً في ربوعها ، كما كان لها أعظم الفضل في إحياء اللغة ، وجعلها مسايرة للعلم الحديث ، بما ترجم أعضاؤها من كتب وما أدخلوه من مصطلحات ، وما ألفوه في شتى نواحي العلم .

---

(١) الخديوي إسماعيل فيما بعد .

(٢) راجع الرسالة في تخليص الإبريز في تلخيص باريز لرفاعة بك ص ١٥١ ، وفي تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعي ج ٣ ص ٤٥٥ .

الترجمة :

اقتضت النهضة أن تنقل كنوز الغرب الى اللغة العربية فأسست في سنة ١٨٣٦ مدرسة الإدارة والألسن ، وعهد بالإشراف عليها لرفاعة الطهطاوي . ولما كان تاريخها مرتبطاً به ، ونهضة الترجمة في عصر محمد علي وخلفائه ثمرة جده وكده ، رأينا أن نترجم له ترجمة موجزة فحياته حياة مدرسة الإدارة والألسن ، لأنها وجدت بفضله ، وانتهت بخروجه منها.

⊠ ⊠

رفاعة الطهطاوي

١٨٠١ — ١٨٧٣

هو إمام النهضة العلمية في مصر الحديثة غير مدافع، وهبه الله لمصر كي يزودها بنور العلم. فكان مشعلاً ساطعاً بدّد الجهل وسُدْفته، وأنار الطريق لآلاف العقول والقلوب ووضع اللبنات الأولى القوية في صرح ثقافتنا الحديثة.

أوتي القلب الذكيّ، والعقل الصافي، والنشاط الموفور، والبصيرة النـّفاذة، والعزيمة المبرمة فما أضاع ساعة منذ وضع رجليه على سلم الباخرة التي أقلته الى فرنسا إلا وأمامه الهدف الذي رسمه لنفسه ولوطنه، وظل هذا دأبه الى أن انطفأ مشعل حياته.

هو مصري صميم، من أقصى الصعيد، يتصل نسبه من جهة أبيه بسيدنا الحسين رضي الله عنه وقد أشار الى هذا النسب بقوله:

حسينيٌّ السلالة قـاسمـــيٌّ بطهطا مشري وبها مهادي[1]

ومن جهة أمه بالأنصار الخزرجية ، ولد في طهطا ، وكان أجداده من ذوي اليسار وممن تولوا مناصب القضـــاء بمصر ، ثم أخنى عليهم الدهر ، وحينما ولد كانت أسرته في عسر ، فنشأ نشأة معتادة بين أبوين فقيرين ، وقرأ القرآن ، وتلقى العلوم الدينية ، كما يتلقاها عامة طلبة العلم في عصره ، ودخل الأزهر كما دخله غيره ، وصار من علمائـــه كما صار كثيرون ، ولكن ذكائه وحبه للعلم ، وإقباله على التحصيل لفت إليه نظر الشيخ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر في ذياك الوقت ، وكان الشيخ العطار من أفذاذ عصره في العلم والأدب والفنون الحديثة ، فاقتدى به تلميذه الشيخ رفاعة ، فقرأ كثيراً من كتب الأدب ، ومهر في فنونه وهو بعد في الأزهر ، ثم تولى التدريس سنتين ظهر فيهما استعداده للتعليم والتثقيف إذ أحبه تلاميذه حباً جماً وتعلقوا به وبدروسه ويقول صالح بك مجدي في هذا [2] :

« وكان رحمه الله حسن الإلقاء بحيث ينتفع بتدريسه كل من أخـــذ عنه ، وقد اشتغل في الجامع الأزهر بتـدريس كتب شتى : في الحـديث

---

(١) قاسمي : نسبة الى أحد أجداده أبي القاسم الحسيني وهو من أولياء طهطا المشهورين . راجع في نسبه الخطط التوفيقية لعلي مبارك ج . ١٣ ص ٥١ – ٥٦ .

(٢) في رسالته (حلية الزمن بمناقب خادم الوطن) وهي ترجمة حياة رفاعة بك ، كتبها صالح مجدي أحد تلاميذه .

والمنطق والبيان والبديع والعروض وغير ذلك وكان درسه غاصاً بالجم الغفير من الطلبة وما منهم إلا من استفاد منه ، وبرع في جميع ما أخذوه عنه ، لما علمت من أنه كان حسن الأسلوب سهل التعبير ، مدققاً ، محققاً ، قادراً على الإفصاح بطرق مختلفة بحيث يفهم درسه الصغير والكبير بلا مشقة ولا تعب ، ولا كد ولا نصب ».

ثم عين واعظاً وإماماً لإحدى فرق الجيش في سنة ١٨٢٤ ، فاعتاد حياة جديدة عنوانها النظام والطاعة ، ومحبة الوطن والدفاع عنه ، ومواجهة الأخطار ، وقد كان لذلك أثر كبير في حياته ، فعاش محباً للنظام ، في كل عمل تولاه : في تلقي العلوم ، وفي التأليف والتعريب وفي حسن تنظيم المعاهد التي تولى إدارتها ، شغوفاً بوطنه مخلصاً له طول حياته .

وكان من حسن حظه وحظ مصر أن طلب محمد علي إلى الشيخ العطار أن يختار له من علماء الأزهر إماماً للبعثة الأولى ، يرى فيه اللياقة لتلك الوظيفة [1] . فوقع الاختيار على الشيخ رفاعة .

ولم يكن مطلوباً من إمام البعثة أن يحصّل شيئاً من علوم الفرنسيين ولكن حسبه أن يؤدي مهمته ، من وعظ الطلاب ، وإرشادهم إلى ما فيه خيرهم ، ونصحهم إذا ضلت بهم السبل ، وإمامتهم حين الصلاة ، ولكن الشيخ رفاعة كان ذا نفس طموح ، فما أن أقلعت به وبصحبه الباخرة من مصر حتى ابتدأ يتعلم الفرنسية ، فأتقنها في ثلاث سنوات ، واتصل بكثير من العلماء المستشرقين ، فأجلوه وأكبروه ، ومنهم المستشرق المشهور

---

١) الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٤

(البارون دي ساسي)[١] و (كوسان دي برسفال)[٢] .

واهتم في دراسته بالتاريخ والجغرافية ، والفلسفة والأدب ، فقرأ (فولتير) و (روسو) ، (وراسين) ، (ومونتسكيو) وغيرهم ، وقرأ بعض الكتب في علم المعادن وفنون الحرب والرياضيات . ومالت نفسه وهو بباريس إلى التأليف والتعريب ، فوضع رحلته وسماها : (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) ، وقد كان أستاذه العطار قد أوحى إليه بذلك ، وعرب نحو اثنتي عشرة رسالة في مختلف الفنون والعلوم من هندسة ومعادن وطبيعة وتاريخ وتقويم وميثولوجيا وعلم الصحة والأخلاق . وترجم كذلك في باريس كتابه (قلائد المفاخر في غريب عوائد الأوائل والأواخر) .

وهو أول من كتب من المصريين في المباحث الدستورية ، مع أن هذه المباحث كانت مجهولة في تاريخ مصر القومي ، وذلك أنه درس في أثناء إقامته بباريس نظام الحكم في فرنسا ؛ وعرب في كتابه (تخليص الأبريز) دستور فرنسا في ذلك الحين ، وما تضمنه من نظام المجلسين واختيار أعضائهما ، وحقوق الأمة أفراداً وجماعات ، ولم يكن يكتفي بالتعريب ، بل كان يعلق بما يدل على سعة فهم وصحة حكم ، وميل

---

(١) ولد بباريس سنة ١٧٥٨ وتوفي سنة ١٨٣٨ راجع آثاره وخدماته للأدب العربي في كتاب (المستشرقون) لنجيب العقيقي ص ٣٧ .

(٢) ولد سنة ١٧٥٩ وتوفي سنة ١٨٥٣ راجع (المستشرقون) ص ٢٦ .

فطري للنظم الحرة [1] .

وكان الشيخ رفاعة في باريس موضع إعجاب أساتذته وإكبارهم ، لتمام رجولته ، ونضج عقله ، وحسن تصرفه ، وشدة اقبـاله على الدرس والتحصيل ، والعمل على نفع أمته ، وفيه يقول المستشرق الفرنسي المشهور (سلفستر دي ساسي) : ان الشيخ رفاعة « أحسن صرف زمنه مـدة إقامته بفرنسا ، وأنه اكتسب فيهـا معارف عظيمة ، وتمكن منها كل التمكن ، حتى تأهل لأن يكون نافعاً بلاده ، ... وله عندي مزية عظيمة ومحبة جسيمة [2] » .

وذكر السيد صالح مجدي تلميذه ومؤرخ حياته في كتاب (حليـة الزمن) : « وقال لي » من أثق به ممن كانوا معه بباريس : « انه كان يؤدي الفرائض والسنن ، ولم يأكل مما لم يذكر اسم الله عليه ، وواظب

---

(١) من ذلك تعليقه على موقف الملك شارل العاشر لـمـا قامت الثو ة في باريس قال : (فلما اشتد الأمر وعلم الملك بذلك وهو خارج ، أمر بجعل المدينة محاصرة حكماً ، وجعل قائد العسكر أميراً من أعداء الفرنساوية ، مشهوراً عندهم بالخيانة لمذهب الحرية ، مع ان هذا خلاف الكياسة والسياسة والرياسة ، فقد دلهم هذا على أن الملك ليس جليل الرأي ؛ فإنه لو كان كذلك لأظهر أمارات العفو والسماح ، فإن عفو الملك أبقى للملك ، ولما ولى على عساكره إلا جماعة عقلاء ، أحباباً له وللرعية ، غير مبغوضين ولا أعداء ، مع أن استصلاح العدو احزم من استهلاكه ، ويحسن قول بعضهم :

عليك بالحـلم وبالحيـاء ... والرفق بالمذنب والإغضاء
إن لم تقل عثرة من يقال ... يوشك أن يصيبك الجهال

(٢) تخليص الإبريز ص ١٥٤ .

على تلاوة القرآن [1] » .

كان رفاعة قبل أن يغادر مصر يظن أن العالم كله قد جمع في الأزهر ، وأنه سيحرم الاغتراف من هذا النبع العذب ، وفي ذلك يقول :

الا من يغب عن أزهر العلم فلينح على بعد دار العلم والعلماء

ففيه بحور طاميات ، وغيره بحور عروض لا تجود بماء [2]

ولكن يتبين له بعد أن ذهب الى باريس ، واتصل بثقافة الغرب أن وطنه في حاجة ملحة الى معرفة هذه الثقافة الجديدة ليرقى وينهض ، وأنه لا يكفيه علم الأزهر ، ولذلك جد في الترجمة ، حتى ليخيل للمرء أنه يريد أن ينقل كل شيء الى اللغة العربية وإلى مصر ، ولا بدع فكل شيء أمام ناظريه جديد ، وعلى عقله غريب .

ثم عاد الى مصر سنة ١٨٣١ ، بعد ست سنوات قضاها مكباً على الدرس والتحصيل يطالع ، ويقرأ ، ويكتب ويعرب ؛ ويجالس العلماء ويساجلهم البحث والمناظرة ؛ وينعم النظر في أحوال الشعوب الأوربية وتاريخها ؛ وأسباب حضارتها وتقدمها ؛ واستقر عزمه وهو في باريس على أن يخدم بلاده عن طريق نقل العلوم الغربية الى مواطنيه ؛ فتتسع أفكارهم وتنمو مداركهم مقتفياً في ذلك آثار الدولة العباسية ؛ اذ بدأت نهضة العلوم والمعارف في عهدها بترجمة كتب اليونان الى العربية .

---

(١) حلية الزمن ص ١٠ .
(٢) المصدر السابق ص ١٧ .

ولقد بر بوعده فملأ البلاد علماً وحكمة ، وحمل نواة النهضة وخدمتها بتآليفه وتعاريبه وتلاميذه الذين تخرجوا على يديه في مدرسة الألسن وغيرها .

أعماله بعد عودته :

لما رجع ولي منصب الترجمة ، وتدريس اللغة الفرنسية في مدرسة الطب بأبي زعبل ، ثم انتقل إلى مدرسة المدفعية بطرة ، وعهد إليه ترجمة العلوم الهندسية والفنون الحربية ثم ، وقع وباء في القاهرة اضطره إلى السفر لطهطا بلدته ، فمكث بها ستين يوماً ، ترجم في خلالها مجلداً من جغرافية (ملتبرون) Malt - Bron وعاد به إلى القاهرة ، وقدمه لمحمد علي فأكرمه ورقاه .

عرف الشيخ رفاعة في باريس مدرسة اللغات الشرقية ، التي أسست لدراسة لغات الاستشراق ، وكان يسميها في كتابه مدرسة الألسن ، فوجب أن تؤسس في مصر مدرسة للألسن تواجه مطالبها وتناسب أغراضها . ورأى أن أعضاء البعثات مهما كثر عددهم لن يقوموا بكل ما تتطلبه النهضة من جهود ، فلا بد من إيجاد طبقة من العلماء الأكفاء في لآداب العربية ، واللغات الأجنبية ، ليضطلعوا بمهمة تعريب الكتب ، وليكونوا صلة بين الثقافة الشرقية والثقافة الغربية .

إننا بالبعثة ننقل بعض المصريين إلى أوربا ، وبهذه المدرسة ننقل علم أوربا إلى مصر ؛ فاقترح الشيخ على محمد علي إنشاء مدرسة الألسن ، وكان من مزايا محمد علي أن يسر بالاقتراح الجيد ، وينفذه فوراً وعهد إلى

الشيخ رفاعة بوضع المشروع وتنفيذه ، وبذلك أنشئت مدرسة الألسن ، وكان مكانها (سراي الدفتردار) حيث كان فندق (شبرد القديم) وتقع بجوار قصر الألفي بك الذي أقام به نابليون ثم محمد علي ، واختار لها الشيخ خمسين طالباً من نوابغ طلاب المكاتب المصرية . وفي هذه المدرسة التي تولى الشيخ نظارتها ظهر نبوغه كعالم محقق ، ورئيس قـــدير ، ومعلم كفء ، ومرب ممتاز .

وكانت المدرسة كلية تدرس فيهـــا آداب العربية ، واللغات الأجنبية وخاصة الفرنسية والتركيـة والفارسية ، ثم الإيطالية والإنجليزية ، وعـلوم التاريخ ، والجغرافية ، والشريعة الإسلامية والشرائع الأجنبية ؛ فـكانت أشبه شيء بكلية للآداب والحقوق مجتمعتين . وكان نهج المدرسة في الترجمة عملياً ومفيداً ، فلم يكن دروساً تكتب في دفاتر وتهمل ، بل يمرن الطلبة على الترجمة في كتب نافعة ، فإذا استغلقت عليهم جملة لجئوا إلى شيخهم يذللها لهم ، ثم عرضوا ما ترجموا على استاذ اللغة العربيـــة يصحح لهم لغتهم ، وخاصة الشيخ محمد قطة العدوي ، فقد كان ساعده الأيمن في هذه المدرسة ، لما رزقه من موهبة جليلة في التدريس بلغـــة سهلة ، وبعبارة فصيحة وقدرة فائقة على تصحيح عبارات الطلبـــة فيما يترجمون فإذا أتموا الكتاب أو الكتب روجعت ثم قدمت إلى المطبعة لتطبع ، فتكون أثراً خالداً [١] .

---

(١) يقول أحمد عبيد مترجم كتاب (الروض الأزهر في تاريخ بطرس الأكبر) « كنت تحت إرشاد مدير مدرسة الأندلس السيد رفاعة ، فأجاد تربيتي كغيري حتى حسن حالي ، واجتهادي في نيل المعالي بين أمثالي ، واقتضى رأيه المؤيد ، وحزمه المعضد ، أن أترجم كتاباً من كتب التاريخ فاخترت ملكاً من ملوك الإفرنج تعلو همته على المريخ ، وهو كتاب بطرس الأكبر ، وفضله أشهر من أن يذكر لمؤلفه =

وأحيل على رفاعة بك مع إدارة المدرسة إدارة عدة معاهد : المدرسة التجهيزية ، ومعهد الفقه والشريعة الإسلامية ، ومعهد المحاسبة ، ومدرسة الإدارة الإفرنجية ، والتفتيش على مدارس الأقاليم ، وتحرير الوقائع المصرية ، وبعد سنوات تخرجت الدفعة الأولى في مدرسة الألسن فتلقفتهم مصالح الدولة المختلفة . وابتدءوا يفيضون وأستاذهم على مصر من بحور الغرب وكنوز ثقافته ما كان دعامة لنهضتنا الحالية .

ظل الشيخ سبعة عشر عاماً وهو دائب في عمله لا يمل ولا يكل ، وفي كل آونة يضاف إليه عمل جديد يتقبله بصدر رحب وعزيمة قوية ، وكلما زاد اجتهاده ونتاجه زاده أولو الأمر مكافأة وتقديراً فمنحه محمد علي رتبة (أميرالاي) و ١٣٠٠٠ قرشاً في الشهر ، و ٣٥٠ فداناً في طهطا . ولكن الدنيا لا تدوم على حال ، فما أن مات محمد علي ، وتولى عباس الأول الحكم حتى أغلق المدارس جميعها إلا القليل ، وألغى مدرسة الألسن والشيخ رفاعة معها ، بحجة الاقتصاد في النفقات ، ولأن حاشية السوء لما رأت ميل الوالي إلى محاربة التعليم والعلماء خاضوا في الشيخ رفاعة وطريقته ، ورموه بالعقم . فنفاه عباس الأول الى السودان تحت ستار إنشاء مدرسة ابتدائية هناك وتعيينه ناظراً لها ، ومعه طائفة من أكابر العلماء . ولم تكن الخرطوم كما هي اليوم في نظافتها ومبانيها ، وتوفر وسائل العيش بها ، وإنما كانت مدينة صغيرة تصعب الحياة فيها على من ألف

= الشهير المسمى (فولتير) الذي يعد بين أكابرهم أعظم حجة ، وإن كان عن الأديان بعيد المحجة فجاء التعريب بحمد الله على أحسن حال ، وأتم منوال ، وقد شرعت في نقله من الفرنسية إلى العربية مع إعانته لى في حل مشكلاته ، وما عسر علي من غوامضه ومعضلاته ، وقد صرفت في ترجمته على صعوبته الهمة وسهرت في مطالعته وفهمه الليالي المدلهمة ... الخ » .

حياة باريس والقاهرة ، وعلى كل من يشرف على التعليم كله بمصر ، فإذا هو يشرف على مدرسة ابتدائية صغيرة بالخرطوم . وحز في نفس الشيخ أن يجازى على إحسانه بالإساءة وأن يطعن الجاهلون في صلاح طريقته وقد أينعت وآتت أكلها شهياً لذيذاً ، يزيد في نماء البلاد العقلي ، ونهضتها نحو الكمال ؛ وأخذ يستغيث ويندب حظه ، والموت يتخطف أعوانه كل يوم حتى لم يبق إلا نصفهم . وكان يستغيث أولاً بمن يأنس منهم روح الجد والعمل لخير مصر ، حتى إذا عجز هؤلاء عن إغاثته لجأ الى أولياء الله الصالحين وأنبيائه المطهرين ، ومن قصيدة له أرسلها الى حسن باشا كتخدا مصر [1] :

مهازيل الفضائل خادعوني وهل في حربهم يكبو جوادي

وزخرفُ قولهم اذ موّهوه على تزييفه نادى المنادي

قياسُ مدارسي — قالوا — عقيم بمصرَ فما النتيجة من بعادي

ثم يذكر أشهر مترجماته ومؤلفاته فيقول :

على عدد التواتر معرباتي تفي بفنون سلم أو جهاد

وملطبرون يشهد وهو عدْل ومنتسكو يقر بلا تمادي

ومفترفو قراح فرات درسي قد اقترحوا سقاية كل صادي

---

(١) مباهج الألباب المصرية ص ٢٦٥ — ٢٦٨ .

ولاح لسان باريس كشمس — بقاهرة المعز على عمـــادي

ويزفر زفرة حارة على ما صار اليه أمره ، وعلى بعده عن أولاده وأهله فيقول :

رحلتُ بصفقة المغبون عنهـا — وفضلي في سواهـا في المزاد

وما السودان قط مقام مثلي — ولا سلماي فيه ولا سُعادي

وقـد فارقت أطفالاً صغاراً — بطهطا دون عَوْدي واعتيادي

أفكـر فيهمـو سراً وجهراً — ولا سمري يطيب ولا رقادي

أريد وصالهـم والدهر يأبى — مواصلتي ويطمـع في عنـادي

وهذه القصيدة على وزن وقافية :

لقد أسمعت لو ناديت حيـاً — ولكن لا حيـــاة لمن تنادي

وحين يئس من مثل هذه الاستغاثات ، أخـــذ يخمس قصيدة لسيدي عبد الرحيم البرعي في مدح النبي عليه السلام مطلعها :

خل الغرام لصب دمعه دمـــه — حيرانَ توجده الذكرى وتعدمه

ويقول فيها :

« رفاعة » يشتكي من عصبة سخرت — لما رأت أبحر العرفان قد زخرت

فارفع ظلامة نفس عدلَـك ادخرت — وهاك جوهرَ أبيات بك افتخرت

جاءت إليك بخط الذنب ترقُمه

وظل الشيخ في منفاه أربع سنوات ، وكان رفاعة وهو في السودان يَبَر ما بمقامه ومصيره ، ولكن رأيه في السودان حين هدأت ثائرته ، وعاد الى وطنه ، يـــدل على بصيرة وحكمة وفي ذلك يقول : فمتى زالت من السودان وسائل الوخامة والسقامة ودخلت أهاليها بحسن الإدارة في دائرة الاستقامة ، صارت هي والديار المصرية في العمار كالتوأمين ، وفي إيناع الأثمار صنوين ، حتى ينشد لسان حالهما .

نحن غصنان ضمنا الوجد جميعاً   في الحب ضمّ النطـــاق

في جبين الزمـــان منك ومني   غرة كوكبية الانفلاق » (١)

ولم يعد لمصر الا بعد أن توفي عباس وتولى سعيد أريكـة مصر فعينه وكيلاً للكلية الحربية ، ثم ناظراً لها ، ومديراً لمـدرسة الهندسة ، ومدرسة العمارة ، مع الاحتفاظ برئاسة قلم الترجمة ؛ بيد أن هذه المدارس جميعها ألغيت في سنة ١٨٦٠ ، كما ألغي قلم الترجمة فظل الشيـخ بدون منصب حتى عهد اسماعيل ، حين هبت على العـلم والتعليم نسمة من الحياة فبعثته قوياً فتياً ، وأعيد قلم الترجمـة بنظارة المعارف العمومية وتولى رئاسته من جديد رفاعة بك سنة ١٨٦٣ ، وعين عضواً في مجلس المعارف الأعلى الذي كان يعرف حينذاك بـ (قومسيون المدارس) وكان لهذا المجلس فضل كبير في تنظيم التعليم ، على عهد اسماعيل .

---

(١) مباهج الألباب المصرية ص ٢٦٣ .

رفاعة والقانون :

حينما فكرت الحكومة في إصلاح نظام القضاء على عهد اسماعيل رأت أن تبدأ بترجمة القوانين الفرنسية المعروفة بـ (الكود) وهو قانون نابليون ، وكانت هذه مهمة عسيرة تتطلب إلماماً واسعاً بالقوانين الفرنسية ، وأحكام الشريعة الإسلامية لاختيار المصطلحات الفقهية المطابقة لمثيلاتها في القانون الفرنسي ، وهذا كله يحتاج إلى صبر طويل ومثابرة وهمة .

ولم تجد الحكومة خيراً من رفاعة وتلاميذه ، ليقوم بهذه المهمة الجليلة ، فقام بهذا العمل مع بعض من نجباء خريجي مدرسة الألسن ، وأخرجوه في مجلدين كبيرين .

رفاعة والمرأة :

وهو أول من نادى بتعليم المرأة وتثقيفها ، ووضع كتاباً مشتركاً لتثقيف البنات والبنين على السواء ، وسماه : (المرشد الأمين للبنات والبنين) وهو كتاب في الأخلاق والتربية والآداب ، بل دعا إلى اشتراك المرأة في أعمال الرجال على قدر طاقتها ، ويقول في هذا : « ينبغي صرف الهمة في تعليم البنات والصبيان معاً ... فتتعلم البنات القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك ؛ فإن هذا مما يزيدهن أدباً وعقلاً ويجعلهن بالمعارف أهلاً ويصلحن به لمشاركة الرجال في الكلام والرأي فيعظمن في قلوبهم ويعظم مقامهن ، وليمكّن للمرأة عند اقتضاء الحال أن تتعاطى من الأشغال

والاعمال ما يتعاطاه الرجال على قدر قوتها وطاقتها ، فكل مـــا يطيقه النسـاء من العمل يباشرنه بأنفسهن ، وهـــذا من شأنه أن يشغل النسـاء عن البطالة فإن فراغ أيديهن عن العمل يشغل ألسنتهم بالأباطيل ، وقلوبهن بالأهواء ، وافتعال الأقاويل ، فالفعل يصون المرأة عما لا يليق ، ويقربهـا من الفضيلة ، وإذا كانت البطالة مذمومة في حق الرجال فهي مذمة عظيمة في حق النساء ، وقد طبع كتابه هذا في سنة ١٨٧٣ ، وأسست أول مدرسة لتعليم البنات في مصر سنة ١٨٧٢ ، أسستها إحدى زوجات إسماعيل على أن دعوة رفاعة إلى تعليم المرأة والنهوض بها ترجع إلى ما قبل هذا بكثير ، ولكن لم يستجب لدعوته أحـد ، وكان تعليم المرأة قاصراً على الأساتذة الخصوصيين ، إلى أن وجدت دعوته من يلبيها ويعمل على تنفيذها .

وفاتـــه :

ظل هذا العالم الجليل يدأب ويجد في نشر الثقافة وفتح أبواب العلم والنور للأمـــة المصرية ، حتى توفي سنة ١٢٩٠ هـ ١٨٧٣ وله من العمر ٧٥ سنة .

وقد بقي تلاميذه من بعده ، وطريقته التي استنها وكتبـه التي ألفها وترجمها تهيب بالأمة أن تسير على سنته ، وأن تنقل من آثار الغرب ما يزيل صدأ السنين عن عقول طالت غفلتها .

صفاتـــه :

كان رفاعة عربي الصفات يتمثل فيه الكرم والجرأة والحزم ، وتفرس الأمور ، أخص مزاياه الشمم والإباء ، واعتداده بنفسه وصراحته عند مجابهة أولي الأمر بما ينفع وطنه . وكانت له أفكار تخشاها الأسرة الحاكمـة . وقد صرح بها في مواطن كثيرة من كتبه ، فكان يـدعو الى العدالة الاجتماعية وألا يستبد مالك الأرض بزراعها ، فزارعها هو في حقيقة الأمر أولى الناس للانتفاع بها ، وكان يلمح تلميحات – لا تخفى على ذوي الفطن – الى استبداد أسرة محمد علي وحاشيته ، ويدعو الى الشورى وغير ذلك مما يرتأيه الرجل المصلح العامر القلب بالإيمان والعقل بالأفكار النيرة ، ولعل هذه الصفات تفسر لنا تأخر رفاعة في سلم الترقي الحكومي ونيل الألقاب ، بينما قـد سبقه بعض تلاميذه في هذا المضمار . وكان يمثل أخلاق العلماء ببعده عن مظاهر الخيلاء والغرور ، بل كان زاهداً جواداً ، متواضعاً محباً للخير ، وكان يتقد وطنية وغـيرة على بلاده وله في ذلك كثير من الأشعار الحماسية يشيد فيها بمصر وعظمة جيشها ، ومن هذا قوله يخاطب الجنود :

يا أيهـا الجنـود والقـادة الأسود
إن أمتكم حسود يعود هامي المدمـع
فكم لـكم حروب بنصركم تشـوب
لم تثنكم خطوب ولا اقتحام معمع

وكم شهدتم من وغى   وكم هزمتم من بغى
فمن تعدى وطغى   على حماكم يُصرع

وتتجلى روحه الوطنية في ترجمة نشيد فرنسا القومي (المارسلييز) ؛ لأنه أحبه ، وهاج عاطفته ، وكان يكثر من عبارات الوطنية وخدمة الوطن في مؤلفاته . وفي الوطن يقول :

« الوطن هو عُش الإنسان الذي فيه درج ، ومنه خرج ، ومجمع أسرته ، ومقطع سُرّته ، وهو البلد الذي نشأته تربته ، وغذاه هواؤه ، ورباه نسيمه ، وحُلت عنه التمائم فيه [1] » .

ويقول عن مصر في زهو وإعجاب .

« ولا يشك أحد أن مصر وطن شريف ، إن لم نقل : إنها أشرف الأمكنة ، فهي أرض الشرف والمجد في القديم والحديث ، وكم ورد في فضلها من آيات بينات ، وآثار وحديث ، فما كأنها إلا صورة جنة الخلد ، منقوشة في عرض الأرض ، بيد الحكمة الإلهية التي جمعت محاسن الدنيا فيها ، حتى تكاد أن تكون صورتها في أرجائها ونواحيها . بلدة معشوقة السكنى ، رحبة المثوى .. الخ » [2] .

ويقول عن واجب الفرد نحو وطنه في كتابه « المرشد الأمين » كذلك :

---

(١) المرشد الأمين ص ٩٠ .
(٢) نفس المرجع ص ٣١ .

« فالوطني المخلص في حب الوطن ، يفدي وطنه بجميع منافع نفسه ويخدمه ببذل جميع ما يملك ، ويدفع عنه كل من تعرض له بضرر ، كما يدفع الوالد عن ولده الشر . فينبغي أن تكون نية أبناء الوطن دائماً متوجهة في حق وطنهم إلى الفضيلة والشرف ، ولا يرتكبون شيئاً مما يخل بحقوق أوطانهم ، فيكون ميلهم إلى ما فيه النفع والصلاح ، كما أن الوطن نفسه يحمي ابنه من جميع ما يضر به » [1] .

وتلك لعمري نغمة جديدة لم يألفها الشرق العربي بعامة ، ومصر بخاصة ، لأن الوطن عندهم لم يكن محدود المعالم ، فكل بلاد الإسلام بلادهم يدينون بالولاء للخليفة ، ولم يكن يعنيهم من أمر أوطانهم والفناء في سبيلها شيء .

كانت هذه النغمة ، وذلك الحديث عن الوطن وواجب المواطن أول لبنة في بناء الأدب القومي المصري الحديث ، جعلت أنظار الأدباء فيما بعد يعنون بهذا الوطن ، ويتملون جماله ، ويعبرون عن آلام أهله وأمانيهم ، وإن لم يحدث ذلك سريعاً لانتشار الأمية وقيام معوقات سياسية واجتماعية كثيرة ؛ وحسب رفاعة أنه سبق زمنه ، وتحدث حديثاً عن الوطن تخاله لجدته قد قيل في أيامنا هذه .

وكان بجانب هذا أديباً ، وشاعراً رقيقاً إذا قيس بأهل عصره ، ويدلك على ذلك ما روي من أن السفينة التي أقلته الى أوربا ظلت خمسة أيام بجزيرة صقلية تتزود من الماء والخضر ، ولم يسترع انتباه الشيخ ويأخذ بمجامع قلبه الا دق نواقيس الكنائس . وفي احدى الليالي دعا

---

(١) نفس المرجع ص ٩٣ وما بعدها .

صديقاً من أصدقائه من أعضاء البعثة ممن يعرف فيه الظرف والأدب ، واقترح عليه أن يشتركا في إنشاء مقامة على غرار مقامات البديع أو الحريري ، ويكون موضوعها ثلاثة أشياء : حوار حول : « أن الطبيعة السليمة تميل الى استحسان الذات الجميلة مع العفاف » ، ثم « سكر المحب من عيني محبوبه » . ثم « تأثر النفوس بضرب الناقوس » اذا كان من يضربه ظريفاً . وأخذ ينشىء الشعر في مقاماته حول هـذه المعاني ، فقال في المعنى الأول :

أصبو الى كل ذي جمـال ... ولست من صبوتي أخاف

وليس لي في الهوى ارتياب ... وإنمـا شيمتي العفـاف

وقال في المعنى الثاني :

قد قلت لما بدا والكأس في يده ... وجوهر الخمر فيها شبه خديه

حسبي نزاهة طرفي في محاسنه ... ونشوتي من معاني سحر عينيه

وفي المعنى الثالث :

مذ جاء يضرب بالناقوس قلت له : من علـم الظبي ضربـاً بالنواقيس

وقلت للنفس أي الضرب يؤلمـكِ ضرب النواقيس أم ضرب النوى قيسي

ومما يدل على هذا المزاج الأدبي ترجمته لبعض الشعر الفرنسي .وتأليفه

كتاب « تعريب الأمثال في تأديب الأطفال » ، وترجمته رثاء فولتير الشاعر للويس الرابع عشر ، الذي يقول فيه : « لم يتول قبله ملك من تلك العصابة ، ولا ساواه غيره في تربية الرعية بهذه المثابة ، فالفخار شعاره ، والمجد دثاره ، وكان أحظى الملوك باكتساب الطاعة من رعاياه والانقياد ، كما كان أعظمهم في الهيبة عند الأخدان والأضاد ، وربما كان دونهم في ميل الرعية إليه ، ومحبتهم له بانعطاف القلوب عليه ، فطالما رأيناه تتقلب عليه صروف الزمان وتتلاعب به حوادث الحدثان ، وهو عند النصرة يظهر الفخار ، ويتجلد عند الهزيمة ، ولا يظهر بمظهر الذل والانكسار ، فقد أرهب عنده عشرين أمة عليه تعصبت ، وعلى قتاله تحالفت وتحزبت ، وبالجملة فهو أعظم الملوك في حياته ، كما كان عظيم العبرة عند مماته [1] » .

وترجمة رفاعة لتليماك تدل على اتجاهه الحديث في الأدب فتليماك رواية فرنسية اسمها : les Aventure de Télémaque كتبها قسيس فرنسي يدعى فنلون Fénélon وقد سمى رفاعة الرواية « مواقع الأفلاك في وقائع تليماك » ولعل الأدب العربي الحديث لم يعرف رواية فرنسية ترجمت قبل تليماك . ولقد أراد رفاعة أن يوجه أذهان الناشئة الى أهمية القصة في الأدب ، وأنها لون من ألوانه لم يعبأ به العرب من قبل ، وأنهـــا ستكون جليلة الشأن في التربية .

ويقول رفاعة عن كتابه تليماك الذي ترجمه وهو في السودان : « إن تعريب تليماك ، بكل من في حماك . أو ليس إنـــه مشتمل على الحكايات النفائس ، وفي ممالك أوربا وغيرها عليه مدار التعليم في المكاتب والمدارس ، فإنه دون كل كتاب ، مشحون بأركان الآداب ، ومشتمل على ما به كسب

---

(١) مباهج الألباب المصرية ص ٢٢٠ .

أخلاق النفوس الملكية ، وتدبير السياسات الملكية »[1] .

ومن هذه الأمثلة وغيرها مما مر بك ترى أن رفاعة قد حمل لواء النهضة الجديدة في الأدب ، وأنه جدد في أغراضه ، كما جدد في أسلوبه وإن لم يتخلص جملة من كل تلك القيود القديمة ، والزخارف اللفظية . ورفاعة لم يكن ذلك الشاعر الفحل ، ولكنه كان أديباً سلمت له بعض الأبيات التي تدل على ذوق سليم ، وتدل على أنها تباشير الشعر الجديد .

ولم يكن رفاعة يفتخر بالشعر ، ويعده من بضاعته الجيدة .

وما نظم القريض برأس مالي ولا سندي أراه ولا سِنادي[1]

وإن برع في نظم الأناشيد الوطنية من مثل قوله :

يا حزبنا قم بنا نسودُ فنحن في حربنا أسود
عند اللقا بأسنا شديد هامُ عِدانا لنا حصيد
حامي حمى مصرنا سعيد في عصره مجدنا يعود
بجنده المجنَّدِ وسيفه المهنَّد
ونصره المؤيد وعزه المشيَّد
في عصره مجدنا يعود

(١) مواقع الافلاك ص ٢٤ .
(٢) مباهج الألباب ص ٢٦٩ .

- ٣ -

الطباعة والصحافة :

الكتب غذاء العقول ، وإذا لم يتيسر للعقل غذاؤه أجدب ، والأمة التي تجدب عقولها لا تعرف كيف تحيا حياة الأناسيّ ، وتكون أمة من سائمة .

ولا ريب أن الكتب تُيَسَّر ويسهل على الناس اقتناؤها والانتفاع بها ، والاستنارة بمصابيحها ، إذا كثرت وانتشرت ، وساعد أولو الأمر على إذاعة الثقافة . وقد كان القائمون على شئون مصر في مبدأ نهضتها من اولئك الذين ألهموا حب الخير ، ورزقوا العقل المفكر ، والنظر الثاقب ، فعملوا على نشر الطباعة في مصر .

ليست مطبعة بولاق أول مطبعة عربية في العالم ، ولكن أول مطبعة عربية ظهرت كانت في (فانوا) بإيطاليا ؛ حيث أمر بها البابا (يوليوس الثاني) وأخذت تعمل في سنة ١٥١٤ في عهد البابا (ليون العاشر) . وأول كتاب عربي طبع في هذه السنة هو كتاب ديني — كما هو المنتظر — ثم سفر الزبور سنة ١٥١٦ ، وبعد قليل طبع القرآن في البندقية ولكن الطبعة أحرقت خشية أن يؤثر على عقائد المسيحيين ، وطبع كتاب

القانون لابن سينا في روما سنة ١٥٩٣ في مجلد ضخم . وتعددت المطابع العربيــة في أوربا ، وطبعت فيهـــا مئات من الكتب العربيـــة وغيرها [١] .

أما الطباعة العربية في الشرق ، فأسبق الأمم إليها الدولة العثمانية ، وقد مر بك كيف اضطر من أراد إدخال المطبعة الأولى لأخذ فتوى من علماء الدين ، وأول كتاب طبع بالعربية في الآستانة كان سنة ١٧٢٨ .

كانت للسوريين محاولات سابقة لهذا التاريخ ، إذ طبع الأنجيل في حلب بالعربية سنة ١٧٠٦ ، وأقدم مطبعة عربيـــة في الشام هي مطبعة (مار يوحنا) الصايغ في (الشوير) للروم الملكانيين ، أنشئت سنة ١١٤٥ هـ ، ١٧٣٢ م . ثم مطبعة القديس (جارجيوس) للروم الأرثوذكس في بيروت سنة ١١٦٧ هـ ، ١٧٥٣ م . ولكن مطبوعات هاتين المطبعتين لم تتعد بعض كتب الدين ، ولم يكن لهما أثر يذكر في نشر الثقافة العربيـــة ، ولا في النهضة الحديثة .

وأهم مطبعة انبعث منها النور متدفقــاً فياضاً يبــدد الظلام الحالك المطبق على عقول الأمة العربية ، هي تلك المطبعة الضخمة التي أسست في بولاق سنة ١٨٢٢ ، وهي إلى اليوم تعد أكبر مطبعة عربية في العالم .

نعم ! إن مصر قد عرفت الطباعة المصرية قبل محمد علي ، لأن نابليون كان قد أحضر معه مطبعة عربية ، وحاول أن يصدر بها تلك

---

(١) راجع جرجي زيدان في كتاب آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٤٤ .

النشرة المعروفة (بالتنبيه) التي لم تصدر فعلا[1] ، وإنما الذي صدر هو (سلسلة التاريخ) وكان يحررها السيد اسماعيل الخشاب ، وكانت سجلاً لمحاضر جلسات الديوان والحوادث الهامة ، بيد أن أثر مطبعة نابليون زال بخروج الحملة الفرنسية من مصر ، واشترى محمد علي مطبعتهم ، فكانت نواة مطبعة بولاق الشهيرة . أما مطابع تركيا فكانت أسبق الى نشر الكتب الأدبية والعلمية من سواها ، فطبع هناك القاموس المحيط سنة ١٨١٤ ، وطبعت كافية ابن الحاجب سنة ١٨١٩ ، وجملة ما نشر من الكتب الأدبية واللغوية لا يزيد على أربعين كتاباً حتى سنة ١٨٣٠ [2] .

لم يكن اتجاه محمد علي أدبياً ، ولكن معظم اهتمامه كان بالعلوم والجيش والإدارة ، ولذلك كان نتاج مطبعة بولاق في أوائل أمرها علمياً بحتاً ، ومن أوائل الكتب التي طبعت بها قاموس طلياني عربي ، وكتاب الآجرومية في النحو ، ورسالة الفنون الحربية مترجمة إلى التركية ، وكتاب صباغة الحرير من الإيطالية ثم سيرة الإسكندر الأكبر .

وفي الحق لم تخرج مطبعة بولاق شيئاً ذا قيمة من الكتب الأدبية القديمة الا في عهد إسماعيل حينما أخذت النهضة الأدبية تشتد وتقوى ، على أن مطبوعات استامبول كانت في نمو واطراد ، ولا يزال لطباعتها في آذاننا رنة حتى اليوم .

ومن أشهر المطابع التي كان لها أثر ملموس في النهضة الأدبية بالشرق العربي المطبعة الأمريكية ببيروت سنة ١٨٣٤ . ومطبعة الآباء اليسوعيين

---

(١) راجع عبد الرحمن الرافعي في تاريخ الحركة القومية الجزء الأول ص ١٤٥ والجزء الثاني ص ٢٢٣ ، ٢٢٨ ، ج ٣ ص ٥٣٨ .

(٢) راجع مجلة الشرق ٣ (١٩٠٠ م) .

ببيروت كذلك سنة ١٨٤٨ . وتعد الأخيرة أكبر المطابع في سوريا ، وأعظمها إتقاناً ، وفيها حروف عربية ، وإفرنجية ، ويونانية ، وسريانية ، وعبرية ، وأرمنية .

الصحافة :

الصحافة من أسس النهضة الأدبية الحديثة ، وعامل من أهم العوامل في مقاومة اللغة العامية ، وانتشار اللغة الفصحى ، ومجال واسع لنشر الأبحاث الأدبية ، والعلمية ، والسياسية ، والتاريخية ، والاجتماعية ، ولقد تدرجت في نموها من عصر محمد علي حتى اليوم .

أنشأ الفرنسيون إبان مقامهم في عهد نابليون صحيفتين فرنسيتين . العشار المصري « La Décade Egyptinne »وهي جريدة علمية اقتصادية تنشر فيها أبحاث المجمع العلمي ومناقشات أعضائه وتصدر كل عشرة أيام . وبريد مصر« Le courrier de L' Egypte »وهي الصحيفة الفرنسية الرسمية للحملة الفرنسية ، وتصدر كل أربعة أيام . وقد ذهبتا بانقضاء الحملة الفرنسية ، كما أنهم نشروا سلسلة تاريخية حررها السيد إسماعيل الخشاب .

وقد أشرنا إليها سابقاً . وقد ذهبت كذلك بانقضاء حملتهم .

كانت هذه محاولات بدائية في الصحافة ، فلما جاء محمد علي أصدر أول صحيفة عربية سنة ١٨٢٢ ، حين أصدر (جرنال الخديو) . وكان يطبع في مطبعة القلعة بالقاهرة ، ويصدر كل مرة في مائة نسخة باللغتين العربية والتركية ، متضمناً الأخبار الحكومية وبعض القصص من ألف ليلة

وليلة ، وكان يرسل إلى رجال الدولة الذين يهم الحاكم أن يقفوا منه على أحوال البلاد ، وظلت تصدر لمحمد علي وحده بعد أن ظهرت الوقائع المصرية . وكان الغرض من تزويده ببعض القصص جذب القراء إليه . ثم أنشأ في سنة ١٨٢٨ جريدة الوقائع المصرية ، وكانت تصدر أول أمرها بالتركية والعربية معاً ، وأخيراً اقتصرت على العربية ، ولا تزال تصدر حتى اليوم . ولم يكن صدورها في عهد محمد علي منتظماً ، وكان يشرف على تحريرها الشيخ العطار شيخ الأزهر ، وكان صديقاً للشيخ اسماعيل الخشاب محرر (سلسلة التاريخ) . وتكاد الوقائع تكون مقصورة على الأخبار الرسمية . وكان محمد علي شديد الاهتمام بالوقائع ، يود أن يراها في قوة تحريرها وحسن إخراجها ، وغزارة مادتها مثل تلك الجرائد التي كانت تأتيه من أوربا ، وتقرأ له ، وقد أرسل ذات مرة يعنف المسئولين عن تحريرها ، لأنهم نشروا خبراً تافهاً لا يليق بمقام الجريدة الرسمية للدولة ، وجاء في كتابه : « لقد أخذنا العجب في درج مثل هذه الحوادث القبيحة ، فإذا علمتم ذلك فعليكم من الآن فصاعداً أن تدرجوا الحوادث اللائقة بالنشر ، وتتجنبوا نشر ما لا يليق نشره ، وأن تلاحظوا ذلك بكل تدقيق واهتمام ، لأنه من مقتضى ذمة خدمتكم ، ومطلوبي أن تكونوا بعدئذ على انتباه وبصيرة »[١] .

وقد حرص محمد علي على أن يرى مسودات الجريدة ، ويبدي فيها رأيه قبل أن تنشر [٢] وبذا كان محمد علي أول صحفي بمصر ، وكانت مهمته أشبه بمهمة رئيس التحرير في الجرائد اليومية اليوم ، فكان يشير بالمقالات ،

---

(١) محفوظات عابدين وثيقة رقم ٥١ في ١٤ من جمادى الآخرة ١٢٤٨ ﻫ دفتر ٨٤ معية سنية .

(٢) راجع محفوظات عابدين وثيقة رقم ٧٩٩ في ١٩ من جمادى الآخرة ١٢٥١ ﻫ دفتر ٦٦ معية تركي .

ويحذف مالايراه لائقاً بكرامة الصحيفة ولا يبخل عليها بمال أو رجال ؛ ويأمر أن يلي أمر طبعها عمال مهرة لا تشوب كفايتهم شائبة .

وقد تعاقب على تحريرها منذ ذلك الوقت نخبـــة من كبار الأدباء منهم : مختار بك مدير المدارس في عهد محمد علي ، وبغوص بك موضع ثقته في المسائل العليا ، وأحمد فارس الشدياق والسيد شهاب الدين صاحب السفينة ، والشيخ رفاعة الطهطاوي ، والشيخ محمد عبده والشيخ أحمـد عبد الرحيم ، والشيخ عبد الكريم سلمان . وغيرهم .

وقد تعطلت الوقائع بعد محمد علي ما بين ١٨٤٩ - ١٨٦٣ ، ولم تصدر جريدة غيرها وذلك راجع إلى عزوف عباس وسعيد عن النهضة ووسائلها . ولكنها استأنفت حياتها في عهد اسماعيل .

تعقيب :

كانت نهضة محمد علي كما رأينا من كل مـــا تقدم علمية حربية ، ولم يلتفت للأدب أدنى التفاتة ، وذلك لأنه لم يكن بحاجة للأدب كحاجته لجيش قوي يدعم به عرشه ، ويؤسس دولته ، ويدافع به عن نفسه . وكان كل شيء في مصر . وكل البعثات من طبية وهندسية وصناعية وغيرهـــا تهدف الى خدمة الجيش ، ورجال الجيش . ومع ذلك فقد كانت هـــذه النهضة الحربية أساساً للنهضة العلمية الأدبية التي ظهرت في عهد اسماعيل ؛ فالمدارس التي فتحت في عهد محمد علي ، والكتب التي ترجمت ، والبعثات التي تزودت من عـلوم أوربا ، واطلعت على حضارتها ، أسهمت كلها في النهضة التالية ، وساعدت على نجاحها ، فلم يكن كبار المفكرين في عهد

اسماعيل إلا شباناً في عهد محمد علي ، ولقد أفادوا مصر فيما بعد أكبر فائدة ، وفي طليعتهم رفاعة الطهطاوي ، ومحمد علي البقلي ، وإسماعيل الفلكي ، ومحمود الفلكي ، وعلي مبارك .

وتعلم هؤلاء في عصر محمد علي وقادوا الحركة الفكرية في عهد إسماعيل . ففضل هذا العصر على النهضة الأدبية من هذه الناحية أجل من أن ينكر ، على الرغم من أن اللغة الرسمية للدولة كانت التركية ، ولكن اللغة العربية أخذت منذ ذلك الحين تنمو وتشتد حتى استطاعت بعد زمن وجيز أن تقضي على التركية في الديوان ، ثم تصير لغة الأدب الحي الذي ينبض بالقوة ويعبر عن الحضارة الحديثة لكثرة ما ترجم إليها من آثار الغرب ، وكثرة ما أحيي من تراث العرب . والفضل في ذلك لهذه الأسس التي بنيت عليها نهضتنا الحديثة .

وعلى الرغم من مظاهر النهضة المختلفة ، فإن محمد علي لم يكن يقصد نفع مصر والمصريين ، وإنما كان يريد استغلالهم على أسوأ طريق . فحكمهم بالقهر ، وأطاح بالرءوس الكبيرة في البلاد ، وجمع كل عقود التمليك ، ووزع الأرض الزراعية توزيعاً جديداً ، كان لأقاربه وأنصاره من غير المصريين . منها النصيب الأكبر ، ومن هنا جاء الإقطاع الحديث بشروره وآثامه .

كما أنه جعل مصر مزرعة كبرى يجني وحده خيراتها ، وينفق من تلك الخيرات على الجيش الذي يعده لتمكين ملكه وتثبيت عرشه ، وتوسيع نفوذه .

وقد أخذ ما كان للمساجد من أموال ، وأخذ من أوقاف الأزهر ما لو

بقي له اليوم لكان ذا شأن كبير في إصلاحه والنهوض به .

ولقد أساء محمد علي إلى المصريين وأذلهم ، وصار يجبي منهم الأموال بالعسف ، ويسوقهم سوق الأنعام للجندية التي يحـــارب بها السلطان أو الوهابيين في نجد ، وفضل عليهم الأجانب الذين جلبهم لمعاونته في تدبير شئون البلاد ، وأوسع لهم في المجاملة ، وزاد لهم في الامتياز متعدياً حدود المعاهدات المنعقدة بينهم وبين الدولة العثمانية ، حتى صار كل صعلوك منهم لم يكن يملك قوت يومه ، ملكاً أو كالملك في بلادنا ، يفعل ما يشاء ، ولا يسأل عما يفعل « فصغرت نفوس الأهالي بين أيدي الأجانب بقوة الحاكم ، وتمتع الأجنبي بحقوق الوطني التي حرمها ، وانقلب الوطني غريباً في داره غير مطمئن في قراره ، فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذلان : ذل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة ، وذل سامهم الأجنبي إياه ليصل إلى ما يريده منهم غير واقف عند أو مردود إلى شريعة [1] » .

---

(١) مذكرات محمد عبده ص ٤٩ - ٥٤ .

- ٤ -

الأدب في عهد محمد علي :

لا نستطيع أن نقول إن الأدباء الذين ظهروا في عهد محمد علي هم أثر النهضة العلمية في عصره ، ولكنهم ولا شك أفادوا منها ، مع أنهم من آثار العصر السابق . اطلعوا في عصر محمد علي على أشياء كثيرة لم يروها من قبل وأحاطت بهم نهضة شاملة ، ومع ذلك فقد كانوا مكبلين بقيود الألفاظ والزخارف في كتابتهم وشعرهم الا القليل . ومن هؤلاء :

١ - الشيخ حسن العطار [١] :

من أسرة مغربية نزحت إلى القاهرة فولد بها سنة ١١٨٠ هـ ١٨٦٦ م ، وكان أبوه عطاراً ، فتبع أباه في تجارته أول الأمر ، ولكن الله قد أودع قلبه حب الأدب والعلم ، فلم يضن عليه والده بالمساعدة على تحصيلها ، وجد الولد ، وحصل منهما الشيء الكثير ، ووعى ما حصل ، وتتلمذ على

---

(١) راجع ترجمته في الخطط التوفيقية ج ٤ ص ٤٨ ، وتاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٢٢٢ وكنز الجوهر في تاريخ الأزهر لسلمان رصد الزباتي ص ١٣٨ ، وعصر محمد علي للرافعي ص ٤٧٢ .

أكابر علماء عصره كالشيخ الأمير والشيخ الصبان .

وفي أيامه دخل الفرنسيون . فاتصل بهم فأفاد منهم بعض الفنون الشائعة ببلادهم ؛ وعلّم بعضهم اللغة العربية ، ثم ارتحل إلى الشام ،وسكن دمشق زمناً . وتجول في بلاد كثيرة يفيد ويستفيد ، ثم آب الى مصر ، فأقر له علماؤها بالفضل ، وعهد إليــه بتحرير الوقائع المصرية ، ثم تولى التدريس بالأزهر ، ثم صار شيخاً له بعد الشيخ العروسي سنة ١٢٤٦ هـ . فأحسن إدارته . وظل في منصبه إلى أن توفي سنة ١٢٥٠ هـ ١٨٣٥ م وكان محمد علي يجله ويكرمه لما امتاز به من التفوق في العلوم المصرية ، والأدب وفنونه . ويقول عنه تلميذه رفاعة الطهطاوي في كتابه مباهج الألباب المصرية : « كان له مشاركة في كثير من هــذه العلوم حتى في العلوم الجغرافية ، فقد وجدت بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لإسماعيل أبي الفداء سلطان حماة ... وله هوامش أيضاً وجدتها بأكثر التواريخ على طبقات الأطباء وغيرها ، وكان يطلع دائماً على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها ، وكان له ولوع شديد بسائر المعارف البشرية »[١]. وقد خلف عدة مؤلفات في النحو والبيان والمنطق والطب . وله في البلاغة حاشية على السمرقندية . ولــه كتاب في الإنشاء والمراسلات طبع مراراً بمصر . وجمع ديوان ابن سهل الإسرائيلي وبوبه وكان على إلمام بعلم الفلك . وله رسالة في كيفية العمل بالأسطرلاب ، وكان يحسن عمل المزاول الليلية والنهارية وقد اشتهر بالأدب والشعر .

وكان صديقاً للسيد إسماعيل الخشاب ، واستمرت صحبتهما بعد عودة الشيخ العطار من الشام — حتى كانا يبيتان معــاً — الى أن مات الخشاب .

(١) مباهج الألباب المصرية ص ٣٧٥ .

وللعطار ديوان شعر ، وروى له الجبرتي كثيراً ، وكان على صلة بكثير من أدباء عصره ، ومنهم المعلم بطرس كرامة اللبناني وقد قال فيه كرامة لما لقيه بمصر :

قد كنت أسمع عنك كل نادرة   حتى رأيتُك يا سؤلي ويا أربي

والله ما سمعتْ أذني بما نظرتْ   لديك عيناي من فضل ومن أدب

ومن نثر الشيخ العطار :

« أما بعد فإن أحسن وشي رقمته الأقلام ، وأبهى زهر تفتحت عنه الأكام ، عاطر سلام يفوح بعبير المحبة نفحه ، ويشرق في سماء الطروس صبحه .

سلام كزهر الروض أو نفحةِ الصّبا   أو الراح تُجلى في يد الرشأ الألمي

سلام عاطر الأردان . تحمله الصبا سارية على الرّند والبان . الى مقام حضرة المخلص الوداد . الذي هو عندي بمنزلة العين والفؤاد . صاحب الأخلاق الحميدة ، حلية الزمان الذي حلى معصمه وجيده ... إلخ » .

ومن شعره قوله يتغزل :

ألزمت نفسي الصبرَ فيك تأسيا   والصبرُ أصعبُ ما يقاد نجيبه

وبليت منك بكل لاح لو تبدّى نحو طود أثقلته كروبه

أفلا رثيت لعاشق لعبت به   أيدي المنون ونازعته خطوبه

انت النعيمُ له ، ومن عجب تـُعذبـــه وتمرضه ، وأنت طبيبه

وهو شعر إذا قيس بعصره دل على روح اديب ، وذوق شاعر ، كما ان النثر ، وإن كان مسجوعاً ، إلا انه غير مثقل بالحلى اللفظية ، مما يدل على بعض التطور في كل من النثر والشعر . نعـم إن في النثر تـكلفاً وتعمداً للسجع فإذا كان السلام عاطر الأردان ، فلا بد ان تحمله الصبا سارية على الرند والبان ، إلى غير ذلك مما يذكرنا بسجع القاضي الفاضل وتذليل المعاني للألفاظ ، وخفاء شعور الكاتب والشاعر تحت هذه الزخارف الكثيرة على ان الشيـخ العطار مع هذا من أحسن كتاب عصره وشعرائه ديباجـة ، وأقلهم تـكلفاً .

٢ – الشيـخ حسن قويدر :

تلميذ العطار ، ولد بمصر ، ١٢٠٤ هـ – ١٧٨٩ م ، وهو مغربي الأصـــل كأستاذه ، ونزح أهله الى بلدة الخليل بالشام ، وجاء والده الى القاهرة وأقام بها ، فولد فيها المترجم ، ونال شهرة عظيمـــة في العلوم ، وكان مع ذلك يشتغل بالتجارة ، وصارت له مع اهل الشام صلات تجارية ، ومن تآليفه شرحـــه المطول على منظومة الشيـخ العطار في النحو ، وكان قـد قرظها مـن قبل بقوله :

منظومة الفاضل العطار قد عبقت   منها القلوبُ بريا نكهة عَطره

لو لم تكن روضة في النحو يانعة   لما جنى الفكرُ منها هذه الثمره

وله كتاب إنشاء ومراسلات ، وكتاب نيل الأرب في مثلثات العرب ، وهو

مزدوجات ضمنها الألفاظ المثلثة الحركات ، المختلفات المعاني كمثلثات قطرب ، وقد طبع بمصر ، ونقله الى الإيطالية المستشرق (إريك فيتّو) قنصل إيطاليا ببيروت وهو أرجوزة طويلة مطلعها :

يقول من أساء واسمه حسن　　لكن له ظن بمولاه حسن

فكم لمولاه عليه من منن　　بالعَدّ لا تدخل تحت الحصر

ويقول في المنظومة :

جمعت فيها الكلمات اللاتي　　تكون في الشكل مثلثات

أبدأ بالمفتوح ثم آتي　　بالضم لكن بعد ذكر الكسر

وهناك مثلاً من مثلثاته :

أجَمَة' الحلفا هي الأباء　　والامتناع من كذا إباء

والغثيان يا أخي أُباء　　وهو كراهة الطعام فادر

وهي ألفان ومائتان وعشرة أبيات ، ومن مطبوعة جمعية المعارف .

وكان مشهوراً بالتأريخ الشعري ،وقد أرخ وفاته وهو مريض سنة ١٢٦٢ هـ بقوله : « رحمة الله على حسن قويدر » ومما يروى من شعره قوله :

يا طالب النصح خذ مني محبّرة　　تُلقى إليها على الرغم المقاليد

عروسة من بنات الفكر قد كُسيت　　ملاحة ، ولها في الخد توريد

كأنها وهي بالأمثـال ناطقـة طير له في حميم القلب تغريـد
واحذر من الناس لا تركن الى أحد فالخل في مثل هذا العصر مفقود
بواطنُ الناس في ذا الدهر قد فسدت فالشر طبـع لهم والخيرُ تقليد

وله قصيدة تسمى المزدوجة جاء منها ، وهي طويلة :

رأيت بدراً فوق غُصْن مائس يخطر في خضر من المـلابس
وبسحر العقـل بطرف ناعس وهو بشوش الوجه غير عابس
كأن ماء الحسن منه يجري
خاطرتُ لما ان رأيته خطر وحار فكري في بها ذاك الحوَر
وقلت لا والله ما هـذا بشر ومن بشمس قـاسه او القمر
فليس عندي بالقياس يدري
فلفظه العذبُ لقلبي قوتُ كأنه الدر او الياقوت
وسحرُه الى النهى مثبوت يعجز عن امثاله هاروتُ
وهو الحلال من صنوف السحر
عقرب مسك فوق خده التوى وجمرةُ الخد بها القلب اكتوى
جمال هذا الظبي قد هدّ القوى وليس لي غير الوصال من دوا

فاسمح به يا بدر واكسب أجري

وهو شعر كما ترى ، قريب المعاني جداً ، ليس فيه من الخيال شيء ، وهو وإن خلا من المحسنات البديعة إلا أنه غير متين النسج ، بل هو قريب من الكلام المعتاد ، وكل تشبيهاته قديمة .

وقد رثاه محمود صفوت الساعاتي بقصيدة مطلعها :

بكت عيون العلا وانحطت الرتَبُ ومزقت شملها من حزنها الكتب

٣ ـ السيد علي الدرويش :

توفي سنة ١٢٧٠ هـ — ١٨٥٣ م .

وهو السيد علي الدرويش بن إبراهيم المصري ، ولد بالقاهرة سنة ١٢١١هـ ، ونشأ بها وأُغرم بالأدب ، وحفظ كثيراً من الشعر ، وأصاب شهرة كبيرة في زمانه ، وله عدد وفير من المقطوعات الغنائية ، واتصل بأمراء أسرة محمد علي ، وعرف بشاعر عباس الأول . ولم يكن يتكسب بالشعر ، لأن الله رزقه حظاً من الثروة ، فاكتفى بما لديه .

وله من المؤلفات الدّرج والدرَك ، وضعه في مدح من اشتهر في أيامه بحميد المزايا وكريم الصفات ، وكتاب « محاسن الميل لصور الخيل » وضعه بأمر عباس الأول ذكر فيه محاسن الخيل ومساوئها ، وسفينة الأدب .

وشعره يمثل لنا عصره من حيث الولوع بالمحسنات البديعة ، يحشرها حشراً ، ويتكلفها تكلفاً ، ومعانيه وأخيلته لا تدل على شاعرية ممتازة إذا

قيست بشعر عصرنا ، ولكنه بالنسبة لعصره كان طليعة الشعراء . وقد اشتهر بالتواريخ الشعرية ، وله ديوان طبعه تلميذه مصطفى سلامة النجاري في ٤٨٢ صفحة ، وقد جمع كل ما قاله السيد علي الدرويش من شعر ونثر .

ومن نثره قوله في مقامة الفضيلة والرذيلة :

« وفقك الله لما يرضاه ، وعصمك في موجب الذم ، ومن لا يتحاشاه ، إن الفضيلة والرذيلة صفتان متضادتان ، ونوع الإنسان مجبول على الميل للأولى ، والفرار من الأخرى على حسب آراء العباد ، وعوائد البلاد . فربما كانت الفضيلة عند قوم رذيلة عند آخرين ، وكانت الرذيلة عند أمم فضيلة عند غيرهم من المتأخرين ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين ، مع تفاوت في طبائعهم ، وأشكالهم وصنائعهم ، فمنهم ذوو الطبع السليم ، ومنهم الذميم ، ولا سبيل إلى ترغيب الأول ليجتهد في الازدياد ، وترهيب الثاني لينطبع على أن يتحاشى بالاعتياد ، لا باللسان ، الآتي بسحر البيان ، فقد جاء في الحديث : « إن إيمان المرء ليربو إذا مُدح » وربما يصح الجسم إذا جُرح ، فمن ذلك كان المدح على المحاسن تذكيراً ، والذم على القبائح تنفيراً ، وكلاهما مطلوب شرعاً ، ومرغوب فرعاً ، ليسقط العاقل ، ويقبل الكمال الكامل » .

ومن شعره قطعة قالها في منفلوط (وهي من قرى الصعيد) :

سعيد من نأى عنه الصعيد   صعود ما لطالعه سعود
وردنا منفلوط فلا سقاها   وردناها فأظمأنا الورود
فمالي قد بُعثت لقوم عاد   كأني صالح وهم ثمود

أراهم ينظرون إليّ شَزْراً كعيسى حين تنظره اليهود
فمالي منهم خِل ودُود ولي من طبعهم خَل ودُود

ويقول في الهرمين :

انظر إلى الهرمين واعلم أنني فيما أراه منهما مبهوت
رسخا على صدر الزمان وقلبه لم ينهضا حتى الزمان يموتُ

ومن شعره يصف الجراد الذي اجتاح مصر سنة ١٢٥٩ هـ :

فترى الجراد على الجريـ ـد مكللاً مثلَ الثمر
رقْش تراها إنها نار تلظى بالشجر
لواحة للأرض لا تُبقي النبات ولا تذر
وصغيرة في حجمها لكنها إحدى الكبر
الأرضُ كانت جنة فالآن ترمي بالشرر
نزلَ الجراد بها كما نزل القضاء أو القدر

٤ ـ المعلم بطرس كرامة :

وهو من شعراء سوريا في عهد محمد علي ،ولد في حمص سنة ١١٨٨ هـ ١٧٧٤ م ، وجاء لبنان واتصل بالأمير بشير الشهابي ، وتوفي سنة ١٢٦٨ هـ ١٨٥١ م ، ومن شعره يصف ينبوع الصفا ، وقد مُدّ (بيت الدين) مقر الأمير بشير بماء هذا الينبوع :

صاحِ قد وافى الصّفا يروي الظما   بشراب كوثري ألعس (كذا)
وأفاض الشهد في روض الحمى   لجلا الغمّ وبُرء الأنفس

•

حبذا الفوّار عنه حين راق   فأرانا ماؤه ذوبَ اللجين
نزّه القلب عن الهم ، وراق   بسنا صافي صفاه كلّ عين
نـثره الدر بفيض واندفاق   وسقى الوراد أهنا الأطيبين
قد جرى عذباً فأغنى النـّدما   بزُلال من رحيق الأكؤس

وعلى الأغصان أبقى النّعما فزهت مثل ندامى العُرُس[1]

وقال يصف باقة زهر اهداها له الأمير بشير .

وباقة زهر من مليكٍ مُنحتها معطرة الأرواح مثل ثنائـــه
فابيضها يحكي جميع خصاله وأصفرُها يحكي نضار عطائه
وأزرقها عين تشاهـــد فضله وأحمرُها يحكي دماء عدائه

وقال يهنىء إبراهيم باشا بفتح عكا :

فتح به الفتحُ القريب موكـد وكواكب النصر المبين توقّدُ
ما المجـد إلا بالحسام ولم يدم شرف الفتى ما لم يصنعه مهندُ
ما يوم عكة لم تدع ذكراً لما غبر الزمان به ومـــا يتجدد
يوم به الحرب العوان تضرّمت بقنابل مثل الصواعق تُرعد
رُجمت بشهب كراتها الأسوار من لهب فدُكّ الشامخ المتوطـــد

(١) قد نظم الشاعر هذه القصيدة على منوال الموشح الأندلسي المشهور لابن سهل الأشبيلي ومطلعه .

جادك الغيث إذا الغيث همى يا زمان الوصـــل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حلمـــا بالكرى أو خلسة المختلس

ورمت بصدر بروجها قُلل الفضا تلك المدافع فهي طوراً تسجد

فتخالُ والهيجاء تلهب حولها نار الجحيم بجوها تتصعّدُ

سبقت إليها الصبحَ أسْدُ عَرينة وبغير صبح حرابهم لم يهتدوا

من كلّ أروعَ قد تعوّد في الوغى أخذَ الكماةِ وما يقول السيّدُ

وتراه يبسِمُ للكفاح كأنما ورْد الحِمام لديه نعم المورد

وثبوا على الأسوار ثم تسنموا الـ أبراجَ والسيفُ الصقيلُ مجرد

وتجلد القومُ العداة وإنما لم يُجدِهم عند العراك تجلدُ

٥ - الشيخ ناصيف اليازجي :

هو الشيخ ناصيف بن عبد الله اليازجي ، ولد بكفرشيما بلبنان سنة ١٨٠٠ م ، واشتغل أول أمره بالعلوم والطب ؛ ولكن الأدب غلب عليه واتصل بالأمير بشير الشهابي ، فاتخذه كاتم سره ، ولما دالت دولة الأمير بشير انقطع للتأليف ومراسلة الأدباء ، ونظم الشعر . وقد خلف عدّة مؤلفات ، من أشهرها .

١ - مقاماته الستون المعروفة بمجمع البحرين . عارض فيها مقامات الحريري ، ويقول في إحداها المعروفة بالمقامة الخزرجية :

« قال سُهيل بن عباد : دخلت بلاد العرب في التماس بعض الأدب ،

فقصدت نادي الأوس والخزرج ، لأتفرج وأتخرج ، وآخذ من ألسنتهم بعض المنهج ، فلما صرت في بُهرة [1] النادي ، أخذ بمجامع فؤادي ، فجلست بين القوم ساعة ، وأنا أحدق إلى الجماعة وإذا شيخنا ميمون بن خزام ، قد تصدر في ذلك المقام ، وهو يقول : من أراد أن يعرف جهينة [2] أو شاعر مُزينة [3] فليحضر ليسمع ويرى ، فإن كل الصيد في جوف الفرا [4] فعمد إليه رجل وقال : أطرقْ كرى ، أن النعامة في القرى [5] إلخ .

ومن نثره المرسل قوله :

« وكان الملوك ومن يليهم في الأيام القديمة يعرفون كثيراً من العلوم ويتمكنون منها ، حتى كان منهم من يخطىء العلماء في بعض المسائل ، ولذلك كانوا يعتنون بشأن العلم والعلماء ويعرفون حقهم . وكانوا يقيمون مدارس في علوم شتى حيثما وجدوا لها موضعاً ، ويغمرون المشايخ والطلبة بالعطايا والإحسان ، فكان الناس يدخلون فيها أفواجاً ، ويعكفون على تحصيل ما يستطيعون من العلوم ، حتى إذا استتم الرجل علمه خرج الى منصب ، أو وظيفة عند السلطان ، متمتعاً ببسطة الجاه والمال ، ومستغنياً

---

(١) بهرة النادي : وسطه .

(٢) جهينة : قبيلة قتل رجل منها قتيلاً ، ومر بامرأته وهي تبحث عنه فقال :

تناشد كل حي عن حصين وعند جهينة الخبر اليقين

(٣) هو زهير بن أبي سلمى .

(٤) الفرا : حمار الوحش ، ومن صاده أغناه عن كل صيد سواه ويضرب بهذه الكلمة المثل .

(٥) الكرى : الكروان : اخفض رأسك ولا تتكبر فإن النعامة وهي أكبر منك قد صيدت وحبست في القرى .

عن جميع المهات والأشغال ، فيتفرغ للتوسع في العلوم ، وانشاء المصنفات فيها ، وبذلك يكون مثالاً لغيره في طلب العلم والتجرد له .

(٢) وله كتاب فصل الخطاب في الصرف والنحو ، وله شرح على ديوان المتنبي ، أتمه ابنه الشيخ ابراهيم ، واسمه العَرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب .

(٣) وله ديوان شعر في ثلاثة أجزاء : أحدها نفحةُ الريحان ، وثانيها فاكهة الندماء ، وثالثها ثالث القمرين .

وشعره يجمع بين الرقة والمتانة ، ومن شعره في بخيل :

قد قال قوم إن خبزك حامض والبعض أثبت بالحلاوة حكمه [1]

كذب الجميعُ بزعمهم في طعمه من ذاقه يوماً ليعرف طعمه ؟

وقال في الزهر :

مر النسيمُ على الرياض مسلماً سَحَراً فردّ هزارُها مترنما

أحنى إليه الزهر مَفْرِقِ رأسه أدباً ، ولو ملك الكلامَ تكلما

يا حبذا ماء الغدير وشمسُه تعطيه ديناراً فيُقلب درهما

---

(١) أي لا تدخل على بعض في صحيح اللغة ، وعجيب أن يفوت ذلك على الشيخ ناصيف وهو العالم اللغوي .

وقال يرثي صديقاً :

قد كنت أنتظر البشرى برؤيته … فجاءني غيرَ ما قد كنت أنتظر
ان كان قد فات شهد الوصل منه فقد … رضيت بالصبر لكن كيف أصطبر
أحَبُّ شيء لعيني حين أذكره … دمع وأطيبُ شيء عندها السهرُ
هذا الصديق الذي كانت مودته … كالكوثر العذبِ لا يغتالها كدر
لا غروَ أن أحزن الزوراء مصرعه … فحزنه فوق لبنان له قدر

وقال يمدح محمد علي (باشا) ويهنئه بفتح عكا :

يا فاتح القُطرين أنت محمد … هل دون فتحك في البلاد مُسددُ ؟
أنت العلي كما يقال ونسله … منك المعالي لم تزل تتولّدُ
لما بعثت من الكنانة سهمَها … حَلفت عليه أنه لا يُصردُ
ما زالتْ النار التي رقدت له … برداً عليه وناره لا تَبرُدُ
مَن مثل ابراهيم إلا سيفُه … يوم الكريهة والقنا المتأوّد

●

ولقد ضربت حصون عكاء التي … كانت لهَيبتها الفرائصُ ترعدُ
الله أكبر ليس دونك قلعة … تُحمي ولا حصن أشم ممرد

وتحصنت منك الأسود فلا تلم قوماً بإغلاق الحصون استنجدوا

أسألت (عبد الله [١]) أين قلاعة ورجاله وفؤاده المتوقد ؟

ومما كنا نحفظه في الصغر للشيخ ناصيف اليازجي قوله في عروس الزهر (الوردة) :

هذي عروس الزّهر نقّطها الندى بالدر فابتسمت ونادت معبداً

لما تفتق سترُها عن رأسها عبث الحياء بخدها فتوردا

فتح البنفسج مقلةً مكحولة غمز الهزار بها فقام وغردا

وتبرجت وُرْق الحمام بطوقها لما رأين التاج يعلو الهدهُدا

بلغ الأزاهر أن ورد جنانها ملك الزهور فقابلته سجّدا

فرنا الشقيق بأعين محمرة غضباً وأبدى منه قلباً أسودا

بسط الغدير الماء حتى مسه برد النسائم قارساً فتجمدا

ورأى النبات على جوانب أرضه مهداً رطيباً ليناً فتوسدا

يا صاحبي تعجبا لملابس قد حاكها من لم يمد لها يدا

كل الثياب يحول لون صباغها وصباغ هذي حين طال تجددا

---

(١) يقصد عبد الله الجزار والي عكا حينذاك .

وفي هذه القصيدة خيال جميل ، وسهولة لفظ ، ورقة وصف تجعل مثل ناصيف اليازجي يقف وحده بين شعراء عصره . كما يقف وحده بين كتاب جيله لمتانة عبارته وحسن صياغته ولأنه ترسل في بعض كتابته على خلاف المعهود في زمنه .

ومن جميل شعره الذي يدل على رقة حس ، ودماثة عاطفة قوله يرثي ولده حبيباً :

ذهب الحبيب فيا حشاشة ذوبي أسفاً عليه ويا دموع أجيبي
ربيته للبين حتى جاءه في جُنح ليل خاطفاً كالذيب
يا أيها الأم الحزينة أجملي صبراً فإن الصبر خير طبيب
لا تخلعي ثوب الحداد ولازمي نَدْباً عليه يليق بالمحبوب
إني وقفت على جوانب قبره أسقي ثراه بدمعي المصبوب
ولقد كتبت له على صفحاته يا لوعتي من ذلك المكتوب
لك يا ضريح كرامة ومحبة عندي لأنك قد حويتَ حبيبي

الشهاب الألوسي :

هو أبو الثناء شهاب الدين محمود الألوسي ، ولد ببغداد سنة ١٢١٧ هـ ١٨٠٢ م وتوفي سنة ١٢٧٠ هـ ١٨٥٤ م .

وكان إماماً في التفسير والإفتاء، وعالماً ضليعاً باللغة، وكاتباً بليغاً وخطيباً مصقعاً. وقد حظي بشهرة عظيمة في عصره، وصار مقصد الأدباء والمتأدبين، وطلاب التفسير والفقه

وقد كثر حاسدوه وشانئوه ببغداد، واضطهده الوالي التركي، فقام برحلة إلى الآستانة يبث شكواه لأولي الأمر، ويعرض عليهم تفسيره المشهور (روح المعاني)، ولقي في رحلته من الإكرام ما أنساه غلظة الوالي، وسجل رحلته بعد عودته لبغداد في ثلاثة كتب.

وكان سريع الخاطر، منطلق الذهن في الكتابة والتحرير، وقيل إن أقل ما كان يكتبه في الليلة من مؤلفاته ورقتان كبيرتان، وله عدة كتب في التفسير والفقه والمنطق والأدب واللغة، ومن أشهرها:

١ – روح المعاني في التفسير وهو تسعة أجزاء ويعد خير كتبه ومن أحسن التفاسير المتداولة، وقد طبع مرة على نفقة ولده السيد نعمان خير الدين بمطبعة بولاق بمصر سنة ١٣٠١ هـ.

٢ – شرح السلم في المنطق

٣ – كشف الطرة عن الغرة، وهو شرح على درة الغواص للحريري.

٤ – حاشية على شرح قطر الندى لابن هشام.

٥ – وله كتاب في المقامات طبع في كربلاء. ومن نثره يصف القسطنطينية.

« بلدة مونقة الأرجاء رائعة الأنحاء، ذات قصور تضيق عن تصورها

سعة الأذهان ، وتتجاذب الحسن هي وقصور الجنان ، وربة رياض أريضة ، وأهوية صحيحة مربضة ، وقد تغنت أطيارها فتمايلت طرباً أشجارها ، وبكت أمطارها فتضاحكت أزهارهـــا ، وطاب نسيمها ، فصح مزاج إقليمها وليتك رأيت ما فيها من الرياض الأنيقـــة ، والأشجار المتهدلة الوريقة ، وقد ساقت إليها أرواح الجنائب ، زقاق خمر السحائب ، فسقت مروجها مدام الطل ، فنشأ على أزهارها حبابٌ كاللؤلؤ المنحل فلما رويت من الصهباء أشجارها رنحها مع النّسمات المسكية خمارها ، فتدانت ولا تداني المحبين ، وتعانقت، ولا تعانق العاشقين ، يلوح من خلالها شقيق ، كأنه جمرات من آثار حريق ، ويتخللّها بهر يبهر ناظره .

وكأن النرجس الغضّ بهـــا   أعينُ العين وما فيهن غَمْضُ

ومن نثره قوله يحذر أولاده من الدجاجلة وأبالسة التضليل :

يا بني ! بعض الناس ذئاب ، عليهم من جلود الشاة ثيـــاب . فلا تخدعوا بمتاوت تغنجت كالهلوك كلمته ، ولانت كالصعلوك عريكته ،وولع الذبول بقامته فتناطحت تفاحة كتفه ورمانة هامته ، وربما لزق ذقنــه بصدره . وأصاخ بسمعه نحوه بسرّه ، وحمل سبحة من ذوات الأذناب وجعلها شبكة ، وأعمل فيهـــا سبّابته تنقر حباتهـــا كما تنقر الحبّ الدّيكة .

قريب الخطو تحسبه لهون   وليس مقيداً يمشي بقيـد

فوأبي ! لقد رأيت في هؤلاء المتاوتين من هو أمرُّ من أبي مُرة وأضر منه بألف مرة .

وقد جربتهم فرأيت منهم خبائث بالمهيمن تستجير [1]

ومن شعره قوله في العراق :

أهيم بآثار العراق وذكره وتغدو عيوني من مسرتها عَبرى
وألثم أخفاقاً وطئن ترابه وأكحل أجفاناً بتربته العطرى
وأسهر أرعى في الدياجي كواكباً تمر إذا سارت على ساكني الزورا
وأنشق ريح الشرق عند هبوبها أداوي بها يا مي مهجتي الحرا

ومنه قوله :

وإذا الفتى بلغ السماك بفضله كانت كأعداد النجوم عداه
ورموه عن حسد بكل كريهة لكنهم لا ينقصون علاه

ومن المعاصرين لأبي الثناء الألوسي الشاعر الأخرس البغدادي ، وقد اشتهر بشعره التأثر على الأوضاع الفاسدة ببغداد ، وهناك مقطوعة قصيرة قالها حوالي سنة ١٨٥٣ يصور العراق بأنه صار مورداً عذباً للكلاب ، بينما تذاد الأسود عن غيره ، ولم يعد يجد الأحرار فيه موئلاً . بل ضاق بمكل حر أبي ، وتحكم فيه الأوغاد والطغام .

---

(١) تجد نماذج من نثره في كتابه أعلام العراق لمحمد بهجة الأثري ص ٢٤ وما بعدها .

ودهر أعاني كل يوم خطوبه ... وذلك دأبي يا أميم ودابه
مسوق الى ذي اللب في الناس رزؤه ... ووقف على الحر الكريم مصابه
وحسبك مني صبر أروع ماجد ... بمستوطن ضاقت بمثلي رحابه
تذاد عن الماء النمير أسوده ... وقد تلغ العذب الفرات كلابه
وأعظم بها دهياء وهي عظيمة ... اذا اكتفت الضرغام بالذل غابه
متى ينجلي هذا الظلام الذي أرى ... ويكشف عن وجه الصباح نقابه ؟
وتلمع بعد اليأس بارقة المنى ... ويصدق من وعد الرجاء كذابه ؟
ومن لي بدهر لا يزال محاربي ... تفل مواضيه وتغبو حرابه
عقور على شلوى يعض بنابه ... وتعدو علينا بالعوادي ذئابه [1]

تعقيب :

ذكرنا آنفاً أن هذا الأدب وليد العصر السابق ، وأنه لم يتأثر أدنى تأثر بالحركة العلمية التي حمل محمد علي لواءها في مصر ، كما رفع رجال الإرساليات التبشيرية هذا اللواء في بعض بلاد الشام ؛ لأن هذه الحركات

---

(١) مجموعة الأخرس ص ٨٨ – ٩٠ والديوان ص ٥٢ – ٥٤ .

فضلاً عن أنها كانت في بدء نشأتها ، بحيث لم يستفد بها هؤلاء الرجال الذين ترجمنا لهم ، والذين هم خير من أنجب عصرهم ، فإن هذه الحركات كانت علمية لا تعنى بالأدب إلا القليل .

والنماذج التي أوردناها لهؤلاء الأدباء من شعر ونـــثر تفصح عن تعلق أكثرهم بتلك الحلى المتكلفة ، والزخارف اللفظية ، والمعنوية ، التي تضحي بالفكرة في سبيل المحسن المقصود ، والفكرة في ذاتها ضحلة ، والخيال يكاد معدوماً ، وما بها من معنى فهو مأخوذ من السابقين ، وليتــــه ظهر واضحاً كما ظهر عند المتقدمين من الشعراء ولكنه توارى تحت ستار كثيف من المحسنات الثقيلة ، والنسج ضعيف إلا القليل .

وأما الأغراض فهي تلك المقاصد التقليدية التي سار عليها الأدباء من قديم ، ولم يظهر فيما رأينا أية بادرة للروح القومية ويقظة الشعوب ، والأغراض العامة ، وإفصاح الشاعر عما يجيش في نفسه هو من حزن وألم ، وفرح ولذة مما يلاقيه في الحياة ، بحيث يبدو مستقلاً في شخصيته عن أمير يمدح ، أو عظيم يرثى . وربما كان عند بعض شعراء الشام أو العراق في ذلك الوقت — كما رأيت — كلف بالطبيعة ووصفها ؛ لأن الشاعر الحساس لا يملك أن يغمض عينيه مهما كانت من الضعف ، أو ألا ينجذب ذوقه مهما كان عليه من المرض ، أمام هـــذه الطبيعة الفياضة بالفتن والمحاسن في بلاد الشام ، والطبيعة ثمة تغري على القول :

تُبدل كل آونة لبوسا   خيال العبقري به يغل

بيد ان وصف الطبيعة ، وإن دل على حس مرهف ، وتأثر بالجمال ،

فإن الصياغة والمعاني تئن من الضعف والركة ولم يسلم لهم إلا القليل مما تبدو عليه آثار العافية والصحة والجمال .

- ٥ -

التأليف في عصر محمد علي :

رأينا عند الكلام على الترجمة ، أن النهضة الحديثة ابتدأت ، والبلاد في فقر عقلي شنيع ، وظلام مطبق دامس ، وليس ثمة إلا بصيص ضئيل من النور يشع من الأزهر ، بيد أن أهله عكفوا على كتب الأقدمين يدرسونها بطريقتهم العقيمة ، ولم يكونوا على علم بما وصلت إليه أوربا من علم وحضارة ، حتى بعد أن جاء نابليون ، ومعه العلماء الأفذاذ والباحثون العظام ، بل ظل الأزهر كما هو غارقاً في أحلامه القديمة ، وإن اعتمد عليه محمد علي في اختيار أعضاء البعثات منه أول الأمر وأخذت النهضة تسير في طريق مختلفة عن طريق الأزهر ، ولم يشأ محمد علي ان يغير من نظم الأزهر شيئاً بحيث توافق مقتضيات العصر ، وحاجات النهوض ، بل أنشأ نظاماً علمياً جديداً هو ذلك النظام المدني في التعليم الذي نجني ثمرته اليوم ، وذلك أن تغيير الأزهر ، وتحويله الى النظام المدني كان عملاً شاقاً ، وفيه قضاء على ما للأزهر من سمعة دينية في نفوس المسلمين في كافة الأقطار ، ثم فيه تحد للشعور الديني الذي كان مسيطراً على أذهان الناس في الشرق حينذاك .

ولم ير محمد علي بدأ من الاستعانة بعلماء الأزهر وكتب الأزهر في

مدارسه الحديثة ، إذ لم يكن هناك علماء في غـــير الأزهر يصلحون لتدريس اللغة والدين ، ولم تؤلف فيها كتب على النهج الحديث ، بل كانت الكتب الأزهرية ــ على ما بها من غموض ، ومع أنها في مستوى أرقى من مستوى المدارس الحديثة ــ هي الشيء الوحيد في هذا الميدان ، ولذلك اضطرت حكومة محمد علي أن تقدم الآجرومية والسنوسية ، والألفية ، والشيخ خالد وغيرها من الكتب الى مطبعة بولاق ، فطبعت منها لأول مرة في مصر آلافاً من النسخ نشرتها في مدارسها الحديثة ، وفي الأزهر نفسه .

ولم يكن في هذه الكتب ما يشوق التلميذ أو يحبب القراءة اليه أو يعاونه على تفتق ذهنه ، واستكمال عدته للتعليم الثانوي ، لأنها ألفت في عصور ضعف اللغة ، وفيها أمثلة بعيدة كل البعد عن بيئة التلميذ وحياته ؛ وطريقة تأليفها عقيمة ، اذ لا تتدرج مع معلومات التلميذ ، وانما تفرض فيه العلم من أول سطر ، وتعرض أمامه مشكلات في الإعراب والعقائد يخالها طلاسم ، ويتبرم بها ، ويكاد ييأس . كل هذا في عصر كان الكتاب فيه هو كل شيء أمام التلميذ ، وليس له الا ان يستظهره ، فحفظ كتب الدين واللغة ، وأعدته الطريقة فاستظهر كتب الحساب والهندسة وغيرها من الكتب المعروفة ، استعداداً لاجتياز الامتحان .

ولم يكن المدرسون وحدهم هم الذين استعارتهم مدارس محمد علي من الازهر ، بل كان ثمة طائفة اخرى ، اقتضتها طريقة التدريس على يـــد المترجمين التي ذكرناها آنفاً [1] ، هذه الطائفة هم المصححون الذين يصلحون

---

(١) راجع ص ٢١ من هذا الكتاب .

الأخطاء النحوية والأساليب في الكتب التي تنقل إلى اللغة العربية . ولم يكن هذا العمل سهلاً هيناً ، فكثير من المترجمين ، وبخاصة في السنين الأولى من إنشاء المدارس ، كانوا من السوريين ، أو غيرهم من المتمصرين كالأرمن والمغاربة ، ولا ريب أن لغتهم كانت على شيء كثير من الضعف ، فقلما وُثق بكتابتهم وترجمتهم ولا سيما في مواد لم يدرسوها من قبل . هذا إلى أن العلوم الحديثة كانت تنقل لأول مرة من اللغات الأوربية إلى اللغة العربية ، وقد هجر الأزهر من زمن بعيد دراسة هــذه المواد ، فاضطروا إلى مراجعة الكتب القديمة في الحساب والفلك والهندسة والطب ، وغيرها من التي ترجمت أو ألفت في العصر العباسي ، وذلك لأن مهمتهم لم تكن قاصرة على تصحيح العبارة اللغوية ، بل تعدتهــا إلى اختيار الكلمات الفنية المناسبة .

وقد أفادت اللغة العربية من عملهم هذا فائدة جليلة وحين أعجزتهم الترجمة ، ولم يهتدوا إلى مقابل للكلمة الأجنبية في العربية عمدوا إلى تعريبها ، وتركوها كما هي مع تحريف يسير يناسب اللسان العربي ، أو بدون تحريف ، وبذلك ازدادت ثروة اللغــة العربية ، واتسع أمامها المجال لدراسة المواد الحديثة وتعريبها والتأليف فيها . وقد ألف بعضهم في ذلك كتباً تعين المترجمين والمؤلفين مثل الشيخ محمد عمر التونسي في كتابه (الشذور الذهبية في الألفاظ الطبية) .

كان لابد لمصر في أول نهضتها من الاعتماد على هذا القبس الضئيل الذي يشع من الأزهر ، ولقد رأينا إلى أي حد كان هذا الاعتماد ، ولكن حين استطاع نظام محمد علي أن يقف على قدميه ويؤتي ثمرته ، ويتخرج في مدرسة الهندسة والطب وغيرها شباب جمعوا بين الثقافتين

حاول محمد علي أن يتخلص من تأثير الازهر على نظامه ، ورأينا في أخريات عهده محاولة لتأليف كتب في اللغة والدين على طريقة حديثة ، وهذه الكتب وإن لم تبلغ مستوى الكتب الازهرية في الجودة بحيث يمكنها التغلب عليها إلا أنها كانت نزعة إلى التحرر من الازهر ، ورأينا أيضاً مدرسي الحساب من خريجي الهندسة ، وبعض مدرسي اللغة العربية يؤخذون من نوابغ المتخرجين في مدرسة الألسن .

وهكذا ابتدأت الهوة تزداد اتساعاً بين تعليم الازهر والتعليم الحديث ، حتى أوشكت الصلة أن تزول فيما بينهما . بل رأينا – على العكس – أن الازهر يقتبس من النظم الجديدة في التعليم ، ويحاول الشيخ العروسي شيخ الازهر في عهد محمد علي أن يدخل الطب في الازهر بمعاونة كلوت بك ، لولا أن عاجلته المنية .

كان التعليم الحديث في عهد محمد علي بالمجان في كافة المدارس سواء كانت ابتدائية أو ثانوية أو عالية ، وكانت الحكومة تنفق على التلاميذ ، وتتولى أمورهم من مسكن ومأكل ، وملبس ، وتجري على كثير منهم الارزاق والمرتبات . بيد أن الأهالي لم يطمئنوا إلى إسلام أولادهم للمدارس والتعليم في بادىء الامر ، بل نفروا من ذلك نفوراً شديداً ، حتى لجأت الحكومة في بعض الاحيان إلى إدخال التلاميذ في المدارس قسراً .

ولكن ما لبث الناس في مصر أن لمسوا فائدة التعليم ، وكيف ينقل أولادهم من حال الضعف الجسمي والعقلي والخلقي ، إلى مستوى رفيع من الحياة فأقلعوا عن المعارضة ، بل أقبلوا على التعليم

بنفوس رضية .

وقد بلغ عدد التلاميذ في عهد محمد علي بجميع مدارس القطر المصري على اختلاف انواعها تسعة آلاف تلميذ ، تتولى الحكومة النفقة عليهم في كل شيء ، وتعطى لهم بعض الرواتب [1] .

كانت نهضة محمد علي علمية حربية كما مر بنا ، لأن البلاد في رأيه لم تكن في حاجة للآداب حاجتها للعلوم والنهوض بالجيش ، ومسايرة الحضارة الأوربية العلمية في الطب والهندسة والرياضيات والفنون العسكرية ، وكان محمد علي نفسه يؤثر اللغة التركية على اللغة العربية في التعليم أول الأمر ، ولكنه اضطر إلى أن يجعل اللغة العربية لغة الدراسة ، فكانت هذه الخطوة الأولى في إحياء اللغة . ثم أنشأ مطبعة بولاق سنة ١٨٢٢ كما ذكرنا ، وقد عكفت منذ عصره حتى اليوم على إحياء الكتب القديمة وإن كان اهتمامها بكتب الآداب في عهد محمد علي زهيداً ، لأنها كانت في شغل بطبع مؤلفات رجال البعثات في الفنون التي تخصصوا بها ، ولم تتجه إلى إحياء التراث العربي القديم إلا في عصر إسماعيل كما سيأتي .

وأغلب الكتب التي ظهرت في عصر محمد علي كانت كتباً مترجمة في شتى العلوم والفنون ولم تؤلف إلا كتب قليلة ليست ذات شأن ، مثل كتب الرحلات التي دون فيها اعضاء البعثات مشاهداتهم بأوربا ، ككتاب

---

(١) راجع كتاب (لمحة عامة إلى مصر) تأليف كلوت بك ج ٢ ص ٥١٩ . وتاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعي ص ٤٥١ ج ٣ .

رفاعة بك (تخليص الإبريز في تلخيص باريز) وما شاكله . **أما الكتب** العلمية البحتة فكان أغلبها ترجمة ، وقد انتشرت هـذه الكتب كثيراً بتشجيع محمد علي لمترجميها ومكافأتهم مكافآت سخية ، وبطبعها على نفقة الدولة في مطبعة بولاق .

ويروى عن محمد علي أنه لما عاد أعضاء البعثة الأولى الى مصر استقبلهم بديوانه بالقلعة ، وسلم كلا منهم كتاباً بالفرنسية في المادة التي درسها بأوربا ، وطلب إليهم أن يترجموا تلك الكتب إلى العربية . وامر بإبقائهم في القلعة ، وألا يؤذن لهم بمغادرتها حتى يتموا ترجمة ما عهد به إليهم ، فترجموها ، وأمر بطبعها وتوزيعها على المدارس التي وضعت لها تلك الكتب [١] .

وكان للوقائع المصرية التي أنشأها محمد علي فضل في تذليل الاسلوب العربي للأخبار الصحفية ، وكانت على عهده تنشر اخبار الحكومة ومصالحها وبعض الانباء الخارجية وكان يحررها نوابغ العلماء في عهده .

كل هذا ولا شك قد مهد اللغة نوعاً مـا للعصر الثاني في النهضة وهو عصر إسماعيل ، وهيأ جيلاً من العلماء والمفكرين ، ومحبي الفنون والآداب ، قادوا مصر في عهد إسماعيل إلى مدى واسع من الرقي والتعليم .

على ان النهضة السورية اتجهت وجهة ادبية من اول امرها بخـلاف النهضة المصرية ، وقد وقفنا على الدوافع التي حولت نهضة مصر الى وجهة علمية ، اما الاسباب التي جعلت نهضة سورية ادبية ، فهي ان المبشرين كانوا حملة

---

(١) راجع تاريخ الحركة القومية للرافعي ج ٣ ص ٥٣٧ .

مشاعل تلك النهضة أول الامر ، وكان همهم نشر التعاليم الدينيـة طبقاً للمذاهب المسيحية الغربية ، وقد عنوا بترجمة التوراة ، وظل الجدل الديني مسيطراً على الصحافة السورية ومجالس الأدب ثمة ردحاً طويلاً من الزمن . ولعل هذا يعلل لنا سبق السوريين في الصحافة وإتقانهم لإخراجها وتبويبها ، وقد ظهرت ثمرة هذا الميل الادبي عند السوريين في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، ولنا إليه عودة .

★ ★

الفصل الثاني

النهضة

عصر إسماعيل على الرغم من مساوئه السياسية والاجتماعية هو العصر الذي أينعت فيه النهضة الأدبية ، وأورقت ، وبشرت بثمار طيبة حلوة ، وكان عهده الباب الذي دلف منـــه الأدب الى رياضه الغناء في عصرنا الحاضر ، وذلك لأن إسماعيل وضع أسساً متينة لنهضة شاملة ، بعد أن مضت فترة ركود كادت تعصف بما غرسه محمــــد علي ، وتعود بمصر القهقرى الى عصور الظلمات وذلك أيام الواليين عباس وسعيد ، إذ كانا من دعاة الرجعية ، فألغى عباس حين توليته كل المدارس العاليـة الا المدرسة الحربية .

والأدب في عصر إسماعيل مدين في نهضته ورقيه وسيره نحو التحرر من أغلال الماضي في صورته ومعناه الى عدة عوامل لا نستطيع إغفالها ، أو التقليل من أثرها ، وسنلقي عليها نظرة عاجلة ، حتى يكون إدراكنا لتطور الادب في مصر والبلاد العربية إدراكاً صحيحاً .

- ١ -

التعلـــيم :

استوى اسماعيل على أريكة مصر سنة ١٨٦٣ ، وما بها الا مدرسة ابتدائية واحدة ، ومدرسة حربية ، وأخرى طبية وثالثـــة للصيدلة ، وأوقفت البعثات ، واستغني عن خدمات من عاد من رجالها ، وكان اسماعيل ذا طموح ، ترسم في نهضته الى حد ما خطوات جده محمد علي ، واراد أن يرى مصر قطعة من أوربا في ظرف وجيز ، فأعاد للبعثات سيرتها الاولى حتى بلغ عدد أعضائها في عصره اثنين وسبعين ومائـة ، فأعاد مدرسة البعثات بباريس لأنـــه عرف فائدتها أيام أن كان طالباً هناك .

وأخذت الحياة تدب الى كل أنواع التعليم ، فأعيدت المدارس العالية التي كننت على عهد محمد علي كالهندسة والطب ، وزيـــد عليها مدرسة الحقوق ، وكانت تسمى مدرسة الإدارة والالسن (بـــدلاً من مدرسة الإدارة القديمة) .

وقد أسهمت مدرسة الحقوق في النهضة اللغوية والادبية ، فالمذكرات التي يعدها المحامون ، ووكلاء النيابة ، ولغة المرافعات والدفاع ، والخطابة القانونية قد تحسنت كثيراً وأدخلت في اللغة كلمات عديـــدة لم تكن

مستعملة من قبل . وظل رجال الحقوق والقانون يقودون مصر في ميدان السياسة حقبة طويلة من الزمن ، ولكنهم وللأسف قد أثروا بعقليتهم الجدلية ، وتربيتهم النظرية ، وإصلاحاتهم القانونية اللفظية في حياة الأمة أثراً بليغاً ، وأبعدوها عن جادة الصواب ، وألقوا بها في لجة الجدل والتناحر الحزبي ، والتشدق بالإصلاح ، ونأوا بها عن الحياة العملية المنتجة ، على أن هذا الموضوع ليس مما يعنينا في كتابنا هذا ، وإنما الذي يلفت أنظارنا هو نهضة الخطابة واللغة على يد من تخرج في هذه المدرسة ، ولا سيما في عصرنا الحاضر .

ومن المدارس التي أنشئت في عهد إسماعيل ، وكان لها أكبر الفضل في نهضة اللغة والأدب مدرسة دار العلوم التي أشار بها علي مبارك . وافتتحها في سنة ١٨٧١ . وقد رأينا ما كانت تعانيه مدارس محمد علي الحديثة من فقر في الكتب المدرسية المنظمة والمدرسين الأكفاء ، الذين جمعوا بين العلم القديم والحديث ، وعرفوا النظام ، ونالوا حظاً من طرق التربية ، وأن ذلك الفقر التربوي كان معوقاً لنهضة الآداب . بيد أن دار العلوم سدت هذا الفراغ ، فقد كان طلبتها يختارون من متقدمي طلبة الأزهر ونوابغهم ، وينشئون تنشئة لغوية ، وأدبية ، وشرعية مع قسط وفير من العلوم الحديثة ، وطرق التربية . ولقد أدت دار العلوم رسالتها للأمة واللغة وللدين على الوجه الأكمل ؛ فحفظت اللغة وصانتها ، وقوتها وأيدت دعائمها ، وأحيت مواتها وجددت في أساليبها ، ونفضت عن تراثها المجيد غبار القرون ، وقدمته للناس رائعاً جذاباً وعكف أبناؤها على تعليم النشء ، وتقويم ألسنتهم ، وتدريب أقلامهم ، وتزويدهم بذخائر نفيسة من مختارات الشعر والنثر ، وتقديم الكتب التي تنهج نهجاً علمياً نفسياً يتمشى مع الطفل وملكاته وغرائزه ؛ فكانت بحق خير ما أسدى علي مبارك من خدمات للغة العربية ، ولا تزال دار العلوم تقوم بنصيبها الوفير في نهضة التعليم

واللغة ، وتعتمد عليها جامعتا القاهرة والاسكندرية وعين شمس في دراسة الآداب والنصوص وقواعد اللغة ، ولا زال بنوها في الطليعة من الكتاب والمؤلفين يجارون بتأليفهم تيار النهضة الحديثة ، ويمشون مع الزمن خطوة خطوة ، وقد تخرج على أيديهم زعماء النهضة في كل ميادين الحياة .

وفي عهـــد إسماعيل أنشئت أول مدرسة للبنات ، وذلك في سنة ١٨٧٣ حيث أسست السيدة (جشم آفت هانم) ثالثة زوجات إسماعيل مدرسة السيوفية ، وكان بها حين افتتاحها مائتا تلميـذة . وبلغ عددهن في السنة الثالثة أربعمائة تلميذة يتعلمن بالمجان فضلاً عن القيـام بمأكلهن وملبسهن ، وكن يتعلمن القراءة والكتابة ويحفظن القرآن الكريم ، ويدرسن الحساب والجغرافيا والتاريخ والتطريز والنسيج .

وقبل مدرسة السيوفية كانت البـــلاد خلواً من مدرسة للبنات إلا مدرسة للولادة ، لم يغشها إلا البنات الحبشيات ، واستنكفت المصريات من دخولها ، ومدرسة إنجليزية أسستها مس (وتلي) سنة ١٨٦٠ وقـد نجحت بعد عشر سنوات من الجهاد في جذب كثير من الفتيات المصريات إليها ؛ وكذلك كان الجهل متخـــذاً من رؤوس فتيات مصر ونسائها أعشاشاً ، إلا من حرص أهلها على تعليمها في البيت ، وقليل ما هن .

وقد خطا تعليم البنت منذ مدرسة السيوفية خطوات واسعة في مصر ، وتعددت ألوانه ومدارسه ، وزاحمت الفتاة الفتى في الجامعة ، واقتحمت الكليات المستعصية ، ولست هنا في مقام النقـد ، ومناقشة طريق تعليم الفتيات ذلك التعليم النظري ، ومنافسة البنين في كل شيء ، ولكن مما لاشك فيه أن تعليم المرأة ونهوضها دعامة متينة في النهضة الاجتماعيـة والأدبية ، والأم المتعلمة تربأ بابنها أن يكون فريسة الجهل ، وتسعى

جهدها أن تنيله حظاً مهما كان يسيراً من نور العلم .

وقد أنشأت الحكومة بجانب هذه المدارس كثيراً من المدارس الصناعية والخصوصية ، كمدرسة المساحة والمحاسبة ، ومدرسة الزراعة ، ومدرسة العميان والبكم .

أما المدارس الابتدائية فقد زاد عددها حتى بلغ أربعين مدرسة ، وقد صار للأقباط زيادة على ذلك اثنتا عشرة مدرسة ، وافتتحوا مدرستين لتعليم البنات ، واحدة بالأزبكية والأخرى (بحارة السقايين) وقد وهبهم إسماعيل ألفاً وخمسمائة فدان ينفق ريعها على مدارسهم .

وأنشأت الحكومة كذلك عدة مدارس ثانوية منها مدارس رأس التين في سنة ١٨٦٢ والمدرسة الخديوية سنة ١٨٦٨ ، وأعادت ديوان المدارس ، وهو نواة وزارة التربية والتعليم بعد أن ألغاه سعيد ، ليشرف على التعليم ويرعاه ، ويدخل على نظمه وأساليبه التحسينات التي تساير الحياة .

ومن الوسائل التي ساعدت على النهضة الأدبية والعلمية في عصر إسماعيل دار الكتب وناهيك بما لها من أثر في نشر العلم ، وتحبيب الاطلاع وتسهيله ، ومعاونة المؤلفين والباحثين ومساعدة الناشرين والطابعين على استنساخ نفائس الكتب وإشاعتها بين الناس .

لقد كانت الكتب قبل ذلك مبعثرة في المساجد يتولى أمرها خدم لا يقدرونها قدرها ففرطوا فيها ، وتسرب كثير من كنوزها الأدبية

والعلمية إلى مكاتب أوربا ، وأهين كثير من الكتب القيمة باستعمالها في دكاكين البدالين وغيرهم .

همت الحكومة بتأسيس دار الكتب فجمعت هذه الكنوز المبعثرة في المساجد والتكايا والزوايا والأضرحة وغيرها وضمت إليها ألفي كتاب اشترتها من مكتبة المرحوم حسن (باشا) المانسترلي ، ولما مات شقيق الخديو إسماعيل الأمير مصطفى فاضل ، وكان من أكبر هواة الكتب في الشرق ، ابتاعت الحكومة من مكتبته ما يربي على ثلاثة آلاف كتاب ، وضمتها إلى دار الكتب ؛ فكان ذلك نواة لهذه المؤسسة العظيمة ، التي أخذت بعد ذلك تنمو وتزداد ، وتجلب لها الكتب من الشرق والغرب، وتضم إليها المكتبات الكبيرة مثل مكتبة المرحوم العلامة أحمد تيمور وغيرها .

وقد ضم القسم الأدبي الذي كان يشرف على إحياء الكتب القديمة بمطبعة بولاق إلى دار الكتب ، وعكف منذ سنين على تصحيح وإخراج أمهات الكتب الأدبية من أمثال : الأغاني ، ونهاية الارب ، والنجوم الزاهرة .. وغيرها .

- ٢ -

الجمعيات العلمية :

إذا كثرت الجمعيات العلمية في أمة دل ذلك على حيويتها ويقظتها ، ورغبتها في السير نحو الكمال ، غير معتمدة على الحكومة في غذائها العقلي ، فإذا اضطرب أمر الحكومات ، أو وليها من لا يحسن القيام بشئون الحكم ، لا يصاب الشعب بالشلل العقلي ، ولكن يمضي في طريقه قدماً ، يتثقف ويستعد للنضال في سبيل الحياة السعيدة بهمم أفراده اليقظين والجمعيات القوية المنظمة .

وقد بدأت تباشير هذه اليقظة العقلية في عهد إسماعيل ، وبرهنت مصر على أنها آخذة بأسباب النهضة الصحيحة ، وأنها مستعدة للنضج الفكري ، ولو توانت الحكومة في الإصلاح ، أو قصرت في الاخذ بأسبابه ، ومن أوائل من عنوا بنشر الكتب القديمة والمخطوطات :

١ — المرحوم رفاعة الطهطاوي متأثراً بطريقة صديقه المستشرق الفرنسي (سلفستر دي ساسي) ، ومن مجهود رفاعة في إحياء الكتب القديمة يقول العلامة علي مبارك :

« ولرغبته في نشر العلوم ، وسعة دائرتها ، وحبه عموم النفع بها ،

استدعى مع بعض أفراد الحكومة المصرية من المرحوم سعيد باشا — وكان له ميل إلى المترجم رحمه الله. صدور الأمر بطبع جملة كتب عربية على طرف الحكومة ، عم الانتفاع بها في الأزهر وغيره منها : تفسير الفخر الرازي ، ومعاهد التنصيص ، وخزانة الأدب والمقامات الحريرية ، وغير ذلك من الكتب التي كانت عديمة الوجود في ذلك الوقت فطبعت [1] » .

٢ — المجمع العلمي : وقد أسس على عهد الفرنسيين سنة ١٧٩٨ ، وألغي عند جلائهم ولكنه أعيد في عصر سعيد ، وظل يعمل مدة حكم إسماعيل ، مؤدياً رسالته في نشر المباحث العلمية . ولا يزال حتى اليوم قائماً ، وإن تغير اسمه الى (مجلس المعارف المصري) ومقره وزارة الاشغال ، وله مجلة تنشر أبحاثه وقد تكلمنا عنه آنفاً [2] .

٣ — جمعية المعارف سنة ١٨٦٨ ، وهي أول جمعة علمية مصرية صميمة ظهرت لنشر الثقافة عن طريق التأليف والترجمة والنشر ، أسسها محمد باشا عارف وأسهم في تأسيسها عدد كبير من أعيان البلاد ، وقد اقتنت مطبعة ، وقامت بطبع طائفة من أمهات الكتب في التاريخ والفقه والادب [3] .

---

(١) الخطط التوفيقية - ترجمة رفاعة ج ١٣ (ص ٥٥ - ٥٦) .

(٢) راجع ص ١٦ من هذا الكتاب .

(٣) من هذه الكتب : أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير في خمسة مجلدات ، وتاج العروس من شرح جواهر القاموس ، وتاريخ ابن الوردي ، وشرح التنوير على سقط الزند ، وديوان ابن خفاجة وديوان ابن المعتز ، والبيان والتبيين للجاحظ ، وشرح الشيخ خالد علي البردة ، ورسائل بديع الزمان الهمذاني وغير ذلك من الكتب .

ولقيت الجمعية تشجيعاً عظيماً حتى بلغ عدد أعضائها ستين وستمائة عضو من الطبقة الممتازة في الأمة [1] .

وظلت الجمعية تعمل ، وتؤدي رسالتها الثقافية إلى أن اشتد النزاع السياسي بين الخديوي إسماعيل ، والأمير عبد الحليم لتنافسهما على أريكة مصر ، وكان عارف باشا من أنصار حليم باشا ؛ ففر إلى الآستانة خوفاً من إسماعيل ، وبذهابه انحلت الجمعية . وكان عارف باشا أديباً ، ويروى له قوله :

ألم تعلم بأن سماء فكري ... تلوح بأفقها شمس المعارف

تفرس والدي فيّ المزايا ... فيوم ولدت لقبني بعارف

٣ - الجمعية الجغرافية سنة ١٨٧٥ ، وتعد من أهم المنشآت العلمية بمصر ، وتعنى بالأبحاث الجغرافية والعلمية وتدوينها ونشرها ، ولها مجلة دورية تنشر أبحاثها ، وما تقوم به من اكتشافات ، ولا تزال قائمة الى اليوم .

---

(١) كان من أعضائها : إبراهيم المويلحي ، وأحمد فارس الشدياق ، والشيخ حسونة النواوي ، والدكتور محمد شافعي ، ومصطفى رياض ، والشيخ بدراوي عاشور . وتجد ثبتاً بأسماء أعضاء الجمعية ، في آخر (الفتح الوهبي) وراجع كتاب عصر إسماعيل لعبد الرحمن الرافعي ج ١ ص ٢٥٦ ، وجرجي زيدان في كتاب آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٧٨ .

٤ – الجمعية الخيرية الإسلامية . أنشئت أول الأمر بالإسكندرية سنة ١٨٧٨ ، حين دفعت الحماسة جماعة من المتعلمين بالثغر – رأوا طغيان الأجانب ، واشتداد نفوذهم ، واستئثارهم بمرافق البلاد – الى تأسيسها ، وكانت تعقد الاجتماعات ليلا ويتبادل أعضاؤها الخطب ، وقبيل افتتاحها انضم إليهم السيد عبد الله نديم ، فكلفته الجمعيـــة العمل على تأسيس مدرسة حرة يتعلم فيها أبناء المسلمين ، وينشئون تنشئة صالحة ، وظلت الجمعية والمدرسة تتقدمان حتى قامت الثورة العرابية فتفرق القائمون بأمرها .

وقد أنشىء على غرار هذه الجمعية التعليمية جمعية باسمها في القاهرة ، وأخرى بدمياط أما الجمعية الحالية فقـد أسست سنة ١٨٩٢ على غرار الجمعية الأولى حين اشتدت الحاجـــة إليها وكان الداعـي الى تأسيسها الإمام الشيخ محمد عبده ، وسنعود الى الكلام عنهـــا في ترجمته إن شاء الله .

- ٣ -

الصحافة :

وتعد الصحافة من أقوى عوامل النهوض بالشعوب في عقليته ، ولغته ، وعلمه ، والإصلاح الاجتماعي الذي يأخذ بيده صوب الكمال . وقد تحررت اللغة من آفاتها القديمة التي ورثتها عن عصور الانحطاط ، ولا سيما السجع والمحسنات والزخرف اللفظي والركاكة ، على يد الصحافة .

انقضى عصر محمد علي كما رأينا ، وليس بمصر سوى صحيفة واحدة هي الوقائع المصرية ، وكانت موضوعاتها قاصرة على الأخبار الحكومية ، ولغتها لا تكاد تستقيم من الركاكة ، ولكننا نشاهد في عصر إسماعيل نهضة جديدة ، واسعة عظيمة الأثر في الصحافة .

سبق السوريون في بلادهم بإصدار صحف سياسية ، وصدرت مرآة الأحوال بحلب سنة ١٨٥٥ ، وإن لم تعمر أكثر من عام واحد ، ثم صدرت حديقة الأخبار ببيروت سنة ١٨٥٨ وظلت تصدر حتى سنة ١٩٠٩ ، وكانت يوماً لسان الحكومة الرسمي . ثم خطت الصحافة خطوة أوسع في سبيل الرقي بصدور الجوائب لصاحبها أحمد فارس الشدياق بالآستانة سنة ١٨٦٠ وقد طلعت على الناس بأسلوب جديد في الكتابة العربية ، وافتن

صاحبها في تحريرها ، وتخير موضوعاتها .

فجمعت بين السياسة والأدب بشتى ضروبه وأبوابه بما في ذلك القصائد البليغة لكبار شعراء العربية ، فذاعت ، وأقبل الناس على قراءتها بشغف بالغ ، ولم تدع بلداً عربياً بل إسلامياً إلا دخلته وقد سافرت كذلك الى كثير من بلدان الغرب ، واقتبسوا منها وحكوا عنها ، وظلت تعمل حتى سنة ١٨٨٤ ، أما صاحبها :

أحمد فارس الشدياق :

فهو من رواد النهضة الحديثة في الأدب ، وممن سبق بفكره ، وقلمه ، وعلمه أبناء زمانه لكثرة ما قرأ ، وجرب ورأى بعينيه ، وسمع بأذنيه ؛ لأنه جاب بلاداً عديدة وعرف لغات شتى ، وأفاد مما رأى ، ومما قرأ وعرف ، فكان نادرة من نوادر عصره .

ولد بقرية عشقون في لبنان سنة ١٢١٩ هـ ١٨٠٤ م من أسرة مارونية مشهورة ، ثم انتقل والده الى قرية (الحدث) بالقرب من بيروت ، وتيتم فارس بن منصور (وعرف فيما بعد باسم أحمد فارس الشدياق) وهو صغير وكانت تتراءى عليه علامات النجابة فأتقن صناعة الخط ، وجعل ينسخ الكتب بنفسه ، ولغيره طلباً للرزق . وكان له أخ يسمى (أسعد) على حظ وفير من العلم والذكاء ، وعليه تلقى فارس دروسه الأولى ، وأفاد منه فائدة جليلة ووجهه وجهة صالحة وغرس في نفسه محبة العلم . ثم اضطهد

(أسعد) من بطريرك الموارنة ، وسيم ألواناً من العذاب ، لتغيير مذهبه الماروني الى المذهب الإنجيلي ، حتى مات بأحد الأديرة وهو في عنفوان شبابه فأثر موته على فارس ، وحز في نفسه ، فكره الإقامة ببلاد الشام ، وأعلن سخطه على المارون ، فجدوا في أثره لينكلوا به ، بيد أنه لجأ الى المبشرين الأمريكيين ببيروت ، فأحسنوا مقدمه ، وبعثوا به الى مصر ليعلم أعضاء بعثتهم فيها اللغة العربية .

وفي مصر تعرف على الشيخ محمد شهاب محرر الوقائع المصرية ، فلازمه وقرأ عليه طائفة من كتب اللغة والأدب ، وقرأ على غيره كتباً في المنطق والنحو حتى تمكن من سائر علوم العربية ، وتقرب من كبار علماء مصر ، ومن معية الخديوي ، ثم أفسح له مجال الكتابة في الوقائع ، فأخذ يدبج فيها المقالات الممتازة بأسلوب جديد لم يألفه المصريون من قبل ، وهو الأسلوب المرسل الرصين ، ثم أسند اليه تحرير الوقائع مدة .

وبعد ذلك سافر الى (مالطة) سنة ١٨٣٤ بدعوة من الأمريكان ، ليعلم في مدارسهم هناك ، فمكث بها أربعة عشر عاماً ، عكف في أثنائها على التدريس ، والتأليف ، ونشر الكتب وتصحيحها ، الى أن طلبته جمعية ترجمة (التوراة) بلندن ليساعد في التعريب والضبط والتنقيح ، فسافر إليها سنة ١٨٤٨ ، وأقام بها مدة مكنته من تعلم اللغة الإنجليزية وتعرف أحوال الإنجليز وبلادهم معرفة دقيقة ، ثم سافر الى باريس بعد أن نال الحماية البريطانية ، وتجنس بالجنسية الإنجليزية .

وقد سجل رحلته الى أوربا في كتابه (كشف المخبأ عن أحوال أوربا) وقد ألف في أثناء مقامه بأوربا كتابه (الساق على الساق فما هو الفارياق)، والفارياق لفظ مقتطع من (فارس الشدياق) .

ولما زار باي تونس باريس ، ووزع في فرنسا كثيراً من الأموال على الفقراء مدحه الشدياق بقصيدة طويلة حببته إليه فاستدعاه للإقامة معه بتونس . وكان قد مدح السلطان عبد المجيد كذلك بقصيدة طويلة حسنت لديه ، فاستدعاه للآستانة ، ولكنه فضل الذهاب الى تونس أولاً ، فأرسل إليه (الباي) باخرة حربية لحضوره عليها . وقد وقعت بينه وبين شيخ الإسلام في تونس مجادلات في العقائد الدينية أدت الى اعتناقه الإسلام وسمى نفسه (أحمد فارس) ، وتكنى (بأبي العباس) ، وكان يقول في هذا : « لعمري ما كنت أحسب أن الدهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيها ، ولكن إذا أراد الله بعبد خيراً لم يعقه عن الشعر ولا غيره » .

وتولى عند الباي أرفع المناصب ، واشتهر اسمه ، فطلبته الآستانة مرة أخرى ، فلبى الدعوة ، وهناك ألحق بديوان الترجمة ، وتولى الإشراف على التصحيح بدار الطباعة .

ويقال إن الخديوي إسماعيل هو الذي أشار عليه في أثناء زيارته للآستانة بإنشاء (الجوائب) وكان معجباً به ، فقام بانشائها سنة ١٨٦١ ، واشتركت فيه الحكومة المصرية بألفي نسخة . ثم قدم مصر سنة ١٨٦٦ ، وهو شيخ هرم ، في عهد الخديوي توفيق ، فقوبل بكل إجلال وترحاب ، واجتمع به كثيرون من الأدباء ورجال الصحافة ، فبهرهم على الرغم من شيخوخته بتوقد قريحته ، وسرعة بديهته ، وحلاوة سمره وطلاوته ، ورقة حاشيته ورشيق عبارته ، ثم عاد الى الآستانة فتوفي بها سنة ١٨٨٧ ، ونقلت جثته الى سوريا ودفن بقرية الحازمية على مقربة من بيروت .

والشدياق من أوائل الذين اهتموا بالأبحاث اللغوية في العصر الحديث ،

وله كتاب « الجاسوس على القاموس » ، وهو كذلك من أوائل الكتاب المترسلين ، الذين خاضوا في كل موضوع ، وأفادوا الأدب واللغة بأبحاثهم ومقالاتهم ، وله عدة كتب كان لها في زمانه وبعد زمانه شأن يذكر ، منها :

١ - (الواسطة في أحوال مالطة) ، وقد وصف فيه هذه الجزيرة وصفاً دقيقاً ، وأبان فيه عن أصل اللغة التي ينطق بها أهلها ، وبين أنها اللغة العربية شيبت بلهجات الغزاة الفاتحين وألحانهم .

٢ - (كشف المخبأ عن أحوال أوربا) ، فصل فيه سياحته في بلاد الإنجليز وغيرهما من الأقطار الأوربية ، ووصف عادات الإنجليز وآدابهم وأخلاقهم ، وتاريخ تمدينهم وسر تقدمهم بأسلوب شائق طلي .

٣ - (الساق على الساق فيما هو الفارياق) ، وهو كتاب ممتع ، سيق في أسلوب قصصي وذكر فيه تاريخ حياته ، وأحواله الخاصة ، وما عاناه في دهره ، وفي معركته مع الحياة والأيام . خلط فيه الجد بالهزل ، والسجع بالترسل ، والعلم بالأدب ، وأغرب فيه وأطرب ، وذهب في تدبيجه وصياغته كل مذهب ، طبع بباريس سنة ١٨٥٥ .

٤ - سر الليالي في القلب والإبدال .

٥ - (الجاسوس على القاموس) ، وضعه لا ستدراك ما فات الفيروزبادي في قاموسه وما وهم فيه من الألفاظ ، وهو مطبوع .

٦ - (منتهى العجب في خصائص لغة الأدب) ، في أسرار اللغة ، وخصائص الحروف ومدلولاتها ، ولكنه ذهب فريسة النار ، وهو بعد

مخطوط لم يطبع .

٧ - (الجوائب) ،وقد اشتركت فيها مصر بألفي نسخة ، وكان باي تونس يمدها بخمسمائة جنيه سنوياً ، وتلقت مثل هذه الإعانة من السلطان عبد العزيز ، وكانت تصدر أسبوعياً ، وقد نالت شهرة عظيمة كما ذكرنا آنفاً ، وهي الجريدة الوحيدة التي جاهرت بالدفاع عن الخديوي إسماعيل في دار الخلافة حينما خلع سنة ١٨٧٩ ، ورثته يوم وفاته ، ولم تخش سطوة الحكومة العثمانية . ويقال إن السفارة الإنجليزية بالآستانة دفعت لصاحبها ألف جنيه ، نظير إذاعة المنشور الذي أصدره الباب العالي يعلن فيه عصيان عرابي باشا سنة ١٨٨٢ ، وأن ذلك كان من أسباب إخفاق عرابي .

وقد جمع سليم بن أحمد فارس منتخبات من الجوائب ونشرها في سبعة أجزاء .

٨ - لأحمد فارس كتب مدرسية كثيرة منها : الباكورة الشهية في نحو اللغة الإنجليزية ، والسند الراوي في الصرف الفرنساوي ، واللفيف في كل معنى طريف .

٩ - وله ديوان شعر لم يطبع .

وقد عني الفارياق كما رأينا من مؤلفاته بالأبحاث اللغوية ومن ذلك كتابه الجاسوس على القاموس الذي حاول فيه أن يستدرك على صاحب القاموس ما جاء في معجمه من قصور وإبهام وإيجاز وإيهام وعسر في مراجعة الأفعال ومشتقاتها ، وذلك بأن يؤلف في اللغة كتاباً سهل الترتيب واضح التعاريف ، شاملاً للألفاظ التي استعملها الأدباء والكتاب

وكل من اشتهر بالتأليف .

وقد دعاه إلى ذلك أمران :

أولهما مزاحمة اللغات الأجنبية للغة العربية واللسان العربي « فكادت تجلي عنه أهله وتحجب عنهم ظله وتحبس وابله وطله ، لأن ترتيب كتب لغاتهم أسهل والوصول إليها أعجل ، ولا سيا أنها قليلة المشتقات ، وليس في تعريف ألفاظها كبير اختلاف في الروايات أما من يتعاطون منا التجارة ، ويحملون عبء الإمارة ، فإنهم يزعمون أن اللغة العربية لا تصلح في هذا الزمن لهاتين الخطتين فلا بد بكلام الأجانب وإن أدى الى الحطتين ، فمن ثم مست الحاجة الى زيادة تفصيل لمفردات لغتنا ومركباتها، وتبيين لأصولها من متفرعاتها ... الخ » .

وثانيهما رغبة « في حث أهل العربية على حب لغتهم الشريفة ، وحث أهل العلم على تحرير كتاب فيها خال من الإخلال ، مقرب كما يطلبه الطالب منها دون كلال ، فإني رأيت جميع كتب اللغة مشوشة الترتيب ، كثر ذلك أو قل وخصوصاً كتاب « القاموس » الذي عليه اليوم المعول » .

وقد أثار في هذا الكتاب موضوعات لا تزال موضع بحث حتى يومنا هذا ، وقد حاول في غير هذا الكتاب أن يدافع عن اللغة العربية وأن يعمل على تزويدها بالمصطلحات الفنية فهو في الوقت الذي يمتدح فيها اللغة العربية لسهولة ألفاظها ووضوحها نراه يعترف بأن مفردات العربية غير تامة فيما يتعلق بما استحدث بعد العرب الذين وضعوا اللغة من فنون وصناعات ، ما لم يكن يخطر ببالهم ، وليس ذلك في رأيه مما يشين اللغة ؛ إذ لا يحتمل أن واضع اللغة يضع أسماء لمسميات غير موجودة ،

« وإنما الشين علينا الآن في أن نستعير هذه الأسماء الأجنبية مع قدرتنا على صوغها من لغتنا ، على أن أكثر هـــذه الأسماء هو من قبيل اسم المكان أو الآلة ، وصوغ اسم المكان والآلة في العربية مطرد من كل فعل ثلاثي » .

وقد حث على استخدام « النحت » والإكثار منـــه لإثراء اللغة كما فعلت اللغات الأجنبيـــة الأخرى ، وذلك حتى تستغني عن استعمال الدخيــل .

ومن روائع أدبه قوله يصف مصر في كتابه الساق على الساق :

« ومن خواصها أن اسواقها لا تشبه رجالها ألبتة ، فإن لأهلها لطافة وظرافة ، وأدباً وكياسة وشمائل مرضية ، وأخلاقاً زكيــة ، وأسواقها عارية عن ذلك رأساً .

ومنها : أن العالم عالم ، والأديب أديب ، والفقيه فقيه ، والشاعر شاعر ، والفاسق فاسق ، والفاجر فاجر . ومن ذلك أن البنات اللائي يستخدمن في (الميري) لحمل الآجر والجبس والتراب ، والطين والحجر والخشب ، وغير ذلك ، يحملنه على رؤوسهن ، وهن فرحات ، جامحات ، سابحات ، صادحات ، مادحات ، غير ترحات ، ولا دالحات [1] ، ولا رازحات ، ولا كالحات ، ولا نائحات ، ومن كان نصيبها من الآجر نظمت عليه (موالاً) آجرياً ، أو من الجبس غنت له أغنية جبسية ، كأنمـا هن سائرات في

(١) من دلح كمنع : مشى بحمله متقبض الخطو لثقله ، وسحابـة دلوح : كثيرة الماء .

زفاف عروس .

ومن ذلك أن (البرنيطة) فيها تنَمى وتعظم ، وتغلظ وتضخم ، وتتسع وتطول ، وتعرض وتعمق ،فإذا رأيتها على رأس لابسها حسبتها (شَوْنَة)[1]، قال (الفارياق) : وكثيراً ما كنتُ أتعجبُ من ذلك وأقول : كيف صح في الإمكان ، وبدا للعيان أن مثل هذه الرؤوس الدميمة ، الضئيلة الذميمة ، الخسيسة اللئيمة ، المستنكرة المشئومة ، المستَقْذرة المهوّعة[2]، المستقيمة المستفظعة ، المستسمجة المستشنعة ، والمسترذلة المستبشعة ، تُقل هذه (البرانيط) المكرمة ، وكيف أنماها هواء مصر ، وكبرها إلى هذا المقدار ، وقد طالما ، كانت في بلادها لا تساوي قارورة الفرّاش ، ولا توازن ناقورة الفراش ، وكيف كانت هناك كالترب ، فأصبحت هنا كالتبر ؟ يا هواء مصر ، يا نارها ، يا ماءها ، يا ترابها[3] صيرّي طربوشي هذا (برنيطة) ،وإن يكن أحسن منها عند الله والناس وأفضل ، وأجمل وأمثل ، وللعين أبهى وأكمل وعلى الرأس أطبق وبالجسم أليق ... قال : فلم يُغن عني النداء شيئاً ، وبقي رأساً مطربشاً ، وطرفُ دهري مُطرْفشاً[4].

ومن خصائصها أيضاً أن البُغاث بها يستنسر ، والذباب يستصقر ، والناقة تستبعر ، والجحش يستمهر ، والهر يستنمر ، بشرط أن تكون هذه

---

(١) الشونة : كما جاء في القاموس مخزن الغلال — مصرية .

(٢) المهوعة : من هوعته ما أكل إذا قيأته إياه .

(٣) يشير بالهواء والنار والتراب والماء إلى العناصر الأربعة التي كان يعتقد الفلاسفة القدماء أنها أصل المواد .

(٤) الطرف : العين ، وطرفشت العين : أظلمت وضعفت ، وفلان نظر وكسر عينيه .

الحيوانات مجلوبة إليها من بلاد بعيدة .

ومن ذلك أن كثيراً من أهلها يرون أن كثرة الأفكار في الرأس يكثر عنها الهموم والأكدار أو بالعكس ، وأن العقل الطويل يتناول البعيد من الأمور كما أن الرجل الطويل يتناول البعيد من الثمر وغيره وأن تلك الكثرة سبب في الإقلال ؛ فما دام النور موقداً ، فلا بد وأن تفقد الفتيلة ، ولا يمكن إبقاؤها إلا بإطفاء النور ، أو كالماء في الوادي فإذا دام الماء جارياً فلا بد وأن ينصب في البحر ، فمتى حقن بقي ، او كالفلوس في الكيس ، فما دام المفلس أي صاحب الفلوس يمد يده الى كيسه ، وينفق منه فنيَ ما عنده ، إلا ان تربط يده عن الكيس، او يربط الكيس عن يده ؛ فمن ثم اصطلحوا على طريقة لتوقيف جريان العقل في ميدان الدماغ حيناً من الأحيان ، ليتوفر لهم في غيره ، وذلك بشرب شيء من الحشيش ،او بمضغه ، او بالنظر إليه ، او بذكر اسمه ، فحين يتعاطونه تغيب عنهم الهموم ، ويحضر السرور ، وتولي الأحزان ، ويرقص المكان » .

وفي الحق لم يدع أحمد فارس شيئاً في اهل مصر وعاداتهم الا وصفه وصفاً دقيقاً بذلك الأسلوب المرح ، وهذا التهكم المحبوب ، وله نظرات نافذات حين يتكلم على الأجانب ، وكيف صار لهم الحول والسلطان ، مع أنهم كانوا في بلادهم أفاقين مفلسين ، وحين يعبر عن فلسفة الحشاشين ، وكيف يعملون جادين مخلصين على تغييب العقل ، وهو الذي يهدي الإنسان سواء السبيل .

وأنت ترى في اسلوبه السجع ،والترسل ، والسهولة ، والتوعر ، والكلمات العامية ، والكلمات الغريبة التي لا تستعمل الا في المعاجم ، وكأنه قصد الى

إحيائها ، كما كان يفعل اصحاب المقامات ، لولا طرافة الموضوع ، وصدق الوصف . ومما يلفت الأنظار في أدب احمد فارس أنه كان قوي الملاحظة ، مَعْنياً بأحوال الشعوب وطرق حياتهم ، والموازنة بين الشعوب التي زارها والشعوب العربية ، وله فصول ممتعة في كتابه (الساق على الساق) عن الإنجليز وبلادهم ، والفرنسيين وأحوالهم . ومما قاله في الموازنة بين الأدب الغربي والعربي قوله :

« فإنهم أول ما يبتدئون المدح يوجهونه الى المخاطب ، ويجعلونه ضرباً من التاريخ ، فيذكرون فيه مساعي الممدوح ومقاصده وفضله على من تقدمه من الملوك بتعديد أسمائهم ولما ترجم (مسيو دوكان) قصيدتي التي مدحت بها المرحوم أحمد باشا والي تونس وطبعها مع الترجمة ، كان بعضهم يسألني : هل اسم الباشا (سعاد) ؟ وذلك لقولي : « زارت سعاد وثوب الليل مسدول » فكنت أقول : لا ، بل هو اسم امرأة فيقول السائل : « وما مدخل المرأة بينك وبين الباشا ؟ » وهو في الحقيقة أسلوب غريب للعرب ، قال العلامة الدسوقي : « اعلم أنه قد جرت عادة الشعراء أنهم إذا أرادوا مدحَ إنسان ان يذكروا قبله الغزل لأجل تهييج القريحة وتحريك النفس للشعر ، والمبالغة في الوصف، وترويح النفس ورياضتها » قلت : كما ان الإفرنج ينكرون علينا هذه العادة ، كذلك ينكرون المبالغة في وصف الممدوح . وأما تشبيهه بالبحر والسحاب والأسد ، والطود ، والبدر ، والسيف ، فذلك عندهم من التشبيه المبتذل ، ولا يعرضون له بالكرم ، وبأن عطاياه تصل الى البعيد ، فضلاً عن القريب ، فهم إذا مدحوا ملوكهم ، فإنما يمدحونهم للناس ، لا لأن يصل مدحُهم إليهم » .

ومن فكاهاته التهكمية ، ونقداته اللاذعة ما قاله عن علم النحو وتعلمه ، قال : أحد التلميذين : ألا قبحاً لذوي الخواطر البليدة ، والفطن

البعيدة !. كيف لا يتعلم الناس كلهم فن النحو ، وهو اسهل من حك ما تحت الحقْو ، أما والله لو كانت العلوم كلها مثله ، لما غادرت منها كبيراً وصغيراً إلا استوعبته كله ، لكني سمعت أن النحو إنما هو مفتاح العلوم ، ولا يعد منها فلا بد ان يكون غيره أصعب منه .

فقال له معلمه : لا تقل هكذا ، بل النحو أساس العلوم ، وكل العلوم مفتقرة إليه افتقار البناء الى الأساس ، ألا ترى ان اهل بلادنا لا يتعلمون سواه ، ولا يعرجون على غيره ؟ وعندهم أن من تمكن منه فقد تمكن من معرفة خصائص الموجودات كلها ، ولذلك لا يؤلفون إلا فيه . وإنما يحصل فيه خلاف بينهم في تقديم بعض الأبواب على بعض ، وفي توضيح ما كان مبهماً منه بأدلة وشواهد . واختلفوا أيضاً في الشواهد ، فمن قائل إنها مفتعلة ، ومن قائل إنها ضرورة أو شاذة ، بيد أن المآل واحد ، وهو أن العالم لا يسمى عالماً الا إذا كان متمكناً من النحو مستقصياً لجميع وقائعه ، ولا يكاد يستتب أمر إلا به . ولو قلت مثلاً : ضرب « زيد عمرو » من غير رفع زيد ونصب عمرو ، فما يكون ضربه حقاً ، ولا يصح الاعتماد على هذا الإخبار ، فإن حقيقة فعل الضرب متوقفة على عِلْم كون زيد مرفوعاً ، وجميع اللغات التي ليس فيها علامات الرفع فهي خالية عن الإفادة التامة ، وإنما يفهم الناس بعضهم بعضاً من دون هذه العلامة عن دُريةٍ واتفاق ، فلا معول على كتبهم وإن كثرتْ ، ولا على علومهم وإن جلتْ » .

وأخذ المعلم يثني على النحو ثناء عظيماً ، ويبين أنه هداه إلى مسألة حار فيها حيرة عجيبة ، فسأله تلميذه : وما هذه الفائدة يا أستاذي ؟ قال : « قد طالما كان يخامرني الريب في قضية خلود النفس ، فكنت أميل الى ما قالته الفلاسفة ، من أنه كل ما كان له ابتداء فهو متناه ، فلما رأيت النحو له ابتداء

وليس له انتهاء قست النفس عليه فزال عني والحمد لله ، ذلك الإبهام » وفي هذا الكلام لذعات حادة للنحاة لا تخفى على اللبيب .

وهكذا نجد احمد فارس في كل ما كتبه يخلط الجد بالهزل ، ويتهكم تهكماً مريراً على الأوضاع التي لا تروقه ، وقد قال عن كتابه (الساق على الساق فيما هو الفارياق) :

هذا كتابي للظريف ظريفاً   طلقَ اللسان وللسخيف سخيفا
أودعته كلماً وألفاظاً حلت   وحشوته نقطاً زهت وحروفا
وبداهة وفكاهة ونزاهة   وخلاعة ، وقناعة وعزوفا
كالجسم فيه كل عضو تعشق الـ   مستور منه وتحمد المكشوفا
فصّلته ، لكن على عقلي فما   مقياس عقلك كان لي معروفا

وقد وضع أحمد فارس كل تجاربه وعلمه وفنه ، وقلمه الظريف القوي المتمكن من مختلف أساليب اللغة في إخراج (الجوائب) فكانت من الصحف الأولى في العالم . وله يرجع فضل السبق في تعبيد العربية وتذليلها بأسلوبه المرسل الطليق ، كما أنه من أوائل الذين ملئت قلوبهم بغضاً للأجانب ، وفهم عن حق أغراضهم الدنيئة ، وسلقهم بلسان حاد ، وحرض على إخراجهم من ديار العرب والشرق . وقد خص مصر بحب وفير ، وكان مثلاً في الصحافة انتهجه المصريون ، وحذوا حذوه ، فلا بدع أن كان من رواد النهضة الحديثة .

كل ذلك حفز المصريين الى الاهتمام بالصحافة ، ووجدوا من اسماعيل صدراً رحباً للنقد السياسي اللهم إلا ما يمس شخصه فلصاحبه الويل والثبور كما حدث لمدير الأهرام سنة ١٨٧٩ ، حين أشار إلى مال صرف من الخزينة ، ولم يعلم مصيره ، وكاد اسماعيل يبطش به وبجريدته لولا أن ارتمى في حضن فرنسا فحمته ، كما وجدوا من اسماعيل تشجيعاً للحركة الأدبيـة وميلاً للأدب والفن والعلم . ومن الصحف المصرية التي ظهرت في عهد اسماعيل :

١ – مجلة اليعسوب :

وهي أول هذه الصحف المصرية ، وهي مجلة طبية أصدرها الدكتوران محمد علي البقلي ، وإبراهيم الدسوقي ، وكانت شهرية عربية اللغة ، وهذا يدلنا على عظم المحاولة التي كان يبذلها أطباء البعثات العلمية في تذليل اللغة العربية للمصطلحات العلمية ، والاستعانة بالكتب القديمة ، وبوضع كلمات من عندهم – على سبيل الاشتقاق – ولقد كانت هـذه المجلة الأولى مـن نوعها في الشرق ، ولكنها للأسف لم تعمّر طويلاً ، ومنها نماذج بدار الكتب وكان ظهورها سنة ١٨٦٥ .

٢ - مجلة روضة المدارس :

أنشأها العلامة علي مبارك سنة ١٨٧٠ حين كـان وزيراً للمعارف المصرية ، وهي من أجل أعماله خدمـة للغة والأدب ، وكانت الوزارة تتولى إصدارها والإنفاق عليها ، وقد أسست لإحياء الآداب العربية ،

ونشر المعارف الحديثة ، وأسندت رئاسة تحريرها للعالم الأديب رفاعة الطهطاوي ، فقد رأى علي مبارك أن رفاعة أجدر الناس أن يتولى الإشراف على روضة المدارس ، وفي ذلك يقول : « لما كان حضرة رفاعة بك ناظر قلم الترجمة بديوان المدارس ، وهو المشار إليه بين أرباب المعارف بالبنان ، والمعترف بدرجة فضله الرفيعة كل إنسان ، ناسب أن يجعل هذه الصحيفة تحت نظارته ، لتتحلى من معلوماته بالدر الثمين ، وينشر علمها ، فيتلقاه محب المعارف باليمين » .

وقد صدّر رفاعة بك أول عدد منها بمقال بيّن فيه الهدف الذي تسعى إليه المجلة ، والخطة التي تسير عليها لبلوغ هذا الهدف ، ومما جاء في هذا المقال قوله : بحيث تكون فيها الفوائد المتنوعة ، والمسائل المتأصلة والمتفرعة ، أقرب تناولاً للمطلع المستفيد ، وأسهل مأخذاً لمن يعانيها من قريب الفهم والبعيد ، بقلم سهل العبارة ، واضح الإشارة ، وألفاظ فصيحة غير حوشية ، ولا متجشمة لصعب التراكيب ، ومعان رجيحة تنفرط في سلك مستحسن الأساليب » .

وقال : « وقد تنزهت صحيفتنا هذه مما سوى ما يخص نشر فائدة علمية ، ومحمدة أثرية مما يقع عليه الاختيار ولا ضرار ، فليس من وظائفها تقييد الأحوال السياسية الوقتية ، والأفعال الرئاسية والإدارية » .

ومن الذين أسهموا في تحرير المجلة عبد الله فكري الذي أحيلت عليه العلوم العربية والفنون الأدبية ، و « بروكش » ناظر مدرسة اللسان المصري القديم وخُص بالتاريخ ، وإسماعيل الفلكي وعهد إليه بالفلك ، ومحمد قدري وخُص بالجغرافية والأخلاق والعقائد ، وأحمد ندا وعهد إليه ببيان المواد النباتية ، والشيخ عثمان مدوخ ، وطلب منه إمداد المجلة بغرائب النوادر والمضحكات والألغاز والأحاجي والنكات ، وأحيل على مباشر

تحريرها الكلام على محروسة مصر القاهرة ، وذكر أخطاطها وشوارعها ، وأحيلت كافة العلوم الرياضية على مدرسي المدارس ، ومـا يرد منهم في القابل ، يذكر اسم صاحبه ، حتى لا يضيع عمل عامل [1] .

وقد ضم الى هيئة التحرير بعد إنشائها السيد صالح مجـــدي وكيل ديوان المدارس ، والشيخ حسونه النواوي مدرس الفقه وعلم الكلام بمدرسة الألسن وصار فيما بعد شيخاً للأزهر . وأسندت مباشرة تحريرها وترتيب مقالاتها الى علي فهمي ولد رفاعة (بك) ، وكان مدرس الإنشاء بمدرسة الإدارة والألسن ، واتخذت المجلة شعارها :

تعـلم العـــلم واقرأ   تحز فخـــار النبوة

فالله قال ليحيي   (خذ الكتاب بقوة)

فكانت هذه المجلة ميداناً يتبارى فيه فطاحل الكتاب في ذلك العصر ، وقد عنيت كما رأيت بالمباحث الطريفة في العلم والأدب والاجتماع والفلك والتاريخ والرياضيات ، وكانت تصدر مرتين في الشهر ، وظلت تصـــدر ثماني سنوات ، فمهدت السبيل للصحافة الحديثة ، وكانت توزع بالمجان على جميع التلاميذ ، وقد أفسحت أعمدتها للطلبة ينشرون أبحاثهم الجيدة فيها فعودتهم بذلك الاطلاع والكتابة والبحث ، وبذل الجهد المستقل عن أساتذتهم .

ومن الأمثلة على تشجيع المجلة للتلاميذ ما نشرته « للشاب النجيب ،

---

(١) العدد الاول من مجلة روضة المدارس.

اسماعيل أفندي صبري أحد تلاميذ مدرسة الإدارة وقتئذ »، وقد صار فيما بعد الشاعر المشهور اسماعيل (باشا) صبري .

فمن ذلك قصيدته في مدح الخديو اسماعيل بالعدد العشرين من السنة الأولى مطلعها :

سفرتْ فلاح لنا هلال سعود ونما الغرام بقلبي المعمود

وقصيدة أخرى بالعدد الخامس من السنة الثانية قال فيها :

أغرتك الغراء أم طلعة البدر وقامتك الهيفاء أم عادل السمر

وشعرك أم ليل تراخى سدوله وثغرك أم عقد تنظم من درّ

وقصيدة أخرى بالعدد الثالث والعشرين من السنة الثانية استهلها بقوله :

لا والهوى العذري والوجد عذل عذولي فيك لا يجدي

إني مع الصد وطول الجفا باق على الميثاق والعهد

وغير ذلك مما يعد تقدمة وباكورة للشعر الحديث [١] .

٢ – أما الصحف السياسية بمصر فأقدمها ظهوراً جريدة (وادي

---

(١) راجع تاريخ الحركة القومية لعبد الرافعي ج ٣ ص ٤٩٨ ترجمة رفاعة الطهطاوي وعصر اسماعيل له كذلك ج ٢ ص ٢٦٢ وديوان إسماعيل صبري ص ٢ – ١٠ وأعداد مجلة روضة المدارس .

النيل) أنشأها الكاتب الأديب الشاعر عبد الله أبو السعود [1] ؛ وكانت تصدر مرتين في الأسبوع على شكل المجلات ثم ألغتها الحكومة في سنة ١٨٨٣ ؛ بيد أنها استأنفت جهادها وحياتها باسم جديد هو « روضة الأخبار » التي أصدرها محمد أنسي نجل عبد الله أبي السعود ، وكان والده يحرر القسم السياسي بها الى آخر حياته .

٤ – وتليها في الظهور جريدة (نزهة الأفكار) سنة ١٨٦٩ لمنشئها إبراهيم المويلحي ، ومحمد عثمان جلال ، وناهيك بهما في ذلك العصر فحولة قلم ، وجزالة أسلوب وطرافة موضوع وحلاوة نكتة ، وكانت هذه الجريدة أسبوعية ، ولكن لسوء الحظ لم يصدر منها إلا عددان ، وضاق بها إسماعيل ذرعاً ، فعطلها حين نصحه بذلك أحد وزرائه خشية أن تثير لهجتها الخواطر ضده .

٥ – وأنشأ بعض الأقباط بمصر في سنة ١٨٧٧ ، جريدة الوطن ، وكانت سياسية وطنية تميل الى التحرر .

ثم نزح عقب حوادث سنة ١٨٦٠ في سوريا [2] جماعة من الأدباء الذين فروا بحريتهم من الاضطهاد ؛ جاءوا وقلوبهم تغص بالحقد والإحن على تركيا ، وفي نفوسهم ميل الى الحرية والتنفيس عن الآراء المكبوتة .

---

(١) توفي سنة ١٨٧٨ وهو من أوائل تلاميذ رفاعة الطهطاوي ؛ واشتغل بالتدريس بدار العلوم واشتهر بالترجمة والكتابة في التاريخ . وصار عضو بمجلس الاستئناف .

(٢) في هذه السنة زاد اضطهاد الأتراك لمسيحي سوريا ، وقامت مذابح في جبل لبنان ذهب ضحيتها عدد كبير من المسيحيين . واضطر كثير من سكان القرى بجبل =

وقد شجعهم اسماعيل على الإقامة بمصر ، والإسهام في نهضتها ؟ ولا نستطيع أن ننكر ما أسدوه للصحافة ولنشر الثقافة من خدمات .

ومن أوائل الذين وفدوا على مصر عقب هذه الحوادث الدامية .

أديب إسحق :

وهو فلتة من فلتات الزمن . استطاع مع حداثة سنه أن يتوهج في سماء الأدب والسياسة والخطابة نجماً ساطعاً ، وأن يكوّن مدرسة انشائية يحتذيها الأدباء والخطباء . وكان من الذين امتلأت قلوبهم بحب مصر والشرق ، ورأى الأجانب الطامعين ، والمرتزقة والأفاقين ، فأضرمها عليهم ناراً مشبوبة ، لا تخمد لها جذوة في كل مكان حل به ، وما ارتحل وشرد في سبيل مبدئه وفيض وطنيته وحرارة أسلوبه حتى احترق صغيراً ومات ولما ينته العقد الثالث من عمره .

ولد أديب إسحق سنة ١٨٥٦ من أبوين سوريين : ونشأ بلبنان ، وتعلم العربية والفرنسية في مدرسة الآباء العازاريين ، واضطر الى الكدْح في سبيل العيش وهو صغير ، ودرس التركية في أوقات فراغه ، ثم انضم الى والده في خدمة بريد بيروت . وقد ظهرت ميوله الأدبية في حداثته فمهد اليه وهو في السابعة عشرة بتحرير جريدة (التقدم) .

= لبنان إلى الهجرة . وذلك لأن نصارى الشام قد أظهروا ولاءهم لإبراهيم باشا وكرههم للحكم التركي أيام وجوده بينهم . فلما سحبت الجيوش المصرية ظلوا على ولائهم لمصر ، فانتقم الأتراك منهم شر انتقام .

وكان الى عمله الصحفي يترجم عن الفرنسية ويؤلف ، وانتمى الى جمعية (زهرة الآداب) ثم صار رئيساً لها فيا بعد . وقد ترجم (أندروماك) لراسين ؛ وساعد صديقه (سليم نقاش) في تأليف المسرحيات ، وتمثيلها ، ولحق به في الأسكندرية . وكانت فرقتهما التمثيلية من أوائل الفرق العربية ، وعرب أديب رواية (شارلمان) وأعجب بها المصريون إعجاباً عظيماً [1] وألف رواية (غرائب الاتفاق) .

وحن الى الصحافة فذهب الى القاهرة ، واتصل بالسيد جمال الدين الأفغاني . وأنشأ هو وصديقه سليم نقاش جريدة (مصر) سنة ۱۸۷۷ وكانت أسبوعية ، وقد تأثرا فيها بتعاليم جمال الدين الأفغاني وأسلوبه الملتهب ، أنشآها وهما مفلسان لا يملكان غير عشرين (فرنكاً) بيد أن أسلوبها وقوة بيانها ، وجدة أفكارها ، ودعوتها الجريئة للحرية ، قد ضمنت لها الإقبال ، والرواج ، ورحب بها الذين يحبون القلم القوي ، والأسلوب الجزل والأفكار الجريئة ؛ واندفع كاتبها كالبركان يرسل ناراً ، ونوراً ، وينفس عن نفسه ما طالما كبت فيها وهو ببيروت ، وما ذاقه وقومه من اضطهاد وظلم على أيدي الأتراك ؛ فحركت الهمم وأعادة للأسلوب الرفيع عزته .

وقد وجد أديب إسحق وسليم نقاش في رواج (مصر) ما شجعهما على إصدار جريدة يومية سمياها (التجارة) وكانت لا تقل عن أختها حماسة وقوة ، ونشر فيها جمال الدين الأفغاني بعض المقالات ، تارة ممهورة بتوقيعه ، وتارة بتوقيع مستعار ، وقد ألغاهما رياض باشا

---

(1) M, Sapry ; La Genése de I, Esprit Natoinal Egyptian p, 228

سنة ١٨٨٠ .

ولكن ذلك لم يثن من عزيمة (أديب إسحق) فهاجر إلى باريس . واستأنف جهاده وأصدر ثمة جريدة (القاهرة) بالعربية وقال في مقالها الأول : « ما تغيرت الحقيقة بتغير الاسم ، بل هي مصر خادمة مصر » .

وقد حرص في أثناء مقامه بباريس على معرفة عدد كبير من ساسة فرنسا وعلمائها حتى روى فيكتور هوجو أنه قال لمن كانوا في حضرته ، على أثر انصراف أديب : هـذا نابغة الشرق » . ولكن برد باريس ، وإسرافه على نفسه في كل شيء قد جنى على صدره ، فرجع الى لبنان ملتمساً الشفاء ، وعاد الى تحرير جريدة التقدم مرة أُخرى .

وحين تغيرت الأحوال في مصر دعي إليها ، وعين مديراً لقلم الإنشاء والترجمة بوزارة المعارف ، وسمح لجريدة مصر بالظهور ، وشغل وظيفة أخرى بجانب وظيفته الأولى حيث عين كاتب سرّ مجلس شورى القوانين وحين قامت الثورة العرابية واشتد لظاها عاد الى بيروت ثم رجع الى الإسكندرية ، ثم اشتد به مرض الصدر ، فعاد الى لبنان حيث مات بقرية الحدث بالقرب من بيروت وهو في التاسعة والعشرين من عمره سنة ١٨٨٥ . وهي قريبة من القرية التي دفن فيها أحمد فارس الشدياق ، وهكذا جمع الموت بين علمين من أعلام النهضة الحديثة ورواد الفكر والأدب الجديد .

وكان أديب إسحق ناراً مسلطة على الاستعمار ، والذل والعبودية ، وقد التقى بجمال الدين فزادت حماسته واضطرمت النار في فؤاده ، فأخرجها شواظاً ملتهباً في كلمات تصب الحُممَ على الأعداء ، وتثير الهمم

الفاترة ؛ لقد نادى بوجوب اتحاد الأمم العربية ، فسبق زمنه قرناً أو ما يقرب من قرن ، وفي ذلك يقول : « ما ضر زعماء هذه الأمة لو سارت منهم الرسائل بتعيين الوسائل ، ثم حشدوا الى مكان يتذاكرون فيه ويتحاورون ، ثم ينادون بأصوات متفقة المقاصد كأنها من فم واحد . قد جاءت الراجفة ، تتبعها الرادفة ، وهبت الحاصبة ، تليها العاصفة ، فذرّت حقوقنا فصارت هباء منثوراً ، ولمت بنا القارعة ووقعت الواقعة فصرنا كأن لم نغن بالأمس ، ولم نكن شيئاً مذكوراً ، فهلم ننشد الضالة ، ونطلب المنهوب ، لا تقوم بأمر ذلك فئة بدون فئة ، ولا نتعصب لمذهب دون مذهب ، فنحن في الوطن إخوان ، تجمعنا جامعة اللسان ، وكلنا وإن تعدد الأفراد إنسان .

أيحسبون أن ذلك الصوت لا يكون له من صدى ، أم يخافون أن يذهب ذلك الاجتهادي سُدى ، أم لا يعلمون ان مثل هذا الاجتماع ، منزهاً عن المقاصد الدينية ، منحصراً في العصبية الجنسية والوطنية ، مؤلفاً من أكثر النحل العربية — يزلزل الدنيا اضطراباً ، ويستميل الدول جذباً وارهاباً ، فتعود للعرب الضالة التي ينشدون ، والحقوق التي يطلبون ، ولا خوف على زعمائهم ولا هم يحزنون » .

ان هذا ولا ريب تفكير مشرق ، وقلب عظيم يتجه الاتجاه السليم الذي يجب أن تسير فيه الأمة العربية منذ أن رأت الغرب الجشع يطمع ، ويحد براثنه لينهشها الواحدة تلو الأخرى ، ولو فعلت ذلك من أواسط القرن التاسع عشر ما أصابها اليوم ما أصابها .

وكان أديب ممن يعشق حرية الرأي وينادي بالدستور ، وقد كتب مقالاً يرد فيه على الشيخ حمزة فتح الله محرر جريدة (البرهان) في سنة

١٨٨١ حين دعا الشيخ الى حكم الفرد يوم افتتاح مجلس النواب ، فقال له أديب :

صفحا لصرف الدهر عن هفواته   إن كان هذا اليوم من حسناته

« وكيف لا ؟ وهو حاجة النفس ، وأمنية القلب ، منذ توجه الخاطر إلى السياسة الوطنية ، وانصرف العزم الى إحياء الهمم ، وانعقدت النية على حفظ الحقوق ، واتحدت الوجهة في القيام بالواجبات ، وهو النشأة التي كست الوطن رداء الفتوة قشيباً ، وهو البغية التي غرست للأمة غصن الأمل رطيباً ، وهو ما رجوناه زماناً ، ودافعنا الزمن فيه ، وتمنيناه أعواماً وغالبنا الحدثان عليه فيا حسنَه من يوم رد فائت البهاء ، وأحيا مائت الرجاء ، وأعاد شباب الأمة ، وسدل ستور النعمة ، وأظهر مقاصد الأمير ، وأيّدَ مساعي الوزير ، وقضى لُبانات النبهاء ، وحقق أماني النزهاء [1] » .

وكان أديب مغرماً بمصر ، محُباً لها حُباً ملك شغاف قلبه ، مثله في ذلك مثل الشدياق ، ولا بدْع فقد آوته في غربته ، وأعطته الحرية التي حُرمها في وطنه ، وأفسحت له مجال العمل ، وقدرت جهده ، حتى منحه الخديو الرتبة الثالثة بيده ، وأنزلت كفاءته منزلتها فعينته في الوظائف الكبيرة ؛ ثم إنها ملجأ الأحرار ، وزعيمة الشرق العربي ، ونهوضها – كما كان ذلك رأي أستاذه جمال الدين – نهوض للعرب أجمعين ، وفي مصر يقول أديب : « ومصر ، ولا حياء في الحب ، بلد تركت فيه

---

(١) جريدة في مصر ٢٩ من يناير ١٨٨٢ .

زهرة أيام الشباب ، وخلّفت غرس الآداب ، وهززت غصن الأماني رطيباً، ولبست ثوب الآمال قشيباً ، فما عدلت بي عن حبها النكبة ، ولا أنستني عهدها الغرُبة ، ولست أول محب زاده البعد وجـــداً ، ولم ينكث على العهد عهدا ، فحذار أهل مصر إن العدو لكم بالمرصاد ، وإنكم لمحفوفون بالعيون والأرصاد » .

واستمع إليه يقول في الحزب الوطني وأمانيه وأنه « يريد أن يكون المصري في مقام الإنسان ، مستقلا بوجوده متمتعاً باستقلاله ، فائزاً بحقوقه ، ناهضاً بواجباته ، وتريدونه بمنزلة الحيوان ، يساق للمـــوت ، فإن عجز فللسلخ ، ويطلب أن يكون الوطني آمناً في داره ، مساوياً لجاره ، يستغل زرعه ، ويستدر ضرعه ، وتلتمسون أن يكون غريبـاً في آله ، مصادراً بماله ، يطعم من يَحْرمُه ، ويؤمن من يروُعه ، ويحفظ من يضيّعه [1] » .

وكان أديب من ألد أعداء الأجانب ، وإليك بعض نفثاته الحـارة ضد صحيفة موالية للأجانب وقد كانت تشيد بإلغائهم بعض الضرائب لتمكن أقدامهم في احتلال مصر : « فهل خفي عن تلك الصحف أنـه ليس من شفقة الصياد على الطير إلقاؤه الحب بين يديها ؟ او لم تعلم أن القائل بهمجية المصريين ، المعتقد بأنحطاط مداركهم ، لا يطعمهم هـذا الفتات ، الا ليسهل على الإنجليز هضم قوتهم والتهام ثروتهم !

كلا ! إن الجرائد المصرية لا تجهل حقيقة الأمر ، ولكنها لا تستطيع التصريح ، علماً بأن اللص العازم على سرقة الحقوق الوطنيـــة يكره

---

(١) جريدة في مصر ٢٩ من يناير ١٨٨٢ .

النور ، فإذا حاولت إظهاره سارع الى إطفائه بتعطيلها وإلغائها .

يا أهل مصر :

اني محدثكم حديثاً غريباً : اذا كان أمراؤكم خيارَكم ، وأغنياؤكم أسخياءكم وأمورُكم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها ، واذا كان أمراؤكم شراركم ، وأغنياؤكم بخلاءكم وأموركم الى نسائكم ، فبطن الأرض خير لكم من ظهرها » .

كان أديب جندياً من جنود الحرية ، ومصر ، والعروبة ، ولما عطلت جريدة التجارة أسبوعين أول الأمر دبَّج مقالاً جاء فيه : ولئن ساءنا أن جاءنا ذلك الإخطار بلوم ، وعقاب أليم ، لقد سرنا أن تكون الجرائد موضعاً للنظر ، ومجالاً للنقد ، ولم نر في القصاص شيئاً يستمين به اللائم ، او مصاباً يعتضد به الشامت ، فإن « التجارة » تحسب حبَّ الوطن ديناً والمدافعة عنه جهاداً ، فإن عاشت فيه سعيدة ، وان ماتت فهي شهيدة ، ولقد آتاها الله النعمتين ، وأتاح لها الحسنيين ، فعاشت به ، وماتت عليه ، وستبعث بعد اسبوعين ، رافلة في ثوب الشهادة ، مزينة بحلى السعادة على الرغم من أنوف حاسديها ، الذين أولوا كلامنا الى ما لم نقصد ، وسعوا فيها بما لم يخطر على قلوبنا ، وحاولوا اطفاء نور الحق ، ويأبى الله الا ان يتم نوره ولو كره المبطلون [1] » .

ولم يثنه تعطل جريدتيه ونزوحه الى باريس عن غايته المثلى ، وهي العمل على ايقاظ الشرق العربي ، والدعوة للحرية ، وطرد الأجانب من البلاد ، وقد أعلن خطة جريدته « القاهرة » التي أصدرها بباريس بقوله :

---

(١) التجارة العدد ١٨٧ في ١٣ من فبراير ١٨٧٩ .

اني « لا أقصد الى الانتقام ، وإنما أروم مقاومة الباطل ونصرة الحق ، والمدافعة عن الشرق وآله ، وعن الفضل ورجاله ، فمسلكي ان أكشف حقائق الأمور ، ملتزماً جانب التصريح ، متجافياً عن التعريض والتلميح ، وأن أجلوا مبادىء الحرية ، وآراء ذوي النقد ، ومقصدي أن أثير بقية الحمية الشرقية ، وأهيج فضالة الدم العربي ، وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين ، وأحيي الغيرة في قلوب العارفين ، ليعلم قومي ان لهم حقاً مسلوباً فيلتمسوه ، ومالاً منهوباً فيطلبوه ، وليخرجوا من خطة الخسف ، وينبذوا عنهم كل مُدَّاس يشتري بحقوقهم ثمنا قليلاً ، ويذيقوا الخائنين عذابا وبيلاً ، وليستصغروا للأنفس والنفائس في جنب حقوقهم ، وليستميتوا في مجاهدة الذين يبيعون أبدانهم وأموالهم وأوطانهم وآلهم » .

وأسلوب أديب أسلوب قوي متين ، افتن في تدبيجه وانتقاء الفاظه ، وحلاه بالسجع على عادة كتاب ذلك الوقت ، ولكنه ليس بالسجع السخيف المتعمد ، ولكنه سجع قريب من سجع ابن العميد ، والصاحب ابن عباد ، والصابي ، لا من سجع الحريري والقاضي الفاضل . إنه حقاً حفل بالأسلوب كما حفل بالمعنى ، وأحيا الكتابة العربية المنمقة القوية أيام كانت في القرن الرابع الهجري ، ونقول مع (مارون عبود) [1] : « أما الذي يتراءى لي من آثاره الكتابية ومن أسلوبه ، فهو أنه ناري الشعور ، متقد الخاطر ، ثوري من الطراز الأول ، كأنه كان في رفقة الحجاج يوم دخل الكوفة وقد انتشر النهار ، يرسل عباراته فتئز أزيز السهم ، وقد فارق الوتر . جمل كأنها مقطوعة على نمط واحد ، لا هي بالطويلة ولا هي بالقصيرة ، يشد بعضها بعضاً فتؤلف مقالته كتيبة جامحة ، إذا راعيتها منفردة لا تحس لها مفعولاً عظيماً ، ولكنها تؤلف كلا تخرج منه النفس ، وقد ملأها

---

(١) مجلة الكتاب فبراير ١٩٤٨ .

هذا الكلام اندفاعاً واستبسالاً » .

ويقول : « نثر كأنه الشعر يرصعه بأبيات إما من الشعر القـديم ، وإما من نظمه هو فيأتي مقاله عجاجاً زاخراً حين يحتد ويشتد كقوله : « هو الظلم حتى تمطر السماء بلاء ، فتنبت الأرض عناء ، فلا تجد على سطحها إلا جسوماً ضاوية ، في ديار خاوية ، وقلوبـــاً تحترق في بلاد تحت رق » .

وهو يراعي الموسيقى في نثره أكثر من شعره فيتعمد ما كانت تتعمده مدرسة ابن العميد من أفعال مختلفة تتحرك لها الجملة فتحرك قارئها تواً ، وإن ذهب أثرها من عقله بعد حين كقوله :

« هو الجهل حتى تضيع الأخطار ، وتفنى الأقدار ، وتبطل الهمم ، ويعفو القلم ، ويدرُسَ الفهم ، ويستعلي الخامـــل ، ويستولى الجاهل ، وتنخفض الرءوس ، وتنقض النفوس وحتى ترى :

بكل أرض وطئتها أمم ... تُرعى بعبد كأنها غنم

يستخشن الخز حين يلبسه ... وكان يـبري بظفره القلم

ومن شعره الذي جرى مجرى الأمثال ، وإن لم يكـن من الشعراء المجلين ، وإن اشتهر بنثره أكثر مما اشتهر بشعره قوله :

قتلُ امرىء في غابة ... جريمـــةٌ لا تغتفر

وقتـلُ شعب آمن ... مسألة فيهـا نظر

والحق للقـوة لا ... يُعطاه إلا من ظفر

ومن ذلك قوله :

حسب المرأة قـوم آفـــة　　من يدانيهـا من الناس هلك
ورآهـــا غيرهم أمينـة　　ملك النعمة فيهـا من ملك
فتمنى معشر لو نبذت　　وظلام الليل مشتد الحلك
وتمنى غيرهم لو جعلت　　في جبين الليث أو قلب الفلك
وصواب القول لا يجهـله　　حاكم في مسلك الحق سلك
إنما المرأة مرآة بهـا　　كلُّ ما تنظره منك ولك
فهي شيطان إذا أفسدتها　　وإذا أصلحتها فهي ملك

إذا كان الشدياق قد وضع أسس المقالة الحديثة في صحيفة الجوائب ، وهجر الأسلوب المرصع المسجوع في الكتابـــة الصحفية ، واقتفى أثره كثيرون شغلوا بالصحافة ، ورأوا ذلك ادنى لأن يفهموا من جمهرة القراء ، وأسرع في الإبانة عن المعاني الكثيرة التي يريدون الإفضاء بهـــا واستقصائها ، فإن فضل أديب إسحق على الأسلوب الأدبي لا ينكر ،وقد قلده كثيرون ممن كتبوا المقالة ، وكانوا من أنصار الشدياق بادىء الأمر ، وعلى نهجه جرى جُبران ، ونجيب حداد وغيرهما من أفاضل السوريين ، ولكن الصحافة لم تحتمل هذا الأسلوب ، ورجعت الى البساطة في التعبير ؛ وإن ظل أسلوب أديب الذي أحيا به كتابة القرن الرابع نموذجاً للأدباء في أواخر القرن الماضي . وأوائل القرن الحاضر .

ومن السوريين الصحفيين سليم الحموي صاحب جريدة (الكوكب الشرقي)

سنة ١٨٧٣ . ولكنها كانت قصيرة العمر . ومنهم سليم وبشارة تقلا .وقد أصدرا (الأهرام) بالأسكندرية سنة ١٨٧٥ ، وقد لاقت أول أمرها عقبات جمة ، ثم نالت حظاً كبيراً من الرواج ، وكانت تصدر أسبوعية في بدء ظهورها ثم صدرت بجانبها جريدة يومية تسمى (صدى الأهرام) فلما عطلت الجريدة اليومية انفردت الأهرام بالظهور ، ودأبت تصدر حتى اليوم ، فهي أقدم الصحف المصرية السياسية ، وإليها يرجع الفضل في تقدم الصحافة المصرية وأخذها بكل جديد من صحافة الغرب . ولقد كانت المقالة أهم شيء في الصحيفة ، حتى خرجت الأهرام على ذلك في سنة ١٩١٢ ، وقدمت الأخبار على المقالة ، والأهرام أول من عُني بالحوادث المصورة ، ولقد ازداد حجمها أحياناً في عهد جبرائيل تقلا حتى بلغ عشرين صفحة ، وقد عنيت عناية فائقة بالأخبار الخارجية ، وصارت نموذجاً لصحف الشرق العربي كله .

ومنهم سليم عنحوري ، وقد أصدر جريدة سياسية سماها (مرآة الشرق) ولكنه تنحى عنها في سنة ١٨٧٩ ، وتولاها إبراهيم اللقاني بإيعاز من السيد جمال الدين الأفغاني ، وقد أنشأ الشيخ يعقوب صنوع اليهودي صحيفتين سياسيتين وهما (مرآة الأحوال) صدرت في لندن سنة ١٨٧٦ ، و (أبو نضارة) صدرت في القاهرة سنة ١٨٧٧ . ويعقوب صنوع إسرائيلي مصري ولد سنة ١٨٣٩ ، وكان يتقن التوراة ، وقرأ الإنجيل والقرآن ،وتعلم في ايطاليا على نفقة أحمد باشا يكن ، وهو أول من أنشأ مسرحاً عربيا في القاهرة سنة ١٨٧٠ وأعجب به الخديو اسماعيل وكان يسميه (موليير مصر) منحه المنح ، وأمده بالعون ، وحضر بعض تمثيلياته تشجيعاً له ، وقد ألف نحو اثنتين وثلاثين مسرحية في موضوعات جدية وهزلية . وسافر الى اوربا سنة ١٨٨٤ وبقي فيها فترة ، ولما عاد الى مصر اتصل بالسيد جمال الدين والشيخ محمد عبده ، وكان يعلمها الفرنسية .

وكانت « ابو نضارة » من الصحف المعارضة لإسماعيل ، وكان صاحبها

ميالاً للفكاهة والدعابة ، وقيل إن السيد جمال الدين هو الذي اوحى إليه بإصدار جريدته لا نتقاد سياسة اسماعيل . وكانت (ابو نضارة) اول جريدة هزلية سياسية صدرت بمصر ، وقد نفاه اسماعيل فرحل الى (باريس) ، واستأنف إصدار جريدته بأسماء مختلفة معارضا الخديوي ومنتقداً اعماله ؛ ولم يخل عدد منها من صور تعرّض تعريضا شديداً بالخديوي اسماعيل ، فلقيت رواجا ، واستمر الشيخ صنوع يصدر جريدته الى ما بعد الاحتلال ، وكان ممادیا للإنجليز وتوفي سنة ١٩١٢ .

وعلى العموم فقد بلغ عدد الصحف التي ظهرت في عهد اسماعيل ما يقرب من عشرين صحيفة ، ومعظمها ظهر في اواخر ايامه ؛ وقد اطلق لها الحرية في الكتابة . وكان يميل الى هذه الحرية في اخريات عهده حين اصطدم بالمطامع الأوربية . وكانت هذه الصحف تندد بسياسة الاوربيين وجشعهم ونواياهم . وتشعر الناس بتدخلهم السياسي . وتحمل عليهم حملات شديدة اللهجة . فكان ذلك يروق اسماعيل . ولكن لم يكن يرضى ان يتعرض كاتب ما لسياسته الخاصة او لشخصه .

تعقيب :

هذه النهضة الصحفية خلصت اللغة من اسرها القديم . واوضارها التي ورثتها من عصور الضعف . وخاضت في موضوعات شتى كما ذكرنا .وسلس الاسلوب .واحتذى الصحفيون اسلوب ابن خلدون في مقدمته . ذلك الاسلوب المرسل السهل . واذا وازنا بين اسلوب النثر الصحفي في هذا العهد الذي نتحدث عنه ، واسلوب الكتابة في العصر السابق وجدنا البون شاسعا . وقد

مرت بك نماذج من هذه الكتابة الصحفية يتجلى فيها أثر التحرر اللغوي والفكري ، وقوة البيان ، وطرافة الموضوع ، وإليك مـا قال بعض قادة النهضة الصحفية في الحث على العلم والاهتمام بالبيان ، وطريقة الكتابة ، راسمين للشاذين في الصحافة الطريقة القويمة .

١ – يقول أحمد فارس الشدياق :

« من الناس من يتعلم ، وهو مجبول على صفات حميدة فيزداد هـدى ورشداً وورَعاً ودماثة أخلاق ، وحسْن تصرف ، واستقامة طبع ، ونزاهة نفس ، وصفاء عقيدة ، وإخلاص مودة، وسلامة نية ، وعفة قلب ولسان ، وانبساط يد ، فمثله كمثل الجوهر الشفاف إذا قابلـه شعاع الشمس ، أو كمثل إناء من زجاج نظيف صاف إذا وضع فيه المـاء لم يغير من طبعه شيئاً ، فتراه دائماً مقبلاً على نفع الناس ساعياً في إصلاح شئونهم ، وتسنية أحوالهم ، باذلاً أقصى جهده في تسكين خواطرهم ، ولم شعثهم ، وتأليف مفرّقهم ، وتسلية حزينهم ، وإرشاد غاويهم ، وتأييد ضعيفهم ، وليس من همه التردد على أبواب الأمراء والخضوع لحجابهم ... الخ[1] » .

٢ – ويقول أديب إسحق :

« الكتابة صناعة يراد بهـا التعبير عن الخواطر والمحسوسات بوضع صحيح ، وأسلوب صريح فهي ذات ثلاثة أركان : الخاطر المراد إيضاحه وهو الإنشاء ، والوضع الذي يبدو به ذلك الإيضاح وهو البيان ، والكيفية التي يحصل بها ذلك وهو الأسلوب » .

---

(١) مجاني الغرر ج ٢ ص ١٧٧ .

ويقول أديب إسحق كذلك :

رأيت أن أصرف العناية إلى تهذيب العبارة وتقريب الإشارة ؛ لتقريب المعنى في الأفهام ، من أقرب وأعـــذب وجوه الكلام ، وانتقاء اللفظ الرشيق للمعنى الرقيق ، متجنباً من الكلام ما كان غريباً وحشياً ، ومبتذَلاً سوقياً ، فإن التهافت على الغريب عجز ، وفساد الـتركيب بالخروج عن دائرة الإنشاء داء إذا سرى في القراء والمطالعين أدى إلى فساد عـــام ، وأغلق على الطلبة معاني كتب العلم ، والتنازل الى ألفاظ العامة يقضي بإماتة اللغة ، وإضاعة محاسنها وان في لغة القوم لدليلاً على حالهم » .

وقد عدل أديب إسحق عن أسلوبه المنمّق في أخريات حياته ، ولا سيا في بعض مقالاته الصحفية وفي ذلك يقول : « قـــد التزمت لهذا المطلب أسلوب التقرير . وعدلت فيه عن منهج الخطابة الشعرية ، لا عتقادي بأن الأسلوب الخطابي ، وان كان أسرع تأثيراً في القـــلوب وأحسن وقعاً في الأذهان ، الا أنه قد يميل بالكاتب الى جانب التخيل الوهمي في مكان التقرير العلمي ، فيرتفع بيانـــه عن المدارك التي سيقت اليها الملكات الحسية ، فلا يبقى بها من محل لملكة الخيال المسماة شعراً ، فيفوت الغرض المقصود من البيان والبلاغة ، وهو تقرير المعاني في الأفهام ، من أقرب وجوه الكلام ، ولهذا سأرسل فيه الكلام ارسال مقرر مبين ، ولا أتـكلفه تـكلف منمق مُزْين ، فإن أحكام التقرير منافية لهذا التمويه الذي يسمونه بديعاً » .

ويقول : « النثر هو الكلام المطلق المرسل عفو القريحة بلا كلفة ولا صنعة ، الا ما يكون من وضع الكلام في مواضعه ، وايثار مـــا يألفه السمع والطبع منه ، فهو من هذا الوجه مقدم على سائر أنواع الكلام ، بل هو الأصل في الإنشاء ، وما سواه فرع منه ، فإنه طبيعي أصيل ،

وما دونه صناعي حادث ، والأصل في الطبيعة لا محالة ؛ يدل على ذلك أن هذا الكلام المقفّى الذي يسمونه سجعاً لا يكاد يوجد في غير اللسان العربي ، فلو كان طبيعياً لوجب أن يكون في جميع اللغات ، أو في المعدودة منها أصولاً على الأقل [١] » .

٣ - ويقول السيد عبد الله النديم في العدد الأول من جريدة (التنكيت والتبكيت) [٢] .

« إليكم يراعي فاستخدموه في مقترحات أفكاركم العالية . وصحيفتي فاملئوها بآدابكم المألوفة ، وبدائعكم الرائقة ، فاليراع وطني يخاطب القوم بلغتهم ويطيعهم فيما يأمرون به ، والصحيفة عربية ، لا تبخل بالعطاء ، ولا ترد الهدية ، وأنتم كرامُ اللغة وإخوانُ الوطنية ، فشدوا عضد أخيكم بالقبول والإغضاء عن العيوب ، وساعدوه بأفكار توسع دائرة التهذيب ، وتفتح أبواب الكمال ، وكونوا معي في المشرب الذي التزمته : والمذهب الذي انتحلته . أفكار تحليلية ، وفوائد تاريخية ، وأمثال أدبية ، وتبكيت ينادي بقبح الجهالة ، وذم الخرافات ، لنتعاون بهذه الخدمة على محو ما صرنا به مثلة في الوجود من ركوب متن الغواية ، واتباع الهوى اللذين أضلانا سواء السبيل » .

وترى من هذه النماذج كيف كان القوم يجاهدون في سبيل العلم وتفتيح الأذهان المغلقة ، وتحبيب الناس في الثقافة ، والإشادة بفضل المتعلمين في زمن كانت فيه الأمة لا تزال تحبو في طريق النور ، وكيف وضعوا أسس تحرر اللغة من أسر السجع والتكلف ، ورسموا قواعد

---

(١) مجاني الفرر ج ٢ ص ٦ .
(٢) صدرت سنة ١٨٨١ راجع سلافة النديم ص ٧٧ .

الإنشاء الصحيح لمن يريد أن يتخذ الكتابة حرفة ، وكيف سخروا القلم القوي الجريء في خدمة الوطن ، وجعلوا الصحف ميداناً للافكار الطيبة والأدب الرفيع والدعوات الإصلاحية الحرة ، وبذلك كانت الصحافة منارة من منارات النهضة العربية الأدبية . ارتفعت هذه المنارة في عهد إسماعيل ، وظلت ترسل النور قوياً يبدد سدفة الجهل ويهدي الضالين الى اليوم .

- ٤ -

الطباعة :

نهضت الطباعة نهضة عظيمة في عهد اسماعيل ، إذ وجهت الحكومة عنايتها الى مطبعة بولاق ، وما زالت بها حتى صارت أرقى مطبعة في الشرق ، وأسست مصنعاً للورق يمد مصالحها المختلفة بالورق في سنة ١٨٧١ ، ويزود المشتغلين بالعلم والطباعة ، والتجار بكل ما يحتاجون اليه . ولقد سهل هذا الأمر على المشتغلين بالعلوم ، وشجعهم على النتاج المتصل ، وكاد نتاج الورق بمصر يعطل ما يرد من أوربا حينذاك .

وأنشئت بجوار مطبعة بولاق عدة مطابع أهلية أهمها مطبعة جمعية المعارف التي تكلمنا عنها آنفاً ، ثم المطبعة الأهلية القبطية التي جلبها من أوربا الأنبا كرلس الرابع سنة ١٨٦٠ في عهد سعيد باشا . ومطبعة (وادي النيل) لمحمد أبو السعود أفندي ، ومطبعة (مجلة روضة المدارس) والمطبعة الوطنية بالاسكندرية ... وغير ذلك من المطابع التي كان لها

الفضل الأكبر في نشر الكتب الحديثة، وتيسير الاطلاع، والنهوض باللغة والأدب وشئون التعليم .

ومن أشهر الكتب القديمة التي طبعت في تلك الحقبة : المثل السائر، والأغاني، وتاريخ ابن خلدون ومقدمته، والعقد الفريد لابن عبد ربه، وفقه اللغة للثعالبي، ووفيات الأعيان، وإحياء علوم الدين للغزالي، وتفسير الرازي، والبخاري (شرح القسطلاني)، وحياة الحيوان، ونفح الطيب، وقانون ابن سينا في الطب، وتذكرة داود، وغير ذلك من نفائس الكتب التي عملت على تغذية العقل بنتاج السلف، وتهذيب اللغة وتقويمها .

- ٥ -

الترجمة والتأليف :

كانت التركية لا تزال ذات سطوة في مصر حتى عصر اسماعيل ولكنه عمد الى تمصير الحكومة ولغتها؛ حتى يسهل انفصاله عن الدولة العثمانية، وأصدر أمراً بجعل صور الأوامر واللوائح وكل ما سبق صدوره من الإجراءات منذ عهد محمد علي عربية، كما أمر بطبعها، فما كان منها عربياً يطبع كما هو، وما كان تركياً تطبع معه ترجمته العربية [١]، ولقد كان الأمر باستعمال اللغة العربية أداة التعبير الحكومية سابقاً لأوانه ؛ لافتقار

---

(١) حركة الترجمة بمصر لجاك تاجر ص ٦٢ .

البلاد لعدد كبير ممن يحذقون اللغة العربية ، ولا سيما بعد ذلك الركود الذي أصاب التعليم على يد عباس وسعيد ، ثم ان ترجمة هذه القوانين الكثيره التي صدرت منذ عهد محمد علي تحتاج الى وقت طويل ، ولذلك ظلت للتركية بعض السطوة ، وإن اخذت تدريجياً تفسح مكانها للعربية حتى أوشكت أن تحل محلها نهائياً في أخريات عصر إسماعيل .

ومما ساعد على الاهتمام بالترجمة في عهد اسماعيل ازدياد النفوذ الأجنبي ، وكثرة من وفدوا الى مصر من هؤلاء الأجانب تجاراً ومغامرين ، ولا سيما بعد فتح قناة السويس ، فأنشئوا المصارف والدور التجارية الكبرى ، ودخلوا في خدمة الحكومة مديرين وفنيين وعلى الأخص حين اضطربت مالية البلاد .

واهتم إسماعيل باللغة الفرنسية اهتماماً زائداً ، لأنها كانت منذ عهد محمد علي هي اللغة التعليمية الأولى لرجال البعثات .

وظل الأمر في تدريس المواد العلمية كما كان في عهد محمد علي محتاجاً الى وساطة بين التلاميذ والمدرس الأجنبي . ولكن حينما أعيدت مدرسة الألسن سنة ١٨٦٨ ، وأخذ تلاميذ رفاعة الطهطاوي يشرفون عليها ، نهضت الترجمة نوعاً ما ، وتولى رفاعة بك رئاسة قلم الترجمة ، واشترك في تعريب القانون الفرنسي مع عبد الله أبي السعود وغيره .

واستمرت حركة الترجمة في أوائل عهد اسماعيل مصبوغة بالصبغة العلمية ، ومعظم ما ترجم حينذاك كان في العلوم كالهندسة والطب والصناعات العسكرية وغيرها ، وذلك لشدة حاجة البلاد الى هذا النوع من التعليم . وان كان بعض تلاميذ رفاعة قد اهتموا بالنواحي الأدبية من قانون وتاريخ وأدب .

فنجد عبد الله أبا السعود الصحفي والسياسي يترجم (نظم اللآلىء في السلوك في من حكم فرنسا من الملوك) . و (قناصة أهل العصر في خلاصة تاريخ مصر) ،تأليف (أوغست مارييت بك) وباشر ترجمة تاريخ عام مطول واسمه « الدرس التام في التاريخ العام » . وتاريــخ الديار المصرية في عهد الدولة المحمدية العلوية تأليف (برنار الفرنسي) .

وممن كان لهم أثر في الترجمة والادب العربي ، وكان صاحب مدرسة لها نهجها الخاص ، واحتذى حذوها الادباء من بعده .

محمد عثمان جلال :

وهو مصري من صميم الريف . ولد في (ونا القس) بمديرية بني سويف سنة ١٨٢٨ . وتلقى العلم في مدرسة قصر العيني . ثم في مدرسة الالسن . وكان من نبهاء تلامذة رفاعة الطهطاوي وشغل عدة مناصب حكومية . وكان آخر ما تولاه منها منصب القضاء في المحاكم المختلطة سنة ١٨٨١ . وتوفي في سنة ١٨٩٨ عن سبعين سنة .

امتاز محمد عثمان جلال بأنه يمثل الروح المصرية أتم تمثيل ، في خفتها ، وحبها للنكتة . ومرحها الجم . وقد اختلط كثيراً بالعامة ، وعرف أمثالهم ونوادرهم ، ومواعظهم وعرف كذلك ميولهــم الفطرية ، وحبهم للقصص العربية . وامتاز أيضاً بأنه كان أديباً مطبوعاً ، ثائراً ، على المدرسة التقليدية التي تحاكي الأدب القديم في محسناته وفخامته ، وموضوعاته ، فكان يعتمد أولاً على تجربته الشخصية يستوحيها ويستلهمها . ويعبر عمـا يُحسه ، وعما يهديه اليه فكره ، فهو في أدبــه يمثل القاهرة والريف

المصري ، لا بغداد وقرطبة ولا البلاد العربية وصحراءها . وهذا لعمري هو الأدب الصادق ، ولولا ما شاب أدبه من اسفاف في اللفظ وجنوح الى العامية ، إفراطاً منه في مصريته ، لكان من أفذاذ الأدباء المصريين أصحاب المبادىء في الأدب ، وقد نقد في كتابه (العيون اليواقظ) هؤلاء الذين يدعون الى الأدب التقليدي ولا يستلهمون مشاعرهم الخاصة ، وأساليبهم المبتكرة :

يقولون ما هذا الكتاب وما به ... أكاذيب أقوال البهائم في قبح

وقد زعموا أن البلاغة لم تكن ... بأحسن مما قيل في القد والرمح

وتشبيه لون الخد بالورد واللظى ... وتمثيل نور الوجه إن لاح بالصبح(١)

وقد غالى في مصريته وثورته على الأدب التقليدي ، فأكثر من استعمال العامية ، سواء في كتبه الموضوعة أو في ترجمته للروايات المسرحية .

ومن أشهر كتبه التي تمثل هذه الروح المصرية المرحة ، وتدل على شدة تأثره بعامة الشعب في أمثالهم كتابه الذي أشرنا إليه سابقاً وهو « العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ » الذي ترجم بـه أمثال « لافونتين » La Fontaine شعراً(٢) ، وقد شحنه محمد عثمان جلال بكثير من الأمثال العامية ، من مثل قوله :

---

(١) العيون اليواقظ في الأمثال والمواعظ ص ١٠٢ .

(٢) لافونتين شاعر فرنسي مشهور ولد في سنة ١٦٢١ ، وتوفي بباريس سنة ١٦٩٥ ، وقد اشتهر بكتابيه (القصص ، والأمثال) أما (القصص) فقد أهمل فيه الأخلاق ، ولكنه ممتلىء بالحيوية ، وكتاب الأمثال هو أشهر الكتابين ؛ ولا يزال =

فإنمـــا تأخذ من سماطي ما تأخذ الريح من البلاط[1]

وقوله : واحذر مدى الايام كل ساهي فإن تحت رأسه الدواهي [2]

وقولة : ان كان بالتوت غضبان هَـلْبَـت يرضيه شرابه [3]

وقوله : صدقني حاجة ما تهمك وصّي عليها جوز أمّـك [4]

ولغته في هذا الكتاب اما عامية دارجة ، أو عربيـــة قريبة من العامية ، ومن أمثلة هذه القصص قوله :

كان البخيل عنده دجاجة تكفيه طول الدهر شرُّ الحاجة

في كل يوم مرَّ تعطيه العجب وهي تبيض بيضةً من الذهبْ

فظنَّ يوماً أن فيها كنزاً وأنه يزداد منــــه عزاً

فقبض الدجاجة المسكين وكان في يمينه سكّينُ

= حق اليوم ذا منزلة عظيمة في عالم الادب ، وقد نظم فيه كثيراً من القصص الرمزية وقصصاً عل ألسنة الحيوان من أمثال تلك التي في كليلة ودمنة ، بل إن كثيراً منها مأخوذة من كليلة ودمنة الذي ترجم إلى كل اللغات الأوروبيـــة منذ القرن الرابع عشر .

راجـع (Nouveau Petit La rouse Illustré p. 1479 ·)

(١) العيون اليواقظ ص ١٤٩ .

(٢) ص ١٦٤ .

(٣) ص ٩٩ .

(٤) ص ١٧٦ .

وشقها نصفين من غفلته   إذ هي كالدجاج في حضرته

ولم يجد كنزاً ولا لقيّة   بل رِمّة في حجره مرمية

فقال لا شك بأن الطمعا   ضيّع للإنسان ما قد جمعا

وقد كان لهذا الكتاب تأثير كبير في أدب الأطفال في عصرنا الحاضر ، ولا يكاد يخلو كتاب من كتب الأطفال من قصة مأخوذة منه بنصها ، أو محرفة بعض التحريف أو منثورة . بل إن بعض المشتغلين بكتب الأطفال لم يتحرجوا في أن ينسبوا بعض قصصه إلى أنفسهم . وعلى منواله نسج شوقي كثيراً من القصص الرمزية أو قصص الحيوان ، ويقال إن قصص (لا فونتين) هذه التي ترجمها محمد عثمان جلال مأخوذة من قصص (إيسوب [١]) .

هذا وقد ترجم عثمان جلال بعض روايات (موليير [٢]) الهزلية : (الأربع روايات من نخب التياترات) منها رواية (ترتوف) ، وسماها (الشيخ متلوف) ومثلت مراراً على المسرح المصري . ومنها (النساء العالمات) وقد مصّر أشخاص هذه الروايات وكتبها باللغة العامية .

---

(١) (إيسوب) صاحب الخرافات يوناني ولد بعد تأسيس روما بمائتي سنة ، وكان عبداً رقيقاً وإليه تنسب هذه القصص التي قيلت على ألسنة الحيوان ، وكثير منها شرقي : هندي وصيني ، وفارسي وعربي ، وقد ترجم قسيس إغريقي في القرن الرابع عشر كثيراً من القصص الشرقية ونسبها إلى إيسوب ،

(Masterpiece Library of Short Stories vol. I, P. 15)

(٢) موليير Moliére شاعر فرنسي ولد بباريس سنة ١٠٢٢ . واشتهر برواياته التمثيلية الهزلية ، ومن أشهرها : النساء المتحذلقات ، والطبيب رغم أنفه ، وترتوف ، ومدرسة النساء ، وتوفي سنة ١٦٧٣ (Petit Larousse Illustré) . ورراجع كتابنا (المسرحية : نشأتها وتاريخها وأصولها - فصل الملهاة) .

وترجم كذلك بعض روايات راسين [١] وسماها (الروايات المفيدة في علم التراجيدة) وقد قال في مقدمتها : « وجعلت نظمها يفهمه العموم فإن اللغة الدارجة أنسب لهذا المقام ، وأوقع في النفس عند الخواص والعوام [٢] » .

وألف محمد عثمان جلال رواية بالعامية عن الخدم والمخدومين ، ويقول الأستاذ العقاد عن ملكة عثمان القصصية عند الحديث عن هذه الرواية : « قد كان له ملكة قيمة في فن القصة والرواية المسرحية ، فكانت هذه الملكة تنزع به إلى نظم الزجل غالباً والشعر أحياناً في وصف ما يقع له من النوادر والفكاهات والرياضيات ، ومن ذلك زجله في الأزهار وزجله في المأكولات ، وأقوم منهما كليهما روايته المسرحية عن المخدمين والخدم ، وهي باكورة في وضع الروايات المصرية ، وتمثيل البيت المصري ، والمجتمع الوطني يندر ما يقاربها بين روايات هذا الجيل ، وبحق يسمى محمد عثمان جلال أبا المسرحيات الوطنية في العصر الحديث [٣]) .

وقد يحار المرء في تعليل هذا الاتجاه الذي انحرف إليه عثمان جلال، وإيثاره اللغة العامية مع تمكنه من اللغة الفصحى . أما الدكتور طه حسين فيرى أن ذلك لضعفه في اللغة العربية . وذلك حين يقول :

---

(١) راسين Racine شاعر فرنسي اشتهر بمآسيه ولد سنة ١٦٣٩ ، وكان صديقاً لموليير ، وللافونتين ، وقد بلغ المثل الأعلى في كتابة المأساة المسرحية على الطريقة (الكلاسيكية) الاتباعية ومن أشهر مآسيه : أندروماك ، وقد ترجمها أديب اسحق كما مر بنا ، و (باجازيت أو بايازيد) وآتيل ، وتوفي في سنة ١٦٦٩ (راجع كتابنا المسرحية)

(٢) مقدمة الروايات المفيدة في علم التراجيدة ·

(٣) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي للعقاد ص ١١٧ .

« فأخذ الذوق يتغير ، وكان تغيره قوياً ، ظهر في مظهرين مختلفين ، أحدهما إيثار اللغة العامية على لغة الأدب المصري ، والآخر إيثار اللغة القديمة ، والأساليب القديمة على لغة العصر وأساليبه ، ورأينا رجلا كعثمان جلال قد أعجبه الأدب الفرنسي ، وأراد أن ينقل إلى قومه صوراً منه ، ولم يكن من الأدب القديم على حظ قوي ، ورأى أن الأدب العصري أدنى إلى الموت من أن يحتمل هذا الأدب الفرنسي ، فيترجم لقومه ، أو قل ينقل إلى قومه تمثيل موليير في الزجل العامي لا في الشعر العربي[1] » .

على أن هذا الكلام على ما به من وجاهة لا يؤخذ على إطلاقه ؛ فمحمد عثمان جلال قد ترجم (بول وفرجيني) كما سنذكر فيما بعد بأسلوب عربي فصيح ، كما قال كثيراً من الشعر باللغة الفصحى ، فهو لم يكن بهذه المنزلة من الضعف اللغوي حتى يعجز عن ترجمة أمثال لا فونتين ، وهزليات موليير ، ومآسي راسين ويضع رواية باللغة العامية .

ولعل من الأسباب غير ما ذكره الدكتور طه حسين ، عظم تأثر الروح المصرية في كل شيء ، وتعصبه للهجة العامية التي هي لغة جمهرة الشعب ، وقد يكون ذلك الغرض تجاري بحت ؛ إذ لم يجد للأدب الرفيع سوقاً رائجة فأقبل على التحدث إلى جمهرة الشعب باللغة التي يفهمونها لعلهم يقبلون على كتبه ، وليس أدل على رواج هذه الكتب التي تكتب بالعامية من قول الشيخ محمد عبده : « منها الكتب المضرة بالأدب والأخلاق ، كتب الأكاذيب الصرفة ، وهي ما يذكر فيها تاريخ أقوام على غير الواقع ، وتارة تكون بعبارة سخيفة مخلة بقوانين اللغة ، ومن

---

(١) حافظ وشوقي ٤ .

هذا القبيل كتب أبو زيد وعنترة العبسي ، وإبراهيم بن حسن ، والظاهر بيبرس . والمشتغلون بهذا القسم أكثر من الكثير . وقد طبعت كتبه مئات المرات ونفق سوقها ، ولم يكن بين الطبعة والثانية إلا زمن قليل [1] » . ويقول عثمان جلال مؤيداً هذا الرأي حين حاول نشر (العيون اليواقظ) : « واشتغلت بإتمام العيون اليواقظ ، وعرضتها على الوالي بواسطة المرحوم مصطفى فاضل ، وكان أوصلني إليه محمد علي الحكيم ، فما أثمر غرسها ، فاتفقت مع فرنساوي له مطبعة من الحجر يسمى يوسف بير ، وعهّدته بطبعها فتعهد ، ثم أخلف ما وعد ؛ فكلفت مطبعة أكبر من مطبعته ، وصرفت عليها ما جمعت ، ونشرتها ، ثم بعت الحمار وبعتها ، وقلت في ذلك .

راجي المحال عبيط — وآخر الزمر طيط

والناس فاثنان بخت — مروج وقليط

والعلم من غير حظ — لا شك جهل بسيط [2]

وقد يكون من الأسباب التي دعته إلى ترجمة المسرحيات وكتابتها باللغة الدارجة إقبال الفرق التمثيلية على هذا النوع دون سواه ولا سيما بعد أن أغلقت أبواب (الأوبرا) التي كان يشجعها اسماعيل ، ويهب الممثلين فيها والمؤلفين لها بعض المال ، ويحصر الروايات بنفسه وكان التأليف حينذاك باللغة الفصحى ، فلما أغلقت الأوبرا أبوابها ؛ إذ عد التمثيل ترفاً وإسرافاً ، وأنشئت الفرق الخاصة واعتمدت على الجمهور ،

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده لمحمد رشيد رضا ج ٢ ص ١٦٤ .

(٢) الخطط التوفيقية ج ١٧ ص ٦٤ .

اضطرت إلى مجاراته في لغته ، وإلى التأليف له بالعامية حتى يقبل على مسارحها .

وإذا أحسنا الظن بعثمان جلال قلنا : إنه جارى المصلحين في نزولهم إلى مستوى الشعب حتى يكون لكلامهم أثره ، ولم ينظروا للأدب إلا بمقدار ما يؤثر في النفوس ، وقد رأى عثمان جلال انتشار الأدب الرخيص وإقبال الجمهور على سماعه في المقاهي من أمثال قصة أبي زيد ، وعنترة والظاهر بيبرس وغيرها ، فأراد أن يوجد لهم أدباً أسمى موضوعاً ، ولكن لا بدّ من كتابته باللغة التي يفهمونها ، ولا سيما حين منعت الحكومة طبع كتب الأدب الرخيص ؛ إذ وجدت فيها ضرراً عظيماً ، ولبت نداء المصلحين بمنع تداولها[1] .

وربما كان من حسن الظن بعثمان جلال أنه قلد أدباء الغرب في إنطاقهم أشخاص رواياتهم بلهجاتهم المألوفة ، ورأى أنه ليس من المعقول أن ينطق الخادم مثلاً باللغة العربية الفصحى ، ولما كان جمهرة أبطاله من عامة الشعب لجأ إلى اللغة العامية لتكون شخصياتهم مطابقة لواقع الحياة ، خالية من التكلف والصنعة .

ومهما يكن من أمر فإن هذا النوع من الأدب لم يكتب له الخلود ؛ لأن اللغة العامية ، وإن كانت قريبة من الشعب ، تنبض بالحياة وتجدّد كل يوم ، فهي لغة لا أصل لها ، ولا نظام ، ولا قاعدة ، ولذلك أهمل كل ما كتب بها ، وإن كنت لا أبرىء محمد عثمان جلال من ممالئته للإنجليز في حملتهم على اللغة العربية ، وترويجهم للغة الدارجة ، لأنه كان إبان عصر القوة – عصر اسماعيل – يكتب بالفصحى ، فلما انقضى هذا العهد ، ورأى المحتلين يشجعون اللغة العامية ويعاضدهم المبشرون

(١) الوقائع المصرية العدد ١١٠٩ – ١١ مايو ١٨٨١ .

والمستشرقون أمثال مارتمان Martman ، ويشجعونه على الكتابة والتأليف باللغة العامية ، وهم أصحاب الحول والطول ، وعلى طريقته تلك [1].

وقد كان لحمد عثمان جلال ومسرحياته ، وكتابته باللغة العامية أثر في الجيل الذي أتى بعده ، إذ حذا حذوه « هيكل » في رواية « زينب » التي نشرها أول الأمر سنة ١٩١٤ باللغة العامية ، ومحمد تيمور ومحمود تيمور فيما أخرجا من قصص . ولكن زينب أهملت كذلك ، لأنها كتبت بالعامية ، ويقول الأستاذ المازني في شأنها . « وأعتقد أن الدكتور هيكل يوافقني الآن على ذلك ـ أنه لو كتبها باللغة الفصحى — فإن فيها عامياً غير قليل — لكان أثرها أسرع في إزخار هذا التيار الجديد »[2]

ولم يجرؤ هيكل ، كما لم يجرؤ من قبله محمد عثمان جلال ، وقد كتبا باللغة العامية ، على الجهر بأنهما ألّفا هذه الروايات العامية ، وإلا انحطت منزلتهما الأدبية ، ولذلك نرى عثمان جلال يرمز إلى اسمه بالحروف الأولى (م. ع. ج.) على الروايات (المفيدة في التراجيدة) و (والأربع روايات من نخب التياترات). كما يكني هيكل عن نفسه حين نشر (زينب) لأول مرة بقوله : (زينب – مناظر وأخلاق ريفية ـ بقلم مصري فلاح) ؛ وذلك لعلمهما بأن اللغة العامية ليست لها مكانة ، وأنهما يحاولان بعثها وخلقها ، ولكن هيهات .

ومن الكتب التي ترجمها محمد عثمان جلال عن الفرنسية رواية (بول وفرجيني) للكاتب الفرنسي (برناردين دي سان بيير)[3] . وقد

---

(1) The Encyclopedia of Islam, Vol, II p. 985,

(٢) الأهرام ١٩ مارس سنة ١٩٣٧ كلمة المازني في تكريم هيكل .

(٣) برناردين دي سان بيير Bernardin de Saiut Pierr كاتب فرنسي من دعاة الرجوع إلى الطبيعة ولد في سنة ١٧٣٧ وتوفي في سنة ١٨٠٤ ومن أشهر كتبه : بول وفرجيني ، ودراسة الطبيعة .

صبغها عثمان جلال بالصبغة المصرية كعادتها ، وسماها (الأماني والمنة في حديث قبول ووَرْدِ جَنَّة) ، وتصرف فيها بالزيادة والنقصان ، ولكنه حرص في كثير من الأحيان على روح الرواية وأصلها ، وقد قال في تصدير الكتاب : « أخرجته من الطباع الأفرنجية ، وجملته على عوائد الأمة العربية ، فمن تصفحه بعين النقد ، رأى القد على القد ، ومن قاسه بمقياس المقابلة ، وطبق آخره وأوله رأى فذاً قُرِنَ بتوأم . وعلم أن من ترجم فقد ترجم ، ثم كتبته على ورق الجنة ، وسميته قبُول وورد جنَّة ، لمقارنة مخرج الاسمين ، ومطابقته في لفظه اللغتين » .

ولقد ترجمت هذه الرواية بعد ذلك عدة تراجم أشهرها ترجمة المنفلوطي التي سماها « الفضيلة » ، وقد خلع عليها ثوباً قشيباً من أدبه وأسلوبه ، وترجمته يغلب عليها الروح الأجنبي وينقصها الروح المصري الذي اشتهر به عثمان جلال [1] .

وكان لعثمان جلال الفضل في تنبيه الأدباء إلى هذه الرواية وحاول كثير منهم ترجمتها كما ذكرنا . وقد التزم عثمان جلال الأسلوب المسجوع ، القصير ، السهل العبارة ، استمع إليه يصف حال ورد جنة قبل فراقها لقبول ، وسفرها إلى خالتها :

« ولما جاء العشاء ، وجلس الكل على المائدة ، وكان جلوسهم بغير فائدة ، إذ كان لكل شأن يغنيه ، وشاغل يشغله ويلهيه ، يأكلون قليلاً ، ولا يقولون قيلا ، ثم ما أسرع ما قامت ورد جنة أولا ، وجلست في مكان غير بعيد في الخلاء ، فتبعها قبول ، وجلس بجانبها ومكثت تراقبه ومكث يراقبها ، وانقضت عليهما ساعة ، وهما ساكنان ، ولبعضهما ملتفتان .

---

(1) H. R. Gibb. B. S. O. S. Vol. Vii part. I : p. 2 — 3 ·

وكانت ليلة نيرة ، ذات سماء مقمرة ، زائدة الإتحاف والإلطاف ، لا يرسمها رسام ، ولا يصفها وصاف ، قد نزل البدر منها منزلة القلب، ونشر أشعته على الشرق والغرب ، فما يستره إلا أثر الضباب ، وبعض سحاب كأنه حين تجلى على بساط الخضرة بدر عليه من الفضة بدرة ، وكان الريح ممسكاً نفسه ، والليل مطلقاً همسه ، فلا يسمع في الغابات ولا في الوديان ، لا صوتُ إنسان ولا صوت حيوان إلا مناغاة الطيور في أوكارها ، ومداعبتها مع صغارها ، مسرورين بضيائه ، وسكون الجو في جميع أرجائه » .

وكان عثمان جلال كثيراً ما يُنطق « قبول وورد جنة » بالشعر العربي الفصيح مع اعترافه بأنهما « لم يتعلما الكتابة ولا القراءة ، بل نشآ على السذاجة والبراءة ، فلا يفكران في أزمان مضت ، ولا ليال انقضت ، بل قام بعقولهما الصغيرة أن الدنيا قد انحصرت في هذه الجزيرة ، وأن لا لذة لهما فوق لذتهما ، ولا شغل لهما إلا حب أمهاتهما »[1] .

ومن ذلك الشعر قول ورد جنة ، تذكر لهف الأمهات على أولادهن ، وذلك قبل أن تسافر إلى خالتها لتبتدىء تعلُّمها لديها :

يا ويح قلبي على نساء قد لقّبوهن بالأمهات
يحملن طول الزمان هَمّاً على البنينَ أو البنات
وكل خير لهن ماضٍ وكل ضير لهن آت
ما تم حظ لهن إلا بدّله الله بالممات

---

(١) الأماني والمنة ص ١٨ .

فقال لها قبول وقد أحسن أن يقول .

وحقَّ حبي لك يا أختـاه وما اعترى قلبي وما أتاه
لترينْ اليوم أمهاتنـا ولنبيتنْ معاً في بيتنا [1]

وأسلوب عثمان جـلال في (بول وفرجيني) كما ترى من الأساليب الخالية من التعقيد والتي تنطلق في يسر ورشاقة ، ويدل على تمكنه من اللغتين الفرنسية والعربية ، فقـد حرص على الأصل كل الحرص ، وأداه بخير أداء ، ولولا تمصيره لأشخاص الرواية ، وجعله الكنيسة مسجداً ، وبرج ناقوسها مئذنة ، وصبغها بالصبغة المصرية الخالصة لجاءت ترجمتـه مثلاً في الترجمة ؛ إذ أضفى عليها من الأمانة ، وخفة الظل ، وسهولة اللفظ شيئاً كثيراً .

ومن الذين اشتهروا بالترجمة خليفة محمود ، وقد ترجم « إتحاف الملوك الالبّا بتقدم الجمعيات في بلاد أوربا » ، وكتاب « إتحاف ملوك الزمان بتاريخ الإمبراطور شرلكان » . وترجم محمد أحمد عبد الرزاق كتاب « غاية الادب في خلاصة تاريخ العرب » تأليف المؤرخ الفرنسي (سيديللو) وترجم بشارة شديـد رواية « الكونت دي مونت كريستو » تأليف (اسكندر دوماس) ، وجاءت بعبارة « بسيطة ليكون ذلك سهلا على عامة الناس » كما يقول المترجم .

وترجم حسن عاصم خطبة (رينان) الفرنسي ، وموضوعها « الدين الإسلامي والأمة العربية » . وترجم مراد مختار من التركية « قصة أبي علي بن سينا وشقيقه أبي الحارث ، وما حصل منهما من نوادر العجائب ، وشوارد الغرائب » .

---

(٢) المصدر السابق ص ٢٩ .

وهذه أهم الكتب الأدبية التي ترجمت في عصر اسماعيل : ويقول قدري باشا : ان مستوى الترجمة قد هبط بمصر بعد أن أغلقت مدرسة الألسن ، ولم يخلفها معهد آخر لتخريج العلماء الأكفاء في التعريب ، ولذلك استعانت الحكومة بالأجانب .

نعم ان مدرسة الألسن قد أعيدت في عهد اسماعيل كما ذكرنا ، بيدَ أن تخريج المترجمين لم يكن موضع عناية ، ولا سيما بعد أن تحولت الى مدرسة للحقوق سنة ١٨٨٦ .

أما التأليف فقد خطا خطوات لا بأس بها ولا سيما في القانون والتاريخ والعلوم ، فقد ألف قدري باشا ثلاثة كتب رتب فيها أحكام الشريعة الإسلامية في المعاملات المدنية والأحوال الشخصية والوقف ، على مذهب أبي حنيفة ، وصاغها في شكل مواد قانونيــة ، وهي كتاب « مرشد الحيران الى معرفة أحوال الإنسان » في المعاملات الشرعية ، وكتاب « قانون العدل والإنصاف في القضاء على مشكلات الأوقاف » .

أما التأليف في العلوم فهناك عشرات الكتب من تأليف علي البقلي ، والشافعي ، ومحمد بيومي ، وصالح مجدي ، ومحمد سليمان ، وهو أول من برع في الترجمة من الإنجليزية .

وقد ذكر قدري باشا [1] أن تلاميذ رفاعة بك عربوا نحو ألف كتاب أو رسالة في مختلف العلوم والفنون ، وأن جميع الذين نبغوا في

---

(١) تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعي ص ٥١١ .

الترجمة كانت لهم مؤلفات قيمة .

هذا وقد توسعت حكومة اسماعيل في فتح المدارس والمعاهد على اختلاف أنواعها ودرجاتها ، واقتضى ذلك تنسيقَ العلوم والمواد المختلفة لصغار التلاميذ ، فألفت الكتب العربية شاملة كل نواحي العلم من : حساب وجغرافيا وتاريخ وطبيعة وكيمياء وحيوان وحياة ولغة . الى غير ذلك مما مهد السبيل لبلوغ النهضة ذروتها في عصرنا الحالي .

النهضة في بلاد الشام :

- ٦ -

لا نستطيع أن نغفل أثر السوريين في الأدب ابان القرن التاسع عشر وفي عصرنا الحاضر ، ولقد ساعدهم على النهوض ، ومكنهم من خدمة اللغة حرصهم على التعليم ، ووجود الإرساليات التبشيرية .

والباحث في نهضة سوريا التعليمية معجب أشد العجب ، لأن الأتراك تركوا البلاد تتخبط في ديجور مطبق من الجهالة ردحاً طويلا من الزمن ، ولم ينشئوا من المدارس الا القليل الذي لا يكاد يذكر ، وهي مدارس لا يجاوز ما تلقنه لتلاميذها مبادىء العلوم . وكان أكثر الذين بنوا مدارس دمشق غرباء عنها ، وقد ظلت المدارس التي أسست في عهد ملوك الطوائف مفتوحة للطلاب قبل زمن الأتراك ، بيد أن الناس قد فسدوا في القرون الأخيرة وتوفروا على التهام تلك المدارس وأوقافها .

وكان معظم هذه المدارس دينية : فمدرسة للفقه الحنفي ، وأخرى للشافعي ، وثالثة للمالكي ، ورابعة للحنبلي . ومنها مدارس لدراسة القرآن وتجويده ، ومنها دور الحديث ، وكان هنـــاك مدرسة للطب وأخرى للصيدلة ، غير أن كل هذه المدارس قد أغلقت بعد دخول الأتراك بلاد الشام [١] .

ولما رأى الأتراك أن مصر ولبنان قد سارتا خطوات واسعة في درج النهضة العلمية لم يستطيعوا أن يغمضوا أعينهم عن التأخر والفساد والجهل الذي كان فاشياً في سوريا ، وقد وكل إليهم أمرها ، فأسسوا في أخريات أيامهم مدرسة للحقوق هي إحـــدى كليات الجامعة السورية ، وأنشأوا مدرسة التجهيز والمعلمين سنة ١٣٠٤ هـ ١٨٨٢ م [٢]

وفي سنة ١٣٢١ هـ ١٩٠٠ م صدرت إرادة السلطان عبد الحميد بإنشاء مدرسة طبيّة بدمشق ، وأن يخصص لبنائها عشرة آلاف ليرة ، ومثلها لنفقتها ولوازمها ؛ وذلك لأن بيروت أخـــذت تخرج أبناء البلاد في مدرستيها الأجنبيتين : الأمريكية واليسوعية [٣] .

أما غير دمشق من مدن الشام فكانت مقفرة من المدارس تقريباً إلا حلب ، وهي أكبر مدن سوريا . وقد عمرت قديماً بكثير من المدارس ، ولكنها خربت على يد العثمانيين . وجاء في تقويم ١٢٣٢ هـ ١٩١٢ أن بحلب الشهباء اثنتين وثلاثين مدرسة ، ومـــا نظن العامر منها يتجاوز العشر [٤] .

---

(١) خطط الشام لكرد علي ص ٦٩ ج ٦ .
(٢) راجع خطط الشام لكرد علي ص ١٠٢ ج ٦ .
(٣) نفس المرجع ص ١٠٤ .
(٤) خطط الشام لكرد علي ص ١١ ج ٦ .

وإذا كانت دمشق وحلب لم يسعدهما الحظ بالنهوض السريع ، فإن نصارى لبنان كانوا أسبق الى اليقظة من اخوانهم المسلمين في دمشق وغيرها ؛ بفضل الإرساليات التبشيرية ، ولصلة النصارى الدائمة بأوربا المسيحية يستمدون منها القوة ضد الدولة العثمانية المتعصبة .

وكان التعليم في لبنان – كما كان في غيره – دينياً ، ومن أوائل المدارس التي أسست فيه (مدرسة عين ورقة) سنة ١٨٧٩ ، وكانت ديراً ثم حولت الى مدرسة ، وكانت تدرس فيها اللغة السريانية ، والعربية ، والفصاحة ، والمنطق واللاهوت .

ولكن المدارس لم تنتشر ، والنهضة لم تعم البلاد الا في الربع الثاني من القرن التاسع عشر حين أسست مدرسة (عينطورا) سنة ١٨٣٤ م ولا تزال مفتوحة الأبواب حتى اليوم ، وقد تعلم فيها عدد من زعماء النهضة اللبنانية الحالية . ولما وفد على لبنان الدكتور (فانديك) الأمريكي مبشراً بالدين المسيحي والمذهب البروتستانتي ، ورأى البلاد في حاجة للمدارس العلمية أنشأ مدرسة (عبية) سنة ١٨٤٧ .

كانت كل هذه المدارس في الجبل ، لأنه موئل المسيحية ، فلما وقعت مذابح سنة ١٨٦٠ ونزح كثير من أهل الجبل الى بيروت ، ابتدأت الإرساليات تفتح المدارس فيها ، ومن ذلك الوقت تبتدىء النهضة الحقيقية بلبنان .

وأقدم مدرسة أنشئت ببيروت كانت للبنات اليتامى اللاتي فقدن آباءهن في مذابح سنة ١٨٦٠ وأسستها (مسز طمسن) في تلك السنة ، ثم المدرسة الكلية الإنجليزية الأمريكية للبنات سنة ١٨٦١ ، وقد كان لهاتين المدرستين أثر عظيم في النهضة لأن تعليم الام أول خطوة في

تعليم الشعب . وقد كثرت مدارس البنات في لبنان خاصة بعد ذلك كثرة ملحوظة ، ولا ريب في أن الام المتعلمة لن ترضى لاولادها الجهل .

ومن أوائل مدارس البنين : المدرسة الوطنية للمعلم بطرس البستاني في سنة ١٨٦٣ ، وكانت ممتازة بصبغتها الوطنية ، وحرية الدين ، ولكنها تعطلت سنة ١٨٧١ . وأنشئت المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك سنة ١٨٦٥ . ومدرسة الحكمة في نفس السنة وهي للطائفة المارونية . وأقدم المدارس الإسلامية هي كلية المقاصد الخيرية الإسلامية سنة ١٨٨٠ .

أما التعليم العالي فيتمثل في الكلية الأمريكية والكلية اليسوعية ، وقد أنشئت الأولى ببيروت سنة ١٨٦٦ ، وبها الآن فروع للطب ، والفلك ، وطب الأسنان ، والتجارة ، والآثار ، والآداب ، ولها قسم إعدادي ثانوي ، وبها مرصد فلكي : ولما قوي نفوذ الإنجليز في الشرق بعد الحرب العالمية الأولى وصار تعلم الإنجليزية ضرورياً اتسعت الجامعة الأمريكية ، وزاد إقبال الطلاب عليها ، وقصدوها من كل البلاد العربية وبها ما يقرب من خمسة آلاف طالب ، وقد اتسعت مبانيها ، وألحق بها مستشفى عظيم ، ولها عناية بالمؤلفات العربية [١] :

أما الكلية اليسوعية فقد نقلت الى بيروت سنة ١٨٧٤ ، وتعلم اللغات والآداب والطبيعيات والرياضيات ، وبها ثلاث شعب رئيسية : الحقوق

---

(١) من أشهر أساتذتها الذين عرفناهم الرئيس (دودج) ، والأستاذ بولس الخولي أستاذ التربية ، والأستاذ أنيس المقدسي أستاذ الأدب العربي ، والدكتور قسطنطين زريق (وكان مديراً للجامعة السورية) والدكتور شارل مالك وقد صار وزيراً مفوضاً بالولايات المتحدة ، والدكتور أسد رستم ناشر مخطوطات الشام في عهد محمد علي ، والدكتور مصطفى الخالدي .

والطب والهندسة ، ولها مستشفى كبير ، والتعليم فيها باللغة الفرنسية ، وبها مكتبة من أنفس المكتبات العربيـــة ، ومطبوعات اليسوعيين ذات شهرة عظيمة .

كان لهذه النهضة التعليمية في لبنان أثر بالـغ في ثقافة الشعب ، والإقبال على القراءة والتنافس في أسباب الرقي بين الطوائف المختلفة ، كل طائفة تسعى لان تبز الاخرى وتحتل دونهـــا مركزاً أدبياً ممتازاً في القطر الصغير

ولكن كثيراً من أدباء لبنان في القرن التاسع عشر قد آثروا الهجرة إلى مصر ، لاضطهاد تركيـا لهـم ، ولضيق المجال أمام تفوقهم في بلادهم . ومن أشهر من وفد على مصر من هؤلاء الادباء غير من ذكرنا سابقاً من الصحفيين : جورجي زيدان ، وطانيوس عبده ، وأديب إسحاق ، وسركيس ، ويعقوب صروف ، وفارس نمر [١] . وقد نشر زيدان في مجلة الهلال كثيراً من البحوث المترجمة ، واختصت المقتطف بالابحاث العلمية . ومن أشهر آثار اللبنانيين في الترجمة تعريب الإلياذة شعراً ، وقام بهـذا العمل الضخم سليمان البستاني [٢] .

ولكن للأسف قد طغت الفرنسية على أهالي لبنان بعد الحرب العالمية

---

(١) وسنترجم لهم في الأجزاء التالية من كتاب الادب الحديث إن شاء الله .

(٢) ولد سنة ١٨٥٦ وتوفي سنة ١٩٢٥ ، وابتدأ في ترجمة الإلياذة سنة ١٨٨٧ بالقاهرة ، وتعلم اليونانية ليترجم الإلياذة . ونظمها في أحد عشر ألف بيت غير متقيد بوزن واحد ولا قافية واحدة بل استعمل كل ضروب الشعر وبحوره . وانتهى من نظمها سنة ١٨٩٥ ، وشرحها وعلق عليها بألف بيت من الشعر وبكثير من القصص العربية ، وانتهى من شرحها سنة ١٩٠٢ ، ونشرت لأول مرة كاملة بشرحها ومقدمتها سنة ١٩٠٤ .

الأولى حينما خضعت بلادهم لحكم فرنسا ، ففرضت الفرنسية في جميع المدارس ، تعلم بها كل المواد ما عــدا اللغة العربية فاستعجمت ألسنة شبابهم وأدبائهم ، وركّت أساليبهم ، وضعفت الترجمة إلى حد كبير ، ولا سيما عند المسيحيين . أما المسلمون فقد انصرفوا للتجارة ، وإن كانوا أصح لغة من إخوانهم ، ولولا شعراء الجيل الماضي وأدباؤه لتأخرت منزلة لبنان في الأدب ، على أن هذا الوضع قد تغير نوعاً ما بعد ثورة ١٩٤٥ ، واستقلال لبنان ، وأخذت النهضة الأدبية فيه تشتد وتقوى ، وأسست فيه دور نشر قوية ، وظهرت ثمة بعض الصحف الأدبية الراقية وإن كان أثر الثقافات الأجنبية في نتاج أدبائه واضحاً كل الوضوح ، وأخذ كثير منهم يقلد المذاهب الأدبية الأوربية بحماسة ظاهرة .

الفصل الثالث

الأدب في عصر اسماعيل

لم يكن لهذه النهضة الشاملة ، وهـذا الإحياء القوي الذي ظهر في عصر إسماعيل ورجال البعثات أثر كبير في الأدباء الذين نشأوا في عصر محمد علي وعاصروا إسماعيل بعد أن جمدت طباعهم ، ورسخت عاداتهم ، وصار عسيراً عليهم أن يتقبلوا الأفكار الجديدة ويغيروا أسلوبهم في التعبير والتفكير . ولم يكن من المنتظر أن تؤثر النهضة في مثل هؤلاء الأدباء ، ولم يتشربوا مبادئها ، ويسيروا على هداها ، ويتمتعوا بنورها ردَحاً طويلاً من الزمن . ولم يكن من السهل التخلص من أوضار الماضي وتقاليده ولا سيا ذلك الماضي القريب الذي يمت الى عصور الضعف اللغوي والفكري والخلقي ، إذ لم ير الأدباء أمامهم أمثلة تحتذى الا ما قيل في الماضي ان قريباً وان بعيداً . أما الأدب الأوربي القوي فلم يترجم في عصر اسماعيل منـه الا شيء يسير وبلغة ضعيفة ولا سيا الروايات المسرحية . ولو عرفه الأدباء ما استساغوه ، لأن ثقافتهم كانت

محدودة ، وكان عصرهم مثقلا بتلك التقاليد القديمة ، والمدارس قليلة العدد والمتعلمون في الامة يعدون عداً .

هذا ، وقد كان اهتمام مصر في عهد محمد علي وإسماعيل بالعلوم أعظم من اهتمامها بالأدب ، ولولا ما أخرجته المطبعة العربية حينذاك من الكتب القديمة ، واطلاع المحبين في الأدب والراغبين في التزود من ينابيعه على آثار السلف ، ودواوين كبار الشعراء الذين ظهروا في عصور القوة لما كان للأدب في مصر والشرق العربي نصيب .

ولما كان الأدب الموروث هو أول ما عرفوا من الآداب كان طبيعياً أن يحتذوه ، ويحاكوه في موضوعاته وأسلوبه ، ومعانيه وأخيلته ، وقد تفاوت الأدباء في هذا التقليد تبعاً لمواهبهم وشخصياتهم ، كما تفاوتوا في اختيار من قلدوهم ، فمنهم :

١ — أدباء لم تكن لهم شخصية ألبتة ، بل ساروا في الطريق المعبّد الذي سلكه من قبلهم أدباء عصور الانحطاط والضعف ، وذلك هو طريق الشعراء النظاميين أو العروضيين لا يعرفون الشعر والأدب إلا أنه مهارة لفظية وقدرة على التفوه بعبارات شعرية ونثرية لا حياة فيها ولا عاطفة ولا قوة ، وإنما غرضها إظهار البراعة في اقتناص ألوان البديع ؛ حتى إنهم ليخلون بالإعراب في الكلمات والتصريف ، إذا تعارض الإعراب أو التصريف مع ما يريدونه من جناس أو طباق ، ويفسدون بنية الكلمة ، عساها تصادف ما يجرون وراءه من هذه الحلى التي يسترون بها عوار لغتهم الركيكة وأفكارهم السقيمة ، وخيالاتهم المريضة ، ومثال هذه المدرسة العروضية في عصر إسماعيل : السيد علي أبو النصر ، والشيخ علي الليثي ، ولولا ما بهما من ظرف طبيعي ، ورقة قاهرية ، ولولا أنهما ألفا منادمة الأمراء والعظماء ؛ وتطلبت المنادمة منهما

أدباً وحـــلاوة نكتة ، وسرعة بديهة لما خرجا عن نطاق أدباء مصر والشام إبان الدولة العثمانية ، ولما امتازا بشيء عن عبدالله الشبراوي ، وحسن قويدر وأضرابهما .

٢ – أدباء كانت لهم – مع تقليـدهم للسلف والأدب الموروث – شخصية ، بيد أن هذه الشخصية كانت تُرى من بعيد ، ومن خلف هذه الحجب الكثيفة من التقاليد ، في العبارات والأساليب والأخيـلة ، حائلة غير واضحة ولا مميزة ، ولكنها تدل على أن هذا الأديب قـــد جاهد في أن ينفذ بشاعريته وأدبه من خـلال هذه الحوائل الغليظة ، وإن لم تمكّنه شخصيته القوية ، ولا أدبه المتين من التغلب عليها ، وخير مثل هذا النوع من الأدباء هو : محمود صفوت الساعاتي ، وإبراهيم مرزوق ، وصالح مجدي .

٣ – أدباء قويت شخصيتهم بعض الشيء ، وحاولوا أن يجدودا ، وأن يلوّنوا أدبهم بما يُظهر نفسيتهم ويطبعه بطابعهم ، وقـد نجحوا في ذلك أحياناً ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقاوموا سيطرة الأدب الموروث ، ولا إغراء المحسنات والزخـارف ، فضعفت هذه الشخصية ، وتضاءلت أمام هذا الإغراء ، فجاء أدبهم إبان هذا الضعف من نمط المدرسة الثانية ، ومن هذه المدرسة عبـد الله فكري ، تراه آناً ينطلق على سجيته ولا يتقيد بهذه الصناعة السمجة المتكلفة في نثره ، وبهذه الزخرفة اللفظية المجموجة فتتضح شخصيته وتنجلي فكرتُه ، ويترسل في كتابته فيفهم الناس منه ما يقول دون عنـاء ، وهذا قليل في كتابته . وآناً يجذبه ذلك الزخرف فيستعدّ ويهتم ويحتفي بموضوعه ويبذل جهداً شديـداً في صوغ العبارات ، ويكاد هذا يطغى على شخصيته ، وأكثر نثره وشعره من هذا الطراز .

٤ – وأدباء رزقوا الشخصية الغلابة ، والأدب المتين ، وحاكوا النماذج الرفيعة من أدب السلف ، فاستحصدت مِرّتهم ، وعظمت ذخيرتهم من الأدب الرصين فمزقوا هذه الحجب الكثيفة ، وطرحوها جانباً ، وارتفعوا بالشعر وبالأدب إلى حيث الشمس الساطعة القوية فتراءت معانيه، وتجلت أخيلته ، واهتزت لديباجته المشرقة النفوس ، قلدوا القدماء ، بل عارضوهم ، وجروا وإياهم في ميدان واحد . ولكنهم لم يقلدوا الغث من الآداب بل عمدوا إلى فحول الشعراء ينسجون على منوالهم ويبارونهم في قصائدهم المشهورة الخالدة ، فحلقوا معهم في سماواتهم ، وأضفوا على الشعر لوناً جديداً جذاباً لم يستمتع به منذ أمد طويل .

أجل ! لم يكونوا دائماً في قوة فحول الأدباء والشعراء السابقين ، بل قصروا عنهم في كثير من الأوقات ، ولكن حسبهم ان سلم شعرهم من هذه العلل والأوصاب التي أزمنت لدى الشعر العربي قروناً ، ووصلت به إلى درك الغثاثة والركّة والعُجمة ، وخير مثل لهذا النوع من الأدباء - أستغفر الله - بل باعث الشعر العربي في العصر الحديث ، وصاحب هذه اليد الطولى على الأدب هو البارودي .

هذا ، وقد ظهر في أخريات عصر إسماعيل فجر نهضة جديدة في الأدب ، لم تكن مدارس إسماعيل ، ولا حركة الإحياء في عهده الباعث عليها ، ولكن رغبة إسماعيل في أن يرى مصر بين عشية وضحاها قطعة من أوروبا في مدنيتها وحضارتها ، جعلته يسرف في مال مصر ويبدده في هذا السبيل غير ناظر إلى الشعب ومصيره . واتخذ الأجانب من حب اسماعيل للحضارة الأوروبية وسيلة لاستيطان مصر فجاءوا زرافات ووحداناً ، يرتادون هذه الأرض البكر وينشئون البيوت التجارية والمصارف المالية ، ويتقدمون لخدمة الحكومة في جميع مصالحها.

ولما استدان اسماعيل ، وأثقلته ومصرَ الديون عظُم نفوذ هؤلاء الأجانب وشجعتهم حكوماتهم وحمتهم امتيازاتهم ، فكان هذا النفوذ المتزايد سبباً في تنبه المصريين إلى الخطر الداهم الذي ينتظر بلادهم . وتصادف أن كان بمصر الزعيم المصلح السيد جمال الدين الأفغـــاني - وكان من الملهمين في العصر الحديث - فبث تعاليمه الإصلاحية ، وشجع حركة الاستياء من طغيان النفوذ الأجنبي ، وأخذ يقتحم هذا الحمى الذي ظل قرونـــاً لا يُقرب ، وهو حق الحاكم في التصرف برعـاياه وأموالهم ونفوسهم ، فوجه الانتقاد لاسماعيل وحاسبه في الصحف المختلفة التي يكتب فيهـا أتباعه ومريدوه من أمثال : أديب إسحاق ، وإبراهيم المويلحي ، وسليم نقـاش ، وعبد الله نديم ، ويوسف أبو السعود ، وهو من ورائهم يغذيهم بروحه وتشجيعه وآرائه ، ويكتب هو أحياناً مستتراً .

هذه الحركة أنتجت أدباً قوميـاً حيث وجهت الأدب - ولا سيما النثر - إلى النظر في شئون الشعوب العربية ، والدفاع عن حقوقها ، ووصف أمراضها وأدوائها ، وما تتطلبه هذه الأوصاب من علاج ، ولنا عودة إلى هذا الأدب ومظاهره فيما بعد .

وحريٌ بنا ، وقد ألقينا هذه النظرة العاجـلة على ألوان الأدب في عصر إسماعيل أن نعود إلى هذه الألوان والنماذج فندرسها بشيء من التفصيل .

١ - السيد علي أبو النصر :

مصري شريف النسب من منفلوط ، لا نعرف على التحقيق متى ولد ، وأغلب الظن أنه كان رجـلا ناضجاً في عصر محمد علي حيث أرسله إلى الآستانة في خـلافة السلطان عبد المجيد ، ومبعوث محمد علي إلى (الحضرة

الخليفية) لن يكون حدثاً غِرّاً أو شاباً غير مجرب ، بل رجلا مكتمل العقل والشهرة ؛ ولذلك نرجح أنه ولد في أوائل القرن التاسع عشر وجاء إلى مصر من منفلوط وهو صغير السن ، ثم دخل الأزهر وتلقى به العلوم العربية الشرعية ، إلا أنه لم يسر في مرحلة التعليم هذه حتى غايتها ؛ بل ترك العلم واشتغل بالأدب وقد ظهر ميله إليه منذ الصغر. وكان عصر شبابه مقفراً من الأدباء اللامعين ، وكان صفوت الساعاتي في شغل بمدح أمراء الحجاز كما سيأتي ، فنال أبو النصر شهرة ، واتصل بالأسرة الحاكمة ، وبعثه محمد علي كما ذكرنا إلى الآستانة ، وصحب إسماعيل من بعده ، وكان له نديماً وجليساً ، وقد سافر إلى الآستانة مرة ثانية .

لم يكن أبو النصر شاعراً فحسب ، ولكنه كان نديماً أكثر منه شاعراً ؛ وللمنادمة صفات كثيرة ، وهي صنعة شاقة . أما هذه الصفات فمنها : الإحاطة بالأدب القديم ، ورواية شعره ونثره ونوادره وأمثاله ، ثم الذكاء الحاد ، وسرعة البديهة ، ومعرفة دخائل النفوس ، ودراسة أحوالها المتباينة . وأهم من هذا طبيعة مرحة ، قادرة على استلال سخائم النفوس ، وبعث الضحك مع الاحتفاظ بالوقار والمنزلة ، حتى لا يمتهن النديم ويهان . وليس الإضحاك أمراً هيناً ولا سيما في مجلس أمير عظيم تشغله أعباء الحكم ، وتحزبه أزمات نفسية كثيرة . والنفس الإنسانية يعتورها الحزن والسرور والانقباض والانشراح ، والغضب والرضا . والمفروض في النديم أن يستطيع بعث الضحك في كل حالة ، ولا سيما في حالات الانقباض والحزن ، وأن يُذهب بمرحه وأدبه وَضَرَ القلوب ، وتجهم الوجوه ، مع أنه إنسان كسائر الناس له نفس تحزن وتنقبض ، وعقل يفتر ويخبو ، وقريحة تجمد وتتبلد أحياناً .

ولهذا كانت مهمة النديم شاقة ، وعليه أن يخلق الجو المناسب

لنكاته ، وأن يروض الناس على الضحك حين يطلق النكتة ولو لم تكن مستساغة ، وهذا فن يتقنه الموهوبون من الندماء .

ثم إن النديم صدى للحوادث التي تحدث في مجلس الأمير أو العظيم ، يسجلها في أدبه فيقول الشعر في كل المناسبات الممكنة : حين يرحل الأمير ، وحين يعود ، وحين يرتقي أحد أفراد الحاشية أو ينعم عليه بلقب ، وحين يولد مولود جديد ، وفي الأعياد والأفراح والمآتم ، بل في غير ذلك من المناسبات المفاجئة والعارضة .

وإذا تصفحنا ديوان السيد أبي النصر لم نجده شيئاً غير هذا ، وقلما يلتفت النديم لنفسه فيظهر لواعج حبها ، أو اهتزاز مشاعرها وعواطفها ، أو يلتفت إلى غير الأمير وحاشيته .

وشعر أبي النصر يمثل كذلك هذه المدرسة التي أثقل أدبها بأوضار القديم وآفاته ، فهو مولع بالمحسّنات البديعية ، وبالتاريخ الشعري ، وبالألغاز ، وبالتشطير والتلاعب بالألفاظ . والشعر في هذه المدرسة كما ذكرنا صناعة تظهر البراعة والقدرة على صياغة معينة تحقق غرضاً من هذه الأغراض وليس ترجماناً من همسات القلوب ، وأشجان النفوس وأحاديثها ومطيةً للخيال يحلق في سماواته الواسعة ، أو مفصحاً عن فكرة اختمرت في عقل الشاعر وأبت إلا أن تظهر جليّة واضحة ، كما يجب أن يكون الشعر .

ولم يكن مع هذا شعر السيد علي أبو النصر متين النسج ، قوي العبارة بل هو وسط بين القوة والضعف . وبذلك يكون خير مثال للنظّامين أو العروضيين . ومن شعره وقد أهدي إليه قدح :

أهدى الحبيبُ لمن أحبْ قدحاً تحلّى بالذهب

لو أفرغت فيه الطّلا   لأطلّ ينظره الحَبب
قد راق منظر حُسْنه   ودعـا له داعي الطرب
لمـا نظرتُ لشكله   في رسم تيجان العرب
قبْلتــه وقبلِتــه   ووعدته بنْتَ العنب
ولأجله لولا التقى   لخلعتُ أثواب الأدب
وملأته راحاً بهــا   يُنفى عن الصبّ الوصَب
لكنني أودعتــه   بخزانة تحوي الأدب
ومدحتُ من أهداه لي   ومنحته شكراً وجب
وجعلته بُشرى المنى   والدهر يأتي بالعجب

وقال ملغزاً :

ما اسم الحبيب أفيدوا أيها الأدبا   فإن بقرْاط عنـه ساء منقلبا ؟
فقال لي بعضهم : حرف أضيف له   حرفان دلاّ على شيء حوى ذنبا
فقلت : هذا جواب رائق فعلى   مثلي لمثلك شكرُ الفضل قد وجبا

ومن قوله يتغزل :

نوْرُ زاهي الروض أم نور الصباح   وابتسامُ الثغر أم زهر الأقــاح
ونجوم تزدهي في أفقهــا   بوميض البرق أم كاساتُ راح

لا ، ولا ، بدرُ تمٍ ينجلي للندامى في اغتباق واصطباح
بمحيا يزدري شمس الضحى في معاني حسنه تعيا الفصاح

وقال مهنئاً مصطفى نعماني برتبة الباشوية مؤرخاً في كل شطر من أبيات القصيدة بتاريخ هذه الرتبة وهو سنة ١٢٩٥ .

بشير الهنا لاحت بيمن قدومه بدور بها نورُ البشائر قد صفا
وبدرُ التهاني فاق بالأنس نورُه فأهدى لنا أسنى السرور وأتحفا

وهكذا حتى أتم خمسة عشر بيتاً كل شطر منها يؤرخ سنة ١٢٩٥ مُظهراً بذلك مهارته وقدرته على الصياغة والنظم .

ومن أحسن ما قاله من الشعر هذه القطعة التي يتأسف فيها لفراق أحبابه .

لقد ذهب النوى بجميل صبري وأودع في حشاشتيَ الولوعا
وألبسني الأسى خِلَعَ التمنّي وألزمني التذلل والخضوعا
ونار الشوق أغراها غرامي على كبدي فقوّمت الضلوعا
ولي قلب تُقَلِّبُهُ شجوني وتمنعه السكينةَ والهجوعا
يبيت مع الأحبة حيث كانوا ويصبح راجياً منهم رجوعا
يرى أضغاث أحلام الأماني حقائق لا يزال بها وَلوعا
تطوف به الحوادث وهو لاهٍ كأنّ الوهم ألبَسه دروعا

وقائلة : إلام تحن شوقاً إلى حيّ أحلّ بك الهلوعا

فقلت لها : وُقيت اليأسَ إنى أودُّ بحبهم أدعى َهلوعـــا

أبعد فراقهم ترتاح روحي وترجو ساعة أن لا تَـلوعا [1]

فهم روحي وريحاني وراحي فكيف أرى الى السلوى نزوعا [2]

وفي هذه النماذج التي سقناها من شعره يتبين مدى ما ذكرناه عن أدباء هذه المدرسة وتقليدهم وعدم ظهور شخصيتهم ، مع افتتانهم بالبديـع والجري وراءه ، وضعف أسلوبهم ، وقـــد مات سنة ١٨٨٠ ، وله ديوان مطبوع .

الشيـخ علي الليثي :

ولد سنة ١٨٣٠ ببولاق ، وتيتم صغيراً ، فتحولت به أمه إلى جهـة الإمام الليث وإليه ينسب ، وطلب العلم بالأزهر مدة ، ولكنه لم يتم به تعليمه ثم رحل الى طرابلس الغرب وأخذ عن الشيـخ السنوسي الكبير ، والشيـخ القوصي الكبير الطريقة والعلم ، ولما عاد اتصل بالأسرة الحاكمة وكان مقرباً لدى الخديو إسماعيل ؛ لأنه كان مثالاً للنديم المحبوب الذي لا يملّ حديثه ، ولا يطاق فراقه ، وتروى له في باب المنادمة نوادر لا تزال تتردد حتى اليوم على ألسنة السمار في مجالس الأنس ، ولعل كثيرين منا يعرفون قصته مع (المهردار) بقصر الخديو إسماعيل حين كتب على باب

---

(١) تلوع : تجزع .

(٢) الراح : الخمر ، والنزوع : الميل .

حجرة الشيخ الآية الكريمة : « إنما نطعمكم لوجه الله » إذ لم يجد لقباً سواها يعطى لهذه الحجرة كما أعطيت الحجرات الأخرى بالقصر ألقابا ، من مثل حجرة أمين المخازن ، ورئيس الحرس ، وغير ذلك ، وقد كانت هذه مداعبة من (المهردار) ، أثارت في نفس الشيخ الليثي الرغبة في الانتقام منه ، وجعله سخرية أمام رجال الحاشية ، فانتهز فرصة وجوده معه بحضرة إسماعيل ، والمجلس عامر بعلية القوم يخوضون في أحاديث شتى ، ولما سنحت الفرصة قال الشيخ علي الليثي للخديو : عندي قصة صغيرة يا مولاي ، فقال ما هي ؟ قال :

لنـا طحونة في البلد لكن ثقيلة ع الحمـار

علقت فيها الطور عصى علقت فيها المهردار

فكانت أضحوكة سارت على الألسنة ، وطرب لهـا الخديو وأفراد حاشيته . ونال الشيخ الليثي لدى إسماعيل حظوة ومنزلة ، وعرف رجال الدولة مكانته فكان مقصد طلاب الحاجات ، ولا يرد له رجاء عند أولي الأمر . ولما مات إسماعيل أبقى عليه توفيق ، وقربه وأكرمـه ، وبقي مخلصاً له في أحلك أوقات الثورة حين تنكر له كثيرون ممن أكرمهم توفيق فأسبغ عليه من نعمه وكافأه على إخلاصه له .

وللشيخ علي الليثي ديوان لم يطبع ، بل يقال : إنه لعن من يطبعه . ولسنا ندري سبباً واضحاً لعزوف الشيخ عن تخليد أثره الأدبي إلا أنه نال ثراءً واسعاً في أخريات حياتـه ، وصار من سراة مصر ، وليس من اللائق بسريّ وجيه مثله أن يكون له ديوان شعر يروى وبه ما به من عبث ومجون ، وتزلف لكثيرين ممن يتسامى في حالته الأخيرة لمنزلتهم . ومن المستبعد أن يكون الشيخ قد أدرك أن شعره لا يستحق الخلود ،

وأنه ركيك ضعيف ، فكلى إنسان مهما كان شأنه يعجب بما يقول ، ولا يفطن الى ما به من عيوب ، ثم إن الذوق الأدبي والنقد لم يكونا قد وصلا إلى منزلة تمكن الشيخ من الاطلاع على مساوىء شعره بل على العكس كان الشيخ محسود المكانة الأدبية ، ويتهافت أدباء عصره على مكاتبته ومطارحته الشعر[1] وقد طال عمر الشيخ وتوفي سنة ١٣١٣ هـ ١٨٩٦ م .

وإذا نظرنا إلى ما روي لنا من شعره ، لم نجده يتميز عن زميله السيد علي أبي النصر في شيء ، ونجده يقول في المناسبات المختلفة شأن الندماء ، وقلما يطلق نفسه على سجيتها ، وينظم الشعر لأنه يشعر بدافع نفساني يلهمه القول . ومن شعره على البديهة قوله ، وقد كان أحد رجال الحاشية يفرغ تفاحة بمدية ليشرب فيها ، فانكسرت المدية ، فنظر إلى الشيخ نظرة من يسأله وصف هذه الحال ، وخليق بنديم الخديو اسماعيل أن يسجل مثل هذه الحادثة ، فقال الشيخ مرتجلاً :

عزت على الندماء حتى إنهم ... تخذوا لها كأساً من التفاح

ولدى اتخاذ الكأس منه بمدية ... لانَ الحديد كرامةً للراح

ومن شعره في رثاء عبد الله باشا فكري :

نذم المنايا وهي في النقد أعدلُ ... غداة انتقت مولى به الفضل يَكمل

كأن المنايا في انتقاها خبيرةٌ ... بكسب النفوس العاليات تعجّل

---

(١) الآداب العربية في القرن التاسع عشر للأب لويس شيخو .

فتمّ لها من منتقى الدرّ حِلية بهـا العالمُ العلويُّ أنساً يهلل

ويقول في وصف الفقيد :

لقد كان ذا بِرٍّ ، عطوفاً ، مهذّباً سجاياه صفوُ القطر بل هي أمثل

رقيق حواشي الطبع سهل محبَّب إلى كل قلب حيث كان مبجّل

وله في مدح السلطان عبد العزيز في عيد جلوسه سنة ١٢٩٠ :

مولى الملوك الذي من يمن دولته ظِلُّ العدالة في الآفاق ممدود

عبد العزيز الذي آثاره حمدت أبو الألى جدُّهم في المجد محمود

أجاد نظم أمور الملك في نسق لا يعتريه مدى الأزمان تبديد

فلا تقسْه بأسلاف له كرُمت والشبل من هؤلاء الأسْد مولود

ففخرهم عقد در وهو واسطة في جيد آل بني عثمان معقود

وهذا نظم ليس فيه شيء من الخيال أو المعاني السامية ، وعبارته تميل الى الضعف ، وهكذا كان شعر الشيخ ، بل لــــه شعر مليء بالمحسنات والزخارف اللفظية التي زادته ضعفاً على ضعف ، من مثل قوله يرثي محمود باشا الفلكي وقد تصادف أن تهاوت نيازك ليلة وفاته :

أرى النيازك عن سامٍ من الفلك مذعورةً أصبحت تصبو إلى الدرك

كالطير فاجأها البازي وأذهلهـا فحاكت البرق ، وانقضت عن الحبك

إلى أن يقول :

أليس نسر سماء العلم قد عَلِقَتْ		كفّ المنون به فانحاز في الشرك
الصبر يا نفس ، واستبقي منايحه		أو فالتصبر إن تبغي الهدى فلكِ
حل القضاء وناعي المجـد أرخَنا		قد مات محمود باشا المسند الفلكي

(فقد أرخ وفاته سنة ١٣٠٣ في هذا البيت) .

وهو شعر ليس فيـــه من أثر الحزن شيء ، بل هو مصنوع ليظهر قدرة الناظم على تلفيق مثل هذا الكلام ، وقد حاول مرة أن يفتنّ وبصف السفينة التي أقلته إلى مصر وهو عائد من برلين ، فلم تمكنه اللغة القوية ، ولم يسعفه الخيال ، وأتى الشعر ضعيفاً ، وأغلب الظن أنــه لم يقله بدافع نفسي ، وإنما طلب إليه أن يسجل هذه الرحلة فصنع الأبيات التي منها :

أصبح الوقت باسماً بالسرور		كابتسام الربيع وقت الزهور
أين ألقى طريف طبعٍ لطيفا		كي ندير الحديث مثل الخمور
فوق ظهر السفين نحسن وصفا		حيث يجري على صفاء البحور

* * *

وتراه يختـــال وهو معنّى		ويحــه كم يجر ذيل الفخور
ذيله يرسم المجرة عُجباً		بين موج يضيء مثل البدور

وهو وصف غني عن التحليل ، وإظهار ما به من ركاكة ، ففي كل

بيت عُوار لا يغفر ودليل قاطع على أن الشيخ ينتمي إلى مدرسة النظامين والعروضيين . ولعل خير ما روي له قصيدته التي قالها مستعطفاً الخديو توفيق عقب الثورة العرابية ، وطالباً الصفح عمن أجرم – في رأيه :

كل حال لضده يتحولْ فالزم الصبر إذ عليه المعول
يا فؤادي استرح فما الشأن إلا ما بـه مظهر القضاء تنزّل
رب ساعٍ لحتفـه وهو ممن ظنّة بالسعي للعـلا يتوصل
قَدَر غالب وسر الخفايا فوق عقل الأريب مهما تكمل
غاية العقل حسرة وعِقال واللبيب الذكي من قد تأمل
كيف ننسى ، وحادثات الليالي فاجأتنا بكارث ليس يُحمل
أذهبت أنفساً وغالت نفيساً وذوى مربُع الحظوظ وأمحل
وإذا المرء كان بالوهم يبني فخيال الظنون ما قد تمثل
ويح قومٍ سعوا لإدراك أمرٍ دون إدراكـه الجبال تزلزل
ما أصروا عليه إلا أضروا بأناسٍ من نابـه أو مغفل
ذاك يسعى على التـقيّةِ خوفاً وسواه سعى لكيما يُجمّـل
لو أصابوا الرشاد عند ابتداء كانت الغاية الجميلة أجمـل

وهذه القصيدة على ما بها من سهولة ، فمعانيها مطروقة ليس فيها جديد

وحكمها مألوفة ، وبها كثير من أثر الصنعة والتكلف ، أما الخيال وهو روح الشعر وجناحه الذي يحلّق به فلا أثر له . ونعود فنقرر أن هذه المدرسة التي ينتمي اليها علي أبو النصر وعلي الليثي هي مدرسة التقليد للشعر الذي كان سائداً في عصور ضعف اللغة ، وليس لهذين الشاعرين وأضرابهما شخصية قوية تهتك ستار هذه الحجب الكثيفة من الزخارف السمجة ، وليس لهما قوة عارضة ، وفحولة نسج لتستر مساوىء هذا الذي يسمى شعراً . وهما نظّامان أكثر منهما شاعران ، ويقولان في المناسبات نظماً غير صادر عن شعور إلا القليل النادر .

٣ - محمود صفوت الساعاتي [١] :

وهاك مثلاً لشاعر استطاع بمواهبه أن يفصح عن شخصيته ، وإن تراءت من بعيد حائلة اللون ، غير واضحة المعالم تحاول جهدها أن تظهر من خلال هذه السدف الغليظة من التقاليد الموروثة في الشعر العربي ، ولا سيما عصور الركة والانحلال . وقد أوتي حظاً من اللسن والفصاحة فاستطاع أن يجيد في غير ما موضع من شعره ، حتى ليعده بعضهم طليعة للنهضة الحديثة ، وممهداً للطريق الذي سلكه البارودي من بعد .

ولد الساعاتي بالقاهرة سنة ١٢٥١ هـ ١٨٢٥ م ، وظل بها الى أن بلغ الثانية عشرة ، ثم ارتحل إلى الاسكندرية فأقام بها ثمانية أعوام . لم يدخل الساعاتي الأزهر كما دخله علي أبو النصر ، وعلي الليثي ، ومحمد

(١) هو محمود صفوت بن مصطفى أغا الزيلع الشهير بالساعاتي ، والساعاتي لقب غلب عليه ، لأنه مهر في إصلاح الساعات ، ولا ندري على التحقيق أكان إصلاح الساعات حرفة له أم هواية كما يقول بعضهم .

شهاب ، وعبد الله فكري وغيرهم ، بل يقال : إنه لم يتعلم النحو ، وإنما استظهر ديوان المتنبي وكثيراً من أشعار القدماء فاستقام لسانه ، وعظم مخزونه من الأدب . وقد ظهر تأثير المتنبي في شعره واضحاً ، وكان بينه وبين النحاة مناقشات طويلة كما سنرى .

وكان تلميذاً للشيخ حسن قويدر يغشى مجلسه ويأخذ عنه الأدب ، وكان الشيخ قويدر غنياً كريماً ، ومات سنة ١٨٤٥ ، وكان سن الساعاتي حينئذ عشرين سنة . وهذا كل ما نعلمه عن ثقافة هذا الشاعر وحياته حتى هذه السن ، وقد رثى الشيخ قويدر بقصيدة مطلعها :

بكت عيون العلا وانحطت الرتب ومزقت شملها من حزنها الكتب

وفيها يقول ، وقد حشاها بالمبالغات السخيفة ، وهي ليست قوية النسج مما يدل على أنها من أوائل ما نظم :

ياشمسَ فضلٍ فدتكِ الشُّهبُقاطبة	إذ عنك لا أنجم تغني ولا شهب
لمـــا أصابك لا قوس ولا وتر	سهم المنية كاد الكون ينقلب
ما حيلة العبد والأقـــدار جارية	العمر يوهَـــب والأيام تَنتهب
لو افتدتكِ المنايا عندمـــا فتكت	بغيرنا لفدتك العُجْم والعرب
أمست لفقدكِ عين العـلم سائلةً	ترجو الشفاء وأنى ينجح الطلب

إلى آخر هذا النظم الذي ينبئنا بأن ذوق الشاعر لم يكن قد تهذب بعد ، وأنـــه يحاكي الشعراء المتأخرين في نسجهم الضعيف واستعاراتهم السمجة ، مثل (عين العلم سائلة) وغير ذلك .

وفي سن العشرين بدا له أن يحج إلى بيت الله الحرام ، وهناك اتصل بأشراف مكة (آل عون) ، فأكرموه ، واصطحبوه معهم في غزواتهم وحروبهم مع آل سعود وأمراء اليمن ، وظـل بجوارهم خمس سنوات يسجل انتصاراتهم ، ويسبغ عليهم مديحه . ولما عزل الأمير محمد بن عون عن امارة مكة ، ورحل الى الآستانة صَحبَه الشاعر ثمَّة ، ومكث معه قليلاً ، ثم تركه ، ورجع إلى مصر ، ولسنا ندري سبباً لتركـه : أيئس من عودة الأمير إلى أريكته فأراد أن يبحث عن شخص آخر يستظل بظله ؟. أم أن الأمير رأى نفسه معزولاً قليل المـال فبرم بصحبة شاعر يعوله وينفق عليه في غربته ؟ ولما عاد الأمير الى إمارته لم يستدع شاعره الصداح ، وفي شعر الساعاتي مـا يدل على أن القطيعة كانت من الأمير من مثل قوله يخاطبه :

أوليتني الآلاء ثم تركتـني مثل الذي حلّت به اللأواء
ما كان ذا أملي الذي أمّلته فبكم وأنتم سادة كرمـاء

ويقول :

وحبوتموني بعدهـا بقطيعة أكذا يكون تكرم وحبـاء

وقال مرة يعاتبه ، ويظهر يأسه منه ، وكأنه يودعه إلى غير رجعة :

قضى العبد بعض الواجبات بقصده إليكم وقد جُوزي بما هو أعظم
ونال الذي قد كان يرجوه وانقضت أمانيه منكم ، والسلام عليكم

وعلى الرغم من هذه القطيعة فقد ظل الشاعر يتحسر على أيامه الخاليات وعلى المودة المفقودة ، ويعتذر عن جرم لا ندري كنهه للشريف محمد ، ولأولاده من بعده عبد الله ، وحسين ، وعلي ، فيقول للشريف عبد الله :

شددت بكم بعد الإله عزائمي فكنت عليهم بالعـذاب شديداً

وإني أعيذ النفس بعدُ لعفوكم وإن جلّ ذنبي أو مكثت بعيداً

ويقول مرة أخرى للشريف عبد الله :

فإنيَ لم أبرح على العهد مخلصاً وإن طال عهد البعد واشتقت معْهدا

ويبدو أن الشريف عبد الله كان يصله على التبعد ، ولكن الشاعر كان يأمل أن يستدعيه لديه :

يقلدني فضـــلاً على البعد بيننا وأطمع حرصاً في شُنوف المسامر

ويتذلل للشريف حسين ويطلب العفو :

أقِلني وبادْر بالجميـــل فـــإنني أرى العفو دوماً من صفات الأماجد

ولما يئس الشاعر من صلاتهم ، والعودة إليهم بعد كل ما قدمه من زلفى ومن قصائد يرسلها إليهم في كل المناسبات قال للشريف حسين :

علّلت نفسي غروراً بالمواعيد فكان تعليلها عنوان تفنيـــد

إلى متى وإلى كم لا أرى زمني الا كذا بين تقريب وتبعيد ؟!

قالوا ذكاؤك محسوبٌ عليك كما يُروى، فقلت حديث غير مردود

وما كان أغنى الشاعر عن هذه الضراعة والذلة ، وهذا الإلحاح المشين في الطلب ، وأغلب الظن أنه لم يكن يراه بهذا المنظار ، وإنما يقتفي آثار الألى عبدوا له طريق المدح والإلحاف في المسألة من لدن النابغـة

الذّبياني حتى عصر إسماعيل ، ولم يجد في قوله هذا ما يخل بالكرامة أو يشين المروءة ؛ ونحن إنما نحكم عليه وعلى أمثاله من الذين طبعوا الشعر العربي بهذا الطابع لأننا في عصر تغيرت فيه قيم الأشياء ، وصرنا نعتد بالأدب الشعبي القومي ، وبالشعور الخاص ، والعواطف الكامنة في نفس الأديب ، ونجوى خياله وروحه ، أكثر من التفاتنا الى شعر المناسبات والسير في ركاب العظماء ، والتمدح بمناقب الأغنياء ، ولكننا نتساءل : ألم يكن بمصر أمراء يكفون الشاعر لو تقرب منهم مؤنة هذا التسول ؟؟ ولماذا قصر في مدح إسماعيل إذا لم يثبه سعيد على مديحه إياه ثواباً يرضيه ؟ وهل ثلاث قصائد تكفي في اسماعيل وهو من هو حَدَباً على الأدب والأدباء ، وهو الذي أظل بعطفه العلمين أبي نصر والليثي ، وهما دون الساعاتي قدرة على النظم ومتانة شعر ، وسمو خيال ؟. أيهما المقصر : إسماعيل إذ لم يضم إلى حاشيته وندمائه هذا الشاعر ؟ أو الساعاتي إذ انصرف إلى مديح آل عون بمكة ، واشتهر بإخلاصه لهم ، وجعل شعره حبساً عليهم إلا القليل ، ورأى أن باب إسماعيل قد سبقه إليه شاعران آخران واحتلا لدنه مكانة ومقاماً ؟ فلم يشأ أن يدع طريقاً عرفه ونوالا جرّبه وذاق حلاوته ، وينافس آخرين في أمر لا يعرف مصيره ، فظل على ولائه لآل عون يمدحهم في كل مناسبة : إذا غزوا ، وإذا أبلّوا من مرض ، وإذا ولد لهم مولود ، ويقول فيهم :

أحبُّهم ما دمتُ حياً ديانـــة   وأرغب لكن عن سواهم ترّفعا

وقد سار شعري بين شرق ومغرب   فما اختار غير البيت والآل موضعا

وما طار في الآفاق بدعاً مديحهم   ولكنه نشرٌ ذكي تضوّعا

وكان يرى أنهم هم الذين أطلقوا لسانه بعطاياهم ، وعلموه الشعر ،

ولولاهم ما نظم قصيداً :

نظمتُ حالي ولولا سلك فضلكم ... ما كان قولي ولا فعلي بمنتظم
علمتني الحمد والشكر الجزيل على ... فعل الجميل بما توليه من نعم

ما كنت لولاكمُ أبغي الفوائد من ... نظم الفرائد في إسم ولا علمَ

وعلى الرغم من هذا الولاء ، ومن دءوب الشاعر على مدحهم في كل مناسبة وهو عنهم بعيد ، فإنهم لم يستجيبوا لرجائه بدعوته إليهم ، ولعل للمنافسات التي كانت بين الشاعر ، وبين بعض الحجازيين [1] أثراً

---

(١) من المنافسين للشاعر في الحجاز الشيخ زين العابدين المكي ، وكان نحوياً ، اعترض مرة على قول الساعاتي :

وأبصرت في كف ابن عون مهنداً ... يرّويه قوم بالضراب خبير

بأن الضراب في اللغة : النكاح ، وليس فيها ضراب بمعنى الضرب ، واحتج الشاعر مؤيداً رأيه بقول الحارث بن ظالم المرّيّ :

وقومي إن سألت بني اؤي ... بمكة علموا الناس الضرابا
أقاموا للكتائب كل يوم ... سيوف المشرفية والحرابا

ويستشهد بقول المتنبي وكان من الحفاظ لشعره :

وكل السيوف إذا طال الضراب بها ... يمسها غير سيف الدولة السأم

وقوله : إنما بدر رزايا وعطايا ... ومنايا وطعان وضراب
وقوله : بغيرك راعياً عبث الذئاب ... وغيرك صارماً ثلم الضراب

فأفحمه بهذا الاستشهاد وفات المكيّ أن الضراب مصدر قياسي لضارب كقاتل وناضل . ولكنها حزازات النفوس تزل الخطا .

في هذه الجفوة ، فقلما خلت حاشية أمير عظيم سمح النفس سخي اليد من أمثال هؤلاء الحسّاد لكل من نال لديه حظوة أو نبـغ وقصروا . وما أمر المتنبي وسيف الدولة بمجهول ، ولقد بُلي الساعاتي بمثل ما بلي به المتنبي من هؤلاء النحاة الذين يحاولون الوقيعة بينه [1] وبين ممدوحه كما فعلوا مع أبي الطيب من قبل ، ولكنه انتصر عليهم في كل مرة تعرضوا فيها لادبه ، وأغلب الظن أنهم لم يتركوه يهنأ بهـذه المنزلة . وحاولوا جهدهم أن يزحزحوه عن مكانته ، وفي ذلك يقول معرضاً بهم .

لا تعدلوا بالشعر كـــل معمم   كالثور ذي القرنين بالأسكندر

ما كل من يملي القصيدة ناظم   قد ينتمي للشعر من لم يشعر

لو كان فيهم شاعر لوقفتُ في   ديوانه أدبـــاً ، ولم أتكبر

يا آل محسن لم يزَل إحسانكم   يدع الدنيء على حماكم يجتري

بل يحاول أن يوقع بهم كما حاولوا الوقيعة به ، وأن يفسر بغضهم له لإخلاصه لآل عون :

---

(١) من ذلك أنهم خطأوه في قوله يمدح الشريف ويصف أعداءه بالجبن .

كأنهم فوق السوابق خرد   لهن متون الصافنات جياد

بأن في ذلك انحطاطاً لمقدار من يقاومه حيث شبههم بنسوة ، فكأنه انتصر على نساء لا على أبطال ، ومكنته ذاكرة واعية لما استظهر من شعر المتنبي في الصغر من إفحامهم بقوله يمدح سيف الدولة :

فصبّحهم وبسطهم حرير   ومسّاهم وبسْطهمُ تراب
ومن في كفه منهم قناة   كمن في كفه منهم خضاب

فما أبغضوا مثلي سُدى غير أنهم يَعُدّون مدحي فيكم كالمآثم

ألم تر حسّانا ولي أسوة به وما كان يلقى من عِدا آل هاشم

إذا زعموا أني مع الفضل جاهل فقل لهم : هاتوا فصاحة عالم

فدعنيَ من قول النحاة فإنهم تعدّوا لصرف النطق في غير لازم

وما أنا إلا شاعر ذو طبيعة ولست بسراق كبعض الأعاجم

شعره :

قدمنا عند الكلام على الساعاتي ، والمدرسة التي ينتمي إليها بأن له شخصية في شعره ، وأن هذه الشخصية استطاعت البروز والوضوح على الرغم من كثافة التقاليد الشعرية الموروثة .

أجل ! استطاع أن يتخلص في بعض قصائده من المحسنات البديعية، وأن يرتفع بديباجته عن درك الغثاثة والرّكّة ، وأن يشعرك على الرغم من معانيه المطروقة بأنه أحسنَ التقليد وأضفى عليه شيئاً من نفسه وروحه . ومع كل هذا فمعظم شعره من ذلك النوع الذي ساد أيام المماليك وبني عثمان ، وقلما خلت قصيدة من تأريخ وتعمّد للصناعة والزخرف .

١ — ترى الشاعر يجيد في الحماسة ، ويقوى شعره وتشرق ديباجته : اسمعه يقول مادحاً سعيداً ، وقد عزم على زيارة المصطفى عليه السلام :

ملأتَ قلوب العُرب رعباً فما دروا بعثتَ لهم للكُتْب أم للكتائب

تركتهم في أمرهم بين صادقٍ وآخر في تيهٍ من الظن كاذب
تسير لهم في بحر جيش عرمرم يفيض بموج الحتف من كل جانب
إذا هتفوا باسم العزيز تزلزلت جبالٌ عليها الذل ضربة لازب
فكيف إذا يممت بالشهب أرضهم وزاحمت ما في أفقهم بالنجائب
وجردٍ عليها الأسْدُ في قصب القنا ترى الأسْد في الآجام مثل الثعالب

وخير من هذا قوله يمدح الشريف ابن عون ويصف غزوته لبني سليم :

وأضرمتمُ النيران فيهم وأضرموا لهم نار حرب مثل نار الحباحب(١)
كررتم على أهل الجبال بمثلها جبالُ رجال سُيّرت بالركائب
وما ثبتوا إلا قليــلا وزُلزلوا وأبطالُكم ما بين ضارٍ وضارب
رأوا باترات البيض تُغمد فيهم وتخرج من أصلابهم والترائب
فولّوا ومالوا للهزيمـــة بعدها ومِلتم على أرواحهم مَيْلَ ناهب

فهذه الديباجة القوية ، وهذه الفحولة قد طال انتظار الشعر العربي لها ، ولعل في حفظ الشاعر للمتنبي ما جعــله يجيد الحماسة ووصف المعارك ، كما كان المتنبي يجيدها وهو يمــدح سيف الدولة ، وقد شهد الساعاتي معارك آل عون مع أعدائهم كما شهد المتنبي معارك سيف الدولة مع الروم وغيرهم .

(١) الحباحب : فراشة صغيرة تضيء بالليل .

٢ – ومن الأغراض التي وفق الشاعر للقول فيها العتـاب ، وقد سلمت له أبيات جيدة فى هذا الباب مثل قوله يعاتب آل عون :

إني على العهد القديم وإنمـا	حظ الأديب عـداوة الأرزاق
عاملتموني بالجفاء ، رويدكم	الوَرْدُ ذو أرجٍ بـلا إحراق
مالي أراكم تنكرون مكانتي	الشمس لاتخفى مع الإشراق
قلـّدتم غيري الجميل وقلتم	حسب المفرّد زينة الأطواق
أسديتم الجدوى له وسددتم	طُرّق الرجاء عليّ بالإطراق
إن لم يكن مثلي يسيء ومثلكم	يغضي ، فأين مكارم الأخلاق؟

ويقول معاتباً صهراً له :

هلا اتخذتم سوى أعراضنا غرضاً	يُرمى وصيّرتمُ الإكثار تقليلا
إنا لنضرب صفحـاً عن بوادركم	ولو أردنا أسأنا الرد تنكيلا
لكن نصون عن الفحشاء ألسنة	هي الأسنة تجريحـاً وتعديلا
فليتكم تحسنون الظن إذ حسُنت	منا الظنون ، وكان الود مأمولا
رأيتُ وَصلكم قطعاً وحبّكم	بغضاً ونصركم للصّهر تخذيلا

ومن عتابه الرقيق قوله :

كنـّا وكنتم فأكثرنا زيارتكم	ونحن مثلان في فقرٍ وإفلاس

كانت مناسبة الحالين تجمعنا ومن يدوم على حال من الناس؟

والعتاب ، كما نعلم ، ليس باباً جديداً في الشعر العربي ، بل طرقه قبل الساعاتي كثيرون وأتت معانيه فيه مما وردت عند غيره من شعراء العتاب ، وكان الساعاتي أحياناً يستعمل الكلام المألوف العادي في العتاب حتى يفهم المعاتب ما يقول .

٣ – وقد ظهرت شخصيته في نصائحه التي قدمها لممدوحيه ، والتفاته للشعب ، وطلب الرأفة به ، وحسن معاملته . كقوله للشريف ابن عون :

فما استقام عماد الملك منتصباً إلا إلى قائم بالعلم والعمل

ودولة ُالمجدماانقادت ولاخضعت إلا إلى عادل للشّرع ممتثل

ماراقب اللهَ مولىً في رعيّتِه إلا وأدرك منها غاية الأمل

ويطلب العفو لأعداء ممدوحه محاكياً المتنبي في توسطه لدى سيف الدولة لبني كلاب ، فمن ذلك قوله :

للسلم قد جنحوا فمنُّوا واصفحوا ما قتلُ نصفهم من الإنصاف

وإذا أساءوا أحسِنوا لمسيئهم وارعوا مقام بقية الأحلاف

وإذا هم اقتتلوا وشدّوا أصلِحوا ما بينهم خير من الإجحاف

٤ – وكانت له دعابات طريفة تدل على روح مرحة ، وبديهة

طيعة ، ونكتة رائقة وهذا طابع المصريين غالباً لا يستطيعون عنه حولا ، فمن ذلك قوله يعزي منافسه وحاسده الشيخ زين العابدين المكي، وقد نفقت فرسه في طريق جدة :

قضت وهي تدعو فالق الحبّ والنوى بقلب كئيب دقّهُ الحبّ والنوى

فكيف نعزي الشيخ في الفرس التي به طوت الأسفار صبراً على الطوى

وكانت به تجري مع الريح خفة وأشبعها جرياً فعاشت على الهوى

وإن حملت ما لا تطيق لضعفها تموّج منها الظهر والذنَب استوى

قضت، وهي ما ذاقت شعيراً لزهدها فما شعرت إلا وعرقوبها التوى

ألا أيها الخِلُّ الذي طال حزنه عليها وفي أحشائه التهب الجوى

فعش أنت واسلم والحمير كثيرة ومثلك معدوم النظير لما حوى

ألا تذكرنا هذه القصيدة بالبهاء زهير حين يقول :

لك يا صديقي بغلة ليست تساوي خردلة

تمشي فتحسب أنها فوق الطريق مشكّلة

هي روح الدعابة المصرية تتجلى دائماً حين ينطلق شعراء مصر على سجيتهم لا يتكلفون القول ، ولا يتزمتون .

ومن دعاباته الظريفة قوله معرّضاً ببعض النحاة وواصفاً لهم ولحركاتهم ولخلطهم :

إذا ارتفعت بالنحو أعلام ِعلمنا جعلنا جواب الشرط حذف العمائم
ليعلم من بالنّصب يرفع نفسه بأن حروف الخفض غير الجوازم
ويعلم من أعياه تصريف إسمه بأنا صرفناه كصرف الدراهم
نصبْنا على حال من العلم والعلى وكنا على التمييز أهل المكارم
لأنا رأينا كل ثور معمم يكشّف قرنيه بنطح النعائم
بحر من الإذلال فضل كسائه كأن الكِسائي عنده غير عالم
اذا نظر الكُرّاس حرك رأسه وصاح : أزيد قام أم غير قائم ؟
وقال : المنادى اسم شرطٍ مضارع وظرف زمان نحو جاء ابن آدم
وجمعكَ للتكسير اسم إشارة كقولك نام الشيخ فوق السلالم

— ٥ وقد تغنى الشاعر في بعض قصائده بمصر وأمجادها ، وإن لم يظهر من الروح الوطنية مثل الذي أظهره رفاعة الطهطاوي ، فمن ذلك قوله مادحاً اسماعيل :

على أنها من جنة الخلد غيْضةٌ رياضٌ بها عين وأنت ضياء
فأبصرتَ فردوساً تدانت قطوفها وللنيل فيها كوثر وشفاء
ومصر هي الدنيا جميعاً وربها عزيز وأهلوها هم النجباء

وكان الساعاتي يدرك أنه مطبوع على قول الشعر ، وأنه استطاع أن

ينجو ببعض شعره من آفات القول ، وأوضار الشعر التي انتشرت في زمانه ، ويقول في هذا :

فلا تحسبنّي بالوضيع مكانةً   في القائلين وما أقول هُذاء

ويقول :

رويتُ جليلاً في جليل من الثنا   فكان عقوداً لا كلاماً معقداً

ويقول :

وما أنا إلا ناظمٌ دُرَّ فكرتي   ولم أنتحل فيما أقول وأسرق

ويقول :

وما أنا إلا شاعر ذو طبيعة   ولست بسرّاق كبعض الأعاجم

على أن هذا كله لا يعفي الشاعر من أنه أراق ماء وجهه في الطلب حيث يقول مادحاً توفيق باشا :

اريد وروداً من نداكم لأرتوي   كما يطلب الصادي على البعد مورداً

فسيّرت آمالي دليل قصائدي   لنيل الأماني علّ أبلغ مقصداً

وأنه كان يرى الشعر ثمناً للمال ، وأن المسألة بيع وشراء ، وأخذ وعطاء :

منّي المدائحُ والمنائح منكم   لا غَبْنَ إن كليهما آلاء

تمتاض من بذل النضار جواهراً   هذا بذاك وفي البقاء نماء

وأنه أسرف في الصناعات اللفظية ، واستعمال المحسنات البديعية كما يدل على

ذلك معظم شعره . وقد نظم قصيدة كاملة في مدح الرسول عليه السلام معارضاً بها ابن حجة الحموي ، والبوصيري ، وكل بيت منها يشتمل على محسن بديعي ، وفيها يقول ، وقد بلغ عدد أبياتها مائة وخمسين بيتاً :

براعة استهلال

سفحُ الدموع لذكر السفح والعلم أبدى البراعةَ في استهلاله بدم

التورية

وكم بكيت عقيقاً والبكاء على بَدْر ، وتوريتي كانت لبدرهم

الجناس التام

أقمار تِمٍ تمالَوْا في منازلهم فالصبُّ مدمعه صَبٌ لبُعدهم

وأن الشعر عنده – كما كان عند معاصريه – مهارةٌ لفظية ، وصناعة خالية من الروح والشعور ، ومقدرة على صياغة منظومة فمن ذلك قوله مورّيا :

قالوا : اتخذ لك خادماً ، فأجبتهم : أنى يكون لناظم الشعر الرقيق ؟

قالوا :التمس لك طيبعيش،قلت: لا يُرْجى لربّ اللفظ والمعنى الدقيق

وقوله في الجناس ، وكل القصيدة على هذا المنوال :

أيا من به صار الزمان سعيداً ومن كل من وافاه آنس عيدا

أما التأريخ الشعري ، والأحاجي والألغاز فكثيرة .

هذا ، وقد شغل الساعاتي عدة مناصب في الدولة ، فمن موظف بالمعية ، إلى موظف في مجلس الأحكام المصرية (وكان بمثابة هيئة الاستئناف العليا في عهدنا) ، وكان يرأسه الأمير اسماعيل في عهد سعيد . ومدح من حكام مصر في العهد السابق سعيداً ، وإسماعيل ، وتوفيقاً ، ومات في سنة ١٢٩٨ هـ ١٨٨٠م قبل أن تندلع الثورة العرابية .

٤ – عبد الله فكري :

وهو يمثل المدرسة الثالثة من المقلدين ، تلك المدرسة التي قلد أربابها بلغاء القرن الرابع كالصاحب بن عباد ، وابن العميد ، وقلدوا كذلك في حياتهم وأسلوبهم وتنميق رسائلهم القاضي الفاضل ، وابن مطروح ، واستطاعوا بما أوتوا من تضلـّع في اللغة ، وتمكن من الأدب ، وذوق مرهف حساس ألا يكونوا صدى لهؤلاء الكتّاب القدامى ، بل أضفوا على ما كتبوا طابعهم وشخصيتهم ، ومثلوا عصرهم بعض التمثيل ، فتشعر حين تقرؤهم أنك تقرأ كتاباً في القرن التاسع عشر ؛ وذلك لخوضهم في الموضوعات الحيوية للبلاد ، ولتخلصهم في بعض الأحيان من قيود الماضي جملة ، فلا سجع ولا تنميق ولا تزويق ولا محسنات ، وإنما يتبعون طريقة ابن خلدون في الترسل مع متانة نسج وحسن عرض . وإن كانوا في كثير من الأحيان ، ولا سيما حين يحتفلون بكتاباتهم ، أو يراسلون عظيماً أو أديباً ، أو يتحدثون عن لسان السلطان أو الأمير ، يعمدون إلى الأسلوب الشعري المنثور ، بما فيه من خيال وسجع ، وفقرات تختلف طولاً أو قصراً ، ويزخرفون كتاباتهم ويرصعونها بشتى الحلى اللفظية والمعنوية ، وهنا تتضاءل شخصية بعضهم وتحافظ شخصية آخرين على وجودها في وسط هذه الزينات والتقاليد تبعاً لتمكّن الكاتب من موضوعه ، وحذقه للغة ، ومتانة شخصيته وتميز خصائصها .

كان لديوان الإنشاء في الدول العربيـــة منزلة سامية ، يتوصل به الكاتب والشاعر إلى أرقى مناصب الدولة ، منذ سهل بن هارون ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، وابن العميد ، والقـاضي الفاضل ، وابن مطروح ، وقد مضى على مصـــر حين من الدهر استعجمت فيها لغة الدواوين ، وسادت التركية ، وصدرت بها قوانينها ورسائلها ، ووصلت العربية إلى الحضيض ولم يبق فيها إلا ذماء يسير . وحـاول إسماعيل – كما ذكرنا – بعث اللغة العربية ، وترجمة القوانين التي صدرت من عهد محمد علي حتى أيامه من التركية إلى العربية ، كي يسهل عليه الانفصال عن الدولة العثمانية حينما تلوح الفرصة ، وقد كان لعبد الله فكري يــد كريمة في هــذا العمل الجليل ، فبعث اللغة الديوانية ، لا ركيكة ولا سخيفة ، بل ممتلئة رونقاً وقوة ، فصار نموذجـــاً يحتذى ، وأستاذاً يأخذ الناس عنه طريقة الكتابة الديوانية وتدبيج الرسائل الأدبية .

ولد بالحجـــاز سنة ١٢٥٠ هـ ١٨٣٤ م من أب مصري [١] وأم من بلاد المورة وعاد به والده إلى مصر بعد عودة جيوش محمد عـــلي من الحجاز ، ولكنه توفي ولما يبلغ عبد الله الحادية عشرة من عمره ، فكفله بعض أقاربه ، ودخل الأزهر وتلقى العلوم المتداولة على كبار مشايخه ، وكان في نفس الوقت يدرس اللغة التركية فلما حذقها عين في القلم التركي في الديوان الكتخدائي ، وظل مع اشتغاله بالوظيفة يتردد على الأزهر ، والتحق بعدة وظائف ديوانية ، ثم عين بمعية سعيد ، وتولى فيها تحرير الرسائل الديوانية بالتركية والعربية ، وظل في منصبه حتى تولى إسماعيل

---

(١) أبوه محمد بليغ بن الشيخ عبد الله ، وكان الشيخ عبد الله من العلماء المدرسين بالأزهر ، أما محمـــد والد عبد الله فكري فكان مهندساً بالجيش ، ووصل فيه إلى رتبة صاغ ، وحضر عدة مواقع حربية منها حرب المورة ، وفيها تزوج أم عبد الله فكري ، وولدته بالحجاز حين ذهبت مع زوجها في الحرب السعودية .

عرش مصر فأبقاه ، وقربه وسافر معه مرات إلى الآستانة ، ثم عهد إليه بتثقيف أولاده وغيرهم من أمراء الأسرة ، فكان يباشر تعليمهم أحياناً ، أو يشرف على المدرّسين أحياناً أخرى . ولما نقل إلى وزارة المالية كان له الفضل في جمع الكتب الموجودة بها ، وضمها إلى دار الكتب حين أنشأها علي مبارك . وبعد ذلك عهد إليه بترجمة اللوائح والقوانين وتنقيحها فأدى هذه المهمة الجليلة على أكمل وجه ، ثم عين وكيلا لديوان المكاتب الأهلية ، فرفع مستواها وجعلها صالحة لتغذية المدارس الأميرية ، فوكيلا لنظارة المعارف مع شغله منصب الكاتب الأول في مجلس النواب ؛ وقد ارتقت طريقة تعليم العربية على يده وهجرت طريقة الأزهر . ثم عين وزيراً للمعارف في وزارة محمود سامي البارودي . ولما استقالت الوزارة بسبب الثورة العرابية ، اتُّهم بممالأته للثوار بعد انتهاء الثورة ، وقبض عليه ولكنه بريء ، فأطلق سراحه وعاقبوه بقطع راتبه ، فراح يستعطف الخديو توفيق ، وقال في ذلك قصيدته المشهورة :

كتابي توجه وجهة الساحة الكبرى وكبّر إذا وافيتَ واجتنب الكِبرا

فعفا عنه توفيق وأعاد إليه راتبه ؛ وقام بعد ذلك بعدة رحلات إلى الحجاز ولبنان ، ولقي فيها كل ترحاب وإجلال لمكانته الأدبية ، ولما رأى فيه أهلها من سعة علم وعظيم فضل وحسن حديث .

وفي سنة ١٨٨٨ مثل مصر في مؤتمر المستشرقين باستكهلم عاصمة السويد وصحبه نجله أمين باشا فكري . وقام بسياحة عظيمة شهد فيها معظم عواصم أوربا ؛ ولما عاد عكف على تدوين رحلته ، ووصف ما شاهد من المناظر في أوربا ، وما رأى من آثار الغرب ، وكيف استطاع العقل البشري أن يسخّر الطبيعة ومواردها لخدمة الإنسان ،

غير أن المنية لم تمهله فقضى بعد عودته بزمن وجيز ، وأتم نجـله أمين كتاب الرحلة وسجلها في كتاب أسماه « إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا » في سنة ١٨٩٢ . هذا وقد توفي عبد الله فكري سنة ١٣٠٧هـ — ١٨٨٩م .

ونرى من حيـاته التي سردنا تاريخها موجزاً ، أنه ديواني بالنشأة والمَرْبى والعمل ، فلا بدْع إذ تجلى أثر عبد الله فكري في الكتابـة الديوانية ، ولما كنّا في صدد ذكر الشعراء الذين ظهروا في عصر اسماعيل والمدارس التى ينتمون إليها ، وقدمنا أن عبد الله فكري يمثل إحدى المدارس التقليدية ، كان حرياً بنا أن نذكر نماذج من شعره ، على أنه يمثل بكتابته تلك المدارس التي تظهر فيهـا شخصية الكاتب والأديب واضحة بعض الوضوح أكثر مما يمثلها بشعره ، بل إن شعره ينتمي إلى مدرسة علي أبي النصر أو الساعاتي ؛ وذلك لأن عبـد الله فكري تفوق في نثره تفوقاً باهراً وكان كاتباً أكثر منه شاعراً .

كان يمثل في شعره مدرسة الصنعة لا مدرسة الطبيعة ، يؤرخ لكل مناسبة ، ويشطّر ويقول الألغاز والأحاجي ، ويقول كما يقول الندماء في وصف الآنية ومجالس الأنس والأزهـار وغير ذلك ، ويكثر من المحسّنات ينتزعها انتزاعاً ، ويحشرها حشراً شأن هذه المدارس التقليدية ، وقلما انطلق على سجيته ، وترك نفسه لطبيعتها .

اسمعه يؤرخ زواج الأمير حسين كامل بالأميرة عين الحياة :

بشّرْ بأحسن فألٍ   يقول والقولُ يصفو
أرّخ لنحو حسينٍ   عَيْنُ الحياة تُزَف

ويقول في هذه المناسبة :

بشرى بطالع سَعْدٍ	بالبِشْر واليمن آتٍ
تزف للبــدر شمس	تسمو على النيّرات
بخير فأل سعيد	يُومي لطول الحياة
يقول والفأل حق	عن سيّد الكائنات
أرّخْ لنحو حسين	تزف عين الحياة

٩٤ ١٢٨	٤٨٧ ١٣٠ ٤٥٠ المجموع١٢٨٩

ويؤرخ لانتصار الأتراك على الروس ، وأخذهم ميناء سباستبول بعد تخريب قلاعها سنة ١٣٧٢ هـ وكل مصراع من المطلع يساوي هذا التاريخ .

لقد جاء نصر الله وانشرح القلب	لأن بفتح القرْم هان لنا الصعب
وقد ذلت الأعداءُ من كل جانبٍ	وضاق عليهم من فسيح الفضا رحب
بحرب تُشيب الطفل من فرط هولها	يكاد يذوب الصخروالصارمالعضب
إذا رعدت فيها المدافع أمطرت	كئوس منونٍ قصّرت دونها السُّحب
تجرّع آل الأصفر الموت أحمراً	وللبيض في مُسْوَدّ هاماتهم نَهْب
تراهم سكارى ، للظُّبا في رؤوسهم	غناء ومن صرف المنايا لهم شرْب

وقد سقنا مع البيت الأول الذي فيه التأريخ بعض أبيات من هذه القصيدة لنرى مدى قوته في وصف الحرب ، وقد مر بنا شاعر معاصر

له ، أو قريب منه ، أجاد في هذا الفرض ، ألا وهو الساعاتي . إن أثر الصنمة ، وضعف النسج ، وضحالة الخيال ، وتفاهة المعـــاني ، واقتناص المحسّنات ، كلها محشودة في هذه الأبيات .

وهاك مثلاً آخر يقلد فيه القدماء في معانيهم وأخيلتهم بما لا يناسب قاهريته وحضارته ؛ فتشبيهات قديمة ، وخيال سخيف ، وديباجة ضعيفة، وجريٌ وراء المحسنات ، وموضوع هذه القصيدة المديح ، وقد أبتدأها بالنسب كما كان يفعل القدماء قال :

أزاحت ظلام الليل عن مطلع الفجرِ وقامت تدير الشمس في كوكب درّي

وهزت على دِعص النّقا غصن بانةٍ ترنّـــح في أوراق سندسه الخضر

ومالت بها خمر الصّبا مثلما انثنت نسيم الصّبا بالأملد النــاعم النضر

من الترك لم تترك لِصَبٍّ مَحجّةً إلى الصّبر أو نهجاً لعذل إلى العذر

وبيضاء سوداء اللحاظ غريرة من الغيد ريَّا الرّدف ظامئة الخصر

مُمَنَّعَةٍ لا تجتني وردَ خدّها يدُ اللحظ إلا بين شوك القنا السمر

من الروم مثل الرّيم ِجيداً ولفتة ولحظاً ومثل الغصن والشمس ِ والبدر

فهي لم تترك نصبَ محجة إلا لأنها من الترك ، وهي مثل الريم جيداً ولفتة لأنها من الروم ، ومالت بها خمر الصبا مثلما انثنت نسيم الصبا بالأملد النضر ، وهزت على دعص النقا غصن بانة .. وغـــير ذلك من هذه العبارات المحفوظة والقوالب المعدة ، وذلك الوصف المادي الرخيص الذي لا يمثل المرأة إلا سلعة .

وقد قال في الأغراض التي نظم فيها كتّاب الدولة الأيوبيـة ورؤساء دواوين الإنشاء ، فكان يصف الآنية والأزهار ، ويشبه بالنفائس على طريقة الظرفاء المقتدى بهم في عصر الأيوبيين ومـــا بعده ، خلال المنادمات والمطارحات ، فمن ذلك قوله يصف ناراً موقدة في فحم حوله رماد :

كأنما الفحمُ ما بين الرماد وقد   أذكت به الريح وَهنا ساطع اللهب

أرضٌ من المسك كافورٌ جوانبهـا   يموج من فوقهـا بحر من الذهب

وقال في الورد :

كـأن ورداً لاح في أكـمــةٍ   يزهــو بثوبَيْ خضرة واحمرار

ياقوتـــةٌ في سندس أخضر   أو وجنة خطّ عليها العذار

وكان يقول الشعر في أغراض التظرف مثلما قالوا ، وله في هذا بعض المقطوعات الصغيرة ، فمن ذلك قوله مجيباً مليحاً قال له كيف أصبحت :

أصبحت من فَرْط وجدي فيك ذا شجَن   وكانت الروح كادت أن تفارقني

فمـــذ لقيتك كلُّ الهم فارقـني   وألّف الله بـــين الروح والبدن

وقال في مليح رآه أول الشهر مستعملاً الجناس التام :

وبدر تبدى شاهراً سيف جفنه   فروّع أهل الحب من ذلك الشهر

وليـــلة أبصرنا هلال جبينــه   عَلمنـــا يقيناً أنهـا غرة الشهر

وقال يتغزل :

كتبت ولولا دمع عينيَ سائـــل   تلظّى جـوابي من تلهّب أنفاسي

وعندي من الأشواق ما لم يبُحْ به		لسان يَراع في مسامـع قرطاس
ولي من تباريح الهوى وشجونه		أحاديث ُتلهي الشّرب َعن لذة الكاس
ولو كنت من دهري أنال مآربي		لسرتُ لكم سعياً على العين والراس

وكتب يعتذر للشيخ عبد الهادي نجا الإبياري عن دعوة وصلته منه متأخرة (١) .

يامن بديعُ ُحـــلاه		تزري البديع و ُتنسي
وافت عقيلة نظم		تتلو فصاحة ُقسّ
كالبدر لاح سناه		من بعد مغرب شمس
فغادرتني صريعـــاً		نشوان من غير كأسّ
فمُنّ بالعفو إني		منه على غير بأس
وإن عتبتَ فحقٌّ		وما أبرّىء نفسي

وكتبَ إلى أحمد فارس الشدياق رَدّاً على قصيدة له :

َتفديك نفسُ شجٍ عليلٍ آسي		َعزّ الدواءُ له وحارَ الآسي

---

(١) وصلت رقعة الشيخ الإبياري بعد غروب الشمس وفيها يقول :

يا نور فكري وسري		وروح روحي ونفسي
لدي شـــامة شام		لطيف معنى وحس
يود كل أديب		لقياه رغبه أنسي
فإن تمنّ فشرّف		من قبل مغرب شمس

أضناهُ طولُ أساه حتى إنه		يحكي لفَرْط ضَنَاه ذاوي الآسِ
هزّتْه سارية النسيم ، وقد جَرَتْ		بشَذَا َفرُوقَ أريجةَ الأنفاس(١)
فكأن في طيّ الشمال ، إذا انثنى		من نشرها طرباً، شمولَ الكاس(٢)
وكأنهـــا حملت إليّ رسالةً		غرّاء جاءتْ من أغرّ مُواسي
كمليحةٍ عذراءَ وافتْ صبّها		من بعد طول تمنُّرٍ وشِماس
يفترُّ مبسِمها بحسن حديثها		عن سحر فاتن جفنها النعّاس
تدنو فيُطمعُ عاشقيها أنسُها		ويُشير عزُّ دلالهـــا بإياس
أو روضة فيحاء حيّاها الحيا		من صوب محلول العُرى رجّاس(٣)

وكل هذا الذي رويناه له شعر مصنوع لا يُفصح عن طبع وسليقه ، أو شعور دفعه إلى القول بما يختلج في نفسه . ومن هذا النمط قوله في الحكمة والمواعظ :

إذا رمت المروءة والمعالي		وأن تلقى إله العرش برّا
فلا تقربْ لدى الخلوات سراً		من الأفعال ما تخشاه جهراً

وقوله ينصح ولده أمين وهو صغير :

إذا نام غِرٌّ في دُجى الليل فاسهرِ		وقم للمعـــالي والعوالي وشمّر
وخلّ أحاديث الأمـــاني فإنها		عُلالَةُ نفس العـاجز المتحير
وسارع إلى ما رُمتَ مادمت قادراً		عليه، فإن لم تبصر النُجْح فاصبر

(١) محلول العرى : المطر الغزير الذي لا يحجبه شيء ، والرجاس : الشديد الصوت .
(٢) فروق من أسماء استانبول		(٣) الشمول : الخمر .

ولا تأتِ أمراً لا تُرجّي تمامه ... ولا مورداً ما لم تجد حُسنَ مصدر
وعوّدْ مقال الصدق نفسك وارضَه ... تُصدَّق، ولا تركن إلى قول مفتري
ودع عنك إسراف العطاء ولا يكن ... لكفّيك في الإنفاق إمساكُ مقتر
ولا تقْفُ زلات العبـــاد تعدّها ... فلستَ على هذا الورى بمسيطر

هذا من الشعر التعليمي الذي لا ينبيء عن خيال عميق ، لأن الحكمة نظم للحقائق المجردة ، والحقيقة المجردة من صميم الوجود ، وقائـــل الحكمة السائرة عالم بطباع الناس يضع العالم أمام ناظريه ويشرف عليه من عَل ، وكأنه ينظر في كفه فيستقري الحوادث والطباع ، ثم ينطق بالحكمة تصلح لكل زمان ومكان ، من أمثال ما نظم المتنبي وغـيره من فحول الشعراء ، وأين منهم عبـد الله فكري في مواعظه المدرسية هذه ؟ على أنها تُعد من خير شعره وأسلسه وأوضحه .

ومن شعره ، وربما كان فيه شيء من الشاعرية ، لصراحته وتصويره نفسية امرأة فرنجية تتّجر بعِرضها وتتهافت على المال ، وما حدث له معها :

وهيفاء من آل الفرنج حجابُها ... على طالبي معروفها في الهوى سهلُ
تعلقتُها ، لا في هواهـــا مراقبٌ ... يخافُ ولا فيها على عاشق بخل
إذا أبصرتْ من ضرب باريز قطعةً ... من الأصفر الإبريز زلّ بها النعل
فلما تعارضنا الحديث تعرّضت ... لوصلٍ ومن أمثالها يُطلب الوصل
فرُحتُ بها في حيث لا عينُ عائنٍ ... ترانا ، ولا بعلٌ هناك ولا أصل
وبتُّ ولي سُكران من خمر لحظها ... وراحِ ثناياها ، ومن خدّها نُقل
وقمت ولم أعلم بمـــا تحت ثوبها ... وإن كان شيطاني له بيننا دخل

ومن خير شعره قوله :

أنسيتِ ليلتنا وقد خاص الهوى ... منا ، وحبل الوصل وهو متين
بتنا على فرش العفاف وبيننا ... نجوى ترقّ لها الصفا وتلين

ومن أحسن شعره قصيدته التي يعتذر فيها للخديو توفيق ، ويتنصل من اشتراكه في الثورة ، ويطلب إرجاع راتبه المقطوع ؛ وإن كانت معانيها مما يخطر لكل شاعر وليس فيها جديد ، وهي تنبيء عن تلك الروح الذليلة التي تمثلت في كبار رجال الدولة إبان عصور الظلم :

كتابي توجه وجهةَ الساحة الكبرى ... وكبّر إذا وافيتَ واجتنب الكِبرا
وقف خاضعاً واستوهب الأذن والتمس ... قبولاً وقبّل سُدّةَ الباب لي عشرا

وفيها يقول :

مليكي ومولاي العزيز وسيدي ... ومن أرتجي آلاءَ معروفه العمرا
لئن كان أقوام عليّ تقوّلوا ... بأمر فقد جاءوا بما زوّروا نُكرا
حلفتُ بما بين الحطيم وزمزمٍ ... وبالباب والميزاب والكعبة الغَرّا
لمَاَ كان لي في الشرّ باعٌ ولا يد ... ولا كنت من يبغي مدى عمره الشرا
ولكنّ محتوم المقادير قد جرى ... بما الله في أمّ الكتاب له أجرى
أتذكر يا مولاي حين تقول لي ... وإني لأرجو أن ستنفعني الذكرى
أراك ترومُ النفع للناس فِطرةً ... لديك ، ولا ترجو لذي نَسَمَةٍ ضُرّا
فعفواً أبا العباس لا زلتَ قادراً ... على الأمر، إن العفو من قادرٍ أحرى
أيجمــلُ في دين المروءة أنني ... أكابد في أيامك البؤس والعُسرا

ولعلنـا بعد كل هذا الذي رويناه له قد أخذنا فكرة واضحة عن منزلته بين الشعراء ، وقد ذكرنا آنفاً أنه اشتهر بالكتابة ، وأنه كاتب أديب أكثر منه شاعر ؛ وشعره في الواقـع قليل إذا قيس بما ترك من مقالات ورسائل ، وكـُتُب وشروح وغير ذلك .

نثره :

استطاع عبـد الله فكري أن يرتقي بالكتابة الديوانية ، وأسلوبِ الرسائل والمكاتبات إلى منزلة سامية ، وأعاد إلى الأذهان عصر رؤساء ديوان الإنشاء في العصور القديمـة ، واتخذ له خاتماً : « إني عبدُ الله آتانيَ الكتاب » ؛ لأن هذه الآية وافقت سنة ميـلاده ١٢٥٠ هـ كما كان لهؤلاء الرؤساء خواتم .

وكان له أسلوبان في نثره : أحدهما وهو الغالب وبه كـَتـَب أكثر رسائله ، وهو ذلك الأسلوب الذي يحتفي بعبارته ، وموسيقاه ويختار ألفاظه ، وبه خيال شعري ، ومعانٍ دقيقة معارضاً فيه أسلوب القاضي الفاضل ، أو بديع الزمان ، أو الخوارزْميّ ، أو ابن العميد . وثانيهما أسلوب مرسَل سهل يجري مجرى الكلام العادي وهو أسلوب الصحافة في عهده ولكنه قليل فيما ترك من آثار .

ومن الأسلوب الأوّل قولـُه من رسالة لصديق ، بَيـَّن فيها أحوالَ أهل العـلم في عصره منتقداً هذه الأحوال ، متهكـّماً بهم في لهجة ساخرة لاذعة ، قال : « كتبتُ والذهن فاتر من وَهن الدفاتر والتبييض والتسويد ، والتقييد والتـّسديد ، والترجمة وكثرتِها ، والهمة وَفترتها ، والمـاهية وقلتها ، والنفسِ وذاتها ، وراتبي لا يكفي أجرةَ البيت ، ولا يفي ثمنَ الماء والزيت . وبالأمسِ وَعدَ الوكيلُ بالزيادة ، واعتذرَ

اليوم بالأصيل على العادة ؛ على أنه لو حصلت زيادة ، فلزيد ولعمرو ، إلى آخر الزمْر ولله الأمر . أحوالٌ متبدّدة ، ونفوس متبلّدة ، وأشغال متعددة ، إخوان خُوّان ، وخِلاّن غيلان ورِفاق وما أجملَ الفراق .

وقلت :

إلام أعاني الصبرَ والدهرُ غادرٌ   وحتى متى أشكو وما ليَ عـاذر

ولو أنني أشكو عظائم شِدتي   لميْتٍ لرقّت لي العظامُ النواخر

وسألتَ عن فلان وفلان ، وهيّان بن بَيّان ، ممن ينتسب للعلم وأهله ، ويتظاهرُ بشعار فضله ، ولو كان العلم بلحيةٍ تعظمُ وتُطوّل ، وشواربَ تُحفّ وتستأصل ، وعيونٍ على ما بها من غَمَض ورَمَضٍ تكحل ، وعمامة تعظم حتى تزدُل ، وطيلسان يُلَفُّ ويسدل ، وكُمٍّ يوُسّع ويُسْبَل ، وأحاديثَ خرافــةٍ تُقَصُّ ، وتنقل ومحفظة تُفعَم وَتثْقُل ، وسِواكٍ يظهر من العمامة نصفُه ، وكتابٍ يخرجُ من الجيب طرُفه ، ثم بتشدق في الكلام وَبتباله في المرام ، وتعسّف في الأفهام ، وحِرْصٍ على الحطام ، ثم يقول الإنسان : حضرتُ درس فلان ، وسمعتُ من لفظه باللسان ، وقضيت في العلم كذا سنةً من الزمان ، فهم أعلم مَن أقلّته الغبراء وأفقه من أظلته الخضراء ، وإن كان للعلم غيرُ هذه الآلات ، فما لهم سوى هذه الحالات . غايةُ الأمر أنهم قضَوْا أرذلَ العُمرُ في كتب معدودة وشروح موجودة ، وهم يكررونها ولا يدرونها ، ويقرّرونها ولا يُحررونها ، ويتداولونها ولا يعقلونها ، ولو صرف حماري هذا العمرَ فيها لأصبحَ فقيهاً ، وأضحى نبيهاً ؛ والذي يُظهر مينَهم وشينهم وعلامةَ ما بيننا وبينهم أن يؤمر أحدهم برقعة تكتب لحاجة معهودة ، ويمتحَن بكتاب غير هذه الكتب المعدودة ، وفيه بعض كلام العرب وأشعارها ، وشيء من وقائعها

وأخبارها ، فإن كتب فصيحاً وقرأ صحيحاً وفهم مليحاً ، عرفنا أنه شم عَرف العلم وذاق طعم الفهم ، وسلمنا إليهم ما يَدّعون ، وتركنا لهم ما يأتون وما يَدعون ، وإن ارتبكَ المرقبة ، ووقف حمار الشيخ في العقبة ، عرفنا حاله وقلنا له :

أيها المدّعي سُليمى سفاها | لستَ منها ولا قلامة ظفر
إنما أنت من سُليم كواوٍ | أُلحقت في الهجاء ظلماً بعمرو

وقد مررتُ بالأمس على أحدهم في الدّرس ، يقرأ القَطْر لابن هشام ، ويلحن لحن العَوام ومررت بآخَرَ يدرس الكافي في عِلمَي العروض والقوافي يقرر قوله :

قف على دارهمْ وابكِيَنْ | بين أطلالها والدمن

فلا وربّك ما أقام له وزناً ، ولا عرف له معنى ، مع سهولة مبناه وظهور معناه .. الخ ومن هذا النثر المسجوع قوله يصف حديقة .

ثم خرَجتُ إلى حجرة خالية ، أُعدّت فيها فُرُشٌ عالية ، وأدوات غالية ، وسطعت بها روائحُ الطيِّب والغـالية ، وقد أُكملت وجوه تحسينها ، وأتمت أسبابُ تزيينها ، وهي على حديقة ذات أفنان ، وأنواع من الزهور وألوان ، وثمرات حِسان ، وقد فاح الطيبُ من محـاجر أزهارها ، وصاحَ الخطيب العندليبُ على منابر أشجارها :

رياضٌ كديباجِ الخدودِ نواضرٌ | وماءٌ كسلسال الرُّضاب بَرود

فجلست أُجيل فيهـا النظر ، وأتأمل محاسن الروض غبَّ المطر ، وأطالع مارَقَّمه الطّلُّ في صحائف الغُدْرانِ ، وأرى خواتم الزَّهْر حين تَسقُط من أنامِل الأغصان :

من قبل أن تَرْشِف شمس الضحى ... رِيقَ الغوادي من ثُغور الأقاح

ومن ذلك الضرب من النثر الذي يذكّرنا بكتاب الإنشاء في الدولة الأيوبية وما قبلها وفيه بعض القوة والعافية في سجعات قصيرة الفقرات نوعاً من رسالة :

« سلامٌ يعبّر عن الوِداد طيبُ عَبيره ، ويُخبر عن إخلاص الفؤاد لُطْفُ تعبيره ، وثناءٌ على محاسن تلك الشمائل ، أرقُّ من نسمات الشمائل [1] وتحيةٌ بهيَّة تُباهي الخمائل بنفحات أورادها ، وأدعية مَرْضية جعلتها الألسنةُ خيرَ أورادها ، وسؤال عن المزاج الزاهر وصحة الخاطر الباهر . لا زلتم مَحَلاًّ نعمة يتصل على مدى الأيام بقاؤها ، ويزيد على مَرّ الشهور والأعوام بهاؤها ؛ ولا بَرِحت ثُغورُ الإقبال إليكم بواسم ، ورياحُ الآمالِ لديكم مواسم .

وبعد ، فإني من الأشواق ، ما تضعُف عن حمله إلى حماكم الأوراق ، ومن التأسف على ما حُرمته من لُقياكم ، والتلهف إلى مطالعة مُحيّاكم ما يقصّر عن وصفه لسانُ البراعة ، ويَقْصُر دون وصفه بيانُ اليراعة ، ويضيقُ عنه نِطاق العبارة ، ولا ينفسح له ميدان الإشارة . »

ومن رسائله التي تذكرنا بأسلوب العصر العباسي الثاني ، عصرِ الصاحب بن عُباد والخوارزمي ، وابن العميد قوله معزياً :

« يَعِزُ عليّ أن أكاتبَ سيدي معزّياً أو ألم به في مُلمة مسلياً ، ولكنه أمر الله الذي لا يُقابَل بغير التسليم : وقضاؤه الذي ليس له عدّة سوى الصبر الكريم . وقد علم مولاي (أجمل الله صبره ولا أراه من بعدُ إلا ما سَرّه وشرح صدره) أن الله – جَلّ ثناؤه وتباركت آلاؤه – إذا امتحن عبده فصبرَ آجرَه وعوّضَه بكرمه ، كما أنه إذا أنعم عليه فشكره زاده ، وضاعَفَ له نِعمه) وقد عُرف من حال سيدي في

الشكر على السّرّاء ، ما يستوجب المزيد منها ، والظّنُّ بجزمه وعلمه أن يكونَ حـــالهُ في الصبر على الضرّاء ما يستجلب الأجر عليها والتعويض عنها . »

وقد استعمل عبد الله باشا فكري الأســلوب المسجوع في كل باب وغرض ، حتى في التقارير الفنية ، والمنشورات العامة (والفرمانات) فمن ذلك صورة (الفرمان) الآتي بتنصيب محافظ :

« صدر هذا الفرمان المُطاع ، الواجب له القبولُ والاتّباع ، خطاباً إلى الحكام والعلماء ، والقضاة والأعيان ، والوجوه والعمد ومشايـــخ البلدان ، وعموم الأهالي المتوطنين في محافظة كذا بجهات السودان . ليكن معلومـــاً لديكم بوصول هذا المنشور إليكم ، أنه قد اقتضت إرادتنا تنصيبَ فلان محافظاً عليكم ، لما توسمناهُ فيه من الدرَية والاستعداد والسلوك في طرق الرشـــاد ، وبذل الهمة في أمور المصلحة ومزيد الاجتهاد الخ » .

ومن هذه النماذج المتقدمة نرى أن هذا الأسلوب على ما به من سجع ، فإنه سهل متين العبـارة تقل فيه المحسنات المتعمدة ، ويطرق أغراضاً متعددة منها : الديواني البحث ، ومنها ما يستعمل فيه الشعر . وقد أفاد هذا الأسلوب الكتّاب من بعده وصار لهم قدوة ، ولكنه أخّر تخلّص النثر من طريقة هذه المدرسة الديوانية حتى أوائل عصرنا الحاضر ؛ لأن أرباب هذا الأسلوب شغلوا المناصب الرفيعة فظن الشادون في الأدب أنهم لو قلّدوهم لوصلوا إلى ما وصلوا إليه ، فتمسكوا بأسلوبهم أمــداً غير يسير . والحق أن الغرض الأدبي المهم يحتاج إلى عبارة خاصة يحتفي بها الكاتب بعض الاحتفاء ، ويضعها في قالب جميل ينــاسب الغرض

---

(١) راجع الآثار الفكرية ٢٢١ – ٢٢٢ .

الذي قيلت فيه حتى لا تذهب بنفاسة الموضوع تفاهة العبارة . وتجويد العبارة محبوب مرغوب فيه على شريطة ألا يُضحى بالمعنى من أجل لفظة أو سجعة أو محسّن خاص . ولقد استطاع عبد الله فكري أن يسترد بأسلوبه هذا للغة العربية مكانتها التي فقدتها عدة قرون ، وأن يزيح التركية من أمامها ، ويثبّت قدميها في الدواوين وفي لغة الرسائل ، واضحةً ، أدبية ، جذابة .

أجل ! لم يكن عبد الله فكري من هؤلاء الذين طرقوا موضوعات جديدة في كتاباتهم ، بل استخدموا مقدرتهم البلاغية في الأغراض القديمة من تعزية وتهنئة ، ووصف ومدح واعتذار وعتاب ، ومنشورات على لسان الأمير ، وتقارير عن مهمات وُكلت إليهم وغير ذلك من الأغراض المطروقة . ولم يكن للأفكار الجديدة ، ولا للاغراض القومية أي تأثير عليه ؛ وقد زاد نفوذ الأجانب وقامت الثورة العرابية ، ونكبت مصر بالاحتلال ، ولم يسمع له كلمة تعبر عن هذه الأحداث ، ولم يتألم لألم وطنه وذلته كما تألم الشدياق ، وأديب إسحاق ، وعبد الله نديم ، وجمال الأفغاني وغيرُهم ، وما ذلك إلا لأنه كان مثال الموظف الديواني المخلص ، البعيد عن الاشتغال بالمسائل العامة ، والأمور الهامة .

ومن الأسلوب المرسل الذي تأثر فيه برجال الصحافة لعهده ، ولا سيما أسلوب «الجوائب» قوله من رسالة بعث بها إلى المرحوم عبد الله أبي السعود صاحب جريدة « وادي النيل » :

« قد كنت وعدت فيما حررته سابقاً أني أكاتب حضراتكم بعد بما تيسر على حسب الإمكان ، ومساعدة الزمان ، والآن أريد أن أخبركم بمحاورة جرت بيني وبين بعض المتورعين من الناس فيما يتعلق بصحيفة « وادي النيل » وكتاب الجغرافية المطبوع في وريقاتها . وذلك أني رأيته

ينكر على حضرتكم بعض المباحث المندرجة فى ذلك الكتاب ككون الأرض كرة ، والقبة السماوية متخيَّلة ، وما قيل في كيفية الكسوف والخسوف ونحو ذلك ، بعد اعتراف منه بأن الكتاب المذكور كتابٌ مناسب في موضوع مهم تدعو إليه الحاجة لمعرفة مواقع البلاد ومحالها ، وأقسام الأرض وأحوالها ، فإن هذا لا تُنكر مزيَّته وفائدته في السياحة والتجارة وأمور التمدن والحضارة ، فقلت له : قد علمت أن منشىء « وادي النيل » ليس مؤلف الكتاب المذكور وإنما هو مترجم له ، والمترجم ناقل ليس عليه عُهدة ما ينقله ، وإنما يلزمه صحة النقل ، وتوفية حق الأداء على صحته ، ولا يلزمه ما يترتب على الأصل المنقول عنه من نقد ومؤاخذة بعد عزوهِ لأصله ، ونسبته إلى قائله ، فلو سُلِّم أن جميع تلك المباحث مما ينكر فما عليه شيء من ذلك ، فقد قالوا : إن ناقل الكفر ليس بكافر ... الخ »[1] وهي رسالة طويلة تقع فيما يقرب من عشرين صفحة .

ومن نثره المرسل كذلك قوله في تقرير عن رحلته إلى استوكهلم حيث حضر مؤتمر المستشرقين :

« ثم أشير إليّ فقمت ، وأنشدت قصيدة كنت أعددتها لذلك بعد ارتحالنا من باريس فأتممتها في الطريق ، وبيّضتها في استوكهلم ، فابتدأت أقول :

اليوم أسفرَ للعلوم نهار وبدت لشمس نهارها أنوار

ومضيت فيها إلى آخرها ، وصفق الناس لكل من خطب ، وبالجملة لي لما أتممت الإنشاد ، وخاطبني أناس منهم باستحسانها في اليوم ، وحضر

(١) راجع الآثار الفكرية ٢٢١ - ٢٢٢ .

كاتب المؤتمر على أثر الفراغ منها وساورني يطلب نسختها ، فأخذها في الحفلة ، وخطب بعد ذلك أناس منهم (المسيو شفر) وافد فرنسا ، وكانت هذه الحفلة خاصة بذلك ليس فيها تقديم موضوعات علمية . الخ » .

على أن عبد الله فكري لم يكثر من هذا الأسلوب المرسل ، وإنما كان من غواة النثر المسجوع ؛ وهو بأسلوبيه يمثل دوراً هاماً مرّ فيه النثر العربي من مرحلة الغثاثة والركاكة إلى مرحلة القوة وتوخي الفصاحة وقواعد اللغة ، بل والتأنق في الأسلوب ، ولم يذهب تقليده لرؤساء ديوان الإنشاء في القديم بشخصيته وطابعه ، بل لا يزال يعطينا صورة عن عصره ، ولم يأسره حب البديع ومحسناته فيذهب بمعانيه بإغراقه فيه .

آثاره :

وتوفي سنة ١٨٩٠ ، وله عدة مؤلفات منها : المقامة الفكرية في المملكة الباطنية المطبوعة سنة ١٨٢٩ هـ ، ومنها الفوائد الفكرية ، وشرح بديعية محمود صفوت الساعاتي ، ومنها جزء من شرح ديوان حسان بن ثابت ، وكتاب « نظم اللآل في الحكم والأمثال » وكتاب « آثار الأفكار ومنثور الأزهار » طبع منه تسع ملازم بروضة المدارس . ومنها الفصول الفكرية للمكاتب المصرية ، ورسالته التي كتبها في المقارنة بين الوارد في نصوص الشرع والمقرر في علم الهيئة الفلكية ، وغير ذلك من المراسلات والمقالات . وله أيضاً « إرشاد الألبا إلى محاسن أوروبا » وقد أتمه ولده أمين بعد وفاته . وقد جمعت معظم آثاره في كتاب « الآثار الفكرية » ، وترجم له في أوله المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده .

هذا وقد كان لعبد الله فكري عناية برواية الحديث ، وله فيها طرق

عديدة وأسانيد سديدة [1] .

٥ - السيد عبدالله الألوسي [2] :

ولد في بغداد من أسرة مشهورة بالعلم سنة ١٢٤٨ هـ ١٨٣٢ م ، وتلقى العلم على والده ، فعرف شيئاً من النحو وروى الشعر ، وقرأ القرآن ، والتفسير والحديث وغير ذلك من العلوم التي كانت تدرس في المساجد ، والتي لا تزال تدرس في الأزهر حتى اليوم في الكتب الموروثة [3] .

ولم نترجم للسيد عبد الله الألوسي ، لأنه أديب نابغة ، أو شاعر ملهم ، وإنما لنعطي صورة عن الأدب في البلاد العربية إبان هذه الفترة التي نتحدث عنها ؛ حتى نصدر حكماً صائباً عن الأدب العربي وتطوره ، وأنه لم يكن في بلد أحسن منه في أخرى ، وأن النهضة أخذت تدب فيه شيئاً فشيئاً .

لم يعمر السيد عبد الله طويلاً فقد مات سنة ١٢٩١ هـ - ١٨٧٤ م عن ثلاثة وأربعين عاماً ، وقد قضى هذه السنين القصيرة عليلاً سقيماً ، واشتغل بالتدريس حقبة في بغداد واشتهر بحسن إلقائه ، وتوضيحه لعويص المشكلات العلمية . ولكن الحياة لم تكن ميسرة له ، فمن أسرة كبيرة العدد ، وصحة سقيمة ، إلى فقر وعدم تقدير . فعزم على الرحلة ، وباع كل ما يملك ويمم صوب الآستانة ، ولكنه لم يصل ، لأن قطاع الطرق سلبوه كل عتاده ، وتركوه عارياً في الصحراء ، ولولا

---

(١) راجع الآثار الفكرية ٩ - ١١ .

(٢) هو ابن السيد محمود الألوسي (أبو الثناء) الذي ترجمنا له سابقاً .

(٣) راجع أعلام العراق لبهجت الأثري ص ٨٩ .

أن منّ الله عليه بمن التقطه وأرجعه إلى بغداد لقضى جوعاً وعريـاً رجع صِفْر الكف من زاد الدنيا ، ولم يكن ممن يجيدون التزلف والملق فساءت حاله وطالما عرض عليه القضاء قبل هذا فكان يرفضه ورعاً وزهداً . بيد أن الضائقة أحرجته فاضطر إلى قبوله ، وتولى قضاء البصرة سنتين ثم مات . وقد ترك عـدة مؤلفات في علوم اللغة ، وله شعر لطيف ومقالات أدبية جمعها ابنه السيد محمود شكري الألوسي فوقعت في مائة صفحة ؛ ومن نثره يصف مطراً شديداً متوالياً ، وفيضان نهر دجلة . وهذا النثر يمثل مدرسة الصنعـة والسجع والتكلف أو انتزاع الاستعارات وحشدها ركاماً عجيباً ، وهو دون عبدالله فكري منزلة ولا ريب من حيث الأسلوب ، والفكرة ، وتنوع الموضوعات . قال من رسالة بعث بها لأخويه يصف هذا المطر :

« . . . إنه (المطر) عند غروب شمس الأربعـاء ، تنفس بفم الشرق الصَّمَداء ، ورمى بوجه الأرض حصىً من كف السماء فنـاداه الليل — وقد تحقق أن الدائرة على الأرض — ومـا رميتَ إذا رميت ولكن الله رمى ، وحاك الدوى بمكُّوك الريح من سَدى البخـار ولُحْمته شقُقاً سوداً ، وصبغها الليل فكانت ظلمات بعضها فوق بعض ، وطنَّبها خيمةٌ خيمـة على أكتاف المراق في الطول والعرض ، واشتد الريح والظلام ، وشرع جِنّيُّ الليل يخوّف صبيَّ النهار كلما أحس منه بقيام ؛ حتى سلّ الفجر قِرْضابَه الأبيض من غمده الأسود ، وأغمد الليلُ قامة الجوزاءِ بعد أن كان بها على النهار يتهدد »[1] .

٦ — حسين بيهم[2] :

ولد حسين ببيروت سنة ١٢٤٩ هـ ١٨١٣ م وأخذ من العلم المعروف

(١) راجع أعلام العراق تجد فيه الرسالة كاملة ص ٤٨ — ٥٠ .

(٢) أبوه السيد عمر بيهم وكان من أعيان بـيروت وأدبائهم . ولا تزال أسرة بيهم حتى اليوم ذات مكانة في بيروت .

في عصره قسطاً غير قليل ، ثم انقطع للتجـــارة ، ولكن حنينه إلى العلم جذبه إليه فنال شهرة وتولى عدة مناصب كبيرة كنظارة الخارجية ورئاسة الأحكام العدليـــة ، ومثّل بلاده في مجلس النواب التركي مدة ، ولما عاد تركَ الوظائف وتفرغ للأدب . ومن آثاره رواية أدبية وطنية مثّلت مراراً ، وقرظهـــا الأدباء وشعره لا يتميز عن مدرسة أبي النصر والليثي ، وقد وفيناه نعتـــاً عند الكلام عليها ، ومن ذلك قوله يؤرخ إنشاء (التلغراف) في بيروت :

لله در السّلك قد أدهشت عقولنا لمــا على الجو ساق

فـأعجب الكـون بتأريخـــه شبيه برق أو شبيه البُراق (١٢٧٧)

وقال مشطراً :

وإذا العناية لاحظتك عيونها وحَباكها من فضْلِه الرحمن

ناداك طائرُ يُمنهـــا وسعودها نَمْ فالمخاوف كلهن أمان

واصطد بها العنقاء فهي حبالةٌ واملك بهـــا الغبراء فهي سنان

واصعد بها العلياء فهي معارج واقتدْ بها الجوزاء فهي عنان

وقال يعزي صديقاً بفقد ماله :

لقد عمَّنا واللهِ والصحب كلـهم مصاب دهاكم بالقضا حكم

كأن شراراً منه طار لأرضنا فأحرق أحشاء الورى بالتطاير

ولكننا ُقلنـــا مقالة عاقل يسـّلم للباري بكل المظاهـــر
إذا َسلِمَت هام الرجال من الردى فما المالُ إلا مثلُ قصّ الأظافر
فكن مثل ظن الناس فيك مقابلاً لذا الخطبِ بالصبر الجميل المصادر
ولا تأسفَنْ إذ ضاع مالٌ ومقتنى فربُّك ياذا الحزم أعظمُ جابر
وإن حياة المرء رأسٌ لمالـــه سلاَمتُه تعلو جميع الخسائر

وهو شعر بادي الضعف ، كثير العوار لا يحتاج منا وقفة أو نقداً .

الفصل الرابع

بعث الشعر العربي

مر الشعر العربي منذ عهد امرىء القيس إلى عصر البارودي في أطوار مختلفة : كان في الجاهلية وصدر الإسلام شعرَ الفِطْرة والسليقة المنبعثة عن الشعور والإلهام ، تَعْرِض الحادثة أو المنظر للشاعر فينفعل ويتأثر ، ويلهج لسانه بما يختلج في فؤاده ، وقد ينبعثُ من طيات ضميره لا بوحي خارجي . وهو في كلتا الحالتين لا يعمد إلى تنميق أو تزويق ، أو يعتمد لفظاً بعينه ، وإنما اللغة مِلْكُ يمينه وطوعُ لسانه ، وكأنها بمفرداتها الزاخرة ، ومعانيها المتباينة موضوعةٌ في كفه يختار منها ما يكفي لأداء المعاني التي تتجاوب في خاطره . وكثيراً ما يعمد إلى هذا الأداء بأوجز لفظ وأمتنه دون إسهاب أو حشو ، ولا سيما إذا كان شاعراً فحلاً طويل الباع في فن الشعر ، وله دراية بوجوه تصريف الكلام . ولذلك جاء الشعر العربي القديم صورة صادقة لمن قالوه . ولأمر ما قال نقاده منذ القرن الثاني : « الشعر ديوان العرب » . لم يكن العربي الأول يعمد إلى الخيال المجنّح الذي يخلق الصور ويغوص وراء المعاني في أعماق الفكر ، وإنما يصور إحساسه وشعوره دون تزيّد أو نقصان ، ودون فلسفة أو منطق . وقد كان دستورهم في ذلك قولَ أحدهم :

وإنَّ أحسن بيت أنت قائلُهُ   بيت يقال إذا أنشدتَهُ صدقاً

وكأن الشعر العربي حين ذاك بيت مشيد بالحجارة المتينة العارية عن الزخرف والطلاء يروعك بسذاجته وشموخه ومتانتــــه . وفي السذاجة جمال الفطرة .

ثم أخذ العرب بنصيب غــير قليل من حضارة الأمم التي فتحوا بلادها ، وألِفوا أنواعاً من العيش ، وألواناً من الحيــاة ونظام الحكم ، لم يعرفوها من قبل ، وشاهدوا مناظر جديدة اختمرت في عقولهم زمناً ، واطّلعوا على ثقافات متباينة : من يونانيـــة وفارسية وهندية ونبطية وما شاكل هذا ، وكان من الطبيعي أن يتأثروا بكل ذلك . وكنا ننتظر أن يتطور الشعر العربي تطوراً جديداً خليقاً بهذا الانقلاب الكبير في حياة الأمة العربية ، وأن يحتذي العرب حـــذو الإغريق مثلاً في ملاحمهم وقصصهم ومسرحياتهم ، ولكن ما طرأ على الشعر العـــربي لم يَعْدُ الشكل الظاهري ، وظل البناء القديم ، والقالب الموروث تصبّ فيه المعاني في العصر العباسي كما كانت تصب في العصر الجاهـلي والإسلامي الأول . أجل ! لقد رق الخيال ولطف ، وتولدت المعاني وابتكرت ، وتناول الشعر ألواناً جديدة لم يقل فيهـــا السابقون .. ولكن ظل البيت الذي شاده الجاهليون ، والطريق الذي سلكوه في التعبير عن شعورهم هو المثلَ الأعلى لشعر العصر العباسي . بيدَ أن مقتضيات الحضارة دعت الشعراء أن يؤثثوا هذا البيت الذي ورثوه عن أسلافهم فحشدوا فيـه أنماطاً شتى من المعاني العميقة والأخيلـــة البعيدة والفلسفات والحكم ، وكثيراً من صور الحياة في عصرهم ، وابتدأوا مع هذا يُدخلون شيئاً من الزخرفة بقدر ، وكانت زخرفـــةً منسجمة مع الرياش والأثاث وبدا الشعر العربي في عنفوان قوته وازدهاره وغناه .

ثم خلف من بعدهم خَلْفٌ أضافوا إلى هذا القصر الفاخر كثيراً من

الحلى والزخارف وكان الضعف ابتدأ يتسرب إلى البناء ، ويدب فيه الوهن . وعجز الشعراء عن مجاراة الأقدمين في متانة عباراتهم ، وتملّكهم زمام اللغة ، وعجزوا عن مجاراة المولّدين في معانيهم العميقة وأخيلتهم الجميلة ، فأكثروا من الزخرف والزينة ليستروا بهما الضعف الشائن . وكانوا على شيء من الإلمام باللغة والأساليب الصحيحة فلم يستعجم قولهم ، وظل في الشعر ذماء يحفظ عليه حياته ، وبقي البناء في مجموعه سليماً .

ثم أخذ البناء يتداعى بضعف الأمة العربية ، وخضوعها للأعاجم الذين لا يقدّرون هذا التراث الجميل ، ولا يعرفون لسانَ أهله ولا َهمّ لهم إلا ابتزاز الأموال من الشعوب المظلومة دون مقابل من علم أو صحة أو غنى ، فتفشى الجهل وساد الظلم ، واستعجم الشعراء ولحنوا لحناً فاحشاً ، وكانوا أبعد الناس عن الأساليب الصحيحة ، والمعاني الواضحة ، والشعور السليم ، وخانتهم الأداة المعبرة ، وأصبح همهم النظمَ الذي لا روح فيه ولا معنى له ، والذي يساق في عبارة ركيكة غثة ، وفي حشد زاخر من الزينات والمحسنات لتستر عواره . وقد كان الشعر يلفظ أنفاسه الأخيرة عيّاً ومرضاً حين ابتدأ العصر الحديث .

ابتدأت النهضة الشاملة منذ عصر محمد علي ، وقد رأيتَ شيئاً من معالمها ، ورأيت كيف كان الشعر يتردد بين المرض والعافية ، فيصح أحياناً وينتكس أحياناً كثيرة . وظلّت النهضة سائرة في طريقها في عهد اسماعيل ، واللغة يدب فيها شيء من القوة ، والمطابع تدفع بالكتب الأدبية القديمة ، والمدارس تبدّد سُدَف الجهل والظلام ، والصحافةُ تكشف الطريق ، وتزيل ما به من أوضار وعوائق ، ولكنّ الشعرَ ظلّ على حاله من الضعف لم يقف على قدميه بعد ، وكان مكبّلاً بقيود ثقيلة ، تحت أنقاض هذا البناء المشمخر الذي تداعى أيام الانحلال :

وشاء الله أن يَبْعَث من يُنهِضه من كبوته ، ويقيله من عثرته ، ويلقي بهذه الآفات والأوضار بعيداً ، ويعيد للبناء قوّته ومجده ، وزخرفته الطبيعية الجذابة دَفْعةً واحدة ، كأنما هي عصا ساحرٍ قلبت الميت حياً والضعيف قوياً ، والمعدَم ثرياً . كان هذا على يد إمام النهضة الشعرية الحديثة في العالم العربي :

محمود البارودي

١٢٥٥ هـ - ١٣٢٢ هـ ، ١٨٣٨ م - ١٩٠٤ م

حياته :

محمود سامي البارودي من أسرة جركسية ذات جاه ، ونسب قديم [١] ، تنتمي إلى حكام مصر المماليك ، وكان البارودي يعرف هذا

أنا من معشرٍ كرامٍ على الدهـ ـر أفادوه عِزّة وصلاحا
عمرَوُا الأرض مدة ثم زالوا مثلما زالت القرون اجتياحاً

ويقول :

نماني إلى العلياء فرعٌ تأثّلتْ أرومَتُه في المجد ، وافترّ سعده
وحسْب الفتى مجداً إذا طلب العلا بما كان أوصاه أبوه وجدّه

(١) أبوه حسن حسني البارودي من أمراء المدفعية ، ثم صار مديراً لبربر ودنقلة في عهد محمد علي ، وجده لأبيه عبد الله الجركسي ، والبارودي نسبة إلى (إيتاي البارود) بمديرية البحيرة وكان أحد أجداده ملتزماً لها . وينتهي نسبه إلى الملك الأشرف (سبرباي) الأتابكي من المماليك الذين حكموا مصر فيما مضى . (مذكرات عرابي ج ١ ص ١٠٠) .

وتيتم محمود البارودي صغيراً ، وهو في السابعة من عمره ، فحُرم بذلك حنان الأب ورعايته ، وتلقى دروسه الأولى في البيت حتى بلغ الثانية عشرة ، ثم التحق بالمدرسة الحربية مع أمثاله من الجراكسة ، والترك ، وأبناء الطبقة الحاكمة . وتخرج في المدرسة الحربية سنة ١٨٥٤ وهو في السادسة عشرة من عمره في عهد عباس الأول ، وكان من المموقين للنهضة كما مر بنا ، وقد خمدت في عهده روح الحماسة التي شبّها محمد علي في الجيش ، بل سرح معظمه ، واقفرت ميادين القتال من ألوية مصر . ولم يكن عهد سعيد أحسن حالاً من عهد عباس ، فلم يجد البارودي – كما لم يجد زملاؤه – عملاً يعملونه . أما هم فقد طاب لهم عيش الرخاء والدّعة وسرهم البعد عن ميادين القتال ، ولكنه أحس دونهم بألم ممضّ ، إذ لم يشترك في حرب كما اشترك آباؤه ، وكما كا يود أن يحقق عن طريق الجندية والجيش آمالاً ضخمة ، وأمانيّ عريضة . ودفعه هذا الألم إلى العوض عن المعارك الحقيقية بمعارك موصوفة مدونة في صفحات التاريخ فعكف على كتب الأقدمين يلتهمها التهاماً . وكانت ملكة الشعر كامنة في حنايا فؤاده ، فراقه من التراث الأدبي شعرُ الحماسة والفخر ، ووصفُ ميادين القتال ، وأعمال الأبطال ، ورأى في هذا الأدب تصويراً للحياة كلها حلوها ومرّها من غزل وفكاهة وحكمة ورثاء ، وكل ما يخطر ببال الناس ، فازداد شغفه به وحرصه على حفظه وتدوينه . وتحركت نفسه لقول الشعر فقلد فحول الشعراء في أروع قصائدهم . وهل على مثله من بأس أو عار إذا هو قال الشعر ؟ إذا توهم هذا معاصروه من أبناء طبقته لجهلهم وخمود قريحتهم ولتقاليدهم الموروثة ، ولهوان شعراء زمانهم وضعة شأنهم فإن البارودي كان على ذُكْر من أن أمراء كثيرين قبله ، أعرق نسباً ، قد برزوا في الشعر العربي وسطروا تاريخهم في سجل الخلود ، كامرىء القيس ، وابن المعتز ، والشريف الرضي ، وأبي فراس وأضرابهم . فلم لا يكون مثل هؤلاء ؟

ولم لا يرتفع بالشعر إلى منزلتهم ؟ لن يكون مَدّاحاً متملقاً ، أو نديماً منافقاً ، ولكنه سيقول في أغراض شريفة تليق به وبمكانته :

الشعر زين المرء ما لم يكن وسيلةً للمدح والذام
قد طالما عزّ به معشر وربما أزرى بأقوام
فاجعله ما قد شئت من حكمة أو عظة أو حسبٍ نام
واهتف به من قبل تسريحه فالسهم منسوب إلى الرامي

وقد عرف فيما عرف من أدب العرب منزلة الشعر وعبر عنها بعد بقوله :

صحائفٌ لم تزل تتلى بألسنة للدهر في كل نادٍ منه معمور
يزهى بها كل سام في أرومته ويتقى البأس منها كل مغمور
فكم بها رسخت أركان مملكة وكم بها خمدت أنفاس مغرور
والشعر ديوان أخلاق يلوح به ما خطه الفكر من بحث وتنقير
كم شاد مجداً،وكم أودى بمنقبة رفعاً وخفضا بمرجوّ ومحذور

هكذا رأى البارودي الشعر ، وما كان له أن يعرض عنه ، ولو حاول ما استطاع وفيه طبع شاعر ، وقد ملك أداته اللغوية المعبرة .

تكلمت كالماضين قبلي بما جرت به عادة الإنسان ان يتكلما
فلا يعتمدني بالإساءة غافل فلا بد لابن الأيك أن يترنما

فهو مطبوع على قول الشعر مثله في ذلك مثل الهزار أو البلبل ، ينطق كلاهما بالغناء فطرة وجبلّة ، ولكن مصر ضاقت به أو ضاق بها

حيث لم يجد غُنية لدى الدولة تحقق آمالـه ، فسافر إلى الآستانة مقر الخلافة ، والتحق بوزارة الخارجية ، وهناك تعلم التركية والفارسية ، كما تعلم آدابها ، وحفظ كثيراً من أسفارهما ، ودعته سليقته الشاعرة فقال بالتركية قال بالعربية . ومع ذلك لم يهجر لسانه الأول . ولما سافر إسماعيل إلى الآستانة بعد أن تولى أريكة مصر سنة ١٨٦٣ ليقدم آي الشكر على توليته ألحق البارودي بحاشيته ، ورأى فيه مالم يره في غيره فرجع به إلى مصر .

وابتدأ اسماعيل نهضته بعد عودته مترسما خطا جده ، وأعاد للجيش مكانته ، ووجد البارودي المجال أمامه فسيحاً ، فظل يرقى في مناصب الجيش ، وفي فرسان الحرس الخاص حتى وصل إلى رتبـة (قائمقام) وتحقق له مُناه بالاشتراك في معارك جزيرة (كريت) حين ثارت على الدولة فأسهم إسماعيل بجيشه في إخماد الثورة . وقد فتنت البارودي مناظر الجزيرة ومناظر المعارك ، فسجل ذلك كله في شعره ، وسمع الناس نغماً جديداً في الشعر لم يألفوه منذ عهد طويل ، وأخذوا يتطلعون في لهفة وشوق الى المزيد من هذا النفَس العالي ، ومن هذا الطراز الجديد في الشعر [1] .

وتقلب البارودي في مناصب الدولة ، وكان ذا حظوة لدى إسماعيل ، فاتخذه كاتم سره وسافر في رحلتين سياسيتين الى الآستانة في مهمـــة خاصة ، ومكث اثنتي عشرة سنة بجوار إسماعيل ، يرى نشاطه الجم في إحياء مصر وإنهاضها ويشاركه في عمله المجيد . وفي سنة ١٨٧٨ أعلنت روسيا الحرب على تركيا ، وأرسل إسماعيل جيشاً يعـــاون الخليفة في حربه مع عدوه ، وسافر البارودي مع الجيش ، وأبلى في المعارك بلاء حسناً ، فأنعم عليه برتبة (اللواء) وبأوسمة عدة . وكان في ميدان

---

(١) سنتكلم عن شعر البارودي فيما بعد بالتفصيل إن شاء الله .

القتال ، والمناظر الخلابة ، والعالم الذي رآه ما ألهب شاعريته ، فوصف المعارك والناس والمناظر بشعر أخّاذ بلغ الذروة في الوصف . وأخذ يهتف باسم مصر ، ويحنّ الى الأهل والوطن ، فانبعث منه الشعر قوياً مليأ بالحياة ».

مولاي قد طال مرير النوى ... فكل يوم مرّ بي ألفُ عام[1]
يقتبل الصبح ويمضي الدُّجى ... وينقضي النور ويأتي الظلام
ولا كتاب من حبيب أتى ... ولا أخو صدقٍ يرد السلام
من خلفنا البحر وتلقاءنا ... سواد جيش مكفهر لهام

ويقول في قصيدة أخرى :

هو البين حتى لا سلام ولا ردُّ ... ولا نظرة يقضي بها حقّه الوجد

ومنها يقول :

ولكن إخواناً بمصر ورفقة ... نسوا عهدنا حتى كأنْ لم يكن عهد
أحن لهم شوقاً على أن دوننا ... مهامه تعيا دون أقربها الرُّبْد
فيا ساكني الفسطاط ما بال كتبنا ... ثوت عندكم شهراً وليس لها رد
أفي الحق أنا ذاكرون لعهدكم ... وأنتم علينا ليس يعطفكم ود
فلا تحسبوني غافلاً عن ودادكم ... رويداً فما في مهجتي حجر صلد
هو الحب لا يثنيه نأيٌ وربما ... تأجج من مَس الضرام له النَّد

وعاد من حرب البلقان وهو في الأربعين من عمره فعين مديراً

(١) الخطاب للاديب العالم الشيخ حسين المرصفي وإليه أرسل هذه القصيدة ، والتي تليها .

للشرقية ، فمحافظاً للعاصمة – ثم ساءت أمور مصر في أخريات اسماعيل ، واضطربت اضطراباً كبيراً وناء الفلاحون بالضرائب الفادحة العديدة . ولنستمع إلى شاهد عيان يصف لنا الهوة التي تردّى فيها الفلاحون في تلك الحقبة سنة ١٨٧٥ حيث يقول : « كان من الأمور النادرة في تلك الأيام أن يرى الإنسان شخصاً في الحقول وعلى رأسه عمامة ، أو على ظهره شيء أكثر من قميص ... وغصت مدن الأرياف في أيام الأسواق بالنساء اللاتي أتين لبيع ملابسهن وحليهن الفضية للمرابين (الأروام) ؛ لأن جامعي الضرائب كانوا في 'قراهن' والسوط مشهر في أيديهم ، فابتعنا مصوغاتهن الزهيدة وأصغينا إلى قصصهن ، واشتركنا معهن في استنزال اللعنات على الحكومة التي جعلتهن عرايا . ولم نكن فهمنا وقتئذ – أكثر مما فهمه القرويون أنفسهم – ذلك الضغط المالي الآتي من أوربا والذي كان السببَ الحقيقي في هذا الضيق . وعلى ذلك جاريناهم في إلقاء اللوم كله على اسماعيل باشا واسماعيل صديق دون أن يخامرنا شك في أن الإنجليز أيضاً يقع عليهم جانب من اللوم [1] » .

وكان للامتيازات الأجنبية نصيب كبير في تدهور الحالة بمصر في تلك الآونة حيث قد « أصبحت أداة ينتفع بها شر الطغاة من الأوربيين وأشباه الأوربيين من متخرجي الشرق الأدنى ، وتجسمت في أخريات عهد إسماعيل حتى بلغت مداها المخيف ، وراح الأوربي قناص الغنيمة ، وسمسار القروض المرهقة ، والإغريقي صاحب الخان ومرتهن الأرزاق ، واليهودي المرابي ومن إليهم ممن يسهل عليهم الاحتماء بإحدى الدول الأوربية يمتصون الخزانة العامة والفلاح والفقير ويقترفون في هذه الجناية ما يستعصي على التصديق [2] » .

---

(١) التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر تأليف الفريد بلنت ص ١٢ .

(٢) Milner England in Egypt p, 15

أما الضرائب التي فرضها اسماعيل على الأرض فقد كانت فوق ما يُتصور، حتى لقد بلغت الضريبة على الفدان ما يقرب من ثمنه ، فكان من الطبيعي أن يترك هؤلاء الفلاحون أرضهم وديارهم وينسحبون ماربين عجزاً عن أداء الضرائب وخوفاً من السياط [1] .

عدا ثلاثين نوعـــاً من الضرائب الصغيرة ، أضرت ضرراً بليغـاً بالصناعات والأعمال التجارية والزراعية [2] » .

ناهيك بالسخرة ، وما كان يصطحبها من إهانة وأذى وذلة طوحت بعزة المصريين ، وأرهقتهم إرهاقـــاً شديداً ، حتى جعلت أيام السواد منهم شقاء وبؤساً .

كانت هذه الأمور هي العوامل التي مـــلأت قلوب المصريين حقداً وكراهية لاسماعيل وحكمه .

وزاد الأمور سوءاً أن انجلترا وفرنسا كانتا تدفعان الحوادث دفعاً نحو التأزم حتى تتاح لهما الفرصة للتدخـل المباشر ، وافتراس مصر ، ففرضتا على مصر وزارة فيهـــا وزيران أوربيان برياسة نوبار باشا ، « وكانت طبقة الموظفين المسلمين تعده أفاقاً أرمنياً جمع ثروة كبيرة من سمسرته لأصحاب الأموال المستعدّين لإعطاء القروض على حساب الجمهور ؛ أما الفلاحون فكانوا يعرفون فيه الرجل الذي أنشأ المحاكم المختلطة التي يمقتونها أشد المقت لاعتقادهم أنها وضعتهم في قبضة المرابين » [3] .

---

(١) Cromur , Modern Egypt . p. 38

(٢) تاريخ محمد عبده لرشيد رضا ج ١ ص ١٧٢ .

(٣) بلنت ص ٣٧ .

واشتطت هذه الوزارة في الضرائب وجبايتها ، وتأخرت رواتب الموظفين ، وعُزل الكثيرون منهم ، وانتُقصت سلطة الباقين ، وتقرر فصل عدد كبير من ضباط الجيش مع أنهم لم يتقاضوا مرتباتهم منذ زمن طويل ، فزاد السخط وقامت مظاهرة من الضباط وطلبة المدرسة الحربية وبعض النواب في ١٨ من فبراير ١٨٧٩ أمام وزارة المالية احتجاجاً على هذا الظلم واعتدوا على نوبار وعلى الوزير الإنجليزي وعلى رياض باشا وزير الداخلية ، ولم يتفرقوا إلا بعد أن اطلقت النار ، ثم سقطت الوزارة ، واتُّهم عرابي بتدبير تلك الثورة ، وأبعِد عن فرقته [١] .

وتولى توفيق ولي العهد الوزارة ، واشتد الخلاف بينه وبين مجلس النواب الذي رأى تخفيض الضرائب فأبى . وفي هذه الآونة أُلف الحزب الوطني ، وأصدر لائحة تتضمن مشروعاً مالياً لسداد الديون بكفالة الشعب ، وطالب فيها بتقرير مبدأ المسئولية الوزارية أمام مجلس النواب ؛ ووقع على هذا البلاغ النواب والعلماء ورؤساء الأديان ، وكثير من التجار والموظفين والضباط ، ورفعوها إلى اسماعيل فقبلها على الرغم من احتجاج الوزيرين الاوربيين ، ودعا شريف باشا في ٧ إبريل لتأليف الوزارة على مبادىء اللائحة الوطنية فكانت فرحة الشعب بهذا النصر عظيمة . بيد أن انجلترا وفرنسا قابلتا هذه الوثبة الوطنية بالسخط الشديد فعملتا على خلع اسماعيل ، فأقلعت به « المحروسة » إلى نابلي غير مأسوف عليه من المصريين الذين لم ينسوا ما فعله بهم حتى لقد همّوا من قبل بقتله والتخلص منه ، فيقول عرابي « خلع اسماعيل فزال عنا عبء ثقيل ، ولكننا لو كنا نحن فعلنا ذلك بأنفسنا لكنا تخلصنا من عائلة محمد علي بأجمعها ، إذ لم يكن فيها أحد جدير بالحكم سوى سعيد . وقد اقترح

---

(١) بلنت ص ١٧١ .

جمال الدين على محمد عبده أن يقتل اسماعيل على جسر قصر النيل [1] » ، ويقول محمد عبده : « وكنت أنا موافقاً الموافقة كلها على قتل اسماعيل ، ولكن كان ينقصنا من يقودنا في هذه الحركة ، ولو أننا عرفنا عرابي في ذلك الوقت فربما كان في إمكاننا أن ننظم الحركة معه [2] » .

وتولى توفيق العرش بدل أبيه ، وكان المصريون يعلقون عليه آمالاً كباراً ؛ لأنه كان من المعجبين بالسيد جمال الدين الأفغاني وآرائه الإصلاحية ، ولكنه ما لبث أن تنكر لهذه المبادىء بعد تولّيه العرش ، وأرجع المراقبة الثنائية ، وخاصم الحكم النيابي وحكم البلاد حكماً مطلقاً . وكان في هذا منفذاً لمشورة الأجانب ، مستجيباً لتدخلهم ، فعزّ ذلك على كثير من رجال مصر ، ورأوا لزاماً عليهم أن يضعوا حداً لهذا التيار .

كان البارودي من المقربين لتوفيق وولاه وزارة الأوقاف ، فأصلح فيها ما وسعه جهده ، وكان في نفس الوقت وطنياً متشبعاً بروح الإصلاح فحار في أمره بين ولائه للعرش ، وبين نزعاته الإصلاحية .

ثم كانت حركة الجيش ، والمطالبة بتولية المصريين المناصب العليا ، وقد كانت قبل وقفاً على الجراكسة والأتراك ، وكانوا في منتهى الغلظة والقسوة ، فثار الجيش في أوائل سنة ١٨٨١ ، حين أصدر عثمان رفقي الجركسي وزير الحربية أمراً بعدم ترقية المصريين وبفصل بعض الضباط المتزعمين فيهم . وانتهى الأمر بعزل عثمان رفقي هذا وإجابة الجيش إلى ما طلب من إصلاح وتولية البارودي وزارة الحربية مع الأوقاف . وهدأت الأمور في الظاهر ، ولكنّ الجراكسة كانوا يدبرون مكيدة

---

(١) التاريخ السري . بلنت ص ٣٤٧ .
(٢) نفس المرجع ٣٠٤ .

للضباط المصريين ، وتأزمت الأمور فكانت مظاهرة عابـــدين في ٩ سبتمبر ١٨٨١ يتقدمها (عرابي) وكبار الضباط المصريين . وأطل عليهم توفيق ، ومعه وزراؤه وحاشيته وقناصل الدول الأجنبية ، وتقدم إليه بطلبات الجيش والأمـــة ، وهي إسقاط وزارة رياض وتشكيل مجلس النواب وزيادة عدد الجيش ، وبعد مناقشات طويلة حادة تقرر إجابة هذه الطلبات .

كان البـــارودي وزيراً للحربية في وزارة رياض ، ولما رأى رياض نزعـاته الشعبية وصِلته بالوطنيين دس عليه لدى توفيق فعزله . ودفعه ذلك إلى اعتزال السياسة فترة من الوقت ، فترك القاهرة وجوّها القلق وآثر العزلة في الريف . وفي هذا يقول :

صُبْحٌ مطيرٌ ، وَنَسْمة عَطِره وأنفس للصبـــوح منتظرة
قدّر بعينيك حيث شئت تجـــدْ ملكاً كبـــيراً وجنةً خضِره
وخَلّنا من سياسة دَرَجَتْ بَيْن أُناسٍ قـــلوبهم وَغِره
يقضون أيامهم على خطر فبئس عقبى السياسة الخطِره
خديعـــة لا يزال صاحبها بين هموم وعيشة كدِره

فلما سقطت وزارة رياض تحت ضغط الوطنيين عقب مظاهرة عابدين عاد البارودي وزيراً للحربية بعد أن ألح عليه توفيق إلحاحاً شديداً . وانتُخب مجلس النواب وافتتح في ديسمبر ١٨٨١ وهـــدأت الأمور ، وسارت وزارة شريف في طريق الإصلاح . ولكن انجلـترا وفرنسا كانتا كارهتين للهدوء والاستقرار ، فمـــا أن أخذ مجلس النواب يناقش المادة التي تخول له حق تقرير الميزانية حتى قدمتا مذكرة احتجّتا فيها على ذلك . وقبل شريف هذا الاحتجاج ، ورفضه مجلس النواب فاستقالت

وزارة شريف ، وتولى البارودي رئاسة الوزارة في ٤ من فبراير ١٨٨٢، وكان عـرابي وزيرا للحربية في وزارة البارودي . كان البارودي محبوباً من الشعب ومن الجيش على السواء وفرح المصريون بوزارته فرحاً عظيما . وأخذ مجلس النواب ، فوق إصدار الدستور الذي كان صدوره عيـداً للأدب والتاريخ ، يبحث في عدة مشروعات لمعالجة غلاء الأسعار وتعميم التعليم الابتدائي ، وإصلاح القضاء ، وإنشاء خزان أسوان . ثم انتهت دورته وتبعت الوزارة حركة الإصلاح في خطاً واسعة . ولكن أنّى لها الجو الهادىء وتوفيق واقع تحت سيطرة فرنسا وانجلترا ، وهما متربصتان بمصر والمصريين الشر . فانتهزتا فرصة الخلاف بينه وبين الوزارة بسبب مؤامرة الضباط الجراكسة على قتل عرابي وأصحابه . وبالرغم من أن هذا الخلاف قد سوّيَ ، فقد بدأت سفن الأسطولين الإنجليزي والفرنسي تصل إلى مياه الاسكندرية ، وقدمت الدولتان في ٢٥ من مايو مذكرة جديدة بضرورة استقالة الوزارة ، ونفي عرابي ، وتحديد إقامـة بعض أصحابه بناء على اقتراح سلطان (باشا) الذي بدأ منذ ذلك اليوم يناصر الانجليز ويخون قضية بلاده ، تلك القضية التي طالما ناصرها ، وهكذا وقع في الشرك الذي وقع فيه شريف (باشا) من قبل [١].

واجتمع الوزراء ، وقرروا رفض المذكرة ، ولمـا قبلها توفيق اضطروا إلى الاستقالة .

وهاج الشعب على أثر ذلك واشتد سخطه وقدموا احتجاجات قوية لتوفيق يطلبون فيها رفض طلبـات انجلترا وفرنسا والإبقاء على عرابي في الوزارة . وإذا أبى توفيق عُزل عزلاً . واضطر توفيق بعد استشارة (قناصل) الدول الأجنبية إلى الإبقاء على عرابي وزيراً للحربية

---

(١) بلنت التاريخ السر ٢٢٤

حفظاً للامن ، وبقيت الوزارات الأخرى شاغرة .

لما طالب الجيش بعزل توفيق راودت البارودي نفسُه ونازعته يومئذ إلى المجد المؤمل ، وإلى مكان أجداده المماليك الذين حكموا مصر ، فخاض الثورة مع الخائضين ولكنه رأى بعين فراسته أن التيار شديد ، وأن انجلترا وفرنسا تتربصان بمصر الدوائر ، وأحسّ بالخطر وعلم أن لا قبل له بمواجهته فنصح لعرابي وإخوانه وصارحهم برأيه ، وحاول الاعتزال في مزارعه ، ولكن هيهات ، وقد جرى مع الضباط شوطاً بعيداً ، وربط حظه بحظهم ، وإن لم تعد له الصدارة كما كان .

وفي هذا يقول :

نصحتُ قومي وقلت الحرب مفجعة ... وربّما تاح أمرٌ غير مظنون
فخالفوني وشبّوها مكابرة ... وكان أولى بقومي لو أطاعوني
تأتي الأمور على ما ليس في خلَد ... ويخطىء الظن في بعض الأحايين
حتى إذا لم يعد في الأمر منزعةٌ ... وأصبح الشرُّ أمراً غير مكنون
أجبتُ إذ هتفوا باسمي ومن شيمي ... صدق الولاء وتحقيق الأظانين

وأخفقت الثورة ونفيَ مع زملائه إلى (سرنديب) فأقام بها سبعة عشر عاماً وبعض عام ، وظل هو وزملاؤه سبعة أعوام في (كولومبو) ولما دبت بينهم البغضاء ، وألقى كل منهم التبعة على زميله ، فارقهم البارودي . وأمضى عشرة أعوام في (كِندي) ، وفيها تعلم الإنجليزية . وفي المنفى قال القصائد الخالدة ، يبثها شكواه ، ويحن للوطن ، ويصف كل ما حوله ، ويراسل الأدباء ، ويتلهف على ذكر الوطن ويتتبع أخباره ، فيرثي من مات من أهله وأحبابه وأصدقائه ، ويتذكر أيام

شبابه وأويقات أنسه وما آل إليه حـاله . وجد في الشعر عزاء أيّ . وصار إمامه في العالم العربي دون منازع ولكن طول النفي أورثه سقام والعلل ، فكـُفّ بصره وضعف سمعه ، ووهن جسمه ، ولست أجد أروع ولا أوفى من قوله يصف ما أصابه :

كيف لا أندب الشبابَ ؟ وقد أصـ   بحت كهـلاً في محنة واغتراب
أخْلقَ الشيب جِدّتي وكساني   خِلعَةً منه رَثّةَ :الجلباب
ولوى شَعْرَ حاجِبيّ على عَيْـ   نيّ حتى أطلّ كالهـدّاب
لا أرى الشيء حين يسنح إلا   كخيال كأنني في ضبـاب
وإذا ما دُعيت حِرْت كأني   أسمع الصوت من ورَاء الحجاب
كلما رُمْت نهضةً أقعدتني   وَنْيَةٌ لا تُقِلّها أعصابي
لم تـدع صولة الحوادث مني   غيرَ أشلاء همة في الشباب

وزاد أمرَه بؤساً أن الموت تخطف ابنته وزوجه الأولى وأصحابه ، فابتدأ الفناء يدب إليه ؛ هنالك رأى أولو الأمر أن يعود المنفيون إلى أوطانهم ، وعاد البارودي معهم (أشـلاء همة في ثياب) كما يقول ، ولكن جـاء وفي يمينه سفرُ الخلود ، وهو ذلك الشعر العلوي ، وكان ذلك في سنة ١٩٠٠ واستقبل مصر بقصيدته :

أبابلُ مرأى العين أم هذه مصر ؟   فإني أرى فيها عيوناً هي السحر

واستقبلته مصر بكل حفاوة وترحاب ، وكانت عودته عيداً للادب الرفيع ، وصارت داره ندوة يؤمها الأباء والشعراء القدامى والشادون فيه يأنسون إليه ويأنس إليهم وعكف على تنقيح ديوانه ، وحذف ما لا

يروق له منه ، وتدوين مختاراته وترتيبها . وأخيراً فاضت روحـه إلى بارئها ، وأسلم هذه الشعلة المتوهجـة في ديسمبر ١٩٠٤ شوال م ١٣٣٢ هـ إلى الأجيال من بعده يتلقفهـا كابر عن كابر وكلهم يذكر فضله ، ويمجّد ذكره ، لأنه أورثهم شعلة خالدة .

اخلاقه :

شب معتداً بحسبه ونسبه ، في عصر ساد فيه جلسه ، وتبوأ أبناء جلدته من الجراكسة والأتراك أسمى مناصب الدولة ؛ ثم تزود من فنون الجندية ، ونشىء تنشئة عسكرية فكان لهذه النشأة وهذا الحسب تأثير عميق في أخلاق البارودي ، ولكن الزمن قد حور في هذه الأخلاق ؛ ومن يدرس شعره دراسة فاحص مدقق يستطيع أن يتبين هذا التغيير أو التحوير في أخلاق البارودي مجاراة لزمنـه وعادات الناس الذين يخالطهم إن طوعاً وإن كرهاً . بيد أن كثيراً من صفات الشباب التي اعتد بها لازمته حتى مماته ، لم تتبدل ولم تتأثر بعوامل الزمن ، ومحن الناس .

كان البارودي في صباه متوثب العزيمة ، واسع الآمال ، عزوفاً عن الملاهي يود أن يعتلي ذروة المجد قفزاً :

لَهِجٌ بالحروب لا يألف الخفـ ـض ولا يصحب الفتاة الرَّدَاحا
مِسْعَرٌ للوغى أخو غدوات تجعل الأرض مأتماً وصُباحـا
لا يُرى عاتباً على شِيَم الدهـ ـر ، ولا عابثـاً ولا مزّاحا
يفعل الفعلة التي تبْهر النـا س ، ولا ترنو لها العيون طماحا

وظلت نغمة المجد تتردد على أسَلَة لسانه أنشودة حلوة ، وكان

في نفسه شيء يود تحقيقه ويرجو نيله ، ويسعى له سعياً حثيثاً ، ولكنه لم يصرح به .

وبي ظمأ لم يبلغ الماء ريّه   وفي النفس أمر ليس يدركه الجهدُ
أود ، وما وُد امرىء نافعاً له   وإن كان ذا عقل إذا لم يكن جدّ
وما بيَ من فقر لدنيا وإنما   طلاب العلا مجد ، وإن كان لي مجد

وما أن عضته الحوادث عضة دامية ، ونكأه الزمان نَكْأةً قاسية ، حتى تطامن في مطلبه وقال :

وكن وسطاً ، لا مشرئباً إلى السُّها   ولا قانعاً يبغي التزلّف بالصُّغْر

وقال :

يود الفتى مالا يكون طماعة   ولم يدر أن الدهر بالناس قلّب
ولو علم الإنسان ما فيه نفعُه   لأبصرَ ما يأتي وما يتجنب
ولكنّها الأقدار تجري بحكمها   علينا وأمرُ الغيب سِرٌ مُحَجّب
نظنُ بأنّا قادرونَ ، وإننا   نقاد كما قِيد الجنيب ونُصْحَب

وإذا كان في صباه قد عزف عن النساء جداً منه وتزمتاً ، وأبى اللهو والمجانة حتى لا ينصرف عن طلب العلا ، فإن الشباب والجاه والمال قد غير نظرته إلى الحياة ، وبات ذلك الفارس الذي يدلُّ بشبابه وجاهه على الحسان ، ويجري وراء اللهو ، ويعُبُّ الخمر عبّاً ، ويتصيد مجالس الأنس والسمر ، ويقول :

ودعنيَ من ذكر الوقار فإنني   على سَرَف من بغضة الحلماء

فما العيش إلا ساعة سوف تنقضي وذا الدهر فينا مولع برماء

ويقول :

لو حَذِرَ المرء كلّ لائمـــة لضاع منـه الصواب والرُّشد
ولو أصخنا لكل منتقـــد فكل شيء في الدهر منتقَـد
والهُ بما شئت قبل مَندمـــة يكثرُ فيها العناء والكمـــد
فليس بعـد الشباب مُقْترَح ولا وراء المشيب مفتقَـــد

ومن أي شيء يخشى ؟ وعلام ينتقده الناس ؟ ينتقدونه على أنـــه ممتلىء بالحياة ، مستهين بالتقاليد والعادات .

فرحنا نجرُّ الذيل تيهاً لمنزل به لأخي اللذات واللهو ملعب
مسارح سكير ، ومربض فاتك ومخدع أكواب به الخمر تُسْكب

أما الدين فله في النفس حرمته ولكن :

إذا ما قضينا واجب الدين حقه فليس علينا في الخلاعة من عذر

أجل ! لقد صار فارساً مرحاً ينهل من اللذات ويعلّ .

فطوراً لفرسان الصباح مطارد وطوراً لإخوان الصفاء سميـر
ويا ربَّ حيٍ قد صبحتُ بغارة تكاد لها شُمُّ الجبـــال تمور
وليلٍ جمعت اللهو فيـه بغادة لها نظرة تسْدي الهوى وتنـير
عَقَلْنا به مانَـدَّ من كل صبوة وطِرنا مع اللذات حيث تطير

أما أخلاقه الطبيعية فكان كثير الافتخار بهـــا ، يرددها مراراً في

شعره ، فهو مخلص في صداقته :

واختبرني تجدْ صديقاً حميماً لم تغــير ودادَه الأهــواءُ
صادقاً في الذي يقول وإن ضا قت عليــه بِرُحْبها الدهناء

أما الوداد فهو يرعاه ، ويعد ذلك من كرم الأصل :

ليس يرعى حقّ الوداد ولا يذ كر عهداً إلا كريم النصاب

ولا بد أن يتجلى أثر الوداد القلبي في أعمـــال الإنسان ، وإلا كان وداداً كاذباً :

إن وداد القلب ما لم يكن له دليل على إخلاصـــه لمريب

وكان عالي الهمـــة يمثل لك في شعره الفروسية والنجدة ، والإباء والأنفة فيقول :

إذا لم يكن إلا المعيشةَ مطلبٌ فكل زهيد يُمسِكُ النفس جابر
من العار أن يرضى الدنيّةَ ماجدٌ ويقبل مكذوبَ المنى وهو صاغر
إذا كنت تخشى كل شيء من الردى فكلّ الذي في الكون للنفس ضائر

ويقول :

ومن تكن العلياءُ همــة نفسه فكل الذي يلقاه فيها محبّب
إذا أنا لم أعطِ المكارم حقهــا فلا عَزّني خالٌ ، ولا ضمني أب
خُلقت عَيوفاً لا أرى لابن حُرّةٍ عَلَيّ يداً أُغْضي لها حين يغضب

أما جوده فطالمـــا تغنى به في شعره ، وحث الناس على الجود ،

ووضع من شأن المال والتباهي به فيقول :

فلا تحسبنّ المال ينفع ربّه إذا هو لم تَحْمَدْ قِراه العشائر
فقد يَستَنْجِمُ المال والمجد غائب وقد لا يكون المجد والمال حاضر
ولو أن أسباب السيادة بالغنى لكاثر ربَّ الفضل بالمال تاجر

ويقول :

وجُدْ بما ملكت كفّاك من نَشَبٍ فالجود كالبأس يحمي العِرض والنسبا
لا يقعد البطل الصنديد عن كرم من جاد بالنفس لم يبخل بما كسبا

وكان يمتدح بصراحته وشجاعته ، فهو لا يسكت عن القبيح وإلا عُد منافقاً ، وإذا كان الإنسان على ثقة من أمره ونفسُه حرةٌ وهو شجاع فعلام يُغْضي على القذى ، أو لا يصارح الناس بعيوبهم علّهم يصلحونها ؟ .

أنا لا أقرّ على القبيح مهابةً إن القرار على القبيح نفاق
قلبي على ثقة ونفسي حرة تأبى الدَنِيّ ، وصارمي ذَلاّق
فعلامَ يخشى المرء فُرقة روحه أوَليس عاقبة الحياة فراق ؟
لا خير في عيش الجبان يحوطه من جانبيه الذل والإملاق
عابوا عليَّ حميّتي ونكايتي والنار ليس يعيبها الإحراق

ولكنّا نرى البارودي كثيراً ما ينصح بمداراة الناس ، ودفع القسر باللين ، والغضب بالحلم . وقد صور جملة من صفاته ومداراته الناس ، ومودته لأصدقائه ووفاءه لهم في قوله :

ملكتُ يدي عن كل سوء ومنطقي فعشت بريء النفس من دنس العذْر
وأحسنت ظني بالصديق وربما لقيت عدوّي بالطلاقة والبِشر
فأصبحت مأثور الخلال محبّباً إلى الناس مَرضِيَّ السريرة والجهر
إذا شئت أن تحيا سعيداً فلا تكن لدوداً ، ولا تدفع يد اللين بالقسر
ولا تحتقر ذا فاقةٍ فلربما لقيت به شهماً يَبذّ على المثري
ولا تعترف بالذل في طلب الغنى فإن الغنى في الذل شر من الفقر
ودارِ الذي ترجو وتخشى ودادَه وكن من مودّات القلوب على حِذر

ويقول في غير هذا الموضع :

مداراة الرجال أخف وطئاً على الإنسان من حرب الفساد
يعيش المرءُ محبوباً إذا ما نحا في سيره قصْد السداد

ولعل لتجاربه الكثيرة أثراً في إملائه هذا النصح ، وتحوله من الصراحة إلى المداراة . وإذا كانت الحياة قد علمته كيف يداري الناس ، ويكون منهم على حذر ، فأنها قد علمته كذلك أن المرح والحياة الصاخبة باللذات تورث الأسقام والعلل :

ولقد جريت مع الغَواية والصِّبا جريَ الكُمَيْت وللغرام سباق
ولبست هذا الدهر من أطرافه ونزعته وقميصُه أخلاق
فإذا الشباب وَديعة وإذا الفتى هَدْيٌ لفاغرة المنَون يساق

★ ★ ★

هذا هو البارودي كما صور نفسه في شعره ، وإذا كان صادقاً في

تصويره ، ولا نحسبه إلا كذلك ، فالأخـــلاق التي تغنى بها تبعث في النفس الإكبار والإعجاب .

ثقافته :

أعد البارودي ليكون جندياً ، ولم يعدّ ليكون أديباً . بيدَ أنه حين وجد نفسه بعد أن تخرج في المدرسة الحربية متعطـلاً أبت عليه نفسه الطموح أن يستمرىء اللهو والدعة ، وعكف على كتب الأولين يقرؤها بشغف ونهم ، ولم يقرأ كتاباً من كتب اللغـــة ، ولكنه قرأ كتب الأدب ، ويقول الشيخ حسين المرصفي صديقه مرشده [1] « لم يقـرأ كتاباً في فن من فنون العربية ، غير أنه لما بلغ سن التعقل وجـد من طبعه ميلاً إلى قراءة الشعر وعمله . فكان يستمع إلى بعض من له دراية وهو يقرأ بعض الدواوين ، أو يقرأ بحضرته حتى تصور في برهة يسيرة هيئات التراكيب العربية ، ومواقع المرفوعات منها والمنصوبات والمخفوضات حسبما تقتضيه المعاني والتعليقات المختلفة ، فصار يقرأ ولا يكاد يَلحن ، سمعتُه مرة يسكّن ياء المنقوص والفعل المعتل بها المنصوبين ، فقلت له في ذلك فقال : هو كذا في قول فلان وأنشد شعراً لبعض العرب ؛ فقلْت تلك ضرورة ، وقال علماء العربية إنها غـير شاذة . ثم استقل بقراءة دواوين مشاهير الشعراء من العرب وغيرهم حتى حفظ الكثير منها دون كلفة ، واستثبت جميع معانيها ، ناقداً شريفها من خسيسها واقفـاً على صوابها وخطئها » .

والحق أن أثر القراءة والحفظ ظاهر في شعر البارودي . ومن يطّلع

---

(١) الوسيلة الأدبية ص ٤٧٤ .

على (مختارات البارودي) يشهد بحسن ذوقه ، ودقة اختياره ، وتأنقه في غذاء عقله ، كما يشهد بكثرة محفوظه . ولا نعجب بعد هذا حين نرى البارودي متملكاً ناصية اللغة يتصرف فيها تصرف الخبير العليم بأسرارها ، المطبوع على التكلم بها ؛ وأغلب الظن أن مختاراته لم تحوِ كل ما حفظ من جيد الشعر العربي ، لأننا نلمح أثراً للشعر الجاهلي في شعره : من كلمات ، وعبارات ومعارضات وتشبيهات . مع أن مختاراته لم تحو إلا شعراً عباسياً .

كانت عند البارودي الملكة الكامنة ، والملكة وحدها لا تكفي ، بل لابد لها من عُدّة تصقلها وتنميها ، وتُعِدُّها للبروز ناضجة قادره خالقة. ودراسة البارودي الأدبية قد غذت هذه الملكة غذاء كاملاً ، لا من دواوين الشعراء وحدهم ، بل من كتب الأدب وطرائف القصص ، وأخبار العرب وقبائلهم وشجاعتهم وعدّائيهم وأمثالهم وحِكمهم ، وغير ذلك مما لا يستغني عنه أديب : والأدلة على هذه المعرفة متوفرة في ديوانه [1] .

---

(١) من مثل قوله :

لك عرض أرق نسجاً من الريـ ح وأوهى من طيلسان (ابن حرب)

وكان ابن حرب أهدى إلى الحمدوني طيلساناً خلقاً ، وكان الحمدوني يحفظ قول أبي حمران السلمي في طيلسانه .

يا طيلسان أبي حمران قد برمت ... بك الحياة فما تلتذ بالعمر
في كل يوم له رفّا يجدده ... هيهات ينفع تجديد مع الكبر
إذا ارتداه لعيد أو لجمعته ... تنكب الناس لا يبلى من النظر

فاحتذى الحمدوني حذو أبي حمران ، وقال في وصف طليسانه ما يقرب مائتي مقطوعة من مثل قوله : =

كانت إذاً قراءة كتب الأدب والتاريخ وحفظ الشعر المنتقى الجيد هي عماد ثقافته الأدبية. على أن البارودي قد اطّلع على آداب أخرى غير الآداب العربية، فقد مر بنا أنه حينما ذهب إلى الآستانة وهو في شبابه، والتحق بوزارة الخارجية عكف على دراسة التركية والفارسية، ونظم الشعر بهما كما كان ينظمه بالعربية. أضف إلى هذا ما روي من أنه تعلم الإنجليزية وهو في منفاه، وترجم بعض آثارها؛ وهذه اللغات المتعددة لها أثرها، ولا ريب، في معانيه وأخيلته، وتصويره للحوادث.

هذا، وقد حَفَل زمان البارودي بأحداث عظام، فمن نهضة شاملة، وخلْق لأمة متمدنة، إلى ثورات وفتن وحروب ومعارك، ونفي وتشريد، وقد سافر البارودي إلى الآستانة مراراً، وشهد حرب (كريت) وحرب (روسيا) ورأى عالماً لم يعرفه من قبل، ومناظر جديدة، فتأثر بكل ذلك وانفعلت نفسه له، وهاجت هذه الأحداث شاعريته فانطلق لسانه يردد خواطره وأحاسيسه فكانت هذا الشعر الخالد

= يا ابن حرب كسوتني طيلساناً ... مل من صحبة الزمان وصدا

وطال ترداده إلى الرفو حتى ... لو بعثناه وحده لتهدّى

– ومما يدل كذلك على سعة اطلاع البارودي قوله:

إن شوقي إليه أسرع شأواً ... من «سليك» والوصل في بُطء «فند»

وأمر سليك بن سلكة معروف، أما فند (بكسر الفاء) فهو مولى عائشة بنت سعد ابن أبي وقاص، وكانت قد أرسلته ليأتيها بنار، فوجد قوماً يخرجون إلى مصر فتبعهم، وأقام بها سنة، ثم قدم فأخذ ناراً وجاء يعدو، فعثر وتبدد الجمر فقال: «تعست العجلة». فقيل: (أبطأ من فند).

وإذا أضيف إلى هـــذه الموهبة العظيمة ، والدراسة الواسعة ، التجارب الحافلة وراثة في قول الشعر سجلها البارودي بقوله :

أنا في الشعر عريق لم أرثه عن كلاله

كان إبراهيم خالي فيه مشهور المقاله

زالت دهشتنا حين نرى البارودي قد كملت عدته ، وهيــأته الأيام ليبعث الشعر من رقدته ، وينهض به هذه النهضة السامية

شعره :

يقول البارودي في مقدمة ديوانه : « الشعر لـُمعة خيالية يتـــألق وميضها في سمـاوة الفكر ، فتنبعث أشعتها إلى صحيفة القلب فيفيض بلألائهـا نوراً يتصل خيطه بأَسَلة اللسان ، فينفث بألوان من الحكمة ينبلج بها الحالك ، ويهتدي بدليلها السالك . وخـير الكلام ما ائتلفت ألفاظه وائتلقت معانيه ، وكان قريب المأخذ ، بعيد المرمى ، سليما من وصمة التكلف ، بريئاً من عشوة التعسف ، غنياً عن مراجعة الفِكـْرة ، فهذه صفة الشعر الجيد ، فمن آتاه الله منه حظاً ، وكان كريم الشمائل ، طاهر النفس ، فقد ملـَك أعنة القلوب ، ونال مودة النفوس ولو لم يكن من حسنات الشعر الحكيم إلا تهذيب النفوس ، وتدريب الأفهام وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق لكان قد بلغ الغاية التي ليس وراءها لِذي رغبة مَسْرح ، وارتقا الصهوة التي ليس دونها لذي همة مطمح » .

وتعريف البارودي للشعر غامض ؛ لأنه لفه في ثوب كثيف مزخرف بالمجازات والاستعارات ، ولم يحدده تحديداً علميــاً ، وهو يعني : أنه خطرة ذهنية ينفعل لها الفؤاد ، فيتحرك اللسان معبراً عن خلجــاته .

والخطرة الذهنية تأتي مثلا من نظرة إلى شيء جميل ، أو شيء يبعث الرثاء والأسى ، وقد تكون خطرة ذهنية مجردة عن الأثر الخارجي . وهذا التعريف يتمشى مع مذهب العرب في الشعر ، وهو أنه (لمعة خيالية) تومض إيماضاً ، فتأتي هذه الخطرات الخيالية غير متصلة أو مرتبط بعضها ببعض في حلقة متماسكة ، أو قصة محبوكة الأطراف أو خيال ممتد طويل في ملحمة من الملاحم أو مسرحية من المسرحيات تتابع حوادثها ، وإنما هو ومضات تتألق في أبيات وقصيدة لا تربطها وحدة فكرية .

والشعر الجيد في رأي البارودي « ما كان قريب المأخذ سليما من وصمة التكلف ، بريئاً من عشوة التعسف ، غنياً عن مراجعة الفكرة» ، وهذه صفة الشعر الغنائي ، وهي سمة الشعر العربي غالباً ، ليس فيه عمق المعنى والتوغل في الخيالات ، أو تعقيد الفكرة ، وحشد القضايا المنطقية ، والفكر المجرد عن الشعور والإحساس ، كما نرى ذلك عند أبي تمام والمتنبّي أحياناً وعند أبي العلاء كثيراً ، وكما نراه مذهباً من مذاهب بعض شعراء العصر الحاضر ، والشعر ليس فلسفة ولا منطقاً ، وقد لا يحتوي البيت كبير معنى ، وإنما تطرب له النفوس وتهتز عجباً ، وذلك لأن الشعر غذاء القلوب ، وليس مهارة العقول . وهذا ما جعل النقاد قديماً ينعتون البحتري بأنه الشاعر ، وأن المتنبي وأبا تمام حكيمان: لأن البحتري لم يكن يتكلف في شعره الغوص على المعاني وابتكارها ولا يستعمل المنطق والفلسفة ، بل كان يحذو حذْوَ شعراء الجاهلية والصدر الأول في قرب معانيه وانسجام ألفاظه بعضها مع بعض . وهو القائل رداً على من عاب عليه بعده عن ثقافة عصره ، وعدم أخذه بشيء من الحكمة والمنطق وهو يمثل نظرة العرب إلى الشعر :

كلفتمونا حـــدود منطقكم   والشعر يغني عن صِدقه كذبُه

لم يكن ذو القروح يلهج بالمنـ ـطق ما نوعه ومـــا سببه [1]
والشعر لمح تكفي إشارته وليس بالهذر طوّلت خطبه

ويرى البارودي أن وظيفة الشعر : « تهذيب النفوس ، وتدريب الأفهـام وتنبيه الخواطر إلى مكارم الأخلاق » . وقد ردد هذه المعـاني في شعره ، بيد أن الشعر قد لا يؤدي وظيفة ما إلا التعبير عن شعور الشاعر ؛ وهذه مسألة تحتاج إلى بحث مستفيض نقرر فيه نظرة العرب إلى وظيفة الشعر بخاصة والأدب بعامة ، ونظرة الغربيين إلى الشعر ومذاهبهم فيه ، وهـل للأدب وظيفة ، أو هو التعبير لمجرد التعبير ، أو الفن للفن كما يقولون [2] ؟ . ومهما يكن من أمر فإن البارودي لم يفطن إلى كل أغراض الشعر وما يمكن أن يستخدم فيه ، وما قرره في مقدمته من تعريف للشعر ، ووظيفته يعبر عن مذهبه .

والبارودي مطبوع على قول الشعر ، لا ينتزعه انتزاعاً ويتعسف في نظمـه بل يتدفق على لسانه تدفقاً ، وتشعر وأنت تقرأه أنـه يجري في رفق وهوادة ولين غير قلق أو مضطرب أو متكلّف. وقد كان البارودي يدرك هذه الميزة في شعره ويقول :

أقول بطبع لست أحتاج بعده إلى المنهل المطروق والمنهج الوعر
إذا جاش طبعي فاض بالدرّ منطقي ولا عَجَبٌ فالدر ينشأ في البحر

---

(١) ذو القروح : امرؤ القيس ، ولقب بذلك كما يقولون لأنه أصيب بمرض جلدي في طريق عودته من لدن ملك الروم حينما ذهب إليه يستنجد به على قتلة أبيه .

(٢) انظر دراستنا للمذاهب الأدبية الغربية في كتابنا (المسرحية)

وعلى الرغم من سليقته المواتية ، وحافظته الواعية التي تمده بمخزون الآداب ألفاظاً منمقة ومعاني سامية ، فإن البارودي كان من المؤمنين بأن الفن تهذيب وصقل ، وجهد متصل ، وتحسين مستمر ، وأن الطبع وحده لا يكفي ؛ ولذلك كان يتعهده بالتهذيب والرعاية ، فقد رُوي أنه رتب ديوانه بعد عودته من المنفى ، وأعاد النظر فيما قاله من قصائد ، وحذف الأبيات التي لم تَرُقه ، حتى لا يخلف للأجيال المقبلة إلا الشعر المصقول لفظاً ومعنى :

لم تُبنَ قافيةٌ فيه على خلل   كلا ! ولم تختلف في وصفها الجمل

فلا سِنادٌ ولا حشو ولا قلق   ولا سقوط ولا سهو ولا علل

لا تنكر الكاعبُ الحسناء منطقه   ولا يعاد على قوم فيُبتذل

ولا أدل على هذا التنقيح من اختلاف القصائد كما نشرت في الديوان عن نصها المنشور أول الأمر في الوسيلة الأدبية للمرصفي ، خذ مثلاً قوله في الوسيلة الأدبية :

أقاموا زماناً ثم بدّد شملَهم   أخو فتكاتٍ بالكرام اسمُه الدهر

فقد صار في الديوان :

أقاموا زماناً ثم بدد شملهم   ملولٌ من الأيام شيمته الغدر

ومطلع قصيدته التي يعارض فيها رائية أبي نواس فقد كانت في الوسيلة على الصورة الآتية :

تلاهيتُ إلا ما يُجنُّ ضمير   وداريت إلا ما يَنمّ زفير

وهل يستطيع المرء كتمان أمره   وفي الصدر منه بارحٌ وسعير

ثم صار في الديوان :

أبى الشوق إلا ما يَحِنُّ ضمير وكل مشوق بالحنين جدير
وهل يستطيع المرء كتمان لوعة يَنِمُّ عليها مدمعٌ وزفير

كما كان يهتف بشعره قبل أن يخرجه للناس ، ويصغي إليه ليتبين ما فيه من عيوب في الموسيقى وعدم انسجام الألفاظ بعضها مع بعض ، والخلل المعنوي ، والقافية القلقة المضطربة ، والحشو ، وغير ذلك من عيوب الشعر ، ويقول:

واهتف به من قبل تسريحه فالسّهم منسوب إلى الرامي(١)

فجاء والحق يقال شعراً يأخذ بمجامع القلوب من حيث موسيقاه ، وتماسك أبياته وقوافيه وانسجام ألفاظه ، وانتقاؤها انتقاء خبير ملهَم :

فألْقِ إليه السمع ينبئك أنه هو الشعر لا ما يَدّعي الملأ الغُمر(٢)
يزيد على الإنشاد حسناً كأنني نفثتُ به سحراً ، وليس به سحر

كان البارودي يتخير الألفاظ المناسبة للمعاني التي يريدها ، فيرقّ ويلطف

---

(١) يقول الشيخ حسين المرصفي في هذا : « ونبه بقوله : وهتف به من قبل تسريحه على أنه لا ينبغي أن يكتفى بالنظرة الأولى فللنفس خداع وربما تنبهت بعد أن أغفلت ، واستقبحت ما استحسنت ولذلك يقول الأول :

لا تعرضنّ على الرواة قصيدة ما لم تبالغ قبلُ في تهذيبها
فإذا عرضت الشعر غير مهذب عدّوه منك وساوساً تهذي بها

(٢) الغمر : مثلثة الغين ، ومعناها الذي لم يجرب الأمور .

حين يقضي المقام الرقة واللطف كأن يتغزل أو يعتب ، أو يصف منظراً جميلاً أو مجلس أنس وسمر ، ويجزل شعره ويجلجل لفظه ، ويشتد أسره حين ينشد في الحماسة ، والفخر والمديح ، وحين يصف البحر الهائج ، والريح الزفوف والحرب الضروس :

إذا اشتد أورى زَندة الحرب لفظُه   وإن رَقّ أزرى بالعقود فريدُه
إذا ما تلاه منشد في مقامة   كفى القومَ ترجيعَ الغناء نشيده

فجاء شعره مما يلذ للإنسان حقاً أن ينشده بصوت مرتفع ، يترنم به ليطرب ويتأمل في نغمه وموسيقاه فيلتذ ويعجب ، فلا بدع أن قال :

ولي كلّ ملساء المتون غريبة   إذا أُنشدتْ أفضت لذكر بني سعد[1]
أخفُّ على الأسماع من نغم الحُدَا   وألطف عند النفس من زمن الورد

كان البارودي يعلم أنه سيخلد بشعره لا بحسبه ونسبه ، وإذا كان قد أخفق في بلوغ مناه وتحقيق آماله في هذه الدنيا ، فإنه أدرك الغاية من السعي في الحياة بالعمل الصالح والمجد المؤثل ، ألا وهي الخلود بعد الموت وترديد اسمه عطراً على كل لسان ، وفي ذلك يقول في شعره :

سيبقى به ذكري على الدهر خالداً   وذِكر الفتى بعد الممات خلوده

ويقول :

---

(١) بنو سعد : بطن من هوازن ، ومنهم حليمة السعدية مرضعة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان بنو سعد من أفصح العرب ولذلك أرسل رسول الله إليهم كي ينشأ على الفصاحة واللسن ، ويريد البارودي أن شعره يذكر الناس بأفصح العرب .

سيذكُرني بالشعر من لم يلاقني وذكر الفتى بعد الممات من العمر

هـــذا ، وفي شعر البارودي َهنات . وعليه مآخذ قليلة سنذكرها في موضعها من هذا الفصل ، بيد أنها لا تزري بـــه ولا تغض من شأنه ؟ وحسبه أنه سما بالشعر العربي إلى الذروة ، وأنه حلّق في السماء التي جاب آفاقها من قبل بشار وأبو نواس والبحتري وأبو تمام والمتنبي وأبو فراس وأضرابهم ، بعد أن وصل الشعر العربي قبيل عهده إلى الحضيض وكاد يلفظ أنفاسه انواهية.

والآن ، علينا أن نتعرف على هذا الشعر الذي مدحه وافتخر به ، وصقله وهذبه ، أحقٌ هو في الثناء عليه ، أم هو غرور شاعر زين له خيـــاله الباطل حقاً ، والسيءٌ حسناً ؟ ولنرى القديم والجديد في شعره ، ومنزلته في موكب الأدب العربي وهل كان صدى للشعراء الذين عارضهم وجاراهم في مضارهم أو أنه استقل وابتكر وخرج على المألوف ، وتكونت له شخصية يذكرها التاريخ غير معتمدة على سواها ؟ وهـــل هي شخصية قميئة هزيلة ، أو شخصية قوية فارعة ذات مزايا واضحة ؟

١ – القديم في شعره :

١ – لم يجدد البارودي في أغراض الشعر التي عرفها شعراء العصر العباسي فهو يمدح ويصف ، ويهجو ، ويرثي ، ويعتب ، ويفتخر ... الخ مـــا هناك من أغراض معروفـــة مألوفة . ويا ليته وقف عند هذا ، فقد تكون الأغراض قديمة والمعاني جديدة . ولكنه حاكى القدماء أحياناً في أسلوبهم كما حاكاهم في أغراضهم وقد بلغ به التقليد حداً نسيَ معه أنه في مصر وأنه بعيد عن نجـــد ورباها ووديانها وآرامها وخمائلها ، فقال :

يا سعدُ قل لي فأنت أدرى — متى رِعان العقيق تبدو[1]
أشتاق نجداً وساكنيه — وأين مني الغداةَ نجد

وقال :

أين ليالينا بوادي الغضا — ذاك عهد ليته ما انقضى[2]
كنت به من عيشتي راضياً — حتى إذا وَلّى عدمت الرضا
أيام لهو وصباً كلما — ذكرتها ضاق عليَّ الفضا

٢ – وقد وقف على الأطلال والدمن ، وأتى بشعر جاهلي الروح والمعنى ، والوجه والزي ، ولا يمت إلى عصره وعصر الحضارة بصلة . وهو لم يقله لأنه مقتنع بأن ذلك هو الأسلوب الواجب اتباعه ، والنهج الذي عليه أن يسلكه ، ولكنه يريد أن يمتحن شاعريته ، وهل في استطاعته أن يحاكي القدماء حتى في وقوفهم على الأطلال والدمن ؟ وليس أمامه أطلال ودمن تهيج شاعريته ، وتثير عَبْرَته فإذا استطاع أن يقول مثلما قالوا فهو شاعر فحل ، ولا شك أن هذا النوع من الشعر خال من العاطفة وفيه كثير من الصنعة والتكلف . استمع إليه يقول :

ألا حيِّ من أسماء رسم المنازل — وإن هي لم ترجع بياناً لسائل
خَلاء تعفتها الروامس والتقت — عليها أهاضيب الغيوم الحوافل

---

(١) العقيق : الوادي . وكل مسيل شقه ماء السيل ، ومواضع بالمدينة والطائف واليمامة ونجد والمقصود هنا عقيق نجد . ورعان : جمع رعن « بفتح فسكون » وهو أنف يتقدم الجبل .

(٢) الغضا : شجر ، وخشبه من أصلب الخشب جمع غضاة . ووادي الغضا : مكان بنجد .

فلأياً عرفت الدار بعـد ترسّم أراني بها ما كان بالأمس شاغلي
غدت وهي مرعىً للظباء وطالما غنَت وهي مأوى للحسان المقائل

إلى أن يقول :

فياليت أن العهد باق وأننـــا دوارجُ في غفل من العيش خامل
تمر بنـــا رُعيان كل قبيلة فما ينحونا غير نظرة غافـــل
صغيرين لم يذهب بنا الظن مذهباً بعيداً ولم يسمع لنا بطوائل [1]
نسير إذا ما القوم ساروا غُدَيّة إلى كل بَهْم راتعات وجامل [2]

فأي أطلال ، وأي رسوم رآها البارودي فوقف عندها ؟ وأين رأى الظباء ، وهو يعيش في أحضان القاهرة المتمدينة ؟ وأين مرت بها رعيان القبائل ؟

وما هذه البَهم والجمـال السائمة ؟ اللهم إنـــه التقليد ورياضة القول وإظهار المقدرة على النظم في مثل هذه الأغراض ، وعلى هـذا النمط كما فعل القدماء .

٣ – ونراه في النسيب ووصف المرأة يعمد إلى التشبيهات القديمة المحفوظة ، فهي تحكي الظبي في كناسه ، والبدر في سمائه ، وهي مهاة ، وألحاظها سيوف باترات ، وقدها غصن يتثنى .. الخ هذه القوالب الموروثة :

---

(١) الطوائل : جمع طائلة وهي الوتر والذحل والمعنى : لم نقترف إثماً .

(٢) البهم : جمع بهمة وهي صغار المعز والضأن ؛ والجامل: الإبل .

إذا نظرت أو أقبلت ، أو تهللت فويل مهارى الرمل، والغصن والبدر

ويقول :

أيها الساهرون حول وسادي لست منكم أو تذكروا لي نجدا
لا تخوضوا في غيره من حديث فهو حسبي ، وأي ماء كصدّا[1]

ويتغزل :

غصن بان قد أطلع الحسن فيه بيــد السحر جلناراً وورداً
ما هلال السماء؟ ما الظبي ؟ ما الور د جنياً ؟ ما الغصن إذ يتهدى ؟
هو أبهى وجهاً وأقتــل ألحا ظاً وأندى خداً ، وألين قدّا

ويصف المرأة بقوله :

كالورد خــداً ، والبنفسج طرة والغصن قدّا ، والغزالة ملفتــا

ويصفها وصفاً مادياً كما كان يفعل القدماء ، كأنها تباع وتشترى :

خفت معاطفها ، لكن روادفهــا بمثل مــا حمّلتني في الهوى رجحت
ويلاه من لحظها الفتاك إن نظرت وآه من قدّها العسال إن سنحت
كالبدر إن سفرت والظبي إن نظرت والغصن إن خطرت والزهر إن نفحت

---

(١) صدا بالقصر ضرورة من صداء : اسم عين يستعذبهــا العرب وفي أمثالهم . (ماء ولا كصداء) .

ويقول :

والوعةَ القلب من غزلان أخبية تكاد تكسر من أحداقها الراح
من كل مائسة كالغصن قد جمعت بدائعاً كلهــا للحسن أوضـاح
فالعين نرجسة ، والشعر سوسنة والنهد رمانة ، والخــد تفاح

٤ — نرى البارودي الذي حاكى فحول الشعراء حتى الجاهليين منهم ، يقلد شعراء الصنعة ، وعصر الضعف ، فيؤرخ أحياناً في شعره كما أرخوا – وإن كان قليلاً ما فعل حتى لا يكاد يذكر – فمن ذلك قوله يؤرخ عودة (اسماعيل باشا) خديو مصر من دار الخلافة العلية سنة ١٢٨٩ هـ .

رجـع الخـديو لمصره وأتت طلائع نصره
وتهللت بقدومــه فرحاً أسرّة عصره
فلتبتهج أوطـــانه بحلوله في قصره
وليشتهر تاريخـــه رجـع الخديو لمصره

وقال في تهنئة الخديو عباس الثاني بعيد الفطر :

أمولاي دُم للملك ربا تسوســه بحكمة مطبوع على الحلم والباس
ولا زالت الأعياد تجري سعودها عليك وتحظى من علاك بإيناس
فلولاك ما فازت يــد القطر بالمنى ولا نشأت روح العدالة في الناس
وهذا لسان الشكر يدعو مؤرخاً حوى العيد أنواع الفخار بعباس

١٣١٤ هـ . ٢٤ ١١٥ ١٢٨ ٩١٢ ١٣٥

٥ – واستعمل البارودي المحسنات البديعية أحياناً ، ولا سيما الطباق في مثل قوله :

يموت قلبي ويحيـــا حيرة وهدى في عالم الوجد إن صدت وإن جنحت

وقوله :

وبنفسي حلو الشمائل مرُّ الـ هجر يُحيي وصلا، ويقتل صدا
ما على قومه وإن كنتُ حراً أن دعتني له المحبة عبدا

٦ – أما معانيه فكثير منها قديم والقليل فيه جدة . وهو مقلد في المعاني كما هو مقلد في الشكل ، ولا أستطيـع أن أحصي المعاني القديمة لكثرتهـــا ولكن أدل على نوعها ببعض الأمثلة كقوله في الغزل :

طربت وعادتني المخيلة والسكر وأصبحت لا يلوي بشيمتي الزجر(١)
كأني مخمور سرت بلسانه معتقة ممـــا يضن بها التّجْر
صريـع هوى يلوي بي الشوق كلما تلألأ برق أو سرت ديمٌ غُرُّ
إذا مـــال ميزان النهار رأيتني على حسرات لا يقاومهـــا صبر
يقول أناسٌ إنـــه السحر ضلةً وما هي إلا نظرة دونهـــا السحر

ويقول مفتخراً في هذه القصيدة بقومه :

لهم عُمدٌ مرفوعة ومعاقـــل وألويةٌ حمرٌ وأفنيـــة خضر

---

(١) المخيلة : الظن والمراد ذكريات الماضي ، ويلوي به : ويذهب به .

ونار لها في كل شرق ومغرب　　لمدّرع الظلماء ألسنة حمر

ويقول في القصيدة من الحكمة :

لعمرك ما وحيٌ وإن طال سيره　　يُعد طليقاً والمنون له أسر

وما هذه الأيام إلا منازل　　يحل بها سَفْرٌ ويتركها سفر

فهذه أغراض ثلاثة في قصيدة واحدة لم يأت فيها بجديد من المعنى ؛ ففي الغزل يقول : إنه استخفه الطرب والشوق على حد قول أبي نواس .

حامل الهوى تعب　　يستخفه الطرب

إن بكى يحق له　　ليس ما به لعب

وحاكى الأقدمين في ذكره البرق والسحب ، فهذه الأشياء كانت مقبولة في الشعر القديم لأنها تصف البيئة العربية ، والغيث والبرق كان فيهما حياة العرب القاطنين بالجزيرة ، فإذا لمع البرق أو هطلت السحب هلل الناس وفرحوا ، وإذا ذكر المحب محبوبته في ذلك الوقت فكأنه يريد أن يشاركها سرورها، أو تشاركه سروره ، والسرور من الأشياء التي لا تتم إلا إذا اقتسمها الإنسان مع سواه . أما في بيئة البارودي فليس لهذه الأشياء من التأثير والاهتمام ما يدعو لذكرها ، بل قد يسبب المطر من المضايقات لأهل القاهرة الذين يعتمدون على النيل ، ولأهل الريف في ضرر زرعهم ما يذكرونه بشرّ ، ولكنه التقليد القديم ؛ وقوله : (على حسرات) : يعني به أنه حين تغيب الشمس تكثر همومه ، وكأنه يتقلب على حسرات ؛ لأن الليل مصدر الذكريات لفراغ الإنسان من الشواغل والأعمال ، وقديماً قال النابغة :

وصدرٍ أراح الليــل عازب همه   تضاعف فيه الحزن من كل جانب

ويقول النابغة كذلك :

فبتُّ كأن العــائدات فرشن لي   هَراساً به يُعلَى فراشي ويُقْشَبُ

وتشبيه نظرات المحبوبة بالسحر تشبيه قديم معروف .

وفي الفخر ترى البارودي يذكر العمد المرفوعة وهو في القــاهرة ، ويذكر النار على عادات البدو ، ولا سيما في الجاهلية إذ كانوا يشبونهــا على يَفاع من الأرض كي يهتدي بها الساري ، ويلجأ إليها الجائع ويطلب القِرى ، ورحم الله حاتماً حين قال لغلامه :

أوقد فإن الليل ليل قُرٌّ   والريح يا واقد ريح صِر[1]

عَلَّ يرى نارك من يمرُّ   إن جلبت ضيفاً فأنت حر

وقوله في الحكمة إن الإنسان لا يعد طليقاً في حياتــه وهو أسر المنون : مأخوذ من قول طرفة بن العبد :

لعمرك إن الموت ما أخطأ الفتى   لكالطِّوَلِ المُرْخى وثِنياه باليد[2]

وبيت طرفة أحسن وأمتن حيث شبه الإنسان بدابَّة ، وحبلها بيد الموت يرخي لها فيه وإذا شاء جذبها إليه فانقضى العمر . وأما أن الأيام منــازل ،

---

(١) قر : بارد ، وصر : شديد البرودة .

(٢) الطول : الحبل .

وأنّا فيها على سَفَر فمعنى قديم مطروق ، وقد تكرر في الأحاديث النبوية ، وفي أقوال الزهاد والوعاظ .

وهكذا إذا أخذت أي قطعة للبارودي تجده يردد فيها كثيراً من المعاني القديمة المعروفة المشهورة . ولا يعني هذا أن البارودي لم يجدد في شعره وفي معانيه ، بل له تجديد ملحوظ في شعره سنذكره فيما بعد .

وإذا كان البارودي قد طرق أبواب الشعر العربي الموروثة ، ولم يجدد في أغراضه ، فإنه كان واضح الشخصية في كثير من هذه الموضوعات المطروقة فتراه يمثل نفسه ، وزمنه ، وبيئته في قصائد شتى . فالبارودي ذاق حلو الزمان ومره ، وارتفع في مناصب الدولة حتى رئاسة الوزارة ثم شُرّد ونفي ، وقضى زمناً طويلاً يتحرق فيه شوقاً إلى وطنه وأهله ، ويتحسر على أيامه الخاليات ، ويندب فيه حظه ، وينعي على الأصدقاء الكاذبين خياناتهم وغدرهم ، ويذم الحياة ويكيل لها السبّاب ، وهو في كل ذلك صادق الشعور يصف ما به على طبيعته فبرزت شخصيته واضحة لا لبس فيها ولا غموض .

وإذا كان البارودي قد قلد القدماء وحا كاهم في أغراضهم وطريقة عرضهم للموضوعات وفي أسلوبهم ، وفي معانيهم ، فإن له مع ذلك تجديداً ملموساً في شعره من حيث التعبير عن شعوره وعن مشاهداته ؛ وله معان جديدة ، وصور لم يسبق إليها ، وإذا أردنا أن ننصفه فعلينا دراسة الجديد في شعره حتى يكون حكمنا عليه عادلاً ، ونستطيع أن نضعه في منزلته الجديرة به في موكب التاريخ والأدب والنهضة .

(ب) الجديد في شعره :

١ — الوصف :

ولا تعجب إذا عددنا الوصف جديداً عند البارودي ، وإن كان قديماً منذ أن كان الشعر العربي وما من شاعر إلا له في الوصف أبيات وقصائد . ولكن الجديد في وصف البارودي أنه أفرد له قصائد بعينها ، ولم يأت به عرضاً في ثنايا القصائد . كان يصف لمجرد الوصف ؛ ولأن شاعريته ، وحواسه المرهفة ، وتذوقه الحاد للجمال كانت تدفعه إلى قول الشعر ، وإلى وصف مشاهداته لا كما هي في الطبيعة ، ولكن يخرجها ملونة بشخصيته وشعوره وأفكاره .

كان البارودي مفتوناً بالطبيعة ، يرى شعرها لا ينضب منه معين الإلهام ، ويرى في كل سطر من هذا الشعر آية من آيات الجمال عليه أن يترنم بها ، ويظهر محاسنها للأجيال من بعده ، ويترجمها للناس حتى يعجبوا بها كما أعجب . وديوان البارودي غاص بالموصوفات وبقصائد الوصف ، وما دام الشاعر قد انصرف عن المديح وعن أن يكون شعره مظهراً للنفاق والخداع والاستجداء، والوقوف بأبواب الملوك والأمراء ، فقد أصبح شعره طوع يده يسجل به مشاعره الخاصة . وشعراء العربية الوصافون – أي الذين أكثروا من الوصف – قليلون ، لأن المديح وللأسف قد ألهاهم عن قراءة محاسن الكون ، ويعد البارودي من أكثر شعراء العربية وصفاً ، بل يعد في الطليعة . وشعره الوصفي يفخر به الشعر العربي ويستطيع أن يباهي به خير ما عند الغرب من شعر وصفي، وموصوفات البارودي كما ذكرنا عديدة ومنوعة ، فمنها :

١ – مظاهر الطبيعة فيصف الليلة العاصفة المطيرة ويجعلك تحس معه هزيم الرعد ، وعزف الريح ، وتواصل المطر وشدته ، وترى سوادها ووحشتها ، ويصف الليلة الحالية بالنجوم فتلمس جمالها ، ويصف السحاب الممطر والبرق والرعد وأثرها في الإنسان والأرض ، ويصف البحر الهائج الغاضب ، والريح الزفوف تعلو بالموج فتحيله جبالاً سامقة الذرى ، وتنخفض به إلى وهاد عميقة

الأغوار ، ويصف الجبل والغابة وغير ذلك .

وهو في وصف الطبيعة مصور ماهر ، بل هو دقيق بارع في كل ما يتناول من وصف. وهو في وصف الطبيعة قد يغرب في لفظه ، ويأتي بتشبيهات جديدة منتزعة من بيئته أحياناً، وأحياناً يردد معاني القدماء وأخيلتهم . استمع إليه يصف ليلة مطيرة حتى مطلع الفجر :

وليلةٍ ذات تَهْتانٍ وأندية كأنما البرق فيها صارمٌ سَلِطُ [١]
لفَّ الغمام أقاصيها بِبُرْدته وانهل في حِجْرتيها وابل سَبِطُ [٢]
بَهْماءُ لا يهتدي الساري بكوكبها من الغمام ولا يبدو بها نَمَطُ [٣]
يكاد يجهل فيها القوم أمرهم لولا صهيل جياد الخيل واللَّغَطُ
يَطْغَى بها البرق أحياناً فيزجُرُه مخرنطم زَجِلٌ من رعدها خِرِنطم [٤]
كأنما البرق سَوْطٌ والحيا نُجُبٌ يلوح في جسمها من مَسّه حبَطُ [٥]

---

(١) أندية : جاندى وهو البلل ، وسلط : لا نتوء في نصله .

(٢) حجرتاها : ناحيتاها ، وسبط : شديد متدارك .

(٣) النمط : الطريق .

(٤) مخرنطم : وهو اسم فاعل من اخرنطم الرجل أي رفع أنفه واستكبر وغضب، وزجل: عالي الصوت ، ومن رعدها : بيان لزجل . وخمط : غضوب ثائر.

(٥) الحيا : المطر ، والنجب : كرام الخيل والإبل وعتاقها وجيادها المفرد نجيب، من مسه: أي بسبب مسه وأذاه ، والضمير يعود على السوط . والحبط : آثار السياط بالبدن أو الآثار الوارمة التي لم تشقق .

كأنه صــارمٌ يرفضُ من علقٍ بالأفق يُغمَدُ أحياناً ويُخترط [1]

مزقت جلبابها بالخيل طالعــة مثل الحمائم في أجيادها العُلط [2]

وقد تخلل خيط النور ظلمتها كما تخلل شعرَ اللمّة الوَخطُ

كأنها وصديع الفجر يصدعها من جانب أدهم قد مسه نبط [3]

ومَرْبَع للنسيم الفجر هينمةٌ فيه وللطير في أرجائه لغط

كأنما القطر در في جوانبه يكاد من صدَف الأزهار يُلتَقط

وللنسيم خلال النبت غلغلةٌ كما تغلغل وسْط اللمّة المُشُطُ

والريح تمحو سطوراً ثم تثبتها في النهر لا صحةٌ فيها ولا غلط

وللسماء خيوط غير واهيــة تكاد تُجمَعُ بالأيدي فتَرتَبطُ

كأنها وأكف الريح تضربُها سلوكُ عِقْد تواهت فهي تَنخرطُ

وفي هذه القطعة أبيات يسمو فيها البارودي بإحساسه وبراعة تصويره ، وإدراكه للأمور الدقيقة ، كوصفه النسيم وهو يتخلل النبت ، أو وصفه خيوط المطر وهي نازلة .

---

(١) كأنه : أي البرق . يرفض : يسيل ويقطر ، والعلق : الدم ، يخترط : يسل ويجرد من غمده .

(٢) العلط ، ككتب جمع علاط ككتاب وهو من الحمامة طوقها في صفحتي عنقها بسواد .

(٣) النبط : بياض في بطن الفرس ، وصديع الفجر : أي طلوعه لأنــه يصدع الليلة أي يشقها .

وقال يصف النجوم :

أرعى الكواكبَ في السماء كأنلي عنـد النجوم رهينةً لم تدفع
زُهر تألـّقُ بالفضاء ، كأنها حَببٌ تردد في غدير مُـتْرَعِ
وكأنها حول المَجرّ حمائم بيضٌ عكفن على جوانب مَشْرع
وترى الثريا في السماء كأنها حلقات قُرْط بالجُمانِ مرصع
بيضاء ناصعة كبيض نعامة في جوف أدْحيٍ بأرض بَلقعِ
وكأنها أكرٌ توَقـّد نورُها بالكهرُباءة في سَماوة مَصْنع[1]
والليل مرهوبُ الحمية قـائم في مسحه كالراهب المتلفع[2]
متوشح بالنيرات كباسل من نسل حام ، باللـُّجين مدرع
حَسِبَ النجوم تخلفت عن أمره فوحى لهن من الهلال بإصبع[3]

٣ — ويصف مناظر الريف ويصورها تصويراً بديعاً، فيصف القطن والسفن في النيل والساقية والمزروعات والطيور ، وهي تحوم على صفحة النهر وحركات الطيور ، والنحلة وهي تنتقل من زهرة لزهرة . كل هذا في حساسية غريبة ، وشغف بالطبيعة وحب لها كأنه يعيش معها .

فمن قوله يصف القطن :

---

(١) المصنع : القصر المظيم .

(٢) مسحه : مسوحه أي لباسه الأسود كمسوح الراهب .

(٣) وحى : أشار .

والقطن بين ملوّز ومنوّر كالغادة ازدانت بأنواع الحِلى
فكأن عاقده كراتُ زمرد وكأن زاهره كواكب في الرُوا[1]
دبت به روح الحياة فلو وَهتْ عنه القيودُ من الجداول قد مشى
فأصوله الدكناء تسبح في الثرى وفروعه الخضراء تلعب في الهوا
لم يَسر فيه العقلُ مَذْهبَ فكرة محدودة إلا تراجـع بالمنى

واسمعه يصف الريف المصري إبان الربيـع في أرجوزة :

عم الحيا واسْتَنَّتِ الجداولُ وفاضت الغدْرانُ والمناهلُ
وازّينت بنوْرها الخمائلُ وغردت في أيكها البلابل
وشمل البقاعَ خير شامل فصفْحةُ الأرض نبات خائل[2]
وجبهة الجوّ غمام حافل وبين هذين نسيم جائل
تنْدَى به الأسحار والأصائل كأنما النبات بحرٌ هائل
وليس إلا الأكماتِ ساحل وشامخ الدّوح سفينٌ جافل[3]
معتدل طوراً وطوراً مائل تهفو به الجنوبُ والشمائل

(١) عاقده : ما انعقد من اللوز قبل أن يتفتح ، الروا . مقصور الرواء ، وهو الحسن والبهاء .

(٢) خائل : ذو خيلاء معجب بنفسه .

(٣) جافل : مضطرب .

والباسقـات الشُمَّخُ الحوامل مشمورةٌ عن ساقها الذّلاذل[1]
مَلويةٌ في جيدها العثاكِلُ معقودةٌ في رأسها الفلائل[2]
للبُسْر فيهـا قانىء وناصل مُخَضَّبٌ كأنه الأنامِلُ
كأنه من ذَهب قنادلُ من العراجين لهـا سلاسل
للمُنْجَنُون بينها أرامِلُ تخالها محزونة تسائل[3]
لها دموعٌ ذُرَّفٌ هوامـل كأنها أمٌّ بنينَ ثاكل
في جيدها من ضَفرها حبائلُ من القواديس لها جلاجل
تدور كالشهب لها منازلُ فصاعد ودافق ونازل

ففي هذه القصيدة يصور مناظر الريف تصويراً سريعاً دون تعمق أو طويل وقوف على المشاهدات ، ومعانيه قريبة ، وتشبيهاته واضحة غير متكلفة ، وخياله دان لا إغراب فيه ولا شرود .

ومما يدل على دقة حسه ، وتدفق شعوره ، وأنه مصور بارع ، أن الأمور التي لا تسترعي نظر جمهرة الناس يجد فيها ما يثير عاطفته ، ويحرك شاعريته قوله يصف طائراً تحرك فأيقظه من سِنته ، وتتبع حركاته بدقة ، فأعطى

---

(١) الباسقات : يريد النخل . والذلاذل : الأطراف ويريد أن ساق النخلة عار من الجريد والسعف .

(٢) العثاكل : ج عثكول وهو في النخل بمنزلة العنقود في الكرم ، والفلائل ج فليلة : وهي الشعر المجتمع .

(٣) المنجنون : دولاب الساقية التي يسقى بها الزرع ، وأزامل : ج أزمل (كجعفر) وهو الصوت المختلط .

صورة واضحة عنه :

ونبأةٍ أطلقت عينيَّ من سِنةٍ ... كانت حُبالة طيف زارني سحَرا
فقمت أسألُ عَيْني رَجعَ ماسمعت ... أذني ، فقالت : لعلي أبلغُ الخبرا
ثم اشرأبّتْ فألفت طائراً حَذِراً ... على قضيب يديرُ السمع والبصرا
مستوفزاً يتنزّى فوق أيكته ... تَنزّيَ القلب طال المهدُ فادّكرا[1]
لا تستقر له ساقٌ على قدم ... فكلما هدأت أنفاسه نَفَرا
يهفو به الغصن أحياناً ويرفعه ... دَحْوَ الصوالج في الديمومة الأكرا[2]
ما بالُه وهو في أمن وعافية ... لا يبعث الطّرف إلا خائفاً حَذِرا
إذا علا بات في خضراءَ ناعمةٍ ... وإن هوى وَرَدَ الغُدْران أو نقرا

فأنت تراه يتتبع الطائر في أقل حركة له ، ويحاول أن يستكشف دخيلة قلبه الصغير ليعرف سر فزعه ، وترقبه ، ويتعجب لهذه الحياة القلقة المضطربة مع أن ظاهر الأمر ينبىء أنه في نعمة وعافية . وهذه لعمري خطرات شاعر مرهف الإحساس جياش العاطفة .

واستمع إليه يصف غيضة احتلها في (قندية) أيام حرب كريت :

---

(١) مستوفزا : غير مطمئن قد تهيأ للوثوب ، ويتنزى : يثب.

(٢) دحا اللاعب الكرة : دفعها ورماها بيده ، والديمومة : الأرض المستوية .

وَمُرْتبَعٍ لُذْنا بــه غِبَّ سحرةٍ   وللصبح أنفاسٌ تزيد وتنقص [1]
وقد مال للغرب الهلالُ ، كأنــه   بمنقاره عن حبّة النجم يفحَص [2]
رقيق حواشي النبت ، أما غصونه   فرَيّا ، وأما زهرُه ، فمنصَّصُ [3]
إذا لاعبت أفنانَه الريحُ خِلْتَها   سَلاسِلَ تَلْوَى،أو غدائر تُعقَصُ [4]
كأن صِحاف الزهر والطلُّ ذائب   عيونٌ يسيلُ الدمع منها وتَشْخَص [5]
يكادُ نسيم الفجر إن مرَّ سُحْرَةً   بساحته الشجراء لا يتخلَّصُ
كأن شعاع الشمس والريحُ رَهْوَةٌ   إذا رُدَّ فيه سارق يتربَّصُ [6]
يَمُدُّ يداً دون الثمار ، كأنما   يحـــاول منها غاية ثم ينكُصُ

٣ - وإذا أردت أن تعرف متى يحلق البارودي في الوصف ، فاقرأ أوصافه في الأشخاص. إنه لا يقل عن أمهر مصور ،بل أين منه المصور ؟ وهو لا يستطيع

---

(١) المرتبع : الذي يرتبع فيه القوم،أي يقيمون زمن الربيع .

(٢) في هذا البيت إشارة إلى أن الليلة التي يصفها كانت في آخر الشهر العربي ، وحبةالنجم: أي النجم الشبيه بالحبة .

(٣) رقيق : صفة لمرتبع ، منصص : ظاهر مرتفع بعضه فوق بعض .

(٤) الغدائر ج غديرة . وهي الذؤابة من الشعر إذا كانت مرسلة ، غير ملوية ولا معقوصة ، وتعقص : تضفر .

(٥) تشخص : تنفتح ولا تطرف .

(٦) الرهو : الرقيق ، ورد فيه : أي إذا تردد الشعاع في المرتبع .

أن يبرز على (لوحته) دخائـــل النفوس ، وأسرار القلوب والحركات والإشارات ، وكذلك أوصافه للمعارك وميادين القتال وأدواته ، وإذا كان وصف الحروب من الموضوعات القديمة التي تناولها قبله الشعراء ، فإن تصوير الأشخاص من الموضوعات النادرة التي مهر فيها قِلَّةٌ من فحول الشعر العربي كابن الرومي ، اسمعه يصف البلغار في بلادهم حين ذهب مع الحملة المصرية لحرب الروس .

بلاد بهـا ما بالجحيم ، وإنمـا مكانُ اللـّظى ثلج بهـا وجليد
تجمّعت البلغار والروم بينهـــا وزاحمهـــا التاتار ، فهي حُشود
إذا راطنوا بعضاً سمعتَ لصوتهم هَديداً تكاد الأرض منه تميد
قِبَاحُ النواصي والوجوه كأنهم لغـــير أبي هذا الأنام جنود
سواسية ، ليسوا بنسل قبيلة فتُعرف آباء لهم وجدود
لهم صورٌ ليست وجوها وإنما تناط إليهـا أعـين وخدود
يخورون حولي كالعجول، وبعضهم يهجّن لحن القول حـــين يجيد

فهو يصف رطانتهم وعجمة ألسنتهم ، وقبح وجوههم ورءوسهم حتى كأنهم ليسوا من البشر ، وأن وجوههم متشابهـة لا تستطيع التفريق بينها ، بل لا يريد أن يعترف بأن لهم وجوهاً وإنما هي صور وضعت فيها أعـــين وخدود ، ويخورون حوله كالعجول ، وإذا حاول أحدهم النطق بالعربية أفسدها .

ومن قوله يصف حرب إقريطش (كريت) :

في كـُلّ مَرْبأةٍ وكل ثَنيَّةٍ تَهْدَارُ سامرة وعزفُ قيان (١)

(١) المربأة : مكان المراقب ، والتهدار : التصريت وقرقرة الحمام ، والقينة : المغنية وجمعها قيان .

تَستَنُّ عاديةٌ ، ويصهلُ أجردٌ   وتصيحُ أجراسٌ ، ويهتف عاني[1]
قومٌ أبى الشيطان إلا خُسْرهم   فتسلَّلوا من طاعــة السلطان
ملأوا الفضاء ، فما يبين لناظر   غيرُ التماعِ البيض والُخرْصان[2]
فالبدر أكدُر والسماء مريضــةٌ   والبحر أشكلُ والرماح دَوَانِ[3]
والخيل واقفــةٌ على أرسانها   لطراد يوم كريهــةٍ ورهان
وضعوا السّلاح إلى الصباح ، وأقبلوا   يتكلمون بألْسُنِ النيران
حتى إذا ما الصبحُ أسفر وارتمت   عينان بين رُبىً وبَيْن مجان
فإذا الجبال أسنةٌ ، وإذا الوهــا   دُ أعِنّــةٌ والماء أحمرُ قاني
فتوجَّسَتْ ُفرُط الركاب ولم تكن   لتَهابَ ، فامتنعت على الأرسان[4]
فزعت فرجَّعت الحنينَ ، وإنمــا   تحَنْانُهــا شجن من الأشجان
ذكرت مواردَها بمصر ، وأين من   ماء بمصرَ منــازلُ الرومان

ومن المقطوعات اللطيفة في وصف الأشخاص قول البارودي يــذم شخصاً ويصفه بالنَّهم والجشع .

وصاحب لا كان من صاحب   أخلاقه كالمعدة الفاسده
أقبحُ ما في الناس من خصلة   أحسنُ ما في نفسه الجامده

---

(١) استن الفرس : عدا إقبالاً وإدباراً ، والأجرد : الحصان القصير الشعر وهو من أمارات العتق والأصالة ، والعاني : المتعب .
(٢) الخرصان : الدروع والرماح .
(٣) الأشكل . الذي يضرب بياضه في حمرة .
(٤) الفرط : الفرس السريعة التي تتقدم الخيــل . وامتنعت على الارسان : حرنت وصارت لا تقاد بالارسان .

لو أنه صُوِّر من طبعه   كان لعمري عقرباً راصده
يَصلح للصفع لكيلا يُرى   في عَدَد الناس بلا فائده
يغلبه الضعف ولكنه   يهدم في قعدته المائده
يراقب الصَّحْنَ على غفلة   من أهله كالهرة الصائده
كأنما أظفوره مِنْجَل   وبين فكّيه رحىً راعده
كأنما البطة في حلقه   نعامة في سَبْسَب شارده
تسمع للبلع نقيقاً كما   نقت ضفادي ليلة راكده
كأنما أنفاسُه حَرْجَفٌ   وبين جنبيه لظىً واقده

٤ — وقد وصف البارودي كثيراً من الأشياء كالسجن ، والقطار ، والخمر وغير ذلك وربما كان وصفه للقطار أول وصف من نوعه في اللغة العربية ؛ لأن السكة الحديدية دخلت مصر في أخريات أيام سعيد ، ولم يفطن شعراء عصره له أو لم يهتموا بوصفه ، ويقول فيه وإن لم يصفه بدقة .

ولقد علوت سَراة أدهم لو جرى   في شأوه برقٌ تعثر أو كبا
يطوي الفَلاَطيَّ السِّجل ويهتدي   في كل مهمهة يضل بها القطا
يجري على عجل فلا يشكو الوَجى   مَدُّ النهار ، ولا يمل من السري
لا الوَخْدُ منه ، ولا الرَّسيم ، ولا يُرى   يمشي العِرَضْنَة أو يسير الهيْدَبى[١]

(١) الوخد : سعة الخطو ، والرسيم : سير للابل قريب من الهرولة دون الجري ، والعرضنة : نوع من السير يمتاز بالخفة والسرعة والنشاط . والهيدبى : مشي للخيل فيه جد .

ويقول في وصف السجن :

فسواد الليل ما إن ينقضي وبياض الصبح ما إن يُنتظر
لا أنيسٌ يسمع الشكوى ولا خبرٌ يأتي ، ولا طيف يمر
بين حيطانٍ وباب موصد كلما حركه السجّان صَرْ
يتمشى دونــه حتى إذا لحقتْه نبــأةٌ مــني استقر
كلما درتُ لأقضي حاجةً قالت الظلمةُ : مهلاً ، لا تدر
أتقرّى الشيءَ أبغيه فلا أجد الشيء ، ولا نفسي تقر
ظلمة ما ان بها من كوكب غيرُ أنفاس ترامى بالشرر

وهذه القطعة فيها أبيات من الشعر الواقعي التي تغنى بتصويرها الحقيقة العارية عن أي خيال مها عمق وملح .

● ـ هذا وقد وصف البارودي بعض آثار مصر القديمة، وفتح بذلك الطريق لشوقي وغيره وهو وإن لم يتعمق في وصفه ، ويستعرض التاريخ المجيد كما فعل شوقي من بعده إلا أنه برهن على أنه شاعر يرى الجمال أو العظمة فيما حوله من مناظر ، وأن شاعريته حساسة مرهفة ؛ لأن مثل هذا الوصف لا تحفزه اليه رغبة في صلة أو تقرب من أمير ، وإنما هو إشباع لرغبة فنية تجيش في صدره ، وتحاول شاعريته الإفصاح عنها. ولذلك عد باب الوصف من خير أبواب الشعر ؛ لأنه فضلاً عن نشره ما طوي من آيات الجمال، أو ما خفي على عيون الناس منها فإنه يدل على نفسية الشاعر ، وقدرته وخياله ، وهو خير محك للتمييز بين الشعراء ، ومن ذلك قوله يصف الهرمين :

سل الجيزة الفيحاء عن هرَمَيْ مِصر لعلَّكَ تدري غيبَ ما لم تكن تدري

بناءان رَدّا صَوْلة الدَّهر عنهما ومن عجَبٍ أن يغلبا صولةَ الدَّهْر
أقاما على رَغْم الخطوب ليشهدا لبانيهما بين البرية بالفخر
فكم أممٍ في الدهر بادت وأعصر خلتْ وهما أعجوبة العين والفكر
تلوح لآثار العقول عليهما أساطير لا تنفك تُتلى الى الحشر
رموزٌ لو استطلعت مكنون سرها لأبصرت مجموع الخلائق في سَطْر
فما من بناء كان ، أو هو كائن يدانيهما عند التأمل والخُبْر
يقصِّرُ حسناً عنهما « صرح بابل » ويعترف « الإيوان » بالعجز والبَهر[1]
فلو أن « هاروتَ » انتحى مَرْصديهما لألقى مقاليد الكهانة والسِّحر
كأنهما ثديان فاضا بدِرَّة من النيل تُروي غُلّةَ الأرض إذ تجري
وبينهما « بَلْهيبُ » في زيٍّ رابض أكبَّ على الكفين منه إلى الصدر[2]
يقلّب نحو الشرق نظرة وامق كأن له شوقاً إلى مطلع الفجر

وليست هذه القصيدة الوحيدة التي أشاد فيها بالأهرام ، وبقدماء المصريين فله قصيدة أخرى فيها مطلعها:

أي شيء يبقى على الحدثان والمنايا خصيمة الحيوان

وله ثالثة مطلعها :

بقوة العلم تقوى شوكة الامم فالحكم في الدهر منسوب إلى القلم

---

(١) البهر : مصدر بهره من باب قطع أي غلبه وفاقه ، والإيوان : إيوان كسرى أنو شروان وقصره الأبيض وكان يعد من عجائب الدنيا ، وكذلك صرح بابل الذي بناه بختنصر .
(٢) بلهيب : أبو الهول .

وفيها يقول :

فانظر إلى الهرمين المائلين تجد غرائباً لا تراها النفس في الحُلُم
صرحان ما دارت الأفلاك منذ جرت على نظيريهما في الشكل والعِظم

. . . .

ولاح بينهما بلهيبُ متجهاً للشرق يلحظ مجرى النيل من أَمَم

(ب) الشعر السياسي :

من الأغراض القديمة التي خلع عليها البارودي لباس الجدة ، وظهرت فيها شخصيته واضحة مجلية تفصح عن نفسه الأبية المتمردة على الظلم والطغيان ، المحبة للعدالة والشورى والمساواة بين الناس ، ذلك الشعر السياسي الوطني الذي دفعه إلى مركز الصدارة بين أبناء شعبه ، وجعل منه زعيماً محبوبا ، ولذلك ألقي به في غياهب السجن ، ورمي به بعيداً عن وطنه. ويا ليته كفَّ عن مثل هذا الشعر وهو يتجرع غصص النفي والتشريد والمرض ، بل زفر زفرات حارة كادت تحرق الطاغين المعتدين بشواظها الملتهب ، ولذلك طالت غيبته عن دياره وخاف أولو الأمر من عودته حتى لا يعيدها جَذعاً مشبوبة الضرام ؛ ولما هدأت ثائرته ، وكُسرت حدته وخفّت شِرته ، واشتكى ما به من ضعف وهُزال ، ودب إلى جسمه دبيبُ الفناء ، أمنوا جانبه فأعادوه إلى وطنه .

كان البارودي طموحاً ، يعتلج في حنايا صدره أمل كبير يود أن أن يجدد به مجد أسلافه ، وقد رزق العقل الذكي ، والفؤاد الأبي ،

والعلم والبصيرة ، فلم لا يصل إلى ما يريد ؟ ولكن ما كل ما يشتهيه الإنسان ويأمله يسهل نواله ، وقد وقفت في سبيل البـارودي عقبات شتى ، وظل الأمل يساوره على الرغم من هذه الصعاب .

ويلاه من حاجة في النفس هام بها قلبي ، وقصر عن إدراكها باعي

أسعى لها وهي مني غـير دانية وكيف يبلغ شأو الكوكب الساعي

ويعترف بهذه العراقيل التي تعترض طريقه ، ولولاها لنال ما تمنى .

وإني أمرؤ لولا العوائق أذعنت لسطوته البدو المغيرة والحضر

وهذا من أصرح الأبيات التي أشار فيها إلى ما تهيم به فؤاده ، وإن كان قد ساقه في معرض الفخر والشجاعة واقتحام ميادين القتال . وقد أخفق البارودي في تحقيق آماله واعتذر عن الإخفاق كما مر بنا .

ويلوح لنا أن البارودي كان بطبعه محباً للحرية متمرداً على الظلم ، شأن كل شجاع شريف . ولعل للوراثة ، وللنشأة التي نُنشئها أثراً في هذا ؛ ولقد غذاهما ما حفظه من شعر الحماسة والقوة عند العرب ، وهم أبطال الحرية في فيافيهم الواسعة ، وقد تغنّوْا بحروبهم وشجاعتهم وانتصاراتهم وأنفَتهم ، وكان شعرهم سجلاً وافياً لمكارم أخلاقهم . وقد قرأ البارودي وهو بعد شاب غرير ، فرسخت هذه الصفات في ذهنه . وشب مطبوعاً عليها يتمثلها نماذج يحتذيها ، ويرددها في شعره ويود أن يحققها عملاً في الحياة ، ويقول :

لا عيب فيّ سوى حرية ملكت أعنـّتي عن قبول الذل بالمال

تبعت خطة آبائي فسرت بها   على وتيرة آداب وآسال [1]

ويقول :

دع الذل في الدنيا لمن خاف حتفه   فللموت خير من حياة على أذى

ولقد صور البارودي الفساد الذي شاع أمره في مصر ، واضطرب أحوالها والفزع الذي ملأ قلوب الناس ، وتنبأ بالثورة الدامية قبل حدوثها ، مما يدل على أنه كان على شلة بزعمائها وأن الناس ضاقوا ذرعاً بهذا الفساد وبوبوابه ولا بد من سبيل إلى الإصلاح ، وذلك حيث يقول : —

تنكَّرَتْ مصرُ بعد العُرْف واضطربت
قواعدُ الملك حتى ريع طائرُه

فأهمل الأرض جرّاً الظلم حارثها
واسترجع المالَ خوف العُدْم تاجرُه [2]

واستحكم الهولُ ، حتى ما يبيتُ فتىً
في جَوْشَنِ الليل إلا وهو ساهرُه [3]

وَيْلُمّه سَكَناً ، لولا الدفين به   من المآثر ما كنا نجاوره

أرضى به غير مغبوط بنعمته   وفي سواه المنى لولا عشائره

يا نفس لا تجزعي فالخير مُنْتَظَرٌ   وصاحب الصبر لا تبلى مرائرُه

---

(١) آسال : شبه وعلامات ، يقال فلان يسير على آسال من أبيه أي على شبه منه ولا واحد لها .

(٢) جرا الظلم : من جرائه وبسببه .

(٣) جوشن الليل : وسطه أو صدره .

لَعَلَّ بُلْجَةَ نور يستضاء بها بعد الظلام الذي عمت دياجره
إني أرى أنفساً ضاقت بما حملت وَسوفَ يَشْهَرُ حدَّ السيف شاهرُه
شهران أو بعد شهر إن هي احتدمت وفي الجديدين ما تغنى فواقره
فإن أصبتُ فمن رأي ملكت به علم الغيوب ، ورأي المرء ناظره

وقد ذكرنا فيما سبق كيف أن البارودي كان من زعماء الثورة ، وأنه كان يطمع في الانقلاب ، ولكن لما رأى التيار عنيفاً ، وتدخلت فرنسا وانجلترا ، أحجم وتردد ونصح لقومه فلم ينتصحوا ، ولم يجد بدأ من السير في الشوط حتى الغاية . وللبارودي في إبان الثورة وبعدها شعر ملتهب حمية وحماسة وتمرداً على الظلم . أنصت إليه وهو يحرض المصريين على الثورة ويهيب بهم ألا يستكينوا للحاكم المستبد ، ويصور لهم نفوسهم العاجزة الضعيفة بقوله :

فيا قوم هبّوا إنما العمر فرصة وفي الدهر طُرق جَمَّة ومنافع
أصبراً على مس الهوان وأنتم عديدُ الحصى : إني إلى الله راجع
وكيف ترون الذل دار إقامة وذلك فضل الله في الأرض واسعْ
أرى أرؤساً قد أينعت لحصادها فأين ولا أين السيوف القواطع ؟
فكونوا حصيداً خامدين أو افزَعوا إلى الحرب حتى يدفع الضيمَ دافع
أهبت فعاد الصوت لم يقض حاجة إليّ ، ولَبّاني الصدى ، وهو طائع
فلم أدر أن الله صور قبلكم تماثيلَ لم يُخْلَق لهن مسامع
فلا تدعوا هذي القلوب ، فإنها قوارير محنيٌّ عليها الأضالع

ويقول معرضاً بالحاكم المستبد :

يا أيها الظالم في ملكه ... أغرك الملك الذي يَنْفَد
اصنع بنا ما شئت من قسوة ... فالله عدل ، والتلاقي غد

وكان من الداعين إلى نظام الشورى ، وقد مدح توفيقاً لما تولى أريكة مصر وظن المصريون أنه سيحقق آمالهم الوطنية ويلبي دعوتهم إلى الأخذ بالشورى ؛ حتى لا يستبد الحكام ، ولا يقعوا في أخطاء تجلب عليهم وعلى قومهم المصائب كما حدث لإسماعيل :

سنُّ المشورة وهي أكرم خطة ... يجري عليها كل راعٍ مرشد
هي عصمة الدين التي أوحى بها ... رب العباد إلى النبي محمد
فمن استعان بها تأيد ملكه ... ومن استهان بأمرها لم يَرْشُد
أمران ما اجتمعا لقائد أمة ... إلا جنى بهما ثمار السؤدَد
جمع يكون الأمر فيما بينهم ... شورى ، وجند للعدو بمرصد
هيهات يحيا الملك دون مشورة ... ويعز ركن المجد ما لم يُعْمَد

ويقول فيها مادحاً توفيقاً :

أطلقت كل مقيد وحللت كل معقد وجمعت كل مبدد
وتمتعت بالعدل منك رعية ... كانت فريسة كل باغ معتد

ويحرض الأمة على اليقظة ، والقوة حتى لا يستهين السلطان بأمرها :

وكذاك السلطان إن ظن بالأمة عجزاً سطا عليها وشدّا

ولما أخفقت الثورة وتخاذل الثوار ، وخان بعضهم بعضاً ، ترك هذا الإخفاق ، وذياك الخذلان في نفسه مرارة ظل أثرها في لسانه مـدة ، فأخذ يلفظ بشعر مرير فيه أثر الموجدة والغضب من مثل قوله :

كنا نود انقلاباً نستريح بــه   حتى إذا تم ساءتنا مصايره

ويقول ذاماً الثورة والثوار ويحاول أن يتنصل من تبعاتها ، وأن ما ناله كان بسبب ما دب بينهم من الشحناء ، وأنهم غدروا به :

صبرتُ على ريب هذا الزمان   ولولا المعاذير لم أصــبر
فلا تحسبَنيّ جهلت الصواب   ولكن هممت فــلم أقدر
ثنت عزمتي ثورةُ المفسدين   وغلت يدي فترة العسكر
وكنا جميعاً فلمــا وقعتُ   صبرت ، وغادرني معشري
ولو أنني رمْتُ إعناتهم   لقلت مقالة مستبصر
ولكنني حين جد الخصام   رجعت إلى كرم العنصر

وحاول البارودي أن يبرىء نفسه ويعلل هزيمته ويصف حنث الثوار في أيمانهم ومواثيقهم وتخاذلهم ، ويتندم على زعامته :

دعوْني إلى الجلىّ فقمت مبادراً   وإني إلى أمثال تلك لسابقُ
فلمــا استمر الجِدُّ ساقوا حمولهم   إلى حيث لم يبلغه حادٍ وسائق(١)

(١) ساقوا حمولهم : كناية عن تخاذلهم .

فـلا رحم الله امرأ باع دينه ... بدنيا سواه ، وهو للحق رافق
على أنني حذرتهم غِبَّ أمرهم ... وأنذرتهم لو كان يفقه مائق[1]
وقلت لهم كفوا عن الشر تغنموا ... فللشر يوم – لا محالة – ماحق
فظنوا بقولي غير ما في يقينه ... على أنني في كل ماقلت صادق
فتبّاً لهم من معشر ليس فيهم ... رشيدٌ ولا منهم خليـل يُصادق
ظننت بهم خيراً فأبْتُ بحسرة ... لها شجن بين الجوانح لاصق
فياليتني أصبحت في رأس شاهق ... ولم أر ما آلت إليه الوثائق
هم عرّضوني للقنا ، ثم أعرضوا ... سراعاً، ولم يطرق من الشر طارق
وقد أقسموا ألا يزولوا فما بدا ... سنا الفجر ، إلا والنساء طوالق

ثم يصف فزعهم وفرارهم من المعركة بقوله :

مَضَوْا غير معذورين لا النقع ساطع ... ولا البيض في أيدي الكُماة دوالق[2]
ولكن دعتهم نبـــأة ، فتفرقوا ... كما انقض في سرب من الطير باشق[3]
فكم آبق تلقاه من غير طارد ... وكم واقف تلقـاه والعقل آبق
إذا أبصروا شخصاً يقولون : جحفلٌ ... وجبنُ الفتى سيف لعينيه بارق
أسودٌ لدى الأبيات بين نسائهم ... ولكنهم عند الهياج نقانق[4]
إذا المرءُ لم ينهض بقائم سيفه ... فياليت شعري، كيف تحمى الحقائق؟

---

(١) مائق : أحمق.
(٢) دلق السيف : أخرجه من غمده .
(٣) النبأة : الصوت ويريد الخبر الكاذب ، والباشق : من الطيور الجارحة .
(٤) ج نقنق (بكسر فسكون) وهو الظليم ، ذكر النعام ويضرب به المثل في الجبن .

وقد اتهم البارودي بأنه يطمع في الملك ، وأنه يحاول ثل العرش وخلع توفيق فقال منكراً هذه التهمة ، معللاً ثورته بعد أن نفي إلى (سرنديب)

يقول أناسٌ إنني ثُرْت خالعاً … وتلك هَنَاتٌ لم تكن من خلائقي
ولكنني ناديت بالعدل طالباً … رضا الله ، واستنهضت أهل الحقائق
أمرت بمعروف وأنكرت منكراً … وذلك حكم في رقاب الخلائق
فإن كان عصياناً قيامي فإنني … أردت بعصياني إطاعة خالقي
وهل دعوة الشورى عليَّ غضاضة … وفيها لمن يبغي الهدى كل فارق ؟
بلى ! إنها فرض من الله واجب … على كل حي من مسوق وسائق
وكيف يكون المرء حراً مهذباً … ويرضى بما يأتي به كلُّ فاسق ؟!
فإن نافق الأقوام في الدِّين غدْرَةً … فإني بحمد الله غير منافق
على أنني لم آلُ نصحاً لمعشر … أبى غدرُهم أن يقبلوا قول صادق
رأوا أن يسوسوا الناس قهراً فأسرعوا … إلى نقض ما شادته أيدي الوثائق.
فلما استمر الظلم قامت عصابة … من الجند تسمى تحت ظل الخوافق
وشايعهم أهل البلاد فأقبلوا … إليهم سراعاً بين آت ولاحق
يرومون من مولى البلاد نفاذ ما … تألاّه من وعد إلى الناس صادق

وإذا كان البارودي قد أنكر هذه التهمة هنا ونفاها عن نفسه ، ففي شعره ما يثبتها ويدل على أنه كان يطلب من الثوار أن يولوه عليهم حاكماً ، ويمدح نفسه ، ويطري حكمه ، ومن البديهي أنه لم يرد رئاسة الوزارة فقد كان رئيساً للوزارة ، ولكنه يريد ما هو أعلى

منها ، وتراه يذم هؤلاء الذين يقفون في سبيله ويكيدون له :

من كل وغد يكاد الدَّسْت يدفعه   بغضاً ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت   قواعد الملك حتى ظل في خلل
وأصبحت دولة الفسطاط خاضعة   بعد الإباء وكانت زهرة الدوَل

إلى أن يقول :

بئس المشيرُ وبئست مصر من بلد   أضحت مناخاً لأهل الزور والخَطل
أرض تأثل فيها الظلم وانقذفت   صواعق الغدر بين السهل والجبل
وأصبح الناس في عمياء مظلمة   لم يخطُ فيها امرؤ إلا على زلل
أصوَّحت شجرات المجد أم نضبت   غُدْر الحَمِيَّة حتى ليس من رجل؟ !
لا يدفعون يداً عنهم ولو بلغت   مَسٌّ العفافة من جبن ومن خَزَل (١)
فما لكم لا تعاف الضيم أنفسُكم   ولا تزول غواشيكم من الكسل
فبادروا الأمر قبل الفوت وانتزعوا   شكالة الرَّيْث فالدنيا مع العجل
وقلدوا أمركم شهماً أخا ثقة   يكون رِدْءاً لكم في الحادث الجلل
ماضي البصيرة غلاب إذا اشتبهت   مسالك الرأي صاد الباز بالحَجَل
إن قال بَرَّ ، وإن ناداه منتصر   لبى ، وإن همَّ لم يرجع بلا نَفَل
يجلو البديهة باللفظ الوجيز إذا   عز الخطاب وطاشت أسهم الجدل
ولا تلجوا إذا ما الرأي لاح لكم   إن اللجاجة مدعاة إلى الفشل

---

(١) الخزل : من الانخزال وهو الظلوع في المشي من أثر شوكة أو شبهها — مشي فيه تثاقل وتراجع .

هذي نصيحـــة من لا يبتغي بدلاً بكم وهل بعد قوم المرء من بدل ؟

فهذا الشعر السياسي ، وهذه النفس المتوثبة الطـّمُوح ، وهذه الثورة المتأججة التي انتهت بصاحبها إلى النفي والتشريد هي من الجديـــد في معاني البارودي وشعره ، وهي جديـدة حق في الأدب العربي كله ، وإن كان المتنبي قد حاول من قبل مُلكاً وثار على الدنيـا التي مكنت للعبيد والخصيان والعلوج في الأرض يسوسون شعوباً ضعيفـة وجعل يقول :

في كل أرض وطئتها أُمَمٌ تُرْعى بعبـد كأنهـا غنم

فإنه اكتفى بالاشارة والتلميح والزفرة الحارة ، وبملامة الدهر ومحاربته في مطلبه ، ولكن البارودي كان يطلب شيئاً آخر : كان يطلب الحرية لقومه ، والعدل والمساواة ، كان يطلب العيشة الهنية في ظلال الحرية ولا عليه إذا طلب بجانب هذا ملكاً عضوضاً ليحقق لقومـه آمالهم . وهبِ البارودي قلد المتنبي في بعض معانيه ، فهل كان اقتحامه ، نار الثورة تقليداً ؟ أو ليس شعره هذا وليد الحوادث وصدى لها ؟ وهل فترت عزيمته ، ووهنت قوته ، وذلت نفسه وهو يقاسي ألم النفي والتشريد ، ما دام يدب في جسمه شيء من العافية ؟ كلا ! وإذا شئت برهاناً فاستمع لهذه الكلمات التي كان يخشى بأسها على البعد حكامُ مصر كأنها جيش لهام يبدد سعادتهم .

أبى الدهـــر إلا أن يسود وضيعهُ ويملكَ أعنـــاق المطالب وغدُه

تداعت لدركِ الثأر فينا ثُعَالةٌ ونامت على طول الوتـــيرة أسده

فحتّام نسري في دياجير محنة يضيق بها عن صحبة السيف غمده
إذا المرء لم يدفع يدَ الجور إن سطت عليه فلا يأسف إذا ضاع مجده
ومن َذلّ خوف الموت كانت حياته أضرُ عليه من ِحمام يؤُدُّه
وأقتَل داء رؤيةُ العين ظالما يسيء ، ويُتْلى في المحافل حمده
علام يعيش المرء في الدهر خاملا أيفرح في الدنيا بيوم يعدُّه ؟
يرى الضيم يغشاه فيلتذ وقعه كذي جرب يلتذ بالحكّ جلده
عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعش بها بطلاً يحمي الحقيقة شده
من العار أن يرضي الفتى بمذلة وفي السيف ما يكفي لأمر ُيعده
وأني امرؤ لا أستكين لصولة وإن شَدّ ساقي دون مسماي ِقدّه
أبت ليَ حمل الضيم نفسٌ أبية وقلب إذا سيم الأذى شبّ وَقدُه

وربما قيل إن البارودي كان ذا أثرة ، وأنه كان يسعى سعيه لتحقيق أمله ، وأنه لم يكن مخلصاً في دعوته لمحاربة الظلم .. وسواء كان هذا صحيحاً ، أو غير صحيح ، فالذي نلمسه هو أن البارودي كان يتغنى بمصر وأهلها ويظهر محبته لها ، وحرصه على خيرها ونفعها ، بما لم نسمعه قبل من شاعر . إنها الروح القومية الجديدة سرت في شعوب الأرض وجعلتهم يطالبون بالحرية والاستقلال ، ويشيدون بأوطانهم ويتغنون بمآثر قومهم وقد تمثلت هذه الروح في البارودي على غير انتظار وعلى غير سابقة من شعراء وطنه وزمنه . أصغ إلى القطعة التالية ، والمس ما بها من حرارة الصدق والمحبة لتعرف أكان البارودي مخلصاً في دعواه أو مداجياً ؟

فيا مصر ! مدّ الله ظلك وارتوى ثراك بسلسالٍ من النيل دافق

ولا برحت تمتار منك يدُ الصَّبا أريجاً يداوي عَرفه كل ناشق
فأنت حمى قومي، ومشعب أسرتي وملعب أترابي، ومجرى سوابقي
بلاد بها حل الشباب تمائمي وناط نِجادَ المشرفيّ بعاتقي
تركت بها أهلاً كراماً وجيرة لهم جيرة تعتادني كل شارق
هجرت لذيذ العيش بعد فراقهم وودعت ريعان الشباب الغُرانق

إننا لا نستطيع أن نحكم على البارودي وشعره ينطق بوطنيته، بأنه منافق خداع؛ إنه كان يحب وطنه، وفي سبيله شرد ونفي.

ومن عجائب ما لاقيت من زمني أني مُنِيتُ بخطب أمره عجب
لم أقترف زَلَّةً تقضي عليّ بما أصبحت فيه، فماذا الويل والحَرَب؟
فهل دفاعي عن ديني وعن وطني ذنب أدان به ظلماً واغترب؟!

لقد كان يحب مصر حباً ملك عليه شغاف قلبه، وهو القائل فيها:

بلد نشأت مع النبات بأرضها ولثمتُ ثَغر غديره المتبسم
فنسيمها روحي ومعدن تربها جسمي وكوثرُ نيلها مَحْيا دمي
فإذا نطقتُ فبالثناء على الذي أولته من فضلٍ عليّ وأنعم
هي جنة الحسن التي زهراتها حورُ المَها، وهَزارُ أيكتها فمي
ما إن خلعتُ بها سيور تمائمي حتى لبستُ بها حمائل مِخذَمي

إن هذه النغمة الوطنية جديدة – كما ذكرنا – في الشعر العربي، وحسب البارودي فخراً أنه من أوائل من تغنى بأمجاد وطنه في العصر الحديث

ولقد كاد يقضي أسى وهو يغادر مصر إلى منفاه ، وزفر زفرة ملتهبة ينفس بها عن جواه :

ولما وقفنـــا للوداع وأسْبلت مدامعنـــا فوق الترائب كالمُزن
أهبت بصبري أن يعود فبزّني وناديت حلمي أن يثوب فـلم يُغن
فـكم مهجة من زفرة الشوق في لظـّى وكم مقلة من غزرة الدمع في دَجنْ
وما كنت جربت النوى قبل هذه فلما دهتني كدت أقضي من الحزن

ولكنه سرعان ما يثوب إلى رشده ، ويكفكف من دمعه ، ويجلد أمام خصومه ويظهر سمات الرضا ، وأنه يؤثر أن يبرح ارضاً يُغَشّيها الظلم ، وتصك أنـّات الجور مسمعيه ، ويؤذي رؤية وجه الغدر ناظريه :

فيا قلب صبراً إن جزعت فربمـــا جرت سُنُحاً طير الحوادث باليمن
فقد تورق الأغصان بعد ذبولهـــا ويبدو ضياء البـدر في ظلمة الوهن
وكيف مقامي بين أرض أرى بها من الظلم ما أخنى على الدار والسّكن(١)
فسمع أنين الجور قـد شاك مسمعي ورؤية وجه الغدر حلّ عُرى جَفْني

ولقد زاده النفي حباً في وطنه وتعلقاً به ، وترديداً لمحاسنه ، فهو يتمثله على البعد جنة دانية القطوف عبقة الشذى ، فمن ذلك قوله وهو بالمنفى يتشوق إلى أيام لهوه التي حُرمها ، وإلى الأرض الطيبة التي أبعد عنها ، ويصف جزيرة سرنديب وصفاً جميـلاً ، وفيه تصوير دقيق ، يدل على حسٍ مرهف ، وذوق فنان عبقري .

---

(١) السكن : السكان .

لبَّيْك يا داعيَ الأشواق من داعي أسمَعْتَ قلبي وإن اخطأتَ أسماعي
مُرني بما شئتَ ابلُغْ كلَّ ما وصلت يدي إليه فـإني سامع واعي
إني أمرؤ لا يَرُدُّ العَذْلُ بادرتي ولا تَفُلُّ شَباةُ الخطْب إزماعي[1]
أجري على شيمةٍ في الحب صادقة ليست تَهُمُّ إذا ريعتْ بإقلاعِ[2]
للحب من مُهْجتي كهف يلوذ به من عذر كلِّ أمرىء بالشر وقاع
يا حبذا جَرْعة من ماء مَحْنِيةٍ وضجعة فوق بَرْد الرمْل بالقاع
ونسمة كشميم الخلد قد حملت ريَّا الأزاهير من مِيثٍ وأجْراع[3]
يا هَلْ أراني بذاك الحي مجتمعاً بأهل وُديَ من قومي وأشياعي
وهل أسوقُ جوادي للطراد إلى صيد الجآذر في خضراء مِمْراع
منازلٌ كنتُ منها في بُلَهْنِيَة مُمتَّعاً بين غلماني وأتباعي
فاليوم أصبحتُ لا سهمي بذي صَرَدٍ إذا رميتُ، ولا سيفي بقطَّاعِ[4]
أبيتُ في قُنَّةٍ قَنْواء قد بلغت هام السِّماك وفاتته بأبواع[5]
يستقبلُ المزنُ لِيتَيْها بوابله وتصدم الريح جَنْبَيها بزَعْزاع[6].

---

(٢) البادرة : ما يبدر من الإنسان عند حدة غضبه . والمراد بالبادرة هنا شدة العزم وقوة الإرادة ، والإزماع : العزم .

(٢) ريعت : أخفت والإقلاع : الترك والكف .

(٣) الميث : ج . ميثاء وهي الأرض السهلة اللينة من غير رمل ، والأجراع . جمع جرع (كجبل) وهو الأرض الرملية السهلة .

(٤) صرد : مصدر صرد السهم اي أصاب ونفذ .

(٥) قنواء : عالية مرتفعة ، الأبواع : جمع باع .

(٦) الليتان : صفحتا العنق مثنى . زعزاع : شديدة تزعزع الأشياء .

يظل شِمْراخُها يَبْساً وأسفلها ، مُكلَّلا بالندى يَرْعى به الراعي
إذا البروق أزمهرّت خلت ذروتها شهما تَدرَّع من تِبْرٍ بأدْرَاع
تكاد تلمس منها الشمسَ دانيةً وتحبسُ البدْرَ عن سيْرٍ وإقلاع
أَظلُّ فيها غريب الدار مبتئساً نابي المضاجع من هَمٍّ وأوجاع
لا في (سرنديب) خلٌ أستعين به على الهموم إذا هاجت ولا راعي
يظنني من يراني ضاحكاً جَذِلاً أني خليٌّ وهمي بين أضلاعي
ولا وربّك ما وجدى بمنْدَرس على البعاد ولا صبري بمطواع
لكنني مالكٌ حزمي ، ومنتظرٌ أمْراً من الله يشفي بَرْحَ أوجاعي
أكف غَرْبَ دموعي وهي جاريةٌ خوفَ الرقيب وقلبي جدُّ ملتَاع
فإن يكن ساءني دَهري ، وغادرني رَهْنَ الأسى بين جَدْبٍ بعد إمراع
فإن في مصر إخواناً يسرهم قربي ، ويعجبهم نظمي وإبداعي

ويقول من قصيدة أخرى وهو في المنفى يتشوق إلى مصر :

يا (روضة النيل) لا مَسَّتْكِ بائقةٌ ولا عَدَتْكِ سماءٌ ذات أغداق (١)
ولا بَرِحتِ من الأوراق في حُلَلٍ من سُنْدسٍ عبقري الوشي بَرّاق
يا حبّذا نَسَمٌ من جوها عبِقٌ يسري على جدول بالماء دفاق
بل حبّذا دَوْحَةٌ تدعو الهديل بها عند الصباح قُماريٌ بأطواق
مرعى جيادي، ومأوى جيرتي، وحمى قومي ، ومنْبِتُ آدابي وأعراقي

---

(١) البائقة : الداهية ، لا عدتك : لا تجاوزتك والمراد بالسماء السحب والأمطار .

أصبو إليها على بعد ، ويعجبني	أني أعيشُ بها في ثوب إملاق

(ح) النسيب :

وقد مر بنا أن البارودي قد قلد القدماء في الوقوف على الأطلال والدمن ، وفي الأوصاف الموروثة ، وفي الوصف المادي للمرأة والنظرة إليها نظرة السلعة ولكنه مع هذا قد تحلل أحياناً من كل تلك القوالب القديمة ، وترفع في نظرته إلى المرأة ، فحسبه منها نظرة :

إني لأقنع من هواك بنظرة	وأعـدّها صِلـَة إذا لم تمنعي
هذي مناي وحبذا لو نلتُها	عن طيب نفس فهي أكبر مقنع[1]

وهو يتمدح بعفته في حبه ويبين مذهبه في الوداد بقوله :

أني امرؤ ملك الوداد قيادتي	وجرى على صدق العهود وفائي
لا أستريح إلى السلو ، ولو جنى	خِلـّي عليّ ، ولا أشين ولائي
لا ذمتي رهن الفكاك ولا يدي	تلقي أزمة عفتي وحيائي

---

(١) المعنى قديم طرقه من قبل جميل في قوله :

وإني لأرضى من بثينة بالذي	لو أبصره الواشي لقرت بلابله
بلا ، وبألا أستطيع وبالمنى	وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالعام ينقضي	أواخره لا نلتقي وأوائله

ولكن البارودي كان في عصر مادي لا يفطن إلى هذا ، وقد سبقه آلاف الشعراء منذ جميل لم يقنعوا قناعته ،

ويقول :

على أنني لم آت في الحب زلة تغض بذكري في المحافل أو تزري
ولكنني طوفت في عالم الصِّبا وعدت ولم تعلق بفاضحة أزري

ويقول :

والعشق مكرمة إذا عف الفتى عما يهيم به الغَوِيُّ الأصوَرُ(١)
يقوى به قلب الجبان ويرعوي طمع الحريص ، ويخضع المتكبر

وقد فطن أحياناً إلى أن المرأة بها من أنواع الجمال غير هذه السمات المادية فقال :

فتـــاة يحار الطرف في قسماتها لها منظر من رائد العين لا يخـلو
لطيفة مجرى الروح لو أنها مشت على ساريات الذر ما آدَه الحمـل

وله في الغزل معان مبتكرة من مثل قوله :

تركتني من غمرات الهوى في لُججٍ بحر بالردى زاخر
أسمع في قلبي دبيب المنى وألمح الشبهة في خاطري

وقد وفق البارودي في البيت الثاني أيمـا توفيق ، على أن معظم نسيب البارودي بالشعر القديم ، وقد وفيناه نعتاً فيما سبق :

(ى) الهجاء :

والهجاء نوعان : شخصي وهو ما درج عليه معظم شعراء العربية ،

(١) الأصور : المنحرف عن الهدى والرشاد ، من الصور وهو الميل .

واجتماعي ، ويراد به ذلك الهجاء التهكمي الذي يقصد إلى تجسيم عيب من عيوب المجتمع وتصويره في أبشع صورة رغبة في الإصلاح ، وقد يتمثل هذا العيب الاجتماعي في شخص من الأشخاص فيهجوه الشاعر ويُبرز ذلك العيب فيه بشكل يسترعي انتباه القارىء أو السامع ، وليس الشخص مقصوداً لذاته في مثل هذا النوع من الهجاء ، وإنما المقصود هو هذه السوءة الاجتماعية . ولن يبلغ الشاعر مرتبة الشعراء العالميين في الهجاء ما لم يصل بهجوه إلى هذا النوع الاجتماعي ، وقد لجأ شعراء الغرب إلى التمثيل يصورون فيه هذه المثالب الإنسانية العامة ، ويجسمون العيوب تجسيماً يحمل الشعب على الاشمئزاز منها والبعد عنها كما فعل شكسبير في رواياته الكثيرة وكما فعل موليير في هزلياته .

وقد وُجد في شعر البارودي نوعا الهجاء : الشخصي والاجتماعي، وأكثر من النوع الاجتماعي على غير عادة شعراء العربية فهو يشكو الناس ونفاقهم وظلمهم وغدرهم ، ويصور قومه ويعدد عيوبهم ، ويحرضهم على إصلاح تلك العيوب ، وقد مرت بنا نماذج من النوعين. فقصيدته التي يدعو فيها لنفسه ويعدد محاسنه ، وينعي على مواطنيه صفاتهم وخمولهم والتي يقول فيها :

بئس العشير وبئست مصر من بلد   أضحت مناخاً لأهل الزور والخطَل

أرض تأثّل فيها الظلم وانقذفت   صواعق الغدر بين السّهل والجبل

من نوع الهجاء الاجتماعي . والمقطوعة التي يذم فيها النّهِم الجشع من الهجاء الشخصي وإن لم يُظهر فيها أمراً شخصياً أو عداوة خاصة حفزته على هجائه وإنما ذمه بعيب عام وهو الجشع والنهم .

ومن النوع الاجتماعي قوله يذم زمانه وينعي على معاصريه تلونهم وعدم وفائهم في صداقتهم ، ولا سيما وقد خذلوه وآذوه :

أنا في زمان غادر ومعاشر يتلوّنون تلون الحرباء
أعداء غيب ليس يسلم صاحب منهم وإخوةُ محضر ورخاء
أقبحْ بهم قوماً بَلوتُ إخاءهم فبلوت أقبح ذمـة وإخاء
قد أصبحوا للدهر سُبّة نائم في كل مصدر محنـة وبلاء
وأشد ما يلقى الفتى في دهره فقدُ الكرام وصحبة اللؤماء
شقيَ ابن آدم في الزمان بعقله إن الفضيلة آفـة العقلاء

فهو هنا لا يذم شخصاً بعينه لعداوة خاصة بينه وبينه ، وإنما يذم عيباً اجتماعياً متفشياً ، ولو تناول هذا العيب شاعر غربي لأظهر لنا شخصية المنـــافق في مسرحية شائقة ولأوسعه سخرية وتهكماً . ولكن البارودي أوجز في وصفه على عادة العرب ؛ على أن له قطعاً تصويرية جميلة في هذا النوع الاجتماعي ، اسمعه مثلاً يصور جارة تكثر من الصخب والضوضاء ، ولها أولاد يتشاجرون كثيراً ، ويملأون الجو صراخاً وعويلاً ، لا تراعي هذه الجارة حرمة الجيران ، ولا تعبأ براحة سواها . ومن العجيب أن هـــذا العيب لا يزال منتشراً في كثير من بلدان الشرق بدعوى الحرية الكاذبة ، فترى الجار يقلق راحة جاره بشتى الوسائل . فتارة بالمذياع ؛ وأخرى بمكبر الصوت أو بالمشاجرة مع أهله وأولاده .. إلى آخر مـــا هنالك من أنواع المضايقات . والبارودي أديب ومفكر ، وقد ابتلاه الله بجارة مقلقة للراحة تبدد ضوضاؤها وجلبتها أفكاره وخيالاته فلا بدْع إذا سخط عليها وبرم بها :

إلى الله أشكو طول ليلي وجارةً تبيت إلى وقت الصباح بإعوال
لهـا صبية لا بارك الله فيهم قِبَاحُ النواصي لا يَنمْن على حال

صوارخ لا يهدأن إلا مع الضحى		من الشرفي بيت من الخير ممحال
ترى بينهم – يا فرق الله بينهم –		لهيب صُياح يصعد الفلك العالي
كأنهمُ مما تنازعن أكلب		طُرقن على حين المساء بِرِئبال
فهجن جميعاً هيجة فزعت لها		كلاب القرى ما بين سهل وأجبال
فلم يبق من كلب عقور وكلبة		من الحي إلا جاء بالعم والخال
وفُزعت الأنعام والخيل فانبرت		تجاوب بعضاً في رُغاء وَتصهال
فقامت رجال الحي تحسب أنها		أصيبت بجيش ذي غوارب ذيّال
فمن حاملٍ رمحاً ومن قابض عصاً		ومن فزِع يتلو الكتاب بإهلال
ومن صبية ريعت لذاك ونسوة		هوائم دون الباب يهتفن بالوالي
فيا رب هب لي من لدنك تصبراً		على ما أقاسيه وخذهم بزلزال

ومن هجائه الشخصي الذي ينهش فيه العرض، ويذم الشخص بصفات خاصة فيه حق تؤذيه قوله ، وهو من أخف أهاجيه :

هجوته لا بالفا لؤمه		لكنني كفكفت من غَرْبه
فإن أكن قد نلت من عرضه		فإنني دنست شعري به
فلا يلومن سوى نفسه		من سلط الناس على ثَلْبه

وقوله :

وقد تكوّن من لؤم ومن دنس		فما يغار على عرض ولا حسب
يلتذ بالطعن فيه والهجاء كما		يلتذ بالحك والتظفير ذو الجرب

ولقد كان مولعاً بهجاء رياض (باشا) ؛ إذ كان يرى فيه معولاً هداماً للحركة الوطنية ، وعدواً للشعب ، ونصيراً للاستبداد والظلم ، ولم يغفر له البارودي وشايته به لدى توفيق حين رأى ميوله الشعبية فأخرجه من الوزارة ولم يعد إليها إلا بعد أن ترضّاه توفيق . ومن أهاجيه المقذعة في رياض قوله :

إن مُلكاً فيه رياض وزير ... لمباحٌ للخائنين وبِلٌّ[1]

أهوجٌ أحمق شتيم لئيم ... أغتم أبله زنيم عُتُلُّ

صَغُرت رأسه وأفرط في الطو ... ل شَواه وعنقه فهو صَعل

أبرزت قدرة الطبيعة فيه ... شكل لؤم إن كان للؤم شكل

كن كما شئت يا رياض وما شا ... ءت رجال فأنت للؤم أهل

ليس تغني الألقاب عن كرم الأصـ ... ـل فمجد الفتى عفاف وعقل

أنت من عنصر لو أتكأ الذرّ ... م عليه لآده منه حَمْل

نازعتك اليهود واختلفت فيـ ... ـك النصارى فأنت لا شك بغل[2]

وقد هجاه البارودي بقصيدة أخرى مطلعها :

مالي بودّي بعد اليوم إلمـام ... فاذهب فأنت لئيم العهد نمام

---

(١) بل : مباح ، يقال حل وبل .

(٢) هناك من يدعي أن رياضاً من أصل يهودي راجع كتاب الثورة العرابية للرافعي ص ٣٧ ، ٣٨ ، وراجع كذلك Young : Egypt, P. 104

على أن البارودي لم يكن هجاء، وأهاجيه الشخصية قليلة إذا قيست بشعره كله . ولكن سخطه على الناس وتبرمه بأخلاقهم وعيوبهم كثير نوعاً ما ، وهو يدل على النزعة الإصلاحية عنده ويدل على أنه قد أوذي ، ولقي من قومه محناً كثيرة ، وأنه كان يضيق بأخلاقهم درعاً . فهذا الهجاء الاجتماعي جديد في شعر البارودي . إنه صور به عصره وناسه تصويراً ملوناً بشعوره الخاص . وحسبنا من الشاعر أن يصور ما يختلج في صدره من عواطف وأحاسيس وأن ينقل إلينا مشاعره الخاصة، لا أن يستتر وراء سُدُف كثيفة مصطنعة من المجاملات والنفاق الاجتماعي ، والمدح الكاذب .

حفَلَ القرن التاسع عشر بكثير من المخترعات الحديثة التي ذللت الطبيعة وأرضختها لخدمة الإنسان وجعلت أمور الحياة هينة أمامه . وقد أخذت مصر بنصيب من هذه المخترعات فانتشر فيها مثلاً استخدام الكهرباء وآلة التصوير ، وعرفت في أواخر أيام البارودي الطائرات . وما شاكل ذلك. وكان البارودي حريصاً على أن يستمد تشبيهاته من هذه المخترعات الحديثة رغبة في الطرافة ، وتمثيل عصره ، فيقول مثلاً :

تعرض لي يوماً فصورت حسنه   ببلورَتي عيـنَي في صفحة القلب

ويقول :

فالعقل كالمنظار يبصر ما نأى   عنه بعيداً دون لمس باليد

ويقول :

فسرت بجسمي كهرباءة حسنه   فمن العروق بـه سلوك تخبر

ويقول :

شفت زجاجة فكري فارتسمت بها عليك من منطقي في لوح تصوير [1]

ويقول :

جسم برته يد الضنى حتى غـــدا قفصا به للقلب طـــير يصفر
لولا التنفس لاعتلت بي زفرة فيخالني طيـارة من يبصر

وقد يبدو على بعض هذه الأبيات شيء من التكلف، ولكن البارودي ما كان ليستطيع أن يبتعد عن استخدام هذه المخترعات في شعره، وهو الولوع بالتجديد في الشعر ، الحريص على أن يمثل زمانه تمام التمثيل .

(٥) نظرة عامة :

رأيت مما سبق أن البارودي حاول أن يجدد في الشعر العربي من حيث الموضوعات التي تناولهـــا ، ولا سيما في الوصف ، وفي الشعر السياسي ؛ ورأيت أن الوصف قد تناول نواحي عدة : من وصف للطبيعة ، والأشخاص ، وميادين القتال ، والأشياء ، وأن وصف البارودي كان في الغـالب وصفاً حسياً يقف عند التصوير المشوب بشيء من العاطفة دون أن يتعمق فيه ، ويحلل ويوازن ويتخيل ، وأن موصوفاته كانت كذلك من المشاهـــدات غالباً ، ولم يحـاول وصف الأمور المعنوية والنفسية إلا قليلاً ؛ ومـع ذلك فالبارودي بإفراده قصائد خاصة بالوصف وبمحاكاته الطبيعة في شعره ، وإتيانه بالأدب الواقعي المجرد عن العواطف والأخيلة إلا بالقليل، قد فتح فتحاً عظيماً في الشعر العربي ونفض عنه غبار السنين الطويلة ، وعرض

---

(١) ارتسمت : يريد رسمت غير موجودة بالمعاجم .

القديم عرضاً جديداً جذاباً ، ومهد الطريق لمن أتى بعده من الشعراء . ناهيك بأسلوبه الفخم الجزل، وببعده عن الزخارف والحلى التي تطغي على المعنى وتذهب ببهاء الشعر ، وتدعو إلى التكلف والتعسف .

ومن أهم مزايا البارودي أنه كان بعيداً عن التكلف ، بل كان ينطلق على سجيته ، ويظهر كل ما في نفسه ، ويصور مشاعره السارة والحزينة دون إخفاء أي شيء منها ؛ وقد يغلبه التقليد للقديم أحياناً فيخالف طبعه ، ويسير على غير سجيته ، ويتكلف القول محاكياً القدماء ، وتلمس أثر هذا التكلف واضحاً ليس عليه طابع البارودي ولا شخصيته ، وقد مر بنا عند الكلام على القديم في شعره نماذج من هذا الطراز .

وهناك أغراض تقليدية قال فيها الشعراء منذ عصر امرىء القيس ، وقال فيها البارودي كذلك مثل : الرثاء والمدح والحكمة وما شاكل هذا . ولا نستطيع أن نختم الكلام على البارودي قبل أن نرى موقفه من هذه الأغراض .

الرثاء

ولم يرث البارودي إلا صديقاً أو قريباً ، فلم يكن رثاؤه مفتعلاً أو من شعر المناسبات وإنما كان منبعثاً عن عاطفة صادقة ، وقد تمثل في رثائه كل ما يخطر ببال الراثي ، من تفجع وشكوى من الزمن والحياة وسخط عليها وإظهار المحاسن المرثي ، وبعض الحكم يتأسى بها الشاعر أو يعظ بها غيره ، ويقدم العزاء أحياناً لأهل الميت . وإن لم يحاول الوقوف على سر الحياة الأخرى ، وأن يستشف ما بعد الموت كما كان يفعل شوقي . وقد يأتي البارودي ببعض المعاني القديمة في قصائد الرثاء كأن يدعو الله

أن ينزل الغيث على جدث الميت وما شابه هـــذا من الصيغ التقليـدية المعروفة . وهو يظهر الجزع والحزن الشديد دون مبالغة جارفة في النعوت التي يضفيها على الميت . وجزعه وحزنه يدلان على عاطفة مشبوبة وقلب وفي ، ولا سيما وقد قال معظم مراثيه وهو في المنفى فزاد في أساه لوعة النوى عن الوطن ، وحرمانه التزود من الميت بنظرة أو حديث ، ودعاه هذا إلى توجيه الخطاب للشامتين به في نكبته ومحنته وأن يظهر لهم التجلّد في أخريات قصائده وأنه لا زال صلب العود ولا سيما إذا كان الميت من ذوي قرابته .

ومن أحسن مراثيه قوله في ولده علي:

كيف طوتك المنون يا ولدي ؟ وكيف أودعتـك الثرى بيدي
واكبدي ، يا عليُّ بعدك لو كانت تبل الغليل واكبدي !!
فقدك َسل العظـــام مني ور م دَّ الصبر عني وفت في عضدي
كم ليلة فيك لا صباحَ لهـــا سهرتها باكيـاً بلا مدد
دمع وسهد ، وأي ناظرة تبقى على المدمعين والسَّهد ؟!
لهفي على لمحة النجابة لو دامت إلى أن تفوز بالسدد
ما كنت أدري ، إذ كنت أخشى عليـ ـك العين أن الحمام بالرصد
فاجأني الدهر فيك من حيث لا أعلم ختلا والدهر كالأسد
لولا اتقاء الحياة لاعتضت بال حلم ُهياماً يحيق بالجلد
لكن أبت نفسيَ الكريمة أن أ ُثلم حد العزاء بالكمد

فلْيبكِ قلبي عليك ، فالعين لا تبلغ بالدمع رتبة الخَلد (١)
إن يك أخنى الردى عليك ، فقد أخنى ألـــيم الضنى على جسدي
عليــك مني السلام توديــع لا قال ، ولكن توديــع مضطهد

ومن رثائه الذي ينمّ عن عاطفة صادقة، ويظهر فيه الأسى واللوعة، وعظيم التفجع من غير مواربة أو تحفظ رثاؤه لزوجته،وقد ورد إليه نعيها بسرنديب، وعلى الرغم من أن رثاء الشعراء لزوجاتهم قليل في الأدب العربي ، فإن قصيدة البارودي هذه تعد من عيون قصائد الرثاء ، وهي تدل على الوفاء والمحبة وعلى فرط حساسيته ويقول في مطلعها :

أَيدَ المَنون قدَحت أيَّ زِنادِ وأَطرت أيَّةَ شعــلة بفؤادي

ومنها :

لا لوعتي تدعُ الفؤاد ولا يَدي تقوى على ردّ الحبيب الغادي
يا دهرُ فيمَ فجعتني بحليـــلة كانت خُلاصةَ عُدتي وَعتادي؟
إن كنت لم ترحم ضناي لبعدها أفلا رحمتَ من الأسى أولادي
أفردتهنَّ فلم يَنمْنَ توجعاً قرْحى العيون رواجف الأكباد
يبكين من وَلهٍ فراق حفيّـــةٍ كانت لهن كثيرة الإسعاد
فخدودهن من الدموع نديّةٌ وقلوبهن من الهموم صوادي
أسليلة القمرين ! أي فجيعـــة حلت لفقدك بين هذا النـــادي

(١) الخلد : القلب ، أي أن العين مهما بكت لا يصل حزنها إلى منزلة حزن القلب .

أعززْ عليَّ بأن أراك رهينـةً في جوف أغبرَ قـاتِم الأسداد

أو أن تبيني عن قرارة منزل كنتِ الضيـاءَ له بكل سواد

لو كان هذا الدهرُ يقبلُ فديةً بالنفس عنكِ لكنتُ أول فادي

ثم يذكر وفاءه لها ، ولعله بذلك يسوغ رثاءه لها على الرغم من شهرتـه بالجلد والشجاعة، ولأنه لم تجر العادة بأن يرثي الشعراء زوجاتهم إلا في النادر ؛ ولعـل ظرف البارودي ، وبعده في المنفى عن أهله وأولاده ، ورعاية هـذه الزوجة لهؤلاء الأولاد هو الذي حزَّ في نفسه ، وتذكر أيامـه الطيبة السعيدة في عش الزوجية بوطنه الحبيب ، كما أنه كان يتخيل أن كل كارثة تحل بهم تشمت بـه الأعداء فيزيد ذلك من لوعته ؟ قال :

جَزَعُ الفتى سِمَةُ الوفاء، وصبرُه غدْرٌ يدُلُّ بـه على الأحقاد

ومن البلية أن يُسام أخو الأسى رَعْيَ التجلُّدِ وهو غير جماد

وإذا عددت مراثيه وجدته رثى أصدقـاءه الأدباء الذين كانت بينهم وبينه آصرة محبة ووداد ، وتقدير وتفاهم ، مثل أحمد فارس الشدياق ، وعبدالله فكري ، وحسين المرصفي ووجدته رثى أولاده ، وزوجـه ، ورثى والده وإن كان قـد توفي وهو صبي كما عرفنـا ، ولذلك جاء رثاؤه لوالده خالياً من العاطفة فيه كثير من الفخر ، ليس فيه تفجع الحزين ، ولا حسرات الفراق ، وبه كثير من المبالغات غير المقبولة ، وفيه يقول :

لا فارسَ اليوم يحمي السرح بالوادي طاح الردى بشهاب الحرب والنادي

مات الذي ترهب الأقران صولته ويتقي بأسه الضرغامة العـادي

جف الندى، وانقضى عمر الجَدى وسرى حكم الردى بـــين أرواح وأجساد

المـــدح :

واقتصر في مدحه على ولاة مصر : اسماعيل ، وتوفيق ، وعباس ، وهو في مدحه لا ينسى مصر وموقف الوالي منها ، وما قدم لها أو ما يرجى على يديه من خيرات لمواطنيه ، فيمدح توفيقاً لعزمه على الأخذ بالشورى والعـــدل .

ويستطرد إلى مدح النظام الشوري وأنه من تعاليم الإسلام ، والأمة التي لا تأخذ به مصيرها إلى الانهيار ، والملك الذي لا يتبعه ملك غير عادل ، وملكه سرعان ما يدب إليه الضعف . وهو في مدحه لعباس يذكر عدله وأريحيته ، وما يرجى على يديه من نفع ، وقد مدح عباساً لأنه عفى عنه وأعاده إلى وطنه ، فكان لزاماً عليه حين يمدحه أن يذكر له هذه اليد الكريمة . أما اسماعيل فقد مدحه حين وُليّ على أريكة مصر ، وقـــدم نفسه لإسماعيل وأطراها ، وأظهر استمداده لخدمته وخدمة وطنه . هذا ولم يغفل أن يثني على كل ممدوحيه وينعتهم بكرم الأصل وحب الخير والعـدل وأنهم ذوو هيبة وشمائل كريمة .. الخ هذه الصفات المعروفة والمعاني المطروقة ، وقد مرت بنا بعض أبيات من مدحه لتوفيق وعباس ، وهاك بعض ما قاله في اسماعيل حين ولي أريكة مصر :

طرب الفؤاد وكان غير طروب والمرء رهن بشاشـة وقطوب
ورد البشير ، فقلت من سَرَف المنى أعِدِ الحديث عليّ فهو حسيبي
خَبرٌ جلا صدأ القلوب فلم يدع فيها مجال تحفز لوجيب
فلتهْنَ مصرُ وأهلُها بسلامـة جاءت لها بالأمن بعد خطوب

بالماجد المنسوب ، بل بالأروع الـ مشبوب، بل بالأبلج المعصوب[1]
ربّ العلا والمجد (اسماعيل) من وضحت به الأيام بعد شحوب
ورد البـلاد وليلُها متراكب فأضاءها كالكوكب المشبوب
برويّةٍ تجلو الصواب وعزمـة تمضي مضاء اللهذم المذروب[2]

ويقول فيها :

وأعاد مصر إلى جمال شبابهـا من بعد ما لبست خِمار مشيب
فتنعمت من فيضـه في غبطة وتمتعت من عدله بنصيب

ويقدم نفسه لاسماعيل بقوله :

فاسمع مقالة صـادق لم ينتسب لسواك في أدب ولا تهـذيب
أرليتَه خـيراً ، فقام بشكره والشكر للإحسان خير ضريب
فاعطف عليه تجد سليل كرامة أهلاً لحسن الأهـل والترهيب
ينبيك ظـاهره بود ضمـيره والوجه وسمـة مخلص ومريب
وإليك من َحوْكِ اللسان حبيرةً يغنيك رونقهـا عن التشبيب
حضرية الأنساب إلا أنها بدوية في الطبع والتركيب

(١) المنسوب ذو النسب ، والأروع : من يعجبك بحسنه وجهارة منظره أو بشاعتـه ، والمشبوب : الحسن الوجه . والبلجة (بضم فسكون) : الضوء ، ونقاوة ما بين الحاجبين ، ويقال للرجل الطلق الوجه أبلج ، والمعصوب : المتوج .

(٢) المذروب : المحدد المسنون .

ولم يكن البارودي شاعراً مداحاً متكسباً بشعره كما درج على هذه المادة معظم الشعراء في الأدب العربي ، ولكنه كان أميراً فارساً عفيفاً يقول الشعر للتعبير عن خلجات فؤاده وقد قال :

الشعر زين المرء ما لم يكن   وسيلة للمـــدح والذام

وهو إذا مدح لم يقصد بمدحه العطاء ، وإنما للتعريف بمنزلته ، أو الشكر على يد أسديت إليه ، أو حث على مكرمة . ومديحه خال من المبالغات المذمومة والنعوت الموهومة وهذا طبيعي ما دام لم يقصد بمدحه صلة أو عطية ؛ لأن الشعراء إنما لجأوا إلى هذه المبالغات ظناً منهم أنها تزيد في عطائهم ، وأن نفس الممدوح تسر لها فيغدق عليهم جزيل الهبات .

فخره :

وقد افتخر البارودي كما عرفت بنسبه وحسبه ، وافتخر كذلك بشجاعته وفروسيته . وقد أكثر من القول في هذا المعنى وله فيه مبالغات سخيفة ؛ فمن ذلك قوله يفتخر ببأسه ونجدته وأنه ملك أزمة الفصاحة والبيان ، وأن الزمان لو تقدم به لبذ الشعراء الفحول ولسطر اسمه على جبين التاريخ بالفخر إلى آخر هذه المعاني المعروفة من مثل قوله :

ولي شيمة تأبى الدنايا وعزمة   ترد لهـــام الجيش وهو يمور
إذا سرت فالأرض التي نحن فوقها   مَرادٌ لمهري والمعاقل دور
فلا عجب إن لم يَصرْنيَ منزل   فليس لعقبان الهواء وكور
وأصبحت محسود الجلال كأنني   على كل نفس في الزمان أمير

إذا صُلِّت كف الدهر من غلوائه ... وإن قلت غُصّت بالقلوب صدور

ملكت مقاليد الكلام وحكمة ... لها كوكب فخم الضياء منير

فلو كنت في عصر الكلام الذي انقضى

لباء بفضلي (جِرول) و (جرير)

ولو كنت أدركت النواسيّ لم يقل ... « أجارة بيتينا أبوك غيور »

وما ضرني أني تأخرت عنهم ... وفضليَ بين العالمين شهير

فيا ربما أخلى من السبق أولٌ ... وبذّ الجياد السابقات أخير

ويسود هذا النوع من الفخر شعر البارودي ، ويبين فيه أنه محسود المكانة، وأنه فريد عصره وواحد دهره كما يقول :

فإن أكن عشت فرداً بين آصرتي ... فهأنا اليوم فرد بين أندادي

بلغت من فضل ربي ما غنيت به ... عن كل قار من الأملاك أو باد

فما مددت يدي إلا لمنح يد ... ولا سعت قدمي إلا لإسعاد

الزهــــد :

ولعل قوله في الزهد يرجع إلى تلك الحالات النفسية التي غلبه فيها اليأس على أمره وهو وحيد شريد يعاني غصص الفراق والنفي . وإلا فهـــذه النفس الطّموح التي خاطرت وغـــامرت وتطلعت إلى الملك وتلذذت ونعمت بالحياة كانت بعيدة عن الزهد في الحياة ، ولعلها لم تزهد إلا مرغمة . وعلى كلٍ فما قاله في الزهد قليل مما يدل على أنه أثر لنوبات كانت تعتريه فيتشاءم من الدنيا ويتذكر الموت ، والموت يذكره بالعمل الصالح والإقلاع عن الغواية والجهل ، ويذكره

بمن ماتوا قبله من ملوك وأمراء وأصحاب عروش وضياع ، ذهبوا وذهبت دنياهم الحافلة باللذات ، وعمرت منهم القبور ، ولم يذد عنهم الموتَ ما لُهم ولا جاههم إلى آخر هذه المعاني التي استنفدها من قبلُ أبو العتاهية ، وصالح بن عبد القدوس وأضرابهما من مثل قوله :

كل حـــي سيموت ليس في الدنيا ثبوت
حركات سوف تفـنى ثم يتلوها خفوت
وكلام ليس يحلو بعده إلا السكوت
أيها السادر قـل لي أين ذاك الجبروت ؟
كنت مطبوعاً على النط ق فما هذا الصموت ؟
ليت شعري أهمـود ما أراه أم قنُوت ؟
أين أمـــلاك لهم في كل أفق ملكوت ؟!
زالت التيجــان عنهم وخلت تلك التخوت

ومما يتصل بهذا الموضوع مدحه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقد مدحه بقصيدة طويلة يتوسل فيها بجاهه ويطلب شفاعته، ويرجو الرحمة والمغفرة من الله بسببه ويقول :

هو النبي الذي لولا هدايتــــه لكان أعلم من في الأرض كالهمج
أنا الذي بت من وجدي بروضته أحن شوقاً كطير البانة الهزج
هاجت بذكراه نفسي فاكتست وَلَهاً وأيُّ صب بذكر الشوق لم يَهِج
يا رب بالمصطفى هب لي وإن عظمتْ جرائمي – رحمة تغني عن الحجج

ولا تكلني إلى نفسي فإن يدي   مغلولة ، وصباحي غير منبلج
ما لي سواك وأنت المستعان إذا   ضاق الزحام غداة الموقف الحرج

الحكمة :

وقد أكثر البارودي من قول الحكم ، ومعظمها حكم غير مبتكرة وقع عليها السابقون وصاغها البارودي صياغة جديدة بأسلوبه الجزل الفخم ، وقد وردت له كثير من الأبيات السائرة التي صارت كأنها أمثال كقوله :

ومن تكن العلياء همة نفسه   فكل الذي يلقاه فيها محبب

وقوله :

وقليلا ما يصلح المرءُ للمجد   إذا كان ساقط الأجداد

وقوله :

لعمرك ما في الدهر أطيبُ لذةً   من اللهو في ظل الشبيبة واليسر

وقوله :

إذا ساء صنع المرء ساءت حياته   فما لصروف الدهر يوسعها سبّا

ومن أبيات الحكمة التي اشتهر بها قوله :

والدّهرُ كالبحر لا يَنفكُّ ذا كدر   وإنما صفوه بين الورى لُمَعُ

لو كان للمرء فكر في عواقبه ما شان أخلاقَه حرصٌ ولا طَبَعُ[1]
وكيفَ يُدْرِكُ ما في الغيبِ من حَدَثٍ من لم يزل بغرور العيش ينخدعُ
دهرٌ يَغُرُّ ، وآمالٌ تسرُّ وأعمارٌ تمرُّ ، وأيامٌ لهـا خُدَعُ
يسعى الفتى لأمور قد تضر به وليس يعلم ما يأتي وما يَدَعُ
يأيها السادرُ المزورُّ من صَلَفٍ مهلاً فإنك بالأيام منخـدع
دع ما يَريب ، وخذ فيما خُلقت له لعل قلبك بالإيمان ينتفـع
إن الحياة لثوبٌ سوف تخلعـه وكلُّ ثوب إذا ما رثَّ ينخلع

وهي حكم قريبة المعنى مأخوذة من تجارب عادية ليست فيها فلسفة عميقة ، ولا تدل على مذهب في الحياة ومصيرها ومصدرها ، أو على نظرة عامـة شاملة للكون ، وإنما هي نظرات عابرة ليس فيها تحليل دقيق ، ولا سبر لأغوار الحياة والمجتمع ونفسيته ، ولكنها حلوة الصياغة خفيفـــة على الألسنة متقنة السبك .

وبعد فهذه معظم الموضوعات التي تكلم فيها البارودي وقد عقبنا على كل موضوع بكلمة موجزة ، وعرفنا إلى أي حد مشى البارودي في ظل القدماء وإلى أي حد تميزت شخصيته ، وبرزت خصائصه ، وفي شعر البارودي هنـــات .

هنات :

وهذه الهنات قليلة لا تقدح في منزلته ولا تغض من شأنه ، وبعض هذه الهنات

---

(١) الطبـع : الشين والدنس والعيب .

ترجع إلى :

١ – لغويات : فاستعمل البارودي كلمات كثيرة غير موجودة في المعاجم ولا يعين عليها الاشتقاق الصرفي من مثل قوله (همامة نفس) فهذا المصدر بالمعنى الذي يريده أي قوة العزم غير موجودة في المعجمات التي بين أيدينا ، وقد يلتمس له تخريج بعيد ، فيه كثير من التعسف . ومن مثل قوله : (يكفيك منه إذا استحس) يريد أحس ، ومثل قوله :

شفت زجاجة فكري فارتسمت بها عليك من منطقي في لوح تصويري

فارتسمت بمعنى رسمت غير موجودة بالمعجمات ، ومعناها في المعاجم امتثل؛ ومثل قوله :

فكم سملوا عيناً بها تبصر العلا وشلوا يداً كانت بها راية النصر

والفعل شل لازم ، ويتعدى بالهمزة فيقال : أشل الله يد فلان . واستعمله الشاعر هنا متعدياً بنفسه ، وقد يوجد له تخريج بعيد .

ومن مثل قوله :

« تمد يداً نحو السماء خضيبة » وخضيب على وزن فعيل بمعنى مفعول أي مخضوبة ، ويستوي فيه المذكر والمونث إن تبع الموصوف ، ولهذا قالوا : كف خضيب وامرأة خضيب، فاستعمال خضيبة خطأ.

ومثل قوله :

فما أبصرته الخيل حتى تمطرت بفرسانها واستتلعت كيف تخلص

وليس بالمعجمات : استتلعت، وإنما بها تلعت بمعنى مدت أعناقها . وقد يقال إن زيادة الهمزة والسين والتاء للطلب قياسية عند بعض الصرفيين .

٢ – وقد يخطىء البارودي في الأساليب العربية في مثل قوله :

إذا راطنوا بعضاً سمعت لصوتهم هديداً تكاد الأرض منه تميد

والفصيح إذا راطن بعضهم بعضاً .

ولكن هذا قليل في شعره ، لأنه طبع على قول الفصيح لكثرة محفوظه من كلام العرب الخلص .

٣ – ومن المآخذ التي كثيراً ما يُعَثَّر بها البارودي اتهامه بسرقات شعرية تأتي في صورة أبيات أو أنصاف أبيات من مثل قوله :

عليّ طلاب العز من مستقره ولا ذنب لي إن عارضتني المقادر

وهو من قول أبي نواس :

عليّ طلاب العز من مستقره ولا ذنب لي إن حاربتني المطالب

ومثل قوله :

تميل من الدنيا إلى ظل مزنة لها بارق فيه المنية تلمع

فالشطر الثاني مأخوذ من قول أبي العتاهية .

لها عارض فيه المنية تلمع

وقول البارودي :

قد يظفر الفاتك الألوى بحاجته وليس يدركها الهيابة الخلط

مأخوذ من قول الشاعر العباسي :

من راقب الناس لم يظفر بحاجته وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

وقوله :

وما الحلم عند الخطب والمرء عاجز بمستحسن كالحلم والمرء قادر

مأخوذ من قول المتنبي :

كل حلم أتى بغير اقتدار حجة لاجىء إليها اللئام

وهناك أبيات كثيرة تدل على نظرته إلى أشعار القدماء ؛ وقد ذكرنا آنفاً أن البارودي لم يسرق ، ولم يتعمد أخذ هذه الأبيات والسطو عليها ، وإنما كثر محفوظه ، وتأثر به كل التأثر ، ولا سيما إذا كان يعارض قصيدة لشاعر مجيد ، فإنه يجاريه حتى لقد يختلط شعره بشعره وتتعذر التفرقة بينهما ، وذلك لجودة محاكاته وسلامة طبعه . وقد ترِدُ على لسانه كلماتٌ أو أبيات من أشعار القدماء دون أن يدرك ، لأنها من محفوظه وقد عرفنا أنه لم يتعلم قواعد اللغة والصرف وغيرهما وإنما صار يقرأ الشعر ويحفظه حتى مرن لسانه على قوله وتملك أزمة اللغة ، وطُبع على الفصاحة ، وكل هذه الهنات التي ذكرناها مصدرها اعتداده بنفسه واعتماده على ذاكرته وعدم دراسته المنظمة ، ولكنها تافهة لا تغض من

شعره أو تضير منزلته بشيء .

٤ – هذا وللبارودي مبالغات سقيمة من مثل قوله :

وما زاد ماء النيل إلا لأنني　　وقفت به أبكي على الأحباب

ويكرر هذا المعنى في قوله :

وكفكفتُ دمعاً لو أسلْتُ شئونه　　على الأرض ما شكَّ امرؤ أنه البحر

ومن مثل قوله :

إذا تنفستُ فاضت زفرتي شرراً　　كما استنار وراء القدحة اللهب

على أنها تغتفر له فإنها خيالات شاعر .

منزلتـــه :

يدين الشعر العربي الحديث للبارودي بأنه النموذج الحيُّ الذي احتذاه الشعراء من بعده وساروا على نهجه في أسلوبه وأغراضه، وذلك لأنه أتى – كما رأيت – بشعر جزل رائق الديباجة عذب النَّغم في حُقبة ساد فيها شعر الضعف والصنعة وضحالة المعنى وعقم الخيال ، ثم إنه مثل عصره أتم تمثيل وكان صدى لحوادث بيئته فكان قدوة لمن جاء على أثره في التجديد .

أضف إلى ذلك أنه علمّهم كيف يتجهون إلى الأدب العربي في أزهى عصوره ويغترفون من ذخـــائره بحيث لا تفنى شخصياتهم ، فيقوى أسلوبهم وتشرق ديباجتهم ويبعدون عن الحلى المتكلفة . وبذلك سار الشعر من بعده إلى الأمام

ولم يرجع أبداً إلى عصور الضعف والركاكة .

وممن تتلمذ على البارودي واقتفى أثره عدد كبير من شعراء العربية اتخذوه إمامهم غير مدافع: كشوقي وحافظ والرافعي وصبري وعبد المطلب والجارم والكاظمي والرصافي وأحمد محرم والكاشف ونسيم الزين وغيرهم ، على تباين بينهم في حظ كل منهم من التجديد والتأثر بثقافة الغرب ومذاهبه الأدبية .

وعلى الرغم من قيام مدرسة مجددة نشيطة يتزعمها مطران وشكري والمازني والعقاد وأبو شادي ، فلا زال كثيرون في البلاد العربية بعامة ، وفي مصر بخاصة ، يحنون إلى ديباجة البارودي وموسيقى مدرسته مع الأخذ بطرف من الجديد في المعاني والأخيلة والصور .

وحسب البارودي فخراً أنه أحيا الشعر بعد مواته على غير مثال سبق من معاصريه .

ونقول مع هيكل : إنه كان مجدداً في كل بيت من أبياته حتى في معارضاته للقدماء والنهج على منهجهم .

هذا وقد حاول البارودي التجديد في الأوزان فنظم قصيدة من تسعة عشر بيتاً على وزن جديد هو مجزوء المتدارك ، ولم يسبق للعرب أن نظموا منه ، وإنما ورد المتدارك عندهم كاملاً أو مشطوراً ، تلك هي القصيدة التي يقول في أولها :

املأ القـدحْ واعص مَنْ نصح

وارو ُغلّــق بابنـــة الفرح
فالفـــق مـق ذاقهـــا انشرح

وقد نظم شوقي من هذا الوزن الذي اخترعه البارودي قصيدته التي مطلعها :

مـال واحتجب وادّعى الغضب
ليت هــاجري يشرح السبب

الفصل الخامس

نهضة النـــثر

عرفت فيما سبق كيف ان الصحافة في عصر اسماعيل نهضت بلغـة الكتابة ، وحررت النثر من السجع المتكلف ، والإمعان في طلب المحسنات البديعة ، وانها تناولت موضوعات شتى مما يمس الحياة العامة ومشكلات الشعوب ، بيد أن نظرتنا ثمة كانت عابرة ، لم تقف طويلاً لتتعرف على خصائص هذا النثر ومميزاتـــه الفنية ، والموضوعات المتباينـــة العديدة التي خاض غمارها ، والعوامل الكثيرة التي تضافرت على النهوض به ، والتي اتخذت من الصحافة منبراً يذيع على الناس فكراً جديداً .

ورأيت أن المدرسة الديوانية التي مثلها عبد الله فكري لم تتنـــاول السياسة والاجتماع والإصلاح ، وأن موضوعاتها لم تتعد الأمور الشخصية أو الأدبية البحتة كرسائل التعزية والتهنئة والاعتذار والرجـاء ، أو وصف منظر جميل أو آنية أنيقة الصنع ... وما شاكل ذلك مما يكون مبعثه الشعور الشخصي .

ولقد شهدت آخريات عهد اسماعيل ، وعهد توفيق لوناً جديداً من النثر ، وأدباً ينبض بالحياة وبالحرارة رأينا نتفاً منه قبل[1] وآن لنا أن نخصه بنظرة واسعة .

(أ) موضوعاته :

أما موضوعات هذا النثر فكانت واسعة الأفق ، وتناولت مشكلات الحياة وما يهم الشعوب وما يبعث على اليقظة والنهضة ممثلة في :

١ – الدفاع عن الشعوب المظلومة التي ظلت تئن تحت سير العبودية والعسف قروناً مديدة ، لا تعرف كيف تراجع الحاكم في حكم أبرمه ولو كان ظالماً ، ولا كيف تثور وتشكو وتئن وتتوجع وتُسْمع شكاتها للعالم ، والحاكم سادر في غلوائه ، يمتص دماءها ، ويسخرها لأهوائه وشهواته ؛ ولا يفكر في نفعها إلا بمقدار ما يعود عليه هو من الفائدة.. استمع للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده كيف يصور لك حال مصر قبل أن يشيع هذا الأدب الجديد والفكر الجريء في أرجائها .

« إن أهالي مصر قبل سنة ١٢٩٣ هـ كانوا يرون شئونهم العامة بل والخاصة ملكاً لحاكمهم الأعلى ، ومن يستنيبه عنه في تدبير أمورهم ، يتصرف فيها حسب إرادته ، ويعتقدون أن سعادتهم وشقاءهم موكولان إلى أمانته وعدله أو خيانته وظلمه ، ولا يرى أحد منهم لنفسه رأياً يحق له أن يبديه في إدارة بلاده . أو إرادة يتقدم بها إلى عمل من الأعمال يرى فيه صلاحاً لأمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى

(١) راجع ما كتبناه عن الشدياق وأديب إسحق فيما تقدم .

أنهم مصرفون من الأعمال يرى فيه صلاحاً لأمته ، ولا يعلمون من علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مصرفون فيما تكلفهم الحكومة به وتضربه عليهم . وكانوا في غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى سواء كانت إسلامية أو أوروبية — ومع كثرة من ذهب منهم إلى أوربا وتعلم فيها من عهد محمد علي الكبير إلى ذلك التاريخ ، وذهاب العدد الكثير منهم إلى ما جاورهم من البلاد الإسلامية أيام محمد علي باشا الكبير وإبراهيم باشا لم يشعر الأهالي بشيء من ثمرات تلك الأسفار ، ولا فوائد تلك المعارف . ومع أن اسماعيل باشا أبدع مجلس الشورى في مصر سنة ١٢٨٣، وكان من حقه أن يعلم الأهالي أن لهم شأناً في مصالح بلادهم ، وأن لهم رأياً يرجع إليه فيها ، لم يحس أحد منهم ولا من أعضاء المجلس أنفسهم بأن لهم ذلك الحق الذي يقتضيه تشكيل هذه الهيئة الشورية، لأن مبدع المجلس قيده في النظام وفي العمل ، ولو حدّث إنساناً فكره السليم بأن هناك وجهة خير غير التي يوجهها إليه الحاكم لما أمكنه ذلك ؛ فإن يجانب كل لفظ نفياً عن الوطن ، أو إزهاقاً للروح ، أو تجريداً من المال » .

وكان الأدب صدىً لهذه الحياة البئيسة التي تقبر فيها الحريات وتغل العقول ، يتغنى بما قام به هذا الحاكم الظالم من أفعال وضيعة ، ويصور سيئاته حسنات ، وسخافاته آيات ، وحماقاته معجزات ، ولكن الأدب الجديد أخذ ينظر إلى هذه الشعوب ، ويجعل خيرها غايته فيجمعها على من اعتدى عليها ، ويبين للناس سوء حالهم ومواضع بؤسهم وأدوائهم ، وطرق علاجها ، ويقف للحكام بالمرصاد — يذيع سيئاتهم ومظالمهم وينقدهم في غير هوادة أو رفق ، ويشجع أفراد الأمة على المطالبة بحقوقهم ، وألا يخشوا بأس الحاكم وجبروته ، لأنه مدين بقوته لهم ، وبغناه وضياعه لكدهم وكدحهم . واستمع كذلك إلى الأستاذ الشيخ محمد عبده كيف

يحرض الأمة على خلع نير العبودية ، والحد من سطوة الحاكم الغاشم ، وينعي عليه جهله وسفالته :

« إن الأمة التي ليست لها في شئونها حل ولا عقد ، ولا تستشار في مصالحها ولا أثر لإرادتها في منافعها العمومية ، وإنما هي خاضعة لحاكم واحد إرادته قانون ومشيئته نظام ، يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ، فتلك أمة لا تثبت على حال واحد ولا ينضبط لها سير ، فتعتورها السعادة والشقاء ، ويتداولها العلم والجهل ، ويتبادل عليها الغنى والفقر ، ويتناوبها العز والذل ، وكل ما يعرض عليها من هذه الأحوال خيرها وشرها ، فهو تابع الحال الحاكم . فإن كان حاكمها عالماً حازماً أصيل الرأي ، عليّ الهمة ، رفيع المقصد ، قويم الطبع ، ساس الأمة بسياسة العدل ورفع فيها منار العلم ، ومهد لها طرق اليسار والثروة ، وفتح لها أبواباً للتفنن في الصنائع والحذق في جميع لوازم الحياة ، وبعث في أفراد المحكومين روح الشرف والنخوة ، وحملهم على التحلي بالمزايا الشريفة من الشهامة والشجاعة ، وإباء الضيم ، والأنفة من الذل ، ورفعهم إلى مكانة عليا من العزة ، ووطّأ لهم سبل الراحة والرفاهة وتقدم بهم إلى كل وجه من وجوه الخير .

وإن كان حاكمها جاهلاً ، سيىء الطبع ، سافل الهمة ، جباناً ضعيف الرأي أحمق الجنان ، خسيس النفس ، معوج الطبيعة .. أسقط الأمة بتصرفه إلى مهاوي الخسران ، وضرب على نواظرها غشاوات الجهل ، وجلب عليها غائلة الفاقة والفقر ، وجار في سلطته عن جادة العدل ، وفتح أبواباً للعدوان فيتغلب القوي على حقوق الضعيف ، ويختل النظام ، وتفسد الأخلاق ، وتخفض الكلمة ويَغْلب اليأس فتمتد إليها أنظار الطامعين ، وتضرب الدول الفاتحة بمخالبها في أحشاء الأمة . عند ذلك إن كان في

الأمة رَمَقٌ من الحياة ، وبقيت فيها بقية منها ، وأراد الله بها خيراً ، اجتمع أهل الرأي وأرباب الهمة من أفرادها وتعاونوا على اجتثاث هذه الشجرة الخبيثة ، واستئصال جذورها ، قبل أن تنشر الرياحُ بذورَها وأجزاءها السامة القاتلة بين جموع الأمة فتميتها وينقطع الأمل من العلاج [1] » .

بمثل هذا الأدب أخذ المصلحون ينادون الشعوب المستكينة للذل ويوقظونها من سباتها العميق ويندّدون بما عليه أبناؤها من جبن وخور ، فلا يغضبون لكرامة امتُهنت ، ولا يثورون لعفاف ثُلم ، وشرف دُنّس :

« الجبن هو الذي أوهى دعائم الممالك فهدم بناءها ، هو الذي قطع روابط الأمم فحل نظامها ، هو الذي وهن عزائم الملوك فانقلبت عروشهم ، وأضعف قلوب العالمين فسقطت صروحهم ، هو الذي يغلق أبواب الخير في وجوه الطالبين ويطمس معالم الهداية عن أنظار السائرين ، يسهل على النفوس احتمال الذلة ويخفف عليها مضض المسكنة ، ويهوّن عليها حمل نير العبودية . يوطن النفس على تلقي الإهانة بالصبر والتذليل بالجَلَد ، ويوطىء الظهور الجاسية لأحمال من المصاعب أثقل مما كان يُتوهم عروضه عند التحلي بالشجاعة والإقدام . الجبن يُلبِس النفس عاراً دون القرب منه موتٌ أحمر عند كل روح زكية وهمة علية ، يري الجبان وعر المذلات سهلاً ، وشظف العيش في المَسْكَنات رفهاً ونعيماً » .

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثاني ص ٣٣١ والعدد الرابع عشر من مجلة العروة الوثقى .

« من يَهُنْ يسهل الهوان عليه   ما لجرح بميتٍ إيلام »[1]

وإذا جاوز الحاكم حدّه ، طغى وبغى واستبد ، وباع بلاده للأجانب الطامعين ، المستعمرين الغاصبين ، ونكل بالأحرار المفكرين كما فعل نوبار باشا مثلاً حين طلب ابعاد الزُّبير باشا من مصر ، وحين حارب كثيرين من المصلحين ، وحين مكن للإنجليز في وادي النيل ، فإن زعماء الإصلاح لا يترددون في التحريض على قتله ، وتخليص الأمة منه .

« إني أتعجب ، وكلُّ ذي إحساس يتعجب من سكان الديار المصرية من المصريين والأتراك والحجازيين واليمانيين ، ألا يوجد بين هؤلاء فتى يشمر عن ساعده ويتقدم بصدره ، ويخطو خطوة إلى هذا الوزير الأرمني فيبطل هذه الصفقة وينقض هذه البيعة ، ويكشف له وللمغرورين من أمثاله حقيقة الوطنية ، ويرفع الحجاب عن واجبات الملية ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله ! إن المولعين بحب الحياة يقضونها من خوف الذل في ذل ، ويعيشون من خوف العبودية في العبودية ويتجرعون مرارات سكرات الموت في كل لحظة خوفاً من الموت . لا الدين يسوقهم إلى مرضاة الله ، ولا الحمية تدفعهم إلى ما به فخار الإنسان »[2] .

وأنصت إلى السيد جمال الدين الأفغاني كيف يثير في النفوس الحمية ، ويريدها متمردة على الطغيان والعسف والهوان ، وينعى على المصريين خورهم واستكانتهم إلى كل من يحكمهم ؛ فقد روى سليم عنحوري عن السيد جمال الدين قوله : « إنكم معاشر المصريين قد نشأتم في الاستعباد ، وربيتم في حِجر الاستبداد ، وتوالت عليكم قرون منذ زمن الملوك

---

(١) تاريخ الاستاذ الامام ج ٢ ص ٢٢٨ .

(٢) مجلة العروة الوثقى القسم الثاني ص ١٤٧ .

الرعاة حتى اليوم ، وأنتم تحملون عبء نير الفاتحين ، وتعنون لوطأة الغزاة الظالمين ، تسومكم حكوماتهم الحيف والجور ، وتنزل بكم الخسف والذل وأنتم صابرون بل راضون ، وتستنزف قوامَ حياتكم ومواد غذائكم التي تجمعت بما يتحلّب من عرق جباهكم بالعصا والمقرعة والسوط ، وأنتم معرضون . فلو كان في عروقكم دمٌ فيه كرياتٌ حيوية ، وفي رؤوسكم أعصاب تتأثر فتثير النخوة والحمية لما رضيتم بهذا الذل وهذه المسكنة . تناوبتكم أيدي الرعاة ثم اليونان والرومان والفرس ، ثم العرب والأكراد والمماليك ، وكلهم يشق جلودكم بمبضع نهمه ، وأنتم كالصخرة الملقاة في الفلاة لا حس لكم ولا صوت .

انظروا أهرام مصر ، وهياكل ممفيس ، وآثار طيبة ، ومشاهد سيوة ، وحصون دمياط ؛ فهي شاهدة بمَنَعَةِ آبائكم وعزة أجدادكم . هبوا من غفلتكم ...! اصحوا من سكرتكم ...! عيشوا كباقي الأمم أحراراً سعداء[1] .

بل كان السيد جمال الدين في غاية الجرأة يحرض على الثورة علانية في كلمات ملتهبة تثير الهمم الخامدة ، وتحيي العزائم الميتة ، وتحرك العقول الجامدة من مثل قوله من خطبة له بالإسكندرية قبيل خلع الخديو اسماعيل :

« أنت أيها الفلاح المسكين تشق قلب الأرض لتستنبت منها ما تسد به الرمق ، وتقوم بأوَد العيال ، فلماذا لا تشق قلب ظالمك ؟ لماذا لا تشق قلب الذين يأكلون ثمرة أتعابك ؟ »[2] .

---

(١) سليم عنحوري . تاريخ محمد عبده لرشيد رضا جـ ١ ص ٤٦ .
(٢) مذكراتي في نصف قرن : أحمد شفيق ص ١٠٩ .

ومن الكلمات التي تتلظى لهباً ، وتتقد غيرة وحماسة حين تصور بؤس المصريين وكيف يسومهم حكامهم العسف والخسف تلك الكلمة التي كتبها أديب إسحق وهو مريض بباريس تحت عنوان « نفثة مصدور » ويوازن فيها الحياة النيابية الحرة في فرنسا وحياة الاستبداد بمصر فيقول: « وأنا تحت سماء الإنصاف على أرض الراحة ، بين أهل الحرية أسمع الحاناً في مجالس العدل ، فأذكر أنين قومي في مجالس الظَّلَمَة ، وتحت سياط الجلادين ، فأنوح نوح الثاكلات ، وأرى علائم النعمة في معاهد المساواة ، فأذكر شقاء سِرْبي في ربوع الظُّلْمة ، فأذرف الدمع ممتزجاً بسواد القلب فأكتب إليهم : يا قوم ظُلمتم غير معذورين ، وصبرتم غير مأجورين وسعيتم غير مشكورين ، فهلكتم غير مأسوف عليكم ، تصبرون على الظلم حتى يحسبه الناظر عدلاً ، وتبتسمون للقيد حتى يظنه الناقد حَلْيا ، وتخفضون للظالمين جناح الذل حيث يقول من يراكم ما هؤلاء بشر إن هم إلا آلة سخرت للناس ، يفلحون بها الأرض ويزرعون . يقلب الجائرون عليكم أنواع المكايد وأصناف الحيل وألوان الخداع فيما يختلسون كما تقلب المشعوذة لدى الأطفال أوجه الوَدَعات في استخراج ما يضمرون .

رأيت فلاحهم في حقله الصغير يتناول الطعام أكلاً مريئاً ، وينام القيلولة نوماً هنيئاً ، ويأوي إلى البيت فيأكل بين عياله ويتلو عليهم صحيفة النهار ، ثم ينام ملء عينيه ، لا يحلم بسوط المأمور ولا يتصور عصا الشيخ ، ولا يتذكر حبس المدير ، فتخيّلتكم بين السواقي والأنهار تشتغلون سحابة اليوم لتجتمعوا على القصعة السوداء فتلتهموا فتات الشعير ، وتنكبّوا على التُرْعة فتشربوا الماء الكدر . تعودون إلى الأرض المريعة تزرعونها ، والغلّة الوفيرة تحصدونها لتنصرفوا إلى أكواخ تشبه قبوراً توالت عليها السنون ، فيجتمع من حولكم صغار لا تعرف

أبدانهم الوقاء ، ونساء تعوّضْن الأقــذار عن الكساء ، ثم يأتيكم المأمور سالباً ، والشيخ غاضباً ، والمدير ناهباً ، فأنتم في بلاء مستقر ، وعنــاء مستمر ، تحصدون البُرّ ولا تأكلون ، وتملكون الأرض ولا تسكنون »[1] .

« قد بُليتم بما يذيبُ الشحم ويفري اللحم ، ويُنَقّي العظم وأنتم صابرون ؛ ومُنيتم بما وفّر النّقم وغــير النّعم وأهلك النّسم وأنتم صامتون ، ورزقتم بما جلب المصاب ، وهتك الحجاب ، وأبرز الكعاب وأنتم خاشعون ، فما الذي تخافون ؟ .

تقولون لا نرضى بهذا الخسف ، ولا نقوى على احتمال الذل ، فقــد صار تاجرنا عاملاً ، ونبيهنا خاملاً ، وعالمنا سائلاً ، فلم يبق فينا غير الأجير والتابع والشحاذ والزارع ، والجندي منخفض الجانب ، والشرطي منقطع الراتب ، بل زارعنا الذي يدفن مع الحبة قوة يمينه ، ويسقي الغرس بماء جبينه : نزيل في دار أبيه ، وغريب في أرض ذويه ، يحصد مما زرع ولكن لسواه ، ويجني مما غرس ولا يذوق جناه .

وكأني بكم عصابة ، من أهل الهمة والإصابة ، ترفعون الأصوات في طلب الحق المسلوب ، وتمدون الأكف لالتماس المــال المنهوب ، وتجعلون الأبدان للوطن سوراً يرد عنه العــدو مذعوراً ، وأنتم الكلمة المتحدة والقوة المتجمعة هي أقوى من العدد الكثير إلا أنكم تترددن .

فيا حليف الصبر ويا نِضْوَ العناء ، نداء مشارك في بلواك ، وسامع لنجواك ، دع التردد إن أردت النجاح والنجاة ، وأقدم ، فرب حياة

---

(١) الدرر ص ٧٠ .

تكون في طلب الموت ، ورب موت يجيء من طلب الحياة »[1] .

وهي كما ترى كلمة تحمل روح جمال الدين ، وتحض على الثورة علانية ، بتنبيه المصريين لمهاوي الذلة التي تردّوا فيها وحثهم على استخلاص حقهم بالقوة من ظالميهم .

٢ - الدعوة إلى الأخذ بنظام الشورى في الحكم ، حتى تشعر الأمة أن مقدراتها بيدها ، وحتى تأمن جانب حجة يتكئون عليها في إشرافهم على الحكومة وإدارتها .

وقد رأيت طرفاً مما قاله البارودي الشاعر في الشورى . وقد كانت هذه الروح التي تجلت في شعر البارودي قبساً من نار مشتعلة في نفس جمال الدين الأفغاني وصحبه وحوارييه من أمثال محمد عبده ، وعبد الله نديم ، وأديب اسحق .. استمع إلى هذا الحوار بين توفيق باشا وبين جمال الدين الأفغاني وقد طلبه للمثول بين يديه في قصر عابدين :

قال توفيق : « إني أحب كل المصريين ، ويسرني أن أرى بلادي وأبناءها في أعلى درجات الرقي والفلاح ، ولكن من الأسف إن أكثر الشعب خامل جاهل لا يصلح أن يُلقى عليه ما تلقونه من الدروس والأقوال المهيجة ، فيلقون بأنفسهم في تهلكة » .

فأجاب جمال الدين : ليسمحْ لي سموُّ أمير البلاد أن أقول بحرية وإخلاص : إن الشعب المصري كسائر الشعوب لا يخلو من وجود الخامل والجاهل بين أفراده ، ولكنه غير محروم من وجود العالم والعاقل ،

---

(١) الدرر ص ٧٢ .

فبالنظر الذي تنظرون به إلى الشعب المصري ينظر إليكم ، وإن قبلتم نصح هذا المخلص، وأسرعتم في إشراك الأمة في حكم البلاد عن طريق الشورى فتأمرون بإجراء انتخابات نواب عن الأمة لتسنّ القوانين وتنفذها باسمكم وإرادتكم يكون ذلك أثبت لعرشكم وأدوم لسلطانكم »[1] .

ويقول الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، مبرهناً على أن الأمة المصرية بلغت حداً من النضج يؤهلها لأن تتولى أمورها بنفسها .

« ومما تقدم سرده تعلم أن أهالي بلادنا المصرية دبت فيهم روح الاتحاد ، وأشرفت نفوسهم على مدارك الرأي العام ، وأخذوا يتنصلون من جرم الإهمال ، ويستيقظون من نومة الإغفال ، وقد مرت عليهم حوادث كقطع الليل المظلم ، ثم تقشعت عنهم فطالعوا من سماء الحق ما كحل عيونهم بنور الاستبصار ، حتى أشرأبت مطامعهم إلى بث أفكارهم فيما يصلح الشأن ويلم الشعث ويجمع المتفرق من الأمور ليكونوا أمة متمتعة بمزاياها الحقيقية ، فهم بهذا الاستعداد العظيم أهل لأن يسلكوا الطريق الأقوم ، طريق الشورى والتعاضد في الرأي »[2] .

٣ ـ محاربة الاستعمار ، وإثارة الحمية الوطنية في نفوس الشعوب المستذلة التي غلبت على أمرها وقادها ملوكها وزعماؤها إلى الدمار والبوار ، بينما العدو يتربص بهم الدوائر ، فلما لاحت الفرصة انقض على الفريسة كالوحش الكاسر يوسعها نهشاً وعضاً ، حتى خرت تحت قدميه دامية الجسد ، هامدة الفكر ، تنظر بعينين ملؤهما الرعب والذلة .

وقف هذا الأدب يصرخ في هذه الشعوب صرخات مدوية علها تفيق

---

(١) خاطرات جمال الدين لمحمد باشا المخزومي .

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ج ٢ ص ٢١٧ - ٢١٨ .

من سباتها ، وتنهض لمحاربة عدوها وتلتبه إلى الختل والفيلة ، والغدر والحيلة ، وشتى الوسائل الزائفة التي عمد لها الطامع الجشع من وعود مصيرُها الخُلْف ، ومواثيقَ غايتها النقض ، وأيمان يتبعها الحنث . كل ذلك حتى يمكّن لنفسه في البلاد فيمتص دماء أهلها ويسخرهم لطاعته عبيداً غير مأجورين وفَعَلةً غير مشكورين :

« بلغ الاجحاف بالشرقيين غايته ووصل العدوان فيهم نهايته ، وأدرك المتغلب منهم نكايته ، خصوصاً في المسلمين منهم ، فملوك أنزلوا عن عروشهم جوراً ، وذوو حقوق في الإمرة حرموا حقوقهم ظلماً ، وأعزاء باتوا أذلاء ، وأجلاء أصبحوا حقراء ، وأغنياء أمسوا فقراء ، وأصحاء أضحوا سقاماً ، وأسودٌ تحولت نعاما ، ولم تبق طبقة من الطبقات إلا وقد مسها الضر من إفراط الطامعين في أطماعهم ، خصوصاً من جراء هذه الحوادث التي بذرت بذورها في الأراضي المصرية نحو خمس سنوات بأيدي ذوي المطامع فيها ، حملوا إلى البلاد ما لا تعرفه فدهشت عقولها ، وشدوا عليها بما لا تألفه فحارت ألبابها ، وألزموها ما ليس في قدرتها فاستعصت عليه قواها ، وخضدوا من شوكة الوازع تحت اسم العدالة ؛ ليهيئوا بكل ذلك وسيلة لنيل المطمع فكانت الحركة العرابية فاتخذوها ذريعة لما كانوا له طالبين ، فاندفع بهم سيل المصاعب ، بل طوفان المصائب على تلك البلاد ، وظنوا بلوغ الأرب ولكن أخطأ الظن وهموا بما لم ينالوا [1] » .

واستمع لهذه الفئة المصلحة اليقظة كيف تتنبه لمكايد الإنجليز وصنائعهم في مصر ، وتفضح حيلهم : نوبار باشا ساع إلى أمر مهم

---

(١) افتتاحية مجلة العروة الوثقى .

وهو ما ذكرناه في العدد السابق ، ونشرته بعدنا جريدة (الدّبا) وسائر الجرائد الإنجليزية ، وهو أن يكون ولي القاصر (عباس) بعد خلع أبيه فينال بسطة في السلطة ، وإطلاقاً في الأمر والنهي ، وعلم أن هذا وقت الفرصة لحرص الحكومة الإنجليزية على تملك مصر وهي محتاجة في ذلك إلى من ليس له وطن ولا دين ولا جنس في مصر ، فهي في شدة الاحتياج لنوبار باشا ، وتوفيق باشا قبة جوفاء لا يرجع منها إلا صدى الأصوات ، إن قلت : لا ، فـلا ، أو قلت : نعم ، فنعم ، فهو في غضبه ورضاه تابع لما يلقى إليه ، فعلم نوبار أن خديويا مثل هذا يمكن أن يكون واسطة في تمكـــين الإنجليز من مصر من حيث لا يشعر ، وبتقديه هذه الخدمة لهم يبني لنفسه من العزة قصراً شاهقاً [1] » .

واستمع كذلك الى أديب اسحق تلميذ جمال الدين الأفغاني ، وأحد الألسنة التي أطلقها تنـــدد بالاستعمار وحيله ، كيف ينبه المصريين الى خـداع الإنجليز ، وتحذيرهم المصريين بتخفيض الضرائب حتى يمدحوا ايامهم ، ويوازنوا بينهم وبـين حكامهم المتعسفين فيرجحون في كفة العدالة ، وقد أشارت بعض الصحف بما قدم الإنجليز من عمل ، فثارت ثائرته وقال :

« فهل خفي عن تلك الصحف أن من شفقة الصياد على الطير إلقاؤه الحب بين يديها ؟ أو لم تعلم أن القائل بهمجية المصريين ، المعتقد بانحطاط مداركهم ، لا يطعمهم هـذا الفتات إلا ليسهل على الإنجليز هضم قوتهم والتهام ثروتهم !

كلا ! إن الجرائد المصرية لا تجهل حقيقة الأمر ، ولكنها لا تستطيع

---

(١) مجلة العروة الوثقى ج ٢ ص ١٤٦ .

التصريح ، علماً بأن اللص العازم على سرقة الحقوق الوطنية يكره النور ، فإذا حاولت الجرائد إظهاره سارع إلى إطفائه بتعطيلها وإلغائها .

يا أهل مصر : إني محدثكم حديثاً غريباً . إذا كان أمراؤكم خياركم ، وأغنياؤكم أسخياءكم وأموركم شورى بينكم ، فظهر الأرض خير لكم من بطنها ، وإذا كان أمراؤكم شراركم وأغنياؤكم بخلاءكم ، وأموركم إلى نسائكم فبطن الأرض خير لكم من ظهرها » .

٤ — السعي في إصلاح المفاسد الاجتماعية ، فالفقر الذي يذوي الشباب الغض والإهاب النضر ويذل النفس الأبية ، ويطوّح بالأنفة والكبرياء بعيداً حين تصرخ المعدة الجائعة صرخة تنهار على أثرها النفس المتجلدة قد جثم على صدور كثير من أبناء الشرق ، يكدون ويكدحون لفئة قليلة من الأغنياء يبعثرون على موائد الفساد ما جمع هؤلاء المساكين في حمّارة القيظ وصبّارة الشتاء ، وهم يبيتون على الطوى ، وأبناؤهم يتضاغون من المسغبة والفاقة ويتضورون من الجوع والعري ، ويتلوون من السقام والأوصاب . والجهل الذي بنى أعشاشه في رؤس الجمهرة من أبناء الشرق ، وباض وفرخ وملأ الدنيا خرافات وخزعبلات يجب أن يحارَبَ وتفتح لأبناء الأمة مغاليق الأمور حتى يعيشوا كالأناسيّ . إن الفلاح المسكين كان نهباً للمرابين والمستغلين يأكلون ظلماً وعدواناً ما سعى لتحصيله بكد النهار وسهر الليل . استمع لعبد الله نديم يصور لك هذا الجهل بالحساب ، ووقوع هذا الفلاح البائس في أحابيل شياطين الفرنجة من المرابين والأفاقين ، وكيف يضاعفون ديونه ظلماً ، وينهبون ماله جهراً ، وهو لا يدري من الأمر شيئاً كأنه سائمة ترعى . وقد ساق عبد الله نديم هذه المحاورة بين الفلاح والمرابي باللغة العامية حتى يبين للفلاحين خداع هذا اللص الكبير ، وسذاجة هذا الجاهل الغر . « ذهب

المزارع إلى المرابي ليقترض مائة جنيه بفائدة قدرها عشرون في المائة فقال المرابي : حسن ! سأخصم من المائة عشرين فتستحق ثمانين ، وأضيف الفائدة وقدرها عشرون فيكون الدين مائة وعشرين » ، ووافق الفلاح لجهله بالحساب ، وبذلك أخذ ثمانين جنيهاً ليسددها مائة وعشرين ، وحين السداد جاء بكل ما أنتجته أرضه فاشتراه المرابي بأبخس الأثمان ، وخرج الفلاح بعد بيع محصوله الكبير مديناً بمبلغ مائتي جنيه في حين أن المرابي لو قدر المحصول كما يجب لسدد الفلاحُ دينه ، ودفع له المرابي فوق ذلك مائة جنيه ، ولكنه الجهل والغش .

ويحارب المصلحون زبرج المدنية الخلاب ، ولألاءها الخداع ، والفتنة التي أوقعت المصريين في شباكها ، فراحوا يلتقطون في نهم بالغ نُفاياتِ الحضارة الأوربيــــة العفنة يحسبونها تمدينهم ، ونسوا دينهم وأخلاقهم الكريمة وعاداتهم الطيبة .

لقد جهد هؤلاء المصلحون والمفكرون أن ينيروا للأمـــــة سبيلها ويبصّروها عاقبة السير في ظلماء الجهالة ، ويحثون على التعليم ، بل يشيدون المدارس ، ويخطبون في كل مكان علّ الأمة تستجيب لندائهم ، فتمرق من شرك الجهل ، وأحابيل الضلالة .

ونمت في الشعوب الجاهلة التي ظلت قروناً تخضع لسيطرة العتـــاة الجبارين صفات رديئــة كالنفاق ، والرشوة ، والكـــذب ، والخداع ، والتراخي في العمل . إلى آخر هــذا الثَّبَت الشنيع من نقائص الأمم المغلوبة على أمرها ، حتى ماتت فيها روح الكرامة والعزة ، وكثير من المحامد التي لا تستطيع النمو في جو خانق بعِثْيَرَ الظلم ودخانه ؛ ولذلك عمد الكتاب المفكرون في هذه الحقبة إلى التشنيع على هـــذه الرذائل وتبشيعها لدى أفراد الشعب كي يقلعوا عنها .

وهكذا امتد أفق الكتابة إلى جميع الأغراض السياسية والاجتماعية ، وكانت الصحف خير معوان على بث هذه الآراء الجريئة ، والإرشادات النافعة ، والنصائح الثمينة التي حركت الهمم وأثارت العزائم ومهدت الطريق لنضج الشعوب العربية والإسلامية .

وكان بجانب هذه الأغراض السياسية والاجتماعية موضوعات أدبية بحتة من وصف وتعزية وتهنئة ، وتحدث عن الأمور المعنوية كالجمال ، والعاطفة ، والذوق ، والسعادة وما شاكل هذا . وقد حاول بعض الكتاب أن يرشد الناس إلى ما تقتضيه صنعة الكتابة من أمور ، وما تطلبه من جهود كأديب اسحق ، وقد بين في مقالاته [1] شروط الكتابة السليمة وأنواعها وكان ذلك ضرورياً في هذه الحقبة . ويقول الشيخ خليل اليازجي في الإنشاء :

« الإنشاء ملكة راسخة في النفس يعين عليه سلامة الذوق وطول المزاولة ، والناس فيها طبقات متفاوتة مرجعها في الأكثر الى بداهة الخاطر وذكاء البصيرة وغزارة المادة ، وله أحكام اذا راعاها المجيد نبغ فيها ، واذا راعاها الضعيف استأنس بها ، فأعانته على الجري فيها » [2] .

ومن أمثلة النثر الأدبي رسالة لعبد الله نديم يشكر صديقاً على كتاب وصله منه [3] : « لبيك كوكبَ الصبح ، دام نداك ، وسعد بك نسيم الصبا ، طاب شذاك ، وأهلاً بك يا نور النهار ، ومرحباً بك

---

(١) مجالي الغرر ج ٣ ص و ص ١٠٠ من هذا الكتاب .

(٢) مجالي الغرر ص ١٠ ج ٣ .

(٣) سلافة النديم ص ٤٥ .

يا نور البهار ، فإني أرقت للقاء مذ سمعت بالإسراء ، وما زلتُ أسأل عن ركبكم في منازل البدر ، وأستفهم منه ركبان النجوم حتى مطلع الفجر فالشّعرى تقول : تركتهم بتلك المرحلة ، وعطارد يقول : تقدمتهم بمنزلة ، والمريخ يقول أناخوا ركائبهم ، والمشتري يقول أثاروا نجائبهم ، والدجى تقول : ليلهم قمري ، والزهرة تقول هم أولاء على أثري ، وكل ذلك وأنا هائم كحاطب بليل حتى طلع عليّ من جانب السحَر سُهيل ، فهممت بتقبيله فأبى ، وارتفع عني ونبا ، فأشرت له بتلطف وأنشدته بتعطف .

سُهيْلُ انعطف وانزل بساحة مغرم يراك بعين طول ليلتها عَبْرَى

عسى يأخذ الأخبارَ منك عن الألى سيصلى بهم جمر الغضا ولك البشرى

ومن أمثلة النثر الأدبي كذلك ما كتبه السيد مصطفى نجيب [1] يصف الحاكي (الفونوغراف) :

(مثالُ القوة الناطقة ، من غير إرادة سابقة ، يقتطف الألفاظ اقتطافاً ، ويختطف الصوت اختطافاً . مطبعة الأصوات ، ومرآة الكلمات ، ينقل الكلام من ناحية إلى ناحية نقلَ كلام عمر رضي الله عنه إلى سارية ، أشدُّ من الصّدى وفعله ، في إعادة الصوت إلى أصله ، كأنه الحرف في يد الطابع ، والوتر في يد الضارب ، والقصبُ عن فم القاصب [1] ، يحفظ الكلام ولا يبيدُه ، ومتى استمدتَه منه يعيده ، من

---

(١) كان كاتباً إدارياً بديوان الخديو ، ومنه تحول إلى وزارة الداخلية ؛ وكان أديباً عذب النثر سهل الشعر وله كتاب (حماة الاسلام) توفي سنة ١٨٩٩ .

(٢) القصب : المزمار ، والقاصب هو الذي يزمر فيه .

غير أن يبقي لفظاً في صدره ، أو يكتم شيئاً من أمره ، كأنما حفظُ الوديعة في نفسه طبيعة ، فلو تقدم به الوجود في مرتبة الزمن لما احتجنا في الأخبار إلى عنعنة ، ولا في الدعاوي إلى بيِّنة ، بل كان يُسمعنا كلام السيد المسيح في المهد ، وصوتَ عازر من اللحد ، وكانت استودعته الفلاسفة في حكمتهم ، وأنشدوه كلمتهم فرأينا غرائب اليونان ، وبدائع الرومان ، وربما سمعنا خطب سحبان ، وشعر سيدنا حسّان بذلك اللسان ، وأصبح وجود الإنسان غير محدود بزمن من الأزمان .

لله درُّه من تلميذ يستوعب ما عند المعلم ويستخلصه في لحظة ، معيداً لقوله ناقلا صوته ولفظه .

لقد وجدت مكان القول ذا سعة فإن وجدت لساناً قائلاً فقل

نديمٌ ليس فيه هفوة النديم ، وسمير لا يُنسب إليه تقصير ، تسكته وتستعيده ، وتذمه وتستجيده ، وهو في كل هذه الأحوال ، راضٍ بما يقال ، لا يكلُّ من تحديث ، ولا يَمَلُّ من حديث ، نمام كما ينم لك ينم عليك ، وينقل لغيرك كما ينقل إليك ، فهو المصور لكل فن ، المتكلم بكل لغة ، المحدث بكل لسان ، المؤرخ لكل زمان ، الشاعر الناثر المغني العازف ، لا تعجزه العبارة ، ولا تجهده الإدارة ، ولا يضيره اختلاف شكل ، ولا تباين أصل » .

ومن أمثلة النثر الاجتماعي غير ما تقدّم عرضه قول قاسم أمين في كتابه عن (المرأة الجديدة) :

« إن كل تغيير يعرض على الأنظار في صورة مشروع يُلتَمس قبوله ، ولم يكن بدأ الناس فيه من قبل ، هو في الحقيقة فكر سبق أوانه

وقت عرضه ، ولهذا لا يفهمه ولا يقدره حق قدره إلا العدد القليل ، ممن يمتد نظرهم إلى ما يكنه المستقبل من الحوادث . انظر الى حالة مصر ، فقد عاشت الأمة المصرية أجيالاً في الاستعباد السياسي ، فكانت النتيجة انحطاطاً عاماً في جميع مظاهر حياتها : انحطاطاً في العقول ، وانحطاطاً في الأخلاق ، وانحطاطاً في الأعمال ، وما زالت تهبط من درجة الى أسفل منها ، حتى انتهى بها الحال الى أن تكون جسماً ضعيفاً ، عليلاً ساكناً يعيش عيشة النبات أكثر من عيشة الحيوان ، فلما تخلصت من الاستعباد ، رأت نفسها أول الأمر في حيرة لا تدري معها ما تصنع بحريتها الجديدة ، وكان الكل لا يفهم لهذه الكلمة معنى ولا يقدر لها قيمة . وكان الناس يستخفون ويهزأون بالحرية بل ويتألمون منها ، وينسبون اليها اختلال عيشهم ، وعلل نفوسهم ، فكم من مرة سمعنا بآذاننا أن سبب شقاء مصر هو تمتعها بالحرية والمساواة . ثم اعتاد القوم شيئاً فشيئاً على الحرية ، وبدأوا يشعرون بأن اختلال عيشهم لا يمكن أن يكون ناتجاً عنها بل له أسباب أخرى ، ثم تعلق بنفوس الكثير منا حب الحرية حتى صاروا لا يفهمون الوجود معنى بدونها . ولنا الأمل في أن أولادنا الذين يشبون على حب الحرية يجنون ثمراتها النفيسة التي من أهمها تهيئة نفوسهم للعمل ، وعند ذلك يعرفون جيداً أن الحرية هي أساس كل عمران . وقد دلت التجربة على أن الحرية هي منبع الخير للانسان ، وأصل تربيته وأساس كماله الأدبي ، وأن استقلال ارادة الإنسان كانت أهم عامل في نهوض الرجال ، فلا يمكن الا ظهور مثل هذا الأثر في نفوس النساء » .

ومن أمثلة النثر السياسي غير ما تقدم ما كتبه الشيخ علي يوسف في المؤيد تحت عنوان « لا تعصب في مصر » :

« التعصب بالمعنى المعروف في الغرب عن الشرق ، وبعبارة أخرى

من المسيحيين عن المسلمين، هو انبثاث روح العداء والبغضاء من الآخرين ضد الأولين، انبثاثاً يحمل على الاعتداء عليهم حيناً بعد حين، أو هو التوحش الذي يفتك بنفوس الأبرياء كلما ثــار ثائره، فهو أشبه شيء بالغول الكاسر الذي يندفع بعماية فيفترس كل ما في طريقه من نفوس البشر. وهو على هذا مجموع أرواح شريرة لا نظام لها في ثوراتها وعدوانها، والتعصب بهذا المعنى رذيلة من الرذائل التي ينهى عنها الدين الإسلامي، والقوانين الاجتماعية، نعوذ بالله أن ترْزَأ أمة بهذا البلاء العظيم.

قالوا: ان المصريين متعصبون تعصباً دينياً، ومعنى هذا عندهم انهم يكرهون المخالفين لهم في الدين كراهة عمياء ويعتدون عليهم بروح البغضاء المتناهية، كلما سنحت لهم فرصة أو استفزهم صائح، ولكن كيف وفي البلاد من قديم الزمان أديان مختلفة يتجاور أهلوها في المنازل، ويتشاركون في المرافق، ويتنافسون في الأعمال، فلم تكن بين المسلمين والأقباط تلك الروح الشريرة، ولو كانت في فطرة المسلمين أو فطرة الفريقين للاشت الأكثرية الأقليــة في عصور مضت وخصوصاً في عصور كانت الجهالة فيها سائدة، وكان بعض الحكام من المسلمين وغــيرهم يبذرون بذور البغضاء بين الفريقين لا لخدمــة دينية إسلاميــة، بل لأغراض منشؤها الشهوات والمطامع، ولكن التواريخ تدل على أن الفريقين عاشا على الوئام والسلام في كل الظروف أو أكثرها.

وقد وفَدَ على القطر المصري وفود من كــل الطوائف المسيحية، غربيــة وشرقية، من أرمن وأروام وسوريين وفرنساويين وطليانيين وإنكليز ونمساويين وأمريكيين، ومن بروتستانت وكاثوليك وأرثوذكس، وغير ذلك، من علمــاء وتجار وصناع وعمال وهمل متشردين، فلقي الكل في مصر صدراً رحباً، وكان منهم الموظفون في كل مصلحة، حتى تولى نوبار باشا الأرمني رياسة النظار في مصر، وكان قــائم مقام

خديوي ، ورئيساً للاحتفال بموكب المحمل الشريف ، فهل يوجد في أمة غير الأمة المصرية المسالمة مثل هذا التساهل الذي يرأس فيه احتفالاً دينياً رجلٌ غير مسلم .

وكان من علمائهم الأساتذة والمعلمون ونظار المدارس والمفتشون ، فهل الأمة التي تربي أبناءها على أيدي أساتذة من غير دينها تعد متعصبة ، وكان التجار على ما يحبون من الرحب والسعة وحسن القبول ، فضربوا في البلاد بمتاجرهم من غث وثمين ، وجيد ورديء ، وخالص ومغشوش ، حتى صارت مصر من أوسع أسواق متاجر أوربة ومعالمها التي وجدت إقبالاً من الأمة هائلا . وهؤلاء بعض الأجانب يقيمون الأكواخ الصغيرة الحقيرة لبيع الخمور الرديئة في كل قرية من قرى القطر مهما سحقت وقل عددهـــا ، أو يربون الخنازير ويشرون شيئاً فشيئاً حتى يكون الصعلوك منهم في بضع سنوات صاحب القرية ومزارعها ومداين أهليها وسيدهم ، فهل هؤلاء هم المتعصبون الذين يخشى من شرهم في وادي النيل على الأوربيين ؟ كيف يكون عند المصريين تعصب ديني وهؤلاء بينهم تتسع معاملاتهم معهم ، وكثيراً ما تنتهي هـــذه المعاملات بمصادرات المدنيين في أملاكهم ، ولا يخطر على بال مسلم خاطر سوء من ناحيتهم ، لعله أن دينه ينهاه عن ذلك ، حيث لا تكفي القوانين النظاميـــة في زجر النفوس المتعصبة ، لأن للاعتداء ضروباً شتى وطرقاً خفية أكثر منها ظاهرة ، وهذه تعديات الأهالي على بعضهم تعد بالألوف ، في حين أن تعدياتهم على غـــيرهم لا تكاد تذكر في جانب تعديات الأجانب على بعضهم في هذه البلاد .

فكيف تعمى أعين الناظرين عن هذه الشمس المشرقة العامة بأشعتها على أرجاء القطر ويقوم مفترون يزعمون أن في المصريين تعصباً ثائراً يكاد يفتك بالأوربيين لمجرد كونهم مسيحيين . أيها المدّعون راقبوا الله في أمة

رزئت بالإهمال في شئونها ، حتى انحلت عرا الجامعة بين أفرادها ، وذهبت منها ريح العصبية في كل شيء ، حرام عليكم مع هذا الانحلال ان تتهموها بالتعصب في أشد حالاته » .

ومن هذه النماذج التي سقناها إليك هنا وفي غير هذا الموضع تستطيع ان تدرك إلى أي حد وصل النثر الفني في هذه الحقبة التي نتحدث عنها ؛ بل إنه سار إلى سبيل الكمال حثيثاً حتى يومنا هذا ، لم يرجع القهقري منذ تكونت هذه المدرسة الإصلاحية ومنذ أثمرت نهضة اسماعيل العلمية والأدبية ، بل تراه قد زاد فنوناً ، وتنوعت موضوعاته ، وتعددت نظراته إلى الأشياء ؛ لكثرة ما قرأ الكتاب من الأدب القديم ، وما اطلعوا عليه من آداب الغرب . ولهذا النثر مميزات وخصائص وطابع يعرف بها ، ويختلف عما شاهدناه من الكتابة الديوانية .

(ب) مميزاته :

إذا كانت الأحداث السياسية ، وتقلباتها الكثيرة ، والثورات العنيفة ، ويقظة الشعوب الشرقية والإسلامية ، قد وضعت أمام الكتاب مادة خصبة غزيرة ، وجعلتهم يخوضون في شتى الموضوعات ؟ وإذا كانت الحال الاجتماعية ، وما عليه الناس من فقر وجهل ومرض وانحلال قد دعت زعماء الإصلاح الاجتماعي إلى تشخيص الداء ، ووصف الدواء وحث الهمم على التخلص من تلك الرذائل فإن ثمة عوامل أخرى نهضت بالنثر من حيث أسلوبه وألفاظه . وقد مر بنا ما قدمته حكومة إسماعيل للنهضة الأدبية من وسائل : كالمدارس والمكتبات العامة ، وانتشار الصحف ، وتشجيع المطابع على إحياء تراث الآباء والأجداد ، والقيام بترجمة شيء من أدب الغرب ، وقد أضفى كل هذا على النثر طابعاً خاصاً ،

فخلصه في الغالب من المحسنات البديعية التي كانت شائعة في الكتابة الديوانية وصرف الأدباء همهم إلى العناية بالمعاني لا إلى تنميق الألفاظ ، اللهم إلا في الموضوعات الأدبية البحتة ، وخلا النثر من المبالغات الممجوجة والأخيلة السخيفة ، وانصرف عن المقدمات الطويلة التي كثيراً ما تستهلك جهد الكاتب والقارىء جميعاً دون بلوغ الغرض الذي سبق له الكلام .

وكان من أثر هذا كذلك تغير طريقة الكتابة تبعاً لتغير طريقة التفكير : من تقصير الجمل ، وفصل العبارات ، وحبس كل واحدة منها على أداء معنى واحد ، واعتماد لون طريف في ترتيب الكلام وتبويبه ، وسوق المقال في الغالب لأداء فكرة واحدة ، واستحداث صيغ جديدة لأداء معان جديدة ، والتجوز بكثير من المفردات لإصابة ما لا تطوله بأصل الوضع اللغوي .

ولقد رأيت من النماذج التي سقناها إليك أن موضوع هذا النثر ، اجتماع ، أو سياسة أو أدب ، ولقد تميز كل نوع من هذه الموضوعات بسمات عامة اقتضتها روح الموضوع وطريقة علاجه .

١ - فالنثر الاجتماعي يتطلب صحة العبارة ، وبالضرورة البعد عن الزخرف والزينة ، ووضوح الجمل ، وترك المبالغات ، وسلامة الحجج وإجراءها على حكم المنطق الصحيح ، لأن الغرض منه معالجة الأمر الواقع ، فلا ينبغي استعمال الأقيسة الشعرية ، ولا الخيال المجنح ، اللهم إلا في المقامات التي تقتضي استفزاز الجماهير ، وإثارة عواطفهم ، وتحميسها للإقلاع عن خلة فاسدة ، أو للتظاهر على الاضطلاع بنفع عام ، على أن يكون ذلك بقَدَر ، فإن الأغراض الاجتماعية إنما تجري في حدود الحقائق الواقعة على كل حال .

وقد رأيت أن هذا النوع من النثر قد خلا من السجع المتكلف ، لأن الإهتمام باقتناص السجعة قد يُفوّت على الكاتب الغرض الذي يرمي إليه ، وقد يذهب المعنى في سبيل سجعة متكلفة ، بل قد حمل بعض الكتاب في هذا العصر على السجع فقال أديب إسحق مع أنه كان ممن يسجعون كثيراً وممن يحتفي بأسلوبه لأنه كان أديباً بطبعه .

« ولم يدخل هذا السجع كلام القدماء في الجاهلية وصدر الإسلام الا ما كان منه عفو القريحة ، فواصلُ غير مقفاة ، أو ما يعزى الى الكهان والمشعوذين ، مما يراد به الإيهام والإبهام ، فلما استولت العجمة على الألسن ، وضعفت قوة الاختراع في الاذهان سرى داؤه في المكاتبة الى هذا العهد ، فعدل عن الكلام الفحل واللفظ الساذج والاسلوب الطبيعي الى هذه الاسجاع الملفقة البالية ، يتناقلونها خلفاً عن السلف ، ويطيلون بها الكلام بلا طائل ستراً لقصورهم في ابتداء المعاني وايضاح وقائع الحال من طريق البلاغة والإيجاز »[1] .

والانصراف عن السجع والزخرف في هذا النوع من النثر بدهي ، لان الفكر منصرف الى تنتيق المعاني ، وسوق الحجج ، وضرب الامثلة لا الى الجري وراء كلمة أو سجعة

٢ — النثر السياسي أو الصحفي ، ويمتاز بالسهولة والوضوح بحيث يكون معناه في ظاهر لفظه ؛ لان الصحف تخاطب الجماهير ، ويقرؤها الخاصة والعامة ، وتتحدث الى الجهال كما تتحدث الى المتعلمين ، هذا الى أن قراءها انما يبغونها للساعة ، فلا محل للارتفاع بعبارتها والتعمق في معانيها مما يقتضي من القارىء كد الذهن ، وارهاق العصب .

---

(١) مجاني الغرر ص ٨ ج ٣ .

واذا كان النثر الاجتماعي ينبغي أن يجري الاحتجاج فيه على الاقيسة المنطقية ، لأنه يعتمد على القضايا العلمية والحقائق الواقعة ، فإن النثر الصحفي لا يلتزم فيه ذلك ، بل يلجأ إلى الأدلة الخطابية ؛ لانها أنفذ في إقناع الجماهير من سواها إذ تقوم النزعات السياسية في الغالب على الفروض والاعتبارات والميول الوجدانية أكثر مما تقوم على الحقائق العلمية .

وليس في هذا النثر احتفاء بالاسلوب ، أو تخير للألفاظ ، أو جنوح إلى الخيال ، أو تعمق في المعنى ، وإنما هو التصوير السريع ، وليس فيه تحقيق علمي منظم مبني على الاستقراء أو ذكر المقدمات الوافية ، ويكثر فيه التكرار ، وعدم ترتيب الفكرة .

وهناك صحف خاصة أو مجلات علمية وفنية ، ويلحق بها الابواب التي تحررها الصحف السياسية للعلوم والفنون ، فهذه ينبغي التأنق في عباراتها والإيغال في معانيها تحقيقاً للغرض المقصود بها من تعلم العلوم وترقية الآداب ، ولا يقبل على قراءة مثل هذه المجلات إلا المتعلمون .

٣ — النثر الأدبي ، وهو أشد أنواع النثر حاجة الى تخير اللفظ ، والتأنق في النظم ، حتى يخرج الكلام مشرقاً منيراً ، لطيف الموقع في النفوس ، حلو النبرة في الآذان ، لان للموسيقى اللفظية أثراً كبيراً في الاذهان . وهو أدنى أنواع النثر الى الشعر ، ولهذا لا يُنكر منه البديع ، على ألا يكون من الكثرة بحيث يستهلك ذهن القارىء ، وبحيث لا يستكره على النظم استكراهاً ، ولا تساق الجملة لمجرد اصطياده ، بل ان خيره ما جاء عفواً .

ويقضي التأنق في اللفظ ، وجودة السبك ، وتفتيق المعاني ، معرفة

بأسرار اللغة ، ووفرة محصول من المفردات ، وخبرة بالكلام الجيد ، واستظهار كثير من المنثور والمنظوم ، هذا إلى طبيعة مواتية ، وحس مرهف ، وذوق ، وفطنة إلى مواطن الجمال .

وعلينا بعد أن سقنا إليك أمثلة من أنواع النثر ، وعرفناك بخصائصه ومميزاته ، أن نطلعك على سير موجزة لأعلام البيان في هذا العصر ، وما برز فيه كل منهم غير هؤلاء الذين ترجمنا لهم آنفاً أمثال الشدياق وأديب إسحق .

١ – السيد جمال الدين الافغاني :

وإذا أردت أن تقف على الروح التي تكمن من وراء هذا الأدب الحي ، والتي بعثت في الشرق الإسلامي كله حيوية دافقة ، وهزته هزة عنيفة أيقظته من نومه الطويل ، وعرّفته كيف يطلب حقه من الأقوياء العتاة ، وكيف يدفع عن نفسه جور الظَّلَمة القساة ، فاعلم أن الروح تمثلت في السيد جمال الدين الأفغاني ، من يدين له الشرق الإسلامي بيقظته القومية والفكرية في العصر الحديث .

رجل فرد ، استطاع بما أوتي من عزيمة جبارة تنهار أمامها العروش وتزلزل الممالك ، وتتقوض الحصون ، وبما أوتي من فكر نير مشرق ملهم ينقشع أمام ضوئه الوهاج حندسُ الجهل وغياهب الظلم ، وبما أوتي من لسان ذَرِب طَلْق ، حاد مِطْواع ، يدفعه شعورٌ متقد ، وعاطفة متأججة ، وإحساس مرهف ، وحماسة عارمة فيلهب بهذا اللسان ، وذاك الشعور كل من ينصت إليه ، فيحيل البليد نشيطاً ، والجبان جريئاً ، والخامل مقداماً – استطاع هذا الرجل وحده بهذه القوة أن

يخلق قادة وزعماء ، وأن يكوّن عدداً من الحكومات الفتية . وهكذا يأبى الله إلا ان يضرب للناس أمثلة على بالغ قدرته ، وعظيم إعجازه في كل جيل . وقد مر بك ما قاله الشيخ محمد عبده عن حالة مصر قبل أن يهبط واديها جمال الدين ، وكيف أن بعثات محمد علي وإصلاحاته ونشاط اسماعيل وتقديراته ، واطّلاع بعض شباب مصر وشيوخها على حضارات الأمم الأوروبية وغيرها لم يؤت ثمره ، ولم يبعث في الأمة هذه الروح المتوثبة ، ولم يحرك خامد العزائم ، وينصب المثل العليا أمام الشعوب تهدف اليها في سيرها وتحث الخطى نحوها ، وإنما وجد ذلك كله على يد جمال الدين . فأي رجل كان هو ؟

شعلة متقدة من الذكاء ، وسرعة الخاطر ، وقوة المارضة ، شديد الرغبة في الإصلاح ، وإنهاض الأمم الإسلامية ، وتحطيم الأغلال والقيود التي جعلتها في مسغبة ومذلة وجهل ومرض وانحلال ، كان ثورة عنيفة على الظلم والطغيان والجبروت . قابله السلطان عبد الحميد الطاغية في (يلدز) فطلب منه أن يكف عن هجماته على شاه العجم فقال السيد : « إني لأجلك قد عفوت عنه » ، فيرتاع السلطان لهذه الكلمة الجريئة ، عفا « السيد » عن الشاه ذي الحول والسلطان ، أجل ؟ فالسيد أقوى منه بأساً وأعظم قدراً ، وأقدر على النكاية ، إنه حرب شعواء تطوح بالتيجان وتدك العروش . ويجلس جمال الدين بحضرة عبد الحميد ، وهو يداعب مسبحته غير حافل بمن تعودت الأبصار أن تخشع في مجلسه ، وتطأطىء الرءوس فرقاً ورعباً منه . ونبهه إلى هذا كبير من رجال الحاشية بعد مغادرة عبد الحميد للمجلس فقال له : « إن السلطان يلعب بمستقبل الملايين من الأمة ، أفلا يحق لجمال الدين أن يلعب بسبحته كما يشاء ؟» فيرتاع الرجل ، ويهرب من سماعه هذه الكلمة التي لم يجرؤ أي انسان أن يرفع بمثلها أو بما هو أقل منها صوتاً في البلاد الإسلامية .

ولد السيد جمال الدين الأفغاني في قرية (أسد أباد) من قرى (كنر)[1] ببلاد الأفغان سنة ١٢٥٤هـ - ١٨٣٩م من أسرة شريفة تنتسب إلى الإمام الترمذي المحدث المشهور ، وترتقي إلى الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما ، وانتقل به والده إلى (كابل) وهناك تلقى تعليمه ، فدرس مبادىء العلوم العربية والتاريخ ، وعلوم الشريعة ، والعلوم العقلية من منطق وحكمة عقلية سياسية ، وفلسفة ، وكذلك العلوم الرياضية من حساب وجبر وهندسة وفلك ، ودرس نظريات الطب والتشريح ؛ ثم سافر إلى الهند ، وهو في الثامنة عشرة من عمره ، واطلع على علوم الرياضة في الطرق الحديثة ، وقدم الحجاز للحج ، وقضى في رحلته إلى مكة سنة ، فأفادته الرحلة خبرة بالشعوب الإسلامية ، وأحوالها الإجتماعية ؛ ثم رجع إلى بلاده ، واشترك في مؤامرة سياسية مكنت بعض الأمراء من التغلب على عرش الأفغان ، فعظمت مكانته لدى هذا الأمير ؛ ولكن عصفت الأحداث بأميره هذا ، وحاول خلفه الانتقام من السيد جمال الدين ، ففطن لمكايده وغادر بلاده إلى الهند فمصر ، ومكث بمصر أربعين يوماً ، ومن ثم يمم نحو الآستانة فذاع صيته بها ، وعلت مكانته حتى انتخب بعد مدة وجيزة عضواً في مجلس المعارف الأعلى ، ولكن آراءه الإصلاحية الجريئة ، وأفكاره الحرة التي لم يألفها الناس في عصره بعثت في نفوس رجال عبد الحميد الهلع ، وتألب عليه كثير من القوم ، ولا سيما شيخ الإسلام ، فجاءه الأمر بمغادرة البلاد خشية أن يشعل في عرش عبد الحميد الحريق

---

(١) هكذا روى جمال الدين عن ولادته ، أما الفرس فيدعون أنه ولد بالقرب من همدان بإيران ؛ ويرجع تفضيله الانتساب إلى الافغان ، كما يقول الاستاذ براون (الثورة الفارسية ص ٤٠٢ . هامش) إلى أن جمال الدين كان سنياً عربياً وأنه أراد الهروب من الجنسية الفارسية الشيعية التي كان يشك في قيمتها .

فقدم السيد جمـــال الدين مصر ، ودخلها في مارس سنة ١٨٧١ ، ومكث بها ثماني سنوات كانت خير السنين بركة على مصر وعلى الشرق العربي والإسلامي ، فقد حاول جمال الدين من قبل أن يغرس تعاليمه ، وينفخ في الشعوب الشرقية من روحه ؛ ولكن وجد أرضا مجدبـــة ، وشعوباً ميتة لم تسمع لندائه وما أن نزل مصر حتى فتحت له ذراعيها ، وحببت له الإقامة بها ، والتف حوله لفيف من أبنائها ، من كل توّاق للحرية ، محب للعلم حريص على نفع وطنه وإنهاض قومـه ، وتجاوبت روحهم وروحه ، ووجدوا فيـــه المعلم الفذ والمفكر الجريء وصاحب العقل المستقيم ، ووجد فيهم تلامـذة بررة ، وعقولاً خصبة ، ونفوساً تتحرق شوقاً للحرية والعدل .

كانت هذه السنوات الثمان مليئة بالأحداث ، فقـد غرقت مصر في ديونها التي اقترضها إسماعيل ، وبدت مطامع إنجلترا وفرنسا جليـة ، فأنشيء صندوق الدين وفرضت الرقابة الثنائية واستحالت هـذه الرقابة إلى مشاركة في الحكم ، إذ دخل وزارة نوبار باشا وزيران أوربيان أحدهما فرنسي والآخر إنجليزي ، يشرف الفرنسي على وزارة الأشغال ويشرف الإنجليزي على وزارة المال [1] ، وأي احتلال أبشع من هذا ؟ إن الذي يصرف المـــال قوام على شئون الدولة ، ومن يتولى الأشغال مهيمن على تقدم الأمة ، فكان عجباً ألا ينغمس السيد جمال الدين في السياسة من أخمص قدميه إلى قمة رأسه ، وهو الذي حـاول من قبل أن يثل عرشاً ، وينصب ملكاً ، ويصلح من شئون عبـــد الحميد المستبد الطاغية .

جاء جمال الدين مصر وهذه ظروفها ، ووجـد من إسماعيل صدراً

---

(١) عصر اسماعيل لعبد الرحمن ج ص ٩٠ .

رحباً ، لأنه رأى فيه العالم المشهور بفلسفته وعلمه ، فوجوده بمصر ربح لا يقدر ، وهو في نظره ، أجل وأنفع من بعض المعاهد العلمية التي أنشأها ، لأنه معهد حي حنكته التجارب وأنضجته الحوادث ، ولم يكن السيد قد عُرف بآرائه السياسية المتطرفة بل غلبت عليه الصبغة العلمية ، ولم يكن اسماعيل يخشى على حكمه أحداً ، وهو الحاكم الذي لا يراجع في حكم ، والذي يتصرف في أقدار البلاد دون رقيب أو حسيب ، وكان مجلس الشورى آلة مطواعة في يده ، لا يجهر باعتراض ، أو يجرؤ على مخالفة ، ثم إن اسماعيل كان يتحدى الدولة العثمانية في ذلك الوقت ، ويتوق جهده إلى الاستقلال بأمر مصر ، وقد رأى أن الآستانة قد ضاقت رحابها بالسيد جمال الدين وخافت من آرائه وتعاليمه ، فلتبرهنْ مصر على أنها أقوى من تركيا وأكرم نفساً ، وأقدر على هضم آراء جمال الدين من أي بلد في الشرق ، ولم يكتف إسماعيل بهذا الترحاب بل أجرى على السيد راتباً شهرياً زيادة في إكرامه .

وأخذ هذا العقل المنظم الجبار يشع النور في كل مكان يحله صاحبه ، فدروس منظمة يلقيها في بيته على صفوة مختارة من حوارييه أمثال : محمد عبده وعبد الكريم سلمان ، وإبراهيم اللقاني ، وسعد زغلول ، وإبراهيم طلباوي ، وكانوا جميعاً طلبة بالأزهر حينذاك وكانت هذه الدروس : منطقاً وفلسفة وتصوفاً وهيئة ، مثل كتاب الزوراء في التصوف وشرح القطب على الشمسية في المنطق ، والهداية والإشارات وحكمة العين ، وحكمة الإشراق في الفلسفة ، وتذكرة الطوسي في علم الهيئة القديمة . وهي كتب قديمة تمثل علماً قديماً دَوَّنها أربابها في العصور الأولى للدولة العربية ، ولكن الروح التي درس بها جمال الدين هذه الكتب ، والطريقة التي عرضت بها هذه المباحث ، والتعليقات التي كان يفمض فيها عقب كل مقالة أو بحث ، والاستطرادات التي تدعو إليها

مقتضيات العصر وظروفه هي التي حببت هـذه الدروس وتلك الكتب لهؤلاء التلاميذ الأذكياء ، وجعلت من دروس جمال الدين نبعاً صافيـاً يغترف منه الطلبة علماً وفلسفة ، ووطنية ، واجتماعاً ، وحججاً قوية لرد المارقين عن جادة الدين ، ووجدوا فيه شخصية لا تتردد في اصدار الأحكام العامة على القضايا المعروضة .

وبجانب هذه الدروس المنظمة كان للسيد مجلس آخر بأحد المقاهي القريبة من حديقة الأزبكية ، حيث يلتف حوله أنماط شتى من الراغبين في التزود من علمه وفكره ، يجلسون اليـه ويطرحون عليه أسئلة في مختلف الموضوعات ، وهو يجيب إجابات العـالم المحقق « لا يسأم من الكلام فيما ينير العقل ، أو يطهر العقيدة ، أو يـذهب بالنفس إلى معالي الأمور أو يستلفت الفكر إلى النظر في الشئون العامة ممـا يمس مصلحة البلاد وسكانها ، وكان طلبة العلم ينتقلون بما يكتسبونه من تلك المعارف إلى بلادهم أيام البطالة ، والزائرون يذهبون بمـا ينالونه إلى أحيائهم ، فاستيقظت مشاعر ، وتنبهت عقول ، وخف حجاب الغفلة في أطراف متعددة من البلاد خصوصاً في القاهرة [1] » .

في هذه الحلقة انشئت مدرسة غير مقيدة بمنهج أو كتاب ، ولكنها كانت روحاً مشعة تبدد دياجير الغفلة ، وتحيي العزائم الميتة ، وتلهب الإرادات الخامدة وتفتح الأذهان المغلقة ، وفيهـا تخرج محمود سامي البارودي ، وعبد السلام المويلحي ، وأخوه إبراهيم المويلحي ، ومحمد عبده ، وإبراهيم اللقاني ، وسعد زغلول ، وعلي مظهر ، وسليم نقاش ، وأديب إسحق وغيرهم . وفي هذه المدرسة العامـة ، استعرضت حال

---

(١) من ترجمة الإمام الشيخ محمد عبده له .

الأمة الاجتماعية والسياسية ، وحقوقها وواجباتها ، وأدوائها ودوائها ، وانتقد الحكام ، وبثت التعاليم ، وفشت روح التذمر من الأجانب وتدخلهم في شئون البلاد مما كان له أبلغ الأثر فيما بعد .

كان جمال الدين يقضي بياض نهاره في بيته يختلف إليه أعضاء تلاميذه ، وما أن يقبل الليل حتى يخرج متوكئاً على عصاه الى هذا المقهى ، فيجد في انتظاره الطبيب والمهندس والأديب والشاعر والمعلم والكيماوي وغيرهم ، ويظل يحدثهم بشغف وقوة حتى يمضي جزء كبير من الليل .

ولم يكتف جمال الدين بهذه المدرسة العامة ، ولا بالدروس الخاصة ، بل حاول أن يسيطر على الحياة السياسية ، فانضم الى جماعة (الماسون) وبها الطبقة الممتازة من أبناء الأمة لعله يستطيع أن يريهم النور ، ويبصرهم حقيقة ما هم فيه ، وما عليه بلادهم وكيف يستطيعون نفعها بمالهم وجاههم ؛ ولكن وجد المحفل الماسوني يأبى أن يقتحم ميدان السياسة ، ويتعرض للمسائل العامة ، والقضايا الهامة ، فثارت ثائرته وأخذ ينقد أعضاءه نقداً لاذعاً ، ويتهكم بهذه الكلمات الجوفاء التي اتخذوها لهم شعاراً مثل : « الحرية والمساواة ومنفعة الإنسان ، والسعي وراء دك صروح الظلم ، وتشييد معالم العدل المطلق » فكيف تتحقق معاني هذه الكلمات اذا لم يُشغل المحفل (الماسوني) بالسياسة . ولما أخفق في بعث هذه النار الهامدة في نفوسهم الميتة استقال ، وكوّن محفلاً آخر للشرق الفرنسي ، وأخذ الأعضاء يزيدون حتى بلغ عددهم ثلاثمائة عضو من نخبة المفكرين ، ونظمهم شعباً مختلفة : فشعبة للعدل ، وأخرى للمالية ، وثالثة للأشغال ، ورابعة للجيش وهكذا حتى تدرس أحوال البلاد جميعها وتعرف وجوه النقص ، وما يتطلبه الإصلاح من أعمال .

وبذلك أراد جمال الدين أن يسيطر على عقول العلماء في بيته ، وعلى أفئدة المستنيرين في مقهاه ، وعلى أزمّة السياسة في محفله ، ويأبى الا أن يصبغ مصر المتعلمة غنيها وفقيرها بآرائه وتعاليمه ، ويدفعهـا في الطريق التي رسمها .

أثره بمصر :

١ ــ أراد في درسه النظامي أن يعوّد الطلبة حرية البحث ، ويطلعهم على آفاق جديدة من التفكير وفهم العالم ، وأن يوجد شخصيات تبحث وتفقد وتحكم ، وألا تقف عند حد النص كأنه تنزيل من الله سبحانه ، وكانت طريقته في هذه المدرسة جذابة شائقة إذ يفيض في شرح المسألة ويعلق عليها من عنده ثم يقرأ النص بعـد ذلك ، فإذا هو واضح كل الوضوح . وعلى العكس من ذلك كانت طريقة الشيخ محمد عبده ، إذ كان يقرأ النص أولاً ، ثم يعلق عليه بعد ذلك .

٢ ــ وأراد في مدرسته العامة أن يعلم الشعب كيف يسترد حريته المفقودة وكرامته المهدرة ، وكيف يحـاسب حكامه حساباً عسيراً على تصرفاتهم ، وكيف يتنبه الى دسائس المستعمرين الجشعين ونواياهم ، وكيف يعيش هذا الشعب عيشة تليق بالأناسي .

٣ ــ وأراد في ميدان السياسة أن يغير هذا الحكم المطلق الذي يستبد فيه الحاكم بأمتـــه ويستهين بشعبه ، ويتصرف في أموالهم وأرواحهم تصرف السيد في حرّ ماله وعبده ؛ أراد أن يشترك الشعب في حكم نفسه بنفسه ، وأن ينوب عنه ممثلون نيابيون يرعون مصالحه ويسهرون على اسعاده

وقد كان له في السياسة كذلك مقصد أسمى من هــذا ، وعنه عبر الشيخ محمد عبده بقوله : « انه كان يسعى لإنهاض احــدى الدول الإسلامية من ضعفها ، وتنبيهها للقيام بشئونها ، حتى تلحق بالدول القوية ، فيعود للاسلام شأنه ، وللدين الحنيف مجده ، ويدخل في هــذا تنكيس دولة بريطانيا في الأقطار الشرقية ، وتقليص ظلها عن رؤوس الطوائف الإسلامية ، وله في عداوة الإنجليز شئون يطول بيانها [1] » .

٤ – وقد استعان على تحقيق هذه الأهداف – وان لم تتحقق كلها ولا سيما السياسية منها – بتكوين جماعـــة من الكهول والشبان حبب اليهم الكتابة ، ورسم لهم خطتها ، وأوحى لهم بالمعاني الجديدة التي يكتبون فيها . وشجعهم على انشاء الجرائد ، يكتب فيها بنفسه ويطلب الى من يتوسم فيه المقدرة والمنفعة أن يكتب فيها ، ومن مقالاته في جرائد أديب اسحاق ما كان يوقعه باسم (مظهر بن وضاح) . وطلب الى الشيخ محمد عبده وابراهيم اللقاني وغيرهما أن يشتركا في تحرير جريدة (التجارة) التي أنشأها أديب اسحق ، وفي هذه الجريدة كتب السيد جمال الدين مقالين أحدهما : « الحكومات الشرقية وأنواعها » والثاني بعنوان « روح البيان في الإنجليز والأفغان » ، وكان لهذين المقالين صدى بعيداً ، ولكن جريدتي أديب اسحق (مصر والتجارة) ضايقا رياض باشا بروحها الجديدة وأسلوبها الملتهب ، وأفكارهما الجريئة فأغلقها كما مَرَّ بنا [2]

وقد تدخل كذلك في تحرير « الوقائع المصرية » وطلب الى الكتاب

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٣٤ .

(٢) راجع ص ٩٢ من هذا الكتاب .

أن يديجوا مقالاتهم في موضوعات معينة تمس حياة الأمة في صميمها ، فيقول الشيخ محمد عبده : « إن الحاكم وإن وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، ولا يرده عن خطئه ، ولا يقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل »

وتراه يحرض الصحفي اليهودي « يعقوب بن صنوع » على إصدار جريدته التهكمية (أبي نضارة) ويشجعه على الاستمرار في النقد الذي يلدغ به إسماعيل .

وقد كان لهذه المقالات أثران : أحدهما تنبيه الأذهان إلى المسائل الحيوية وتعويد الناس الجرأة على الحكام ومطالبتهم بالنّصفة والعدل ، وتبيان مكايد الأجانب وجشعهم ، وثانيهما تكوين جيل من الكـتّاب متمكن من اللغة قدير على الإسهاب شرح المعضلات من غـير لجوء إلى المحسنات والزخارف ، خبير بتفتيق المعاني وتوليد الأفكار ، متحرر من السخافات والجمود ، مترسما في ذلك سنن أستاذه جمال الدين الذي يقول عنه الشيخ محمد عبده . « له سلطة على دقائق المعاني وتحديدها وإبرازها في الصورة اللائقة بها كأن كل معنى قد خلق له ، وله قوة في حل ما يعضل منها كأنه سلطان شديد البطش ، فنظرة منه تفكك عقدها . كل موضوع يُلقى إليه يدخل للبحث فيه كأنه صنع يديه ، فيأتي على أطرافه ، ويحيط بجميع أكنافه ، ويكشف ستر الغموض عنه فيظهر المستور منه ، وإذا تكلم في الفنون حكم فيها حكم الواضعين لها ، ثم له في باب الشعريات قدرة على الاختراع ، كأن ذهنه عالم الصنع والإبداع » .

ويقول في موضع آخر . « كان أرباب العـلم في الديار المصرية ، القادرون على الإجادة في المواضيع المختلفة منحصرين في عدد قليل ، وما كنا نعرف منهم إلا عبد الله باشا فكري ، وخيري باشا ، ومحمد باشا

سيد أحمد ، على ضعف فيــه ، ومصطفى باشا وهبي ، على تخصص فيه ، ومن عدا هؤلاء ، فإما ساجعون في المراسلات الخاصة ، وإمـــا مصنفون في بعض الفنون العربية أو الفقهيـــة وما شاكلها ، ومن عشر سنوات ترى كتبة في القطر المصري لا يُشق غبارهم ، ولا يوطـــأ مضمارهم ، وأغلبهم أحداث في السن ، شيوخ في الصنعـة وما منهم إلا أخذ عنه أو عن أحد تلاميذه أو قلد المتصلين به » .

وقد مر بك ما تميز به أسلوب هذا النـثر في موضوعاته الثلاثة : الاجتماع ، والأدب ، والسياسة .

جمال الدين والثورة :

لم يكن جمال الدين على وفاق مع إسماعيل فى أخريات أيامـه ، بل كان ناقماً عليـــه لاستبداده وإسرافه ، وتمكينه بسياسته الأجانب في البلاد ، وكان يتوهم الخير في توفيق إذ كان يجتمع به وهو ولي للعهد ، ويرى ميله للأخذ بنظام الشورى ، ونقده لسياسة أبيه وإسرافه ، وقد اجتمعا في محفل الماسونية ، وتعاهدا على إقامة النظام النيابي .

بَيْدَ أن توفيقاً لم يف بعهده بعد ان تولى الحكم ، وسَرعان ما تنكر لمبادئه ولأصدقائه فلم يُدخل نظام الشورى ، ولم يحسن معاملة السيد جمال الدين الأفغاني ، بـــل استمع لأقوال الوشاة من الإنجليز وسواهم ؛ اذ حرضوه على اخراجه من مصر [1] فاستجاب لهم ، ولم يكن كريماً

---

(١) المنار جـ ٨ ص ٤ . وانظر كذلك. The PersianRevolution : F. G. Browne 1909 p.8 وتاريخ الامام جـ ١ ص ٧٠ .

في معاملة هذا العبقري الشريف بـل استعمل معه غاية الغلظة والقسوة والجفاف ، فسيق إلى دار الشرطة بليل بعد انصرافه من مقهاه بغير غطاء أو فراش ، وبات ليلته كما يبيت اللص الأفاق على أرض المخفر ، ثم هُرّب إلى السويس حيث رحلت به سفينة إلى الهند ، وهكـذا حرمت مصر مصدر خير كبير لها ، وجازت هـذا النابغة على فضله جحوداً وجفوة .

ومن العجيب أن يضم مجلس الوزراء الذي أصدر أمره بنفيه بحجة أنه « رئيس جمعية سرية من الشبان ذوي الطيش مجتمعة عـلى فساد الدين والدنيا » اثنان أعجب بهما وتوسم فيهما الخير : توفيق باشا ، والبارودي وكان ألمه بالغاً غايته للنكسة التي أصابت البارودي وقد كان يؤمل فيه كل خير ، ويعده ليوم عصيب في تاريخ مصر ، وقد ظلت هذه الآلام تحز في نفسه حتى أخريات حياته . فقد زاره الأمير شكيب أرسلان وهو بالآستانة ، ويدور الحديث حول مـا روي من أن العرب عبروا المحيط الأطلسي قديماً وكشفوا أمريكا بدليل الأهرام الموجودة ببلاد المكسيك ؛ فيقول السيد : « إن المسلمين أصبحوا كلما قال لهم الإنسان كونوا بني آدم أجابوه : إن آباءنا كانوا كذا وكذا ، وعاشوا في خيال مـا فعل آباؤهم ، غير مفكرين بأن ما كان عليه آباؤهم من الرفعة لا ينفي ما هم عليه من خمول وضعة ، إن الشرقيين كلما أرادوا الاعتذار عما هم فيه من الخمول الحاضر قالوا : أفلا ترون كيف كان آباؤنا ؟ نعم ! قد كان آباؤكم رجالاً ، ولكنكم أنتم أولاد كما أنتم ، فلا يليق بكم أن تتذكروا مفاخر آبائكم إلا أن تفعلوا فعلهم ؛ ان المسلمين قـد سقطت هممهم ، ونامت عزائمهم ، وماتت خواطرهم ، وقام شيء واحد فيهم هي شهواتهم . هذا محمود سامي البارودي عاهدني ثم نكث معي وهو أفضل من عرفت من المسلمين » .

والحق أن موقف البارودي من السيد جمال الدين لا يمكن الدفاع عنه . وإذا كانت مصر قد حرمت شخص جمال الدين فقد ظلت تعاليمه وروحه الثورية مشتعلة ، وقد انتقل منها قبس إلى كل من اتصل به ، يتطلعون إلى نظام جديد في الحكم حتى قامت الثورة العرابية ، وكثير من أقطابها مدينون بأفكارهم وحماستهم للسيد جمال الدين .

أقام السيد جمال الدين بحيدر أباد بعد أن خرج من مصر ، وهناك ألف كتابه في الرد على الدهريين ، وفيه يثبت أن الدين أساس المدنية ، والكفر فساد العمران ، ويبطل فيه مذهب (داروين) في النشوء والارتقاء ، لأن هذا المذهب قد أثار موجة من الإلحاد والزندقة كادت تودي بالحياة الروحية بالشرق وهي كل ما بقى له من تراث السلف ، بعد أن نال منه الدهر غايته ، وبين في هذه الرسالة كذلك أن الدين أكسبَ عقول البشر ثلاث عقائد وأودع نفوسهم ثلاث حصال : كل منها ركن لوجود الأمم . أما العقائد فالأولى : التصديق بأن الإنسان ملك أرضي وأنه أشرف المخلوقات ، والثانية : يقين كل ذي دين أن امته أشرف الأمم وكل مخالف له فعلى ضلال وباطل ، والثالثة : يقينه بأن الإنسان جاء إلى الدنيا كي يَكمُل كمالاً يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوي . وأما الخصال الثلاث : فهي الحياء والأمانة والصدق . ويبين أن الإسلام يتميز على غيره من الأديان بمزايا عديدة : منها صقل العقول بالتوحيد وتطهيرها من لوثة الأوهام ، ومخاطبة العقول حتى تؤمن فلا يقبل الاعتقاد بدون دليل ، وحرصه على تعليم الأمة ذكوراً وإناثاً .

ولما أخفقت الثورة العرابية ، ودخل الإنجليز مصر أبيح له أن يذهب أنى شاء في غير بلاد الشرق فاختار أوربا ، وزار لندن ثم

انتقل إلى باريس ، ووافاه إليها تلميذه الأكبر محمد عبده ، وكان منفياً ببيروت وهناك أصدرا معاً :

جريدة العروة الوثقى :

وهي دليل آخر على أن عزيمة السيد لا تفتر ، وعلى أن اليأس لم يبلغ في نفسه مبلغاً يثنيه عن أداء رسالته ، وقد كان من رأي الشيخ محمد عبده أن هذا الجيل من المسلمين ، الذين يدعونه للرشاد واليقظة جيل فاسد لا رجاء فيه ، وأن الأولى أن تنشأ مدرسة يربى بها عدد محدود من خيار الشباب يقودون الأمة فيما بعد لما فيه خيرها ونفعها ، ولكن هذه الفكرة لم ترق للسيد ، ورأى فيها تثبيطاً للهمم ، وكأني به يتعجل قطف الثمرة لهذه الغراس التي أودعها المتصلين به ، وأصر على أن يوجه الدعوة إلى الجيل الحاضر من الناس في صورة جريدة العروة الوثقى ، يكون له فيها الفكر المدبر والعقل المسيطر ، وللشيخ محمد عبده القلم المحرر واللسان المعبر ، ولميرزا محمد باقر الترجمة من الصحف الأوربية ، ونقل كل ما يهم الشرق والإسلام [1] : وصدر من الجريدة ثمانية عشر عدداً ، وكانت شعلة ملتهبة متوهجة من الحماسة والآراء الجرة الجريئة ، وكانت حرباً شنها جمال الدين وزميلاه على الاستعمار الجشع ، وكان طبيعياً أن يحاربها الاستعمار خشية أن تفسد عليه تفرده بالغنيمة وقتله الشعوب التي وقعت في قبضته ، فمنعها من دخول الهند ومصر [2] ولما شعر السيد وزميلاه أن الأعداد لا تصل إلى أصحابها إلا في النادر ،

---

(١) تاريخ الإمام ج ٢ ص ٢٢٩ ، والمنار ج ٨ ص ٢٥٥

(٢) المنار ج ٨ ص ٤٦٢ ومشاهير الشرق ج ٢ ص ٥٧

وأنه قــــد حيل بينهم وبين وصول صوتهم إلى آذان الناس في مصر والشرق عطلوها ، وإن لم يمت أثرها حتى اليوم .

عود إلى الرحلة :

لما عطلت الجريدة ، وانفرط عقد هذه الجماعة الصغيرة المجاهــدة ، ورجع الشيخ محمد عبده وميرزا باقر إلى بــيروت ، طلب شاه العجم السيدَ جمال الدين فلبى دعوته علّه يجد ميداناً صالحــاً للجهاد ، وأرضاً خصبة لغرس تعاليمه ، وملكاً شهماً مستنيراً ينفذ آراءه فيكون هــو الأمل المنشود ، ولكن هيهات وملوك ذاك الزمان ما ألفوا أن يشاركهم في سلطانهم أو جاههم أحد ، ولذلك سئم الشاه (نصر الدين) صحبة السيد ، ودبت في نفسه الغيرة منه . ولما أحس جمال الدين أنه أخذ يتنكر له استأذن في الرحيل ، ويمم صوب روسيا حيث قضى بها ثلاث سنوات يحرك روسيا ضد انجلترا ، ويشن هجمات متتاليــة شديدة على شاه الفرس كي يقر النظام الشوري ، ولما سأله القيصر عن سبب عداوته للشاه أجاب بأنه نظام الشورى الذي لا يرضيه ، والذي لا أنفك أدعو إليه ما حييت ، فقال القيصر : إن الشاه على حق ، فكيف يرضى ملك أن يتحكم فيه فلاحو مملكته ، فقال السيد : أعتقد يا جلالة القيصر أنه خير للملك أن تكون ملايين رعيته أصدقاءه من أن يكونوا أعــداءه يترقبون له الفرص . فلم يعجب القيصر هذا الحديث ، وكان من الطبيعي ألا يعجبه وهو المستبد الذي لا ينازعه سلطته منازع ، ولذلك عمل على إبعاده من روسيا [1]

---

(١) The Persian Revolution . p 1107

ومن ثم توجه السيد إلى باريس ، وفي طريقه إليها تقابل مع الشاه مرة ثانية واعتذر للسيد عما حدث ، ووعده أن يمهد له طريق الإصلاح إن هو عاد معه ، وتمنع السيد جمال الدين ، ولكن رغبته في الإصلاح وحرصه عليه جعلته يقبل الرجوع إلى طهران . وفيها أخذ يعد العدة للاصلاح وإقامة العدل ، هو ومن التف حوله من العلماء والعظماء ، والشاه يظهر استعداده لتقبل هـذا الإصلاح ، ولكن الصدر الأعظم في تركيا خشي إن تمكن نظام الشورى في فارس أن تسري عدواه ، فوسوس للشاه ، ونفّره من هذا الإصلاح ، بدعوى أن ذلك يحد من سلطانه ، ويتركه إمّعة لا رأي له في بلده ، فتجهم للسيد جمال الدين . ولكن هذا لجأ إلى ضريح ولي في بلاده (شاه عبـد العظيم) وهو حرم من دخله كان آمناً ، ووافاه جم غفير من العلماء والزعماء ولقنهم دعوته ، وملأ قلوبهم إحَنا وبغضاً للشاه ونظامه فاغتاظ هذا وأرسل جنده إليه ، واقتحموا عليه الضريح غير مبالين بحرمته ، ولا بمرض السيد ، وفي ذلك يقول : « سحبوني على الثلج إلى دار الحكومة بهوان وصغار وفضيحة لا يمكن أن يتصور دونها في الشناعة ... ثم حملتني زبانيـــة الشاه وأنا مريض — على بِرْذَون ، مسلسلا ، في فصـــل الشتاء وتراكم الثلوج والرياح الزمهريرية وساقتني جحفلة من الفرسان إلى خانقين » ومنها سافر إلى البصرة وهو في أشد حالات المرض ، وكاد يقضي عليه لولا رحمـة الله به [(١)]

ولكن هذا المكافح أبى أن يتقبل هذه الأهانة . وأقسم ألا يكف عن الشاه حتى يسقطه عن عرشه . وقد بر بقسمه ، وذلك بتحريضه العلماء والزعماء ، وتعديده مساوىء الشاه وتجسيمه أخطاءه ، ولا سيما تعاقده

---

(١) The Persian Revolution, p. 11 وتاريخ الامام جـ ١ ص ٥٥ :

مع شركة إنجليزية للدخان ، واضطر الشاه إلى فسخ العقد ، ودفع تعويض مالي كبير ، فكان ذلك أول خطوة في الانتقام .

وأخيراً ذهب السيد إلى لندن وأصدر مجلة شهرية سماها « ضياء الخافقين » بالعربية والإنجليزية ، وكان يكتب بها مقالات بامضاء (السيد الحسيني) .

خاتمة المطاف :

ثم رأى السلطان عبد الحميد أن يدعو إليه جمال الدين خشية أن ينضم إلى حزب تركيا الفتاة فيزيد في قوته ، وأرسل عبد الحميد رجاله يغرون السيد بالسفر إلى الآستانة ، ويمنونه الأماني الحلوة حتى استجاب لدعواه فكان بها كأنه في قفص من ذهب يحصون عليه حركاته وأقواله ، وإن لقي من السلطان حظوة عالية . بيد أن الحاشية ولا سيما أبو الهدى الصيادي ذلك الداهية المحتال الذي أتقن فن الدس والمؤامرات وتمكن من قلب السلطان حتى أصبح قوة غلابة ، قد أفسدوا السلطان عليه ، وما لبث عبد الحميد أن اصطدم بآراء السيد وجرأته ، ولم يدع السيد فرصة إلا حرضه فيها على الإصلاح ، وإقصاء الخونة والجبناء عن حاشيته ولكن لم يستجب لشيء من هذا . ولما قتل شاه العجم سنة ١٨٩٦ على يد أحد تلاميذ السيد اشتدت الريبة في جمال الدين وضيّق عليه حتى صار محبوساً في قصره ، ولما أراد الرحيل ترضاه السلطان خشية أن يشنها عليه حرباً شعواء في الخارج ، وهو تحت سمعه وبصره أهون ؛ ثم مرض السيد بالسرطان في فمه زمانا ، وشاعت الأقوال بأنه مات

مسموماً ، أو أن الطبيب أهمل في علاجه عمدا [1] وكانت وفاته في ٩ من مارس سنة ١٨٩٨ ، ودفن في قبر حقير كما يدفن أقل الناس وطمست معالم هذا القبر إلى أن قيض الله رجلاً أمريكياً بحث عنه حتى وجده فجدده ، وبنى عليه حاجزاً حديدياً وشادة بالرخام وكتب على أحد وجوه الرخام اسم السيد وتاريخ ولادته ووفاته وفي وجه آخر العبارة الآتية : « أنشأ هذا المزار الصديق الحميم للمسلمين في أنحاء العالم الخيّر الأمريكاني المستر شارلس كرين سنة ١٩٢٦ [2] » . وهكذا خمدت هذه الشعلة المتوهجة ، وإن ظلت آثارها حتى اليوم في نفوس من خالطوه وأخذوا عنه ، وفي نفوس تلاميذه وأتباعهم والأجيال التي تأثرت بهم .

نبذة من آرائه :

١ — مرّ بك في ثنايا هذه الترجمة الموجزة شيء من آراء السيد جمال الدين ، وهماك بعض من أفكاره وتعاليمه ونظراته إلى الحياة جديرة بالنظر ، فقد كان في أول حياته طموحاً ، ذا خيال واسع ، وأمل عريض شمل الإنسانية جمعاء ، حتى دعاه ذلك إلى التفكير في السبب الذي يدعو الناس إلى الاختلاف والخصام ، ويدعو الدول إلى الحروب والعداء . وهداه تفكيره إلى أن السبب الأول هو تعصب رجال الدين في كل ملة ، وسوء توجيههم للشعوب ، وشحن قلوبهم بالحقد والبغضاء لكل من خالف دينهم ؛ وفي هذا يقول : « ورجعت إلى أهل الأرض ، وبحثت في أهم ما فيه يختلفون فوجدته الدين ، فأخذت

---

(١) راجع حاضر العالم الاسلامي ج ١ ص ٢٠٤

(٢) أحمد أمين بمجلة الثقافة العدد ٢٨٨ .

الأديان الثلاثة ، وبحثت فيها بحثاً مجرداً عن كل تقليد منصرفاً عن كل تقيد ، مطلِقاً للعقل سراحه ، ووجــد أن الأديان الثلاثة تتفق في الغاية والمبدأ وأنه « إذا نقص في الواحد شيء من أوامر الخير المطلق استكمله الثاني — وإذا تقادم العهد على الخلق ، وتمادوا في الطغيان ، وأساءت الكهان فهم الناموس أو أنقصوا من جوهره أتاهم رسول فأكمــل لهم ما أنقصوه ، وأتم بذاته مـا أهملوه » ، وإذا كانت الأديان متفقة في المبدأ والغاية فما الذي يحول بين أهل هذه الأديان وبين الاتحاد ؟ إن اتفاقهم ووحدتهم تكفل لهم السعادة البشرية ، وبعــد ذلك يقول : « وأخذت أضع لنظريتي هذه خططاً وأخط أسطراً ، وأحـبر رسائل للدعوة ، كل ذلك وأنا لم أخالط أهـل الأديان كلهم عن قرب ، ولا تعمقت في أسباب اختلاف حتى أهـــل الدين الواحد ، وتفرقهم فرقاً وشيعاً وطوائف » . ولكن سرعان ما أدرك أن دون هذا الاتحاد اهوالاً وأهوالاً ، ولقد نسي قوله تعالى « ولو شاء ربُّك لجعل الناس أمة واحدة » ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ، ولذلك خلقهم . وأن من يتعرض لهذه الدعوة يرمى بالكفر والإلحاد ، والخروج عن جادة الدين ، وقد رمي بذلك فعلاً ولهذا باء بالإخفاق : « انقلبت أفراحي بالخيــال أتراحاً ، ورجعت عن نظريتي والفشل ملء إهابي وجبتي »[1]

وتطامن من أهدافه ، ووجـــد أن الشرق المسكين أولى بالرعاية والعناية ، وأن إصلاح العالم كله محال ، ولذلك عكف على جهـاده في سبيل هذا الشرق ، وكان متألماً لبعض الخلافات الدينية بين أبنـــاء الملة الواحدة كالسنة والشيعة .

---

(١) قدري طوقان : جمال الدين — آراؤه وأثره في نهضة الشرق ص ٢٠ .

٢ – وكان يرى ألا موجب لسد باب الاجتهاد في الدين ، وعلى المسلمين إذا أرادوا التقدم ، أن يستعملوا عقولهم ، ويستنبطوا كما استنبط أسلافهم أحكاماً تتمشى مع زمنهم وبيئاتهم ، ويقول : « ما معنى أن باب الاجتهاد مسدود ؟ وبأي نص سد ؟ ومن قال لا يصح لمن بعدي أن يجتهد ليتفقه في الدين ويهتدي بهدي القرآن وصحيح الحديث والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجات الزمن وأحكامه ؟ إن الفحول من الأئمة اجتهدوا وأحسنوا ولكن لا يصح أن نعتقد أنهم أحاطوا بكل أسرار القرآن ، واجتهادهم فيما حواه القرآن ليس إلا قطرة ، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده [١] » .

وإذا تأملت أهداف جريدة العروة الوثقى التي ذكرها في المقال الافتتاحي أدركت إلى حد ما بعض آراء جمال الدين في إصلاح الشرق ، وقد عرفت ان جمال الدين كانت له الفكرة التي يعبر عنها محمد عبده في الجريدة . وهناك بعض هذه الأهداف والآراء :

(ا) بيان الواجبات على الشرقيين التي كان التفريط فيها موجباً للسقوط والضعف ، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات . ويستتبع ذلك بيان أصول الأسباب ومناشىء العلل التي أفسدت حالهم ، وعمّت عليهم طريقهم ، وإزاحة الغطاء عن الأوهام التي حلت بهم .

(ب) إشراب النفوس عقيدة الأمل في النجاح ، وإزالة ما حل بها من اليأس .

(حـ) دعوتهم إلى التمسك بالأصول التي كان عليها أسلافهم وهي

---

(١) خاطرات محمد باشا المخزومي .

ما تمسكت به الدول الأجنبية العزيزة الجانب .

(د) الدفاع عما يرمى به الشرقيون عموماً والمسلمون خصوصاً من التهم وإبطال زعم الزاعمين ان المسلمين لا يتقدمون في المدنيــة ما داموا متمسكين بأصول دينهم

(هـ) تقوية الصلات بين الأمم الإسلامية ، وتمكين الألفة بين أفرادها وتأمين المنافع المشتركة بينها ، ومناصرة السياسة الخارجية التي لا تميل إلى الحيف والإجحاف بحقوق الشرقيين .

وكان جمال الدين يعتز بشرقيته وبلغته ، ويشمئز من هؤلاء الذين يتنكرون لقوميتهم ولغتهم ؛ فإن هذا التنكر يساعد المستعمر ، بل هو أثر من آثار تعاليمه يرمي بهـــا إلى الحط من شأن كل ما هو شرقي و « لإضعاف انفة القوم ، والتدرج بقتل التعليم القومي ، وتنشيط القائلين من الشرقيين بأن ليس في لسانهـــم العربي او الفارسي او الأردى او الهندي آداب تؤثر ، ولا فى تاريخهم مجد يذكر » . لقد بلغ ببعضهم لقة « ان ينفروا من سماع لغتهم ، وأن يتباهوا بأنهم لا يحسنون التعبير بها ، وأن ما تعلموه من الرطانة الأعجمية هي منتهى ما يمكن الوصول إليه من المدركات البشريه » .

وقد عرفت فيما سبق كفاحه في سبيل حريــة الشعوب ، ومطالبته بنظام الشورى ووقوفه أمـــام الحكام المستبدين كالجبل الأشم في جرأة وعزة نفس ، واستنهاضه الهمم ، كي تقوى دولة إسلامية تكون النواة التي يلتف غيرها حولها وبذلك يعاد مجد الاسلام ويقف قوياً أمام مطامع الغرب وعسفه .

ولقد كان جمال الدين عالمــاً ومفكراً وفيلسوفاً ومصلحاً اجتماعياً ،

أشرب قلبه حب بلاده ودينه ، وأرسله الله في هذه الحقبة من التاريخ ليبدد دياجير الجهل ويبعث الحمية في النفوس . ولقد أرغم خصومه على احترامه بصراحته وجرأته. ولقد رأيت كيف ضاقوا به ذرعاً في كل مكان ؛ لأنه كان حرباً على الجهل والظلم والقسوة والطغيان ، ولقد أقر له الغربيون بالفضل حتى لقد قال عنه (رينان) وهو من هو في كرهه للمسلمين : « ولقد يخيل إليّ من حرية فكر الأفغاني ونبالة شيمه وصراحته – وأنا أتحدث إليه – أني أرى أحد معارفي من القدماء وجهاً لوجه ، وأني أشهد ابن سينا أو ابن رشد أو واحداً من العظام الذين ظلوا قروناً عدة يعملون على تحرير الإنسانية من الإسار » .

أسلوبه في الكتابة :

لم يكن جمال الدين مفطوراً على اللغة العربية مطبوعاً على أساليبها الفصيحة ، لأنها ليست لغته الأولى ، وإنما تعلمها تعلماً ، ولم يكن حظه من آدابها كثيراً ، ولم يتذوق منازع بلاغتها بقدر كبير . ولكنه أفادها فائدة جليلة بارشاد تلاميذه الى التحرر من القيود الثقيلة التي كانت ترسف فيها الكتابة الإنشائية من محسنات بديعية مختلفة ، وسجع متكلف ممقوت ، واستعارات غريبة وغير ذلك مما أفسد المعنى ، وستر الأفكار عن الوضوح والجلاء . كما أرشدهم الى تجنب المقدمات الطويلة ؛ وطبيعي أن يصرفهم الى الاهتمام بالمعاني . لأن هناك أشياء كثيرة يريدون الإبانة عنها ، والإفاضة فيها . ولا يتسع هذا النثر المقيد لكل تلك المعاني ولا يستطيع إيضاحها كاملة . ولقد رأيت فيما سبق نماذج من هذا النثر دبجها تلاميذه ، أمثال محمد عبده وأديب إسحق . وقد قال أديب عن أسلوبه الذي تأثر فيه بتعاليم جمال الدين : « رأيت

أن أصرف العناية والاجتهاد إلى تهذيب العبارة ، وتقريب الإشارة لتقرير المعنى في الأفهام ، من أقرب وأعـذب وجوه الكلام ، وانتقاء اللفظ الرشيق للمعنى الرقيق ، متجنباً من الكلام مـا كان غريباً وحشياً أو مبتذَلاً سوقياً ، فإن التهافت على الغريب عجز ، وفساد التركيب بالخروج عن دائرة الإنشاء داء إذا سرى في القراء والمطالعين أدى إلى فساد عام ، وأغلق على الطلبة معاني كتب العلم . والتنازلُ إلى ألفاظ العامة يقضي بإماتة اللغة وإضاعة محاسنها ، وإن في لغة القوم لدليلاً على حالهم » .

وهذا الوصف الذي ذكره أديب إسحق لنثره هو أثر من تعاليم جمال الدين ، وسترى من النموذج الذي سأعرضه عليك من نثره أن جمال الدين وإن لم يكن من المطبوعين على أساليب العربيـة الجميلة ، إلا أنه كان ينتزع البلاغة انتزاعاً فترى لقلمه سطوة لا تراهـا لكثير من الأقلام . وقد مر بك ، ما قاله الشيخ محمد عبده في قدرتـه على تفتيق المعاني والاحتفال بها . ومن مزايا أسلوبه كثرة الجمل الاعتراضية ، والفصل بين فعل الشرط وجوابه أو المسند والمسند إليه بفواصل طويلة ، وهـذا ناشيء من ترتيب فكره وتعوده على الأساليب الفارسية الأعجمية . كما كانت لديه جرأة في استعمال القياس في اللغة فيأتي بجموع لم يعرفهـا العرب وصيغ لم تُسمع في لغتهم . وكان من مستلزمات كتابته وأثراً من آثار عجمته إدخال (الـ) على الأعلام .

هذا وقد وفينا موضوعات النثر في ذلك العصر حقها من الكلام ، وبينـا الأسلوب الذي تميز به كل منها ، فألقِ عليها نظرة لتقف على أسلوب جمال الدين فقد كان المرشد للكتاب ، وإن لم يكتب هو الا القليل . ومن هذا القليل الرسالة الآتية التي بعث بها الى عبد الله باشا فكري يعتب عليه — وقد بلغه ان رجلاً ذمه امام الخديو على مسمع

من فكري باشا فسكت ولم يدافع عنه ، وهي من النوع الأدبي ولذلك احتفى بأسلوبها أيما احتفاء ، وفيها تتجلى خصائص أسلوبه عامة .

« مولاي : إن نسبتُك إلى هوادة في الحق وأنت - تقدست جبلتك -- فطرت عليه ، وتخوض الغمرات إليــه ، فقد بعت يقيني بالشك ، وإن توهمت فيك حيداناً عن الرشد وجوراً عن القصد ، وأنا موقن أنك لا زلت على السداد غـير مُفرِط في الحق ولا مُفرِّط ؛ فقد استبدلت علمي بالجهل - ولو قلت : إنك من الذين تأخـــذهم في الحق لومة لائم ، وتصدهم عن الصدق خشية ظالم ، وأنت تصدع بـه غير وانٍ ولا ضجر ، ولو ألب البــاطل الكوارث المردية ، وأجرى عليك الخطوب الموبقـة لكذبت نفسي وكذبني من يسمع مقالتي ؛ لأن العالم والجاهل ، والفطن والغبي كلهم قد أجمعوا على طهـارة سجيتك ، ونقـــاوة سريرتك واتفقوا على أن الفضائل حيث أنت ، والحق معك أينما كنت لا تفارق المكارم ولو اضطررت ، وأنت مجبول على الخـير لا يحوم حولك شر أبداً ، ولا تصدر عنك نقيصة قصداً ، ولا تهن في قضاء حق ، ولا تني عن شهادة صدق ، ومع هذا وهـذا وذاك إنك مع علمك بواقع أمري ، وعرفانك بسريرتي وسري ، أراك مـا ذدت عن حق كان واجباً عليك حمايتـــه ، ولا صنت عهداً كانت عليك رعايته ، وكتمت الشهادة ، وأنت تعـلم أني ما أضمرت للخديو ولا للمصريين شراً ولا أسررت لأحـد في خفيّات ضميري ضراً ، وتركتني وأنياب النذل اللئيم (فـلان) حتى نهشني نهش السبع الهرم العظام ، ضغينة منه على السيد إبراهيم اللقــاني ، وإغراء من أعدائي أحزاب (فلان) .

ما هكذا الظن بك ولا المعروف من رشدك وسدادك ولا يطـاوعني لساني - وإن كان قلبي مذعناً بعظم منزلتك في الفضائل ، مقراً بشرف

مقامك في الكمالات – أن أقول عفا الله عما سلف ، إلا أن تصدع بالحق ، وتقيم الصدق ، وتظهر الشهادة ، إزاحة للشبهة وإدحاضاً للباطل ، وإخزاء للشر وأهله ، وأظنك قد فعلت أداءً لفريضة الحق والعدل . ثم إني يا مولاي أذهب إلى لندن ومنها إلى باريس مسلماً ، وداعياً لكم ، والسلام عليكم وعلى أخي الفاضل البار أمين بك » .

٨ صفر سنة ١٣٠٠ جمال الدين الأفغاني

٢ – الأستاذ الأمام الشيخ محمد عبده :

وإذا كان جمال الدين قد أبعدته الظروف القاسية ، وجنود الغدر والاستعمار عن مصر وهي أحوج ما تكون إليه ، فقد ظلت بها روحه الوثابة ، ومصر في ذياك الوقت قلب الإسلام النابض ، وأمل العروبة الغض ؛ لأن تركيا – وهي مقر الخلافة – كانت عجوزاً مشلولة الأطراف ، جافة الفؤاد ، يابسة العود ، تعتلج في أحشائها الوساوس والدسائس ، ويسيطر عليها خلفاء شبعوا من اللذائذ المادية حتى بشموا ، وانغمسوا في حمأة الشهوات حتى شرِقوا ، والشام قد هجرها المستنيرون الأحرار ، واستوطنوا مصر هرباً بنفوسهم الأبية أن يذلها الظلم ، ويجرحها الحيف والاضطهاد ، وبقية أقطار العروبة في سبات عميق ، أو يقظة قريبة من الوسن ، قد أعدتها تركيا بأدوائها ، فهي تترنح تحت فتكات الأمراض الاجتماعية وآلامها المبرحة وتكاد تسلم الروح إعياء وهزالاً .

أجل ! قد بقيت روح جمال الدين بمصر ترفرف على واديها في

شخص محمد عبده [1] وهو شيخ من صميم ريف مصر ، أرسله أبوه إلى جامع الأحمدي ليتعلم كما يتعلم كثير من الناس بعد أن حفظ القرآن ، ولكنه تمرد على هذا التعليم بعد سنة ونصف حاول فيها أن يفك طلاسم (الآجرومية) فأعيته الحيل ، فأيقن أنه غبي ، وأنه غير مستعد لتلقي العلم وصمم على العمل في الحقل كما يعمل إخوته وأهله ؛ بيد أن والده أكرهه على الاستمرار في طلب العلم فهرب إلى أحد أخوال أبيه وهو :

الشيخ درويش :

والشيخ درويش من الشخصيات التي أثرت على عقل محمد عبده وفي نفسه وفي خلقه ، وحددت له أهدافه في الحياة ، ولا يذهبن بك الظن ، فتتخيل أن الشيخ درويشاً هذا فيلسوف أوتي الحكمة وفصل الخطاب ، أو أنه عالم من علماء التربية الأفذاذ ، فلم يكن – علم الله – إلا شيخاً صوفياً سليم العقيدة ، نيّر البصيرة ، على حظ قليل من العلم ، وكثير من التجارب ، فقد تتلمذ على السنوسي بطرابلس ، وجاب بعض الأقطار يتلقى على رؤساء الصوفية طريقة الدعوة وسياسة النفس .

---

(١) ولد محمد عبده بقرية « شنرا » بمديرية الغربيــة سنة ١٢٦٦ هـ – ١٨٤٩ م وانتقلت به أمه إلى بلدة أبيه « عبده خير الله » محلة نصر بمديرية البحـيرة بعد ولادته بقليل وكان أبوه ذا مكانة ملحوظة في قريته يمتـاز بقوة الجسم وصحته ، وبشيء من سعة الرزق والكرم والاستنارة ، وقد ورث عنه محمد عبده كل هذا .

وقد ترك محمد عبده ترجمة حياته في وثيقتـين إحداهما كتبها استجابة لصديقه الشاعر الرحالة الإنجليزي « ولفرد سكاون بلنت » وفيها شيء عن أصل أسرته وجزء من تاريخ حياتـه W. S. Blunt Secret History of Egypt London 1907 ، والثانية ما نقله عنه الشيخ رشيد رضا إجابة عل أسئلة وجهها إليـه . انظر المنار ٨ س ٤٠٥ وما بعدها .

جاء الشيخ محمد عبده إلى الشيخ درويش هارباً [١] من العلم وكان في الخامسة عشرة من عمره فتياً قوياً مغرماً بركوب الخيل واللهو مع أمثاله من الشباب ، ولكن الشيخ درويش تلقاه كما يتلقى الطبيب المريض ، وعالج هذه العقدة التي كونتها (الآجرومية) في نفس الفتى ؛ وأعطاه كتاباً سهلاً في المواعظ والأخلاق . ولم يكن للفتى صبر على القراءة وسرعان ما مل المجلس ، ولكن الشيخ درويشاً أخذه برفق وتؤدة ، وكان يفسر له ما يقرأ فوجد الفتى فيما قرأ لذة ، وانصرف عن اللهو ، وعكف على قراءة الكتاب ، ويقول في ذلك : « وطلبت منه (يوماً) إبقاء الكتاب معي ، فتركه ، ومضيت أقرأه ، وكلما مررت بعبارة لم أفهمها وضعت علامة لأسأله عنها ، الى أن جاء وقت الظهر .. وعصيت في ذلك اليوم كل رغبة في اللعب ، وهوى ينازعني الى البطالة ، وعصر ذلك اليوم سألته عما لم أفهمه فأبان معناه على عادته ، وظهر عليه الفرح بما تجدد عندي من الرغبة في المطالعة والميل الى الفهم ولم يأت اليوم الخامس إلا وقد صار أبغض شيء إلي هو ما كنت أحبه من لعب ولهو وفخفخة وزهو ، وعاد أحب شيء إلي ما كنت أبغضه من مطالعة وفهم »[٢] .

وهكذا استطاع الشيخ درويش أن يحل العقد النفسية ، ويعيد للفتى

(١) مع العلم أنه كان قد تزوج وصمم على المكث بالبلدة . ولكن والده أمره بالذهاب إلى طنطا بعد أربعين يوماً من زواجه .

(٢) وبهذا برهن الشيخ درويش في قريته على أنه أقدر من علماء الأزهر في هداية الطلاب وتحبيبهم في القراءة : ولقد كان مشايخ الصوفية في الماضي رسل هداية وتبشير وعلى أيديهم أسلم كثير من وثنيي السودان وزنوج غابات أفريقية ، وهم الذين نشروا الإسلام في كثير من بقاع الأرض فأين منهم متصوفة زماننا الذين لاهم لهم إلا ملء البطون وكنز الأموال .

ثقته بنفسه وفي ذكائه ، ويرغبه في العلم : وقد أفاد الفتى من ذلك درساً لم ينسه مدى حياته ، وهو أن الأزهر بحاجة الى الإصلاح الشامل في كتبه التي تدرس : وفي المعلمين الذين يقومون بالتدريس وكان هذا أحد أهدافه في الحياة كما سنرى .

وقد أفاد من الشيخ درويش درساً آخر وقر في نفسه وبدل من قيم الأشخاص والناس عنده فلم يعد يهتم بالتفوق المادي والغنى والجاه ، بل علمه أن الإنسان الكامل في هذه الحياة هو من آمن وعمل صالحاً سواء كان غنياً أو فقيراً ، وعلمه كذلك أن الإسلام الصحيح يتنافى مع الأخلاق المنحلة والفساد ، لأنه عقيدة وعمل ، لا ألفاظ تقال ، ثم علمه كذلك أن الإسلام دين سهل سمح ، وأن مصدره الذي يجب أن يؤخذ منه هو القرآن وحده[1] وظلت هذه الدروس التي تلقاها في صباه تنمو وتترعرع في نفسه حتى صارت مبدءاً يسعى إليه وغاية يصبو الى تحقيقها .

وليس هذا كل ما فعله الشيخ درويش من توجيه لتلميذه ، بل كان يلقاه في الإجازات الصيفية بعد عودته من الأزهر ، ويلومه على عزلته وعدم الاختلاط بالناس ودراستهم وإفادتهم بما عرف ، وكان يغشى به المجالس ويحمله على أن يتحدث الى الناس ويجيب عن أسئلتهم ويكون لهم مرشداً ، لأن العلماء الذين يضنون بعلمهم على الناس لا خير فيهم . وقد بقي الشيخ محمد عبده حتى مات وهو يعمل بهذه النصيحة ، ويرشد

---

(١) كان الشيخ درويش تلميذاً للسنوسيين كما رأينا ، وهؤلاء كانوا يتبعون مذهباً شبيهاً بالمذهب الوهابي ، وهو الرجوع بالإسلام إلى بساطته الأولى ، متجنبين البدع وتفسيرات المتأخرين وزيادتهم في العقائد والفروع .

الناس كباراً وصغاراً رعية وساسة . فرحم الله الشيخ درويشاً ، لقد أدى للإسلام ولمصر وللشرق خدمة جليلة .

في الأزهر :

وتحول الشيخ محمد عبده من الجامع الأحمدي الى الأزهر ، وكان الأزهر في ذلك الوقت على حالة من الفساد لا تطاق وبحسبك أن تقرأ تقريراً وضعه الشيخ عبد الكريم سلمان[1] عن هذا المعهد وحال أساتذته وطلبته ، ومدة الدراسة فيه[2] ، وحال العلم ، فإن الكتب التي كانت تدرس به من نتاج العصور المتأخرة يدرّسها أساتذة لا يفهمون الغاية منها ، ولا يستطيعون كتابة أربع جمل صحيحة[3] ، وكان به كثير من ضيقي الفكر الذين يرمون الناس بالزندقة والكفر جزافاً مثل الشيخ عليش ؛ ولكن كان به من هيأتهم الظروف لأن يتسع أفقهم بعض السعة كالشيخ البسيوني ، والشيخ حسن الطويل وكان ذكيا حكيماً له نظرات في الحياة صائبة ، يقرأ الفلسفة فيرمى بالزندقة .

---

(١) لم يحمل التقرير اسم الشيخ عبد الكريم ولكن اشتهر بأنه له، وفيه أعمال مجلس إدارة الأزهر من ابتداء تأسيسه سنة ١٣١٢ هـ وهي مدة اشتغال الشيخ محمد عبده في مجلس الأزهر .

(٢) كانت إجازات الطلاب كثيرة ففي مولد السيد البدوي ، والدسوقي . ويوم عاشوراء والمولد الحسيني ، ومولد الشافعي ، والعفيفى والشرقاوي ، وهذا عدا الأعياد الإسلامية والمولد النبوي ورمضان والأعياد الرسمية ، ولم تكن مدة الدراسة تزيد عن ثلاثة أشهر ونصف يخرج منها الخميس والجمعة من كل أسبوع .

(٣) وقد مر بك وصف عبدالله فكري لهم في ص ١٥٧ من هذا الكتاب ، وقد كان الشيخ أحمد الرفاعي يدرس في ذلك الوقت كتاب المطول في البلاغة ويعترف أنه لا يحسن أن يكتب خطاباً ولو غير بليغ لأن هذا عمل تلاميذ المدرسة المدنية (أحمد أمين بمجلة الثقافة العدد ٣٨٨) واعتذر أحد أكابر العلماء وهو الشيخ الإمبابي عن حضور وليمة في رمضان فكتب رسالة الاعتذار على ورقة من أوراق العطار وأخطأ فيها عشرة أخطاء نحوية ، (محمد عبده لمحمد صبيح ص ٦٥ ، وتقرير الشيخ عبد الكريم سلمان) .

كانت هذه هي حال الازهر العلمية حين وفد إليه محمد عبده ، ناهيك بالقذارة التي كانت تلوث المسجد وصحنه ، ودورة مياهه ، وأروقته ، والفوضى الخلقية التي كانت سائدة بين طلابه . وأخذ الشيخ محمد عبده يدرس العلوم المتداولة بالأزهر حينذاك من نحو وفقه وتفسير . أما العلوم الحديثة فلم يكن يسمع عنها الأزهر ورجاله ، ومن يتعرض لها فهو كافر في عرفهم مارق عن جادة الدين .

وكان الشيخ درويش حينما يعود الطالب الفتى إليه يسأله عما درس بالأزهر في عامه وبعد أن يستمع إليه قليلاً يسأله : ما درست المنطق ؟ وما درست الحساب ؟ ما درست الهندسة ؛ فيجيب الشيخ محمد عبده بأن هذه الدروس لا يرى الأزهريون تعليمها ، فيقرر له هذا الصوفي المنزوي في قريته بأن كل العلوم يجب أن تعلم ، وعلى الطالب أن يسعى إليها في أي مكان ، ويقول له : « إن الله هو العليم الحكيم ، ولا علم يفوق علمه وحكمته ؛ وإن أعدى أعداء العليم هو الجاهل وأعدى أعداء الحكيم هو السفيه ! وما تقرب أحد الى الله بأفضل من العلم والحكمة فلا شيء من العلم بممقوت عند الله ، ولا شيء من الجهل بمحمود لديه إلا ما يسميه بعض الناس علماً ، وليس في الحقيقة بعلم كالسحر والشعوذة ونحوهما إذا قصد من تحصيلها الإضرار بالناس » فأي رجل كان الشيخ درويش هذا ؟ وعلى أي حال من الجهل كان الأزهر ؟

التمس الشيخ محمد عبده بعض هذه الدروس التي وجهه إليها مرشده عند الشيخ حسن الطويل[1] ، بيد أن هذه الدروس لم تشبع نهم نفسه ،

(١) وكان الشيخ حسن الطويل من الشخصيات الفذة في عصره ، ذا ذكاء حاد ومعرفة بالرياضيات وكان مدرساً بدار العلوم ، وقد بلغ من مهارته في الرياضيات أن كان يحل لطلبتها ما أشكل عليهم من تمرينات الهندسة ، وكان على معرفة بكتب الفلسفة القديمة وبالدنيا والسياسة =

على الرغم من طرافتها، وذكاء مدرسها وسعة مداركه وإنما كانت مثيرة لنفس الشيخ محمد عبده، تبعث فيها الرغبة الى الاستقراء والتعمق والوصول الى الحقائق الواضحة بدون تردد أو التواء، وأن تستشف ما وراء هذه الألفاظ القديمة، وأن تصل هذا العلم القديم بالحاضر الجديد، وتحل مشكلات الحياة بعامة ومشكلات مصر بخاصة. ولم يكن ذلك ميسوراً عند الشيخ حسن الطويل، وإنما تهيأ لمحمد عبده أن يدرك هذه الغاية عند استاذه الأكبر جمال الدين الأفغاني حين وفد على مصر وقد تحابا وتصادقا، ووجد جمال الدين في محمد عبده التربة الخصبة التي تحيل تعاليمه عملاً صادقاً قوياً لا ينقص منه شيء بل يزيد على مرور الأيام نماء، ووجد محمد عبده في جمال الدين الاستاذ الذي كمل له ما كان يشعر به من نقص؛ فإذا كان الشيخ درويش قد لقنه شيئاً من التصوف سابقاً فقد كان تصوفاً خيالياً تحول على يد جمال الدين الى تصوف عملي، وإذا كان الشيخ درويش قد بعث فيه الجرأة لمواجهة الناس والتحدث إليهم وبث تعاليمه بينهم، فقد مكنه جمال الدين من اختيار الموضوعات الصالحة التي يتكلم عنها، وأفسح أمامه أفق الاصلاح فتعددت شعبه وميادينه من دينية وخلقية واجتماعية، ثم إن جمال الدين حرضه على استخدام سلاح آخر في ميدان الدعوة، غير الخطابة والمشافهة، ألا وهو سلاح القلم، حتى تسير دعوته مشرّقة ومغرّبة، فتشمل القريب والبعيد وحتى تكون متقنة رائعة تغذيها التؤدة والفكر الناضج والمنطق. وقد

= وكان ذا شجاعة في الكلام بما يعتقد ولو حرم منصبه بدار العلوم، وزهد في الدنيا حتى لا يهمه منها شيء، يلبس ثيابا رخيصة، ويأكل قليلاً ويدعى الى موائد الأغنياء للافطار في رمضان فيأكل من طبق الفول ويزهد فيما عداه، ويطرد من دار العلوم لكلامه في السياسة فينفق عليه صاحب مقهى بلدي، فلما عاد الى عمله سلمه الشيخ حسن الطويل مرتبه لينفق عليه منه كما كان يفعل وهو مطرود، وكان يدرس في الأزهر الفلسفة والمنطق.

فتن محمد عبده بجمال الدين وبدروسه وبروحه المتوهجة وحماسته العارمة ، ونشاط فكره ونظراته للحياة ، ووجد فيه ما لم يجده عند حسن الطويل ، فلا بدع إذا رأيناه يكتب بخط يده على نسخة من كتاب قديم : « وكان الفراغ من قراءته وتقريره عند لسان الحق ، وقائد الخلق الى جناب الحق ، خلاصة من تجلى بالحكمة ، ومنقذ الضالين في تيه الجهالة والغمة ، محيي الحق والدين استاذنا السيد جمال الدين » وكان يلقبه « الحكيم الكامل » .

وكان جمال الدين يبادل محمد عبده حباً بحب وإعجاباً بإعجاب ، فقال عندما رحل من مصر سنة ١٨٧٩ : « تركت لكم الشيخ محمد عبده وكفى به لمصر عالماً » . وهي كلمة تدل على مبلغ اعتقاد هذا المصلح الكبير في تلميذه وقدرته على تنفيذ تعاليمه والقيام بالدعوة إليها من بعده : وقد روى المخزومي في خاطراته أن جمال الدين لم يذكر اسم محمد عبده إلا مقترناً بكلمة « الصديق » أو « صديقي الشيخ » ، ولما اعترض عبدالله نديم على ذلك وقال له ذات يوم : « أيها السيد ما غفلت مرة عن اضافة لفظ الصديق الى الشيخ محمد عبده كأنه لم يكن بين الناس صديق غيره ؛ إذ نراك تنعت من سواه بلفظ صاحبنا أو فلان من معارفنا ، أجاب جمال الدين بقوله : وأنت يا عبدالله صديق ، ولكن الفرق بينك وبين الشيخ محمد أنه صديقي على الضراء ، وأنت صديقي على السراء » ؛ ويعترف محمد عبده بأنه مدين بالشيء الكثير لجمال الدين ويقول : « إن أبي وهبني حياة يشاركني فيها (أخواي) عليّ ومحروس ، والسيد جمال الدين وهبني حياة أشارك فيها محمداً وابراهيم وموسى وعيسى والأولياء والقديسين » وقد مرت بك كلمته في قدرة جمال الدين على تفتيق المعاني وكيف يتكلم في كل فن كأنه من كبار أساتذته .

ومنذ اتصل محمد عبده بجمال الدين ابتدأ اتصاله بالحياة العامة والجهاد في سبيل إصلاح الأمة ، وهو بعد طالب في الأزهر ، لم ينل شهادة تجيز له التدريس . فقد كتب في (الأهرام) في السنة الأولى من صدورها بعض مقالات دلت على روحه وجرأته مثل « الكتابة والقلم » و « المدبر الإنساني والمدبر العقلي الروحاني » و « والعلوم الكلامية والدعوة الى العلوم العصرية »[1] . ولخص بعض دروس أستاذه في الفلسفة بجريدة (مصر) التي كان يصدرها أديب إسحق ، وكان من الطبيعي أن يثير هذا ضجة حول ذلك الشيخ الأزهري الجريء ، فمن معجب به ومن حاقد عليه ، ومن جامد ساخط يرميه بالزندقة .

وأخيراً تقدم الشيخ محمد عبده لنيل شهادة العالمية ، وقد تآمر الممتحنون عليه قبل مثوله أمامهم ، وعزموا على ألا يمنحوه العالمية . بيدَ أنه خيب أملهم بعلمه ومهارته في تصريف الكلام وسعة اطلاعه وسرعة بديهته ، ووجد من الشيخ العباسي المهدي عطفاً ، واستطاع الشيخ العباسي أن يقنعهم بوجوب منحة (الشهادة) ولكن أصروا في عناد على أنه لن ينالها من الدرجة الأولى واكتفوا بإعطائه الدرجة الثانية[1] في غرة رجب ١٢٩٤ هـ — ١٨٧٧ م .

وتصدى الشيخ محمد عبده بعد ذلك للتدريس بالأزهر ، وأثار حوله ضجة كبيرة فالشيخ عليش يهم بضربه لأنه رجّح مذهب المعتزلة في مسألة من المسائل على مذهب أهل السنة ، وتراه يتحدى علماء الأزهر

---

(١) انظر تاريخ الاستاذ الشيخ محمد عبده لرشيد رضا ج ٢ ص ٢٧ – ٥٧ وسنتكلم عن هذه المقالات فيما بعد من حيث قيمتها الأدبية .

(١) وقد رجع الأزهر فيما بعد ذلك بست وعشرين سنة عن هذا القرار ، ومنح الشيخ محمد عبده في سنة ١٩٠٤ العالمية من الدرجة الاولى ، وكان شيخ الأزهر إذ ذاك الشيخ علي الببلاوي .

جميعاً بإعطائه مائة جنيه لمن يبرهن على (أن الله واحد) ويُنظرهم الى الغد ، ويفتتح الدرس ويسأل الحضور – وقد توافدوا أفواجاً – عن العالم الذي يريد مائة جنيه ويقرر في حجج دامغة وحدانية الله ، ويسود الصمت . وتضطرب القلوب ، وتتقلب الأبصار مدة وجيزة ثم يبدأ هذا العالم الصغير درسه غير تارك شبهة إلا وضحها ولا حجة إلا أوردها ، ولا عويصاً إلا حله ، فترك في بعض القلوب فرحة ، وفي كثير من القلوب غُصّة .

وكان يخص بعض مريديه بدروس في منزله تختلف نوعاً عن دروس الأزهر فيدرس لهم (تهذب الأخلاق) لابن مسكويه ، ويقرأ لهم كتاب (التحفة الأدبية في تاريخ تمدين الممالك الأوربية) للمؤلف الفرنسي (جيزو) وقد عربه (حنين نعمة خوري) .

ثم عين الشيخ محمد عبده في أواخر سنة ١٨٧٨ مدرساً للتاريخ بدار العلوم – إذ توسط رياض باشا في هذا التعيين ، ولم يدرس ملخصاً من ابن الأثير أو الطبري أو ما شاكلها من الكتب القديمة ولكن عمد الى (مقدمة ابن خلدون) يبسط في درسه آراء هذا النابغة في أصول المدنية والاجتماع ، وألف كتاباً في « علم الاجتماع والعمران » فُقِدَ ولم يعثر عليه[١] . وعين محمد عبده في نفس الوقت مدرساً للعلوم العربية بمدرسة الألسن ، وكان همه – سواء كان في الأزهر أو دار العلوم أو الألسن – هو (إيجاد نابتة من المصريين ، تحيي اللغة العربية والعلوم الاسلامية ، وتقوم عوج الحكومة) [٢] .

---

(١) أحمد أمين في مجلة الثقافة العدد ٣٨٩ والمنار جـ ٨ ص ٤٠٣ – ٤٠٤ .

(٢) المنار جـ ٨ ص ٤٠٤ ،

محرر الوقائع المصرية :

ثم دارت الأيام دورتها وعزل اسماعيل عن العرش ، وتولى توفيق ، ونفي السيد جمال الدين كما عرفت من قبل ، وتسلم محمد عبده راية الإصلاح بعد أستاذه ووجد في رياض باشا مشجعاً وحامياً فعينه محرراً للوقائع المصرية ، وجمع الشيخ حوله بعض النابهين من الشباب[1] وأنشأ بالجريدة (الرسمية) قسماً أدبياً تنشر به المقالات الإصلاحية والاجتماعية . وقد كانت الجريدة تُفرض على أعيان البلاد وموظفي الدولة ، ويجدون بها قرارات جافة ركيكة العبارة و « أراد رياض باشا أن يجعل للجريدة الرسمية قيمة في ذاتها تحمل الناس على طلبها رغبة فيها ليقفوا على ما تضمنته من الأوامر واللوائح ، فيكونوا على بصيرة مما تريده الحكومة بهم ومنهم من غير إكراه ، وكان قد أحس بتوجيه الأفكار الى طلب شيء من طلاوة العبارة ووفرة المعنى وحسن الانتقاد »[2] .

ووضع الشيخ (لائحة) للجريدة الرسمية وجعلها مشرفة على كل ما يصدر في البلاد من كتب وصحف ، وحق إنذار هذه الصحف غربية أو أجنبية ، ومعاقبتها بالتعطيل الدائم أو المؤجل كي يلزمها « الوقوف عند حدود الوقار فيما تكتب مع إطلاق الحرية لها في تبين الحقائق وكشف وجوه الخطأ والصواب بدون خوف » كما أعطت هذه اللائحة لرئيس تحرير الوقائع الحق في انتقاد جميع إدارات الحكومة حتى وزارة الداخلية

---

(١) أمثال سعد زغلول ، وعبد الكريم سلمان ، وابراهيم الهلباري ، ومحمد خليل والسيد وفا .

(٢) من كلام الشيخ محمد عبده قبل أن يتولى رئاسة تحرير الوقائع : المنار ج ص ٤٠٦ وما بعدها .

التي يتولاها رياض باشا ؛ وذكر السيد رشيد رضا أن أول ما بدأت الجريدة بانتقاده طريقة التحرير التي كانت متبعة في النظارات والإدارات فأخذت تبين وجه الخلل بها وإضرارها بفهم المعاني المطلوبة ، ثم ترسم الطريقة المثلى التي يجب السير عليها ، فلم تمض أشهر قليلة حتى ظهر فضل ذوي الإلمام باللغة العربية من موظفي الحكومة ، وحضهم رؤساؤهم على مكاتبة الجريدة الرسمية ستراً لعيوب الإدارات ؛ واضطر الجاهلون باللغة والتحرير الى استدعاء المعلمين أو المبادرة الى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير »[1] .

وبهذا صار محمد عبده مشرفاً على الأداة الحكومية جميعها ، تراجعه جميع الادارات في كل ما لديها من الأعمال الهامة والتي تنوي عملها ، وقد اشتدت حملته على وزارة المعارف وتبيان ما بها من خلل وفوضى وسوء إدارة ، فأدى ذلك الى إنشاء (مجلس أعلى) لها واختير به عضواً . وكانت الوقائع المصرية منبراً تذاع منه تعاليم جمال الدين في العدل والتربية الخلقية والإصلاح الاجتماعي ، فيتكلم عن الفقر ومشكلته وعن (وخامة الرشوة) وعن (العفة ولوازمها) وعن (القوه والقانون) وعن (منتدياتنا العامة وأحاديثها)[2] وغير ذلك من المقالات الاجتماعية والإصلاحية . بيد أنه لم يخض في المسائل السياسية ولعل ذلك لأن رياض باشا هو رئيس

---

(١) تاريخ الاستاذ الإمام الجزء الاول ، هذا وقد أنذر محمد عبده مرة مدير جريدة مشهورة بتعطيل جريدته إذا لم يختر لها محرراً صحيح العبارة في مدة معينة ، فأسرع مدير الجريدة الى تنفيذ ما أراد رئيس تحرير الوقائع ، وتعقبت الجريدة مدير بني سويف وانتقدته انتقاداً مراً فأصدر أمره بعدم دخولها وراجع وزارة الداخلية في أمرها فنصرت الجريدة عليه ونشرت فعلته في منشور عام .

(٢) تاريخ الاستاذ الامام الجزء الثاني ص ٦٨ وما بعدها الى ص ٢٢٥ .

الوزارة ، وله عليه يد لا تنكر ، أو لأنه كان يعتقد مذهب رياض في التدرج وعدم الطفرة ، وظل بمنصبه هذا الى أن قامت الثورة العرابية .

محمد عبده والثورة :

كان محمد عبده يختلف مع جمال الدين في طريقة الإصلاح ، فبينما الأول يريد أن تقفز الأمة قفزاً ، وتتمتع بالشورى والحرية على يد مجلس نيابي يشرع لها القوانين وتكون الحكومة مسئولة أمامه ، كما تُكفل في في ظله حرية الفرد الشخصية ، إذا بمحمد عبده وأصحابه يرون أن الإصلاح لا ينتج إلا إذا تربت الأمة وتعلم أبناؤها كيف يحكمون أنفسهم بأنفسهم وأن يسير الاصلاح تدريجياً في كل ناحية ، حتى في العادات « وإنما الحكمة أن تحفظ لها عوائدها الكلية المقررة في عقول أفرادها ثم يطلب بعض التحسينات فيها لا تبعد منها بالمرة ، فإذا اعتادوها طلب منهم ما هو أرقى بالتدريج حتى لا يمضي زمن طويل إلا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة الى ما هو أرقى وأعلى من حيث لا يشعرون[1] » . وكان يرى أن الشرق إنما ينهض على يد مستبد عادل يحكمه خمس عشرة سنة « يصنع فيها ما لا يصنع العقل وحده في خمسة عشر قرناً » مستبد « يكره المتناكرين على التعارف ، ويلجىء الأهل الى التراحم ، ويقهر الجيران على التناصف ، يحمل الناس على رأيه في منافعهم بالرهبة ، إن لم يحملوا أنفسهم على ما فيه سعادتهم بالرغبة ، عادلٌ لا يخطو خطوة إلا ونظرته الأولى الى شعبه الذي يحكمه » ، وكان هذا رأي رياض باشا .

---

(١) من مقالة الاستاذ الامام تحت عنوان (خطأ العقلاء) . انظر تاريخ الاستاذ الامام جـ ٢ ص ١٢٣ .

وانقسمت الأمة فريقين ، فريق النهضة السريعة والاصلاح العاجل ويتزعمه شريف باشا وهو كما صوره محمد عبده « من أقوى عوامل النهضة » التي (انقلبت الى فتنة) في رأيه ، ومن ألسنة هذا الفريق وأسلحته البتارة أديب إسحق ، وفريق يود النهضة البطيئة المتدرجة ويتزعمه رياض باشا ويناصره في رأيه محمد عبده[1] .

ولما قامت الثورة على يد العسكريين وتزعم عرابي مطالب الذين يريدون المجلس النيابي ، وانضم اليه كثير من زعماء الأمة وفي مقدمتهم سلطان باشا ، وعبدالله نديم ، وامتزجت مطالب الجنود بمطالب الأهالي ، وطلبُ العدالة بين الضباط بطلب الحكم النيابي بإلغاء الاستبداد - لم يكن محمد عبده من المحبين لهذه الثورة أو العاملين فيها ، لأنه كان يكره عرابي باشا ، ويعتقد أنه شهم في الكلام ضعيف في الحرب ، أليق به أن يكون واعظاً للعوام من أن يكون زعيم أمة ، ويقول فيه : « كان أحمد عرابي ينظر الى رؤسائه من الجراكسة نظر العدو الى عدوه ، وكان يتقرم في نفسه لاعتقاده أنهم دونه في المعرفة ، ويرى أنه أحق منهم بالرتب العالية التي كانوا يتمتعون براتبها ونفاذ الكلمة فيها ، وربما لم يكن مخطئاً في الكثير منهم ، وكان أجرأ اخوانه على القول وأقدرهم على اقامة الحجة » . ونسي محمد عبده أن عرابي كان يبادل هؤلاء الجراكسة احتقاراً باحتقار ، لأنهم كانوا ينظرون الى أن المصريين دونهم في كل شيء وحرموهم المناصب العالية ، وأنهم السادة وهم الخدم .

---

(١) كتب محمد عبده مقالات في الشورى وقد كانت من وحي جمال الدين ولم يكن مؤمناً بها بل كان يرى أن تنشأ أولاً المجالس البلدية ثم بعد سنتين تأتي مجالس الادارة لا على أن تكون آلات تدار بل على أن تكون مصادر للاراء والأفكار ثم تتبعها بعد ذلك المجالس النيابية .

ولذلك كان مناوئاً للثورة في أول الأمر ويعترف بذلك صراحة فيقول : « كنت معروفاً بمناوأة الفتنة واستهجان ذلك الشغب العسكري ، وتسوئة رأي الطالبين لتشكيل مجلس النواب على ذلك الوجه ، وبتلك الوسائل الحمقى .. مررت ببيت (طلبة) ثالث يوم عيد الفطر فسمعت جلبة ، ورأيت بعضاً من صغار الضباط يجولون من جانب الى آخر من البيت فدخلت للزيارة ، فوجدت عرابي ، وجمعاً غفيراً من الضباط ، ووجدت معهم أحد أساتذة المدرسة الحربية ، فجلست واستمر الحديث في وجهته ، وكان موضوعه الاستبداد والحرية ، وتقييد الحكومة بمجلس النواب ، وأن لا سبيل للأمن على الأرواح والأموال إلا بتحويل الحكومة الى مقيدة دستورية فأخذت طرفاً من البحث ، فأقمنا على الجدل ثلاث ساعات ، كان عرابي والأستاذ في طرف والكاتب في طرف ، وهما يقولان : إن الوقت قد حان للتخلص من الاستبداد ، وتقرير حكومة شورية والكاتب يقول : علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بعض سنين وليس من اللائق أن نفاجيء البلاد بأمر قبل أن نستعد له ، فيكون من قبيل تسليم المال للناشيء قبل بلوغ سن الرشد يفسد المال ، ويفضي الى التهلكة »[1] :

فأنت تراه يسمي الثورة فتنة وشغباً عسكرياً ، ووسائل حمقى ، ويعارض في قيام حكومة دستورية ، ويرى أن الأمة غير مستعدة للحياة النيابية في ذلك الحين .

لم يكن محمد عبده مشايعاً للثورة في أول الأمر ؛ لأنه لم يكن معتقداً بها ولا في صلاح الأمة لأن تتولى أمورها بيدها ، وأخذ يناهضها

---

(١) مذكرات محمد عبده عن الثورة العرابية وتاريخه رشيد رضا ج ١ ص ٢١٧

ويقول : « ليس من الحكمة أن تعطى الرعية ما لم تستعد له ، فذلك بمثابة تمكين القاصر في التصرف بماله قبل بلوغه سن الرشد وكال التربية المؤهلة والمعِدّة للتصرف المفيد » ويقول مرة أخرى ، وكأنه كان يتكلم بلسان القدر : « إن الأمة لو كانت مستعدة لمشاركة الحكومة في إدارة شئونها لما كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى ، فما يطالب به رؤساء العسكرية الآن غير مشروع ؛ لأنه ليس تصويراً لاستعداد الأمة ومطلبها ويخشى أن يجر هذا الشغب على البلاد احتلالاً أجنبياً يسجل على مسببه اللعنة الى يوم القيامة »[1] .

ولم يكن محمد عبده من الموالين لتوفيق باشا حتى يتهم بأنه ناهض الثورة من أجله ، ولكنه كان مستقل الرأي ، وبعد مدة لم يستطع أن يقف مسلوب اليد والأمة كلها في صف واحد ، وهو وفئة قليلة في صف ، ورأى المسألة تتعلق بكرامة الأمة بعد أن تدخل الأجانب واستعان بهم توفيق ، فانضم للأمة وصار قوة روحية للثورة يأخذ المواثيق ويحرر بيانات الثورة للشعب وللدول ، ويحض قومه للتجنيد ويحمسهم للقتال ، ولا يدخر في سبيل ذلك وسعاً . وكان يستعين بالوقائع (وهي الجريدة الرسمية) على نشر أفكار الثورة[2] وصار يرى أن « مصر أصبحت صالحة الحكم نفسها بنفسها وأن الثورة قد علمت الناس الاتجاه نحو المنافع العامة فلم يعودوا في حاجة الى تربية وتعليم » .

---

(١) المنار جـ ٧ ص ٤١٢ وما بعدها .

(٢) المنار جـ ٨ ص ٤١٦ .

وأخيراً أخفقت الثورة وسجن محمد عبده مائة يوم ، وحقق معه وحكم عليه بالنفي فاتخذ بيروت ملجأ[1] .

بعد الثورة :

وفي بيروت التف حوله العلماء والأدباء ودرّس بالمدرسة السلطانية وكانت أشبه بمدرسة أولية ، فارتفع بها حتى صارت مدرسة عالية ولكن مقامه بها لم يطل ؛ إذ طلب إليه أستاذه جمال الدين أن يلحق به في باريس فلبى دعوته[2] وأصدرا معاً مجلة (العروة الوثقى) ، وقد مر بك شيء كثير عنها وُنبَذٌ من مقالاته بها . وهنا تعجب كيف تغيرت لهجة الشيخ محمد عبده في (العروة الوثقى) ولم يعد ذلك المصلح المتأني الذي يأخذ الأمور بالرفق ، ويسعى الى الإصلاح في هوادة بل نراه ثورة متأججة وذا قلم عنيف ، كما اتسع غرضه ، ولم ينظر لمصر وحدها بل شمل العالم الاسلامي كله . الحق أن الشيخ محمد عبده في العروة الوثقى لم يستطع أن يقاوم تأثير جمال الدين عليه ، وناهيك بجمال الدين قوة وحماسة وناراً مشبوبة .

وعطلت (العروة الوثقى) بعد ثمانية عشر عدداً ، وسافر جمال الدين الى إيران وعاد الشيخ محمد عبده الى بيروت ، وقد أخفق مرتين : أخفق في الثورة العرابية ، وأخفق في استمرار العروة الوثقى . فالتف حوله مريدوه ، وشرح لهم نهج البلاغة ، ومقامات بديع الزمان وأخذ

---

(١) تاريخ محمد عبده ج ٢ ص ٢١٧ .

(٢) لم يتجاوز سنه حينذاك أربعة وثلاثين سنة . المنار ج ٨ ص ٤٥٥ .

يفسر لهم القرآن الكريم على النحو الذي اتبعه بمصر من غير أن يتقيد بكتاب أو تفسير خاص ، بـــل اتخذ آيات القرآن مجالاً لوصف أدواء المسلمين وعلاجها ، ودّرس الفقه على المذهب الحنفي بالمدرسة السلطانية . وهناك ألف رسالة التوحيـــد ، وصار يكتب بعض المقالات في جريدة (ثمرة الفنون) مشابهة لمقالاته في الوقائع المصرية[1] .

كان محكوماً عليه بالنفي ثلاث سنوات ، ولكنه مكث ببيروت ست سنوات وذلك لأن توفيقاً كان غاضباً عليه[2] ، وكان يجهر بخطيئة توفيق في حق الوطن ويقول[3] : « إن توفيق باشا أساء إلينـا أكبر إساءة ، لأنه مهد لدخولكم (أي الانجليز) بلادنا ، ورجلٌ مثله انضم الى أعدائنا أيام الحرب لا يمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام ؛ ومع هذا إذا ندم على ما فرط منه وعمل على الخلاص منكم ربما غفرنا له ذنبه — إننـا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية » .

فكان من العسير أن يعود الى مصر في عهد توفيق ، بيد أن رياض باشا عاد الى الوزارة ، وكان من الذين يجلون الأستاذ الأمـام ويعتقدون فيه النفع والخير لمصر ، فما لبث أن سعى لدى توفيق هو وبعض ذوي

---

(١) ووضع في هذه الأثناء لائحتين : واحدة في إصلاح التعليم الديني بمدارس المملكة العثمانية ورفعها الى شيخ الأسلام بتركيا ، وفيها يقر أن ضعف المسلمين سببه سوء العقيدة والجهل بأصل الدين وأن ذلك أضاع أخلاقهم وأفسدها ، ووضع لائحة أخرى رفعها الى والي بيروت تتضمن إصلاح سوريا ووصف سوء حالها بانتشار المدارس الأجنبية بها ، واقترح تعميم المدارس الوطنية وإصلاح التعليم الديني والعناية به ، وهكذا برهن على أنه مصلح في كل مكان يحـــل به (تاريخ الإمام ج ٣ ص ٣٣٩ وما بعدها) .

(٢) لأن محمد عبده جاهر بخلع توفيق أثناء الثورة (مشاهير الشرق ج ٢ ص ٢٨٢) .

(٣) من حديث له مع مكاتب (البول ميل جازيت) وهو بإنجلترا .

النفوذ[1] حتى عفا عنه ، وكان عفواً قريباً من الاعتذار .

بعد العودة من المنفى :

عاد محمد عبده الى مصر فوجد الأمور قد تغيرت وصار الحل والعقد بيد الانجليز ، ولم يعد الخديو صاحب الأمر والنهي كما كان من قبل ، ورأى لزاماً عليه وهو المصلح ذو المشروعات الحية في النهوض بالأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية أن يعتمد على سلطة تؤيده وتهيء له الاستمرار في إصلاحاته ، فسالم الخديو – على الرغم منه – واستعان بالانجليز على الاصلاح المنشود . ولا تعجب بعد هذا إذا صار جمال الدين حانقاً عليه ويرى فيه الرجل الذي تنكر لمبادئه ومد يده لأعدائه يهادنهم ويسالمهم : ورث محمد عبده من جمال الدين آراءه الاصلاحية الاجتماعية وورث عبدالله نديم وسعد زغلول ومصطفى كامل آراءه السياسية . وقد ظل محمد عبده متمسكاً بسياسة التقرب من الانجليز والاستعانة بهم حتى آخر حياته ، وكان هذا مثار الطعن فيه والغض من شأنه ، ولكنه كان يصدر فيه عن عقيدة وجرأة ، فقد استُفتي مرة في الاستعانة بالأجانب فكان من فتواه : « قد قامت الأدلة من الكتاب والسنة وعمل

---

(١) المعروف أن من الذين توسطوا في طلب العفو عنه الأميرة نازلي وكانت ذات مكانة ، والغازي مختار باشا ، ثم اللورد كرومر وقد كان له الفضل الأكبر في عودته والعفو عنه ، وفي الواقع لم يعف عنه توفيق إلا بضغط الإنجليز . فأي صلة كانت بين محمد عبده تلميذ جمال الدين والانجليز ؟ – يظهر أن أصحاب محمد عبده حين طلبوا عودته الى مصر تعهدوا بألا يشتغل بالسياسة ، ثم أن كرومر وهو الداهية السياسي رأى أن يجذب نحوه هذا العالم الجليل ويأمن شره ما دام لن يشتغل بالسياسة، وهذا ما جعل جمال الدين يحنق عليه ويلومه أشد اللوم، حتى قطعت العلاقة بين الاستاذ وتلميذه ، لأنهما اختلفا في الوسيلة . (راجع المنار جـ ٨ ص ٤٦٧) .

السلف على جواز الاستعانة بغير المؤمنين وغير الصالحين على ما فيه خير ومنفعة للمسلمين » ونسي قوله تعالى : « يا أيهـــا الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودُّوا ما عَنِتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورُهم أكبر » .

وأمل محمد عبده بعد عودته أن يرجع الى التدريس بـــدار العلوم ويتصل بالنشء ، ويربي طائفة من الشباب يمدهم للغد ، ويحملون بعده راية الاصلاح ، ولكن أبى عليه توفيق ذلك[1] ، وعُين قاضياً أهلياً ، ثم مستشاراً في محكمة الاستئناف ، ووجد نفسه في بيئة غريبة عنه تدِلُّ بمعرفتها اللغة الفرنسية والقوانين الأجنبية فدفعته نفسه الطموح الى أن يكمل هذا النقص ، وبدأ يتعلم الفرنسية[2] وهو في سن الأربعين أو ما قاربها ، وقد استطاع بعد مدة أن يتقنها وترجم منها كتاب التربيـــة لسبنسر بعد أن نقل من الانجليزية الى الفرنسية . وروى لطفي السيـد أن محمد عبده هو الذي كان يجلو لإخوانه المصريين ما غمض من عبارات الفيلسوف الفرنسي (تين) في كتابه المشهور عن (الذهن) .

وقد رأى الأستاذ الإمام فائدة تعلم اللغة الأجنبية ولمسها ، وفي ذلك يقول : « ثم إن الذي زادني تعلقاً بتعلم لغة أوربية هو أني وجدت أنه

---

(١) المنار جـ ٨ ص ٤٦٧ ، وتاريخ الاستاذ الامام جـ ٣ ص ٢٤٢ .

(٢) روي أن المعلم أتى له بكتاب في قواعد اللغة الفرنسية فقال له : « ليس عندي وقت لأن أبتدىء ، وإنما عندي وقت لان أنتهي » ، قال وناول المعلم كتاباً (لالكسندر ديوما) وقال له : « أنا أقرأ وأنت تصلح لي النطق وتفسر لي الكلم وما عدا ذلك فهو علي » . والنحو يأتي في أثناء العمل . وهكذا أتممت الكتاب ، وكتاباً بعده وثالثاً عقبه ، وكنت أطالع وكنت أطالع وحدي بصوت مرتفع كلما وجدت نفسي في بيتي خالياً فتعلمت مبادىء اللغة الفرنسية، وحصلت منها ما يمكنني من القراءة والفهم ولكن ما كنت أستطيع الكلام » .

لا يمكن لأحد أن يدعي أنه على شيء من العلم يتمكن به من خدمة أمته ، ويقتدر به على الدفاع عن مصالحها كما ينبغي إلا إذا كان يعرف لغة أوربية : كيف لا ! وقد أصبحت مصالح المسلمين مشتبكة مع مصالح الاوربيين في جميع أقطار الارض ، وهل يمكن مع ذلك لمن لا يعرف لغتهم أن يشتغل للاستفادة من خيرهم أو للخلاص من شر الشرار منهم ؟ » .

واشتهر محمد عبده بعدله في القضاء ، ونظره الى روح القانون ، وعدم تقيده بالقالب والألفاظ ، وقد ساعدته دراسته للشريعة الإسلامية في هذا كل المساعدة . »

إصلاح الأزهر :

مات توفيق وتولى عباس سنة ۱۸۹۲ م وقد عاد لتوه من أوروبا فتى ممتلئاً حماسة وغيرة وحباً للخير ورغبة في إنهاض مصر من كبوتها وتخليصها من الاحتلال ، فغير رجال الحاشية وجمع حوله أقوياء الرجال حتى ضايق الانجليز فأخذوا يكيدون له . ورأى محمد عبده أن يستفيد من حماسة عباس ، فتقرب منه وبسط آراءه في الاصلاح ، وهو إصلاح يتناول جهات لا تهم الانجليز في شيء وهي : الازهر والاوقاف والمحاكم الشرعية ، وليكن البدء بالازهر . وارتاح الخديو للشيخ وكلفه بوضع تقرير مشروع للإصلاح ، وسرعان ما وافق عليه وكوّن إدارة الازهر برئاسة الشيخ حسونة النواوي وعين محمد عبده ، وعبد الكريم سلمان عضوين به ، وهكذا أتيحت للشيخ الفرصة التي طالما نشدها للإصلاح . ولكن هل استطاع الإصلاح ؟!

إنا نقول كما قال أحمد أمين[1] . « يا لله وإصلاح الازهر ! ما حاوله أحد ونجح ولا الشيخ محمد عبده ، لان كل المحاولات كانت تتجه الى هامش الموضوع لا أساس الموضوع وكانت عن سبيل استرضاء أهله والخوف من أي قلق واضطراب ، وهم يتزعمهم طائفة ألفت القديم حتى عدته ديناً ، وكرهت الجديد حتى عدته كفراً ، وعاشت في المغارات فلم تر ضوءاً وأفنت عمرها في فهم لفظ ، وتخريج جملة وتأويل خطأ ، فلم تر حقائق الدنيا ، فإذا أتى المصلح سمم أهله الجو حوله ، واحتموا بالدين يخيفون به الحكومة ، ويكسبون به عامة الشعب .

المشكل لا يحل إلا بالعلاج الحاسم ، وهو أن يتبع الازهر الحكومة تبعية الجامعة ، ويستقل استقلالها ويخضع في نظمه لما ترشد إليه علوم التربية الحديثة ويرقى برقيها ، ثم ينفذ ذلك من غير خشية » .

وأضيف الى هذا أن بالازهر اليوم وفي كل حين ثروة معنوية عظيمة تضيع هباء وتوجه وجهة خاطئة ، ولا تفيد منها الامة شيئاً ، ولو حولت هذه الجامعة الازهرية الى جامعة مدنية ينفق عليها من الاموال الموقوفة على الازهر ، ويتعلم الطلبة فيها بالمجان لما حرمت الامة هذه الثروة العظيمة ، ولنبغ من أبنائها الطبيب النطاسي ، والمهندس الفذ ، والرياضي القدير ، والصيدلي الماهر . أما الدين فتخصص له طائفة ، تسد الفراغ وتلي شئونه من وعظ وإمامة وغير ذلك . لقد اتجه الازهريون اليوم الى الوظائف ، ولم يعودوا يطلبون العلم لذاته كما كان يفعل أسلافهم ، فوجب على الامة والحكومة أن تعدهم الإعداد الصالح لهذه الوظائف وتتولى شئون الازهر بحزم وتنهض به نهضة تليق باسمه وتاريخه « فيتعلم

---

(١) مجلة الثقافة العدد ٣٩٢ .

أبناؤه اللغات الاجنبية فإذا جادلوا في الدين جادلوا بالحجة القوية وعرفوا مواطن الضعف عند سواهم ، وإذا درسوا الفلسفة والمذاهب الحديثة تفتحت أمامهم سبل الاطلاع ، على أن تتجه جمهرتهم إلى التعليم المدني وبذلك تفيد الأمة من هذه الثروة المعنوية الضائعة ، ومصر بحاجة إلى أكثر من جامعة .

حاول الإمام محمد عبده إصلاح الأزهر ، فلم يصلح سوى الشكل من زيادة مرتبات العلماء ووضع لائحة كسى التشريف ، والامتحان ومساكن الطلبة . ولكن حين ابتدأ ينظر إلى الدراسة وطرقها والكتب التي تدرس والمناهج ، وجد العقبات أمامه جمة وأخفق في محاولاته ونفض يده من الإصلاح . لقد كان كارهاً للطريقة الأزهرية في معالجة الدروس والشروح والحواشي والتقارير وعلك الألفاظ ، وقد عرفنا آنفاً كيف كادت هذه الطريقة أن تحرم مصر إمامها ومصلحها ، ولقد قال له يوماً الشيخ البحيري مدافعاً في مجلس إدارة الأزهر عن هذه الطريقة : « إننا نعلم الطلاب كما تعلمنا » فقال له الشيخ محمد عبده « وهذا ما أخاف منه » فقال البحيري مستنكراً : « ألم تتعلم أنت في الأزهر وقد بلغت ما بلغت من مراقي العلم وصرت فيه العلم الفرد ؟ ! فأجاب الإمام : « إن كان لي حظ من العلم الصحيح الذي تذكره ، فإنني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغي ما علق به من وساخة الأزهر ، وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة [1] » .

وهذه كلمات تدل على مرارة وألم ، وعلى أن الشيخ لم ير في الازهر وعلومه ورجاله ما يبشر بالنجاح ، فليت شعري هل تغير الأزهر كثيراً منذ محمد عبده حتى اليوم ؟ .

---

(١) من تقرير الشيخ عبد الكريم سلمان عن التعليم في الازهر .

وتولى محمد عبده منصب الإفتـــاء في يولية ١٨٩٩ ، وأضفى عليه وجاهة دينية وجلالاً وكان في منصبه هذا جريئاً ، يصدر الفتاوي التي يرى فيها الجامدون زندقة وإلحاداً ، وهو يراها اجتهاداً وتجديداً وتمشياً مع روح العصر بما لا يخالف حقيقة الدين وجوهره[1] . ولم تكن العلاقة بينه وبين الخديو عباس طيبة ؛ لأن عباساً كان يراه مسالماً للإنجليز مستعيناً
٢٢م وفي ذلك جرح لوطنية الخـديو والتجاء إلى خصومه . وكان الشيخ محمد عبده يعتقد في مهادنة الإنجليز والاستفاده منهم ، ويرى في عباس رأياً آخر وهو أنه جشع محب لجمع المال ولو من دماء رعاياه . وقـد اصطدم به مرتين أولاهما : حـين أراد استبدال أرض فأبى عليه الشيخ ذلك ورأى أن هذا الاستبدال ليس في مصلحة الوقف ، وحمل مجلس الأوقـاف الأعلى على فض هذا الاستبدال إلا إذا أعطى للوقف عشرين الفاً من الجنيهات تعويضاً له . وثانيهما حينما أراد الخديو منح بعض رجال حاشيته (كسوة تشريفة) ، ولم يكن هذا المنح منسجماً مع اللوائح ،

---

(١) من ذلك فتوى (الترنسفال) وهي إجابة على ثـلاثة أسئلة : أحدها : بقر يضربه النصارى على رأسه بالبلطة حتى تضعف مقاومته ثم يذبح قبل أن يموت بدون تسمية الله عليه ، فهل يجوز أكل لحمه ، فأفتى الشيخ بحل هـــذا اللحم ، وكانت للفتوى ضجة لأن علماء الازهر يقولون هي الموقوذة التي حرم الله أكلها ، والشيخ يقول : إن الموقوذة هي التي ضربت بشيء غير محدد كحجارة والخشب حتى ماتت وهذه ذبحت قبل موتها . وثانيهما : يوجد أفراد في بـلاد الترنسفال يلبسون القبعات لقضاء مصالحهم ، وتمكنهم القبعة من جني بعض الفوائد ، فهل يجوز ذلك أم لا ؟ فأفتى الشيخ بالجواز ورأى أن لبس القبعة إذا لم يقصد به الخروج من الإسلام والدخول في دين غيره فلا يعد مكفراً ، وإذا كان اللبس لحجب الشمس أو دفع مضرة أو دفع مكروه وليس وصلحة لم يكره ذلك . وقد أثارت عليه هذه الفتوى حمـلات شديدة من الجهلة وخصومه السياسيين . والثالث . يصلي الشافعية خلف الحنفية بدون تسمية ، ويصلون خلفهم العيدين فهل تجوز الصلاة ؟ ولم يكن لهذا السؤال ضجة كغيره . راجـع تاريـخ الأستاذ الامام جـ ٣ ص ٨٤،١٦٧،١٧٩ والجزء الأول ص ٢٦٧ وتجد نص الفتوى في تاريخه جـ ١ ص ٦٤٦ وما بعدها .

فأوعز الشيخ محمد عبده بعدم تنفيذ أمر الخديو وإعطائها للمستحق ، ولما اجتمع العلماء لدى الخديو وأخذ يؤنب شيخ الأزهر على ذلك انبرى له الشيخ محمد عبده ، وطلب منه اذا أراد التنفيذ أن يغير اللائحة وينسخ القانون السابق ، فاستشاط عباس غضباً ووقف إيذاناً للعلماء بالانصراف، وقد كان لهذا كله أثر في الحملات الشديدة والمكايد التي دبرها عباس للشيخ ، وإيعازه للصحافة بالتشهير به وانتهاز فرصة فتاويه الجريئة ورميه بالكفر والإلحاد ، وكلما هَمَّ الخديو بعزله من منصب الإفتاء صرح كرومر بأنه لا يوافق على عزله مهما كانت الأحوال مادام موجوداً. كل هذا ومحمد عبده ماض في مشروعاته الإصلاحية بالأزهر والمحاكم والأوقاف . وكان الحزب الوطني يناوئه ويحمل عليه بشدة لأنه كان يشايع الإنجليز ويتخذهم أعوانه . وكان الإمام يرى أن مصطفى كامل مخطىء في صلته بالخديو لأن عباساً لم يكن مخلصاً في وطنيته ولا هم له إلا جمع المال وإيداعه بالمصارف الأجنبية خشية أن يعزله الإنجليز فجأة، وقد قال محمد عبده في وصف مقالات مصطفى كامل « إنها مجموعة نوبات عصبية بعضها شديد وبعضها خفيف » .

والحق أن التباين كان شديداً بين عقلية الإمام وعقلية الزعيم الشاب من حيث طريقة التفكير واتخاذ الوسيلة . ولا نستطيع أن ندافع عن موقف الشيخ محمد عبده من الإنجليز واعتماده عليهم إلا أن الخديو هو الملوم في ذلك ، لأنه لم يمكن هذا المصلح الكبير من السير في إصلاحاته ، ولأنه أراد أن يلتهم مال الوقف بدون مبرر ؛ وفي مال الوقف قسم كبير جداً للأزهر ، وكلما حاول عباس أن يعبث وقف له محمد عبده بالمرصاد ، وحب المال ضعف بشري عام ، وكان في عباس أضعف شيء فيه ، ولكن دفاعنا هذا لا يسوغ لجوء الشيخ إلى خصوم وطنه وخصوم دينه مهما كان الإصلاح المنشود وقيمته ، وما كان له أن يستعين بهم حتى

ولو ظل الأزهر على ما هو عليه ، وهل بعد هذه التضحية استطاع أن يصلح الأزهر ؟ كلا ! وقد اعترف بإخفاقه .

ولكن هل تقضي هذه الزلة السياسية على كل ما لمحمد عبده من مجد ؟ اللهم لا ، فقد شاركه في رأيه السياسي حينذاك كثير من زعماء الأمة كسعد زغلول ، وفتحي زغلول ، وحسن عاصم ، ومحمود عاصم ، ومحمود سليمان ، وسلطان وغيرهم ، إلا أنه تعرض للهجمات أكثر منهم ؛ لأن الخديو رأى فيه قوة واعتداداً بالنفس ، وعقبة في سبيل مطامعه فألب عليه العلماء الرجعيين والصحافة المأجورة هزلية وجدية .

وأخيراً اضطر محمد عبده إلى الاستقالة عقب خطبة ألقاها عباس عند توليته الشيخ الشربيني مشيخة الأزهر ، وهي تدل على عظم حنقه وسخطه على محمد عبده وتعريضه به .

وجاء في هذه الخطبة : « إن الأزهر أسس على أن يكون مدرسة دينية إسلامية تنشر الدين في مصر وجميع الأقطار العربيـــة .. ولقد كنت أود أن يكون هذا شأن الأزهر والأزهريين دائماً ولكن من الأسف رأيت فيه من يخلطون الشغب بالعلم ، ومسائل الشخصيات بالدين ، ويكثرون من أسباب القلاقل .. وأول شيء أطلبه أنا وحكومتي أن يكون الهدوء سائداً في الأزهر والشغب بعيداً عنه ، فلا يشغل علماؤه وطلبته إلا بتلقي العلوم الدينية النافعة البعيدة عن زيغ العقائد وشغب الأفكار ، لأنها مدرسة دينية قبل كل شيء » ثم ذكر أنه قبل استقالة السيد علي الببلاوي رعاية لصحته ، وأنه مستعد لقبول كل استقالة من سواه وممن « يحاولون بث الشغب بالوساوس والأوهام أو الإيهام بالأقوال» ويرى أن مثل هذا الشخص يجب أن يكون بعيداً عن الأزهر .

لم يكن محمد عبده صنيعة الإنجليز ، أو ممن يتناول أجراً منهم ،

أو ممن يستعدونهم على قومهم ، ويشجعونهم في أطماعهم الاستعمارية[1] ، وإنما كان يرى أنه مصلح ولا بد له من عضد يسنده في إصلاحه ويشجعه على السير قدُماً في طريق الكمال ، ولم يجد في عبـاس هذا المعضد ؛ لأنه كان مشغولاً بنفسه وبجمع المال وبأهوائه الخاصة ، فلجأ إلى الإنجليز ، وهذا اجتهاد منه أخطأ فيه .. بيد أنه لا يطوح بكل ماضيه وآرائـه ، فالعظيم لا يُنظر اليه من ناحية واحدة بل لا بد من رؤية جميع خصائصه وميزاته ، وقد كان محمد عبده اماماً في الإصلاح الاجتماعي ، ورائـداً فذاً من رواد النهضه الفكرية .

لقد كان ممكناً أن يلتقي عبـاس ومحمد عبده ومصطفى كامل[2] ، وينهض الثلاثة بمصر وبالإسلام وبالشرق العربي كله ، ولكن لم يتم هذا ، كما لم يتم اجتماع محمد علي والسيد عمر مكرم ومحمد بن عبد الوهاب من قبل ، واضطهد محمد عـــلي الزعيم الروحي لمصر عمرَ مكرم والمصلحَ الديني الكبير محمد بن عبد الوهاب وحاربه في نجـــد وهكذا تكررت المأساة على يد أحفاده بعد خمسين سنة .

وفاته :

استقال محمد عبده من الأفتاء وقد آمن بعجزه عن اصلاح الأزهر

---

(١) كما فعل سلطان باشا ، وعمر لطفي ، وكان يكرههما لموقفهما هذا .

(٢) كان مصطفى كامل يعتمد أول الأمر على عباس مالياً فكان من دعاته ، ولعل هذا مما عاق اتصال الشيخ بالزعيم الشاب ، وروى رشيد رضا « أن الشيخ محمد عبـده ومصطفى كامل التقيا على باخرة حملتهما إلى أوربا وقال الزعيم للامام : إذا قبلتني من مريديك فإن خدمتك للاسلام ومصر تكون مضاعفة وأهدى له كلبـاً بالفرنسية وأخذ يزوره بعـــد عودته إلى مصر ولكن الاتصال لم يدم بينهما ، كما أن مصطفى كامل قطع صلته بعباس بعد ذلك . »

عجزاً تاماً ، ولم يلبث بعد ذلك مـدة وجيزة حتى أحس بالمرض ، فعزم على السفر الى أوروبا طلباً للشفاء ، ولم يحل مرضه بينه وبين مـا يقوم به من أعمال جليلة في مجلس الشورى وفي الجمعيـة الخيرية الإسلاميـة وامتحان دار العلوم ، وإعداده مشروع القضاء ، وإعداد مشروع الجامعة المصرية : بيد أن المرض ألح عليه . واختلف فيه الأطباء ، هل هو المعدة ؟ أو الكبد ؟ ثم ظهر أنه السرطان الذي مات به من قبل استاذه جمـال الدين ، فأشاروا عليه بعدم السفر وفي يوم ١١ من يوليـه سنة ١٩٠٥ انطفأ هذا المصباح الوهـاج عن ست وخمسين سنة برمـل الاسكندرية ، واحتفل بتشييع جنازته رسمياً ، وكان حفلاً رائعاً لم تشهد مصر مثله من قبل وكان عباس متغيباً عن مصر ، فلما عاد وسمع بعظم الحفل واشتراك الحكومة فيه أنب كل من أسهم في هذا .

أثره في النثر :

لا نريد أن نتعرض هنا لآرائه الاجتماعية والسياسية والخلقية بالتفصيل ، وقد مر بنا ما يعطينا عنها فكرة واضحة ، وإنما الذي يعنينا حقاً هي آثاره في الكتابة والنثر . وقد عرفنا أنه أبتـدأ يكتب في الصحف ، وهو بعد طالب في الأزهر ، وقد طرأ على أسلوبه الكتابي تعبير كثير منذ المقالة الأولى التي أرسلها لجريدة (الأهرام)[١] حتى انتقل الى جوار ربه . ولمحمد عبده أثر عظيم في النثر العربي سواء في أسلوبه هو وجعله مثلاً يحتذى ، أو في الأعمال الجليلة التي قام بها لخدمة النثر والكتابة .

---

(١) العدد الخامس الصادر في ٢ سبتمبر سنة ١٨٧٦ .

١ – أما أسلوبه فنراه يعنى به عناية زائدة ، وإذا قرأت ما كتبه في جريدة الأهرام تجده متأثراً بالكتب الأزهرية وخاصة ما ألف في الفلسفة الاسلامية من حيث الموضوع وطريقة علاجه ، ونجده كذلك لا تفوته سجعة ، وإن تكلف في سبيلها المشاق ، ويقدم لموضوعه بمقدمات طويلة تجهد نفس القارىء وتسئمه . وهاك مثلاً على هذا الأسلوب من مقالة (الكتابة والقلم) : « ولما انتشر نوع الإنسان في أقطار الأرض ، وبَعُد ما بينهم في الطول والعرض ، مع ما بينهم من المعاملات ، ومواثيق المعاقدات ، احتاجوا الى التخاطب في شئونهم ، مع تنائي أمكنتهم ، وتباعد أوطانهم ، فكان لسان المرسل إذ ذاك لسان البريد وما يدريك هل حفظ ما يبدىء المرسل وما يعيد ؛ وإن حفظ هل يقدر على تأدية ما يريد بدون أن ينقص أو يزيد ، أو يبعد القريب أو يقرب البعيد ، فكم من رسول أعقبه سيف مسلول ، أو عنق مغلول ، أو حرب تخمد الأنفاس ، وتعمر الأرماس ، ومع ذلك كان خلاف المرام ، ورمية من غير رام .. فالتجئوا الى استعمال رقْم القلم وكلوا الأمر إليه فيما به يتكلم » . وهذا النوع من النثر قد وفيناه بحثاً فيما سبق .

ثم لما اتصل بجمال الدين ، ورأى منه قدرته على تصريف المعاني ، وعلى ابتداع أفكار جديدة وقرأ معه بعض كتب الفلسفة والمنطق وخاض في الموضوعات الاجتماعية والسياسية تدفعه الى الكتابة عاطفة جياشة وشباب فتيّ وأثرٌ متقد من نفَس أستاذه جمال الدين – لم يجد وسيلة إلا أن يتخلص من السجع والكلف به وأن يتجنب المقدمات الطويلة ، وأن يرتب الموضوعات ترتيباً منطقياً ، ويكثر من استعمال الأقيسة والبراهين ، ويقلب الفكرة على شتى وجوهها ؛ وترى في كلامه قوة وحرارة إيمان بما يكتب ، وهذا النوع من النثر يتجلى في مقالات (الوقائع المصرية) . وقد تدرج في إصلاح أسلوبه حتى اشتد وقوي . ثم بلغ

درجة عظيمة من المتانة ، وبرزت فيه المزايا التي ذكرناها في مقـــالات (العروة الوثقى) فمن نثره في الوقائع المصرية قوله في التربية بالمدارس :

« من المعلوم البيّن أن الغرض الحقيقي من تأسيس المدارس والمكاتب ، والعناية بشأن التعليم فيه .. إنما هو تربية العقول والنفوس وإيصالها إلى حد يمكّن المتربي من نيل كمال السعادة أو معظمها ما دام حياً وبعد موته . ومرادنا من تربية العقول إخراجها من حيز البساطة الصرفة والخـــلو من المعلومات ، وإبعادها من التصورات والاعتقادات الرديئة إلى أن تتحلى بتصورات ومعلومات صحيحة تُحْدث لها ملكة التمييز بين الخـير والشر والضار والنافع ويكون النظر بذلك سجية لها ، أي يكون لنور العقل نفوذ تام يفصل بين طيبات الأشياء وخبائثها » .

وهو أسلوب المصلح الاجتماعي وقد عرفت خصائص هـذا النوع من النثر قبل ، ولم يكن يعمد فيه الشيخ محمد عبده الى تفخيم الألفـاظ وانتقائها ، وحبك الجمل واستوائها ، وقد يستعمل أحياناً كلمات عامية أو دخيلة للتعبير عما يريد اذا لم تسعفه الكلمة العربية .

أما مقالات (العروة الوثقى) فقد مرت بك نماذج كثيرة منهـا فلا داعي لذكر جديد .

ثم مرن أسلوب الشيخ محمد عبده واشتد قلمه ، من كثرة ما كتب ، وما تناول من موضوعات وما تأثر به من تجارب وقراءة . ولما بلـــغ أسلوبه غايته في مقالته التي يرد بها على (هانوتو) وكان وزيراً لخارجية فرنسا ، وقد بحث في كلمته الأسباب التي تدعو المسلمين إلى النفور من الحكم الأجنبي ، وهل من وسيلة لتحبيبهم في فرنسا ؟ وإذا لم تفلـــح الوسائل فلا مناص إذاً من إبادتهم أو إجلائهم عن ديارهم حتى يخلو الجو لفرنسا ، وقد تعرض للإسلام ولماذا كان المسلمون غير مسيحيين ؟ ووازن

بين الإسلام والمسيحية ، وتعصب لدينه ، ونشرت جريدة (المؤيد)[1] مقالته فرد عليه الشيخ محمد عبده ردّاً مفحماً تجلت فيه نصاعة الفكرة ، وصدق العاطفة ومتانة الأسلوب ، وقوة الحجة ، وسلامة البرهان ، مع بساطة في التركيب ، وسهولة في الألفاظ . وطالت المساجلة بين (هانوتو) والشيخ محمد عبده ، وانتصر فيها الإمام انتصاراً بالغاً وكانت من الأسباب التي مكنت له مقامه بمصر بعد عودته من المنفى ، ووضعته في مركز الصدارة من مفكري الأمة والذادة عن الدين .

ويقول في إحدى هذه المقـــالات : « إن أول شرارة ألهبت نفوس الغربيين فطارت بها إلى المدنية الحاضرة كانت من تلك الشعلة الموقدة التي كان يسطع ضوؤها من بلاد الأندلس على ما جاورها ، وعمل رجال الدين المسيحي على إطفائها عدة قرون فما استطاعوا الى ذلك سبيلاً ، واليوم يرعى أهل أوروبا ما نبت في أرضهم بعدما سقيت بدمـــاء أسلافهم المسفوكة بأيدي أهل دينهم في سبيل مطاردة العلم والحرية وطوالــع المدنية الحاضرة » .

هذا وقد كان للشيخ في رسائله الإخوانية أسلوب يحتفي فيه بعبارته، وتصوير مشاعره تصويراً فنياً يدل على ذوق أدبي ، وتمكن من اللغـــة والأدب ، وعلى أنه ذو موهبة شعرية تمده بالخيـالات الطريفة والصور البيانية الجميلة ، وقد ذكرنا فيما سبق خصائص هذا الأسلوب وضربنـا عليه أمثلة من كتابة أديب أسحق ، وعبد الله نديم ، وعبد الله فكري

---

(١) تاريخ الامام جـ ٢ ص ٣٨٢ ، مقال هانوتو ص ٣٨٢ – ٣٩٥ ورد محمد عبده عليه ص٣٩٥ – ٤١١ ، انظر التفاصيل في تاريخ الامام جـ ٢ ص ٧٨٩ وما بعدها.

وهاك مثلاً من رسالة للشيخ محمد عبده الى أحد إخوانه وهو في سجن بعد أن أتهم بالاشتراك في حوادث الثورة العرابيـة ، وذلك في ٩ من المحرم سنة ١٣٢٠ الموافق ٢٠ من نوفمبر ١٨٨١ م .

عزيزي :

تقلّدتني الليـالي وهي مدبرة كأنني صارم في كف منهزم

هذه حالتي : اشتد ظـــلام الفتن حتى تجسم بل تحجر ، فأخذت صخوره من مركز الارض الى المحيط الاعلى ، واعترضت ما بين المشرق المغرب وامتدت الى القطبين ، فاستحجرت في طبـاع الناس ! إذ تغلبت طبيعتها على المواد الحيوانية أو الانسانية ، فأصبحت قلوب الثّقلَيْن كالحجارة أو أشد قسوة ، فتبارك الله أقدر الخالقين .

رأيت نفسي اليوم في مَهمه لا يأتي البصر على أطرافه ، في ليلة داجية ، غُطّي فيها وجه السماء بغمام سوء ، فتكاثف ركاماً ؛ لا أرى إنساناً ، ولا أسمع ناطقاً ، ولا أتوهم مجيباً :

أسمع ذئاباً تعوي ، وسباعاً تزأر ، وكلاباً تنبّح ، كلها يطلب فريسة واحدة ، وهي ذات الكاتب ، والتف على رجلي تنينان عظيمان ، وقـــد خويت بطون الكل ، وتحكم فيها سلطان الجوع ، ومن كانت هذه حاله فهو لا ريب من الهالكين .

تقَطّع حبـلُ الأمل ، وانفصمت عُروةُ الرجاء ، وانحلت الثقـة بالأولياء وضلّ الاعتقاد بالأصفاء ، وبطل القول بإجابة الدعاء ، وانفطر من صدمـة الباطـل كبد السماء ، وحقت على أهـل الأرض لعنـة الله والملائكة والأنبياء والناس أجمعين .

سقطت الهمم ، وخربت الذمم ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ، ومزقت الشرائع ، وبدلت القوانين ، ولم يبق إلا هوى يتحكم وشهوات تقضي وغيظ يحتدم ، وخشونة تنفذ ، تلك سنة الغدر ، والله لا يهدي كيد الخائنين .

ذهب ذوو السلطة في بحور الحوادث الماضية يغوصون لطلب أصداف من الشُّبَه ومقذوفات من التهم وسواقط اللمم ليموهوها بمياه السفسطة ويُغَشوها بأغشية من معادن القوة ليبرزهـا في معرض السطوة ويَغُشّوا بها أعين الناظرين ، لا يطلبون ذلك لغامض يبينونه ، أو لمستور يكشفونه ، أو لحق خفي فيظهرونه ، أو خَرْقٍ بَدا فيرتقونه ، أو نظام فسد فيصلحونه ، كلا بل ليثبتوا أنهم في حبس من حبسوه غير مخطئين »[1] .

ولعلك تلمس في تلك الشكوى المرة من الخيانة والغدر وعدم الوفاء ، وتحكم الأهواء وهي التي سمعتها من قبل على لسان البارودي بعد أن غدر به أصحابه ، وأخفقت الثورة وزج به في غياهب السجن ، ولقد كان الشيخ في نثره شاعراً جياش العاطفة بارع التصوير لحاله ولآلامه ، ولمرارة السجن .

هذا ولم يعن محمد عبده بأسلوبه فحسب بل حاول أن يحمل الكتاب على العناية بكتاباتهم وله في هذا المضمار ، وفي النهوض بالكتابة آثار منها :

١ – مكن له منصبه في الوقائع المصرية من الإشراف على الجرائد والمجلات ومراجعة ما يحرره كتبة الدواوين في شئون الحكومة ، وقد مر بك كيف أنذر صاحب إحدى الجرائد بالتعطيل إن لم تغير أحد كتابها

(١) تاريخ الاستاذ الإمام ج ٢ ص ٥٢١ – ٥٢٢ طبعة أولى سنة ١٣٢٤ بالمنار .

أو تحمله على تحسين أسلوبه ؛ وقد التف حوله فريق من طليعة كتاب مصر والشرق ، وأفسح لهم في الوقائع المصرية ، يدبجون المقالات الاجتماعية والأدبية والسياسية بإرشاده . وكان يرى أن اللغة العربيـة هي أساس الدين[1] وأن حياة المسلمين بدون حياة لغتهم من المحال[2] .

٢ – وفي بيروت شرح نهج البلاغة ليسهل على الناس قراءته والإفادة منه ، وشرح مقامات بديع الزمان الهمذاني ونشرهـا حتى تكون زاداً يتغذى به طلاب الأدب ، ومن ينشدون قوة الأسلوب وسلامة التعبير .

ولما عاد الى مصر كانت دروسه في البلاغة تختلف عن تلك الكتب التي أفسدتها عجمة مؤلفيها ، واختار من كتب البلاغـة دلائل الإعجاز وأسرار البلاغـة لعبد القاهر الجرجاني ، وكان السبب في نشرهمـا لينتفع الناس بهما ، وقد نشرهما المنار .

وأنشأ جمعية لإحياء الكتب العربية نشرت المخصّص لـ « ابن سيده » ، وفي نشره تيسير على طلاب اللغة ؛ لأنه من معجمات المعاني ، فقد يكون بذهنك المعنى ولكن يُعْوِزك اللفظ المعبر عنه فتلتمسه في المخصص وفي أمثاله من المعجمات ، وقام بتصحيح المخصص العـالم اللغوي الشهير الشيخ محمد محمود الشنقيطي وقد حماه الشيخ محمد عبده ، وشجعه على الإقامة بمصر . ولولاه ما بقي[3] . كما شرع في طبع الموّطأ للإمام مالك بعد أن جاء بنسخ خطية له من تونس وفاس وغيرهما[4] .

---

(١) تاريخ الامام جـ ٣ ص ٢٥٩ .
(٢) المنار جـ ٨ ص ٤٩١ .
(٣) بروكلمان جـ ١ ص ٣٠٩ .
(٤) المنار جـ ٨ ص ٤٩١ .

٤ – وعهد الى الاستاذ سيد بن علي المرصفي في تدريس كتب الأدب بالأزهر أمثال « الكامل » للمُبرِّد ، و « ديوان الحماسة » لأبي تمام ، وكانت هذه الدروس غريبة عن الأزهر ولا عهد له بها ، وقد تتلمذ على المرصفي عدد كبير من أدباء مصر البارزين أمثال المنفلوطي ، وطه حسين ، والزيات ، والزناتي وغيرهم فهم أثر من آثار توجيهه وإرشاده .

وبهذه الوسائل استطاع محمد عبده أن يقدم للنثر العربي خدمة جليلة ، ويوجه الكتاب الى العناية بما يكتبون ، غير مقيدين بذلك السجع السخيف ، ومنصرفين الى المعاني وتفتيقها ودراسة الموضوع دراسة جيدة تفيد القارىء ، وتجدي على الأمة .

هذا ما كان من أثره في النثر ، ولا يسعنا ونحن نختم هذه العجالة عن محمد عبده إلا أن نقرر أنه أيقظ في مصر الشعور الديني ، والرغبة في الإصلاح الاجتماعي ، وأن الأوْلى بالمسلمين أن يعتمدوا في الإصلاح على أنفسهم ، ويدعوا الفخر بماضيهم ؛ ودعا الى أن العقل يجب أن يحكم كما يحكم الدين ، فالدين عرف بالعقل . كما دعا الى الاجتهاد ، وعدم الوقوف بالتشريع وبمسائل الدين عند الحد الذي قرر من قُرون عديدة ، وذلك لكي نواجه المسائل الجديدة بتشريع ديني سليم قبل أن نغلب على أمرنا ، وكان يرى أن أكبر سلاح في الدنيا هو العلم ، وأكبر مقوم للأخلاق ومهذب لها هو الدين ، والدين الإسلامي لحسن الحظ يتمشى مع العقل ، ويحض على مكارم الأخلاق ، ويفسح صدره للعلم .

لقد خلف محمد عبده تلاميذ بررة تأثروا بتعاليمه وظلوا ردحاً طويلاً من الزمن يفتخرون بانتسابهم إليه وبالأخذ عنه ، ومنهم سعد زغلول ، وحافظ إبراهيم ، وإبراهيم المويلحي ، والهلباوي ، ومصطفى صادق الرافعي بمصر ، وإبراهيم اليازجي ، وأحمد الحمصاني بسوريا وعدد كثير

سواهم ممن حملوا لواء الإصلاح بعده وكان لهم الأثر البالغ في أوطانهم ونهضتها . وإن كان قد صبغهم في أثناء حياته بطابعه السياسي الخاص ، ووجه ميولهم صوب الانجليز ، فهادنوهم وتعاونوا معهم في كل شيء ، فلما توفي الشيخ محمد عبده أسرع بعضهم الى جبهة الوطنيين مثل حافظ إبراهيم ، وتأخر الزمن قليلاً ببعضهم عن ذلك المضمار ولكن ما لبث بعضهم حتى صار زعيم الوطنية بمصر كسعد زغلول .

٣ – عبد الكريم نديم :

أعجوبة من أعاجيب عصره ، يقف وحده في كل ما تميز به من سجايا ، لا يدانيه فيها امرؤ من أهل زمانه ؛ ويخيل إليك وأنت تقرأ سيرته أنك أمام رجل من رجال الأساطير ، يروعك بذكائه الخارق ، وقوة عارضته ، ومتين حجته ، وشجاعته الفائقة ، وبحياته المليئة بالأحداث ، وبما بلغ من شهرة ، وبما حارب من أبطال ، وبما أفزع من دول ، ولم يكن في حسب جمال الدين وعلمه ، ولم يدرس ما درس محمد عبده وإنما نشأ في بيئة فقيرة[1] ؛ فعانى البؤس وشظف العيش ، ولكن الله الذي يهب العبقرية لمن يشاء أودع حظاً كبيراً منها في رأس عبدالله نديم ، وزوده بنفس شجاعة ، ويد سخية ، وكانت هذه الخلال رأس ماله الذي واجه به الحياة . وقد استطاع أن يسجل اسمه لامعاً في سجل الخلود .

---

(١) كان أبوه مصباح إبراهيم نجاراً في أول أمره ، ثم خبازاً ، ويحصل من مخبزه على الكفاف من العيش : ويعول أسرة كبيرة العدد ، يعيش في مسكن متواضع . وقد أرسل ابنه عبدالله الى المكتب ثم الى مسجد الشيخ إبراهيم باشا بالاسكندرية ، وغاية ما يرجوه أن يتعلم قليلاً منه ثم يعود إليه ليعاونه في مهنته .

دراسته وتجاربه :

لم يرق لعبدالله العلم الذي وجده بمسجد الشيخ ابراهيم باشا ، وهو علم شبيه بما كان يدرس في الازهر حينذاك ، ووجد في جفاف العلوم ، وعقم الطريقة ، ورداءة الكتب وركاكة عبارتها ما نفره من الازهر المصغر ، وحبّب إليه نوع آخر من الدراسة تهواه نفسه ، وينسجم مع ما أودع فيها من مواهب ، فغشي مجالس الأدباء ، يسمع شعراً وزجلا ، ونوادر وقصصاً فتهتز نفسه طرباً ، ويتمنى أن يكون أحد هؤلاء الشعراء أو الزجالين ، وكانت له ذاكرة حادة تلتقط كل ما تسمع فوعى كثيراً .

وقد كان لهذا أثر كبير في حياته الأدبية ، ولا سيا وقد خالط أبناء الطبقة الفقيرة وجمهرة الشعب ووقف على عاداتهم وأمثالهم ونوادرهم وظروفهم وسرعة بديهتهم ، فتأثرت بذلك نفسه الحساسة وذوقه المرهف .

ولكن هيهات أن يرضى أبوه بهذه الدراسة غير المنتظمة وهو رجل يكد ويتعب لينال الكفاف وكان يؤمل أن يرى ابنه عالماً كبيراً كهؤلاء الذين يرى الناس يقبّلون أيديهم ، أو على الأقل يساعده بما تعلم من حساب ولغة ، فلما بدت هذه النزعة نفض منه يده ، وأخذ عبدالله يعول نفسه ، وتعلم فن الإشارات (التلغرافية) ، وأتيح له بعد أن أتقن هذا الفن أن يشغل وظيفة بقصر والدة الخديو اسماعيل بالقاهرة ، فشاهد الغنى والجاه ، وألواناً من الحياة لم يرها من قبل ، شاهد العز في أوجه ، كما عرف الفقر في أبشع صوره من قبل .

وعاوده بالقاهرة حنينه الى مجلس الادباء والشعراء فصار يجد في

البحث عنهم ، فتارة يذهب الى الأزهر ، ويطلع على ما أخذ رفقاؤه[1] وأحياناً يغشى منازل الأدباء ويتعرف عليهم ويستفيد منهم ، فتوثقت صلته بالبارودي ، وعلي أبي النصر ، وعبدالله فكري ، ومحمود صفوت الساعاتي ، والشيخ أحمد الزرقاني ، ومحمد بك سعيد بن جعفر مظهر باشا الشاعر الناثر . وعبد العزيز بك حافظ[2] ، وغيرهم من الأدباء أو محبي الأدب ، فاتسعت ثقافته الأدبية بهذا الاختلاط ، وعرف مزايا كل منهم ، ووقف على فنه ، وشاركهم في مجالس أنسهم وطربهم ومطارحاتهم فأضاف الى خزينة أدبه ما وعاه في هذه المجالس من طرف وملح ورواية .

ولكن مقامه بالقاهرة لم يطل ، إذ زل قلمه وهو في الوظيفة فأغضب خليل آغا[3] المشرف على القصر ، وناهيك به في ذاك الوقت جباراً ، لا يرد له أمر ، وبذلك فقد عبدالله وظيفته ، وضاقت عليه القاهرة بما رحبت ، فضرب في البلاد هائماً على وجهه حتى وصل الى (بدواي) بمديرية الدقهلية ، وأخذ يعلم أبناء عمدتها القراءة ، ولكن هذا العمدة ضنّ عليه بالأجر ، فثارت ثائرة عبدالله نديم ، وأخذ يصوغ في هجاء هذا العمدة ألواناً مقذعة من الهجاء كانت أول ما عرف من أدبه ، واكتشف في نفسه أديباً ذا سطوة في القول ، حاد اللسان عنيف الخصام حاضر البديهة .

---

(١) وكان من رفقائه الخلصاء الشيخ حمزة فتح الله .

(٢) وقد دبج عبدالله نديم مقالاً في هؤلاء الأدباء أثنى فيه عليهم ووصف كلا منهم ببعض النعوت والمدائح ، راجع سلافة النديم ج ١ ص ٣٤ .

(٣) وهو خصي كان ذا حظوة عظيمة لدى إسماعيل وأمه ، وكانت إشارته حكم وطاعته غنم كأنه كافور الأخشيدي أو يزيد .

ثم نراه في المنصورة يتجر في (العصائب) ويجمع حوله الأدباء الشعراء فأكل الربحُ رأسَ المال الذي جاد به عليه أحد الكرماء ، ووجد نفسه بعد مدة في دكان مملوءة بالشعراء خلو من السلع ؛ فهام على وجهه مرة أخرى بالبلاد حتى وصل إلى طنطا إبان مولد السيد البدوي واتصل بشاهين باشا كنج[1] ، وكان رجلاً ذا جاه يجتمع حوله الأدباء

---

(١) وقد وقع له مع شاهين باشا حادثة تدل على مبلغ بديهة عبد الله نديم واستعداده الأدبي فقد قال هو عن نفسه : « كنت بمولد السيد البدوي ومعي السيد علي أبو النصر والشيخ حلاوة وجلسنا على قهوة الصباغ نتفرج على أديب وقف يناظر آخر ، فلما فطن أحدهم لانتقادنا عليهما استلفت أخاه إلينا » وخصانا بالكلام ، فأخذا يمدحاننا واحداً فواحداً إلى أن جاء دورهما إليّ فقال أحدهما يخاطبني .

أنعم بقرشك يا جندي والا اكسنا أمال يا أفندي
إلا أنا وحياتك عندي بقي لي شهرين طول جوعان

فقلت على سبيل المزاح .

أما الفلوس أنا مديشي وأنت تقولي لي ما امشيشي
يطلع علـيّ حشيشي أقوم أملص لك لودان

ولما بلغ شاهين باشا ذلك واني غلبت هؤلاء (الأدبانية) ، طلب شيخهم ، ووعده إن غلبوني يعطهم ألف قرش ، وإن غلبتهم يضرب كل واحد منهم عشرين (سوطاً) ، واجتمع لذلك حشد كبير وابتدأ كبيرهم فقال :

أول كلامي حمد الله ثم الصلاة على الهادي
ماذا تريد يا عبد الله قدام . أميرنا وأسيادي

فقلت :

إني أريد أحمـد ربي بعد الصلاة على المختار
وإن كنت تطمع في أدبي أسمعك حسن الأشعار

والظرفاء وله ببيته منتدى يضم أنمــاطاً شتى من ذوي اللسن والنكتة والفكاهة ، وقد مكث عبد الله نديم في ضيافته مدة ينعم بكرم وأدب وراحة ، وكان واسطة العقد يبهر الناس بأدبه وطلاقة لسانه ، وسرعة بديهته ، وكان يتحداه الأدباء ، ويحارلون تعجيزه ولكنه يهرهم بمواهبه؛ وقد روى أن بعضهم اقــترح عليه أن يعارض دالية المتنبي المشهورة التي مطلعها :

أقل فعــــالى بَلـهَ أكثره مجد   وذا الجد فيه نلت أو لم أنل جَدُّ

وادعى المقترح أنه لا يتأتى لشاعر أن يعارض المتنبي في قوله بهذه القصيدة .

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى   عـــدواً له ما من صداقته بد

فقبل النديم التحدي ، وأنشأ قصيدة مطلعها .

سيوف الثنا تصدا ، ومقولي الغمد   ومن صار في نصري تكفله الحمد

ومنها يعارض بيت المتنبي :

= فقال : دعنا من الأدب المشهور   وادخل بنا باب الدعكة
ندخل على أسيادنا بسرور   وتغنم الخير والبركة

فقلت : هيا احتشكم في البحر وشوف   فن النديم ولا فنك
دلوقت تسمع يا متحوف   أحسن أدب وحياة دقنك

وهكذا استمر عبد الله نديم يساجل هؤلاء الأدباتية حتى أفحمهم ، وتجد ثبتاً لا بأس به بمجلة الأستاذ كتبه النديم بنفسه ونقله أحمد باشا تيمور في كتابه (تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر) .

ومن عجب الأيام شهم أخو حجا يعارضه غر ويفحمه وغـــد

ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما لتحفظ أعراض تكفلها المجـد

وليس هذا شعراً صادراً عن عاطفة أو فكرة ، وإن هو إلا مهارة لسانية ، وإظهار لمقدرة كلامية ، وقوة عارضة ، وتوقد خاطر ، وأثر الصنعة باد عليه ، ولكن الشعر في عصر عبد الله نديم كان كذلك .

ثم عاد إلى الإسكندرية في سنة ١٨٧٩ ، بعد أن غاب عنها طويلاً ووجد الأمور والأحداث قد بدلت حديث الناس وسمرهم ، ولم يعد الشعر وروايته ، والأدب ودرايته هي ما يشغل المستنيرين بمصر بعامة ، والإسكندرية بخاصة ، وإنما كان يشغل الناس حينذاك إسراف إسماعيل وتهوره وتدخل الأجنبي في شئون البـلاد وتجبره ، ووجد بالإسكندرية جمعية سرية تسمى (مصر الفتاة) تنقد اسماعيل وأعماله صراحة ، وتعبر عن آلام الأمة وآمالها ، ووجد الصحف قد تغيرت لهجتها ، وصارت بفضل تعاليم جمـــال الدين ميداناً فيه الأقلام المرهفة الحادة على الظلم والعنفوان والاستبداد والقسوة ، وتطلب الشورى وإنصاف الشعب . ورأى عبد الله نديم أن هذا الأدب الجديد ينسجم مع نفسه فألقى بهـا في هذا التيار ، تيار السياسة القوي حتى صار من قواد الأمة السياسيين ، ورائـــداً من رواد الوطنية الأوائل ، فأخذ يغذي الصحف بمقالاته السياسية ، وحوّل هذه الجمعية السرية إلى جمعيـة علنية تعمل في ضوء النهار ، وسماها الجمعية الخيرية الإسلامية ، وقد مر بـك شيء عنها ، وكان من أغراضها تأسيس معاهد العـلم يربى فيها النشء تربية وطنية ، ويلقنون العلم بطرق حديثة تحببه إليهم ، وتغرس في نفوسهم المثل العليا ، وتعودهم قيادة الأمة وإرشادها ، ولذلك عمد إلى تشجيع تلاميذ المدرسة على الخطـــابة ، فصاروا ينشئون الخطب بأنفسهم وهو يصلحها لهم ،

ويزج بهم في الحفلات يخطبون ، فتدرب على يديه فريق ممن يحسنون الكتابة ويجيدون الخطـــابة ، ولم يكتف بهذا بل كان يؤلف روايات تمثيلية في نقد بعض العيوب الاجتماعية ، ويمثلها هو وتلاميذه أمـــام جمهور المتعلمين بالمدينة كرواية (الوطن وطالع التوفيق) و (العرب) ، وقد حضرها الخديو توفيق تشجيعاً ، ولقي نجاحـــاً ملحوظاً أثار عليه حسد بعض الناس .

ولم يلبث أن ترك الجمعية الخيرية ومدرستها حين ظهر بها خلل نسب إليه ، فتفرغ للصحافة وأنشأ جريدة « التبكيت »[1] ، يدبج فيهـــا مقالات ظاهرها هزل وباطنها جـــد يصور فيها عيوب المجتمع المصري تصويراً شائقاً بأسلوب تهكمي لاذع ، ويطلب من القراء أن يعاونوا في تحريرها بقوله : « كونوا معي في المشرب الذي التزمته والمذهب الذي انتحلته . أفكار تخيلية ، وفوائد تاريخية وأمثال أدبية وتبكيت ينادي بقبح الجهالة وذم الخرافات لنتعاون بهذه الخدمة على نحو ما صرنا بـــه مُثْلَةً في الوجود من ركوب متن الغواية واتباع الهوى اللذين أضلانا سواء السبيل » . وسنتعرض لنهجها وطريقة كتابته بها فيما بعد وحسبنا أن نقول الآن : إن أسلوب هذه الجريـــدة والموضوعات التي عالجتها ، وهجماتها على كثير من قـــلاع الفساد بمصر حببها إلى جمهرة القراء ، وبغضها إلى المنافقين وأدعياء الوطنية .

ثم قامت الثورة العرابية في الظروف التي علمتها من قبل ، وصادفت هوى في نفس النديم ؛ لأن مبادئها كانت تنادي بالإصلاح السياسي الذي طالما دعا إليه في جريدته ، ووجد الثوار أنفسهم في حاجة إلى خطيب ذلق اللسان ، حاضر البديهة ، جياش العاطفة مصري غيور على وطنه .

---

(١) صدر أول عدد منها في ٨ رجب سنة ١٢٩٨ هـ ، ٦ يونيه سنة ١٨٨١ .

يكون لسانهم الناطق وداعيتهم المحبوب ، فلم يجدوا خيراً من عبدالله النديم فألحوا عليه حتى شايعهم فكان معهم كما أرادوا وزيادة ، وطلب منه عرابي أن يغير اسم جريدته[1] ويسميها (الطائف) تيمناً باسم طائف الحجاز ، وتفاؤلاً بأنها تطوف المسكونة كما جابتها جوائب الشدياق .

وابتدأت الطائف قوية عنيفة اللهجة تنقد اسماعيل نقداً مراً ، وتشرح للناس كيف أسرف ، وكيف استولى على الأراضي ، وتصور بؤس الفلاحين في السخرة – أيام اسماعيل[2] – والعذاب المهين الذي يصبه الرؤساء على الناس ويلهبون ظهورهم بالسياط في سبيل الجباية ودفع الضرائب ، ويضيف الى كل ذلك ما رآه بنفسه من مشاهد دامية ، وقلوب قاسية ورؤساء يزدادون غلظة طمعاً في الترقية . وما لجأ عبدالله نديم الى كل هذه الموضوعات إلا ليسوغ طلب الثوار الحكم النيابي ضماناً للعدالة ، وجَبّاً للاستبداد وعهوده ، وطلب الثوار من وزارة الداخلية أن تعتمد الطائف لسانهم المعبر فوافقت على ذلك ، وصارت الطائف مقياساً لتطور الثورة ، فتارة تذم الأوروبيين وتحمل عليهم حملات شعواء لتدخلهم في شئون البلاد ، وآونة تصب نقمتها على توفيق ؛ لأنه مكن لهم في مصر ، وغض الطرف عن ازدياد نفوذهم . وكان النديم في الطائف يدلس في

---

(١) وكان آخر عدد صدر من التنكيت في ٢٣ ذي القعدة سنة ١٢٩٨ ﻫ ، وصدر منها ثمانية عشر عدداً .

(٢) لأن من حسنات رياض التي تذكر له أنه ألغى السخرة في أوائل عهد توفيق كإقامة الجسور على النيل أيام الفيضان ، وحفر الترع من غير أجر ، وكان كثير من الملاك يسخرون الفلاحين في أرضهم بدون أجر فمنعهم رياض من ذلك منعاً باتاً فأثار حفيظتهم ، ولعل ذلك ما جعل محمد عبده ينظر إليه دائماً بأنه المستبد العادل الذي يحكم البلاد خمس عشرة سنة حتى يصلح شئونها .

أخبار الثورة والقتال تهدئة للناس فيصور الهزيمة نصراً حتى تمت الهزيمة ، وأسقط في يد الثوار .

ولم يكن الطائف وحده هو الذي يدعو الى الثورة ويحرض عليها ، ويشجع الناس على التطوع والتبرع ، بل كانت خطبه المؤثرة وحماسته المتدفقة ، وقدرته على تصنيف الكلام ، ومخاطبة كل طائفة بالأسلوب الذي تفهمه ، من أشد العوامل على إشعال نار الثورة ، وازدياد لهيبها[1] .

كان عبدالله نديم يمثل الروح المصرية أتم تمثيل ، ويعرف عادات البلاد وصفات أهلها أتم المعرفة ، ويحس بشعورهم وآلامهم ، ومـا يعانونه من جور وقسوة ، على يـد حكامهم . ولا بدع فقـد خالطهم ، ونشأ بينهم ، وتشرب بمشربهم ، وعانى مثل ما عانوا ، تربى في أحضان الفقر والفاقة ، واختلط بشتى الطبقات ، وكثرت تجاربه في الحياة . ولذلك كان يتحرق شوقاً الى الحرية ، والى رفع الظلم عن كواهل مواطنيه ، والى رفع مستواهم الاجتماعي والثقافي ، وأن يعيشوا في بحبوحة من العيش .

وكانت موهبته الحقـة في لسانه ، ويعرف أن دعوته الى الإصلاح والى الثورة ، والى التعبئة القوميـة أيام الثورة العرابيـة لن تصل الى أسماع للعامة وقلوبهم إلا عن طريق الخطابة ، لفشو الأميـة ، ولتأثر الناس بالسماع والمشاهدة .

وقد أوتي فصاحة اللسان ، وقوة الحجة والبيان ، ومعرفة عميقـة

---

(١) كان يخطب في كل مجتمع : في الازهر وطلبتـه ، والجيش وجنوده ، وفي حفلات الافراح ، فما يكون مجتمع إلا ويطمع أن يكون فيه عبدالله نديم خطيباً هو وجماعـة من تلاميذه .

بنفسية الشعب وكيف يَهيجه بعذب الكلام ، استمع إليه يحث الناس على مجاهدة الانجليز وحربهم بعد أن نزلوا الاسكندرية ، وبدا منهم الغدر والعدوان ، بذلك الأسلوب الساحر القصير الفقرات ، الذي يمزجه بآيات القرآن ، وأبيات الشعر فيزداد قوة ورونقاً وتحميساً :

« أيا نخوة الإسلام ُهزّي رجالنا لحرب بها عز البلاد يدوم

يا بني مصر :

هذه أيام النزال ، هذه أيام النضال ، هذه أيام الذود عن الحياض ، هذه أيام الذب عن الأعراض . هذه أيام يمتطي فيها بنو مصر صهوات الحماسة ، وغوارب الشجاعة ، ومتون الإقدام لمحاربة عدو مصر بل العرب ، بل عدو الإسلام ، الدولة الانجليزية خذلها الله ، ورد كيدها في نحرها فقاتلوهم قتال المستميتين ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين . قوم نقضوا العهود ، ونكثوا الأيمان ، وهموا بإخراج أهل الحكم ، وهم بدأوكم أول مرة : أتخشونهم فالله أحقُّ أن تخشوه إن كنتم مؤمنين .

يا أهل مصر ! :

إنما الانجليز نجسٌ فلا يقربوا البلاد بعد عملهم هذا ، وإن خفتم ضعفاً فتعاونوا وتآزروا ينصركم الله عليهم إن الله قوي عزيز ، كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلاً ولاذمة يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، وفي ذلك بلاء من ربكم عظيم » .

لقد صحب الثورة العرابية من أول يوم هبت شعلتها ، والتقت روحه بأرواح زعمائها ، وعدُّوه لسانهم الناطق ، وكان يصحبهم في كل مكان

كان مع الجيش في ثورة عابدين يشدّ أزرهم ، ويثبت قلوبهم . يقول عرابي : « فجال صديقي الأعز الهمام ، صاحب الغيرة والعزم القوي السيد عبدالله نديم بين الصفوف ينادي : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهمـا على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء الى أمر الله » فكان معي ثاني اثنين في حفظ قلوب الرجال من الزيغ والارتجاف ، وأخذ يردد هـذه الآية الكريمة كأنهم لم يسمعوها إلا من فمه في تلك الساعة »[1] .

ولما سافرت فرقة عبدالعال حلمي الى دمياط في أول أكتوبر عـام ١٨٨١ خطب النديم في جموع المودعين بمحطة القاهرة محييـاً الجنود ، داعياً الناس الى الالتفاف حولهم قائلاً .

« حماة البلاد وفرسانها ! من قرأ التواريخ وعلم ما توالى على مصر من الحوادث والنوازل عرف مقدار ما وصلتم إليه من الشرف ، وما كتب لكم في صفحات التاريخ من الحسنات ، فقـد ارتقيتم ذروة ما سبقكم إليها سابق ، ولا يلحقكم في إدراكها لاحق ، ألا وهي حماية البلاد ، وحفظ العباد وكف يد الاستبداد عنها ، فلكم الذكر الجميل ، والمجد المخلد ، يباهي بكم الحاضرين من أهانـا ، ويفاخر بمآثركم الآتي من أبنائنا ، لقد حيِيَ الوطن حياة طيبة ، بعد أن بلغت الروح التراقي ، فإن الأمة جسد والجند روحه ، ولا حياة للجسم بلا روح ، وهـذا وطنكم العزيز يناديكم ويقول :

إليكم يُردُّ الأمر وهو عظيم فإني بكم طول الزمان رحيم

---

(١) كشف الستار ص ٢٦٦ .

إذا لم تكونوا للخطوب وللردى فمن أين يأتي للديار نعيم
وإن الفتى إن لم ينازل زمانه تأخر عنه صاحب وحميم
إذا لم تكن للعائدين حماية فأنت ومخضوب البنان قسيم(١)

كان النديم يرتجل خطبه ولا يزوّرها ، وإنما هي كلمات ملتهبة تعبر عن عواطف جياشة تتحرك في صدره ، تصور آلامه وآلام أمته ، كما تصور آمالهم وأحلامهم ، وما مثله يحتاج الى التحضير والتحبير وقد أوتي اللسان المطواع الذرّب ، وملك أعنة الكلام ؛ ولقد تراه يخطب في المحفل الواحد خمس مرات ، فما يكرر كلاماً قاله ، ولا يتردد أو يتعلثم ، وكان يجوب القرى والدساكر فيخلب قلوب الفلاحين بسحر بيانه وعذب لسانه ورائع خطبه ، يحرضهم على الإباء والكرامة ، والغضبة للوطن المكلوم ، حتى عرف بخطيب الشرق . وكان يدعى بالبرق الى الإسكندرية وغيرها ليخطب فيلبي الدعوة زميعاً ، « ويرتجل من حر القول البليغ القوي القويم الحجة ما يترك الألباب سكارى من غير مدام »(٢) .

ولعلك لاحظت أنه لم يكن يتكلف السجع في خطبه أو غيره من المحسنات ، ومع ذلك تحس لكلامه أسراً وقوة ، ورصانة وموسيقية أخاذة ، وأنه كان يعمد الى التهويل والمبالغة والتزيد حتى يقنع ويهيج العواطف ، ويلجأ الى الإيحاء والدفع ، ويكثر من الشعر والحديث والاقتباس من آي الله الحكيم ، يؤيد بها حجته ، ويعلي كلمته ، وليكون كلامه أعظم تأثيرا وأقوى بيانا .

---

(١) مصر للمصريين ج ٤ ص ٩١ ، وكشف الستار ص ٢٥٩ ،
(٢) سلافة النديم ج ١ ص ١٩ .

وكانت كتابته خطباً مكتوبة من حيث الموضوع والأسلوب ، ولا سيا تلك التي كتبها في أيام الثورة العرابية ، وفي إبان الحرب بين مصر وانجلترا في جريدة الطائف . فكان لها السحر في النفوس ، ورفع الروح المعنوية ، وتثبيت القلوب الواجفة ، والأفئدة المضطربة الخائفة .

فلا بدع إذا جد في أثره الطلب حين أخفقت الثورة ؛ إذ رأى فيه توفيق والإنجليز المحرض الأكبر للثوار وناشر آرائهم بقلمه ولسانه ، ولكنه اختفى من وجه السلطة فلم يعثر عليه ، لأنه كان يعلم جد العلم أنه لن يغفر له ذنب ، أو تقال له عثرة إذا أسر ، ولن يجديه الإنكار فتيلا فأقواله مأثورة ، وخطبه مشهورة ، والطائف خير شهيد وسيكون العقاب صارماً أليماً . لقد ذل كثير من كبار الثوار والتمسوا الرأفة ؛ ولكن عبد الله نديم آثر التشرد والاختفاء على إحناء الرأس ، وذلة الطرف ، وهو إنما خاض الثورة عن إيمان وعلم .

وقصة اختفاء النديم وحيله التي ضلل بها السلطة ، على الرغم من المكافآت التي رصدتها لمن يأتي به ، جديرة بأن توضع في رواية تمثيلية، وستكون رواية غاية في القوة ، لأنه أجاد التنكر إجادة يعجز عنها أمهر الممثلين اليوم في بلاد (الخيالة) ، واسمعه يصف بإيجاز هذا التنكر الذي دام تسع سنين وهو بمصر لم يبرحها ويمر بين رجال الحكومة ، وصنائع الإنجليز دون أن يدركوه ، أو يعرفوه : « خرجت من مصر مختفياً فدرت في البلاد متنكراً ، أدخل كل بلد بلباس مخصوص ، وأتكلم في كل قرية بلسان يوافق دعواي التي أدعيها ، من قولي إني مغربي أو يمني أو مدني أو فيومي أو شرقاوي أو نجدي ، وأصلح لحيتي إصلاحاً يوافق الدعوى أيضاً ، فأطيلها في مكان عند دعوى المشيخة ، وأقصرها في آخر عند دعوى السياحة — مثلاً — وأبيضها في بلد

وأحمرها في قرية ، وأسودها في عزبة ، وتغيرت الأسماء التي انتحلتها[1]، والناس في عجب من أمره فالمقدرة مقدره النـديم ، ولكنه يختلف عنه في الشكل والصوت واللهجة ، فيقولون : سبحان الله جل من لاشبيه له !!

(١) فتارة إسمه الشيخ يوسف المدني ، وتارة الشيخ محمد الفيومي ، وأحياناً سي الحاج علي المغربي » وكان إذا ادعى أنه مغربي تكلم بلسان مغربي محكم ، أو مدني فكذلك وادعى مرة أنه عالم يمني وكان بالقرشية عند أحمد المنشاوي . وذاعت شهرته حتى بلغت رياض - وهو الرجل الذي يطارده ويضع له الأرصاد في كل طريق ، ويقف المـال في سبيل أسره إرضاء لتوفيق - فأرسل سعد زغلول ليسأله عن مثل ورد ذكره في بعض الجرائد ولم يفهمه ، فقابل سعداً على أنه عالم يمني وفسره له .

وقد استعان على تضليل الحكومه بإشاعة سفره إلى خارج القطر على لسان صديق فرنسي كان يثق به ، ونقلت كل الجرائد خبر سفره هذا فصدقت الحكومـــة وعنفت رجال الأمن على إهمالهم وتمكينهم له من الهرب ، وقد وجد عطفاً زائداً من كثير من الناس فأعانوه على وأمدوه وخادمه بالمال ؛ فقد أتى مرة عيد أضحى وهو في (برية المندرة) يسكن الحقول ، لا أحد معه إلا زوجته ، ولا تجد القوت الضروري ويأتيه خادمه يشكو البؤس والفاقة ، وإذا برجل من أهل البر والمروءة يملأ بيت النديم قمحاً وعسلاً وسمناً وثياباً من أطلس وحرير للزوجة وللخادم وزوجته .

ولكن مرت عليه مع ذلك أيام حالكة السواد ، مليئة بالمصائب ، فقد اختفى مرة في قاعة مظلمة لا يتوصل إليها إلا من سرداب طويل مظلم ، يرشح المـاء من أرضها لقربها من ترعة ولا يتمكن من القراءة والكتابة إلا على مصباح صغير به ذبالة تملأ الحجرة دخاناً ، وقد مكث بهذا السرداب ستة أشهر وكان إذا أراد الكتـــابة صنع المداد من سناج السراج مع قليل من قرظ السنط ، ويتخذ أقلامه من الحجناء كل هذا وهو صابر لا يشكو ولا يتململ : وكان أول أمره شديد الحنين لأمه وأبيه وأخيه لا يعرف ما صاروا إليه ، فلما خف عنه الطلب ، ويئست الحكومة من العثور عليه ، تمكن من الاتصال بأهله اتصالاً منتظماً وكان حريصـــاً على ما خلفه ببيته بالإسكندرية من كتب ومؤلفات ، ولكنها ضاعت بالسكة الحديدية حين وضعها أبوه وهو مهاجر من الثغر بعد ضربه بالمدافع الإنجليزية ، فلما اشتد الزحام بالقطار عمد رجال السكة الحديدية إلى التخلص من البضائع ليفسحوا المجـال للناس فالقوا بهذه الصناديق المملوءة كتباً وهم لا يعلمون قيمتها عند عبد الله نديم .

وقد أتيح له من الفراغ وهو في اختفائه هذا ما مكنه من مواصلة دراسته ، وشغل نفسه بالتأليف وقرض الشعر ، وقد ألف في كثير من العلوم ، وفي هذا يقول من رسالة لصديق له « تارة اشتغل بكتابة فصول في علم الأصول ، وأجمع عقائد أهل السنة بما تعظم به لله المنة ، وحيناً اشتغل بنظم فرائد في صورة قصائد ، ووقتاً أكتب رسائل مؤلفة في فنون مختلفة وآونة أكتب في التصوف والسلوك وسير الأخبار والملوك ، وزمناً أكتب في العادات والأخلاق وجغرافية الآفاق ، ومرة أطوف الأكوان على سفينة تاريخ الزمان ؛ ويوماً اشتغل بشرح أنواع البديع في مدح الشفيع ... وقد تم لي الآن عشرون مؤلفاً بين صغير وكبير ، فانظر الى آثار رحمة الله اللطيف الخبير ، كيف جعل أيام المحنة وسيلة المنحة والمنة ، أتراني كنت أكتب هذه العلوم في ذلك الوقت المعلوم ، وقد كنت أشغل من مرضعة اثنين ، وفي حجرها ثالث ، وعلى كتفها رابع ، وأتعب من مربي عشرة وليس له تابع » .

وانتهى به المطاف الى بلدة (الجيزة) فعرفه عمدتها وكتم أمره ، ولكن أحد جواسيس الحكومة عرفه ، نوشى به طمعاً في المكافأة[1] ، وأطبق عليه رجال الشرطة ، ولم يستطع النجاة بحيله المعهودة فسلم نفسه[2] ومن حسن حظه انهم لم يفحصوا عن أوراقه ، إذ كان في بعضها هجاء مقذع لتوفيق ، ولو تنبهوا لذلك لكان أمره غير ما عرفنا . ثم أرسل الى طنطا للتحقيق معه ، وكان المحقق قاسم بك أمين فأكرمه وواساه وأمده بالمال من عنده ثم صدر أمر توفيق بالعفو عنه وإبعاده

---

(١) كان ميعاد المكافأة قد انتهى فلم ينل شيئاً

(٢) كان اختفاؤه سنة ١٢٩٩ هـ والقبض عليه في سنة ١٣٠٩ هـ .

عن مصر ، فاختار (يافا) دار إقامة ، وطوف ما شاء له هواه في فلسطين وعرف كثيراً من بقاعها[١] .

ولما مات توفيق وتولى عباس عفا عنه ، وسمح له بالعودة الى مصر فرجع إليها سنة ١٨٩٢ وأنشأ جريدة (الأستاذ) فكانت صفحة مجيدة في تاريخ الجهاد القومي ؛ لأن علاقة الخديو عباس بالإنجليز كانت سيئة أول الأمر ، وكان يجمع حوله الوطنيين وكبار المفكرين كما علمت آنفاً ، وأخذ النديم يناصر عباساً بكل ما أوتي من قوة ، وكان في استطاعته أن يجنح للسلم ويهادن الإنجليز ، ويعين في أعظم المناصب بالمعارف أو الأزهر ، وهو كفء أديب ولكن أبت عليه نفسه العَفّة ، ووطنيته المتقدة أن يلين لعدوه مهما كانت الأيام قد حاربته في الماضي ، ولقي إبان اختفائه من عنت وآلام .

شهر قلمه في وجه الإنجليز غير مبال بهم وبسلطانهم القوي بوادي النيل ، فأثار بذلك حفيظتهم وخافوا إن تركوه وشأنه أن يتسع الخرق ، ويفسد الأمر ويعيدها جذعاً ، فأوقفوا مجلته ، ورحلوه الى يافا[٢] منفياً

---

(١) وكان في أول أمره يرتدي الثياب الافرنجية المعلومة ؛ فلما ظهر بعد الاختفاء لبس الجبة والقباء واعتم بعمامة خضراء إشارة الى الشرف ، ولكن كثيرا من ذوي الخبرة ينكرون هذا النسب ، ولعل هذا الادعاء لشعوره بضعة نسبه فأراد أن يستره بهذه الصلة .

(٢) وقد ودع قراءه في آخر عدد صدر من مجلة الاستاذ في ١٣ من يونيه سنة ١٨٩٣ بكلمة مؤثرة قال فيها : ما خلقت الرجال إلا لمسايرة الأهوال ومصادمة النوائب ؛ والعاقل يتلذذ بما يراه في فصول تاريخه من العظمة والجلال ، وإن كان المبدأ صعوبة وكدراً في أعين الواقفين عند الظواهر ، وعلى هذا فإني أودع إخواني قائلا :

أودعكم والله يعلم أنني ... أحب لقاكم والخلود إليكم
وما عن قلى كان الرحيل وإنما ... دواع نبدت فالسلام عليكم

بعد أن منحوه أربعمائة دينار ، وأجروا عليه خمسة وعشرين كل شهر ، واشترطوا عليه ألا يكتب شيئاً بشأن مصر ، ولم ينفعه الخديو ، ويحول بينه وبين النفي لأنه كان مغلول اليد والسلطة كلها بيد الإنجليز .

ولم يكن بيافا أسعد منه حظاً وهو بمصر ، إذ وشى به جماعة لدى السلطان عبد الحميد فأمر بإبعاده ، فعاد الى الاسكندرية في حيرة من أمره بعد أن لفظته بلاد الدولة العثمانية . بيد أن الغازي مختار باشا تشفع له عند عبد الحميد حتى سمح له بالسفر الى تركيا وهناك التقى بأستاذه الأكبر جمال الدين ، وكان كلاهما في أسر وإن اختلف القفصان . فجمال الدين في قفص من ذهب ينسجم مع حسبه ومكانته ، والنديم في قفص من حديد يليق بمقامه .

وعين النديم مفتشاً للمطبوعات وهي وظيفة اسمية تكفل له راتباً مقداره خمسة وأربعون مجيدياً ، وطبعي أنه لم يزاول العمل بمهنته تلك ، وهي أبعد الوظائف عن طبعه وحريته . وفي الآستانة عادى أكبر قوة بها في ذياك الوقت وهو أبو الهدى الصيادي [1] ولعله تأثر في عداوته له بجمال الدين ، وقد عرفت من أمرهما معاً بعض الشيء أو لعل الصيادي — وهو الأرجح — كان عدواً لكل حر كريم . ولم يعبأ النديم بسطوة الصيادي وجاهه وقدرته على الانتقام ، وهو رجل كانت له في كل مكان عيون تنقل له الأخبار ، وقد اصطنع بمعروفه كثيراً من عظماء

---

(١) الصيادي سوري من حلب فقير من المال والحسب دفعته المقادير الى الآستانة ، وكان ماهراً ذكياً وسيم المحيا ، ماضي العزيمة استطاع أن يتغلب على السلطان عبد الحميد ويخضعه لمشيئته ، بأحلامه وتفسيراته والطرق ومشيختها ، وربط نسبه بأعلى نسب وادعى أنه قرشي هاشمي ؛ وحياته وأعماله تمثل دوراً هاماً أشبه بدور راسبوتين عند القياصرة الروس .

الدولة فهم طوع يديه ورهن إشارته ، وقد سخر كل ما بتركيا لخدمته وكم نفذ أمره وأبطل أمر السلطان ، وكم تدلل على عبد الحميد فبالغ في استرضائه . ولكن النديم لا يهمه الصيادي ولا عبد الحميد وأخذ يخوض في سيرته بلسان حاد بذيء ، ووضع فيه كتاباً سماه (المسامير) كله هجو مقذع فاحش لا يشرف الصيادي ، ولا يشرف النديم ، وحاول الصيادي أن يعثر على هذا الكتاب ، وهربه (جورج كرتشي) الذي كان متصلاً بجمال الدين وعبدالله نديم الى مصر ، ثم طبعه

وأصيب النديم بالسل بعد ذلك بقليل ، واشتدت عليه العلة فمات في الرابع من شهر جمادى الأولى سنة ١٣١٤ ، العاشر من أكتوبر سنة ١٨٩٦ ، ودفن بتركيا وهو في الرابعة والخمسين من عمره .

آثاره وأثره :

ولعلك قد أدركت من هذه السيرة أن النديم قد جرب كثيراً من شئون الحياة ، وعرف حلوها ومرها ، وخالط الفقراء والأغنياء ، وعاشر أصنافاً شتى من مختلف الأجناس وعرك الدهر حتى استحصدت مرّته ، وقويت شكيمته ، وإني أدعه يسرد تجربته بنفسه فستعيننا في تعرف أدبه ، قال : « أخذت عن العلماء ، وجالست الأدباء ، وخالطت الأمراء ، وداخلت الحكام ، وعاشرت أعيان البلاد ، وامتزجت برجال الصناعة والفلاحة والمهن الصغيرة ، وأدركت ما هم فيه من جهالة ، وممن يتألمون ، وماذا يرجون ، وخالطت كثيراً من متفرنجة الشرقيين وألمت بما انطبع في صدورهم من أشعة الغربيين ، وصاحبت جمعاً من أفاضل الشرقيين المتعلمين في الغرب مما ثبتت أقدامهم في وظيفتهم ، وعرفت كثيراً من الغربيين ورأيت أفكارهم عالية أو سافلة فيما يختص بالشرقيين والغاية

المقصودة لهم ، واختلطت بأكابر التجار ، وسبرت ما هم عليه من السير في المعاملة أو السياسة ، وامتزجت بلفيف من الأجناس المتباينة جنساً ووطناً وديناً ، واشتغلت بقراءة كتب الأديان على اختلافها ، والحكمة والأدب ، وتعلقت بقراءة الجرائد مدة ، واستُخدمت في الحكومة المصرية زمناً ، واتجرت برهة ، وفلحت حيناً ، وخدمت الأفكار بالتدريس وقتاً وبالخطابة والجرائد آونة ، واتخذت هذه المتاعب وسائل لهذا المقصد الذي وصلت إليه بعناء ، وكساني نحول الشيخوخة في زمن بضاضة الصبا وتوجني بتاج الهرم الأبيض بدل صبغة الشباب السوداء ، فصورتي تريك هيئـــة أبناء السبعين ، وحقيقتي لم تشهد من الأعوام إلا تسعة وثلاثين » .

ولو عاش النديم -- مع تجربته هذه التي قلمـــا تتاح لأديب ، ومع ذوقه المرهف ومواهبه العديدة وقدرته على التعبير – في عصرنا هـــذا وعرف ألوان الأدب ، وفنونه ، واطلع على طريقــة الغرب وأساليبه من قصة ومسرحية ، وأفكار ، لكان أديباً عالمياً ممتازاً تفاخر كل أمة بانتسابه إليها . ولكنه كان متعلقاً الى حد كبير بأذيال الماضي ، يكتب بأسلوب مقيد بصنوف عديدة من الاغـلال ، ولم تكن كنوز المعاني قـد حطمت أغلاقها ولا ألوان الادب الغربي العديدة قد عرفت ودرست . ومع ذلك فالنديم يعد في الطليعة من رواد الادب الحديث .

أما آثاره فيحدثنا أحمد سمير مترجم حياته ، بأن النديم « لما كان في يافا أول مرة بعث الي محرّراً يكلفني بـــه أن أطلب ديوان شعره الصغير من صديقه المرحوم عبد العزيز حافظ فلما قصدته وجدته مصاباً في قواه العقلية بما لم يدع للطلب مجالاً . ثم كتب إلي كتاباً ثانيــاً بأن ديوانه الاوسط عند « م. ن » فطلبته منــه ، فاعتذر بأنه ضاع فلمـا أنبأت المترجم بذلك أرسل إلي في مكتوبه الثالث أنــه إنمـا طلبها

ليحرقها براءة منها ومن أمثالها ؛ لان فيها ُهجراً كثيراً ، وختم المكتوب بهذه العبارة : [قد خلعت تلك الثياب الدنسة ، ولبست ثوب (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً)] » .

وهذه قصة تذكرنا بما كان من الشيخ علي الليثي من قبل وبمكانة الشعر عند هؤلاء القوم ، وفي الواقع أنه لم يكن شعراً بالمعنى الذي نعرفه اليوم ، ولكنه كان كما ذكرنا من قبل نظماً تظهر به المقدرة على التعبير والمهارة اللسانية ، وتصريف الكلام . وسنرى نماذج من هذا الشعر فيما بعد ، وقد بقي لنا قليل ينبىء عن نوع هذه الدواوين التي لم يعثر عليها .

١ — أما نثره ، فقد كتب مقالات شتى في التنكيت والتبكيت ، وقد وعدنا بالرجوع إليها لننظر في موضوعاتها وقيمتها . وحسبنا أن نتصفح العدد الاول منها وقد حرره النديم بقلمه فنجد مقالات شتى تمس حياة الامة وتعالج مشكلاتها .

فمقال عنوانه : « مجلس طبي لمصاب بالأفرنجي » ، وهي قصة شاب قوي الجسم سليم البنية ، جميل الطلعة ، لطيف الشكل ، نشأ تحوطه العناية وتكلأه الرعاية ، ويدلله أهله ويحمونه حتى لا تصل إليه يد عدو ، ولا حيلة محتال ، ولكن استطاع دجال ماهر أتقن فن الخداع والحيلة أن يتسلل إليه ، وأن يوهم أهله أنه من ذوي الورع والتقوى ، فأمنوا جانبه ، وأسلموه له ، فأخذ يعرضه في الأسواق والطرقات وجلب له من الغواني الحسان من تعارض الشمس بحسنها وتكسف البدر بنورها ، يغازلن أهله بحركات تحرك الجبان ، فانصرف الأهل إليهن ، وتركوا مراقبة الفتى المليح ، فانفرد به ذلك المحتال الخداع ، وأغرى به الفنيات

الملاح ، فتمنّع حيناً ، وعصمه حياؤه وطهر نشأته زمناً طويلاً ، ولكن رأى أن الإغراء شديد ، والخصم عنيد ، وأن لا قبل له بهؤلاء الشياطين، ولا سيما وقد وجد أهله عاكفين على التزلف لهؤلاء النسوة ، والتدله في حبهن ، فسار في الطريق التي رسمها من قبل هذا المنافق الدجال ، فما هي إلا رشفة كأس حتى أصيب بالداء الأفرنجي (الزهري) فاصفر لونه وارتخت أعضاؤه ، وذهبت بهجته ، وغارت عينـــاه ، وتشوه وجهه ، وتبدلت محاسنه بقبائح تنفر منها الطباع ، وفطن إليه بعض أهله فلما رأى ما به بكى وانتحب ، وأخذ يذرف العبرات ويصعد الزفرات ، ويلفظ الحسرات ، وجمع له الأطباء يشخصون داءه ، ويركبون الدواء عله يبرئه من علتّه ويقف سريان الداء ، وأقبل أهله متلهفين لسماع نصح الأطباء ورأيهم فطلبوا إليهم الهدوء والسكون ، ومساعدتهم في خدمته، وتنظيف محله وتطهير أعضائه وحفظه حتى لا يقربه غريب ، ولا يمكّن أجنبي من الوصول إليه فيفسد العلاج ، ويسعى في إتلافه أكثر مما صنع هو وقومه ، وأخذ أهله يعملون بمشورة الأطبـــاء ويبذلون الجهد في وقايته وصيانته » .

وهذه قصة رمزية تصور ما كان من إصـــابة مصر على يد إسماعيل وإسرافه وتدخل الأجانب في شئونها ، والمراقبة الثنـائية ، وصندوق الدين ، وتصور كذلك ألم النـاس من هذا المرض الأفرنجي ، وأملهم في النجاة بسعي العقلاء وتفكير المستنيرين . وتوريته (بالأفرنجي) عن هذه المصائب التي حلت بالبلاد تورية بارعة .

ونرى بالعدد الأول من التنكيت والتبكيت مقالاً آخر بعنوان (عربي تفرنج) وهي قصة شاب من صميم الريف أبوه فلاح مسكين ، لم يستطع أن يعلمه ، بل تركه جـــاهلاً يساعده في حقله ويأكل البصل ، ولا يرى اللحم إلا في العيد ، ثم مر به أحد التجار فأغراه على أن يدفع

به إلى المدرسة . ولما اتم تعليمه بمصر أرسل إلى أوربا ، وعاد إلى بلاده متنكراً لأهله ، مستقبحاً عادات قومه ، مهجناً طريقتهم في التحية ، مستفهماً بقحة عن اسم البصل الذي أكله لأنه نسي الاسم العربي ، ولم يعد يتذكر إلا الاسم الفرنسي[1] ولما شكا أبوه إلى أحد النابهين قال له: « ولدك لم يتهذب صغيراً ولا تعلم حقوق وطنه ، ولا عرف حتى لغته ، ولا قدر شرف أمته ، ولا ثمرة الحرص على عوائد أهله ولا مزية الوطنية ، فهو وإن كان تعلم علوماً إلا أنها لا تفيد وطنه » .

وهذا داء استشرى في مصر بعد النديم ، وحاكى كثير ممن درسوا في بلاد الغرب أوربا في كل شيء حتى هجنت عاداتنا وتقاليدنا ، وفقد شبابنا كثيراً من مقومات الوطنية الصادقة ؛ وإن كانتْ هذه الفتنة قد ابتدأت تخف وتتنبه الأمة إلى التمسك بلغتها وعاداتها ومزاياها ، وتعتز بها .

ويلي ذلك قصة جماعة من الموسرين اجتمعوا في بيت أحدهم ، ودخل عليهم فوجدهم مبهوتين صامتين لا يتكلمون ولا يتحركون ، ولا يرفعون أبصارهم ، فظن أول الأمر أن رب الدار قد رزىء بخطب فادح ، وقد أتت هذه الجماعة لتواسيه ، وعقد الحزن ألسنتهم ، وران على قلوبهم فتركهم واجمين ، ولكن خاب ظنه هذا ، فسأل هل ثمة معضلة عويصة عرضت لكم وأنتم تبحثون تقدم أوربا في الصناعات ، وانتشار تجارتها وكيف تصل مصر إلى هذه المنزلة ، فأجابوا بالنفي ، فقال ربما تفكرون

---

(١) وقد ساق النديم هذه القصة بطريقة الحوار بين هذا الشاب المغرور الذي أسماه النديم (زعيط) وبين والده وذكر فيها كثيراً من الكلمات العامية حتى يعطي اللون الخاص الذي يريده ؛ وكان يذكر بطريقة تهكمية لاذعة هذه الكلمات الفرنسية التي يلوكها هذا الدعي مثل كلمة (بون أريفي) عند التحية و (أنيون) يريد البصل وهكذا .

فيا يزيد ثروتكم ويعود بالنفع والخير عليكم وعلى أمتكم . فقال رب الدار: هذا أمر لا يهمنا فإن البلاد إذا تقدمت أو تأخرت لا تفيدنا شيئاً أحسن مما نحن فيه ، وأما عن ثروتنا وزيادتها فعندنا من الثروة الكفاية وهكذا صار يسألهم وهو في حيرة من أمرهم حتى اكتشف أنهم إنما اجتمعوا لتعاطي (الكيف) ، والمنبهات وغير ذلك ، وعللوا لاجتماعهم هذا بأن (الكيف) لا يُفْرِح إلا إذا تعاطاه الإنسان في مجالس . ويختم النديم هذه القصة التي سماها (سهرة الأنطاع) بقوله : « هكذا تكون حال من لم يتهذب صغيراً فإنه يخرج أسير شهواته بعيداً عن إدراك المعاني جباناً بليداً غبياً » .

ثم يتعرض في كلمة أخرى لهؤلاء الذين يلتفون حول القصاص بالمقهى يسمعون قصة عنترة ويتجادلون ويتحزبون لأبطال القصة ؛ ولما رآهم القصاص منصتين إليه أخذ يفتري عبارات ينسبها إلى عنترة ، وكلمات يعزوها إلى عمارة ، وكل فريق يرشوه حتى ينتصر له بتلفيق كلام يصف فيه حزبه ، وأخيراً انتهت الليلة بأسر عنترة ، فقام من الجمع رجل قدم للقصاص عشرة جنيهات ليخلص عنترة من أسره فأبى ، فانهال عليه شتماً وسباً ، وتذكر أن عنده قصة عنترة ولكنه أمي ، فذهب إلى ابنه قبيل الفجر وأيقظه ، وهو في مصيبته التي لحقته تلك الليلة ، حتى ظن الولد أن أمه قد ماتت ، أو أحد إخوته توفي ، أو تجارة أبيه صودرت ، فلما علم أن الأمر يتعلق بعنترة اخذ يهون على والده الأمر ، ويصف القصة بالتلفيق والكذب ، فانهال عليه والده ضرباً بالعصا وطرده من البيت .

ثم يقص أمر المزارع والمرابي ، وقد ذكرناها آنفاً ، ويتبع ذلك بقصة غني كبير بنى بيتاً واعتنى بأثاثه ورياشه ، ثم دعا فريقاً من أصدقائه لزيارته ، ولما وصلوا إلى المكتبة سأله أحدهم عن الكتب التي يهواها ، فأجاب بما يدل على الجهل ، أنه لا علم له بالكتب وما تحتويه ، وكل

ما في الأمر أنه زار أحد العظماء ووجد في بيته خزانة كتب ، عليها ستارة خضراء ، وبجانبها منفضة من الريش ، والخادم يمسح زجاج الخزانة كل يوم فظن أن هذا طراز جديد في تأثيث البيوت فحاكاه فيه دون أن يعرف شيئاً عن الكتب وما تحتويه فدل على عظيم جهله وعلى أن التقليد الأعمى مضر بالإنسان مزر بمكانته .

أجل ! ضم العدد الأول من المجلة كل هذه الموضوعات التي تصور عيوباً شائعة لا يزال بعضها متفشياً ، وتصف الدواء لهذه العلل الاجتماعية ، ولكن بأسلوب الوعظ والإرشاد ، وإن كان ممزوجاً بكثير من التهكم اللاذع والسخرية المرّة ، والكلمات القارصة . وقد فطن النديم إلى أن التعليم والنقد عن طريق القصة يحمل القارىء على متابعة القراءة ، ويرى مصير أشخاص القصة فيتعظ بهم ، وبذلك يجدي النقد ويؤتي ثمرته ، ولذلك أكثر منه . ولم يضع هذه القصص في عبارات منمقة مزوقة بليغة متخيرة الألفاظ ، ولكن ساقها في أسلوب سهل وكثيراً ما عمد إلى اللغة العامية يعبر بها عن مراده ، لعلمه أن في الناس الجاهل والعالم ، والعامة والخاصة ، ولكل أسلوب يلائمه فموضوع « الداء الإفرنجي » موضوع سياسي رمزي لا يفهمه إلا الخاصة ولذلك صيغ صياغة أدبية بلغة سليمة . أما موضوع المرابي والمزارع ، وموضوع سمّاعي القصص فمكتوبان للعامة ، ولذلك لجأ إلى اللغة العامية يعبر بها حتى يفهمها هؤلاء فيتعظوا .

إن النديم في هذه الموضوعات قدير على الحوار ، وتراه يبالغ حتى يستفز شعور القارىء ، ويجعله يشمئز من هؤلاء الجهلة الذين يصور حالتهم ، وتراه كذلك يستنفد المعاني ويستقرىء الأسباب ، حتى يكون الحكم أو النهاية بالغة العظة ، ولو فطن النديم إلى المسرحية الهزلية وصور هذه الشخصيات فيها لكان (موليير) العرب ، لأن عنده المقدرة

على التصوير ، وخلق الشخصيات والتهكم عليها والمبالغة في تبشيع المثالب والعيوب ، وهذه كلها تعده لأن يكتب ملهاة متقنة .

٢ – ومن الموضوعات التي كتب فيها بمجلته فيما بعد موضوع الخطابة، وأثرها في تاريخ الإسلام ، وفائدتها في تهذيب الشعب وتربيته ، ورأى أن خطب الجمعة ميتة لا تمت إلى الحياة التي يحياها الناس بصلة ، تتكلم في أمور بعيدة عن مشكلاتهم الاجتماعية والخلقية والسياسية كل البعد[1]، واقترح أن يحضر خطب الجمعة فئة ذوي الفكر السديد والرأي الرشيد ، وتوزعها الحكومة على خطباء المساجد وتبرع هو فوضع نموذجاً لخطبة منبرية ، ضمنها الحث على الاهتمام بشئون البلاد والمحافظة على حقوقها ، والدعوة إلى الائتلاف للتغلب على الخصم الأجنبي ، وعلى الأخطار التي تحدق بالوادي ، والاتحاد بين المسلمين والأقباط ، والتذكير بمجد مصر السابق ، ومعاملة الأجانب بالحسنى حتى لا تتخذ سوء معاملتهم ذريعة للتدخل الأجنبي ، وغير ذلك من الأمور التي يرى أن الحاجة ماسة إلى التكلم فيها لأول عهد توفيق ، ومن قوله في أثر الخطابة وفائدتها :

« ألسن الخطباء تحيي وتميت ، حكمة إذا علقت معناها وقفت على سر الخطابة وحكمة حدوثها ، وعلمت أنها للعقول بمنزلة الغذاء للبدن . وكانت الخطابة في الأعصر الخالية غير معلومة إلا في أمتي العرب واليونان فكانت ساحتها في جزيرة العرب عكاظاً ، ومنابرها ظهورَ الإبل ، وهذه الساحة كانت معرضاً للأفكار تجتمع فيه الخطباء والبلغاء والشعراء وأمم

(١) من العجب أن تسعين في المائة من خطباء المساجد اليوم لا يزالون على الحال التي وصفها النديم وخطبهم بعيدة عن التأثير ، لأنها لا تمس الحياة في صميمها ولا تعالج مشكلات الناس ، وكل جمعة أحس بضيق وحرج من جراء ما أسمع من خطب ميتة .

كثيرة من المجـــاورة للجزيرة فيرقى الخطيب ظهر ناقته ويشير بطرف ردائه ، وينثر على الأسماع درراً وبدائع ؛ ثم يبــاريه آخر ويعارضه غيره فتتضارب الأفكار وتتنبة الأذهان وتحيا الهمم ، وتتحرك الدماء ، ويرجع كبار القبائل وأمراؤها لما يشير إليه الخطيب إن صلحاً وإن حرباً . ولم يقصروا في خطابتهم على مسائل الحرب والصلح ، بل كانوا يخوضون بحار الافكار فلا يتركون ملمة إلا شرحوها ، ولا يذرون فضيلة إلا حثوا عليها ، حتى إنهم كانوا يحفظون أسماء الحكماء منهم وأهل المآثر فيذكرونهم في هذا المعرض إحياء لتذكارهم وتخليداً لاسمائهم ، لئلا يجهل الآتي سيرة الماضي فتفتر الهمم ، وتخمد الدماء وتتغير الطباع » .

٣ - وأما مقالاته بالاستاذ فكانت صرخة أخرى مدوية حاول بها إيقاظ مصر كي تتنبه لما يحدق بها من أخطار ، وعالج في هذه المقالات موضوعات اجتماعية وسياسية وخلقية لم تخطر على بال أحـــد من قبل . فتراه يتكلم عن التعليم وأثره في الحضارة والعمران وما يجلبه الجهل من الآفات الاجتماعية والعلل الخلقية ، ويعدد هذه المثالب ويبين أثرها في تأخر الأمة ، وتارة يحث أبناء مصر على الاتحاد والتآزر والالتفاف حول الوطن والأمير والسلطان والتنكر للأجـــانب مهما كان شأنهم ، والتحذير من غواياتهم . وهو أول من دعا إلى أن مصر يجب أن تكون للمصريين لا لتركيا ولا للأوربيين ، فكانت لفتة وطنية لا تخرج إلا من قلب عامر بحب بلاده ، ولا سيما في ذلك الزمـــان الذي لم تفكر فيه أية دولة عربية في هذا المعنى ، وإنمـــا كانت الفكرة الوطنية عاطفة غامضة تربط مصيرها بمصير تركيا . ولم تكن الفكرة جلية - كما يجب - عند النديم ، ولكنها خطرات الوطني المتحمس جعلته يفكر مثل هذا التفكير ، وإن كنا نراه أحياناً يشايع الرأي السائد ، ويدعو للسلطان والالتفاف حوله من مثل قوله : « هذه يدي في يد من أضعها ؟ ضعها في يـــد

وطنيّك ، واعقدا خنصريكما على محبة أمير البلاد ، مرتبطة هـذه المحبة بمحبة أمير المؤمنين ، وإلا فقطعها خير من وضعها في يد أجنبي يستميلك إليه بوعود كاذبة وحيل واهيـة ، يظهر لك سعيه في صالحك وحبـه لتقدمك ، ويرهبك بأوهام لا توجد إلا بينك وبينـه ، ويغرك بدعوى انفراده بالسلطة عليك ، وبعد الدول عنك ، ويضلك بنسبة أمرائك للقصور ، وحكامك للجهل والظلم ، ويصور لك الأباطيـل في صورة حق يخدعك به ، ويحول أفكارك الشرقية الى أفكار غربية تأخذها وتقول بهـا ، فتكون يدَه القوية وعونه الأكبر على ضياع حقوقك وإذلال إخوانك ، واسترقاق أهلك وانتزاع سلطة أميرك وسلطانك وأنت لا تشعر بشيء من هذا » .

وقد يفسر كلام النديم بدعوته للسلطان والحض على الولاء له ، بأنه ولاء ديني ، بينما الولاء لأمير البلاد ولاء وطني ، وهذا هو ما أرجحه ، فإن النديم اشتهر بدعوته الجريئة (مصر للمصريين) ، وكانت دعوة « عرابي » كذلك . وإذا تعارض الدين والوطنية ، فضل الوطنية على الدين ؛ لأن جاذبية الوطن عنده أقوى من جاذبية الدين ، ويعلل لذلك تعليلاً فلسفياً في مقالة بالأستاذ هي (تجاذب الجنسيات والأديان) يقول فيها : « لو وقعت حرب بين عربي وعجمي تماثلا دينيـاً هربت الطباع الى الجنسية فترى عربياً في أقصى الأرض يفرح بانتصار مثيله على العجمي والعكس بالعكس » ويعلل لاتحاد الاقباط والمسلمين بمصر ومحبة كل فريق للآخر بقوة الرابطة الجنسية ، فإن كثيراً من مسلمي مصر أقباط أسلموا ، فنداء الدم بليغ وفي هذا يقول : « وأقرب الاماكن إلينا مصر التي نحن فيها ، فإنها بلاد إنسانية مختلطة بقليل من الاقبـاط الذين تجذبهم الجنسية الى كثير ممن تولدوا ممن أسلم من سابقيهم ، وتدفعهم الوطنيـة الى التلاصق بالمجموع بجاذبية الوطنيـة والالفـة وطول المعاشرة » ، وهـذه خطرات

وطنية صادقة العاطفة عميقة الفكرة ، بعيدة النظر . وقد قال ولي الدين عن عبدالله نديم : وإنما أحدث بيننا الخلاف أنه كان عدواً للعثمانيين وهو من قدماء من يقولون : « مصر للمصريين » ونحن نقول مصر للعثمانيين » .

لقد جهر عبدالله نديم بندائه هـــذا ، ولم يجاره في دعوته زعماء السياسة من بعد ، فهذا مصطفى كامل وهو في مناوأتـه الإنجليز وبعثه للشعور الوطني ، ومحاربته للاحتلال الأجنبي لم تنضج عنده الفكرة الوطنية كما نفهمها اليوم ، فلم يقل إن مصر للمصريين بل قال : « حقاً إن سياسة التقرب من الدولة العلية لأحكم السياسات وأرشدها ، فضلاً عن الأسباب الداعية لهذا التقريب فإن العدو واحد ولا يليق بنا أن نكون في فشل وشقاق في وقت يعمل أعداؤنا على تجزئة دولتنا ، ولا غرو إن كنا نتألم لآلام الدولة العلية فما نحن إلا أبناؤها المستظلون بظلهـــا الوريف المجتمعون حول رايتها ... وقصارى القول إن الراية العثمانيـة هي الراية الوحيدة التي يجب أن نجتمع حولها ، ولا تتحقق وحدتنـا بغير الاتحاد والائتلاف فلنتحد قلباً ولساناً »[1] ولكنه رجع عن هذا الرأي فيما بعد وفسره في خطبته بالاسكندرية[2] .

استطاع النديم في جريـدة الاستاذ أن ينبه الأفكار الى موضوعات حيوية وأن يجادل ويناقش ويثير العقول ويخلق الرأي العـــام ، ويدعو زعماء الثورة الذين أذلهم الاحتلال ، وغلبهم الخوف منه الى البروز والعمل في سبيل مصر ، ويدعو الى تأليف الأحزاب حتى تكون لكل جريـدة حزبها الذي تنافح عنه ، ولكل حزب منهجه في الإصلاح . وقـد وقف

---

(١) مصطفى كامل باشا الطبعة الأولى (١٩٠٨) ج ٣ ص ١٩٨ .

(٢) راجع تفصيل ذلك في كتابنا الأدب الحديث ج ٢ ص ٨٤ الطبعة الرابعة .

من الأجانب بعامة ومن الإنجليز بخاصة موقفاً صريحاً لا لبس فيه ولا غموض. أما الإنجليز فهو عدوهم اللدود، يصورهم صوراً منكرة، ويدعو الشعب لتأييد توفيق والالتفاف حوله، وأما سواهم من المرتزقة الذين هاجروا في سبيل القوت أو الثروة فينصح بعدم الأمان لهم، وبالبعد عنهم إلا إذا برهنت التجربة على إخلاصهم «فعليك بمن إذا حلت المصائب وآب النازحون الى مقارهم فراراً من مشاركتك في همومك كان قسيمك في النكبات، يتناول معك حمل الخطوب، ويحملك إذا ضعفت ويُبرك إذا احتجت، ويعودك إذا مرضت، وينصرك إذا خذلت، ويدفع معك عدواً يحاربك، ويحفظ معك وطناً لزمته، ويصون لك عرضاً تبذل الروح في حمايته» والجمهرة من الأجانب في نظره متسولون إذا أعطيتهم مدحوك، وهم يمدحونك طالما يجدون عندك نفعاً «ومن كانت هذه صفته يصدفه عنك الغير بلقمة يزيدها، فإذا زاده ديناراً على أن قذفك ويهجوك أضحك الناس بما يفتريه عليك».

الحق أن النديم في الأستاذ كان معلماً جليلاً للوطنية المتطرفة كما يفهمها جيله وكان مخلصاً في نصحه، وثابتاً على مبدئه منذ الثورة واندلاعها لم يلن للخطوب أو يطأطىء الرأس لعدو فكان أكبر مثل يحتذيه الزعماء من بعد.

٤ – وله رسائل أدبية، ومقالات في موضوعات شتى احتفى بأسلوبها احتفاء زائداً وقد جمع منها أحمد سمير في «سلافة النديم» مقداراً صالحاً للحكم عليها من حيث منزلتها الأدبية؛ فمن ذلك رسالة (لواء النصر في أدباء العصر) وفيها يصف من تعرف عليهم من أدباء مصر أمثال البارودي وصفوت الساعاتي، وعبد العزيز حافظ، وعبدالله فكري وسواهم.

ومنها رسالة (التنّور المسجور) في المفاخرة بين السفينة (والوابور)

ومنها الرسائل المتبادلة بينه وبين بعض الأدباء في أمور خاصة .

أسلوبـــه :

١ – التزم عبدالله نديم في مطلع حياته الأدبيـــة ذلك الأسلوب المسجوع المتكلف ، يكثر فيه من ألوان البديع ولا سيما الجناس ، ويظهر فيه مهارته اللغوية وقدرته على تأليف الكلام ، في جمل قصيرة الفواصل ، كثيرة المترادفات ، ويعمد في أغلب الأحيان الى الخيـــال والمبالغات المرذولة ، وأحياناً يأتي بجمل لا معنى لها ولكن اقتضاها السجع مثـل قوله في مطلع رسالته يصف كلامه :

« حديقة معاني ، ونادي مغاني ، وبستان أفكار » نراه جمـــل مترادفة والجملة الوسطى لا معنى لها .

ومن الجمل المترادفة الجنـــاس المتكلف قوله من الرساله السابقة : « فكاهة نفوس ، وزينة طروس ، هزلها أدب ، وجدها طرب . إن سُئلت أوجزت ، وإن سألتْ أعجزت ، لو أقمت لها حَكَما ، وجدها كلها حِكماً » .

ومن المبالغات السخيفة ، والوصف المتكلف قوله يصف أديبـــاً : « رامي نبـــال وعظه إلى الأحشاء ، ومفوق سهام بديعة إلى الإنشاء ، حامل لواء العلوم العقلية ، وقائد جيوش الفنون النقلية ، مطلع شمس الأماني ، ومبارز فرسان المعـــاني ، إن ألف لم يتكلف ، بل يجعل الانسجام زينة الكلام ، وإن نَثَرَ كَرَّ بهجوم على سرايا النجوم » .

فهذا الأديب في حرب دائمة يرمي الأحشاء بنبـــال وعظه ، يفوق

سهام بديعة إلى الإنشاء ، ويحمل لواء العلوم العقلية ، واللواء يقتضي الجيوش ، وهكذا تراه يحمل معدات الحرب ويستعملها ، وكثيراً ما يعمد إلى هذا الأسلوب ، ويكرر هذا المعنى كقوله : « وكيف لا يكون لساني قوس البديع ، وكلامي السهم السريع وأنت باريه وراميه ؟ أم كيف لا يكون مقامي الحصن المنيع وقدري العزيز الرفيع ، وأنت معليه وبانيه ؟ » .

وله في مطلع حياته كذلك رسائل التزم فيها ما لا يلزم من ألوان السجع إظهاراً لبراعته وعرضاً لقدرته ومهارته ، فتارة تراه يأتي بمجموعة من السجعات كل اثنتين متشابهتين في القافية ، وفي ختامها سجعة من قافية مختلفة ، ثم يكرر هذه القوافي بالترتيب الذي ساقها به أولاً ، وتارة يفرد هذه السجعات ثم يعيدها بعد خمس أو ست على الترتيب الأول ، وأحياناً يلتزم في السجعة الثانية أن تكون آية من آيات القرآن ، ومن النوع الأول قوله : « لعبت به الأشواق في مصارع العشاق لعب الراح بالأرواح في مجلس الأنس ، وجرت به الأتواق[1] في ميادين الأذواق جري السحاب والأرواح في حومة الشمس » .

ومن الثاني قوله : « منحتنا اللهم سلامة الروح فلله الحمد على هذه المنحة حمداً بلا عد ، ووهبتنا لباب البيان فلله الشكر على هذه الصحة شكراً بلا حد ، يلوح بدره ، ويفوح عطره ، روح هو عين الحياة ، ومدد العقل ، ولب هو منطق الشفاه ، وسند النقل ، طال عمره وجال أمره » .

ومثل النوع الثالث الذي يأتي فيه بسجعة قرآنية تكمل المعنى من رسالة كتب بها إلى صديقه المرحوم عبد العزيز حافظ تنبيها له حينما رآه يجتمع ببعض المغاربة ويشتغل معهم بخرافات باطلة : « لا حول ولا قوة

---

(١) تاق إليه توقاً بفتح فسكون : اشتاق .

إلاّ بالله اشتبه المراقب باللاه ، واستبدل الحلو بالمر ، وقدم الرقيق على الحر ، وبيع الدر بالخزف ، والخز بالحشف ، وأظهر كل لئيم كبره إن في ذلك لعبرة ، سمعاً سمعاً ؟ فالوشاة إن سموا لا يعقلوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا ، فكيف تشترون منهم القار في صفة العنبر وقد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفي صدورهم أكبر ؟ وكيف تسمع الأحباب لمن نهى منهم وزُجر ؛ ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجِر » إلى أن يقول له : « وأنت يا عزيز العليا ووحيد الدنيا ، قد بينت لك فعلمهم فبما رحمةٍ منَ اللهِ لِنت لهم ؛ ولكنهم طمعوا في عمم قولك ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك ، أتراهم يعقلون كلامك أويفهمون ، لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون »

ومعظم رسائله الأدبية ، من هـذا الطراز الذي يكثر فيه ألوان البديع ويلتزم السجع ويفتن في عرضه ، ونراه لا يمدح رسالة وصلت إليه إلا بأن البديـع قد كمل نظمه ، والسجع قد لطف من مثل قوله : « إذا قرأت لفظه ، وسمعت وعظه ورأيت ما فيه من المرقص والمطرب، والمنعش والمعجب ، وتلوت ما فيه من الرقـائق ، ونظرت ما حاز من الدقائق ، علمت أنه معجزة المتنبي وإن تأخر زمانها ، وفطنة المعرّي ، وان بعد مكانها . وكيف لا وعطر نرجس بلاغته أزرى بطيب الريحانة ، وحسن دمية بيانه نبّه على ضيق الخزانة ، وانسجام رقائق كلماته أغنى عن البديعيات ، ورقة لطف سجعاته تاهت على الارتقيات[1] » .

---

(١) نسبه إلى الدولة الأرتقية ، وأول من أسس الدوله الأرتقية معين الدولة سقمان ابن أرتق بعد أن استولى على حصن (كيفا) سنة ٣٨٥ هـ من الأمير موسى التركماني ؛ وكان ارتق جد معين الدولة، مملوكاً من مماليك السلطان ملكشاه السلجوقي ، وأحد قواده، والارتقيات القصائد والمدائح التي كان يقولها الشعراء لملوك هذه الأسرة ، واستمرت الأسرة الأرتقية حتى القرن التاسع الهجري .

وهذا النوع من النثر بما فيه من تلاعب وافتنان في الازدواج والفواصل والسجعات تقليد لمقامات الحريري وما ورد على مثالها من الرسائل، ومما يؤيد هذا الاتجاه عند النديم أنه كتب رسالة على لسان أحد أصدقائه يطلب إليه فيهـــا أن يراسله، ويشترط أن تكون رسائله مشتملة على أفانين خاصة من البديع وغيره، وينفذ النديم الشرط فيضع عدة رسائل منفذاً بها شروط صديقه التي ذكرهـا في قوله . « أحب أن تتواصل إليّ رسائلك، وتسامرني وسائلك، بشرط أن تكون أسطرها عشرين فما فوق، وأن يكون بعضها في غزل وعشق وبعضها نكتاً أدبية وبعضهـا فوائد عربية، هذه محاورة، والأخرى مسايرة، تارة طرائف خمرية ومرة لطائف عمَّرية، وهكذا ترشف من كل دن، وتسطع في كل فن، على أن تكون بحكايات ما طرأت على الأفكار، ولا خرجت من الأوكار، وتلتزم الجناس في الفِقَر، وألا تأخذ من شعر غيرك إلا بيتاً أو بيتين » وقــد استجاب النديم لهذا الطلب فوضع عدة رسائل متكلفة لا معنى لهـا، وقد أثبت منها (أحمد سمير في السلافة) رسالتين .

والشعر الذي يرصع به الرسائل وأمثالها — وهو كثير بحيث لا تخلو منه رسالة — شعر يمثل هذا التعمل من مثل قوله يتلاعب بلفظ النوى :

لست الملول مع التدلل والقوى   إن لم يكن روحي على هجري نوى

ما دام يَرْضى مُنيتي فقد استوت   عندي الإقامة في شبين أو نوى

أطعمته أثمـــار ودي كلهـا   وغُذيت من ثمر المحبـــة بالنوى

ويأتي النديم أحياناً بتعبيرات غريبة شاذة متكلفة الاستعارات كقوله : « وطلاؤه مرمر البدر معجون بليلة القدر » وأحيانـاً يأتي بتعبيرات في

منتهى اللطف كقوله : « واختلسنا النوم من جفون الزهر » أو قوله « وأرق من خفر في بكر » .

وشعر النديم الموجود قليل ، وهو كنثره الأدبي مصنوع متكلف ، يشبه الى حد كبير شعر أبي النصر وعلي الليثي ، مع فارق واحد هو قوة السبك ، ولكنه لا يختلف عن شعرهما في الصياغة والزخرفة والمعاني ، ومن أحسن ما روي له قوله في الغزل :

ساوه عن الآرواح فهي ملاعبه   وكفوا إذا سل المهندَ حاجبُه
وعودوا إذا نامت أراقم شعره   وولوا إذا دبت إليكم عقاربه
ولا تذكروا الأشباح بالله عنده   فلو أتلف الأرواح منذا يُطالبه
أراه بعيني والدموع تكاتبه   ويحجب عني والفؤاد يراقبه
فلا حاجة تدني الحبيب لصبه   سوى زفرة تثني الحشا وتجاذبه
فلا أنا ممن يتقيه حبيبه   ولا أنا ممن بالصدود يعاقبه
ولو أن طرفي أرسل الدمع مرة   سفيراً لقلبي ما توالت كتائبه

وتراه يستعمل التأريخ الشعري كقوله يؤرخ موت توفيق وهو بيافا من قصيدة أرسلها الى مصر يرثيه بها على الرغم من أنه نفاه :

فملائك الجنات قالت أرخوا   توفيق في عز النعيم السرمدي ١٣٠٩

ومن شعره قوله من رسالة كتبها لأحد أصدقائه أيام أن كان بالمنفى وفيها يظهر ألمه ويندب سوء حظه :

يا صاحبي دع عنك قول الهازل   واسمع نصيحة عارف بالحاصل

إجهل تجد صفو الزمان فإنه من قسمة الفدم الغبي الجاهل
ودع التعقل بالتغفل يستقم أمر المعاش فحظه للغافـــل
وارض البلادة تغتنم من بابها مالاً وجاهاً بعد ذكر خامل
وإذا أبيت سوى العلوم فلا تضق بحروب دهر لا يميل لفاضـل
قلّب تواريخ الألى سبقوا تجد دُنياك ما قِيدت بغير الباطل

ومن شعره قصيدة في الفخر يظهر فيها ولوعه بالبديع وفيها يقول :

أتحسبنا إذا قلنـــا بلينـــا بَلينا ، أو يروم القلب لينـــا
نعم ؟ المجد نقتحم الدواهي فيحسب خامل أنّا دهينـــا
تناوشنا فنقهرهـــا خطوب ترى ليث العرين لها قرينـــا

الى أن يقول :

ولسنا الساخطين إذا رزينـــا نعم يلقى القضا قلباً رزينـــا
فإنا في عداد الناس قـــوم بما يرضى الإله لنـــا رضينا
إذا طاش الزمان بنا حلمنـــا ولكنا نُهينـــا أن نَهينـــا

وله قصيدة طويلة من رواية الوطن التي مثلها أمام الخديوي توفيق ، وفي هذه القصيدة يبكت المصريين على افتخارهم الدائم بآبائهم بينما هم في خمول وتقصير فتركوا الصناعات والعلوم ، واستمرءوا الصفات التي تـــذل الشعوب وتضعها ، وقـــد قال القصيدة معارضة لنونيـــة ابن زيدون المشهورة ، وفيها يقول :

هذي معالمنـــا تبكي وتنشدنا قول ابن زيدون إذ قامت تعزينا
« بنتم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا »
قل للنفوس التي ماتت بلا أجل أين القلوب التي كانت تجارينا ؟
أين العلوم التي كانت توصلنا باب السعود فصارت من أعادينا ؟
أين الصنائع أين العارفون بها ؟ أين الديار التي كانت لأهلينـــا
كانت وكانوا وصار الكل في عدم واستعبدتنا بمـــا نهوى أمانينا
إذا سمعنا خطيباً ذاكراً حكماً قلنا له عزة الآباء تكفينا (١)

وحسبنا هذا القدر من شعره فهو يعطينا صورة عن منزلته في الشعر وعن فهمه له .

٢ ـ أما مقالاته في التنكيت والتبكيت وأسلوبه الكتابي في هذه الصحيفة ، فقد ذكرنا آنفاً أنها احتوت موضوعات للخاصـــة يكتبها بأسلوب أدبي محرر من السجع ومن ألوان البديع ، ويتوخى فيهـــا السهولة ، « ليست منمقة بمجاز واستعارات ولا مزخرفة بتورية واستخدام ولا مفتخرة برقة قلم محررها ، وفخامة لفظه وبلاغة عبارته ، ولا معربة عن غزارة علمه وتوقد ذكائه . ولكنها أحاديث تعودنا عليها ، ولغـــة ألفنا المسامرة بهـــا ، لا تلجئك الى قاموس الفيروزابادي ، ولا تلزمك مراجعة التاريخ ، ولا نظر الجغرافيا ولا تضطرك لترجمان يعبر لك عن موضوعها ، ولا شيخ يفسر لك معانيها ، فهي في مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم ، وفي بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر عليه ، ونديم يسامرك

---

(١) وهذا ترديد لما قاله السيد جمال الدين من قبل راجع ٢٤٣ من هذا الكتاب .

بما تحب وتهوى » . ومن أمثلة موضوعات الخاصة مقالته المشهورة (بجلس طبي على مصاب بالأفرنجي) وفيها يقول : « كان المصاب صحيح البنية قوي الأعصاب جميل الصورة لطيف الشكل ، ما رآه فارغ القلب إلا صبا ، ولا سمع بذكره بعيد إلا طار إليه شوقاً ، نشأ في العالم روضة ، ودار به أهله يحفظونه عن الأعداء ، ويدفعون عنه الوشاة والرقباء ، وقد مات في حبه جملة من العشاق الذين خاطروا في وصاله بالأرواح والأموال ، وكلما وصل إليه واحد سحره برقة ألفاظه وعذوبة كلامه ، وسلب عقله ببهجة يحار الطرف فيها ، وعزة لا يشاركه فيها مشارك » وأنت ترى أسلوباً خيالياً من السجع ليفرغ كاتبه إلى المعاني التي يريدها ، ويسير في سهولة ووضوح .

وهناك موضوعات للعامة كتبت باللغة العامية الدارجة بمصر حتى يفهموها ، ويعملوا بها كموضوع المزارع والمرابي » ، وكموضوع « عربي تفرنج » ويقول في الأخير : ولد لأحد الفلاحين ولد فسماه زعيط ، وتركه يلعب في التراب ، وينام في الوحل حتى صار يقدر على تسريح الجاموسة ، فسرحه مع البهائم إلى الغيط يسوق الساقية ويحوّل الماء وكان يعطيه كل يوم أربع حندويلات ، وأربعة أمخاخ بصل ، وفي العيد يقدم له اليخني ليمتعه بأكل اللحم والبصل » .

وأما أسلوبه في الأستاذ فهو أسلوب صحفي أدبي يمتاز بالسهولة والتدفق ، والخلو من السجع والبديع والمجاز ، وقد مر بك نماذج منه .

ويلاحظ أن النديم يستعمل الأسلوب الخبري الممتزج بالخطابي في معظم كتاباته ، وهو أسلوب يصلح للوعظ ، وتراه كثير التهكم والسخرية في موضوعاته الاجتماعية ، يلجأ إلى الحوار في الموضوعات التي كتبها للعامة ، وكان ينطق كل شخص بما يوافق طبعه وصنعته ودرجة علمه ، مما يدل

على خبرة واسعة بالناس وطباعهم ولغة حديثهم . وله مقالات اختـار لها عناوين من العـــامية الدارجة تدل على تمكنه من تفهم البيئة الفقيرة ولغتها ، وعلى روح الفكاهة والسخرية عنده مثل : « الشنة والرنة في أولاد مصر الزنة » ومثل : « حاوريني يا طيطة في الطربوش والبرنيطة » و « شد الدبلاق في أكتاف أهل بولاق » وإن كانت المقـــالات نفسها مفقودة مع دواوين شعره .

منزلته :

واشتهر عبد الله النديم بالخطابة ، وتملكه لناصية القول ، فكان لسان الأمة في عهده بخطبه المملوءة حمـــاسة وقوة وصراحة ، يذيعها في كل مجلس بكل مكان لا يكل ولا يمل . وقد استطاع بهذا أن ينشر آراءه في أكبر عدد ممكن من الأمة وأسهم في تكوين رأي عام سواء بخطبه و بقلمه – يؤمن بحكم الشورى ، ويثور ضد الأجـانب ، ويتطلع إلى إصلاح المفاسد الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . وإذا كان السيد جمال الدين رسول الخاصة في هذه المعاني ، فعبد الله نديم أوتي المقدرة واللباقة على أن يبسط آراء جمال الدين ونظريات الإصلاح المنشود في كل نواحي الحياة ، حتى يفهمها العامة ، من الفلاح في حقله والتلميذ في مدرسته ، والصانع في دكانه .

وقد شهد بمقدرته على الحديث والخطابة وبراعته في تنميق الكلام كثير من ذوي الخبرة بوجوه الكلام ، فهذا جمال الدين الأفغاني ، وهو من عرف ذكاء وقوة عـارضة ، ومقدرة على الحديث يقول : « إنه ما رأى مثل النديم طول حياته في توقد الذهن وصفـــاء القريحة ، وشدة العارضة ، ووضوح الدليل ، ووضع الألفاظ وضعاً محكماً بإزاء معانيها

إن خطب أو كتب »[١] .

وأحمد تيمور العالم المحقق يقول في الترجمة التي كتبها له[٢] : « كان شهي الحديث ، حلو الفكاهة إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز . لقيته مرة في آخر إقاماته بمصر ، فرأيت رجلاً في ذكاء إياس وفصاحة سحبان ، وقبح الجاحظ . أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الغاية القصوى في عصرنا هذا » .

ويقول عنه جرجي زيدان[٣] : « أما أخلاقه فإنه كان براً بوالديه وذوي قرابته وقصاده ولو لم يكن يعرفهم ، فما أقرض أحداً شيئاً وطالبه به . ولا رد يوماً سائلاً ، ولا خضع لعظيم قط وإنما كان يلين ويتواضع لصغار الناس وأوساطهم ، وكان ذكياً فطناً قوي الحافظة فصيحاً جريئاً شاعراً مطبوعاً ، وكاتباً ناثراً » .

ويقول عنه عبد الرحمن الرافعي[٤] : « وهو الزعيم الوحيد بين العرابيين الذي استمر في جهاده السياسي ونضاله عن مصر في عهد الاحتلال ، وهي ميزة كبرى انفرد بها دون بقية الزعماء الذين أثرت فيهم الهزيمة فوهنت لها روحهم المعنوية ، وانطفأت فيهم شعلة الأمل والحماسة والجهاد . أما هو فقد ظل على عهده واستمر يجاهد ويناضل حتى آخر نسمة من حياته ، وهذا وحده يدلك على مبلغ علو نفسه ،

---

(١) سلافة النديم ص ١٧ .

(٢) تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر لاحمد باشا تيمور ص ٧٧ .

(٣) مشاهير الشرق جـ ٢ ص ١١١ .

(٤) الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي ص ٥٢٧ .

وقوة شخصيته ؛ اذ لم تنل منه الشدائد ، ولم يضعف إزاء المحن والكوارث ، ولم يعرف اليأس إلى قلبه سبيلا ».

ويقول عنه الأستاذ أحمد أمين [١] : « طالما غذى الناس بقلمه ، وهيجهم بأفكاره وأضحكهم وأبكاهم ، وحير رجال الشرطة ، وأقلق بال الساسة ، ونازل خصومه من رجال الصحافة ، فنال منهم أكثر مما نالوا منه ، ولم يهدأ له لسان ولا قلم حيث حل ، وعلى أي حال كان، حتى هدأه الموت الذي يهدىء كل ثائر ، ومهما أخذ عليه فقد كان عظيما. وكانت جريدة « الأستاذ » هي الأستاذ لمصطفى كامل تعلم منها الاتجاه والنغمة ، وإن اختلفا من حيث الثقافة والأسلوب بحكم الزمن والأحداث والظروف ».

ويقول الأستاذ العقاد [٢] : « ولقد كان عبد الله النديم خطيباً مطبوعاً، ومحدثاً ظريفاً من الطراز الاول كما شهد له عدوه وصديقه ، وكان إذا كتب فكأنما يرتجل الخطابة لسهولة منحاه وتدفق كلامه ، وتناسق عباراته ، إلا حين يكتب الخطب المنبرية أو المقامات المصنوعة ... على أنك قد تقول ما بدا لك في شعر عبد الله نديم وفي خطبه وفي كتابته وفي تحقيقه العلمي وملكاته الادبية ، ولكنك لا تستطيع أن تنكر عليه أنه كان أعجب نموذج من نماذج الشخصيات في تاريخ الادب المصري الحديث ».

أما نحن فقد أصدرنا حكمنا عليه في هذه الترجمة ، ووفينا أدبه درساً ، وبينا خصائصه كما ظهر لنا من آثاره القليلة التي أبقى عليها الزمان.

---

(١) مجلة الثقافة العدد ٢٧٩ .

(٢) شعراء مصر وبيئتهم في الجيل الماضي ص ٩٣ — ٩٦ .

٤ - أحمد عرابي :

إذا كان جمال الدين الافغاني قد أثر في مصر بتعاليمه وفلسفته ووحي تجاربه التي أفادها من رحلاته الكثيرة ، وإذا كان قد هدف إلى إيجاد قطر قوي من أقطار الإسلام يكون نواة لوحدة إسلامية كبرى ، يعيد للمسلمين سالف مجدهم وغابر عزهم ، وإذا كان قد مهد للثورة العرابية وهيأ النفوس لها ؛ فإن أحمد عرابي لا يقل عنه خطراً ولا أثراً ، وأغلب الظن أنهما لم يلتقيا ، وإن اتفقا في كثير من الامور واختلفا في الغاية والوسيلة .

وأما الغاية فإن أحمد عرابي كان همه الاول تخليص المصريين من العذاب والذل والاستبداد والسخرة والاستغلال ، واستصفاء مصر لاهلها ينعمون بخيرها وبرها ، ويعيشون فيها أحرارا على قدم المساواة مع هؤلاء الذين شاءت الاقدار أن يكونوا حكاماً لها . ولم يكن يهدف إلى تكوين وحدة إسلامية ، بل لم يكن متعصبا تعصبا دينيا ألبتة . وأما الوسيلة فإنه لجأ إلى عامة الشعب لا إلى الخاصة من المثقفين ، ولم يكن يميل إلى العنف وإنما اضطر إليه اضطراراً رداً للعدوان ، ودفاعاً عن الحقوق المهضومة والنفوس المظلومة .

لم يكن تلاميذ جمال الدين وعلى رأسهم محمد عبده راضين عنه أول الأمر . بل كانوا ينظرون إليه بازدراء ، ويعدونه زعيم غوغاء وإن أرغمتهم الحوادث ، والشعور الوطني الجارف على أن ينضووا تحت لوائه ، ويخوضوا معه غمار الثورة .

في أحمد عرابي يتمثل العنصر المصري الأصيل بصفاته الجسمية والخلقية ، وفيه تركزت آمال الأمة وآلامها ، وتعد ثورته أول ثورة مصرية واعية

على الظلم الذي طال أمده ، وتعد ثورة شعب لا ثورة فرد ، ولم يكن أحمد عرابي إلا لسان ذلك الشعب يعبر عن أحاسيسه ، ويترجم عن آماله وآلامه، فاكتسب بذلك عدواة الخديو وآل بيته ، وعداوة الارستقراطية الكاذبة التي مُكن لها بمصر ، والتي كانت تتمثل في المماليك والجراكسة والأتراك . هؤلاء الذين كانوا ينظرون إلى الفلاح المصري بعين الزراية والاحتقار ، وهم ينعمون بكده وثمرة شقائه ، وعداوة الإنجليز الذين حاربهم وأظهر خبث طويتهم وسوء نيتهم ، والذين كانوا يتربصون بمصر الدوائر ، ويدبرون لها المكايد منذ أن هزموا في معركة رشيد سنة ١٨٠٧ .

نشأته وشخصيته :

تضافرت عدة عناصر على تكوين شخصية عرابي ، وجعلته أصدق مثل للفلاح المصري المكافح المضطهد ، الذي يشعر بالظلم ، ويأنف منه ، ويطالب بالحرية والكرامة في قوة وصرامة .

ولد بقرية (هرية رزنة) بالقرب من الزقازيق سنة ١٨٤١ . من أسرة تنتسب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتعتز بانتسابها إليه ، وكان والده محمد عرابي على شيء من العلم والدين معروفاً بالتقوى ، وكان فقيه القرية يقرىء أطفالها القرآن ويعلمهم مبادىء القراءة والكتابة ، وعلى يديه تعلم أبنه أحمد حتى حفظ القرآن ، ثم دخل الأزهر ومكث به أربع سنوات ، عاد بها ليكدح في الحقل كما يكدح ذووه .

ثم شاء الله أن يعده لشيء آخر ، حين أراد « سعيد » أن ينهض بالجيش ، وأن يجند أبناء العمد والمشايخ وأعيان الفلاحين ، وكان يميل الى المصريين ويعدهم أساس مصر ، ولا سبيل الى نهضتها الا بهم ، فجند أحمد عرابي ، وسرعان ما ظهر تفوقه ، وترقى بسرعة خاطفة حتى وصل الى

رتبة « قائمقام » وهي رتبة لم يصل إليها فلاح قبله . وذلك بفضل ذكائه وطموحه ويقول عن نفسه في تلك الأيام : « كنت أطمع الى منصب عال يماثل منصب مديريتنا[1] » .

بيد أنه مكث في هذه الرتبة تسعة عشر عاماً ، أي طوال حكم إسماعيل كله ، وذلك لأن إسماعيل كان على النقيض من سعيد يؤثر الجراكسة بالترقية ، ويزدري المصريين . وأحس عرابي بالظلم وابتدأ يطالب بحقه[2] فاضطهد ، وكان رئيسه خسرو كما يقول عرابي « رجلاً جاهلاً ، متعصباً لجنسه الجركسي تعصباً زائداً عن حد المعقول ، متفانياً في الحقد على العنصر الوطني ، يكره أن يكون تحت إمرته رجل شريف مثلي ، فعمل على إقصائي من مركزي »[3] . وفصل عرابي من الجيش ظلماً وعسفاً ، ولكنه لم يستكن للضيم ، وظل يطالب بحقه فعين في وظيفة مدنية قام بشئونها في همة وأمانة جوزي عليها بالتقاعد من غير معاش « فيا لله ما أمر وأصعب تلك المكافآت المقلوبة على النفوس الحساسة الشريفة ، وما أكثر العجائب في الحكومات المطلقة المستبدة الظالمة »[4] .

وثار عرابي ، ولم يهدأ حتى أعيد للجيش ، وشعر بمرارة الظلم وقسوته وزاد شعوراً باضطهاد المصريين اشتراكه وزملاؤه في حملة الحبشة ، حيث لمسوا من قوادهم ضعفاً وخيانة ولم يجد هو وزملاؤه عطفاً من أولي الأمر بل اضطهاداً لهم ومحاباة للأجانب الذين « اصطفاهم الخديو بالرتب والنياشين والجواري الحسان ، والأراضي الواسعة الخصبة والبيوت الرحبة ، وحباهم

---

(١) من تاريخه الذي قدمه إلى بلنت . التاريخ السري ص ٣٤٤ .

(٢) الرافعي : الثورة العرابية ص ٧٨ .

(٣) كشف الستار لأحمد عرابي ص ٢١ .

(٤) نفس المرجع ص ٢٧ .

بالأموال الكثيرة والحلى الثمينة من دم المصريين المساكين وعرق جبينهم »[1]

كانت نشأته الريفية ، وتربيته الدينية ؛ وإحساسه بالاضطهاد لأنه فلاح مصري من أهم العناصر التي كونت شخصيته ، أضف إلى ذلك أنه تأثر بكتاب أهدي إليه عن نابليون والثورة الفرنسية ، وبقراءاته في التاريخ العربي ، وبخطبة ألقاها « سعيد » يشيد فيها بالمصريين وضرورة تربيتهم حتى ينفعوا بلادهم ، ويستغنوا عن الأجانب ويقول عرابي : إنه اعتبر هذه الخطبة أول حجر أساس في نظام مصر « للمصريين »[2] . وكان ياوراً لسعيد ، ورافقه في رحلته للحجاز وتأثر بآرائه في « المساواة بين الطبقات ، وفي الاحترام الواجب للفلاح باعتباره العنصر الأساسي الجدي في الجيش المصري[3] » .

وبدأ عرابي منذ عودته من حرب الحبشة يعمل على توحيد صفوف الضباط المصريين في الجيش والتفافهم حوله ، وإشعارهم بالظلم الواقع عليهم وحرمانهم الترقية بينما يتمتع بها سواهم من الأجانب .

ومن الصفات المميزة لشخصية عرابي شدة إيمانه ، فلم يعرف عنه أن هذه الصفة فارقته حتى في أشد ساعات الضنك والشدة ، وكان شديد التدين ، حتى عرف بين الجند حينئذ بالشيخ أحمد عرابي ، ويقول عنه محمد عبده ، وكان دائم الزراية به .

ما كان أحسنه شيخاً بزاوية　　　يغشى النساء بوعظ كان يمليه[4]

(١) نفس المرجع ص ٤٩ .
(٢) نفس المرجع ص ١٥ .
(٣) بلنت : التاريخ السري ص ٩٨ .
(٤) تاريخ محمد عبده لرشيد رضا جـ ١ ص ١٥٤ .

كانت العاطفة الدينية قوية جداً في نفسه ، ولكنه لم يكن متعصباً، وهذه العاطفة الدينية من خصائص الفلاح المصري ، ولا سيا في تلك الأزمان ، وكان عرابي يمجد الإنسانية عامة لا يتعصب تعصباً أعمى ، يقول بلنت بعد أن ذكر تمجيد عرابي للورد بيرون لدفاعه عن حرية أهل اليونان : وقد عنيت بذكر هذه النقطة لدلالتها على عطف عـــرابي على الإنسانية كلها ، وعدم تفريقه في ذلك بين الأجناس والأديان[1] . وكان بلنت يعد هذه الإنسانية في عرابي إحدى عيوبـــه ، وسبباً من أسباب إخفاقه في حرب الانجليز[2] . وإليها أشار « جريجوري » في حديثه معه ، ومن الأسس التي أقام عليها « برودلي » دفاعه عن عرابي « مروءته وتطرفه في الإنسانية[3] » .

ومن مظاهر هذه الإنسانية أنه بعد أن أطلق الجند سراحـه عنوة من سجن قصر النيل الذي حبسه فيـــه الجراكسة ، هموا بالفتك بهم ، ولكن عرابي حمى هؤلاء الذين آذوه وسجنوه ولولاه لكانت مذبحة .

ومن سمات شخصية عرابي صفاته الجسمية ، فقد كان طويل القامة ، عظيم الهامة ، ثقيل الأطراف ، بطيء الحركة نوعاً ، كأنه يمثـــل القوة العظيمة التي اشتهر بها الفلاح العامل[4] ، وكان شديد البنية متين التركيب ،

---

(١) بلنت : ص ٢٨٤ ،

(٢) بلنت : ص ٩٩، ١٤٤ ، ١٢٨ وما بعدها

(٣) نفس المرجع ص ٢٣٢ .

(٤) التاريخ السري ص ١٤٤ ، و Broodeiy How we Defended Arabi. pp. 62 - 64,

تلوح على وجهه إمارات الشهامة العسكرية ، وسمات الهيبة والوقار ، والجد مع القوة والبأس .

كان عرابي كثير الاهتمام بالتاريخ ، قرأ سيرة نابليون والثورة الفرنسية كما ذكرنا آنفاً ، ويوجه إليها اهتماماً كبيراً ، وقرأ قدراً كافياً من تواريخ الدول وعظماء الأمم في الشرق والغرب ، كما كان يقرأ كثيراً في نهج البلاغة ومنه لسمد قدرته الخطابية والتعبيرية ، ويقول بلنت عن آراء عرابي : « إنها تعتمد على العلم بالتاريخ ، وعلى تقاليد الأفكار العربية الحرة الموروثة من أيام حرية الإسلام » .

كما كان يعرف كثيراً عن إيطاليا وجهادها في سبيل وحدتها واستقلالها ، ويعجب أشد الإعجاب بـ (غريبالدي) ويمكن أن نقول : إن ثقافة عرابي كانت دينية أدبية تاريخية في حدود مطالعته العربية .

لقد نال قدراً ضئيلاً من الثقافة ، ولكن خصوبة ذهنه أحالت هذه البذور القليلة أشجاراً ضخمة مثمرة ، أتت أكلها وطنية دافقة ، وفهماً للحرية والديمقراطية والمساواة ، وتقديراً للحقوق العامة وقواعد الإدارة والنظام [١] .

يقول العقاد : « ويلوح لنا أن الرجل مخلوق من الطينة التي يمتحن صاحبها بشقوتها كما يمتحن بنعمتها وفضلها ، على أن العلامة التي لا تخطىء من علامات العبقرية هي الخصوبة الذهنية ، وهي أن يثمر الذهن محصولاً وافراً من بذور قليلة . وقد كانت الدروس التي تلقاها عرابي في صباه قسطاً مشتركاً بينه وبين كل صبي من صبيان القرى حضر مبادىء القراءة

---

(١) بلنت : ص ١٢٩

والحساب وما إليها في الكتاتيب وأروقة الأزهر المعدة للمبتدئين ، ولكننا نقرأ أقواله في الحكم النيابي والمبادىء الديمقراطية والحقوق العامة وقواعد الإدارة والنظام فيتمثل أمامنا حظ وافر من الفهم والمعرفة لا يتهيأ للكثيرين ممن أحاطوا بالمعلومات المستفيضة في هذه الشئون » .

عرابي الخطيب الزعيم :

لقد أجمع الذين شهدوا عرابي خطيباً ، وحادثوه على أن جودة الكلام أهم مزاياه ، وأنه كان محدثاً لبقاً ذا خلابة وسيطرة على النفوس ، وأنه كان خطيباً فصيحاً ذا تأثير كبير على سامعيه ، وأن ذلك كان أكبر مقومات شخصيته .

يقول ماليت : « كان لحديثه أكبر وقع في النفوس »[٢] ، وكان مراسل التيمس يسميه « الداعي الفصيح الى الحرية العربية[٣] » ، ويرى بلنت « أنه كان فصيحاً قادراً على شرح آرائه باللغة التي يفهمها مواطنوه ويحبونها ومن ثم كان له نفوذ كبير[٤] » ، ويقول جريجوري : « ويظهر في بادىء الأمر أنه ثقيل ، الى أن يتأثر فتتقد عيناه ويتكلم بشهامة ،

---

(١) العقاد : ١١ يوليوس ص ١٠٧ .

(٢ ، ٣) تاريخ المسألة المصرية - تيودور روتسيتين ترجمة العبادي وبدران ص ١٤٣ .

(٤) التاريخ السري ص ٩٩ .

وأخبرني الذين يعرفون اللغـة العربية أن فصاحتـه أشهر من أن تذكر[1] » .

أما الشيخ محمد عبده فكان يزدريه ويقول عنـه في قصيدته التي هجاه بها :

وقائد الجند شهم في مكالمة أشل قلباً إذا الهيجا تناديه

ومع ذلك يشهد له بأنه « كان أجرأ إخوانه على القول ، وأقدرهم على إقامة الحجة[2] » .

وعلى الرغم من أن الرافعي قد أنكر بعض مزاياه ، فلم يسعه إلا أن يعترف بقدرته الخطابية حيث يقول : « كل مـا امتاز به هو لسان ذلق ، وصوت جهوري وترسل في الحديث . فقد كان خطيباً فصيحاً ، وأقواله كانت تقع من نفوس الضباط والسامعين موقع الاقتناع[3] » .

ترك عرابي طائفة من الآثار نتبين منهـا جهاده في سبيل مصر قولاً وعملاً وكتابة ، تتمثل في مجموعة كبيرة من أحاديثه وخطبـه ورسائله إبان الثورة ، ويلحق بها ما قاله في أثنـاء محاكمته ، ثم المذكرات التي تركها قبيل وفاته وسماها « كشف الستار » وتاريخه المختصر الذي كتبه بعد عودته ، وهو مثبت في آخر التاريخ السري .

ابتدأ عرابي دعوته سرية في داخل الجيش وخارجه ، وقـد اختاره

(١) الوطن : العدد ٢١٤ .

(٢) تاريخ محمد عبده لرشيد رضا ج ١ ص ١٩٢ .

(٣) عبد الرحمن الرافعي : الثورة العرابية ص ٨٢ .

زملاؤه الضباط زعيماً لهم ، لأنـه كان أشد المجتمعين إحساساً بالظلم ، وأقدرهم على التعبير عنه ، وأجرأهم في مهاجمة الظالمين ، وقد « كان للباقته وفصاحته في الكلام واستشهاده ببعض الأحاديث النبوية الشريفة والحكم المأثورة تأثير كبير في نفوس الضباط . اجتذبهم إليه ومال بهم الى تلبية ندائه ، والاستماع لنصحه والاقتناع بآرائه[1] .

ثم تخرج الدعوة الى النور ، ونرى جماعة من الضباط يذهبون إليه في بيتـه ليناقشوه في الأوامر التي أصدرها عثمان رفقي وأنهم يريدون الاحتجاج على ذلك ، وقد اختاروه ليمثلهم ، فيحاول أن يثنيهم بالرفق أو يختاروا غيره . ولكنهم أصروا على اختياره ، فقـال لهم : إن من يتصدى لزعامة هذا الأمر هالك لا محالة ، فأقسموا له على أن يفدوه من كل شر ، فكتب الاحتجاج ووقعه معهم وقد جاء فيه : « إن عثمان رفقي يعامل ضباط الجهادية بالذل والاحتقار ويسعى فيما يوجب لهم الحرمان والإضرار ، كأننا الأعداء الألداء ، وكأن الله سبحانه وتعالى يطلب منه ظلم المصريين والإجحاف بحقوقهم » ، ويقدمهـا الى رياض ، ويـدور بينهما الحوار الآتي :

رياض – إن أمر هذه « العريضة » مهلك .

عرابي – إننا لم نطلب إلا حقاً وعدلاً ، وليس في طلب الحق من خطر ، وإننا لنعتبرك أباً للمصريين ، فما هذا التلويح والتخويف ؟

رياض – ليس في البـلاد من هو أهـل لأن يكون عضواً في مجلس النواب .

---

(٤) المرجع السابق ص ٨ .

عرابي – إنك مصري وباقي النظار مصريون ، والخديوي أيضاً مصري ، أتظن أن مصر ولدتكم ثم عقمت ؟ كلا فإن فيها العلماء والحكماء والنبهاء ، وعلى فرض أن ليس فيها من يليق لأن يكون عضواً في مجلس النواب ، أفلا يمكن إنشاء مجلس يستمد على معارفكم ويكون كمدرسة ابتدائية تخرج لنا بعد خمسة أعوام رجالاً يخدمون الوطن بصائب فكرهم ويعضدون الحكومة في مشروعاتها الوطنية [1] » .

ويقبض الجراكسة على عرابي ويسجن في قصر النيل فيقتحمه الجند ويطلقون سراحه ويهمون بذبح الجراكسة لولا تدخل عرابي حيث وقف فيهم خطيباً ونصح لهم « بألا يمدوا يداً بسوء إلى أحد من الجراكسة ولا الى غيرهم لأنهم إخواننا ولئن آثروا أنفسهم علينا فإننا لا نريد إلا النّصفة والمساواة [2] » .

ويسير عرابي إلى عابدين في مظاهرة عسكرية صاخبة ، وتعدل القوانين ، ويقام لذلك حفل في قصر النيل أقامه البارودي وزير الحربية وحضره الوزراء ، ويخطب عرابي قائلاً : « إننا لا نريد إلا الإصلاح وإقامة العدل على قاعدة الحرية والإخاء والمساواة وذلك لا يتم إلا بإنشاء مجلس النواب وإيجاده فعلاً ، ونحن مطيعون للحكومة بل نحن الآلة المنفذة لأوامرها العادلة » [3] .

ثم عزل البارودي وتولى مكانه داود يكن الذي قسا على الضباط فاجتمعوا لدى عرابي واستحلفهم على السيف والمصحف أن تكون

---

(١) كشف الستار ص ١٥٥ .

(٢) سليم نقاش : مصر للمصريين جـ ٣ ص ١٧٦ ، وتاريخ محمد عبده جـ ١ ص ٢٠٢ .

(٣) الكافي : لميخائيل شاروبيم جـ ٣ ٢٤٣ .

أرواحهم موقوفة على حفظ الوطن من شر الأعداء والاحتراس على موارد إيراده من أيدي الطمع وبأن يكونوا جميعاً على قلب رجل واحـــد ، وأعلمهم بأنه قـد اجتمعت الكلمة على أن يتولى الزعامة ، وأخذ يرسل إلى القرى والمدن ينشر فيها دعوته ويبين لأهلهـا « أن الوزارة الرياضية قد ركبت متن الشطط وعدلت عن الصراط المستقيم ، وليس لهـــا من نية سوى العمل على ما فيه اضمحلال البلاد وتلاشيها بما هو جار من بيع الأراضي الكثيرة للأجانب وتسليم أغلب مصالح الحكومة لهم ، وإعطائهم الرواتب الفادحة المثقلة على أكتافهم ، وإن سكوتنا وإضرابنا عن هـذا كله يعد من الجبن والعجز والتفريط في وطننا[1] » وطلب منهم في النهاية أن ينيبوه عنهم في كل ما يتعلق بأحوال البلاد ، وأن يوقعوا على ذلك .

وبهذا هيأ عرابي لثورة ٩ سبتمبر ١٨٨١ . وقد دار بينه وبين توفيق في ذلك اليوم حوار بدأ هادئاً ثم اشتد ، قال عرابي : « جئنا يا مولاي لنعرض عليك طلبات الجيش والأمة وكلها طلبات عادلة » وسرعان ما انقلب عرابي ثائراً « ولقد خلقنا الله أحراراً ، ولم يخلقنا تراثاً وعقاراً ، فوالله الذي لا إله إلا هو إننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم » فهرب توفيق وترك الأمر لبعض حاشيته ، وقد سلم توفيق لعرابي بكل ما طلب .

وألف شريف الوزارة الجديدة ، وذهب عرابي مع وفد من الضباط لتهنئته وخطب خطبـة ضافية أكـــد فيها حقوق البلاد ، وقبـل أن ينقل إلى الزقازيق مع فرقته وقـد وقف في محطة القاهرة يودع الألوف التي جاءت لتحيته وارتجل هذه الخطبة : « سادتي وإخواني ! بكم ولـكم

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣٦ ، ومصر للمصريين جـ ٤ ص ٩٠ .

قمنا وطلبنا الحرية ، وقطعنا غرس الاستعباد ، ولا ننثني عن عزمنا حتى تحيا البلاد وأهلها ، وما قصدنا بسعينا إفساداً ولا تدميراً ، ولكن لما رأينا أننا بتنا في إذلال واستعباد ، ولا يتمتع في بلادنا إلا الغرباء حركتنا الغيرة الوطنية والحمية العربية إلى حفظ البلاد وتحريرها والمطالبة بحقوق الأمة .

ومن قرأ التواريخ يعلم أن الدول الأوربية ما تحصلت على الحرية إلا بالتهور وإراقة الدماء ، وهتك الأعراض وتدمير البلاد ، ونحن اكتسبناها في ساعة واحدة من غير أن نريق قطرة دم أو نخيف قلباً أو نضيع حقاً أو نخدش شرفاً .

وما أوصلنا الى هذه الدرجة القصوى الا الاتحاد والتضافر على حفظ شرف البلاد ..

نحن الآن في نعمة جليلة وعزة جميلة وقد فتحنا باب الحرية في الشرق ، ليقتدي بنا من يطلبها من اخواننا الشرقيين على شرط أن يلزم الهدوء والسكينة ويجانب حدوث ما يكدر صفو الراحة ، ونحن قائمون إلى رأس الوادي ، ليعلم الجميع أن قيامنا كان لطلب الحقوق لا للعقوق ، وأن الطمأنينة عادت كما كانت ، وعدنا إلى ما نشأنا عليه من طاعة ، وأحض إخواني الجهادية بحفظ وحدة الاتحاد ، وعدم الإصغاء إلى الوشاة والحساد ، فإنكم تعلمون أننا جاهدنا في هذا الأمر أعواماً طوالاً حتى ربطنا القلوب ، وألفنا النفوس ، وبيننا من الأعداء من يسعى في تفريق كلمتنا وإضرام نار الفتنة بيننا ، فاردعوهم بلسان التقريع ، واحفظوا لنا ما عاهدناكم عليه ، فالبلاد محتاجة إلينا ، وأمامنا عقبات يجب أن نقطعها بالحزم والثبات ، وإلا ضاعت مبادئنا ، ووقعنا في شرك

الاستبداد بعد التخلص منه .. »[1]

وأنت تراه هنا حريصاً كل الحرص على المبـادىء التي دعا إليها ، وعلى أن يؤكد أنه رجل سلام لا رجل شغب ، وعلى أنه يعد نفسه أحد زعماء الشرق ، وقد سن له القدوة الحميدة في المطالبة بالحرية ، وأنه حريص كذلك على وحدة الصفوف متنبه إلى كيد الأعداء ووشاياتهم وحسدهم .

وخطب في الزقازيق عند وصوله ، كما خطب في حفل أقامه أمين الشمسي لتكريمه وجاء فيه « وأنتم الآن مهيئون للانتخاب ، فلا تملككم الأهواء والأغراض لانتخاب ذوي الغـايات ، بل عولوا على الأذكياء والنبهاء الذين يعرفون حقوقكم ويدفعون المظالم عنكم ويفتحون باب العدل والإنصاف في بلادنا ، فلا تأخذكم الأراجيف ، واطمئنوا في بـلادكم ، والتفتوا إلى أشغالكم ومصالحكم ، وكونوا على يقين من حفظ البلاد »[2] .

ثم يرسل اليه نوبار يشكره على إنقاذ البـلاد ، ويعرض عليه عودته لتولي الحكومة ، ويقول عرابي « فعجبنا لذلك وأجبناه بأن مبدأنا هو أن مصر للمصريين وللنزلاء عندنا حسن الضيافة ومزيد الإكرام[3] » وهي الكلمة التي رددها فيما بعد مصطفى كامل « أحرار في بـلادنا كرماء لضيوفنا » .

---

(١) عبد الله نديم : التنكيت والتبكيت العـدد ١٧ ، ومصر للمصريين ج٤ ، ص٩٦ وكشف الستار ص ٣٦٢ .

(٢) كشف الستار ص ٢٦٨ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٦٩ .

ويعود إلى القاهرة ويقابله كثير من مراسلي الصحف الأجنبية ويؤكد لهم عدم التعصب الديني ، وأنه إنما يتحدث باسم الأمة ، وأنه سيقاوم كل اعتداء أجنبي على البلاد ، ثم يتولى وزارة الحربية ويستقبله (بلنت) ويتحدث معه في مشروعات كثيرة يقوم بتنفيذها وطالما فاخر بها فيما بعد لورد كرومر ، ويقول بلنت : « عزى للموظفين البريطانيين في عهد الاحتلال » وادعى لورد كرومر أنه مبتكر كثير منها فمن ذلك : إلغاء السخرة التي كان يفرضها الباشاوات الترك على الفلاحين واحتكار بيع الماء في مدة الفيضان ، وحماية الفلاحين من المرابين واليونانيين ، وانشاء بنك زراعي تشرف عليه الحكومة ، وهذا هو البنك الذي باهى به كثيراً اللورد كرومر ، وكذلك تناقشنا في الإصلاحات القضائية وفي نظم تربية الذكور والإناث ، وفي طريقة الانتخاب للبرلمان الجديد وفي مسألة الرقيق »[1] .

غدر وخيانة :

ولكن أنى للأمور أن تسير كما قدر عرابي ؟ وكيف يمكن من الإصلاح ، وينشر الوعي في البلاد ، وينهض بمصر ، والإنجليز والفرنسيون يريدونها متأخرة ، بل يريدون اغتصابها ، وامتصاص دمها ! ولذلك أرسلوا مذكرة إلى توفيق بنفي عرابي وإبعاد رفيقيه واستقالة الوزارة ، وقد قبل توفيق المذكرة . واجتمع على أثر ذلك كثير من الضباط والنواب بمنزل سلطان باشا ، وخطب فيهم عرابي ، وأخذ يعدد مساوىء الخديو ومعايب أسلافه وما جلبوه على البلاد وأهلها من المظالم والمغارم وغير ذلك من أنواع البلايا والرزايا . واشتد الهرج فصاح عرابي .

(١) التاريخ السري ص ١٥٤ .

« ما بالكم لا تسمعون ، وكأنكم خشب مسندة ، وإن كنتم لا تنادون بخلعه ، فنحن قد خلعناه ، قد خلعناه ، فصاح عند ذلك سائر العسكر ، قد خلعناه ثلاثاً »[١] .

ويصل وفد من تركيا ، ويحاول إغراء عرابي بالذهاب إليها فيرفض عرابي ، وترفض الأمة ويقول لهم : « ليقل الناس ما يشاءون فإني ولدت في بلاد الفراعنة ، وستظل الأهرام الخالدة قبري »[٢] .

وتحدث مذبحة الاسكندية وتتوالى الأحداث ، وهو دائماً يوجه ، ويثبت القلوب الخائفة ، وحينما دارت الحرب لم يفقد أعصابه وقد انتصر في موقعة كفر الدوار انتصاراً ساحقاً ، وارتد الانجليز إلى الإسكندرية فطاردهم الجيش إلى تفتيش (سيوف) وأوقع بهم ، بيد أنهم انتهكوا حرمة القناة ، ولم يكن عرابي يقدر أنهم سيهاجمونه من الشرق ، وقد طلب إليه أن يردم القناة ، فخشي مغبة هذا العمل ، وتألب الدول عليه . ثم يهزم عرابي في التل الكبير بسبب الخيانة التي دبت في صفوف الجيش ، وقد حاول جهده أن يثبت الفارين ولكنهم أبوا الاستماع إليه ، وفي ذلك يقول عرابي في مرارة وأسى : « دعوناهم للهجوم معنا فامتنعوا ودهشوا ، فذكرناهم بحماية الدين والعرض والشرف والوطن فلم يُجْدِ كل ذلك نفعاً ، لأن الرعب كان قد أخذ من قلوبهم كل مأخذ »[٣].

---

(١) ميخائيل شاروبيم . الكافي ج ٤ ص ٢٩٦

(٢) التاريخ السري ٤٣٢ .

(٣) مخطوط عرابي .

محاكمته :

ويحاكم عرابي ، فلم تلن قناته ، ولم يجبن عن مصارحة المحكمة بالحق ، وعن الأسباب التي دعته للثورة ، سألوه عن الماضي كله ، لماذا قام بمظاهرة عابدين ، ولماذا أحاط الجيش بالقصر فقال : « إن الاسباب التي دعت إلى ذلك هي عدم الأخذ بالعدل والمساواة في المعاملات ، شأن البلاد التي لم يكن فيها قوانين ، ويقص عليهم بعض ما كان يلقاه المصريون من ظلم وإجحاف وإهدار للكرامة ، ثم يقول : « فاجتمعت إذن أفكار الناس على أنه لا خلاص لهم من تلك المظالم إلا وجود مجلس نيابي من شأنه حفظ الأرواح والحقوق والأموال ، مع قوانين عادلة تكفل لهم حقوقهم فاجمعوا أمرهم على ذلك . ولخوفهم من البطش بهم أنابوني مع إخواني الضباط في عرض طلباتهم ، لكوننا إخوانهم وأبناءهم ، وهم أهلونا يضرنا ما يضرهم وينفعنا ما ينفعهم ، وأن البلاد التي ليس بها مجلس نيابي يحفظ للامة حقوقها . في كافة ممالك الارض يحصل فيها أكثر من ذلك ، بحيث يسفك فيها كثير من الدماء ، وهذا لا يخفى على كل متذكر ، لان الحاكم المستبد لا يسلم في الشورى بسهولة ، فمن أجل ذلك الظلم ، ولشمولنا مع أهلينا بحقوق واحدة - حصل ما تقدم ذكره بدون أن تسفك شعرة واحدة من رأس أي إنسان » .

ولما سئل عن خطبته في القدح والذم في توفيق والمناداة بخلعه ، لم يتلجلج لسانه ، ولم ينكر ماحدث وقال « ما كان من الممكن قبول هذه اللائحة ، ولو أدى ذلك لخلعه وكنت أنا وكل الناس على هذا الرأي » (١) .

---

(١) نصوص المحاكمة في مخطوط عرابي وفي الجزء السابع من كتاب مصر للمصريين .

ويحكم على عرابي بالسجن ، ونراه في سجنه أشجع زملائه ، ويرد بمقال قوي على اتهام الجوائب له ولزملائه بأنهم عصاة مارقون . وتنشر له جريدة التيمس ردّه هذا وفي آخره يقول : « إننا كنا ندافع عن وطننا بطريقة تقرها شريعة الله والإنسان ، وكل من يقول غير هذا كائناً من كان فهو عبد للهوى والمال .

يا دعاة الحق ! أمن العدل أن يحرم أبناء الوطن من كل وظيفة ، ويأخذ الأجانب أماكنهم ، ومن حضر الى مصر من الشراكسة والألبان والبلقان ؟.. ولكننا سنجد بين حماة الإنسانية من يدافعون عن الحق في وجه طغيان هذا العهد الذي يسودُّ منه وجه الإنسان »[1] .

ونراه حين يجرد من ألقابه وأمواله يقول : « لا أعبأ بآلامي ولا بالسجن ، ولا بالسباب ولا بأي شيء يوجه إلي بعد ذلك ، ما دمت قد وقفت نفسي على حرية بلادي ، ولا شيء يهمني الآن إلا أن أنقذ بلادي من هذه الهوة المملوءة بالأفاعي السامة ، وأن أنتشلهم من مخالب هذا التنّين الفظيع .

وإني لا أعبأ بهذهِ الألقاب العارضة التي لم أكن أرغب فيها في أي وقت من الأوقات ، وإني مكتف بشرفي الشخصي الذي سوف يلازمني ما حييت ، ويبقى بعدي إذا مت ، وسوف يرضيني دائما أن أنادى بأحمد عرابي المصري فقط وبغير ألقاب »[2] .

ثم ينفى عرابي فما جزع حين ترك مصر ، ولا تضعضع في المنفى ،

---

(١) أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه ص ٥٠٦

(٢) التاريخ السري ص ٤١٢ .

بل كان أهل سرنديب ينظرون إليه نظرة إكبار وإجـــلال ، ويعده المسلمون هناك زعيماً من زعماء الإسلام والأبطال ، وكان يرد على الصحف المصرية والأجنبية التي تتهجم عليه وعلى إخوانه بلسان عضب ، وحجة قوية ، وقد نشرت له جريدة « التيمس » كتاباً طويلا يدافع فيه عن ثورته ويبين أسبابها[1] .

ويعود عرابي من المنفى وهو في الستين من عمره ، وقد وصف عودته منذ أن ودعه أهل سيلان حتى رست بـه البـاخرة على شواطىء مصر وصفاً مؤثراً[2] . وقد ألف بعد عودته كتابه « كشف الستار » وقـد عني فيه بالحركة الأدبية إبان الثورة العربية ، حتى مقالات هؤلاء الذين تجنوا عليه ومفترياتهم ، وقد دحضها ورد عليها فمن ذلك تعليقه على ما كتب حمزة فتح الله الذي كان يدعو الى الهزيمة والتسليم ، ويعد عرابي وإخوانه خونة مارقين عن طاعة الخديو ، ويجب أن يفسحوا المجـــال للإنجليزكي يعيدوا الأمن والطأنينة للبلاد ، فيقول عرابي : « من الأقوال المأثورة ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال (لا تعلموا أولاد السفلة العلم) وهو قول حكيم لأنهم يتخذون العلم ذريعة لتضليل العامة ، وآلة للتلبيس على الناس ، ينصرون الباطل على الحق ابتغاء حطام يسير ، أو ابتسامـــة أمير ، أضلهم الله على علم فهم لا يهتدون ، ومصداق ذلك أن الشيخ حمزة فتح الله — أنشأ مقالة مفتراة نشرتهـا جريدة الاعتدال التي أنشئت إذ ذاك ضمَّنها من الأكاذيب ما يعجز عنه مسيلمة الكذاب ، ويوردها عرابي ويعلق على بعض أجزائها بقوله : « يريد الشيخ تسليم البلاد للعدو بـلا قتال ، لقد باع دنياه وآخرتـه بثمن بخس ، وعى الله الغنى من سبيل

(١) مخطوط عرابي ص ٢٥٩ .
(٢) نفس المرجع ص ٣٤٢ .

الخيانة والتزلف ، وحبذا الفقر مع الأمانة والقناعة ، كل إناء بما فيه ينضح . الخ [1] .

ويذكر بعض الرسائل والقصائد التي كتبها له أهل سرنديب ويختم كتابه بدعوة الناشئة المصرية أن تجدّ وتجتهد وتعمل ليلاً ونهاراً على استرداد مجدها واستقلالها وحريتها المسلوبة منها ، ومطالبة الانجليز بالجلاء حتى ينكشف هذا البلاء [2] .

وهكذا ظل عرابي وطنياً حتى آخر كلمة سطّرها ، وفياً لبلاده ولمبدئه على الرغم من المحن التي توالت عليه . وقد ظلمه التاريخ ، وتجنى عليه الكتاب تملقاً للأسرة الحاكمة حتى شوقي قال يستقبله عند عودته من المنفى :

صغارٌ في الذّهاب وفي الإياب أهذا كلُّ شأنك يا عرابي

حتى مصطفى كامل كان من المتجنين عليه عقب عودته .

ولكنه اليوم استرد مكانته الحقة في التاريخ ، وأنه كان ممثلا لشعب بأكمله ، يتكلم بلسانه ويشعر بشعوره . وإذا كانت الأيام قد آذته والتقدير قد أخطأه ، فما يغض ذلك منه ولا من ثورته وقد استجاب شباب مصر لندائه وحررت على أيديهم البلاد ، وطرد الإنجليز وأذلوا أيمّا إذلال ، كما طردت الأسرة الظالمة شر طردة ، وكانت ثورة ١٩٥٢ امتداداً لثورته ، وإن تأخر بها الزمن إلا أنها جاءت محكمة قاضية موفقة .

---

(١) مخطوط عرابي ص ٢٤٢ .

(٢) مخطوط عرابي ص ٧١٢ .

تعقيب

رأيت أن عرابي كان خطيب الثورة ، ولا يقل شأناً عن عبدالله نديم ، وإن اختلفا أسلوباً ومنهجاً ؛ لقد كان عرابي قدوة للمصريين في جرأته ومطالبته بالحرية والعدالة وإنصاف الفلاحين الكادحين ، وأن يعيش المصريون مكرمين في ديارهم لا مستغلين ولا مهانين ، وأن تكون خيراتها لهم لا للأجانب وأفاقي الأرض .

ولذلك كان شعاره « مصر للمصريين » . أجل ! كان قدوة لعبدالله نديم ، ومصطفى كامل وسعد زغلول وجمال عبد الناصر ، وضرب لهم المثل وهو الفلاح المصري في كيف يجابهون السادة المتألهين ، وكيف يدمغونهم بالظلم ، وكيف يثورون لكرامتهم ، وكيف يحافظون على هذه الكرامة حتى في أحلك الأوقات وأشدها يأساً ، وكيف يتمسكون بحقوقهم لا يلينون ولا يضعفون أمام جبروت الطغاة .

ولقد رأيت من خطبه أنها كانت من وحي العاطفة المتأججة في حنايا صدره ، وأنها كانت هادئة في قوة ؛ إذ لم يكن عصبياً ولا حادّ المزاج ولا مهيجاً ، على النقيض من عبدالله نديم ، ولم يكن متمهلاً ولا جامداً شأن الذي يقرأ درساً من الدروس ، بل متحمساً في رزانة ووقار ، وبدا في كلامه الإيمان بالحق الصريح والإثارات العميقة المتأصلة .

وكان كلامه مؤثراً في نفوس السامعين كما أقر ذلك كل من سمعه لا لخلابة فيه وتزويق ، ولكن لأنه صادر عن إيمان وعاطفة جياشة ، ولأنه ينبعث من نفس طيبة صهرتها الأحداث ، واحست بما تحس به ملايين القلوب على ضفاف النيل منذ زمن قديم ، فوجدت كلماته صدى عميقاً في نفوس مواطنيه ، لأنها عبّرت في وضوح عما يختلج في كل صدر ،

ويحتمل في كل قلب .

لم يكن صاحب صنعة في خطبه أو كتابته ، فلم يتكلف أي لون من ألوان البديع ، ولم يكن يقصد غير الوضوح ، ومع هذا تحس أن فيه صفة الخطيب الجيد ، فجمله قصيرة الفواصل ترتاح عندها النفس وتستوعبها الآذان ، ولها جرس موسيقي خلاب ، وأنها تتدفق في يسر وقوة ، مشحونة بالعاطفة والصدق . وقلما اقتبس من الشعر والحكم والأمثال ، وإذا أتى بشيء منها كان موفقاً كل التوفيق ، ولكنه كان يكثر من الاستشهاد بآي الله الحكيم وبالحديث الشريف ، وقضايا الدين وحوادث التاريخ الإسلامي ، وبخاصة زمن الحرب لضرورة الإقناع والتأثير .

وكانت ألفاظه سليمة ليس فيها من العامي المبتذل إلا القليل ، وإذا راعينا ظروفه وظروف عصره غفرنا له ، ولم يكن يعرف أصول المنطق والجدل ، ويأتي بالمقدمات الطويلة ، كما كان يفعل جمال الدين ومحمد عبده ، وذلك لأنه لم يكن فيلسوفاً ، ولا متعلماً عميق الغور ، وإنما كان زعيماً شعبياً يطالب بحق بسيط صريح ، وهو الحرية والعدالة والمساواة .

وقد غلب عليه الأسلوب الخطابي حتى في كتابته ، وكان واقعياً في تعبيراته ، فلم يكن يعمد الى الخيال الأدبي ولا العبارة المحلاة ، ولم يكن رجل أحلام وأوهام ، بل رجل واقع وتجارب ، وهو رجل مثل عليا ، كما فصلنا ذلك عند الكلام على مبادئه وشخصيته .

لقد كان من آثار الثورة العرابية في الأدب أن ألهمت الناس الحماسة ، وجرأتهم على الخطابة فظهر عشرات من الخطباء إبان الثورة . وإذا عرفنا أن الخطابة باللغة العربية كانت قد ماتت قبل الثورة ، وأن خطباء المساجد كانوا يرددون خطبهم من كتب ويقرءونها على الناس ، أدركنا

مدى ما دَبَّ في اللغة من قوة ، وفي الخطابة من حياة على يد الثورة العرابية ، لأنها كانت ثورة شعبية عامة ، وقد وجد الناس مجال القول فسيحاً ووجدوا في قاعدة الثورة خطيباً مفوهاً فقلدوه . ولقد كانت الثورة في حاجة الى الخطباء اكثر من حاجتها الى الشعراء ؛ حتى تنتشر الدعوة ، ويفهم جمهور الشعب مبادئها ، ويعضد الثورة ويثبُت في الميدان ولا يسمح للخيانة والغدر بالتسلل الى صفوفه .

ولا بدع إذا كان مصطفى كامل وسعد زغلول فيما بعد من الخطباء المقاويل ، واعتمدوا في تجميع شعور الأمة على الخطباء .

هـذه بعض آثار عرابي وثورتـه في الأدب ـ الى ميـدان الحياة والكفاح بعـد ان كان ادبـاً شخصيـاً لا يعرف سوى التملق والدهان والرياء وقد فصلنا ذلك في مقدمة هذا الفصل .

الفصل السادس

الاتصال بالأدب الاجنبي

مر بك في الفصول السابقة شيء عن الترجمة في عهدي محمد علي وإسماعيل ، وكيف أن الاتجاه في عهد محمد علي كان علمياً بحتاً لحاجة النهضة الى العلوم ، وأن الآداب لم يكن لها إلا نصيب ضئيل . ثم جاء عصر إسماعيل وزاد الاهتمام بالآداب ، وترجمت بعض الكتب الأدبية في عصره . ولكن منيت مصر بعد ذلك بالاحتلال الإنجليزي ، وازداد نفوذ الأجانب ، وفرضت اللغة الانجليزية فرضاً على تلاميذ المدارس المصرية ، واتصل الأدب العربي والفكر العربي اتصالاً مباشراً بالفكر الغربي . وقد كان لهذا أثر في الاتجاه الذي سلكه الأدب العربي حتى يومنا هذا . وسنرى الى أي حد أثر الأدب الغربي في الفكر العربي وفي ألوان الأدب واتجاهاته وأساليبه شعراً ونثراً ، وإن كان هذا الفصل لا يتسع لكل هذا ؛ لأن الأدب الأجنبي لا يزال حتى اليوم يغذي أدبنا العربي . وظهرت منذ الثورة العرابية حتى الحرب العالمية الثانية آثار عديدة لعشرات من الكتاب والشعراء يتضح في كثير منها ذلك الأثر الأجنبي

في صور شتى ؛ وستكون دراسة هذه الآثار ، وترجمة أصحابها في الأجزاء التالية إن شاء الله ، وحسبنا هنا أن نسجل الخطوات التي دفعت بالأدب العربي الى هـذا النهج ، وأن ندرس بعض الألوان الجديدة التي قدمت للقارىء العربي في أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

١ - الترجمة والتأليف :

رأينا آنفاً أن الثقافة الأجنبية التي نهلت منها مصر منذ عصر محمد علي كانت الثقافة الفرنسية ، وأن مدرسة رفاعة من التراجمة والمعربين لم يهتموا بالثقافات الأجنبية الأخرى إلا قليلاً . وكان معظم رجال البعثات في عصري محمد علي وإسماعيـل يذهبون الى فرنسا ويعودون متشبعين بالفكر الفرنسي وبالثقافة الفرنسية ، ولكن كان كل شيء ينقل الى اللغة العربية من طب وهندسة وعلوم رياضية وعسكرية وما شاكل هـذا ، فاتسعت اللغة العربية ، وزادت ثروتها بما بذل المعربون في سبيل مدهـا بالكلمات الجديدة ، أو إحياء الكلمات القديمة التي تحقق غرضهم . ولو استمرت النهضة العلمية في هذا الاتجاه ، وحمل العلماء والأدباء ورجـال الفن والقانون الذين يلجأون الى الثقافات الأجنبية المختلفة ويتزودون من معينها ، وينقلون من آثارها ، على تعريب كل ما يفيدهم ، لاصبحت اللغة العربية اليوم من أقوى اللغات على تمثيل الحضارة الحديثة وإبرازهـا في صورها المتباينة ، ولاخذت الكلمات المعربة صِبْغاً عربيـاً خاصاً على مر السنين ، وتركزت معانيها بكثرة استعمالها ، وسهل على الجامعات العربية تدريس شتى العلوم ، وأحدث النظريات باللغة العربية .

ولكن واأسفاه ! أبى الانجليز حين دخلوا مصر إلا أن يرغموها على على تعلم لغتهم في مدارسها الابتدائية والثانوية والعاليـة ، وصار حظ

اللغة العربية من اليوم المدرسي ضئيلاً ، ولم يفعل الانجليز ذلك دفعة واحدة ، وإنما مهدوا له تمهيداً بطيئاً .

دخل الانجليز مصر سنة ١٨٨٢ ، بعد أن ازداد نفوذ الاجانب ، وقويت شوكتهم وعظمت شركاتهم ، وبعد أن فرضت الرقابة الثنائية ، ودخل الوزارة المصرية وزيران أجنبيان . وشعر المثقفون المصريون بتغلغل الاجانب في كل مصالح مصر ، ورأوهم معتدّين بلغاتهم وبجنسياتهم ، وأن مدارسهم وإرسالياتهم تجدّ في تدريس اللغات الاجنبية ، ومن يتخرج فيها يكون له التفوق في ميادين الاقتصاد والسياسة ، فأدى كل هذا الى اهتمام مصر حتى قبل الاحتلال الانجليزي - بتعليم اللغات الاجنبية في مدارسها . وقد تقدم علي إبراهيم ناظر المعارف في سنة ١٨٨٠ بطلب إنشاء مدرسة تسمى (دار العلوم التوفيقية) لتخرج مدرسين في اللغات الاوروبية وسائر العلوم الغربية ، على غرار دار العلوم العربية ، وكانت مدرسة الالسن لا تزال موجودة ، ولكن ضعف التعليم فيها ، إذ ألغيت منها اللغة التركية والالمانية ، واقتصر على تعليم الانجليزية والفرنسية والعربية . وفي سنة ١٨٨١ تقرر إنشاء مكتب للترجمة والتحرير تولى إدارته حينئذ أديب إسحق الكاتب المشهور ، ثم تحول هذا المكتب الى مدرسة المعلمين الخديوية في سنة ١٨٨٩ ؛ كي تخرج مدرسين مصريين لتعليم اللغة الانجليزية بالمدارس الابتدائية .

ولما ألغيت مدرسة الالسن أنشىء بدلها مدرسة الإدارة والحقوق سنة ١٨٨٦ - وكان غرض الإنجليز جعل الثقافة المصرية ثقافة ديوانية بحتة - وقد ظلت كذلك طويلاً حتى بعد أن كفوا أيديهم عن التدخل في وزارة المعارف ؛ لان المشرفين على نظم التعليم بمصر كانوا متشبعين بمبادىء هذه المدرسة الديوانية ، ولذلك صار الموظف المصري عبداً لوظيفته

إذا فقدها ، أو إذا خرج الى ميدان الحيــاة ، صار كالسمكة التي جف من حولها الماء . وإنما اختط الإنجليز هــذا النهج حتى لا يفطن المصريون الى الاعمال الحرة والنهوض ببلادهم عن سبيل التجارة والاقتصاد ، وينفرد بها الاجانب بعامة والإنجليز بخاصة ، وبحسب المصري أن يوفر لهؤلاء الدخلاء الطمأنينة والرفاهية والنظام ، وله من الاجر لقيمات تقيم صلبه وحياة دونها حياة الخدم والاجراء . أما الربح الوفير ، والعيش الرغيد والعربات الفارهة ، والقصور الشاخة والتجارة العالمية فهي وقف على هؤلاء الأفاقين الذين دخلوا ديارنا ضيوفاً فاستبدوا بثروتهـــا المادية والمعنوية ، وتبجحوا في معاملاتهم لأبناء البلاد ، يمشون في تيه وخيلاء وصلف وكبرياء حتى تنبهت مصر لهم ، وكفت من غلوائهم ، وألغت امتيازاتهم .

أجل ! كان هذا بعض ما رسمــه الإنجليز للشعب المصري ، وأشرفو على تنفيذه ، فإن مدرسة الحقوق حينما أنشئت ، قسمت قسمين : ابتدائي وعالي ، يعد الابتدائي المحضرين والمترجمين ، وأصناف الموظفين لأقــلام الكتـاب والنيابة بجميع المحاكم ، وأقــلام الحكومة والوزارات ، وشتى المصالح التي تحتاج لأشخاص عندهم معلومات قانونيـــة ؛ ويعد القسم العالي لوظائف الكتاب في الدرجة الأولى والثانية ، ووكلاء النيابـة وما شاكل هذا .

ولم يفكر المستعمرون ـ طبعاً ـ في إنشاء المدارس التي تعـد شبان مصر لميدان الحياة العملي من تجارة وزراعة وهندسة وصناعة وغيرهـا ، وليتهم حافظوا على لغـــة البلاد ، وهي مصدر عزتهم ، ورمز وطنيتهم وقوميتهم ، وإنما عمدوا في سنة ١٨٨٨ الى الغض من شأنها ، والحـد من تعليمها ، وإفساح المدى أمام اللغات الأجنبية . وهاك ما أورده أمين باشا سامي في كتابه (التعليم في مصر) خاصاً بهذا التحول الخطير . وهو في

صورة تقرير مقدم من وزارة المعارف الى الخديو : « إن تعليم اللغات الاجنبية التي لها في هذا العصر من الاهمية ما لا يخفى بمصر خاصة ، لم يأت الى الآن في مدارسنا بالنتائج المطلوبة ، وليس ذلك لتقصير من المعلمين ، أو فتور في هممهم ، فإنهم في الواقع أهل لما عهد إليهم من الوظائف ، غير أن الوقت المخصص لتعليم هذه اللغات غير كاف ، حتى يكتسب التلامذة ملكة استعمال اللغة ، ويسهل عليهم التكلم بها ، وهو أمر لا يمكن الحصول عليه إلا بعد تمرين طويل مستمر ، فلتلافي هذا الامر بقدر الإمكان تقرر أن مواد العلوم الجاري تدريسها للآن باللغة العربية تعلم من الآن فصاعداً بمعرفة مدرس اللغة الاجنبية إما باللغة الفرنسية ، وإما باللغة الإنجليزية ، فإذا درس التاريخ والجغرافية والعلوم الطبيعية بلغات أجنبية ، وضم هذا الى تعليم اللغة المقصودة بالذات سهل نيل المقصود » .

ثم ألغيت بعد ذلك اللغة الفرنسية من المدارس الاميرية الابتدائية ، وحلت محلها اللغة الإنجليزية ، وإن بقي للفرنسية بعض القوة والانتشار لكثرة المدارس التبشيرية التي تتخذها أساساً للتعليم بمصر .

وفي سنة ١٨٩٨ رأت الحكومة - أو رأى المستعمر - أن يغير منهج مدرسة الطب ، وأن يحال بينها وبين الرسالة العظيمة التي اضطلعت بأدائها منذ عصر محمد علي ألا وهي نقل الطب الغربي الحديث الى اللسان العربي المبين ، فعين لها مدير إنجليزي أدخل بعض الاصلاحات فيها ، واشترط لنجاحه في مهمته أن تكون لغة التدريس بالمدرسة هي الإنجليزية ، فأجيب الى طلبه ، وعطلت الترجمة ، وصار كل الاساتذة من الإنجليز وظلت الإنجليزية هي لغة الطب بمصر حتى يومنا هذا .

وإذا كانت اللغة العربية قد حوربت في كل معهد ، واشتد ساعد

اللغات الاجنبية ، ولا سيما الإنجليزية ، فقد استطاعت بما كمن فيها من قوة أن تقف أمام المحنة ، وأن تسترد سلطانها المفقود بعد لأي ، وأن ترغم العدو الغاصب على الاعتراف لها بالحيوية ، وأنه ليس من السهل القضاء على لغة ذات تاريخ مجيد ، وتراث تليد ، ودين سماوي مكين كاللغة العربية .

١

ظهرت سطوتها أول الامر حينما اضطرت المحاكم الاهلية الى تعيين المترجمين بين القضاة الاجانب ، وبين الاهالي والمترافعين لاول عهدها سنة ١٨٨٣ ؛ إذ لم تجد الحكومة من بين المصريين أكفاء يلون شئون القضاء . ولقد أدى إنشاء المحاكم المختلطة سنة ١٨٧٦ ، وإنشاء المحاكم الاهلية بعد ذلك الى نهضة قانونية قوية بمصر فوضعت القوانين ، وكثرت عليها شروح العلماء[١] .

وترجمت كتب كثيرة من الفرنسية في هذا الباب مثل : أصول النواميس والشرائع لبنتام نقله فتحي زغلول[٢] وهو في الخامس والعشرين

---

(١) من ذلك : ١ - توضيح المشكلات في شرح قانون المرافعات لأحمد عفيفي . ٢ - شرح قانون التجارة لعبد العزيز كحيل ، ويوسف وهبه ١٨٨٥ . ٣ - ورسالة في قوة الأحكام المدنية لعبد العزيز كحيل ١٨٨٩ . ٤ - طلبة الراغبين في بيان حقوق الدائنين لعبد العزيز محمد ومحمد توفيق نسيم ١٨٩٣ . ٥ - شرح الأموال على القانون المدني لمراد فرج ١٨٩٣ . ٦ - شرح باب إثبات الديون وإثبات التخلص منها لعلي ذو الفقار ١٨٩٣ . ٧ - رسالة في تزوير الأوراق لفتحي زغلول سنة ١٨٩٥ ؛ وغير ذلك كثير راجع تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ج ٤ ص ٣٦٢ .

(٢) ولد سنة ١٨٦٣ بمصر ، ودرس الحقوق بها ، واشتغل بالقضاء حتى وصل الى وكيل لوزارة العدل . قال فيه المنفلوطي : «إنه نابغة الأمة العربية علماً وفضلاً ، ونادرتها ذكاء وفهماً ، وأقدر كتابها على الترجمة الصحيحة التي لايضيع فيها معنى، ولا يضطرب فيها لفظ، وما انتفعت=

من عمره ، وحقوق الملل ومعاهدات الدول للأمير أمين أرسلان ، والطعن في الاحكام بطريق النقض والإبرام ترجمة عزيز خانكي سنة ١٩٠٠ .

ووضعت المعاجم القضائية لتيسر على المشتغلين بالقضاء والمحاماة الاطلاع على المواد اللازمة أو الاوامر العالية ، ومن أشهر هذه المعاجم : قاموس الإدارة والقضاء لفليب جلاد في ست مجلدات سنة ١٨٩٩ ، والقضاء المصري الاهلي لإبراهيم الجمال وهو معجم للقواعد القانونية المأخوذة من أحكام المحاكم الاهلية .

وصدرت مع هـــذه التراجم العديدة ، والمؤلفات الكثيرة ، مجلات قضائية من أشهرها مجلة الحقوق لأمين شميل ، ثم آلت لإبراهيم الجمال ، ومجلة الاحكام لنقولا توما ، ومجلة القضاء للشراباتي وغيرها .

إن هذه النهضة القانونية قد أفادت اللغة كثيراً ، وأضافت الى المعجم العربي عشرات الكلمات الاصطلاحية ، ولبى العلماء دعوة فتحي زغلول حين أهاب بهم أن يهيئوا لغتهم للحيـــاة الجديدة ، ورسم لهم الطريق الصالحة بقوله : « عليكم بالتقدم فادخلوا أبوابه المفتحة أمامكم ولا تتأخروا فلستم وحدكم في هذا الوجود ، ولا تقدم لكم إلا بلغتكم ، فاعتنوا بهـــا

= هذه الأمة في عصرها الحاضر بعلم أحد من علمائها انتفاعها بمؤلفاته ومترجماته ويمتاز في كتابته بالبيان والإيضاح والدقة في وضع الألفاظ بإزاء المعاني ، فلا يتجوز إلا قليلاً ، ولا يتخيل إلا نادراً ، ولا يغرب ، ولا يتندر بحال من الأحوال) مختارات المنفلوطي ص ١١١ . وقد ترك أحمد فتحي زغلول ثروة علمية عظيمـة من التأليف والتعاريب في القانون والإدارة والاجتماع فترجم : روح الاجتماع لجوستاف لوبون ، وتطور الأمم لجوستاف لوبون ، وسر تقدم الانجليز السكسونيين لادمون دمولان ، وشرح القانون المدني ، وكرم من أجله (١٩١٣) وله كتاب المحاماة ١٩٠٠ وتوفي فتحي زغلول سنة ١٩١٤ .

وأصلحوها وهيئوها ولا تشوهوا صورتها الجميلة بتعدد الاشتراك أو التجوز ، ثم لا تقفوا بها موقف الجمود ، والعجمة تهددها على ألسنة العامة ، وهي لا تلبث أن تدخل على لغة الخاصة وأقيموا في وجه هذا السيل الجارف سداً من الاشتقاق المعقول والترجمة الصحيحة ؛ والتعريب عند الضرورة لتكونوا من الناجحين[1] » .

ومع هذه الفائدة الجليلة التي أحرزتها اللغة العربية بهذه النهضة القانونية ، فإن من المؤسف حقاً أن تهمل الشريعة الإسلامية وأحكامها ، وأن يغلبنا الاجانب على أمرنا ، ويتمكنوا من حملنا على التنكر للقانون السماوي الذي يتمشى مع الغرائز الإنسانية ، والطبيعة البشرية وبرهنت الأيام على أنه أعدل القوانين وأقواها وأرحمها . إن القوانين الوضعية ، ولا سيما القوانين التي وضعت لأناس سوانا لهم عادات وتقاليد وبيئة غير ما نحن عليه ، لم تصلح المجتمع المصري بل أفسدته . ولو حاول المصلحون في مصر تنظيم أحكام الشريعة الإسلامية ووضعها في مواد حسب أبواب القانون ، ووازنوا بينها وبين غيرها من القوانين ، واجتهدوا في استنباط الاحكام ووصلوا الماضي التليد بالعهد الجديد ، لبرهنوا على أنهم من أمة لها كرامة ، وبها حرص على تراثها ، والسير بنهضتها في السبيل المستقيم ، أما عملهم هذا فهو مسخ وتشويه للأمة ، وتقليد سخيف ، وهو عنوان الضعف ، والشعور بالخزي أمام الاجانب ، وعدم القدرة على الدفاع عن مقومات شخصيتنا .

ولقد حاول بعض العلماء في ذاك الوقت ممن كان لهم شعور صادق بهذه الكارثة أن يبرهنوا لهؤلاء الأجانب على أن الشريعة الإسلامية

---

(١) مختارات المنفلوطي ص ١١١ من مقال لفتحي باشا زغلول بعنوان « ماهمة اللغة » .

تستطيع أن تنهض بالمجتمع المصري كل النهوض ، وأن بها من الأحكام ما يجعل الأمم الإسلامية في غنى عن قانون نابليون أو القانون الروماني ، وهاك عمر لطفي [1] يضع باللغة الفرنسية بعض مواد الشريعة الإسلامية ليدحض دعاوي هؤلاء المغرورين بمدنيتهم الزائفة ومن لفّ لفهم ممن لم يعرفوا حقيقة الشريعة الإسلامية . ومن هذه المؤلفات التي قدمها عمر لطفي بالفرنسية للموازنة .

١ — الدعوى الجنائية في الشريعة الإسلامية ، وقد أعجب به الفرنج إيما إعجاب ..

٢ — حرمة السكن .

٣ — وحق المرأة .

٤ — وحق الدفاع .

إن الاتجاه الذي سلكه العراق منذ سنوات حين انتدب الدكتور عبد الرزاق السنهوري لوضع قانون للمحاكم العراقية مستنبط من الشريعة الإسلاميه والاتجاه الذي اتجهته سوريا في دستورها قبل الوحدة ، اتجاه سليم يدل على يقظة وإدراك صحيح لقيم التراث الإسلامي ، وحرص على

---

(١) أصله من أسرة مغربية ، ولد بالإسكندرية سنة ١٨٦٧ . وتعلم بها ، ثم جاء إلى القاهرة ودرس الحقوق وتقلب في مناصب الدولة حتى صار وكيلا لمدرسة الحقوق ، وكان له نشاط بارز في ميدان الحياة فأنشأ كثيراً من النقابات الزراعية وغيرها ؛ وأنشأ نادي المدارس العليا . وله في هذا الباب كتاب إنشاء شركات التعاون ومن أشهر مؤلفاته غير ما ذكرنا كتاب الامتيازات الأجنبية ، وكان أول كتاب من نوعه في اللغة العربية ، وتوفي عمر لطفي سنة ١٩١٢ .

عدم المسخ والفناء في الأمم الأجنبية .

وظهرت قوة اللغة العربيـــة كذلك ، وأنها تستطيع أن تتحدى الاستعمار ، وتسير في النهج العريض الذي خطه محمـــد علي وعَبّدته حكومة إسماعيل ، على الرغم من العقبات التي أقامها الإنجلـيز أمامها : في رغبة العلماء والأدباء في أن يعرّفوا أبناء أمتهم كثيراً من أسس الحضارة الغربية ، لعلمهم أن الاستعمار مهما كان جامحاً عنيفاً لا يستطيع أن يستولي على إرادة العلماء ويمنعهم من الاستمرار في تغذية اللغة العربيـــة بهذه النفائس . وقد شملت الترجمة في هذا العصر الذي نؤرخ له ألوانـاً من الفكر الغربي ، فهناك (الاقتصاد السياسي) ، وكان العرب يطلقون عليه المعاش ومن الكتب التي وضعت أو ترجمت في هذا الموضوع :

١ - كتاب الاقتصاد السياسي أو فن تدبير المنزل لخليل غانم ١٨٧٩ .

٢ - أصول الاقتصاد السياسي لرفلة جرجس ١٨٨٩ ، وهو مقتبس من كتب أفرنجية عديدة .

٣ - كتاب الاقتصـــاد السياسي لجيفرنس نقلته جمعية التعريب سنة ١٨٩٢ .

٤ - مبادىء الاقتصاد السياسي تأليف محمد حسين فهمي .

٥ - الموجز في علم الاقتصاد لـ (بول لروابوليه) نقله حافظ إبراهيم وخليل مطران في خمسة أجزاء بأمر حشمت ناظر المعارف سنة ١٩١٣ .

وهناك (علم الاجتماع) وقد مر بك كيف بدأ هذا العـــلم على يد جمال الدين ومدرسته وكيف شخصت أدواء الأمة الاجتماعية ، ووصف

لها الدواء على يد أديب اسحق وعبد الله نديم ومحمد عبده . ولكن ما كتبه هؤلاء لم يبن على أصول علمية ثابتة ، وقواعد مقررة ، وإنما كان وليد الخبرة والملاحظة والتجربة . وكان لا بد للنهوض بهذا العلم من دراسته عند علماء الغرب ونقل أجل آثاره ، ومع تطبيق نظرياته على المجتمع المصري وعاداته وتقاليده وشعرائه وبيئته .

وليس علم الاجتماع غريباً عن العربية ، فإن ابن خلدون في مقدمته قد وضع له أسساً متينة ونظريات سليمة بنى عليها مونتوسكيو [1] وسواه أبحاثهم ، ثم تطور هذا العلم في الغرب واتسعت موضوعاته .

---

(١) سبق ابن خلدون بنظرياته الاجتماعية علماء الغرب فنظرية التقليد الاجتماعي مثلا التي قال بها وملخصها انتقال العادات والطباع بين الأجيال والأمم المختلفة لميل النفس إلى اعتقاد الكمال فيمن تنقاد إليه كما بين الأبناء وآبائهم والتلاميذ وأساتذتهم ، بنى عليها (جبريل تارد) كتابه (قوانين التقليد) ، وفي كتاب مونتسكيو (روح القوانين) Espirit de Leis تجد أثر ابن خلدون واضحاً كقوله بضرورة الحكومات، وأثر البيئة في الناس وعاداتهم ، وكقوله بتقسيم الناس إلى طبقات حسب مكانتهم الاقتصادية وقد شابه الاشتراكيين في قوله . بأن « الطبقات تسعى لاستثمار بعضها بعضاً استناداً إلى ما لها من السلطة الاجتماعية والسياسية فإن كل طبقة من طباق أهل العمران من مدينة أو إقليم لها قدرة على من دونها من الطباق ، والجاه داخل على الناس في جميع أبواب المعاش فإذا كان الجاه متسعاً كان الكسب الناشيء عنه كذلك.

وإذا أردت المزيد من آراء ابن خلدون الاجتماعية والموازنة بينها وبين آراء علماء الغرب ومن معرفة مكانته لدى الغربيين فارجع إلى :

١ – ابن خلدون ؛ منتخبات لجميل صليبا ، وكامل عياد .

٢ – فلسفة ابن خلدون الاجتماعية للدكتور طه حسين .

٣ – ابن خلدون مؤرخ الحضارة العربي في القرن الرابع عشر للعلامة فون فيسندتك وترجمة محمد عبد الله عنان.

٤ – كتاب روبرت فلنت في تاريخ التطور العلمي Rober. t. Flint .

ونظمت أبحاثه ، وقد فطن لذلك علماء مصر فترجم فتحي زغلول كا مر بك كتابي روح الاجتماع ، وتطور الأمم لـ (غوستاف لوبون) ونقل كذلك تقدم الإنجليز السكسونيين ، وهو من الكتب التي قرأناها بشغف، ونقل محمد زكي صالح نشوء الاجتماع لـ (بنيامين كيد) .

ومن الكتاب الاجتماعيين الذين أفادوا هذا العلم ، وحاولوا إصلاح الأمة عن طريق الدرس والتمحيص والتحليل ، والاستقراء والاستنباط، السيد عبد الرحمن الكواكبي [1] ، ومن كتبه النفيسة التي بهرت أبناء جيله ، وصار لها أكبر الأثر في اليقظة القومية بالشرق .

١ – طبائع الاستبداد .

٢ – أم القرى .

وقد وضع كتبه في شكل روائي ، وفيها تحليل دقيق للأمراض الاجتماعية والسياسية وفيها حملات شديدة على الحكومة العثمانية ، وفيها علاج إيجابي سليم لأدواء المسلمين . وامتاز الكواكبي في كتابته بالذكاء والتخصص والتعمق والرزانة ولو أتيح له أن يعرف لغة أجنبية فيطلع على أبحاث علم الاجتماع عند الغربيين لكان له – مع غزارة فكره وصدق نظره – في تقدم هذا العلم وتطوره شأن يذكر .

---

(١) من أسرة حلبية مشهورة ، نشأ ميالاً للعلم شغوفاً بالسياسة ، وحرر مدة في جريدة الفرات الرسمية ثم أنشأ جريدة (الشهباء) ، وتقلب في مناصب الحكومة . ولما رأى ما فيها من فساد أخذ ينقد رجال الدولة العلية ، فاضطهدوه ففر إلى مصر ، ورحل إلى بلاد كثيرة كزنجبار والحبشة وأواسط جزيرة العرب والهند ، ثم عاد إلى مصر واستقر بها حتى توفي سنة ١٩٠٢ . راجع مشاهير الشرق ص : ٣٥ ج١ (طبعة ثانية) ومجلة الثقافة العدد ٣٠٧ .

ومن المشكلات الاجتماعية التي أثيرت في هذه الفترة ، وكان لها دوي عظيم مسألة الحجاب والسفور ، ومركز المرأة في المجتمع . ولقد أدى اختلاطنا الشديد بالأجانب ، وتطلعنا إلى محاكاتهم في كل شيء ، والسير على نهجهم في مدنيتهم – إلى ظهور هذه المشكلة ، وكان بعض المفكرين يرى سفور المرأة المسلمة ومساواتها بالرجل في كل شيء مغالاة منهم في المحاكاة ، ولكنهم لم يجرءوا على الجهر بآرائهم أمام جمهور المسلمين في ذاك الوقت لتمكن عادة الحجاب من النفوس ، حتى ظهر قاسم أمين[1] فنشر كتابيه (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) ، وقد كان لهما أثر بليغ في الحياة المصرية ، وإن لم يظهر هذا الأثر سريعاً ، بل ظلت المرأة مدة يتجاذبها السفور تارة والحجاب تارات ، حتى خلعته أخيراً ولم يعد له أثر إلا في بيئات محدودة .

أما (الأدب) وهو الذي يعنينا في كتابنا هذا أكثر من سواه ، فقد اشتدت فيه حركة التعريب ، ولا سيما الروايات والقصص ؛ وقد عرفت فيما سبق أن الكلية الأمريكية ببيروت أسست سنة ١٨٦٠ ثم أسست الكلية اليسوعية بعدها بقليل ، وقد كان لهاتين الكليتين أثر بارز في توجيه النشء إلى القصة الغربية . ولما هاجر كثير من نصارى لبنان

---

(١) من أصل كردي نزح أبوه إلى مصر في عهد اسماعيل ، وانتظم في الجيش المصري وارتقى إلى رتبة أميرالاي ؛ وولد قاسم بمصر ودرس القانون ، وتولى مناصب القضاء حتى صار مستشاراً بالاستئناف وتوفي سنة ١٩٠٨ . والمرأة الجديدة مدينة اليه بالشيء الكثير فهو الذي شق لها طريق التحرر كما تريد وإن لم يكن أول من نادى بذلك ، فقد عرفنا أن رفاعة الطهطاوي نادى بتحرير المرأة وتعليمها ، ولكن الزمن والبيئة والأمة كانت كلها غير مستعدة لتلبية دعوته حينذاك ، فلما أتى قاسم أمين وجد من المسلمين من يستجيب له ، وقد سارت المرأة في سفورها شوطاً بعيداً أكثر مما قدر قاسم أمين أو أراد .

إلى مصر حيث الحرية والشهرة والثروة أخذ هؤلاء المهاجرون يترجمون القصص الاوربي ويذيعونه على الناس ، وكانت بيروت قد شهدت من قبل قيام (مارون نقاش) يؤلف بعض المسرحيات أو يقتبسها من الادب الغربي مثل مسرحية البخيل لـ (موليير) ، وكان يدعو فنه هذا « الذهب الافرنجي المسبوك » . وكان لمارون ابن أخ اسمه سليم نقاش رحل بعد موت عمه إلى مصر ، وسعى فيها حتى أنشا مسرحاً وفرقة . وظهر بمصر في ذلك الوقت يهودي اسمه « يعقوب صنوع » أسس مسرحاً عربياً بالقاهرة ترجم له عشرات الروايات الفرنسية الغرامية بلغة ركيكة وقد تقدم الكلام عنه [١] ، وظل المسرح منذ ذلك الوقت يعتمد على الروايات الاجنبية الممصرة ، وأحياناً يضع له بعض المؤلفين مسرحيات لا تمثل الحياة المصرية في شيء ، وبها كثير من عادات الغرب وتقاليده ولم يتجه المسرح وجهة إصلاحية إلا نادراً مثل ما مر بك من روايات عبد الله نديم وأضرابه [٢] .

على أن الاهتمام بالمسرح وبالتمثيليات لم يكن كبيراً ، وإنما عني المترجمون بنقل القصص الغربي بأنواعه وألوانه ؛ ومن أقدم الذين اشتغلوا بترجمة القصص نجيب حداد اللبناني [٣] فنقل إلى العربية رواية صلاح الدين تأليف (ولتر سكوت) ورواية السيد Cid تأليف كورني Corneille وسماها غرام وانتقام ، ورواية (هيرناني) تأليف هوجو ، وسماها

---

(١) راجع ص ٩٩ من هذا الكتاب .

(٢) وقد ذكرنا في كتابنا (المسرحية) تاريخ المسرحية المصرية بالتفصيل وسقنا ثمة نماذج عليها .

(٣) ولد سنة ١٨٦٧ واشتغل بالصحافة فحرر في جريدة الأهرام إلى سنة ١٨٨٤ ثم اعتزلها وأنشأ (لسان العرب) بالأسكندرية سنة ١٨٨٩ .

(حمدان) ورواية روميو وجوليت تأليف شكسبير وسماها (شـهداء الغرام) ، ورواية البخيل لـ (موليير) ورواية الفرسان الثلاثة تأليف اسكندر دوماس في أربعة أجزاء طبعت لاول مرة سنة ١٨٨٨ .

وفي أواخر القرن التاسع عشر (يونيو سنة ١٨٩٧) حضر إلى مصر كل من نقولا رزق الله ، وخليل مطران ، وطانيوس عبده ، واشتغلوا بالصحافة ، ثم التحق نقولا بجريدة الأهرام ، وعكف على ترجمـة الروايات بأسلوب سهل جذاب . وفي سنة ١٩٠٤ ترجم رواية (سقوط نابليون الثالث) في أكثر من ألف صفحة . وقد استهوت هذه الروايات الناشئة في مصر والبلاد العربية ، فأقبلوا عليها إقبالاً شديداً ، وأخذ بعض المسلمين يقلد هؤلاء المترجمين حتى لقد أنشأ أحـدهم مجلة باسم (مسامرات الشعب) يحشد فيها كثيراً من القصص الرخيص . وأخرج نقولا رزق الله[١] « سلسلة الروايات الجديدة » وكان العدد يحتوي على شذرات من الشعر القديم ، وقصصاً قصيرة إلى جانب الرواية الرئيسية ، وأنشأ طانيوس عبده مجلة الراوي وفيها أخذ في تعريب الروايات الشهيرة مثل (فوست) و (الملكة إيزابوا) .

وترجم فرح أنطون[٢] (الكوخ الهندي) و (بول وفرجيني) و (أتالا) وغيرها من الروايات . كما ترجم خليل مطران كثـيراً من روايات شكسبير التمثيلية .

وكان من الطبيعي بعد أن كثرت هذه الروايات في أيدي الشباب

---

(١) توفي نقولا رزق الله في مارس ١٩٠٥ .

(٢) توفي فرح أنطون في ١٩٢٢ .

والرجال أن يبدأ الأدباء في محاكاتها ، وكان أول المقلدين وأنشطهم جرجي زيدان[٢] فنحا في تأليف الروايات منحى (ولتر سكوت) الإنجليزي ، واستمد من التاريخ العربي قصصه وأبطاله ، وغير في حقائق التاريخ وبدّل حتى يدخل عامل التشويق والتتابع القصصي ، وأخرج عدداً كبيراً من هذه القصص التاريخية منها : فتاة غسان ، وأرمانوسه المصرية ، وعذراء قريش ، وغادة كربلاء ، والحجاج ، وفتح الأندلس ، وشارل وعبد الرحمن ... الخ هذه السلسلة الطويلة التي بلغت ثماني عشرة قصة مستمدة من التاريخ الإسلامي وأربع قصص أخرى مكتوبة كلها بأسلوب صحفي ، خالية من التحليل النفسي ، والنظريات الفلسفية ، وما هي إلا تاريخ في قالب قصة لم تكمل شروطها الفنية ، وتاريخ لم يحافظ فيه على الحقائق ، وإن كانت الحقائق التاريخية ليست شرطاً في القصة التاريخية كما نرى عند (سكوت) ، وكما نرى عند شكسبير في (أنطوني وكليو باترا) و (يوليوس قيصر) وغيرها من الروايات والمسرحيات التاريخية ، ولكن هذه القصص فيها نفحة الاديب. وخيال الشاعر ، وعبقرية الفنان ، وليست سرداً تاريخياً مكتوباً

---

(١) ولد ببيروت سنة ١٨٦١ ، ودرس اللغة الإنجليزية في مدرسة ليلية مدة خمسة عشر شهراً ، وفي سنة ١٨٨١ خطر له أن يدرس الطب ولكنه لم يتم دراسته بالكلية الأمريكية ، ونال شهادة من الخارج في الصيدلة ثم أتى مصر وتولى تحرير جريدة الزمان سنة . ورافق الحملة النيلية إلى السودان سنة ١٨٨٤ مترجماً بقلم المخابرات ، ثم رجع الى بيروت عضواً في المجمع العلمي الشرقي فدرس العبرية والسريانية وزار انجلترا سنة ١٨٨٦ ، وتردد طويلا على (المتحف البريطاني) بلندن ، ثم عاد إلى مصر وساعد في تحرير المقتطف ، ولكنه استقال بعد مدة واشتغل بالتدريس سنتين وفي سنة ١٨٩٢ أنشأ الهلال وتوفي سنة ١٩١٤ .

بأسلوب صحفي . ومثل زيدان في هذا سليم البستاني[1] في رواية (زنوبيا وبدور) وغيره ممن سلكوا هذا النهج التاريخي ، وزيدان أسلم من سواه عاقبة . ثم ظهرت بعد ذلك وللأسف، قصص رخيصة تتملق النزعات الدنيا عند الشعوب وتقرأ لقتل الوقت ، وتمثل كثيراً من وجوه الحياة الإنسانية المخزية ، فالإجرام بأنواعه وطرقه ، والعشق السافل ، وما شاكل ذلك من نواحي الضعف الإنساني ، ولا سيما وهي في المدنيـة الغربية المسمومة قد زحفت في صورة قصص مزرية بالأدب مطوحة به في مهواة سحيقة ، مضللة عقول النشء ، ومفسدة لأهوائهم وأخلاقهم ، وباعثة منازع الشر والإجرام على طريقة رعاع باريس ، وغوغاء لندن ، وصعاليك برلين وشطار نيويورك وشيكاغو ، من أمثال (اللص الشريف) و (جونسون) و (ملتون توب) و (طرزان) ؛ وغير ذلك مما لا يخرج عما كان متداولاً في مصر إبان عصور الضعف من قصة (أحمد الدنف) و (دليلة المحتالة) ومغامرات العيارين والشطار ، وإن اختلف اللون والزمان والحوادث ، ولكن الفكرة واحدة ، والنهج متشابه ، والغاية السلوى وقتل الوقت ، وتملق النزعات . وأين هذا من الأدب ؟.

وظل هذا الفيض من السخف يغمر المطابع العربية حتى قامت الحرب العالمية الأولى ، واستمر بعدها ولا زال للآن . ولكننا نكتفي بتتبعه عند هذا الحد ، ولنا في الكلام عن القصة ومنزلتها في الأدب عودة قبل أن نفرغ من هذا الفصل إن شاء الله . وحسبنا أن نقول هنا كلمة طالما رددناها في هذا النوع من الاتجار بعقلية الجماهير : لقد تفتحت أعيننا في الصبا فإذا نحن في بيداء موحشة نخبط في دروب ملتوية ونعرج يمنة

---

(١) توفي في سنة ١٨٩٤ وبذلك سبق زيدان في تأليف القصص التاريخية وله كذلك قيس وليلى والاسكندرية .

ويسرة بعيدين عن جادة الحق ، وأبواق الثقافة الدخيلة يقودون القافلة إلى مصرعها الوخيم ، وينفثون فيها السموم المخدرة حتى تستكين لهم وتُسلم قيادها ، وهي في غفلة عما انطوت عليه جوانحهم .. جاءوا وهي ترزح في أصفاد الجهل والانحلال ، وأرادوا مسخها وتشويهها ، حتى تتناسى ماضيها وتفقد ما كمن فيها من عزة وأنفة .

جاءوا بقصص خليع يثير الشهوة ، ويقتل الحياء ، ويلطم وجه الفضيلة والشرف ، ويوحي بالإجرام والفسق ، وجاءوها بمهازل تمثل على المسارح باسم الفن ، وأدب موبوء يزلزل العقيدة ، ويخدش وجه العفاف ويعرض على الناس باسم القصة . إنه أدب نِغل ، ووِرد آسن وغذاء عفن ، التقطه من يتجرون بعقلية الجماهير ، ومن وقعوا وقوع الذباب على الفضلات الفاسدة من نفايات الحضارة الأوربية وقدموه لقومهم في شكل زريّ .

إن النفوس المريضة ، والعقول الهزيلة التي يخلبها الزّيف ، وتغويها المظاهر الخداعة والقلوب الخالية من الإيمان هي التي تهيم بالأباطيل فتعتسف الطريق ، وتنفذ في سراديب البهتان ؛ وإذا أرادت أمة أن تنهض وتنشىء جيلاً طموحاً فتياً صدفت وعفت عن هذه الآداب المرقعة ، والقصص الهزيلة ، وجدّت في تثقيف الجمهور وتهذيبه ـ فلا تترضاه أو تتملقه ، أو تناشد عواطفه الجامحة النابية طمعاً في ثروة زائلة ، وجاه مؤقت . وعليها أن تقود هذا الجمهور الساذج إلى المعين العذب فتشذب خلقه ، وتروض نفسه ، وتطبعه على الخير وتزوده بما ينهض به .

لم نعرضُ أدواء الأمم الأجنبية ومثالبها على جمهور قرائنا ، وقد وضع هذا القصص الغريب لبيئة غير بيئتنا ، وليعالج مشكلات لا وجود لها عندنا ؟؟ إن القصة سلاح ذو حدين ، واستعماله يحتاج إلى مهارة

وخبرة ، وقد أساء المترجمون استعماله فطعنوا قومهم ومجتمعاتهم الطيبة في الصميم ، وجنوا عليها جناية لا تغتفر .

وقد انتشر هذا اللون من القصص بأوربا في أخريات القرن التاسع عشر باسم الواقعية ، وقد لخصنا السمات العامة للمذهب الواقعي في كتابنا (المسرحية) ولا يزال الأدب الأوربي والأمريكي واقعاً تحت تأثير المذهب الواقعي ، ولقد جنى على بعض الأمم الغربية جناية فظيعة وأشاع فيها التحلل والضعف ولذلك أخذ كثير من أدباء الغرب يناهضونه .

ولعلك أدركت مما سبق كيف أن الأدب الأجنبي قد طغى تياره واشتد ، فالمدارس تفرض فيها اللغة الإنجليزية في كل الدروس ، ولا يعفى إلا درس العربية والدين . والأدب أخذ يغرف من بحور الغرب دون تحر أو تدقيق . وجمهرة المثقفين تجد فيما ينقل إليها صوراً من حياة الغرب لم تعهدها ، والغرب هو المتملك القاهر ، والنفوس تشرئب لمعرفة عاداته وسر قوته وكثير من ألوان حياته .

ظلت المدارس المصرية خاضعة لهذه السيطرة الأجنبية حتى تولى سعد زغلول وزارة المعارف في سنة ١٩٠٦ ، ونازع المستشار الانجليزي (دانلوب) في سطوته وجبروته ، وألزمه حده لا يتعداه ، وذلك بتشجيع الجمعية التشريعية التي أصرت على إرجاع اللغة العربية ، فكان لها ما أرادت ، وكانت حسنة لا تنسى له وللجمعية التشريعية لأنها أعادت التيار إلى مجراه القديم . وأخذ العلم الحديث يتدفق في هذا المجرى كتباً طريفة التأليف ، بارعة العرض جذابة الأسلوب .. وسار نهر العربية زخاراً صوب الكمال حتى يومنا هذا .

وبقي درس اللغة الإنجليزية والأدب الإنجليزي درساً أصيلاً في

المدارس ، يقف منه الشباب على لون من التفكير الأوربي ، وكان لهذا أثره العميق في التفكير العربي والنتاج الادبي فيما بعد ، وسنعود إلى هـــذا الموضوع بشيء من التفصيل في مقدمة الجزء الثاني إن شاء الله .

(ب) المستشرقون :

ومن أهم العوامل في النهضة الادبيـــة الحديثة ، والاتصال بالفكر الاوربي – بجانب الترجمة – ما قام به المستشرقون من جهد في سبيل اللغة العربية وآدابها ، وبحث العقيدة الإسلامية ومذاهبها ، ونشر ما عفت عليه الدهور ، وأغفلته يد النسيان من كنوز اللغة العربية .

اتصل الغرب بالشرق بادىء الأمر حينما كان الشرق في عنفـــوان صولته ، وقمة مجده يغص بالمدارس الجامعـة ، ويزخر بالكتب الثمينة ، ويشمخ بعلمائـــه وفلاسفته ورياضييه ، وكانت أوربا لا تزال في سنة من النوم حينما فرغ الشرق أو كاد من يقظتـه الطويلة وجهاده العنيف في سبيل العلم والمدنية . ولما استيقظت أوربا قليلاً ، تلفتت فوجدت شعباً غريباً يعمر جزءاً خصباً من قارتها ، وقد احاله جنة فينانة ترف فيها العلوم والفنون والآداب ، فتطلع أهله إلى الأندلس منذ ذلك الحين ، يرمقونها بعيون دهشة ، وأفواه فاغرة ، وبودهم أن يعرفوا بعض مـا عليه أهلها من علم .

وطئت أقدام العرب كثيراً من أرض القارة الأوربيـــة ، وعبرت بعضها عبور المسافر أو المغامر أو التاجر ، ووقفت في بعضها وقفـة الفاتح القادر ، فعبروا فرنسا عبوراً سريعاً ، وامتد طوفانهم إلى أودية

(بوردو) ، وتألب عليهم أوشاب أوربا من فرنسيين وألمان وسواهم حتى انحسر طوفان العرب عن فرنسا غب معركة (بواتييه) أو بـلاط الشهداء . بيد أن مقامهم قد طال نوعاً ما في جنوب فرنسا من جهة البحر الأبيض المتوسط ، وتركوا ثمة آثاراً في صميم الحياة الفرنسية تدل على طول المكث والعشرة ولا سيما في مقاطعة (بروفانس) وقد امتد نفوذهم منها حتى سويسرا عبر جبال الألب .

وأقاموا بصقلية قرنين ونصف من الزمان ، وتركوا من المساجد والآثار في (بالرمو) ما يشهد بعزمهم وثروتهم وحضارتهم ، واحتلوا أكثر مرافىء إيطاليا خطراً ، واستولوا على كل جزر البحر المتوسط . وفي كل بلد يحلون به ينشرون لغتهم ودينهم وآدابهم وحضارتهم ، ولم يكن من السهل التخلص من ثقافتهم وآثارهم حتى بعد جلائهم عن بعض تلك البلاد والثغور . ولا أدل على ذلك من صقلية فقد ظلت العربية في بلاط ملوكها وعلى ألسنة أهلها بعد نزوحهم عنها بقرون . بلغ من سلطانهم أن ملوك صقلية تزيوا بزي العرب ، ورأس وزاراتهم وقـاد جيوشهم وأشرف على أمورهم عرب أقحاح ممن تخلف في الجزيرة بعد نزوح جمهرتهم . وهاك ابن جبير يقول في رحلته المشهورة حين زار صقلية سنة ١١٨٧ [١] في عهد الملك غليوم : « وشأن ملكهم هـذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين ... وهو كثير الثقة بهم وساكن إليهم في أحواله والمهم من أشغاله حتى إن الناظر في مطبخه رجل من المسلمين ، وعليهم قائد منهم .. ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية ، وشعاره على ما أعلمنا أحد المختصين به (الحمد لله ، حق حمده) » .

---

(١) نزح العرب عن صقليه ١٠٧٢ م .

ولا عجب فالعرب في ذياك الوقت قد بلغوا شأواً عظيماً من الحضارة ، وكان أهل أوربا في أشد الحاجة لمعونتهم وثقافتهم ، وهـــاك (دوزي) يؤكد بعد أن وقف بالدرس على كنه الحضارة العربية في الأندلس : « أنه لم يكن في كل الأندلس أميّ يوم لم يكن في كل أوربـــا من يعرف القراءة والكتابة إلا في الطبقة العليا من القساوسة » . وصارت جامعة طليطلة قبلة الطلاب من كل بقاع أوربا في القرن الثاني عشر حتى بعد أن تقلص ظل الملك العربي عن معظم بلاد الأندلس ، وبقيت العربية لغة للثقافة والمعاملات والعقود حتى سنة ١٥٨٠ ، وظلت بعض قرى بلنسية تتكلم العربيـة حتى القرن التاسع عشر . ولسنا الآن في صدد تبيان أثر العرب في الحضارة الأوربية وآدابها وغنائها وموسيقاها ، وبحسبك أن تعلم أن الفلسفة الإسلامية ظلت تدرس في جامعات أوربا حتى سنة ١٦٥٠ ، وأن أرسطو لم يكن يفهم إلا بشروح ابن رشد ، وأن طب ابن سينا كان غاية كل مشتغل بالطب في أوربا أمداً طويلاً ، وأن مئات الكلمات العربية التي تنبىء عن الحضارة والعلم قد دخلت اللغات الأوربية واستعجمت من مثل قيثارة وقطران وأميرال وشراب ، وزعفران ، وكافور ، وقرمز ، وصك ، ورزمة ، وإكثير وكيمياء ، وجبر ، وساقية ، وما شاكل ذلك . وهم الذين علموهم صناعـة الحرير والغلائل الموشاة ، وصناعـــة السلاح والخزف المـذهب ، والفسيفساء والبـــلور والورق والأصباغ والأدهان والمعادن ، وعلم الجبر والحساب بأرقامه [١] .

واتصـل الغرب مرة أخرى بالشرق ، إبان الحروب الصليبية التي شنها

---

(١) واجع : تراث الإسلام ، وراجع كذلك غزوات العرب في أوربا للأمير شكيب أرسلان وأثر الشرق في الغرب ترجمـة الدكتور فؤاد حسنين ، وكتابنا الفتوة عند العرب ، الفصل الخاص بالموازنة بين الفتوة العربية والفروسية الغربية .

متعصبة المسيحيين حينما أنسوا في عرب الاندلس ضعفاً ، وظلت نحو قرنين وطوفان جنود أوربا يتكسر على صفاة حماة الإسلام ، ويرتد ، ثم يعود أشد مما كان بأساً ، فتقابله صدمات تخفف من غلوائه ، وهكذا حتى خمد . ولكن خلف هذا الاتصال الطويل آثاراً بعيدة الغور في كل من المغاربة والمشارقة ، أما المغاربة فدهشوا من حضارة العرب في بلادهم ووجدوا أشياء كثيرة لا عهد لهم بها ، فقلدوا المشارقة في لبس الدروع الخفيفة المنسوجة وفي استخدام الموسيقى العسكرية ، واصطنعوا السيوف والرماح وأخذوا عنهم فن بناء الحصون وحفر الخنادق ، وإقامة الاستحكامات واستعملوا النار لنقل أخبارهم في الليل والحمام الزاجل بالنهار ، وأخذوا كثيراً من أصول الهندسة وتأثيث المنازل بالطنافس والنماذج والسجاد والاواني الخزفية وغيرها .

إن الفلسفة اليونانية التي يعتز بها الغرب ، وعليها بنى حضارته وثقافته ، إنما وصلت إليه عن طريق العرب ، فهم الذين حفظوها وشرحوها وعلقوا عليها وأضافوا إليها فلسفتهم وآراءهم فلما استيقظت أوربا وجدت الطريق ممهداً فسارت في المدنية بخطى واسعة

كان هذا استشراقاً غير منظم ، نشأ عن الاختلاط ولم ينتج عن الدرس ، أما الاهتمام بالعلوم العربية ودراستها فقديم يرجع إلى القرن العاشر الميلادي . واهتم ملوك أوربا بآداب العرب وعلومهم ، وأول من فعل ذلك فردريك الثاني ملك صقلية سنة ١٣٥٠ ، ثم ألفونس ملك قشتالة ، فقد جمع الأخير المترجين كما فعل المأمون من قبل ، وأمر بترجمة كتب العرب وكانوا ينقلونها إلى الأسبانية ثم إلى اللاتينية . وشاع خبر هذه التراجم فحاكاه كثير من ملوك أوربا . ومضت القرون الوسطى والثقافة العربية من طب وهندسة وفلسفة وجبر وحساب وكيمياء وصناعة

وأدب [1] هي عماد الثقافة الأوربية ، ولكن ما لبثت أوربا أن تخطت دور التعلم ، ومهرت في شتى أنواع العلوم ، وبنت على هذا القديم الذي نقلته ومحصته ودرسته دراسة عميقة علماً جديداً لا يزال في نمو واطراد ، وهو عماد الحضارة الغربية اليوم . ومع أن أثر العلوم والآداب العربية لا يجحد فإن هذا الأثر قد ضعف على مر الأيام [2] ، واستقلت العلوم

---

(١) بلغ ما ترجم من الكتب العربية في القرون الوسطى أكثر من ٣٠٠ كتاب منها ٩٠ في الفلسفة والطبيعيات ، و ٧٠ في الرياضيات ، والنجـــوم . و ٩٠ في الطب و ٤٠ في الفلك والكيمياء ،

(٢) لامراء في أن الأدب الأوربي قد تأثر بالأدب العربي خلال العصور الوسطى ، وظهر هذا الأثر في صور شتى ، فنرى الشعر الغربي يقتبس القافية من الشعر العربي بعد أن لم تكن معروفة في الشعر اليوناني أو اللاتيني Legacy of Islam p· 373 والطروبادور نوع من الشعر الغنائي الغزلي الرقيق ، وقد ظهر في جنوب أوربا في القرون الوسطى ، وهو يشبه إلى حد كبير في أوزانه وقوافيه ومعانيه وحرارته الشعر الغزلي العربي ، ولا سيما الغزل العذري وكلمة (طروب) عربية لا شك فيها والقصص العربية والخرافات والأمثال والنوادر كان لها أكبر الأثر في الأدب الأوربي حينذاك ؛ ومن أهم الكتب التي ترجمت كليلة ودمنة في القرن الثالث عشر ، وكان النواة التي نشأ من حولها أدب قصصي عن الحيوان والطير ، وإذا وازنت بين أشعار (لافونتين) وبين قصص كليلة ودمنة تجد الاقتباس واضحـــاً ، وقصص بوكاشيو (دي كاميرون) عليها طابع عربي ظاهر ، ولما ترجم ألف ليلة سنة ١٧٠٤ احتفى به الأدباء الأوربيون احتفاء شديدا ، واقتبسوا منـه ، ونسجوا على منواله . وظهرت قصص المغامرات من أمثال روبنصن كروزو لدانيل ديفو متأثرة بحي بن يقظان لابن الطفيل ، وظهرت قصص أوربية مشهورة فيها النفحة العربية والخيال الشرقي ، خـــذ مثلا (زاديج) لفولتير أو الكوميديا الإلهية لدانتي فإنك تلمس أثر رسالة الغفران قويا في الملحمة الإيطالية ، ولم يكن التشابه مجرد مصادفة ، بل الأمر أعمق من هذا . ومن أشهر الآثار التي تتسم بالطابع الشرقي العربي ديوان الشاعر العالمي (جيته) المسمى ديوان الشرق والغرب .

ومسرحية كورني (السيد) ومسرحية راسين (باجازيت أي بايزيد) من أثر هذا الاتصال الثقافي .

والآداب الأوربية ، وصارت مرجعاً ومعيناً ، وتراثاً شائعاً للإنسانية . ومع كل هـــذا فقد تجدد نشاط الغرب في الاستشراق خلال العصور الحديثة ، وظهر هذا النشاط في صور عدة :

الجمعيات الاسيوية :

وهي جمعيات أنشأها المستعمرون أول الأمر لدراسة شئون الدول التي يحكمونها ، وتعرّف لغاتهم وآدابهم ونفسياتهم ، حتى يكون حكمهم مبنياً على أسس متينة . ومن أقدم هذه الجمعيات تلك التي أنشئت في بتافيا عاصمة جاوا سنة ١٧٨١ ، ومن أشهرها الجمعية الأسيوية الملكية بلندن ، وقد أسست سنة ١٧٢٣ ، ونظيرتها الفرنسية ١٨٢٠ . ولكل من الجمعيتين مجلة مشهورة تعنى بالأبحاث الشرقية والإسلامية والعربية ، وتقوم أحياناً بطبع كتب لم تنشر من قبل أو إخراجها بتعليقات قيمة ، ومن ذلك نشر المجلة الأسيوية الإنجليزية لمقامات الحريري ، وترجمان الأشواق لابن عربي (ترجمها نيكلسون) . وقد اعتنى الفرنسيون بخاصة في مجلتهم بالمذاهب الإسلامية فبحثوا في الدروز والشيعة والإسماعيليـــة والوهابية والنصيرية وما شاكل ذلك .

وحذا كثير من الدول حـــذو إنجلترا وفرنسا في إنشاء الجمعيات الأسيوية فصار لأمريكا الجمعية الشرقية ، ولألمانيا الجمعية الأسيوية ، وفي إيطاليا والنمسا كذلك .

٢ – المؤتمرات :

ومن مظاهر نشاطهم المؤتمرات التي يعقدونها في إحـــدى مدنهـم

المشهورة ، ويؤمها المستشرقون من كل دولة ، ركثير من الأدباء والعلماء في الدول الشرقية ، وتلقى فيهـــا البحوث ويتناقش المؤتمرون في شتى المسائل ويطلعون على ما قام به كل من الخدمات في سبيل الاستشراق، وأول مؤتمر عقده المستشرقون هو مؤتمر باريس سنة ١٧٧٣ ، وتكررت بعد ذلك المؤتمرات حتى زادت عن العشرين ، وقد أخذت مصر في العصر الحديث تشترك في هذه المؤتمرات . ومن أول من اشتركوا فيها عبد الله فكري ، وحمزة فتح الله ، وحفني ناصف وأحمد شوقي الشاعر .

٣ ـ المكتبات :

ومن العجب أن كثيراً من نفائس الفكر العربي والإسلامي ليس في البلاد العربية ، وإنما اكتنزه الغربيون في مكاتبهم ، وقد جمعوا كثيراً من هذا التراث في خلال العصور الماضية ، وأيام محن المسلمين بالأندلس وصقلية وفرنسا وإيطاليا ، وأيام الحروب الصليبية ، وأيام أن دخلوا غزاة فاتحين ، أو تجاراً مستعمرين ، وحرصوا على اقتناء النسخ النادرة والكتب الثمينة ؛ حتى تجمع في هذه المكتبات مـــا يزيد على مائتين وخمسين ألف مجلد ، ومن أشهرها : مكتبة برلين ، وباريس ، ولندن ، وليبزيج ، ولَـيْـدن ، وأكسفورد ، وأدنبرة ، ولينتجراد ، ومدريد .

ولقد عز على كثير من أدباء العرب وعلمائهم أن يظل هـــذا التراث النفيس غريباً محتبساً في مكاتب أوربا ، فأخذوا منذ تنبهوا يغشون هذه المكتبات وينقلون بعض المخطوطات القيمة ، أو يصورونها . وقد اهتمت بذلك جامعة القاهرة ، ورصدت لهـــذا العمل الأموال وبعثت العلماء لهذه الغاية . وقد جدت الجامعة العربية في نقل كثير من هـــذه المخطوطات وتصويرها حتى تهيأ لها عدد غير يسير منها سيلقي ولا شك

كثيراً من الضوء على الحقائق العلمية والأدبية والتاريخية المتداولة .

على أننا لا زلنا نطمع في المزيد وأن تنقل كل هـذه الكتب وترد صورها على الاقل إلينا ، فنحن أولى بها من سوانا ، ولا سيما وقد نشأت بين ظهرانينا طائفة من العلماء المحققين الذين أجادوا إخراج هذه الكتب إخراجاً علمياً صحيحاً . ومن أشهر الذين اهتموا بهذا وجلبوا عشرات الكتب النادرة أو صورها المرحوم أحمد تيمور والمرحوم أحمد زكي .

٤ ـ معاهد اللغات الشرقية :

وفي العواصم الكبرى بأوربا مدارس للغات الشرقية ، يرد مناهلها طلاب أوربيون يدرسون اللغات كي يتمكنوا من العيش ببعض بلاد الشرق تجاراً أو موظفين أو سياحاً أو مستعمرين . كما يؤمها اليوم كثير من أبناء البلاد الشرقية والعربية ، يتزودون من علم كبـار المستشرقين ، ويأخذون عنهم طرق البحث ، والاستنباط . ومن أشهر هذه المعاهـد مدرسة اللغات الشرقية بلندن وباريس وبرلين . وكل مـدرسة تحوي مكتبة قيمة ، تعنى بدراسة اللهجات وتسجيل الأصوات ، ويـدرس بمدرسة اللغات الشرقية بلندن ما يزيد عن ثلاثين لغة .

٥ ـ أشهر المستشرقين المحدثين :

١ ــ دي ساسي الفرنسي توفي سنة ١٨٣٨ .

منشىء الجمعيـة الأسيوية الفرنسية ، وكان من أعظم المستشرقين وأصبرهم على الدرس . وخلف عدة آثار تشهد بفضله ، من ترجمة لكليلة

ودمنة ، ومقامات الحريري ، ورحلة عبد اللطيف البغدادي ، وألفية ابن مالك ، والبردة ، وكتاب النقود للمقريزي ، وكتاب الزاجل لابن الصباغ ، وترجم كثيراً من أشعار العرب كقصيدة الطغرائي : يا خالي البال ، وله مؤلَّف في تاريخ العرب أيام الجاهلية ، وآخر عن ديانة الدروز . وهو الذي أنشأ مع تلامذته المجلة الأسيوية Journal Asiatique .

٢ — كاترمير Quatremére ١٨٥٧ .

وهو من تلاميذ دي ساسي الفرنسيين ، ومن أعماله : نقل تاريخ المماليك للمقريزي ، وطبع مقدمة ابن خلدون في ستة أجزاء بالعربية والفرنسية ، ونشر منتخبات من أمثال الميداني متناً وترجمة ، وترجم المعلقات السبع . ومن أبحاثه المشهورة بالمجلة الأسيوية ما كتبه عن النبطيين والعباسيين ، وكتاب الأغاني ، والفاطميين ، وذوق الشرقيين ، وغير ذلك من الأبحاث المفيدة التي تدل على نشاط جم ، وصبر بليغ .

٣ — مونك Munk ١٨٦٧ .

وهو ألماني يهودي درس على ساسي ، وقدم مصر فجمع مخطوطات كثيرة منها تاريخ الهند للبيروني . ومن آثاره : تأثير اللغة العربية في اللغة العبرية بعد التوراة ، وبحث ونقد في ديانة الدروز ، ومجموعة في الفلسفة العربية واليهودية (وهو كتاب نفيس) .

٤ — دي برسفال De Perceval ١٨٧١ .

وهناك أب وابن بهذا الاسم ، وكلاهما اشتغل بالعلوم الشرقية ، وإنما نعني بهذا التاريخ الابن ، وقد قام برحلة إلى لبنان ومكث به ثلاث

سنوات ، وعين أستاذاً للعربية العامية في مدرسة اللغات الشرقية بباريس ، ثم للفصحى في معهد فرنسا : ومن آثاره : المعلقات السبع وباكورة تاريخ العرب في ثلاثة مجلدات ، وقد طبع مراراً .

٥ - رينان Renan .

وقد درس اللاهوت في أول نشأته ، وتعمق في اللغات الشرقية ، وقام برحلة في بلاد الشرق العربي . ومن مؤلفاته : تاريخ اللغات السامية في جزئين ، كتاب ابن رشد وقد علق عليه بقوله : « لولا ابن رشد لما فهمت فلسفة أرسطو » ، وتاريخ فينيقية ، وقد اشتهر بتعصبه الذميم ضد العرب والمسلمين ، وفي كتابه : تاريخ اللغات السامية ، مطاعن كثيرة على العقلية العربية سنرد على بعضها عما قليل .

٦ — دي فو De Vaux .

واشتهر بأبحاثه الرياضية والفلسفية ، ومن أحسن كتبه : مفكرو الإسلام في خمسة أجزاء ، وكتاب الفلسفة المشرقية ، وترجم قصيدة ابن سينا في النفس ، وترجم تائية ابن الفارض .

٧ — Massignon .

وهو من المستشرقين المعاصرين ، وكان عضواً بمجمع اللغة العربية بمصر ، ومن أكثر المستشرقين نشاطاً ، وأطولهم باعاً ، وقد كان استاذاً لتاريخ الفلسفة في الجامعة المصرية ، وتتلمذ أول أمره في الجزائر وتونس وفاس ، ورحل إلى العراق ، وجاب كثيراً من الأقطار العربية . ومن آثاره المهمة : أخبار الحلاج والصوفية ، والأمثال البغدادية

للطالقاني ، وكتاب مراكش في القرن السادس عشر ، وله بحوث طيبة في دائرة المعارف الإسلامية .

٨ ــ لفي بروفنسال Provençal .

وهو كذلك من المستشرقين الفرنسيين المعاصرين ، ولد بالجزائر سنة ١٨٩٤ ، وقد انتدب أستاذاً بجامعة القاهرة ، ومن أشهر آثاره : أسبانيا المسلمة في القرن العاشر والحضارة العربية في إسبانيا ، ووثائق غير منشورة عن تاريخ الموحدين ، وتقويم للسير الأندلسية في القرن الثالث عشر ، وقد عاون في طبعة الذخيرة لابن بسام من مطبوعات جامعة القاهرة .

أما المستشرقون الإنجليز فمن أشهرهم :

١ ــ كارليل توفي سنة ١٨٥٠ وهو صاحب كتاب الأبطال المشهور .

٢ ــ إدوارد لين Lane .

وقد قدم مصر سنة ١٨٢٥ ودرس عاداتها دراسة طيبة ، حتى لقبه أصدقاؤه بمصر بمنصور أفندي لكثرة تقليده المصريين في معيشتهم ومن أجل آثاره : معجمه المشهور سواء العربي أو الانجليزي ، ومعجمه العربي نموذج احتذاه من قام بعمل المعاجم بعده ، ومن آثاره كذلك : كتاب عن أخلاق المصريين وعاداتهم ، وهو تحفة جميلة ، وقد ترجمه أخيراً الأستاذ عدلي نور بالرسالة ثم نشر على حدة .

٣ ــ وليم رايت Wright ١٨٦٩.

ترجم رحلة ابن جبير ونقدها وعلق عليها ، ومن أشهر كتبه وأعمها

نفعاً : كتابه في النحو وقد طبع مرات . وله كتاب جيد في الموازنة بين اللغات السامية Grammer Comparative ، واشترك مع (دوزي) في إخراج نفح الطيب للمقّري ، ونشر كتاب الكامل للمبرّد ، وكتاب تلقيب القوافي لابن كيسان ، وكتاب أخبار الرواد ، وترجم كليلة ودمنة وهو صاحب أبحاث الادب السوري في دائرة المعارف البريطانية .

٤ – إدوارد بروان Browne توفي سنة ١٩٢٩ .

وكان أستاذاً بجامعة كمبردج للعربية والفارسية ، ومن آثاره : الطب عند العرب ، وتاريخ الادب الفارسي ، ونشر كتاب مذكرة الشعراء لدولتشاه ، وكتاب نهاية الارب في أخبار الفرس والعرب ، والصحافة والشعر في إيران الحديثة .

٥ – السير توماس أرنولد T. Arnold .

وهو أول أستاذ بمدرسة اللغات الشرقية بلندن ، ومن مؤلفاته العظيمة ذات الأثر الجليل كتابه : الدعوة إلى الإسلام، وقد ترجم إلى كثير من اللغات ، وقمنا بترجمته ونشر جزء كبير من هذه الترجمة بمجلة الرسالة سنة ١٩٣٩ ، ولكن حالت دون نشره عوامل مختلفة . وقد تمت ترجمته إلى العربية ونشر في هذه السنة على يد بعض الأساتذة . وفيه يظهر توماس أرنولد دون تحيز سر انتشار الإسلام وعظمته .

٦ – مرجوليوث : وقد اكتسب شهرة كبيرة في البلاد العربية ، ونشر معجم الأدباء لياقوت الحموي ، ونشوار المحاضرة ، وديوان ابن التعاويذي ، وحماسة البحتري وترجم فصولاً من التمدن الإسلامي لجورجي زيدان .

٧ – نيكلسون : وهو كذلك من أشهر المستشرقين وأبعدهم صيتاً ،

ولا سيما في أبحاثه عن التصوف الإسلامي ، وله في ذلك كتاب في ثماني مجلدات ، ونشر ترجمان الأشواق لابن عربي ، وترجم لابن الفارض في المجلة الأسيوية ، وفكرة الشخصية في الصوفية ، وله كتاب مشهور في تاريخ الأدب العربي ، وتوفي نيكلسون منذ أمد وجيز .

٨ – جب Gibb .

وهو من أشهر المستشرقين الإنجليز ، وقد درسنا عليه بمدرسة اللغات الشرقية بلندن وكان عضواً بمجمع اللغة العربية بمصر وله عناية فائقة بالأدب الحديث في مصر والشام نشرت في مجلة معهد اللغات الشرقية بلندن من سنة ١٩٢٧ – ١٩٣٠ . وله كتاب موجز عن تاريخ الأدب العربي ، ومن أحدث كتبه وأنفعها كتاب « الميول الحديثة في الإسلام » غير أنه شديد العناية بتركيا وتطورها ، وله أبحاث عن الفتوحات العربية في آسيا الوسطى وعلاقاتها ببلاد الصين ، وصار محرراً لدائرة المعارف الإسلامية ، وهو أستاذ بجامعة (هارفرد) بأمريكا ، وله خبرة واسعة ببلاد الشرق العربي .

أما المستشرقون الألمان فقد كان الحافز لهم على الاستشراق في مبدأ الامر الاشتغال بالمسائل الدينية وترجمة التوراة فاضطروا إلى دراسة العبرية ثم العربية . وبعد ذلك حفزتهم عوامل سياسية وتجارية إلى الاهتمام باللغات الشرقية ، وإن لم يتهيأ لهم أن يكونوا مستعمرين لهم أملاك واسعة وإمبراطوريات شرقية مترامية الأطراف كالفرنسيين والإنجليز ، ومع هذا فقد نبغ منهم عدد أفادوا الدراسات الشرقية والإسلامية فائدة لا تنكر ومن أشهرهم :

١ ـ فَيرَيْتاخ توفي سنة ١٨٦١ .

وتعلم على دي ساسي في باريس ، واشتغل بالتدريس في جامعة (بون) ،

ومن آثاره « ديوان الحماسة » لأبي تمام مع شرح التبريزي وبترجمة لاتينية ، وأمثال لقمان ، وأمثال العرب وأمثال الميداني بترجمة لاتينية ، وفاكهة الخلفاء لابن عربشاه ؛ وله معجم عربي لاتيني في أربعة أجزاء . وطبع « معجم البلدان » لياقوت مع فهارس قيمة وتذييل .

٢ – فلوجل توفي سنة ١٨٧٠ :

ومن آثاره : نشر كتاب « كشف الظنون » لحاجي خليفة مع ترجمة لاتينية في سبعة مجلدات ، ودراسة عن الكندي الفيلسوف العربي ، ونشر « كتاب التعريفات » للجرجاني وأتبعه بدراسة عن ابن عربي ومدارس العرب النحوية حتى القرن العاشر ، ونشر « الفهرس » لابن النديم كذلك .

٣ – فليشر توفي سنة ١٨٨٨ .

مؤسس الجمعية الشرقية الألمانية ، وقد نشرت هذه الجمعية كثيراً من الكتب القيمة مثل معجم البلدان تصحيح (وستنفلد) ، وشرح المفصل لابن يعيش تصحيح (يان) ، وكتاب الآثار الباقية للبيروني تصحيح (شيخو) .

ومن آثاره : ترجمة ألف ليلة وليلة في تسعة مجلدات ، وتفسير القرآن للبيضاوي وعجائب المخلوقات للقزويني .

٤ – وستنفلد سنة ١٨٩٩ .

ومن آثاره : مختلف القبائل ومؤتلفها لمحمد بن حبيب ، وتاريخ مكة للأزرق ، وأخبار قبط مصر للمقريزي ، وجغرافية مصر للقلقشندي ،

وتاريخ الخلفاء الفاطميين ، وتاريخ أطباء العرب ، وديوان علقمة الفحل ، وكتاب الاشتقاق لابن دريد ، ومعجم البلدان لياقوت في جزءين ، وآثار البلاد للقزويني ، وطبقات الحفاظ للذهبي ، وغير ذلك من الكتب القيمة وكلها تدل على نشاط وافر ، ورغبة صادقة في خدمة الأدب العربي والتاريخ الإسلامي .

نولدكه توفي سنة ١٩٣١ .

ومن آثاره قواعد اللغة العربية ، وتقارب اللهجات ، وتاريخ القرآن ، ودراسة من المعلقات ، وتاريخ عروة بن الورد ، وتاريخ الفرس والعرب ، والعرب في عهد الساسانيين وله مختارات شعرية من العصر الجاهلي والإسلامي الأول ، وجمعت مقالاته في مجلدين فبلغت خمسمائة مقالة .

ولم يقتصر الاستشراق على علماء هذه الدول ، بل نرى في معظم البلاد الاوربية وفي أمريكا مستشرقين لهم باع طويل في نشر الكتب وتصحيحها وترجمة بعضها إلى لغاتهم ، حتى ولو لم يكن لهم مطمع استعماري ، أو مقصد تجاري ، أو تبشيري ، ومن هؤلاء المستشرقين :

١ – كراتشوفسكي الروسي (١) (ولا يزال حياً) وقد عني عناية خاصة بالادب العربي الحديث ، وانتدب أستاذاً بجامعة القاهرة ، ومن آثاره التي يقال إنها لا تقل عن الثلاثمائة بين مصنف ومترجم ومفسر : الرواية التاريخية في الادب العربي المعاصر ، نشرت سنة ١٩١١ ، ونشر مخطوطتين

---

(١) راجع ترجمته بالتفصيل إذا شئت في كتاب (المستشرقون) لنجيب العقيقي ص ١٣٢ وما بعدها . وقد اعتمدنا في الكلام عن المستشرقين على هذا الكتاب ، وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان وتاريخ الآداب العربية للأب لويس شيخو وعلى صلاتنا ببعض هؤلاء المستشرقين ولا سيما المعاصرين منهم .

مجهولتين عن الجغرافية وعلم الفلك في الحبشة وأسبانيا المسلمة والمتنبي وأبي العلاء، وطبع كتاب البديع لابن المعتز بتفسير وتعليق ومقدمة في ثمانين صفحة .

٢ – دوزى الهولاندي توفي سنة ١٨٨٣ .

ولد بلَيْدن ، وهي من أشهر المدن اهتماما بنشر الكتب العربية ، ومن أشهر مؤلفاته : تاريخ الإسلام في إسبانيا في أربعة أجزاء ، بدأه بدرس القبائل العربية في العصر الجاهلي ثم عهد النبي عليه السلام ، ثم عصر الأمويين ، وتخلص إلى الأندلس فأرخها من سنة ٧١١ إلى ١١١٠ ، وله كتاب « كلام كتاب العرب في دولة العباديين » في ثلاثة أجزاء . ومن أجل آثاره ملحق للمعاجم العربية ذكر فيه الألفاظ التي لم ترد بها ويقع في جزءين ، ومما نشره تاريخ ابن زيان ، وتاريخ المعجب للمراكشي وجغرافية الأدريسي .

٣ – دي جويه De Goeje المتوفى سنة ١٩٠٩ وهو هولندي ، وقد اشتهر بنشر المؤلفات العربية الهامة بعد تصحيحها وضبطها ، فمما نشره فتوح البلدان للبلاذري ، وديوان مسلم بن الوليد ، والمكتبة الجغرافية العربية في ثمانية مجلدات، وتاريخ الطبري الكبير في خمسة عشر مجلداً مع فهارس قيمة ، وغريب الحديث لأبي عبد القاسم بن سلام (وهو أقدم المخطوطات العربية بأوربا بعد القرآن) ، ونشر كذلك رحلة ابن جبير ، والمسالك والممالك لابن حوقل ، وأحسن التقاسيم للمقدسي البشاري ، والأعلاق النفيسة لابن رسته ، وجزءاً من تجارب الأمم لابن مسكويه ، وجغرافية الأصطخري ورسالة حي بن يقظان ، والتمدن الإسلامي لجرجي زيدان ، وسيرة الرسول (عليه السلام) لابن هشام . . وعشرات الكتب والمخطوطات القيمة .

٤ – جولد زيهير المجري – وتوفي سنة ١٩٢٩ .

وهو يهودي تبحر في اللغة العربية ، والشريعة الإسلامية ، وله فيها أبحاث تدل على سعة اطلاع ، وطول باع ، ومن أشهر آثاره : العقيدة والشريعة في الإسلام وقد ترجم أخيراً إلى العربية ، وكتاب آداب الجدل عند الشيعة ، والفقه العربي ، والتقية في الإسلام ، ونشر كتاب المستظهري في الفضائح الباطنية وفضائح المستظهرية للغزالي ، وغير ذلك من الكتب التي تدل على اهتمامه بالعقائد والمذاهب .

هذا وقد اشتهر في كثير من الدول بعض أفراد من المستشرقين مثل : سانتلانا ، ونلينو ، وجويدي الكبير ، وجويدي الابن في إيطاليا [١] ، والبارون كريمر والدكتور مونر في النمسا ، وفنديك ، وماكدونالد وشارلز آدمس في أمريكا ، وكريمرسكي في بولندا وبول كراوس في تشيكوسلوفاكيا[٢] وبركلمن في ألمانيا ، وكتابه في تاريخ الأدب العربي من أهم المراجع المعتمدة ولا سيا تلك الملاحق التي يضيفها إليه في كل عام وقد قام بترجمته زميلنا المرحوم الدكتور عبد الحليم النجار .

---

(١) وكل هؤلاء المستشرقين كانت لهم صلات وثيقة بمصر ، وقد درسوا في جامعة القاهرة ، وفي الجامعة المصرية القديمة ، واشتهر سانتلانا بأبحاثه الفلسفية ، ونلينو بأبحاثه الفلكية والتصوف ، وجويدي الكبير بالأدب والتاريخ واللغة الحبشية والحميرية وجويدي الابن بأبحاثه في الأدب وفقه اللغة ، والعقائد والمذاهب الإسلامية .

(٢) انتدبته الجامعة المصرية للتدريس بها من ١٩٣٦ حتى انتحاره في سنة ١٩٤٤ واشتهر بأبحاثه عن الفرق الدينية وتراجم رجالها ، وقد اعترف له كثير من المستشرقين بالفضل والداب .

أثر المستشرقين :

تفرغ المستشرقون للبحث ، ومنحتهم أممهم المال والوقت ، وتحت أيديهم المكاتب العامرة بالأبحاث وبالمخطوطات النادرة ، وكلهم يعرف عدة لغات عربية وشرقيـــة ، فكان من الطبيعي أن تتسم آثارهم بسمات التحقيق والمثابرة والاطلاع والموازنة ومراجعـــة الأصول أو المخطوطات ووضع الفهارس وغير ذلك مما كان مفقوداً في الكتب العربية .

ولقد مهدوا السبيل أمـــام الباحثين بنشرهم المخطوطات الثمينة في طبعات أنيقة مصححة ، مزودة بتعليقات نفيسة ، وبفهارس تيسر الاطلاع وتجمع الأشخاص والأماكن ، والموضُوعات . واشتهروا بتحقيقاتهم اللغوية ، وبأبحاثهم في أصول اللغات ، وفقه اللغة ، والساميات ، وباكتشافاتهم الأثرية في بلاد العرب ، وقد غيرت هذه الاكتشافات كثيراً من نظريات التاريخ وحقائقه المتداولة . وامتازت أبحاثهم بحسن العرض ، وبالتدقيق العلمي ، وبالنظرات الشاملة . وأهم أثر للمستشرقين يتضح في الكتب العربيـــة التي ألفت على نمط كتبهم ، ولا يهولننك هذا ، فهم كما ذكرت لك قد أتقنوا طرق البحث في لغتهم ، وطبقوها على الدراسات الشرقية التي يضطلعون بهـــا ، وعندهم من الوقت والمـــال ما يمكنهم من حسن الإخراج وجمال الأداء .

إن الدراسات الأدبية وتاريخ الأدب بصورته التي نعرفهـا اليوم هي أثر من آثار المستشرقين وحسنة من حسناتهم ، ولا تعجب فالكتب العربية منذ طبقات الشعراء لابن سلام الجمحي وما أتى بعده من كتب التراجم كمعجم الأدباء لياقوت ، ووفيات الأعيان لابن خلكان لم تبحث في الأسباب والعلل والنتائج والبيئة والظواهر السياسية والاجتماعية ، وتفاعل الأديب

وعصره كما نرى اليوم في الدراسات الأدبية ، وإنما كان الأديب وحدة منفصلة لا تربطه بغيره روابط .

ومن الكتب التي ظهرت في هذه الحقبة التي نؤرخ لها (أي أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين) وتجلت فيها آثار المستشرقين وطريقة بحثهم بل وكثير من آرائهم وأحكامهم وأبحاثهم :

١ – كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ، وقد اعتمد فيه على بروكلمن الألماني في كتابه تاريخ الأدب العربي ، ولم يقف بروكلمن عند القرن التاسع عشر بل أصدر ملاحق عديدة يسجل فيها تطور الآداب العربية في عصرنا هذا ، وينقد معظم الأدب الذي تصدره المطبعة العربية ويتتبع الأديب منذ نشأته ، ويسجل تطورات أدبه .

٢ – كتاب الأب لويس شيخو في الادب العربي إبان القرن التاسع عشر والربع الأول من القرن العشرين ، وكتابه هذا محاولة أولية لمحاكاة المستشرقين في كتاباتهم ، وفيه كثير من طرق البحث القديمة ، ويمكنك أن تدرك الفرق بين ما يكتب اليوم وما كتبه الأب شيخو منذ ربع قرن .

٣ – وتاريخ أدب العرب لمصطفى صادق الرافعي ، وهو من الكتب التي تدل على غزارة علم وسعة اطلاع ، وبذل كثير من الجهد ، ولكنه لم يبلغ في بعض أحكامه وطريقة عرضه ما بلغته الأبحاث الأدبية بعد ، ويعد في الطليعة من الكتب التي ألفت على الطريقة الحديثة ، وقد وفق فيه مؤلفه لكثير من اللمحات والأحكام الصائبة . مع أن الرافعي لم يكن يعرف إلا القليل من اللغات الأجنبية .

٤ – وآداب اللغة العربية في العصر العباسي للشيخ أحمد الإسكندري .

٥ — وبلوغ الأرب في أحوال العرب للسيد محمود شكري الالوسي البغدادي [١] .

٦ — وعلم الادب لحفني ناصف .

٧ — والاشتقاق والتعريب لعبد القادر المغربي .

وكانت هذه الكتب بواكير الدراسات الادبية التي نحا فيها الكتاب العرب منحى المستشرقين وتأثروا بهم في منهج أبحاثهم . ولكن لم تر الجامعة المصرية القديمة ، ولا جامعة القاهرة عقب إنشائها غناء عن المستشرقين ، فأخذت تندبهم للقيام بالتدريس فيها ، ونشر طرقهم السديدة في البحث بين طلاب الأدب . ولقد ظهر هذا الأثر جلياً واضحاً في الأبحاث التي تلت ذلك . ولا زلنا سائرين في هذا الطريق ، نعتمد على أنفسنا مرة ، ونستأنس بآرائهم مرة ، والبحوث الادبية تكثر وتتنوع ويظهر عليها أثر التحقيق العلمي السليم .

ولعلك تسأل : أترى المستشرقين أعلم منا بلغاتنا وبأصول عقائدنا

---

(١) صاحب هذا الكتاب السيد محمود شكري الألوسي البغدادي ولد سنة ١٢٧٣ هـ ، ١٨٥٦ م ودرس على الطريقة الأزهرية الكتب اللغوية والدينية ، ولكن كتابه هذا يعد الآن كتاباً قوياً في مادته يدل على علم صاحبه وقدرته على التأليف ، وهو من المراجع القيمة في أحوال عرب الجاهلية ، وقد قدمه لمؤتمر المستشرقين في استوكهلم سنة ١٨٨٩ ، ونال به الجائزة الاولى من المؤتمر . وقد احتل كتابه هذا مكانته اللائقة به في عالم التأليف ، ولا يزال حتى اليوم حجة في موضعه . ينتفع به كثير من طلاب الأدب على الرغم من ان البيئة التي نشأ بها المؤلف كانت متأخرة . هذا وقد توفي السيد محمود شكري الالوسي سنة ١٣٤٢ هـ . ١٩٢٤ م ببغداد . وحسبه هذا الكتاب ذكرى طيبة وعملا صالحاً . راجع تاريخ حياته وبقية آثاره وأشعاره في أعلام العراق للسيد محمد بهجت الاثري .

وفرقنا الدينية ، وهل هم معصومون من التعصب والخطأ ؟!

في الحق إن كثيراً من المستشرقين على حظ كبير من العلم والمعرفة ، ولكن الامر الذي يهمنا نحن ليس العلم ، وإنما المنهج وطريقة الاستقراء والاستنباط والدرس وتكوين الحكم بعد الموازنات ، ومراجعة الاصول والمخطوطات وكل ما قيل حول الموضوع ، ولقد ذكرت لك آنفاً أن مكتبات أوربا تحوي مائتين وخمسين ألف كتاب عربي بين مخطوط ومطبوع ، وهذه الثروة الهائلة حرية أن تتيح لمن يعيش معها - وقد كفلت له أسباب البحث الاخرى - أن يتسع اطلاعه ويعمق نظره ، ويقرب حكمه من الصواب ، فلا بدع إذا كان بعض المستشرقين حجة في أبحاثهم التي تصدوا لها .

أجل ! إننا لا نبرىء كثيراً منهم من التعصب ، ولا سيما في المسائل التي تتعلق بالدين والعقيدة والجنس ، وهيهات أن يكتب أحد عن الإسلام أو عن العرب دون أن ينزع في كتابته إلى ما ينم عن تعصبه . وقليل منهم من استطاع أن يتجرد من عواطفه ونزعاته حين البحث مثل (السير توماس أرنولد) في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) .

أما عن الادب فلا داعي للتعصب اللهم الى ما أشاعوه عن أسطورة العقلية السامية والآرية حين كلامهم عن خلو الادب العربي من القصة ، وتعليلهم لهذا بذلك التعليل السخيف ، وهو عقم الخيال العربي وإجدابه [1] ، ولعلك لم تنس الضجة التي أثيرت حول كتاب (في الأدب

---

(١) ملخص القصة بكلمة في هذا الفصل باعتبارها لوناً من ألوان الادب لم يكن موجود لدى العرب .

الجاهلي) للدكتور طه حسين ، وما ثبت من أنـــه تأثر فيه برأي (مرجوليوث) - وأخذه آراء هذا المستشرق قضية لا جدال فيها - فأنكر فيما أنكر قصة إبراهيم وإسماعيل وشك مثله في معظم الشعر الجاهلي [١] وقَلَّ منهم من خلا من التعصب الديني أو الجنسي .

وللمستشرقين أخطاء كثيرة ، يرجع بعضها إلى جهـل بالمصطلحات العربية وعدم معرفة معانيها الصحيحة ، فتضللهم هـذه المصطلحات ، وتدعوهم إلى استنباطات فاسدة ، فكازانوفا مثلاً يترجم كلمة أمي بشعبي ، وكازميرسكي يترجم قول الله تعالى للملائكة . « اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى » باعبدوا آدم . وأحياناً يبالغون في التحليل والتعليل والتأويل ، ويحاولون أن يجدوا شيئاً لم يوجـــد قط ، فيضلون سواء السبيل ، فترى كازنوفا مثلاً عند بحثه في (إخوان الصفا) يقـع على نص في رسائلهم ، ويجتهد في أن يستنبط منه تاريخ تأليفهم الرسائل بطريقة مضحكة أبعدته عن الصواب كل البعد [٢] .

وعلى الرغم من كل هذا ، فأخطاؤهم العلمية قليلة ، وهي مغتفرة لهم إذا راعينا أنهم يبحثون في ديانات غيرهم ولغاتهم وآدابهم وأخلاقهم ، وأخطاؤنا نحن أكثر من أخطائهم وأشنع ، ولا نستطيـع أن نغمطهم حقهم ، وننكر أياديهم على الادب والابحاث الإسلامية واللغوية والاجتماعية ، ونشرهم مئات الكتب والمخطوطات الثمينة التي أتاحت لنا معرفة ما كان عليه أسلافنا حق المعرفة . إننا لا زلنا نتلقى عنهم الكثير ، وسوف

---

(١) راجع كتاب النقد التحليلي لكتاب في الادب الجاهلي تأليف الاستاذ محمد أحمد الغمراوي ، ومقدمة الامير شكيب أرسلان .

(٢) راجع (إخوان الصفا) لمؤلف هذا الكتاب ص ٦٨ وما بعدها .

نظل كذلك إلى أن يتاح لنا نقل صور صحيحة من المخطوطات النادرة الموجودة لديهم ، ونسخ الكتب القيمة التي تعوزنا في البحث ، وإلى أن يتفرغ منا العلماء للبحث الطويل الشاق دون مراعاة الزمان والجهاد كما يفعلون ، وحينئذ نستطيع أن نجاريهم في مضمارهم ، ولهم فضل السبق .

(ﺣ) أثر الاتصال بالأدب الاجنبي :

كان من الطبيعي أن يتأثر الشرق العربي ،ولا سيما مصر ولبنان بهذا الاتصال المباشر بالأدب الأجنبي ، ففي مصر يجثم الاحتلال الانجليزي على صدر الوادي الخصيب ، ويشتد نفوذ الأجانب من كل دولة ؛ يفدون أفواجاً ينشدون الغنى والسعادة في هذه البلد المضيافة والأرض البكر ، وتفرض اللغة الانجليزية على تلاميذ المدارس المصرية ، ويعمد الأدباء اللبنانيون والسوريون الذين يمموا صوب مصر هرباً بحرياتهم إلى الأدب الغربي ينقلون منه ألواناً شتى إلى اللغة العربية .

ولا أريد في هذه العجالة أن أتقصى أثر الفكر الغربي في العقل العربي والنتاج الأدبي فان هذا الامتزاج بين الثقافتين لم تظهر آثاره الحقيقية إلا بعد فترة طويلة من الحقبة التي نؤرخ لها ، حين شب جيل من الأدباء في هذه البيئة التي تلتقي فيها تعاليم محمد عبده وجمال الدين الأفغاني ووطنية عبدالله نديم ، وأدب حسين المرصفي والسيد بن علي المرصفي بقصص هوجو وفولتير وراسين وكورني وشكسبير وعشرات من قصاص فرنسا وإنجلترا وغيرهما . ولكن كانت السمة الغالبة على أخريات القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين هي ازدياد نفوذ الأدب

الأجنبي وإعجاب أبناء البلاد العربيــة به ، فتمنى الشعراء أن يجددوا في الشعر ، وأن ينسجوا على ممنوال شعراء الغرب ، بـل كان منهم من يود التحرر من قيود الشعر العربي ويأخـــذ بحرية الشعر الفرنجي ، فهتف حافظ بقوله .

آن يا شعر أن نفك قيوداً   قيدتنا بهـا دعـــاة المحال

فارفعوا هذه الكمائم عنـا   ودعونا نَشمّ ريـح الشمال

ويقصد بالشمال بلاد الغرب ، وإن عجز حافظ عن فك هـذه القيود ولم يستطع أن يخرج خروجاً تاماً على الصور القديمة مهما كانت روحـه التجديدية راغبة في ذلك[1] ، ولكن مما لا ريب فيـه أن كثيراً من المعاني الجديدة والصور الغربية والخيال الأوروبي قد ابتدأ يتسرب الى أفكار الشعراء وأخيلتهم ، وإن لم يظهر أثره إلا بعد مدة ، وفي جيل غير هذا الجيل الذي شهد زحف الآداب الغربيــة أول الأمر . وكم كان بودي أن أقف هنا وقفة طويلة لأبين هذا الأثر ، ولكن موعـــدنا به في الجزء التالي إن شاء الله .

أما النثر فقد كان التأثير فيه شديداً ؛ لانطلاقه وعـدم تقيده بقوالب وأوزان وقواف ، ولأن النثر الغربي المترجم كان الكثرة الغالبة ولا سيما القصة كما رأيت[2] . وهنا يجدر بنا أن نتأنى قليلاً ، فإن القصة قد صار

---

(١) الاسلام والتجديد للدكتور شارلس آدمس ص ٢٠٩ .

(٢) راجع في تأثر النثر العربي الحديث بالقصة الغربيه كتاب الدكتور إسماعيل أدهم عن (توفيق الحكيم الحائر) حلب ، سنة ١٩٣٩ .

لها في عالم الأدب العربي شأن كبير ، وكانت الحقبة التي نؤرخ لها هي حقبة الحضانة التي نمت فيها القصة ، وأخذت بعد ذلك تتفتح وتزدهر وتجري على الألسنة والأقلام . والقصة هي أكثر أنواع الأدب شيوعاً في الغرب ، بل إن الأدب الغربي يتسم بأنه أدب القصة ، وليس كذلك الادب العربي ، فلم كان هذا ؟ وهل ما يدعيه بعض النقاد الغربيين ، ويتبعهم في ذلك كثير من الكتاب العرب – من أن العقلية العربية مجدبة عقيمة الخيال ادعاء صحيح ؟؟. إن هذا الموضوع يتطلب منا كلمة موجزة قبل أن نفرغ من هذا الكتاب لان النثر – وهو كما قلنا قد تأثر بالادب الغربي أكثر من الشعر – قد صار له ثوبان يظهر فيهما : القصة والمقالة .

١ – القصة :

وموضوع القصة موضوع طويل وشائق ، فهناك تاريخ القصة ونشأتها في العالم ، وأنواع القصة من : خرافة ومثل ، وحكاية وأقصوصة ورواية ؛ ثم ألوان الرواية من : واقعية أو خيالية أو تاريخية أو نفسية الى آخر هذه الابحاث ، ثم هناك شروط القصة وكيفية بنائها وما يشترط في المقدمة والحوادث والعقدة والجو والحل ، وهل تخالف القصة القصيرة في تركيبها وإنشائها الرواية ؟ وبعد ذلك كله هناك القصص الاوروبي ، والقصص العربي ، وهل الادب العربي كما يزعم بعض الباحثين مجدب من لقصة ؛ كل هذه موضوعات كنا نود البحث فيها ، وإيفاءها حقها[١] ، ولكنها كما ترى طويلة وتحتاج الى كتاب خاص يتناول فيه القصص منذ

(١) راجع دراسات أدبية جـ ١ للمؤلف ، ففيه فصل ضاف عن أدب القصة .

نشأته الى اليوم ، ويتعرض للقصص العربي بالتفصيل مبتدئاً بالعصر الجاهلي والموازنة بين خرافات الجاهلية وأساطير اليونان والرومان ، ثم يتكلم على القصص في القرآن ، ثم القصص الإبداعي في العصر الاموي أي قصص الحب العذري ، ثم تأثر الادب العربي بالآداب الاجنبية ، ولا سيا الادب الفارسي وظهور كليلة ودمنة ، وقصص ابن عبدوس الجهشياري ، والصادح والباغم ، ثم ظهور المقامات ، وبعد ذلك كله ظهور ألف ليلة وليلة ومقدار ما به من فن ، ومنزلته في عالم الأدب ، ويتعرض الباحث في الأدب العربي حين يكتب في كل هذا للأثر العربي الخالص في هذه القصص ، وللتأثير الأجنبي فيها ، ليستخلص من كل ذلك حكماً على العقلية العربية . ولعلك قد رأيت من إثارة هذه الموضوعات أمامك أنها تحتاج إلى كتاب خاص ، يتكلم عنها بإسهاب ويوفيها حقها من البحث والتمحيص ، ولعل ذلك يكون قريباً .

أما الآن فإني أتعرض للقصة من ناحية واحدة ، دعاني إليها كثرة ما ترجم من أدب الغرب وقصصه في أخريات القرن التاسع عشر والقرن العشرين ، ودعوى الغربيين بأنها نتاج يصعب على العرب إخراج مثله ، إذ ينقصهم الخيال المبتكر والعقل الخالق .

يدعي هؤلاء أن السبب في فقدان القصة من الأدب العربي هي البيئة التي عاش فيها العرب دهوراً طويلة في صحرائهم الجدبة ، التي قلما يطرأ على بساطها تغيير ، فشمسها ضاحية وهواؤها راكد ، لا غابات فيها تشق أشجارُها أجواز الفضاء ، وتتلون أوراقها ألواناً مختلفة تبعاً لتغير فصول السنة ، ويشعر من يغشاها برهبة تملأ جوانحه ، وقشعريرة تسري في بدنه ولا كهوف فيها تتحدث عن شعوب اتخذتها مسكناً أمداً غير يسير ، ثم أبدعوا بعد أن تحضرت ، وخلفت فيها آثاراً لا تزال ناطقة ، ولا

سماء صاخبة متقلبة مزمجرة هادرة ، ولا جبال يكسوها الثلج فيخطف البصر ويظهر جبروت الطبيعة ، وإنما هي فضاء ممتد يسبح فيه النظر إلى مسير أيام وأيام دون أن يقف في سبيله ما يرده ، وهنا وهناك كثبان وتلال وجبال متجهمة الاديم ، عارية إلا من الصخر والرمل ، فلا بدع إذا جاء الخيال السامي صورة من هـــذه الصحراء . وعلى العكس من ذلك البيئة التي عاش فيها الآريون قبـل أن يدخلوا إلى أوربا ، وهي شمال بلاد الهند ، فإن الطبيعة فيها قاسية قسوة عارمـــة ، والمناظر متنوعة ، والغابات كثيفة دكناء والجو متقلب لا يستقر على حال فالرعود القاصفة ، والريح العاصفـــة والمطر الهطال والبروق الخاطفة والسحب تتراكم في السماء كأنها جيوش يدفع بعضها بعضاً . وقد بثت هذه الطبيعة في نفس الانسان الذي عاش في أحضانها شيئاً من الخشية والرعب وألهمته الاساطير والخرافات ، فكان ذلك بدء القصة ، وقـد اختزن العقل الأوربي من صور هذه الحياة الأولى شيئاً غير قليل ، وكان له بهـذا : الخيال المجنح ، والعقلية الخصبة ، والنظرة الفاحصة ، وهذه المواهب هي القصة .

فالقصة في نظرهم هي الصورة المثلى التي يتجلى فيها الخيال وتظهر العبقرية ، وخلو الأدب العربي منها فيما يزعمون دليل على ضعف العقلية العربيـة ، وقد جاراهم في هذا بعض أدبائنا غير مدركين ما في هـذه الدعوى من خداع وأخطاء . استمع إلى الأستاذ أحمد أمين وكيف يحمل من قلمه صدى لهذه الفكرة الخاطئة فيقول عن العربي : « إن خياله محـدود وغير متنوع ، وقلما يرسم له خياله عيشة خيراً من عيشته ، وحيـاة خيراً من حياته يسعى وراءها ، لذلك لم يعرف المثل الاعلى ، لانه وليد الخيال ، ولم يضع له في لغته لفظة واحدة دالة عليه ، ولم يشر إليه فيما نعرف من قوله ، وقلما يسبح خياله الشعري في عـــالم جديد

يشتق منه معنى جديداً ، ولكنه في دائرته الضيقة استطاع أن يذهب كل مذهب » ، ويقول في موضع آخر : « والمزاج العصبي يستتبع عادة الذكاء ، وفي الحق إن العربي ذكي يظهر ذكاؤه في لغته فكثيراً ما يعتمد على اللمحة الدالة ، والإشارة البعيدة ، كما يظهر في حضور بديهته ، فما هو إلا أن يُفجأ بالأمر فيفجؤك بالجواب الحسن ، ولكن ليس ذكاؤه من النوع الخالق المبتكر . فهو يقلب المعنى الواحد على أشكال متعددة فيبهرك تفنُّنه في القول أكثر مما يبهرك ابتكاره للمعنى وإن شئت فقل : إن لسانه أمهرُ من عقله » [1] .

هذا هو ما يقول الأستاذ أحمد أمين ، ويقول مثله توفيق الحكيم [2] وعباس العقاد في الفصول [3] ونسى الأستاذ أحمد أمين حين أنكر أن العرب عرفوا المثل الأعلى أو أشاروا إليه قوله تعالى: للذين لايؤمنون بالآخرة مثلُ السوْء ، ولله المثلُ الأعلى وهو العزيز الحكيم [4] ، وقوله تعالى : « وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده ، وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » [5] ، وأما أن المثل الأعلى

---

(١) راجع فجر الإسلام ص ٤٦ . ٤٧ .

(٢) في كتابه تحت شمس الفكر ص ٦٣ ٨٤ .

(٣) راجع كتاب : الفصول للعقاد وما نقله عنه Widmer في دراسته عن محمود تيمور القصاص المصري ص ١٥ . وانظر كذلك خليل مطران في المقتطف م ٨٢ ج إبريل ١٩٣٣ ص ٥٠٠ .

(٤) سورة ١٦ الآية ٦٢ :

(٥) سورة ٣٠ الآية ٢٦ .

كلمة واحدة أو كلمتان فهذا لا يقدم في القضية ولا يؤخر ، فلا الكلمة الواحدة تدل على عمق الخيال ولا الكلمتان تدلان على تقصيره ، وهذا الكلام – وللأسف – صدى لما يفتريه الشعوبيون على العرب ، وما يقدمونه للانتقاص منهم والغض من شأنهم قديماً وحديثاً .

ولنعد إلى القصة وإلى هذه الخرافة – خرافة العقلية السامية والعقلية الآرية . فالقصة الفنية لم تعرف في الادب الغربي إلى سنة ١٧٤٠ م حين ألف (رتشردسن) قصته (باملا) (١) ، وعدها النقاد قصة فنية بل عدوها القصة الاولى ، واشترطوا في القصة الجديرة بهذا الاسم شروطاً أهمها أن تكون واقعية ، وفرقوا بين القصة وبين الشعر في هذا الباب بقولهم : « الشّعر صوتٌ ينطق بما هو خارق للمألوف ، وبما هو أسمى من مجرى الحياة المعهود بالإحساس النادر الذي لا يلم بالإنسان إلا قبسات متباعدة ، فهو على الجملة يتحرك في مجال أعلى من مجال الحياة الواقعة . أما النثر فهو – على نقيض ذلك – أداة تعبر عن الحياة الجارية المألوفة الشائعة التي لا غرابة فيها ولا شذوذ ولا سمو .. ، ففي مقدور النثر أن يعبر عن كل هذه الاشياء تعبيراً أدق وأوفى مما يستطيع الشعر ... من هنا كان النثر أداة ملائمة للتعبير عن حوادث الحياة اليومية التي تجري على المؤلف ، ولا تكون عظيمة المغزى لما كانت القصة حكاية تزوى بالنثر وجهاً من أوجه النشاط والحركة في حياة الإنسان ، فخير لها إذاً أن تَقصُّ قصة عادية عن الانسان العادي الحقيقي كما تجري حياتُه في عالم الواقع المتكرر كل يوم » .

« الحكاية النثرية المثلى – أي القصة الجيدة – هي التي تستغل كل

(١) راجع Encyclopedia Britanica : Stori.

ما للنثر من قدرة على التعبير ، وقد علمت أن النثر من شأنه أن يعالج الواقعي المألوف ، وإذاً فروعة القصة وبراعتها أن تروي حكاية الحوادث المألوفة الواقعة الجارية ... ولا يمكن لقصة بمعناها الصحيح أن تنشأ إلا إذا اهتم الناس أولاً بأجزاء الحياة وتفصيلاتها اهتماماً يحول التافه إلى شيء ذي وزن وشأن ، وإلا إذا أخذوا يستمتعون بمطالعة أوجه الحياة المألوفة كما تقع كل يوم » .

« على أن القصة الفنية الصحيحة تختار بطلها رجلاً عادياً ممن أهملتهم صحائف التاريخ ووثائقه ؛ إذ ليست القصة بحاجة إلى الرجوع إلى الماضي لانتقاء أبطالها من بين أعلام التاريخ ، وأولى لها أن تقصد إلى تصوير هؤلاء الناس الذين نعيش بينهم . أضف إلى ذلك أن معرفة الدقائق التي أحاطت بحياة البطل التاريخي متعذرة أو مستحيلة »[1] هذه هي القصة في عرف النقاد تعنى بالوقائع وبالجزئيات وبالتفاصيل وتبعد عن الخيال كل البعد ، وإذا كان الأمر يحتاج إلى خيال وإلى مثل أعلى فالشعر هو وسيلة التعبير . وهذا الرأي الذي قررنا هو رأي المدرسة الواقعية في الأدب والتي ابتدأت تتجه نحو واقع الحياة منذ القرن الثامن عشر ، ولها اليوم السيطرة على الأدب الغربي كله . وقد فصلنا الكلام عن المذهب الواقعي في كتابنا (المسرحية) ، وأظنك أدركتَ الغرض الذي من أجله سقنا لك رأي نقاد الغرب في القصة لأن العرب إذا لم يبرزوا في هذه القصة بمعناها الفني عند الغربيين فذلك لسببين .

(ا) قوة الخيال عند العرب ، وسطوة ذلك الخيال ، فهو دائماً مجنح يسبح في عالم المثل العليا (لا كما يقول الأستاذ أحمد أمين) ، ويأبى أن

---

(١) راجع فنون الأدب تأليف تشارلتن وتعريب الدكتور زكي نجيب محمود من ص ١١٥ إلى ١٤٠ .

يعنى بالتوافه وبالحياة الواقعية وبالتفصيلات والجزئيات ، وبالرجل العادي الذي أهمله التاريخ ، والذي لا يأبه له الناس وإنما يعمد دائماً إلى ما هو أسمى من ذلك وأجل شأناً ، ولذلك كان الشعر أعلى صور البيان عند العرب ، ومفخرة أدبائهم .

ومن العجب أن يَرْجع الأستاذ توفيق الحكيم عن تعظيم شأن القصة ، ويفرق بين الأدب وبين القصة كالفرق بين المناطق العليا في الإنسان والمناطق الأخرى ، وإذا كانت القصة تصور الإنسان في حياته ، فإن الأدب يصور الفكر في حياة الإنسان ، فهو ليس مجرد شخصية تتحرك في محيط البيئة المادية من ريف أو حضر أو منزل أو مقهى أو مكان عمل مما درج القصاصون على تسميته بالحياة الواقعية ، ولكن الإنسان أيضاً فوق ذلك وأكثر من ذلك عقل يتحرك في عوالم فكرية مرتفعة ، وهو روح يسبح في ممان شعرية سامقة . فالعناية بحياة هذا الجزء الأعلى من الإنسان هو من اختصاص الأدب . ولكن انتشار القصة باعتبارها مطالعة سهلة قد دفع الكثيرين إلى اختصار الطريق ، والهرب من الجهد ، واتخاذ القصة مركباً هيناً ، لا يكلف أكثر من سرد حوادث محلية ، وحبك مواقف ، ووصف أشخاص ، ورسم مناظر من الحياة الجارية بأي أسلوب اتفق ، ليطلق على هذا العمل الزهيد بعدئذ اسم الأدب المبتكر والخلق الأصيل(١) » .

إذاً فالقضية على عكس ما يدعي الشعوبيون ، ومن انخدع بأقوالهم. ويؤيد قولنا هذا أن العربي لما اتصل قديماً بآداب الفرس والهند لم يعجبه منها إلا النوع الخيالي المجنح الذي ينطق الحيوان ، ويشخص الجماد ، ويحلق بعيداً عن مستوى الحياة الواقعية وأفعال الناس وأقوالهم ،

---

(١) من مقال للأستاذ توفيق الحكيم بجريدة أخبار اليوم بتاريخ ٢٨/٣/٨ ١٩٤ .

وقد أخذ العرب يحاكون هذا النوع من القصص حتى برعوا فيه ، وعد ابن النديم في الفهرست من كتب الأسمار والقصص التي ألفها العرب على نمط كليلة ودمنة والصادح والباغم لابن الهبارية مائة وأربعين كتاباً .

ولما ترجمت المجموعة الأولى من كتاب ألف ليلة وليلة ، كانت تحتوي ألف خرافة فارسية وتسمى (هازار إفسانه) غير فيها العرب وبدلوا ، وأضافوا إليها أشياء كثيرة حتى خرج من كل ذلك كتاب ألف ليلة وليلة ، وهو ما هو عند الغربيين في الخيال الغريب والتأليف العجيب ، والأجواء الساحرة ، والافتنان في تصوير الشخصيات وأنواع الملذات فصار مضرب المثل ، ومنبعاً ينهل منه كل من يريد أن يوصف بسعة الخيال وشروده وجموحه ؛ وقد أثر هذا الكتاب كثيراً في الأدب الغربي منذ ترجم إلى اليوم كما مر بك ، مع أن جمهرة أدباء العرب لا يعترفون بسمو أدبه ، ولا يقرون بعبقرية فنه ، بل يعدونه أدباً شعبياً يصلح للعامة في أسمارهم ، والنساء في أويقات سرورهن ، والأطفال في لهوهم وأحاديثهم . وفي العصر الحديث حين اتصل العرب بالأدب الغربي لم يرقهم منه إلا الأدب الإبداعي (الرومانطيقي)[١] الذي يصوّر الأبطال، ويغرب في الخيال ، ويترجم عن العواطف الجياشة . وظلوا حتى اليوم يعربونه ويحاكونه معرضين عن الأدب الواقعي إلا القليل ، مع أن الغربيين قد نفضوا أيديهم من هذا اللون الأدبي منذ مائة سنة ، وعمدوا إلى الأدب الواقعي التحليلي كي يعالجوا به مشكلاتهم الاجتماعية المعقدة . وقد حاولت مدرسة لطفي السيد الأدبية أن تدخل الأدب التحليلي الواقعي ، وظهرت لذلك آثار لم ترق بعد إلى المرتبة التي وصل إليها المنفلوطي أو الزيات في الأدب الرومانطيقي[٢] .

---

(١) راجع الدكتور إسماعيل أدهم في كتابه عن توفيق الحكيم الفنان الحائر ص ١٤ — ٢٥ .
(٢) المصدر نفسه .

كل هذا يدلنا على أنه ليس الخيال العربي ، وعـــدم عمقه هو الذى حال بين العرب وبـــين القصة الواقعية التي لا يعترف النقد الحديث في أوربا بسواها ، بل الخيال العربي المجنح وما به من عمق هو الذي ربأ بالعرب عن أن ينزلوا إلى هذا القصص الواقعي .

وثمة أمر آخر حال بين العرب وبـين هذا اللون من الأدب ، وهو أن الأدب الواقعي يعالج مشكلات اجتماعية وأخـــلاقية ، ويتخذه المفكرون والمصلحون الاجتماعيون مطيـــة لبث أفكارهم ، وعرض مقترحاتهم في المشكلات القائمة بمجتمعاتهم ، ويعرضون حـلولاً يعتقدون أنها تذلل هذه المشكلات ، وتنير لأولي الأمر السبيل حين يشرعون أو يطبقون القوانين ؛ ويعمدون أحياناً إلى المسرحية ويظهرون الشخصيات التى تمثل الناس في حياتهم المألوفة ، وأحياناً يلجأون إلى القصة الواقعية أو الأقصوصة ويدعون الشخصيات التي يصورونها تتحدث كما هي في الحيـاة من غير أن يظهر المؤلف عواطفه أو يبرز شخصيته ، حتى تكون قصته أقرب إلى الحقيقة وأدنى إلى الواقع . ولم يكن المجتمع الإســـلامي في العصر الذهبي للأدب العربي أيام العباسيين وأيام أن عرفوا شيئاً من القصص الفارسي وغيره بحاجة إلى من يحل له مشكلاته الاجتماعية والخلقيـة ، ويشرع له القوانين ويبين له كيف يطبقها ، فقد كان الشرع الإسلامي قائماً . وهو تشريع من عند الله يعتقد النـاس أنه الحق والعدل ، وأنهم في غنى عن سواه من القوانين ، وأن كل قضاياهم تحل على ضوئه ، لا يجوز لأحد أن يقترح تشريعاً مخالفاً أو حلاً لا يوافق الشرع ، ولذلك بطلت حاجتهم إلى مثل هذا القصص الواقعي الذي يصور الرجل العـادي في حياته المألوفة ويحل مشكلاته ومشكلات مجتمعه .

إن أسطورة العقل الآري وفضله على العقل السامي التي طالما رددها

أدباؤنا من غير أن يفطنوا إلى ما فيها من شعوبية كامنة ، ومن غير أن يتبينوا وجه الصواب بعد أن غشى عليهم الحقّ ما عليه الشعوب العربية من هوان وضعف ، فاعتقدوا باطلاً أن الحق مع القوة وأن العقلية الآرية لابد أن تكون متفوقة ما دام أصحاب هذه العقلية هم المسيطرين على شعوب الأرض . إن هذه الأسطورة تنم عن تعصب مكين في نفوس قائليها وعلى مغالطة ظاهرة ، فهذا (أرنست رينان) وهو من غلاة الشعوبيين وأشدهم قسوة على العرب ودينهم والساميين وعقليتهم ؛ يقرر ما أورده أحمد أمين ويحقر من العقلية السامية (١) ويقول : « يبدو أن التفكير الفلسفي للبحث عن (الحقيقة) كان وقفاً على الجنس المسمى بالهندي الأوربي أو الآري الذي يمتد من الهند إلى أقصى الغرب وإلى أقصى الشمال ، والذي كان يبحث منذ أقدم العصور إلى الآن في تفسير الله والإنسان والعالم تفسيراً عقلياً وقد ترك وراءه في كل مراحل تاريخه آثاراً فلسفية خاضعة لنواميس تطور منطقي . أما الساميون فإنهم بدون تفكير أو تدليل – أي بدون فلسفة – وصلوا إلى أصفى وأنقى صورة دينية عرفها التاريخ ... والساميون تنقصهم الدهشة التي تدعو إلى التساؤل والتفكير ؛ لأن اعتقادهم في قدرة الله يجعلهم لا يدهشون لشيء » .

ثم ينتقل إلى الخصائص الأدبية التي ميزت العرب بالشعر ووصمت غيرهم بالقصة فيقول : « والتوحيد أثر أيضاً في الشعر العربي ، لأن الشعر العربي يعوزه الاختلاف ، فموضوعات الشعر أي أغراضه محدودة ، قليلة العدد جداً عند الساميين ، والشعر العربي الذي تمثله القصيدة يعبر

---

(١) راجع Histoire Générale et Systéme Comparè, des Langues Sémitiques Par, Ernest Renan. P. 181

عن إحساس شخصي ، وعن حالة نفسية خاصة ، والأبطال في هذا الشعر نفس منشئيه ، وهذه الصفة الشخصية التي تجدها في الشعر العربي والشعر الإسرائيلي ترجع إلى خاصية أخرى من خصائص النفس السامية ، وهي انعدام المخيلة الخالقة ، ومن هنا لا نجد عنـــدهم أثراً للشعر القصصي أو التمثيلي [١] » .

ولقد أردت بهذا النص الذي سقته لك من (رينان) أن أبـــين التعصب الذميم الذي يوحي إلى هؤلاء الشعوبيين بمثل هذا الكـــلام ، فيسلبون أمماً قوية لها مجدها التاريخي والأدبي كل الفضائل العقلية — وهم في ذلك على باطل — ويتبعهم وللأسف فئة من أدبائنا . فيكونون حرباً على قومهم . ليس ثمة فرق — كما رأيت — بـين كلام (رينان) وكلام (أحمد امين) : إن رينان ينعى على العقلية السامية أنها لم يكن لهـــا (ميثولوجيا) أي خرافات دينية كما عند اليونان . وليس أبعث على الضحك من التنويه بعظم العقلية اليونانية وما رزقته من عبقرية لأنهـــا آمنت بالخرافات ، وألهت الأشخاص والأبطال ، والتمست الطريق إلى الحقيقة فضلت سواء السبيل . وأمعنت في الأساطير دون أن تصل إلى الله [٢] . لقد جعل هؤلاء الباطل حقـاً ، وأشادوا باليونان لأنهم أخفقوا

---

(١) ويقول رينان في موضع آخر . « الجنس السامي أدنى من الجنس الآري إذا قورن به، ذلك أن الجنس السامي ليست له هذه الروحانية التي عرفها الهنود والألمـــان . وليس للجنس السامي هذا الإحساس بالجمال الذي بلغ حد الكمال عن اليونان، وليست له هذه الحساسية الرقيقة العميقة التي هي الصفة الغالبة عند الكتلتين (سكان فرنسا وبعض البلجيك) وإنما يختص الساميون بالبديهة الحاضرة ، ولكنها بديهة محدودة. وهم يفهمون الوحدة بشكل غريب، فالتوحيد هو أهم خصائصهم ، وهو الذي يلخص ويفسر جميع صفاتهم ، ففخر الساميين في كونهم أول من عرف التوحيد، وعنهم أخذ العالم الديانات ، والصحراء هي ملهمة الوحدانية لمنظرها الواحد المتشابه» .

(٢) راجع في أسباب تعدد الآلهة عند اليونان القدماء :

The Martyrdom of Man by. Winwood Read, p. 1

في الاهتداء إلى وحدانية الله التي آمن العالم بها فيما بعد على يد موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام والتي آمنت بها أوروبا الآرية ، وكفرت بآلهة (الأولمب) وميثولوجيا اليونان .

ولعلك تعجب إذا قررنا لك أن المدنية الأوربية الحديثة بنظمها الاجتماعية والسياسية ، والاقتصادية وحياتها العلمية هي من أثر العقلية السامية قديماً حين تتلمذوا على العرب وشروحهم للفلسفة اليونانية والطب والكيمياء والجبر والهندسة وغيرها . وحديثاً ممثلة في بني إسرائيل الذين نزحوا إليها من مئات السنين بعد أن عاشوا طويلاً في الصحراء ، ولو كانت البيئة الصحراوية لا تنتج إلا عقولاً مجدبة وخيالات ضحلة ، وفكراً غير قادر على الخلق والابتكار ، ونفساً لا تعرف الفلسفة ولا تقدرها لظل اليهود كذلك في رحلتهم الدائمة بأوربا مهما تغيرت بهم البلاد والبيئات . ولكنا نرى الأوربيين في كثير من الأحيان يعترفون للتوراة بالفضل ، وللشعب الإسرائيلي وليد الصحراء بالعبقرية والنبوغ ، والعقلية السامية متكافئة في اقتدارها وعالميتها ، واللغة العربية والعبرية توأمتان نشأتا من أصل واحد . وهذا (رينان) يقول : « ليس في ماضي النوع الإنساني ما يثير اهتمام الفكر الفلسفي سوى تاريخ ثلاثة شعوب : تاريخ إسرائيل ، والتاريخ الأغريقي ، والتاريخ الروماني ! »

وما بالنا نقص عليك أقوال الأوروبيين ، ولا نسوق لك الأمثلة الحية الصادقة على أن اليهود هم الذين أسسوا الحضارة الأوربية الحديثة ، وهم قادة الفكر فيها حتى اليوم ، على الرغم من أنهم قلة مضطهدة .

إن الفلسفة في المانيا ابتدأت في القرن السابع عشر حين ظهر فيها الفيلسوف

اليهودي باروخ (سبونزا) [١] في أمستردام ، بعد أن درس ما جاء بـه فلاسفة قومه من أمثال ابن ميمون ، وابن عزرا ، وفلسفة ابن جبريل الصوفية ، وموسى القرطبي وغيرهم من فلاسفـة اليهود بالأندلس . وهو الذي يقول فيه هيجـل الفيلسوف الألمـاني : « لن تكون فيلسوفاً إلا درست سبونزا أولاً » [٢] .

وكما بدأ سبونزا الفلسفة الحديثة في ألمانيا ، وبنى على نظرياتـه أو حاول الرد عليها من أتى بعده من فلاسفة الألمان أمثـال (كانت ، وهيجِـل ، وشوبنهَوَر ، ونيتشه) فإن كارل ماركس ١٨١٨ ، وماكس نوردو ١٨٤٩ اليهوديين قد توجا هذه الفلسفة النظرية التي ابتدأت تؤتي ثمرها في القرن العشرين ، فهيجـل الألماني ، وكارل ماركس اليهودي — واضع كتاب رأس المال ومنشيء أول جمعية شيوعية ثورية ، ومؤسس جماعة العمل الدولية ، ومؤلف المتن الاشتراكي في السياسة الاقتصادية — قد بعثا الشيوعية . وفي كارل ماركس اليهودي يقول برنارد شو الفيلسوف الإنجليزي المعاصر : « لا يُدعى نبيُّ الشيوعية عيسى أو محمداً أو لوثر أو أغسطين ، ولكنه يسمى كارل ماركس . وتبتدىء فلسفتهم بالفيلسوف الالماني هيجل ، وفيورباخ ، ويتوجها كتاب كارل ماركس : رأس المال ، وهو توراة الطبقة العاملة وإنجيلها ، ويصفونه بأنه مُلهَمٌ ومعصوم ، ومحيط بكل شيء خُبرا » [٣]

---

(١) سبونزا Spinoza ١٦٣٢ م - ١٦٧٧ ولد من أسرة برتغالية يهودية هاجرت إلى هولندا بسبب الاضطهاد الديني الذي لقيه اليهود بعد أن رحل العرب عنها ، ومات سبونزا في سن الأربعين بعد أن لاقى في سبيل فلسفته عنـاء كبيراً . راجع قصة الفلسفة الحديثة ج ١ ص ١٢٨ .

(٢) قصة الفلسفة الحديثة ج ١ ص ١٢٨ .

(٣) راجع The Intelligent Woman's Guide To Socialism, Sovietism And Fascism. dy G. B. Shaw. p. 314 In Pelican Books .

ولم يتجرد كارل ماركس ـ الذي اعتنقت روسيا بأسرها وعشرات الملايين في العالم تعاليمه ... من يهوديته . فقد كان عضواً بالجمعية اليهودية بباريس . وأما نوردو صاحب كتاب (الانحلال) فكان في بودابست من أكبر أعوان (تيودر هرتزل) مؤسس الحركة الصهيونية في أواخر القرن التاسع عشر ، وواضع خطة إنشاء الدولة اليهودية بفلسطين .

وإذا أردنا أن نعد فلاسفة اليهود ومفكريهم الذين أثروا في الحركة الفكرية بأوربا أعجزنا الحصر ، ولكن لا ننسى (فرويد) واضع فكرة التحاليل النفسية ، وصاحب نظرية العقل الباطن ، وناهيك بها لها اليوم من مكانة في عـــالم الفكر ، ولا ننسى (برجـون) اليهودي الفرنسي شيخ الفلسفة الحديثة وصاحب نظرية مقاومة المادية في أوربا [1]. وبرنارد شو أشهر الفلاسفة المعاصرين. مدين بفلسفته وآرائه لأستاذه اليهودي (صمويل بتلر) صاحب المبـادىء العائلية الثورية ، التي نادى فيها بإعطاء أفراد الأسرة من : الأم والفتيات والغلمان حق التصرف حسب أهوائهم على الرغم من إرادة الأبوين .

و (أينشتين) صاحب نظرية النسبية ، وأكبر علمـاء العصر الحديث يهودي قح ، و (توماس مان) و (أميل لودفج) الكاتبان الألمانيان . المشهوران من نبغاء اليهود في العصر الحاضر .

إن جامعات اوربا تغص بالاساتذة الإسرائيليين ، ويسيطر اليهود على شئون المال والاقتصاد والطب وصناعة الأفـــلام وإخراجها ، والصحافة بأنواعها ؛ حتى لاتخلو صحيفة في أوربا وأمريكا من نفوذ يهـودي إما في رأس المال أو التحرير . وهكذا يستولي اليهود اليوم وقبل الحرب

---

(١) قصة الفلسفة الحديثة .

الأخيرة ، وفي القرن الماضي على عقلية الشعوب الأوربيــة فيقرأون ما يريد اليهود ، ويشاهدون في الخيالة ما يخرج اليهود . وهذا هو السر في ان هذه الفئة القليلة من الناس هي التي تتحكم في سياسة أوربا وأمريكا ، وتخضعها لمشيئتها ، وهـــذا هو السر في انتصار أوربا لهم في القضية الفلسطينية ، وذلك لشدة سيطرتهم على الرأي العام الأوربي والأمريكي على السواء .

فهل بعد ذلك يفخر الجنس الآري بالخلـــق والابتكار وهو خاضع لسيطرة أدنى العنصرين الساميين ؟ لو كانت المسألة ترجـــع إلى البيئة الأولى التي خرج منها الجنس السامي ما كان لهؤلاء اليهود شأن يذكر في قيادة الفكر الأوربي ، وقيــادة الشعوب الغربية وإخضاعها لسلطانها ، على الرغم من قلة عددهم وهوان أمرهم [1] .

وأما المثل الأعلى الذي يدعي الشعوبيون أنه مفقود عند العـــرب فحسبنا أن نقول في الرد على دعواهم : إن الحياة العربية في الجـاهلية كانت مليئة بأمثلة الوفاء والكرم والشجاعة ، كانت الفضائل والذكر الحسن هي الغاية التي يصبو إليها كثير من أبناء الصحراء ، وكلها مثل عليا لو سارت عليها الإنسانية لسعدت [2] ، ولقد برهنت لك على أن الكلمة موجودة في اللغة العربية وفي القرآن الكريم الذي نزل على عرب

---

(١) لامني بعض الأصدقاء عند ظهور الطبعة الأولى من هـذا الكتاب على كتابة هذا الفصل عن اليهود وإظهار سلطانهم الفكري على أوربا ، ولقد سقت هذه الأمثلة كما يرى القارىء لدحض تلك الفرية - فرية السامية - التي يتغنى بها الأوربيون المتعصبون .

وإذا كان اليهود علماء ومفكرين فهذا لا يمنع أنهم من أردأ شعوب الأرض أخلاقاً ، ولطالما حملت عليهم حملات شعواء على صفحات مجلة الرسالة في سنوات عديدة .

(٢) راجع كتابنا (الفتوة عند العرب) وقد اوفينا هذا الموضوع بحثاً ثمة .

الجاهلية ، ولو لم يعرف العرب هذه الكلمة ويفهموا مدلولها ما نزل بها القرآن الكريم . على أن الغرب لا يعرف في لغة من لغاته كلمات كثيرة تملأ الحياة العربية ، وتفخر بها الإنسانية فكلمات (العِرْض) و (المروءة) و (النجدة) ليس لها ما يقابلها في الأعجمية .

وإذا عدنا إلى النــاحية الأدبية وجدنا الشعر العربي — وهو مفخرة العرب ومجتلى بيانهم — تكثر فيه ألوان الحكمة مصوغة صياغة متقنة ، وما الحكمة إلا حقيقة مجردة تدل على تفهم لأسرار الوجود ، وعلى الخيال الشامل الذي ينتظم طبــائع البشر وأحوالهم ، ويصدر عليهم حكماً يصلح لكل زمان ومكان ، وينطبق على كثير منهم مهما اختلفت عصورهم وبيئاتهم .

وبعد فلنسأل سؤالاً آخر وهو : أحقــاً توجد فوارق عقلية أصلية بين الشعوب ، يمتاز أحدها بالذكاء الغالب ، والعقلية الخالقة ، والخيال المبتكر ، وتسلب الطبيعة أحدها فهو قَدْمٌ في جملته بطيء التفكير ، ليس له قدرة على الخلق والابتكار وإن أجاد التقليد ؟؟. وإذا وُجِدت الفروق العقلية بين الشعوب كما يدعي المتعصبون لأجناسهم ، المنساقون وراء عواطفهم ، فهل هذه صفات لازمة للشعب لا تتغير بتغــير البيئة والزمان ؟ وعلى أي أساس وجدت هذه الفروق العقلية ؟ أهي نتيجة للبيئة الطبيعية أم البيئة الاجتماعية ؟

يقول سِرسِرِل برْت C. Burt في كتابه كيف يعمل العقل [1] : إن هذه التعليمات التي تشغف بها بعض الجهات لتفضيل ما يسمونه الأجناس الآرية على السامية ، والشعوب البيضاء على الصفراء والسوداء لا يمكن الأخذ

(١) الجزء الثاني ترجمة الأستاذ محمد خلف الله ص ١٦٥ .

بها على علاتها . حقيقة إن ذكاء الزنجي المتوسط في الاختبارات التي طبقت إلى الآن لا يبلغ إلا تسعة أعشار المتوسط من الشعوب البيضاء ولكن الصينيين واليابانيين لا يقلون عن مستوى الغرب . وقد قام اثنان من طلبتي باختبارات أثبتا بها أن ذكاء اليهود أعلى من ذكاء غيرهم ... ونتائج بعض الباحثين في الولايات المتحدة تؤيد هذا ... على أن هذه الفروق بين الأجناس مهما تميزت وتحددت فإنها ليست قط على درجة من العظم ، فما لاحظناه قبل بين الذكور والإناث ينطبق هنا أيضاً على الأجناس المختلفة . فالفروق الواسعة في الذكاء بين الأفراد المنتمين إلى شعب واحد أوسع وأبعد مدى من الفروق بين شعب وآخر فإذا أردنا فروقاً بيّنة بين قوم وآخرين فلنبحث عنها في الطبع أو المزاج ؛ وهنا لا نجد مقاييس علمية نستعين بها ، ولكننا نعتمد على الملاحظة ، وما تكونه من فكرة عامة وهما دليلان غير مأمونين » .

ويقول بعد استعراض أجناس أوربا المختلفة ، وما بينها من خلافات في شكل الجمجمة وتركيب الأجسام ولون الشعر والعيون ، وما يوصف به رجل الشمال من أنه مخلوق عملي ، ورجل وسط أوربا بميله إلى الحقيقة ، ورجل الجنوب بميله إلى الجمال : « ولكن العالم المدقق لايكاد يسمع مثل هذه الدعاوى العريضة حتى يبدو عليه القلق والحذر ، فإن حقائق الطبيعة الإنسانية قلما تخضع لمثل هذا التقسيم الحاد[١] » .

وبعد دحض هذه الآراء المبنية على التعصب الجنسي والفخر الكاذب كدعوى الألمان أنهم « من الشعوب الآرية أنبل الناس جميعاً » قال : « والآن أظن أن النقطة التي نستطيع التسليم بها هي أنه لا الجنس وحده ، ولا البيئة الجغرافية وحدها بمستطيعة تعليل التفاوت البيّن بين

---

(١) كيف يعمل العقل جـ٢ ص١٦٧ . وراجع بحثاً لنا في مجلة (نهضة أفريقية) ١٤ فبراير ١٩٥٩ عن الفروق العقلية بين الأجناس .

المدنيات المتعاقبة [1] » .

لقد أقر من طعنوا في الاجناس السامية وانتقصوا عقليتهم بذكاء هذه الاجناس فـ (رينان) يقر للعربي بالذكاء وحضور البديهة كما مر بك ، وأحمد أمين يعلل لهذا الذكاء بأن العربي عصبي المزاج ، « والمزاج العصبي يستتبع عادة ذكاء ، وفي الحق أن العربي ذكي يظهره ذكاؤه في لغته ، فكثيراً ما يعتمد على اللمحة الدالة والإشارة البعيدة كما يظهر في حضور بديهته [2] » وقد رأيت منذ لحظة ما أثبتته اختبارات (برت) وتلاميذه من ذكاء اليهود وتفوقهم في ذكائهم .

« والذكاء العظيم هو الركن الأساسي في النبوغ في أي ميدان من ميادينه ، وليس من الضروري أن نفترض أن موهبة الخلق الأدبي ، أو الاستمتاع بالأدب يتوقف على ملكة أخرى خارقة أو خارجة عن حياته العادية » . هذه هي النتيجة التي وصل إليها وارتضاها (برت) في بحثه لطرائق سلوك العقل في الفن فقال : « كل هذه النواحي من البحث أدت إلى نتيجة واحدة ، فالفنان — من حيث موهبته الخاصة رجل مزود بهبات نادرة ، غير أن الفرق في الدرجة لا في النوع ، فالمقدرة على خلق العمل الفني — كالمقدرة على تذوقه — لا تتوقف على ملكة إضافية خارجة عن مجرى حياتنا اليومية ، وهي فى درجاتها العليا ليست إلا إحدى ثمرات الحياة العقلية الطبيعية [3] » .

فإذا تقرر أن الاجناس السامية على نصيب كبير من الذكاء ، وأ

---

(١) نفسها راجع ص ١٨٠ .

(٢) فجر الإسلام ص ٤٤ طبعة ثانية .

(٣) راجع (من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده) للأستاذ محمد خلف الله ص ٣ -

الذكاء العظيم أساس النبوغ في أي ميدان من ميادينه ، وأن موهبة الخلق الأدبي لا تتوقف على ملكة أخرى خارقة ، فالعربي بفطرته ومواهبه مهيأ للخلق الأدبي وللنبوغ ، وليس من الضروري أن يكون النبوغ هو ذلك القصص شعراً أو نثراً – وقد عرفت منزلة القصص وأي لون من ألوان الأدب هو ، وأدركت أن القصة لا تتطلب خيالاً جامحاً محلقاً عميقاً ، وأن العرب صدفوا عنها لما وُهبوا من خيال واسع ، ولأن دينهم أغناهم عن النظر في حلول المشكلات الاجتماعية التي تُعنى بها القصه – وقد مهر العربي في ألوان أخرى من الأدب ، بل في أعلى أنواع التعبير وأسماها وهو الشعر . وليست القصة إلا أحد مظاهر الخيال لا الخيال كله ، « فالفخر والحماسة والغزل والوصف والتشبيه والمجاز كل هذا ونحوه مظهر من مظاهر الخيال[1] » . والخيال كما نعلم هو وضع الأشياء في علاقات جديدة . وهو نوعان تفسيري وابتكاري ويتمثل التفسيري في تلك الصيغ البيانية العديدة ، أما الابتكاري فيتمثل في خلق أشياء ومناظر وشخصيات ليس لها وجود . وكلا النوعين يغص به الأدب العربي على طريقته الخاصة . وقد أفضت في بيان ذلك في غير هذا الكتاب[2] . ومع ذلك فالشعر العربي في كل عصوره مليء بالقصص المحبوكة المعقدة الرائعة الخيال[3] ولا يمنع أنه من الشعر الوجداني فقد

---

(١) فجر الإسلام ص ٤٣ .

(٢) راجع كتابنا الفتوة عند العرب .

(٣) خذ مثلا قصيدة الحطيئة التي مطلعها .

وطاوي ثلاث عاصب البطن مرمل   ببيداء لم يعرف بها ساكن رسما

وقصيدة زهير في الصيد : (وغيث من الوسمي حول تلاعه) وقصيدة أمريء القيس ويومه بدارة جلجل . ومعلقة عمرو بن كلثوم ، ومعظم شعر ابن أبي ربيعة ولا سيما قصيدته الرائية (أمن آل نعم أنت غاد فمبكر) ، وقصيدة البحتري في الذئب كلها من الشعر القصصي .

مرت بأوربا فترة ساد فيها الشعر الوجداني ولا تزال له السيطرة وبطل عهد الملاحم والمسرحيات الشعرية .

ثم هناك سؤال آخر علينا أن نسأله قبل أن ندع الكلام في هـذا الموضوع ، وهو : أحقاً تبتدىء الحضارة الإنسانية بعلوم اليونان وثقافتهم، لم يسبقهم في ذلك سابق ، وأن هذه الديانات والميثولوجيـا والقوانين والفلسفة هي كلها من ابتكار اليونان وحدهم وبذلك احتلوا هذه المكانة السامية في التاريخ ، وبهم تميزت الشعوب الاوربية وفاقت غيرها ؟

كثير من الناس الذين لم يبحثوا الموضوع أو بحثوه بحثـاً سطحياً يقولون في غير تردد : أجل ! هذه المدنية والثقافة والفلسفة التي رويت عن اليونان هي من ابتكارهم ، والإنسانية مدينة لهم بالشيء الكثير في هذا المضمار .

ولكن هناك من شك في ذلك ، بل هناك من أثبت بأدلة يقينية أن اليونان في دياناتهم ، وآلهتهم ، وأسماء بعض هذه الآلهة وما تتطلبه الديانة من طقوس ، ثم في قوانينهم ، وفي آدابهم تتلمذوا على المصريين القدماء وأخذوا عنهم ، وأثبت أن هوميروس في الإلياذة اقتبس كثيراً من القصص المصرية بأشخاصها وخيالاتها وأجوائها . بل أخذ قصصاً مصرية معينة وأدخلها في ملحمته ، وليس هؤلاء العلماء الذين قاموا بهذه الابحاث من المتجنين على اليونان أو المبغضين لهم ، بل على العكس هم من المعجبين بهم والمعنيين ببحث آثارهم وترجمتها إلى لغاتهم وشرحها والتعليق عليها ، ولكن اطلعوا على أشعار مصرية ، وآثار قديمـة ، وقرأوا هيردوت المؤرخ اليوناني المشهور ، ووازنوا بين نصوص الإلياذة ، وهذة النصوص المصرية التي عثروا عليها فوجدوا التشابه بل التطابق .

ومن هولاء العلماء فيكتور بيرار Victor Berard الفرنسي مترجم الإلياذة وشارحها ، ثم جولنيشيف M. w. Golénicheff الروسي أحد علماء المصرولوجيا . وقد أثبت عبد القادر حمزة باشا [١] النصوص المصرية القديمة التي عثر عليها هذان العالمان ، والتي لها مشابه في الإليـاذة ، كما أورد الادلة القاطعة التي لا يأتيها الشك على تلمذة اليونان للمصريين ، وَمن من علمائهم ومشرعيهم وأدبائهم ومؤرخيهم أتى مصر وتـأثر بما فيها من علوم ومعارف ودرس على أساتذتها وكهنتها . وهو فصل ممتع حقـاً ولولا خشية الإطالة للخصناه تتمة للبحث ، ولكن هـذا الجزء أوشك على الانتهاء وهناك بعض نقط تحتـاج إلى نظرة قبل أن نفرغ منه ، وحسبنا أن نقول كما قال الاستاذ العقاد [٢] في بدعة السامية والآرية واختلاف العقليتين ، وكيف ظهرت هذه البدعة : « ونشأت في إبان ذلك بدعة الآرية والسامية ، وهي تلك البدعة التي تقضي للآريين بالسبق والرجحان في كل فضيلة من فضائل الامم أو فضائل الافراد ، وقد ظهر بطلانها الآن ، أو ظهر على الاقل أن الحاجز الذي أقامه مبتدعوها بين أجناس الشعوب مصطنع ملفق لا يسلم من ثغرة شك هنا أو ثلمة ضعف هناك ، بل هو ينعكس في أحوال شتى فتصبح المزية للساميين من حيث أرادها القوم للآريين ، ولكن البدعة قد خدعت أناساً كثيرين في إبان نشأتها فتحدثوا عنها كتحدث الناس بالغرائب والملح المستطرفة ، وما زالت تجني على الافكار ؛ حتى أوغل فيها بعض الغلاة من دعاتها فاستخرجوا منها دليلاً على رجحان بعض الامم الاوربية على بعض ، واستئثار جماعة

---

(١) في كتابه على هامش التاريخ المصري القديم جـ ١ ص ١٢٥ – ١٧١ .

(٢) في كتاب سعد زغلول سيرة وتحية لعباس العقاد ص ١٣ – ١٤ في فصل عن العقلية المصرية وطبيعتها .

من تلك الامم بشرف السيادة والابتكار وشعائر الحضارة والثقافة دون الجماعة الاخرى ، فتصدى لها يومئذ من الاوربيين من ينكرها ويزيفها ويبالغ في السخر بها ، بعد أن كانوا يتفقون على ترويجها ، والإغضاء عنها ، حين كانت معرفتها لاصقة بالشرق وحده موقوفة عليه دون غيره » .

وبحسبي الآن ما سقته من أدلة [1] على أن أسطورة العقلية السامية والآرية لا تثبت أمـــام الادلة العلمية ، وأن القصة – على الرغم من وجودها في الادب العربي كما هي موجودة عند كل الامم ، وإن لم تأخذ القالب الفني الذي لم يظهر بالقصص الاوربي إلا في أواسط القرن الثامن عشر – لا تحتل هذه المكانة الممتازه في عالم الادب ، ولا يوصف من لم ينبغ في تأليفها بعقم الخيال وجمود العاطفة وضحالة الفكر .

وكم كان بودي أن أفيض في أدب القصة ، وأبين أصولها وكيفية إنشائها ، ولكن هذا يحتاج إلى كتاب قائم بنفسه ، وإنما دعـاني إلى الخوض في القصة على هذه الطريقة إقبال المترجمين في العهد الذي نتحدث عنه عليها إقبالاً زائداً ، وتأثر الادب العربي الحديث بها بعد ذلك تأثراً بالغاً ، حتى دعا ذلك إلى القول بأنها لم تكن موجودة عند العرب ، وأن العقلية السامية لا تستطيع إنتاج القصة لما بها من فقر الخيال . وقد مر بك من قبل عند كلامنا على الترجمة الجهود التي بذلت في سبيل ترويج القصة الغربية ، وكان هذا الطور هو طور النقل والتمثيل ولم يكن

---

(١) وإذا أردت المزيد فاقرأ مقالة مجلة الانصار بالعدد ٦ ٤ السنة الرابعة ، شوال ١٢٦٣ (النابغة الذبياني) فقد تكلمت فيه عن موضوع القصة من زوايا جديدة وأضفت إلى ما تقدم هنا براهين أخرى . ثم كتابنا (الفتوة عند العرب) وفيه فصل ضاف عن ميزة العقل العربي وتفوقه مدعوم بالحجج العلمية القوية .

قد بدأ بعد طور التقليد والمحاكاة ، ولا سيما في الرواية ، وإن ابتدأ في المسرحية مبكراً نوعاً ما . وسنعود إلى الكلام في توسع عن القصة في الأدب المصري الحديث في الأجزاء التالية إن شاء الله . أما المسرحية فقد أفردنا لها كتاباً خاصاً هو الآن بين أيدي القراء .

٢ ـ المقالة والصحافة :

وإذا كان القرن التاسع عشر قد انقضى ، ولم تحتل فيه القصة الموضوعة مكانها في عالم الأدب ، وكان أغلب القصص التي تطبع مترجمة من شتى اللغات ، فإن المقالة منذ بدأت الصحافة العربية بإنشاء الوقائع المصرية ، ثم روضة المدارس ، ثم الجرائد اليومية والمجلات الأسبوعية ، قد صارت عماد الكتاب والأدباء ، والقالب المعتاد الذي يصبون فيه أفكارهم ، وينشرونها بين الناس .

وليست المقالة غريبة عن الأدب العربي القديم ، وإن تغيرت صيغها وشروطها ، فعبد الحميد الكاتب حين تكلم عن الشطرنج أو الصيد أو الكتابة كان يكتب شيئاً قريباً من المقال ، والفصول الأدبية التي أنشأها الجاحظ في كتبه : البخلاء ، والمحاسن والأضداد ، والحيوان ، والبيان والتبيين ، مقالات مطولة تنقصها شروط المقالة الحديثة ، وإن كان هذا القول لا يرضي بعض النقاد ، بل إنهم لا يوافقون على المقالة الأدبية التي يدبجها الكتاب اليوم إذا قاسوها بمقاييس النقد الأجنبية ، ويتطلبون من المقالة أن تكون « على غير نسق من المنطق ، وأن تكون أقرب إلى قطعة مشعثة من الأحراش الحوشية منها إلى الحديقة المنسقة المنظمة » ويحتجون بتعريف (جونسون) ومكانته من الأدب الإنجليزي في الذروة العليا للمقالة بـ « أنها نزوة عقلية لا ينبغي أن يكون لها ضابط

من نظام ، هي قطعـــة لا تجري على نسق معلوم ، ولم يتم هضمها في نفس كاتبها »[1] ويطبقون هذا القول على المقالة الأدبية في مصر فيرون ألا يكون لها نقط ولا تبويب ولا تنظيم .

وهذا لعمري شرط لا يوافق عليه الأدباء في كل أنحاء العالم ، فقد تغيرت المقالة منذ عهد (جونسون) في القرن الثامن عشر حتى اليوم . ومنذ أن قـال (بيكون) يصف مقالاتــه : « انهـا ملاحظات مختصرة كتبت من غير اعتناء » . واشترط النقاد في المقالة شروطاً أخرى غير تلك التي سار عليها (جونسون أو بيكون) ورأوا أن الكاتب ملزم بالتفكير فيما يريد أن يكتب قبل أن يتناول القلم ، ثم بالسير في موضوعه سيراً منطقياً متجنباً الفضول ، ومركزاً فكره في النقط الرئيسية ، على أن يكون لموضوعه وحدة تربط بين أجزائه ، وأن يكون واضحاً في تعابيره ، منتخباً لكلماته ، ولأسلوبه طـلاوة وعليه جمال . وقد يحتاج المقال إلى مقدمة ، وقد لا يحتاجها ، ولكن لابد له من نتيجة أو خاتمة ، ولا بد من تنسيق الأفكار ؛ فالأفكار غير المنسقة تدعو إلى اضطراب الكاتب في كتابه ، وعدم فهم القارىء لما يكتب . وليست هذه الشروط — كما يقال سخرية — هي شروط الإنشاء المدرسي ، وشتان بين هذا وبين المقال الأدبي ، فإن الفكرة التي يراد التعبير عنها سواء كانت في نفس طالب مبتـدىء أو كاتب نابغ محتاجة إلى الوضوح وإلى التمهيد لها ، ثم إلى عرضها عرضاً جيداً منطقياً يفهمه القارىء بيسر ، لا أن تكون مشعثة غامضة تسير في غير اتساق ونظام .. فإن ذلك قد يؤدي إلى عدم فهمها فضلاً عن أنه لا يتفق

---

(١) الدكتور زكي نجيب محمود في مقدمة كتابه أدب المقالة .

مع البلاغة في شيء [1] .

وموضع المقال يتسع لكل شيء في الوجود : من تعبير عن عاطفة أو رغبة أو رحمة أو معرفة أو فكرة . أما أن يقال : إن المقال الأدبي يجب أن يكون وقفاً ، على التعبير عن تجربة معينة مست نفس الأديب فأراد أن ينقل الأثر إلى نفوس قرائه ، فقد كان شرطاً مرعياً أيام (جونسون) ، وأيام أن كانت المقالة محدودة الغرض ، ولكن سارت المقالة في طريقها شوطاً طويلاً ، واتسع أفقها حتى شملت كل ألوان الحياة إلى أن زُحزحت عن مكانتها بتقدم القصة والأقصوصة . وإن ظلت إلى اليوم لوناً محبوباً من ألوان الأدب .

هذا وقد تكون المقالة :

١ — إخبارية تقص حادثة ما ، أو مجموعة من الحوادث ، وهي حينئذ قريبة من الأقصوصة تتخذ شكلاً قريباً من شكلها ، وفيها ما يثير الشوق ، ويأسر الانتباه ويدعو إلى التقصي والتتبع ، ومن المقالات الإخبارية التراجم .

٢ — وقد تكون وصفاً لحادثة أو شخص أو شيء ، تعطي تقريراً كاملاً تفصيلياً عنه وعن محيطه .

٣ — وقد تكون معرضاً لفكرة وتوضيحاً لها حينما تكون الفكرة

---

(١) راجع Essay Writing And Rhetoric by Egerton Smith طبعة جامعة أكسفورد سنة ١٩١٣ المقدمة والفصل الاول ،

وراجع مقدمة English Essays by J· H· Lobban

وراجع لنخبة من كبار الادباء Modern literary Essays

عامضة ، والموضوع معنوياً . ومهمة العرض أن يفسر لماذا حدث هذا الشيء ، أو كيف يمكن أن يحدث ذاك الشيء . والفرق بين العرض وبين الوصف أن العرض لا يأبه بالتفصيلات ولكن يعنى بالصفات العامة وبالمبادىء ، وبالميزات التي تخص نوعاً ما ؛ وقد تذكر بعض التفاصيل أثناء العرض ، ولكنها لا تحتل المكانة الأولى ، بل تذكر لإيضاح فكرة أو تضرب مثلاً على قانون عام . فقد تصف صورة ما ، ولكن الكلام عن التصوير عرض ، وقد تصف مسجداً ما ، ولكن الكلام عن هندسة المساجد يحتاج إلى عرض .

٤ - وهناك المقالة الجدلية التي تناقش فكرة ما ، وتبين ما بها من خطأ وصواب ، وصدق وكذب . وقد يكون الموضوع عادة سؤالاً يناقشه الكاتب ويجيب عنه بما يراه ؛ كسؤالنا مثلاً عن الحرب وهل هي معقولة ؟ أو عن الكذب وهل ثمة ما يسوغه في الحياة ؟ أنتصدق على الشحاذين ؟

وهذه الصورة هي التي تظهر فيها المقالة في الأدب الغربي (١) ، ونرى مثلها في الأدب العربي الحديث لأنها صورة طبيعية يلجأ إليها كل كاتب . وقد بينت لك فيما سبق الفرق بين أسلوب المقالة الأدبية والمقالة الصحفية والمقالة الاجتماعية .

والكلام عن المقالة يدعونا حتماً إلى الكلام عن الصحافة في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، لأن المقالة لم تظهر إلا في الصحف ، ونحن قد تتبعنا الصحافة في عصر إسماعيل وأوائل عهد توفيق . أما

---

(١) راجع Essay writing, Rhetoric and prosody by Egerton smith P, I9-25

الصحافة في عهد الاحتلال فقد تكلمنا آنفاً عن مجله الأستاذ للسيد عبد الله نديم التي أنشئت في سنة ١٨٩٣ ، وكيف كانت حرباً عواناً ، وناراً مضطرمة على الاحتلال ، والأجانب ، ولكن هؤلاء ضاقوا بـه ذرعاً فأغلقوا جريدته ونفوه من البلاد .

وإذا كان عبد الله نديم قد ترك مصر ، وعطلت جريدتـه الوطنية الحرة ، فإن الأسباب التي تدعو إلى ظهور مثلها في حرارتهـا وصدق لهجتها ، ومحاربتها الاستعمار الإنجليزي كانت قائمة ، على الرغم من أن سياسة الإنجليز في أوائل عهـد الاحتلال كانت ترمي إلى كم الأفواه ، وقتل الروح الوطنية في نفوس دعاة الحرية ، وإن تظاهروا بأنهم أطلقوا للصحافة العنان وتركوها حرة تقول ما تشاء [1] لأن كرومر ممثل الاحتلال بمصر لم يكن يأبه للصحافة وما قد تثيره من سخط وتحت إمرته جيش إنجليزي جاثم على صدر الوادي يبطش بكل من تحدثه نفسه بالشغب . على أن الصحافة في رأي كرومر كانت من الهوان والضعف بدرجـة لا تدعوه إلى القلق والاضطراب ؛ وإذا بدر من إحدى الصحف ما يسيء إلى الإنجليز أو يشوه سمعتهم بمصر عاجلوها بالتعطيل . ولقد مر بك كيف حاربوا مجلة العروة الوثقى ومنعوها من دخول مصر ، وعطلوا

---

(١) وفي ذلك يقول جورج يونج G. Young في كتابه مصر Egypt مشيراً إلى تقرير اللورد (دفرين) ونصحه لسلطة الاحتلال بمصر أن ترخي العنان للصحافة ، وأن نصيحته قد وجدت أذناً صاغية حق « أهمل قانون سنة ١٨٨١ إهمالاً تاماً : ونالت مصر حرية صحفية لا عهد لشمال أفريقية أو غرب آسيا بهـا » انظر ص 178 - 180

جريدة الأهرام شهراً [1] لتنديدها بالسياسة الإنجليزية في سنة ١٨٨٤ ، وتبطش يد الاستعمار بكثير من الجرائد لأتفه الأسباب فتعطل جريدة الوطن مع أنها موالية لهم ، وتلغي الزمـــان ، ومرآة الشرق لأنها من محاربي الاحتلال .

وتاريخ الصحافة في هذه الحقبة متأثر بعدة عوامل .

١ - فتركيا كانت - على الرغم من ضعفها ، وإذعانها للأمر الواقع في مصر - تحاول إثارة النفوس ضد الاحتلال الإنجليزي ، ضنا بمصر الغنية أن تفلت من يدها إلى الأبد . وكان كثير من المصريين يدين لتركيا بالولاء ، وهو ولاء ديني مبعثه وجود الخلافة العثمانية ، والمسلمون مكلفون شرعاً بطاعة الخليفة ، وكانت هذه النزعة تتملك قلوب الجمهرة الغالبة من المصريين وبعض السوريين المقيمين بها . وقد ظهر من الجرائد التي تحمل لواء هذه السياسة وتنفث الحمم ملتهباً ، والسم ناقعـــاً ضد الإنجليز وسياستهم الاستعمارية جريدة (المؤيد) ، ثم جريدة (اللواء) .

وهناك الاحتلال البريطاني ، وهو احتلال تديره سياسة محنكة يصفها اللورد كرومر بقوله : « يجب أن تكون السياسة الاستعمارية قائمة على قواعد التبصر والحكمة ، ويجب أن تكون أصول أحكامنا - التي هي الصلة بيننا وبين جميع الشعوب الداخلة في حكمنا ، من حيث الاعتبار السياسي والاقتصادي والأدبي - قواعد صحيحة سليمة منزهة عن الشائبة

---

(١) كانت جريدة الأهرام في ذلك الوقت تحارب الإنجليز لأنها كانت تعمل لحساب الفرنسيين ، في ذلك تقول جريدة الشعب (٨ مايو ١٩١٢) تصف الأهرام وسياستها : « إن سياستها عثمانية مصرية تدافع عن مصالـــح فرنسا في مصر سواء كانت اقتصادية أو سياسية وأحياناً تشتد في نقدها كأكثر الصحف الوطنية تطرفاً » .

والنقص . هذا هو حجر الزاوية في بنـــاء الإمبراطورية . إن المبرر الأكبر للاستعمار يجب أن يظهر جلياً في حسن التصرف بما في أيدي هذه الامبراطورية من القوى [1] » . وأراد الاحتلال أن يجتث نفوذ تركيا من الاساس ، ويقتلع من النفوس هذا الولاء ، وقد استطاع أن يجد لسياسته هذه أنصاراً ومؤيدين وأن يجتذب قلوباً عزيزة المنال تدافع عنه أو تسكت عن مخازيه . ووجد الاستعمار أنصاره بين بعض السوريين المسيحيين الناقمين على تركيا استبدادها وغلظتها وسوء تصرفها معهم في ديارهم ، وتفريقها بين عناصر الأمة ، فرأوا في الإنجليز من يحميهم ويعطف عليهم ، فأنشئوا جريدة المقطم [2] تشيد بسياستهم ، وتلهج بأعمالهم ، وقد صرح أصحابها بأن غرضهم السياسي من تأسيسها معلوم ظاهر في كل صفحة من صفحاتها ، « وهو تأييد السياسة الإنجليزية التي لولاها ما كان في الشرق بلد يستطيع أحد أن يعيش فيه ويجاهر بآرائه وأقواله [3] » ومن هؤلاء الذين شرعوا أقلامهم في محاربة الترك وتأييد الإنجليز سليم سركيس صاحب جريدة (المشير) ويقول من مقالة ، بعنوان (هل مصر عثمانية ؟) [4] : « لم أجد في حياتي ، ولا قرأت في مطالعاتي عن أمة تريــــد الانتقال من الاستقلال إلى ظلمات العبودية إلا هذا القسم من الأمــــة المصرية الذين يريدون التمسك بأذيال العرش العثماني » . ومن شعره في التنديد بظلم الأتراك قوله [5] :

---

(١) حاضر العالم الإسلامي ج ٤ ص ١٠ .

(٢) ١٤ فبراير سنة ١٨٨٩ .

(٣) مجلة الجامعة لفرح أنطون ج ١ ص ٨٢ .

(٤) المشير عدد ١٠٣ .

(٥) العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث لأنيس المقدسي ص ٨ .

نرجو صلاح الترك قـــد	خابت أمانينا الكواذب
هي دولة ظلمت وليس الـ	ـعدل عن ظلـــم بذاهب
فأنشد معي قـــولا ترد	ده المشارق والمغـــارب
ليس العجيبـــة فقدهـــا	بل عيشها إحدى العجائب

وقد وجد الإنجليز بجانب هؤلاء أقلاماً أخرى تناصرهم لنفورهم من الظلم التركي مثل ولي الدين يكن ، مع أنه كان تركياً صميمـــاً لايبغي بتركيا بديلا ، ولكنه كان يحب الإنجليز لحمايتهم — فيما يزعم — الأحرار . وقد مر بك كيف اجتذبوا إليهم الشيخ محمد عبده وإن لم يكن من صنائعهم ، ولكنه كان من المحتمين بهم المستظلين بظلهم ، كما استطاعوا أن يطفئوا تلك النار الملتهبة التي يصبها عليهم الشيخ علي يوسف وشيعته في المؤيد ، وأن يسكتوا تلك الأقلام القوية التي تصور في جرأة وقوة فظائعهم وتملأ القلوب إحنـــاً وبغضاء عليهم[1] ، ولكن لم يستطيعوا مع كل هـــذا أن يجعلوا من المؤيد بوقاً يدعو لهم وسنعود إليـــه بعد قليل .

وبذلك انقسمت الصحافة قسمين : قسماً يشايع تركيـــا — وفي الغالب

---

(١) وقد قال في هذا التعبير حسين شفيق المصري صاحب (المباحث السياسية) : « المؤيد الذي يقرأ الآن غير المؤيد الذي كان المصريون يحبونه والشيخ علي يوسف صاحب المؤيد الحاضر غير الشيخ علي يوسف الذي حمل على الأعناق بعـــد حكم قضية التلغراف المشهورة فقد تغيرت الحال مع الصحيفة وصاحبها ، والبون بعيد بين اجتماع الوطنيين لتوقير أم الصحف وأبي الصحفيين وبين اجتماعهم للنداء بإسقاطها في الحضيض الأسفل ، وليس الإقرار بهذه الحقيقة من الأمور التي تسر الوطنيين » راجع تاريخ الصحافة العربية (للفيكونت فيليب دي طرازي) ج ٣ ص ٣٨ .

يدعو للخديو ويناوىء الإنجليز ، ويندد بالاستعمار إمـــا مدفوعاً بالولاء الديني ، أو بالكراهة للإنجليز أو بتحريض دولة أجنبية مثل الأهرام وفرنسا . وقسماً يدافع عن الإنجليز ويذيع مساوىء العهد التركي ، ويترنم بنعمة الاحتلال ، وينتقص المصريين وعلى رأسهم الخـديو ، ويتمثل في جريدة المقطم وفي بعض الأقلام التي فتنها بريق الحرية الكاذبـة التي لوح بها الإنجليز .

وأكبر ظاهرة تستحق منا العناية قبل أن نفرغ من هذا الجزء ظهور جريدتين إسلاميتين كان لهما شأن عظيم في تاريخ مصر ، وفي توجيه الحركـــة والإصلاح الأجتماعي وقـــد أشرنا إليهما فيما سبق إشارات عابرة ولكن سنخص المؤيد هنا بكلمة ؛ لأن الصحافة اليومية المشهورة بمصر كانت إلى ظهور المؤيد واللواء سورية تتحكم فيها نزعات وأهواء متباينة ، أمـا اللواء فله شأن آخر وموعدنا به في الأجزاء التالية إن شاء الله ؛ لأنه أنشىء في السنة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، والكلام عنه يطول .

المؤيـــد:

والفضل في ظهور المؤيد يرجع الى سياسة الإنجليز واصطناعهم أصحاب المقطم ؛ فإن هذا أثار حفيظة الوطنيين ، فتقدم الشيخ علي يوسف[1]

---

(١) الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ، ولد بقرية بلصفورة بمدينة جرجا سنة ١٨٦٣ من أسرة شريفة أخنى عليها الدهر ، ودرس في الأزهر مدة إلا أن ميله الأدبي صرفه عن إتمام دروسه به ، وأنشأ في سنة ١٨٨٧ (مجلة الآداب) أسبوعية في ثماني صفحات ، ولكنها اهتمت بالدراسات القديمـة ، وحررت بأسلوب يعلو على جمهرة القراء ، فتعثرت في خروجها ، ثم أسس جريدة المؤيد في أول ديسمبر سنة

صاحب مجلة الآداب لإخراج المؤيد جريدة وطنية مصرية وشجعه رياض باشا وكثير من زعماء مصر [١] ، وغدت المؤيد ميداناً تتألق فيه الأقلام الوطنية الجريئة تثيرها حرباً شعواء على الإستعمار الإنجليزي ، وعلى الأجانب الذين يناصرونهم ، ونازلت المقطم نزالاً عنيفاً مراً ، فما لبثت أن راجت حتى صارت أقوى جريدة عربية في الشرق العربي كله . وفسحت صدرها لمصطفى كامل ولفئة صالحة من كتاب الشباب ، وتلاميذ جمال الدين ومحمد عبده [٢] وعنيت بالمسائل الوطنية في جميع نواحيها ، وبالأمور الإسلامية . ولم يستطع الإنجليز أن يعطلوها كما عطلوا الأستاذ لعبد الله نديم لقوتها وكثرة قرائها ، ولكن تمكنوا بعد مدة من استمالة الشيخ علي يوسف إليهم ، ولعل صحبته لمحمد عبده قد أثرت فيه فنهج منهجه في مسالمتهم .

لقد كانت المؤيد أمل المصريين ومدرسة تخرج فيها عدد كبير ممن

١٨٨٩ ، فكانت أول جريدة مصرية يومية كبيرة ، وراجت رواجاً عظيماً . وفي سنة ١٩١٣ أسندت للشيخ علي يوسف مشيخة السادة الوفائية ، فاستقال من جريدته ، ومات بعد ذلك في سنة ١٩١٣ وكان الشيخ (علي) قوي العزم أديباً متلافاً وقد أثار زواجه من بنت السيد عبد الخالق السادات ضجة عظيمة لأن السيد عبد الخالق عده دونه في الحسب والنسب ، وشغلت الصحف بذلك وقتاً طويلاً ، وقد رمي بالتعصب الديني »ولكنها تهمة يشيعها من لم يفهموا سياسة ذلك الوقت والعوامل التي حركت الصحافة والدوافع التي جعلت من بعض المسلمين متعصبين وسنخصه بترجمة مطولة في أحد الأجزاء التالية إن شاء الله . على أننا ترجمنا له ترجمة وافية بمجلة الكتاب عدد يوليه ١٩٤٨ وفي كتابنا (دراسات أدبية) .

(١) راجع تطور الصحافة لإبراهيم عبده ص ١٥٢ .

(٢) من كتاب المؤيد المشهورين بجانب صاحبه :جميل مدور وعبد الحميد الزهراوي،والشيخ عبد القادر المغربي ، ومحمد كرد علي ، ومحب الدين الخطيب ، والمنفلوطي ، وحافظ عوض ، ومحمد أبو شادي ، وإمام العبد ، وسليمان فوزي (صاحب الكشكول) .

قادوا الأمة في الصحافة بعد ذلك . وكانت غنية منتشرة في العـالم الإسلامي كله ، وهي أول جريدة استعملت مطبعة كهربية في الشرق وقد احتلت منزلة في نفوس الناس حتى أعترف لها بهذه المكانة العدو والصديق ، ولذلك عز على المصريين وقوفها موقفاً سلبياً من الاستعمار الإنجليزي بعد أن كانت من أكبر خصومه ، وإن لم تفقد قراءها ؛ لسابق فضلها وقوة تحريرها ، ولسياستها الإسلامية ، ولحسن الدعاية لها. وفي المؤيد وصاحبه يقول حافظ إبراهيم حين أخرج المؤيد في ثماني صفحات سنة ١٩٠٦ .

أحييت ميت رجائنا بصحيفة — أثنى عليها الشرق والإسلام

أضحت مصلى للهداية عندما — سجدت برحب فنائها الأقلام

فعلى مؤيدك الجديد تحيـــة — وعلى مؤيـدك القديم سلام

ويقول ولي الدين يكن عنه :

« الشيخ علي يوسف سهل التأليف ، شديد المضاء ، هو في بيانه أقرب إلى العامة منه إلى الخاصة ، إذا غالب غلب بصورته دون روحه ، صحافي محنك . وليست الكتابة من عمله .

كأنما يراعـــه سوطـــه — يضرب إن جدّ ولا يكتب

لا تـدع المعجمة أسلوبـــه — فليس في أسلوبـه معرب

ولعلك أدركت أن ولي الدين ليس ممن يحبون الشيخ ، وقد كانا على طرفي نقيض في سياستهما كما مر بك .

وفيه قال يوسف البستاني : (أنظر إليه بعين الصحافي فأراه عظيم لبراعة في تقليب اليراعة وشديد الحصافة في ميدان الصحافة ، ولو وجد قلمه من عواطفه دعامة لرفعه بيننا إلى مقام الزعامة . ولقد زاد فضله أنه من الطبقة العصامية وجهال اللغات الأجنبية »[1] .

ويقول تشارلز آدمز « أما الشيخ علي يوسف فقد كان صحافياً ماهراً له دهاء يشوبه المكر أحياناً ، وقد رفع المؤيد إلى مقام الصدارة في العالم العربي »[2] .

وحسبنا هذه الكلمة الموجزة عن الصحافة في أخريات القرن التاسع عشر ولنا إليها عودة في الاجزاء التالية إن شاء الله ؟ لان كثيراً من الصحف التي ظهرت في هذه الحقبة ازدهرت ونمت في القرن العشرين، وتأثرت بعوامل سياسية واجتماعية كانت وليدة أحداث ظهرت في أوائل هذا القرن .

---

(١) تاريخ الصحافة العربية - الفيكونت فيليب دي طرازي ج ٣ ص ٤٠ .

(٢) الإسلام والتجديد تعريب عباس محمود ص ٢١٧ .

المراجـــع

إبراهيم عبده . . . : ١ ـ تطور الصحافة المصرية
٢ ـ أعلام الصحافة
إبن إياس الجركسي . : بدائع الزهور في وقائع الدهور
أحمد أمين . . . . : ١ ـ قصة الفلسفة الحديثة جزآن
٢ ـ فجر الإسلام
٣ ـ مجلة الثقافة مقالات عن زعماء الإصلاح الاجتماعي
أحمد تيمور . . . . : أعيان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر
أحمد سمير . . : سلافة النديم
أحمد صبري . . . : مجلة الأنصار
أحمد عرابي . . : كشف الستار (مخطوط بدار الكتب رقم ١٥٤٢) ومنه جزء مطبوع بمطبعة مصر .
أحمد فارس الشدياق . : منتخبات الجوائب
أحمد الإسكندري وآخرون : ١ ـ المنتخب
: ٢ ـ المفصل

إسماعيل أدهم . . : توفيق الحكيم الفنان الحائر
الجود (P, G Elgood) : The Transit of Egypt
إلياس الأيوبي . . : تاريخ مصر في عهد إسماعيل (جزءان)
أمين باشا سامي . . : تقويم النيل – الجزء الثاني والثالث
أنيس المقدسي . . : العوامل الفعالة في الأدب العربي الحديث
برت (C Burt) . : كيف يعمل العقل ، الجزء الثاني، ترجمة محمد خلف الله
برودلي (M. Broadley) : How We defended Arabi
بروكلمان (Carl Brockelmann) : Geschichte der arabischen litterature
ملحق الجزء الثاني
(A. G, Borwne) The Persian Revolution
بطرس البستاني . . : أدباء العرب، الجزء الثالث
بلنت . . . . : التاريخ السري لاحتلال انجلترا مصر . ترجمة البلاغ
تشارلتن . . . : فنون الأدب ، تعريب زكي نجيب محمود
تشارلس آدم . . : الإسلام والتجديد ، ترجمة عباس محمود
توفيق الحكيم . . : ١ – تحت شمس الفكر
٢ – مقالة في مجلة أخبار اليوم ١٩٤٨/٣/٢٨
جاك تاجر . . . : حركة الترجمة بمصر
جب H. R. Gibb . : Bulletin of the School of Oriental Studies.
الجبرتي (الشيخ عبدالرحمن) : عجائب الآثار في التراجم والأخبار
جميل صليبا . . : ابن خلدون – منتخبات

جورجي زيدان . . . : ١ ـ تاريخ آداب اللغة العربية الجزء الرابع
٢ ـ تراجم مشاهير الشرق جزءان
جومار . . . . : Journal Asiatique عدد أغسطس ١٨٢٨
حسن قويدر . . . : نيل الأرب في مثلثات العرب
حسين المرصفي . . . : الوسيلة الأدبية
خليل مطران . . . : المقتطف إبريل ١٩٣٣
رفاعة الطهطاوي . . : (أ) تخليص الأبريز في تلخيص باريز
(ب) مناهج الألباب
(جـ) المرشد الأمين
(د) مواقع الأفلاك
روتشتين ـ تيودور . . : تاريخ المسألة المصريه ترجمة، عبدالحميد البادي
رينان (Renan) . . . : Histoire Général et Systéme Comparé des Langues Semitiques
زكي نجيب محمود . . . : ١ ـ قصة الفلسفة الحديثة جزءان
٢ ـ مقدمة كتاب أدب المقالة
ستودراد . . . : حاضر العالم الإسلامي أربعة أجزاء ترجمة عجاج نويهض
سليم خليل نقاش . . . : مصر للمصريين
سليم سركيس . . . : جريدة المشير
سميث (Egerton Smith) : Essay writing and Rhetoric
شو (G, B. Shaw) : The Intelligent Woman s Guide
شكيب أرسلان . . . : ١ ـ تعليقات على هامش حاضر العالم الإسلامي
٢ ـ مقدمة النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي

فون فسيندبك . . . : ابن خلدون مؤرخ الحضارة العربي ، ترجمة محمد عبدالله عنان

فيليب دي طرازي . . : الصحافة العربية – أربعة أجزاء

قدري طوقان . . . : جمال الدين آراؤه وأثره – محاضرة

كلوت بك . . . . : لمحة عامة إلى مصر

لوبان J. H. Lobban ; English Essyas

لويس شيخو . . . : (أ) تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر جزءان (ب) مجلة الشرق

مارون عبود . . . : مجلة الكتاب فبراير ١٩٤٨

محمد بهجت الأثري . : أعلام العراق

محمد حسين هيكل . : مقدمة لديوان البارودي

محمد الخضري . . . : محاضرات في التاريخ الإسلامي (الدولة العباسية)

محمد خلف الله . . . : من الوجهة النفسية في دراسة الأدب

محمد رشيد رضا . . . : (ا) تاريخ الأستاذ الإمام – ثلاثة أجزاء (ب) المنار

محمد صبري . . . : La Genése de l'Esprit National Egyptian

محمد صبيح . . . . : محمد عبده (كتاب الشهر)

محمد عبده . . . . : ١ – الوقائع المصرية
٢ – مجلة العروة الوثقى

محمد عثمان جلال . . : العيون اليواقظ

محمد الغمراوي . . . : النقد التحليلي لكتاب في الأدب الجاهلي

محمد كرد علي . . . : خطط الشام – الجزء السادس

محمد المخزومي . .	:	خاطرات
محمود سامي البارودي	:	الديوان
محمود صفوت الساعاتي	:	الديوان
محمود الخفيف . .	:	أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه
مصطفى لطفي المنفلوطي	:	١ ـ مختارات المنفلوطي
		٢ ـ ترجمة للساعاتي في الديوان
ميخائيل شاروبيم .	:	الكافي في تاريخ مصر
نجيب العقيقي . .	:	المستشرقون
يونج (G. Young)		Egypt

فهرست

صفحة

للمؤلف

١ ــ إخوان الصفاء :

دراسة تاريخية أدبية فلسفية ، تكشف السر عن جماعتهم ونظمها ، وعن فلسفتهم مع مناقشة علمية لكل ما كتب عنهم، والوصول إلى الحقيقة في أمرهم.

٢ ــ النابغة الذبياني :

ترجمة مستفيضة مع تصوير شامل للبيئة العربية في العصر الجاهلي ، وتطور اللغة العربية إلى عصر النابغة ودراسة لديوانه وطبعاته، وشعره مع تحليل ونقد وموازنة.

٣ ــ الفتوة عند العرب :

أول كتاب في اللغة العربية في موضوعه، ودراسة تحليلية عميقة جامعية لأمجاد الأمة العربية ، وتاريخ للفتوة منذ نشأة العرب حتى عصر المماليك ، مع موازنة واسعة بين فتوة العرب وفروسية الغرب وصور جذابة تاريخية لشتى ضروب الفتوة في أسلوب قصصي رائع .

٤ ــ محمود سامي البارودي :

من سلسلة نوابغ الفكر العربي وهي دراسة ممتازة مركزة لعصره وحياته وشعره مع عشرات القصائد المشروحة شرحاً ضافياً .

٥ ــ المسرحية :

أول كتاب في اللغة العربية يدرس فن المسرحية ، دراسة علمية جامعة عميقة ، ويتتبع نشأتها حتى عصرنا الحاضر ، ويفصل أنواعها ويدرس كلا منها، ويفصل الأسس والأصول التي تبنى عليها المسرحية ، ويختم البحث بتطبيق نقدي على رواية مجنون ليلى لشوقي .

٦ ـ في الأدب الحديث (الجزء الثاني) :

دراسة شاملة عميقة لأهم العوامل الفعالة في الشعر الحديث بعد البارودي ، كأثر الثقافة الأجنبية والنهضة الوطنية ، والنقد الأدبي الحديث ومذاهبه ، والمدارس الشعرية بمصر. ثم ترجمة مستفيضة لبعض أعلام المدرسة الاتباعية الحديثة من الشعراء.

٧ ـ دراسات أدبية (الجزء الأول) :

يحتوي على أربعة عشر بحثاً في صميم الأدب الحديث . ويلقي أضواء مركزة على مشكلات أدبية هامة ، ـ أدب القصة وواقعية الأدب ، والاستعمار الثقافي. كما يفحص عن نواحي تميز بها بعض الشعراء المعاصرين في دقة وتحليل .

٨ ـ لغتنا القومية :

دراسة واسعة لنشأة اللغة العربية والصراع بين العامية والفصحى ، ودفاع عن الفصحى ضد التيارات الكثيرة . والكلام على اللغة المشتركة .

٩ ـ نشأة النثر الحديث وتطوره (الجزء الأول) :

يتناول بدراسة تفصيلية نشأة النثر الحديث وكبار أعلامه وتطور المقالة وأنواعها إلى نهاية القرن التاسع عشر .

١٠ ـ خريدة القصر للعماد الأصبهاني القسم الرابع (بالاشتراك) ـ الجزء الأول

نشر وتحقيق وتقديم ويشمل هذا القسم الشعر في صقلية والأندلس مع ترجمة وافية للأعلام التي وردت به .

١١ ـ إظهار الحق للسيد رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي :

نشر وتحقيق مع تعريف بأهم الأعلام التي وردت به ، وتقديم له ، وترجمة النصوص الفارسية .

لسان العرب

في الأدب الحديث

تأليف
عمر الدسوقي
استاذ الأدب ، ورئيس قسم الدراسات الأدبية
بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الجزء الثاني

الشعر بعد البارودي

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة	الأولى	١٩٥٠
«	الثانية	١٩٥٤
«	الثالثة	١٩٥٩
«	الرابعة	١٩٦١
«	الخامسة	١٩٦٤
«	السادسة	١٩٦٧
«		١٩٧٣

بسم الله الرحمن الرحيم
وبه نستعين

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحقبة التي نؤرخ لها في هذا الجزء من كتاب « الأدب الحديث » حقبة غنية بمن ظهر فيها من الأدباء والكتاب والشعراء ، وفيها عظم اتصال الشرق بالغرب ، وكثر النقل والتعريب من الأدب الغربي نثراً وشعراً . وزادت المدارس الأجنبية على اختلاف لغاتها بمصر ، وعظم نفوذ الإنجليز بها إبان الاحتلال ، وفرضوا لغتهم على المدارس فحذقها التلاميذ وعرفوا كثيراً من آثارها الأدبية .

وآتت نهضة مصر في القرن التاسع عشر بعض ثمارها الشهية ، فكثر المطبوع والمقروء من الأدب العربي ، وتنبه الناس بمصر إلى أن ثمة آداباً أرقى مما عرفوا في مستهل ذلك القرن . وقد ضرب البارودي نموذجاً حياً قوياً بمحاكاته لأساليب فحول شعراء العربية ، ونهض جمال الدين الأفغاني وتلاميذه : محمد عبده ، وسعد زغلول ، وعبدالله نديم ، واللقاني ، والمويلحي بالنثر نهضة قوية ، وحرروه من قيوده التي كُبِّل بها طويلا ، وسخروه لخدمة المجتمع المصري .

وأذكى الاحتلال الإنجليزي ، وما جلبه من ذلة وبغي نار الحماسة الوطنية في قلوب الصفوة الممتازة من أبناء الأمة ، فشنوها حرباً شعواء لا هوادة فيها على المستعمر الغاصب ، وكان عمادهم الخطابة الصريحة الجريئة ، والكتابة الملتهبة القوية ، يقودهم مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وعبد العزيز جاويش ، وعلي يوسف، وأضرابهم ، على المنابر تارة ، وفي الصحف تارة أخرى .

ثم جاءت الحرب العالمية الأولى ، واصطلى العالم بسعيرها أربع سنوات كاملة ، وما أن وضعت الحرب أوزارها ، واستراح الناس من ويلاتها ، حتى هبت الشعوب

المغلوبة تطالب بحقوقها في ثورات عنيفة بمصر وأيرلندا وغيرهما ؛ وخلفت الحرب آثاراً كثيرة بمصر تتمثل في الغلاء الذي يرزح تحت وطأته جمهرة بنيها ، وفي شدة الإقبال على المدنية الغربية بخيرها وشرها ، وفي نضج الفكرة القومية وتحديد أهداف البلاد .. إلى آخر ما هنالك من آثار كان لها في الأدب شأن عظيم .

ومن العسير علينا أن نلم في هذا الجزء بكل ألوان الأدب شعراً ونثراً ، بجميع البلاد العربية ، فالدراسة المنتجة هي التي تتناول موضوعاً خاصاً ، في بلد بعينه ، وتوفيه حقه من البحث ، وقد آثرت أن أقصر هذا الجزء على : « الشعر بمصر بعد البارودي » .

وموضوع الشعر بمصر ليس موضوعاً هيناً ، فمنذ أن ظهر البارودي بزعامته القوية ، ومصر تقود الطريق في هذا الميدان ، يتلقف الراية شاعر بعد شاعر ، وتباين تأثرهم بالثقافة الغربية قوة وضعفاً ، كما تباين حظهم في تقليد الأدب العربي القديم ؛ ولذلك تعددت مدارسهم ، وتنوعت موضوعاتهم ، وغزر نتاجهم . وصار الدارس للشعر في العصر الحديث لا يجد أمامه مندوحة من العكوف على بيئة خاصة ، يتعرف فيها على التيارات المختلفة التي أثرت في الشعر وعملت على تعدد مذاهبه وألوانه ؛ وبذلك يكون قد أدى بعض ما يجب عليه نحو عصره وبيئته .

وإذا كنت قد اكتفيت بالكلام على الشعر في مصر بعد البارودي ، فليس ذلك إهمالا أو إغفالا لشعراء العربية في الأقطار الشقيقة ، وقد نبغ منهم فحول زينوا عصرهم وخلدوا أسماءهم ، ورفعوا ذكر بلادهم من أمثال : الزهاوي ، والرصافي ، والشبيبي بالعراق ، وبشارة الخوري ، وشبلي الملاط ، وإلياس أبي شبكة ، وأنور العطار ، وعمر أبي ريشة ، وسعيد عقل بسوريا ولبنان .

ولكن التعرض لشعراء العربية في مختلف بيئاتهم إن تيسر لنا أداؤه فلن يكون ذلك دفعة واحدة وفي كتاب واحد ، وإلا جاء ناقصاً مبتوراً لا قيمة له ، ولا جدوى منه ؛ إذ سيكون عرضاً خاطفاً لا عمق فيه ، ولا تحليل ولا موازنة . وليس ذلك هدفنا من دراسة الأدب الحديث ، بل إننا نقصد إلى تحديد معالمه ، وتعرف مدارسه والفحص عن العوامل المتباينة التي شكلته وألهمته وأثرت فيه . ولا يتأتى هذا إلا

بالتخصص في الدراسة ، ولا سيما إذا شفعت بتراجم وافية لكبار الشعراء •

ولذلك رأيت من الخير لنفسي وللأدب الحديث أن أتكلم عن الشعر في مصر ، ولعلَّ من أبناء العروبة من يتطوع لدراسة الشعر في العراق ، وآخر في الشام ، فيعطينا فكرة قوية واضحة ، وبحثاً مستفيضاً عن بيئته ومجتمعه وألوان الشعر ثمة • فالبلاد العربية على الرغم من اتحاد اللغة والاشتراك في الآمال والأماني والتاريخ والدين تتباين في كثير من الأمور : في طبيعة أرضها واختلاف مناظرها ، والعوامل السياسية والاقتصادية التي طرأت عليها ، وحظها من الاتصال بالحضارة الغربية ، ونهضتها التعليمية والأدبية ، وفي مجتمعاتها ••• إلى غير ذلك • وليس الأدب إلا صورة من البيئة التي نبت فيها ، وأوحت به ، ولو كان أدباً عالمياً تنجذب إليه كل نفس ، ويهفو إليه كل عقل •

وإذا كنت قد سلكت في الجزء الأول من « الأدب الحديث » غير هذه الطريق فذلك لأن جمهرة الأدباء من شعراء وكتاب كانوا من أتباع المدرسة التقليدية ، لم يتميز أحدهم عن الآخر إلا في الأداء ، وقد تشابهوا موضوعاً وصوراً • وليس الحال كذلك اليوم بعد أن خطونا في نهضتنا شوطاً طويلاً ، وعظم اتصالنا بالثقافة الغربية والأخذ منها •

ورأيت لزاماً عليَّ قبل أن أخوض في موضوع الشعر أن ألقي نظرة فاحصة إلى المجتمع المصري ، ومدى تأثره بالثقافة الغربية التي وفدت إلينا وتأثرنا بها ، من إبداعية (رومانتيكية) ، وواقعية ورمزية وسواها • وخصائص كل مدرسة في الأدب الغربي ، وكيف طبقها شعراؤنا على أدبنا ، وإلى أي حد اقتبسوا منها ؛ ومدى تمسكهم بالأدب العربي القديم أسلوباً ، وقالباً وموضوعاً •

ثم أتحدث بعد هذا عن المدارس الشعرية في مصر : من محافظة مقلدة ، ومجددة محترسة في تجديدها تجمع بين القديم والجديد ، إلى مجددة متبرمة بالأدب القديم ، إلى أخرى ثائرة غارقة في التجديد ، خارجة على كل ما يمت إلى القديم بصلة •

وهذا يتطلب مني الترجمة لكبار شعراء كل مدرسة ، ودراسة آثارهم ، ومعرفة خصائصهم ، وهو عمل ضخم أرجو الله أن يعينني على إنجازه وإتقانه •

لقد نقد النقاد المفكرون بمصر الشعر ، وتكلموا عنه ، ووجهوا الشعراء إلى ما يريدون وقد استجاب بعضهم للنقد والتوجيه ، واستعصى آخرون عليهم • وظهرت تراجم موجزة لكبار الشعراء ، ولكنها تسير على المنهج القديم في البحث ، لا تنفذ إلى المؤثرات العامة والخاصة في حياة الشاعر ، وتتعرف على مزاجه الأدبي ، وألوان ثقافته ، وتدرس آثاره دراسة مستفيضة • وكتبت مقالات مبتورة عن المدارس الأدبية الغربية ، ولكنها لم تتعرض للشعر المصري وإلى أي حد تتلمذ على هذه المدارس •

وربما كان كتاب الدكتور إسماعيل أدهم عن خليل مطران أول كتاب يتعرض لشاعر معاصر على طريقة علمية صحيحة ، ولكن أسلوب الدكتور أدهم أسلوب فيه بعض الغموض ؛ لأنه غريب عن العربية ، وطريقته في البحث قد جنحت إلى الحقائق العلمية الجافة ، وطبق في كتابه المنهج العلمي أكثر مما يجب ، فجاء الكتاب محدود الفائدة • ثم إنه ترجمة لشاعر واحد وإن كان شيخ المجددين بمصر •

ولم يظهر حتى اليوم كتاب يضم أشتات هذا الموضوع ، ولذا أشعر بضخامة هذه الدراسة ، وصعوبتها وأرجو أن أوفق في بحثي هذا ، وأقدم للمكتبة العربية ما تسد به ذلك النقص • ولست أزعم أني في هذا الجزء سأوفي الموضوع كل حقه ، وأترجم ترجمات مسهبة لكل شاعر ، فذلك فوق ما أطيق ، ويطيقه هذا الجزء ذو الصفحات المحدودة مهما كثرت ، ولهذا اقتصرت فيه على تبيان المؤثرات العامة في الشعر بعد البارودي وعلى بعض رجال المدرسة التقليدية •

وأعترف أن ما قدمته ليس إلا محاولة لدراسة الشعر في العصر الحديث على طريقة علمية ، تحتاج فيما بعد إلى مزيد من الدرس والتمحيص وأن بها قصوراً كثيراً عن الغاية التي أصبو إليها ، ولذلك أتقدم بالمعذرة للقراء سلفاً ؛ راجياً أن يكون منهم من هو أشد مني مُنة ، وأقوى يراعاً ، وأطول باعاً ، وأوفى دراسة ، وأنفذ بصيرة فيكمل هذا النقص ، ويوفي الموضوع حقه من البحث ، والله هو الموفق للصواب •

اكتوبر ١٩٥٠

عمر الدسوقي

مقدمة الطبعة السادسة

على الرغم من أننا نعيش في عصر توفرت فيه وسائل النشر ، وأصبح الكتاب العربي سهل التناول ، كثير التداول ، وعلى الرغم من أني أؤرخ أدب العصر الحديث في مصر ، فإني أشعر بأن المهمة شاقة ، وأن الأدب العربي في عصوره الماضية أيسر تأتيا ، وأقرب منالا ، ولذلك لا زلت منذ أن صدرت الطبعة الأولى لهذا الجزء يجدّ لي في كل يوم جديد ، وتتبدى لي في كل حين فكرة . وما ذاك إلاّ لأن الأبحاث التي تعرضت لهذه الحقبة لم تلم أشتات الموضوع ، وتجمع مادته من الأضابير والمخطوطات والمجلات والصحف السيارة ، والكتب المطمورة ، ولهذا أخذت نفسي بتقصي مصادره ، والبحث عن مادته ما وسعني الجهد حتى أبلغ بالكتاب الغاية التي أرجوها له ، والتي يتطلبها مني البحث العلمي الدقيق .

وهأنذا أتقدم لقراء العربية بالطبعة السادسة لهذا الجزء وفي كل باب من أبواب الكتاب زيادات كثيرة وتنقيحات لم أر منها بداً .

ولست أزعم أن الكتاب قد بلغ الكمال أو قاربه ، فلا زالت هذه الحقبة في حاجة ملحة للدرس والتمحيص ، وإني أعد القارىء العربي الكريم ــ الذي أدين له بفضل التشجيع ــ أن أبذل في الاستزادة من الأدب الحديث ومصادره غاية جهدي حتى يصل الكتاب الى ما نصبو إليه ، ولا يسعني إلاّ أن أقابل تشجيع قرائي من أبناء العروبة بالشكر الوافر ، والعمل المتصل ، والله أسأل أن يوفقني إلى إرضاء العلم وجمهور الأدباء وطلاب البحث ، إنه نعم الموفق للصواب .

عمر الدسوقي

الفصل الأول

الثقافة الأجنبية

— ١ —

تحدثت في الجزء الأول من كتاب الأدب الحديث[١] عن الاتصال بالأدب الأجنبي في إيجاز ، وعرض سريع ، وأعود هنا إلى الموضوع بشيء من البسط ، لندرك الصراع العنيف بين فرنسا وانجلترا على تثبيت كل منهما نفوذها الأدبي بهذه الديار .

يرجع اتصال مصر الحديثة بالثقافة الغربية إلى الحملة الفرنسية ، وقد وفينا موضوع الحملة الفرنسية حقه من البحث في الجزء الأول من هذا الكتاب . وجاء محمد عليّ فاتجه صوب فرنسا يستخدم علماءها وقواد جيشها وأطباءها في نهضة مصر ، ويرسل البعثات العديدة إلى فرنسا ، بل ينشىء مدرسة للطلبة المصريين بباريس . وقد عاد هؤلاء الطلبة إلى مصر وتولوا زعامة حركة الإصلاح بها ، وعلى رأسهم رفاعة الطهطاوي ، وعلي مبارك . ولكنّ عباساً الأول كان من النافرين كل النفور من الثقافة الأجنبية ولا سيما الفرنسية ، فألغى نظام التعليم الذي وضع على النهج الفرنسي ، ولم يرسل إلى فرنسا سوى ثلاثة من الطلاب في حين أنه أرسل خمسة وأربعين طالباً إلى الدول الأخرى ، وفي موقف عباس الأول إزاء الثقافة الفرنسية يقول الأمير عمر طوسون[٢] : « شعرت فرنسا بانصراف هذا العاهل (عباس الأول) عن الاتجاه إليها ، خصوصاً بعد ما نحّى عن مناصب الحكم في بلاده أكثر الأجانب وبخاصة الفرنسيون ، فجاء ذكره على ألسنة مؤرخيها مشوباً بالقدح خالياً من المدح » .

وغضب عباس على هؤلاء المصريين الذين حذقوا الفرنسية وعملوا على نشرها ،

---

(١) راجع الفصل السادس من كتاب الادب الحديث ج ١ .

(٢) البعثات العلمية في عهد محمد علي ، ثم في عهد عباس الاول وسعيد للأمير عمر طوسون ص ٤١٨ .

فنفى رفاعة الطهطاوي إلى السودان ، وأغلق مدرسة الألسن ••• الخ ما عرفت في الجزء الأول من كتابنا هذا • ولكن فرنسا المستعمرة لم تكن ترضى بهذا ، وإن فاتها الغزو الحربي فعزيز عليها أن يفوتها الغزو الأدبي ، والتمكين للغتها وأدبها بأرض مصر ، فتفيد نفوذاً وتجارة ، ولعلها تجد فرصة مواتية فتتدخل في شئون مصر ، ولذلك حثت علماءها على تأدية الرسالة التي اضطلع بها المجمع العلمي المصري[١] ، وشجعت الفرنسيين على الإقامة بمصر ، وحثت الأثرياء على دفع الأموال الطائلة في القروض التي أصدرتها الحكومة المصرية ، وفي إنشاء قناة السويس ، وتأسيس المصارف العقارية إلى غير ذلك ؛ وبهذا خضعت مصر اقتصادياً لفرنسا ، ولم تنس نشر الثقافة الفرنسية بمصر ، ونظرت إلى هذه المسألة في جد بالغ • استمع إلى ما يقوله أحد دعاتها في هذا الموضوع : « إن العقل المصري وهو يتهيأ للأفكار الجديدة لا يزال مملوءاً بتقاليد الماضي ، ويجب علينا أن نغير نفوس هؤلاء القوم • ونعلّم هذه العقول التي جففتها الشمس طريقة التفكير ، وأن نستميل بالحبّ هذه القلوب التي لم تعرف إلا الجشع ونهب الأجانب ، وأن نجبر مصر الدّهِشة المذهولة على أن ترفع رأسها فوق الصحارى والبحار • إن هذا عمل جسيم يحتاج إلى كثير من الصبر والتضحية وعدم الأثرَة ، كما يحتاج إلى وقت طويل ومجهود شاق ومحبة عظيمة » •

« لقد اجترأ شعب واحد على تقدير هذا المجهود ، وتعهد بإنجازه ، ألا وهو شعب فرنسا ، ولكنها ليست فرنسا الغازية التي اجتاحت البلاد ، بل فرنسا (ديلسبس) ، و (فرير أدريان) ، وفرنسا (ماريت) و (ماسبيرو)[٢] •

« إن عمل فرنسا بمصر كالخميرة تمتزج بالعجين فيرتفع ، فقد تغير المصريون وتحركوا بتأثير أفكارنا وتعليمنا وأمثلتنا ، ومنح المصريون في مدارسنا النهوض والانتعاش ، ووجدوا في رؤوس الأموال الفرنسية ما ساعدهم على بناء نجاحهم الزراعي ، واتخذت مصر من قناة السويس مركزاً وسطاً تجبي فيه الضرائب على

---

(١) راجع الفصل الأول من كتاب الأدب الحديث ج ١ •

(٢) ويلسبس هو المهندس الفرنسي الذي صمم مشروع قناة السويس ونفذه • وفرير أدريان من كبار المبشرين الفرنسيين ، وماريت وماسبيرو من علماء الآثار الذين احتلوا مكانة كبيرة في مصر •

السلع التجارية والعقلية بين الشرق والغرب . وأخيراً ستستمر مصر مدينة لعظمة فراعنتها الذين أرجعهم علماؤنا الأثريون المتحمسون إلى الضوء من أجدائهم[(١)] » .

عمدت فرنسا لبسط نفوذها الثقافي بمصر إلى الإرساليات التبشيرية والتعليمية وقد أسس الآباء العزاريون أول مدرسة فرنسية بمصر سنة ١٨٤٤ ، ثم جاء الفرير وأسسوا أول مدرسة لهم سنة ١٨٤٥ ، وقد اعترفت الحكومة بخدماتهم التعليمية للبلاد فوهبتهم بعد خمسة أعوام من قدومهم إلى مصر قطعة فسيحة من الأرض شيدوا عليها مدرستهم[(٢)] .

ثم جاء راهبات المحبة « منشئات أخوية الراعي الصالح » وأسسن مدرسة لتربية البنات سنة ١٨٤٦ . وحذا حذوهن الراهبات الفرنسيسكان وأنشأن مدرسة بالقاهرة سنة ١٨٥٩ بالقرب من الأزبكية ، وأخرى ببولاق سنة ١٨٦٨ ، وغيرها بالمنصورة سنة ١٨٧٢ . وقد أمّ هذه المدارس كثير من الطلبة والطالبات من كل جنس حتى بلغ عددهم في عهد اسماعيل ما يربو على ثلاثة آلاف طالب وطالبة ، على الرغم من أن الغرض الأساسي لهذه البعثات كان نشر الدين الكاثوليكي ، وخدمة الاستعمار الفرنسي ، والتمكين لنفوذ فرنسا الأدبي بمصر ، وفي ذلك يقول اللورد كرومر : « إن الفرنسيين قد قضوا نصف قرن قبل الاحتلال البريطاني ينشرون لغتهم بكل ما لديهم من وسائل ، في حين ظلت الحكومة البريطانية متعطلة لا تبذل أي جهد في تعليم المصريين[(٣)] » .

وعلى الرغم من أن فرنسا كانت تسودها روح الإلحاد فإنها شجعت رجال الدين الذين ينشرون الثقافة الفرنسية في الخارج ، وأرسلت البعثات (العلمانية) إلى مصر ، فأسست عدداً من المدارس ، ونوّه المسيو « هريو » رئيس مجلس النواب الفرنسي ، ورئيس البعثات العلمانية في الشرق بمنهج هذه المدارس ، وأنها تعمل على احترام جميع العقائد ونشر الثقافة الفرنسية ، والاهتمام بالروح الوطنية في

---

(1) Iullien Leopold (Semailles Français) Le Magazine Egyptian, Cairo. May 1926

وراجع رسالة الأستاذ الطيب حسن عن أثر الثقافة الغربية في الأدب المصري الحديث ص ٤٥ — مخطوط .

(٢) تاريخ مصر في عهد الخديو إسماعيل — جـ ١ ص ٢١٨ .

(٣) Earl Cromer's Modern Egypt. p. 236.

البلاد ، وأظهر أن البعثات العلمانية لا تسير في هذا المنهج إلا على ضوء التقاليد التي اشتهرت بها فرنسا ، وهي الدفاع عن حرية الشعوب وكرامتها الشخصية » [١] .

وقد زاد عدد تلاميذ المدارس الفرنسية بمصر حتى صار في سنة ١٩٢٦ أكثر من اثنين وأربعين ألف تلميذ وتلميذة ، ويربي هذا العدد على ضعف مجموع الطلاب الذين يتعلمون في المدارس الأجنبية الأخرى بمصر سواء كانت إيطالية أو أمريكية أو إنجليزية أو يونانية[٢] .

ولعلك تدرك الآن السر في انتشار اللغة الفرنسية بمصر ، وتمسك الأجانب عامة بها ، وجعلها لغتهم الأولى في معاملاتهم . لقد ساعد ذلك على انتشار الأدب الفرنسي ، حتى برع فيه بعض المصريين وأخذوا ينظمون الشعر ويؤلفون الكتب باللغة الفرنسية ، بيد أننا لا ننسى أن هؤلاء الذين يتعلمون في مدارس أجنبية وبخاصة المدارس الفرنسية ، لا يعرفون شيئاً من اللغة العربية . والحق إن فرنسا لو مكن لها أن تستعمر مصر كما استعمرت الجزائر وتونس وسوريا ولبنان ، وقضت بها أمداً طويلاً كما قضت بتلك البلاد لضعف شأن العربية ، وانحط الأدب العربي أيما انحطاط ، فقد عملت فرنسا في كل بلد احتلته على محو اللغة الأصلية محواً تاماً بمحاربتها ، وعدم العناية بها ، ونشر اللغة الفرنسية ، وصبغ الأهالي بالصبغة الفرنسية في كل شيء ، حتى يمسخوا ويشوهوا ، وتفنى شخصيتهم ومقومات وطنيتهم في فرنسا كما حدث لأهل الجزائر وتونس ، وكما أوشك أن يحدث لأهل لبنان لو لم يكن أمد الاحتلال الفرنسي بها قصيراً .

ومع كل هذا فقد كان لنشر الثقافة الفرنسية بمصر أثر واضح في الأدب العربي الحديث أشرنا إلى بعضه في الجزء الأول[٣] ، وسنعود للحديث عنه فيما بعد .

— ٢ —

هذا ما كان من سعي فرنسا في نشر لغتها ، وتقوية نفوذها بمصر ! أما إنجلترا فقد أدركت أهمية مصر منذ أن غزاها نابليون ، ووثقت من أن دولة قوية مثل فرنسا تستطيع أن تحول بينها وبين مستعمراتها في الشرق الأقصى إذا استقرت بوادي النيل ،

---

(١) خطبة مسيو هربو في افتتاح مدرسة الليسيه بمصر الجديدة . الاهرام ٤ مايو سنة ١٩٣٨ .
(٢) تقرير وزارة المعارف سنة ١٩٣١ — ١٩٣٢ .
(٣) الفصل السادس .

ولذلك عملت انجلترا جهدها على إخراج نابليون وجنده من مصر ، وكانت موقعة أبي قير المشهورة • وكم تمنت إنجلترا بعد ذلك أن تبسط سيادتها على هذه الديار الغنية ، التي تتوسط العالم ، وأرادت بادىء الأمر أن تكسب ثقة تركيا بها ، وأن تعمل على أن يستقل المماليك بشئون البلاد ، وتتولى هي حماية شواطئها الطويلة ، بيد أن هذه المحاولة باءت بالإخفاق • ولما لم تجد بدأ من القوة لتحقيق بغيتها غزت مصر في سنة ١٨٠٧ بقيادة الجنرال « فريزر » ، ولكن الشعب المصري وأهل رشيد تصدوا لهذا الغزو الذي لا مسوغ له إلا الجشع الاستعماري ، وهزم الإنجليز هزيمة منكرة برشيد في تلك السنة ، وبذلك استراحت مصر من الإنجليز وطمعهم خمسة وسبعين عاما[1] ، حين دخلوها بعد الثورة العرابية متذرعين بأسباب سخيفة بادية الضعف والطمع •

وظنت انجلترا حين مُنيت بهزيمة رشيد أنها تستطيع أن تنشر نفوذها عن طريق الإرساليات التبشيرية والتعليمية كما فعلت فرنسا ، أو أن تمهد لها الإرساليات سبيل التدخل السافر في شئون مصر ، كما مكنت لها شركاتها التجارية غزو الهند واحتلالها، فأرسلت أول بعثة تبشيرية إلى مصر سنة ١٨٤٠ ، وجاءت البعثة الأسكتلندية البروتستانتية وفتحت لها مدرسة بالأسكندرية ، وتلتها بعثة أخرى سنة ١٨٦٠ برئاسة (مس وتلي) كريمة رئيس أساقفة (دبلن) ، ووهبت هذه الفتاة حياتها ونشاطها للمهمة التي اغتربت من أجلها وسعت جهدها للنجاح في تعليم الفتاة المصرية ، وأسست مدرسة بالقاهرة لهذه الغاية • ولاقت صعوبات جمة ، وعناء شديداً في حمل المصريات على الاستجابة لندائها ، ولكنها صابرت وثابرت ، من غير أن تعرف التبرم والسخط والملل عشر سنوات كاملة بدت لها بعدها تباشير النجاح ، فغص معهدها بالتلميذات ، وشجعها الخديو إسماعيل بأن وهبها قطعة أرض رحبة بالفجالة وأمدها بالمال اللازم لتشييد هذه المدرسة ، فصارت من أرقى مدارس مصر ، وأقبل عليها الفتيات المصريات والأجنبيات ، ولا سيما بعد أن فتح إسماعيل المدرسة السنية سنة ١٨٧٣ تشجيعاً على تعليم البنت ، ووضعها تحت رعاية إحدى زوجاته •

ولم تكن المدارس الإنجليزية وحدها مصدر الثقافة الإنجليزية بمصر ، بل ساعدها في ذلك الميدان مجيء أول بعثة أمريكية في الشرق سنة ١٨٥٥ ، في عهد

---

(١) تاريخ مصر السياسي لمحمد رفعت (باشا) جـ ١ ص ٩٢ — ٩٣ •

سعيد ، وكان ميالا بطبعه للأجانب ، يمنحهم تشجيعه ومساعدته • واتخذت البعثة الأمريكية مقرها بالقاهرة ، ودأبت في جدٍ وحرص على نشر رسالتها في جميع أرجاء مصر والشرق العربي ، تؤيدها الأموال الأمريكية الطائلة ، والأساليب التربوية الحديثة ، ولم تدع عاصمة من عواصم القطر ، بل ولا مركزاً مهماً من مراكزه إلا أسست فيه فرعاً ومدرسة تنشر تعاليمها ، حتى وصل عدد مدارسها في سنة ١٩٣٢ إلى ما يزيد عن اثنتين وأربعين مدرسة ، بها ما يـربي على ٦٩١٤ تلميذاً وتلميذة[١] •

وعلى الرغم من كل ذلك فقد ظل نفوذ الإنجليز الأدبي والثقافي بمصر محدود الأثر ، لا يستطيع مغالبة النفوذ الفرنسي ، إلى أن جاء عهد الاحتلال على أثر الثورة العرابية في سنة ١٨٨٢ ؛ وقد أفضنا في الحديث عن هذه الثورة ، وكيف دخل الإنجليز مصر وذكرنا الأسباب الواهية التي حاولوا أن يسوغوا بها هذا التدخل الذميم أمام مصر ، وأمام دول الغرب التي كانت تقف لهم بالمرصاد[٢] •

وما أن استقر الإنجليز بمصر حتى نشطوا لتثبيت أقدامهم بها ، فأرسلوا في سنة ١٨٨٣ عدداً غير قليل من غلاة المستعمرين وذوي الخبرة في إذلال الشعوب واستغلالها ، وعلى رأسهم ذلك الداهية السير (إدفلين بارنج) الذي عرف فيما بعد باسم (اللورد كرومر) ، والذي حكم مصر أربعة وعشرين عاماً إلى أن أخرج منها سنة ١٩٠٧ •

كانت مصر ترزح تحت وطأة الديون الثقيلة التي أرهقها بها إسماعيل ، والتي اتخذها الغربيون ذريعة لبسط نفوذهم المالي عليها • وقد جاء (كرومر) ، ومصر في عجز عن تسديد ديونها ، فأحكم تدبير المال ، وأخذت مصر في سنة ١٨٨٩ تسدد أقساط تلك الديون التي جعلت للأجانب امتيازات بهذه الديار ، صيرتهم السادة المترفين ، وأصحاب الجاه والسلطان وجعلت أهلها أدنى من الأجراء والخدم ، أذلاء مضطهدين • ولم تستطع مصر أن تتخلص من هذه الديون على الرغم من عبقرية (كرومر) المالية إلا في سنة ١٩٤٢ •

وكما كانت حال مصر المالية بالغة السوء ، فإن أحوالها الاجتماعية كانت أشد

---

(١) إحصاء قسم التسجيل والامتحانات بوزارة المعارف العمومية سنة ١٩٣١ — ١٩٣٢ •
(٢) راجع الفصل الخامس من كتاب الأدب الحديث ج ١ •

سوءاً ، وقد ذكر (كرومر) في كتابه مصر الحديثة (Modern Egypt) ما قدمه لمصر في هذا الميدان ، وهاك طرفاً من قوله يمن به على مصر والمصريين :

« لقد سرت بالتدريج روح جديد إلى سكان مصر ، وتعلم الفلاح كيف يمعن النظر في حقوقه ، وتعلم الباشا أن لمن يجاوره من الفلاحين حقوقاً يجب احترامها . وعلى الرغم من أن السوط كان لا يزال معلقاً على جدار المديرية فإن المدير لم يجرؤ على رفعه واستعماله فوق ظهر الفلاح .

وقد اختفت السخرة البغيضة من مصر ، وذهب الرق عملياً من الوجود ، وانقضى أجل الأيام السعيدة التي كان يتمتع فيها المرابون باستنزاف دماء المصريين . وأصبح للقانون الكلمة العليا في كل مكان ، بعد أن كان القضاء يباع ويشترى ، وابتدأ المصريون يحبون أرضهم ويعملون بها بعد أن كانوا يحتقرونها ؛ لتمنحهم هباتها وخيراتها فاستجابت لدعوتهم كريمة معطاءة .

وقد أحكم توزيع مياه النيل بالعدل والقسطاس المستقيم بين أرض الأمير الكبير والفلاح الصغير ، ونظمت وسائل النقل واتسع نطاقها وأصبح المرضى يعالجون في مستشفيات جيدة الإدارة، ولم يعد المجرمون والمجانين يعاملون الآن معاملة الوحوش الضارية ، بل إن الحيوان الأعجم قد مسته يد الرفق فوجد من يعنى به »[١] .

وفي اعتقادي أن بعض ما ذكره (كرومر) صحيح ، وبعضه قد بالغ فيه ، فإن الإصلاح قد ابتدأ على يد محمد علي ، وذهب عهد الأتراك والمماليك ، المليء بالمآسي الدامية ، والسخرة المقيتة ، وشعرت مصر بشيء من العزة والاستقلال في عهد محمد علي وإسماعيل . ولولا ما أراده إسماعيل من الطفرة لمصر في نهضتها لسارت قدماً في سبيل الرقي ، غير متخلفة ، أو محتاجة إلى أية مساعدة أجنبية . وقد ذكرنا في الجزء الأول ما قام به عرابي في هذا الشأن ، وكان من الممكن أن يتم ما بدأه لو لم يُنفَ عن مصر ويحتلها الإنجليز[٢] .

أجل! إن الإنجليز قد أحكموا توزيع المياه بالعدل، ورفعوا عن كاهل الفلاح كثيراً من الضرائب المرهقة التي نفرته من الأرض ، ودفعته إلى الهرب منها . ولم يكن غرض

---

(١) Earl Cromer's Modern Egypt. vol II p. 55-7.

(٢) راجع الجزء الاول من الادب الحديث ط السادسة ص ٣٤٩ .

الإنجليز فيما أعتقد هو خدمة الفلاح محبة فيه ، ورغبة في إسعاده لوجه الخير ، ولكن كان غرضهم الأول هو خدمة بلادهم . فمصر الغنية الهادئة ، الرخيصة الخصبة ، تستطيع أن تعين إنجلترا المعوزة في المحصولات الزراعية بما تغله من خيرات . والفلاح الذي يمثل جمهرة الأمة وسواد الشعب ، إذا شعر بشيء من الطمأنينة والراحة تغنى بمآثر الإنجليز ، وسخط على سادته وكبرائه ، وفي هذا تمكين لقدم المستعمرين ، وتكأة يعتمدون عليها في تسويغ مقامهم غير الحميد بمصر ، واستعمار أهلها .

ولا أدل على أنهم لم يقصدوا بهذه الإصلاحات نهضة مصر ، أو رقي أهلها ، من سياستهم التعليمية بهذه البلاد ، فقد نهجوا فيها نهجاً استعماريا بغيضاً ، ورجعوا بتقدمها العلمي الذي أحرزته على يد محمد علي وخلفائه ، ورجال البعثات المصريين سنين طويلة إلى الخلف ، ولقد شهد بذلك أكثر من مؤرخ إنجليزي منصف ، أو ناقد متبرم من إخفاق الإنجليز في نشر نفوذهم الأدبي والثقافي بمصر[1] .

— ٣ —

رأى كرومر بعد أن خطا في إصلاحاته المالية والاجتماعية والداخلية خطوات واسعة ، أن عليه واجباً نحو نشر الثقافة الإنجليزية بمصر ، وقد راعه ذلك البنيان الضخم من الثقافة الفرنسية ، الذي شيدته همم الإرساليات ، وعززته الحكومة الفرنسية ، ورجال الاقتصاد والأعمال الفرنسيون . هالته كثرة المدارس الفرنسية بمصر ، وحماسة هؤلاء الذين تعلموا بها — أو في فرنسا ذاتها — لنشر الثقافة الفرنسية ، ورأى أن الفرنسيين قد بذلوا غاية جهدهم لمساعدة هؤلاء الذين يتخرجون في مدارسهم ، فاشترطوا على الإنجليز أن يظل لهم النفوذ الأول ببعض المصالح الحكومية كما كان شأنهم قبل الاحتلال البريطاني ، فاستأثروا بمصلحة الآثار المصرية — وظلت إلى أن جاءت الثورة في أيديهم — ونظارة مدرسة الحقوق ، واستولوا بأموالهم وقروضهم وشركاتهم ومؤسساتهم التجارية على أكثر من نصف

(1) See. George Young : Egypt. and Sir Valentine Chirol : The Egyptian problem. See also Lord. Lloyd : Egypt Since Cromer.

الذين يتخرجون في مدارسهم متسعاً للعمل بهذه الشركات والمؤسسات ، وصارت المصالح الاقتصادية والأموال المنقولة بمصر ، ووجد الشبان المصريون والأجانب اللغة الفرنسية لغة التعامل والتداول والتجارة بين الأجانب بمصر ، وبينهم وبين المصريين • حتى اضطرت المحاكم المختلطة أن تصدر تسعة أعشار أحكامها باللغة الفرنسية ، فضلا عن الموظفين العديدين الذين وجب عليهم إتقان هذه اللغة تلبية لجمهرة المتقاضين أمام المحاكم المختلطة •

وعلى الرغم من الاحتلال الإنجليزي وطول أمده فلا تزال اللغة الفرنسية هي اللغة الأولى في السوق المصرية حتى اليوم ، وهي لغة التخاطب بين الأجانب المختلفي الجنسية • لقد استجابت فرنسا والفرنسيون لنصيحة نابليون التي يقول فيها : « علموا اللغة الفرنسية ففي تعليمها خدمة الوطن الحقيقية » •

رأى كرومر كل هذا ، وأن الشعب المصري لا يمكن أن يقبل الاستعمار الإنجليزي إلا إذا أقبل على الثقافة الإنجليزية ، وقدم له الانجليز عملا مجدياً في سبيل تعليمه ، ولكن هل كان كرومر جاداً في تعليم المصريين ؟ أو أن غايته هي بسط نفوذ الاستعمار ، ولو أدى ذلك إلى الرجوع بالتعليم إلى الوراء ؟ ! •

لقد وضع كرومر سياسة تعليمية سار عليها أمداً طويلا ، وجاء « دانلوب » في سنة ١٩٠٦ وورثها عنه ولقنها منه ، وعمل على تنفيذها ؛ وتتلخص هذه السياسة في الأمور الآتية :

١ ــ نشر التعليم بين الفتيات المصريات ، ولعله تأثر في ذلك بما قدمته « مس وتلي » من خدمات في هذا المضمار ، وظن أن تعليم البنت وتلقينها الثقافة الإنجليزية يهيىء الفرصة لوجود جيل من الأبناء يحبهم ويعطف عليهم •

٢ ــ العمل على محو الأمية بين الفلاحين والطبقات الفقيرة بمصر ، وذلك بتعميم مدارس القرى في الريف ، ومدارس المساجد في المدن •

٣ ــ إعداد فريق من الشبان المصريين لتولي الأعمال الكتابية والإدارية ، والفنية المتواضعة في الحكومة •

٤ ــ مناهضة الثقافة الفرنسية ، واللغة العربية في المدارس وإحلال اللغة

الإنجليزية محلها .

وقد أخفق كرومر في هذه السياسة كل الإخفاق ؛ لأنه لم يكن خبيراً بشئون التعليم ، ولأنه قاوم الحركة الوطنية التي بدأت سيرها منذ عهد محمد علي ، والتي نهضت باللغة العربية ، وساعدت على انتشار اللغة الفرنسية ، ولأنه لم يفهم نفسية المصريين على حقيقتها ، وظن أنه حين ينهض بتعليم الفتاة يجد إقبالا على سياسته تلك ، ونسي أن الحجاب كان ذا سيطرة قوية حينذاك ، وأن المصريين نظروا إلى اللغة الإنجليزية على أنها لغة المحتل الغاصب ، فانصرفوا عن مدارسه . ومما عمل على شدة إخفاق سياسته في ميدان التعليم ذلك المستشار الإنجليزي الذي وضعه بوزارة المعارف يسير أمورها ، وهو لا يعرف من شئون التربية قليلا أو كثيراً ، ألا وهو المستر «دوجلاس دانلوب» الذي خدم بوزارة المعارف من سنة ١٩٠٦ إلى ١٩١٩ .

اجتمعت في دوجلاس دانلوب سوأتان ، فهو قسيس اسكتلندي ، وقد اشتهر أهل اسكتلندا بغلوهم الاستعماري ، ونظرتهم إلى الشعوب الملونة نظرة ازدراء ، واعتقدوا أنهم لا يصلحون لإدارة أمورهم بأنفسهم ، وأنه لا بد لهم من قيادة غربية حتى تستقيم أمورهم . وقد جاء دانلوب خير مثل يضرب لضيق الأفق ، ونقص الثقافة ، والتعصب الذميم لرأيه ، وأصدق ما وصف به هذا الذي نكبت به مصر بعامة ، ووزارة المعارف بخاصة ما قاله عنه وعن سياسته البغيضة في التعليم (السير ڤالنتين تشرول) في كتابه المسألة المصرية :

« لقد كانت سياستنا التعليمية تفتقر إلى الروح المعنوية ، والإلهام القوي ؛ لأننا تركناها في يد مستشار وزارة المعارف مستر دانلوب . وكان دانلوب حسن النية ، دءوبا على الجد والعمل ، غير أن آراءه في التربية لم تتعد ما كانت توحي به تلك الدروس التربوية التي تلقاها في حداثته .

« ومهما امتاز به دانلوب من صفات محسودة فإنه كان ضيق الفكر ، قصير النظر يؤمن بالكمية لا بالنوع ، أي بكثرة المواد الدراسية لا نوعها ، وكان وهو متربع في كرسي مكتبه بوزارة المعارف يصدر الأوامر والنظم والقوانين المتعددة كما تتصورها عقليته ، وقلما كان يأبه لرأي سواه . أما نصح المصريين له فكان — بالطبع — لا يجد منه أذنا صاغية ولا يتسع له صدره »[1] .

---

(1) Sir Valentine Chirol, The Egyptian Problem, pp. 231-232.

فلا بدع إذا أخفق كرومر في سياسته التعليمية بمصر وهذه عدده ووسائله . لقد أتى كرومر مصر ونسبة تعليم البنات بها ثلاثة في الألف[1] في سنة ١٨٨٣ وخرج من مصر سنة ١٩٠٧ ونسبة تعليم البنات ثلاثة في الألف[2] كذلك ، وأي إخفاق أعظم من هذا في أول مشروع في منهجه التعليمي !!

وإذا قيل : لقد امتحن كرومر بتعليم البنت ، وأبت مصر المحافظة التي كان للدين بها أثر كبير أن تدفع فتياتها إلى ميدان التعليم ولا سيما وميدان العمل لم يكن قد فتح أمام الفتاة كما هو الشأن اليوم ، ولعله كان أكثر نجاحاً في مشروعه الثاني وهو محو الأمية لأنه تعليم للذكور وتعليمهم استمرار للنهضة التي وضع أسسها محمد علي ونماها إسماعيل .

لقد بذل كرومر في تعليم الذكور جهداً كبيراً ، وأعان مكاتب القرى بالمال ، وأنشأ مجالس المديريات ، وأعطاها سلطة فرض ضرائب محدودة لتستعين بها على محو الأمية ، ومع كل هذا جاءت النتيجة عكس ما قدر (كرومر) فقد ابتدأ عهده في سنة ١٨٨٣ ونسبة المتعلمين من الذكور ١٦٪[3] ورحل عن مصر سنة ١٩٠٧ ونسبة المتعلمين لا تزيد عن ٨٪[4] ، ومعنى ذلك أن عدد المتعلمين قد تضاءل إلى النصف ، فهل يعد هذا نجاحاً ، أو إخفاقاً ذريعاً ؟ ولعل من أسباب هذا الإخفاق ، وإحجام كثير من المصريين عن التعليم ما نهجه كرومر من فرض اللغة الإنجليزية على المدارس الابتدائية والثانوية ، وعدم تشجيع التعليم العالي كما سنذكر بعد قليل ، فلم يجد المصريون أمامهم إلا طريقة معقدة تتنافى ودينهم ولغتهم كما وجدوا مستقبلهم معتما لا يشجعهم على دفع أبنائهم إلى المدارس المصرية التي صبغت بصبغة إنجليزية . ولقد كانت جمهرتهم متدينة ، ونظرت إلى هذا النوع من التعليم على أنه شيء ليس فيه ما يرضي الله أو الدين أو الوطن ، ولم يقبل على المدارس المصرية إلا القليل من أبناء المدن .

---

(1) Yacoub Aratin Pasha; L'Instruction Publique en Egypte. Appendex A. P. 151.

(٢) الاحصاء الحكومي العام سنة ١٩٠٧ .

(3) Yacoub Aratin Pasha; L'Instruction Publique en Egypte. Appendex A. P. 152.

(٤) الاحصاء الحكومي العام سنة ١٩٠٧ .

والذي يعنينا هنا أثر هذه السياسة في الأدب ؛ فقد نقص عدد القراء في عهد الاحتلال الإنجليزي نقصاً زرياً • لمن ينتج الأدباء ؟ وأي تشجيع يجدونه من أمتهم ؟ أو من وليّ الأمر فيهم ، وهو إنجليزي اللسان والحكم ؟

وإذا كنا للآن وبعد أن مضى أكثر من نصف قرن ، تغيرت فيه نظم التعليم ، ونالت مصر فيه حريتها ، وكثر فيها المتعلمون كثرة نسبية ، وعظم الاعتناء باللغة العربية — إذا كنا للآن نشكو من قلة عدد القراء ، وعدم الاستجابة ، أو الرغبة في قراءة الكتب الأدبية ، فما بالك بما حدث في عهد كرومر من هذه النكسة المريعة من ثقافة الشعب ، وتعليم جمهرة بنيه ؟

لا يسعنا إلا أن نقول كما قال الأستاذ (جب)[1] في هذا : « من أن مصر التي بدأت فيها النهضة منذ قرن من الزمان على يد محمد علي ، والتي كانت النموذج الذي احتذته تركيا ، وهي الدولة صاحبة السيادة الاسمية على مصر ، قد أصيبت في آدابها ، وتأخرت عن تركيا ولا سيما في فن القصة ، وقد مضى القرن التاسع عشر — على الرغم من أن بعض القصص الأدبية قد نقلت إلى اللغة العربية ، ولم يتقدم مؤلف واحد بقصة كاملة استوفت شروط القصة الحديثة ، اللهم إلا شبه قصة هي (حديث عيسى بن هشام) للمويلحي الصغير » •

ولولا أن الصحف والمجلات ، قد آوت الأدباء وأفسحت لهم ميدان الكتابة ، لما وجد هؤلاء سبيلا للنتاج الأدبي أو شبه الأدبي ولقضي على أقلامهم ، ولانصرفوا لاحتراف شيء آخر غير الأدب ، يصيبون منه بعض ما يقوم برزقهم ورزق أولادهم وأسرهم •

ولقد كان لذلك تأثير آخر في الاتجاه الأدبي الحديث ؛ لأن الكتّاب جوّدوا المقالة وراجت سوقها ، بيد أن الصحف السيارة ليست ميداناً للتجويد الأدبي ؛ لأن جمهرة قرائها من غير الأدباء ، ولأنها تعنى بالأخبار والحوادث قبل أن تعنى بالمقالة الإنشائية ، أو يجب أن تكون كذلك على الأقل ، فيجب على الكاتب أن يراعي

---

(1) H. R. Gibb, B. S. O. S. Vol 5 pp. 314-5.

مستوى الجمهور الذي يكتب له ، ورغباته اليومية ؛ ولهذا نزل الكاتب من عليائه إلى المستوى الذي يتطلبه الجمهور ، في أسلوبه وموضوعه ، وطريقة عرضه .

وثمة شيء آخر هو أن الكاتب لم يكن حراً فيما يختار من موضوعات ، لأن الصحف سياسية قبل كل شيء ، تهتم بالسياسة الخارجية والداخلية ، وهي تمثل لوناً معيناً من هذه السياسة . وقد كان بمصر حينذاك أحزاب مختلفة : حزب الخديو ، وحزب الإنجليز ، وحزب الوطنيين ، ولكل حزب ألسنة من الكتاب والصحف تدافع عن سياسته ، وتحصي على الآخرين أخطاءهم ، وتفند أقوالهم . ولذلك كله اضطر الكتاب إلى خوض المعارك الحزبية والسياسية ، ولم يعد للأدب الخالص ، أو الموضوع الذي تشبعت به نفس الكاتب وامتلأت مشاعره ــ مجال في الصحف إلا قليل . وقد عاد كل هذا على الأدب بالضرر ، فكسدت سوقه ، وخمدت قرائح الكتاب ، وتعطلت أقلامهم الرفيعة . وسنعود إلى الحديث في توضيح هذا بعد قليل إن شاء الله .

أما ما قصده (كرومر) من إعداد طائفة من الشبان المصريين لشغل بعض وظائف الدولة غير ذات الخطر ، فقد نجح فيه أيما نجاح واستطاع أن يخرج آلات صماء ، ليس عندهم شيء من الجرأة وحرية الرأي ، والقدرة على الابتكار ، ثقفوا ثقافة محدودة ، فبعضهم اكتفى بالتعليم الابتدائي ، وآخرون زادوا قليلا فنالوا الشهادة الثانوية ، وقد ملئت أدمغتهم بمعلومات كثيرة غير مفيدة لهم في حياتهم الفعلية . وكان الغرض الأول أن يظلوا مرءوسين للإنجليز الذين غصت بهم مصالح الدولة ، لا يتطلع أحدهم إلى منصب كبير ، وليس في مُكنته أن يشغل هذا المنصب الكبير إذا تطلعت نفسه إلى ذلك ، لأنه لم يُعَدّ الإعداد الواجب لشغل مثل هذا المنصب .

ومما يؤسف له أن سياسة (كرومر ودانلوب) في التعليم قد ظلت أمداً طويلا ــ بعد أن نالت مصر حريتها ، وتخلصت من الإنجليز في التعليم ــ هي السياسة المتبعة في مصر وصار المنصب الحكومي هو غاية ما يتطلع إليه الشباب في مصر ، والأمل الذي يَجْمع له كلّ قواه . وفي ذلك يقول مستر (مان) في تقريره لوزارة المعارف : « ليس في العالم على الأرجح قطر يتمتع فيه موظف الحكومة بمنزلة كبيرة بين

الأهلين كالتي يتمتع بها الموظف بمصر وقد لا يوجد في أي بلد آخر آباء يضحون بالشيء الكثير في سبيل جعل أبنائهم موظفي حكومة بأي شكل كان »[1] .

ولم تكن هذه الغاية وحدها هي كل ما جناه الإنجليز على التعليم بمصر ، بل إن مستر دانلوب ، الذي أسلمه كرومر قيادة التعليم في مصر سنة ١٩٠٦ قبل أن يغادرها، قيّد التعليم بقيود شنيعة من القوانين الصارمة ، لا يحيد عنها ، ولا يعرف سواها ، وأكثر من حشو أدمغة التلاميذ بشتى المعلومات المفيد منها وغير المفيد . وصار المعلم في المدارس آلة صماء أمام القانون ، وصار التلميذ آلة في يد المعلم ، وفقد كلاهما شخصيته ، وصارت المدارس أشبه بالسجون ، والهمّ الأكبر الذي يشغل التلميذ ، والمدرس ، وناظر المدرسة ، ووزارة المعارف وعلى رأسها (مستر دانلوب) هو نجاح التلميذ في الامتحان . أمّا أن تعنى وزارة المعارف ، وتعنى المدرسة معها بشخصية التلميذ ، ودراسة مواهبه واستعداده ، وتحسس ميوله ، وتصقل خلقه ، وتنمي ملكاته العليا فذلك أمر لم يخطر لوزارة المعارف ، ولا لمستر دانلوب على بال ، ولو كان خطر له ، ما أقدم عليه ؛ لأنه كان يريد إخراج جيل مشوّه التعليم ، لا يصلح للحياة الحرة الكريمة .

لقد قيد مستر دانلوب المعلمين بقيود سخيفة وضعها في قانون نظام المدارس ، وهذا دليل على أنه لم يكن يثق في هؤلاء المعلمين ، وأول ما يجب على المهيمن على شئون التعليم أن يثق بالمربي والمعلم . فإن لم يفعل هذا ، وأبى إلا أن يندس بين المعلم وتلميذه في كل لحظة ، ويشعره بأنه من ورائه يقيد أنفاسه ويحصي أخطاءه ما صغر منها وما كبر ، أفسد عليه أمره ، وأفسد التعليم كله ، وصار المعلم ينظر إلى هذا المهيمن على التعليم نظرته إلى الحاكم المستبد الذي يدفع إليه أجراً ويتقاضاه عملاً ، فصانعه وخادعه ، وقامت التهمة بينه وبين رئيسه مقام الثقة ، وقام الخوف والشك بينهما مقام الأمن واليقين ؛ « ولم يعد ينظر إلى التلميذ على أنه أمانة قد اؤتمن عليها ، ووديعة قد كلّف حمايتها وحياطتها ، وفرد من أفراد الشعب قد كلف تربيته وتنميته ، وتعهده بالرعاية والعناية ، حتى ينمو ويزكو ويصير رجلا ، وإنما

---

(١) مستر (مان) خبير إنجليزي في التعليم استقدمه الأستاذ علي الشمسي وزير المعارف كما استقدم مستر (كلاباريد) السويسري الخبير بشئون التعليم ، وقدم كل منهما تقريراً لوزارة المعارف سنة ١٩٢٨ .

ينظر إليه على أنه مادة للعمل الذي يعيش منه ، وموضوع للنشاط الذي يكسب منه القوت ، فيعامله معاملة المادة الجامدة الهامدة ، لا معاملة الكائن الحي ، ولا معاملة الإنسان الناطق[١] » ، ويصوغ هذه المادة كما يجب أن يكون هذا الرئيس لا كما يجب أن تكون ، ويصبح هذا المعلم آلة من الآلات ، وأداة من الأدوات في هذا المصنع العقيم السخيف الذي نسميه المدرسة .

وإليك ما يقوله مستر (بويد كاربنتر) : « على المستر (دانلوب) تقع تبعة فساد التعليم المصري ، والرجوع به القهقرى ، وإخراج موظفين جل اعتمادهم في أثناء دراستهم على الاستظهار والحفظ ، لا على القوى العقلية السامية الأخرى : من التعقل والموازنة ، والابتكار ، والاستنباط . وقال : إن الطالب المصري يعتمد في تحصيله على ذاكرته ، وعلى التكرار الآلي للحقائق المحفوظة ، لا على ذكائه وتفكيره، فينشأ عن ذلك ضيق أفقه ، وجهله بالحوادث المعاصرة ، وحاجته الشديدة للمعلومات العامة وللسرور والإقبال على ما يدرس »[٢] .

لم يكن (دانلوب) مخلصاً لمصر ، بل كان استعمارياً من النوع الذي يسيء لبلده وللبلد المحكومة على السواء ، فسياسته التعليمية لم تكن هي التي تنتهجها إنجلترا في تعليم أبنائها ، وتربية شبابها ؛ لأن الإنجليز قد اشتهروا بنوع من التربية فيه كثير من المزايا ، التي تبعث في الشباب الحرية في العمل والتفكير ، والاعتماد على النفس ، والمغامرة في الحياة ، وارتياد مجهولاتها ؛ وبفضل هذه التربية الاستقلالية التي لا تحدها نظم مدرسية صارمة ، ولا قوة قوانين ظالمة ولا مناهج غاصة بالتافه من المعلومات ، وإنما عمادها الطبيعة ، طبيعة الوجود ، وطبيعة الطفل ، ودراسة ميوله وغرائزه ، وتنمية ملكاته إلى أقصى حد تستطيع أن تصل إليه ، استطاعوا بفضل ذلك كله أن يكونوا في طليعة الأمم ، وأن تتسع امبراطوريتهم وتجارتهم ، ولم يرضوا بالحياة الضَنكة في ديارهم إذا قُتِّر عليهم في أرزاقهم ، بل جابوا البحار ، والصحارى ، والغابات ، واستوطنوها واستغلوها ، ثم لما كثرت مصالحهم طالبوا دولتهم بحمايتهم ، فبسطت سلطانها على كثير من بقاع الأرض .

---

(١) مستقبل الثقافة في مصر للدكتور طه حسين ص ١٧٠ — ١٧١ .

(٢) تقرير مستر بويد كاربنتر Boyed Carpenter رئيس التفتيش بوزارة المعارف سنة ١٩١٨ .

ولقد كانت التربية في إنجلترا موضع تقدير من مفكري أوربا ، ولا سيما فرنسا التي يعامل فيها الطفل منذ حداثته معاملة الرجل ، فيغشى مجالس الرجال ، ويستمع إلى أحاديثهم التي يجدر به ألاَّ يسمعها ، والتي لا يصح أن يستمع إليها ، ويقضي معهم سهرته في الوقت الذي يجب أن يأوي فيه إلى فراشه ، ويلبسه أهل السراويل الطويلة تشبها بالرجال ، وهو في أمس الحاجة إلى الهواء والشمس . وعلى العموم لا يعاملونه معاملة طفل ينمو ، له رغباته التي يجب أن تحترم في حدود المعقول ، ويجب أن توجه برفق إلى الخير ، ولا يتركونه للطبيعة يتملى من محاسنها ومفاتنها ، ويتلقى عنها دروس الحرية والكرم والشجاعة[1] ، وإنما يعاملونه معاملة رجل مثلهم . كانت التربية الاستقلالية هذه معمولاً بها في انجلترا على الرغم من أن إنجلترا لم تشتهر بعلماء التربية والنظريات التربوية كما اشتهر سواها من الأمم .

ومما يدل على تقدير المفكرين لتربية النشء في بلاد الإنجليز ما قاله العلامة (جوستاف لوبون) من : « أن المبدأ الأساسي في التربية التي يسير عليها الإنجليز هو أن يقضي النشء زمن الدراسة في المعاهد والمدارس والكليات ، لا ليؤدبه سواه ، ولكن ليتعلم إلى الحد الذي يمكّنه من أن يستخدم استقلاله الذاتي استخداماً نافعاً، فالنشء لديهم يؤدب نفسه بنفسه وبذلك يتصف بهذه الخلة الحميدة ألا وهي ضبط النفس ، وهي مصدر الحكم الذاتي »[2] وعلى العكس من ذلك كله كانت سياستهم التعليمية في مصر .

وظلّت سوءات الإنجليز في تعليم الشعب المصري تؤتي ثمارها البغيضة ، حتى بعد أن تولى المصريون شئون التعليم ؛ إذ لم يكن من الميسور أن تتخلص من أوضار هذا العهد دفعة واحدة ، وقد ظل أكثر من ثلاثين عاما ، وسادت نظمه وقوانينه جميع مراحل التعليم ، لأن الجيل الذي تربى على أيديهم صار يملك قيادة المصريين في التعليم ، ويوجههم تلك الوجهة التي تربى عليها في صغره ؛ ولأن الفساد كان أعظم من أن يزول في سنوات معدودات ، ولذلك ظلت آثامه ردَحاً غير قليل من الزمن

---

(١) انظر كتاب (التربية الاستقلالية) أو إميل القرن التاسع عشر — ترجمة عبد العزيز محمد وراجع سر تقدم الانجليز السكسونيين ترجمة فتحي زغلول .

(2) Gustave le Bon, Psychologie du Socialisme p. 197.

تسيطر على المدرسة المصرية . وفي ذلك يقول الدكتور طه حسين : « وهناك التعليم الرسمي المدني تنشئه الدولة وتقوم عليه ، وقد كان إلى الآن متواضعاً هـيِّن الأمر ، يقصد به إلى أغراض متواضعة هينة ، وقد رسم له الإنجليز طريقة محدودة ضيقة ، فأفسدوا نتائجه وآثاره أشد الفساد ونحن نبذل منذ أعوام جهوداً مختلفة مضطربة لإصلاح ما أفسد الإنجليز ، فلا نكاد نوفق في بعض الأمور ، حتى تعدو العاديات فتردنا إلى الإخفاق والخذلان[1] » .

وشكت الجامعة مُرَّ الشكوى من أن طلبتها ليسوا في مستوى ثقافي يمكنهم من الدراسة الجامعية الصحيحة ، ولأنهم ليسوا في مستوى عقلي يخلق منهم علماء أجلاء ، لديهم قوة الابتكار ، وحرية الفكر ، والاستقلال في الرأي ، وإليك ما يقوله نجيب الهلالي (باشا) في تقريره عن التعليم الثانوي سنة ١٩٣٥ : « ذلك إلى أن جميع المعاهد تشكو من أن الطلبة لا تتحقق فيهم الصفات المطلوبة للدراسة العالية ، من حيث روح التعقل ، وقوة الملاحظة ، والاعتماد على النفس ، وحب البحث ، حتى إنهم يضطرون أساتذتهم الى إملاء الدروس عليهم املاء ، مما يعوق سير الدراسة العالية في صورتها الكاملة[2] » .

ويقول الدكتور طه حسين : « فما زال الشبان يأتون إلى الجامعة ضعافاً قاصرين ، وما زال الشبان يستقبلون حياتهم جاهلين لها ، عاجزين عن التصرف فيها ، ضعافاً عن أن ينهضوا بأعبائها ؛ يذهبون إلى الدواوين موظفين فتشكو الدواوين من سوء إعدادهم للعمل فيها ، ويعرضون أنفسهم على أصحاب الأعمال الحرة ، فلا يكادون يجربونهم حتى يزهدوا فيهم ويُعرضوا أشد الإعراض عن استخدام زملائهم ، لأنهم لم يعدوا للأعمال الحرة إعداداً صالحاً[3] » .

لقد كان همُّ الإنجليز الأول من هذه السياسة التعليمية الفاسدة أن يخرجوا طبقة من الموظفين الحكوميين ، لم يتعمقوا في الدراسة ، ولا يصلحون للقيادة ، بل

---

(١) الدكتور طه حسين في كتابه مستقبل الثقافة في مصر ص ٧٢ سنة ١٩٣٨ .
(٢) تقرير الهلالي (باشا) ص ١ — ٢ .
(٣) الدكتور طه حسين ، مستقبل الثقافة في مصر ص ٢٣٣ .

يكونون آلات في أيدي رؤسائهم من الإنجليز وأتباعهم • كان لهذا ولا ريب تأثير كبير في الأدب ؛ لأنه صبغ حياة الموظفين بصبغة مادية رخيصة ، ألا وهي السعي وراء الوظيفة ، لا يبغون بها بدلا ، ولا يستطيعون عنها حولا ، ولا يعرفون كيف يفكرون في سواها لاكتساب العيش إذا طردوا منها ، كأنهم السمكة جفَّ من حولها الماء ، أو الطيور حرمت الهواء •

وشعب هذه حال المثقفين فيه لا ينظر إلى الأدب إلاّ بمنظار المادة ، ولا يرى فيه ما يراه الغربيون من أنه وسيلة للتعبير عن مشاعر الأديب أيّاً كانت هذه المشاعر والأحاسيس التي تفيض بها قلوبهم ، ووجداناتهم • ولذلك انصرف الأدباء إلى تملق الرؤساء ، وأصحاب الحول والطول ، يمدحونهم أحياء ويرثونهم أمواتاً ، وقلما رَكَنَ أحدهم إلى نفسه يسمع هتافها الخالص ، ونداءها الحر ، فيسجله شعراً صادراً من أعماق فؤاده ، وطيات نفسه ، ويخرج به على الناس ، براء من المديح والمداهنة ، والمخادعة والملاينة ، والنفاق الاجتماعي ، والغرض المادي ، ويأتي به صورة صحيحة لما يجيش في نفسه من خواطر ، ويعتلج في حناياها من مشاعر ، ويعتمل فيها من فِكَر •

ومن العجيب أن الثورة الفكرية ، التي أحدثها السيد جمال الدين الأفغاني بمصر ، وحمل مشعلها تلاميذه من بعده ، قد أطفأها الإنجليز بطريقتهم العقيمة في الثقافة والتربية ، ولم ينج من شرهم إلا نفر قليل شاهدوا هذه الثورة الفكرية في عنفوانها ، ورضعوا أفاويقها فظلوا إلى أوائل هذا القرن يحملون المشعل ، ويهدون الأمة سواء السبيل •

— ٤ —

أما الشعراء فلم يتأثروا بهذه الثورة في قليل أو كثير ، ولم يلتفتوا كما التفت الكتاب إلى الشعب يفحصون عن علله وأدوائه وآلامه وآماله ، ويغدون فيه تلك الروح الوثّابة ، بل انصرفوا إلى الأمراء والوزراء ، وذوي الجاه والمال يتملقونهم ويستجدونهم • لقد صار النثر بفضل ثورة جمال الدين ومحمد عبده وعبدالله نديم والمويلحي وأضرابهم معبراً عن حاجات الشعب ، بينما ظل الشاعر بمنأى عن رغباته

ومطالبه ، مكبَّلا بقيود الماضي .

حتى هؤلاء الذين تتلمذوا على البارودي لم يحاكوه في نبل أغراضه ، وصدق عاطفته ، وجمال تصويره لبيئته . لقد كان البارودي صادقاً في شعره حين يصف الريف المصري وما فيه من مناظر وزرع نضير ، وهدوء ، وشمس ضاحية ، وظل وريف ، وحين يرثي أحباءه وأقاربه وأصدقاءه ، وحين يصف بطولته وشجاعته في ميادين القتال ، ويصف بجانب هذا الميدان وطبيعته ، والأعداء وأحوالهم ؛ وحين يعبر عن ميوله السياسية ، وما قاساه على يد الخديو من اغتراب ومحنة ، وحنين إلى الأهل والوطن ، ولم يمدح البارودي إلاّ نادراً ، ولم يرث إلا صديقاً أو حبيباً .

وعلى العكس منه نرى هؤلاء الذين انتهجوا نهجه في الأسلوب ، واغترفوا من تلك الينابيع العربية التي وردها ، نراهم مداحين ، هجائين ، ندابين لكل عظيم . ويقول الدكتور طه حسين : « وأصبح الشعر بفضل الشعراء ، وكسلهم العقلي فناً عرضياً لا يُحفل به إلاّ للهو والزينة والزخرف ، فإذا أراد بنك مصر أن يفتتح بناءه الجديد طلب إلى شوقي قصيدة ، فنظم له شوقي هذه القصيدة ، وإذا أرادت (دار العلوم) أن تحتفل بعيدها الخمسيني كما يقولون طلبت إلى شوقي والجارم وعبد المطلب أن ينظموا لها قصائد ، فنظموا لها القصائد ، وإذا مات عظيم وأريد الاحتفال بتأبينه ، أو نَبُه نابه ، وأريد الاحتفال بتكريمه طلب إلى الشعراء أن ينظموا الشعر في المدح والرثاء ، فنظموا كما كان ينظمه القدماء ، فانحط الشعر حتى أصبح كهذه الكراسي الجميلة المزخرفة التي تتخذ في الحفلات والمآتم ، وأصبحنا لا نتصور حفلة بغير قصيدة لشوقي أو حافظ ، كما أننا لا نتصور عيداً أو مأتماً بغير مُغَنٍ أو مرتّل قرآن . فأما الشعر الذي يقال لنفسه ، الذي يقال ليجلو مظهراً من مظاهر الجمال الطبيعي ، الذي يقال ليكون صلة بين نفس الشاعر ونفس القراء ، الذي يقال لا ليتملق عاطفة من العواطف ، أو هوى من الأهواء ، فلا تلتمسه عندنا ، ولكن التمسه عند قوم آخرين عرف شعراؤهم لأنفسهم كرامتها فربأوا بها عن أن تكون أداة للهو والزينة[1] » .

وكان جمهور المثقفين يطرب لهذا النوع من الأدب ؛ لأنه لا يعرف غيره ، ولأنه

---

(١) الدكتور طه حسين : حافظ وشوقي ص ١٤٩ — ١٥٠ .

يحاكي تلك الألوان التي عرفها في المدرسة من الأدب العربي القديم ، ووعتها حافظته. وفضلا عن هذا كله فإن هذا النوع من الأدب كان نتيجة لازمة للتربية الإنجليزية في مصر ، التي اهتمت بتنمية الذاكرة ، وقدرتها على الاستيعاب ، وأهملت المواهب الإنسانية الأخرى كالتفكير والتأمل ، ودقة الملاحظة ، والابتكار العقلي ، والحرية في الرأي .

ويقول مستر (مان) في تقريره عن التعليم بمصر زمن الإنجليز : « يشهد الإنسان التلاميذ بالمدارس المصرية مشتغلين في الغالب : إمّا بالإصغاء إلى المعلم ، وإمّا بتدوين مذكرات ، أو تذكر ما استظهروا ، وإما بعمل تمرينات متماثلة ، وبسرعة واحدة ، وتحت رقابة صارمة . ويندر أن يقع النظر على تلاميذ يعملون عملا مستقلا ، أو يطالعون مطالعة خاصة » .

ويقول في موضع آخر من تقريره : « إن من الأمور البدهية التي لا تحتاج إلى تدليل أن طريقة الاستظهار ليست بالطريقة الصالحة لتحصيل العلم ، إذ أن كل محاولة لاستعمال قوة الحفظ ، وهي من المدارك الدنيا — بدلا من قوة الفهم — وهي من المدارك العليا — لا بد أن تؤدي إلى إضعاف قوى التصور ، والتعقل ، والاستنباط ، لأن الملكات التي لا تستخدم يصيبها الوهن »[١] .

ويقول الدكتور هيكل : « ويجب أن نعترف ، ونفوسنا يملؤها الحزن والأسى ، أن تربيتنا وتهذيبنا ، لم يَعِدّا أكثريتنا للتأثر الفردي ، والإحساس الذاتي ، فهما لا يرسمان أمامنا مختلف صور الحياة ، ويتركان لحسنا ولفكرنا أن يميز من هذه الصور ما يأخذ بهما ويلفتهما لفتات خاصة . بل هما يجيئان بصور الحياة مصبوبة في قوالب قررتها الجماعة في عصور سالفة فيطبعانها في حسنا وفكرنا طبعاً يقيدهما بهذه القوالب ، ويكرههما على الخضوع لها والإيمان بها »[٢] .

ويقول في موضع آخر : « وإنما رجاؤنا أن تصدر الثورة المجددة التي ينبعث أصحابها في طلب الكمال الشعري لذاته عن الجيل الجديد ، الذي يتلقى العلم اليوم ،

---

(١) تقرير مستر (مان) ص ٤٣ .
(٢) ثورة الأدب ص ٦٥ .

والذي نجاهد كلنا في سبيل تلقينه إياه ، على غير تلك القواعد القديمة ، التي كانت تبعث الجمود في الأذهان والقلوب والعواطف . وعلينا إذا أردنا معاونته على القيام بهذا الواجب أن نعاونه على تقرير حرية العاطفة بمقدار ما أعناه على تقرير حرية الفكر ، وأن نوسع أمامه من آفاق الفن بمقدار ما نوسع من آفاق العلم ، وأن نعرض عليه من صور الحياة الماضية والحاضرة ما يسمح له بحرية الاختيار ، فإذا نحن قمنا بهذا الواجب كان لنا أن نؤمل من بين هذا الجديد ، في أولئك الأفذاذ الذين يقيمون صرح الشعر على أسس صالحة ، والذين يجعلوننا نحس إذ ننشد شعرهم بائتلاف جواب نغمته مع سائر أنغام الحياة الحاضرة وصورها ، بدل أن نرى أنفسنا كمن يشدو بقيثارته وسط الأطلال ، يريد أن يبعث أمام خياله حياة ليس لها بشيء مما في حياته اتصال »[1] .

عمد الشعراء إلى استظهار كثير من الأدب العربي القديم ، حتى يستقيم لهم الأسلوب ويتملكوا ناصية القافية ، ويكثر محصولهم من الكلمات والتعبيرات . بيد أن هذا الاستظهار أورثهم الجمود ، والتقليد للأدب العربي القديم : في أساليبه ، وصور بيانه من كناية واستعارة وتشبيه ومجاز ، وفي موضوعاته . ولم يستخدموا اللغة التي أحاطوا بمفرداتها في أغراض عصرهم ، وتصوير بيئتهم ، والتعبير عن خلجات نفوسهم ، وهزات مشاعرهم ، في صور من البيان جديدة مستمدة من بيئتهم الحضرية ، ومدينتهم الحديثة ، وإنما احتذوا حذو الشعراء الأقدمين في كل شيء ، وعارضوهم في مشهورات قصائدهم .

وإذا كان المديح ، والتهاني ، والرثاء ، من خير ما ورثناه عن الشعر العربي القديم ، وإذا كان الشعراء الذين سلكوا هذه الطريق خلدوا في الأدب العربي ، فما ذاك إلا لأن عصرهم كان يمجد هذا النوع من الأدب ، ولأن الحياة الاجتماعية كلها تدور حول الأمير ، بيده السلطات : الدينية والدنيوية ، وهو ووزراؤه ، وأهل بيته أصحاب الجاه والمال ، وهو المتصرف المطلق في حياة الشعب ، إن كان صالحاً سار فيهم بكتاب الله وسنة رسوله ، وحكم بالعدل . وإن كان فاسداً ذاقوا على يديه ، وعلى أيدي ولاته ضروب الذلة والمهانة ، فلا بدع إذا أغدق الشعراء على

---

(١) نفس المصدر ص ٧٤ .

هذا الأمير الثناء ، ليحرضوه على فعل الخير ، وليرسموا له الطرق الصالحة التي تسعد الشعب وتسعدهم •

ولولا خلال" سنّها الشعر ما درى بناةُ العلا من أين تؤتى المكارم

وبذلك كان الأدب في العصور الإسلامية السابقة أدباً أرستقراطياً • أمّا نحن فقد تغيرت بنا صروف الزمن ، ولم يعد الأمير هو كل شيء في حياتنا ، وصارت للشعب حقوق يجب أن تحترم ، وآمال لا بد أن تتحقق ، وصارت الأمة تنادي بأنها مصدر السلطات ، ولم يعد الأمير وحاشيته ووزراؤه مصدر المال دون سواهم ، بل تعددت سُبل الكسب أمام الشعراء فلا معذرة لهم •

لم يفطن أدباؤنا إلى كل ذلك ، بل نقلوا إلينا الأدب القديم في كل صوره ، وعارضوا كبار الشعراء في العصر العباسي ، أمثال أبي تمام ، والبحتري ، والمتنبي • فجاءت قصائدهم في كثير من معانيها وألفاظها وصور بيانها متأثرة بقصائد الأولين •

إن اللغة توقيفية ما في ذلك ريب ، ولا بد للأديب الذي يبغي التفوق والخلود من أن يلم بها إلماماً تاماً ، ويعرف أسرارها ودقائقَها وشتى أساليبها ، ولن يتأتى له ذلك إلا بإدمان القراءة في كتب الأدب قديمها وحديثها ، وحفظ الجيد من روائع الشعر والنثر • ولكن الذي نلوم عليه الشعراء في ذاك الوقت هو جمودهم ، وتقليدهم لهذا الأدب موضوعاً وأسلوباً وبيانا ، مع أن صور البيان القديمة لا يناسب كثير منها العصر الذي نعيش فيه • إن ألفاظ اللغة مثل اللبِنات التي يشيد بها البيت، وهندسة البيوت تتغير من عصر إلى عصر تبعاً لحالة الناس من البداوة والحضارة ، والغنى والفقر ، والتعليم والجهل • فإذا كنا في عصرنا الحاضر نشيد بيوتاً كما كان يشيدها العرب في العصر العباسي ، ولا نلتفت إلى ما يتطلبه عصرنا ، وما عرفناه عند غيرنا من فن حديث في البناء ، كان ذلك ولا شك سوء استعمال• وإذا وصف (شوقي) مركب أم المحسنين بالهودج ، مع أنها كانت تركب سيارة فخمة تطوي الأرض طياً ، وحفلت بشتى ألوان الراحة ، كان ذلك أيضاً سوء استعمال ، وسوء اختيار • ولله دَرُّ حافظ إبراهيم حين وصف الشعر في ذلك الوقت ، وصرخ صرخة مدوية يطلب فيها التجديد بقوله :

ملأنا طباقَ الأرض وَجداً ولوعةً بهندٍ ودَعدٍ والرَّباب وبَوْزَعِ
ومَلّت بنــاتُ الشعر منّا مواقفاً بِسِقْط اللّوى والرَّقمتين ولَعلَعِ
وأقوامُنا في الشرق قد طال نومُهم ومــا كان نــوم الشّعر بالمتوقّع
تغيرتِ الدنيا ، وقــد كان أهلُها يرون متون العِيسِ ألينَ مَضجَعِ
وكان بريدُ العلـم عِيراً وأينُقاً متى يُعنِها الإيجاف في البيد تَظلَع
فأصبح لا يرضي البخــارَ مطيّةً ولا السلكَ في تيّــاره المتدفــع
وقد كان كلُّ الأمر تصويبَ نبلَة فأصبح بعض الأمر تصويب مِدفع
ونحن كما غنّى الأوائل لــم نزل نغنــي بأرمــاح وبيــض وأذرُع
عرفنا مدى الشيء القديم،فهل مدىً لشيء جديد حاضر النفع مُمتنع ؟ ؟

وحين قال مخاطباً الشعر :

ضِعتَ بـين النهى وبـين الخيال يــا حكيمَ النفوس يا ابن المعالي
ضعت في الشرق بـين قوم هجود لــم يفيقــوا وأمــة مكســالِ
قــد أذالوك بـين أنس وكــاس وغــرامٍ بظبيــة أو غــزالِ (١)
ونسيــب ومِدْحــةٍ وهجــاء ورثــاء وفتنــةٍ وضــلال
حمّلوك العَناء مــن حب ليلــى وسُليمــى ووقفــة الأطــلال
وبكــاء علــى عــزيـز تولــى ورســوم راحت بهــنّ الليالــي
وإذا مــا سمــوا بقــدرك يومــاً أسكنوك الرّحال فــوق الجمــال
فارفعــوا هــذه الكمائــم عنــا ودعونــا نَشَمُّ ريــح الشمال (٢)

نعم إن حافظاً قد رغب في التجديد ، ولكنه لم يستطع التجديد إلا في حدود ضيقة ؛ إذ جدد في أغراضه ، وإن لم يجدد في صوره ، وسنخصه ببحث طويل

(١) أذالوك : اهانوك ولم يحسنوا القيام عليك .
(٢) ريح الشمال : كناية عن أوربا والادب الغربي .

إن شاء الله . ولكن صيحته هذه تدل على ما كان عليه الشعر في أول عهده ، وعلى الرغبة الملحة في مسايرة العصر ومقتضياته . لقد جنى الإنجليز بسياستهم التعليمية على الأدب بعامة ، وعلى الشعر بخاصة ، وإذا كانت هناك نهضة في الأدب بعد ذلك فهي ليست ثمرة تعليمهم ، وإنما هي نتيجة بواعث أخرى سنذكرها فيما بعد إن شاء الله .

— ٥ —

رأى (كرومر) بعد أن فرغ من الإصلاحات المالية والداخلية التي من بها علينا في كتابه (مصر الحديثة) وفي خطبة الوداع التي ألقاها حين غادر مصر ، وعدّد فيها ما ظنه خيراً قدّمه لمصر ، رأى بعد هذا أن يلتفت إلى نشر الثقافة الإنجليزية بالبلاد ، ونسي أن إصلاحاته المالية والداخلية كلها قد احبطتها سياسته التعليمية حتى دعت شاعراً مثل حافظ أن يقول مخاطباً « اللورد كرومر » :

تَمُنُّ علينا اليومَ أن أخصب الثرى ... وأن أصبحَ المصريُّ حُراً مُنعَّما
أعد عهد (إسماعيل) جَلدا وسُخرةً ... فإنـي رأيت المَنَّ أنكـى وآلمـا
عملتم علـى عِـزِّ الجماد وذلّنا ... فأعليتـمُ طينـا وأرخصتمُ دمـا
إذا أخصبت أرضٌ وأجدب أهلها ... فلا أطلعت نبتاً ولا جادها السَّما

وإلى أن يقول مودعاً له ومشيراً إلى مأساة التعليم على عهده :

يناديكَ قد أزريتَ بالعلم والحجا ... ولم تُبق للتعليم يا (لرْد) مَعْهدا
وأنـك أخصبتَ البـلاد تَعَمُّدا ... وأجدبت في مصرَ العقـول تعمدا
وأودعت تقريـر الـوداع مغامزاً ... رأينا جفـاء الطبع فيها مُجسَّدا
يناديك ! أيـن النابغون بعهدكـم ... وأي بنـاء شامخ قـد تجدّدا ؟
فمـا عهدُ إسماعيل والعيش ضيق ... بأجدب مَن عهدٍ لكم سال عسجدا

وليس هذا كل ما جناه كرومر على عقول المصريين ، فمساعيه في نشر الثقافة

الإنجليزية في البلاد عَنوةً وفرض اللغة الإنجليزية على البلاد قَسْراً قد جعلت عهده من أسوأ العهود التي مَرَّت على مصر العربية الإسلامية •

راع كرومر حينما فكر في نشر الثقافة الإنجليزية ذلك البناء الضخم من الثقافة الفرنسية الذي شيدته هِممُ الإرساليات التبشيرية ، والبعثات العلمانية ، وتشجيع الحكومة الفرنسية وأموال رجال الاقتصاد والأعمال من أهل فرنسا • وهالته كثرة المدارس الفرنسية بمصر ، وحماسة هؤلاء الذين تعلموا بها ، أو في فرنسا ذاتها لنشر اللغة الفرنسية وآدابها • ورأى أن الفرنسيين قد بذلوا غاية جهدهم لمساعدة هؤلاء الذين يتخرجون في مدارسهم فاشترطوا على الإنجليز — أول سني الاحتلال — أن يظل لهم النفوذ الأول ببعض المصالح الحكومية ، كما كان قبل الاحتلال ، فخلصت لهم إدارة مصلحة الآثار المصرية ، التي أشرفوا عليها منذ أن اكتشف (حجر رشيد) • وخلصت لهم كذلك إدارة مدرسة الحقوق، واستولوا بأموالهم وقروضهم وشركاتهم، ومؤسساتهم التجارية على أكثر من نصف المصالح الاقتصادية والأموال المنقولة بمصر[1] ووجد الشبان المصريون والأجانب الذين يتخرجون في مدارسهم مجال العمل فسيحاً في شركاتهم ومؤسساتهم الاقتصادية والمالية كما ذكرنا آنفا •

ولانتشار نفوذهم بين الأجانب وإقبالهم على مدارسهم صارت اللغة الفرنسية هي لغة المعاملات التجارية سواء بين الأجانب بعضهم وبعض أو بينهم وبين المصريين ، واضطرت المحاكم المختلطة أن تصدر تسعة أعشار أحكامها باللغة الفرنسية ، فضلا عن الموظفين الذين يجب عليهم أن يحسنوا هذه اللغة ليتعاملوا مع جمهور المتقاضين •

وعلى الرغم من الاحتلال الإنجليزي ، وطول أمده ، والمحاولات التي بذلها كرومر ، وبذلها (دانلوب) من بعده فقد ظلت اللغة الفرنسية هي اللغة الأولى في السوق المصرية رَدحاً طويلا وظلت لغة التخاطب بين الأجانب المختلفي الجنسية المقيمين بمصر • لقد استجابت فرنسا والفرنسيون لنصيحة نابليون التي يقول فيها : « علموا اللغة الفرنسية ففي تعليمها خدمة الوطن الحقيقية » •

---

(١) جاء في تقرير لجنة الشئون الخارجية بمجلس النواب الفرنسي حين عرضت عليه معاهدة (منترو) لالغاء الامتيازات الأجنبية بمصر . أن رؤوس الأموال الأجنبية بها تبلغ ٥٠ ملبارا من الفرنكات من مجموع ما فيها من رؤوس الأموال المنقولة وقدره ٥٥ مليارا . وأن للفرنسيين وحدهم من الأموال التي يملكها الاجانب ٣٠ ملباراً من الفرنكات (الاهرام ١٠ يونيو ١٩٣٨) .

رأى كرومر المستعمر الإنجليزي الأول كل هذا النفوذ للثقافة الفرنسية ، ورأى أن قدم الاحتلال لن تطمئن بهذه الديار إلا اذا عمل على إضعاف هذا النفوذ الفرنسي المكين ومكن للغة الإنجليزية ، وأجبر المصريين على قبولها لغة أجنبية لها المكانة الأولى في البلاد وقد سلك في تحقيق هذه الغاية عدة طرق منها .

الكف عن إرسال البعثات إلى أوربا بعامة ، وفرنسا بخاصة ؛ لأنه رأى رأيَ العين ما قدَّمه رجال البعثات لوطنهم من أيادٍ بيضاء في كل سبيل من سبل النهضة ، وكل باب من أبواب القوة ، منذ عصر محمد علي حتى زمن الاحتلال المشئوم ، وأن هؤلاء الرجال الذين اختيروا من صميم الريف صاروا فيما بعد القادة المفكرين ، والعلماء الناصحين ، والساسة القادرين ، وأنهم نهضوا باللغة العربية نهضة عظيمة فدبت فيها روح الحياة ، وأخذت تستعيد سابق قوتها بترجمة كثير من الكتب العلمية في الطب والهندسة ، والحيل (الميكانيكا)، والرياضة والقانون ، والجغرافيا والتاريخ، والاجتماع والاقتصاد وغير ذلك على النحو الذي فصلناه في الجزء الأول من هذا الكتاب .

أجل ! بدأت اللغة العربية تساير ركب الحياة وتُعنى بالمصطلحات العلمية التي زودها بها هؤلاء العلماء الأجلاء الذين عكفوا على الكتب العربية القديمة ينقبون فيها ما عساه يصلح للحضارة الحديثة ؛ فإن استعصى عليهم شيء عربوه ، أو وضعوا له كلمات .

رأى كرومر هذا الأثر الجليل الذي يتركه رجال البعثات في مصر ، فعزَّ عليه أن تظل هذه النافذة التي ينسكب منها نور العلم على ربوع وادي النيل مفتوحة ، وهو الذي يريد أن يمكن للاستعمار الإنجليزي في هذه الديار ، ولن يتأتى له ما يريد إلا إذا ظلت مصر في ظلام دامس ، تتخبط في طريق مضلة ، متخلفة عن ركب المدنية ؛ لا تجد لها قائداً رشيداً ولا تسمع رأيا سديداً فيوجهها الغاصبون كما يشاؤون : ولهذا أرغم الحكومة الصرية على إلغاء البعثات إلى فرنسا ؛ فصدر بذلك قرارها في أواخر أغسطس سنة ١٨٩٥ ، وكان لهذا القرار ضجة صاخبة في الجرائد المصرية والفرنسية على السواء[١] .

---

(١) راجع المؤيد عدد ٢٣ سبتمبر ١٨٩٥ ، ومصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ط ثانية ص ٦٠ .

ولقد نجم عن هذه السياسة الاستعمارية البغيضة أن ضعف نفوذ اللغة العربية على مر الأيام حتى تجنى عليها بعض ساستهم ، ورماها بالفقر والعقم ؛ وفي ذلك يقول (اللورد جراي) حين سئل في مجلس العموم البريطاني عن تعليم اللغة العربية بمصر : « لا تصلح اللغة العربية اليوم لتعليم العلوم ؛ إذ تفتقر إلى الاصطلاحات العلمية والفنية »[١] ، ولست أدري كيف ينتظر الإنجليز من اللغة العربية أن ترقى ، وتغني بالمصطلحات العلمية والفنية ، وقد أوقفوا تيارها المتدفق وحالوا بينها وبين العلوم الحديثة في بلاد الغرب ؟ ؟ .

وكان من الطبيعي كذلك أن يتناقص عدد المثقفين ثقافة ممتازة ، والذين يستطيعون التدريس بالمعاهد المصرية العالية ، فحلّ محلهم إنجليز يلقون دروسهم بلغتهم ، دون أن يكلفوا أنفسهم مشقة الترجمة ، أو أن تكون ثمة واسطة بينهم وبين الطلبة كما كان الشأن في عهد محمد علي . ولم يكن الطلبة المصريون قد حذقوا اللغة الإنجليزية إلى الدرجة التي تمكنهم من فهم ما يلقى عليهم لأول وهلة ، ولذلك لجئوا إلى الحفظ والاستظهار ، كي ينجحوا في الامتحان وصاروا آلات صماء لا تفكر ولا تعي ، ولا تقدر على الابتكار أو التجديد ، وبعد كل هذا نسمع من أحد علمائهم وهو السير (وليام ولكوكس) المهندس المشهور يقول في طلبة مدرسة الهندسة : « لقد كنا نؤمّل خيراً كثيراً في طلبة مدرسة الهندسة في الأيام الأخيرة ، بيد أنهم لم يبتدعوا شيئاً ذا بال ، وكل ما عملوه أنهم نقلوا أفكار من كانوا أسعد منهم جَداً ، وتعلموا دروسهم . وقرأوها في كتبهم »[٢] .

وطالما ألح المصريون على الإنجليز في أن تستأنف البعثات العلمية طريقها إلى أوربا ، ولكنهم كانوا يجيبون في غطرسة بالغة : بأن المصريين ليسوا أهلا للتدريس بالمعاهد العالية ، ولو تلقوا علومهم في معاهد الغرب . ولم يكتفوا بهذا بل عبثوا بمدرسة المعلمين (الخوجات) التي كانت تعد المصريين لتدريس اللغات الأجنبية ، والرياضة والعلوم (النور مال فيما بعد) ، وصاروا يفتحونها عاماً ، ويغلقونها عاماً ، فأصبح لا يقصدها إلا كل مرتاب في مستقبله ، عالم أن منتهى أمره أن سيكون

---

(١) جريدة اللواء ٣ مارس ١٩٠٧ .

(2) Sir William Willcocks : Syria, Egypt, North Africa and Malta Speak punic, not Arabic. 13, London 1926.

معلماً صغيراً في مدرسة ابتدائية بمرتب يتناول مثله كاتب بسيط في أحد الدواوين[١] . ولما لم يجد الإنجليز من المصريين من يصلح للتدريس في المدارس الثانوية ــ بعد أن حالوا بينهم وبين الاستعداد لتلك المهمة ــ تذرعوا بذلك ، وملئوا المدارس الثانوية بالإنجليز . وكان من الطبيعي أن تحوَّل الكتب من العربية إلى الإنجليزية . بل إنهم فرضوا على تلامذة المدارس الابتدائية أن يتعلموا اللغة الإنجليزية ، وجعلوا إتقان هذه اللغة شرطاً للتوظف في الحكومة ، وأرغموا المرحوم علي باشا مبارك على أن يصدر قراراً في سنة ١٨٨٩ ينص فيه على أن تكون لغة التعليم في المدارس المصرية هي اللغة الإنجليزية .

وظلَّ الأمر على هذا المنوال ردَحاً غير قصير من الزمن ، والمصريون يلحون في عودة اللغة العربية إلى المدارس المصرية ، والإنجليز يصمون آذانهم ، ويسيرون لطيتهم حتى بلغ التذمر غايته في سنة ١٩٠٨ ، وندَّد عقلاء المصريين بهذه السياسة المعوجّة التي تهدف إلى القضاء على اللغة العربية ، وحرمان مصر أقوى دعائم شخصيتها المتميزة بها عن سواها . وفي ذلك يقول عثمان (باشا) غالب : « عرف الإنجليز أن أحسن واسطة لمحو وجود الشعب ، واستقلاله ، أي لقتله أدبياً ، هو محو لغته الوطنية أو إضعافها ، ألم يعرف ذلك الإنجليز المحبون للتوسع في الملك من التواريخ القديمة ؟ إنهم عرفوه ، ولكي يبلغوا إلى هذا الغرض ساروا تحت رداء الشروع في الإصلاحات ، فألفوا الجمعيات ، واللجان عقب اللجان ، بمهارة وفكر ، وكانت نتيجة مناقشتهم أن قرروا أموراً كانت مكتوبة ومسجلة من قبل ، ويكفيني لإثبات هذا الأمر للناس أن أحول أنظارهم إلى تلك الطرق التي اتبعوها لمحو اللغة الفرنسية من مدارسنا[٢] » .

ولا جدال في أن وقف البعثات إلى فرنسا قد أضعف نشر الثقافة الفرنسية في البلاد ، وبخاصة على أيدي هؤلاء الذين كانوا يغشون معاهد فرنسا ويعودون حاملين لواء الثقافة الفرنسية . ولما أبرمت معاهدة سنة ١٩٠٤ بين انجلترا وفرنسا ، تلك المعاهدة التي أطلقت يد انجلترا في مصر ، على أن تخلص مراكش لفرنسا ، هدأ بال الإنجليز نوعاً ما ؛ لأن فرنسا كانت متزعمة مناهضتهم بمصر ، وطالما رأى

---

(١) الشيخ علي يوسف : المؤيد ٢ مارس ١٩٠٧ .

(٢) مقالة النهضة المصرية ومسألة التعليم ــ عثمان باشا غالب ــ اللواء ٦ مارس ١٩٠٧ .

فيها طلاب الحرية من المصريين نصيراً قوياً يفسح لهم صدره ، ويشجعهم في صحفه وأنديته[1] . وقد شجع دلك مستر (دانلوب) بعد أن عين مستشاراً للمعارف على أن يقوض آخر المعاقل الفرنسية في المدارس المصرية ، فأخذ في مضايقة (مسيو لامبير) ناظر الحقوق ، حتى اضطره إلى التخلي عن وظيفته وعَين بدلا منه مستر (هيل) الإنجليزي ، وفي ذلك يقول (مسيو لامبير) منددأ بسياسة دانلوب ومظهراً عوار طريقته في شئون التعليم :

« وقد حارب المستر دانلوب تقدم التعليم الفرنسي في مدرسة الحقوق بلا تبصر ، على حين ان تعليم الحقوق في هذه المدرسة لا يزال تعليما فرنسياً ، ما دامت قوانين البلاد لم تغير تغيراً كلياً ... وقد مثل رواية مضحكة للتعليم العالي في مدرسة الحقوق فوقف تعيين ما يحتاج إليه القسم الفرنسي من الموظفين ، وحجته في ذلك أن مصير هذا القسم إلى الزوال في القريب العاجل ، وطرد من القسم الأكبر وهو الذي تدرس فيه الحقوق الفرنسية باللغة الإنجليزية الأساتذة الأكفاء الذين قاموا بأمره في مبدأ تأسيسه ، وهم من القضاة الذين أفادتهم إقامتهم الطويلة في الديار المصرية خبرة بأسرار قوانيننا ، واستبدل بهم شباناً من الإنجليز يعينون بمجرد تخرجهم في الكلية الإنجليزية فيقدمون إلى مصر وهم والطلبة المكلفون بتعليمهم سواء في الجهل بالقوانين المصرية[2] » .

ثم التفت الإنجليز بعد ذلك إلى المدارس الفرنسية بمصر ، ورأوا أن خير وسيلة لإضعاف نفوذها ، والتقليل من الإقبال عليها أن يظهر عميدهم بمظهر الغيور على مصلحة المصريين ، الذي يخشى من طغيان الثقافة الأجنبية على من يغشى المدارس الفرنسية منهم ، ولذلك أوجب تعلم كل العلوم باللغة الإنجليزية في المدارس المصرية ، ليجد المصريون فيها غناء عن المدارس الأجنبية ، ويحذقون في الوقت ذاته لغة حية راقية من اللغات الأجنبية وهي الإنجليزية . وشجع كرومر الإنجليز على العمل بالمدارس المصرية معلمين ونظاراً ، وعمل هؤلاء من جانبهم على الدعاية للغة الإنجليزية ، وصبغت المدارس العالية كالطب ، والزراعة ، والهندسة ، والمعلمين ،

---

(١) راجع تاريخ مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ص ١٦٩ ط ثانية .

(٢) نشر مسيو لامبير مقالة طويلة عقب إقالته من منصبه في جريدة (الطان) الفرنسية ، وهي وثيقة هامة تبين مبادىء دانلوب في التعليم ، وقد ترجمها اللواء ، راجع مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ص ٢٤٥ — ٢٤٩ .

بصبغة إنجليزية خالصة ، فلم يجد الطالب مندوحة إذا أراد أن يتم تعليمه العالي إلا أن يجيد اللغة الإنجليزية حتى يستطيع متابعة الدراسة في المدارس العالية ؛ بل اشترط كرومر على كل موظف بالدولة أن يجيد هذه اللغة ، ليتمكن من التفاهم مع رؤسائه الإنجليز الذين استولوا على كل المصالح والدواوين .

وبهذا قلّ نوعاً ما نفوذ الثقافة الفرنسية في كثير من مصالح الدولة ومعاهدها . بيد أن هذا لم يذهب كل ما لها من قوة ، بل أتى اضطهاد كرومر لها بنتيجة لم يكن ينتظرها ، وذلك لأنه أخطأ السبب الحقيقي الذي دفع بالمصريين والأجانب للتعلم في المدارس الفرنسية ، وذلك السبب هو أن التعليم بالمدارس الفرنسية ، كان أرقى نوعا وأتم نظاما منه في المدارس الأخرى ، ولم يكن وراءه غاية استعمارية ظاهرة . ولو كان السبب هو مجرد رغبة المصريين في تعلم لغة أجنبية لقل الإقبال على المدارس الفرنسية منذ أن فرضت اللغة الإنجليزية على المدارس المصرية في سنة ١٨٨٩ ، ولكننا رأينا العكس ، إذ اشتد الإقبال على هذه المدارس[1] حتى صار عددها مائة وعشرين مدرسة بها ما يزيد عن اثنين وأربعين ألف تلميذ وتلميذة . ولم تفلح كل الوسائل التي قدمها الإنجليز لجذب الأجانب المقيمين بمصر للإقبال على مدارسهم وذلك لأن معظم اقتصاديات مصر كانت في أيد فرنسية ، وكانت لا تزال هي اللغة السائدة في السوق المصرية . ولذلك قال أحد علمائهم داحضا مزاعم هؤلاء الذين تنبئوا بتقلص ظل الثقافة الفرنسية من مصر : « لا حجة لما يقول به المتشائمون من أن نجم فرنسا في مصر قد أفل ، وأن لغة أخرى حلت محل الفرنسية في عاصمتي تلك الديار ـــ القاهرة والأسكندرية ـــ وما عليك إلا أن تسير بالشوارع الكبرى ، حتى تتحقق من ذلك وتسمع بأذنيك باعة الصحف ينادون بأسماء أكثر الجرائد اليومية انتشارا مثل (لا بورص إجبشيان ، والجورنال دي جيبت ، والجورنال دي كير) . وإذا شاهدنا عن بعد شخصين أجنبيين مختلفي الجنسية يتحدثان ، فتأكد أن الحديث بينهما يدور باللغة الفرنسية ـــ فهي اللغة الغالبة ، كما أنها لغة السياسة ولغة القضاء لأن تسعة أعشار القضايا التي تعرض أمام المحاكم المختلطة تستعمل فيها اللغة الفرنسية[2] .

---

(١) راجع المؤيد في ٦ مارس ١٩٠٧ ، ومناقشة اعضاء مجلس النواب الفرنسي للتصديق على معاهدة (منترو) في الاهرام ١٠ يونية ١٩٣٧ .

(2) Lecarpentier : L'Egypte Modern. p. 165-166.

- ٦ -

لقد كان هذا الصراع بين الفرنسية والإنجليزية على حساب اللغة العربية ، فأضعف شأنها ، وكاد يودي بها ، لأنّ الطبقة المثقفة من أبناء الأمة الذين كان يرجى منهم العمل على إحياء اللغة العربية والنهوض بها ، صاروا لا يرونها في المدارس إلا لماما . وأصبحت لغة التعليم لديهم هي اللغة الإنجليزية ، وبذلك أحجم كثير من العلماء عن التأليف باللغة العربية كما أن الطلبة عمدوا إلى الحفظ والتقليد في المدارس ، وكانوا أبعد الناس عن الابتكار والاستقلال في الرأي ، لأن هذه اللغة التي فرضت عليهم كانت أجنبية عنهم ولم يجدوا حيلة للنجاح في الامتحان إلا أن يحفظوا دروسهم بالإنجليزية حفظا ، ولو لم يفهموا . أضف إلى كل هذا حرمان مصر البعثات والتعليم العالي الصحيح ، لأن التعليم العالي الذي كان موجودا حينذاك فرض على الطلبة أن يستقوا العلم من منبع واحد لا يحيدون عنه ولا يعرفون سواه ويتقيدون بوجهة نظر واحدة ، ولا يسمعون لها مناقشة أو نقصاً ، وهيهات أن يجدي مثل هذا التعليم في تكوين ملكة البحث أو الابتكار ، أو التعمق في المادة أو الوقوف على أسرارها .

ولقد كان لكل هذا أثر في الأدب الحديث ونهضته ، إذ أوقفت اطراد نموه ، واكتمال قوته ، وجعلته لا يجد سبيلا للتقدم إلا بتقليد الأدب العربي القديم وحده ، لولا بعض أمثلة قليلة ترجمت في تلك الحقبة من الآداب الغربية . ولذلك يقول هيوار : « ما فتئت اللغة العربية غارقة في الاستعارات القديمة ، وهي لا تستعمل إلا مجموعة من التعبيرات التي لا يتأتى فهمها إلا لأهل الثقافة ، مما يحول دون اتصالها بجمهرة الشعب لتحدثهم بما يفهمون .. فالمقالة السياسية في الصحف السيارة لا تكتب بغير النثر المسجوع ، وليست بلاغتها التافهة العقيمة ، ومرادفاتها الرامية إلى محاكاة مقامات الحريري إلا فكاهة للقارىء المثقف يتسلى بها . نود أن تأخذ اللغة العربية في المستقبل بجلاء التعبير ، وبساطة الأسلوب ، فإذا جاء يوم تتحقق فيه هذه الأمنية كان ذلك بداية عهد جديد للآداب العربية »(١) .

وقد كان المقدر للأدب العربي بعد أن نهض في أواخر عهد إسماعيل ، وأخذ

---

(1) Huart Litterature Arabe. Paris, 166J.

يتجه صوب الأدب الغربي ليفيد فكرة ، ومنهجاً ، ويجمع بين ما ورثه عن العرب ، وما تقدمه له أوربا ، وبعد أن ظهر أمثال محمد عثمان جلال وأديب إسحق ومن على شاكلتهم ، وبعد أن عرفت مصر في تلك الحقبة ألواناً مختلفة من الآداب الأوربية ، أن تزداد صلة الأدب العربي بالأدب الغربي ، ويأخذ عنه بعض أساليبه • ولكننا نلاحظ كما لاحظ الأستاذ (جب) ضعف المصريين في الأدب إبان هذه السنوات العجاف[1] ، حتى لقد مضى القرن التاسع عشر ولم تظهر فيه إلا شبه قصة مصرية هي ما كتبه محمد المويلحي في (حديث عيسى بن هشام) •

لقد امتدت يد الإنجليز للغة العربية في كل مكان ، ولم يبق إلا مدرسة واحدة ظلت اللغة العربية فيها تتمتع بشيء من القوة النسبية ، تلك هي (دار العلوم) ، ولقد حاولوا مرات أن يصبغوها صبغة إنجليزية لولا تدخل الشيخ محمد عبده صديق كرومر ، فكفوا أيديهم عنها • وقد رأس الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٤ الامتحان النهائي لدار العلوم ، وقدم تقريراً لناظر المعارف عن حال المدرسة جاء فيه : « وإني انتهز الفرصة للتصريح بمكانة هذه المدرسة في نفسي ، وما أعتقد من منزلتها في البلاد المصرية ، ومن اللغة العربية • إن الناس لا يزالون يذكرون اللغة العربية ، وإهمال أهلها في تقويمها ، ويوجهون اللوم للحكومة لعدم عنايتها بأمرها ، ولم أسمعهم قط ينصفون هذه المدرسة ولا يذكرونها من حسنات الحكومة • فإن باحثاً مدققاً إذا أراد أن يعرف أين تموت اللغة العربية وأين تحيا ، وجدها تموت في كل مكان ، ووجدها تحيا في هذا المكان » •

حقاً إن اللغة العربية في هذه الحقبة كانت تموت في كل مكان ، وتحيا في دار العلوم ، ولكن ماذا عساه تقدمه دار العلوم وحدها للغة العربية ، والمدارس مصبوغة صبغة أجنبية ، وإنجلترا تحاول أن تبدل لسان المصريين العربي الى لسان إنجليزي ، وبيدها السلطان ، ووظائف الدولة ، وأبناؤها هم رؤساء المصالح وذوو النفوذ فيها ؟ ؟ إذا كان ثمة خير قدمته دار العلوم في هذه الحقبة للغة العربية فهو حفظها للغة العربية من الضياع ، حتى أتيح لها ان تنهض فيما بعد نهضة قوية فارعة بعد أن تخلصنا من تلك السياسة الاستعمارية المشئومة •

---

(1) Gibb : B. S. Vol VII. Part. I. p. 2. 1933.

ولكن هل نجح الإنجليز حقاً في إماتة اللغة العربية في كل مكان ؟ إذا كانوا قد حاولوا أن يخرجوا جيلا من المصريين يحذق لغتهم أكثر مما يجيد لغته في المدارس المصرية ، فإن الجيل الماضي كان قوي التأثير في الجمهور، وهو المسيطر على الصحافة، والصحافة مدرسة عامة . ولذلك شن الإنجليز حملة شعواء على اللغة العربية الفصحى ، وحاولوا أن يقنعوا المصريين بأن سبب تأخرهم في ميدان الحياة ، وتخلفهم عن الأوربيين في الابتكار الأدبي والعلمي يرجع إلى تمسكهم بلغة القرآن ، والأساليب العربية القديمة ، وأن الأولى لهم أن ينهضوا باللغة العامية حتى يسايروا ركب الحضارة ، فهي لغة حية ، دائمة التجديد ، ويفهمها جمهور الشعب ، ولا نهضة لأمة إلا إذا نهض سواد الشعب فيها ، وفهم ما يكتبه العلماء والأدباء ، ولن يفهم هذا إلا إذا كانت الكتابة باللغة العامية .

استمع لأحد دعاتهم وهو السير (ويليام ويلككس) في خطبته التي ألقاها في نادي الأزبكية سنة ١٨٩٣ ، والتي جعل عنوانها : « لم لم توجد قوة الاختراع لدى المصريين ؟ » وذكر أن العامل الأكبر في فقد قوة الاختراع لديهم هو استخدام اللغة العربية الفصحى في القراءة والكتابة ، ونصحهم باتخاذ اللغة العامية أداة للتعبير الأدبي ، اقتداء بالأمم الأخرى واستشهد بالأمة الإنجليزية ، وقال . إنها أفادت فائدة كبيرة منذ هجرت اللاتينية التي كانت لغة الكتابة والعلم يوماً ما .

وكان هذا الرجل من أشد أعداء اللغة الفصحى ، وقد بذل غاية جهده لمحاربتها والقضاء عليها . وقد مكنته الظروف من أن تئول إليه مجلة الأزهر التي كان يحررها إبراهيم (بك) مصطفى والدكتور حسن (بك) رفقي ، في أواخر سنة ١٨٩٢ . واتخذها منبراً يتهجم فيه على لغة القرآن .

وقد ألقى خطبته السابقة في نادي الأزبكية بالإنجليزية ، وقد نشرها مترجمة إلى العربية في مجلته ، ولكنها كانت عربية ركيكة سخيفة[1] .

وقد ظل منذ ذلك الحين يكيد للعربية ، ويوحي إلى أهلها بأنهم ليسوا عرباً ، وأن لا صلة لهم ولا للغتهم بالعرب ، بل ادعى ما هو أدهى ؛ إذ زعم أن اللهجة التي

---

(١) يوجد نص هذه الخطبة في مجلة الأزهر العدد الاول من السنة السادسة سنة ١٨٩٣ .

يتكلمها المصريون تمت إلى اللغة الفينيقية أو (البونية) كما سماها ، انحدرت إليهم منذ أن كان الهكسوس بمصر ، وأنه لا صلة لها بالعربية ، وأخذ يتلمس لذلك براهين مضحكة في كتابه الذي أشرنا إليه آنفا (سوريا ومصر وشمال أفريقية ومالطة تتكلم البونية لا العربية[١]) وقد نشره في سنة ١٩٢٦ •

وفيه عدد الصعوبات التي يجدها المصريون في تعلمهم اللغة العربية ، ورأى أن تحل محلها اللغة العامية ، وأن يعمم التعليم بها ، وجعل مدة هذا التعليم عشر سنوات رأى أنها كفيلة بأن تمحو الأمية من مصر ، وعلى حد تعبيره (كفيلة بأن تخلص المصريين من السخرة الثقيلة التي يعانونها من جراء الكتابة بالعربية الفصحى) •

ولم يكتف بهذا ، لأنه رأى الأمة معرضة عن دعوته الاستعمارية الهدامة ، التي تنطوي على تعصب ديني بغيض ، وعلى نية استعمارية خبيثة ، لأنه وغيره من غلاة الاستعمار الإنجليزي يعلمون أن العربية لغة القرآن ، ولغة الشعوب العربية الممتدة من الخليج العربي إلى المحيط الأطلسي ، وأنها تربط بينهم برباط وثيق يحمل أمجادهم وتاريخهم وأدبهم ، وتراث أسلافهم الفكري الذي به يعتزون ، والذي يذكرهم بمجد تليد عليهم أن يعملوا على إحيائه وهم في فجر نهضة عقلية ، علم هذا ، ومن ثم أخذ يكيد للعربية ، ويحاول تمزيق هذه الوشائج المتينة بين العرب ، وبينهم وبين دينهم الذي يدعوهم للعزة والإباء والثورة للحرية • وقد فطن قادة الفكر في مصر إلى هذه الدعوة المسمومة التي روج لها باسم الشعب ، وباسم فقدان قوة الاختراع والابتكار ، فقاوموها مقاومة عنيفة •

لم يكتف ويلككس بهذا التهجم على العربية ، وكان يعتقد كما كان غيره من الأجانب يعتقدون ، أن السبب الذي يجعل العامية في مرتبة منحطة ، وأن الناس لا يقبلون على تعلمها والاحتفاء بها لهو عدم وجود الكتب الأدبية المؤلفة بالعامية ؛ ومن ثم نشط ، ونشط غيره ممن يضمر مثل نيته من الأجانب إلى التأليف باللغة العامية ، فترجم قطعاً من بعض روايات شكسبير إلى العامية المصرية ، قطعة من هاملت ، وأخرى من هنري الرابع •

فجاءت ترجمة سخيفة ، وفقدت هذه الآثار الأدبية قيمتها وجمالها : لأن العامية

---

(1) Syria, Egypt, North Africa, and Malta Speak Punic not Arabic.

لم تسعفه بالتعبير الصحيح ، ولم تستطع أن تنهض بتلك المواقف الخالدة العنيفة[١] بل جاءت عبارتها سوقية مبتذلة .

وترجم كذلك بعض فصول من الإنجيل إلى اللغة العامية فأساء إساءة كبرى إلى الإنجيل لأن عبارته فيه كانت تتهالك ركاكة وغثاثة وسوقية[٢] .

ثم ألف كتاباً علمياً باللغة العامية هو كتاب (الأكل والإيمان)[٣] ليبرهن على أن اللغة العامية صالحة لأن تكون لغة العلم ؛ فخانته العامية ، ولجأ في كثير من تعابيره إلى الفصحى لتمده بالكلمة الصحيحة ، وقد ساقه في صيغة حوار بين تلميذ يسأل وأستاذ يجيب .

ولكن كتبه هذه لم تأته بالثمرة المرجوة ، ولم يستجب المصريون لدعوته ودعوة غيره من المستعمرين كي يتخذوا العامية أداة للتعبير الأدبي ويهجروا الفصحى لغة القرآن ، وذات المجد العريق .

وفي سنة ١٩٠١ ، أصدر (مستر ويلمور) أحد قضاة مصر كتاباً[٤] تناول فيه هذه المسألة ونصح المصريين بهجر اللغة الفصحى ، واتخاذ اللغة العامية أداة للتعبير والكتابة ؛ وقد أثار هذا الكتاب ضجة في الصحف المصرية ، وتصدى أكثر من كاتب للرد عليه . وكانت مجلة الهلال ميدان هذه الردود وقد أيدت اللغة العربية ودافعت عنها[٥] ثم جاء اسكندر معلوف من سوريا ، وحاول أن يوهم الجمهور المصري بأن أهم أسباب تأخره في الحقيقة هو تمسكه باللغة العربية الفصحى وعجب من تمسك المصريين بها مع أن الفرس والهنود والأتراك مسلمون ، وهم لا يستخدمون العربية . واحتج بأن الحكومة المصرية قد تركتها في مدارسها ، وأحلت محلها اللغة الإنجليزية ، وقد أثنى عليها ثناء مستطاباً لإقدامها على هذه الخطوة ، ورأى أن الخطوة الثانية التي يجب أن يخطوها المصريون هي أن تدع الصحف والمجلات هذه اللغة وتكتب باللغة العامية ، حتى يفيد العامة وجمهرة الشعب بما تكتب ، ثم تأتي بعد ذلك مرحلة

---

(١) راجع مجلة الأزهر العدد الخامس ـ السنة السادسة ١٨٩٣ .

(٢) طبعت هذه الترجمة على نفقة (الجمعية البريطانية لنشر الكتب المقدسة) .

(٣) نشر هذا الكتاب سنة ١٩٢٩ .

(4) The Spoken Arabic of Egypt, J. Solden Willmore. لندن ١٩٠١

(٥) انظر الهلال السنة العاشرة وعلى الأخص عدد فبراير ١٩٠٢ .

ثالثة وهي تدوين العلوم والآداب باللغة العامية ، وبذلك يستطيع الشعب كله أن يحصّل العلم بسهولة ويسر ، وأهاب بالكتاب المصريين والعلماء أن يخطوا هذه الخطوات في سبيل رقي بلادهم[١] .

ومن المصريين الذين أيدوا ويلككس في دعوته إلى العامية حين نشر رسالته التي يزعم فيها أننا نتحدث بالبونية لا بالعربية (سلامة موسى) فقد أثنى على ويلككس ثناء مستطابا وزعم أنه شغلته هموم مصر كثيراً ومن أكبر همومه التي أقضت مضجعه هذه اللغة التي نكتبها ولا نتكلمها .

وأخذ سلامة موسى يدعو كما دعا ويلككس إلى اتخاذ العامية لغة للكتابة بدعوى أن الفصحى فيها صعوبة ... يعانيها الخاصة أكثر مما يعانيها العامة ، وأنها عاجزة عن تأدية الرسالة الأدبية والعلمية ويقول : « ولكن نكبتنا الحقيقية هي أن اللغة العربية لا تخدم الأدب المصري ولا تنهض به ؛ لأن الأدب هو مجهود الأمة وثمرة ذكائها وابن تربتها ووليد بيئتها ، فهو لا يزكو إلا إذا كانت أداته لغة هذه البيئة التي نبت فيها » .

ويزعم كذلك أن الفصحى « تبعثر وطنيتنا المصرية وتجعلها شائعة في القومية العربية — فالمتعمق في اللغة الفصحى يشرب روح العرب ويعجب بأبطال بغداد بدلا من أن يشرب الروح المصرية ويدرس تاريخ مصر ، فنظره متجه أبداً نحو الشرق ، وثقافته كلها عربية شرقية — وليس من مصلحة الأمة المصرية أن ينزع شبابها نحو الشرق » .

ثم راح يثني على ويلككس ، ولكنه رأى أن الانتقال إلى العامية فيه طفرة ولم يحن الوقت بعد لأن نخطو هذه الخطوة الواجبة ، ولا بد من (تسوية) بين العامية والفصحى ، فاقترح عدة اقتراحات عجيبة تفضي في مجموعها إلى تشويه الفصحى وإفسادها كاقتراحه إلغاء الألف والنون من المثنى والواو والنون من جمع المذكر السالم ، وإلغاء التصغير وجمع التكسير ، وإلغاء الإعراب والاكتفاء بتسكين أواخر الكلمات ، وإدخال الكلمات الأعجمية (الأوربية كما هي)[٢] ، وهذه اقتراحات

---

(١) مجلة الهلال ١٥ من مارس ١٩٠٢ .

(٢) راجع نص المقال في مجلة الهلال اول يولية ١٩٢٦ تحت عنوان « اللغة الفصحى واللغة العامية وراي السير ويلككس » .

تدل على كراهية مقيتة للغة العربية وكل ما تحمله من تاريخ وأدب ودين وقومية . وهذا ما كان يريده المستعمرون حتى ينقطع ما بيننا وبين تراثنا الفكري الخالد وبيننا وبين ديننا ، ومن ثم نمسخ مسخاً ونقبل على الثقافة الإنجليزية ونتشرب روحها وروح الإنجليز معها ، فنرضى بالاستعمار والمذلة والعار في فرح ومسرة واطمئنان .

ولقد لفتت هذه المشكلة كذلك نظر مستر (مان)[1] حين بحث أمور التعليم في مصر ، فجاء في تقريره : « إن الطفل المصري عندما يبدأ دراسته بالمدرسة لا يتعلم كما يتعلم الطفل الأوربي طرق كلامه المألوف وقراءته فحسب ، وإنما يتعلم لغة أخرى شديدة الصعوبة ، تختلف عن لغته المعتادة اختلافا بينا ، ويتعلم في ذات الوقت طرق كتابتها وقراءتها ، فحالته هذه تشبه حال طفل إنجليزي يتكلم ويسمع اللغة الإنجليزية العادية في المنزل والشارع والمدرسة على السواء ولكنه مضطر ألا يستعمل في القراءة والكتابة إلا اللغة الإنجليزية التي كانت شائعة في عصر ألفريد الأكبر » .

ويقول بعد ذلك : « إن هذه الطريقة من شأنها أن توقف نمو التفكير عند الطفل » ولكن هل إنّ تعلم الطفل المصري في المدرسة اللغة الإنجليزية في جميع مواد الدراسة ، وهو يتكلم ويسمع اللغة المصرية الدارجة ، ولا يوجد بين اللغة الإنجليزية والمصرية الدارجة أي صلة ؛ ثم تعلم قراءتها وكتابتها أيسر عليه من تعلم اللغة الفصحى ؟ ، ألا يرى أن هذه الطريقة التي أرغم عليها أطفال المصريين لا توقف نمو تفكيرهم فحسب ، ولكنها تغفل كل الملكات العقلية من تصور وإدراك واستنباط وتفكير ؟ . أنسي مستر مان ، ومن دعا هذه الدعوة أن أطفال الأوربيين أنفسهم يتعلمون في المدرسة لغة تختلف عن لغة البيت والشارع في الغالب ، وأن لكل أمة لهجة دارجة ، وأخرى فصيحة ؟ ووجود اللهجات الدارجة أمر طبيعي ، فلو اتخذت أمة ما لغتها العامية الحالية أداة للتعبير والكتابة ، ووضعت لها القواعد ، وصنفت فيها الكتب لتحلل الناس بعد أمد يسير من هذه القواعد في النطق والتركيب ، وأوجدوا لهم لغة دارجة لا تتقيد بقوانين ، تخفيفاً عن أنفسهم ، وجريا على عادة التساهل والإهمال والنسيان ! !

ثم إن ثمة اعتبارات كثيرة خاصة باللغة العربية الفصحى تتعلق بالدين ، والقرآن

(١) تقرير مستر (مان) ص ٥٩ .

الكريم وتتعلق بوشائج القربى بيننا وبين الناطقين بها ، فلو عمد كل شعب عربي إلى اتخاذ لغته الدارجة وسيلة للكتابة والتعبير لتقطعت بيننا هذه الوشائج ، وتبددت قوانا المادية والمعنوية على مر الأيام . ويظهر أن مستر (مان) فطن إلى هذه الاعتبارات ، وأدرك جم الصعوبات التي تقف في سبيل اللغة العامية ، وأن اللغة الفصحى لا بد منتصرة في النهاية على الرغم من تلك الدعاية القوية التي أثيرت ضدها من الإنجليز وأشياعهم ، فقال : « على أني أعترف في الوقت نفسه أن مسألة اللغة هذه مشتبكة بجميع أنواع التقاليد الدينية والقومية والاجتماعية اشتباكاً لا فكاك منه ، وأنها لهذا السبب أعسر من أن تحل استناداً إلى الاعتبارات التربوية وحدها[1] »

وقد أثارت هذه الحملة الجائرة ضد اللغة الفصحى سخط الأدباء والكتاب ، ورجال الوطنية المصرية، فقابلوها بحملة أشد منها ، واشتهر من هؤلاء محمد المويلحي صاحب حديث عيسى بن هشام ، وألفت جمعيات من أدباء مصر لنشر الفصحى والذود عنها ، ومقاومة اللغة العامية وطغيانها . ولقد أسهم الشعراء في هذه المعركة ، فقال حافظ إبراهيم قصيدته المشهورة عن اللغة العربية سنة ١٩٠٣ ، مردداً فيها شتى الحجج التي يدافع بها أنصار الفصحى ، ومشيراً إلى حملات الإنجليز عليها ، وهذه هي القصيدة التي لا تتضح مراميها التاريخية إلا بعد معرفة المعركة على حقيقتها ، وقد قالها على لسان اللغة الفصحى :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي — وناديت قومي فاحتسبت حياتي
رموني بعقم في الشباب ، وليتني — عقمت ، فلم أجزع لقول عداتي
ولدت ولما لم أجد لعرائسي — رجالا ، وأكفاء وأدت بناتي
وسعت كتاب الله لفظاً وغاية — وما ضقت عن آي به وعظات
فكيف أضيق اليوم عن وصف آلة — وتنسيق أسماء لمخترعات
أنا البحر في أحشائه الدر كامن — فهل سألوا الغواص عن صدفاتي
فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسني — ومنكم وإن عز الدواء أساتي

(١) تقرير مستر مان .

فـلا تكلونـي للزمـان فإننـي أخـاف عليكم أن تحـين وفاتي

* * *

أيطربكم من جانب الغَرْب ناعب ينـادي بوَأدي في ربيـع حياتي
ولـو تزجرون الطير يوماً علمتمُ بمـا تحتـه مـن عَثْرة وشَتَات
أرى كـلَّ يوم بالجرائد مَزْلَقاً مـن القبر يُدْنيني بغـير أنـاة
وأسمع للكتـاب في مصر ضجـةً فأعلـم أن الصائحـين نُعاتـي
أيهجرني قومي — عفا الله عنهم — إلـى لغـة لـم تتصـل بـرواة
سَرَتْ لوثةُ الإفرنج فيها كما سرى لعـابُ الأفاعي في مسيل فـرات
فجاءت كثوب ضـم سبعين رقعة مُشكلـةَ الألـوان مختلفـات
إلـى معشر الكتاب والجمع حافل بسطت رجائي بعـد بسط شكاتي
فإمـا حيـاة تبعث الميت في البلى وتنبت في تلـك الرموس رُفاتي
وإمـا ممـات لا قيامـة بعـده ممات" لعمري لـم يُقَسْ بممات

فأنت ترى كيف بسط حافظ في قصيدته هذه المشكلة ، وبين مساوىء العامية ، ومزايا الفصحى وصوَّر شعور المصريين إزاء هذه القصة . ولقد كانت هذه الحملات المتتابعة على اللغة الفصحى ، سواء باضطهادها في مدارس الدولة وإحلال الإنجليزية محلها ، أو بالدعوة إلى هجرها ، واتخاذ اللغة العامية بديلا عنها سبباً في يقظة مفكري الأمة ، وانتباههم إلى تلك المؤامرات الإنجليزية على قومية المصريين . ولذلك ترقبوا الفرص السانحة لإحباط هذه المؤامرة . فما أن تولى سعد زغلول نظارة المعارف في سنة ١٩٠٧ حتى تقدم الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ، ومحمود باشا سليمان ، وأمين باشا الشمسي باقتراح في الجمعية التشريعية يطلبون فيه إرجاع اللغة العربية في المدارس ، وإبطال التعليم باللغة الإنجليزية ، وأن يكون الشروع في ذلك من السنة التالية أي سنة ١٩٠٧ . فرد عليهم سعد زغلول ، وهو في رده يبين ما وصلت إليه الحال في مصر من تغلغل النفوذ الأجنبي ، وسيطرتهم على كل شيء ، حتى أصبح متعذراً على المصري أن يجد سبيلا الى الرزق في بلاده إلا إذا تعلم لغة أجنبية ، وأصبح من العسير الحصول على معلم كفء يستطيع تدريس المواد المختلفة باللغة

العربية ، وهذا لعمري منتهى الانحطاط السياسي والاجتماعي ، قال سعد زغلول : « الحكومة لم تقرر التعليم باللغة الإنجليزية إلا ليتقوى التلاميذ فيها ، ويمكنهم الاستفادة من المدنية الأوربية ، ويفيدوا بلادهم ، ويقدروا على الدخول في معترك الحياة ، حياة العلم والعمل .

« وإذا فرضنا أنه يمكننا أن نجعل التعليم من الآن باللغة العربية ، وشرعنا فيه فعلا ، فإننا نكون قد أسأنا الى بلادنا ، وإلى أنفسنا إساءة كبرى ، لأنه لا يمكن للذين يتعلمون على هذا النحو أن يتوظفوا في الجمارك ، و (البوسطة) ، والمحاكم المختلطة ، والمصالح العديدة المختلفة التابعة للحكومة ، والتي يقتضي نظامها وجود كثيرين من الموظفين العارفين بإحدى اللغات الأجنبية حق المعرفة ، ولا أن يستخدموا في (بنك) أو مصرف ، ولا أن يشتركوا في شركة من الشركات الأجنبية التي كثر تأسيسها الآن في بلادنا ، ولا أن يكونوا محامين أمام المحاكم المختلطة ، ولا مترجمين ولا غير ذلك من كل ما يحتاج إلى البراعة في لغة أجنبية وهو كثير جداً في بلادنا .

إذا قطعنا النظر عن ذلك كله ، وأردنا أن نشرع من فورنا في التعليم باللغة العربية صادفنا صعوبات مادية ، وهي قلة المعلمين الأكفاء الذين يمكنهم تعليم الفنون المختلفة باللغة العربية ، فإذا كنتم توافقون على الاقتراح المقدم إليكم كنتم كمن يحاول الصعود إلى السماء بلا سُلَّم .

لذلك كله أرجو ألا تندفعوا في هذه المسألة وراء إحساسكم ، وأن تستشيروا قبل البت فيها العقل والحكمة ، إذ لا فائدة لكم أن تطلبوا طلباً تعلمون من الآن أنه لا يقابل بغير الرفض لاستحالة تنفيذه ، كل ما يمكنكم أن ترغبوه مني ، وما يمكنني أن اشتغل به ، وأقدمه خدمة لوطني هو السعي في تذليل تلك الصعوبة المادية وهو ما عقدت النية عليه من توسيع نطاق مدارس المعلمين ، والإرساليات إلى أوربا ، وتحسين حال موظفي المدارس ؛ حتى يمكن وجود عدد كاف يتولى التعليم باللغة العربية كما أرغب وترغبون ، وإني إذا وفقت لتحقيق هذه الأمور الثلاثة خدمت بلادي خدمة جليلة »[1] .

(١) كانت في ٣ مارس ١٩٥٧ . ونشرت بالمؤيد في ٥ مارس ١٩٠٧ .

وهذه وثيقة تاريخية غنية عن التعليق ، ولم يقل سعد ما قاله إلا تحت ضغط الظروف الواقعية ، وهي فقر الأمة في رجالها ولا سيما المعلمين الأكفاء ، وفقر اللغة العربية بسبب الاضطهاد الإنجليزي لها ، وسيطرة الأجانب على شئون مصر الاقتصادية والحكومية ، وجعل اللغة الأجنبية صاحبة المقام الأول عملياً ورسمياً في البلاد. ثم كراهية الإنجليز لعودة العربية إلى الحياة والقوة. ولذلك عرض سعد وهو وزير ، ما عساه يصادف الاقتراح من صعوبات ، حتى عدَّ تنفيذه مستحيلاً .

وقد وضع محمود (باشا) سليمان تعديلاً للاقتراح ، وبعد سماع هذه الخطبة ، بأن الجمعية العمومية تعتمد على وعد ناظر المعارف بتنفيذ المشروع بحسب الإمكان ، وأخذت الآراء على الاقتراح بعد تعديله فتقرر قبوله . بيد أن ناظر المعارف صرح بعد ذلك بأنه لا يمكن تنفيذ المشروع في ذلك الوقت للصعوبات الموجودة ، ومتى زالت هذه الصعوبات أمكن تنفيذه . فأعيد الاقتراع على الاقتراح الأول في مقابل تصريح ناظر المعارف ، فقررت الجمعية بأغلبية ستين صوتاً وجوب تنفيذ المشروع كما عرض بادئ الأمر . وصوت خمسة مع ناظر المعارف عدا الوزراء. وكأن الجمعية خشيت ألاَّ يستطيع سعد التنفيذ ، كما لم يستطع رياض (باشا) ذلك من قبل حيث حاول هذه المحاولة في سنة ١٨٩٣ ، فوضعت الحكومة أمام الأمر الواقع .

وابتدئ في تحويل التعليم باللغة العربية في المدارس الابتدائية من سنة ١٩٠٨، ولم يأت عام ١٩١٢ حتى صار التدريس في جميع المدارس الابتدائية باللغة العربية ، واستأنفت القافلة سيرها إلى اليوم بعد هذه المحنة التي دامت قرابة عشرين عاماً .

ومع هذا ظل دعاة العامية لا يهدأون ولا يفترون ، ومنهم محمد تيمور الذي جدَّ في الدعوة سنة ١٩٢١ وألف بها قصصاً ومسرحيات[١] ، ومع ذلك كله ظلت اللغة العربية قوية شامخة ، وتزداد كل يوم قوة — وقد زادتها فكرة القومية العربية ازدهاراً ، بل كانت الفصحى من أهم عناصر القومية العربية .

---

(١) انظر كتاب (ومیض الروح) تاليف محمد تيمور ١٩٢٢ .

— ٧ —

وعلى الرغم مما بذلته انجلترا من جهد في نشر اللغة الإنجليزية ، ومحاربة الثقافة الفرنسية واضطهاد اللغة العربية الفصحى ، فإنها لم تفلح في أن توجد طائفة من المصريين يعشقون اللغة الإنجليزية ، ويجيدونها إجادة تمكنهم من التأليف فيها ، كما مهر بعض المصريين في التأليف باللغة الفرنسية من أمثال واصف غالي ، وأحمد راسم ، والأمير حيدر فاضل ، ومحمد ذو الفقار وغيرهم . ولعل السرّ في ذلك هو شعور المصريين بأن هذه اللغة هي لغة الغاصب المحتل ، وأنه يفرضها عليهم فرضاً ، وكل شيء يجبر عليه المرء مبغوض لديه ولو كان حسناً ، ثم إن إنجلترا لم تشجع المصريين على الإفادة من دراستهم للغة الإنجليزية ، فلم تعترف بشهاداتهم في بلادها ، وحالت بينهم وبين البعثات العلمية ، ولم تعن العناية الواجبة بمؤسساتها العلمية بمصر في تلك الحقبة . بينما سارت فرنسا على النقيض من ذلك ، فأسست مدرسة الحقوق الفرنسية ، والمعهد العلمي الفرنسي . ولقد أدركت انجلترا أنها أخطأت في حق لغتها وفي حق المصريين على السواء ، وأخذت تعمل على تدارك ما فاتها ، فأنشأت بعض المعاهد العلمية مثل المدرسة الإنجليزية ، بمصر الجديدة ، وكلية فيكتوريا ، والمعهد العلمي البريطاني ، وأخذت تشجع المصريين على السفر لإنجلترا ، واعترفت بشهادات الكليات الجامعية ، ومكنتهم من الدراسات العالية ، بيد أن كل هذا حدث بعد أن غلت يدها من شئون التعليم وخروج دانلوب في سنة ١٩١٩ ، وفطنتها إلى أنها أخطأت في الماضي خطأ جسيما ، وأن فرنسا قد سبقتها في هذا الميدان . وقد فسر أحد الأدباء الإنجليز تغلب فرنسا على انجلترا في نشر الثقافة بمصر بقوله : « تملك انجلترا بمصر جيشاً ، وتملك فرنسا فكرة ، وتدير انجلترا شئون التعليم ، وتغذيه فرنسا بفلسفتها ، ولما كانت فرنسا تملك هذه الفلسفة ، ولا تملك انجلترا منها شيئاً ، فقد برهن القلم الفرنسي على أنه أقوى من السيف الإنجليزي[١] » .

وقد قوي نفوذ الثقافة الإنجليزية على مر الأيام في مصر بخاصة ، وفي الشرق العربي بعامة بفضل المؤسسات الثقافية العديدة ، من إنجليزية وأمريكية ، فقد نمت المؤسسات الأمريكية نمواً زائداً حتى صار لأمريكا جامعة بمصر ، وأخرى ببيروت

(1) Dr. Russel Galt : The Conflict of French and English philosophy in Egypt, p. 16, London 1930.

تعد من أكبر جامعات الشرق ، ويؤمها طلاب من كل البلاد العربية ، وينفق عليها مال وفير .

وصارت اللغة الإنجليزية هي اللغة الأوربية الأولى بالمدارس المصرية بمقتضى المعاهدات المختلفة ، ونفوذ انجلترا السياسي ، وصار الطالب المصري يعرف الكثير عن الأدب الإنجليزي ، ولا يكاد يعرف شيئاً عن الأدب الفرنسي . ثم أدى إنشاء الجامعة المصرية الحديثة إلى تخصص بعض الطلاب في اللغة الإنجليزية ، ليكونوا مدرسين متمكنين فيها وحلوا محل خريجي المعلمين العليا[1] الذين كانوا يؤدون هذه المهمة في عهديها الإنجليزي والمصري . وقد درجت مصر قبل الحرب العالمية الأخيرة على إرسال فريق من نوابغ المدرسين للتخصص في اللغة الإنجليزية بانجلترا ، وقد أفادوا في نقل بعض عيون الأدب الانجليزي إلى اللغة العربية بأقلام قوية ، وأسلوب طيب .

وتوسعت مصر في إرسال البعثات في عهد الاستقلال ، وكانت أكثرية البعثات الحكومية إلى انجلترا لدراسة العلوم ، والطب والهندسة ، واللغات ، والفلسفة ، والفنون الحربية والاقتصاد ، واللغات الشرقية ، والتربية ، والزراعة وغيرها ، بيد أن وزارة المعارف رسمت لأعضاء البعثات الحكومية في أول الأمر — وذلك قبل أن ترسل الجامعة بعثاتها — طريقاً عقيمة ، وقيدتهم في الدراسة تقييداً أضر بهم وبمصر ، « وحسبك بوزارة المعارف حين ترسم المناهج ، والبرامج ، وتختار الجامعات والمدارس ، وتعين الدرجات والإجازات ، وهي إلى الآن لا تزال تجهل من أمور التعليم العالي في أوربا أكثر جداً مما تعلم . وقد كانت قبل الاستقلال خاضعة لسلطان الإنجليز ، وكان أبغض شيء إلى الإنجليز أن يتصل المصريون بالتعليم الأوربي العالي ، فلما أكرهوا على أن يخلوا بين المصريين وبين ذلك رسموا لهم المناهج والبرامج ، مضيقين لا موسعين ، ومخادعين لا ناصحين . وما زلنا نذكر العهد الذي كان المصريون يبتهجون فيه أشد الابتهاج حين يظفر أحدهم بأيسر

---

(١) انشئت مدرسة المعلمين سنة ١٨٨٠ وكانت تسمى مدرسة الخوجات ثم سميت مدرسة النورمال سنة ١٨٨٢ والمعلمين التوفيقية سنة ١٨٨٨ وانشئت بعدها مدرسة المعلمين الخديوية سنة ١٨٨٩ ثم ضمت المعلمين التوفيقية والخديوية في مدرسة واحدة سنة ١٨٨٩ ، وفي سنة ١٩١٠ سميت مدرسة المعلمين الخديوية بالمعلمين السلطانية ، وفي سنة ١٩١٢ سميت مدرسة المعلمين العليا ـ راجع تاريخ التعليم بمصر للدكتور أحمد عزت عبد الكريم ص ٦١٠ — ٦١٥ .

الدرجات الجامعية في أوربا ، والذي كانت تقنع فيه وزارة المعارف بـ (الدبلومات) أولا ، ثم (البكالوريوس) بعد ذلك والذي كانت تسخط فيه وزارة المعارف أشد السخط وأقساه على الذين يعجبهم العلم وتخلبهم الدرجات الجامعية ، فيتجاوزون ، أو يحاولون أن يتجاوزوا ما رسم لهم من خطة ، وما توضع لهم من منهاج[١] » ثم توالت بعثات الجامعات المصرية بجانب بعثات وزارة المعارف ، واشترطت الجامعة على الطلاب أن يحصلوا على أرقى الدرجات الجامعية ؛ ولم تقصر بعثاتها ، على انجلترا ؛ بل تعددت جهات الدراسة . وقد كان عدد أعضاء البعثات الجامعية في سنة ١٩٢٥ لا يزيد عن عشرين طالباً من جميع كليات الجامعة ، ثم بلغ الخمسين في سنة ١٩٣٨ . ولما نشبت الحرب العالمية الأخيرة في سنة ١٩٣٩ توقفت بعثات الجامعة ، ثم استأنفت سيرها بعد أن وضعت الحرب أوزارها في سنة ١٩٤٥ وصار لجامعة (فؤاد الأول) في سنة ١٩٥٠ مائة واثنان وتسعون عضواً في بعثات علمية للخارج جلهم في أوربا . وبعضهم في أمريكا[٢] . هذا عدا بعثات جامعة الإسكندرية ؛ وما أرسلته جامعة أسيوط (محمد علي سابقا) من بعثات استعداداً لتكوين هيئة تدريس قوية بها .

هذا وقد نُصَّ في قانون جامعة (القاهرة) على أن تكون اللغة العربية هي لغة التدريس بالجامعة ، وإن ظلت بعض الكليات حتى اليوم تتخذ الإنجليزية لغة التدريس في جميع المواد مثل الطب البشري ، والطب البيطري ؛ وبعضها يستخدمها في أكثر المواد مثل كلية العلوم والهندسة ؛ وبعضها يستخدم اللغتين الفرنسية والإنجليزية بجانب اللغة العربية مثل كلية التجارة والحقوق[٣] .

ومهما يكن من أمر فقد ازددنا صلة باللغة الإنجليزية على مر الأيام ؛ واستطاع بعض أدبائنا الذين درسوا على النظام الإنجليزي بالرغم من عقمه وفساده أن يجيدوا اللغة الإنجليزية فهماً وقراءة وهم الذين أسسوا المدرسة المصرية الحديثة في الشعر من أمثال عبد الرحمن شكري ، والمازني ، والعقاد .

---

(١) الدكتور طه حسين في مستقبل الثقافة في مصر . ص ٢٨٢ .

(٢) تقويم جامعة (فؤاد الاول) سنة ١٩٥٠ ص ٩٢ — ٩٦ .

(٣) المرجع السابق ص ٧٥ . وقد تقرر ابتداء من العام الجامعي ١٩٥٩ العمل على التدريس باللغة العربية في الكليات التي ذكرناها آنفا : وان يؤلف في الطب والهندسة والعلوم بالعربية لطلاب الجامعات وهذا عمل حميد يعيد لنهضة اللغة سيرتها الاولى التي ابتدأتها منذ أكثر من قرن ونصف أيام محمد علي .

ويقول الدكتور طه حسين : « وآية ذلك أننا حتى في أشد أوقات السيطرة الإنجليزية وضغطها على التعليم وتضييقها لحدوده ، قد انتفعنا من هذا التعليم الضيق المحدود أكثر مما أراد الإنجليز ، وأي دليل على ذلك أقوى من أن الذين أخرجتهم مدارس الاحتلال هم الذين اتسعت عقولهم لفهم الحرية والوطنية ، واستقرت عزائمهم لمناهضة الاحتلال نفسه ، وهم الذين أثاروا مصر وقادوها في الجهاد ، وكسبوا لها النظام (الديموقراطي) والحياة المستقلة »[١] وهم الذين قادوا حرية الفكر بمصر ، ووجهوا الأدب والدراسات الأدبية وجهة حديثة .

ويقول العقاد في هذه المدرسة الحديثة التي تأثرت بالأدب الإنجليزي : « فالجيل الناشىء بعد شوقي كان وليد مدرسة لا شبه بينها وبين من سبقها في تاريخ الأدب العربي الحديث ، فهي مدرسة أوغلت في القراءة الإنجليزية ، ولم تقصر قراءتها على أطراف من الأدب الفرنسي ، كما كان يغلب على أدباء الشرق الناشئين في أواخر القرن الغابر ، وهي على اتصالها في قراءة الأدباء والشعراء الإنجليز لم تنس الألمان والطليان والروس والأسبان ، واليونان ، واللاتين الأقدمين (عن الإنجليزية طبعاً) ، ولعلها استفادت من النقد الإنجليزي فوق فائدتها من الشعر وفنون الكتابة الأخرى، ولا أخطىء اذا قلت : إن (هازلت) هو إمام هذه المدرسة في النقد ؛ لأنه هو الذي هداها إلى معاني الشعر والفنون ، وأغراض الكتابة ومواضع المقارنة والاستشهاد »[٢] ، وسنعود إن شاء الله إلى هذه المدرسة ، وتبيان خصائصها وإلى أي حد جددت في شعرنا الحديث .

وليس معنى هذا أن نفوذ الثقافة الفرنسية بمصر قد زال أمام قوة الثقافة الإنجليزية ، فإن كثيراً من المعاهد المصرية لا تزال تعنى باللغة الفرنسة عناية زائدة ، وتدرس بها كثيراً من المواد كالحقوق والتجارة ، وبكلية الأدب قسم خاص للغة الفرنسية ، ولا يزال الإقبال على الدراسة بفرنسا قوياً ، يقصدها كثير من الطلبة غير الحكوميين لدراسة الطب والحقوق والفلسفة والآداب ، وترسل إليها الحكومة بعض بعثاتها ، لدراسة القانون والفلسفة ، واللغة الفرنسية[٣] .

(١) مستقبل الثقافة في مصر ص ١٣٠ .

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ١٩٢ .

(٣) لقد تغير الوضع بالنسبة لفرنسا منذ العدوان الثلاثي سنة ١٩٥٦ والغيت اللغة الفرنسية من المدارس الثانوية ابتداء من العام ١٩٦١ — ١٦٦٢ . ثم تقرر إعادتها ابتداءً من هذا العام الدراسي ١٩٦٤ — ١٩٦٥ .

— ٨ —

ولعلك رأيت أن الحال في مصر منذ الاحتلال الإنجليزي حتى اليوم قد تغير تغيراً شديداً ، وأننا ازددنا ارتباطاً بأوربا وثقافاتها المختلفة ، ولقد كان لكل هذا أثر في الأدب العربي بعامة وفي الشعر بخاصة •

١ — لقد تأثرنا بها في حياتنا الخاصة ، وطرق معيشتنا ، ونظرتنا إلى الحياة ، وما الأدب إلا انعكاس لما يشعر به الأديب في حياته • وتغيرت قيم الأشياء أمام أعيننا ، وعكفنا على تقليد أوربا في كل شيء ، وجعلناها مثلا أعلى في كل ما يتعلق بحياتنا المادية والمعنوية ، وفي ذلك يقول الدكتور طه حسين : « حياتنا المادية أوربية خالصة في الطبقات الراقية ، وهي في الطبقات الأخرى تختلف قرباً وبعداً عن الحياة الأوربية باختلاف قدرة الأفراد والجماعات ، وحظوظهم من الثروة وسعة اليد • ومعنى هذا أن المثل الأعلى للمصري في حياته المادية إنما هو المثل الأعلى للأوربي في حياته المادية ، تتخذ من مرافق الحياة وأدواتها ما يتخذون ، وتتخذ من زينة الحياة ومظاهرها ما يتخذون ، نفعل ذلك عن علم به وتعمد له أو نفعل ذلك عن غير علم ، وعلى غير عمد ، ولكننا ماضون فيه على كل حال ، وليس في الأرض قوة تستطيع أن تردنا عن أن نستمتع بالحياة على النحو الذي يستمتع بها الأوربيون •

مدت أوربا الطرق الحديدية ، وأسلاك (التلغراف والتليفون) فمددناها ، وجلست أوربا إلى الموائد ، واتخذت ما اتخذت من آنية الطعام ، وأدواته وألوانه ، فصنعنا صنيعها ثم تجاوزنا ذلك إلى جميع الأنحاء التي يحيا عليها الأوربيون فاصطنعناها لأنفسنا غير متخيرين ولا محتاطين ولا مميزين بين ما يحسن منها وما لا يحسن ، وما يلائم منها وما لا يلائم • ونستطيع أن نقول : إن مقياس رقي الأفراد والجماعات في الحياة المادية مهما تختلف الطبقات عندنا إنما هو حظنا من الأخذ بأساليب الحياة المادية الأوربية •

وحياتنا المعنوية على اختلاف مظاهرها وألوانها أوربية خالصة : نظام الحكم عندنا أوربي خالص ، نقلناه عن أوربا نقلا في غير تحرج ولا تردد ، وإذا عبنا أنفسنا

بشيء من هذه الناحية فإنما نعيبها بالإبطاء في نقل ما عند الأوربيين من نظم الحكم وأشكال الحياة السياسية(١) » .

والحق أن مصر منذ حملة نابليون حتى اليوم ، وهي تسعى سعياً حثيثاً في أن تحاكي أوربا في كل شيء ، وقد بهرتها تلك القوة المادية الضخمة التي جعلت أوربا تتحكم في العالم ، وجدّ محمد علي وإسماعيل في تزويد مصر بكل ما يكفل لها تلك القوة ، من مصانع ، وجيوش ، وأساطيل ، وعلماء في كل فن ، ولكن تيار النهضة قد وقف منذ الاحتلال الأجنبي . ولقد ازداد حب المصريين لمحاكاة الأجانب وتقليدهم في كل ما يزاولون من شئون الحياة ، عملا بالقاعدة المعروفة « المغلوب مولع بتقليد الغالب » ، ولقد نظروا إليهم نظرة إكبار وتقدير ، وفقدوا الثقة في أنفسهم ، وأوهمهم هؤلاء أنهم لا يصلحون إلا أن يكونوا مرؤوسين ، مُقَادين ، مع أنهم كانوا إلى عهد قريب سادة مكرّمين يخشى بأسهم أهل أوربا أنفسهم .

ورأى المصريون منذ أخفقت الثورة العرابية ألاّ سبيل إلى النهضة الحقيقية ، والاستقلال الكامل إلا بتهيئة الشعب لتحمل أعباء هذا الاستقلال . وقديماً نادى محمد عبده بإنشاء مدرسة للقادة والزعماء ، واختلف هو وأستاذه جمال الدين في هذا وتبنى محمد عبده هذه الفكرة بعد أن عاد من منفاه ورأى أن يسير في النهضة ببطء وثقة وتأكد ، وأن الطفرة التي أرادها إسماعيل ، ودعا إليها جمال الدين لا تجدي شيئاً ، بل ربما أعقبت خسراناً وندماً ، وأنه خير لهذه الأمة إن أرادت القوة والعافية أن تستكمل تعليم أبنائها ، وتنزه الدين وتطهره وتعد نفسها لكي تتبوأ مكانها بين أمم العالم وتشاطرها(٢) . ولقد هادن محمد عبده الإنجليز ، حتى يتمكن من الإصلاح المنشود ، ويقول : « أما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره ، لأنني عرفت أنها ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه ، وتقوم على تنميته السنين الطوال ، فهذا الغراس هو الذي يجب أن نعنى به الآن(٣) » وقال عنه كرومر : « إنه كان رجلاً مستنير الرأي بعيد النظر ، اعترف بما لحكومة

---

(١) مستقبل الثقافة في مصر ص ٢٠ — ٣٢ .
(٢) المنار جـ ٨ ص ٤٥٧ ، ومشاهير الشرق جـ ١ ص ٢٨٥ .
(٣) المنار جـ ٨ ص ٨٩٣ .

الشرق من سيئات ، وسلم بضرورة المعاونة الأوربية في الإصلاح[1] » .

ولقد اعتنق تلاميذ محمد عبده هذه الفكرة وعلى رأسهم سعد زغلول ، ولطفي السيد وحافظ إبراهيم[2] ، ثم جاءت النهضة القومية على يد مصطفى كامل[3] ، ودعا إلى الأخذ بأساليب الرقي والنهوض مع وجوب التخلص من الأجنبي وشرور الاحتلال ، ولكنه اتفق مع تلامذة محمد عبده على وجوب العناية بكل ما يرقى بهذه الأمة صناعياً وعلمياً ، وتجارياً ، وحربياً حتى تكون في درجة تمكنها من المحافظة على استقلالها إن نالته أو المطالبة به عن جدارة إن لم تكن قد أخذته .

أنتج كل هذا رغبة شديدة في تقليد الحياة الأوربية مادية ومعنوية . وتطرف بعض الدعاة إلى هذا التقليد ونادوا بنفض أيدينا من الماضي جميعه وأخذنا عن أوربا كل شيء حسناً أو قبيحاً ، مادياً ومعنوياً ، واعتدل بعضهم ، ونادى بأن نجمع بين محاسن تقاليدنا ، ومحاسن المدنية الأوربية[4] . ومهما يكن من أمر فمن أبرز الظواهر في أخريات عهد الاحتلال وعهد الاستقلال الاهتمام الزائد بالإصلاح الاجتماعي في كل مرافق الحياة ، والحياة في الغالب تهدف إلى أن تكون على نمط أوربا لكثرة إعجابنا بها ، ولأنها صاحبة السيطرة العلمية والمادية اليوم ، وتجد لهذه النغمة صدى في أقوال الشعراء فهم لا يملكون إلا الإعجاب بحضارة الغرب ، ويحثون قومهم على السعي في اللحاق به ، فهذا حافظ إبراهيم يقول :

أيْ رجال الدنيا الجديدةِ مُدّوا	لرجال الدنيا القديمة باعا
وأفيضوا عليهم من أياديـ	ـكُمْ علوماً وحكمة واختراعا
كلَّ يوم لكم روائع آثا	رٍ توالون بينهن تباعا
كم خلبتم عقولنا بعجيب	وأمرتم زمانكم فأطاعا[5]

(1) Modern Egypt V. 2. p. 179-181.

(2) راجع تراجم شرقية وغربية لهيكل ٢٠١ ، وراجع كذلك الاسلام والتجديد في مصر للدكتور تشارلس آدمز ترجمة عباس محمد ص ٢١٤ .

(3) راجع مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ط ثانية ص ٣٠٧ .

(4) تراجم شرقية وغربية لهيكل ص ١٥٠ ، والاسلام والتجديد لآدمز ص ٢١٦ .

(5) ديوان حافظ إبراهيم جـ ١ ص ٢٦٠ .

ويبدي ولي الدين يكن إعجابه بالحضارة والعصر الجديد حين يركب الطيارة فيقول :

الناس ملُّوا من المطايا فجاء من بعدها البخار
وملَّه أكثر البرايا ثم اعتلوا في السما فطاروا
يا حبذا عصرنا الجديد
السحب نابت عن الأرائك لمعشر قد رقوا إليها
وضجت الطير والملائك في إثرهم حسرةً عليها
وهذه حسرة تزيد(١)

ويشير حافظ إبراهيم كذلك إلى علم الغرب ومدنيته ، وتذليله لقوى الطبيعة ، وتسخيرها لخدمة الإنسان :

وطويتمْ فراسخ الأرض طيّاً ومشيتم على الهواء اختيالا
ثم سخرتم الرياح فسُسْتم حيث شئتم جنوبها والشمالا
تسترجون الهواء إن رمتم السّيْـ ـرَ وفي الأرض من يشد الرّحالا
وتخذتم موج الأثير بريداً حين خلتم أن البروق كسالى
ثم حاولتمْ الكلام مع النجْـ ـم فحمّلتمْ الشعاع مقالا

إلى أن يقول حاثاً بني وطنه على مباراة هؤلاء الغربيين في حضارتهم ، وأخذهم بأسباب الوصول إلى هذه الغاية :

ليت شعري متى أرى أرض مصر في حمى الله تُنبِتُ الأبطالا
وأرى أهلها يبارونكم علـ ـما ووثباً إلى العلا ونضالا
قد نفضنا عنا الكرى وابتدرنا فُرَصَ العيش وانتقلنا انتقالا
وعلمنا بأن غفلة يوم تحرمُ المرء سعيَه أحوالا(٢)

---

(١) ديوان ولي الدين يكن ص ١١٩ .
(٢) ديوان حافظ إبراهيم جـ ١ ص ٣١٢ .

ويزداد الشعور بأن الشعب المصري لا يرجى منه خير إلاّ إذا أزيح عنه كابوس الجهالة وتعلم بنوه تعليما كاملاً صحيحاً ، حتى يكشف التعليم عن تلك الثروة المعنوية الكامنة في هذه العقول الغُفل ، فيدعو الوطنيون إلى التعليم القومي والإكثار من إنشاء المدارس(١) ، وينادي مصطفى كامل في سنة ١٩٠٤ و ١٩٠٥ بإنشاء جامعة مصرية(٢) ، ويقوم على هذا المشروع جماعة من المصلحين الذين تشربوا مبادىء محمد عبده(٣) ، ويقول مصطفى كامل في هذا : « مما لا يرتاب فيه إنسان أن الأمة المصرية أدركت في هذا الزمان حقيقة المركز الذي يجب أن يكون لها بين الأمم ، وأبلغ الأدلة على ذلك نهضتها في مسألة التعليم ، وقيام عظمائها وكبرائها وأغنيائها بفتح المدارس ، وتأسيس دور العلم بأموالهم ومجهوداتهم ، ولكن قد آن لهم أن يفكروا في الوقت الحاضر في عمل جديد الأمة في أشد الحاجة إليه ، ألا وهو إنشاء جامعة للأمة بأموالها(٤) » . وفرح الشعراء بإنشائها أيما فرح ، وهذا شوقي يقول :

أَلقِ في أرض مَنْف أُسَّ جامعة ... من نورها تهتدي الدنيا بنبراس
وانفُض عن الشرق يأساً كاد يقتله ... فلا حياة لأقوام مع الياس
تركُ النفوس بلا علم ولا أدب ... ترك المريض بلا طِبٍ ولا آس(٥)

ودعا الشعراء دعوة حارة إلى المبادرة بتأسيس المدارس وتعليم الشعب ، وأثنوا ثناء مستطاباً على كل من هزّته الأريحية فجاد بالمال في هذا السبيل ، فهذا محمد عبد المطلب يمدح ثلاثة من الأعيان تبرعوا بمقدار من الأفدنة لمدارس المنوفية فيقول :

ثلاثة أمجاد إذا عُدّ سادةٌ ... من الناس بذّوا بالنّدى سَرَواتها
سراةٌ أقالوا العلم من عثراته ... ندىً فأقالوا مصرَ من عثراتها(٦)

(١) مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ص ٩٢ ، ١٢٩ ، ١٣٩ ، — ١٤٢ ومحمد فريد لعبد الرحمن الرافعي ص ٣٩ ، ٩٠ ، ٢٩٢ .
(٢) اللواء ٢٦ اكتوبر ١٩٠٤ ، ٨ يناير ١٩٠٥ وتراجم شرقية وغربية ص ١٦٠ ، ومصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ص ٣٢٤ — ٣٢٥ .
(٣) الاسلام والتجديد ص ٢١٥ ، وتراجم ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .
(٤) اللواء ٢٦ اكتوبر ١٩٠٤ . (٥) شوقيات جـ ١ ص ١٥٨ .
(٦) ديوان عبد المطلب ص ٣٤ .

وهذا مطران يصور حالنا من الجهل ، وكيف نهضت أوربا ، ويحث على تشييد المدارس :

هُمْ يفتحون السماء ... ويملكون الهواء
ويقطعون الصحارى ... ويعبرون الماء
ونحن نمكث في عُقْـ ... ـر دارنا غرباء
كأننا قد خلقنا ... نلابس الغبراءَ
نرنو ونأسى ونثني ... دمعَ العيون بكاء
ولا نرى غير ذكرى ... أجدادنا تأساء
نال التوكلُ منا ... والضعف ما الجهل شاء

إلى أن يقول :

بالعلم تدرك مصرُ الـ ... ـحرية العصماء
وتستعيد الفخار الـ ... ـقديم والعلياءَ
وتسترد من الدهـ ... ـر عزها والرخاءَ(١)

ويقول من قصيدة أخرى :

يا آخذين بتعليم الصغار لقد ... صنتم مرابعكم من أكبر المحن
مساوىء الجهل في الأطفال شاملة" ... لقومهم كلهم في مقتبل الزمن
كم عزَّ من ضَعَةٍ شعب" بفتيته ... وكان آباؤهم في أوضع المهن
هو ابتناء" لِمَا ترجون من عِظَمٍ ... وهو اتقاء" لما تخشون من فِتَنِ(٢)

ويقول شوقي في التعليم والعلم :

كانت لنا قدم" إليه خفيفة ... ورمت بـ (دنلوب) فكان الفيلا
حتى رأينا مصر تخطو إصبعاً ... في العلم إن مشت الممالك ميلا

---

(١) ديوان مطران جـ ٣ ص ٣٥٨ .

(٢) ديوان مطران جـ ٣ ص ٣٠٠ .

تلـك الكفـور وحشوُها أميـة   من عهد (خوفو) لم تر القنديلا

ويرى قاسم أمين أن المرأة المخدّرة لا تنفع الأمة ، ويدعو دعوته المشهورة إلى السفور ومشاركة المرأة الرجل في الحياة تقليداً لأوربا ، ويدعو إلى الحد من تعدد الزوجات ، وإلى تشريع خاص بالطلاق[١] ، وجاءت بعده ملك حفني ناصف التي اشتهرت بلقب (باحثة البادية) وعززت دعوته مع شيء من التحفظ ، فلم تذهب إلى كل ما ذهب إليه وإن دعت الى السفور المحتشم ، واستنكرت اختلاط الجنسين[٢] .

وقد قامت ضجة عظيمة حول دعوة قاسم أمين هذه ، واختلف الناس فيها اختلافاً بيناً[٣] حتى ألف في الرد عليه أكثر من ثلاثين كتاباً[٤] . وسجل الشعر الحديث هذه الدعوة ، وانقسم الشعراء بين مشجع لها ، ومندد بها ، فهذا شوقي لا يرى في أول الأمر التشجيع على السفور ويقول قصيدته المشهورة التي أهداها لملك حفني ناصف (باحثة البادية) .

صدّاحُ يا ملك الكنا   رِ ويـا أمـير البلبل

ويزين الحجاب للمرأة ويحذرها من السفور فيقول :

أنـتَ ابـنُ رأي للطبيـ   عة فيـكَ غـير مبدّلِ
أبـداً مَرّوعٌ بـالإسا   ر مهـددٌ بـالمقتـل
إن طرتَ عـن كنفي وقعـ   تَ على النسور الجهّل[٥]
حرصي عليكَ هوىً ومن   يحـرز ثمينـا يبخـل

وقد[٦] ردت عليه ملك بقصيدة طويلة بينت فيها رأيها في هذه القضية وسلكت — كما ذكرنا — مسلكاً وسطاً .

---

(١) تحرير المراة لقاسم أمين .
(٢) راجع باحثة البادية للانسة مي : مطبعة المقتطف. مصر ١٩٢٥ وراجع كتابنا «دراسات أدبية جا».
(٣) المنار جـ ٤ (١٩٠١) ص ١٠٦ .
(٤) تحرير المراة الطبعة الثالثة ص ١٩٤ وما بعدها .
(٥) شوقيات حـ ١ ص ١٨٦ .
(٦) راجع كتابنا دراسات أدبية بحث عن ملك حفني ناصف .

ومطلع قصيدتها :

يا هـذه لا تعذلـي　　وإذا أبيت فقللـي

وفيها تقول :

مجـد الفتاة مقامها　　في البيت لا في المعمل
والمـرء يعمل في الحقو　　ل وعرسه في المنـزل
مَنْ للوليـد يعينـه　　في لبسه والمآكـل
ويميط عنه أذى الهوى　　بتلطـف دتحيُّـل

وأخذت تعدد ما يجب على المرأة أن تقوم به في منزلها ، وليس معنى هذا أن تظل حبيسة :

لكـن إذا دعت الضرورة للخروج فحيَّهَلِ
سيري كسير السحب لا تأنيْ ولا تتعجـل
وتنكبي نهـج الزحام وفضلي النهـج الخلي
لا تخضعي بالقـول أو تتبرجـي أو ترفلـي
لا تكنسي أرض الشوارع بـالأزار المسْبَل
أما السفور فحكمه في الشرع ليس بمعضل
ذهب الأئمـة فيـه بـين محـرم ومحلل
ليس النقاب هو الحجاب فقصري أو طولي
فـإذا جهلت الفرق بينهمـا فدونك فاسألي

ونرى حافظاً يحاول أن يقف موقفاً وسطاً في هذه القضية فيقول :

أنا لا أقول دعوا النساء سوافراً　　بـين الرجال يَجُلْنَ في الأسواق
يَدْرُجن حيث أردن لا من وازعٍ　　يَحذَرْن رِقبته ولا مـن واقي

يفعَلْن أفعـال الرِّجال لواهيـاً　　عـن واجبات نوَاعِس الأحـداق
كـلا ولا أدعوكـم أن تسْرفوا　　في الحَجْب والتَضييق والإرهاق
ليست نساؤكمْ حِلـىً وجواهراً　　خوف الضياعِ تصانُ في الأحقاق
فتوسطـوا في الحالتـين وأنصفوا　　فالشرُّ في التقييـد والإطـلاق[1]

ومهما يكن من أمر فقد أجمع الشعراء والأدباء والمصلحون على وجوب النهوض بالمرأة وتعليمها[2] ، ودعوا إلى رعاية الطفل حرصاً على مستقبل الأمة ، فيقول حافظ قصيدته التي مطلعها :

شَبَحاً أرى أم ذاك طيف خيال　　لا بـل فتاةٌ بالعراء حيالي[3]

ويقول قصيدة أخرى مطلعها :

صفحة البرق أومضت في الغمام　　أم شهابٌ يشقّ جوفَ الظلام[4]

ويقول محمد عبد المطلب قصيدته التي مطلعها :

مصر أمي ، فداء أمـي حياتي　　سلمت أمنـا مـن العاديات[5]

وينشد الشعراء أشعارهم حين يرون بادرة إصلاح تشجيعاً للقائمين بها : عند افتتاح مستشفى أو ملجأ ، أو مصنع ، أو مصرف وما شاكل ذلك ، وعند كل ما من شأنه الرقي بمصر حتى تصير في حياتها المادية والعلمية والصحية مساوية لأوربا .

وقد وصف الشعراء بعض العادات التي سرت لبيئتنا من أوربا ، فهذا شوقي يصف حفلة راقصة في قصر عابدين بقصيدته التي مطلعها :

مـال واحتجَب وادعى الغضب[6]

---

(١) ديوان حافظ إبراهيم جـ ١ ص ٢٧٩ .
(٢) راجع ديوان مطران جـ ٢ ص ١ ، وحافظ إبراهيم جـ ١ ص ٢٧٩ .
(٣) ديوان حافظ إبراهيم ص ٢٧٥ .　　(٤) نفس المرجع ص ٢٨٣ .
(٥) ديوان عبد المطلب ص ٣٣ .　　(٦) الشوقيات جـ ٢ ص ١٣ .

وبقصيدته التي مطلعها :

طـال عليها القِـدم فهي وجود عدم[1]

ويتكلمون عن الموسيقى[2] والفنون الجميلة[3] ، ويصفون مختلف المخترعات كالغواصة[4] والطيارة والسيارة والمذياع، والحفلات المختلفة ذات الطابع الغربي... إلى غير ذلك مما يمثل عصرهم أتم تمثيل ، ويظهره في ثوب المدنية الحديثة. ويعالجون مشكلات المجتمع المصري ، والسوءات التي نقلناها عن أوربا من انتحار الطلبة[5] ، وطريق الغواية وإفساد الفتيات[6] وما شاكل هذا . وسنعود إلى أغراض الشعر الحديث بعد البارودي بشيء من التفصيل فيما بعد ، وإنما سقنا هذه الأمثلة لندلل على أننا حقاً نسير وراء المدنية الغربية في حياتنا المادية والمعنوية ، وأن أدبنا قد تأثر إلى حد كبير بهذه المظاهر شعراً ونثراً ، وأن أثر الأجانب كان فينا قوياً . وقد ازداد تعلقنا بهذا اللون من الحياة بعد الحرب العالمية الأولى ونيلنا قسطاً وفيراً من الحرية والاستقلال ، وظهور عهد من الاستقرار والسلام والرخاء في البلاد ، فزاد العبث واللهو ، والافتتان بكل ما تجلبه أوربا . وكان لهذه الحياة أثر كبير في الأدب ، فنحا الشعراء الذين ظهروا بعد الحرب العالمية الكبرى نحو المجون والغزل الفاحش ، والخروج على كل التقاليد العربية والإسلامية . وليس من همي الآن ، وفي هذا الفصل أن أسهب في الكلام على هذا اللون من الشعر ، وإن قلمي ليعف عن أن يسجل بعض هذا الغزل الرذيل الذي يعبر عن عاطفة منحرفة ، ونفس مريضة .

على أن هذا النوع من الغزل الذي ظهر كأثر من آثار انغماسنا في الحضارة المادية ، ونسياننا المثل العليا ، وكلّ ما يغذي النفوس ويسمو بها ؛ يدعونا إلى الكلام عن أثر آخر للثقافة الأجنبية ، وذلك هو :

٢ ــ تقليدنا لمذاهب الأدب الأوربي . وصرنا نسمع ، ولا سيما بعد الحرب

---

(١) الشوقيات جـ ١ ص ١١١ (٢) مطران جـ ٣ ص ٩٤ .
(٣) مطران جـ ٤ ص ٥٦ . (٤) الشوقيات جـ ٢ ص ١٣٣ .
(٥) مطران جـ ٢ ص ٥٧ ، والشوقيات جـ ١ ص ١٣١ .
(٦) مطران جـ ١ ص ٢٢٢ .

العالمية الأولى بما يسمى المدرسة الرمزية والمدرسة الواقعية ، و (السريالية) ، والمدرسة الإبداعية (الرومانتيكية)[١] ، ومعظم الشعراء الذين فتنوا بهذه المدارس ، قلدوها تقليداً ، من غير أن يكون ثمة داع لهذا التقليد ، إذ لم تظهر هذه المذاهب الأدبية في أوربا إلا نتيجة لعوامل اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية شجعت على ظهورها • وسنعود إلى بعض هذه المدارس بشيء من التفصيل عند الكلام على المدرسة المجددة في الشعر الحديث إن شاء الله •

٣ ـ التجديد في القوالب الأدبية ، فلم تعد القصيدة وحدها في الشعر ـ كما كانت في القديم ـ هي القالب الوحيد الذي يفصح فيه الشاعر عن خلجات قلبه ، ويحمله خياله ومعانيه ، بل عمد الشاعر إلى المسرحية الشعرية ، واختلفت مسرحياتهم طولاً وقصراً • وأكثروا من الرباعيات ، والتواشيح • بل إن بعضهم قد أسرف فنظم ما يسمى بالشعر المرسل • ولم يكن حظ النثر دون الشعر في هذا المضمار ، بل بذّه ، وسار في التجديد شوطاً أوسع ، ولم تعد المقالة وحدها صاحبة السيطرة في النثر ، بل اهتم الأدباء بالأقصوصة ثم بالقصة الطويلة ، وإن كان حظ الأدب العربي من القصص الطويلة الجيدة حتى اليوم ضئيلا ، وأكثر من كتابة المسرحيات الاجتماعية ، واشتهر كتاب خطوا في المسرحية خطوات موفقة • ولتفصيل هذا الموضوع مكان آخر إن شاء الله •

٤ ـ الاقتباس من معاني الأدب الأوربي وأغراضه ، وذلك لكثرة الترجمة في هذا العصر كثرة عجيبة ، سواء من الشعر أو النثر ، فنجد كبار الكتاب أو الأدباء يسهمون في المجلات الأدبية بمقالات من إنشائهم أحياناً ، وينقلونها عن الآداب الأوربية أحياناً ، واشتهر من بين الأدباء الذين زودوا الأدب العربي بكثير من آراء المفكرين الغربيين والأدباء ولا سيما الإنجليز : الأستاذ العقاد فيترجم لتوماس هاردي أكثر من قطعة[٢] ، ويدافع عن مذهبه في الشعر وتشاؤمه ، ويترجم لأناتول فرانس (باقة من حديقة أبيقور)[٣] •

---

(١) راجع تفصيل الكلام عن هذه المذاهب في كتابنا (المسرحية) .

(٢) البلاغ الاسبوعي ٢ يونية ١٩٢٧ ، كذلك ١٧ يونية ١٩٢٧ ، و ٢٧ من يناير ١٩٢٨ و ٣ فبراير سنة ١٩٢٨ وقد نشرت هذه المقالات فيما بعد في كتاب تحت عنوان (ساعات بين الكتب) .

(٣) مجلة الجديد ٢٢ فبراير ١٩٢٨ .

ويترجم الدكتور طه حسين لبودلير[١] وغيره ، وينشر هذه التراجم في كتابه (من حديث الشعر والنثر) ، ويترجم بعض الأدباء (سادهانا) و (هدية العشاق) لطاغور[٢] ، وتعنى مجلة السياسة الأسبوعية بالأدب الفرنسي عناية فائقة ، وكانت تسير نحو التجديد بخطى وثابة •

وقد ظهرت كتب كثيرة مترجمة في الأدب مثل (أناتول فرانس في مباذله) للأمير شكيب أرسلان ، والزنبقة الحمراء وتاييس ، لأناتول فرانس ، إلى غير ذلك من الكتب الأدبية ، التي ذكرت بعضاً منها على سبيل المثال • على أن أهم ظاهرة في العصر الحديث هي كثرة القصص المترجمة ، قصيرة أو طويلة ، جيدة أو رديئة ، وقد ساعد على هذا وجود المجلات الأدبية ، وتنافسها على أن يكون بكل عدد قصة مترجمة ، وأحياناً قصة موضوعة ؛ واشتهر من المترجمين عن القصص الإنجليزي بعد الحرب العالمية الأولى محمد السباعي ، وقد نشر كثيراً من قصصه المترجمة في البلاغ الأسبوعي ، وهو ينقل عن الإنجليزية قصصاً لأدباء أوربا بعامة سواء كانوا من الإنجليز أو الألمان مثل (لوريلا) لبول هايتس ، أو من الروس مثل (الشيطان وصانع الأحذية ، ومهزلة غرامية ، وليلة هائلة) للقصصي الروسي تشيكوف ، أو الفرنسية مثل قصة العقد ، والحب الضائع ، والزجاجة وروزا ، والشعر ، وغيرها للقصصي الفرنسي الواقعي (جي دي موبسان)[٣] • ويترجم السباعي كذلك رباعيات الخيام عن الإنجليزية بأسلوب ممتاز ، ولكنه كان يجنح في ترجمته إلى عدم التقيد بالأصل •

ونرى قصصاً طويلة تترجم عن الأدب الأوربي بأسلوب أدبي ممتاز فيترجم الدكتور طه حسين (زاديج) لفولتير ، ويترجم الدكتور محمد عوض (فاوست) للشاعر الألماني جيته ويترجم الأستاذ أحمد حسن الزيات (آلام ڤرتر) لجيته ، ويترجم (رفائيل) للامرتين ، ويظهر قبل ذلك المنفلوطي في رواياته ماجدولين ، والشاعر والفضيلة مترجمة عن الأدب الفرنسي[٤] • ويترجم السباعي رواية المدينتين

---

(١) مجلة الجديد ١٨ ابريل ١٩٢٨ •

(٢) راجع القطعة الاولى في البلاغ الاسبوعي ١٩٢٦/١/٤١ ، والقطعة الثانية في نفس المجلة ١٩٢٧/٦/١٨ •

(٣) راجع البلاغ الاسبوعي في السنوات ١٩٢٦ ، ١٩٢٧ ، ١٩٢٨ •

(٤) راجع H. R. Gibb. B. S. O. S. وانظر ترجمتها العربية في المجلة الجديدة السنة الثانية عدد نوفمبر ١٩٣٠ ص ١٧ — ٢٤ ، وعدد ديسمبر ١٩٣٠ ص ١٤٩ — ١٥٥ •

لتشارلز دكنز ، ويترجم الدكتور طه حسين عدداً من المسرحيات الفرنسية .

ونرى خليل مطران يترجم لنا بعض روايات شكسبير ، وأسس الدكتور أحمد زكي أبو شادي مدرسة شعرية هي مدرسة (أپولو) عام ١٩٣٢ ، وأصدر مجلة بهذا الاسم غصت صفحاتها بالمترجم من الشعر الغربي ، والمنظوم على نمطه[1] .

ولقد كانت المجلات الأدبية كما ذكرنا حاملة مشعل الترجمة في كل الفنون ، فالسياسة الأسبوعية ، والبلاغ الأسبوعي ، والجديد للمرصفي ، والمجلة الجديدة لسلامة موسى ، ثم الرسالة لأحمد حسن الزيات ، وأختها الرواية ، ثم مجلة الثقافة غصت بالموضوعات والقصص المترجمة . وقد كان لكل هذا أثر في اقتباس الأدباء والشعراء من معاني الأدب الأوربي ، قصدوا ذلك الاقتباس أو لم يقصدوه ، كما أنهم تأثروا به في موضوعاته وطريقته ، وسنرى هذا الأثر عند الكلام عن المدارس الشعرية في العصر الحديث إن شاء الله .

٥ — ونتج عن تأثرنا بالثقافة الأجنبية كثرة تعريب الكلمات ودخول عدد وفير من أساليب التعبير الغربية التي تلمسها لدى الكتاب غير المتمكنين من الأدب العربي القديم ، والذين لا يستطيعون أن يصوغوا العبارات المترجمة صياغة عربية أصيلة ، وقد انقسم المترجمون حيال اللغة العربية إلى أنواع ثلاثة فبعضهم يترجم (ولا سيما المسرحيات) بلغة عامية أو عربية قريبة من العامية ولا يتحرجون في استعمال الكلمات الأجنبية ، وأسلوبهم فيه كثير من الأسلوب الغربي . وقد راعى هؤلاء حال الجمهور المصري الذي سيشهد هذه المسرحيات ، فلم يعنوا بالصياغة العربية والترجمة القوية من أمثال محمد تيمور ، ومحمود تيمور ، والدكتور هيكل . ونوع ثان ينقل باللغة العربية السهلة التي يتكلمها الناس ، ولا ترقى إلى اللغة الأدبية أو تدانيها ، بل هي أشبه بلغة الصحف ، ومن هؤلاء : المازني ومحمد عوض ، ومع هذه البساطة في التعبير والدقة في الترجمة قلّ أن نجد لديهما أساليب تنكرها العربية . وإن كان المازني قد جنح في أخريات حياته إلى التساهل في استخدام الكلمات العامية في مقالاته الصحفية وفي بعض قصصه مع أنه في مستهل حياته الأدبية كان من أكبر

---

(١) راجع Lenard S. Harker في كتابه Blazing The Trail ١٩٣٨ ص ١٢٩ ، والدكتور إسماعيل ادهم من مطران ص ٣٤ .

المحافظين على الفصحى وعلى تجويد الأسلوب ، وقد برع المازني في أخريات حياته في الترجمة من الإنجليزية إلى العربية براعة جعلته في الصف الأول في هذا المضمار • ونوع ثالث كان يتحرج كل التحرج من الإسفاف في التعبير أو الحيدة عن صحيح اللغة ، أو الكتابة بأساليب مرقعة ، لا هي بالعربية الأصيلة أو الغربية الخالصة ، وإنما كان يترجم ترجمة أدبية قوية ممتازة الأسلوب مثل مطران في ترجماته لروايات شكسبير ، ومثل طه حسين في ترجماته ، ومثل الزيات في آلام فرتر ورفائيل • ومثل السباعي[1] في قصصه المترجمة ، وإن كان لا يتقيد بالأصل ، ومثل عباس حافظ في قطعه الأدبية المترجمة[2] •

ولقد كان ثمة صراع بين الذين يؤثرون السهولة والراحة ، ولا يكلفون أنفسهم عناء البحث وراء الكلمة الفصيحة حين الترجمة أو التأليف ، وينقلون الآثار الأدبية الرائعة في لغاتها إلى اللغة العامية المصرية فيسيئون إلى هذا الأدب الجميل ، ويسيئون إلى لغتهم إساءة بالغة ؛ فالأثر الذي تتركه مثل هذه القطع المترجمة أثر وقتي يزول بخروج المتفرج من المسرح أو أثر خلقي إن كانت الرواية خلقية أو اجتماعية ، أما الأثر الأدبي فلا وجود له ألبتة ؛ لأن العامية لا تستطيع النهوض والوقوف للغة العربية كما ذكرنا في غير هذا الموضع[3] ، وبين هؤلاء الذين تمكنوا في اللغة العربية تمكناً عظيما ، فهم يبغون في ترجماتهم تزويد هذه اللغة بألوان من الصور والمعاني ، والأفكار ، والموضوعات تجعلها من اللغات العالمية الغنية • وللأستاذ العقاد في الدفاع عن الفصحى مقال قيم[4] ، وللرافعي ، رد مفحم مدعوم بالأدلة الباهرة على هؤلاء الذين حاولوا تمصير اللغة أو الجنوح إلى العامية نشره تحت عنوان (تمصير اللغة)[5] وقد قال شوقي مثنياً على الفصحى وقدرتها على التعبير في كل زمان :

لغـة الكامـل في استرساله ... وابن خلدون إذا صح وصابا
إن للفصحـى زمامـاً ويـداً ... تجلب السهل وتقتاد الصعابا

(1) Taher Khamiri and Kamipfmeyer : Leaders in Contemporary Arabic Literature.

(٢) البلاغ الأسبوعي ١٩٢٩ .

(٣) راجع ص ٤٢ — ٤٤ من هذا الكتاب .

(٤) راجع البلاغ الأسبوعي — العامية والفصحى ، ٢٢ إبريل ١٩٢٧ ، و (ساعات بين الكتب) للعقاد .

(٥) راجع كتاب (تحت راية القرآن للرافعي) ط ١٩٥٣ ص ٥١ — ٦٣ .

لغــة الذكــر لسان المجتبى ... كيف تعيــا بالمنادين جوابــا
كل عصر دارها إن صادفت ... منزلاً رحبــاً وأهلاً وجنابا
إيــت بالعمران روضاً يانعــاً ... وادعها تجــر ينابيع عذابــا

ويقول الدكتور طه حسين في مقدمة (قصص تمثيلية) موضحاً وجهة نظره في هذا الموضوع :

« هذه فصول في النقد والتحليل تناولت بها طائفة من آيات التمثيل الحديث ، ونشرتها (السياسة) متفرقة ، ثم طلب إلي بعض القراء أن أجمعها في أسفار فأجبتهم إلى ذلك دون أن أغير فيما نشرته ــ السياسة ــ قليلا أو كثيراً . ولقد كتبتها وجمعتها ، ولا أريد من ذلك إلا أمرين اثنين : الأول أن أظهر قراء العربية على نحو من الأدب الغربي ، والثاني أن يكون لهذه القصص ، وما فيها من الآراء الفلسفية ، والمذاهب الفنية المختلفة أثر في نفوس الأدباء الذين يعنون منهم بالتمثيل العربي خاصة ، يحملهم على أن يعنوا بهذا الفن الناشىء في أدبنا عناية ترفع من شأنه ، وتجعله خصباً مفيداً ، فإن أوفق إلى ما أريد بعضه أو كله فأنا سعيد » .

هذا بعض ما كان للثقافة الأجنبية ، وشدة اختلاطنا بالأدب الغربي نتيجة تلك العوامل التي أتينا عليها آنفاً من آثار في أدبنا شعراً ونثراً ، ألممت بها إلماماً سريعاً ، وكم كان بودي أن أقف عند كل أثر من هذه الآثار ، وأوفيه حقه من البحث في هذا المقام ، ولكن المقام أضيق من أن يتسع لكل هذا .

— ٩ —

والآن وقبل أن أترك هذا الموضوع أرى لزاماً عليَّ وأنا أؤرخ لهذه الحقبة من الأدب الحديث ، وقد ذكرت فيما سبق سيئات (كرومر) في التعليم ، أن أقول كلمة إنصاف ، وأسجل هنا أثراً حميداً من آثاره ، ألا وهو حرية الصحافة في عهد الاحتلال ، أو بعبارة أدق في عهد كرومر خاصة .

وإذا كان للورد كرومر من حسنات تذكر في هذا السبيل فأول هذه الحسنات وأقواها أثراً في الأدب هي إطلاقه الحرية التامة للمطبوعات ، وعلى الأخص الصحافة المصرية ، فلم يكمم أفواه الصحافة ، أو يقيدها بقانون خاص ، وتركها للقانون العام .

وصل كرومر مصر سنة ١٨٨٣ والصحافة مقيدة بتلك القوانين الصارمة التي سنها إسماعيل ، والتي كان يسلطها سيفاً بتّاراً على رؤوس الصحفيين الذين ينتقدونه ، ولا ننسى أنه أغلق جريدة التجارة التي أنشأها أديب إسحق ، وأغلق أبا نضارة التي أنشأها يعقوب صنوع ، وكاد يبطش بالأهرام لولا توسط الفرنسيين ، ثم جاءت الثورة العرابية فشددت الرقابة على الأفكار ، وعلى تداولها . ولا ننسى أن عبد الله نديم ظل مختفيا َرَدحاً طويلا من الزمن وأنه كان يخشى الظهور لما اشتهر به من مناوأته للخديو توفيق . وقد أغلق توفيق الأهرام سنة ١٨٨٤ لأنها كتبت مقالا تقرر فيه أن الحكومة لا تخدم مصر وإنما تخدم انجلترا ، ولكن الضباط المكلفين بإغلاقها سرعان ما فتحوها بأمر اللورد كرومر واعتذروا لصاحبها رسمياً .

كانت هذه القوانين تحتم على صاحب المطبعة دفع تأمين لا يقل عن مائة جنيه عند فتحها ، ومن ينشىء مطبعة بدون ترخيص من الحكومة يغرم غرامة قد تصل إلى مائة وخمسين جنيها ، ومن أراد أن يصدر كتاباً أو صحيفة لا بد له من عرضهما على قلم المطبوعات قبل أن يسمح له بإصدارها . وربما وجد من المضايقات وإحالة الأمر إلى وزير الداخلية ، وتعويق إصدار الرخصة للصحيفة ما يجعله يعدل عن إصدارها[١] .

جاء كرومر وهذه القوانين قائمة ومعمول بها فعلا ، فلم يلغها ، ولكنه أهملها ، وترك الحرية للمطابع وللصحافة . فانتشرت المطابع انتشاراً عظيما حتى بلغ عددها في أواخر عهد الاحتلال ما يربي على ٢١٧ مطبعة في القاهرة وحدها[٢] . وأبيح للكتاب ورؤساء الأحزاب وغيرهم إنشاء الصحف والمجلات من غير حاجة إلى استصدار رخص خاصة من قلم المطبوعات[٣] .

ولا شك أن إطلاق الحرية للصحافة وللكتاب ، قد حررها من ربقة الحكومة وسيطرتها ، فلم تعد ميدانا للملق والنفاق ، والكذب ، والدفاع بالباطل عن تصرفاتها الخاطئة وتكبير حسناتها التافهة ، بل صارت رقيباً قوياً ، ولسان صدق للأمة ومطالبها القومية ، وحرباً مريرة قاسية على الإنجليز وفظائعهم بمصر ، والتشهير بهم في العالمين،

---

(١) قانون المطبوعات سنة ١٨٨١ — الهلال اول مارس ١٩٠١ ص ١٣٢١ — ٣ .
(٢) George Young. Egypt : P. X. London 1927.
(٣) الهلال أول مايو سنة ١٩٠٧ ص ١٤٦١ .

ولا شك أن هذه كانت شجاعة فائقة من اللورد كرومر الذي كان الحاكمُ المطلق لمصر في ذياك الوقت أقوى من الجالس على العرش ، بل أقوى سلطة في البلاد ، يزور قراها ويستقبل استقبال الملوك ، ولا يستطيع أن يبت في صغيرة أو كبيرة من شئون الدولة إلا بأمره وبعد أخذ رأيه .

أتى كرومر مصر وعدد الصحف لا تزيد عن بضع وعشرين صحيفة ، ولكن لم يأت عام ١٩٠٣ حتى كان بالقطر ١٧٦ صحيفة خص القاهرة منها ١٣٣ ما بين جريدة ومجلة[١] .

ولقد أدى ازدياد الصحف إلى التنافس بينها ، وأدى التنافس إلى تجويد المقال ، واختيار الكتاب الأكفاء ذوي الأفكار الحية الجديدة ، وإشباع نهم الجمهور للطريف الجديد من المقالات والأخبار ، والتحدث بإسهاب عن مآسيه وأرزائه ، وأمانيه وأدوائه . وكيف ننسى أنه في هذه الحقبة ظهر مصطفى كامل ، وأشعلها حرباً مرة قاسية في الشرق والغرب على المحتل الغاصب ، وكانت جريدة المؤيد في أول الأمر ميداناً لمكافحته ، ثم أنشأ جريدة اللواء[٢] ، بل أصدر جريدتين إحداهما بالفرنسية L'Etendar Egyptien والثانية بالإنجليزية The Egyptian Standard[٣]؛ حتى يكون التشهير بفظائع الإنجليز أهم وأقوى ، ولم يتصادَرْ له اجتماع عقده ، وقد كان عدد الحاضرين يبلغ أحياناً سبعة آلاف ، ولم تغلق له جريدة مرة . وكان يكتب فيها جماعة من ذوي الأقلام الملتهبة القوية مثل عبد العزيز جاويش ، ومحمد فريد .

وكان إنشاء الأحزاب مباحاً كذلك ، وقد أنشىء حزب الإصلاح برئاسة الشيخ علي يوسف مناوئاً للحزب الوطني ، بعد أن فسدت العلاقة بين الخديو عباس والزعيم مصطفى كامل في سنة ١٩٠٤[٤] ، ثم أنشىء حزب الأمة في سنة ١٩٠٧ ، وهي السنة التي رحل فيها (كرومر) ، ولكنه شهد مولد هذا الحزب قبل أن يغادر مصر وكان

---

(١) محاضرة يعقوب ارتين باشا في المجمع العلمي المصري سنة ١٩٠٥ .
(٢) صدر العدد الاول من جريدة اللواء في يوم ٢ يناير سنة ١٩٠٠ .
(٣) صدرت الجريدة الفرنسية في مساء يوم ٢ مارس سنة ١٩٠٧ ، والجريدة الانجليزية في صبيحة ٣ مارس ١٩٠٧ راجع مصطفى كامل للرافعي ط ثانية ص ٢٤٠ .
(٤) راجع مصطفى كامل للرافعي ص ٣٣٩ وما بعدها .

عنه راضياً . كان حزب الأمة في أول الأمر متأثراً بأفكار الشيخ محمد عبده ونظرته في السياسة والإصلاح ، وكان الشيخ محمد عبده على صلة طيبة بالإنجليز كما عرفنا في الجزء الأول ، وقال كرومر في شأن رجال حزب الأمة في تقريره السنوي سنة ١٩٠٦ : « إنهم فئة قليلة من المصريين ، ولكن عددها آخذ في الازدياد ، ولا يسمع عنهم إلا الشيء القليل ، بيد أنهم ليسوا أقل استحقاقاً لوصف الوطنية من الحزب الوطني الذي اختص نفسه بهذا الوصف ؛ وهم ينشدون رقي بلادهم ، ويعملون على تقدم إخوانهم في الدين من غير أن يصطبغوا بفكرة الجامعة الإسلامية ، وهم يرغبون في التعاون مع الأوربيين على إدخال المدنية الأوربية في مصر ، وأنني أرى أن الأمل الوحيد للوطنية المصرية في معناها العملي الصحيح معقود بأعضاء حزب الأمة »[١] .

وقد أنشأ هذا الحزب (الجريدة) وكان يرأسه وقت تأسيسه حسن باشا عبد الرزاق وكان من أخلص الناس للشيخ محمد عبده ، وبعد وفاته في سنة ١٩٠٧ تولى الرئاسة محمود باشا سليمان ، ثم أحمد لطفي السيد الذي كان يرأس تحرير الجريدة . ويقول الدكتور هيكل في أغراض الجريدة وحزب الأمة : « على أن المصريين قد رأوا فشل السياسة الأولى التي جروا عليها ، وهي سياسة الاعتماد على فرنسا ، ثم على أوربا ، ثم على الباب العالي ، وقدَّر جماعة منهم أن لا بد من الأخذ سياسة أخرى هي إعداد الأمة بأدوات الاستقلال من علم وأخلاق ، وغرس الإيمان بنفسها لمجرد كراهية الإنجليز ، ولا حباً في الباب العالي ومقام الخلافة ، ولكن حباً في الاستقلال والحرية لذاتهما ، وكان لطفي السيد لسان الذين فكروا هذا التفكير[٢] » .

ولقد أفضت قليلا في الكلام عن حزب الأمة وجريدته ؛ لأنه كان حزباً يدعو إلى التجديد مع الاعتدال ، والتوفيق بين المدنية الحديثة ، والحضارة الإسلامية وتعاليم الشرع أو كانوا كذلك في أول الأمر ، لقرب تأثرهم بآراء الشيخ محمد عبده ، ولأن البيئة المصرية حينذاك لم تكن تتحمل التطرف الشديد في التجديد . ولكنهم فيما بعد ، حين تمتعت مصر بشيء من الاستقلال والحرية دعوا إلى التجديد السافر في غير تحفظ ، وإلى حرية الرأي ، ولو كان فيه شطط وخروج عن الدين

---

(١) تشارلز آدمز (الاسلام والتجديد) ص ٢١٤ نقلا عن كتاب الحقيقة عن مصر ص ٨١ .
(٢) تراجم شرقية وغربية ص ١٥٩ — ١٦٠ .

والتقاليد • ويعتبر رجال هذا الحزب أنفسهم سواء — في السياسة أو العلم — من القادة الذين يجب أن يستمع الشعب لآرائهم ، ويسير وراءهم ، ولهم في السياسة منحىً معروف ينم على أنهم أخلصوا للإمام محمد عبده ونظرته السياسية بعد وفاته ، وتمسكوا بتعاليمه ، فمنهم صار الأحرار الدستوريون فيما بعد ، وهم الذين دعوا الى إنشاء الجامعة المصرية ، وقاموا بإنشائها فعلا في سنة ١٩٠٨ ، وإن كان مصطفى كامل قد سبقهم في الدعوة إلى تأسيسها على نحو ما ذكرناه آنفاً ، وهم الذين تولوا إدارتها فترة طويلة من الزمن في عهدها الحكومي ، وقادوا الحركة الفكرية والتجديد في مصر في الآداب والفلسفة والاجتماع بقوة وجرأة ، وربما كانت لنا عودة إليهم فيما بعد إن شاء الله •

على أن إنشاء الجريدة كذلك كان فتحا جديداً في عالم الصحافة من جهتين : إذ ضاعفت الأجور للكتاب ، فارتفع مستواهم الأدبي ، وجاراهم في ذلك أصحاب الصحف الأخرى ، وجودت المقالة تجويداً عظيما ، بيد أن الجريدة لم تستمر بعد قيام الحرب العالمية الأولى ، وقد خلفتها في عهد الاستقلال جريدة السياسة اليومية وأختها السياسة الأسبوعية •

كانت الصحافة من قبل تطرح على المشتركين ، الذين يعدون الاشتراك فيها كرما وأريحية يَحبُون بهما صاحب الجريدة ، ولكنها بفضل المنافسة ، والحرية ، والاهتمام بالشعب وآماله والمزايدة في الوطنية ، وتنبه شعور الجمهور للإصلاح ، والتخلص من الاحتلال ، فرضت الصحافة نفسها على الشعب ، فأقبل على قراءتها حتى قال فيليب دي طرازي : « ولا بد لنا في هذا المقام ، مقام الكلام عن الصحافة في عهد الاحتلال من التصريح بأن صحافة وادي النيل بلغت ، أو كادت تبلغ شأو الجرائد الأوربية من حيث الحجم ، ووفرة الأخبار ، وغير ذلك من المحاسن ؛ والفضل عائد إلى الحكومة المصرية ، التي تحدت الحكومات الأوربية ما أمكن — بتأثير الاحتلال الإنجليزي — وعلى الجملة فالصحافة العربية في تاريخ حقبتها الثانية لا تستحق أن تعد بين الصحف الراقية إلا في مصر ، ولا يمكن أن ترتقي في سائر الأفكار إلا بقدرة ارتقاء المحيط الذي تصور فيه ، كما نشاهد الآن ذلك بالفعل في أمريكا الشمالية والجنوبية[1] » •

---

(١) تاريخ الصحافة العربية جـ ٣ ص ٨ •

ومما يدل على أن كرومر كان له الفضل في حرية الصحافة المصرية ، أنه بعد رحيله لم تقو الحكومة ، ولا رجال الاحتلال على مواجهة الحرية الصحفية ، والقوة التي كانت تهجم بها على الفساد الحكومي ، وتنغص على المحتل إقامته ، وتبين مساوىء حكمه ، وفساد إدارته ، وتعسفه ؛ فأعادوا في ٢٥ من مارس ١٩٠٩ قانون المطبوعات القديم الذي كان قد صدر في أخريات الثورة العرابية ، أي قبل الاحتلال في ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ ، وكان هذا القانون يخول وزير الداخلية الحق في إنذار الصحف ، وتعطيلها مؤقتاً ، أو نهائياً من غير محاكمة أو دفاع ، وكان بعثه وإعادة العمل به نكسة للحرية الصحفية ، وقضاء على ما بقي للشعب المصري من متنفس ، وكان صدوره أول مظهر للتحالف بين الخديو عباس والاحتلال ضد الحركة الوطنية[1] .

وقد أثار هذا القرار حنق الشعب كله ضد بطرس غالي رئيس الوزراء حينذاك، وقامت المظاهرات العديدة في كل مكان بمصر تنادي بإلغائه ، وتظهر سخطها على الوزارة التي سمحت برجوع هذا القانون ، الذي صار سيفاً مسلطاً على الأفكار الحرة ، وعلى رجال الوطنية الذين برموا بتلكؤ الإنجليز ، ووعودهم الكاذبة . وقد حوكم المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش بمقتضى هذا القانون ، لأنه كتب مقالا في ذكرى دنشواي ، وحبس ثلاثة أشهر في أغسطس سنة ١٩٠٩ ، مع أن ما قام به الوطنيون في سنة ١٩٠٦ حين وقوع حادثة دنشواي ، وما شنوه من حرب شعواء ضد الاحتلال في الداخل والخارج ، وضد كرومر بصفة خاصة كان أعنف وأقوى ما رآه الإنجليز حتى ذلك الوقت ، وكان السبب في أن ضحت انجلترا بكرومر إرضاء للمصريين أولاً ، ولتهدئة السخط الذي أظهره الرأي العام الأوربي حين سمع بهذه الفظائع الوحشية ثانياً . ولم يفكر كرومر ، وكان بيده كل سلطان — أن يكمم أفواه الجرائد أو يصادر الاجتماعات التي كانت تندد بسوءات حكمه .

وبمقتضى هذا القانون أنذرت جريدة اللواء الإنذار الأول في سنة ١٩٠٩ ، ثم عطلت نهائياً في أغسطس سنة ١٩١٢ ، وأوقفت جريدة (العلم) شهرين ، وكانت قد ظهرت بجانب اللواء في ٧ من مارس ١٩١٠ ، وصدر الأمر بإيقافها في ٢٠ مارس ،

---

(١) راجع محمد فريد لعبد الرحمن الرافعي ص ١٠٠ ط ثانية .

ثم عطلت نهائياً في ٧ من نوفمبر سنة ١٩١٣ • وبمقتضى هذا القانون كذلك حبس محمد فريد ستة أشهر لأنه كتب مقدمة لديوان (وطنيتي) الذي نظمه الشيخ علي الغاياتي ، وصودر الديوان ، وحبس الشيخ جاويش ثلاثة أشهر مع الشغل لأنه كتب مقدمة أخرى لهذا الديوان كذلك[١] •

وظل هذا القانون الصارم سيفاً بطاشاً ، يفتك بالصحافة الحرة ، ويطيح بالآراء الجريئة بل يئدها قبل أن ترى الحياة ، إلى أن شبت الحرب العالمية الأولى في أغسطس سنة ١٩١٤ وأعلنت الحماية على مصر ، وجاءت معها الأحكام العرفية ، فقضت على البقية الباقية من الحرية الصحفية ، وكانت المؤيد قد توقفت عن الصدور قبل ذلك بعد أن عين الشيخ علي يوسف شيخاً للسادة الوفائية في سنة ١٩١٢ ، وودع المؤيد ورئاسة تحريره في سنة ١٩١٣ ، وأسندت رئاسة تحريره لمحمد بك أبو شادي، ولكن الديون كانت قد أثقلت المؤيد ، فأصر الدائنون على بيع داره وأثاث بيت صاحبه لاستيفاء الدين ، فبيعت في مارس ١٩١٣ وفي ٢٥ من أكتوبر سنة ١٩١٣ توفي الشيخ علي يوسف وهو في الخمسين من عمره ، وذهب ذلك الصوت المصري الجريء مع من ذهب من أعلام النهضة[٢] •

أما (الجريدة) لسان حزب الأمة ، والصوت الجديد في الصحافة فقد توقفت كذلك في سنة ١٩١٤ ، وجنت عليها الحرب فيما جنت[٣] •

كانت الحرب العالمية الأولى نكبة على الناس ، وقد حاول الإنجليز أن يتخذوا منها ذريعة للقضاء على ما بقي للمصريين من حرية واستقلال وشعور بالكرامة والوطنية ، فمهدوا الطريق لإعلان الحماية على مصر ليقطعوا بذلك آخر صلة لها بتركيا ، وليحكموها بيد من حديد ، بحجة الدفاع عن أنفسهم ، وتأمين خطوط مواصلاتهم ، فأعلنوا قانون التجمهر في ١٨ من أكتوبر سنة ١٩١٤ ، الذي يقضي بألا

---

(١) محمد فريد لعبد الرحمن الرافعي ص ١٨٨ •

(٢) راجع ترجمة الشيخ علي يوسف وتاريخ المؤيد في كتابنا (في الأدب الحديث) ج ١ ص ٤١٥ وما بعدها ط سادسة . وكذلك في مقال للمؤلف عن الشيخ علي يوسف في مجلة الكتاب عدد يولية سنة ١٩٤٨ ، وفي دراسات ادبية للمؤلف ج ١ •

(٣) راجع تراجم شرقية وغربية لهيكل ، وراجع الاسلام والتجديد ص ٢١٥ •

يجتمع أكثر من خمسة أشخاص في مكان ما[١] ، وغلوا البلاد بالأحكام العرفية في ٢ من نوفمبر ١٩١٤[٢] ، ثم أعلنوا الحماية في يوم ١٨ من ديسمبر ١٩١٤[٣] وقد احتجبت جريدة (الشعب) التي كان يصدرها أمين الرافعي احتجاجاً على إعلان الحماية[٤] ، وعطلت الجمعية التشريعية في ٢٧ من أكتوبر ١٩١٥ ، فلم يبق في مصر أي صوت ينطق بلسان الشعب ، أو يستطيع أن يتفوه بكلمة حق .

وهكذا صمت المصريون أمام هذا الإرهاب الشنيع طوال أربع سنوات ، تضيق صدورهم بما ترتكبه (السلطة) من آثام ، ولا تنطلق ألسنتهم بما يعتلج في حنايا هذه الصدور من آلام ، وقد أشار سعد زغلول إلى ما عاناه المصريون في خلال هذه المدة من عنت وإرهاق في حديثه مع المعتمد البريطاني في سنة ١٩١٩ بعد أن أعلنت الهدنة بقوله : « وإن الناس ينتظرون بفروغ صبر زوال هذه المراقبة كي ينفسوا عن أنفسهم ، ويخففوا عن صدورهم الضيق الذي تولاهم أكثر من أربع سنين[٥] » .

ثم اضطرمت الثورة في مصر سنة ١٩١٩ ، وكان من أهم أسبابها على ما أعتقده كبت الحريات ، والتضييق الشديد على الآراء والأفكار طوال عشر سنوات كاملة ، بل منذ خرج كرومر من مصر سنة ١٩٠٦ ، ولقد كان كرومر استعمارياً محنكاً ، فسمح للمصريين بأن ينفسوا عن أنفسهم بالكتابة والخطابة فنأوا عن الثورة ، وإن أطاحت به هذه الحرية التي منحها لهم وأبعدته عن مصر على أثر تلك الغارة الشعواء التي شنوها عليه بعد حادثة دنشواي الدامية . أما خلفاؤه فلم ينهجوا نهجه ، ولم يتمرسوا بحكم الشعوب ، ويدرسوا نفسياتها ويعالجوها بما يناسبها ، فكانت ثورة سنة ١٩١٩ ، وكانت خيراً وبركة على وادي النيل .

ولما شبت الثورة ازدادت رقابتهم على الصحف شدة وعنفاً حتى إن الصحف المصرية لم تستطع أن تشير إلى أول اجتماع عقده الوفد المصري برياسة سعد زغلول في دار حمد الباسل إلا بأنه اجتماع ضم كثيراً من أعيان العاصمة والأقاليم دعوا

---

(١) راجع ثورة سنة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعي جـ ١ ص ١١ .
(٢) الوقائع المصرية ٢ من نوفمبر ١٩١٤ .
(٣) الوقائع المصرية ١٨ من ديسمبر سنة ١٩١٤ .
(٤) ثورة ١٩١٩ ص ٢٧ جـ ١ .
(٥) ثورة ١٩١٩ ص ٧٠ .

لتناول « الشاي » والحلوى ثم انصرفوا رويداً رويداً وجماعات جماعات ، وهم يتحدثون بفخامة هذا الاجتماع وبفضل الداعي وكرمه[1] ومن يقرأ هذا الكلام لا يفهم منه شيئاً يمت إلى السياسة بصلة ، مع أن هذا الاجتماع كان إيذاناً بالثورة ، وقد وضعت فيه مبادىء الجهاد ، والوقوف في وجه المحتل الغاصب ، وقد طبع الوفد ما اتخذه من قرارات ، ووزعها على الناس حين عجزت الصحف عن نشره .

ولما طارت أول شرارة من نار الثورة في مارس سنة ١٩١٩ ، واستشهد كثير من الشباب في ميدان التضحية ، وكثرت الاعتقالات واستبدت السلطة الغاشمة ، وأمعنت في طغيانها ، ولم يجد الناس في الصحف عناء لمعرفة أخبار الثورة والجهاد ، وانتشرت المطبوعات والصحافة السرية التي كانت تحمل الحملات الشديدة على الإنجليز ، وعلى الوزارة ، وعلى القصر ، وكان للطلبة جريدة سرية باسم « المصري الحر » ولها مطبعة سرية خاصة ، وكان الناس يتلقفون هذه النشرات بلهف بالغ ، ويتبادلون الاطلاع عليها ، فساء ذلك المحتل الغشوم ، وأمعن في إرهابه وعنته ، وأصدر الجنرال « بلفن » أمراً شديداً بمعاقبة كل من يلجأ إلى طبع أو إذاعة أو توزيع أي نشرة أو صورة عقاباً صارماً ، وذلك في يونية سنة ١٩١٩[2] .

ولما عقدت معاهدة الصلح في قصر « فرساي » في ٢٨ من يونية ١٩١٩ ، وتقرر فيها الاعتراف بشرعية الحماية على مصر ، تساهلت السلطة العسكرية البريطانية بعض الشيء مع المصريين ، وألغيت الرقابة على الصحف ابتداء من أول يولية سنة ١٩١٩ ، ونشرت رئاسة مجلس الوزراء بياناً في ٢٦ من يونية نصحت فيه لأصحاب الصحف بأن يلزموا الاعتدال حتى لا يلجئوا الحكومة إلى العودة لوضع القيود والروابط ، ولكن الإلغاء كان صوريا ، لأن إدارة الرقابة أرسلت إلى الصحف مذكرة سرية تفرض فيها رقابة أشد وأنكى مما كان[3] .

ثم مضت الثورة في طريقها لا تلوي على شيء ، واشترك فيها الأمراء ، والفقراء، وأهل المدن ، وأهل القرى ، وعمت البلاد من شاطىء البحر المتوسط إلى حدود السودان ، وكثر عدد القتلى والشهداء ، وتأليف وزارات لم تستطع حكم البلاد

(١) الاهرام ١٤ من يناير سنة ١٩١٩ .
(٢) راجع ثورة سنة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعي ج ٢ ص ٣٦ .
(٣) المرجع السابق ص ٢٩ .

وظلت البلاد من غير حكومة فترات طويلة ، وهنا اضطرت السلطة البريطانية إلى إعادة الرقابة على الصحف مرة أخرى في مارس ١٩٢٠[١] .

ولما دعي عدلي يكن لمفاوضة الإنجليز رسمياً ، وكان سعد زغلول بباريس حينذاك،وطلب منه عدلي أن يشترك في المفاوضة ـ أرسل إليه في ١٩ من مارس ١٩٢٠ بأنه عائد إلى مصر . وقد اشترط للاشتراك في هذه المفاوضة شروطا كان منها إلغاء الأحكام العرفية ، والرقابة على الصحف قبل الدخول في المفاوضات[٢] ، وقد حقق عدلي يكن بعض هذه الشروط في مايو سنة ١٩٢١ ، فرفعت الرقابة عن الصحف[٣] .

وانقسم الوفد المصري على نفسه ، واختلف سعد وعدلي على رئاسة الوفد ، ثم نفي سعد وصحبه إلى جزيرة سيشل في ١٥ من ديسمبر سنة ١٩٢١ ، وأعادت السلطة العسكرية الرقابة على الصحف مرة أخرى ، وبطشت بكل صحيفة كانت تناوئها . ولما أعلن تصريح ٢٨ من فبراير ١٩٢٢ ، وقاومته أغلبية الأمة ، وكثرت الاغتيالات السياسية أساء ثروت (باشا) معاملة الصحف التي كانت تندد بالتصريح ، وتعارض سياسته ، فعطل جريدة (الأهالي) تعطيلا نهائياً في مايو سنة ١٩٢٢ ، وعطل جريدة الأمة لمدة ثلاثة أشهر ، وعطل الأهرام وأصدر أوامر مشددة إلى الصحف بتجنب ذكر اسم سعد وزملائه المنفيين[٤] .

وأخيراً وضع الدستور المصري ، وأعلن في ١٩ من إبريل سنة ١٩٢٣ ، وقد كفلت المواد ٤ و ٥ و ١٢ و ١٣ و ١٤ منه الحرية الشخصية ، وحرية الاعتقاد ، وحرية الرأي .

بحيث لا يجوز القبض على أي إنسان ولا حبسه إلا وفق أحكام القانون ، وكفلت المادة ١٥ منه حرية الصحافة ، وحظرت الرقابة على الصحف ، ومنع إنذارها

---

(١) الوقائع المصرية في ٥ من مارس ١٩٢٠ .

(٢) خطبة سعد زغلول في حفلة تكريمه بحي السيدة زينب يوم ٢٢ من إبريل سنة ١٩٢١ .

(٣) في أعقاب الثورة لعبد الرحمن الرافعي جـ ١ ص ٨ .

(٤) المصدر السابق ص ٦٧ .

وتعطيلها أو إلغائها إداريا ، وانتهت الأحكام العرفية في ٥ من يولية سنة ١٩٢٣ • وتمتعت مصر بفترة من الحرية النسبية حُرِمَتْها أمداً طويلاً •

بيد أننا نقول والأسف يملأ قلوبنا إن الإنجليز قد تركوا لهم أذناباً وصنائع في مصر ، عبثوا بها وبحريتها ، وكانوا حرباً على الصحافة وحرية الفكر كلما أتيحت لهم الفرصة ليتولوا الوزارة ، التي كانوا يعبدونها من دون الله ، ومن دون الوطن ، ونراهم تضيق صدورهم حين يشاهدون الأمة جادة في نيل استقلالها كاملا غير منقوص ، وكأني بهم ينظرون نظرة الذئب إلى فريسته ، أو الوصي إلى اليتيم الصغير ، ويدعون أن الأمة لم تزل في حاجة إلى الهداية والرشد ، وأنهم هم القادة الأكفاء الذين أرسلتهم العناية الالهية للأخذ بيدها ، ولكن هل في تعطيل الدستور ، والعبث به ، ووضع دساتير فجة ، وفي كبت الحريات والحد من الأقلام الجريئة هداية أو رشاد ؟ ؟

لقد انفصل عن الوفد جماعة نفسوا على سعد رئاسته ، وأسس حزب الأحرار الدستوريين في أكتوبر سنة ١٩٢٢ ، وتصدعت وحدة الأمة ، واجتهد القصر في أن يحتفظ لنفسه ببعض مزايا الحكم ، وألف حزب الاتحاد ، ثم حزب الشعب ، ثم اندمج كلاهما في حزب الاتحاد الشعبي وكانا يشايعان القصر ، وقد أدت هذه الفرقة إلى تناحر الأحزاب فيما بينها ، وشدد رجال الأحزاب النكير على الحريات ، والصحف المعارضة كلما تولوا الحكم • وعمدت الصحف إلى المهاترات الحزبية ، وانصرفت جهود الأمة إلى دعم الحزبية ، لا إلى المطالبة بالاستقلال وقد ظل الأمر كذلك بعد الحرب العالمية الثانية ، فرأينا نيابة الصحافة تجد في تعقب الصحف ومؤاخذتها ، وفرض الغرامات على أربابها •

ولكن على الرغم من كل هذا فقد خطت الصحف في عهد الدستور خطوات واسعة جداً في سبيل الرقي من حيث المادة ، والحجم ، والفن الصحفي ، وظهر إلى جانب الصحف اليومية مجلات أسبوعية وشهرية عنيت بالآداب والعلوم والفنون ، يتفرغ لتحريرها صفوة الكتاب والأدباء وعملت على تحبيب الأدب للجمهور ، وكانت أداة فعالة في التقريب بين الشرق والثقافة الغربية • وقد بلغت هذه الصحافة الأدبية الذروة بعد إعلان الدستور فنرى السياسة الأسبوعية تحمل مشعل التجديد ،

وتحث الناس على الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية دون مراجعة أو تردد وتستمر حقبة من الزمن وهي في عنفوانها ، ثم تضمحل بضعف الأحرار الدستوريين سياسياً ، ويظهر بجانبها البلاغ الأسبوعي ينافسها في ميدان الأدب الغربي ، ويعرض آراء جمهرة من الكتاب والشعراء عرضاً جذاباً . وتظهر مجلة الجديد في سنة ١٩٢٨ لنائل المرصفي ، ولكنها لا تبقى أكثر من سنتين ، ومن ثم تظهر في الأفق مجلة قوية بأقلامها والمحررين فيها ، وكانت ثمرة ناضجة لهذه الجهود الطويلة الذي بذلها محمد عبده وأتباعه ألا وهي مجلة الرسالة للأستاذ أحمد حسن الزيات ، وتظل سنوات في مقدمة المجلات الأدبية في الشرق ، إلى أن تظهر مجلة الثقافة للأستاذ أحمد أمين ولجنة التأليف والترجمة وتبقى قوية بضع سنوات ثم تضعف . هذا عدا الهلال والمقتطف والزهراء لمحب الدين الخطيب وغيرها .

ثم تعلن الحرب العالمية الثانية في سبتمبر ١٩٣٩ ، وتعلن معها الأحكام العرفية ، ويشح الورق ، وتفرض الرقابة على المطبوعات ، وينقص حجم الصحف ، وتضعف الصحافة الأدبية تدريجياً ، ويظهر في أعقاب الحرب نجم جديد في عالم الصحافة الأدبية وهي مجلة الكتاب التي تصدرها دار المعارف[١] . ويهتم الغربيون ببث دعاياتهم وثقافاتهم بين شعوب الشرق ، فتصدر مجلة (المختار) الأمريكية في خلال الحرب ، وكلها ترجمة عن المجلات الأمريكية ، وفيها رأى العرب لوناً جديداً حقاً من الثقافة والتحرير ثم عجزت عن الاستمرار بعد سنوات وظهرت الهلال في ثوب جديد محتذية حذوها ، متقربة نوعا ما من ثقافة الشعب ومستواه دون أن تسف .

ولعلك رأيت بعد هذا العرض السريع للصحافة في عهد الاحتلال والاستقلال مبلغ ما عانيناه من عنت ، ومبلغ ما وصلنا إليه من حرية ، وسنعود مرة أخرى إلى الصحافة عند التحدث عن أثر النهضة القومية في الأدب إن شاء الله .

---

(١) من المؤلم أن المجلات الادبية كالرسالة والثقافة والكتاب قد اضطرت للاحتجاب وأعلن الأستاذ الزيات توقف الرسالة في الاهرام ١٩٥٣/٢/٢١ ثم تلتها مجلة الثقافة وتوقفت مجلة الكتاب في اغسطس ١٩٥٣ وهذه لعمري نكسة أدبية مريعة ، ولنا إلى هذا الموضوع عودة في أحد الاجزاء التالية حينما نتكلم عن النثر إن شاء الله .

الفصل الثاني

النهضة القومية

والنهضة القومية من أهم العوامل التي أثرت في أدبنا الحديث شعراً ونثراً حتى صار أدباً قوياً عملاقاً ، استعادت به اللغة العربية سابق رونقها وبهائها أيام عصرها الذهبي في عهد العباسيين ، بل أربت على ما كان لها من مجد بسبب اتصالنا القوي بالثقافة الغربية ، وتغذيتها تغذية متواصلة بثمرات الأدب الأوربي ، فعرفت ألواناً من الأدب لم تتذوقها .

وللنهضة القومية مظاهر شتى ، أثرت كلها في الأدب تأثيراً بليغاً ، وسنذكر هذه المظاهر بشيء من التوسع ، وتتكلم على آثار كل منها في الأدب على قدر ما تسمح لنا به هذه الصفحات المحدودة .

— ١ —

المظهر السياسي :

انتهت الثورة العرابية — كما عرفنا في الجزء الأول — بالاحتلال الإنجليزي لمصر في سنة ١٨٨٢ ، وقد كان لإخفاق الثورة العرابية أثران جوهريان : أولهما : الاحتلال البريطاني . وقد أكد الإنجليز منذ أن وطئت أقدامهم أرض مصر ، أنهم لا يريدون اغتصابها أو احتلالها ولكنهم جاءوا لحماية الخديوي من الثورة وتثبيت عرشه ، وأنهم جاءوا وهم ينوون الجلاء العاجل ، حين تستقر الأمور ، ويهدأ الشعب[١] . ولكن الإنجليز كانوا يخادعون الأمة المصرية ، ويتربصون بها الدوائر

(١) تصريح جلادستون رئيس وزارة انجلترا في البرلمان الانجليزي سنة ١٨٨٢ ، مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ص ٦٢ ، ومنشور الجنرال ولسلي قائد الجيوش البريطانية حين وصل إلى الاسكندرية سنة ١٨٨٢ — مذكرة أمين الرافعي عن المسألة المصرية ٢٠ من نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وثورة سنة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعي جـ ١ ص ٨٠ .

من زمن بعيد منذ حملة نابليون على مصر ، ومنذ غزوتهم لها بقيادة الجنرال (فريزر) سنة ١٨٠٧ وهزيمتهم في موقعة رشيد[١] .

وثانيهما : سريان روح الخضوع واليأس في نفوس المصريين بعد الاحتلال . ومن مظاهر هذا اليأس تنصل زعماء الثورة العرابية من تبعاتها ، والتجائهم إلى الإنجليز يستجدون منهم الصفح والمعونة . وقد ظلت مصر في هذه الحالة الشنيعة من الخضوع ، والاستسلام ، والاستعمار يمكن لأقدامه ، ويوطد من دعائمه إلى أن قيض الله لمصر في أخريات القرن التاسع عشر بضع نفر من الوطنيين عملوا جهدهم على أن يعيدوا لها ما عزب من آمالها .

ولقد مر بك في الفقرة الأولى من هذا الفصل كيف أن اللورد كرومر قد طغى وبغى وتجاوز حده ، وحكم مصر بيد حديدية إنجليزية ، حتى صار فيها الحاكم المطلق ، تحت إمرته جيش قوي ، وشئون المال والأشغال والعدل في يد مستشاريه الإنجليز ، ووزراؤنا لا يعنيهم إلا أن يرضوا العميد البريطاني ، ولا سيما مصطفى فهمي الذي تولى الوزارة ثلاثة عشر عاماً متوالية من سنة ١٨٩٥ إلى سنة ١٩٠٨ ، وكان أطوع للانجليز من بنان أحدهم ، بل كان إنجليزياً أكثر منهم ، وكان يجاهر بأنه لا يستمد سلطانه من الخديو ، وإنما يستمده من العميد البريطاني ، ومثله نوبار ومحمد سعيد ، ومن على شاكلتهم .

ولما توفي الخديو توفيق وتولى عباس العرش في ٨ يناير سنة ١٨٩٢ استبشرت الأمة خيراً بعهده ، وأملت أن يجلو الإنجليز عنها ، ولكنّ انجلترا تذرعت بصغر سنه ونادت صحفها[٢] بأن « ارتقاء الخديو الشاب عرش مصر يجعل بقاء الاحتلال أكثر ضرورة من أي وقت ، فلا يجوز منذ الآن الكلام عن الجلاء » ، وقالت : « إن وفاة توفيق قد هدمت آخر حجة للجلاء » .

وابتدأ عباس يشعر بمرارة الاحتلال ، والحد من سلطانه ، وأخذ يناوىء الإنجليز ، ويقف منهم موقفاً معادياً في كثير من الأمور ، وإن غلب على أمره في أكثر

---

(١) تاريخ مصر السياسي لمحمد رفعت ج ١ ص ٩٢ — ٩٣ .
(٢) البول مول جازيت . راجع مصطفى كامل ص ٢١٤ .

الأحيان . وكانت الأمة تشجعه ، وتلتف حوله باديء ذي بدء كما حدث حين أقال وزارة مصطفى فهمي الأولى (يناير ١٨٨٣) من غير أن يستأذن الإنجليز في ذلك ، إذ توافد عليه رجال الأمة وأمراؤها وعلماؤها وأعضاء مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية والقضاة يهنئونه ويشدون أزره[١] ، وكما حدث في أزمة الحدود سنة ١٨٩٤ . وقد أدى موقف عباس هذا إلى أن دب في نفوس بعض المصريين شيء من الحماسة ، ظهرت أول الأمر عن طريق الصحافة .

وذكرنا في الجزء الأول أن الصحافة المصرية في أخريات القرن التاسع عشر تأثرت بعاملين أولهما : تركيا ، وكانت على الرغم من ضعفها ، وإذعانها للأمر الواقع تحاول إثارة النفوس ضد الاحتلال ، وكان كثير من المصريين يدين لتركيا بالولاء ، وهو ولاء ديني لا سياسي ، مبعثه وجود الخلافة العثمانية ، والمسلمون مكلفون شرعاً بطاعة الخليفة .

وثانيهما : الاحتلال الذي حاول أن يجتث نفوذ تركيا من الأساس ، ويقتلع من النفوس هذا الولاء ، وقد استطاع أن يجد لسياسته هذه أنصاراً ومريدين ، وأن يجتذب إليه قلوباً عزيزة المنال تدافع عنه أو تسكت عن مخازيه . ووجد أن كثيراً من السوريين المسيحيين ينقمون على تركيا استبدادها وغلظتها وسوء تصرفها معهم في ديارهم ، وتفريقها بين عناصر الأمة ، فاستمال هؤلاء الناقمين إليه ، وحباهم عطفه ووده ، وأنشئوا جريدة المقطم لسان حال لهم في ١٤ من فبراير سنة ١٨٨٩ .

وهكذا انقسمت الصحافة فريقين : فريق تركيا ، وفي الغالب يدعو للخديو ، ويندد بالاستعمار ، إما مدفوعاً بالولاء الديني أو بالكراهية للإنجليز ، أو بتحريض دولة أجنبية تنفس على أبناء التاميز مركزهم في مصر والشرق العربي . وفريق يدافع عن الإنجليز ، ويتغنى بمحامدهم ، ويشيد بنعمة الاحتلال ، ويذيع مساوىء العهد التركي ، وما ارتكب فيه من ظلم . وكانت «المؤيد» ثم «اللواء» تمثل الفريق الأول، « والمقطم » تمثل الفريق الثاني على نحو ما ذكرنا في غير هذا المكان[٢] .

طلع المؤيد على الناس في ديسمبر سنة ١٨٨٩ ، والاحتلال الإنجليزي في

(١) مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ص ٣٢٠ .
(٢) راجع في الأدب الحديث جـ ١ ص ٤١٣ — ٤١٥ ط سادسة .

عنفوانه ، والثورة العرابية قد أخفقت ، وشرد زعماؤها ، وكمت الأفواه ؛ ولكن النفوس كانت تضطرم بنار الوطنية والقلوب تنطوي على حقد دفين لهؤلاء الذين اغتصبوا حرية مصر ، واستباحوا حرماتها ، مع أنها كانت بالأمس القريب في عهد إسماعيل تتطلع إلى مستقبل باسم . وكانت تعاليم جمال الدين الأفغاني ، وما بثه في مصر من حب للحرية ، وثورة على الاستبداد والبغي ، ورغبة ملحة في إصلاح المفاسد الاجتماعية ، وتحقيق العدالة بين الناس ، ومن نظام الشورى الصحيح — لا تزال تَطِن في الآذان ، وتتردد في الأذهان . وكانت ثورة عرابي والمبادىء العظيمة التي نادت بها من رفع السخرة وإنصاف المصريين ضباطاً وشعباً والعدالة الاجتماعية بين الطبقات ، وإنشاء المجلس النيابي لتمثل فيه الأمة ، وما راح ضحية هذه الثورة من ضحايا لا يزال كله ماثلاً في قلوب المصريين . بيد أن الإنجليز كبتوا هذا الشعور الجياش وحاربوا في عنف وقسوة دعاة الحرية ، وإن تظاهروا بأنهم أطلقوا للصحافة العنان ، وتركوها حرة تقول ما تشاء .

وسارت المؤيد في محاربة الإنجليز من غير هوادة ومهادنة ، وأفسحت صفحاتها لذوي الأقلام الملتهبة المستنيرة من أمثال سعد زغلول ، وإبراهيم اللقاني ، وإبراهيم المويلحي ، وعبد الكريم سلمان ، ومحمد عبده ، وتوفيق البكري ، وفتحي زغلول وغيرهم وكانت المسرح الأول لمقالات مصطفى كامل المشتعلة ضد الاستعمار . وظل هذا ديدنها أمداً طويلا حتى بعد أن استمال الإنجليز صاحبها قليلا ، وفترت حدته نوعاً ما بتأثير الشيخ محمد عبده صديق « كرومر » من جهة ، ولمهادنة عباس للاحتلال من جهة ثانية[1] . وقد يكون الشيخ علي يوسف قد هادن الإنجليز ، وسكت عن مخازيهم ، ولكنه لم يثن عليهم أو يدعو لهم في يوم من الأيام ، ولقد لاقى من رجال الحزب الوطني أشد العنف والإرهاق حين خفف لهجة المؤيد ضد الإنجليز ، ولم تعد ترحب بمقالات مصطفى كامل .

وكان الشيخ علي يوسف موزع الولاء بين حبه للخديو وإخلاصه لمحمد عبده ، فلما عقد الاتفاق الودي بين الإنجليز وفرنسا في سنة ١٩٠٤ ، وظهر انحياز الخديو بشكل واضح إلى الاحتلال ، وقطع مصطفى كامل صلته بالخديو لأنه لم يعد في

(١) اللواء في يوم ٢٦ من ديسمبر سنة ١٩٠٦ .

نظره أهلاً لأن يتزعم الحركة الوطنية فانصرف عنه ، وفي ذلك يقول : « لما رأيت رغبة سموه في توطيد الصلات الحسنة بينه وبين ملك الإنجليز وحكومته ، وجدت من واجبي أن أكون بعيداً عنه » — لم يجد الشيخ علي يوسف بداً من أن يتبع الخديو في سياسته ، والشيخ محمد عبده في ميوله ، ولكنه كما ذكرنا ظل حتى آخر لحظة من حياته عدوا للإنجليز ، وإن أسس حزب الإصلاح ليدافع عن الخديو وتركيا[1] .

ظهر في مصر إبان هذه الفترة ثلاثة أحزاب : أولها الحزب الإنجليزي ولسان حاله جريدة المقطم ، ومن رجاله مصطفى فهمي ، ونوبار ، ومحمد سعيد وكثير من اللبنانيين الذين لجئوا إلى مصر ، وكانت صدورهم حانقة على تركيا ؛ وحزب الخديو وتمثله المؤيد وصاحبها ، ويدين بالولاء لتركيا عن عقيدة دينية ، وقد عبر المؤيد عن خدماته لها في موضع العتاب ، حين اتهم بخروجه عن ولائه عقب وفاة السلطان عبد الحميد بقوله[2] : « كان المؤيد — وما زال — خادم الدولة الأمين ورسولها الصادق إلى الأقطار الإسلامية ، وصوتها المسموع في أنحاء العالم ، وقد تأسس على دعامة التفاني في الإخلاص لعرش الخلافة العظمى .

ولقد يعلم القراء أن المؤيد سعى سعياً مجيداً في مساعدة الدولة في حربيها الأخريتين[3] بل هذه اللجنة العليا لحربي طرابلس والبلقان ، وتلك الخطب الرنانة التي كان يلقيها مؤسس المؤيد في وسط جماهير المكتتبين للحربين للحث على البذل بجود وسخاء ، وما كان يتبعها من الفصول التي تكتب في المؤيد بقلمه ، وقلم إدارة التحرير كلها أدلة مجسمة على أن المؤيد قام للدولة العلية بالواجب في كل أدوار حياته » .

وثالث هذه الأحزاب هو الحزب الوطني ، وقد كان مصطفى كامل يدعو أول الأمر لتركيا ويقول : « حقاً إن سياسة التقرب من الدولة العلية لأحكم السياسات وأرشدها ، ولا غرو إن كنا تتألم لآلام الدولة العلية ، فما نحن إلا أبناؤها المستظلون

---

(١) راجع مقالا للمؤلف عن الشيخ علي يوسف في مجلة الكتاب يونية سنة ١٩٤٨ وفي دراسات ادبية للمؤلف ج ١ .

(٢) المؤيد في ١٨ من اكتوبر سنة ١٩١٣ .

(٣) يشير إلى حرب البلقان وحرب طرابلس .

بظلها الوريف المجتمعون حول رايتها . وقصارى القول إن الراية العثمانية هي الراية الوحيدة التي يجب أن نجتمع حولها ، ولا تتحقق وحدتنا بغير الاتحاد ، والائتلاف ، فلنتحد قلباً ولساناً[١] » .

ويظهر أن موقف مصطفى كامل هذا كان موضع نقد كثير ، إذ كيف يطلب لمصر الاستقلال التام ، وطرد الإنجليز منها في الوقت الذي يريدها أن تكون خاضعة لتركيا ! وقد دافع مصطفى كامل عن وجهة نظره في أكثر من خطبة ، وبين بوضوح وجلاء ، أنه إنما يدافع عن حق مصر الدولي ، فتركية بمقتضى معاهدة لندن سنة ١٨٤٠ الدولة صاحبة السيادة على مصر ، وقد اعترفت الدول جميعاً بهذه المعاهدة ، بينما لا توجد لدى الإنجليز أي وثيقة شرعية تؤيد بقاءهم فيها ، فكان مصطفى كامل يدعو الإنجليز وسائر دول أوربا إلى احترام هذه المعاهدة . أضف إلى هذا أن تركيا على الرغم من ضعفها ، وسوء حالها كانت تناوىء الإنجليز في مصر ، وتود أن يخرجوا منها ، وهذا يزيد المصريين في مطالبتهم بالاستقلال قوة ، ثم إن سيادة تركيا على مصر كانت سيادة اسمية ، لا تتدخل في شئونها الداخلية أو الخارجية ، منذ معاهدة لندن ١٨٤٠ بل قبل ذلك حين ثار عليها محمد علي وكاد يفتح القسطنطينية .

ولقد أشار مصطفى كامل في غير ما خطبة ومقالة إلى هذه المعاني ، فمن ذلك ما كتبه إلى مدام جولييت آدم : « إنك تعلمين خطتي نحو تركيا ، وما أراه واجباً نحوها ، فقد أفصحت عن ذلك في خطبتي ، واعترف كثير من أصدقائنا اليونانيين بأن من السياسة القومية لمصر أن تكون حسنة العلاقة مع تركيا ما دام الإنجليز محتلين وطننا العزيز[٢] .

ورد على منتقديه في اللواء بقوله : « أما دعواكم أن الوطنيين المصريين يريدون الانتقال من استبداد إلى استعباد ، وأنهم إنما يطلبون خروج الإنجليز من مصر ليدخلوا تحت حكم جديد ، فهي دعوى لا يقبلها ذو لب ، ولا يسلم بها أحد من العقلاء ، فإننا نطلب استقلال وطننا ، وحرية ديارنا ، ونتمسك بهذا المطلب إلى آخر لحظة من حياتنا[٣] » .

---

(١) مصطفى كامل ٢٢٠ ط ثانية .
(٢) مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ص ٢٥١ .
(٣) اللواء ٢ من مايو سنة ١٩٠٦ .

وقال في إحدى خطبه : « إن مظاهرة الأمة المصرية نحو الدولة العلية هي مظاهرة ضد الاحتلال الإنجليزي ، واشتراك أفراد الأمة على اختلافهم في الاكتتاب للجيش العثماني هو اقتراح عام ضد الإنجليز في مصر[١] » .

وقال في موضوع آخر : « ماذا يكون مصير البلاد المصرية لو تنازلت تركيا عن حقوقها لانجلترا ، أو تعاهدت معها على ذلك بمعاهدة شبيهة بالمعاهدة الفرنسية الإنجليزية (١٩٠٤) ألا تصير ولاية إنجليزية ؟ إذاً فلماذا يدهش الكاتب من كوننا نجعل علائقنا مع تركيا حسنة ، ونسعى لنيل الوسائل التي قد تفيدنا وتنفعنا ؟[٢] » .

وقد جارى مصطفى كامل في ذلك رجالُ الحزب الوطني من بعده ، فقد جاء في تقرير الحزب الوطني الذي أرسله إلى مؤتمر الصلح بعد الحرب العالمية الأولى ، والذي نشر في إبريل سنة ١٩١٩ ما يأتي « كان الحزب الوطني يطلب احترام معاهدة سنة ١٨٤٠ ، ولم يكن ذلك عن رغبة منه عن الاستقلال المطلق ، أو كما يقول أنصار الاستعمار الإنجليزي سعياً في تغيير النير الإنجليزي بسيادة تركيا — كلا — فإن الحزب الوطني يتوخى الوسائل السلمية دون غيرها ، لذلك كانت سياسته الاحتفاظ بعضد الدولة العثمانية وتذكير الدول بمعاهدتها الضامنة لمصر الاستقلال الداخلي ، على أننا والحق يقال لم نشعر قط بسيادة تركيا الاسمية بجانب السلطة الإنجليزية ، ولم نر منها منذ سنة ١٨٤٠ افتئاتاً على استقلالنا الداخلي — لهذا كان من أسباب سكوتنا عن تركيا عدم شعورنا بثقل سيادتها ، أما الآن وقد وصلت الإنسانية إلى هذه الدرجة من الرقي وجئنا أمام محكمة عادلة تريد أن ترد الحقوق إلى أربابها ، فإن لنا أن نطلب كامل الحق — نطلب جلاء الإنجليز حالا ، والاستقلال التام[٣] » .

ولقد حاول الإنجليز أن ينتزعوا اعترافاً بمركزهم في مصر ، وقد مكنهم انتصارهم في الحرب العالمية الأولى من أخذ هذا الاعتراف دوليا فاعترفت تركيا بحماية إنجلترا على مصر في معاهدة سيفر (أغسطس سنة ١٩٢٠) وحذا حذوها كثير من الدول[٤] .

---

(١) المؤيد ٩ يونية ١٨٩٧ .
(٢) اللواء في ٦ اكتوبر ١٩٠٦ .
(٣) ثورة سنة ١٩١٩ جـ ١ ص ٩٥ .
(٤) ثورة سنة ١٩١٩ جـ ٢ ص ٧١ .

ولقد أفضت في الحديث عن تركيا وموقف مصر منها ؛ لأن أدبنا في هذه الحقبة ، ولا سيما الشعر متأثر كل التأثر بهذه العلاقة سواء كانت سياسية ، أو دينية لوجود خليفة المسلمين بتركيا ، فأنت ترى شوقي ، وهو شاعر الخديو ، وفيه دم تركي يتغنى في مناسبات شتى بأمجاد الترك ، ويزجي الثناء العاطر ، والمديح المستطاب لعبد الحميد الطاغية . ويفرح المصريون ، والعرب عامة حين يعلن الدستور في تركيا سنة ١٩٠٨ ويسجل الشعراء ذلك في أشعارهم ، وما من شاعر في الجيل الماضي إلا ومدح عبد الحميد وغير عبد الحميد من سلاطين آل عثمان ، وفرح بانتصار الأتراك في معاركهم ، وحزن لأحزانهم .

وإذا تصفحت شعر شوقي تجد أنه أسرف في مدح عبد الحميد[1] الطاغية ، وفي إظهار ولائه للأتراك فلا تكاد تمر مناسبة سارة أو محزنة لهم من غير أن يقول فيها قصيدة . وهذا ديوانه بين أيدينا تجد فيه ما يقرب من خمس عشرة قصيدة في الأتراك وسلطانهم ، وقوادهم والمناظر الجميلة ببلادهم ، وتراه يبالغ في مدح عبد الحميد مبالغة غير مقبولة من مثل قوله :

فأحييتَ مَيّتا دارسَ الرَّسم غابراً   كأنك فيما جئت عيسى المقرَّبُ
سهرْتَ ونام المسلمون بِغِبْطَة   وما يزعجُ النوامَ والساهرُ الأب

ويجعله عمر بن الخطاب في عدله ، وحدَبه على اليتامى بقوله :

عمر أنتَ بيد أنك ظِلٌّ   للبرايا وعصمةٌ وسلام
ما تتوَّجتَ بالخلافة حتى   توَّجَ البائسون والأيتام
وسرى الخصبُ والنماء ووافى الـ   بشر والظّلُّ والجَنى والغمام
وبدا الملكُ ملكُ عثمانَ من عَلـ   ـيائكَ في الذروة التي لا ترام

ويفصح عن محبته للأتراك بقوله :

وزينبُ إن تاهَتْ وإن هي فاخرت   فما قومُها إلا العشير المُحبَّبُ

---

(١) ولد السلطان عبد الحميد في ٢١ من سبتمبر سنة ١٨٤٢ ، وتولى الملك في اغسطس سنة ١٨٧٦ ؛ وخلع في ٢٧ من ابريل سنة ١٩٠٩ وتوفي في ١٠ من فبراير سنة ١٩١٨ .

وعن تبعية مصر لعبد الحميد بقوله :

وإني لطيرُ النيل لا طيرَ غيره   وما النيل إلا من رياضِك يحسَبُ

ويشير شوقي في بعض القصائد العثمانية إلى هذا المعنى السياسي الذي وضحناه آنفاً ، وهو أن حسن العلاقة بين مصر وتركيا يحول دون تنازل الثانية عن حقها المعترف به دوليا ويجعل مركز الإنجليز في البلاد غير شرعي بقوله في قصيدة يهنىء فيها الخليفة بالعيد :

أبا القمرين عرشك في قلوبٍ   تجاوزُ في الولاء المستطاعا
ترى فيه الصِّيانَ لحق مصرٍ   فلولا العرشُ يعصمه لضاعا
يَوَدُّ سواك أن تَهدى إليه   ولن تشترى القلوبُ ولن تباعا

ويقول له من قصيدة أخرى يستنجد به ويستصرخه :

نستميحُ الإمام نصراً لمصر   مثلما ينصر الحسامَ الحسامُ
فلمصرٍ وأنت بالحب أدى   بك يا حامي الحمى استعصام
وإلى السيد الخليفة نشكو   جَوز دَهر أحراره ظلاَّمُ
وعدوها لنا وعوداً كباراً   هل رأيتَ القرى علاها الجَهام
فارفع الصوت إنها هي مصرٌ   وارفع الصوتَ إنها الأهرام
وارع مصراً ولم تزل خير راعٍ   فلها بالذي أرتك زِمام

وقد حزن شوقي أشد الحزن حين هوت الخلافة عن سلاطين آل عثمان ، وندبها وبكاها في أكثر من قصيدة ، ونصح لمن قاموا بهذا الانقلاب أن يبقوا على وشائج القربى بيننا وبينهم ، وقد كان مدفوعا ولا شك بعاطفته الدينية ، والجنسية ، فيقول للكماليين :

يا فتيةَ الترك حيَّا الله طلعتَكم   وصانكم وهداكم صادِق الخِدَم
أنتم غد الملكِ والإسلام لا برحا   منكم بخير غَدٍ في المجد مبتسم
تحلكم مصر منها في ضمائرها   وتعلن الحب جمعاً غيرَ متَّهم
فنحن إن بَعُدت دارٌ وإن قربت   جاران في الضَّادِ أو في البيت والحرَم

وترى شوقي يحزن لحزن الأتراك ، ويفرح لأفراحهم فيقول عند سقوط أدرنه قصيدته التي مطلعها :

يـا أختَ أندلسٍ عليـك سلام   هوَتْ الخلافـة عنـك والإسلام

ويرثي طيارين تركيين سقطت بهما الطيارة في مصر بقصيدته التي مطلعها :

أنظـر إلـى الأقمار كيـف تزول   وإلـى وجوه السعد كيف تحول

ويرثي أدهم باشا القائد التركي[١] وعثمان باشا الغازي الذي اشتهر في حربه مع الروس[٢] وإذا عذر شوقي في كثرة ما قال في تركيا ، وفي شدة تعلقه بها لعاطفته الدينية ، ثم لوجود دم تركي فيه ، ولأنه شاعر الأمير ، والأمير من أصل تركي ، فإن كثيراً من شعراء الجيل الماضي قد أظهروا هذه العاطفة نحو تركيا ؛ فهذا السيد توفيق البكري يمدح السلطان عبد الحميد في قصيدة طويلة[٣] يقول في أولها :

أمـا ويمينِ الله حِلفَةَ مُقسِم   لقد قمتَ بالإسلام عن كل مسلم
فلـولاك بعـد الله أمستْ ديارُه   بأيدي الأعادي مثل نَهبٍ مُقسَّم
إمـامٌ لـه في آل عثمان لُحمة   تَبَحبَحَ منها في الذُرى والمُقَدَّم

وهذا حافظ يمدح عبد الحميد بأكثر من قصيدة فيهنئه بعيد جلوسه في سنة ١٩٠١ بقصيدة مطلعها[٤] :

لمحتُ جلال العيد والقَومُ هُيَّبُ   فعلمني آيَ العلا كيف تُكتَبُ

وفيها يقول :

وهَلْ قَرَّ في برج الشعود متوَّجٌ   كما قَرَّ في (يلديزَ) ذاك المعَصَّبُ
تجلى علـى عرش الجلال وتاجُه   يَهَشُّ وأعـواد السريـر ترحِّبُ

---

(١) شوقيات جـ ٣ ص ١٤٠ .
(٢) المصدر السابق ص ١٤٢ .
(٣) صهاريج اللؤلؤ ص ٥٠ .
(٤) ديوان حافظ جـ ١ ص ١٥

سما فوقه والشرق جذلانُ شَيِّقٌ   لطلعتــه والغربُ خــذلان يَرقُب

ويقول فيه قصيدة أخرى مطلعها[١] :

أثنـى الحجيج عليـك والحرَمان   وأجـلّ عيـدَ جلوسك الثقَلان

وهذا محمد عبد المطلب يمدح عبد الحميد ويهنئه بالدستور في سنة ١٩٠٨ بقصيدة يقول في أولها :

يـا عيدُ حَيٍّ وأنت خـير نهار   عبـدَ الحميـد بدولـة الأحرار
ملـك أقـام علـى الخلافة منهمُ   حـرساً وقاهـا صولـة الأشرار

ويفرح لانتصار الأتراك على اليونان في حرب (سقاريا[٢]) إلى غير ذلك من المناسبات التركية .

ونرى مصطفى صادق الرافعي يجاري شعراء زمانه فيمدح عبد الحميد بثلاث قصائد[٣] . وقلما أحجم شاعر مصري مسلم عن إظهار عاطفته لخليفة المسلمين وللأتراك ، بل إن إعلان الدستور في تركيا كان عيداً عاماً لدى المسلمين في كافة أنحاء الأرض ، وسجل شعراء العربية أينما حلوا سرورهم بزوال الطغيان وحكم الفرد ، وبدء عهد جديد من الحرية ، سيان في ذلك المسلمون والمسيحيون[٤] .

ومهما يكن تأويل رجال الحزب الوطني ، وحزب الإصلاح لولائهم لتركيا وعرش الخلافة ، فالحق الذي لا مِرْية فيه أن فكرة القومية المصرية لم تكن حتى نهاية القرن التاسع عشر قد نضجت النضج الكافي ، ولم يكن المصريون يفكرون جدياً في الاستقلال التام عن تركيا ، وإن طمع في ذلك إسماعيل ، بيد أن تركيا والدول قد كادوا له ؛ وإن ظهر ذلك على لسان أحمد عرابي كما بينا ذلك في الجزء الأول وعلى لسان عبد الله نديم في الأستاذ ، ونادى كلاهما بأن مصر للمصريين ، ولكنها لم تكن دعوة مؤسسة على عقيدة ثابتة[٥] . وكيف تظهر فكرة الانفصال عن

---

(١) ديوان حافظ ج ١ ص ٤٤ وقد قالها مهنئا بعيد جلوسه ١٩٠٨ بعد إعلان الدستور العثماني .
(٢) ديوان عبد المطلب ص ١٩٨ .
(٣) ديوان الرافعي ج ١ ص ٣٣ ، ٤٦ ، وج ٢ ص ٦٩ .
(٤) راجع العوامل الفعالة في الادب العربي الحديث لانيس المقدسي .
(٥) راجع في الادب الحديث ج ١ ص ٣٢٧ ط سادسة .

تركيا وخديو مصر يستمد سلطانه الشرعي من الخليفة ويدين له بالولاء ولو اسمياً ؟

أجل ! ظهر في مصر حزب لم يكن راضياً عن هذه السياسة[١] وشجعهم الإنجليز على ذلك ، وأخذوا يندِّدون بمساوىء الحكم التركي بعامة ، وبعهد عبد الحميد الطاغية بخاصة ، استمع لخليل مطران يعزي الآستانة حين أشعلت فيها النار بعد صدور الدستور ، واتهم بذلك أنصار عبد الحميد ، إذ لم يطق صبراً على حكم الشورى ، وخلع في سنة ١٩٠٩ ، وتولى بعده السلطان محمد الخامس .

(فرُوقُ) لا تستيئسي وذودي ... بالحق عن دستورك المجيد
مكايدَ الطاغية المَريد ... وفتكَ أهلِ البغي والجحود
بالأبرياء الآمنين القُود ... والشِّيب والأطفال في المهود[٢]
شَرَّ العِدى لعهدك الجديد ... أصلَوْكِ نارَهمْ بلا وعيد

واستمع كذلك لولي الدين يكن ، وقد أوذي ونفي لأنه حمل حملة شعواء على عبد الحميد وطغيانه ، ومساوىء العهد التركي :

يا وطناً قد جرى الفساد به ... متى يرينا إصلاحكَ الزمن
دُفِنتَ حياً وما دنا أجل ... ما ضَرَّ لو دافِنُوك قد دُفِنوا

ويعارض شوقي في قصيدته التي قالها غبَّ خلع عبد الحميد والتي يقول في أولها :

سَلْ يَلدزا ذاتَ القصورِ ... هل جاءها نبأ البدورِ
لو تستطيعُ إجابةً ... لبكَتْك بالدمع الغزيرِ

فيقول ولي الدين يكن في عبد الحميد :

وخَتَرت يا عبد الحميد ... وما استحيتَ من الختور
إن الثلاثين التي ... مرَّت بنا مَرَّ العصور
وهبتك تجربة الأمور ... فعشت في جهل الأمور
ورددت عادية الخلا ... فة بعد ذلك للمغير
من كان يدعوك الخبير ... ر فلست عندي بالخبير

(١) المرجع السابق ص ٣٩٢ .

(٢) القود : جمع اقود ، وهو الذلول المنقاد المستسلم ، والمراد هنا المسالمون ، وفروق اسم الآستانة .

ولكن أمثال مطران ، وولي الدين يكن كانوا يريدون إصلاح حال تركيا ، ولم تظهر الفكرة الوطنية المصرية بعيدة عن الجامعة الإسلامية بوضوح وجلاء إلاّ على يد رجال حزب الأمة كما مرّ بك[1] ، ولكن هذا الحزب في مبدأ نشأته كان موالياً للاحتلال ، وظل مترسماً خطى الشيخ محمد عبده في ذلك السبيل حتى رحل كرومر عن مصر ، فغمرته موجة الوطنية[2] .

ومهما يكن من اختلاف نظرة الشعراء في مصر إلى تركيا ، فقد كانت هناك حقيقة واقعة كان يجب ألاّ يختلفوا فيها ، ألا وهي ذلك الاحتلال الجاثم على صدر مصر يسلبها أعز ما تصبو إليه الأمم وهو نعمة الاستقلال ، وحرية التصرف ، والسير في سبيل الرقي ، ويسلبها في الوقت نفسه ثروتها ، ويدفعها إلى ظلمات الجهل ، أو إلى علم ضحل أحسن منه الجهل .

وقد ظن الإنجليز منذ وطئت أقدامهم أرض مصر في سنة ١٨٨٢ أن الشعور الوطني قد خمدت جذوته ، وزالت حِدّته ، وضعفت شِرّته ، وأن المصريين قد استناموا لعدلهم المكذوب ، أو لحكمهم المرهوب ، ولكن راعهم صوت مصطفى كامل المدوي ، الممتلىء قوة وفتوة وعزيمة ، ونزاهة قلب وضمير ويد ولسان كأنه الشعلة المتقدة ترفعها يد الحق عالية، تبدد ظلمات الجور والعسف والذلة والانحلال. فاستجابت القلوب لضوئها ، وسارت في هديها ، ولبى نداءه كلّ وطني غيور كان يكبت شعوره ، وسارت أغلبية الأمة من خلفه ففزعت إنجلترا ، وارتاعت لهذه الموجة الوطنية ، وخشيت أن تجتاحها من مصر وأن تغرق الأرض تحت قدميها أو تقوض دعائم الاحتلال الذي شيدته في ما يقرب من عشرين عاماً ، ويصير رماداً لا أثر له .

وكان الخديو عباس الثاني يشجع مصطفى كامل أول الأمر ويؤيده في جميع جهوده ، ويمده بالمال ، لينفق على دعايته ضد الإنجليز[3] ، ويتمكن من السفر إلى فرنسا ، لأنها تناصره ، ووجد فيها أصدقاء من رجال الصحافة والسياسة يشدون أزره ، وينشرون كلماته الملتهبة ، ويبصرون الرأي العام الأوربي بمساوىء الاحتلال

---

(١) راجع ص ٦٧ من هذا الكتاب .

(٢) راجع تشارلز آدمز ص ٢١٥ في كتاب الاسلام والتجديد ، والحقيقة عن مصر تأليف الكسندر ص ٢٠١ — ٢٠٢ — لندن ١٩١١ .

(٣) تاريخ الامام الشيخ محمد عبده جـ ١ ص ٥٩٢ ، ومصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ط ثانية

في مصر . بيد أن عباساً قد رأى أنه لا يستطيع مسايرة الحركة الوطنية ولا سيما بعد أن اتفقت فرنسا وإنجلترا سنة ١٩٠٤ فأخذ يهادن الاحتلال ، وعلم أن لا سبيل لمعاداته ، وأن مصالحه الكثيرة تتعطل بسبب هذه العداوة . وحينئذ رأى مصطفى كامل أن يستقل بحركته ، وأن يقطع صلته بالخديو وفي هذا يقول : « ولما رأيت رغبة سموه في توطيد الصلات الحسنة بينه وبين ملك الإنجليز وحكومته ، وجدت من واجباتي أن أكون بعيداً عن سموه[1] » ، وقال في مناسبة أخرى « قد قلنا مراراً إن سمو الأمير بعيد عن الحركة الوطنية ، وأن المجاهدين ضد الاحتلال مستقلون عن سموه كل الاستقلال ، فهو إن قال كلمة في صالح الحركة الوطنية خدم نفسه وعرشه واستمال أمته إليه ، وإن عمل ضدها أضر بنفسه وبعرشه ونفر أمته منه[2]. »

أيقظ مصطفى كامل ورجال الحزب الوطني ، ورجال الخديو عباس وعلى رأسهم الشيخ علي يوسف في المؤيد الشعور الوطني ، وكان طبيعياً أن يظهر هذا الشعور في الأدب ولا سيما في الشعر ؛ ولو نظرنا إلى شعرائنا الذين اشتهروا في ذلك الوقت وجدناهم يقفون من الاحتلال وشئونه مواقف متباينة ، مع أن الواجب كان يقضي عليهم بأن تكون نظرتهم إليه واحدة : نظرة السخط الغاضب الحانق على الحرية المسلوبة والحق المضاع ، والظلم البين ، والوطن المستباح . ولكنهم تأثروا بعدة عوامل بعضها شخصية وبعضها سياسية .

أما شوقي فكان شاعر القصر ، وكان القصر متحفظاً في مجاهرته بالعداء للإنجليز ، يساعد الوطنيين سراً ، ولكن لا يريد أن يظهر حتى لا يتمسك عليه المحتل الغشوم بشيء فيسقطه عن عرشه ، وهو صاحب الحول والطول والجيش المحتل ، المدجج بالسلاح ، وكثيرا ما اصطدم بكرومر ، ولكن الكلمة الغالبة والرأي النافذ كانا في آخر الأمر لممثل الاحتلال[3] . وظلت علاقته بكرومر سيئة حتى بعد أن انفصل عن الحركة الوطنية إلى أن ترك كرومر مصر ؛ وذلك لأن كرومر كان عاتياً جباراً ، وقد حدث بينهما ما لا يدع مجالا للوفاق على الرغم من تساهل عباس وإظهاره الرضى عن الاحتلال ، فقد كان من عادة الجيش البريطاني أن يقوم بعرض عسكري في يوم عيد ميلاد ملكهم وكان كرومر يرأس هذا العرض ، ثم رأسه خلفه

(١) اللواء عدد ٢٦ من ديسمبر سنة ١٩٠٦ .
(٢) اللواء ٢٧ من مايو سنة ١٩٠٧ .
(٣) راجع مصطفى كامل ص ٣١٤ وما بعدها .

(إلدون جورست) . ومنذ سنة ١٩٠٤ ابتدأ عباس يحضر هذا العرض ، ويقف تحت العلم البريطاني في ميدان عابدين إلى جانب كرومر ، وقد اشتدت عليه حملة الوطنيين لذلك مما اضطره إلى التنصل ، وإصداره بلاغا يعزو فيه وجوده في أثناء العرض إلى محض الصدفة ، ولكنه فعل ذلك في العام التالي ، فهاج الطلبة ، وثارت الصحافة وحدثت بعد ذلك حوادث اضطرته إلى العدول عن حضور العرض[1] . ومن أمارات تساهل عباس مع كرومر كذلك أنه رضي بأن يُعَيَّنَ له (ياور) إنجليزي في سنة ١٩٠٥ هو وطسن باشا[2] ولكن كرومر لم يثق بعباس مطلقاً فلما رحل عن مصر وعُيِّنَ (إلدون جورست) بدلا منه ، ظهر عباس بخضوعه التام للإنجليز ، واستسلامه لهم ، وأخذ ينفي عن نفسه تهمة العمل ضد الاحتلال ، ويذكر اللورد كرومر بالخير ، ويصرح بأن المعتمد البريطاني لا يستطيع أن يحكم مصر وحده ، وأنه مستعد للتعاون معه ، وأنه لا فائدة للمصريين من استبدال احتلال باحتلال ، وأن الاحتلال البريطاني أفضل من سواه[3] .

كان شوقي حبيساً في قفص من ذهب ، صنعه له القصر ، وكان بهذا وبحكم نشأته البعيدة عن الشعب وآماله وآلامه ، وبحكم صلته بالقصر ، وما تفرضه عليه هذه الصلة من اتباع سياسة الأمير ، وأن يفكر ويتدبر ، ويقدر قبل أن ينطق ، ويقيس صلته بالناس ، وعداوته ، وقربه ، وبعده برضى الأمير وسخطه ، كان بحكم كل هذه الأمور بعيداً عن طبقات الشعب ، لا يعرف من السياسة القومية الصحيحة إلا بمقدار ما يشعر به عباس ، وتارة يسمح له بالقول ، وتارة يأبى عليه أن يجهر برأيه . وإن كان شوقي ــ والحق يقال يحب مصر من أعماق قلبه ، وقد عبَّر عن هذا الحب بشتى السُّبل ولكن الذي ليم عليه أنه لم يكن يجاري التيار الوطني المتدفق أيام أن كان مع عباس .

لما رحل كرومر عن مصر ، وعلاقته بعباس ما عرفت ، وأساء في خطبة وداعه لإسماعيل كل الإساءة على الرغم من حضور الأمير حسين كامل قال قصيدته المشهورة[4] :

---

(١) راجع مصطفى كامل ص ١٨٣ وما بعدها ، ومحمد فريد ص ٧٧ .

(٢) مصطفى كامل ص ١٨٥ .

(٣) من حديث للخديوي عباس مع مراسل الدبلي تليغراف في مايو سنة ١٩٠٧ راجع اللواء ٢٦ ن مايو سنة ١٩٠٧ .

(٤) ديوان شوقي الجزء الأول ص ١٧٨ .

أيامكـم أم عهـد إسماعيـلا ... أم أنتَ فرعون" يسوس النيلا
أم حاكم" في أرض مصر بأمره ... لا سائـلا ابـداً ولا مسئولا
يـا مالكاً رق" الرقاب بيأسـه ... هلا" اتخذتَ إلى القلوب سبيلا
لما رحلت عن البلاد تَشَهَدت ... فكأنك الـداء العياء رحيـلا

ولقد مرت بمصر حادثة فظيعة لم يقل فيها شوقي أول الأمر شيئاً ، تلك هي حادثة دنشواي[1] ، ولم ينطق إلا بعد مرور عام ، وبعد أن ذهب كرومر من مصر • لقد أظهرت هذه الحادثة رجال الاحتلال على حقيقتهم ، وعرفت المصريين مقدار كذبهم ونفاقهم ؛ لم يكن القصد الجنائي في هذه الحادثة متوافراً في قليل أو كثير ، فهي من أولها إلى آخرها قضاء وقدر ، فلو أن صيادي الحمام ابتعدوا قليلاً عن جرن الغلال لما حدث شيء ، بل لو هدأ هذا الجندي المصاب ، ولم يجر فزعاً مسافة طويلة في الشمس المحرقة لما خر" صريعاً بضربة الشمس لا بضربة العصا ، كما اعترف بذلك تقرير الطبيب البريطاني نفسه •

ولكن رجال الاحتلال فقدوا أزمة أعصابهم ، وطغت عليهم سورة الانتقام ، على نحو ضاعت معه كل مظاهر العدالة التي هي أول واجب عليهم ، كما أنها من أوائل حقوق المتهمين ، ولكن كيف تذكر العدالة ، وقد تصرف الانجليز بنزق وطيش، حتى إنهم أرسلوا المشانق من القاهرة إلى دنشواي قبل أن تعقد المحكمة لنظر القضية • ولقد كانت محكمة عسكرية ممسوخة التكوين جل أعضائها من الإنجليز ، فهي الخصم والحكم تحاكم قوماً مدنيين ، لا جنوداً محاربين • وفي إبان السلم لا في زمن الحرب ، وفي وقت يسود فيه النظام والهدوء فلا أحكام عرفية ، ولا إجراءات استثنائية ؛ وهي محكمة لا تتقيد بقانون وحكمها غير قابل للطعن فيه أو النقض له ، أو حتى لمجرد التعديل أو المراجعة أو التصديق ، بل حكمها مبرم كأنه القضاء النازل

---

(١) دنشواي قرية صغيرة تابعة لمركز شبين الكوم ، وقد ذهب إليها جماعة من الانجليز في ١٣ من يونية سنة ١٩٠٦ لصيد الحمام ، فاصابت رصاصة من رصاصاتهم امراة وحرقت جرن قمح ، فتجمع الاهلون غاضبين ، فاعتدى البريطانيون عليهم باسلحتهم ، وقتلوا شيخ الخفراء ، فدافع الناس عن انفسهم بالحجارة ، فجرح احد الضباط الانجليز في راسه جرحا خفيفا وفر الجريح ومن معه ، وجروا في الشمس ما يقرب من ثمانية اميال ، فمات متاثرا بضربة الشمس ، وثارت ثائرة الانجليز لهذه الحادثة ، واسرفوا في تصويرها إسرافا جعلهم يخرجونها من صبغتها الفردية إلى التعصب الديني والى انها تمثل روح التمرد الكامنة في نفوس المصريين . فعقدوا محكمة عسكرية قضت على واحد وعشرين رجلا باحكام مختلفة اعدم منهم اربعة وقد صدر هذا الحكم في ٢٧ من يونية سنة ١٩٠٦ اي بعد الحادثة باربعة عشر يوما (راجع تفاصيل الحادثة في كتاب مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ص ١٩٧) •

لا رادّ له ، ولا حِول عنه . ومتهمون يساقون في عجلة متناهية إلى المحكمة ، ودفاع متخاذل لم يكترث بخطورة الاتهام ولم يتناسب مع شدته وقسوته . وحكم قاس غريب يصدر في سرعة فائقة بإعدام أربعة من المتهمين شنقاً أولهم شيخ في الخامسة والسبعين . ونفذ الحكم في اليوم التالي لصدوره بطريقة وحشية تشمئز منها النفوس وتقشعر لهولها الأبدان ، فقد شنق المتهمون جهاراً في رائعة النهار وفي نفس المكان الذي وقعت فيه الحادثة ، وعلى مرأى ومسمع من أهليهم وذويهم ، وهذا — ولا ريب — مناف لكل قواعد الذوق والشعور الإنساني . وعلى العموم فإن الألفاظ لتتخاذل عن وصف هذه البشاعة ، والفَجْر ، والقسوة الغاشمة ، ومتابعة تنفيذ الحكم من جلد ، وتعليق للمشنوقين ... الخ .

ولقد استغل الوطنيون هذه الحادثة الفظيعة أروع استغلال ، وشنها مصطفى كامل وصحبه حرباً شعواء على رجال الاحتلال ، سمع صوتها الإنجليز في بلادهم ، وأثير بسببها الجدل في مجلس العموم البريطاني ، وعدّل رجال الاحتلال بعدها من سياستهم المتعسفة نحو مصر ، وأجبر اللورد كرومر على الاستقالة عقب هذه الحادثة . وهي نهاية عهد كان الاحتلال يتمتع فيه بالاستقرار والطمأنينة ، وبداية مرحلة جديدة من مراحل الجهاد القومي ، عم فيها الشعور الوطني بعد أن كان الظن أن سواد الأمة راض عن الاحتلال[١] .

ومما يذكر في صدد حادثة دنشواي أن الكاتب العالمي (جورج برنارد شو) كتب عن هذه الحادثة فصلا من ست عشرة صفحة في مقدمة كتابه « جزيرة جون بول الأخرى » ولم يكتب أحد عن قضية دنشواي من الأجانب ما يضارعه في صدق العاطفة والدفاع ومضاء الحجة ، وشدة الغيرة على المظلومين في هذا الحادث المشئوم، حتى لقد قرن (شو) في إنجلترا باسم دنشواي . ومما قاله في تلك المقدمة : « إن الفلاحين لم يتصرفوا في هذا الحادث غير التصرف الذي كان منتظراً من جمهرة الفلاحين الإنجليز ، لو أنهم أصيبوا بمثل مصابهم في المال والحرمان ، وإن الضباط لم يكونوا في الخدمة يوم وقوع الحادث بل كانوا لاعبين عابثين ، وأساءوا اللعب ، وأساءوا المعاملة ، وإن الفلاح الإنجليزي ربما احتمل عبثا كهذا لأنه على ثقة من

(١) راجع مصطفى كامل ص ٢٣٢ وما بعدها .

التعويض ، ولكن القرويين لم تكن لهم هذه الثقة بالتعويض ، ولا بالإنصاف . وإن أحد المشنوقين كان شيخا في الستين ، يبدو من الضعف كابن السبعين ، فلو لم يشنق لجاز أن يموت في السجن قبل انقضاء خمس سنوات » .

ثم أجمل القول في الحادثة ، ووقائع المحاكمة ، وأقوال الشهود ، وما جوزي به بعضهم على الصراحة في أداء الشهادة ، وأشبع اللورد كرومر ووكيله (مستر فندلي) تقريعا وسخرية على ما كتباه عن القضية إلى وزير الخارجية ؛ ومنه قول (فندلي) في تسويغ عقوبة الجلد بمصر : « إن المصريين قدريون لا يهمهم الموت ، كما تهمهم العقوبة البدنية » ، فكان تعقيب (شو) على هذا التعليل العجيب ، أن العجب إذاً في أمر الأربعة المشنوقين ، أليسوا من المصريين ؟

وقد شملت حملته الوزارة البريطانية ، والبرلمان الإنجليزي ، لأنهم لم يمنعوا تنفيذ الحكم بعد تبليغه ، وقال : « إن الإفراج عن المسجونين من أهل القرية أقل تفكير منتظر عن هذه الكارثة البربرية » وظل (شو) يتابع القضية بعد إقالة كرومر ، وأعلن اغتباطه بعد سنة حين أثمرت حملته ثمرتها المشكورة ، وأبلغوه أن العفو عن السجناء قريب[1] .

قلنا : إن شوقي صمت عاماً كاملا لم يقل كلمة ؟ وكان المنتظر بعد أن عم الأسى مصر من أقصاها إلى أقصاها ، وتألم لمصابها حتى الإنجليز أنفسهم ، وصار الناس كأنهم في مأتم على حد قول قاسم أمين . « رأيت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا ، وزَوراً مخنوقاً ، ودهشة عصبية بادية في الأيدي والأصوات . كان الحزن على جميع الوجوه ، حزن ساكن مستسلم للقوة ، مختلط بشيء من الدهشة والذهول ، ترى الناس يتكلمون بصوت خافت ، وعبارات متقطعة ، وهيئة بائسة ، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين في دار ميت[2] » .

نقول كان من المنتظر من شوقي وأمثال شوقي أن يعبروا عن عواطف المصريين جميعاً إزاء هذه الكارثة ، وأن يشعلوها ناراً مضطرمة الأوار ، متأججة السعير ، تحرق تلك القلوب الغليظة التي انتقمت من غير شفقة ولا رحمة من قوم عُزل ضعاف

---

(١) راجع جورج برناردشو في سلسلة اقرا .

(٢) مصطفى كامل ص ٢٠٣ .

مظلومين ، ولكن شوقي اتبع سياسة القصر في ذلك ، سياسة الحياد والمهادنة والخوف من كرومر الطاغية ولم ينطق إلا بعد مرور عام ، فقال قصيدة من أربعة عشر بيتاً ، وفيها ترديد لما قاله حافظ ، وفيها يقول[1] :

يا دنشوايَ على رباكِ سلام ذهبَتْ بأنس ربوعك الأيام
شهداء حكمك في البلاد تفرقوا هيهات للشمل الشتيت نظام

وفيها يقول :

(نَيْرون) لو أدركت عهد (كرومر) لعرفت كيف تنفذ الأحكام
نوحي حمائم دنشواي وروعي شعباً بوادي النيل ليس ينام
متوجع" يتمثل اليوم الذي ضجت لشدة هوله الأقدام
السوط يعمل والمشانق أربع متوحدات والجنود قيام

وحدث بعد ذلك أن مات مصطفى كامل في ١٠ من فبراير ١٩٠٨ ، بعد أن قدم شبابه وذكاءه ، وعزمه ومضاءه ، وقوداً لشعلة الوطنية كي تظل مضيئة تعشى منها أبصار المستعمرين ويهتدي بسناها طلاب الحق والنصفة والاستقلال ، ولكن سرعان ما نضب معين القوة من جسده وتهدم ذلك الجسم الفتي ، والشباب الجريء ، لأنه كان أضيق من أن يحتمل تلك النفس القوية التي كانت تكمن فيه وتلك الروح الوثابة التي كانت تحترق بين جوانحه •

فكان موته ــ وأمته أحوج ما تكون إلى قيادته وزعامته ، ووطنيته وجرأته ، وصوته المدوي بالحق ــ نكبة وطنية اصطكت لهولها الأسماع ، وزلزلت القلوب ، واهتزت المشاعر ، وقرحت الجفون ، وسحت العيون •

وكان شوقي صديقاً لمصطفى كامل ، يرسل إليه القبلات في رسائله إلى محمد فريد من أوربا[2] • وكان من المنتظر حين يرثيه شوقي وقد زاره وهو على فراش

(١) الشوقيات جـ ١ ص ٢٤٨ .
(٢) ارجع إلى عبد الرحمن الرافعي في مصطفى كامل ص ٣٨٤ .

الموت أن يبدع في رثائه ويشيد بمواقفه الوطنية العظيمة ، وإحيائه للأمة بعد أن استكانت ، وتنغيصه على المحتل مقامه بوادي النيل ، ولكن شوقي رثاه عقب وفاته بقصيدة صوّر فيها في دقة تامة إحساسه المتفجع في فقد صديق الصبا والشباب ، وصوّر آخر لقاء بينهما تصوير الأخ المفجوع في أخ عزيز ، وبَعُد عن السياسة كلّ البعد ، ولم يتطرق اليها إلا بحذر بالغ ، نائياً عن الحديث في الجانب القوي من حياة مصطفى كامل ، وأثره في النهضة الوطنية ؛ رثى شوقي في هذه القصيدة صديقاً حميما ، ولم يرث زعيما عظيما ، ووطنياً ، وإماماً من أئمة الجهاد •

ولا شك أن شوقي قد تأثر في رثائه هذا بسياسة القصر حينذاك ، وهي سياسة الحيدة والتحفظ أمام كل ما يؤذي الإنجليز أو يغضبهم ، أضف إلى هذا أن علاقة مصطفى كامل بعباس قد انقطعت أو كادت في أخريات حياته ، بل كان مصطفى كامل قاسياً في انتقاده لتصرفات عباس ، وميوله نحو الإنجليز ، وتساهله معهم • وكان شوقي كلما اقترب في هذه القصيدة من الناحية السياسية كقوله :

هل قام قبلك في المدائن فاتح   غاز بغير مهند وسنان

وتظن أنه سينتقل إلى جهاد مصطفى كامل ، وكيف أثار الحمية والعزيمة في النفوس إذا بك تراه يفاجئك بشيء آخر بعيد عن هذا بقوله :

يدعو إلى العلم الشريف وعنده   أن العلوم دعائم العمران

وبذلك يتخلص من السياسة قبل أن يتورط فيها ، وإذا قاربها مرة أخرى في قوله :

اخلع على مصر شبابك غاليا   والبس شباب الحورِ والولدان
فلعل مصراً من شبابك ترتدي   مجداً تتيه به على البلدان
فلو ان بالهرمين من عزماته   بعضَ المضاء تحركَ الهرمان
علّمت شبانَ المدائن والقرى   كيف الحياةُ تكونُ في الشبان

نراه يبتعد سريعاً عن السياسة ، وعما عساه أن يتورط فيه من ذكر صلابة مصطفى ، وعدم مهادنته الغاصبين ، فيختم القصيدة على عجل وكأنه ينجو من أمر خطير ، وشر مستطير بقوله :

مصر الأسيفة ريفها وصعيدها قبرٌ أبرُّ على عظامك حاني
أقسمتُ أنك في التراب طهارة مَلَكٌ يهابُ سؤاله الملكان

على أن شوقي قد تدارك ما فاته في هذه القصيدة من وصف وطنية مصطفى كامل وأثره في مصر وفي جيله ، وفي القضية الوطنية عامة ، بعد أن زالت الأسباب التي كانت تلجم لسانه وتشل بيانه ، ووفى هذا الصديق حقه ، وهذا الزعيم ما يليق به من رثاء ؛ إذ انتهز شوقي فرصة مرور سبعة عشر عاما على وفاة مصطفى كامل ، حين أقيمت له حفلة ذكرى ، فقال قصيدة ، ربما كانت أحسن ما قيل حتى اليوم في مصطفى كامل وفي جهاده ، وهي من أروع الشعر العربي الحديث ، قيلت في سنة ١٩٢٤ ، بعد أن عاد شوقي من منفاه ، ورأى أن الدنيا قد تغيرت ، وسُدَّت دونه أبوابُ القصر ، والثورة المصرية ، قد تأجج سعيرها ، واشتد لظاها ، وهبت مصر عن بكرة أبيها تدعو الى الاستقلال التام أو الموت الزؤام ، ومطلعها :

شهيد الحق قم تره يتيماً بأرض ضُيِّعَت فيها اليتامى

ورثاه شوقي بعد ذلك في سنة ١٩٢٦ بقصيدة أخرى بعد أن التأم شمل الأحزاب المصرية المتنافرة ، وفيها يقول :

أيها القوم عظموا واضع الأُس والحجر
اذكروا الخطبة التي هي من آيِهِ الكُبَر
لم ير الناس قبلها مِنبراً تحتَ مُحتَضَر
لست أنسى لواءه وهو يمشي إلى الظفر
حَشِرَ الناس تحته زمراً إثرها زمر

وليس أدل على أن شوقي كان يصدر فيما يمر بمصر من أحداث ، وفي نظراته إلى الأشخاص ، وعلاقته بهم عن سياسة القصر ، حَذِراً تارة ، جريئا تارة أخرى ، من قصيدته التي قالها في رياض باشا ، غِبَّ خطبته التي ألقاها في افتتاح مدرسة محمد علي الصناعية التي أنشأتها بالإسكندرية جمعية العروة الوثقى سنة ١٩٠٤

وكان اللورد كرومر ممن حضر هذا الافتتاح ، فتملقه رياض باشا بكلام كفر به بنعمة مصر وأصحاب عرشها ، فأوسعه شوقي تأنيباً وتعنيفاً ، حيث يقول :

غمرتَ القومَ إطراء وحمداً وهم غمروك بالنِّعم الجِسام
رأوا بالأمس أنفكَ في الثريا فكيفَ اليومَ أصبحَ في الرغام
أما والله ما علموك ألاّ صغيراً في ولائك والخصام
إذا ما لم تكنْ للقول أهلاً فما لك في المواقف والكلام ؟
خطبت فكنت خَطْباً لا خطيباً أضيفَ إلى مصائبنا العِظام
لهجتَ بالاحتلال وما أتاه وجرّحكَ منه لو أحسستَ دامي
وما أغناهُ عمن قال فيه وما أغناكَ عن هذا الترامي

ويختمها بقوله :

أفي السبعينَ ، والدنيا تولّت ولا يُرْجى سوى حسن الختام
تكون ، وأنت أنت رياض مصر عُرابي اليوم في نظر الأنام

ولا ريب أن شوقي كان في هذه القصيدة يفصح عن شعور القصر ، ومبلغ تأثره من خطبة رياض باشا ، في وقت لم يكن عباس قد هادن فيه الإنجليز بعد ، وكان العداء على أشده بينه وبين كرومر • ثم إن شوقي نظر إلى عرابي نظر الثأر على ولي نعمته توفيق ، وكان السبب في نكبة الاحتلال ، وموقف رياض من الإنجليز والتمكين لهم في مصر حريٌ بأن يشبه موقف عرابي في نتائجه • وهذه لعمري وجهة نظر القصر في عرابي وثورته ، مع أنه لم يكن يريد إلا الخير بمصر ، وإن أخطأ التقدير والتدبير ، وقد قال شوقي حين عاد عرابي من منفاه قصيدته التي مطلعها :

صغارٌ في الذّهاب وفي الإياب أهذا كلُّ شأنِك يا عرابي

ولما قامت الحرب العالمية الأولى ، وأعلنت الحماية ، وكان عباس غائباً عن مصر ،

فخلعه الإنجليز عن العرش في اليوم التالي لإعلان الحماية[1] ، نرى شوقي يَفْرق من أن يَصب عليه الإنجليز جام غضبهم ، وأن يطوحوا به كما طوحوا بولي نعمته ، فيسارع بنشر قصيدة يهنىء فيها السلطان حسين كامل بالعرش ، ويعزي نفسه بأن صاحب العرش في مصر من ولد إسماعيل ، وحسبه هذا سبباً يجعله من خدّام العرش والمخلصين له :

أأخـون إسماعيـل في أولاده ولقد وُلدت بباب إسماعيلا ! ؟

ونراه يلتفت لفتة سريعة إلى الإنجليز يمدحهم فيها ، ولكنه لا يطيل ، بيد أنه يدعو إلى التعاون معهم ، وكأنه يقرر (سياسة الأمر الواقع) ولم ير بُدّاً من أن يقول ما قال ، وقد أعلنت الحماية على مصر ، ويوجه بعد ذلك الكلام إلى مصر البائسة ، ويطلب منها أن تستسلم للقضاء ، ويخبرها أن الرواية لم تتم فصولها بعد . وهذا ولا شك تغير في موقف شوقي إزاء الإنجليز اقتضته الظروف التي جرت على غير ما يهوى . استمع إليه يقول في هذه القصيدة :

الملـك فيكـم آلَ إسماعيـلا لا زال بيتكـمُ يُظِـلُّ النيـلا
لَطَفَ القضاء فلم يَمِلْ لوليكم ركناً ، ولم يشفِ الحسود غليلا

ويقول في مدح الإنجليز :

اللهُ أدركـه بكـم وبأمـةٍ كالمسلمـين الأولـين عقـولا
حلفاؤنـا الأحـرارُ إلا أنهـم أرقـى الشعوب عواطفا وميولا
أعلى من الرومان ذكراً في الورى وأعـزُّ سلطاناً وأمنـعُ غِيلا
لمـا خـلا وجه البلاد لسيفهم ساروا سِماحاً في البلاد عدولا
وأتـوا بكابرها وشيخ ملوكها ملكـا عليهـا صالحاً مأمـولا

ويقول مخاطبا أهل مصر :

يا أهلَ مصر كلوا الأمور لربكم فـالله خـير" موئـلاً ووكيلا
جرت الأمور مـع القضاء لغاية وأقرَّها مـن يملـكُ التحويلا

---

(١) أعلنت الحماية على مصر في يوم ١٨ من ديسمبر ١٩١٤ . وفي يوم ١٩ من ديسمبر خلع عباس عن العرش وولي السلطان حسين كامل ، راجع الوقائع المصرية عدد ١٩ من ديسمبر سنة ١٩١٤ .

هل كان ذاك العهدُ إلا موقفاً ... للسلطتين وللبلاد وبيلا
يعتز كل ذليل أقوام به ... وعزيزكم يُلقي القياد ذليلا
دفعت بنا فيه الحوادث وانقضتْ ... إلا نتائج بعدها وذيولا
وانفضَّ ملعبُه وشاهدُه ، على ... أن الرواية لم تتم فصولا

فشوقي كما ترى لم يكن صريحاً في هذه القصيدة ، فبينا هو يحمد الله على أن الإنجليز لم يأتوا بملك جديد من غير البيت العلوي ، كما كان منتظراً ، وأنهم اختاروا شيخ الملوك وأكبرهم سناً لهذا المنصب ، تراه يطلب من المصريين إن ينتظروا في صبر حتى تتم فصول الرواية ، وتراه ينعي على الموقف الغريب الذي كانت فيه مصر زمن عباس ، إذ تتنازع فيه السلطتان : الشرعية ، والفعلية التي اغتصبها عميد إنجلترا في مصر ، وأنه موقف يعتز به كل ذليل ، ويذل كل عزيز .

ولكن موقف شوقي هذا لم يجده شيئاً ونفي شوقي من مصر لأنه شاعر عباس ولأنه قال : إن الرواية لم تتم فصولا ، فخشي الإنجليز من هذه الصيحة(١) ، فأقام بالأندلس ، واتخذ برشلونة له سكناً ، ثم عاد إلى مصر في أواخر سنة ١٩١٩ ، ووجد أن كلَّ شيء قد تغير في مصر ، فسكان (عابدين) غير من كان يعهدهم ، فنأى عنه وفي النفس لوعة ، وانصرف إلى النتاج الخالد ، وكان له مواقف محمودة في السياسة الوطنية ، سنتعرض لها فيما بعد إن شاء الله .

هذا ما كان من أمر شوقي إبّان الاحتلال ، أما حافظ ، فهو لا شك ممن كان يحب مصر ويعشقها :

لعمركَ ما أرقتُ لغير مصر ... وما لي دونها أملٌ يرامُ
ذكرت جلالها أيام كانت ... تصول بها الفراعنة العظام

ويقول فيها :

اني لأحملُ في هواك صبابةً ... يا مصر قد خرجت على الأطواق

---

(١) المرحوم احمد زكي (باشا) مجلة ابولو — ديسمبر ١٩٣٢ ص ٣٨٦ .

لهفــي عليك متــى أراك طليقة يحمي كريـم حماك شعب راق

ولم يك حافظ في شعوره نحو الأتراك مثل شوقي ، بل كان يمثل شعور عامة المصريين ، المتعلمين منهم وغير المتعلمين ، فمصر بلد إسلامي ، يدين للخليفة في الآستانة بالولاء، وترجو له ولجيوشه الظفر والنصر، وتأسى إذا نكبت هذه الجيوش، أو ضعفت دولة الخلافة . وكان عبد الحميد رمزاً لهذه الخلافة ، وإن كان مستبداً ، وإن ضعفت على يديه ضعفاً لا نهاية بعده ، واقتطع من جسم الدولة على عهده أكثر من ولاية ، ولكنه على كل حال خليفة المسلمين ، فلا بدع إذا توجه إليه شعراء المسلمين بالمديح والتهاني في الأعياد . ولم يك حافظ يصدر في قصائده العثمانية هذه عن شعور جنسي ، أو عن تبعية قومية لتركيا ، ولكن عن شعور ديني ليس غير . استمع إليه يقول مهنئاً عبد الحميد بعيد جلوسه في سنة ١٩٠١ :

لمحتُ جلالَ العيد والقومُ هُيَّبُ فعلمني آيَ العـلا كيف تكتَبُ
ومَثّلَ لي عرش الخلافة خاطري فأرهب قلبـي والجلالـة تـرهب

ولكنك لا تجد في ديوانه أكثر من قصيدتين يمدح بهما عبد الحميد ويهنئه ، فهذه قصيدة والأخرى قالها في سنة ١٩٠٨ بعد عودة عبد الحميد من الحج ، وكان الدستور قد أعلن ، وأطلق سراح المسجونين السياسيين وهي التي مطلعها :

أثنـى الحجيجُ عليك والحرمان وأجَلَّ عيدَ جلوسكَ الثقلان

ولكنه يقول في غير مدح عبد الحميد قصائد أخرى في مناسبات تنم عن هذه العاطفة الدينية من مثل قصيدته في تأسيس الدولة العلية ١٩٠٦ والتي مطلعها :

أيُحصي معانيكَ القريضُ المهذَّب على أن صدْرَ الشعر للمدح أرحب
لقد مَكّن الرحمنُ في الأرض دولة لعثمـان لا تعفـو ولا تتشعب(١)

وقال عند الانقلاب العثماني الذي خلع فيه عبد الحميد سنة ١٩٠٩ قصيدته التي يقول فيها :

كنتُ أبكي بالأمس منك فما لي بت أبكـي عليك عبدَ الحميد

---

(١) تعفو : من العفاء أي تندثر .

ويشير إلى أن عبد الحميد كان حتى أمس خليفة يدعى له في مساجد المسلمين بقوله :

كلما قامت الصلاة دعا الدا عي لعبـــد الحميد بالتأييد

الى غير ذلك من المناسبات التي لا يحركه إليها إلا الشعور الديني ، من مثل عيد الدستور التركي سنة ١٩٠٨ ، وعودة الطائرين العثمانيين ، وحرب طرابلس ، ولكنه بمجرد أن أعلنت الحماية على مصر ، وزال آخر ما كان يصل بينها وبين تركيا من صلات بزوال الخلافة نفسها ، لا نسمع له شيئاً عن تركيا ، على العكس من شوقي ، وذلك لأنه لم يكن يشعر إلا بهذا الشعور الديني وحده .

ولكنه تأثر في السياسة المصرية بعدة عوامل . من ذلك طول صحبته للشيخ محمد عبده ، وكثرة ملازمته له ، وقد قال في ذلك : « فلقد كنت ألصق الناس بالإمام ، أغشى داره ، وأرد أنهاره ، وألتقط ثماره »[١] ، وقد عرفت أن الشيخ محمد عبده يدعو إلى الإصلاح البطيء ، ويكره الطفرة ، ويريد أن يهيىء الأمة ويعدها لأن تحكم نفسها حكماً صحيحاً ، بالتعليم وارتقاء الشعب[٢] حتى ينشأ جيل قوي يستطيع أن ينال الاستقلال وأن يحافظ عليه ، وعرفتَ كذلك موقفه من عباس ، وموقف عباس منه[٣] ، وأنه كان صديقاً للورد كرومر[٤] ، لأنه كان يدفع عنه بطش عباس ، ويمكنه من أن يسير في إصلاحاته بالأزهر ، والأوقاف ، والقضاء .

ولقد تأثر حافظ بمنهج أستاذه الإمام منذ أن اتصل به[٥] ، في السياسة والإصلاح ، فكتابه (ليالي سطيح) ليس إلا من وحي تعليم الإمام ، وقصائده الاجتماعية ، ونقده للمجتمع المصري في شتى أحواله ، ومختلف رجاله ، ليس إلا تأثراً بمنهج الإمام ، أضف إلى هذا ما لاقاه حافظ من بؤس وفاقة في مقتبل حياته ، وتعرفه على أحوال الشعب ومفاسد البيئة المصرية ، والمعوقات الكثيرة التي تقف في

---

(١) ليالي سطيح ص ١٣٥ لحافظ إبراهيم .

(٢) راجع تاريخ الأستاذ الامام جـ ٢ ص ١٢٣ ؛ وراجع كتابنا في الأدب الحديث جـ ١ ص ٢٨٥ وما بعدها ط سادسة .

(٣) الأدب الحديث جـ ١ ص ٢٩٣ ط سادسة .

(4) Modern Egypt, Vol. II. P. 179-181.

(٥) هنأ حافظ الامام بقصيدة حينما اسند إليه الافتاء في سنة ١٨٩٩ فكانت هذه سبباً في الاتصال به . وكان يراسله من قبل ايام مقامه بالسودان . راجع تاريخ الامام لرشيد رضا جـ ١ ص ٦٠٤ .

سبيل النهضة ؛ ولذلك نراه يكثر من شعره الاجتماعي ، وينتقد كل فاسد : ينتقد العلماءَ الدجَّالين .

كم عالمٍ مدَّ العلوم حبائلا　　لوقيعة ، وقطيعة ، وطـلاق

والأطباء الجشعين غير المخلصين :

وطبيب قومٍ قد أحلَّ لطبّه　　مـا لا تحل شريعة الخلاق

والموظفين المرتشين :

ومهندس للنيل بـات بكفـه　　مفتاح رزق العامـل المطراق

والأدباء المنافقين الكاذبين :

وأديب قـومٍ تستحق يمينه　　قطعَ الأنامل أو لظى الإحراق

وينعي على المصريين تواكلهم ، وتخاذلهم عن النهوض والاهتمام بالإصلاح :

وشعبٍ يفر مـن الصالحات　　فـرار السليم مـن الأجرب

وغير ذلك من القصائد الاجتماعية العديدة التي سنعود إليها بالتفصيل فيما بعد إن شاء الله . وقد تأثر في موقفه مع الإنجليز برأي أستاذه فيهم ، فتراه يردد تلك النغمة التي كان يرددها محمد عبده ـ على الرغم من وطنيته ـ نغمة الإعجاب بهم ، والإطراء لمزاياهم :

يـا دولةً فوق أعلامٍ لهـا أسد　　تخشى بـوادرَه الدنيـا إذا زأرا
يئول عرشك مـن شمس إلى قمر　　إن غابت الشمس أولت تاجها القمرا
مـن ذا يناويك ، والأقدار جارية　　بمـا تشائين والدنيا لمـن قهـرا
إذا ابتسمتِ لنـا فالدهر مبتسمٌ　　وإن كَشَرتِ لنـا عن نابه كشَرا

ويعلل قوة الإنجليز بالشورى والعدل ، والتعاون :

لا تعجبنَّ لملـكٍ عـزَّ جانبه　　لولا التعاون لـم تنظر له أثرا
خبرتهم فرأيتُ القوم قد سهروا　　على مرافقهم والملك قـد سهرا

ولا يكتفي بمجرد إعجابه بهم ، ودعوته المصريين إلى تقليدهم ، والتطلع إلى ما يحتلونه من مكانة بين أمم الأرض ، ولو فعل ذلك لكان ولا شك غير ملوم على ثنائه عليهم ، ولكنه يشيد بما عملوا من إصلاح في مصر ، ويردد ما قاله كرومر في خطبة وداعه من المَنّ على مصر بإصلاحاته • استمع إليه يودع كرومر الداهية وكيف يثني عليه ، وإذا تذكرنا أن كرومر كان مكروها من عباس ، وأنه صديق محمد عبده لا تعجب لموقف حافظ •

سنُطري أياديك التي قد أفَضْتها ... علينا فلسنا أمةً تجحد اليدا
أمنّا فلم يسلك بنا الخوف مسلكاً ... ونمنا فلم يطرق لنا الذعرُ مرقدا
وكنتَ رحيمَ القلب تحمي ضعيفنا ... وتدفع عنا حادث الدهر إن عدا
ولولا أسىً في دِنشواي ولوعة ... وفاجعة أدمتْ قلوباً وأكبدا
ورميُك شعباً بالتعصب غافلا ... وتصويرُك الشرقيّ غِرّاً تجرّدا
لذبنا أسىً يومَ الوداع لأننا ... نرى فيكَ ذاك المصلح المتوددا

ولكنه والحق يقال قد أوضح له بعد ذلك مساوئه في مصر ، وأنه ولّى الحكم آلات صماء تنصاع لأمره ، ولا تبدي رأياً أو مشورة إلا حسب هواه ، وأنه أفسد التعليم ومكّن للغريب •

يناديكَ وليت الوزارة هيئةٌ ... من الصمّ لم تسمع لأصواتنا صدى
فليس بها عند التشاور من فتىً ... أبيٍّ إذا ما أصدر الأمر أوردا
وحاولتَ إعطاء الغريب مكانةً ... تجرُّ علينا الويلَ والذلَّ سَرْمدا

تأثر حافظ في رأيه في الإنجليز ، ومخاطبتهم خطاباً ليناً بأستاذه الشيخ محمد عبده كما ذكرنا ، لأن لمحمد عبده أياديَ لا تنسى على حافظ ، فقد كان فقيراً فأعانه ، وجاهلاً فعلّمه ، ومغموراً فرفع ذكره ، وعرفه بكثير من عظماء مصر وعلمائها ، فلا بدع إذا انتهج منهجه في موادعتهم ، ومعرفة منزلتهم ، والاعتراف بما يسدونه إلى مصر من جميل •

ولكنّ حافظاً ــ كان في طبعه ــ وطنياً مخلصاً ، ولم يكن ولا شكّ ممن يؤيدون حكم الإنجليز بمصر من عقيدة ، ولذلك نراه بعد موت أستاذه الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٥ يتغلب عليه عاملان آخران : هذه الوطنية الكامنة في نفسه ،

ثم ظهور رجال الوطنية المصرية يهزون مصر هزاً عنيفاً كي تفيق من غفوتها ، وتتنبه للخطر الجاثم فوق صدرها ، ولا يرون الاحتلال ورجاله نعمة ، ولا يستسلمون للحوادث استسلام الشاة لذابحها ، بل كانوا ثائرين لهم جرائد فيها أقلام مرهفة كالسيوف مضاء وحدة ، يسلقون بها كل من يناصر الاحتلال ويؤيده •

ونرى حافظاً يستجيب لنداء وطنيته الكامنة في نفسه أولا ، ولنداء هؤلاء الثائرين ثانياً بعد وفاة أستاذه ، ويصدر في شعره عن عاطفة متقدة ليس فيها مهادنة لرجال الاحتلال أو مدّ يد الصداقة إليهم • فما أن وقعت حادثة دنشواي سنة ١٩٠٦، حتى أذاع قصيدته بعد صدور الحكم بخمسة أيام فنشرها في ٢ من يولية ١٩٠٦ •

وكان حافظ في هذه القصيدة ، وقد ابتدأ يجهر بمعاداته الإنجليز ؛ كمن يتحسس طريقاً لم يألفه ، تراه حذراً تارة ، قوياً تارة أخرى ، معاتباً في لطف أحياناً ، متهكما أحياناً ، كان من المنتظر منه والعاصفة على أشدها ، ودماء القتلى تملأ الجو برائحتها ، وصرخات المجلودين تصم الآذان أن تكون قصيدته ثورة على الظلم والاستعباد والقسوة ، ولكنه كما ذكرنا كان لا يزال قريب عهد بموالاتهم ، اسمعه يقول في مطلعها :

أيّهــا القائمون بالأمر فينا   هل نسيتم ولاءنا والودادا

فأي تخاذل تراه في هذا البيت ، وأي ضعف ؟ ؟ وهل هذا موقف عتاب ، ومذاكرة الود ، ولم يبق هؤلاء وُدّاً يتذكر ؟ ؟ • وقد يشفع له ما أتى في قصيدته بعد ذلك من سخرية لاذعة في مثل قوله :

خَفّضوا جيشكم وناموا هنيئا   وابتغوا صيدَكم وجوبوا البلادا
وإذا أعوزتكــمُ ذاتُ طــوق   بين تلك الرُّبى فصيدوا العبادا
إنمــا نحــن والحمام ســواء"   لــم تغادر أطواقنا الأجيــادا

ومن شدة وعنف في قوله :

ليت شعري أتلــك (محكمة التف   تيشِ) عادتْ أم عهد (نيرونَ) عادا
كيف يحلــو مــن القوي التشفي   مــن ضعيفٍ ألقــى إليــه القيادا

ومن قسوة وسخرية لاذعة بمصر وأهلها ، وأنها أمة ضعيفة مستخذية ، لا تجيد إلا الكلام والتحسر والبكاء :

أمـــةُ النيل أكبرت أن تُعادي　　مَنْ رماها ، وأشفقت أن تعادى
ليـــس فيهـــا إلاّ كـــلامٌ وإلا　　حَسْرةٌ بعـــد حسرةٍ تتهادى

ويشتد على المدعي العمومي ابراهيم (بك) الهلباوي الذي أيّد الاتهام ، وكان حرباً على مصر في قوله :

إيه يا مِدره القضاء ويـــا من　　سادَ في غفلة الزمان وشادا
أنت جلاّدُنا فلا تنس أنـــا　　قد لبسنا على يديك الحدادا

وصور حافظ بعد ذلك هول الحادثة ووصفها وصفاً دقيقاً رائعاً في قصيدته التي استقبل بها اللورد كرومر حين عودته من مصيفه ، ولم يكن بمصر حين الحادثة ، ويشير فيها إلى تقرير كرومر عن الحادثة الذي أرسله لوزارة الخارجية البريطانية ، وكَذَّب فيه ، وعزاها إلى التعصب الديني .

نقلتْ لنا الأسلاكُ عنك رسالةً　　بـــاتت لهـــا أحشاؤنـــا تتلهب
ماذا أقولُ وأنتَ أصدق ناقل　　عنـــا ولكـــن السياسة تكذب

وينفي عن المصريين التعصب الديني المزعوم بقوله :

إن أرهقوا صيادَكم فلعلهـــم　　للقوت لا للمسلمين تعصبوا
ولربما ضَـــنَّ الفقير لِقوته　　وسخا بمهجته على من يغضب

ثم يصف في شعر قويٍّ أخاذ صادق التصوير تلك الفظائع التي انتقم بها الإنجليز من الفلاحين المظلومين :

جُلدوا ولـــو منَّيتهم لتعلقـــوا　　بحبال مـــن شنقوا ولم يتهيبوا
شنقوا ولو منحوا الخيار لأهَّلوا　　بلظى سياط الجالدين ورَحبوا
يتحاسدون على الممات ، وكأسه　　بين الشفاه ، وطعمه لا يَعْذبُ

ونلاحظ أن حافظاً لم يقتصر في هذه القصيدة على التنديد بسياسة الإنجليز في مصر كما فعل بعض الزعماء السياسيين حينذاك ، ولكنه حاول أن يصل إلى تفسير الحوادث ، والرجوع بها إلى أسبابها وعللها الحقيقية ، وقد أشار إلى هذه الأسباب لا بوحي من العاطفة ولكن بوحي من النظرة الصادقة إلى واقع الحال ، فعزاها إلى غرور مستشار الداخلية ، واستسلامه للغضب ، ولجوئه إلى العنف والشدة ، وأشار بعد ذلك إلى الدرس الذي يجب أن يحذقه ذوو الشأن من مثل هذه الحادثة وذلك حيث يقول :

أو كلما باح الحزين بأنّةٍ   أمستْ إلى معنى التعصب تنسب
كن كيف شئت ولا تكل أرواحنا   للمستشار فإن عدلك أخصب
قد كان حولك من رجالك نخبة   ساسوا الأمور فَدرَّبوا وتدرَّبوا
أقصيتهم عنا وجئت بفتية   طاش الشباب بهم وطاش المَنصِب

ويختمها بلوم مصر والسخرية بأهلها :

وإذا سئلت عن الكنانة قل لهم   هي أمة تلهو وشعب يلعب
واستبق غفلتها ونم عنها تنم   فالناسُ أمثالُ الحوادث قُلَّب

وتراه بعد ذلك يستقبل (إلدون جورست) الذي عُيِّنَ عميداً لإنجلترا بعد كرومر في سنة ١٩٠٧ بقصيدة قوية يدافع بها عن مصر ، ويبين له سوءات كرومر علّهُ يتعظ فلا يقع في مثلها(١) .

ولكني وقفتُ أنوحُ نوحاً   على قومي وأهتف بالنشيد
وأدفع عنهم بشَبا يراعٍ   يصولُ بكل قافيةٍ شرود

ويقول مشيراً إلى كرومر وتقاريره :

رمانا صاحبُ التقرير ظلماً   بكفران العوارف والكنود
وأقسم لا يجيب لنا نداء   ولو جئنا بقرآن مجيد

---

(١) كان جورست مستشاراً لوزارة المالية المصرية من سنة ١٨٩٨ إلى سنة ١٩٠٤ ؛ وفي سنة ١٩٠٧ عين بدلا عن كرومر ، وتوفي سنة ١٩١١ .

وبشَّرَ أهـل مصر باحتلال ... يدومُ عليهمُ أبـد الأبيـد
وأنبتَ في النفوس لكم جفاءً ... تعهـده بمنهـلٍ الصـدود
فأثمر وحشةً بلغـت مداها ... وزكاها بأربعـةٍ شهـود[1]

ثم يشير إلى الأثر الذي تركته هذه الحادثة في نفوس المصريين ، وكيف أنها هزتهم هزاً عنيفاً ، وأيقظتهم من سُباتهم العميق ، فهبوا يذودون عن أنفسهم الظلم والبغي ، ويندِّدون بالاحتلال وقسوته ، والاستعمار وشدته ، هبوا ثائرين ينشدون الحرية ، ويغضبون للعزة والكرامة الوطنية .

قتيـلُ الشمس أورثنـا حيـاة ... وأيقظ هاجـعَ القـوم الرقود
فليتَ كروماً قـد دام فينـا ... يطوِّق بالسلاسل كـل جيـد
ويتحف مصر آنـا بعـد آنٍ ... بمجلـود ومقتـول شهيـد
لننـزع هـذه الأكفـان عنـا ... ونَبْعَثَ في العوالم من جديد

وشتان بين موقف شوقي وحافظ إزاء هذه الحادثة .

أما رثاء حافظ لمصطفى كامل فقد قال فيه ثلاث قصائد . أولاها ألقيت على قبر الفقيد ساعة دفنه ، والثانية في ذكرى الأربعين ، والثالثة بعد مرور عام على وفاته . وإذا أمعنا النظر في القصيدة الأولى وجدناها ــ بطبيعتها ، وسرعة إنشائها ــ لوعةً صادقة ، تصور هول الفجيعة ، ودمعة حارة ، وزفرة عميقة ، جاءت من وحي العقل الباطن ، لا تتيجة تفكير وترو ، ومست جوانب العظمة في مصطفى كامل ، وبينت ما عمله لمصر ، وما يرجوه الشاعر من مصر بعد وفاته . وكانت خير مُعَبِّر عن شعور المصريين إزاء هذا الخطب الفادح .. تلك هي القصيدة التي مطلعها[2] :

أيـا قبر هذا الضيف آمال أمـة ... فكَبِّر وهلّل ، والقَ ضيفك جاثيا
عزيزٌ علينا أن نرى فيك مصطفى ... شهيد العلا في زهرة العمر ذاويا

---

(١) يريد بالشهود الأربعة الذين أعدموا في حادثة دنشواي .
(٢) ديوان حافظ ج ٢ ص ١٤٩ .

وبعد أن يشيد بأعماله يشعر أنه أكثر من البكاء والعويل ، وأن الأمة حزينة ، ولعل مصطفى كامل لا يرضى بهذا الضعف فيقول له :

عهدناك لا تبكي وتنكر أن يُرى   أخو البأس في بعض المواطن باكيا
فَرَخِّصْ لنا اليومَ البكاءَ، وفي غدٍ   ترانا كما تهوي جبالاً رواسيا

ويستحث المصريين على الوفاء لهذا الراحل الكريم بالمحافظة على مبدئه ، وسياسته ، والتمسك بشعاره فيقول :

أيا نيلُ إن لم تجر بعد وفاته   دماً أحمراً لا كنت يا نيلُ جاريا
ويا مصر إن لم تحفظي ذكر عهده   إلى الحشر لا زال انحلالك باقياً
ويا أهلَ مصر إن جهلتم مصابكم   ثقوا أن نجم السعد قد غار هاويا

أما القصيدة الثانية التي قالها في حفل الأربعين فقد خفت فيها حدة العاطفة ، وحرارة اللوعة ، وصور فيها حافظ بشعوره الواعي الحوادث الخارجية ، ووصف الجنازة ، ومواقف مصطفى كامل التاريخية المجيدة ، ومطلع تلك القصيدة :

نثروا عليك نوادي الأزهار   وأتيت أنثر بينهم أشعاري

ويصور فيها جهاد مصطفى بقوله :

قد ضاق جسمك عن مداك فلم يطق   صبراً عليك وأنت شعلة نار
أودى به ذاك الجهادُ وهدَّه   عزم يَهُدُّ جلائل الأخطار
لعبت يمينك باليراع فأعجزت   لعبَ الفوارس بالقنا الخطار

وظهر حافظ في هذه القصيدة بأنه شاعر الوطنية الحقة ، وبأنه لا يعرف مداجاة الإنجليز ولا موادعتهم ، وعبر كما فعل في قصيدته الأولى عن عاطفة كل مصري وشعوره . أما قصيدته الثالثة التي قالها بعد مرور عام على وفاة الزعيم ، فقد كانت أروع هذه القصائد ، لا من حيث تصويرها للوعة الأسى ، وحرقة الفراق ، وعظم المصاب ، ولا من حيث تصويرها لجهاد الفقيد ودفاعه الحار عن مصر وقضيتها ، وإيقاظه قوماً ظن أعداؤهم بهم الظنون ورموهم بكل نقيصة ، ولكن من حيث وصفه آلام مصر وآمالها ، وشعورها إزاء الاحتلال ومصائبه . وقد أسفر حافظ عن ذات

نفسه في هذه القصيدة ، فجهر بعدائه الصارخ للإنجليز ولم يعد بعد ذلك الذي يلين القول ، ويدعو إلى المهادنة وهي خير ما يمثل شعر حافظ السياسي ، الذي اكتسب به لقب (شاعر النيل) ، استمع إليه كيف يصور الثورة التي كانت متأججة فهمدت ، والفراغ الذي تركه في ميدان السياسة .

يـا أيهـا النائم الهاني بمضجعه ... لِيَهْنِكَ النومُ لا هَمٌّ ولا سَقَمُ
بـاتت تسائلنـا في كـل نازلـة ... عنـك المنابـر والقرطاس والقلـم
تركت فينـا فراغاً ليس يَشْغَلَه ... إلاّ أبـيٌّ ذكـيٌّ القلب مضطرم
مُنَفَّرُ النـوم سبَّـاق لغايتـه ... آثـاره عَمَـم آمالـه أمَـمُ

ثم يقول له ، وقد انطلق على سجيته معبراً عما يجيش في نفس كل مصري :

لبيكَ نحن الألى حركتَ أنفسهم ... لمـا سكت ولمـا غالكَ العـدمُ
قيل اسكتوا فسكتنا ، ثم أنطقنا ... عسفُ الجفاة وأعلى صوتنا الألمُ
إذا سكتنا تناجوا . تلـك عادتهم ... وإن نطقنا تنادوا : فتنـة عَمَمُ

ويصور رجال السياسة الإنجليزية بقوله :

تصغي لأصواتنا طـوراً لتخدعنا ... وتـارة يزدهيها الكبر والصممُ
فمـن ملاينة أستارُها خُدَعٌ ... إلـى مطالبـة أستارها وهَـمُ
ماذا تريدون ؟ لا قرّتْ عيونهم ... إن الكنانة لا يطوى لها عَلَمُ

وقد تنبه الإنجليز إلى أن حافظاً قد تجاوز حدّه ، وإلى أنه قد انضم صراحة إلى الجبهة الوطنية ، وصار شاعرها الفذ ، الذي يهيج النفوس بشعره الذي يعبر فيه عن عواطفهم بسهولة ويسر ورشاقة ، فعملوا على وضعه في قفص الوظيفة حتى يسكت عنهم ، أو يرجع إلى سياسته القديمة من مهادنتهم ، فعين على يد حشمت باشا ناظر المعارف في ذلك الوقت رئيساً للقسم الأدبي في دار الكتب المصرية سنة ١٩١١ ، وظل بهذه الوظيفة إلى سنة ١٩٣٢ حين أحيل إلى المعاش ، وأنعم عليه برتبة (البكوية) في سنة ١٩١١ ، ثم أنعم عليه بـ (نيشان النيل) من الدرجة الرابعة ، وبذلك كبل حافظ بقيود الوظيفة والألقاب ، وضن بمنصبه كل الضن ، وخشي عليه

كل الخشية وصار لا يقول شعراً يغضب به أحداً من ذوي السلطان خشية أن يزحزحوه عنه ، أو ينالوه بأذىً فيه ، وإن قال شعراً سياسياً أخفاه ولم ينسبه إلى نفسه . وليته سكت بعد أن دخل قفص الوظيفة ، ولكنه أخذ يدعو إلى التعاون مع الإنجليز من مثل قوله عقب إعلان الحماية ، وتولية السلطان حسين كامل عرش مصر مهنئاً له وناصحاً بأن يتبع آراءهم وينصاع لأوامرهم :

ووال القوم إنهمُ كرام ... ميامينُ النقيبة أينَ حلّوا
لهم ملكٌ على التاميز أضحت ... ذراه على المعالي تستهلُ
وليس كقومهم في الغرب قومٌ ... من الأخلاق قد نهلوا وعلّوا
فإن صادقتهم صدقوك وداً ... وليس لهم إذا فتشتَ مثلُ
وإن شاورتهم والأمر جدٌ ... ظفِرت لهم برأيٍ لا يَزِلُ
وإن ناديتهم لبّاك منهم ... أساطيل وأسيافٌ تُسَلُ
فمااددهم حبال الود وانهض ... بنا فقيادنا للخير سهلُ

وهي قصيدة لعمري تدل على أن صاحب ذلك الشعر ليس هو حافظ الملتهب الجبار الذي كان يصب شآبيب سخطه على الإنجليز ، ويريد أن يطردهم من مصر ، وإلا فما باله ينصح السلطان بأن يماددهم حبال الود ، وما باله ينصحه بمشاورتهم ويشيد بقوتهم ؟ ؟ وثمة قصيدة أخرى تنم عن ذلك التغيير في شعر حافظ السياسي ، وخضوعه التام لأسر الوظيفة وإقراره الأمر الواقع من سلطان الإنجليز بمصر وبطشهم ، تلك هي التي قالها عند تعيين (السر مكماهون) عميداً لانجلترا بمصر سنة ١٩١٥ ومنها يقول له معترفاً بأنه صاحب الأمر المطلق ، ومن بيده الحل والعقد في البلاد .

ودع الوعود فإنها ... فيما مضى كانت روايه
أضحت ربوع النيل سلـ ... ـطنةً وقد كانت ولايه
فتعهدوها بالصلا ... ح وأحسنوا فيها الوصايه
أنتم أطباء الشعو ... ب وأنبل الأقوام غايه

أنـى حللتـم في البـلا د لكم من الإصلاح غايه

فهذه النغمة التي يمجد فيها الإنجليز ، ويشيد بعدلهم ، ومقدرتهم على الإصلاح ، ويطلب منهم أن يهتموا بشئون التعليم في مصر ، ويتعهدوا البلاد بالرعاية ، ويقول لهم : إنهم أنبل الشعوب وأعدلهم تشعرنا بأن حافظاً نسي أن مصر محتلة ، وأنها كانت تطالب بالاستقلال وكأن لم تكن ثمة صرخات مدوية ، رددها مصطفى كامل في الخافقَيْن ورددها صحبه الأمجاد ، ورددها حافظ نفسه ، والكل يطلبون منهم أن يبرحوا مصر غير مأسوف عليهم . واستمع إليه يقول في آخرها :

هـذا حسين فوق عر ش النيل تحرسه العنايه
هو خير مـن يبني لنا فدعـوه ينهض بالبنايه

فالأمر كما يقول بيد الإنجليز ، إن شاءوا تركوه ينهض بالبناية ، وإن شاءوا أبوا عليه ذلك ، فهو لا يملك في الواقع من أمر مصر شيئاً .

وليس معنى ذلك أن عوامل الوطنية قد ماتت في نفس حافظ ، ولكن كان — كما ذكرنا — يخشى أن يفقد مورد رزقه إن هو جاهر برأيه ، ولذلك تراه يقول بعض القصائد السياسية ويكتمها ، أو ينشرها بغير اسمه من مثل قصيدته في وصف مظاهرة السيدات في سنة ١٩١٩ ، ولم تنشر باسمه إلا في سنة ١٩٢٩ حين أمن عاقبة نشرها وهي التي يقول في أولها :

خـرج الغوانـي يحتجـ ن ورحتُ أرقبُ جَمْعَهُنَّه

ومن مثل قصيدته التي قالها في عهد إسماعيل صدقي ١٩٣٠ ، وقد ألغى الدستور ، وثارت مصر بأسرها ضده ، ولم يشر إليها أو ينشدها أحداً من أصدقائه إلا بعد أن خرج إلى المعاش ، ويقول الأستاذ أحمد أمين : « ولقد أنشدني قصيدته هذه التي مطلعها » :

قد مرَّ عامٌ يا سعاد وعام وابن الكنانة في حماه يضام

وهي التي يقول فيها مخاطباً صدقي (باشا) :

ودعا عليك اللهَ في محرابه الشيخ والقسيس والحاخام

لا همَّ أحي ضميره ليذوقها   غصصاً وتنسف نفسه الآلام

وكانت نحو مائتي بيت ، يصف فيها وزارة إسماعيل صدقي ، فأشرت عليه أن ينشر بعضها ، أو يكتبها ، أو يمليها ، أو يحتفظ بها بأي شكل من الأشكال فقال : « إني أخاف السجن ولست أحتمله »[1] .

لقد أطال حافظ الصمت ، ومرَّت بمصر أحداث جسام ، فالثورة المصرية العارمة ، وتغير نظام الحكم ، واستقلال البلاد نسبياً ، ومجيء الدستور وحكم الشعب ، لم تحرك من حافظ ساكناً ، وإذا تكلم فبحذر ورفق من مثل قوله في تصريح ٢٨ من فبراير ١٩٢٢ الذي منحت مصر به الدستور .

اصبحت لا أدري على خبرة   أجدَّتِ الأيام أم تمزح
ألمح لاستقلالنا لَمعَةً   في حالك الشك فأستروح
وتطمس الظلمةُ آثارها   فأنثني أنكر ما ألمح
قد حارت الأفهام في أمرهم   إن لمَّحوا بالقصد أو صرحوا

ومن مثل قوله في عيد الاستقلال متشائماً :

كم خدَّرت أعصابَ مصرَ نوافحٌ   لوعودهم كنوافح التفاح
فتعلَّل المصريُّ مغتبطاً بها   أرأيت طفلاً عللوه بداح
وتأنقوا في الخلف حتى أصبحت   أقوالهم تذْرَى بغير رياح

وقد نشرت لحافظ عدة مقطوعات شعرية في سنة ١٩٣٢ بعد أن أحيل إلى المعاش ، ينعي فيها على الإنجليز حيادهم الكاذب ، ويعيب عليهم تغير أخلاقهم مع أنهم اشتهروا بمتانة الأخلاق .

لا تذكروا الأخلاق بعد حيادكم   فمصابكم ومصابُنا سِيّان
حاربتم أخلاقكم لتحاربوا   أخلاقنا فتألَّمَ الشعبان

---

(١) مقدمة الديوان : ص ١٩ .

ويقول عن حيادهم :

قصر الدبارة قد نقضـ ـتَ العهدَ نقضَ الغاصبِ
أخفيتَ ما أضمرتـه وأَنَبْتَ وُدَّ الصاحبِ
الحرب أَرْوَحُ للنفو س من الحياد الكاذب

ويقول في إحدى هذه المقطوعات مخاطباً الإنجليز :

فعدلتمْ هنيهةً وبغيتم وتركتم في النيل عهداً ذميما
فشهدنا ظلماً يقال له العد لُ ووُداً يسقي الحميمَ الحميما

ويبدو أن هذه المقطوعات قيلت في مناسبات مختلفة ، وفي سنوات عديدة ، كلما هاجت الحوادث فؤاد الشاعر وأثارت حزنه وشجنه ، وكان ينظمها لينفس بها عن آلامه المكبوتة ولكنه كان يخشى من نشرها حتى لا يضايقه الإنجليز في رزقه ، أو يغروا به أحد المستوزرين فيصب عليه شآبيب غضبه . ولم تكن نفس حافظ تحتمل الأذى ، أو ترغب في العودة إلى ضيق العيش ، وقد ذاقت منه ألواناً ، فطوى هذه المقطوعات ، إلى أن أحيل إلى المعاش فلم يجد بأساً — وقد صار حراً من قيود الوظيفة — من نشرها . وأغلب الظن أن شاعر النيل لو مُدّ له في أجله بعد خروجه إلى المعاش لعاد سيرته الأولى ، وملأ الدنيا شعراً متحمساً وطنياً رائعاً كما كان في عهده الأول ، ولكن عاجلته المنية بعد أن تحلل من الوظيفة بأربعة شهور .

أما موقف شوقي إزاء هذه الحوادث القومية الوطنية بعد ثورة سنة ١٩١٩ ، فقد اختلف جد الاختلاف عن موقفه من قبل ، كما اختلف عن موقف حافظ . ترك شوقي مصر منفيا بعد أن خلع عباس في سنة ١٩١٤ ، ورأى الناس قد تنكروا له حتى أعز أصدقائه قد تحاموا لقياه أو تحيته حين يرونه خوفا من أن يتهموا بمصادقته[1] ، ولذلك رحب بالمنفى ليريحه من تلك الوجوه المنافقة ، وقد قال يخاطب ولديه وهو يعبر القناة في طريقه إلى المنفى مشيراً إلى سطوة الغاصب المحتل ، وعسفه وتبجحه ، ويفصح عن كامن غضبه وسخطه . « تلكما يا ابنيَّ القناه ، لقومكما فيها حياه ،

(١) انظر حسين شوقي مجلة أبولو ديسمبر ١٩٣٢ ص ٣١٥ .

ذكرى إسماعيل ورياه » ...... إلى أن يقول : « نفارق براً مغتصبه مضريُّ الغضبة ، قد أخذ الأهبة واستجمع كالأسد للوثبة ، ديك على غير جداره خلا له الجو فصاح ، وكلب في غير داره انفرد وراء الدار بالنباح » ، وقد أشار إلى هؤلاء الذين تنكروا له بعد أن تغيرت الحال السياسية ، وذهب عنه جاهه وسلطانه بمصر ، في إحدى أندلسياته بقوله :

وداعاً أرضَ أندلسٍ وهذا ... ثنائي إن رضيت به ثوابا
شكرتُ الفلكَ يوم حويت رحلي ... فيا لمفارق شكر الغرابا
فأنت أرحتني من كل أنف ... كأنف الميت في النزع انتصابا
ومنظرِ كلِّ خوّانٍ يراني ... بوجه كالبغِيِّ رمى النقابا

وقضى في المنفى خمسة أعوام ألهب فيها النفي ولوعة الفراق إحساسه بالغربة وشوقه إلى مصر الحبيبة ، فنفثها نفثات حارة من قلب مفعم بالحب والحنين إلى الأرض التي شهدت ملاعب صباه ، ونشاط شبابه ، ونمو مجده وفيها الأهل والأحباب والخلان والأصحاب .

على جوانبها رفت تمائمنا ... وحول حافاتها قامت رواقينا
ملاعب مرحت فيها مآربنا ... وأرْبُعٌ أنست فيها أمانينا
ومطلع لسعود من أواخرنا ... ومضربٌ لجدود من أوالينا

وأتى به شعراً علوياً في أندلسياته المشهورة يفيض وطنية صادقة بعيدة عن مهاترات الأحزاب ، ونغما خالداً لم تسمع مصر مثله في ماضيها الطويل منذ أن دوت في أرجائها لغة الضاد ، أربى به على البارودي وتميز عنه باستطراداته البديعة في وصف مصر وطبيعتها وتاريخها ، فقال في سينيته المشهورة :

وسلا مصرَ هل سلا القلب عنها ... أو أسا جرحَه الزمان المؤسِّي
كلما مرّت الليالي عليه ... رقّ والعهد بالليالي تقسِّي
مستطارٌ إذا البواخر رنّت ... أولَ الليل أو عَوَت بعد جرْس

راهب في الضلوع للسفن فطن   كلما ثرن شاعهن بنقس
يا ابنة اليم ما أبوك بخيل"   ما له مولعاً بمنع وحبس
نفسي مرجل وقلبي شراع   بهما في الدموع سيري وأرسي
واجعلي وجهك (الفنار) ومجرا   كِ يدَ (الثغر) بين (رمل) و (مكس)
وطني لو شغلت بالخلد عنه   نازعتني إليه في الخلد نفسي
شهد الله لم يغب عن جفوني   شخصه ساعةً ولم يخل حسي

وعاد والثورة المصرية على أشدها ، بسعي من رشدي باشا لدى السلطة المحتلة ، وبإيحاء من السلطان حسين كامل قبل وفاته بعد أن رجاه في ذلك كثيرون من أصدقاء شوقي[1] . عاد شوقي والثورة المصرية في عنفوانها ، وقد لمعت في سماء الوطنية أسماء لم يكن لها من قبل ذكر ، وهبّت الأمة جميعها غاضبة لحقها المغصوب، ودم بنيها المسكوب ، واستقلالها المسلوب ، وشعر الإنجليز أنهم أمام أمة جادة في طلب حريتها ، تستهين بالدماء وبالأموال ، متحدة الصفوف ، لا يجد فيها العدو ثغرة ينفذ منها إلى التفرقة بينهم ، وأخذوا يتراجعون رويداً رويداً ، أو يحيكون الشباك للتفرقة ، فألفوا لجنة (ملنر) ثم قدم ملنر مشروعه ، فرفضه الوفد أول الأمر ، وعدله بعد ذلك ملنر تعديلا يسيراً ، فلم يشأ سعد أن يبت هو والوفد الذي سافر للمفاوضة في الأمر وحده ، وأرسل المشروع مع أربعة[2] من أعضاء الوفد ليعرضوه على الأمة لتقول فيه كلمتها ، وقد وجه سعد إلى الأمة كلمة قال فيها عن المشروع : « غير أنه نظراً لاشتماله على مزايا لا يستهان بها ، وتغير الظروف التي حصل التوكيل فيها ، وعدم العلم بما يكون من الأمة بعد معرفتها بمشتملاته ، وقياس المسافة التي بينه وبين أمانيها ، رأى إخواننا معنا خروجاً من كل عهدة ، وحرصاً على كل فائدة ، واستبقاء لكل فرصة ، ألا يبتوا فيه رسمياً بما يقتضيه توكيلهم ، قبل عرضه عليكم أنتم نواب الأمة المسئولون ، وأصحاب الرأي فيها »[3] .

---

(١) راجع مقالة المرحوم احمد زكي باشا عن شوقي في مجلة ابولو عدد ديسمبر سنة ١٩٣٢ ص ٣٣٨ .
(٢) هم محمد حمود ، وعبد اللطيف المكباتي ، واحمد لطفي السيد ، وعلي ماهر .
(٣) ثورة سنة ١٩١٩ ج ٢ ص ١٢٧ .

وإن كان سعد قد بين لأصحابه بمصر أنه حماية ، وأنه يرفضه ، وقد قال في كتابه لهم[١] « وأظنكم تستشفون أني لست من رأي المشروع الذي ستعرضونه على الأمة ، أنتم والقادمون إليكم من إخوانكم ، وهذا موافق للحقيقة لأنه (وأريد أن يكون الأمر بيني وبينكم) مشروع ظاهره الاستقلال والاعتراف به ، وباطنه الحماية وتقريرها[٢] » .

فلم يكن سعد صريحاً في الخطاب الذي وجهه للأمة ، وظن بعضُ الناس أنه يوافق عليه ، ووجد فيه بعضهم خطوة إلى الأمام ، ومن هؤلاء شوقي ، وقد نزل إلى معترك السياسة غب وصوله من منفاه ، بعد أن أوصدت في وجهه أبواب القصر وتغير سكانه ، ولم يعد مقيداً بقيوده ، فقال في مشروع ملنر :

ما بال قومي اختلفوا بينهم ... في مدحة المشروع أو ثَلبه
كأنهم أسرى ، أحاديثهم ... في ليِّن القيد وفي صُلْبه
يا قومِ هذا زمنٌ قد رمى ... بالقيد واستكبر عن سجنه
لو أن قداً جاءه من عَلٍ ... خشيت أن يأبى على ربّه
وهذه الضجة من ناسه ... جنازة الرق إلى تُرْبه

وهذا كلام ظاهره أن شوقي يرفض المشروع ، فلا يصح أن يوجد خلاف بين المصريين حول الرق والاستقلال ، فالاستقلال واضح ، والرق واضح ، ولكنه يقول بعد ذلك مؤيداً المشروع على أنه خطوة إلى الأمام ، والطفرة محال ، ولا سيما ونحن عزل من السلاح .

لا تستقلوه فما دَهْركم ... بحاتم الجود ولا كعبه[٣]
نسمع بالحق ولم نطلع ... على قنا الحق ولا قُضْبِه
ينالُ باللين الفتى بعضَ ما ... يعجز بالشدة عن غصبه
قد أسقط الطّفْرَةَ في ملكه ... من ليس بالعاجز عن قلبه

(١) هم مصطفى النحاس ، وحافظ عفيفي ، وويصا واصف : وقد رفضت الأمة المشروع .
(٢) ثورة سنة ١٩١٩ جـ ٢ ص ١٢٨ .
(٣) يشير إلى حاتم الطائي ، وكعب بن مامة الايادي وكلاهما من اجواد العرب .

وقد لامه كثيرون على قصيدته تلك ، مع أنه معذور ، إذ أن ساسة الأمة كانوا غاضبين ، وقد وجد فيها شوقي بارقة أمل . ونرى شوقي بعد ذلك يقول في تصريح ٢٨ من فبراير سنة ١٩٢٢ ، الذي اعترفت فيه إنجلترا باستقلال مصر مقيداً بقيود أربعة ، ومنحتها الدستور ، معتقداً كذلك أنه خطوة إلى الأمام ، وأن مصر لم تنل كل أمانيها ، وأن الجهاد لم يزل أمامها طويل ، ولكن الغاية قد قربت .

لا ريب أن خطى الآمال واسعةٌ ... وأن ليل سُراها صُبحُه اقتربا
وأن في راحَتَيْ مصرٍ وصاحبها ... عهداً وعقداً بحقٍّ كان مُغتَصَبا
تمهدتْ عقباتٌ غير هينة ... تلقى ركاب السرى من مثلها نَصَبا
وأقبلتْ عقبات لا يذللها ... في موقف الفصل إلا الشعب منتخِبا

وفيها يقول :

قالوا : الحماية زالت ، قلت لا عجب ... بل كان باطلها فيكم هو العجبا
رأس الحماية مقطوع فلا عدمت ... كنانةُ الله حزْماً يقطع الذنبا

كان شوقي ينظر في ميدان السياسة المصرية نظرات عامة ، ويستقرىء العظات والعبر ولم يدع حادثة تمر من غير أن يدلي فيها برأيه ، بعيداً عن الحزبية التي صدعت وحدة الأمة ، ومزقت شملها ، ومكنت للعدو أن يستعيد بعض سيطرته ، ولذلك وجه إلى الزعماء في ذكرى مصطفى كامل سنة ١٩٢٥ هذه القصيدة العظيمة في معانيها وغاياتها الوطنية ، ملتمساً من مليك البلاد ، أن يجمع الصفوف بحكمته ، وسديد رأيه ، إبقاءً على نهضة الأمة ، وحفاظاً على قوتها أن تتبدد .

إلامَ الخُلف بينكُمُ إلامَ ... وهذه الضجة الكبرى علام ؟
وفيم يكيدُ بعضكم لبعض ... وتبدون العداوة والخصاما ؟
وأين الفوز لا مصر استقرت ... على حال ولا السودان داما ؟
وأين ذهبتمْ بالحق لما ... ركبتم في قضيته الظلاما ؟
أبعد العروة الوثقى وصفٌ ... كأنياب الغضنفر لن يراما

تباغيتم كأنكم خلايا   من السرطان لا تجد الضماما ؟

يقول شوقي في عيد الاستقلال ، وعيد الدستور ، وفي نجاة سعد زغلول حين اعتدي عليه ؛ وقد قال في إحدى قصائده يصف ثورة مصر وانتفاضاتها القوية في سنة ١٩١٩ ، وإصرارها في عزم وحمية على رجوع سعد من منفاه وهي عزلاء من السلاح ، تتحدى انجلترا المنتصرة التي يربض جيشها على ضفاف الوادي بحرابه ومدافعه وطائراته ، وكيف خضعت إنجلترا لهذه الثورة العاتية ، وأرجعت سعداً إلى عرينه .

أتذكر إذ غضبت كاللبّاة   ولمت من النيل أشبالها
وألقت بهم في غمار الخطوب   فخاضوا الخطوب وأهوالها
وثاروا فجُنّ جنون الرياح   وزلزلت الأرض زلزالها
وبات تلمسهم شيخهم   حديث الشعوب وأشغالها
ومن ذا رأى غابةً كافحت   فردّت من الأسر رئبالها
وأهيبُ ما كان بأس الشعوب   إذا سلّح الحقُّ عزّالها

وكان يتأثر بالحوادث السياسية كلّ التأثر ، وتنفعل لها نفسه وتهتز أعصابه ، وتحفز خياله[1] . ولم يقيد شوقي شعره بالوطنيات المصرية ، بل تعدى مصر إلى شقيقاتها من البلاد العربية ، وإلى البلاد الإسلامية ، يشجعها على طلب الاستقلال ، ويأسى لما تصاب به من نكبات ، ويرثي كبار زعمائها وقادتها . ويحث شباب مصر في أكثر من موطن على أن يعتصموا بالقوة فإن الحق الذي لا تدعمه القوة لا يلقى آذاناً صاغية ، ويذكر المصريين بأن الغرب رفض الاستماع إلى وفد مصر في مؤتمر لوزان حينما كان يوزع الغنائم والأسلاب :

أتعلم أنهم صلفوا وتاهوا   وصدوا الباب عنا موصدينا
ولو كنا هناك نجر سيفاً   وجدنا منهم عطفاً ولينا

ويذكرهم بأن الأماني والأحلام لا تحقق الرغاب فيقول :

وما نيل المطالب بالتمني   ولكن تؤخذ الدنيا غلابا

---

(١) داود بركات مجلة ابولو ديسمبر سنة ١٩٣٢ ص ٣٦٦ .

فبينما كان شوقي يملأ الدنيا بشعره ، كان حافظ راضياً بما قسم اللهُ له من رزق ، حريصاً على ألا يضيع منه : يكبت شعوره ، ويخشى أن تطوح به السياسة في أودية لا يعرف لها قراراً .

هذا! وقد ظهر بجانب شوقي وحافظ شعراء آخرون تباينوا شعوراً ، وسياسة ، إزاء كلّ هذه الحوادث ، وتأثروا بمؤثرات شخصية : فإسماعيل صبري كان وطنياً صادقاً ، ولكنه كان مقيداً بقيود الوظيفة ، ولم يكن شاعراً محترفاً ، وإنما كان الشعر عنده ترفاً ، ولم يخض غمار السياسة كما خاضها حافظ وشوقي ، وإن لم يقل عنهما وطنية ؛ ينم عنها ما قاله في بعض الحوادث التي هزّت مشاعره هزاً عنيفاً فلم يجد من القول بُداً .

ليس في ديوان صبري أي قصيدة يمدح بها السلطان عبد الحميد ، أو سواه من الأتراك الذين مدحهم شوقي أو مدحهم حافظ ، ولست أدري أيعود هذا إلى أنه كان يخشى الإنجليز وهو الموظف في الحكومة المصرية التي تسيطر إنجلترا على شئونها ، والذين كانوا يسعون سعياً حثيثاً لقطع الصلة بينها وبين مصر ، حتى يخلوا لهم الجو ، ويثبتوا أقدامهم بوادي النيل ؟

أو يعود هذا إلى أنه كان ينظر إلى مصر وأملها في الاستقلال نظرة قومية ، فلا يمدح إلا أمراءها الذين تولوا الملك في عهده كإسماعيل ، وتوفيق ، وعباس ، وحسين كامل ، شأن الرجل المستنير الذي يرغب في نهضة بلاده مستقلة عن كل نير أجنبي ، ولا يدعو إلا للنهضة التعليمية ، والشورى ، ورقي مصر في جميع نواحي الحياة ؟ ، نرى إسماعيل صبري حتى في شعره الذي قاله في حرب طرابلس بين تركيا وإيطاليا لا يصدر عن عاطفة دينية حادة كما كان يصدر شوقي مثلاً ، وكما كان يصدر كثير من شعراء هذا الجيل ، وإنما كان صبري ينظر إلى هذه الحادثة نظرة إنسانية ، فيها اعتداء قوي مدجج بالسلاح ، على ضعيف أعزل ، وفيها تنكر لمعاني الإنسانية الجميلة .

لا يثق بعضنا ببعض وهــذا ... مــا أعــدّ الإنسان للإنسان
إن تُسلّم على الغريب فسلّم ... في ظــلال السيوف والمــرّان
ربمــا أصبح العنــاق صراعاً ... في زمــان الآداب والعرفــان

ولا نراه يكبر ويهلل حينما تعلن تركيا الدستور في سنة ١٩٠٨ ؛ فما الذي يعود على مصر من ذلك إذا لم تنل هي الدستور ، وحكم الشورى ؟ . فليست مصر في نظره مقاطعة عثمانية ، حتى ينالها ما نال تركيا ، ولكنها محكومة حكماً غريباً تتنازعه سلطتان ، وأهلها يعانون الاستبداد والبغي :

يا مصر سيري على آثارهم وقفي ... تلك المواقف في أسنى مجاليها
لا يؤيسنَّك ما قالوا وما كتبوا ... بين البريَّة تضليلا وتمويها
إن يمنعوا الناس من قول فما منعوا ... أن ينطق الحق بالشكوى ويبديها
الحق أكبر من أن تستبد به ... يد وإن طال في بُطلٍ تماديها
يا آية الفخر هلا تنزلين — كما ... نزلت ثَمَّ — على مصر وأهليها
كيما نجر ذيولاً منك جرها ... من قبلنا الترك في أوطانهم تيها
يا (عابدين) لأنت اليوم مصدرها ... وفي ذَراك — بإذن الله — موحيها

ونراه عند الانقلاب العثماني ، وخلع السلطان عبد الحميد ، يرى في ذلك عظة بالغة لكل حاكم مستبد فيقول لعبد الحميد :

(عبدَ الحميد) سيحصى ما صنعت غداً ... بينَ الأنام ، ويلقى في الموازين
إن يرجح الخير — نعم الخيرُ من عمل — ... دخلتَ في زمرة الغُرِّ الميامين
أو يغلب الشرُّ — لا كانت عصابته — ... عُددتَ في صرحه أقوى الأساطين
لا يرهقنَّك حكم الناس فهو غداً ... مستأنَف عند سلطان السلاطين

ونراه يستحث عباساً في أكثر من مناسبة ليمنح مصر الدستور ، وليحكم بالشورى :

سدِّد سهام الرأي (بالشورى) يحط ... بك منه في ظلم الحوادث فيلقُ
[illegible] مجدَك أن تنام وفي الحمى ... أملٌ عقيم أو رجاء مخفق
كلُّ المنى [illegible] نوِّلت ما ترتجي ... من أنعُم الشورى وملكك مطلق
[illegible] بالذي صرحت [illegible] به وقل ... واصدق ، فمثلك من يقول ويصدق

أما في علاقة مصر بالإنجليز ، فلا شك أن صبري كان غير راض عنها ، ولكنه لم يكن يفصح عن مكنون نفسه ، وإن دلت مواقفه العديدة ، على الوطنية المضطرمة بين جوانحه . فقد اشتهر صبري بصداقته لمصطفى كامل ، وقد حدث حينما كان محافظاً للإسكندرية — من سنة ١٨٩٦ إلى ١٨٩٩ — أن أراد مصطفى كامل إلقاء خطبة وطنية بها ، فأوعزت الحكومة إليه أن يحول بينه وبين ما يريد ، محتجة بالخوف على الأمن أن يختل نظامه ، والقانون أن تنتهك أحكامه ، فأبى على الحكومة كل الإباء ، وخلى بين مصطفى وبين شعبه يخطبه كما يشاء ، وقال للحكومة : أنا مسئول عن الأمن والنظام ، ومحتمل ما تعقبه هذه الخطبة من تبعات[١] .

ذكر الأستاذ أحمد الزين أنه عاش ما عاش لم يزر إنجليزيا قط « وقد سألته عن ذلك فقال : نعم ، وطالما استمالني لورد كرومر إلى زيارته فلم أفعل ، فقلت مازحا : لعلك لو فعلتَ كنت اليوم رئيساً للوزارة . فقال : « وماذا تفيدني رئاسة الوزارة غير إغضاب ضميري وإرضاء ذوي المطامع وأصدقاء الجاه »[٢] .

وكان بعد أن عين وكيلاً لوزارة (الحقانية) في سنة ١٨٩٩ حريصاً على صداقة مصطفى كامل ، لا يبالي أغضب الإنجليز أم أرضاهم في هذا ، وكان يخرج من الوزارة في غالب الأيام ويعرج على صاحب (اللواء) ، ويقضي معه وقتاً طويلاً ، مع أن سواه من الموظفين كانوا لا يجرءون على مثل هذا ، وقد أشار شوقي في رثاء إسماعيل صبري إلى ذلك حيث يقول :

وينحَ الشباب وقد تخَطَّر بينهم	هل مُتِّعوا بتمسُّح وطواف
لو عاشَ قدوتهم وربُّ (لوائهم)	نَكَسَ اللواء لثابت وقّاف
فلكم سقاه الودُّ حين ودادُه	جَرَبٌ لأهل الحكم والأشراف

ولقد تأثر إسماعيل صبري بتلك الغضبة الصاخبة التي غضبها مصطفى كامل حين وقعت حادثة دنشواي ، ولكنه لم يقل حين وقوعها شيئاً وآثر الصمت ، وأغلب الظن أن صمته كان تقية منه ، وحرصاً على وظيفته ؛ لأن يد الإنجليز حينذاك كانت

(١) أحمد الزين مقدمة الديوان ص ٣٢ . ومصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ٣٩٣ .
(٢) أحمد الزين — المصدر السابق .

بطاشة قاسية . وإذا تجرأ مصطفى كامل ، ورجال السياسة على ضرب تلك اليد حتى تكف عن الأذى ، فقد كانوا في حرّية نسبية ، غير مقيدين بقيود الوظيفة ، فلما نجحوا في حملتهم على المعتمد البريطاني اللورد كرومر ، وأجبروه على الاستقالة ، وصدر العفو عن المسجونين ، انطلقت الألسنة التي أحجمت عن الكلام في إبّان المحنة ، والتي كانت تترقب الفرصة المواتية لتفصح عن الثورة المكبوتة ، والألم الدفين ، ومن هؤلاء شوقي كما عرفت ذلك آنفاً ، ومنهم كذلك إسماعيل صبري ، فقال من قصيدة يهنىء فيها (عباساً) بعيد الأضحى بعد مرور عامين على دنشواي ؛ ويذكر هذه الحادثة ويشكره على أن عفا عن المسجونين :

وأقلتَ عثرةَ عرية حكم الهوى ... في أهلها وقضى قضاء أخرقُ
إن أنَّ فيها بائس مما به ... وأرَنَّ جاوبه هناك مطوَّق
وارحمتا لجناتهم ماذا جَنَوْا ... وقضاتهم ما عاقهم أن يتقوا ؟
ما زال يقذي كلَّ عَينٍ ما رأوا ... فيها ويؤذي كلَّ سمع ما لَفَقوا
حتى حكمتَ فجاء حكمك آيةً ... للناس طيَّ صحيفة تتألق

وتراه لا يكتفي بهذا ، ولكنه يشير بعد ذلك إلى أن هذا القانون الظالم الذي طبق في هذه الحادثة ، سيظل يبعث الفزع والرعب في القلوب ، وأن ما ارتكبه من مآثم ، وما طعن به مصر من جراح لن يكفر عنها بشيء ، ولن تلتئم هذه الجراح ما دام الاحتلال قائماً وجنوده تبرق وترعد :

قانونُ (دِنْشوايَ) ذاك صحيفةٌ ... تتلى فترتاع القلوب وتخفق
هل يُرتجى صفوٌ ويهدأ خاطر ... والماء حول نصوصها يترقرق
ومضاجعُ القوم النيام أواهلٌ ... بمعذَّب يُرْدى ، وآخر يُرْهق
لن تبلغ الجرحى شفاء كاملاً ... ما دام جارحُها المهنَّد يَبْرُق

هذا كل ما قاله صبري . وكنى عن المحتل الغاصب بالجارح المهند ، ولم يصرح به ، ولا نسمع له شيئاً آخر في الإنجليز من قريب أو بعيد ، ولكننا نسمع له مقطوعات قصيرة ، في البيتين والثلاثة ، يضمنها رأيه في وزراء مصر قبل الحرب

العالمية الأولى ، بدعابة مرحَة ، كأنها صورة هزلية فكهة مما تنشره الصحف اليوم ، من ذلك قوله في مصطفى فهمي باشا الذي عرفت من أمره ما عرفتَ ، وأنه كان أحبُّ للإنجليز وأخلص لهم من أنفسهم ، فلما سقطت وزارته التي طال عليها الأمد ، وملها المصريون ، وضاقوا بها ذرعا في سنة ١٩٠٨ قال إسماعيل صبري :

عجبتُ لهم قالوا : (سقطتَ) ومن يكن ... مكانَك يأمنْ مِـن سقوط ويسلـم
فأنتَ امـرؤ ألصقتَ نفسك بالثرى ... وحرَّمتَ خوفَ الذلِّ ما لم يحرَّم
فلو أسقطوا من حيث أنت زجاجةً ... على الصخر لم تصدع ولـم تتحطم

ولما مات مصطفى كامل شقَّ عليه نعيُه ، وهو الصديق الوفي ، الذي كان يحرص على وداده ، على الرغم مما كان بينه وبين الإنجليز من عداوة سافرة ، وعلى الرغم من أن إسماعيل صبري كان موظفا في الحكومة ، فوقف على قبره ، وهو يوسَّد الثرى ينعاه ، فلم يكد ينطق بالبيت الأول من قصيدته وهو :

أداعي الأسى في مصرَ ويحك داعيا ... هددت القوى إذ قمت بالأمس ناعيا

حتى ملكته العَبْرة ، وغاب عن الوعي ، وفقدت القصيدة[1] ، ولولا قصيدته في مصطفى كامل في حفل الأربعين ما عرفنا عن شعوره إزاء هذه الكارثة شيئا ، وهذه القصيدة فيها عاطفة جياشة ، تنبىء عن لوعة صديق محزون هدَّه الحزن ، ولم يصور فيها مصطفى كامل الوطني المشتعل حماسة وثورة على قيود الرق وأغلاله ، بما يليق به ، واكتفى بذكر الشجن والأسى والحسرات لفراقه . وليس فيها من نبأٍ عن وطنية مصطفى كامل إلا إشارات عابرة ، وما عدا ذلك فهو تصوير لعظم الفجيعة :

ألا علِلاني بالتعازي وأقنِعـا ... فؤاديَ أن يرضى بهـن تعازيا
وإلا أعيناني على النَّوْحِ والبكا ... فشأنكما شأني ، وما بكما بيا
وما نافعي أن تبكيا غيرَ أنني ... أحبُّ دموعَ البِرِّ والمرءَ وافيا
أيـا مصطفى تالله نومُك رابنا ... أمثلك يرضى أن ينـام اللياليا

(١) انظر ص ٣٣ من ديوان إسماعيل صبري وكذلك ص ٢١٣ .

تكلمْ فـإن القومَ حولك أطرقوا　　وقل يـا خطيب الحي رايك عاليا

ويخيل إليك أن سيفيض في ذكر مزاياه ويتحدث بإسهاب عن وطنيته ، ولكنه يشير بعد أبيات في إيجاز شديد إلى أن مصطفى كامل كان سلاح مصر ، وكوكبها المضيء في دجنة الحوادث ، وأنها فقدت هذا السلاح وهي أحوج ما تكون إليه ، وهذا الكوكبَ وهي تتخبط في الظلماء ، ولولا ما خلفه من الأماني في نفوس مواطنيه لكان في بكائهم عليه بكاءٌ على أمانيهم •

فقدناك فقـدان الكميِّ سلاحـه　　وساري الديَّاجي كوكب القطب هاديا
وبتنا ودمعُ العين أنـدى خمائلا　　وأكثر إسعافا مـن الغيث هاميـا
ولولا تراثٌ مـن أمانيك عندنا　　كريـم بكينـا إذ بكينـا الأمانيا

وأشار كذلك إلى قوة حجته ، وعظيم دفاعه عن مصر في إيجاز :

فليتـك إذ أعييتَ كـلَّ مساجل　　قَنِعت فلـم تعي الطبيب المداويا
وليتك إذ ناضلتَ عن مصر لم تفض　　مع الحبْرِ قلباً — يعلمُ الله — غاليا

فهو لا ينطلق على سجيته ، ويخيل إليك أنه يمشي بحذر ، خائفا يترقب ، فثمة الإنجليز وثمة القصر ، وكلاهما غير راض عن مصطفى كامل ، وهو شاعر يدين للقصر بالولاء كما ينطق بذلك ديوانه الذي يَغَصُّ بقصائد المديح يزجيها في كل مناسبة للخديو ، ولكنه كان — على كل حال — أجرأ من شوقي في هذه المناسبة ، ولعل جرأته أتت من أنه كان قد اعتزل الخدمة[1] ، وأصبح لا يخشى بأس الإنجليز •

ثم تمر بمصر أحداث ، ويطوح الإنجليز بعباسٍ ، ويأتي السلطان حسين كامل بعد إعلان الحماية ، فيهنئه ولكنه كان أشد وطنية من صاحبيه حافظ وشوقي ، فلم يشر إلى الإنجليز أي إشارة ، ولم يدع الى التعاون معهم ، أو يثن عليهم ، بل اكتفى بأن هنأه ، وذكر أن الإمارة لم تزل في أهلها ، وأنهم يتناوبون العرش ماجداً بعد ماجد ، وأن أهل مصر لا يزالون على الود القديم •• إلى غير ذلك من المعاني التي تقال في مثل هذه المناسبة :

---

(١) اعتزل إسماعيل صبري الخدمة في ٢٨ من فبراير سنة ١٩٠٧ •

إن الإمارة لـم تزلْ في أهلها   شماءَ عاليـةَ القواعد والذُّرا
والتاج مقصوراً عليهـم ينتقـي   منهـم كبـيراً للعـلاء فأكبـرا
والعرش إن أخلاه منهم ماجدٌ   ذكـر الأماجد منهـم وتخيَّرا
عزى عن (العباس) أنك عمُّه   وأجلُّ من ساس الأمور ودبَّرا

ولكنه يفضل (حسيناً) بعد ذلك على (عباس) ، ويحتج لاختياره ، ولو أنه اكتفى بما قاله في البيت الأخير ، لكان خيراً له ، لأن عباساً حظي منه بمِدَحٍ شتى ، رفعه فيها إلى السِّماكين ، وكان واجب الوفاء يدعوه ألاّ يذم صاحبه الذي مدحه بالأمس ، وألاّ يدعو الناس للشكر على أن جاء حسين بدلاً منه :

والبيتُ (بيتُ محمد) قد شاده   لبنيه لـم يستثن منهـم معشرا
والعمُّ أكبـر حكمـةً ودرايةً   بالأمر لـو أن المكابرَ فكّـرا
حالٌ إذا نظـر الأريبُ جمالها   شكر الإلـه وحقّه أن يشكرا

وهذا التقلب في المديح يدل على أن الشاعر لم يكن صادقا في مديحه لعباس أو حسين ، وإنما يدل على أنه كان مع الحاكم أياً كان ، شأن معظم شعراء المديح الذين لا يصدرون في شعرهم عن عاطفة جياشة صادقة وإنما يصدرون عن مراءاة ونفاق ورغبة في الحظوة والمكانة لدى ولي الأمر أياً كان خلقه ووطنيته •

هذا هو إسماعيل صبري ، كان وطنياً صادقاً ولكن في هدوء وحذر ، يريد الإصلاح والرقي لقومه عن طريق التعليم والنهضة الصحيحة ، ويخشى التيارات السياسية المتلاطمة الأمواج ، ولا أدل على وطنيته ومنهجه من قصيدته التي يقول فيها على لسان فرعون مخاطباً مصر والمصريين محرضاً إياهم على النهوض ، تلك القصيدة التي مطلعها :

لا القوم قومي ولا الأعوان أعواني   إذا ونى يومَ تحصيل العلا واني

والتي يقول فيها :

لا تقربوا النيلَ إن لم تعملوا عملاً   فماؤه العذب لـم يُخلق لكسلان

رِدوا المجرّةَ كَدًّا دون مورده　　أو فاطلبوا غيره رِيّاً لظمآن

وسنعود إليها فيما بعد إن شاء الله .

* * *

أما محمد عبد المطلب فقد تمثلت فيه الوطنية المصرية الصحيحة ، خاض غمارها بحماسة وعنفوان وصدق ، لا يبالي بما يصيبه من جراء حماسته أو عنفوانه ، ولقد نمّى هذه الوطنية في نفسه عاملان قويان : أولا ، نشأته البدوية العربية ، في العرب إباءٌ وشمم ، وأنَفَةٌ من الظلم ، ونزعٌ إلى الحرية ، وفي البداوة الصرامة والقوة والعنفوان والصراحة ؛ والعامل الثاني نشأته الدينية وتدينه ، والإسلام يدعو إلى العزة والكرامة والسيادة . فلا بدع إذا رأينا الشيخ محمد عبد المطلب وطنيا متدفق الوطنية ، متطرفا منذ أن اشتعلت الثورة المصرية سنة ١٩١٩ .

ولكن قبل أن نعرض شعره السياسي في الثورة نعود إلى الخلف قليلاً لنرى موقفه من تركيا والإنجليز قبل الحماية وبعد أن أعلنت . لم يكن الشيخ محمد عبد المطلب تركيّ النزعة ، ولا يمت إلى الأتراك بجنس ولا نسب ، ولا مقرّبا من الأمير أو حاشيته ، ولا هو من كبار الموظفين الذين يرجون الخير من الأتراك لقباً أو منحة ، ولم يك في أوائل هذا القرن شاعراً مشهوراً ، بل كان مدرساً في إحدى قرى الصعيد ؛ ولذلك كله لا نراه يعنى بتوجيه المدائح للخليفة بتركيا ؛ ولا يشعر نحوه إلاّ كما يشعر مسْلم محب لعظمة الإسلام ، وقوة دولته . وليس لعبد المطلب في ديوانه إلا قصيدة واحدة رفعها إلى عبد الحميد بعد أن أعلن الدستور سنة ١٩٠٨ ، وعم الفرح جميع الأقطار الإسلامية ، وأمّل الناس خيراً في عبد الحميد وفي دور الخلافة ، فقد صوّر في هذه القصيدة الظلم الذي كان يَرْزح تحته الأتراك ، وكاد يودي بالدولة كلها إلى هوة سحيقة ما لها من قرار ، وذلك حيث يقول :

يا عيدُ حيٍّ وأنت خيرُ نهار　　« عبدَ الحميد » بدولة الأحرار
ملكٌ أقام على الخلافة منهمُ　　حرسا وقاها دولة الأشرار
من بعد ما كاد الزمان يحلّها　　بالجور دار مذلة وبوار
يخشى البريء ويأمن الباغي الردى　　والجارُ مأخوذٌ بجُرم الجار

عهد مضى — لا عاد — كبّل دولة الـ ... إسـلام في الأغـلال والآصـار
فرمتْ مقاتلها يـدُ الأطماع مـن ... دول كَلِفن بحـب الاستعمـار

وتراه يهنىء الطيارين التركيين حين وصولهما إلى مصر لأول عهد الناس بالطيران ، على أنهما قوة للإسلام :

طـيرَ السلام بطائر الـ ... إسلام والأسد المزيـر
يـا طائر الإسلام يهفو ... بالعـواصم والثغـور
يختال في الملكوت زهواً ... فـوق آمنـة العثير[1]
أحييتما ميتـا مـن الـ ... آمـال في قلب كبـير

إلى أن يقول :

يـا دولة الإسلام هبـي ... يـا كواكبـه أنـيري
مدّي جَناحيه على النّـ ... ـرين والشّعـرى العبور[2]
فلعـل دائـره تَجِـ ... ـدُّ عهـودُه بعـد الدثور

ويقول في انتصار الأتراك على اليونان في سقاريا ، معبراً عن الشعور الإسلامي حينذاك :

هـذا مقامك شاعر الإسلام ... فقف القريض على أجل مقام
عادت صوارمنا إلى أغمادها ... من بعد ما ظفرت بخير مرام

ويقول في حرب طرابلس التي أرادت بها إيطاليا أن تنتزع تلك الولاية العربية الإسلامية من تركيا سنة ١٩١١ ، وهبت مصر تشد أزر الترك ، وتسعف جرحى الحرب ، وترسل المال والزاد ، وكان المصريون ينظرون إلى هذه الحرب على أنها حرب ضد الإسلام ، وضد دولة الإسلام ، وأنهم طرف فيها :

---

(١) العثير : العثار والزلل .
(٢) الشعرى : الكوكب الذي يطلع في الجوزاء ، وطلوعه في شدة الحر ، ويقال له الشعرى اليمانية وتلقب بالعبور ، والنسران : كوكبان يقال لأحدهما النسر الواقع ، وللآخر النسر الطائر .

هي الهيجاء كم طحنت قروناً ... وكم صحنت حوادثها قرونا(١)

ويقول فيها مخاطباً الطليان :

خرجتم من منازلكم بغاة ... على أوطاننا تتغلبونا
غداةَ ملأتم الدنيا صياحاً ... به بين الأزقة تهتفونا
وأقلقتم ملوك الأرض لما ... برزتم تبرقون وترعدونا

ويقول مخاطباً ملوك أوربا :

بغت (روما) فلم نسمع نكيرا ... ولو شاءوا سمعنا المنكرينا
وإن نغضب ذياداً عن حياض ... لنا هدمت إذاً هم يسخطونا
ملوك الغرب ما هذا التعامي ... وما للحق بينكم مَهينا ؟
يساق ضعافنا للموت بغياً ... وأنتم تسمعون وتبصرونا

ويقول في هذه الحرب قصيدة أخرى يحرض فيها المسلمين على التطوع والجهاد مع إخوانهم أهل طرابلس :

بني أمنا أين الخميسُ المدرَّب ... وأين العوالي والحسام المذَرَّب ؟
وأين النفوس اللاء كنَّ إذا دعا ... إلى الله داعي الموتِ في الموت ترغبُ

ولكنا نراه لا يأسى حين تسقط الخلافة ، وتزول من تركيا بعد الحرب العالمية الأولى إذ انقطعت الصلة التي كانت تربط مصر بتركيا ، ولم يشعر نحوها كما كان يشعر من قبل .

ونرى عبد المطلب يثور ويغضب حين تعلن بريطانيا الحماية على مصر ، وتتعسف في تسخير المصريين لخدمة الجيوش المحتلة ، وتسوقهم كالأنعام لخدمة جيوشهم المحاربة ، وتصادر أرزاقهم ، وتحكمهم بيدٍ غليظة آثمة ؛ كان صريحاً عنيفاً ، لم يخش بأساً ، ولا عنتاً وكان هو الصوت الأدبي المدوي الذي ثار وغضب ، فمن ذلك قوله مشيراً إلى من تفتهم سلطة الاحتلال :

---

(١) صحنت : دقت .

وما ملّهم فيها ثـواء" وإنما نجوا بالنّوى من ظلم أرعن أحمق
يناديه فينا قائد الجيش قومُه وما قادهم إلاّ إلى شر مأزق
تعسف بالأحكام غير موفق وما ظالم في حكمه بموفّق
فكم ساق من مصر إلى الموت فتيةً زهاها الصِّبا في عنفوان ورِّيق
جموع كأرجال النّعام تلفها يدُ القهر للآجال من كل مَنْعَق
له عُصَب" في غورها وصعيدها تَخَيَّرُ أبناء الشباب وتنتقي
ومَن لم‌يسقه السوط والسيف‌ساقه إلى حيث شاءوا جهدُ عيش مرمِّق
ففي كل بيت صوت ثكلى مِرنَّة وتحنان باكٍ بالأسى متمنطق

ويقول منها في الحماية :

دَجتْ يومَ إعلان الحماية شمسُه فيا لك من يوم على مصرَ أورق[1]
به لقحت سودُ الليالي فليته قضى في بطون الغيب لم يتخلق

ويقول في المحتل الغاصب وسيرته بمصر :

يرى نفسه فوق القوانين بيننا متى ما نذكره القوانين يحنق
يبيح غداً ما حرّم اليوم بالهوى لغير الهوى في حكمه لم يوفّق
إلاهة جبّار وإمرة خاطل وتدبير أعمى في الحكومة أحمق
يقرب خواناً ويرفع جاهلا ويسعد أشقاها ويشقي بها التقي
إذا ما مضى هذا أتى ذاك بعده على النهج لم يعدل ولم يترفق

وهي قصيدة كل بيت فيها ينطق عن شعور منتقد ، وصراحة تامة في كشف عورات الإنجليز وسوءاتهم ، وسوء سيرتهم بمصر ، وما لاقت على أيديهم من الذلة والمهانة والجهل :

وبالعلم سل (دنلوبهم) لِم لَمْ يدع ذَواقاً من العرفان للمتذوق

---

(١) الاورق : ما كان في لون الرماد .

وأغلب الظن أنه لم ينشرها غِبّ إعلان الحماية ، لأنها اشتملت على حوادث الحرب كلها حتى انتهت ، وربما كان قد بدأها يوم إعلان الحماية ، وساير بها حوادث الحرب حتى وضعت أوزارها • وثمة قصيدة أخرى قالها حين نفت سلطة الاحتلال أعضاء الوفد المصري وعلى رأسهم سعد زغلول • وهي تدل على جرأة وبأس لم يتأتيا لشاعر مصري قبله ، قيلت والثورة المصرية في عنفوانها ، لتزيدها ضراما ، وتؤجج في كل نفس ناراً وسخطاً على المحتل الذميم الذي تنكر لمصر بعد أن ساعدته على انتصاره ، وسخر كل شيء فيها من مال ورجال ليحرز هذا النصر • ولكن لا عجب فهذا شأن الإنجليز دائماً ، وما وعودهم في خلال الحرب العالمية الثانية لمصر وغيرها من البلاد التي رُزئت بهم ببعيدة عنا، فلما انتصروا أنكروا وعودهم وعاودهم جشعهم الاستعماري ، ولم تتخلص مصر من بلائهم إلاّ بعد أن أرغموا على ذلك إرغاماً • بيد أنا لم نجد بعد الحرب العالمية الثانية شاعراً مثل عبد المطلب يذكرهم بوعودهم ، وبما قدمت مصر لهم من خدمات ، حيث يقول :

أيهـا السائرون بالوفد مهلا … خبرونا عـن وفدنا أين ولّى
مرّ عهدُ الهوان لا عاد عهدٌ … كان و يـلا على البلاد وخبْـلا
مرّ عهدُ الهوان كم جرّ فيه … أهل مصرٍ بالضيم قيداً وغلاّ

ويقول فيها مخاطباً اللورد َألنبي :

أيهـا القائـد المـدل علينـا … قاتلَ الله مَـنْ علينـا أدَلاّ
ما لمصر تـُجزى جزاء سِنِـمّا … رَ لديكـم وبالدنيـة تـُبلـى
وأراكم لـولا بنيهـا شـُقيتمْ … مـن حياض المنون عَلاّ ونَهلا
سائلوا الشامَ هـل بغـير بنينا … جبتم الوعرَ مـن فلسطين سهلا
أو مددتـم بغـير أبنـاء مصرٍ … في بـلاد العراق للفوز حبـلا
أنسيتم في مصر مـا منحتكـم … من هبات ما جاوزت بعدُ حولا
أم نسيتـم أبناءها يفتـك المو … ت بهـم في الوغى وبـاءً وقتلا

إلى آخر هذا الشعر العلوي الذي لم نسمع مثله من حافظ ، أو شوقي ، أو

صبري أو غيرهم من شعراء ذلك الجيل ، الذين عاصروا الثورة ، ورأوا حماسة الأمة الفياضة ، وآمالها العريضة تحثهم على الجهاد والموت •

وظل عبد المطلب على صراحته تلك طوال الثورة ، فإذا اشتد الإنجليز ، وطغوا ، وأحكموا الرقابة على القول والنشر ، احتال للتعبير عن آماله وعن شعوره الوطني ، بالرمز كقصيدته على لسان عصفور في قفص[١] وغيرها من القصائد ، وإذا عاد (سعد) من المنفى استقبله بقصيدة وطنية رائعة • ويموت محمد فريد[٢] فيرثيه رثاء الوطني الحزين الذي يعرف فضله على القضية المصرية ، وأنه كان في الرعيل الأول من المجاهدين الذين صَلوا بنار الاحتلال ، وضحوا بالأموال ، وبالراحة والأمن في ظلال الوطن ، وآثروا النفي والغربة في سبيل مبدئهم •

ما أنكرتْ مصرُ ابنها فَنَبَتْ به ... ولكنه دَهرٌ على الحر يَجْنِفُ

ويقول معبراً عن شعور (فريد) حين فارق مصر :

حرامٌ علينا أرضها وسماؤها ... أليّةَ من لا يمتري حين يحلف

ويا فلك باسم الله مجراك أقلعي ... فإما الردى أو ينصف النيلَ منصف

ويقول عن جهاده :

عرفنا له برَّ الوفيِّ بعهدها ... إذا خان قومٌ عهدَ مصرَ فلم يفوا

أفاض عليها نفسه بعد ماله ... وما بهم عنها متاعٌ وزُخرف

ويقول حين اعتدى الجنود الإنجليز على قرية العزيزية[٣] ومثلوا بأهلها تمثيلاً

(١) ص ١٣٠ من الديوان •

(٢) توفي المرحوم محمد فريد في ١٥ من نوفمبر ١٩١٩ وهو في منفاه ببرلين وقد ظل في المنفى سبع سنوات يكافح في سبيل مصر ، ويعاني الأمراض والفاقة وبود أن تكتحل مقلتاه برؤيتها ، ولكن لم يسعفه الأجل •

(٣) انقض نحو مائتي جندي بريطاني في يوم ٢٥ من مارس سنة ١٩١٩ على بلدتي العزيزية والبدرشين ، وطلبوا من الأهالي جميعاً نزع أسلحتهم ، وأضرموا النار بعد ذلك في القريتين ، واعتدوا على عفاف النساء وقتلوا كثيراً من الأهالي — راجع ثورة ١٩١٩ لعبد الرحمن الرافعي ص ١٩٤ وما بعدها •

شنيعاً وساقوهم رجالاً ونساءً إلى العراء ، وأضرموا النار في القرية وعبثوا بشرف النساء ، وقتلوا كثيراً من الرجال :

يا مصرُ ما بالُ الأسى لكِ حالا ... لـو أنَّ مفجوعـاً يـردُّ سؤالا
ما عهدُ ولنسُن،أين ولسن؟،هل درى ... أنـا بمصر نكابـد الأهـوالا ؟
أمـن العدالة عنـده أن يُبتلى ... شعبٌ يريـد بأرضـه استقلالا ؟
مـا بـال أبنـاء الحضارة أوغلوا ... في أرض مصر نكايـةً ونكـالا

إلى أن يقول واصفاً تلك البشائع :

مـا لي أقلب ناظريَّ فلا أرى ... في مصر غـير نـوادب وثكالى
ودمٍ يعـز علـى أبيـه مسيله ... عبث بـه أيـدٍ هناك فسالا
وعزيز قوم في الحديد مصفّدٍ ... سيـمَ الهوان وحمِّل الأثقالا
يسعى إلـى دار الإسار وحوله ... نـذر المنايـا بندقا ونصـالا
ولرُبَّ وجـه بالجمال عرفتـه ... لـم تبق فيـه الحادثات جمالا
تلك العقائل يرتمين مـع الظبّا ... مستقبلاتٍ للـردى استقبـالا
وأرى ابن (لندن) نحوهن مصوبا ... بيـض الظبـا متوثبـاً مختالا
وارحمتـاه لقريـة مفجوعـة ... والليل يرخـي فوقهـا أسدالا
محزونة خبـأ القضـاء لأهلهـا ... تحت الظـلال وقيعة ونكـالا
مـن غادة غـال البغاء عفافها ... فبكـى الحجاب عفافهـا المغتالا

وهي قصيدة طويلة تصور أبياتها في إتقان بارع ، وعبارات تثير العبرة ، وتجلب الشجن هذه الحوادث المفجعة ، وتصرخ بالظلم ، وتنطق بآيات الوطنية ، وتحض على الثورة في جرأة وصراحة حتى ينكشف هذا الكابوس ، وينجلي ذاك البلاء .

ولم يترك عبد المطلب أي حادثة من حوادث الثورة من غير قصيدة رنانة يترجم فيها عن شعور الشعب ، ويشجعه على الجهاد . ولا نراه يصمت بعد أن تهدأ الثورة

قليلا ، ويؤلف وفد المفاوضات ، بل يترقب المصير ، ويخشى أن يعصف دهاء الإنجليز بما ضحى الثوّار من أجله ، فإذا عاد عدلي يكن من مفاوضاته مخفقاً ، لم يلن لمكر الإنجليز وخبثهم ويفرط في حقوق البلاد ، أقام الناس حفلا يكرمونه على تمسكه بحقوق مصر وسارع عبد المطلب ينظم قصيدة يثبت بها القلوب القلقة ، ويؤيد بها تمسك البلاد بحقها الكامل ، وأنشدها في الحفل مهنئاً عدلي على موقفه هذا ، وفيها يقول :

زعمـــوا سفاها أن وحدتنـــا ... أمست حديثاً في الورى كذبا
لا : والدمِ الغالي تسيل به ... فـــوق التراب أسنة" وظبـــا
لا ، واتحاد الأمتين[1] جرى ... بـــين الممالـــك آيـــة عجبـــا
لا ، والحسانِ البيض حاسرة ... والموت يحجّل حولها شُعبًا
لا ، والشباب النضر في لجبٍ ... يستعذب التعذيب والعطبـــا
ما إن أصاب بني أبي وَهَن" ... إن المفـــرّق بيننـــا كذبـــا
أبنـــاء مصر جميعهم بطـــل" ... نَدْب" لنصر بـــلاده انتدبـــا

وقال بعد ذلك في الدستور ، وأول اجتماع لنواب الأمة ، وفي مقتل السردار ، وفي الاعتداء على سعد زغلول ، وفي استقالة وزارة سعد عقب مقتل السردار ، وفي غير ذلك من المناسبات الوطنية العديدة . وكل شعره الوطني يرمي إلى الاستمرار في الجهاد ، ووحدة صفوف الأمة ، ومناوأة الإنجليز في شدة وصرامة حتى تنال حقوقها كاملة . وله نشيد وطني قوي يتقد حماسة .

ومثل هذه النغمات العلوية لم يجرؤ سواه من شعراء طبقته على ترديدها إلا محرم والكاشف . وعبد المطلب[2] يقف بينهم متميزاً في هذا الميدان ، وقد شغل الشعر السياسي جزءاً غير قليل من ديوانه وكان به لسان الشعب المجاهد ، والمعبر عن آلامه وآماله في صراحة وقوة وجزالة .

---

(١) يقصد الوحدة بين الاقباط والمسلمين .
(٢) انظر ص ٢٨٠ من ديوان عبد المطلب .

أما خليل مطران فقد اتخذ مصر دار إقامة منذ سنة ١٨٩٢[1] ، وقد كانت مصر تتمتع بشيء من الحرية الصحفية في تلك الحقبة ، على نحو ما ذكرنا آنفاً ، وقد هاجر إليها كثير من أحرار السوريين الذين فروا من الجو الخانق المخيم على شتى الولايات العثمانية ، ويجثم فوقه شبح الاستبداد الحميدي • وقد كان هؤلاء المهاجرون فريقين ، منهم من يدعو إلى الجامعة الإسلامية ، ويبغي الإصلاح لتركيا حتى تنهض البلاد العربية التابعة لها ، وتساير موكب الزمن ، وكان أكثر هؤلاء من المسلمين ، وقليل من المسيحيين ، ومنهم من أظهر بالغ سخطه على الاستبداد الحميدي ، ومصادرة الحريات ، ومقاومة النزعات الاستقلالية في البلاد ؛ وأغلب هؤلاء من السوريين والمسيحيين[2] •

ولكن مصر كما علمت فيما سبق كانت تشايع تركيا ، ولا تدعو إلى الانفصال عنها لأسباب عدة ذكرناها في موضعها ، ولذلك كان الاتجاه العام حتى بين السوريين أنفسهم هو عدم تحدي الشعور المصري • وكان خليل مطران من أولئك الذين اضطروا إلى مغادرة بلادهم هربا بحريتهم ، وعاش في فرنسا رَدَحا من الزمن ، ولكنه وجد عنتا من الفرنسيين بتحريض سفير تركيا ، ووقف متردداً بين النزوح إلى الغرب إلى (شيلي) أو الرجوع إلى الشرق ، وفيه مصر مباءة الأحرار ، ومثواهم الأمين • وقد تغلب حبه للعمل في ميدان الإصلاح فآثر الهجرة إلى مصر واتخذها دار إقامة ، وشارك في تحرير الأهرام • وقد دلت كتاباته الصحفية ، وقصائده التي قالها في تلك الحقبة على أنه لم يكن من الثائرين ضد تركيا الداعين إلى الانفصال عنها ، وإنما كان يرجو لها الخير والإصلاح ، وكان يدعو إلى الجامعة العثمانية مع الداعين ، وهو يقول من قصيدته (فتاة الجبل الأسود) :

طغت أمـةُ الجبل الأسود   علـى حكم فاتحها الأيّد

فيها ويقول :

وما الترك إلا شيوخ الحرو   ب ومرتضعوها مـن المولد

---

(١) راجع الدكتور إسماعيل ادهم ـ خليل مطران ص ٦٨ وهو تصحيح لما قيل من ان مبدا دخوله مصر كان سنة ١٨٩٧ كما ذكرنا في كتاب الادب الحديث جـ ١ ص ٣٦٧ ط سادسة •

(٢) راجع انيس المقدسي « العوامل الفعالة في الادب الحديث » •

إذا ألقحوهــا الدمــاء فــلا تتاج سوى الفخر والسؤدَد
سواء على المجد أيّاً تكــن عــواقبُ إقدامهــم تمجــد

وقد فرح كما فرح المسلمون قاطبة بإعلان الدستور العثماني ، وأنشد في حفل أقيم بفندق (شبرد) ابتهاجا بهذا الحادث الذي كان يعد عظيما حينذاك ، والذي رأيت أن شعراء مصر وغير مصر قد هللوا له وكبروا ، وأثنوا على عبد الحميد الطاغية ، لأنه منح قومة الحرية ، وهم جند الخلافة والذادة عن حماها ، فقال مطران مع القائلين :

يآيها ذا الوطــنُ المفــدّى تلَــقّ بشرا وتملّ السعدا
يا عيد ذَكّرْ من تناسى أننا لم نك من آبقة العِبِدّى(١)
كنا على الأصفاد أحراراً سوى أن الرزايــا ألزمتنــا حــدا

وقال من قصيدة أخرى ، يصف فيها كيف تم هذا الانقلاب ، وكيف جاهد أحرار تركيا حتى قضوا على عهد الاستبداد ، وما شعور النازحين من ديارهم هرباً بحريتهم يوم أعلن الدستور ، إلى غير ذلك من المعاني التي أوحى بها هذا الحادث :

حُييتِ خــير تحيــة يــا أخت شمس البريه
حييت يــا حريــه
الشمس لــلأشبــاح وأنــت لــلأرواح
كالشمس يــا حريــه
كوني لنــا عهد سعدٍ وعصر فخــر ومجــد
يــدوم يــا حريــه

ويقول عن المهاجرين الذين فروا من الاضطهاد التركي :

---

(١) العبدى : العبيد .

مـنْ الجيـاع الظّماءْ   ألقتهـم الـدأمـاء
في كـل أرض قصيّه
أشتات جـاه ومجـد   ضمّوا لأشرف قصـد
قـامت بـه عصبيـه

ويقول مخاطباً عبد الحميد :

عبـد الحميـد أصبتا   بمـا إليـه أجبتـا
بنيـك مـن أمنيَّـه
لا ضـير فيهـا عليكا   والخـير منهـا إليكـا
يعـود قبـل الرعيـه
ما شارك المَلْكُ أمهْ   في الحكـم إلا أتمّه
بحكمـة ورويـه

وقد تألم العرب بعامة ، والمسلمون بخاصة ، حين اعتدى الطليان على طرابلس المسكينة وأرادوا انتزاعها من يد الدولة العثمانية ، وتصدى لها جنود الأتراك ، وهبَّ الناس في كل قطر اسلامي يدعون لمساعدتهم ، وإغاثة الجرحى وإسعافهم ، فقال داعياً الى إغاثة أهل طرابلس ، مصورا ما وصلوا إليه من البؤس والفاقة ، وما ذاقوه من حَرِّ الحرب ، وما ارتكبه الطليان من فظائع :

وارحمتاه لقـوم فارقـوا النّعما   من غير ذنب لهم واستقبلوا النّقَما
لـولا بشاشـةُ إيمـان تثبتهـم   تخيروا دون تلك العيشة العَدَما
مـا حالُ أم لهـا طفـل بجانبها   غـيرَ المدامع في يوميه مـا طَعما
ورُضّع وجدوا الأثـداءَ لاذعةً   كالجمر فانفطموا واستنكروا الحَلما
وغانياتٍ أباحتهـا الخطوبُ فلـو   لم تعصم النفسُ ساء الفقر معتَصَما

ويقول في تلك الحرب كذلك ، عاتبا على المتقاعسين عن نصرة تركيا ونصرة أهل طرابلس :

صدقت في عتبكم أو يصدقَ الشّممُ — لا المجدُ دَعْوى ولا آياته كَلِمُ
يـا أمتـي حسبُنا بـالله سخريةً — منا ، ومما تقاضَى اهلَها الذِّمَمُ
إن كان مـن نجدةٍ فينا تَفجّعُنا — فليكفنا ذُلّنـا ، وليشفنا السقَمُ
لا تنكروا عَذلي هـذا فمعذرتي — جـرحٌ بقلبـيَ دامٍ ليس يلتئـم
نحـن الذين أبحنا الراصدين لنـا — حمىً بـه كانت العِقبان تعتصم

وفيها يقول محييا الترك وشجاعتهم :

أبناءُ (عثمان) حُفّاظٌ وقد عهدوا — تاريخ (عثمانَ) فيه الفتح والعِظَمُ
هم الحماةُ لأَعْلاق الجدود فلـن — يَرْضوا بأن يَنْتَثرَ العقد الذي نظموا

أما موقفه حيال الاستعمار الإنجليزي ، والأحزاب المصرية قبل الحرب الأولى ، فقد كان من أول الأمر حَذِراً ، يقف موقف الحيدة ، خشية أن يميل به الرأي إلى جهة ما ، فيتهم بمناصرتها ، وقد اتخذ هذا الموقف لأنه كان يشعر بأنه دخيل في المحيط المصري(١) ، هذا الى محبته للعزلة وإيثاره لها . وقد تجلى هذا الحياد في المقالات العديدة التي كان ينشرها في الأهرام ، على أنه ما لبث أن خاض غمار السياسة المصرية ، ومال مع الحزب الوطني ، وناصر مصطفى كامل بقلمه ؛ ولا شك أنه ما قال في الترك ما قال ، ولا سيما قصائده في حرب طرابلس ، وفي الدستور العثماني ، إلا وهو متأثر بسياسة الحزب الوطني ، مع ما كان له من فكرة سابقة وجهاد قديم في سبيل الجامعة الإسلامية . ونلاحظ أنه لم يمدح عبد الحميد ، ويرفع إليه التهاني في الأعياد وغيرها ، كما كان يفعل سواه من الشعراء ، ولم يكن من المنتظر من مثل مطران ، وهو الذي ترك وطنه هربا من الاضطهاد الحميدي ، ولجأ إلى مصر ليتمتع بحرية الفكر أن يمدح عبد الحميد الطاغية ، بل إن له قصائد رمزية حمل فيها على عبد الحميد الطاغية مثل قصيدة مقتل (بزرجمهر(٢)) ، والتي

---

(١) راجع مطران للدكتور إسماعيل أدهم ص ٧٤ .
(٢) الديوان ج ١ ص ١٢٠ ، وراجع روكسي زايد العزيزي في المجلة الجديدة : م ٦ ج ٥ ص ٣٨ — ٤٠ في (مطران والوطنية) .

يقدم لها بقوله : « اشتهر كسرى بالعدل وكان بلا نزاع أعدل ما يكون الملك المطلق في أحكام بلاده ، فإن كان ما وصفناه في هذه القصيدة إحدى جنايات مثله في العادلين ، فما حال الملوك الظالمين ؟ » •

ونلاحظ أنه في الفترة التي سبقت اتصاله بالحزب الوطني كان ولا شك يغالب شعوره نحو الإنجليز ، فقد وجد أن مصر في ذلك العهد تتمتع بحرية لم يجدها في الشام ، وأن كرومر قد منح الصحافة شيئاً من هذه الحرية ، ولكنه كما ذكرنا كان يخشى أن يجاري بعض المهاجرين من أبناء وطنه في ميولهم الإنجليزية كأصحاب المقطم مثلا ، فيتهم بالميل لحزب من الأحزاب ، ولذلك لا تجد له شعراً في كرومر ، أو في مدح السياسة الإنجليزية بمصر ، وإنما قد انتهز فرصة وفاة الملكة فيكتوريا[١] فرثاها بقصيدة أثنى فيها ثناء جما على أبناء التاميز ، وأشاد بقوتهم وعظمتهم كما رثاها حافظ إبراهيم حين كان متأثراً بسياسة أستاذه الشيخ محمد عبده[٢] • وفي تلك القصيدة يقول مطران[٣] :

بَنوكِ فروع للعلى وأصول ... وملكك ما للشمس عنه أفول
وسعدكِ في الأمثال سار ولم يكن ... له في سعود المالكين مثيل

ويظهر أن طبيعة مطران كانت ميالة إلى الوطنية الصادقة ، ولا شك أن مصر والشام كانتا في حالتين متشابهتين في جهاد كل منهما في سبيل الحرية ، فكان يجد في الوطنية المصرية صدىً لما في نفسه من نزعة للحرية ومتنفَّساً لآمال كُبتت يوماً ما ، وقد وجد في مصطفى كامل زعيما قوياً ، ومجاهداً صادق الجهاد ، لا يدخر مالا ، أو شباباً ، أو حياةً في سبيل مبدئه ، فناصره ، فنجد له قصيدة قالها في افتتاح مدرسة مصطفى كامل وقد تحولت إلى كلية[٤] ، ولما مات مصطفى كامل رثاه مطران• وقد قدم لقصيدته في رثائه حين نشرها بالديوان في الطبعة الأولى بقوله : « مصاب الشرق في رجله المفرد ، وبطله الأوحد ، مصطفى باشا كامل ، أيتها الروح العزيزة ،

(١) هي الكسندرينا بنت إدوارد ، ولدت سنة ١٨١٩ ، تولت عرش إنجلترا في سنة ١٨٣٧ وتوفيت سنة ١٩٠١ •
(٢) راجع ديوان حافظ الجزء الثاني ص ١٣٦ •
(٣) ديوان مطران جـ ١ ص ١٣٢ •
(٤) راجع الديوان جـ ٣ ص ٢٧ •

إن في هذا الديوان الذي اختتمه برثائك ، نفحات من نعمائك ، ودعوات من دعواتك، فإلى هيكلك المدفون بالتكريم ، تحية الأخ المخلص للأخ الحميم ، ووداع المجاهد المنطوع للقائد العظيم » .

وهي قصيدة جمعت معاني جمة ، فمن إظهار لما بلغه المصاب من نفوس المصريين بخاصة والشرقيين بعامة ، لفقدهم هذا الأمل المرَجّى ، والصوت الذي أتى بعد أن رَجَف المرجفون بأن بلاد العروبة والإسلام تغط غطيطا عميقاً ، ولا تهفو إلى الحرية فدوى في الخافقين ، وإشادة بعظمة الإسلام ، وأنه دين الحضارة والعزة، وأن دفاع مصطفى عنه كان دفاعاً حقاً عن دينٍ أهلٍ للسيادة ، وأن مثل مطران في نضج عقله لا يسعه إلا أن ينبري للدفاع عنه :

ولَعلّ حُراً لا يدين به انبرى ليذودَ عنه خَصْمه المتعسفا
قد كان للإسلام عهد باهر نلنا به هذا الرقي مُسّلفا
ملأ البلاد إنارة وحضارة ومُنى السّماحةِ عوْدُه مُستأنفا

ويذكر فيها جهاد مصطفى في سبيل مصر ، ويبين مواقفه الخالدات الباهرات :

مصرُ العزيزة قد ذكرتُ لك اسمها وأرى ترابك من حنينٍ قد هفا
وكأنني بالقبر أصبح مِنبراً وكأنني بك موشك أن تهتفا
مصرُ التي لم تحظ من نجبائها بأعزّ منك ، ولم تَعِزّ بأحصفا
مصرُ التي لم تبغ إلا نفعها في الحالتين ملايناً ومُعَنّفا
مصرُ التي غسلت يداك جراحَها بصبيب دمعك جاريا مُستنزفا
مصرُ التي كافحتَ لَدّ عِداتها متصدرا لرماتها مستهدِفا
مصرُ التي سقت الجيوش مناقبا ومُنى لتكفيها المغير المجحفا
مصرُ التي أحببتها الحب الذي بلغ الفداء نزاهة وتعففا

ثم يشيد بخلق مصطفى كامل ، وقوة قلمه محرراً في صحفه العديدة ، وبقوة لَسَنِه ، وشدة عارضته ، حين يحاجُّ خصوم مصر ، ويفحمهم بالأدلة المقنعة ، والبراهين الساطعة ، بحرارة إيمانه ، وقوة يقينه .

تحيي حرارتها ويهدي نورها متماهل الإشراق أو متخطّفا
تالله مــا أنت الخطيب وإنما وقف القضاء من المنصة موقفا
عن نطقه تقع الصروف مواعظا وكأمره أمر الزمان مُصَرَّفا

إلى غير ذلك من المعاني الجليلة ؛ ولا ينسى الغرس الذي وضعه مصطفى بيده في تربة مصر ، وتعهده حتى نمّاه وكيف يجب على خلفائه من بعده ، بل على المصريين أجمعين أن يحافظوا عليه حتى يؤتي أكله طيبا ، ألا وهو حرية مصر كاملة .

وقد ظل خليل مطران على تعاقب السنين يحفظ عهد مصطفى كامل ، ويشيد بذكراه.وله في سنة ١٩٣٣ قصيدة ألقاها في ذكرى مرور عام على وفاة حافظ إبراهيم، ضمنها وصفا رائعاً للنهضة القومية ، التي كونت حافظاً ، وكيف أن هذه النهضة هي عرش مصطفى كامل وكيف تعهدها بجهاده إلى أن مات ، وبموته كانت الآية التي تم بها استقرارها[1] ، وفيها يقول عن حافظ معللا نبوغه في الوطنيات :

مــا تجلــى نبوغــه كتجليه وقــد هــب مصطفى للجهاد
يــوم نادى الفتى العظيم فلبى من نبــا قبله بصوت المنادي[2]
ووری ذلــك الشعور الذي كا ن كمينــا كالنار تحــت الرماد

يتجلى هذا الشعور كذلك في مراثيه لرجال الحزب الوطني فيرثي محمد أبو شادي وبنوه بجهادهما معا في سبيل مصر ، وما لاقيا من عنت وإرهاق :

زمانٌ قضينا المجدَ فيــه حقوقَه ولم نله عــن لهو ورشف رضاب
محضنا به مصر الهوى لا تشوبُه شوائبُ مــن سؤْلٍ لنا وطِلاب
فَدَاها ولم يكرِثْه أنْ جار حكمها فَــذل مُحاميها وعَــزّ محــاب
فكمْ وقفة إذ ذاكَ والموت دُونها وقفنا ، ومــا نَلوي اتقــاءَ عقاب

(١) مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ص ٣٦٦ .
(٢) نبا : تباعد وتجافى .

وكم كرة في الصّحف والسوطُ مرهقٌ كررنا وما نرتاض غير صِعَاب

ويرثي الشيخ عبد العزيز جاويش فيزفر زفرة حارة ، ويبكي زمن الجهاد ، والأيام التي صحب فيها هؤلاء الكرام الأعزة فيقول :

طيبوا قراراً أيها الأعلام وعلى ثراكم رحمةٌ وسلام
مصرُ التي متم فداها أصبحت وكأنما فيها السرور حرام
ذهبَ الأعزةُ (مصطفى) ورفاقه ما كاد يخلو من شهيد عام

ويرثي علي فهمي كامل[١] ، ويرثي أمين الرفعي[٢] ، ومحمد فريد[٣] ، وغيرهم من أعلام الحزب الوطني ، بل يؤيد الأحياء منهم في المعارك السياسية ، بعد إعلان الدستور ، وها هو ذا يؤيد الأستاذ محمد محمود جلال من رجال الحزب الوطني في حملة انتخابية ، ولم يؤيد سواه .

يا من حمدت به اختيا ري في اختباري للصحاب

وهكذا يظهر مطران في شتى المناسبات وفاءه للحزب الوطني ورجاله ، ولعل هذا ناشيء من أن عهد جهاده مع الحزب الوطني كان في أيام الشباب ، وهي عزيزة الذكريات ، ومن أنه وجد فيه تطرفا في الوطنية يشبع نهم نفسه التي حرمت الجهاد في موطنها الأصلي .

وقد أكرمت مصرُ مطران ، واحتفت به ، وآثره الخديو عباس بعد وفاة مصطفى كامل بالعناية والرعاية ، فساعده في شغل منصب الأمين المساعد بالجمعية الزراعية بعد أن أفلس على أثر مضاربات في السوق المالية ، وشكا حاله في شعره ، وأنعم عليه بالوسام المجيدي الثالث في أغسطس سنة ١٩١٢[٤] ، وقد أوعز إلى إسماعيل (باشا) أباظة الذي اشتهر بأدبه ، في أن يوحي للأدباء المصريين والسوريين

---

(١) الديوان جـ ٣ ص ٢٠١ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٨٥ .
(٣) الديوان الجزء الثاني ٢٣٣ .
(٤) مجلة سركيس سنة ١٩١٣ ص ٢١١ .

بإقامة حفل يكرمون فيه مطران، وقد أقيم هذا الحفل في إبريل سنة ١٩١٣ تحت رعاية الخديو عباس ، وناب عنه فيه الأمير (السابق) محمد علي ، وأثنى على مطران ثناء جماً[١] ، وأغدق عليه الشعراء المصريون المشهورون جليل الثناء ، فكرمه شوقي وحافظ وإسماعيل صبري وأحمد نسيم وغيرهم ، ومما قاله الأمير (السابق) محمد علي في حديث له[٢] . « قد عرفتُ مطران من عهد والدي حتى الآن ، فرأيته امتاز بانصرافه كلَّ هذا الزمان إلى المحافظة على خطة ولاء مستقيمة لم يحد عنها كل حياته القلمية في مصر ، وهذا الثبات على المبادىء والإخلاص الدائم لمصر والمصريين هو فضيلة يجب اعتبارها وإكرام المتحلي بها » .

وقد كان لعطف عباس عليه أثر في شعره فمدحه بأكثر من قصيدة[٣] ، ولكنه بعد أن خلع عن العرش لم يذكره مطران بكلمة خشية سلطة الاحتلال . وقد مرَّت فترة الحرب العالمية الأولى ، وما عانته مصر في خلالها من عسف وظلم ، وهو صامت لا يتكلم ، فلما اضطرمت نار الثورة المصرية ، وظهرت على مسرح السياسة وجوه جديدة ، خصَّ منها بالمحبة والثناء سعد زغلول ، وإن لم يكن له في الثورة وحوادثها الدامية ، وظلم المحتل الغشوم وجبروته أي كلمة ، وأول صوت نسمعه له هو تحية (سعد) حين عودته من سيشل[٤] بقصيدته التي مطلعها :

خفقتْ لطلعة وجهك الأعلام ومشتْ تحيط بركبك الأعلام[٥]

ولكنه يقف بعد ذلك من الحوادث المصرية موقفه الأول ، وهو الحياد ، والترقب ، لأن ثمة أحزاباً ، وانشقاقاً في الصفوف ، ويخشى أن يتهم بالميل لهذا الحزب أو ذاك فيجني عليه هذا الاتهام ، والحزبية في مصر قاسية لا تغفر للمرء حسن ماضيه ، وعظيم بلائه في سبيل بلاده ؛ وتراه يرثي زعماء الأحزاب قاطبة : ثروت ، وعدلي ، وسعد ، ولا يقول إلا في الأمور الوطنية العامة كتمثال نهضة مصر ، وعيد

---

(١) مجلة سركيس ١٩١٣ عدد خاص من مطران .

(٢) مجلة سركيس ١٩١٣ ص ٢٠٧ .

(٣) الديوان ج ١ ص ٤٤ ، ٧٧ ، ج ٢ ص ٨٦ ، ١٠٥ ، ١٤٢ .

(٤) نفي سعد وصحبه إلى جزر سيشل في ٢٩ من ديسمبر سنة ١٩٢١ وعاد من المنفى في ١٧ من سبتمبر سنة ١٩٢٣ .

(٥) الأعلام الأولى : الرايات ، والثانية : كبراء الأمة .

الجلاء ، وتمثال سعد ، وتمثال مصطفى كامل وما شابهها ، وانصرف إلى العمل في خدمة المسرح المصري ، مديراً للفرقة القومية ، وعكف على قول الشعر الخالد •

وثمة شاعر آخر يمثل لوناً في السياسة والشعر غير ألوان هؤلاء الذين ذكرناهم ، وهو ولي الدين يكن ، أهمله مؤرخو الأدب والنقاد المصريون ، فلا يعرف عنه الناس إلا قليلا ؛ وذلك لأنه لم يكن ذلك الوطني المصري المخلص ، بل كان من حزب الاحتلال ، ورجال كرومر •

وكان ولي الدين في أول أمره من دعاة الجامعة الإسلامية ، وممن يعنى بشئون تركيا ، أكثر من عنايته بشئون مصر ، ويدعو لتأييد حكومتها ، ويدافع عن عبد الحميد ورجاله • ولما رحل إلى تركيا فيما بين عامي ١٨٩٥ ، ١٨٩٦ ، وأقام بها ثمانية أشهر غمره فيها عبد الحميد بعطفه ورضاه ، وأنعم عليه بالمرتبة الثانية ، ولكنه شاهد في أثناء مقامه الفساد الذي عم الأداة الحكومية التركية ، والعسف والاضطهاد للأحرار ، والوشاية ، والرشوة ، فرجع إلى مصر حانقا ساخطاً على هذا الفساد ، داعياً إلى الإصلاح ، وأنشأ جريدة الاستقامة في سنة ١٨٩٧ ، وجعلها اللسان المعبر للأحرار المهاجرين إلى مصر والذين تمتلىء قلوبهم غيظاً وموجدة على ما لاقوا وما تلاقي أوطانهم من ظلم عبد الحميد ، وعدوان رجاله ، فمنعتها الحكومة التركية بعد قليل من دخول ولاياتها ، وصار يكتب في جريدة المشير(١) والمقطم والقانون الأساسي(٢) •

وكان عبد الحميد يجد كل الجد في استرضاء هؤلاء الثائرين ، ويعدهم الوعود الخلابة ، ويمنيهم بتحقيق الإصلاح المنشود وإعلان الدستور • فدعا إليه ولي الدين فيمن دعا ، فسافر إلى الآستانة سنة ١٨٩٨ ، وعين في مجلس المعارف الأعلى ، ولكن ما لبث أن سئم تلك الحياة الفاسدة ، فكان على خصام دائم مع رجال الحكومة ، وأخذ يطعن عليهم جميعاً في الصحف الأجنبية فنفي إلى (سيواس) بالأناضول ، وظل في منفاه إلى أن أعلن الدستور سنة ١٩٠٨ فعفي عنه ، ورجع إلى مصر • ووجد في

---

(١) انشاها سليم سركيس اللبناني في الاسكندرية سنة ١٨٩٤ . وقصرها على الطعن في فساد الحكم التركي ، واستبداده ، والمطالبة بالاصلاح ، ثم نقلها إلى القاهرة سنة ١٨٩٥ ثم إلى نيويورك سنة ١٨٩٩ بعد ما لقي من حكومة مصر عنتاً وإرهاقاً وحبساً ، وحكم عليه في بيروت بالاعدام غيابيا .

(٢) جريدة سياسية انشاها صالح جمال في القاهرة سنة ١٨٩٨ ، وكانت تصدر بالتركية والعربية يكتب فيها مع ولي الدين يكن الكاتب التركي محمد قدري .

مصر (خليفة كرومر) يحوط هؤلاء الساخطين على تركيا بعنايته ورعايته ، فأخذ ولي الدين بعد عودته يكتب في الأهرام والمقطم والمؤيد والرائد المصري[١] والزهور[٢] ثم أنشأ جريدة (الإقدام) في الاسكندرية سنة ١٩١٣ ، وعين كاتباً في وزارة العدل حتى سنة ١٩١٤ . وبعد أن تولى السلطان حسين عرش مصر لقي منه عطفاً شديداً فعين كاتباً في الديوان السلطاني ، ونعم بقربه ، وخصه بأحسن مدائحه .

قال ولي الدين يكن في أول مقال له بجريدة المقطم بعد عودته من زيارته الأولى لتركيا ، وشاهد عن كثب الفساد الشامل في الادارة الحكومية. «هذا قلم أرن القوس صائب الرّمية فلأجرينه حتى لا تبقى من دار الظلم لَبنة على لَبنة ، وبياض على سواد ، ولأسيرن قوارعه شزّباً في كل قاتم الأعماق ، شاسع الأطراف ، إلى أن يقول نصير الحمية : لبيك ، ونستريح وإخواننا مما نحن فيه » .

واحتضنته الحكومة البريطانية كما احتضنت غيره من الساخطين على تركيا ، فازداد لها حباً ، وأصبح لا يذكرها إلا بكل خير ، ولا يذكر عميدها اللورد كرومر إلاّ أشاد بفضله ونعته أحسن النعوت ، ودعاه مصلح مصر ، وأبا المصريين المشفق[٣]، قال في المعلوم والمجهول : « ولا أظن رجلا يشفق على بنيه إشفاق اللورد كرومر على المصريين ، فهو أبو حريتهم ، ومصدر إنصافهم ، ومورد سعدهم إلا أنه كان يخدم من يحبونه » .

وكان من المناوئين لمصطفى كامل ، ويرى استعانته بسياسة فرنسا قبل الاتفاق الودي في سنة ١٩٠٤ خطأ جسيماً ، بل يرى أن فرنسا هي التي خلقت مصطفى كامل ، ويرى أن مصر ليست للمصريين بل هي للعثمانيين فقال عن عبد الله نديم : « وإنما أحدث الخلاف بيننا أنه كان عدوا للعثمانيين ، وهو من قدماء من يقولون « مصر للمصريين » ونحن نقول « مصر للعثمانيين » ، على أن ولي الدين يريدها ولاية عثمانية محكومة بيد إنجليزية .

ولعلك ترى من هذه الصورة الموجزة أن ولي الدين من الأدباء الذين فسدت

---

(١) الرائد المصري انشاها نقولا شحاته اللبناني في القاهرة سنة ١٨٩٦ .
(٢) مجلة سياسية ادبية انشاها في القاهرة انطون الجميل ، والشيخ امين تقي الدين سنة ١٩١٠ .
(٣) ادباء العرب الجزء الرابع ص ٣٠١ لبطرس البستاني ومقدمة ديوان ولي الدين لانطون الجميل .

عقيدتهم الوطنية ، والتوت أفكارهم في طرق معوجة ونظروا إلى الأمور نظرة ساذجة، واغتروا بالحرية الكاذبة التي منحها الإنجليز للصحافة في مصر، مع أنهم يريدون بينهم الفرقة ويمدون لهم في حرية القول وهو أهون الأمور لديهم ، والقول يُنَفِّس عن المصريين ، فلا يلجئون للفعل . ولما طال زمن الكبت في خلال الحرب العالمية الأولى وما قبلها ، انفجر المرجل ، وشبت الثورة .

ولقد أردت بذكر شيء عن ولي الدين يكن في هذا المقام أن أعطي صورة واضحة لتأثير السياسة في الشعر ، وإن واجبي وأنا أؤرخ هذه الحقبة ألا أهمل أديباً تعوّد الناس إهماله لأنه انحرف عن جادة الحق . لقد نجح الإنجليز بعض النجاح في جذب بعض الأقلام إليهم ، وقد كاد إبراهيم ألا يحظى بلقب شاعر النيل ، وأن يكون بوقاً من أبواقهم ، لولا موت أستاذه محمد عبده ، ولولا أنه مصري فيه بقية من خير جعلته يستجيب لدعاة الوطنية الصحيحة . أما ولي الدين يكن فلم يكن مصرياً كامل المصرية ، كان مصرياً بالوطن والإقامة تركياً بالمولد والجنس والعاطفة ، كانت الحرية التي يدعو إليها ليست حرية مصر وتمتعها باستقلالها التام خالصاً دون الترك والإنجليز ، بل هي حرية القول ، والخوض في تركيا والدعوة إلى أن تظل مصر مقيدة بِغُلَّين : الغل التركي والغل الإنجليزي ، وهذا لعمري خلط في فهم الأشياء وتسميتها بغير أسمائها الصحيحة .

كان يعد تركيا وطنه الصحيح ، إنه في مصر تركي" مهاجر ، ومصر ولاية تركية في نظره ، وإن تمتعت بشيء من الحرية لوجود الإنجليز بها فلهم منه الثناء ، وهذا مجمل رأيه السياسي ، واستمع إليه يقول بعد عودته من تركيا لأول مرة يصور ما بها من فساد :

يا وطناً قد جرى الفسادُ به ... متى يرينا إصلاحك الزمن

دُفِنتَ حيا وما دنا أجل" ... ما ضر لو دافنوك قد دفنوا

عزّ علينا (فروق) من قطنوا ... فيك فهم في العذاب قد قطنوا

ولما قال شوقي قصيدته المشهورة :

سل « يلدزا » ذات القصور ... هل جاءها نبأ البدور

بعد خلع السلطان عبد الحميد ١٩٠٩ ، ورثى فيها حال السلطان المخلوع — ردّ عليه ولي الدين يكن بقصيدة من الوزن والقافية ، يندد فيها بحكم عبد الحميد ويشمت به ، ويقول في أولها مخاطباً شوقي وعاتباً عليه هذا الشعور الذي يتنافى مع وجهة نظر المهاجرين :

هاجتك خاليةُ القصور　　وشجتك آفلة البدور
وذكرت سكان الحمى　　ونسيتَ سكان القبور
وبكيت بالدمع الغزيـ　　ـر لباعث الدمع الغزير
حامي الثغور الباسما　　ت مضيع آهلة الثغور

ويقول من قصيدة أخرى متشفياً في عبد الحميد ، شامتاً به أشنع شماتة :

نعم عبد الحميد اندبْ زماناً　　تولى ليس يحمده سواكا
تولى بين أبكار حسان　　تعلّق في غدائرها نهاكا
جعلت فداءها الدنيا جميعاً　　ومذ ملّكتها جُعلت فداكا
«وطال سُراك في ليل التصابي　　وقد أصبحت لم يحمد سراكا»

أما عن ولائه للإنجليز ومدحه إياهم ففي ديوانه أكثر من قصيدة تنم عن إعجاب وولاء وتضفي عليهم عاطر المدح والثناء ، فثمة قصيدة الى (تومي إتكنس صديق الحرية وحاميها) .

إلى (تومي إتكنس) مني الثناء　　يزيد على الرمل في عَدّه
يفيد الربيع إذا فاض فيه　　ندى زهره ، وشذا ورده
فلا يعرف السلم نداً له　　ولا يقع الحرب في لده

ويقول في رثاء الملك إدوارد السابع(١) :

وداعاً أيها الملك الجليل　　دنا سفر ومُهدت السبيل
بكى التاميز صاحبه المفدى　　فجاوبه هنا هرَم ونيل

(١) ولد إدوارد السابع في سنة ١٨٤١ م ، وولي الملك في يناير سنة ١٩٠١ وتوفي سنة ١٩١٠

أبا الأحرار لا ينساك حرٌّ　　　شبابهمو يجلّك والكهول

ويودع (الجنرال مكسويل) في سنة ١٩١٦ ويرجو أن يعود ثانية إلى مصر بقوله :

سنذكر منـك أخلاقاً حسانا　　　تزيد على النوى حُسناً وطيبا
وتتبعك الثناءَ بكـل أرض　　　يقـوم إذا نزلت بهـا خطيبا
تودعـك الأهلـة مشرقاتٍ　　　تحيّي في مطالعهـا الصليبـا
لقـد أمتعتها بالسلم حتـى　　　نكاد اليوم لا ندري الحروبا
فعش (يا مكسويل) لود مصر　　　ونرجو بعـد ذلك أن تؤوبا

وعلى النقيض من هذا الأديب الذي اختلت بين يديه موازين السياسة ، وقيم الأشياء ، فراح يعتسف الطريق ، نجد شاعرين آخرين يجري في عروقهما الدم التركي ، ولكنهما كانا مثلاً عالياً في الوطنية الصادقة على اختلاف يسير بين نهجيهما ، أعني بهما : أحمد محرم ، وأحمد الكاشف .

أما أحمد محرم فقد جمع إلى حماسته الوطنية ، عاطفة دينية جياشة ، والدين — كما ذكرنا آنفاً — يدعو إلى العزة والكرامة والسيادة ، وقد صدق محرم حين قال :

خلقُ العروبة أن تجد وتدأبا　　　وسجيـة الإسلام أن يتغلبـا

كان أحمد محرم في أول أمره من دعاة الجامعة الإسلامية في ظل تركيا ، وقد عرفت موقف مصر من هذه الدعوة ممثلا في شعرائها الذين أسلفنا الكلام عنهم ، وفي زعمائها الوطنيين ، ينظر بعضهم إلى هذه الفكرة نظرة دينية ، وينظر بعضهم إليها نظرة سياسية ، لأن انجلترا الغاصبة لا تملك وثيقة دولية تؤيد بقاءها في مصر ، بينما قد اعترفت الدول جميعاً بمركز تركيا في هذه الديار ، وكان أحمد محرم يتعلق بتركيا لسببين : ديني وجنسي ، استمع إليه يدعو المسلمين جميعاً إلى الالتفاف حول راية الخلافة :

هبوا بني الشرق لا نوم ولا لعبُ　　　حتى تُعدَّ القوى أو تؤخذ الأهب
مـاذا تظنون إلا أن يحاط بكـم　　　فلا يكون لكم منجىً ولا هـرَبُ

كونوا بها أمةً في الدهر واحدة   لا ينظر الغربُ يوماً كيف نحترب
ما للسياسة تؤذينا وتبعدنا   عما يضم قوانا حين تقترب
أغرت بنا الخلف حتى اجتاح قوتنا   وطاح بالشرق ما نجني وترتكب

ولم يكن يصدق أن تركيا ضعيفة ، وأنها سميت في عالم السياسة بالرجل المريض ، وأن الفساد قد دب في جسمها كله ، وأنها على وشك الانهيار إن لم تتداركها يد الله ، والإصلاح •

وليس يزول ملكُ الترك حتى   تزول الأرض أو تهوي السماء

ويرى أنهم أهل لأن يتولوا شئون الخلافة ، ويراعوا حقوقها ، فهم عنها الذادة الأشاوس ، وهم الذين انتهجوا خير منهج ، وفاته أنهم منذ أن خرجوا من ديارهم غازين فاتحين للبلاد الإسلامية سببُ نكبتها ، وما تردت فيه من جهل وذل وانحلال، ضعفت بضعفهم ، وفسدت بفسادهم فانهارت حتى صارت لقمة مستطابة لذئاب الغرب •

لولا بنو عثمان والسُّننُ   شرعوا لما وضح السبيل الأقوم
سطعوا بآفاق الخلافة فانجلى   عنها من الحدثان ليل مظلم
فهم ولاة أمورها وكفاتها   وهُم حماةُ ثغورها وهُم هُمُ

وهو الشاعر الوحيد الذي دافع عن عبد الحميد • وأسف أشد الأسف لما أصابه بعد عزله في سنة ١٩٠٩ ، وقد اهمَّه وأحزنه أن رأى بعض الناس قد شمتوا به وهم الذين كانوا يلهجون بحمده ، ويعيشون في نعمائه :

كأن بغاةَ الجود والمجد لم تَفِدْ   عليه ، ولم تهطل عليهم مواهبه
كأن بغاةَ الشعر لم تغش بَابه   بمستعليات تزدهيها مناقبه
كأن الأولى زانوا المنابر باسمه   أحلوا بدين الله ما لا يناسبه

ثم أخذ يدافع عنه بحمية ، وقد رأى الأعداء كثراً ، وكلٌ يعدد مثالبه :

ألم يستطر يوماً لخطب مساورٍ   محافظةً من أن تسوء عواقبه
ألا راحم ؟ هل من شفيع ؟ أما كفى ؟   أكلُّ بني الدنيا عدو يغاضبه

أكـلُّ مآتيـه ذنـوب ؟ أكلـه   عيوبٌ؟ ألا مِنْ منصف إذ نحاسبه؟

ويحاول أن يبرىء عبد الحميد مما وُصِم به ، ويلقي التبعة على أتباعه وأعوانه ، وحاشيته فهم الذين غشوه ، وزينوا له الباطل ، وخوفوه الموت ، وافتروا عليه الكذب ، ولذلك هم أولى بالعقاب دونه •

أليس الأولى غشوه أجدر بالأذى   وأولى الورى بالشر مَن هو جالبه
هـم اكتنفوه بالدسائس وافتـروا   من القول ما يصمي عن الرشد كاذبه
وهـم خوفوه الموت حتـى كأنما   يلاقيه في الماء الذي هـو شاربه

ولا ريب أن أحمد محرم كان يصدر في مثل هذا الشعر عن نظرة سامية لمنصب الخليفة ويعده رمزاً لآمال المسلمين ، ولا يريد أن تسوء سيرته في أذهان الناس ، فتنتقص الخلافة معه ، وتتزلزل مكانتها في النفوس • وقد لام صديقه أحمد الكاشف لأنه نشر قصيدة تهجم فيها على تركيا بعد أن كان يمدحها ويمدح خلفاءها ويشيد بهمم جندها وبلائهم في الحروب ويصور هزائمهم انتصارات ، وسيئاتهم حسنات ، ويعيب عليه كيف يذم بني جنسه ، وفيه دم تركي ، وذلك حين يقول له :

عذلتَ بني عثمانَ والعذلُ يؤلم   وملتَ عن المدح الذي كنتَ تنظم
بلى ! ، إنها الأوطان هاجك أنها   بأيدي بني التاميز نهبٌ مقسّمُ
فجردت عَضْباً ذا غرارين مِخذماً   تسيل المنايا منـه أو يقطر الـدم
حنانك في القوم الألى أنت منهم   ورأيكَ في الأهل الذين همُ همُ

ولما اشتدت الحركة الوطنية بمصر على يد مصطفى كامل ، وظهر من يدعو للقومية المصرية خالصة من دون الترك والإنجليز ، نرى أحمد محرم يلبي الدعوة قوياً صريحاً جريئاً شأن المؤمن الذي لا يرهب إلا الله ، ولا يبالي أصابه الضر فيما يقول أم الخير ، وقد قال في الرّد على خطبة كرومر التي رمى فيها المصريين بالتعصب ، وحمل على الإسلام حملة ظالمة قصيدة طويلة مطلعها :

رويدَك أيها الجبار فينا   فـإن الرأي ألا تزدرينا

وطالما تغنى بحب مصر وأمجادها ، بعد أن يئس من تركيا وتحطم المثل الأعلى في نفسه وتقطعت الأسباب التي كانت تصله بها بعد إعلان الحماية على مصر ، ثم زوال الخلافة نفسها .

فإن يسألوا ما حبُّ مصر فإنه — دمي وفؤادي والجوانح والصدرُ
أخاف وأرجو وهي جهد مخافتي — ومرمى رجائي لا خفاء ولا نكر
هي القَدَر الجاري،هي السخط والرضا — هي الدين والدنيا ، هي الناس والدهر
بذلك آمنا ، فيا من يلومنا — لنا في الهوى إيماننا ولك الكفر

ويقول في قصيدة أخرى :

وهبت الصِّبا والشَّيْبَ والشوق والهوى — لمصر ، وإن لم أقض حق الهوى مصرا

وقد وقف من الأحزاب المصرية موقف الناصح الأمين ، لا يميل به الهوى إلى حزب دون آخر ، يمحضهم النصح ، ويستحثهم على الوحدة ، والتمسك بالأهداف العليا للقومية المصرية ، استمع إليه ينصح الوفد المصري حين ذهب لأوربا برئاسة سعد زغلول للدفاع عن القضية المصرية ، والمطالبة بحقوقها :

وَفْدَ الكنانة هل حملت رجاءها — أم قد حملتَ أمانة الأزمان ؟
الدهر عين والممالك ألسن — والنيل قلب دائم الخفقان
قل للألى وزنوا الشعوب : تذكروا — في مصر شعباً راجح الميزان
وإذا رماك أولو الخصومة فارمهم — بالحجة الكبرى وبالبرهان

وإن كان هواه مع الحزب الوطني ، حتى لقد اتهم بأنه من حساد (سعد) ، مع أنه كان وطنياً مخلصاً لا يرتضي أنصاف الحلول ، ولا يقنع إلاّ بالاستقلال الكامل . وقد قال يرد على هؤلاء الذين اتهموه بمناوأة (سعد) ، يبين لهم رأيه في الاستقلال المزعوم ، وأنه كان يرجو أن يكون سعد فوق السحاب ، تنال البلاد خيرها واستقلالها التام على يديه ، لا ذلك الاستقلال الذي سماه الاستقلال الذائب .

دعاةَ الخير والإصلاح مَرْحى — رضيناكم وإن كنتم غضابا

رضيناكم على أن تنصفونا　　وألا تظلموا الشعب المصابا
أفي الإنصاف ألا توردوه　　على طول الصّدى إلا سرابا
زعمتم أننا حسادُ سعدٍ　　وقلتم قول من جهل الصوابا
ولو ركب الجوادَ بمصر سعدٌ　　لقلنا ليته ركب السحابا
كفى يا قوم بهتانا وزوراً　　فقولوا الحق واجتنبوا السبابا
لأنتم خير من يُرجى لمصر　　ولكنا نرى العجب العُجابا
وفي استقلالكم (بعض المزايا)　　ولكنا لمسناه فذابا

لم يكن محرم في الواقع حزبياً ، ولكنه كان شديد الحمية في التعصب لوطنه ، استمع إليه حين دب الخلاف بين أعضاء الوفد المصري ، وشاعت الفرقة يقول مشفقاً على وطنه من هذا النزاع :

إذا اختلفوا أو اتفقوا فإنا　　سوى استقلال مصر لا نريد
إذا لم يُحفظ استقلالُ مصر　　فلا سعد يطاع ولا سعيد
رجاء الشعب ـ لا الأحزاب تجدي　　إذا ضاع الغداة ولا الوفود
نطيع العاملين ونفتديهم　　وننصرهم إذا اشتد الوعيد
إذا اعتصموا فنحن لهم حصون　　وإن زحفوا فنحن لهم جنود
بأظهرنا وأيدينا جميعاً　　تحصن مصطفى ورمى فريد

لقد كان حب مصر يملك عليه شغاف قلبه ، حتى ليعز عليه أن يفرط في أي حق من حقوقها ، وهو الذي قال فيها :

وهبت الصبا والشيب والشوق والهوى　　لمصرٍ وإن لم أقض حق الهوى مصرا
بلاد حبتني أرضها وسماؤها　　حياتي وأجرى نيلها في دمي الدُرا

أجل ! كان محرم وطنياً شديد الغيرة على وطنه ، متعصباً في الحق :

ليس التعصب للرجال معرة　　إن الكريم لقومه يتعصب

لقد غضب حين رضي قومه بالاستقلال الزائف ، وتوّج الجهاد الطويل بالخداع والمداهنة ، ولذلك كان جريئاً في لومه وتعنيفه لساسة مصر حينذاك . ولقد تميز محرم دائماً بالجرأة ، ولما رأى من عباس انحرافاً عن الجادة ، ومهادنة للإنجليز ، واستنزافاً لمال الشعب ، وانصرافاً عن الإصلاح لم يتردد في أن يقول فيه ما كان يعد في ذلك الوقت جريمة ، ويعرض صاحبه للعقاب الصارم .

أضـر الناس ذو تـاج تولى — فمـا نفـع البلاد ولا أفادا
وكان علـى الرعية شر راع — وأشأم مالك في الدهر سادا
وتدعوه الرعيـة وهـو لاهٍ — فتصدع دون مسمعه الجمادا
حيـاة توسع الأحياء عـاراً — وذكـر يمـلأ الدنيا سوادا
فإيهٍ (يـا عزيز النيل) إيه — أمـا ترضى لملكك أن يشادا
وللشعب المصفّـد أن تـراه — وقد نزعَ الأداهم والصّفادا

وقد قال بيته المشهور يعرض بعباس وقد سمن على دماء الشعب ، بينما صار الشعب هزيلاً .

رأيتُ الشعب ، والأمثال جم — على مـا كان مالكه يكون
وأعجب ما أرى شعب نحيف — يسوس قطيعـه راع بديـن

فإذا كان هذا مبلغ جرأته في تلك الآونة ، على من يتمسح كل الشعراء بأعتابه ، ويزجون إليه المدح الكاذب أفيحجم محرم عن نقد سعد وغير سعد إذا ظن أنهم فرطوا في حقّ بلادهم ! ولقد شرح لنا مذهبه وعلل غضبته كلما مسّ مصر ضرّ أو حاق بها شر في قوله :

يـا نيـل والموفون فيك قلائل — ليت الذّعاف لمن يخونك مشرب
أيخـون عهدك غـادرٌ فيضمه — مـا بين جانحتيك واد مخصب
قتل الوفاء ، فما غضبت وإنما — يحمي الحقيقة من يغار ويغضب

ولذلك كان متتبعاً في حرص بالغ شئون السياسة المصرية ، وخطوات ساستها

ولم يدع مقاماً إلا أدلى فيه برأيه ، صادعاً بكلمة الحق ، محذراً ، وناصحاً ومشجعاً ومقرعاً على حسب الموقف الذي يقفه الزعماء والمصلحون .

ولما عاد أعضاء الوفد يعرضون على الأمة مشروع (ملنر) خشي محرم أن يكون المشروع خدعة إنجليزية لا تحقق استقلال مصر ، وصاح صيحة قوية يحذر فيها المصريين من نفاق الإنجليز ، فطالما وعدوا الوعود ومنوا الأمانيَّ ، ولم يتحقق لهم وعد ، أو ينجزوا أمنية ، كما يحذر المصريين من الفرقة ، فطريق الحق واضحة .

يـا أيها القوم مـاذا في حقائبكم ... إني أرى الشعب قد أودى به القلق
جئتـم إلينـا فباتت مصـر راجفة ... ممـا حملتم وكـاد النيل يحترق
لقـد أقاموا طويـلاً بـين أظهرنا ... فمـا وثقنا بهـم يوما ولا وثقوا
لا يعبث اليوم باستقلالكم أحـد ... ولا يغـركـم التضليـل والملـق
استعبد المال قوماً لـو يقال لهم ... خوضوا إليـه عذاب الله لانطلقوا
برئت من كل ذي نفسين . واحدة ... تأبى القضاء وأخرى همُّها الورِق
ما كنت أحسبُ أن يقضي القضاء لنا ... يومـاً فتختلف الأهواء والطـرق

ويَفْرق ، ويشتد جزعه حين تتصدع وحدة الأمة ، ويجد العدو ثغرة واسعة في صفوفها ينفذ منها إلى مآربه ، ويكثر التهاتر واللجاج فيما بينها ، وتنصرف عن غايتها السامية .

ألست ترى بنيها في شقاق ... فما يرجون ما عاشوا اتحادا

ويقول :

هدايتك اللهم إنـي أرى الألى ... هم القادة الهادون شتى المسالك
أضـن بنفسي أن تسير وراءهم ... وأخشى عليهـا عاديات المهالك

ويقول :

شرعوا العداوة بينهم لم يوصهم ... ديـن المسيح بهـا ولا الإسلام
عوت الثعالب أمس حول عرينهم ... واليوم يـزأر حولـه الضرغام

ويسدي لهم النصيحة الخالصة في أن يتحدوا ، ويرأبوا الصَّدع ، ويجمعوا الصفوف .

يا قوم ماذا يفيد الخلف فاتفقوا   وقوّموا أمركـم بالحزم يستقم
صونوا العهود وكونوا أمة عرفت   معنى الحياة فلم تعسف ولم تهم
يا قوم لا تغفلوا إن العدو له   عـين تراقب منكم زَلة القدم

ولعمري إن هذه النفس التي تحترق وطنية وألما لما نكبت به مصر في بنيها كانت جديرة بأن تتبوأ مكانتها اللائقة بها في عالم الأدب ! لقد حظي حافظ بالشهرة في عالم الوطنيات ، مع أنه من عرفت ، ولم يقف لحَرِّ الوطنية ، وما يلاقيه الوطنيون في سبيل مبادئهم إلا أمداً يسيراً ، وهو في شعره الوطني لا يشعرك بتلك الحرارة التي يبعثها في نفسك شعر أحمد محرم . ولكنَّ عيب أحمد محرم ، وعيب الكاشف معه أنهما آثرا العزلة بالريف حين فسدت الحياة في القاهرة ، واختلف الناس فيما بينهم على المبادىء السامية ، وكان في محرم زهد" وعفة ، وإيمان قوي ، فلم يتملق رئيساً ، أو يعرف في الحق لينا أو مواربة . وكان حافظ رجل دنيا كثير الاختلاط بالناس ، فالتمس له أصدقاؤه المعاذير حين قَصّر ، وأغدقوا عليه عاطر الثناء حين وفق .

أما أحمد محرم فقد بقي حتى اليوم محروما القلم القوي الذي يعرض دوره بين الناس ، ويعرف به قومه ، وهو الذي آثر الفقر ، والوحدة ، والحرمان في سبيل مبدئه ، وكان شاعراً صاحبَ رسالة ، وكان من أقوى الشعراء ديباجة وأنصعهم بيانا . كان عيب أحمد محرم أنه يمثل الفريق الجاد من الأمة ، الذي يشعر بآلامها المبرحة وأدوائها المستعصية ، وكان صاحب مثل أعلى في أمة هازلة تطرب للعبث ، ويفتنها زبرج الحضارة الغربية ليفتننا عن أهدافنا القويمة . كان شاعر مصر سياسيا واجتماعيا ، وكان شاعر العروبة والإسلام ، متعدد النواحي الأدبية ، ومع ذلك كان عاثر الجَدّ في حياته ؛ لأنه لم يتملق العظماء فيمدحهم بالباطل ، ويرثيهم إذا ماتوا ، بل كان شاعراً صادق الشعور في كل ما ينطق به ، لا نظّاما يقول في المناسبات ، فلم يجد من يدفعه إلى عالم الصدارة كما وجد سواه من الشعراء ، ولنا إليه عودة إن شاء الله .

أما صديقه أحمد الكاشف فقد وقف نفسه على الشعر السياسي ، وكان دون محرم في اتساع أغراضه ، إذ وقف نفسه على لون واحد من الشعر . يمدح الترك حين كان مدحهم ديناً ، أو سياسة ، ويشن الغارة الشعواء على الإنجليز على عهد كرومر ، وغورست ، وكتشنر ويمدح عباساً وحسينا ، ويؤيد الثورة بكل قوة حين اضطرمت في أرجاء البلاد ، فإذا ما تصدعت صفوف الأمة ، وصارت أحزاباً وشيعاً لا يعتزل الأحزاب كما اعتزلها محرم ، ويسدي لها قول الناصح الأمين ، وإنما ينحاز لفريق الأحرار الدستوريين فيمدح محمد محمود باشا ، ويخصه بكثير من الثناء في مختلف المناسبات ، ويمدح إسماعيل صدقي ، وعلي ماهر وغيرهم . ولذلك سبب خاص يدركه من عرف البيئة التي عاش فيها الكاشف ، فقد كانت أسرة الخطيب بالقرشية (بلدة الكاشف) ذات جاه ونفوذ وثروة : وكان شوقي الخطيب في أول أمره نائباً وفديا . ولم يكن الشاعر في صفاء مع هذه الأسرة كما لم يكن في صفاء مع أسرة المنشاوي من قبل ، فانحاز إلى خصومهم السياسيين علهم ينصرونه إذا حزبه الضر ، أو اشتدت وطأة خصومه عليه :

ولكن حسب الكاشف قوله في وداع كرومر :

ولبثت تبدو في زخارف مخلص	للقوم تخفي ما اعتزمت وتحجب
غافلتهم حينا فلم يتلفتوا	إلا ونابك فيهم والمخلب
هل أنت فينا فاتح أو وارث	أو قيم أعلى ، وجار أقرب ؟
أتطيل بينهم مقامك جاهداً	وتقول لم يتعلموا ويهذبوا
وختمت عهدك بالذي اهتزت له	أركان مكة واستغاثت يثرب

ويشير في البيت الأخير إلى حادثة دنشواي . واسمعه يقول لكتشنر :

لسنا قطيعاً غاب راعيه كما	كنا ولست الضيغم الفتاكا
فأقم بمصر مقام ضيف محسن	وعليهم أن يكرموا مثواكا
واذكر لوادي النيل نعمته عسى	تعطي بنيه بعض ما أعطاكا

ولقد كان للنهضة القومية كما رأيت أثر بارز في الشعر الحديث ، وكانت النهضة السياسية ويقظة الأمة من العوامل الفعالة في هذا الشعر . ولقد وجد لون جديد من الشعر السياسي في هذه الحقبة ، وهو الأناشيد القومية ، التي يتغنى بها الناس جماعات ، وأول من نظمها في الأدب الحديث هو رفاعة الطهطاوي كما عرفت

في الجزء الأول[1] ، بيد أن شعراء القرن التاسع عشر الذين أتوا بعد رفاعة الطهطاوي ، لم يعنوا بهذا النوع من الشعر ، إذ لم تكن الأمور السياسية بمصر على ما يرام • وتوالت عليها النكبات بعضها في أثر بعض ، وانتهت بالاحتلال المشئوم ، ثم بوضع الحماية على مصر ، فلما كانت الثورة القومية ، في سنة ١٩١٩ تبارى الشعراء في وضع الأناشيد القومية • وقد نجح بعضها ، ولم ينجح كثير منها ؛ لأنه يشترط في النشيد القومي : قوة العبارة وسهولتها ، وألا يكون وعظا بل حماسة ونخوة ، وأن يكون موضوعاً على لسان الشعب ، وموافقا لكل زمان[2] • ولكل أمة من أمم الغرب نشيد وطني تزهو به ، ويتغنى به الشعب في حفلاته العامة ، وينشده الطلبة في المدارس ، والجنود في الميدان ، فهو يعبر عن آمال أمة ، ويبث في نفس كل فرد منها الحمية والحماسة ، ويدفعه إلى العمل ؛ إنه صورة مركزة للمثل العليا التي تنشدها أمة من الأمم •• ولقد كان لنشيد (المارسلييز) أثر عظيم في الثورة الفرنسية ، وقد ترجمه رفاعة بك إلى العربية شعرا ولكن النشيد الذي يصلح لأمة لا يصلح لسواها • وقديما كان الفارس العربي يرتجز البيتين والثلاثة قبل المعركة ليثير في نفسه الحماسة ، ويوهن من قوى خصمه المعنوية ولكنه كان نشيداً فردياً ينشئه صاحبه لساعته •

وقلما تجد شاعراً من شعراء العصر الحديث ليس له نشيد قومي ، فهذا شوقي يشترك في مسابقة للأناشيد ، وتختار اللجنة نشيده ولكن هذا النشيد يموت ؛ لأن العبرة ليست باختيار اللجنة أو باختيار الحكومة ، وإنما بقوة النشيد ، وسيطرته على نفوس الناس ، وبقائه على الزمن ولو لم يعترف به رسمياً ، وقد تعرض نشيد شوقي لانتقادٍ كثير وفيه يقول :

بني مصر مكانكم تهيَّا ... فهيّا مهدوا للملك هيَّا
خذوا شمس النهار له حليّا ... ألم تك تاج أولكم مَليّا
على الأخلاق خُطوا الملك وابنوا ... فليس وراءها للعز ركن
أليس لكم بوادي النيل عَدْنُ ... وكوثرها الذي يجري شهيا

(١) راجع ص ٣٣ من كتاب (في الأدب الحديث) الجزء الأول .
(٢) الديوان في النقد والأدب للعقاد والمازني جـ ١ ص ٤١ .

وقد أوسع الأستاذ العقاد هذا النشيد تجريحاً وطعناً[1] وهو على حق في بعض ما قال وإن لم يسلم نقده في مجموعة من التحامل ، ولكنَّ النشيد ليس به هذه القوة التي تكفل له الخلود . وقد وضع محمد عبد المطلب أكثر من نشيد فمن ذلك قوله :

مصر اسلمي مصر لك السلام   والملـك والدولة والـدوام
مصر لـك التاريخ والأيـام   والنيـل والفسطاط والأهرام
أيـام لا مُلك" ولا نظـام   أنتِ عروس الأرض والبلاد

ولأحمد محرم نشيد بعنوان مصر الحرة قال في أوله :

مصر انهضي فالدهر ساق وقدم   شقي السحاب وارفعي النجم علم

ويقول في آخره معلناً وفاءه لزعماء الحزب الوطني :

نحن الوُفاة والكريم من وفى   نصون ما صان(الرئيس مصطفى)
ونقتفي إثـر (فريد) وكفـى   هما إماما الشعب والنيل الحرم

وممن اشتهر بوضع الأناشيد المرحوم مصطفى صادق الرافعي ، وقد تغلب نشيده القومي على كل نشيد سواه ، ولحِّن تلحيناً قوياً ، وحفظه الصغار والكبار ثم توجه به إلى سعد باشا زغلول زعيم الحركة الوطنية ، وصار هذا النشيد نشيداً وطنياً لمصر ، وأرى أنه يمثل ما يشترط في النشيد القومي تمام التمثيل ، ولذلك أثبته هنا نموذجاً لهذا اللون من الشعر .

اسلمي يـا مصر إننـي الفـدا   ذي يدي إن مَدَّتِ الدنيا يدا
أبـداً لـن تستكينـي أبـدَا   إننـي أرجو مـع اليوم غـدا
ومعـي قلبـي وعزمي للجهـاد   ولقلبي أنت بعـد الدين ديـن
لـك يـا مصـر السَّلاَمـه   وسَلاماً يـا بـلادي

---

(١) الديوان للعقاد والمازني ص ٣٨ — ٤٥ .

إن رمى الدهرُ سهامَه أتقيهـا بفـؤادي
واسلمي في كل حين

أنا مصريٌّ بناني مَنْ بَنى هرمَ الدهر الذي أعيا الفنا
وقفةَ الأهرام فيما بيننا لصروف الدّهر وقفتي أنا
في دفاعي وجهادي للبلادْ لا أميل ، لا أملُّ لا ألين
لك يا مصر السلامة . . . .

وينكَ يا منْ رام تقييد الفلكْ أي نجم في السما يخضع لَكْ
وطنُ الحرّ سماً لا تُمتلَكْ والفتى الحرُّ بأفقه ملَكْ
لا عَدا يا أرضَ مصرٍ بكِ عادْ إننا دونَ حماك أجمعينْ
لك يا مصر السلامة . . . .

للعُلا أبناء مصرٍ للعُلا وبمصرٍ شرفوا المستقبلا
وفدىً لمصرنا الدنيا فلا تضعوا الأوطان إلا أوّلا
جانبي الأيسرُ قلبه الفؤاد وبلادي هِيَ لي قلبي اليمين
لك يا مصر السلامة . . . .

ومما يتصل بالشعر السياسي ، ولا يقل عنه أثراً في الوطنية المصرية ، وإذكائه الحمية في قلوب الناشئين ، وصف الطبيعة المصرية ، وتجلية محاسنها والتغني بها ، لأنه يجعل المصريين يقدرون وطنهم ويعشقونه ، ويزدادون به تمسكا ، وفيه فناءً . وقد فطن لهذا شعراء العرب في جاهليتهم وقلما خلت قصيدة كبيرة من وصف الطبيعة العربية برمالها ، وعيونها ، وسمائها وخمائلها ، ووحشها ، وما تثيره في نفس الشاعر من ذكريات ، ولا يدعون صغيرة ولا كبيرة إلا التقطتها عيونهم اليقظة ، وأذواقهم المرهفة ، وأدارتها عقولهم الواعية ، وأخرجتها وجداناتهم الحية شعراً صادقاً في الوصف . حتى حيات الصحراء وذبابها كان لها نصيب في شعرهم ، وخلعوا عليها بعض المحاسن . وظل شعراء العرب بعد أن هجروا صحراءهم مفتونين

بجمال تلك الصحراء ؛ لأن الشعر الجاهلي وهو المنبع الذي استقوا منه ، والمدرسة التي تخرجوا فيها ، كان من القوة والصدق في وصف تلك الديار ، وإبراز ما فيها من جمال بحيث لم يجد الشعراء في العصور الإسلامية بدًا من أن يذكروا نجدًا وغير نجد من الأماكن التي فتن بها شعراء العصر الجاهلي .

وقد فطن لهذا النوع من الوصف شعراء الغرب ، وأدباؤهم ، وقلما نجد شاعراً غربياً كبيراً ليس له في مناظر بلاده ، وفي غيرها من مواطن الجمال في أوربا أكثر من قصيدة ، وهذا النوع من الشعر فضلا أنه من صميم الشعر القومي السياسي ، فهو عمل فني خالص ، ينطلق فيه الشاعر على سجيته ، لا يحفزه إليه إلا إشباع رغبته الفنية ، وإحساسه بالجمال .

والطبيعة المصرية ليست مملة كما يزعم بعض الناس الذين يدافعون عن أوربا ، ونزوحهم إليها كل عام ، ففيها مفاتن ساحرة : في ريفها ، ونيلها ، وجداولها ، وصحرائها ، وشطئان بحارها ، وآثارها التي تعد لقدمها جزءاً من هذه الطبيعة ، ثم في شمسها الضاحية ، وهوائها الرقراق ، وأمسياتها ، وتألق النجوم في سمائها ، وبلابلها وأطيارها .

وقد فتن هذا الجمال شعراء مصر في القديم ، وإن لم يفيضوا فيه فيقول محمد بن عاصم الموفقي قصيدته التي مطلعها :

اشرب على الجيزة والمَقْس ... من قهوة صفراء كالورس

ويقول البهاء زهير :

علا حس النواعير ... وأصوات الشحارير

ويقول علي بن موسى بن سعيد :

انظر إلى سور الجزيرة في الدجى ... والبدر يلثم منه ثغراً أشنبا
تتضاحك الأنوار في جنباته ... فتريك فوق النيل أمراً معجباً
بينا تراه مفضضاً في جانب ... أبصرت منه في سواه مذّهباً

وكان الظن أن يلفت هذا الجمال البديع أنظار الشعراء في العصر الحديث ، كما استرعى انتباه الشعراء في العصر القديم ، ولكننا نعلم أنه قد انقضت فترة طويلة

من الزمن ركد فيها الشعر العربي بعامة ، ولم يبق إلا" ذَمَاء" يسير ، وهذا الباقي في عصر المماليك وأوائل النهضة كان شعراً تقليدياً تغلب عليه الصنعة ، والمحسنات اللفظية المعنوية ، وكان يقال في الأغراض التقليدية القديمة من مدح ، ورثاء ، وفخر ، وما شاكل ذلك • وقلما انطلق فيه الشاعر ، وتحرر من تلك القيود ، وأفصح عن خلجات شعوره ، وحرّ وجدانه ، وإحساسه بالجمال ؛ وإذا فعل فإنه لم يكن يملك الأداة المعبرة ، لفقره في اللغة ، وعدم مطاوعتها له ؛ لأنه كان في عصر عمَّت فيه الجهالة ، وغلبت العجمة على الشعراء والأدباء •

ولا شك أن في وصف الطبيعة المصرية والتغني بها ما يدل على إحساس شديد بمحبة الوطن ، والتعلق به ، والإعجاب بكل ما فيه ، والإعجاب أول مراحل المحبة ؛ وبدهي أن الشعراء في العصور المتأخرة لم يكن عندهم هذا الشعور الوطني ، أو الإحساس القومي ، فلم يلتفتوا إلى الطبيعة وما فيها من جمال وفتنة • وظل الأمر على هذا المنوال حتى أتى البارودي ، فأحيا الشعر العربي بعد مواته ، وابتدأ في أول أمره محاكياً ومقلداً ، حتى تملك زمام اللغة ، وناصية البيان ، ومن هذا النوع التقليدي قوله في وصف الربيع قصيدته التي مطلعها :

رمت بخيوط النـــور كهربة الفجر ونمَّت بأسرار الندى شفة الزَّهـر

ولا تحس وأنت تقرأ هذه القصيدة بأنه يصف جواً مصرياً ، ولا طبيعة مصرية ، ولكنه ما لبث أن التفت للريف المصري ، فوضحت شخصيته ، وظهرت الألوان المحلية ، وأبدع إبداعاً عظيماً في هذا الضرب من الوصف ، فأحب الريف محبة ملكت عليه شغاف قلبه الحساس ؛ فتراه يصف الصباح المشرق الندي ، ويصف السحب ، ويصف الناعورة ، والقطن ، والطيور المزقزقة في مثل قصيدته :

رفَّ النَّدى وتنفَّس النُّوار وتكلمـت بلغاتهـا الأطيـار

أو أرجوزته :

عمَّ الحيا واستنَّت الجداولُ وفاضت الغـدران والمناهـل

وقد وفينا البارودي حقه من الدرس في الجزء الأول من كتابنا ، فلا داعي للتكرار ، ولكننا نقول إنه أول من فطن في العصر الحديث لجمال مصر ، وتغنى به في شعره • وإذا نظرنا إلى الشعراء بعده نجدهم يتفاوتون في هذا الباب ، فإسماعيل

صبري على الرغم من رقة حسه ، ودقة ذوقه ، وإرهاف شعوره ، ومحبته للجمال ، لا نكاد نجد له في الطبيعة المصرية إلا قطعة واحدة من ثلاثة أبيات مسروقة من (ابن خروف) النحوي ونسبها إلى نفسه .

ما أعجبَ النيل ما أبهى شمائِله　　في ضفتيه من الأشجار أدواح
من جنة الخلد فياضٌ على ترَعٍ　　تهبُ فيها هبوبَ الريح أرواح
ليست زيادتُه ماءً كما زعموا　　وإنما هي أرزاق وأرواح

ونفتش في ديوان ولي الدين يكن فلا نكاد نعثر على شيء من الوصف ، ولا على وصف الطبيعة المصرية ، كأنها ليست موجودة ألبتة ، وقد علمت فيما سبق أنه كان غريباً بشعوره عن مصر ، وكان في شغل بسياسيّاته عن التملي في محاسن الطبيعية وفتنتها .

أما عبد المطلب فكان لفرط إعجابه بالعرب القدماء لا يزال يتغنى بالجزع ، واللوى والرقمتين ، ولعلع :

وحيٍّ بالجِزْعِ رَكْباً زان منظرَهُ　　نَورُ الربيع وصوبُ المزن ينسكِب(١)
وساجل الورق في تلك الربى وأعد　　ذكر اللوى فلقلبي باللوى طرب

ويخيل إليك بعد أن تستقرىء شعره أنه لم ينشأ في صعيد مصر ، ولم يتلق العلم بالقاهرة وير مناظر الجزيرة الخلابة ، ويشاهد النيل وبعثه للحياة في كل جزء من أرض مصر ، ومن تقله أرضها .

ومن العجب أن حافظ إبراهيم الذي لقب بشاعر النيل ، لم يهتم بالطبيعة المصرية ، ويصفها ، وتقرأ ديوانه وتفتش فيه علك تعثر على أبيات ولو في ثنايا قصيدة فلا تجد شيئاً من هذا اللهم إلا أبياتاً جاءت عرضاً عند كلامه على نادي الألعاب الرياضية بالجزيرة ، حين إقامة حفلة بدارْ (الأوبرا) سنة ١٩١٦ ، والتي يقول في أولها(٢) .

بنادي الجزيرة قف ساعة　　وشاهد بربك ما قد حوى
ترى جنة من جنان الربيع　　تبدت مع الخلد في مستوى

---

(١) ديوان عبد المطلب ص ١٨ .
(٢) ديوان حافظ جـ ١ ص ٢٢٢ .

جمـال الطبيعة في أفقهـا   تجلى على عرشه واستوى

وفيها يعتب على المصريين أنهم زاهدون في جمال بلادهم ، صادفون عنه ، ويؤثرون الجلوس في المقاهي على التمتع بالرياض :

فمـا بال قوميَ لا يأخذون   لتلـك الجنان طريقـاً سَوا
ومـا بـال قومي لا ينزلون   بغير (جروبي) و (باراللوا)
تراهم علـى نَرْدهم عكفـاً   يبادر كـلٌّ إلـى مـا غوى

وإلا ما جاء في ثنايا قصيدة بعث بها إلى صديق له في انجلترا سنة ١٩٠٨ وفيها يقول :

والنيـل مـرآة تنفَّـ   ـس في صحيفتها النسيم
سلب السمـاء نجومَـها   فهوتْ بلجتـه تعـوم
شفَّت لأعيننـا سـوى   مـا شابَهُ منها الأديم

وقد كان أجدى على حافظ ، وهو يملك بياناً خلاباً متمكناً من فصيح اللغة أن يعكف على الطبيعة المصرية يخلد آثارها ، ويستقرىء جمالها ، ولا سيما بعد أن كمَّم المنصب فاهُ ، فلم يعد يطرق أبواب الشعر السياسي منذ أن عيِّن بدار الكتب . ولو أن حافظاً اتجه هذه الوجهة لكان أثره في الأدب عظيماً ، ولكن أنَّى لحافظ أن يتجه إلى الطبيعة يتملى مفاتنها وهو المشغول بالناس ومنادمتهم ، ولعل الدكتور طه حسين وهو من المعجبين به قد وقف على سره إزاء الطبيعة وأنه لم يكن مهيأ لمناجاتها والتحدث إليها وإظهار جمالها حين قال :

« ولم يكن حافظ عظيم الثقافة ولا عميقها ، فلم يكن من الممكن ولا من اليسير أن يتجه إلى تلك الفنون الشعرية الخالصة ، التي تصل بين الشاعر وبين الطبيعة ، والتي ليس للسياسة ولا للنظام عليها سلطان ، لم تكن النجوم في السماء ولا الرياض في الأرض ولا النيل ولا الصحراء تلهم حافظاً ، لأن حافظاً لم يكن شاعر الطبيعة وإنما كان شاعر الناس[١] » .

(١) حافظ وشوقي ص ٢١١ .

ومن الشعراء المقلين الذين عَنوا بالطبيعة المصرية وجمالها السيد توفيق البكري وله قصيدة ممتعة عنوانها (مصر)[1] ، وفيها يقول :

والنيلُ في لباتها عقد يلوح مجوهر
والجو صحو مشرق وكأنما هو ممطر
والظّلّ من خلل الشمو س مدرهم ومدنّر
وغصونها لدْن تميد بما تقِلُّ وتثمر
فكأنهن ولائد في حَلْيها تتكسر
يا جنةً يُجتنى الجنى فيها ويجري الكوثر
أنا شاعرٌ في وصفها لكنها هي أشعرُ

ويصف الجيزة ، والأصيل ، والمتحف ، والأزهر والهرمين ، وأخلاق المصريين وكرم ضيافتهم ؛ وهي تنبىء عن لفتات شعرية سامية لم تتح لكثيرين . كما أن له في وصف الريف قطعاً نثرية هي إلى الشعر أقرب منها إلى النثر مثل (العزلة)[2] ، وهو في مدحه لعباس لا ينسى مصر والتغني بجمالها ، ولكنه كما ذكرنا مُقلٌ وسنعود إليه بدراسة تفصيلية في آخر هذا الجزء إن شاء الله .

ولعل شوقي قد قضى حق مصر ، وحق الطبيعة المصرية ، ووفى ما على الشعراء من دين أثقل كاهلهم بعد البارودي ، فقد أفاض شوقي حقاً في وصفها وتجلت شاعريته الفذة وموهبته الخالقة المقتدرة ، وإحساسه المرهف . وقد ألهبت الغربة وحرقتها ، والنفي ولوعته مشاعره ، فاشتاق للوطن ونفث نفثاتٍ حارة من قلب مليء بالشوق والمحبة ، من ذلك قصيدته الأندلسية :

اختلاف النهار والليل ينسي اذكرا لي الصبا وأيام أنسي

---

(١) صهاريج اللؤلؤ ص ٨٤ .

(٢) « « ص ١٠٣ .

والتي يقول فيها بيته الخالد :

وطني لو شُغلت بالخلد عنه   نازعتني إليه في الخلد نفسي
شهد الله لم يغب عن جفوني   شخصه ساعة ولم يخل حسي

ويصف الجزيرة وصفاً يجعل الحياة تدب فيها ، ويشخصها كأنها بشر .

هي بلقيس في الخمائل صرحٌ   من عُبابٍ وصاحب غير نِكْس
حسبُها أن تكون للنيل عرساً   قبلها لم يُجَنّ يوماً بعرس
لبست بالأصيل حلة وشي   بين صنعاء في الثياب وقَسٍّ[1]
قدّها النيلُ فاستحت فتوارت   منه بالجسر بين عريٍ ولُبْسِ

ومن ذلك قصيدته :

آذار أقبلَ قم بنا يا صاح   حي الربيع حديقة الأرواح

وقصيدة في النيل :

من أي عهد في القرى تتدفق   وبأي كف في المدائن تغدق

وله في ثنايا قصائده عشرات المقطوعات في وصف مصر وجمالها كقوله من قصيدته التي مطلعها :

يا نائح الطلح . . . . . البيت

لكنّ مصرَ وإنْ أغضت على مِقَةٍ   عينٌ من الخلد بالكافور تسقينا[2]
على جوانبها رفّت تمائمنا   وحول حافاتها قامت رواقينا

ومن روائعه قصيدته في وصف (أنس الوجود) التي يقول فيها :

أيها المنتحي بأسوان داراً   كالثريا تريد أن تنقضّا
اخلع النعل واخفض الطرف واخشع   لا تحاول من آية الدهر غضا

---

(١) قس : موضع بين العريش والفرما اشتهر بمليح الثياب .
(٢) المقة : المحبة .

قف بتلك القصور في اليم غرقى ممسكا بعضها من الذعر بعضا

وهو الذي يقول :

فمصر الرياض وسودانها عيون الرياض وخلجانها
وما هـو مـاء ولكنه وريـد الحياة وشريانها

ويبدع حتى في وصف الصحراء ورمالها :

كأن الرمال على جانبيك وبين يديك ذنوب البشر

ولا عجب فشوقي كما ذكرنا آنفاً كان ذا شاعرية فذة ، وحساسية مرهفة ، وكان مولعاً بالجمال يهتز له أينما وجده ، كما كان مولعاً بالعظمة ، وقد رأى مصر تتميز بالجمال كما تتميز بالعظمة ، فأعجب بها ، والإعجاب أول مراتب الحب ؛ بل أحبها حباً عميقاً .

أحبك مصر من أعماق قلبي وحبك في صميم القلب نـام
سيجمعني بـك التاريخ يوماً إذا ظهـر الكرام على اللئام
لأجلـك رحتُ بالدنيا شقياً أصدُّ الوجـه والدنيا أمامي
وهبتك غـير هيّابٍ يراعـا أشدَّ على العدو من الحسام

ولم يقف شوقي من الطبيعة المصرية عند حدٍّ تصويرها وإسباغ فنه عليها وإبرازها صوراً رائعة تفتن اللب والنظر والسمع ، كما فعل البارودي ، ولكنه اندمج فيها وشخصها وبعثها حيةً ، فأربى بذلك على من تقدمه وأعجز من أتى بعده .

ومن الشعراء الذين أبدعوا في وصف الريف المصري ، والطبيعة المصرية بعامة أحمد محرم ، ومن ذلك قوله في وصف القرية وجمالها من قصيدة طويلة مطلعها :

قم للصلاة على هدىً وصلاح واسجد لربك فالـقِ الإصباح
دنيـا بدائعُ حُسْنِهـا مجلوةٌ في منظر بَهِج وجـوٍّ صـاح
هذا الجمال الأخضر انتظم القرى وأظلهـا مـن جاهـه بجنـاح
كجناح جبريـل يظـل مرفرفـا في جـوه المتقـاذف الفيّـاح

تلــك الحياة لمــن يريد لنفسه ... مــا تشتهي مــن متعة ومراح

أما خليل مطران فله بعض قطع في وصف الطبيعة المصرية ، ولكننا نشعر ونحن نقرأ شعر مطران في الطبيعة أن هواه كان في بلاد الشام مسقط رأسه ، ومَدرج طفولته ، وأنه فتن بها الفتنة الكاملة ، فلم تدع له نظراً يرى به جمال أرض سواها ، ولا قلبا يتَتَيَّم ويهيم بغيرها ، وقد خلّدها في شعره بأكثر من قصيدة ، وحن إليها تحناناً شديداً ، وتحس ذلك وتشعر به في قوله حين ذهب إليها لأول مرة بعد أن تركها وأقام بمصر :

يــا وطنا نفديــه بالدّماء ... والأنفس الصادقة الــولاء
مــا أسعد الظافرَ باللقاء ... والقربَ بعد الهجر والجلاء
إن أكُ باكياً مــن السرّاء ... فإن طول الشوق في التنائي

وله في بعلبك وذكريات الطفولة قصيدة طويلة[1] أضفى على أطلالها من روعة فنه ، وصادق حسّه ، وفيض عاطفته ما يشعرك بشديد حنينه إليها ، ومحبته لها ، كما فعل شوقي في وصف الطبيعة المصرية . وهنا لا بد لنا من القول بأن العبرة ليست بوصف الطبيعة ، ولكن بالعاطفة التي يلوّن بها شعره ، فإذا وازنا بين شوقي ومطران في وصفيهما للطبيعة المصرية تجلت لنا محبة شوقي لمصر ، وإبراز جمالها للإجيال من بعده في صورة بالغة الإبداع ، رائعة الرواء ، بينما تجاهل مطران هذه الطبيعة ، أو نظر إليها نظرة سخط وغضب ، أو إذا ألحت عليه بجمالها وهو الشاعر الفنّان ، واضطر إلى وصفها جاء شعره فاتراً ، خِلْواً من تلك المحبة والنظرة المعجبة ، وعلى العكس من ذلك حين يتكلم عن لبنان أو سوريا ، فهو يكثر التحنان إليهما ويقول في نهر (زَحلة) قصيدة طويلة :

واهاً لذاكَ النهر خلّف لي ... عطشاً مذيباً بعــد مصدره
يــا طالمــا أوردته أملــي ... وسقيتُ وهمي من تصوره
تمتــد أيــام الفراق وبي ... ظمئي لــذاكَ المنهل الشافي
وبِمسْمعي لهديره اللّجب ... وبناظري لجمالــه الصافي

---

(١) انظر الديوان جـ ١ ص ٩٧ .

ويقول في لبنان :

يا مَنبِتَ الأرز القديم ومَرْبضاً ... يوم الحفاظ لكل ليث أصيَد
هذي إليك تحية" من شيِّق ... قد بان طوعا عنك وهو كمُبعَد
من هالِك ظمأ وماؤك قربه ... مَرَّتْ به حِجج" ولم يتورّد
يا مسقطا للرأس في جنباته ... من حرِّ شوقي جمرة لم تخمُد

وقد زار مطران بلاد سوريا ، وجابها بلداً بلداً ، ووصفها في شعره : وصف كل مدينة وكل دسكرة ، ولمس تربها ، وقبله ، وطاف بأبنيتها ، يتزود منها قبل أن يرحل عنها[1] ومن يكن في مثل حال مطران عسير" عليه أن يجود في وصف الطبيعة المصرية أو آثارها القديمة الخالدة ، بل لا يرى هذه الآثار رمز عظمة ، ودليل فن ، وقوة إرادة وانما هي مظهر ظلم وعسف وإرهاق وتسخير لشعب مسكين •

إني أرى عد الرمال ها هنا ... خلائقا تكثر أن تُعددا
صفرَ الوجوه باديا جباهُهم ... كالكلأ اليابس يعلوه الندى
محنيةً ظهورُهم خرس الخطا ... كالنمل دب مستكينا مُخلدا
مجتمعين أبحراً ، منفرعين ... ن أنهراً منحدرين صُعدا
أكلُّ هذي الأنفس الهلكى غداً ... تبني لفانٍ جدثا مخلدا ؟

فنظرته هذه تختلف عن نظرة شوقي المحب الذي يرى السيئات حسنات ، ويفرغ ذوبَ قلبه عاطفة جياشة حين يتكلم عن مصر وأرض مصر وطبيعتها وآثارها • لقد وصف مطران الطبيعة المصرية ، ولكنه نظر إليها في أغلب حالاته نظرة قاتمة مفزعة ، كئيبة تدل على تبرم بها ، ونفور منها • وعلى أن روح التشاؤم تسيطر على شعره ، استمع إليه يصف صعيد مصر إبان الصيف ، وقد يكون الصعيد في الصيف غير محمود ، ولكن المحب يراه جميلاً ، والنيل ينساب ملتوياً يمنة ويسرة ، يتدفق خيراً وبركة ، ويبعث الحياة خضرة نضرة على العبرين ، وتأوي المدن والقرى إلى

---

(١) انظر الديوان ج ٣ ص ٧٨ •

حضنه كما يأوي الصغار إلى أمهم الرءوم ، ويثقل على ظهره المراكب رائحة غادية كالأب الكادح يحمل متاعب بنيه من غير سأم ولا ضجر ، وتنتصب الآثار الناطقة بالحضارة العتيقة التي انبعثت على ضفتيه ، والدنيا بعد وسنانة في فجر التاريخ ، هذا هو الصعيد حين ينظر المرء إليه نظرة المتفائل ، البشوش القلب ، المحب لما يراه ، ولكنَّ مطران يقول :

أوقدَ الصيفُ في الصعيد لظاه   فأجفَّ الحقول والآجاما
وغدا الناسُ بين جو كثيف   مُرتد من الغبار غماما
وفلاةٍ كأنما الرملُ فيها   شَررٌ شدَّ لَمعة واضطراما
وكأن المياه في النيل تجري   بخطى أبطأت ونهر تعامى
شبهَ ذوبِ الرَّصاص في الكير يطغى   فإذا ما طغى برفق ترامى
وعرا الأعينَ الكلالُ ، فأنّى   نظرت حمرةً رأت وقتاما
وكأن النعاس في عصب الأر   ض تمَشّى فكلُّ ما دَبَّ ناما
وكأن الدُّمى التي صنعتها   أمةُ القبط مُتعَبات قياما

وقصيدته في وصف المساء بالأسكندرية ، وهو على سيف البحر العظيم ، لا تقل في تشاؤمها عن هذه القطعة ، مع أنه لا يماري أحد في جمال الإسكندرية في الصيف ، ولا في منظر الشمس وهي تغيب في البحر ، ولكنه يقول في الغروب :

أو ليسَ نزعاً للنهار وصرعة   للشمس بين مآتم الأضواء ؟
أو ليسَ طمساً لليقين ومبعثاً   للشك بين غلائل الظلماء ؟
أو ليس محواً للوجود إلى مدى   وإبادة لمعالم الأشياء ؟

فهو ينظر إلى الدنيا وما فيها بمنظار أسود يحيل الجميل دميما ، والمناظر الأنيقة الفتانة ، رديئة كئيبة ، وليس العيب عيب الطبيعة ، ولكنه عيب من ينظر إليها . ومطران في أحسن حالاته حين يصف الطبيعة المصرية تراه مُبهماً ، لا يعطي اللونَ الخاص الذي يميز مصر عن سواها ، وكأنما ينظر إلى شيء آخر غير مصر

حين يصف منظراً وصفاً فيه شيء من الإنصاف ، وإذا أعطاك اللون الخاص ، اقتضب الكلام وكأنما يفر من شيء يؤذيه • مثال ذلك وصفه لليلة مقمرة على ضفة النيل في الجزيرة ، وهو منظر شعري خلاب ، كان من حق مطران وهو الشاعر المتفنن أن يصوره تصويراً بارعاً ، ولكنه لا يزيد على ثلاثة أبيات خالية من العاطفة :

وليلة بدر صفا جوها   وباحَ بسرٍّ السكون الحفيف
وألقت بسمعٍ ظلالُ الريا   ض لنجوى قلوب بهن تطيف
وصبّ على النيل شبهَ السيو   ل مغيرُ الدجى من سناه الضعيف

ويقول في مغرب شمس بريف مصر ، ولا يعطيك اللون (المحلي) فتحسب أنه وصف لأي شمس في أي مكان :

وللشمس في المنتهى مغرب   رأينا به آية من عجب
رأينا من الغيم طوداً رسا   على أفقها وسما واشرأبْ
بجسمٍ ظلال وقمة تبرٍ   وسفحٍ تعاريجه من لهب
كأن الأشعة أثناءه   مغاورُ في منجم من ذهب

وهو كذلك في وصفه لشروق الشمس في مصر لا يعطيك خصائص مصر[١] ، ومطران لم يعجب بجمال مصر ، ولا يرى فيها إلا أنها مضيافة ، خصبة ، هادئة : جوها صحو يساعد على نمو الزرع ، وحرارتها تمرع النبات :

في مصرَ مصرخة اللهيـ   ف وملجأ المتفزّع
مصرَ السماء الصحو مصـ   ر الدّفء مصر المَشْبَع
مصرَ التي ما ريع سا   كنها بريح زعزع
حيثُ المراعي والندى   للمرتوي والمرتَعي
حيث السواقي الحانيا   ت على الطيور الرضّع

---

(١) انظر القطمة ج ٢ ص ١٨٦ .

حيثُ الحرارة ما ثوا ... لِ ربيبها يترعرع

ولا عجب فقد وجد بمصر الأمن ، والدعة ، والجو الجميل ، وحسن الضيافة ، ليس بها أعاصير ولا زعازع ، وزرعها نضير ، وخيرها كثير فهو ينظر إليها نظرة مادية نفعية ، وهو يشكرها بمقدار ما تسدي إليه من المنفعة :

مصر العزيزة إن جارت وإن عدلت ... مصر العزيزة إن نرحل وإن نقم
نحن الضيوف على رحب ومكرمة ... منها وإنا لحافظون للذمم
جئنا حماها وعشنا آمنين بها ... متمعين كأن العيش في حلم

ومطران يعترف بالسبق لشوقي في وصف الطبيعة المصرية ، وأن الحب العميق هو الذي أوحى إليه بهذا الإيداع ، وأنى لمطران أن يبدع إبداع شوقي وليس في فؤاده لمصر مثل هذا الحب :

(شوقي) إخالك لم تقلها لاهيا ... بالنظم أو متباهيا بذكاء
حبُّ الحمى أملى عليك ضروبها ... متأنقا ما شاء في الإملاء
أعظِم بآيات الهوى إذ يرتقي ... متجرداً كالجوهر الوضاء
فيطهِّر الوجدان من أدرانه ... ويزينه بسواطع الأضواء

وحسبي ما قدمت في هذا الموضوع ، فإن المقام يضيق عن تتبع جميع الشعراء الذين ألهمتهم الطبيعة المصرية وتغنوا بمفاتنها وخلدوها في شعرهم .

— ٢ —

المظهر الثقافي :

صاحب النشاط السياسي في مصر ، والشعور بوجوب التحرر من ربقة الاحتلال اهتمام بالغ بالنهضة الثقافية ، حتى تستطيع الأمة أن تجاري ركب الحضارة، وأن تحسن إدارة شئونها الداخلية والخارجية . وقد أشرنا إلى هذا الاهتمام في آخر الفقرة الأولى[١] وكان أول مظاهره إنشاء الجامعة المصرية بعد أن دعا إليها مصطفى

---

(١) راجع ص ٥٤ من هذا الكتاب وما بعدها .

كامل أكثر من مرة ولبى دعوته مصطفى كامل الغمراوي ، وعمل على أن يخرج هذا المشروع إلى نور الشمس ، ويصير حقيقة واقعة ، لكي تخرج الجامعة الأمة من سباتها ، وتبث فيها الحياة ، فتستطيع مغالبة الغاصب ، وتخليص البلاد من براثنه . وكان أول اجتماع لتحقيق الجامعة في ١٢ من أكتوبر سنة ١٩٠٦ بمنزل (سعد زغلول) الذي كان مستشاراً في ذلك الوقت[١] ، وسماها الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد (الجامعة المصرية) ، وافتتحت أبوابها في سنة ١٩٠٨ ، واختير (الأمير) أحمد فؤاد (الملك فؤاد فيما بعد) رئيساً لها ، واشتدت حركة الاكتتاب لها ، وتوجتها (الأميرة) فاطمة اسماعيل فحبست عليها ٦٦١ فداناً ؛ غير ما تبرعت به من حليها التي قدرت باثنين وعشرين ألفاً من الجنيهات . وفي سنة ١٩١٤ وضع الحجر الأساسي للجامعة بحضور الخديو عباس ، ولم يكن الإنجليز راضين عن هذه الحركة طبعاً ، وكيف يرضون عنها وقد كان من سياسة عميدهم بمصر اللورد كرومر محاربة التعليم الجامعي الذي يعد الأمم للحياة الحقة ، والاهتمام بتخريج آلات صماء تعمل في دواوين الحكومة تحت إمرة مستشاريه كما عرفت في الفصل الأول . وبدأت الجامعة أعمالها بإرسال البعوث العلمية إلى أوربا لإعداد هيئة التدريس ، ودعت بعض الأساتذة المشهود لهم بالرسوخ في العلم ، من جامعات أوربا المختلفة لإلقاء محاضرات على الطلاب في التاريخ ، والآداب العربية ، والفلسفة والاقتصاد ، من أمثال (الكونت دي جلارزا ، وجويدي الكبير ، ونللينو) ؛ وأنشئت بها مكتبة جمعت لها الكتب من جميع جهات العالم ، حتى صارت اليوم من أغنى المكتبات في الشرق العربي كله[٢] . وأخذت الجامعة تمنح الدرجات العلمية في أول نشأتها ، ولكنّ الحرب العالمية الأولى أثرت في نموها ، كما أثرت في جميع مظاهر الرقي والمرافق العامة . وقد فكرت الحكومة في سنة ١٩١٧ في إنشاء جامعة حكومية ؛ وسارت هذه الفكرة في خطوات عديدة حتى تحققت في ١١ من مارس سنة ١٩٢٥ ؛ مكونة مـن كليات أربـع هـي : الآداب ، والعلوم ؛ والطب ، والحقوق ،

---

(١) كان عدد المجتمعين نحو اثنين وعشرين رجلا نذكر منهم : سعد زغلول ، وقاسم امين ، ومحمد راسم ، وحفني ناصف ، واخنوخ فانوس ، وحفني ناجي ، وفتح الله بركات ، واحمد رمزي ، راجع احمد رمزي بك في مقال عن الجامعة وتأسيسها الأهرام ١٩٥١/٦/١ .

(٢) بها اليوم مائة وسبعون الف مجلد ، منها مائة وعشرون ألفا باللغات الاوربية ، واربعون ألفا باللغة العربية ، وعشرة آلاف باللغات الشرقية المختلفة (تقويم الجامعة ص ٨٠) .

وفي سنة ١٩٣٥ ضمت إليها الهندسة ، والزراعة والتجارة ، وفي سنة ١٩٤٠ سميت بجامعة (فؤاد الأول) ، وضمت إليها دار العلوم في ٢٤ من ابريل سنة ١٩٤٦[١] ، وبعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ سميت جامعة القاهرة .

وقد أفادت الحركة الأدبية بمصر والشرق من الجامعة المصرية إفادة لا تنكر ، إذ أخرجت جيلاً مثقفاً ثقافة حديثة ، ملماً بالآداب العربية ، يجيد البحث ويقدره ، وإن كان عدد الذين نبغوا في البحوث الأدبية ممن تخرجوا في الجامعة لا يزال محدوداً . ولكنّ الفضل الأكبر كان للأساتذة الأجانب والمصريين ، وتوجيهاتهم للأدباء ، وفي الفصول التي كتبوها في النقد الأدبي ، والكتب التي أخرجوها نماذج في التأليف . كما أفادت الجامعةُ في الإكثار من عدد القراء الذين يقدرون الأدب ويتذوقونه ، ويسهمون فيه ، أو يعلقون عليه ، وحسبك أن تعلم أن عدد طلبة الجامعة كان في سنة ١٩٢٦ حوالي ٢٠٢٧ طالباً ، وأنهم صاروا في سنة ١٩٥٠ أكثر من ثمانية عشر ألف طالب ، وقد صاروا في سنة ١٩٥٨ نحو ستة وعشرين ألف طالب ، عدا ثمانية آلاف في جامعة الإسكندرية وستة آلاف في جامعة عين شمس[٢] . ولا ريب أن كثرة القراء تشجع المؤلفين، وتشجع دور النشر ، وتروج الأدب، والطباعة والصحف.

وقد أخذت مصر منذ أن تولت بنفسها شئون التعليم تعمل على نشره بكل الوسائل ، وتكثر من افتتاح المدارس المختلفة ، ثم جعلته بالمجان في المدارس الإبتدائية منذ سنة ١٩٤٢ ، وفي المدارس الثانوية منذ سنة ١٩٥٠ ، فاشتد الإقبال عليه ، حتى ارتفعت ميزانية وزارة المعارف من حوالي أحد عشر مليونا من الجنيهات في سنة ١٩٤٥ إلى أكثر من خمسة وعشرين مليوناً في سنة ١٩٥١[٣] .

ولقد أربت على الثلاثين مليوناً في سنة ١٩٥٤ وعلى الأربعين مليوناً في سنة ١٩٥٩ .

---

(١) تقويم الجامعة ١ — ٤ .

(٢) تقويم الجامعة سنة ١٩٥٠ ص ١٩٤ ، وحديث كامل مرسي (باشا) مدير الجامعة . الاهرام في ٢٤ من فبراير سنة ١٩٥١ وتقويم الجامعة سنة ١٩٥٨ .

(٣) راجع الاحصاء العام سنة ١٩٤٥ ، وميزانية الدولة سنة ١٩٥١ الاهرام ١٩٥١/٤/٢ .

وصحب انتشار التعليم في جميع مراحله نهضة في إخراج الكتب من إحياء وتأليف وترجمة . أما عن نشر الكتب القديمة وإحيائها ، فقد عرفت في الجزء الأول أن أول خطوة جديدة في هذا السبيل خطاها علي باشا مبارك حين ألف هيئة برئاسة رفاعة بك الطهطاوي[(١)] ثم حذت جمعية المعارف في سنة ١٨٦٨ حذو تلك الهيئة الرسمية ، وقد ذكرنا شيئاً عن جهودها في هذا السبيل[(٢)] . وفي سنة ١٨٩٨ ألفت جمعية جديدة لنشر الكتب القديمة وإحيائها ، وكان من أعضائها حسن (باشا) عاصم، وأحمد (باشا) تيمور ، وعلي (بك) بهجت وغيرهم ، وطبعت عدة كتب مفيدة مثل : كتاب الموجز في فقه الإمام الشافعي ، وسيرة صلاح الدين الأيوبي ، وفتوح البلدان للبلاذري ، والإحاطة في أخبار غرناطه ، وتاريخ دولة آل سلجوق وغيرها .

وفي سنة ١٩٠٠ تكونت هيئة أخرى برئاسة الشيخ محمد عبده لإحياء الكتب القديمة النافعة[(٣)] ، فأخرجت كتابي عبد القاهر الجرجاني : أسرار البلاغة ، ودلائل الإعجاز ، ونشرت كتاب المخصص لابن سيده في سبعة عشر مجلداً ، وابتدأت في طبع كتاب المدونة للامام مالك[(٤)] .

ومنذ ذلك الوقت دأبت دور النشر على إحياء الكتب القديمة ، واهتمت بها دار الكتب أيما اهتمام . ومن الكتب التي طبعت في خلال الحرب العالمية الأولى صبح الأعشى ، والخصائص لابن جني ، وديوان ابن الدمينة ، والمكافأة لابن الداية والاعتصام للشاطبي ، والأصنام لابن الكلبي . وقد تأسست في خلال الحرب العالمية الأولى كذلك لجنة التأليف والترجمة والنشر في سنة ١٩١٤ ، ودأبت منذ ذلك الوقت على إخراج الكتب تأليفاً وإحياءً وترجمة حتى بلغ عدد ما أخرجته في سنة ١٩٤٨ ما يربي على ثلثمائة كتاب[(٥)] .

ومن الكتب ذات القيمة التي أخرجتها دار الكتب : نهاية الأرب للنويري . ومسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ، والأغاني للأصفهاني ، والنجوم الزاهرة

---

(١) راجع الخطط التوفيقية ج ١٣ ص ٥٥ ـ ٥٦ والأدب الحديث ج ١ ص ٧٤ .
(٢) الادب الحديث ج ١ ص ٧٤ ط سادسة .
(٣) وكان من اعضائها حسين عاصم ، وعبد الخالق ثروت ، ومحمد النجار .
(٤) راجع المنار ج ٨ ص ٤٩١ ، وتاريخ الامام ج ٣ ص ٢٤٧ ، والاسلام والتجديد ص ١٨ .
(٥) السجل الثقافي ١٩٤٨ ص ٢٠٩ .

لابن تغري بردي ، وديوان مهيار الديلمي • وتعددت بجانب دار الكتب الهيئات التي تعنى بالنشر حتى بلغ عددها سنة ١٩٤٨ أربعاً وعشرين هيئة ودار نشر •

وقد انتشرت الصحف اليومية والمجلات الأسبوعية تبعاً لازدياد عدد القراء ، ورقي الأمة حتى بلغ عدد الصحف اليومية بمصر في سنة ١٩٥٠ اثنتين وعشرين صحيفة ؛ منها اثنتا عشرة في القاهرة وحدها ، وبلغ عدد المجلات الأسبوعية ٢٠٣ مجلات ، خص القاهرة منها ١٥٠ ، وعدد المجلات نصف الشهرية ١٨ ، والشهرية ٨٢ ، والرسمية ١٥ ، والمدرسية ٥٣ ، والصحف المتنوعة بجانب هذا كله ١٥ صحيفة[١] ، وقد نقصت بعض هذه الأعداد أو زادت في سنة ١٩٥٤[٢] •

إن هذه الصحف والمجلات جميعاً تلح على القارىء في أن يقرأ ، وتحاول أن تجذبه إلى القراءة بشتى الوسائل والمغريات • وبعضها يعنى بالأدب الرفيع ويحتفي به ، وبعضها يتملق الجمهور ، ويشبع نزعاته الرخيصة • ومن المجلات التي كان لها أثر في الأدب وإفادته فائدة جليلة سواء بالنقد ، أو بنشر الشعر ، والجيد من النثر في شتى الموضوعات : الهلال ، والمقتطف ، ثم السياسة الأسبوعية ، والبلاغ الأسبوعي ، والجديد للمرصفي ، والرسالة للزيات ، والثقافة لأحمد أمين ، ثم الكتاب التي كانت تصدرها دار المعارف ، ومجلة كلية الآداب ، وصحيفة جماعة دار العلوم ، وكانت كل هذه المجلات الجادة تبذل مجهوداً جباراً في اجتذاب القارىء العربي ؛ لأن الأدب الرخيص يطغى على الجمهور ، ويجتذبه بيسر ، وهذا يسيء إلى الحركة الأدبية كل الإساءة ، وتلك ظاهرة يؤسف لها أشد الأسف • ولقد يئست كلها أخيراً من هؤلاء القراء ، وأضناها التعب في جهادها المرير فاحتجبت جميعاً إلا مجلة الهلال ؛ لأن الجهد الذي يبذل فيها لا يكافىء الربح الذي يعود منها بل كانت تمنى في كثير من الأحيان بخسائر أحنت ظهرها وأعجزتها عن النهوض بمهمتها السامية • وهذه ظاهرة يؤسف لها أشد الأسف وإن كان مما يعزينا ببعض الشيء انتشار الكتب الأدبية التي تصدر في صورة (دوريات) عن دار المعارف والهلال وغيرها ، وقد رأت الحكومة خلو الميدان من مجلة تعنى بالأدب الرفيع فعملت وزارة الثقافة والإرشاد على إصدار (المجلة) والرسالة والثقافة والمسرح وغيرها لتسد بها هذا الفراغ المريع •

---

(١) السجل الثقافي سنة ١٩٥٠ ص ١٨١ — ١٩٩ •

(٢) راجع السجل الثقافي سنة ١٩٥٤ ص ٢٢٤ وما بعدها •

وإن حاولت بعض دور النشر سدّ هذا الفراغ بإصدار كتيبات صغيرة كل مجموعة في سلسلة مثل : نوابغ الفكر العربي ، ونوابغ الفكر الغربي وتصدرهما دار المعارف ، ومثل المجموعات التي أصدرتها الجمعية الثقافية المصرية بإشراف مؤلف هذا الكتاب في الأدب والاقتصاد والدين والنقد وغيرها .

وقد دأبت وزارة الثقافة والإرشاد منذ مدة على إصدار كتب دورية بأثمان رخيصة ، منها مجموعة : اخترنا لك ، واخترنا للطالب ، وكتب قومية ، وكتب سياسية ، وعيون المسرحيات العالمية ، وغيرها ، حتى تيسر على جمهور القراء شراءها والانتفاع بها .

كما عملت على تشجيع معرض الكتاب العربي في مناسبات مختلفة .. ويقوم المجلس الأعلى للفنون والآداب بإعطاء جوائز تشجيعية وتقديرية للمؤلفين ، وتعقد الدولة عيداً للعلم كل عام توزع فيه هذه الجوائز ويحضره الرئيس جمال عبد الناصر وكبار رجال الحكومة ، وقد بلغت قيمة هذه الجوائز في هذا العام ١٩٦٤ ثلاثة ملايين جنيه .

وبجانب هذا نرى إقبالا على المحاضرات الأدبية ، وانتشار قاعات المحاضرات والاهتمام بالأحاديث في المذياع ، حتى بلغ عدد المحاضرات الأدبية والثقافية المتنوعة في عام ١٩٥١ ما يزيد على ألف محاضرة .

وقد انتشرت المطابع العربية في أنحاء القطر المصري حتى زاد عددها عن الألف[١] ، وأخذت تزود الجمهور بشتى المؤلفات ، والكتب المترجمة ، والكتب القديمة التي نحا فيها العلماء نحو المستشرقين في الإخراج والتحقيق . وقد بلغ عدد الكتب الأدبية المؤلفة في سنة ١٩٤٧ مائة وثلاثين كتابا ، وفي سنة ١٩٤٨ ما يقرب من مائة وعشرين كتابا ، وفي سنة ١٩٥٠ ما يزيد عن مائة كتاب عدا كتب التاريخ والاقتصاد والفلسفة والاجتماع ، والسياسة ، والعلوم ، والدين ، والتصوف ، واللغة ، والمعارف العامة[٢] .

ومن أشهر الكتب الأدبية التي ظهرت في السنوات الأخيرة : أبحاث ومقالات

---

(١) الاحصاء العام سنة ١٩٤٥ المطبوع سنة ١٩٤٨ .
(٢) السجل الثقافي لسنة ١٩٤٨ ولسنة ١٩٥٠ — ١٩٥٢ .

لأحمد الشايب ، وأبو الفوارس لمحمد فريد أبو حديد ، وأدب مصر الإسلامية للدكتور محمد كامل حسين ، وعلى الأثير للعقاد ، وقصصنا الشعبي للدكتور فؤاد حسنين ، والجاحظ لشفيق جبري ، ورحلة الربيع للدكتور طه حسين : وصوت العالم لميخائيل نعيمة ، والنقد المنهجي عند العرب للدكتور محمد مندور والفتوة عند العرب والمسرحية لعمر الدسوقي ؛ كما ظهر فيض من القصص ودواوين الشعراء والكتب المحققــة .

وقد عظمت العناية بالترجمة ، وترجم الجيد والرديء من كل لغة ، فترجمت أميرة بابل لفولتير ، وأقاصيص لكبار كتاب الإنجليز ، والإنسان الكامل ، وجنيفا ، وحيرة طبيب لبرناردشو ، وترجم الدكتور طه حسين زاديج لفولتير ، وتُرجم طعامُ الآلهة لويلز ، والعالم الطريف لألدس هكسلي ، وفي خلال العصور والآلهة عطاش لأناتول فرانس ، وهنري وريتشارد الثاني والعاصفة لشكسبير عدا ما ترجمه مطران سابقاً ، ومدرسة الزوجات لأندريه جيد ، وسالومي لأوسكار وايلد ، وأناشيد الرعاة لڤرجيل ، والحياة والحب وكليوباترة لأميل لودڤيج ترجمة عادل زعيتر ، والمتحذلقات لموليير ، والندم لجان پول سارتر وقصة الحضارة لپول ديورانت ومئات غيرها[1] . وقد أخذت دار الهلال منذ سنة ١٩٥٢ تترجم أمهات القصص العالمية في أسلوب شائق وطبعات سهلة التناول ، كما ترجم فيض من الكتب في مختلف العلوم . ولقد وفدت على الشرق في سنة ١٩٥٣ مؤسسة (فرانكلين) الأمريكية للنشر وأسهمت في ترجمة أمهات الكتب الأمريكية في مختلف فروع المعرفة ، وقد اتخذت مصر مقراً لها ، وظهر من منشوراتها عدد من الكتب غير قليل . كما أن وزارة التربية والتعليم بمصر عنيت بترجمة المراجع ذات القيمة في العلوم المختلفة من شتى اللغات ويسرت نشرها وتداولها ، وكذلك فعلت الجامعة العربية ودور النشر الخاصة وظهرت مجموعة الألف كتاب في شتى فنون المعرفة ، كما ظهرت مجموعة الجمعية الثقافية المصرية ، ونوابغ الفكر العربي وغيرها .

ولقد نجم عن كل هذا : عن انتشار التعليم بأنواعه ، وكثرة الصحف والمجلات، وحركة إحياء الكتب القديمة ، والتأليف والترجمة من كل لغة تياران أدبيان في مصر يختلفان بعض الاختلاف في الهدف والآثار ؛ « ظهرت هذه الآثار في الأزهر حين

(١) راجع المصدرين السابقين .

عرضت الكتب القديمة في اللغة والدين والتفسير والحديث والكلام والفلسفة بنوع خاص ، فاضطرب إيمان الأزهر بالكتب القائمة والعلم المألوف ؛ وأخذوا في ثورة على تلك النظم وهذا العلم لم تزل قائمة ، ولم تظهر ثمرتها في الأزهر بعد . وظهرت بعيداً عن الأزهر أذواق الكتاب والشعراء ، وطائفة من القراء حين قرأوا طائفة من الشعر القديم : جاهليه وأمويه ، وعباسيه ، وحين قرأوا طائفة من كتب الأدب التي ظهرت أيام العباسيين ، فرأوا من هذا كله حياة للحس ، والعاطفة والعقل ، وأحسوا بُعْد ما بين هذا النحو من الأدب الحي ، وبين ما ألفوه من هذا الأدب الميت ، كما أحسوا أن هذا الأدب القديم الحي ، أقرب إلى نفوسهم ، وأقدر على تمثيل عواطفهم، وتصوير شعورهم من هذا الأدب الجديد الميت[1] » . وبجانب هؤلاء الذين تذوقوا الأدب العربي القديم الحي ، ووجدوا في لغته معيناً فياضاً يمدهم بما يعبرون به عن خلجات نفوسهم ، وجدت طائفة تتنكر لهذه اللغة وحاولوا أن يتركوها ، ويلجئوا إلى اللغة العامية ، لأنها في نظرهم أقوى على التعبير عن مقتضيات العصر الحاضر وأقرب إلى فهم الجمهور ، وأدعى إلى نشر العلوم العصرية[2] ، كما أن تياراً قوياً نحو الآداب الغربية وتقليدها قد سرى بين أدباء مصر والبلاد العربية .

وقد فطن إلى أن اللغة العربية في حاجة الى نهضة وتجديد وإحياء وتعريب كثير من العلماء ، حين انتشرت الحضارة ووجدوا أنفسهم إزاء آلاف من الكلمات والتعبيرات الأجنبية لا يستطيعون نقلها إلى اللغة العربية ، فيقول الشيخ إبراهيم اليازجي : يا ليت شعري ما يصنع أحدنا لو دخل أحد المعارض الطبيعية أو الصناعية ، ورأى ثمة من المسميات العضوية من أنواع الحيوان ، وضروب النبات ، وصنوف المعادن ، وعاين ما هناك من الآلات ، والأدوات وسائر أجناس المصنوعات ، وما تتألف من القطع والأجزاء بما لها من الهيئات المختلفة والمنافع المتباينة ، وأراد العبارة عن شيء من هذه المذكورات .

ثم ما هو فاعل لو أراد الكلام فيما يحدث كل يوم من المخترعات العلمية والصناعية ، والمكتشفات الطبية والكيماوية ، والفنون العقلية واليدوية ، وما لكل ذلك من الأوضاع والحدود والمصطلحات التي لا تغادر جليلا ولا دقيقاً إلا تد

---

(١) حافظ وشوقي للدكتور طه حسين ص ٣ — ٤ .
(٢) الأب لويس شيخو في الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين ص ٩٣ .

عليه بلفظ مخصوص ولا ريب أن الكثير من ذلك لا يتحرك له به لسان ، ولا يعهد له بين ألواح معجمات اللغة ألفاظاً يعبر بها عنه ، ولا يغنيه في هذا الموقف كثرة أسماء الأسد والسيف ، والعسل ، والعبير » [١] .

ويقول فتحي زغلول (باشا) حاثا على التجديد في تلك اللغة التي ورثناها عن آبائنا ، والتي مثلت حضارتهم أيما تمثيل ، ولكنها اليوم عاجزة عن أداء كثير من حضارة الغرب : « نحن إما عرب ، ومستعربون ، أو أجانب عن لغة العرب ، أو مولدون ، فإن كنا الأولين فلنا حقنا في التصرف بلغتنا كما تقتضيه مصلحتنا ، وإن كنا مستعربين فبحكم قيامنا مقام أصحاب هذه اللغة ، وبكوننا ورثناها عنهم بعد أن بادوا ، فليس من له أن ينازعنا في استعمال ما كان مباحاً لآبائنا من قبلنا ، وإن كنا أجانب أو مولدين ، فمن له أن يسيطر علينا ويحرمنا ثمر الكد في حفظ هذه اللغة وتفضيلها على غيرها من سائر اللغات ، فيلزمنا بالبقاء على القديم ، ويحكم علينا بالجمود ، واعتقال اللسان ؟ .

أخذ العرب العلوم عن أهلها ، ونقلوها إلى لغتهم ، فلما وجدوا منها استعصاء في بعض المواضع ذللوها ، وأخضعوا الغريب عنها لأحكامها ، فأيسرت ، ودرجت بعد الجمود ، فكانت لهم نعم النصير على إدراك ما طلبوا من نور وعرفان .

نسينا نحن أن زماننا غير زمانهم ، فكانوا أصحاب حول وطول ، وذوي مجد وسلطان ، ونحن على ما نعلم من الضعف والانزواء . على أنهم في عزهم ، وبعد فخارهم ، وتمكنهم من أنفسهم لم يعتزوا بلغتهم ، فلم ينفروا من العجمة لأنها عجمة ، بل استخدموها حيث وجب الأخذ بها تمكينا للغتهم ، وحذراً من أن يصيبها الوهن إذا قعدوا بها عن مجاراة تيار التقدم ، وهم أولو الرأي فيه ، وخوفاً من أن يعيقهم الجمود فيها عن حفظ مركزهم العظيم ، بين الأمم التي كانت تعاصرهم .

ليس لنا أن نتمسك بالقديم لقدمه ، وإن أصبح عديم الجدوى ، وإلا فأولى بنا أن نكف عن الدرس والمطالعة ، وأن نكتفي من كل شيء بما ورثنا عن الآباء لنعيش كما عاش الأولون .

---

(١) مختارات المنفلوطي ص ٨٠ — ٨١ .

عليكم بالتقدم ، فادخلوا أبوابه المفتحة أمامكم ، ولا تتأخروا فلستم وحدكم في هذا الوجود ، ولا تقدم لكم إلا بلغتكم ، فاعتنوا بها وأصلحوها وهيئوها لتكون آلة صالحة فيما تبتغون ، لكن لا تكثروا من الاشتقاق الخارج عن حد القياس والمعقول ، ولا تشوهوا صورتها الجميلة بتعدد الاشتراك ، أو التجوز ، ثم لا تقفوا بها موقف الجمود والعجمة تهددها علـى ألسنة العامة ، وهي لا تلبث أن تدخل على ألسنة الخاصة . أقيموا في وجه هذا السيل الجارف سداً مـن الاشتقاق المعقول والترجمة الصحيحة ، والتعريب عند الضرورة لتكونوا من الناجحين[1] » .

ويقول الشيخ محمد الخضري (بك) : « وأما عدم الحاجة إلى مزيد ؟ فهذا لا تدعيه لغة من لغات الأمم الحية ، لأن الأمم كلما كثرت حاجاتها وتجددت ، اضطرت إلى المزيد من الألفاظ في اللغة ، وهذا هر سر الحركة الدائمة في لغة الأفرنج بحيث ترون مجامعهم في شغل دائم ، لا يأنفون أن يجدوا يوماً ما في لغتهم كلمة زائدة دلت على معنى جديد ، وأكثر أحوالهم الاستعارة من غير لغتهم . وإذا كنا نرى عقولنا قد وقفت عن الاختراع ، فإنا نرى أنفسنا في حاجة إلى استعمال مخترعات المخترعين والتعبير عنها »[2] .

وقد حاول بعض العلماء قبل الحرب العالمية الأولى تكوين مجمع لغوي يضع كلمات جديدة ، أو يعرب أو يشتق من الكلمات القديمة لتساير اللغة موكب الحضارة الجارف ، وقد تكون هذا المجمع فعلا قبل الحرب العالمية الأولى برئاسة أحمد لطفي السيد ووضع بضعاً وعشرين كلمة اشتهر بعضها ومات كثير منها[3] ثم انفض واجتهد كثير من المعربين في وضع كلمات جديدة ، ولكن المسألة صارت فوضى ، فقد توضع أكثر من كلمة لمدلول أجنبي واحد . وأخيراً أنشىء مجمع (فؤاد الأول) للغة العربية ، في ١٣ من ديسمبر ١٩٣٢، وقد سمي في سنة ١٩٥٤ مجمع اللغة العربية. وأهم أغراضه المحافظة على سلامة اللغة العربية وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها ،

---

(١) مختارات المنفلوطي من ص ١١١ ــ ١٢٠ .
(٢) المصدر السابق ص ١٨٤ .
(٣) المصدر السابق ص ٨٧ .

ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر وأن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية ، وأن ينظم دراسة علمية للهجات العربية الحديثة وأن يبحث كل ما له شأن في تقدم اللغة »[١] .

ولقد كان للاهتمام باللغة أثر عظيم في تزويدها بكثير من الكلمات الاصطلاحية والفنية والأدبية التي تعوزها ، وسهل النقل نوعاً ما من اللغات الأجنبية ، ولا سيما في الأدب . وهذا هو البستاني[٢] ينقل لنا إلياذة هوميروس شعراً في مستهل هذا القرن ! ويجدر بي أن أعرف بهذه الترجمة وبالمجهود الفذ الذي بذل فيها ، فقد ابتدأ البستاني ينظم الإلياذة في أواخر سنة ١٨٨٧ ، وهو بالقاهرة نقلا عن الترجمات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية ، ثم بدا له أن ينقلها رأساً عن الأصل اليوناني ؛ فدرس اليونانية على راهب يسوعي حتى أحكمها فراجع ما كان ترجمه ، ونقح ما فيه من الخلل ، وكانت الإلياذة ترافقه في أسفاره الكثيرة حتى انتهى من نظمها في ١٨٩٥ ، ووضع لها شرحا ، فكان عمله شاقا راجع من أجله كثيراً من الكتب العربية والأعجمية في الشعر والأدب والتاريخ . ويتضمن الشرح نحو ألف بيت لمائتي شاعر عربي بين جاهلي ومخضرم ، وإسلامي ومولد ، قالوا في مثل معاني الإلياذة أو حوادثها ، ويشتمل على طائفة كبيرة من أساطير العرب ، وعاداتهم ، وأخلاقهم ، وآدابهم في بداوتهم وحضارتهم . وكان انتهاؤه منه في سنة ١٩٠٢ ، وطبعت الإلياذة وشرحها في القاهرة في ربيع سنة ١٩٠٣ ، ونشرت بمقدماتها وفهارسها ١٩٠٤ وهي تشتمل على نحو أحد عشر ألف بيت ، ذلّل فيها الشعر العربي وأوزانه للملاحم الطويلة . ومن المعلوم أن القيام بنظم مثل هذه الملحمة الطويلة لا يتأتى إلا إذ تحرر الشاعر من عبودية الوزن الواحد ، والقافية الواحدة ، وهكذا صنع البستاني ، فإنه جعل الأناشيد على طرق شتى فمنها ما قطعه قصائد مختلفة ، ومنها ما نظمه قصيدة واحدة من غير أن يرعى القافية الواحدة ، وتوسع في اتخاذ الموشحات والأراجيز والمخمسات ، وفي استنباط ضروب جديدة كالمثنى والمربع والمثمن وما أشبه ، وحاول

---

(١) راجع صحيفة المجمع اللغوي العدد الأول الفقرة الأولى ، والسجل الثقافي سنة ١٩٤٧ — ١٩٤٨ ص ٢٣٨ .

(٢) هو سليمان بن خطار بن سلوم بن نادر البستاني ولد سنة ١٨٥٦ ، وتوفي سنة ١٩٢٥ .

على قدر المستطاع أن يراعي لكل نوع مقاما ، ولكل موضوع بحرا[١] .

وقد أعطى البستاني بإخراجه الإلياذة شعرا نموذجا قويَّ الأسلوب مشرق الديباجة للشعراء الذين يحاولون نظم الملاحم ، أو نظم المسرحيات ، وكيف يتصرفون ، ويتحللون من نظام القصيدة ؛ ونحن لا يعنينا الآن الخوض في قيمة الإلياذة ، وأثر نقلها في اللغة العربية بقدر ما يعنينا تلك الطريقة التي ترجمت بها ، والمقدمة التي كتبت لها ، فقد كانت درسا جديداً في مستهل هذا القرن لدراسة الأدب، والنقد الأدبي ، على غير ما ألـف نقاد ذلك الوقت ، من الاهتمام بالألفاظ والمعاني وائتلافهما وأوجه البيان ، والأخطاء اللغوية ، وما شاكل ذلك ، بدون درس وتحليل ، ومعرفة العلل والأسباب والنتائج ، والموازنة بين الآداب بعضها وبعض ، ولذلك كانت هذه المقدمة ذات أثر جليل في النقد الأدبي ، ولا زالت حتى اليوم تحتل هذه المكانة لدى من يقدرونها قدرها .

ولا ريب أن انتشار التعليم وكثرة المطابع ، والمؤلفات ، والكتب المترجمة من شتى اللغات في الآداب والعلوم ، قد أفاد الأدب فائدة عظيمة لأن ثقافة الأديب قد اتسعت آفاقها ، وثقافة القارىء لم تعد تقنع بالشعر التافه ، الخالي من المعاني ، أو بالشعر التقليدي الذي لا يمثل حياة الأمة ، ولا يعبر عن مشاعرها ، ولا يغذي عواطفها . ولقد اشتد بعد الحرب العالمية الأولى الإقبال على تقليد الآداب الأوربية في موضوعها ، وطريقتها ، وقالبها فانتشرت القصة بأنواعها ، وكثرت الترجمة لها ثم محاكاتها ، ونقلت مسرحيات عديدة مثلت في دور التمثيل المصرية ، وأخذ الأدباء ، ومحترفو التمثيل يضعون على نمطها مسرحيات تعالج مشكلات المجتمع المصري[٢] . وليس من همي في هذا المقام أن أفيض في الكلام على القصة ، أو المسرحية ، أو

---

(١) راجع مقدمة الالياذة للبستاني ، وادباء العرب لبطرس البستاني ص ٣٤٠ — ٣٤٢ ومجلة المشرق للأب لويس شيخو ١٩٠٤ ص ٨٦٥ وما بعدها .

(٢) مثل محمود تيمور في رواياته الشيخ جمعة ، والحاج شلبي سنة ١٩٣٠ ، والشيخ عفا الله ، وابو علي سنة ١٩٣٤ ، والوثبة الأولى . ومثل قصص عبد القادر المازني في صندوق الدنيا ومثل مسرحية ليلة كليوباطرا للدكتور حسين فوزي والضحايا لانطون يزبك ، والوحوش لمحمود كامل ، والأنانية لابراهيم المصري ، ومن اهم المسرحيات التي كان لها أثر في المسرح المصري (مصر الجديدة ؛ ومملكة اورشليم وصلاح الدين) لفرح أنطون المتوفى سنة ١٩٢٢ وقد وفينا هذا الموضوع حقه في كتابنا (المسرحية نشأتها وتاريخها وأصولها) .

المقالات النثرية ، أو الكتب الأدبية التي تأثرت بطريقة البحث الغربية ، من حيث التمحيص والتحليل ، والتعرف على الأسباب والعلل والوصول إلى أحكام واستنباطات صحيحة أو قريبة من الصواب على الأقل ، فإن غايتي الآن أن أدرس العوامل المؤثرة في الشعر •

لقد اطلع الشعراء على الكتب المترجمة ، وعرفوا ألواناً من الأدب الغربي ، وكثير منهم كان على صلة بهذا الأدب من غير وساطة ، فحاولوا التجديد في أسلوبهم ، وموضوعاتهم وحاولوا الخروج على تقاليد الشعر العربي القديم ، أو التجديد في أغراضهم ومعانيهم • وقد خطا شوقي أمامهم خطوة واسعة بوضعه عدة مسرحيات تاريخية شعرية ، وهم اليوم ينسجون على منواله ؛ وظهرت مذاهب أدبية جديدة في الشعر القديم ، حمل لواءها مطران ، وشكري ، والمازني ، والعقاد ، وشيبوب ، وجاراهم شباب الأدباء •

وأهم ظاهرة تستحق التسجيل هي العناية باللغة العربية ، والأسلوب ، وبلغ هذا الأسلوب غايته عند شوقي في الشعراء ، وإن كان شعراء المدرسة الحديثة يؤثرون الاهتمام بالموضوع والمعاني على الاهتمام باللفظ والأسلوب ؛ ولكن يظهر أن طبيعة الشعر العربي تتطلب جودة الأسلوب وحسن النّغم ، وجمال الموسيقى ، ولذلك لم تستسغ الآذان ، أو لم تتعود بعد شعرهم هذا ، فلم يلاقوا من الشهرة والإقبال ما قدروا لأنفسهم •

وقد كان من أثر هذه الثقافة العامة الواسعة للشعب أن ارتفعت الأغاني ، ونظم كثير منها باللغة العربية الفصيحة ، وتركت (الأدوار) و (المواويل) التي كانت تنظم بالعامية • ومن يتصفح ديوان إسماعيل صبري يجد بآخره مجموعة من الأغاني التي نظمها الشاعر باللغة العامية ، مجاراة لزمنه ، وجمهوره ، ولكنا منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى حتى اليوم قد ألفنا سماع كثير من الأغاني الجيدة بالشعر العربي الفصيح ، والفضل في ذلك لشوقي ، واختياره أبرع الموسيقيين لتلحين تلك القطع الرائعة من الشعر الغنائي التي جاءت في رواياته المسرحية مثل (أنا أنطونيو) ، ومن غير مسرحياته مثل : « يا شراعاً وراء دجلة » ، « وبي مثل ما بك يا قمرية الوادي » • وحظي شعر شوقي بعد وفاته بإقبال المغنين عليه ، يختارون منه القطع الرائعة ، كنهج البردة ، والهمزية ، والسودان • وحذا الشعراء حذو شوقي ، وأقبلوا

على وضع القطع الغنائية باللغة الفصيحة ، واستساغ الشعب هذه الأغنيات ، وحفظها ورددها ، وذلك ولا شك رقي بذوقه اللغوي ، ونهوض به • ونرى المغنين حين تعوزهم القطع الغنائية الجديدة ، ينقبون في الشعر العربي القديم على القصائد التي تصلح للتلحين الحديث ، وهكذا نهض الغناء نهضة تبشر بأن ذوق الأمة سائر نحو التهذيب الصحيح ، وأن اللغة العربية في طريق السيادة التامة ، حتى على ألسنة الجمهور •

وكثرت كذلك العناية بكتب الأطفال ، وتزويدهم بالشعر السهل الذي تتلاءم معانيه وأخيلتهم ومداركهم • وقد اهتم شوقي بهذا النهج ونظم عشرات القطع السهلة خرافية وغير خرافية ، ترمي إلى التهذيب ، والترويح عن الأطفال • وسار كثير من الشعراء على نهجه ، وأخذوا في نظم الشعر المدرسي للأطفال ، حتى صار عندنا فيض منه ، وهذه لعمري ظاهرة تستحق التقدير ، لأنها تعود التلميذ من الصغر على قراءة الشعر ومحبته ، وتطبع لسانه على اللغة الفصحى ، لأن الشعر أسهل حفظاً، وأيسر تذكراً من سواه • كما وضعت المسرحيات المدرسية الشعرية التي يقبل الطلبة على تمثيلها بسرور وإتقان • ومن الذين اشتهروا بنظم الشعر السهل الملائم للأطفال في صورة مقطوعات محمد يوسف المحجوب وفايد العمروسي وعبد العزيز عتيق وعلي عبد العظيم كما أن علي عبد العظيم ومحمد يوسف المحجوب اشتهرا بالمسرحيات الشعرية المدرسية •

وعنيت وزارة الشئون الاجتماعية بالمسرحيات الشعرية ، وغير الشعرية ، وخصصت في كل عام جائزة لأحسن مسرحية ، فجد الشعراء في وضع المسرحيات الجيدة[١] كما عني مجمع اللغة العربية بتخصيص جائزة مالية كل عام للشعر ، وهذا كله يحفز الشعراء على التجويد والعمل •

هذه لمحات سريعة ، وإشارات عابرة لما كان للنهضة القومية من أثر في ميدان الثقافة ، وما كان لها من أثر على الشعر ، وكم كنت أود أن أسوق أمثلة ونماذج أؤيد بها ما ذكرت ولكنني سأكتفي بهذا القدر ، مرجئاً تلك النماذج إلى حين دراسة الشعراء ، والتحدث عن ثقافة كل شاعر ، ومقدار ما أفاده من تلك النهضة الشاملة ، حتى لا أضطر إلى التكرار •

---

(١) من ذلك مسرحية ولادة للشاعر علي عبد العظيم ، وغرام يزيد ، والمروءة المقنعة للشاعر محمود غنيم.

— ٣ —

المظهر الاجتماعي :

ومن أهم مظاهر النهضة القومية المظهر الاجتماعي ، فالشعب هو المعين الذي يزود الأمة برجالها الحاكمين ، وساستها القادرين ، وزعمائها المصلحين ، وعلمائها الأعلام ، وكتابها المرشدين ، وشعرائها المجيدين ، ومهندسيها البارعين ، وأطبائها الأفذاذ • وهو ثروة معنوية عظيمة ، وكنز ثمين ؛ والشعب اليقظ الفطن ، المثقف ، الحريص على منفعته هو الذي يوجه الأمة في مجموعها وجهة صحيحة نحو الرقي لا يسمح لأحد أن يعبث بمصالحه ، أو يتغفله ، أو يبرم أمراً لا يرضيه • وللشعوب في أوربا مهابة عظيمة ، يترضاها الزعماء والحكام والكتاب ، ويسعى الكل جادين على إنهاضها ورقيها ، فهي حصن الأمة حين الفزع ، وقوتها التي ترهب بها أعداءها ، لأن الشعب هو القوة العاملة الكادحة ، وهو صاحب المنفعة المباشرة من رقي الأمة ؛ ولقد تغيرت في القرن التاسع عشر عقلية الشعوب ، ولم تعد ترضى الحكم المطلق ، ولا أن تسام الخسف والهوان على يد حاكم مستبد ، يمتص دماءها ويسخرها في سبيل شهواته وأطماعه ، وطالبت جادة بالاشتراك في الحكم ، وأن يؤخذ رأيها في كل صغيرة وكبيرة •

ولقد تأثرت مصر بهذه النزعة ، ونعلم أن الثورة العرابية قد تطورت إلى المطالبة بالحكم النيابي ورفع الضيم عن الشعب ، ولا ننسى حملة جمال الدين وصحبه على إسماعيل ، ثم على توفيق ، وقد رأينا كيف عم الفرح بلاد العرب والإسلام حين أعلنت تركيا الدستور في سنة ١٩٠٨ ، وجهر شاعر مثل إسماعيل صبري بأن مصر لا بد أن تنال مثل ما نالت تركيا ، وناشد عباساً أن يعطي مصر نصيبها في الحكم النيابي • وجاهد مصطفى كامل ومحمد فريد ، ورجال الحزب الوطني في أن يمصروا التعليم ويحافظوا على اللغة العربية ، وعلى مظاهر القومية في الثقافة كما رأينا آنفا ، وأسهم الشعراء والأدباء في الحث على ذلك •

ومن المظاهر التي استحقت العناية : عناية المصلحين ، وعناية الأدباء — مشكلة الفقر بمصر ، فقد تخلف عن عهود الإقطاع أن حظي فريق من المصريين بثروة عريضة ، وغنى فاحش ، وأنفقوا بسرف ، وعربدوا بدون وعي ، بينما سواد الأمة في فقر مدقع •

وقد تخلفت عدة مشكلات اجتماعية نتيجة هذا التفاوت الفظيع بين الطبقات ، فازداد الغني غنى والفقير فقراً • والفقر يفضي إلى التسول والتشرد ، وارتكاب الجرائم ، وضعف الصحة بين العمال والفلاحين ، وهم لا يملكون القدرة على العلاج • كما أن الفقر يحرم الأمة ثروة معنوية كبيرة تفيدها في نهضتها حيث لا يمكن الفقراء من التعليم ويظلون في جهل عميم • وكان من أوضح المشكلات الاجتماعية ، الأطفال المشردون ، نتيجة لهذا ، ونتيجة لجهل الطبقة الدنيا بتعاليم الإسلام ، والإكثار من الزواج والطلاق ، مع عدم قدرتهم المالية على تربية أولادهم • لذلك كثر الاهتمام بهؤلاء الأطفال الذين يعدون قذى ً في عين الأمة وسبّة ً لمصر الغنية التي تنبت أرضها الذهب ، والتي يبشم فيها فريق حتى يسأم ، ويبعثر المال ذات اليمين وذات اليسار في سفه وطيش •

وكان حافظ إبراهيم قبل أن يدخل سجن الوظيفة شاعر مصر الاجتماعي الذي يأسى لما تعاني من أدواء وعلل ، وهو الذي ذاق مرَّ الفقر ، وكوي بنار الفاقة ، وعرف ذلَّ الحاجة والبؤس ، وكان متأثراً بمبادىء الحزب الوطني الذي كان في أوجه حينذاك ، والذي كان يهدف إلى نهضة الأمة في كل مرفق من مرافق الحياة ، لا في السياسة فحسب • ولحافظ أكثر من قصيدة في وجوب العناية بهؤلاء الأطفال الذين إن أهملوا كانوا حرباً على الأمة في المستقبل ، وصاروا عيارين ، وسفاحين ، وأفاقين ، وعالة ً على المجتمع ، يعاني منهم — وقد كبر معهم شرهم — أسوأ الأدواء وأضرها فتكا به •

قال حافظ في رعاية الطفل سنة ١٩١٠ قصيدته التي مطلعها :

شبحاً أرى أم ذاك طيف خيال   لا ، بل فتاة" بالعراء حيالي
أمست بمدرجة الخطوب فما لها   راعٍ هناك وما لها من والي

وقال في ملجأ رعاية الطفل سنة ١٩١١ قصيدته التي مطلعها :

صفحة البرق أومضت في الغمام   أم شهاب يَشُقُّ جوف الظلام

وفيها يحث على الإحسان بقوله :

دعوة البائس المعذب سور"   يدفع الشر عن حياض الكرام

وهي حرب على البخيل وذي البغ ي وسيف" علـى رقـاب اللئام

وفيها يقول منوِّهاً بفضل الزكاة لمن يستحقها :

وعلمنـا أن الزكـاة سبيل الل ه قبـل الصلاة ، قبـل الصيام
خصَّهـا الله في الكتاب بذكـر فهـي ركن الأركان في الإسلام
بـدأت مبـدأ اليقـين وظلـت لحيـاة الشعـوب خـير قيـام
لو وفى بالزكاة مَن جمع الدن يا وأهوى علـى اقتناء الحطام
ما شكا الجوعَ معدم أو تصدى لركـوب الشـرور والآثـام
راكبـاً رأسه طريـداً شريـداً لا يبالـي بشِرعـةٍ أو ذمـام
سائلاً عـن وصيـة الله فيـه آخـذاً قوتـه بحـد الحسـام

ويقول في حفل أقامته جمعية رعاية الطفل سنة ١٩١٣ ، في محاورة بينه وبين مطران :

هـذا صبـي هائـم تحت الظلام هـيام حائر
أبلـى الشقـاء جديده وتقلـّمت منـه الأظافر
فانظـر إلـى أسمالـه لم يبق منها ما يـُظاهر

ويقول في دعوة للإحسان سنة ١٩١٥ ، وفي الجمعية الخيرية ١٩١٦ ، وفي إعانة العميان ١٩١٦ ، وفي ملجأ الحرية ١٩١٩ ، ومن قوله في الجمعية الخيرية الإسلامية على لسان يتيم آوته الجمعية ، وانتشلته من وهدة الفقر والجهل والتشرد :

قضيتُ عهـد حداثتي مـا بـين ذل واغتراب
لم يـُغن عني بين مشر قها ومغربهـا اضطراب
صفرت يدي فخوى لها رأسي وجوفي والوطاب
لم يبق من أهلي سوى ذكـر تناساه الصِّحاب
أمشـي يرنـّحني الأسى والبؤس ترنيحَ الشراب

ولا يكتفي بهذا في الحض على مساعدة الأطفال البائسين ، والعمل على النهوض بهم ، بل يأسى لما يلاقيه الشعب من غلاء ، لا يكتوي به إلا ذوو المورد المحدود ، والذين يكدحون في سبيل الرزق ، وتتصبب جباههم عرقاً إبّان العمل ، ولا يحس به من ورثوا المال الطائل وجاءهم هيناً ليناً ، فبعثروه في يسر وسخاء غير آسفين ولا نادمين ، لا يحسون بغلاء ، ولا تقف دون رغباتهم عقبات :

أيها المصلحون ضاق بنـا العيـ ـشُ ولـم تحسنوا عليه القياما
عزّت السلعـة الذليلـة حتـى بات مسح الحذاء خطباً جساما
وغدا القوت في يد الناس كاليا قوت حتى نوى الفقير الصياما
ويخال الرغيف في العيـد بدراً ويظـن اللحوم لحمـاً حرامـا

على أن حافظاً بعد ثورة سنة ١٩١٩ انصرف عن الشعر الاجتماعي إلا القليل كقوله في حفلة مدرسة للبنات ، أو في جمعية الطفل سنة ١٩٢٨ قصيدة واحدة ؛ صمت حافظ عن السياسة ، وصمت عن وصف الطبيعة المصرية ، وصمت حتى عن الشعر الاجتماعي الذي ظهرت فيه موهبته ، والذي لا حرج عليه فيه إن قاله • ولست أدري لصدوف حافظ عن الشعر الجيد الكريم الغرض في هذه الحقبة تعليلاً ، إلا أن طاقة حافظ الشعرية قد نفدت وقريحته قد نضبت ، وأنه قال سابقاً في فورة من فورات النفس ، ثم ران عليها اليأس والخوف ، وانصرفت لرثاء العظماء ، وإلى إغفاءة طويلة لا تتنبه منها إلا في فترات متباعدة فتحس بما حولها • فيخرج قصيدة اجتماعية ، أو مقطوعة سياسية يحاول إخفاءها جهده حتى لا يضارّ بشيء ، مع أنه لو نشرها ما أصابه ضرّ ؛ إذ ليس فيها ما يخشى منه أشد الناس جبناً • ولكنه على كل كان قبل الحرب العالمية الأولى ، وفي خلالها شديد العناية بمصر وشئون مصر •

وليس كذلك شوقي ، فهو قبل الحرب الأولى ، كان حبيساً في قفص من ذهب ، مقيداً بقيود القصر ، وغل الحاشية ، وأغلب الظن أنه لم يكن يدري عن حالة البؤس والفاقة التي يعانيها سواد الشعب شيئاً ، وإذا درى فقلما يحس الآلام أو يتذكرها ، وليس له بها عهد ، أو إدراك ، ولا نسمع له في هذه الحقبة إلا ثلاث قصائد في الهلال

الأحمر والصليب الأحمر، أولاها موجهة إلى توفيق باشا وزوجته، وهي التي مطلعها :

جبريل هلّل في السماء وكبِّر   واكتب ثواب المحسنين وسطِّر
سل للفقير على تكرّمه الغنى   واطلب مزيداً في الرخاء لموسر

ويتخذ القصيدة في الهلال الأحمر وسيلة لمدح توفيق وزوجته :

يا بنت إلهامي دعاء معظِّم   لسماء عزك في البرية مكبر
توفيق مصر وأنتَ أصلٌ في الندى   وفتا كما الفرعُ الكريمُ العنصر

والقصيدة الثانية قيلت إبان حرب طرابلس ، وفيها حث على مساعدة الهلال الأحمر ليعنى بجند الترك وأهل طرابلس ، فليست منبعثة عن شجى لحال المنكوبين ، وعن شعور صادق بآلامهم ، ومطلعها :

يا قومَ عثمانَ والدنيا مداوَلَةٌ   تعاونوا بينكم يا قوم عثمانا

وفيها يقول في كلام عام لا يصور الفاقة والبؤس كما صورهما حافظ :

البرُّ من شعب الإيمان أفضلها   لا يقبل الله دون البر إيمانا
هل ترحمون لعلَّ الله يرحمكم   بالبيد أهلا ، وبالصحراء جيرانا ؟

وليس لشوقي في الواقع شعر في الفاقة والبؤس ، والعناية بالفقراء لا قبل الحرب العالمية الأولى أيامَ أن كان مقيداً بتلك القيود التي أشرنا إليها ، ولا بعد أن عاد من المنفى ، وذاق فيه مرارة الحرمان • ولكنه كان على كل حال — حتى وهو في منفاه — في يسر من العيش ورغد ن الحياة ، ولذلك لم يشعر بتلك الآلام المبرحة التي يعانيها الفقراء ، ولم يألف المواطن الشعبية التي يغشاها هؤلاء الفقراء ، والأطفال المشردون ، وإنما كان يعيش بعد عودته من المنفى في بيئة محوطة بالعناية والثراء ، قليل الاختلاط بالناس ، اللهم إلا طبقة من خلصاء الأصدقاء يزورهم في سيارته الفارهة الفخمة ، ويمر بمواكب البؤس ومناظره ، لا يراها ولا يحس بها •

أما مطران فحاله كحال شوقي من حيث ندرة ما قال عن الفقراء ، ووصف حالتهم البشعة ، وحث الأمة على العناية بهم ، وتتصفح ديوانه كله فلا تجد إلا

قصيدتين ، وثلاث مقطوعات كل مقطوعة في بيتين ، وليس فيها ذلك الشعور الذي تراءى في شعر حافظ ، وأغلب الظن أنها متكلفة ، طلب إليه أن يقول فقال . فمن تلك المقطوعات قوله :

حبَّب الفقـر إلينـا   منك إحسانٌ شريف
فاشتهى الموسر منـا   أنـه عـافٍ يطوف

ويقول في قصيدة عنوانها « دعوة الخير » ، وهي كلام عام ، وحكم متداولة مما يقال عادة في هذه المناسبات :

مهمـا تَقِل ثمالة الموجود   لا تحرم المسكين قطرة جود
فإذا حباك الله فضلاً واسعاً   فالبخل خسرانٌ وشبه جحود

ويقول في ملجأ الحرية الذي أسسه الدكتور عبد العزيز نظمي والذي قال فيه حافظ سنة ١٩١٩ ، بعض تلك الحكم ، من غير تصوير ، أو ألم ، أو عاطفة ما :

إن لم يَصُن خلقَ الصِّغار مهذب   مـاذا يحـاول وازع ومشَرِّعٌ
أوْ لمْ يكن أدبُ السجايا رادعاً   للناشئين هـل العقوبـة تَرْدَعُ
في كل قطر (ملجأ) ، أفما لنـا   في أن نجاري مـا يُجاري مطمع
مـا بالنـا نجـدُ الشعوب أمامنا   وعلـى مثال صنيعهم لا نصنع ؟

هذا ما كان من شأن مطران ، وأما إسماعيل صبري فليس له في هذا الموضوع قليل أو كثير ، وكأن مصر ليس بها فقراء معدمون ، أحلاس مسغبة ، وأنى لصبري أن يصف الفاقة والبؤس وأهلهما ، وقد عاش عيشة مترفة منعمة ، وقد قال عنه الدكتور طه حسين في المقدمة التي صدر بها ديوانه : « وكيف السبيل لطالب من طلاب الأزهر ، أو من طلاب الجامعة القديمة ، شديد الحياء أن يتصل بهذا الرجل الأرستقراطي ، الذي كان يشغل منصباً رفيعاً من مناصب الدولة ، ويلقب بلقب رفيع من ألقابها ، ولا يجلس حيث كان يجلس الشعراء في هذه القهوة أو تلك ، ولا يختلف إلى حيث يختلف الشعراء في هذا النادي أو ذاك »[١] .

---

(١) انظر مقدمة ديوان صبري ص ٩ .

ونرى محمد عبد المطلب يطرق باب هذه المشكلة في أربع قصائد ، ثلاث منها في جمعية المواساة الإسلامية قال أولاها في سنة ١٩١٣ والثانية في سنة ١٩١٤ ، والثالثة في سنة ١٩٢٨ أما القصيدة الرابعة فقالها في الحرب والغلاء سنة ١٩١٨ •
ونرى عبد المطلب في قصيدة المواساة الأولى يصف حالة الفقراء ، وما يكابدون من جهد ، وجوع ، وعري •

أسألتَ باكية الدياجي ما لها　　　أرِقت فأرَّقت النجوم حيالها
باتت تكفكف بالوقار مدامعاً　　　غَلب الأسى عبراتهـا فأسالها

وينتهي من هذا الوصف إلى الثناء على رجال المواساة ، ثم إلى مدح عباس ، وأم المحسنين • وأما القصيدة الثانية فقد جعلها قصة يصف فيها حال فقير بائس ، له صبية صغار يتضاغون من الجوع ، ويتلوون من الألم ، وله جار رب قصر منيف :

قصر يشق السماء طولا　　　فخم الدِّعامات ذو منار
تـلألأ الكهرباء فيـه　　　تلألؤ الكُنَّس الجواري
كأنـه والظلام سـاج　　　مـن حوله آيـة النهار
ومركب كالنسيم يجري　　　على الثرى آمن العثار
والمال يجبى إليه كيلاً　　　فمن ضياع ومن عَقار

ويرى هذا الفقيرُ جاره الغني ، في كل ليلة ، وموائده عامرة بكل ما لذ وطاب ، والخدم يروحون ويجيئون :

فتلـك في كفهـا حنيذ　　　علـى إناء مـن النضار
وتلك من خلفها بصحن　　　عليه حوت مـن البَهار

وهذا الفقير يشتهي فتات المائدة ويدعو الله أن يعطف عليه هذا الجار ، ولكن لا يستجاب دعاؤه ، حتى يأتيه رجل المواساة بالبر والعطف والخير والمواساة •

وأما القصيدة الثالثة فليس فيها هذا التصوير البارع ، وإنما هي كلام عام ومدح وثناء على عناية رجال المواساة بالبائسين من كل صنف •

فكـم صانوا كرامة ذي إباء ... وكـم صاغوا لبائسة حجابـا
وكم مدوا لذي الحاجات راحاً ... تسابق في تكرمهـا السحابا

وأما قصيدة الغلاء ، فقد قالها بعد أن فتكت الحرب بما اختزن الناس وما بقّي في مصر من خيرات أربع سنوات كاملة ؛ وكان أشد الناس ألماً من الغلاء هم موظفو الحكومة .

فـوا رحمتا لابن الحكومة قوسـه ... قَلـوع ، وهَلْ يرجى سَداد قَلوع (١)
ومن حوله غَرثى ، عيالٌ ونسوة ... طواهـا الطوى في ذلـة وخضوع (٢)
تَقَلّب في جـوع وعُري يؤودها ... وحسبك مـن عري يؤدد وجوع (٣)
غلا كل شيء مـن مرافق عيشها ... علـى ربهـا مـن مُسْلَم ومبيع

وهذا شعور من اكتوى بنار الغلاء ، وعجزت موارده وقصرت يده عن تحقيق رغباته ورغبات أسرته الضرورية ، فهو يصف حالة عاناها ، وآلاماً قاساها ، وقد كان موظفاً عفيفاً محدود الدخل ، فهو وحافظ إبراهيم صادقان ، صدرا في وصف الغلاء عن شعور صحيح ، أما إسماعيل صبري ، أو شوقي ، أو مطران ، فلم يحسوا بِعَوَزٍ أو ضيق في خلال الحرب الماضية ، ولذلك لم يخطر لهم ببال وصف الغلاء ، وما فعله بالناس .

ولأحمد محرم أكثر من قصيدة في مشكلة الفقر والغنى ، وهو قوي في شعوره ، غني في تصويره ، جريء في تعبيره ؛ مما يدل على شدة انفعال ، وفَرْط حساسية ، استمع إليه يصف هذا البؤس في أحد مناظره :

رأيت الهـول ينبعث ارتجالا ... فتنصدع القلوب لـه بديهـا
رأيت البؤس يركض في جلود ... يجانبهـا النعيـم و يحتميهـا
رأيت بيـوت ساغبة تَلوَّى ... كأمثال الأراقم مـلء فيهـا
تريـد طعامها والبيت مُقْوٍ ... فتوشك أن تميل علـى بنيها

---

(١) قوس قلوع : تنفلت حين النزع فتنقلب .
(٢) غرثي : جياع .
(٣) يؤودها : يبلغ منها الجهد والمشقة .

أنيلونـــا الدِّيات ولا تكونـــوا   كمن يُرْدي النفوس ولا يَديها

فهو يحمل الأغنياء وزر قتل الفقراء مسغبة وبؤساً ، وحق القاتل شرعاً أن يدفع الدِّية ، وإلا كان مجرماً وسفاحاً خارجاً على القانون ، اللهم إلا اذا عامل البشر معاملة الحيوان الأعجم الذي يذبح ، ولا دية له ، وهو ينعي على أثرياء مصر أثَرَتهم ، وعدم اهتمامهم بهؤلاء الذين يُعْولون ، ويصرخون ويغولهم الفقر ويفتك بهم البؤس والشر :

أكلُّ امرىء في مصر يسعى لنفسه   ويطلب أسباب الحيـــاة لذاتـــه
طروب الأماني مـــا يبالي بشعبه   وإن مـــلأ الدنيا ضجيجُ نعاته
إذا نال ما يرجوه لم يعنه امرؤ   سواه ولـــم يحفل بطول شكاته
سواء عليه منزل السخط والرضا   إذا نال ما يرضيه من شهواته
يرى الدين والدنيا ثراء يصيبه   وقصراً تزِل العين عـــن شرفاته

وهكذا نرى بعض الشعراء قد تأثر لهذه المشكلة الاجتماعية ، التي لا تزال جاثمة رابضة في مصر الغنية ، لم تحل بعد ، ولم يرعو ذوو اليسار عن غيهم ، أو يزدجروا عن شرهم ، أو يطامنوا من شهواتهم ، أو يتستروا في مباذلهم ، وتظاهرهم هذا بالفساد يعتصر قلوب مواطنيهم الذين لم يواتهم الحظ من ثراء موروث ، أو مغتصب ، فيزدادون عليهم حقداً وموجدة، وتعمل في نفوسهم المبادىء الفتاكة عملها.

ولقد كان شعراء الجيل الماضي ذوي حساسية ، وإدراك لأدواء هذه الأمة ، فقالوا، وحضوا على الإحسان، ونبهوا الأثرياء، ولكن ما بالنا اليوم وقد خفت صوت الشعر والمشكلة لا تزال على أشدها ، والغلاء الشنيع قد طوح بكل القيم ؟[1] .

على أن مشكلة الفقر والغنى ليست المشكلة الوحيدة التي نظر إليها شعراء الجيل الماضي بل اهتموا بكل ظاهرة من ظواهر التقدم والرقي ، وكل ما يحفز الأمة

---

(١) لقد تغير الوضع بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وقامت حكومة الثورة بعدة إصلاحات جذرية لمعالجة هذه المشكلة ، وتلافي التفاوت الشنيع بين الطبقات كان من أهمها قانون الاصلاح الزراعي ، والقضاء على الاقطاع والراسمالية والاحتكارية وتأميم الشركات الكبرى ، والسير في طريق الاشتراكية المبنية على الكفاية والعدالة الاجتماعية .

على أن تتبوأ مركزها العظيم الذي يليق بماضيها الحافل بالحضارات ، واهتموا كذلك بكل بادرة من داء يوهن هذه الأمة ، ويمكن لأعدائها ، أو يضعف بنيها .

وقد اتجه الشعراء اتجاهات مختلفة في هذا ، فشوقي عني بمظاهر النهضة ، والإشادة بها والحث عليها فيقول في الجامعة قصيدته الثانية[١] في سنة ١٩٢٦ والتي مطلعها :

تـاجَ البلاد تحيـة وسلام   ردّتك مصر وصحت الأحلام[٢]

ويقول في الصحافة قصيدته التي مطلعها :

لكـل زمـان مضـى آيـة   وآيـة هذا الزمان الصحف[٣]

ويقول في العلم والتعليم قصيدته التي مطلعها :

قـم للمعلـم وفـّه التبجيلا   كاد المعلم أن يكون رسولا

وكان شوقي حريصاً كل الحرص على أن تتبوأ مصر مكانة مرموقة في العالم ، ولن يتأتى لها هذا إلا بالعلم والمال والقوة ، ولذلك نراه يحث الشباب في غير ما قصيدة على العلم ويوازن بينهم وبين نظائرهم من شباب أوربا ، ويتساءل : هل نساير ركب الحضارة والمدنية والثقافة أو أننا لا نزال نعيش عالة على غيرنا في هذه الميادين ؟ .

هل شايع النشء ركب العلم واكتنفوا   للعبقريـة أحمـالا وأظعانـا
وسايـر الموكب المرموق متشحـاً   عـز الحضـارة أعلامـاً وركبانـا

ولم يكن شوقي يائساً بل كان يتطلع دائماً إلى مستقبل زاهر لمصر بفضل شبابها المتوثب ، ولذلك قال :

تعلم مـا استطعت لعل جيلا   سيأتي يحدث العجب العجابا

وقد صدقت فراسته ، وتحققت نبوءته ، وجاء الجيل الذي يحاول أن يغير

---

(١) وتلك غير قصيدته الأولى التي قالها يوم أن وضع عباس الحجر الاساسي للجامعة ، انظر الشوقيات ج ١ ص ١٥٨ .
(٢) الشوقيات جـ ٤ ص ٢ .
(٢) الشوقيات جـ ١ ص ١٦٥ .

مجرى الحياة في مصر ويحيلها إلى دولة عظمى معتمدة على علمائها ، واقتصادها ، ومصانعها ، وجيشها ويا ليت شوقي كان اليوم بيننا حين قال :

أرى طيارهـم أوفى علينـا ... وحلق فـوق أرؤسنا وحاما
وأنظر جيشهم من نصف قرن ... علـى أبصارنا ضرب الخياما
فـلا أمناؤنا نقصوه رمحـاً ... ولا خواننـا زادوا حسامـا
ملكنـا مارن الدنيـا بوقت ... فلم نحسن على الدنيا القياما
طلعنا وهـي مقبلـة" أسوداً ... ورُحنا وهـي مدبرة" نعاما

إذاً لرأى العجب العجاب ، ورأى سماء مصر قد ملأها نسورنا وصارت حرة لهم لا ينازعهم فيها منازع ، ولرأى كيف تقوضت خيام المحتل الغشوم ، وكيف ذاق مذلة الهزيمة في بور سعيد ورأى أننا فعلا قد انتقصنا عتاده بل استوليا عليه وهو الذي يقدر بالملايين في قاعدة القناة ، وأننا صرنا أمة قوية بجيشها وقادتها وسلاحها ، وأننا نصنع اليوم السلاح الذي نحمي به هذه الديار الحبيبة كما تحمي الأسود عرينها[1] .

كان شوقي وهو الذي تعلم في باريس ، وهو الذي أحب مصر كل الحب حريصاً على تسجيل مظاهر نهضتها ، مشجعاً العاملين من بنيها ، يرى أن مهمة الشاعر أن ينبه الغافل ويثبت العامل ، ويشجع الرائد ؛ فنراه يقول في بنك مصر وتأسيس داره أكثر من قصيدة ، ويقول في أول طيار مصري . وهكذا يتتبع مظاهر النهضة ، ويثني على من يقوم لبلاده بمكرمة ، ومن يضع في صرح بنائها حجراً . وليس الأمر كما يصوره الدكتور طه حسين بأن هذا الشعر كالكراسي المذهبة التي لا يخلو منها حفل ، وإنما صدر هذا الشعر عن عاطفة صادقة تهتز طرباً وتنتشي فرحاً لكل خطوة تخطوها الأمة في درج الحضارة بعد أن ظلت قروناً تعاني الحرمان والجهل والمرض وشتى الآفات الوبيلة .

ويرى شوقي أن المرأة تستجيب لدعوة قاسم أمين ، وتحاول جاهدة أن تمزق

---

(١) في خطبة للرئيس جمال عبد الناصر احتفالا بعيد النصر في ٢٣ ديسمبر ١٩٦١ قرر زيادة ثلاث فرق كاملة العدة والعتاد في الجيش المصري حتى يكون اعتمادنا على انفسنا في كل امورنا الحربية .

حجابها ، وتحطم غلَّ هذا الحجاب ، ويقف أول الأمر متردداً بين هواه في تشجيعها ، وبين التقاليد الإسلامية التي يشجع عليها القصر فيقول قصيدته :

صداح يا ملك الكنا ر ويا أمير البلبل

يحذر المرأة من عاقبة الحجاب ، خشية أن تقع على النسور الجهل ، وأن حرصه عليها هوى ، ومن يحرز ثميناً يبخل ، وإن لم يستطع كتم هواه وأساه لما تعانيه المرأة:

يا ليت شعري يا أسـ ـير شجٍ فوادكَ أم خل
وحليف سهد أم تنا م الليلَ حتى ينجلي
بالرغم مني ما تعا لج في النحاس المقفل

ويخاطب أم المحسنين حين عودتها من تركيا بعد غيبة طويلة بقوله :

ارفعي الستر وحيِّي بالجبين وأرينا فلق الصبح المبين
وقفي الهودج فينا ساعة نقتبس من نور أم المحسنين

ويقول في رثاء قاسم أمين مؤيداً له في تردد :

ماذا رأيت من الحجاب وعسره فدعوتنا لترفق ويسار
رأيٌ بدا لك لم تجده مخالفاً ما في الكتاب وسنة المختار
إن الحجاب سماحة ويسارة لولا وحوش من الرجال ضواري
جهلوا حقيقته وحكمة حكمه فتجاوزوه إلى أذى وضِرار

ولكن موقف شوقي يتضح في هذه القضية بعد أن يعود من المنفى ، ولم يعد يخشى الجهر برأيه ، أو لأنه رأى الحركة النسوية قد فاقت ما قدر لها ، وأنه لا فائدة من معارضة المرأة ، إذ صار السفور حقيقة واقعة ، بانتشار مدارس البنات ، والمساواة بينهن وبين البنين في التعليم ، واختلاطهن بهم في قاعات الدرس بالجامعة ، وصادف هذا هوى منه فقال قصيدته التي مطلعها :

قم حيِّ هذي النيراتِ حيِّ الحسان الخيرات

ويقول مؤيداً السفور :

خــذ بالكتاب وبالحديـ ث وسيرة السلف الثقات
وارجع إلى سنن الخليـ قة واتبع نظـم الحيـاة
هــذا رسول الله لـم ينقص حقوق المؤمنات
العلـم كـان شريعـة لنسـائـه المتفقهـات
رضـن التجارة والسيا سة والشئون الأخريات

ويقول شوقي في العمال يحضهم على أن يقتفوا أثر أسلافهم في تشييد مجد مصر ، وإبداع الآيات الفنية الخالدة التي لا يزال العلم حتى اليوم ينظر إليها في دهشة وحيرة ، وينصحهم بالتمسك بحسن الخلق ، واجتناب الموبقات التي كثيراً ما تنحدر إليها الطبقة العاملة فتودي بصحتها ، وتفسد حياتها ، إلى غير ذلك من القصائد التي تستحث طبقات الأمة المختلفة على النهوض . وقليلا ما عرج شوقي على الآفات الاجتماعية كالانتحار ، والميسر ، وفساد الشبان وغير ذلك ، فمن هذا قوله في زواج الشيب بالبنات الصغيرات ، وهذه في نظره جريمة .

المال حلّل كلّ غير محلل حتى زواج الشيب بالأبكار

ويقول في انتحار الطلبة قصيدته التي مطلعها :

ناشىء في الورد من أيامه حسبه الله أبالورد عثـر

ويقول في حريق ميت غمر قصيدته التي مطلعها :

يا ميت غـمر خذي القضاء كما جرى[1] الله يحكـم في المدائـن والقـرى

ويكثر من إسداء النصح بمكارم الأخلاق ، ولهذا باب سنوفيه حقه فيما بعد . وهو يجاري النهضة الدينية ، ويقول أكثر من قصيدة في مدح الرسول عليه السلام ،

(١) شبت النار في ميت غمر يوم الخميس أول مايو سنة ١٩٠٢ ، وبقيت تأكل ما تأتي عليه في هذه المدينة حتى يوم ٨ مايو ، وهلك في هذا الحريق خلق كثير وتسابق الناس لمساعدة أهلها ، وحثت الصحف على التبرع، واسهم الشعراء في ذلك بشعرهم. وهذا هو السر في تسجيل الحادث لفظاعته، ولاهتمام الصحافة به.

وفي العيد الهجري ، وهكذا نرى شوقي لا يقل في شعوره الاجتماعي العام إزاء ظواهر النهوض في مصر عن أي شاعر آخر ، إن لم يفقهم ، ولا سيما في دينياته وأخلاقياته .

أما حافظ فكان أحرص على العناية بالأدواء والمصائب من عنايته بمظاهر الرقي والنهوض ، وهذا يرجع إلى أن حافظاً قد لاقى في مبدأ حياته ، كثيراً من الصعاب ، وخالط أنماطاً شتى من طبقات الشعب ، وكان رجلا كثير الأصدقاء ، يجلس في المقهى ، ويلتف، حوله المعجبون بأدبه . وكان حافظ في تلك الحقبة الذهبية في حياته ، أي قبل أن يعين في دار الكتب ، وطنياً جياش العاطفة ، حريصاً على الإسهام فيما يعود على بلاده بالرقي ، يفرح أن أصابها خير ، ويأسى إن أصابها ضر ، يشب حريق ميت غمر فيقول قصيدة عامرة مطلعها :

سائلوا الليـــل عنهمْ والنهارا   كيف باتت نساؤهم والعذارى

وتشتد الحملة على اللغة العربية ، ويحاربها أعداء البلاد ، ويفتن بدعوتهم بعض من رقت مبادئهم الوطنية والدينية ، فيقول قصيدته التي أتينا عليها فيما سبق والتي مطلعها :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتــي   وناديتُ قومي فاحتسبت حياتي

وينتهز فرصة زواج الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد ببنت السيد عبد الخالق السادات والطعن في هذا الزواج بأنه غير متكافىء ويقول قصيدة طويلة ، ينعي فيها على الشباب نفاقهم ، وتقاعسهم عن المعالي ، وتفرقهم شيعاً وأحزاباً .

وهــذا يلوذ بقصر الأمير   ويدعو إلــى ظله الأرحب
وهــذا يلوذ بقصر السفير   ويطنب في وِرده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين   على غــير قصد ولا مأرب

ويصور في هذه القصيدة نفاق الناس ، فقد حملوا على الشيخ علي يوسف حملة شعواء ، ولكنهم ما لبثوا أن هنئوه ، وتزاحموا على بابه ، وأسدى إليه الخليفة وساماً ، ولذلك قال :

فيا أمة ضاق عـن وصفها جَنـان المفوَّه والأخطب
تضيع الحقيقة مـا بيننـا ويصلى البريء مع المذنب

ويشتد الخلف بين المسلمين والأقباط في سنة ١٩١١ وتكاد تكون فتنة عمياء ، يغذيها المستعمر المحتل ، فيناشد عباساً أن يتدارك الأمر قبل أن تعم الفتنة ، وتتصدع وحدة الأمة بقصيدته التي مطلعها :

كم تحت أذيال الظلام متيم دامي الفؤاد وليله لا يعلمُ

ويقول على لسان متصوف فاسق ، يتظاهر بالصلاح والتقوى ، وهو مغرم بغلام[١] ، وفي أضرحة الأولياء والتمسح بها[٢] . ولكن حافظاً لا ينسى بعض مظاهر النهضة ، وإن لم يفض فيها أو يتتبعها كما تتبعها شوقي ، فيقول في مشروع الجامعة قصيدتين ، الأولى سنة ١٩٠٧ ، والثانية ١٩٠٨ . ويقول في معاهد البنات المختلفة أكثر من قصيدة ، ويرى النهضة الدينية تقوى في مصر ولا سيما بعد الحرب العالمية الأولى ، ويفطن كثير من مصلحي هذه الأمة إلى أن الدين عصمة من المفاسد التي طغى طوفانها في خلال الحرب العالمية الأولى ، وكثرة الواردين على مصر من مختلف الجيوش المحاربة ، واستحكام الغلاء ، وبيع الضمائر ، والاسنهتار بالتقاليد ، وكانت ثورة عامة في العالم أجمع ، عصفت بالقيم الخلقية ، والفضائل السامية ، واشتد طغيان المادة ، والإقبال على لذاذات الحياة . وجرت مصر في هذا التيار ، وخشي بعض المصلحين أن تنهار البقية الباقية من أخلاق الشباب ، الذين ألفوا التسكع في الطرقات والتطري كما يتطرى النساء ، والتهجم على الحرمات ، فأسست جمعية الشبان المسلمين في سنة ١٩٢٧ ، وهرع الشباب إليها من كل صوب وحدب بالمئات والألوف وظلت سنوات تعمل على إيقاظ الشعور الديني في الناشئة ، ذلك الشعور الذي حاول المستعمر الغاصب أن يقضي عليه منذ وطئت أقدامه أرض مصر ، بفرضه التعليم باللغة الإنجليزية ومحاولة إضعاف اللغة العربية ، لغة القرآن ، وباهتمامه في برامجه بالتافه من المعلومات التي لا تقوم خلقاً ، ولا تهذب نفساً ، ولا تنمي فضيلة ، ولا تخلق رجالا . وزاد الأمر سوءاً إهماله التعليم الديني في المدارس المدنية ، فلم يعد ثمة ما يغري الطالب بالتمسك بدينه ، لا قدوة حسنة يراها ، ولا تعليماً يغذي

---

(١) جـ ١ ص ١٦٠ ديوان حافظ .
(٢) جـ ١ ص ٣١٨ .

مشاعره ، ولا ضرورة تحفزه على دراسته .

إن أخوف ما كان يخافه المستعمرون هو قوة الشعور الديني الإسلامي في مصر ؛ لأن الإسلام دين" يدعو إلى العزة والكرامة ، ويأبى على المسلم أن يخضع لسواه ، وأن يَذَلَّ ، وفي يقظة الشعور الديني استرجاع لماضي هذه الأمة المجيدة ، وتذكر لما كانت عليه من عظمة وعلم وقوة ، وتحسر على ما آلت إليه من استعباد وخزي . ولذلك ترى هؤلاء المستعمرين الذين حاربوا هذه البلاد مرات ومرات ، وطمعوا فيها منذ القرن العاشر والحادي عشر إبان الحروب الصليبية ، ولم يردّ طوفانهم إلا قوة الإسلام وأخوته ، يعملون جهودهم على إضعاف هذه الروح في نفوس شباب البلاد التي يحتلونها ؛ لهذه الأسباب ، ولأنهم يخشون كل الخشية أن يعم هذا الشعور بلدان الإسلام التي سعوا إلى احتلالها ، وإضعاف قوتها ، فنتحد فيما بينها ، وتهب قوية فتية تطردهم من ديارها شر طردة ، وتستعيد مجدها السالف ، وهي غنية بخيراتها ، وتستطيع بما فيها من قوى مادية ومعنوية أن تغير مصير العالم إن أرادت . فطن المستعمرون لكل هذا ، فأغرونا بزبرج الحضارة الأوروبية ، وأكثروا من مفاسدها فيما بيننا ، بل عملوا على استيراد هذه المفاسد حتى تخف وطأة الدين والأخلاق على نفوسنا ، ونستمرىء اللهو والعبث ، وننسى ذلك الماضي الرائع ، والجهاد الشاق ، والصراع الطويل المر بيننا وبينهم .

وقد ابتدأت هذه الحركة الدينية في الظهور منذ عهد جمال الدين الأفغاني على نحو ما فصلناه في الجزء الأول ، وسار محمد عبده على نهجه ، ودعا الشيخ رشيد رضا وحزبه إلى تنقية الدين من الخرافات والخزعبلات ، والرجوع به إلى بساطته الأولى ، وإلى تحبيبه للنفوس التي جهلته . وجاء على أثره جماعة أرادوا أن يوفقوا بين الدين والحضارة الحديثة ، وساروا في أول أمرهم برفق وحذر ، وهم جماعة حزب الأمة وعلى رأسهم لطفي السيد ، ولكنهم كانوا يخشون الطفرة فيما يرمون إليه من الأخذ بأسباب الحضارة الأوربية ؛ لأن الأمة في ذلك الوقت لم تكن تتقبل هذا الأمر بيسر ، ولهذا تجد لطفي السيد مع نزعته إلى الحضارة الأوربية يحاول أن يظهر بالمحافظة على الدين ، وقد أثنى على باحثة البادية في المقدمة التي صدّر بها كتاب النسائيات،ولأن دعوتها إلى الإصلاح اتبعت سبيلا معتدلا في حدود الشرع[1]،

---

(١) راجع النسائيات ، مطبعة الجريدة ــ القاهرة ١٩١٠ ص ٥ .

وظهر كذلك مصطفى كامل يدعو إلى التمسك بالدين وتنمية شعوره وفي ذلك يقول : « قد يظن بعض الناس أن الدين ينافي الوطنية ، أو ان الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية في شيء ، ولكنني أرى أن الدين والوطنية توأمان ، وأن الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حباً صادقاً ويفديه بروحه وما تملك يـداه[١] .

ودعا رجال الحزب الوطني للاحتفال لأول مرة بالعام الهجري[٢] ، وأقيم الاحتفال في غرة المحرم سنة ١٣٢٨ — يناير ١٩١٠ ، وأنشد فيه حافظ قصيدته التي مطلعها :

لي فيك حينَ بدا سناك وأشرقا　　　أمـلٌ سألـت الله أن يتحققـا

وكان المؤيد وصاحبه بجانب الحزب الوطني يعمل على تغذية الشعور الديني ، والرجوع بالإسلام إلى نقاوته الأولى ، وإلى مجده العظيم[٣] . ثم تأتي الحرب العالمية الأولى ، وما فيها من شدائد وأهوال ، وما جلبته من جيوش عديدة أجنبية ، مقيمة أو عابرة ، عملوا على إفساد الأخلاق ، كما عمل الغلاء على إضعافها . وجاءت الثورة العاتية ، وكان فيما أفادته يقظة المصريين إلى الدعوة الدينية بين شباب مصر كماذ كرت في أول هذا الموضوع لانتشار الانحلال الخلقي والاستهتار فيهم ؛ نتيجة للتعليم العقيم الذي غـذي به المصريون على يد الإنجليز ، وكان من وراء هذا إنشاء عدة جمعيات دينية منها الشبان المسلمون ، والهداية الإسلامية برياسة السيد محمد الخضر ، والتعارف الإسلامي ، ثم الإخوان ، وظهرت عدة جرائد ومجلات دينية ، لا تهتم إلا بالدين ، وتقوية العاطفة في نفوس المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها . وكان السيد محب الدين الخطيب هو الموحي بكل هذه الجمعيات ، وله أكبر فضل في تقوية الشعور الديني بمصر ، وإيجاد صحافة قوية ممتازة تدافع عنه ، وعن أمجاد المسلمين ، إذ أنشأ (الزهراء) ثم (الفتح) ، وغذاهما كثير من الشعراء بالقصائد المنبعثة عن عاطفة دينية قوية مثل أحمد محرم ، وصادق عرنوس وغيرهما .

وكان إيجاد هذه الجمعيات الدينية ، والصحافة التي تدافع عن الدين رد فعل

---

(١) مصطفى كامل لعبد الرحمن الرافعي ١٤٦ ، ٤٢٣ .
(٢) راجع محمد فريد لعبد الرحمن الرافعي ص ١٢٨ .
(٣) راجع تراجم شرقية وغربية لهيكل ص ٥٣ .

لموجة من الإلحاد سادت بعض المفكرين الذين تشبعوا بالعلم الغربي ، وفتنوا به ، ولم يعرفوا الإسلام حق معرفته ، أو عرفوه ورغبوا في الشهرة الزائفة بالخروج على إجماع الأمة • وأخذ هؤلاء ينشرون أبحاثاً وكتباً ومقالات ، تأثروا فيها بآراء المستشرقين ، الذين لم يهتموا بدراسة اللغات الشرقية ، والدين الإسلامي ، إلا ليطعنوا فيه وليشككوا أهله في قيمته ، وليكونوا عوناً لحكامهم المبالغين في الاستعمار • وقد خدع بعضهم ، وظنوا أن هؤلاء المستشرقين يصدرون في أحكامهم عن نية خالصة ودراسة ممحصة وعقل سليم ، فجاروهم في أفكارهم ، وعملوا على نشرها بين مواطنيهم • ولكن العاطفة الدينية القوية المتمكنة من نفسية هذا الشعب ، والتي أيقظها المصلحون ، ونبهوها إلى الخطر المحدق بها قد أحبطت مساعي هؤلاء المفتونين ، وثارت في وجوههم وانبرى للرد عليهم كثير من الأعلام • وحملتهم على الصمت ، ثم على الرجوع عن إلحادهم ، بل إن منهم من اضطر الى أن يتملق الجمهور ، ويدرس هذا الدين دراسة جديدة ، ويؤلف فيه وفي رجاله • وراج هذا النوع من الأدب ، فأقبل على التأليف فيه من كان مجافياً له ، وصارت عندنا ثروة دينية في الأدب الحديث من مثل : على هامش السيرة للدكتور طه حسين والعبقريات للأستاذ العقاد ، ومحمد ، وأبو بكر الصديق ، وعمر ابن الخطاب لهيكل ومحمد وأهل الكهف لتوفيق الحكيم •

وقد اشتد الوعي الديني بين الطبقة المثقفة من الأمة وأقبلوا على ينابيعه الصافية ينهلون منها بشغف هرباً بنفوسهم من أدران الحضارة المادية التي اجتاحت مصر والشرق العربي وافدة من الغرب ، وكثرت الكتب الدينية التي تقرب العقيدة وتبسطها من عامة الجمهور ، كما صار للدين مجلات وصحافة تدافع عنه وتتكلم باسمه ، من ذلك مجلة (الأزهر) ، (ونور الإسلام) التي يصدرها قسم الوعظ والإرشاد ، ومجلة (الشبان المسلمين) وغيرها •

ولقد كانت مجلة (الرسالة) ومجلة (الثقافة) ميدانا تعالج فيه المشكلات الاجتماعية على ضوء التعاليم الدينية ، وممن برز في هذه الناحية وكان له قراء عديدون المرحوم مصطفى صادق الرافعي في مقالاته الاجتماعية بمجلة الرسالة التي جمعت فيما بعد في (وحي القلم) ، كما أن هاتين المجلتين عنيتا (قبل أن تحتجبا) باصدار عدد ممتاز كل عام خاص بالهجرة تعرض فيه أمجاد الإسلام عرضاً جديداً ،

وتحشد له الأقلام القوية، وتدبج فيه البحوث الممتازة. ولقد راع كل هذا المستعمرين والأجانب فحاولوا جهدهم أن يصرفوا شباب الأمة ومفكريها عن شئون دينهم أو التمسك به ولكن الشعور الديني الآن وقد تغلغل في البيئات المثقفة التي بيدها مقدرات الأمة لن يضعف مرة ثانية إن شاء الله . وقد عنيت حكومة الثورة بشئون الدين فأنشىء المؤتمر الإسلامي والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف ويصدر صحيفة (منبر الإسلام) تكتب فيها الصفوة الممتازة من رجال الأمة ، كما أسند تحرير مجلة الأزهر إلى الأستاذ الزيات صاحب الرسالة فجدد شبابها وأقبل على الكتابة فيها عدد من خيرة الباحثين ، كما صار التعليم الديني إجبارياً في المدارس. حتى المدارس الأجنبية التي كانت فيما مضى مباءة للتبشير ، ومسخ شخصية المواطنين ، قد صارت ملزمة بتعليم المسلمين الدين الإسلامي .

ولقد كان لهذه الحركة الدينية من بدء نشأتها حتى اليوم أثر قوي في الشعر الحديث ، فمن قصائد تقال في مطلع العام الهجري ، تذكر المسلمين بماضيهم ، وتراثهم ، وتصور مآسيهم وتحثهم على المضي قدما في نهضتهم التي تغيظ أعداءهم ، تجد مثل هذا الشعر عند حافظ إبراهيم ، ومحمد عبد المطلب ، وأحمد محرم ، وحتى عند مطران الذي اضطر إلى مجاراة شعور الأمة في مستهل هذا القرن حين أخذت تحتفل بهذا العيد ، وكانت عنه غافلة : استمع إليه يقول في قصيدة في الهجرة وقد صار ذلك اليوم عيداً رسمياً من أعياد الدولة :

هلَّ الهلالُ فحيوا طالع العيد ... حيُّوا البشير بتحقيق المواعيد
يا أيها الرمز تستجلي العقول به ... لحكمة الله معنىً غير محدود
أي مسلمي مصر إن الجِدَّ دينكم ... وبئس ما قيل : شعب غير مجدود
طال التقاعس والأعوام عاجلة ... والعام ليس إذا ولّى بمردود

ونرى شوقي يعارض نهج البردة والهمزية للبوصيري ؛ ويكثر من ذكر الدين ومكارم الأخلاق في شعره ، بل يؤلف ملحمة طويلة في جزء خاص هو (دول العرب وعظماء الإسلام) ويؤلف حافظ العمرية المشهورة ، وعبد المطلب العلوية المشهورة ، ويهتم بعض الشعراء بنظم الأناشيد الدينية فيؤلف حافظ نشيد الشبان المسلمين :

أعيدوا مجدنا دنيـا ودينا وذودوا عن تراث المسلمينا
فمن يعنو لغـير الله فينا ونحن بنو الغزاة الفاتحينا

ويؤلف الرافعي نشيداً قوياً للشبان المسلمين يقول فيه :

يـا شباب العالـم المحمدي ينقص الكون شباب مهتدي
فـأروه دينكـم ليقتـدي ديـنَ عقـل وضمير ويـد

ويعكف أحمد محرم على نظم (الإلياذة) الإسلامية ، يصور فيها كفاح الرسول عليه السلام في سبيل الدين ونشره ، ويتتبعه منذ الدعوة إلى وفاته ويقف أمام غزواته وسراياه وقفات طويلة يصور بطولته عليه السلام ، وبطولة أصحابه الذين أبلوا في الدفاع عنه كل بلاء •

ويقول محرم في النشيد الأول من الالياذة الإسلامية :

املأ الأرض يـا محمد نورا واغمر الناس حكمة والدهورا
حجبتك الغيوب سراً تجلـى يكشف الحجب كلها والستورا
عَبَّ سيل الفساد في كل واد فتدفـق عليـه حتـى يفورا
جئت ترمـي عبابـه بعبـاب راح يطوي سيوله والبحورا
ينقـذ العالم الغريق ويحمي أمم الأرض أن تذوق الثبورا

ويقول في الإلياذة عن شهداء بدر :

طـف بالمصارع واستمع نجواها والثـم بأفيـاء الجنان ثراهـا
ضاع الشذا القدسي في جنباتها فانشق ، وصف للمؤمنين شذاها
حلـل يـروع جلالهـا ومنازل مـن نـور رب العالمين سناها
ضمت حماةَ الحق، ما عرف امرؤ عـزا لهـم مـن دونه أو جاها

ويقول عن نزول الملائكة في غزوة بدر يقاتلون الكفار دون أن يروهم :

الله أرسل في السماء كتيبـة تهفو كما هفت البروق اللمح

تهـوي مجلجلة ، تلهب أعـين ... منها ، وتقذف بالعواصف أجنح
للخيـل حمحمة يـراع لهولهـا ... صيد الفوارس والعتاق القـرّح
« حيزوم » أقدمْ إنما هي كرةٌ ... عجلـى تجاذبك العتـاق فتمرح
جبريل يضرب والملائك حولـه ... صف ترصّ به الصفوف وترضَح

وتبع خطى محرم في نظم الملاحم الإسلامية طائفة من الشعراء على تباين في منهجهم واختلاف في قدراتهم وخيالهم .

ومن هؤلاء عامر بحيري في ملحمته (أمير الأنبياء) التي أنشأها عام ١٩٥٢ وهي تتألف من ألف ومائتي بيت تتضمن حياة النبي صلى الله عليه وسلم من لدن مولده إلى انتقاله للرفيق الأعلى . وفيها يقول واصفاً نزول الملائكة للقتال في صفوف المسلمين في غزوة بدر :

ولاحت في الفضا خيـل تحمحم ... وصاح كبيرهم : « حيزوم أقدم »
فيـا لله مـن مـدد رهيـب ... أضـاء شعاعه والنقـع مظلـم
ملائكـة السماء علـى جيـاد ... مـن الأنـوار نازلـة تدمـدم
تـرى المتقاتلـين ولا يـراها ... مـن الكفار مـن أحد فيحجم
تقـدمت الصفوف بـلا تـوان ... تقتـل أو تمثـل أو تحطـم
إذا الإسـلام أقبـل نـاصروه ... إلـى الأعـداء بالعـزم المصمم
رأوهـم ميتـين بـلا سيـوف ... كذاك الخوف إن الخوف يلجم
فلـم يرموهـم والله رام ... ولا هزموا وجنـد الله يهـزم

وقد طرق الشعر الملحمي غير هذين الشاعرين : كامل أمين ، واليعربي محمد توفيق .

واهتم شعراء الجيل الماضي بالمفاسد الاجتماعية التي تناقض تعاليم الدين

الاسلامي ، وحاولوا الإصلاح والإرشاد ما استطاعوا ، كما حاولوا تصوير هذه المفاسد وبشاعتها وضررها البليغ على الأمة . وهكذا نرى عندنا شعراً يصح أن نسميه شعراً دينياً ، منبعثاً عن شعور وعاطفة .

ولم تكن مشكلة الفقر ، أو النهضة الدينية ، أو حجاب المرأة وسفورها هي وحدها المشكلات الاجتماعية التي أثارت شعراءنا ، ولكننا نجد بجانب هذا نهضة اقتصادية في البلاد فإن المستعمر لم يدخل مصر إلا لأنها مدينة للأجانب ، وكانت مصر حتى ثورة سنة ١٩١٩ بقرة حلوباً لهم ؛ لا تدري من أمر اقتصادياتها شيئاً ، يفد عليها كل أفاق لفظه وطنه ، وضاق به ، فيثري في بضع سنوات ، ويصير من أصحاب الحول والطول في البلاد . ونحن نعيش كالسائمة لا نعرف كيف نستغل خيرات بلادنا ، بل نبيعها بثمن بخس دراهم معدودات ، ولا كيف تتعامل مع أوربا إلا عن طريق هؤلاء الأجانب ، وعمت شركاتهم البلاد ، واحتكرت منابع الخير فيها ، وما علينا إلا أن ندفع لهم بسخاء ثمن النور والماء ، والركوب وغيرها . وممن تنبه لذلك الخطر السيد عبد الله نديم ، وقد عرفت في الجزء الأول كيف صور جشع هؤلاء الأجانب ، وغبنهم الفاحش للفلاح الساذج ، ثم جاء مصطفى كامل وحاول أن ينبه المصريين إلى أن الواجب يقتضي منهم أن ينهضوا باستقلال البلاد اقتصادياً . ولكن التعليم الذي فرضه علينا المستعمر لم يكن يهيىء لنا رجالا صالحين للنهوض بهذا الأمر ، حتى شبت الثورة ونهض فريق من رجال الاقتصاد وعلى رأسهم طلعت حرب ، وأبطلوا ذلك السحر الذي نفثه الإنجليز في عقولنا بأننا لا نصلح للأعمال المالية ، ولا تصلح بلادنا لنسج القطن ، ولا الصوف ولا الحرير ، وبأنه لا يوثق بمصري ، فهو كسلان ، مرتش ، مهمل ، حتى فقدنا الثقة بأنفسنا ، وتحطمت آمالنا . جاء هؤلاء الرجال وبرهنوا على أن إنجلترا كاذبة ، وتود أن نظل في ظلام دامس ، تستنزف دماءنا ، وتهيىء لأبنائها حياة رغيدة في وطنهم ، ولو قتلنا الجوع ، وأثقل ظهورنا الدين ؛ فأسسنا (بنك مصر) وشركاته العديدة ، التي شملت مختلف النواحي الاقتصادية ، وكان نجاح هذه المؤسسة القومية حدثاً عظيماً في تاريخ مصر ، أثار مشاعر الشعراء فتغنوا بها وبمؤسسيها . ومن يرجع إلى خطاب سعد زغلول في الجمعية التشريعية[1] في مارس سنة ١٩٠٧ ، وكيف بين قوة تلك القبضة الأجنبية

---

(١) راجع ص ٤٥ وما بعدها في هذا الكتاب .

على مقدرات البلاد الاقتصادية ، وأن التعليم في مصر لا بد أن يكون بلغة أجنبية ، حتى يستطيع أبناء مصر أن يجدوا عملا في بلادهم ، أدرك مدى ما وصلت إليه مصر وحالتها الاقتصادية من احتلال شنيع واستغلال بشع ، وأدرك عظم المسرة التي خامرت نفوس بنيها حين تقدم بعضهم ليشق طريقه ، وطريق بلاده في عالم المال . وقد ظل وطننا يعاني من عنت الشركات الأجنبية الشيء الكثير ، وكان نفوذها في البلاد قويا ، على الرغم من الوثبات الاقتصادية العظيمة التي وثبناها في الربع الثاني من هذا القرن ، وبعد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ . وليس الضرر في وجود الشركات الأجنبية ورؤوس الأموال الغربية فإن بلادنا لا زالت في حاجة شديدة إلى هذه الأموال لكثرة ما بها من مشروعات ضخمة تحتاج إلى أموال طائلة وتهدف من ورائها إلى تصنيع البلاد وتقويتها ، وزيادة دخل أفرادها ، ورفع مستوى معيشتهم ، وإنما كان الضرر كامناً في كثرة الامتيازات التي تتمتع بها هذه الشركات الأجنبية وإعفائها من الضرائب ، وعدم عنايتها بتدريب المصريين ، وحرصها على إرسال أرباحها إلى خارج مصر . وقد نظم كل هذا الآن ، كما نهضت شركات مصرية كثيرة يسهم فيها الأجانب بأموالهم .

وقد تبين لرجال الثورة المباركة أن رؤوس الأموال الأجنبية بمصر تحارب الإصلاح والسير بالوطن قدماً إلى الأمام ، وتتعاون مع الاستعمار وتتخذ مؤسساتها أوكاراً للجاسوسية والخيانة والغدر فعمدت حكومة الثورة بعد الاعتداء الثلاثي على قناة السويس إلى تأميم كثير من المؤسسات والمصارف الأجنبية ، واشترتها الحكومة حتى تتخلص من نير الاقتصاد الأجنبي .

واهتمت حكومة الثورة بتصنيع مصر حتى تستقل بشئونها الاقتصادية ولا تظل عالة على سواها ، ورأت أن الاستقلال الاقتصادي أكبر دعامة للاقتصاد السياسي ، وأن الصناعة بمصر في أشد الحاجة إلى توجيه نحو ما تحتاج إليه الأمة في نهضتها ، فلا تترك مرتجلة أو خاضعة لنزوات رؤوس الأموال ، ولذلك أنشأت الجمهورية العربية المتحدة (القطاع العام) في الصناعة ، وأممت كثيراً من المنشآت الصناعية الكبرى ، وأسهمت بالنصف في بعضها حتى تضمن التوجيه والإشراف . ومن أهم المشروعات الصناعية الكبرى التي تمت فعلا توليد الكهرباء من (خزان أسوان) الذي ظل معطلا أمداً طويلا تقف دون تحقيقه أهواء مغرضة ، ومن ذلك

مصنع (الحديد والصلب) ليمد مصر بالصناعات الثقيلة ، والتوسع في استنباط النفط (البترول) وتصنيعه • ويقف على رأس هذه المشروعات (السد العالي) الذي نرجو أن يغير مجرى الحياة في الجمهورية العربية وفي الشرق العربي كله •

كما قامت حكومة الثورة بعدة إجراءات ثورية قوية تحاول بها أن تحقق الرخاء للمجموع وأن يعيش المواطنون حياة ليس فيها هذا التفاوت المزري بين الطبقات ، فسنت القوانين الاشتراكية في يوليو ١٩٦١ ؛ لتقريب هذه الفوارق ، وإنعاش أكبر عدد من الأمة ، وفي ديسمبر ١٩٦١ حرمت ملكية الأرض بالجمهورية العربية على غير المصريين ووزعت الأرض التي كان يملكها الأجانب على صغار الفلاحين ؛ وبذلك أنقذت الثروة الوطنية في مجالات الزراعة والصناعة والتجارة من أيدي المحتكرين والمرتزقة من الأجانب والمستغلين من المصريين ، وهو إجراء حاسم كان عرب مصر يحلمون به من زمن طويل حتى يستطيعوا أن يعيشوا أحراراً في بلادهم غير خاضعين لهذه الأغلال الاقتصادية ، وغير مقيدين في تصرفاتهم الوطنية •

فلا عجب إذاً حين نرى شعراءنا تفيض بهم العاطفة فيقولون في (بنك مصر) ، وفي مشروع القرش ، وفي أول سرب من طياري مصر ، وفي طليعة الملاحة المصرية ، وفي مصنع النسيج بالمحلة ، وغير ذلك من مظاهر النهضة الاقتصادية ، التي هي من أكبر دعائم الاستقلال ، فقد كانت هذه الحقبة مليئة بعوامل اليقظة والرقي في كل ميدان من ميادين الحياة في السياسة ، والاجتماع ، والقومية بمظاهرها العديدة • وقد سجل الشعراء كل هذه المظاهر في شعرهم يترجمون به عما يختلج في صدور الأمة ، ويطلبون المزيد منها لأنهم نصبوا أنفسهم في مقام الهداة والمرشدين ، وقادة الفكر المصلحين ، يصدرون فيه من عاطفة غالباً ، وعن تكلف أحياناً • وقد تعدوا الكلام في هذه المظاهر إلى رثاء عظماء الأمة في كل نواحي نشاطها ، سواء كانوا رجال سياسة ، أو دين ، أو صحافة ، أو إصلاح ، أو اقتصاد ، حتى صار شعرهم وثيقة تاريخية ، وصورة لعصرهم الذي عاشوا فيه •

وقد لا يرضى عن ذلك أصحاب المدرسة الجديدة ، ولكنهم على الرغم منهم اضطروا إلى مشاركة الأمة في عواطفها ، وإلى تغذية هذه العاطفة ، وقد لا يكون هذا

النوع من الشعر جارياً على نمط الشعر الغربي الحديث ، ولكنا أمة لها ظروفها الخاصة ، وفي بدء نهضة عامة شاملة ، وفي أمس الحاجة إلى من يشجع المكافحين في سبيل مجدها أحياء ، ويجعلهم مثلاً طيباً لمن بعدهم أمواتاً •

كنت أودُّ أن أسوق نماذج على كل لون من ألوان الحياة الاجتماعية ، وأن أتعقب الشعراء واحداً واحداً كما فعلت في الشعر السياسي ، بيد أنني أوثر هنا أن أكتفي بهذا التعميم ، مرجئاً الأمثلة إلى حين الكلام عن الشعراء ، وحسبنا أن نعرف الخطوط العريضة للعوامل الاجتماعية المؤثرة في الشعر الحديث ، وهي لا تقل في قوة تأثيرها عن العامل السياسي بل ربما فاقته ، لأن الأمة كانت حقاً في مسيس الحاجة إلى الإصلاح الاجتماعي بعد أن طالت هجعتها ، وعمل المستعمر على أن تظل في تلك الهجعة •

الفصل الثالث

النقد الأدبي

– ١ –

لقد خطا البارودي بالشعر خطوة قوية عظيمة كما عرفت ، أعاد للشعر ديباجته المشرقة ، ومتانته الرائقة ، ورجع به إلى عصر ازدهاره أيام العباسيين ، وسار على نمطهم في موضوعه ، وقالبه ، ومعانيه . وحذا حذو البارودي الشعراء الذين أتوا بعده ، وكان تأثيره فيهم جليلا قوياً ؛ لأنه شاعر معاصر ، ضرب لهم مثلا صادقاً في كيف يكونون شعراء بحفظهم من جيد الأدب القديم ، ثم معارضته وتقليده ، ثم الاستقلال عنه وظهور شخصيتهم ولم يعد أحد منهم تساوره نفسه لتقليد شعراء الضعف أيام المماليك والعثمانيين ، والاهتمام بالمحسنات والحلى والزخارف ، إلا من باب رياضة القريحة ، أو العجز عن التخلص من تقاليدالشعر البالي كما فعل إسماعيل صبري لأول عهده بقرض الشعر ، فكان يجيد التأريخ الشعري ، ويهتم بعض الاهتمام بالمحسنات ، إلى أن استطاع الوقوف وحده ، فهجر ذلك كله[1] .

وقد ظهرت طائفة من الأدباء والملمين بأصول اللغة العربية وعلومها في أخريات القرن الماضي حاولوا تجديد النقد الأدبي كما عرفه القدماء ، وتطبيق النظريات العربية في النقد كما عرفها نقاد العصر العباسي على الشعر الحديث .

وأول من خطا خطوة جدية في هذا الباب هو الشيخ حسين المرصفي صاحب (الوسيلة الأدبية) ، وقد عرض علوم العربية عرضاً جديداً بأسلوب جديد وبخاصة علوم البلاغة مبيناً منزلة كل منها في نقد الكلام .

ولم يكتف بهذا بل حاول التطبيق النقدي ، وصحح كثيراً مما أخطأ فيا

(١) راجع مقدمة ديوان صبري للدكتور طه حسين ، والاستاذ احمد امين .

القدماء ، وكان له ذوق مرهف لمعرفة مواطن الحسن في الكلام . ويبدأ نقده بتفسير الكلمات اللغوية حتى يتضح المعنى، ولا يجعل من النحو والبلاغة غاية في النقد وإنما هي عنده وسيلة لمعرفة الصور وجلائها وإيضاح مكامن البلاغة في القول ، ولذلك نراه ينتقد معاصريه ، والسابقين عليه في طريقة دراستهم للبلاغة وفهمهم لمقصدها ، فلا ينبغي لهم الاقتصار على قولهم : « كذا يشبه كذا أو استعار كذا لكذا » ، وإنما يجب على الناقد أن يقف القارىء على مواطن الحسن في العبارة .

ومن أمثلة نقده كلامه على قوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم » : الختم : الطبع ، ويدل على تشبيه القلوب بصناديق مثلا ، ففي الكلام استعارة مكنية وقرينتها لفظ ختم ، فيفيد الكلام أنه بمنزلة الجمادات بحيث أنها لو كان فيها شيء لم تكن منتفعة به ، وقد جعلت بحيث لا يمكن أن يدخل فيها شيء ، فلا يطمع طامع في إيمانهم » .

وعنده أنه ليس كل كلام تحققت فيه أركان قسم من أقسام فنون البلاغة يعد بليغاً فيقول : « ليس كل ما فيه الكاف أو كأن يعد في نظر أهل صناعة الكلام العارفين بها ، الواقفين على أسرارها ، الملتفتين إلى دقائقها — تشبيهاً ، وإنما التشبيه ما جلت فائدته وحسن موقعه من غرضه ... وإن أحسن التشبيه والاستعارة ما وقع موقعه من غرض تصوير حال المشبه أو المستعار له ، والإبانة عنها بجزيل العبارة ولطيف السياق بحيث لا يكون قصد المتكلم إلى مجرد التشبيه والاستعارة كما هو كثير في كلام المولدين[1] » .

ويورد المرصفي نماذج عدة من الكلام البليغ ، ويبين مواطن البلاغة فيها ، ولم يقتصر في أمثلته على عصر ، وإنما أورد نماذج تبين مختلف العصور والتطور البلاغي محللا بعضها تحليلا دقيقاً . وهو يعتمد في كثير من الأحيان على ذوقه ، وتمرسه بأساليب العرب الأقدمين ، وحفظه للجيد من كلامهم ؛ ولذلك كان معجباً بالبارودي لأنه لم يتلق علوم العربية على مدرس ، وإنما اكتسب الملكة البيانية من حفظه للجيد من النثر والشعر في عصورهما الذهبية . ولكن اعتماد المرصفي على ذوقه لم يسمه

---

(١) الوسيلة الأدبية جـ ٢ ص ١٧ ، ٢٤ .

القواعد والأصول لعلوم العربية ، وإذا خرج الأديب على الأصول خرج من ميدان اللغة العربية أصلا ، لأن الوقوف على ما تعارف عليه العرب شرط أساسي لا يمكن الاستغناء عنه ما دام المراد هو التكلم بلغتهم .

ولم يكتف المرصفي بالتجديد في النظرة إلى علوم العربية من نحو وصرف وبلاغة ، وبيان الغاية منها ، ولكنه تكلم عن (كتابة الإنشاء أو صناعة الترسل) ، وكذلك ما سماه (صناعة الشعر) واتبع في معالجتهما ما اتبعه في معالجة البلاغة من الاعتماد على الذوق والمعرفة معاً .

ومقياس الجودة عنده « صحة المعنى وشرفه ، وتخير الألفاظ في أنفسها ، ومن جهة تجاورها ، وموافقتها للمقام ، وإجادة التركيب على ما شرح في علم المعاني وغيره ، بحيث تكون الألفاظ سَلِسَةً في النطق خالية من التنافر وشدة الغرابة ، يألف بعضها بعضاً ؛ حتى تكون الكلمات المتوالية بمنزلة كلمة واحدة ، وتكون الألفاظ التي توردها في مقام الحماسة ليست كالألفاظ التي توردها في مقام الغزل والتشبيب ، فلكل فن من تلك الفنون ألفاظ توافقه من جهة شدتها ولينها ؛ ولذلك تسمعهم يقولون . الجزل الرقيق[1] » .

وجاء بعد المرصفي جماعة ساروا على نهجه في الإفادة من العلوم العربية في فهم النص وشرحه ونقده على طريقة القدماء ، منهم الشيخ حمزة فتح الله في (المواهب الفتحية) مع زيادذ اهتمام بالنحو واللغة ، ومنهم الشيخ المهدي وحفني ناصف في دروسهما بالجامعة المصرية القديمة مع اهتمام أولهما بتاريخ الأدب ، وثانيهما بدراسة النصوص الأدبية على الطريقة القديمة .

وقد اشتهر من النقاد الذين سلكوا مسلك السلف في النظرة إلى الشعر وطبقوا قواعد البلاغة القديمة في النقد : إبراهيم اليازجي وإبراهيم المويلحي ، ومحمد المويلحي ، ولم يروجوا في نقدهم لمذاهب جديدة في الأدب ، أو ينموا على تأثر بتيارات الأدب الغربي وإنما ينظرون إلى اللفظ من حيث جودته وصحته وعدم تعاظل حروفه وانسجامه مع غيره وأدائه للمعنى ، وينظرون إلى المعنى من حيث الإحالة

---

(١) الوسيلة الأدبية جـ ٢ ص ٤٦٣ .

والتعسف والخطأ والوهم وما شاكل ذلك مما كان مألوفاً في النقد القديم والمقاييس البلاغية المعروفة عند العرب •

ومن أمثلة هذا نقد محمد المويلحي لديوان شوقي ومنه نقده المشهور :

خدعوها بقولهم حسناء   والغواني يغرهن الثناء

« فقوله خدعوها يفهم منه أن المشبب بها غير حسناء ؛ لأن الخداع لا يكون بالحقيقة ، وإذا أردت أن تخدع الشوهاء فقل لها حسناء وهو ينافي قوله في البيت الثاني :

ما تراها تناست اسمي لما   كثرت في غرامها الأسماء

وخدعوها بمعنى ختلوها وأرادوا بها المكروه من حيث لا تعلمه » •

وقد جرى على هذا النهج كل النقاد حتى أولئك الذين نادوا بالتجديد في الأدب ، ودعوا إلى بعض المذاهب الغربية ، كانوا في النقد التطبيقي ينظرون إلى البيت الشعري في كثير من الأحيان بمقاييس البلاغة القديمة•• ترى ذلك عند الرافعي في نقده لشوقي ، والعقاد وطه حسين في نقدهما لحافظ وشوقي ، والعقاد في نقده للرافعي ، والمازني في نقده لشكري وإن كان للمجددين نظرات أخرى في القصيدة كلها من حيث بناؤها ووحدتها وموضوعها وما بها من عاطفة وخيال كما سيأتي •

وكأني بهذه المدرسة المحافظة التقليدية الجديدة كانت تشعر بزحمة التيار الغربي وقوته ، وأنه يحاول أن يعطي للشعر مفهوماً جديداً ويحول مجراه القديم إلى مجرى آخر ، فراح كل شاعر يقدم لديوانه بمقدمة يعرف فيها الشعر ويضع أسسه وأركانه وشروطه التي يصح بها ، وهي تعاريف فيها شيء من الجدة والطرافة والخروج عن مفهوم الشعر في عصور الضعف والانحلال ، ومحاولة الأخذ من الآراء الجديدة في الشعر كما عرفه الغربيون بالقدر الذي يتفق مع حقيقة الشعر ورسالته كما عرفه العرب وهم في عنفوان مجدهم •

وكأن أول من سن هذه السنة في العصر الحديث (البارودي) ، وقد أتينا في الجزء الأول من هذا الكتاب على تعريفه للشعر وظهر لنا من مناقشته أنه لم يخرج به عن مفهوم العرب له •

وهاك بعضاً من هذه التعريفات التي ظهرت في هذه الحقبة القلقة ، في أخريات القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، قبل أن يشتد التيار الغربي ، وتظهر المدارس الجديدة المتأثرة به .

من ذلك تعريف الأمير شكيب أرسلان للشعر ، وشكيب أرسلان شاعر تقليدي على الرغم من إجادته للفرنسية وقراءته بها ، وقد حاول أن يوائم بين القديم والنزعات التجديدية حيث يقول :

« إن الشعر قوة روحية يفيضها الله على من يشاء من عباده فتحلق بالشاعر تحليق الأجنحة بالطائر ، فيرى الطبيعة في أفخم مشاهدها : وأشمخ شرفاتها ، وأبهى مجاليها وأشجى أصواتها ، وأذكى أعرافها » .

فهو يرى الشعر ابن الخيال ، والطبيعة مصدر الإلهام ، كما يرى أن الشعر الحق لا بد من أن يصدر عن انفعال نفسي يعتلج في صدر الشاعر ويدفعه إلى القول وتخير سنيّ الكلام للتعبير عن هذه المشاعر القوية .

« وإذا تغلغل الشاعر في أنحاء النفس وأحناء القلب ، وهام في أودية الانفعال أخذ يؤدي من هناك ما يلقيه إليه مضاعفاً : هوى ملح وشوق هاف وحب شاغف ، وتمن واصبٌ ، وتوسلٌ هالعٌ ، ورغبة ورهبة ، وإيمان كإيمان العجائز ، ثم آب من أودية إحساساته وأعطاف فراساته مفضياً بذلك إلى سامعيه ـ أشجى وأصبى ، وأرقص وأبكى » .

وهو يقول بعد تأكيده منزلة العاطفة في الشعر حتى يأتي صادقاً طبيعياً لا وليد التكلف والصنعة بأن الشاعر في حل إذ بالغ وصور الطبيعة أبهى مما هي وأجمل مما هي . ويؤكد كذلك قيمة الفكرة في الشعر ، وبذلك يستوفي أركانه وشروطه .

« فالشعر إذن مظهر المرء في أسمى خواطر فكره ، وأقصى عواطف قلبه ، وأبعد مرامي إدراكه ، والشعر هو رؤية الإنسان الطبيعية بمرآة طبعه ، فهو شعور عام ، وحس مستغرق يأخذ المرء بكليته ويتناوله بجميع خصائصه : حتى يروح نشوان خمرته وأسير رايته ، ويريه الأشياء أضعافاً مضاعفة ، ويصورها بألوان ساطعة وحلى مؤثرة الحقائق ، وربما أزرت بها ، وصرفت النفس عن النظر إليها ، فهو أحياناً

أحسن من الحسن وأجمل من الجمال ، وأشجع من الشجاعة ، وأعف من العفاف ، وإن الظبي في قصيدة غير الظبي في فلاة ، بل غير الظبي في ملاءة ، وإن الأسد في منظومة غير الأسد في مفازة ؛ وذلك حيث كان الشعر كلاماً يلقى بلسان الإحساس ، ونطقاً ينزل عن وحي المخيلة ، وأوصافاً يفضي بها الشوق ، وإنما كانت المبالغة زيادة على الحقيقة لتمكين السامع من الوصول إلى مقدار الحق ، والحرص على ألا ينقطع منه قسم على طريق الإلقاء ، وفي أثناء الانتقال ، فكأن هذه الزيادة جعلت لتملأ الفراغ الواقع بين المدرِك والمدرَك حتى لا يصل إلى الذهن إلا كاملا بكل قوته ، ولا يحل في العقل إلا بجميع حاشيته[1] » .

ومع أن هذا التعريف وصل إلى درجة كبيرة في فهم حقيقة الشعر وشروطه التي تهيىء له الصحة والجودة ، إلا أنه سار في الإطار الذي وضعه العرب للشعر الغنائي مع نظرة جديدة أطلت على الشعر الغربي من بعيد .

وهاك رأياً لأديب ذواقة ، اشتهر بالنثر والشعر معا ، وإن كان قد احتل في النثر الحديث منزلة الرائد إلى أسلوب جديد ، وهو وإن لم ينل حظاً من الثقافات الأجنبية بيد أنه لسلامة طبعه وأصالة ذوقه ، ورقة حسه ، وكثرة إطلاعه على ما ترجم استطاع أن يقرب إلى حد كبير من التعريف الصحيح للشعر ، ذلك هو المنفلوطي .

فهو يرى أولا أن الشعر فن من الفنون الجميلة يجب أن يأتي وليد الطبع والشعور :[2] « وهل الشعر إلا نثارة من الدر ينظمها الناظم إن شاء شعراً . وينثرها الناثر إن شاء نثراً ! أو نغمة من نغمات الموسيقى يسمعها السامع مرة من أفواه البلابل والحمائم ، وأخرى من أوتار العيدان والمزاهر ، أو عالم من عوالم الخيال يطير فيه الطائر بقادمتين من عروض وقافية ، أو خافيتين من فِقَر وأسجاع » .

ويجهر المنفلوطي برأي جديد في الوزن والقافية وأنهما لا يمتان إلى جوهر الشعر إلا بمقدار ما ينتمي الصبغ واللون إلى النسيج ، وأن الغناء والحداء هو الذي أوحى بهما أول الأمر ولكن :

---

(١) مختارات المنفلوطي من ص ١٢١ — ١٢٤ .

(٢) المصدر السابق ص ٥١ .

« الكاتب الخيالي شاعر بلا قافية ولا بحر . وما القافية والبحر إلا ألوان وأصباغ تعرض للكلام فيما يعرض له من شئونه وأطواره ولا علاقة بينها وبين جوهره وحقيقته ، ولولا أن غريزة في النفس أن يردد القائل ما يقول ويتغنى بما يردد ترويحا عن نفسه ، وتطريباً لعاطفته ما نظم ناظم شعراً ، ولا روى عروضي بحرا .

الشعر أمر وراء الأنغام والأوزان ، وما النظم بالإضافة إليه إلا كالحلي في جيد الغانية الحسناء ، أو الوشي في ثوب الديباج المعلَم ، فكما أن الغانية لا يحزنها عطل جيدها ، والديباج لا يزري به أنه غير معلَم كذلك الشعر لا يذهب بحسنه وروائه أنه غير منظوم ولا موزون » .

وهذا رأي في غاية الجرأة من جهة محافظة لم يقل به حتى أولئك الذين ينادون اليوم بالشعر الحر ، فإنهم يحرصون على وجود نوع من النغم ممثلاً في (التفعيلة) . ولعل المنفلوطي الكاتب العاطفي الذي اشتهر أول أمره بالشعر ، ثم عدل عنه إلى النثر الفني حين وجده أضيق من أن يتسع لأفكاره وعواطفه ، يريد أن يعد بنثره في زمرة الشعراء ولو لم يأت بالموزون المقفى . فالنغم شرط أساسي في الشعر لا يسمى شعراً إلا به، وهو صناعة دقيقة يظهر فيها الخلل اليسير، ولا يتحمل السخف والهذر.

ولعل المنفلوطي كذلك كان ينظر إلى هؤلاء النظامين الذين لا يعرفون ماهية الشعر وجوهره ، ويأتون بالغث السمج من الكلام ، وهو وإن كان منظوماً إلا أنه خال من كل أركان الشعر ؛ عارٍ عن شروطه وأصوله ، فلا عاطفة ولا خيال ولا سمو تعبير ، والصلة بين الشعر والوزن هي التي جعلت بعض الناس يدخلون في باب الشعر كل منظوم وإن خلا من سمات الشعر الأصيلة فيقول المنفلوطي : « وتلك الصلة هي التي خلطت بينهما وعمت على كثير من الناس أمرهما ، وهي التي أدخلت النظامين في عداد الشعراء وألقت عليهم جميعاً رداءً واحداً لا يستطاع معه التمييز بينها إلا لقليل من الناقدين المستبصرين ، فأصبحنا نقرأ القصيدة ذات المائة بيت فلا نجد بيتاً ، وتتصفح الديوان ذا المائة قصيدة فلا نعثر على قصيدة » ، ويجمل المنفلوطي بعد ذلك رأيه في الشعر وتعريفه محدداً شروطه ومعالمه بقوله . « وعندي أن أفضل تعريف له أنه تصوير ناطق ، لأن القاعدة المطردة هي التأثير ، وميزان جودته ما يترك في النفس من الأثر ، وسر ذلك التأثير أن الشاعر يتمكن ببراعة

أسلوبه وقوة خياله ، ودقة مسلكه وسعة حيلته من هتك ذلك الستار المسبل دون قلبه وتصوير ما في نفسه للسامع تصويراً يكاد يراه بعينه ويلمسه ببنانه ، فيصبح شريكه في حسه ووجدانه ، يبكي لبكائه ويضحك لضحكه ويغضب لغضبه ، ويطرب لطربه ويطير معه في ذلك الفضاء الواسع من الخيال فيرى الطبيعة بأرضها وسمائها وشموسها وأقمارها ورياضها وأزهارها وسهولها وجبالها وصادحها وباغمها وصامتها من حيث لا ينقل إلى ذلك قدماً » .

وهو بهذا قد فطن إلى أن الغاية من الأدب هي نقل الأثر الذي يحسه الأديب إلى السامع أو القارئ ، ومشاركته في أحاسيسه كأنه كان معه وعانى تجربته .

ولا شك أن هذه لمحات جيدة من هؤلاء الأدباء كان لها أثرها الفعال في القضاء على أدعياء الشعر ، وفي دفعه نحو القوة والجزالة والصدق ، ولكنهم لم يخرجوا على دائرة الشعر العربي القديم في أغراضه وفي موضوعاته ، ولم يأتوا بنظريات جديدة ، وإن قاموا بعرض القديم عرضاً طريفاً يتناسب مع الثقافة المعاصرة لهم وانتشار التراجم الغربية بين أيديهم .

ولا يخرج عن مثل هذه النظرة ما قاله إبراهيم المويلحي في تعريفه للشعر وبيان جوهره[1] ، وسنعرض لرأي الرافعي في الشعر عند الكلام عنه في هذا الفصل ان شاء الله .

ولكنّ ثمة عوامل كثيرة دعت الشعراء الذين ساروا على نهج الشعر العربي القديم في أغراضه ، وفي نظام القصيدة وفي المعاني ، والأخيلة ، أن يسلكوا بالشعر طريقاً جديدة . ولقد بينا فيما سبق بعض هذه العوامل ، من تأثر بالثقافة الأجنبية ثم تأثر بالنهضة القومية .

ومن العوامل القوية ذات الأثر الفعال في توجيه الشعر : النقد الأدبي الحديث وإلحاح النقاد المتواصل في أن يعدل الشعراء عن المنهج القديم ، ويجعلوا شعرهم مناسباً لبيئاتهم وزمانهم ، وأن يجددوا فيه بما يناسب الحضارة التي ينعمون بها ، ويرون آثارها في الأفكار والحياة المدنية ، وقد قسوا أحياناً في نقدهم الشعراء علّهم

---

(١) مختارات المنفلوطي ص ٢٠٣ .

ينفرون من طريقتهم الأولى ، وإن لم يخل بعض نقدهم من أغراض خاصة ، وحزازات شخصية وتحامل ، ولكنه كان في جملته موجهاً للشعر الحديث توجيهاً جديداً .

ومن بواكير ذلك النقد الأدبي ما سطره أحمد فارس الشدياق عن نفسه حينما مدح أحمد باشا والي تونس بقصيدة ابتدأها بالنسيب على عادة العرب ، وترجمها مسيو (دوكان) ، ودهش الفرنسيون من بدئها بذكر المرأة ، واستطرد الشدياق في تبيان الفرق بين الشعر الغربي والشعر العربي على نحو ما فصلناه في الجزء الأول[1] . ولكن الشعراء لم يلتفتوا إلى هذا النقد وهذا التوجيه لأنه كان سابقا لزمنه ولم تتهيأ العقول بعد لتعمل به ، وظل كثير منهم في العقد الأخير من القرن التاسع عشر يوالي قرض الشعر بأغراضه القديمة ، ومعانيه المستقاة من الأدب العربي القديم ، وبنفس الأسلوب الذي اختطه شعراء الجاهلية ، وإن أثارت الأغراض القومية الشعراء ، ونظموا في الشعر السياسي ، وتبيان مآسي الشعب وآلامه ، وآماله ؛ بيد أنهم لم يقلعوا جملة عن المديح والرثاء في مختلف المناسبات .

ويوجه أحد رجالات السياسة ، وزعماء الوطنية نقداً لبعض الشعر الذي كان يسمعه في ذلك الوقت ، وذلك السياسي ، هو المرحوم محمد فريد (بك) في المقدمة والتي كتبها لديوان (وطنيتي) الذي نظمه الأستاذ علي الغاياتي ، وحبس من أجلها ستة أشهر ، كما حبس الشيخ جاويش ثلاثة أشهر لأنه كتب مقدمة أخرى لهذا الديوان . وتلك المقدمة التي كتبها محمد فريد فيها توجيه سديد للشعر نحو الأغراض القومية ، وقد قال فيها : « الشعر من أفعل المؤثرات في إيقاظ الأمم من سباتها ، وبث روح الحياة فيها ، كما أنه من المشجعات على القتال ، وبث حب الإقدام والمخاطرة بالنفس في الحروب ، ولذلك نجد الأشعار الحماسية من قديم الزمان شائعة لدى العرب وغيرهم من الأمم المجيدة كالرومان واليونان وغيرهم .

وليس من ينكر أن الأنشودة الفرنسية التي أنشأها الضابط الفرنسي (روجيه دي ليل) وسميت المارسيليز كانت من أقوى أسباب انتصار فرنسا على ملوك أوربا ، الذين تألبوا عليها لإخماد روح الحرية في مبدأ ظهورها .

---

(١) راجع في الادب الحديث الجزء الأول ص ٨٤ — ٨٥ ط سادسة .

لذلك كتب الكاتبون منا كثيراً في ضرورة وضع القصائد ، والأغاني الوطنية ليحفظها الصغار ، ويتغنوا بها في أوقات فراغهم ، ولينشدوها في ساعات لعبهم ، بدل هذه الأغاني والأناشيد التي يرددها الأطفال في الأزقة خصوصاً في ليالي رمضان المبارك ، كما كتبوا في لزوم تغيير الأغاني التي تنشد في الأفراح ، وكلها دائرة حول نقطة واحدة هي الغرام ووصف المحبوب بأوصاف ما أنزل الله بها من سلطان •

لقد كان من نتيجة استبداد حكومة الفرد سواء في الغرب أو في الشرق إماتة الشعر الحماسي ، وحمل الشعراء بالعطايا والمنح على وضع قصائد المدح البارد ، والإطراء الفارغ للملوك والأمراء والوزراء ، وابتعادهم عن كل ما يربي النفوس ، ويغرس فيها حب الحرية والاستقلال كما كان من نتائج هذا الاستبداد خلو خطب المساجد من كل فائدة تعود على المستمع ، حتى أصبحت كلها تدور حول موضوع التزهيد في الدنيا ، والحض على الكسل ، وانتظار الرزق بلا سعي ولا عمل •

تنبهت لذلك الأمم المغلوبة على أمرها ، فجعلت من أول مبادئها وضع القصائد الوطنية والأناشيد الحماسية باللغة الفصحى للطبقة المتعلمة ، وباللغة العامية لطبقات الزراع والصناع • وسواهم من العمال غير المتعلمين ، فكان ذلك من أكبر العوامل على بث روح الوطنية بين جميع الطبقات ، ويسرني أن هذه النهضة المباركة سرت في بلادنا فترك أغلب الشعراء نظم قصائد المديح للأمراء والحكام ، وصرفوا هممهم ، واستعملوا مواهبهم في وضع الأشعار الوطنية وإرسالها في وصف الشئون السياسية التي تشغل الرأي العام • وقد لاحت (وطنيتي) في طليعة هذه النهضة الميمونة •

ومما يزيد سروري أن شعراء الأرياف وضعوا عدة أناشيد وأغان في مأساة (دنشواي) وما نشأ عنها ، وفي المرحوم مصطفى باشا كامل ، ومجهوداته الوطنية ، وفي موضوع قناة السويس ، وأخذوا ينشدونها في سمرهم وأفراحهم على آلاتهم الموسيقية البسيطة ، وهي حركة مباركة إن شاء الله تدل على أن مجهودات الوطنيين قد أثمرت ، ووصل تأثيرها إلى أعماق القلوب في جمع طبقات الأمة ، وتبشر باقتراب زمن الاستقلال ، والتخلص من سلطة الفرد بإذن الله •

فعلى حضرات الشعراء أن يقلعوا عن عادة وضع قصائد المديح في أيام معلومة ، ومواسم معدودة ، وأن يستعملوا هذه المواهب الربانية العالية في خدمة الأمة

وتربيتها بدل أن يصرفوها في خدمة الأغنياء ، وتملق الأمراء ، والتقرب من الوزراء ، فالحكام زائلون ، والأمة باقية »[1] .

إن هذا النداء الذي يوجهه زعيم سياسي للأدباء لدليل قوي على مبلغ ما يشعر به من فائدة الأدب الحي ، والشعر الحماسي ، وما عساه أن يفعله في نفسية شعب أرهقها المحتل ، وأذلها واعتصر منها ماء الحياة والعزة ؛ إنه يريد من الشعر أن يؤدي رسالة الوطنية والقومية ، وأن يلهب بحرارته تلك النفوس الميتة ، حتى تشتعل ، وتحرق بحرارة إيمانها ، وقوة يقينها بحقها في الحرية سطوة الغاصب ، وتذيب حديده ومدافعه . وكم من أمة بليت بما ابتليت به مصر من محنة الاحتلال ، وسامها أعداؤها الهوان والخسف ، ولقنت صغارها تلك الأناشيد الوطنية ، التي تنفث في قلوبهم كراهية هذا العدو الغشوم ، فكبروا وكبر معهم مقتهم لهذا الذي حرمهم ألذ ما تطمح إليه الإنسانية وهو الحرية ، فحركهم شعور واحد هو الحقد والبغض ، وويل للعدو ــ مهما أوتي من البطش والسيطرة ــ إذا تجمعت عليه أمة تنبعث كل حركاتها عن كراهية له وحقد عليه ، وتصمم في إرادة لا تفل ، وعزيمة لا تكل ، على طرده ، وتحطيم أغلاله : فعلت هذا (إيرلندا) و (بولندا) وغيرهما من الشعوب التي نكبت في استقلالها حيناً من الدهر .

إنه كذلك يريد أن ينصرف الشعراء عن تمجيد الفرد الى تمجيد الأمة ، وإذا كان العرب قديماً قد توجهوا بمديحهم للأفراد أمراء وخلفاء ، فلأن هؤلاء كانوا عنوان عزتهم ، ومصدر فخارهم ، وقادة لشعب حر مستقل ، لم يعرف العبودية والذلة ، ولأنهم كانوا يمجدون فيهم صفات النبل والكرم والشجاعة ليكونوا مثلا أعلى لشعوبهم[2] ، ثم إنهم لم يكونوا في حاجة إلى تلك الأناشيد الحماسية ، والشعر الوطني ، وهم يتمتعون بالاستقلال والحرية ولكننا في أمس الحاجة إلى مثل هذا اللون من الشعر .

وقد كانت الحقبة التي ظهر فيها مصطفى كامل ومحمد فريد حقبة يقظة قومية ، وقد لبى الشعراء نداء الوطن ، ووصفوا آلامه وعبروا عن مشاعره وآماله ، كما

---

(١) راجع محمد فريد لعبد الرحمن الرافعي ص ١٨٨ .

(٢) انظر ص ٣٠ ، ٣١ من هذا الكتاب .

مر بك ، ولكن الزعيم السياسي يرحب بديوان (وطنيتي) لأنه حوى شعراً يعلي شأن الوطن في النفوس ، ويوحي إليها بكراهية المحتل ، والعمل على مقاومته وطرده ، وهذا هو السبب في أنهم صادروا الديوان ، وسجنوا فريداً ستة أشهر وعبد العزيز جاويش ثلاثة أشهر .

— ٢ —

كانت هذه الصيحة صيحة زعيم سياسي ربما لم يتح له أن يدرس الأدب الغربي دراسة عميقة ، أو أن يشغل به . ولقد خاض في حديث الشعر والتجديد فيه عدد غير قليل من النقاد الذين تأثروا بالأدب الغربي ، ودرسوه في مواطنه قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها ، درسوا الأدب الذي كان موجوداً قبل الحرب ، لا الذي جد في خلالها وعقب انتهائها ، لأن هذا الأخير كان أدباً تافهاً يرمي إلى الترويح عن تلك النفوس التي اصطلت بنار الحرب أربع سنين كاملة ، والتي شاهدت المئات والألوف والملايين تحصد حصداً ، والمدن تدمر تدميراً ، فصارت لا تؤمن بالمثل العليا ، والقيم الأخلاقية ، ولا تبقي على شيء من الفضائل ، إذ لا فائدة من هذا كله والحرب تحطم كل شيء ، فالأولى لهذه البشرية أن تقبل على اللذات بنهم ، وتتزود منها ما استطاعت قبل أن تذهب إلى جحيم الحرب ، وأخذ الأدباء — للأسف — في أوربا يتملقون تلك النزعات ، ويغذونها بأدب رخيص كله شهوة عارمة ، ولذة تافهة .

تأثر بعض نقادنا بكبار الأدباء الأوربيين الذين لم يشاهدوا تلك الحركات الهدامة لمعنويات البشرية وحضارتها ، ورجعوا يدعون قومهم إلى أن يجددوا في أدبهم ، وأن يجعلوه ممثلا لعصرهم وبيئتهم والحضارة التي يتقلبون في أحضانها . دعوا إلى الثورة في الأدب شعراً ونثراً ، والذي يعنينا الآن هو الشعر ، فلم تكن الثورة على الغرض وحده كما رأيت عند محمد فريد ، ولكن الثورة كانت على لغته ، وعلى أسلوبه ، وعلى معانيه ، وعلى أغراضه ، وأن تقتفي في شعرنا آثار الشعر الغربي في كل هذا .

وقد حاول الشيخ نجيب الحداد[1] أن يوازن بين الشعر العربي والغربي في

(١) أديب سوري استوطن مصر منذ طفولته ، ولد سنة ١٨٦٧ ، وهاجر إلى مصر مع أهله سنة ١٨٧٣ ، وتعلم في الفرير ؛ ثم عاد إلى بيروت وتخرج على خاليه إبراهيم وخليل اليازجي واشتغل =

اللفظ ، والقافية ، والمعنى ، ليضع أمام المجددين حقائق عن الشعر الغربي يسيرون على هديها • وبين أن وزن الشعر عندنا يختلف عن وزنه عندهم ، فالشعر العربي يعتمد على التفاعيل ، والشعر الغربي يعتمد على (الأهجية اللفظية) وهي كل نبرة صوتية تعتمد على حرف من حروف المد ، سواء كان ذلك الحرف وحده ، أو مقترنا بحرف صحيح ، ويسمون هذه الأهجية (أقداماً) ، وأطولها ما تركب من اثني عشر هجاء ، وأقصرها من هجاء واحد ، ويجوز للشاعر أن ينظم القطعة بحيث يكون أول أبياتها اثني عشر هجاء وينزل بها تدريجا إلى هجاء واحد ، كالحال في بعض الموشحات • وثمة فرق آخر وهو أنهم يصلون بين البيتين في المعنى واللفظ ، وقد كان هذا عيباً عند العرب ، ولقد عابوا النابغة الذبياني لقوله :

وهم وردوا الجفار على تميم وهم أصحاب يوم عكاظ إني
شهدت لهم مواقف صادقات أتيتهم بصدق الـود منـي •

وقيام الوزن في الشعر الغربي على عدد الأهجية مما يسهل نظمه كثيرا ، ويبيح للشاعر أن يقدم ويؤخر في ألفاظ البيت ما شاء ، ويضع في أثنائه اللفظة التي يريدها ولا يختل معه الوزن • وعلى العكس من ذلك الشعر العربي الذي يعتمد وزنه عل التفاعيل من الأسباب والأوتاد ، فإن تقديم الحرف الواحد أو تأخيره فيه قد يؤدي إلى اختلال الوزن بجملته ، أو نقل البيت من بحر إلى بحر •

والقافية في الشعر الغربي لا تلزم في أكثر من بيتين ، ولذلك كان شعرهم كالأراجيز عندنا ، ولهم فيها قيد آخر هو تقسيم القافية إلى مذكرة ومؤنثة ويتطلبون أن تكون كل قوافي القصيدة مؤنثة فمذكرة على التوالي بحيث لا يتوالى بيتان على قافية مذكرة أو مؤنثة • ويريدون بالقافية المؤنثة ما كانت مختومة بحرف علة ، وبالمذكرة ما كانت مختومة بحرف صحيح[١] • ومع أن القافية لا تلزم في أكثر من بيتين فقد برم بها كثير من شعرائهم ، حتى تخلص بعضهم منها وأوجد ما يسمى

= بالصحافة والأدب فكان محرراً بالاهرام ، ثم جريدة (لسان العرب) يومية ، ثم تحولت أسبوعية واشتهر بالتعريب ، وتأليف الروايات ، وهو شاعر عصري مجدد ممتاز ، ومن رواياته المترجمة (غصن البان) ، ورواية (الفرسان الثلاثة) توفي سنة ١٨٩٩ ، وقد طبع ديوانه مرتين •

(١) هذا في مثل اللغة الفرنسية التي تقسم كل الكلمات إلى مذكر ومؤنث ، اما الانجليزية فهناك مذكر ومؤنث ، ومحايد وذلك في الاشياء كباب ونافذة •

المرسل أو (الأبيض) لا يلتزمون فيه قافية ، ولا يتقيدون بغير الوزن ، وهو شائع في الشعر الإنجليزي ، ومنه معظم شعر شكسبير المسرحي . وينظمون المقطوعة الواحدة من الشعر على عدة أوزان مختلفة ، لا تنطبق في مجموعها على الذوق السماعي ، كما يوجد عندنا في بعض الموشحات .

أما ما يميز شعرهم من جهة المعنى فهم يلتزمون الحقائق في نظمهم التزاماً شديداً ، ويبعدون عن المبالغة والإطراء بعداً شاسعاً ، فلا تكاد تجد لهم غلوا ، ولا إغراقا ، ولا تشبيها بعيداً ، ولا استعارة خفية ، ولا خروجاً عن الحد الجائز المقبول من المعاني الشعرية . وهم في هذا أشبه ما يكونون بشعراء العصر الجاهلي ، فأحسن الشعر عندهم أصدقه ، وهم لا يقدمون بين يدي أغراضهم نسيبا أو غيره ، ولا يفتخرون في شعرهم إلا نادراً .

ومما انفردوا به كذلك وضع الروايات التمثيلية شعراً ، وقد مكّنهم هذا من التحليل والتطويل ، وإظهار شخصيات عدة ، وصور متباينة من العادات والأخلاق والأشخاص[1] » . وهذا النقد ، أو التعريض بخصائص الشعر الغربي جعل بعض الشعراء يحاولون الخروج على تقاليد الشعر العربي القديم ، بل إن بعضهم حاول النظم بالشعر المرسل ، والذين تجرءوا على هذا أغلبهم من شعراء المهجر وقلة من أدباء مصر منهم عبد الرحمن شكري وقد نظم به قصيدته « كلمات العواطف » التي أنهى بها الجزء الأول من ديوانه « ضوء الفجر » وقد جاءت مفككة النسج ، كل بيت منها لا يكاد يتصل بما قبله أو بعده ، ولم يكن ثمة ضرورة لأن يهجر القافية إذ لم تكن قصة طويلة متلاحمة النسج قد تتعثر فيها القافية .

كما نجد له من هذا النوع أقصوصتين في الجزء الثاني إحداهما «واقعة أبي قير» والثانية « نابليون والساحر المصري » وقد وفينا الكلام عن شكري حقه في غير هذا الموضع[2] . ومنهم محمد فريد أبو حديد ، وعلي باكثير في بعض مسرحياته محاولا تقليد شكسبير ، بيد أن محاولاتهم باءت بالإخفاق لأن طبيعة الشعر العربي تأبى هذا اللون الشعري الخالي من موسيقى القافية وإن سلم لمحمد فريد أبو حديد

---

(١) راجع مقال الشيخ نجيب حداد في مختارات المنفلوطي ص ١٢٦ — ١٤٥ .

(٢) راجع دراسات ادبية للمؤلف ج ١ ، وسيأتي الكلام عنه في هذا الفصل .

بعض من هذا الشعر في ديباجته وموسيقاه . ويجب هنا أن نفرق بين نوعين من الشعر أحدهما الشعر المرسل Blank Verse والثاني الشعر الحر Verse Libre أما الأول فهو موزون ولكن لا يتقيد بقافية ، والثاني لا يتقيد بقافية ولا وزن(١) .

ويقول الأب لويس شيخو عن هذا النوع من الشعر : « ومما سبق إليه أدباء عصرنا دون مثال في لغتنا ما دعوه بالنثر الشعري ، أو الشعر المنثور ، كأنه جامع بين خواص النثر والنظم ، أما النثر فلأنه على غير وزن من أوزان البحور ، وأما النظم فلأنهم يقسمون مقاطعه ثلاث ورُباع وخماس ، وأزيد ، دون مراعاة أعدادها ، ويسبكونها سبكا مموها بالمعاني الشعرية .

وهذه الطريقة استعارها على ظننا الكتبة المحدثون كأمين الريحاني ، وجبران خليل جبران ، ومن جرى مجراهما من الكتبة الغربيين ، ولا سيما الإنجليز في ما يدعونه بالشعر (الأبيض) غير المقفى ، وفي بعض كتاباتهم الشعرية المعاني غير المقيدة بالأوزان ولسنا ننفي هذه الطريقة الكتابية التي تخلو من مسحة الجمال في بعض الظروف ، اللهم إلا إذا روعي فيها الذوق الصحيح ، ولم يفرط في الاتساع فيها فتصبح لغطاً وثرثرة . على أننا كثيراً ما لقينا في هذا الشعر المنثور قشرة مزوّقة ليس تحتها لباب ، وربما قفز صاحبها من معنى لطيف إلى قول بذيء سخيف ، أو كرر الألفاظ دون جدوى ، بل بتعسف ظاهر . ومن هذا الشكل كثير في المروجين للشعر المنثور من مصنفات الريحاني ، وجبران ، وتبعتهما ، فلا تكاد تجد في كتاباتهم شيئاً مما تصبو إليه النفس في الشعر الموزون الحر ، من رقة شعور وتأثير . خذ مثلا وصف الريحاني للثورة :

ويومها القطيب العصيب   وليلها المنير العجيب
ونجمها الآفل يحدج بعينه الرقيب

وصوت فوضاها الرهيب ، من هتاف ولجب ونحيب ، وزئير ، وعندلة ، ونعيب

---

(١) راجع عن هذين النوعين من الشعر Encyclopedia Britanica V. 3. p. 575, 696 وكذلك V. 23. pp. 482 — 9 وراجع كذلك Dr. Moulton's World Literature وكذلك J. W. Long English Literature وكذلك مقالا للأستاذ حسين عفيف المحامي الأهرام ١٩٣٦/٩/٢٠ .

وطغاة الزمن تصير رماداً   وأخياره يحملون الصليب
ويــل" يومئذ للظالمــين   للمستكبرين والمفسدين
هــو يوم مــن السنين   بل ساعة من يوم الدين
ويــل يومئذ للظالمــين

ومثلها من شعر جبران قوله :

تنبثــق الأرض مــن الأرض كرهــا وقســراً
ثــم تســير الأرض فــوق الأرض تيهــاً وكبــرا
وتقيم الأرض من الأرض القصور والبروج والهياكل
وتنشيء الأرض في الأرض الأساطير والتعاليم والشرائع

ثــم تمــل الأرض أعمال الأرض فتحرك مــن هالات الأرض الأشباح والأوهام والأحلام

ثم يراود نعاسُ الأرض أجفان الأرض فتنام نوماً هادئاً عميقاً أبدياً

ثم تنادي الأرض قائلة للأرض :

أنا الرَّحِم ، وأنا القبر ، رحماً وقبراً ، حتى تضمحل الكواكب وتتحول الشمس إلى رماد .

فلعمري هذه ألغاز لا شيء فيها منظوم رائق ولا منثور شائق ، هي أقرب إلى الهذيان والسخف منها إلى الكلام المعقول[1] » .

ومن هذا الضرب الذي سموه شعراً منثوراً ما قاله أمين الريحاني يحيي مصر :

أكبر الشرقيات الباسمات للدهر   وأحــدث الشرقيات الناهضات
هي أول من حمل ميزان القسط   وأول مــن استــرق العبــاد
لهــا الصولجان المرصع الماسات   والســوط الملطــخ دمــا
هــي أول مــن قال للموت لا   وأول مــن قــال للحياة نعم

---

(١) الأب لويس شيخو : الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين ص ٤١ — ٤٣ .

لهـا في الموت حيـاة وفي الحيـاة المآثـر الخالدات

مصر آية الزمان ، ابنة فرعون ــ معجزة الدهر ــ فتاة النيل

ومن كلام جبران في هذا النوع من النثر الذي سماه شعراً منثوراً ، لأنه غَصّ بكثير من الاستعارات والكنايات والمجازات وأنواع الخيال ، قوله يناجي الليل :

« يا ليل العشاق والشعراء والمنشدين

« يا ليل الأشباح والأرواح والأخيلة

« يا ليل الشوق والصبابة والتذكار

« أيها الجبار الواقف بين أقزام المغرب وعرائس الفجر ، المتقلد سيف الرهبة ، المتوج بالقمر المتشح بثوب السكوت ، الناظر بألف عين إلى أعماق الحياة ، المصغي بألف أذن إلى أنّة الموت والعدم .

« في ظلالك تدب عواطف الشعراء ، وعلى منكبيك تستفيق قلوب الأنبياء ، وبين ثنايا ضفائرك ترتعش قرائح المفكرين .

« أنا مثلك يا ليل ، أنا ليل مسترسل منبسط هادئ مضطرب وليس لظلمتي بدء ، ولا لأعماقي نهاية » .

لعلك ترى في هذا الذي يسمونه شعراً ، أنه غير موزون وغير مقفى ، فهو من نوع ما يسمى بالشعر الحر وهي تسمية فيها كثير من التعسف ؛ لأن من أهم أركان الشعر أن يكون موزوناً منغماً . وقد ورد مثل هذا الكلام المليء بضروب الاستعارات والمجازات لدى الأقدمين ولا سيما مدرسة ابن العميد ، ومع ذلك لم يجرؤ أحد على تسميته شعراً لأن للنغمة الموسيقية في الكلام روعة وأسراً يجعلانه أنفذ إلى القلب وأسرع في التأثير وبدونها يصير نثراً أدبياً ، ويختلف عن الشعر في تأثيره وروعته .

وقد قال مصطفى صادق الرافعي عن هذا النوع من الشعر الذي خرج فيه الشعراء على تقاليد الشعر العربي القديم سواء كان شعراً حراً مثل الذي قدمته آنفاً أو شعراً مرسلاً كقصيدة « إيليا أبو ماضي » الشاعر والسلطان الجائر : « نشأ في

أيامنا ما يسمّونه « الشعر المنثور » ، وهي تسمية تدل على جهل واضعيها ومن يرضاها لنفسه ، فليس يضيق النثر بالمعاني الشعرية ، ولا هو قد خلا منها في تاريخ الأدب ، ولكنّ سر هذه التسمية أن الشعر العربي صناعة موسيقية دقيقة ، يظهر فيها الإخلال لأوهى علة ، ولأيسر سبب ، ولا يوفق إلى سبك المعاني فيها إلا من أمده الله بأصلح طبع ، وأسلس ذوق ، وأنصع بيان . فمن أجل ذلك لا يحتمل شيئاً من سخف اللفظ ، أو فساد العبارة ، أو ضعف التأليف . غير أن النثر يحتمل كل أسلوب ، وما من صورة فيه إلا ودونها صورة تنتهي إلى العامي الساقط ، والسوقي البارد ، ومن شأنه أن ينبسط وينقبض على ما شئت منه ، وما يتفق فيه من الحسن الشعري ، فإنما هو كالذي يتفق في صوت المطرب حين يتكلم ، لا حين يتغنى ، فمن قال : الشعر المنثور ، فاعلم أن معناه عجز الكاتب عن الشعر من ناحية ، وادعاؤه من ناحية أخرى[1] .

لقد كان هؤلاء السوريون المهاجرون إلى مصر وإلى أمريكا ثائرين على الأدب العربي القديم ثورة جامحة، وحاولوا أن يجددوا على نمط الشعر العربي ، ويقولون : « لسوء حظنا أن آدابنا العربية قصرت عن مجاراة الحياة لأجيال كثيرة ، فكان نصيبها الجمود والخمود ، فقد مرت بنا قرون ونحن لا نجد نغمة نلحنها سوى نغمة القدماء ، فإن تغزلنا فبلسان العيس ، وإن ندبنا فبلسان باكي الأطلال والدِّمن ، وإن هزتنا الحماسة طعنّا بالهنداوي والقنى ، وإن مدحنا أنزلنا الشمس عن عرشها ، وكسفنا البدر ووطئنا هام الثريا ، ولجمنا أمواج البحار . زد على ذلك أن غزلنا تكلف ، وبكاءنا بلا حُرْقة ، ولا دموع ، وحماستنا بلا شعور ، ومديحنا مغالاة واختلاق باختلاق ، فآدابنا ليست إلا جثة بلا روح ، لأنها تحاول تقليد القدماء ، وناسية أن روح مصر وسوريا اليوم ليست روح عدنان وقحطان واليمن أو بغداد أو غرناطة أو أشبيلية من ألف أو ألفي سنة[2] » .

ولم يكتف شعراء المهجر بهذه الدعوة إلى التحرر من تقاليد الأدب العربي وزخارفه ، ومبالغاته ، بل دعوا إلى أن الشعر يجب أن يمثل الحياة « فالحياة والأدب

(١) المقتطف يناير ١٩٢٦ ص ٣١ .
(٢) مجلة الهلال — يوليه ١٩٣١ ص ٤٢٧ من كلام الرابطة القلمية بنيويورك .

توأمان لا ينفصلان » وإلى أن نظم الشعر « ممكن في غير الغزل والنسيب والمدح والهجاء ، والوصف والرثاء ، والفخر والحماسة[١] » .

وثاروا على العروض والأوزان ثورة عنيفة كما رأيت في الأمثلة التي سقتها إليك[٢] ، وهذا هو جبران خليل جبران في مقاله « لكم لغتكم ولي لغتي » يثور على كل شيء : يثور على اللغة ، فلا يعترف بمعاجم ، ويثور على « العروض والتفاعيل والقوافي ، وما يحشر فيها من جائز وغير جائز » ، ويثور على الأغراض فيقول : « لكم منها الرثاء والمديح والفخر والتهنئة ولي منها ما يتكبر عن رثاء من مات وهو في الرحم ، ويأبى مديح من يستوجب الاستهزاء ويأنف من تهنئة من يستدعي الشفقة ، ويترفع عن هجو من يستطيع الإعراض عنه ، ويستنكف من الفخر ، إذ ليس في الإنسان ما يفاخر به سوى إقراره بضعفه وجهله »[٣] . ويرى صاحب الغربال أن الكاتب أو الشاعر في حل من الخطأ اللغوي ما دام الغرض الذي يرمي إليه مفهوماً ، واللفظ الذي يؤدي به معناه مفيداً ، ويرى أن التطور يقضي بإطلاق التصرف للأدباء في اشتقاق المفردات وارتجالها[٤] .

لقد تأثر هؤلاء الأدباء المهاجرون بالأدب الإنجليزي أيما تأثر ، وقلدوه في بعض أنواعه وهو الشّعر المرسل ، والشعر الحر ، وترسموا خطى (وُلْتْ وِتْمان) الأمريكي Walt Witman [٥] في ديوانه الذي أودعه شعره الحر ، وسماه أوراق العشب Leaves of Grass وقلدوه[٦] كذلك في كثرة الحديث عـن النفس ، وتأملاتها ، وفي الكلام عن الضمير والوحدة وفي نزعته الصوفية[٧] .

لقد هاجر هؤلاء إلى أمريكا شماليها وجنوبيها تحت الضغط الاقتصادي في

---

(١) ميخائيل نعيمة في الغربال ص ٢٤ ط ثانية .

(٢) راجع كذلك الغربال ص ٩٣ وما بعدها .

(٣) بلاغة العرب في القرن العشرين ص ٥١ وما بعدها .

(٤) ميخائيل نعيمة في الغربال ص ٨٤ .

(٥) شاعر أمريكي ١٨١٩ – ١٨٨٣ راجع H. R. Gibb, B.O.S.O.S. vol. p. 2.31

(٦) وقد وصف هذا الديوان « بانه أعجب قطعة فنية في الفطانة ، والحكمة انتجتها أمريكا » Encyclopedia Britanica. vol. 23. p. 583.

(٧) Leaders in Contemporary Arabic Literature; by Tahir Khamiry and Kampffmeyer p. 18.

بلادهم ، وهرباً بحريتهم من أن تعصف بها عوامل التعصب الديني الذي بلغ أشده في أخريات القرن التاسع عشر ، وكذلك استبداد الولاة وطغيانهم ، حيث كبتوا الحريات ، وكمموا الأفواه ، وساموا الأحرار الخسف وسوء العذاب ، فآثروا الهجرة حتى لا يساموا الضيم والخسف ، ويعانوا الفقر والذلة في بلادهم ، وما أن هاجروا حتى شعروا بالحرية الواسعة ولا سيما حرية القول والعقيدة ، فانطلقوا على سجيتهم ؛ وفي ذلك يقول جورج صيدح يصف هذا المهاجر :

كمّت الأوطان فاه فاعتلى　　منبر المهجر يستوفي كلامه

وأعتقد أن لهذه الحرية أثراً كبيراً في نزعتهم الثورية على كل القيم في بلادهم ولا سيما هؤلاء الذين هاجروا إلى أمريكا الشمالية وعلى رأسهم جبران ، ونعيمة ، وعريضة ؛ لقد كان ذلك أشبه برد فعل للكبت الشديد الذي عانوه في بلادهم ، وللحرمان المزري الذي دفعهم إلى ترك الوطن الحبيب . ولقد عبر الشاعر القروي سليم الخوري عن الدوافع التي حفزته إلى الهجرة بقوله وهو يودع قريته بلبنان قبل الرحيل عنها :

أبيت جوارها أرضا　　بغير الذل لا ترضى
بـلاد خسفها أمسى　　علـى أبنائها فـرضا
أحس يد الرجاء فلا　　أحس لقلبـه نبضـاً

إنه لم يهاجر حتى يئس ولم يجد بارقة من أمل أو رجاء تحبب إليه الإقامة .

ولقد تفاوتوا في تحررهم وثورتهم على تقاليد الأدب العربي القديم وعلى اللغة فكان المهاجرون إلى أمريكا الشمالية أشد ثورة من سواهم ولا سيما أبناء الرابطة القلمية التي أسست في نيويورك سنة ١٩٢٠ وعلى رأسهم جبران ، ونعيمة ، وعريضة، وأبو ماضي ورشيد أيوب ممن تأثروا إلى حد ما بالأدب الغربي ولا سيما بالأدب الرومانتيكي الذي يعزز النزعة الفردية ، والتعبير عن الذات وخلجات النفس في يأسها ورجائها وحزنها وفرحها ، وصحتها ومرضها ، وفقرها وغناها ، وآمالها وآلامها : فنزعوا إلى الشعر الوجداني الذاتي ، وكرهوا الأدب التقليدي الذي لا يصدر عن شعور وإحساس ، واشتدت حملتهم عليه كما رأيت في كلام جبران .

كما أن شعورهم بالعزلة في هذه المدن الصناعية الكبرى التي يتطاحن فيها البشر ويتصارعون على المادة ، ولا يجد فيها الغريب إلا الوحشة والضيق جعلهم يعكفون على أنفسهم ويكثرون من تأملاتهم .

استمع إلى إيليا أبي ماضي يصور هذه الحيرة التي يعانيها المغتربون في زحمة الحياة الأمريكية :

نحن في الأرض تائهون كأنا   قوم موسى في الليلة الظلماء
ضعفاء محقَّرون كأنا   من ظلام والناس من لألاء
واغتراب القوي عز وفخر   واغتراب الضعيف بدء الفناء

وقد أبدع الشاعر القروي حين قال في تصوير هذه الحالة وإن كان من المهاجرين إلى الجنوب :

في وحشة لا شيء يؤنسها   إلا أنا والعود والشعر
حولي أعاجم يرطنون فما   للضاد عند لسانهم قدر
ناس ولكن لا أنيس لهم   ومدينة ، لكنها قفر

كما شعروا في غمرة هذه الحياة المادية بحاجتهم الماسة إلى روحانية الشرق التي افتقدوها في غربتهم . وزادهم شظف العيش ، والجهاد المرهق في سبيله شعوراً بوطأة الحياة المادية المضطرمة حولهم ، فنزع كثير منهم نزعة تصوفية ، وقد صور جورج صيدح هذه الحالة النفسية بقوله :

عزّ من يفهم شكوى روحه   رب حشد فيه بالروح انفرد

وهذا هو مسعود سماحة يتجه إلى الله يشكو إليه حاله ويصور العقد التي تئود نفسه ويلجأ إلى خالق الكون ليفرج من كربته :

الملك ملكك والبهاء بهاكا   والأرض أرضك والسماء سماكا
الكون مع ما فيه من متحرك   أو ساكن قد كونته يداكا

لا مسعف إلاك ، لا متساهل إلاك ، لا متسلط إلاكا

وقد أكثروا من الابتهالات والتضرعات إلى الله سبحانه ليخففوا عن نفوسهم ما يحز بها • ويذكرنا شعرهم بمتصوفة المشرق ؛ استمع إلى نسيب عريضة وقد أضناه الجهاد في سبيل العيش، وحار في دروب الحياة يقول متوجهاً إلى الله جل وعلا:

أيــا من سناه اختفى ... وراء حــدود البشر
نسيتك يــوم الصفا ... فلا تنسني في الكدر
أيــا غافــراً راحماً ... يرى ذل أمسي وغدْ
معــاذك أن تنقمــا ... وحلمك مــلء الأبدْ
مراعيك خضر المنى ... هي المشتهى سيدي
وجسمي دهــاه العنا ... حنانيك خــذ بيدي

ولذلك كله كان إقبالهم على قراءة (ويتمان) وحبهم له وتأثرهم به والتقائهم معه في منازعه لظروفهم التي ذكرت طرفاً منها مع تأثرهم بالنزعة الروماتنيكية بعامة •

كان مهاجرو الشمال أكثر ثورة على اللغة العربية وعلى تقاليد الأدب الموروث من شعراء الجنوب الذين حافظوا على « أصول اللغة بقوة وروعة ، لأن بضاعتهم كانت كلها شعراً ، ومن الصنف الممتاز بجودة الصياغة وحرارة العاطفة ورخامة النغم ، ولأن النزعة القومية كانت الغالبة عليهم ، فالشعوب التي ترزح تحت الاحتلال أو الانتداب ، المتعطشة إلى الانعتاق من نير الاستعمار لا يستهويها في محنتها مثل الشعر الوطني الحماسي الصادق النبرات الذي يعبر عن واقعها وعن شعورها وعن أمانيها[1] » •

انهارت الرابطة القلمية بعد موت جبران في سنة ١٩٣١ ، ولكن الشعر المهجري وجد دعامته في العصبة الأندلسية التي أسست في سان پاولو سنة ١٩٣٢ ، فكان هؤلاء أكثر حفاظاً على تقاليد الأدب العربي واللغة من سواهم ، ومن أشهرهم الشاعر

---

(١) ادبنا وادباؤنا ص ١٥ .

القروي سليم الخوري ، وإلياس فرحات وآل المعلوف ، وان ظل إيليا أبو ماضي في الشمال يوالي نتاجه الرائع حتى توفي في ٤ من نوفمبر ١٩٥٧ .

ويتسم الشعر المهجري بعامة شماليه وجنوبيه بهذه الحرية في التعبير وبالتأمل في الكون وفي الإنسان كفرد وفي المجتمع وفي الطبيعة وفي حقيقة الوجود والبحث عنها ، وفي النزعات التصوفية عند اشتداد الأزمات النفسية .

لقد كان الانطلاق ، والانعزال عند دنيا الإقطاع الفكري ، وعن الأوساط الرجعية في الوطن هي السبب في شعورهم الحاد بالحرية وبالذاتية . وقد بلور ميخائيل نعيمه رأيه في الشعر الذي يدعو إليه مقاييس عامة حتى يؤدي الأدب مهمته الحقيقية في الحياة ويلبي رغبات النفس بقوله في (الغربال) مبينا هذه الحاجات :

أولا : حاجتنا إلى الإفصاح عن كل ما ينتابنا من العوامل النفسية : من رجاء ويأس وفوز وفشل وإيمان وشك ، وحب وكره ، ولذة وألم ، وحزن وفرح ، وخوف وطمأنينة، وكل ما يتراوح بين أقصى هذه العوامل وأدناها من الانفعالات والتأثرات.

ثانياً : حاجتنا إلى نور نهتدي به في الحياة ، وليس من نور نهتدي به غير نور الحقيقة ، حقيقة ما في أنفسنا ، وحقيقة ما في العالم من حولنا ، فنحن وإن اختلف فهمنا عن الحقيقة لسنا ننكر أن في الحياة ما كان حقيقة في عهد آدم ولا يزال حقيقة حتى اليوم ، وسيبقى حقيقة حتى آخر الدهر .

ثالثا : حاجتنا إلى الجميل في كل شيء ، ففي الروح عطش لا ينطفىء إلى الجمال ، كل ما فيه مظهر من مظاهر الجمال ، فإنا وإن تضاربت أذواقنا فيما نحسبه جميلاً وما نحسبه قبيحاً لا يمكننا التعامي عن أن في الحياة جمالاً مطلقاً لا يختلف فيه ذوقان .

رابعاً : حاجتنا إلى الموسيقى ، ففي الروح ميل عجيب إلى الأصوات والألحان لا ندرك كنهه ، فهي تهتز لقصف الرعد ولخرير الماء ولحفيف الأوراق ، لكنها تنكمش من الأصوات المتنافرة وتأنس بما تآلف منها » .

ولا ريب أن هذه الحاجات إنما تعبر عن حاجات النفس الفردية لا حاجات الجماعة وليس تحقيق هذه الحاجات هو كل الشعر .

ولست أريد في هذه المرحلة من الكتاب أن أدرس أدبهم ، وأحلل نزعاته وأغراضه ، ولكني أقول : إنهم تركوا تقليد الأدب العربي ليقعوا في تقليد أدب غربي ، وفي تقليد شاعر بعينه . ولقد حاولوا أن يوجدوا لهم أنصاراً في مصر ، وقد التقوا مع المجددين في الشعر من المصريين أمثال العقاد والمازني ، بيد أن هؤلاء ، وإن وافقوهم في أشياء ، فإنهم أنكروا عليهم ركاكة أسلوبهم ، وتساهلهم في اللغة وخطأهم[1] .

لم يسر في ركاب شعراء المهجر أحد من أدباء مصر إلا نفر قليل أمثال الكاتبة السورية (مي زيادة) حاولوا كتابة ما سموه بالشعر المنثور ، ولكنهم ما لبثوا أن أقلعوا عنه ، لأنه لم يجد قبولا من أذواق المصريين ، كما لم تجد نظراتهم التشاؤمية ، ونزعتهم المغرقة في التحليل النفسي والتصوف الحزين رغبة في الشرق بعامة بادىء الأمر حينما كان هناك شعراء أقوياء يشبعون أرواح المتأدبين ويعبرون عما يجيش في نفوسهم أمثال شوقي وحافظ ومطران وعلي محمود طه ، فلما ضعف صوت هذا الشعر أو كاد تطلع العرب في المشرق إلى شعر المهجر ودرسوه ووجدوا في كثير منه صوراً جديدة ونغماً جديداً فأقبلوا عليه وظهرت فيه عدة دراسات في السنوات الأخيرة دليل الاهتمام والإعجاب . وكان لدعوتهم إلى هجر بعض أغراض الشعر العربي القديم ولا سيما المديح والفخر والهجاء صدىً في أدبنا الحديث .

— ٣ —

أما نقاد مصر فقد اختلفوا شيعاً ، فهيكل يدعو إلى الأدب القومي[2] ، ويلح في كثير من كتبه أن تتجه في أدبنا اتجاهاً قومياً ، ويرى أن مصر الحديثة أقرب إلى مصر الفرعونية منها إلى مصر الإسلامية ، وعقد موازنات شتى بين ما تخلف عند المصريين المحدثين من عادات ، وبين ما كان عند الفراعنة ، كحفلات الزواج وحفلات الجنازة ، وتعظيم الأولياء ، ويدعو إلى أن نقتبس في أدبنا الحديث من تاريخ الفراعنة « وأن يعمل مؤرخونا وأدباؤنا ليتمثل ابن اليوم هذا الميراث المجيد فيجمع

---

(١) راجع العقاد والمازني في بلاغة العرب في القرن العشرين ص ٦ وص ٩ وراجع العقاد مقدمة الغربال ص ٨ .

(٢) ثورة الأدب ص ١٤٠ وما بعدها . (توفي الدكتور هيكل في ٧ ديسمبر ١٩٥٦) .

ذهنه وقلبه وفؤاده وتصوره وخياله ما كان لمصر في ميادين العقل والعلم والخيال من مجد وعظمة ، تنقلت في تاريخ مصر على كاهل القرون » حتى وصلت إلينا ، ويدعو إلى استجلاء عظمة تلك الآثار الباهرة التي خلفها قدماء المصريين فإنها مصدر إلهام عظيم للشعر . وقد ضرب هيكل أمثلة لهذا النوع من الأدب القومي الذي ارتآه ، والذي يستلهم تاريخ مصر القديم ، فأنشأ عدة قصص تدور حول الفراعنة مثل (إيزيس) و (راعية هاتور) و (أفروديت) وغيرها .

وهو يرى أن محاولاته في الأدب القومي لم تبلغ حد الكمال ، ولا قاربته ، وأنه يضع بها نماذج مقتفيا آثار شكسبير ، وأناتول فرانس ، وبرناردشو في محاولتهم الكتابة عن قدماء المصريين ، وإن لم يدانهم في روعة أدبهم[1] .

من العجيب أن بعض أدبائنا في مستهل هذا القرن حاولوا أن يتنكروا لعروبة مصر وإسلاميتها ، وأن يدفعوها إلى الوراء قروناً حتى تتعلق بأذيال الفرعونية متلمسين أسباباً واهية لذلك من مثل ما ضربه هيكل من عادات الزواج وحفلات الجنازة وتعظيم الأولياء ، مع أن هذه أمور استقرت في مصر منذ العهد الإسلامي ، وهي طبيعة في كل الأمم ؛ فلطم الخدود وشق الجيوب ، وصبغ الوجوه بالسواد ، وخروج النساء وراء الميت ، عادات عرفها عرب الجاهلية ، ونهى عنها الإسلام ، وهي ظاهرة تلفت النظر لدى الشعوب البدائية . أما زف العروس ، ودق الطبول ، وإطلاق الزغاريد وراء العروس فمما يمارسه الناس في كل أمة ولسنا نجد فيه بدعاً . وأما تعظيم الأولياء فقد كان للفاطميين أثر عظيم في تمكينه بنفوس المصريين ، ومعظم أولياء مصر من آل البيت ، وكما يوجد في مصر أضرحة يعظم الناس سكانها يوجد كذلك في كل بلد اعتنقت المذهب الشيعي مثل هذه الأضرحة كبلاد إيران وبعض نواحي العراق والمغرب .

إن من التكلف والتعسف أن نرجع بعادات المصريين وتقاليدهم إلى قدماء المصريين ، وقد عفى البطالسة والرومان في سنوات طويلة على آثار هذه التقاليد الوثنية ، ولا سيما بعد أن دخلت مصر في المسيحية على يد الرومان ، ولما جاء العرب لم يجدوا للغة الفرعونية ولا للتقاليد الفرعونية أثراً في حياة المصريين . أجل ! إن

---

(١) حديث ابليس في أوقات الفراغ ص ١٩ .

هناك بعض رواسب فرعونية ممثلة في قليل من الألعاب التي يمارسها أطفال المصريين في الريف ككرة اليد وكرة المضرب وغيرهما ، ولكن هذا لا يجعل مصر الحديثة أقرب إلى مصر الفرعونية منها إلى مصر الإسلامية كما يدعي هيكل •

والأغرب من هذا أن يدعي الدكتور طه حسين في كتابه « مستقبل التعليم في مصر » أن مصر أقرب إلى اليونان منها إلى العرب والمسلمين ، ولعل السبب في هذه النزعات هو حب التظاهر بالتجديد ، والخروج على المألوف ، أو التأثر بالحملات الاستعمارية على الإسلام وبحسبك أن هؤلاء الذين أنكروا يوماً عروبة مصر وإسلاميتها صاروا اليوم من أكبر الدعاة لهذه العروبة ومن أشد المدافعين عنها ، وبحسبك كذلك أن هؤلاء الذين تهجموا على الدين الإسلامي في مستهل حياتهم الأدبية حتى تشتهر أسماؤهم ويلهج بها الناس لم ينالوا جوائز الدولة إلا على كتبهم الإسلامية مثل (على هامش السيرة) لطه حسين ، و (أبو بكر الصديق) لهيكل لأنها أحسن نتاجهم •

وليس تاريخ مصر القديم وحده هو مصدر الأدب القومي في رأي هيكل ، بل عنده أن وصف الطبيعة المصرية ، وما فيها من جمال فتّان من صميم الشعر القومي ، وقد عقد لذلك فصلاً كاملاً في كتابه ثورة الأدب ، بيّن فيه ما يجب على الشعراء حيال هذا الجمال في الطبيعة المصرية ، « لكن العجب هم أولئك الذين نسميهم شعراء مصر وكتابها ورجال الفن فيها • هؤلاء كذلك يشعر أكثرهم إزاء ما في بلادهم من جمال بمثل شعور هؤلاء الذين يسمونهم جماعة المتعلمين في مصر ، فقلّ منهم من تهتزّ عاطفته لمشهد هذا الجمال إلى حدّ يهز شاعريته أو خياله أو فنّه اهتزازاً يخرج من نفوسهم صيحات صادقة كلها تأليه لهذا الجمال وعبادته وتقديسه ، ويستثير من أوتار شاعريتهم أو خيالهم هذه الأناشيد التي تدفع بالفارس ليلقي بنفسه في غمار « التيبر »[1] متغنيا : « أيها التيبر ! يا أبانا التيبر ! يا من يسبّح الرومان بحمده ! إليك حياة روماني وعدةَ حربه ، خذهما اليوم في رعايتك » بل إن أحدهم ليحس أحيانا بأن واجباً عليه أن يتحدث عن بلاده وتاريخها وعن جمالها ، فإذا قرأت حديثه وجدت فيه من جمال العبارة ما يخلبك ، ولكنك وجدته خِلْواً من الشعور الصادق،

---

(١) التيبر : نهر بإيطاليا ، وهو الذي تقع عليه مدينة روما .

والإحساس العميق . وكل شعر وكل أدب ، وكل فن ليس صادراً عن شعور صادق ، وإحساس عميق ، لا حياة فيه ولا بقاء له ، وسر هذا الجمود في تقدير جمال بلادنا ضعف الإيمان في نفوس شعرائنا وأدبائنا وكتابنا وذوي الفن فينا بالجمال »[1] .

وأخذ هيكل يتغنى بجمال النيل ، ويحاول أن يكشف عن مفاتنه لأدبائنا وشعرائنا ، ويغريهم بالذهاب إليه والتملي من محاسنه ، حتى يكون إحساسهم بالجمال عميقا ، وحتى يستلهموا هذا النهر الذي يفوق في جماله كلَّ أنهار أوربا وما يحيط بها ، بل « أين أنت يا أنهار أوربا ، وأنهار العالم كله من نيلنا السعيد ، المبارك الغدوات ، الميمون الروحات ؟ » .

يدعو هيكل الشعراء والأدباء إلى تمجيد الطبيعة المصرية حتى يحببوا فيها بني قومهم ، ويكشفوا لهم بما أوتوا من حساسية مرهفة ، وذوق صاف ، وشعور فياض بالجمال ، وقدرة فائقة على التعبير عن هذا الجمال ، « لو أن رهطاً من الشعراء والكتاب ، وأرباب الفن استلهموا هذا النيل ودوّنوا وحيه ، لرأيت صاحبي الذي هزّ كتفيه حين ذكرت له إعجابي بالنيل وجماله أشدّ بنيل بلاده إعجابا منه بجمال سويسرا ، أو أية بقعة ساحرة من بقاع العالم . نعم ! فالفنُّ يسكب الجمال حتى في النفوس الجامدة أمام الجمال ، وهو بما يصنع من هذا يدفع الناس إلى العمل للمزيد من هذا الجمال ، ذلك بأنه يحبب إليهم الحياة ، ويدعوهم إلى زيادة تجميلها ، وإلى معاونة الطبيعة لإظهار زينتها وبهجتها »[2] .

ولا شك أن دراسة هيكل للأدب الأجنبي القديم والحديث ، ولا سيما أدباء المدرسة الإبداعية أمثال رسو ، وهيجو ، وأناتول فرانس ، وشاتوبريان ، ولامارتين وغيرهم هي التي اوحت إليه بأن يهزّ أدباءنا تلك الهزة القوية لعلهم يستيقظون ، ولكننا نقول تقريراً للحقيقة : إن تلك النزعات القومية التي دعا إليها هيكل ، وتغنى بها ، وحث ، الشعراء عليها : من إحياء التاريخ القديم ، وتغنيه بالطبيعة ، قد ظهرت في شاعر مصري قوية جذابة من أول نشأته الشعرية ، وذلك هو شوقي ، فقصيدته « كبار الحوادث في وادي النيل » التي قالها في مؤتمر المستشرقين بجنيف عام ١٨٩٤ والتي مطلعها :

همّت الفلكُ واحتواها الماء وحداها بمن تقل الرجاء

---

(١) ثورة الأدب ص ١٢٨ .

(٢) ثورة الأدب ص ١٣٨ .

« رواية من الروايات الخالدة لتاريخ مصر منذ الفراعنة إلى عهد أبناء محمد علي ، وقف فيها الشاعر وقفة مصري ، صادق العاطفة ، تفيض عليه ربة الشعر تاريخ بلاده منذ عرفها التاريخ »[1] وليست هذه هي القصيدة اليتيمة التي قالها شوقي في مصر ، بل إنه أحسَّ بما أحس به هيكل ، وسبقه في شعوره ، وفي إبراز هذه الفكرة ، واستجابته لجمال بلاده ، ولإيمانه العميق بها ، فقال عدة قصائد في تاريخ مصر قديماً وحديثاً كقصائده على سفح الأهرام ، وأبي الهول ، وتوت عنخ آمون ، وأنس الوجود ، « وأنت إذ تقرأ هذه القصائد يهزك الشعور بصورة هذا الماضي في قداستها ومهابتها ، وتملكك نفس الشاعر فترتفع بك عن مستوى الحياة الدنيا إلى سماوات الخلد • ذلك بأن شوقي يُهديك المعنى الذي كانت تلتمسه نفسك فلا تقع عليه ، ويرسم أمامك بوضوح وقوة وسمو خيال ونبل عاطفة كلّ ما ينبض به قلبك ، ويهتز له فؤادك »[2] •

ولم يكتف شوقي بهذا بل هو كما قدَّمتُ لك في غير هذا الموضع قد أبدع الإبداع كله في وصفه الطبيعة المصرية ، وإظهار جمالها ، وفتن بها إلى حد العبادة :

وطني لو شغلت بالخلد عنه   نازعتني إليه في الخلد نفسي

واستعرض تاريخ بلاده في خلال الحكم الإسلامي بقصائد رائعة ، ووضع روايات عدة في تاريخ مصر القديم والحديث ، وأفرد جزءاً خاصاً من شعره لمجد العرب والإسلام ؛ فشوقي من هذه الوجهة هو شاعر القومية المصرية وهو أسبق من كلّ هؤلاء الأدباء إلى وضع النموذج الصحيح ، في الأسلوب العالي الممتاز في الأدب القومي • إن هذه الصيحات التي جأر بها هيكل ، كان يقصد بها المزيد من شوقي ، والاحتذاء حذو شوقي من هؤلاء الشعراء الذين لم يحركهم جمال بلادهم • ولا شك أن شوقي وهيكل قد تأثّرا في هذه الدعوة بما رأيا وقرءا في الأدب الأوربي ، ولعلّ (تاييس) لأناتول فرانس ، وكليوباطرة لإميل مورو (Moreau) — وقد مثلتها ساره برنارد في سنة ١٨٩٠ وشوقي بعدُ طالب في باريس بعض ما أوحى إليه بهذا •

---

(١) مقدمة هيكل للشوقيات ص ٦ •

(٢) المصدر السابق •

لقد كانت هذه النزعة على أشدها في فرنسا منذ أواسط القرن التاسع عشر ، وظهرت عشرات الكتب : والروايات ، والمسرحيات ، والقصائد في تلك الحقبة تدعو إلى تمجيد الطبيعة وإلى استلهام التاريخ ، وقد ظلت كذلك حتى الحرب العالمية الأولى . وقد عاصر شوقي وهيكل[١] كثيراً من هؤلاء الأدباء والشعراء الذين أولعوا بالطبيعة والتاريخ وشاهدا مسرحياتهم ، وقرءا توجيهاتهم[٢] ، فتأثرا بهم كل التأثر .

وليست الدعوة إلى الأدب القومي هي كلَّ ما عني به هيكل ، فقد رأى أن الأدب لا يقوم على الألفاظ والعبارات ، بل بما يقدمه الأديب من الصور والمعاني ، وما تبعثه هذه الصور والمعاني إلى النفس من لذائذ ، وإلى المشاعر من اهتزازات ، وإلى الخيال من الصور ، وإلى الذهن من التفكير ، وهذه النفوس القوية لا يمكنها أن تفيض بهذا الإلهام إلاّ إذا كانت تمثل بيئة خاصة أو عصراً خاصاً ، كما فعل هوميروس ، وفيرجيل ، وشكسبير ، وفولتير ، وجوتيه ، حيثُ خلدوا على الرغم من تطور الحياة ، وتقدم الحضارة في العالم ؛ لأن نفوسهم مثّلت أمة خاصة وعلماً خاصاً، فانطبعت فيها الصفات الخالدة لأممهم ؛ والتي لا يأتي عليها تقدم أو تطور[٣] .

وينادي بأن الأدب في مصر ، وفي كل بلد عربي يجب أن يكون له طابع خاص يميزه عن الأدب العربي القديم ؛ وإلى أن يكون أدبنا الحديث عنواناً لحضارتنا ، التي هي جزء من حضارة أوربا[٤] . وعنده أن أحسن وسيلة لوضوح شخصية الأديب في أدبه هي اتصال ما يكتب بقلبه ، وعقله ، وكل حياته . وليس ذلك بمستطاع إلاّ إذا وصف حياته وحياة قومه ووطنه وكلَّ ما توحي به هذه الحياة للعقل والقلب والحس والشعور مما لا تستطيع حياة أخرى أن تلهمه أو توحي به ، وبذلك نصل حاضرنا بماضينا[٥] .

ويعتقد أن جرثومة الأدب المصري المستقبل تكمن في أناشيد الشعب الساذجة

---

(١) أخذ هيكل البكالوريا سنة ١٩٠٥ والحقوق سنة ١٩٠٩ ، وسافر إلى باريس سنة ١٩٠٩ ومكث بها حتى سنة ١٩١٢ حين نال شهادة الدكتوراه في الاقتصاد السياسي .

(٢) إذا أردت ثبتاً بالكتب والمسرحيات والروايات الفرنسية التي تنزع هذه النزعة فارجع إلى Marcel Braunschvig في كتابه القيم Notre Litérature Etudée dans les textes t, 2 P. 772, 773, 778.

(٣) أوقات الفراغ هيكل ص ٣٥٤ — ٣٥٥

(٤) نفس المصدر ص ٣٦٣ — ٣٦٤ .

(٥) ثورة الأدب ص ١٢٢ .

التي ينشدها في حفلات الأعراس والمآتم ، من ذكريات الحب والحنان والتضحية والتفجع ، وما يرويه الرواة المحليون عن أبطال القرون الغابرة ، وما يحكونه من القصص التي تعبر عن خلق الشعب وصبره ، وقوة احتماله ، وما تحدّث به عن عبقريته الفطرية وعن آماله وأحلامه[1] .

وهو في هذا متأثر كل التأثر بثقافته الأجنبية فقد ابتدأ يقرأ وهو بعد طالب بمدرسة الحقوق في مصر شيئاً في الأدب الإنجليزي ولفلاسفة الإنجليز ومفكريهم ؛ قرأ كتاب الأبطال لكارليل ، والحرية لجون ستيوارت مل ، والعدل لسبنسر .

ولما ذهب إلى فرنسا استهواه الأدب الفرنسي وآثره على غيره ، ورأى فيه من السمو الأدبي ما لا يراه في غيره من الآداب العربية والإنجليزية معاً ، وذلك لما فيه من سلاسة وسهولة وقصد ودقة في التعبير والوصف ، وبساطة في العبارة وعناية بالمعنى أكثر من العناية باللفظ[2] . ولم يكن قد اتصل بالثقافة العربية ولا بالدين الإسلامي عن قرب . ولقد عدّل من أفكاره فيما بعد واستوحى التاريخ العربي الإسلامي في بعض آثاره حين وجد فيها الروعة والعمق والجلال والمثل الأعلى الذي يرنو إليه .

فهيكل بجانب دعوته إلى الأدب القومي يطالب الأدباء بأن يتجنبوا العناية بالزخرف ، والاهتمام بالألفاظ ، وأن يحفلوا بالصور والمعاني ، ولن يتأتى لهم هذا إلاّ إذا وصفوا بيئتهم ونفوسهم وحياتهم ، ومثلوا عصرهم أتم تمثيل ، لا أن يعيشوا في لغة عرب البادية وخيالهم وصورهم ومعانيهم ، وآمالهم ، وطريقة نظمهم ، وأن يهيموا في أودية الشعر بعيدين عن مجتمعاتهم .

ويدعو كذلك إلى ظهور شخصية الأدباء ، وذلك بأن يصدر أدبهم عن إحساس وصدق وعاطفة ، كما يدعو إلى تخليد الأدب الشعبي . وهو لا يقصد بدعوته ذلك الجيل من الشعراء الذي ألف الجمود ، واختط لنفسه طريقاً خاصة في الشعر يَعْسُر أن يحيد عنها ، وإنما يخاطب جيلاً جديداً يستطيع أن ينهج بالشعر نهجاً يحقق الغرض منه[3] . وكثير مما أراده هيكل قد تحقق عند بعض الشعراء الذين تثقفوا

---

(١) السياسة الاسبوعية ٢ فبراير ١٩٢٦ .

(٢) ثورة الأدب ص ١١٢ ، ومقدمة قصة زينب ص ١١ .

(٣) ثورة الأدب ص ٧٤ .

ثقافة عالية ، وكان عندهم مرونة عقلية ليتشكلوا حسب زمانهم أمثال شوقي ومطران . اللهم إلا دعوته إلى الأدب الشعبي فإنها لم تتحقق .

— ٤ —

كان هيكل من الذين تأثروا بالأدب الفرنسي ونهج طريقة المدرسة الطبيعية الفرنسية ، ولم تكن دعوته إلى التجديد هي الأولى في مصر ، بل سبقه إلى الثورة على الأدب القديم وبخاصة على الشعر العربي المعاصر لهم ثلاثة من شباب الأدباء ظهروا في أخريات العقد الأول من القرن العشرين ، بعد أن تشبعوا بدراسة الأدب الإنجليزي وهم عبد الرحمن شكري ، وعباس العقاد ، والمازني .

وكان شكري رائد هذه المدرسة ، وكان متمكناً في اللغة الإنجليزية بحكم دراسته منذ السنة الأولى الابتدائية حتى تخرج في المعلمين العليا سنة ١٩٠٩ وهي السنة التي صدر فيها ديوانه الأول (ضوء الفجر)(١) . وأعجب شكري كل الإعجاب بشعراء الرومانسية الإنجليزية ، وردسورث وكولردج وشيلي وبيرون وكيتس وسكوت ، وأخذ يلتهم كل ما أنتجوه في نهم وشراهة ، وهو في هذه السن التي تتفتح فيها المواهب وتوجه الملكات ، فتأثر بهم في الروح والمنهج ، وفهم فهماً جديداً لمهمة الشعر غير ما كان يفهمه شعراء العربية قبله .

كان طابع هذه المدرسة الإنجليزية البساطة في التعبير وعدم التقيد بما كان يسمى (المعجم الشعري) The Poetic Diction .

بل كانوا يؤثرون الكلمات المألوفة الشائعة الاستعمال ، ثم الاهتمام بالنفس الإنسانية في أبسط صورها ، فلم يحفلوا بالملوك والأمراء ورجال الحاشية والأبطال ، كما كانت تحتفي المدرسة الاتباعية (الكلاسيكية) ، وإنما فتشوا عن النفس الساذجة البسيطة التي لم يلوثها النفاق الاجتماعي والرياء والزيف ، وراحوا يسبرون أغوار نفوسهم ونفوس العامة من الشعب ، ويفصحون عما تكنه هذه النفوس في دقة ووضوح ، كما أغرموا بالطبيعة غراماً شديداً .

---

(١) راجع ترجمتنا لعبد الرحمن شكري في (دراسات أدبية جـ ١ ص ٢٣١) .

كان شعرهم وجدانياً ذاتياً ينبع من قرارة نفوسهم ، ويستوحي مشاعرهم وحدها ، ولكنهم لم يكونوا متشائمين ، ولم يفعل بهم الأسى ما فعل بإخوانهم شعراء الرومانسية الفرنسية ، الذين صبغوا شعرهم صبغة حزينة سوداء ؛ نتيجة للكبت وخيبة الآمال في الأمبراطورية التي شيدها نابليون ثم قوضتها رياح الأحداث العاصفة ، والخراب الذي حلّ بفرنسا على أثر تلك الحروب الطويلة التي أثمرت اليتم والترمل والفقر والفراغ القتال .

بيد أن المدرسة الإنجليزية التي أتت بعد زعماء المدرسة الرومانسية الأوائل جنحت إلى الواقعية ، وتكشفت لها الطبيعة البشرية في أبشع صورها وتمثل لها ذلك الصراع الدامي في المجتمع الغربي بين النزعات والرغبات المتباينة ، وعبرت عنها تعبيراً مباشراً ، فجاء أدبها حزيناً كئيباً متشائماً ، يمثله برونتج ، وبو ، وويتمان ، وتوماس هاردي وأضرابهم .

وقد قرأ لهم شكري كما قرأ لأسلافهم ، ومن ثمّ أصيب بعدوى الحزن والكآبة التي صارت طابع شعره كله . وقد أتيح له أن يذهب إلى إنجلترا عقب تخرجه في مدرسة المعلمين العليا ، ومكث ثمة بضع سنوات زادت فيها ثقافته الأدبية واتسعت آفاقها . وقرأ كثيراً بالإنجليزية عن الآداب الأوربية الأخرى ثم عاد إلى مصر ، وزادت صلته وثاقة بالمازني والعقاد ، وأخذ يوالي إصدار دواوينه الشعرية حتى بلغت سبعاً في بضع سنين آخرها سنة ١٩١٩ . وقد قدّم العقاد لديوانه الثاني ، كما كتب هو مقدمة الجزء الخامس من ديوانه ، وتعتبر هذه المقدمة دراسة طيبة لرأيه في الشعر والطريقة التي يجب أن يسلكها الشعراء ، وقد وضع فيها أسس هذا المذهب الجديد في الشعر ، ذلك المذهب الذي سلكه صاحباه المازني والعقاد على اختلاف بينهم في الاهتمام بالعاطفة والفكر حيث زاوج شكري بينهما ، وآثر المازني العاطفة ، وانفرد العقاد بالفكرة .

ويقر المازني بأن شكري هو الذى هداه إلى الطريق السوي في الشعر حيث قال[1] « ولقد غبر زمن كان فيه شكري محور النزاع بين القديم والجديد — ذلك أنه كان في طليعة المجددين إذا لم يكن هو الطليعة والسابق إلى هذا الفضل ، فقد

---

(١) جريدة السياسة عدد ٥ من ابريل ١٩٣٠ بعنوان « التجديد في الأدب » .

ظهر الجزء الأول من ديوانه ، وكنا يومئذ طالبين في مدرسة المعلمين العليا وكانت صلتي به وثيقة ، وكان كل منا يخلط صاحبه بنفسه ، ولكني لم أكن يومئذ إلا مبتدئاً ، على حين كان هو قد انتهى إلى مذهب معين في الأدب ، ورأي حاسم فيما ينبغي أن يكون عليه • ومن اللؤم الذي أتجافى بنفسي عنه أن أنكر أنه أول من أخذ بيدي وسدد خطاي ، ودلني على المحجة الواضحة ، وأنني لولا عونه المستمر لكان الأرجح أن أظل أتخبط أعواماً أخرى ، ولكان من المحتمل جداً أن أضل طريق الهدى » •

قال المازني هذا ، بعد أن جحد فضل شكري ، وأساء إليه إساءة بالغة في « الديوان » حيث سماه صنم الألاعيب ، وجحد كلَّ ما له من فضل ، ورماه بالجنون ، وجرده من كل صفات الشعراء ، مما آلم شكري أشد الألم ، وزاده زهداً في الناس والحياة وتشاؤماً ، فآثر العزلة والانصراف عن قول الشعر إلاَّ لماماً في أوقات متباعدة ، كما قضت هذه المعركة على المازني وصرفته عن قول الشعر •

حدد شكري مهمة الشاعر بقوله[1] : « ينبغي للشاعر أن يتذكر — كي يجيء شعره عظيماً — أنه لا يكتب للعامة ، ولا لقرية ، ولا لأمة ، وإنما يكتب للعقل البشري ونفس الإنسان أين كان ، وهو لا يكتب لليوم الذي يعيش فيه ، وإنما يكتب لكل يوم وكل دهر ، وهذا ليس معناه أنه لا يكتب أولاً لأمته المتأثر بحالتها المتهيىء ببيئتها •

ولا نقول إن كل شاعر قادر على أن يرقى إلى هذه المنزلة ، ولكنه باعث من البواعث التي تجعل شعره أشبه بالمحيط — إن لم يكن محيطاً — منه بالبركة العطنة في المستنقع الموبوء » •

ومعنى هذا أن الشاعر يجب أن يستوحي نفسه ويعبر عنها غير ملتفت إلى العامة أو القرية أو الأمة ، وأن تكون نظرته شاملة للإنسانية جمعاء وليست محلية خاصة — وهو مطلب عسير كما أقرَّ بذلك •

ويفهم من هذا أيضاً نفوره من شعر المناسبات والأحداث اليومية التي تحيط

(١) مقدمة الجزء الخامس •

بالشاعر . وقد صرح بذلك في مقدمة الجزء الرابع حيث قال : « وبعض القراء يهذي بذكر الشعر الاجتماعي ، ويعني شعر الحوادث اليومية مثل افتتاح خزان أو بناء مدرسة أو حملة جراد أو حريق فإذا ترفع الشاعر عن هذه الحوادث اليومية ، قالوا : ما له ؟ هل نضب ذهنه ؟ أو جفت عاطفته ؟ ... » .

ولم يكن الشعر عند شكري كلاماً مزوقا مرصوفا ، عذب الجرس والنغم فحسب ، ولكنه معنى وفكرة وعاطفة قبل كل شيء . والمعاني البكر تتولد من سواها ، وهذا لا يتأتى إلا بإدمان القراءة في نهم وشراهة ، فكثرة الاطلاع خير زاد للشاعر ، تثير خياله ، وتحشد أمامه المعاني يختار جيادها ، وتبعثه على التأمل .

وكان شكري من المولعين بالقراءة في الأدبين العربي والغربي على السواء وفيه يقول العقاد[1] : « لم أعرف قبله ولا بعده أحداً من شعرائنا وكتابنا أوسع منه اطلاعا على أدب اللغة العربية وأدب اللغة الإنجليزية وما يترجم إليها من اللغات الأخرى ، ولا أذكر أنني حدثته عن كتاب قرأته إلا وجدت عنده علماً به وإحاطة بخير ما فيه ، وكان يحدثنا أحياناً عن كتب لم نقرأها ، ولم نلتفت إليها ، ولا سيما كتب القصة والتاريخ » وفي جدوى القراءة وأثرها في الشعر يقول شكري :

« الاطلاع شراب روح الشاعر ، وفيه ما يوقظ ملكاته ويحركها ويلقح ذهنه ، ونفس الشاعر ينبوع ، والاطلاع هو الآلة التي يرفع بها ماء ذلك الينبوع إلى الأماكن العالية ، والشاعر في حاجة إلى محركات وبواعث ، والاطلاع فيه كثير من هذه المحركات والبواعث ، والأديب الذي لا يقوم بالاطلاع كالماء الآجن العَطِن الذي لا يحركه محرك .

« وكلما كان الشاعر أبعد مرمىً ، وأسمى روحاً كان أغزر اطلاعاً فلا يقصر همه على درس شيء قليل من شعر أمة من الأمم ، فإن الشاعر يحاول أن يعبر عن العقل البشري ، والنفس البشرية ، وأن يكون خلاصة زمنه ، وأن يكون شعره تاريخاً للنفوس ومظهر ما بلغته النفوس في عصره » .

وإذا كان شكري قد استطاع أن يفيد شعره من كثرة اطلاعه فتغزر معانيه ،

---

(١) مجلة الهلال عدد فبراير ١٩٥٩ .

ويطرق أبوابا جديدة في الشعر لا عهد للعربية بها ولا سيما في الشعر الوجداني الذاتي ، فإن المازني قد استساغ أن يترجم شعر غيره وينسبه لنفسه • وقد صدر الجزء الأول من ديوانه سنة ١٩١٤ وفيه بعض الشعر المنقول عن الإنجليزية مدعياً أنه له مثل قصيدة «رقبة حسناء» وهي «لشلي» والجزء الأخير من قصيدة «أماني وذكر» وهي « لبيرنز » • وأول هذا الجزء « يا ليت حبي وردة » ، و « فتى في سباق الموت » وهي « لهود » ، وغيرهما مما جعل شكري يفزع من هذه السرقات ؛ إذ ليس معنى سعة الاطلاع وكثرة القراءة والتجديد في الشعر أن نسطو على آثار سوانا دون التنويه بهم وبفضلهم • فنعى على المازني هذه السرقات وأذاعها في الناس ، وهو العليم بمواطنها في الشعر الإنجليزي ، ولم يغتفر المازني لأستاذه وصديقه صراحته في تهجمه في إفشاء سره ، فشن عليه حملة شعواء في « الديوان » ، ذكرناها آنفاً ، وقد قضت عليهما معاً في ميدان الشعر •

ومن يتملى كلام شكري في فائدة القراءة وأثرها في تزويد الشعر بالمعاني وإثارة الخيال ، يدرك أن شكري ممن يؤثرون المعنى على اللفظ والصياغة ، وكان هذا طابع مدرسته وجرى على سنته زميلاه • وقد أضر ذلك بشعرهم ؛ لأن المعاني في الشعر لا تقصد لذاتها ، ولكنها تقصد حين تلبس ثوب الفن الرفيع ، مصحوبة بالموسيقى الشعرية الخلابة ، فإذا اكتفى الشاعر بالمعنى ولم يعط أركان الشعر الأخرى حقها هبط شعره إلى مستوى النثر •

ولم يكن شكري ممن يهتمون باختيار الألفاظ ذات الجرس والرنين بل كلف بالبساطة في التعبير وباستعمال الكلمات المألوفة ، وهو بهذا يقتفي أثر المدرسة الرومانسية الإنجليزية التي نفرت من المعجم الشعري ويقول : « وجدت بعض الأدباء يقسم الكلمات إلى شريفة ووضيعة ، ويحسب أن كل كلمة كثر استعمالها صارت وضيعة ، وكل كلمة قل استعمالها صارت شريفة ، وهذا يؤدي إلى ضيق الذوق وفوضى الآراء في الأدب ، فالعيب هو استعمال الكلمة في غير مواضعها » •

وعبَّر شكري عن سخطه على طريقة الشعر الموروثة ، وثار عليها ثورة عملية ونقدية • وقد راعه اهتمام الشعراء بالتشابيه والاستعارات والمبالغات من غير أن يكون لها أثرها في القارىء أو السامع وذلك حين يقول : « وقد فسد ذوق المتأخرين في الحكم على الشعر حتى صار الشعر كله عبثاً لا طائل تحته ، فإذا تغزلوا جعلوا

حبيبهم مصنوعاً من قمر وغصن وتل وعَيْن من عيون البقر ولؤلؤ وبَرَد وعنب ونرجس .. الخ ومثل ذلك قول الوأواء الدمشقي .

فأمطرت لؤلؤاً من نرجس وسقت   ورداً وعضت على العناب بالبرد

ويقول كذلك مفصلاً الكلام على التشبيهات التي ولع بها المتأخرون : « ومثل الشاعر الذي يرمي بالتشبيهات على صحيفته من غير حساب ، مثل الرسام الذي تغره مظاهر الألوان فيملأ بها رسمه من غير حساب » . التشبيه عنده لا يقصد لذاته ، وليس هو عقد صلة بين محسوس ومحسوس أو بين معنوي ومحسوس « فوصف الأشياء ليس بشعر إذا لم يقترن بعواطف الإنسان وخواطره وذكرياته وأمانيه وصلات نفسه ، والتشبيه لا يراد لذاته ، وإنما يراد لشرح عاطفة أو توضيح حالة أو بيان حقيقة » وأجل الشعر عنده ما خلا من التشبيهات البعيدة والمغالطات المنطقية .

وهو بهذا يريد أن يجعل التشبيه وسيلة لحمل أثر المشبه في نفسه أو الإيحاء بهذا الأثر فالتشبيه إذا لم يقرن بالعاطفة أو لم يكن وسيلة لنقلها فلا فائدة منه ولا جدوى فيه .

وقد ضرب مثلين على الشعر الجيد الذي وصف حالة مشبعة بالعاطفة فكان أثره في النفس رائعاً أولهما في الرثاء قول مويلك يرثي امرأته وقد خلفت له بنتاً صغيرة فوصف حالة هذه البنية بعد وفاة أمها :

فلقد تركتِ صغيرة مرحومة   لم تدر ما جزعاً عليك فتجزع
فقدت شمائلَ من لزامك حلوة   فتبيت تسهر أهلها وتفجّع
وإذا سمعتُ أنينها في ليلها   طفقت عليكِ شئون عيني تدمع

فهو لم يعلمك شيئاً جديداً لم تكن تعرفه ، ولم يبهر خيالك بالتشبيهات الفاسدة والمغالطات المعنوية ، ولكنه ذكر حقيقة ، ومهارته في تخيل هذه الحالة ووصفها بدقة . ومن أمثال هذا في الغزل قول ابن الدمينة في وصف حياء الحبيب .

بنفسي وأهلي من إذا عرضوا له   ببعض الأذى لم يدر كيف يجيب
ولم يعتذر عذر البريء ولم تزل   به سكتة حتى يقال مريب

مثل هذا الشعر يصل إلى أعماق النفس ويهزها هزاً والشعر هو ما أشعرك وجعلك تحس عواطف النفس إحساساً شديداً » .

وقد بين شكري الفرق بين الخيال Imagination والوهم Fancy ، لأن كثيراً من الشعراء يخلطون بينهما ، فيفسد شعرهم وذلك حين يقول : « إن التخيل هو أن يظهر الشاعر الصلات التي بين الأشياء والحقائق ، ويشترط في هذا النوع أن يعبر عن حق ، والتوهم هو أن يتوهم الشاعر بين شيئين صلة ليس لها وجود ، وهذا النوع يُغرى به الشعراء الصغار ، ولم يسلم منه الشعراء الكبار ومثله قول أبي العلاء المعري :

واهجَم على جنح الدجى ولوانه أسد يصول من الهلال بمخلب

والصلة التي بين المشبه والمشبه به صلة توهم ليس لها وجود ، وكذلك قول أبي العلاء في سُهيل النجوم :

ضرجته دماً سيوف الأعادي فبكت رحمة له الشعريان

أي أعادٍ ؟ وأي سيوف ؟ في مثل هذا البيت ترى الفرق واضحاً بين التخيل والوهم ، وأمّا أمثلة الخيال الصحيح ، فهو أن يقول قائل إن ضياء الأمل يظهر في ظلمة الشقاء ، كما يقول البحتري :

كالكوكب الدري أخلص ضوءه حلكُ الدجى حتى تألق وانجلى

فهذا تفسير للحقيقة وإيضاح لها ، وكذلك قول الشريف الرضي :

ما للزمان رمى قومي فزعزعهم تطايُرَ القَعْب لما صكّه الحجرُ

والقَعب القدح ، فهو يشبه تفرق قومه ، بتطاير أجزاء الإناء المكسور وهذا أيضاً توضيح لصورة حقيقة من الحقائق وهي تفرق قومه . وفي الحق إن هذه التفرقة بين الخيال والوهم تدل على رفاهة حس ورقة وحسن تفهم للشعر ، وقد عدّ العقاد شكري رائد هذه التفرقة ، ووضحها في كثير من مقالاته النقدية كما ستأتي بعد .

والمعاني الشعرية عند شكري هي : خواطر المرء ، وآراؤه وتجاربه وأحوال نفسه وعبارات عواطفه •

ومن الأمور النقدية التي نادى بها شكري وحدة القصيدة وقال في ذلك : « قيمة البيت في الصلة التي بين معناه وبين موضوع القصيدة ؛ لأن البيت جزء مكمل ، ولا يصح أن يكون البيت شاذاً خارجاً عن مكانه من القصيدة بعيداً عن موضوعها ، وينبغي أن ينظر إلى القصيدة من حيث هي شيء فرد كامل لا من حيث هي أبيات مستقلة » •

وقد قلنا في غير هذا الكتاب[1] تعليقاً على رأي شكري هذا : « وهذه الدعوة إلى وحدة القصيدة ثورة أخرى على نظام الشعر العربي الذي كان البيت فيه وحدة مستقلة ، ولكننا نلاحظ أن شكري لم يتطرف في دعوته مثلما تطرف العقاد من بعد ، حين دعا إلى الوحدة العضوية وإلى أن القصيدة بنية حية ؛ وكل الذي أراده شكري ألاّ يكون البيت خارجاً في معناه عن موضوع القصيدة ، أي أن القصيدة تكون كلها ذات موضوع واحد ، لا عدداً من الموضوعات ، كما كانت القصيدة العربية التي وضع أسسها الجاهليون •

إن وحدة القصيدة كما أرادها شكري قد تحققت لديه ، فكل قصيدة من شعره غالباً ذات موضوع واحد ، مرتبطة أبياتها بعضها ببعض ولكن ليس بالقدر الذي إذا قدمت فيه بيتاً على آخر ، أو أخرت بيتاً أو حذفته اختل نظام القصيدة وبتر المعنى كما أراد الأستاذ العقاد وتهكم بشوقي في قصيدته التي رثى بها مصطفى كامل •

إن طبيعة الشعر الوجداني أن يكون انفعالات يتلو بعضها بعضاً وليس انفعالاً واحداً متصلاً ، وذلك لتعدد الانفعالات وتباينها نوعاً وقوة وضعفاً ، ولم تتحقق الوحدة العضوية أبداً في الشعر الوجداني لدى أي شاعر من شعراء العالم ، اللّهم إلاّ إذا نظمها على طريقة القصة ، فهنا فقط يجوز أن تتحقق ، وفي شعرنا القديم حتى الجاهلي منه أمثلة عدة لوحدة القصيدة إذا جاءت قصة » •

وقد حاول شكري أن يخرج على القافية العربية في القصيدة فنظم الشعر

---

(١) دراسات ادبية جـ ١ ص ٢٤٩ •

المرسل وهو الموزون غير المقفى • وقد أنهى ديوانه الأول (ضوء الفجر) بقصيدة طويلة من الشعر المرسل تحت عنوان « كلمات العواطف » ؛ ونجد له في الجزء الثاني قصيدة من هذا النوع بعنوان «واقعة أبي قير» وأخرى «نابليون والساحر المصري»•

وقصيدته «كلمات العواطف» أفكار متناثرة ، وأبيات مستقلة بعضها عن بعض ، ولم يكن ثمة ضرورة لأن تأتي بالشعر المرسل إذ لم تأت مرتبطة ارتباطاً تاماً ، وطويلة طولاً مفرطاً ، فتكون القافية الموحدة مجهدة للشاعر أو متكلفة •

وربما ساقها على سبيل التجربة ، ولكنها تجربة مزقت أساساً من أسس نقده ، وهو الدعوة إلى وحدة القصيدة وترابط أبياتها في المعنى والموضوع ــ وقد كان الموضوع وجدانيا ولذلك نفرت منها الآذان فعدل عنها إلى الأقصوصة الشعرية في (واقعة أبي قير) وفي (نابليون والساحر المصري) •

والمتأمل في شعر شكري ممثلاً في دواوينه السبعة ، وفي نظراته النقدية التي أوردها في بعض مقدمات هذه الدواوين يدرك أن شكري لم يهتم من ضروب الأدب إلا بالشعر ، ولم يعن من فنون الشعر إلاّ بالشعر الوجداني الذاتي الذي يصدر نتيجة تجربة خاصة ، ولم يلتفت لشئون الحياة حوله ، وبذلك ضاق مفهوم الشعر لديه غرضاً وأداءً ، فلم يكثر من الأقصوصة الشعرية ، ولم ينظم المسرحيات التي تتيح للشاعر الفرصة لخلق الشخصيات المتباينة ودراسة المجتمع ، ولم يهتم بالشعر الموضوعي ، الذي يعد جديداً في الأدب العربي ، وكأنما الدنيا كلها تركزت في نفسه •

ومهما يكن من أمر فقد خلا شعره من المديح والرثاء (إلا النادر) وهو رثاء جديد ، ليس فيه العويل والصراخ والنحيب ، وإنما فيه تأملات ذهنية وحديث عن الموت وسطوته •

وكان الشعر عنده « رحلة إلى عالم أجمل وأكمل وأصدق من هذا العالم ، رحلة إلى عالم يحس المرء فيه لذات التفكير أكثر مما يحسها في هذا العالم الأرضي»•

ومع أنه عني بالشعر الوجداني الذاتي ، فقد عرج على بعض آفاتنا الاجتماعية ولم يخض في السياسة بالجزء الأول إلا مرة واحدة حين اشتد النزاع بين المسلمين والأقباط •

لقد كان شكري واسع الثقافة جداً ، وكان شاعراً مرهف الذوق والحس ، يعرف طريقه في الشعر ، وكان له مذهب كونه بعد دراسة ، وكنا ننتظر منه أن يروّج لهذا المذهب ويدعو إليه ويبسط قضاياه ويدافع عنه ، ولكن حياته الأدبية كانت قصيرة ، وجنى عليه فرط حساسيته وطموحه الشديد ، وتوهمه تنكر الناس له .. فآثر العزلة وحرم النقد الأدبي والشعر ثمرات هذه العقلية الفذة المجددة .

وقد جهد زميله العقاد أن يسد الثغرة بكتاباته المستفيضة في النقد والدعوة إلى هذا المذاهب الجديد في الشعر .

— ٥ —

كان العقاد كزميله شكري ممن تأثر بالأدب الإنجليزي في مذهبه الشعري ، وفي نظراته النقدية ، وقد بين هذا في قوله : « وأمّا الروح فالجيل الناشيء بعد شوقي كان وليد مدرسة لا شبه بينها وبين من سبقها في تاريخ الأدب العربي الحديث ، فهي مدرسة أوغلت في القراءة الإنجليزية ، ولم تقصر قراءتها على أطراف من الأدب الفرنسي ، كما كان يغلب على أدباء الشرق الناشئين في أواخر القرن الغابر ، وهي على إيغالها في قراءة الأدباء والشعراء الإنجليز ، لم تنس الألمان والطليان والروس والأسبان ، واليونان واللاتين الأقدمين . ولعلها استفادت من النقد الإنجليزي فوق فائدتها من الشعر وفنون الكتابة الأخرى ، ولا أخطيء إذا قلت : إن (هازلت) هو إمام هذه المدرسة كلها في النقد ؛ لأنه هو الذي هداها الى معاني الشعر والفنون ، وأغراض الكتابة ، ومواضع المقارنة والاستشهاد . وقد كان الأدباء المصريون الذين ظهروا أوائل القرن العشرين يعجبون (بهازلت) ويشيدون بذكره ويقرءونه ، ويعيدون قراءته يوم كان هازلت مهملاً في وطنه ، مكروهاً من عامة قومه ؛ لأنه كان يدعو في الأدب والفن والسياسة والوطنية إلى غير ما يدعون إليه ، فكان الأدباء المصريون مبتدعين في الإعجاب به لا مقلدين ولا مسوقين . ولقد كانت المدرسة الغالبة على الفكر الإنجليزي الأمريكي بين أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر هي المدرسة التي كانت معروفة عندهم بمدرسة (النبوءة والمجاز)، أو هي المدرسة التي تتألق بين نجومها أسماء كارليل ، وجون ستيوارت مل ، وشيلي ، وبيرون ، ووردزورث[1] . ثم خلفتها مدرسة قريبة منها تجمع بين الواقعية

(١) وهي المدرسة الابداعية وقد فصلنا خصائصها في كتابنا (المسرحية) فارجع إليه .

والمجازية ، وهي مدرسة براوننج ، وتنيسون ، وإمرسون ، ولونجفلو ، وپو ، ووينمان ، وهاردي ، وغيرهم ممن هم دونهم في الدرجة والشهرة[١] . وقد سرى من روح هؤلاء الشيء الكثير إلى الشعراء المصريين الذين نشئوا بعد شوقي وزملائه»[٢].

وهازلت كان عنيفاً في نقده لأكثر ما كتب معاصروه ، وقد قال عن نفسه : « أنا لا شيء إذا لم أكن نقادة » وكان يقول ما في نفسه بصراحة تامة ولم يكن يستطيع الكتابة من غير صراحة ، ولو أطلق لأهوائه العنان حينما كان يتكلم عن الأدباء الأقدمين ما جعل من أي أديب معاصر له مثلاً يحتذى ، وقد قال في تعليق له على نفسه في حوار تخيلي : « إني أصدقك حينما تمدح لا حينما تذم » وكان يصور معاصريه كما يراهم ، ويجعل من أخطائهم وهفواتهم جزءاً مهماً في الصورة ، لا يحابي ولا يجامل ، ولا يتأول ، أو يقبل معذرة[٣] .

ويقول عنه (دي كونسي) : لقد وضع هازلت نفسه في معارضة قوية مع كل ما هو نافع تحت الشمس في هذا العالم ، ومع كل الشخصيات القوية ذات السيطرة في إنجلترا[٤] وهذا هو السبب في أنه كان مكروهاً .

كان كثير التفكير ، والعزلة ، عاش عزباً ، عازفاً عن الشهرة ومظاهر الحياة ، وكلما أكثر من التفكير ازدادت نظراته إلى الحياة سواداً وتشاؤماً[٥] ، « ولم يكن هازلت فقيراً في المشاعر العميقة ، أو أسمى أنواع الإلهام وراء المثل الأعلى في الخير ، ولكن ليس لذوقه الأدبي أصول رئيسية يعطي بها أي إشارة أو دليل نحو أهدافه ، وليس ثمة نقط مركزية في ذهنه ، تدور حولها مشاعره ، أو تتبلور خيالاته ، وليس ثمة فارق واضح بين مواهبه التخيلية وذكائه .... أمّا في نقده فبدلا من أن يقودنا نحو هدف معين ، نراه يفتح أمامنا طرقاً جانبية عديدة ، نعاني من النظر الطويل إليها الشيء الكثير ، حتى ننسى الغاية من رحلتنا[٦] » .

---

(١) راجع خصائص المدرسة الواقعية في كتابنا (المسرحية) وسترى ثمة الأسباب التي ادت بهذه المدرسة إلى التشاؤم .

(٢) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ١٩١ — ١٩٣ .

(٣) راجع The Introduction to Wordsworth poetry and prose with essays by Coleridge, Hazlitt and de Quincey. Oxford Press.

وراجع كتاب هازلت في النقد The Spirit of the age

(٤) راجع Wiliam Hazlitt By, Augustin Birreill. P. 214.

(٥) المصدر السابق ٢١٥ .

(٦) راجع Edinburgh Review. vol. xxxi, v

هذه هي الصفات العامة البارزة في نقد هازلت الذي أعجب به العقاد كثيراً ، ونهج منهجه في النقد ، أمّا المدرسة الأدبية التي أعجب بها العقاد ، وهي مدرسة بيرون ووردسورث فهي المدرسة التي عنيت بالحياة الإنسانية في أبسط مظاهرها ، تاركة كل ما يتألق في صفحات التاريخ ، وهي التي أغرمت بالطبيعة ، وتذوقها بحدة وحرارة ، ووقفت طويلاً أمام أقل نتاج للطبيعة تتأمل جماله وتتملى محاسنه ، وتستوحيه وتستلهمه ، ودعت إلى البساطة متجنبة الزخرف ، والألفاظ الضخمة الطنانة • وفي ذلك يقول وردسورث في مقدمة Lyrical Ballads أو الحكايات الشعبية الشعرية : إنّ هؤلاء الذين تعودوا من كثير من الكتاب المحدثين العبارات المزخرفة الطنانة ، إذا أصروا على قراءة هذا الكتاب حتى آخره فإنهم سوف يعانون من إحساسات غريبة متغيرة ، غير رشيقة • وسوف يبحثون عن الشعر ، ويضطرون للسؤال عن أي نوع من المجاملات سمح لهذا النوع من الكلام أن يسمى شعراً[1] » وذلك لبساطته ، ولأنه تناول الحياة المألوفة التي لم يتعود الشعراء أن يأبهوا لها أو يعنوا بالتحدث فيها •

وأمّا هؤلاء الذين أتوا على أعقاب تلك المدرسة من أمثال هاردي ، ويتمان ، وبو ، فهي المدرسة المتشائمة المتصوفة ، المغرقة في تصوير أبشع ما في الإنسانية ، وهي في نفس الوقت تجنح إلى الواقعية،والواقع مليء بالمآسي والأوصاب الاجتماعية، ولقد أورثهم تغلغلهم في الواقع اشمئزازاً من المجتمع الإنساني وزهداً فيه ونفوراً منه وتشاؤما في الحياة • ولقد دافع العقاد عن تشاؤم هاردي كثيراً ، بل نراه يحذو حذوه في ديوان (أعاصير مغرب) ، حين اختار اسم الديوان ، وحين نظم في الحب وهو في الشيخوخة كما نظم هاردي ، ودافع عن رأيه هذا بمنطقه المعهود • ونراه تشاءم كما تشاءم هاردي فتعجل غروب الحياة ، ولما سئل في هذا اقتبس رأي (بيرون) وهو في السادسة والثلاثين من عمره : « آن لهذا القلب أن يسكن ، مذ عزّ عليه أن يحرك سواه ، ولكني ، وقد حرمت من يَهوي إليّ حسبي نصيباً من الحب أن أهوي • إن أيامي المكتوبة على الورقة الذاوية ، إن زهرات الحب وثماره ، ذهبت إلى غير رجعة ، إنما السوس والديدان وحسرة الأسى ، هي لي ••• لي وحدها تحيا »[2] •

---

(١) راجع مقدمة Lyrical Ballads .

(٢) مقدمة اعاصير مغرب ص ١٥ .

ولست أريد في هذا المقام أن أسهب في تبيان خصائص هذه المدارس التي تأثر بها العقاد والمازني وشكري ، ومن تتلمذ لهم بالتفصيل ، فلذلك موضعه من الكتاب عند الكلام عن المدرسة المجددة في الشعر العربي الحديث • ولكن حسبنا في هذه المرحلة أن نبين أثرها في نقدهم للشعر ، وتوجيههم للأدباء ، ولا سيما أثرها في الأستاذ العقاد ، وهو أكثر من تكلم من النقاد عن الشعر ، وعن مذهبه فيه •

يقول العقاد :

« وقد استطاعت هذه المدرسة المصرية أن تقاوم فكرتين كلتاهما خاطئة ناقصة ، وإن جاءت إحداهما من الماضي ، وجاءت الأخرى من أحدث الأطوار في الاجتماع ، ونعني بالفكرة الأولى تلك التي يفهم أصحابها أن (الأدب القومي) هو الأدب الذي تذكر فيه الظواهر والمعالم القومية بالأسماء والتواريخ والحوادث، وهكذا كان جيل شوقي وحافظ يفهم (القومية) التي تنبغي لشعراء المصريين ، فليس من الأدب القومي عندهم أن يصف الشاعر عواطفه الإنسانية ، أو يصف المحيط الأطلسي ، أو نهر دجلة ، أو مناظر لندن وباريس ، لأن هذه الأشياء لا تحمل اسم النيل ومصر والهرم ، وأخبار الصحف المحلية والحوادث الداخلية • وهي فكرة خاطئة ناقصة تنفيها أمثلة العظماء من الشعراء في كل زمن وكل أمة •

وأمَّا الفكرة الثانية التي قاومتها مدرسة الشعراء المصريين في الجيل الحديث فهي الفكرة الاشتراكية العقيمة ، التي تحرم على الأديب أن يكتب حرفاً لا ينتهي إلى (لقمة خبز) أو إلى تسجيل حرب الطبقات ونظم الاجتماع[1] • إلى أن يقول : « فمدرسة الشعر المصري بعد شوقي تعنى بالإنسان ولا تفهم (القومية) في الشعر إلا على أنها إنسانية مصبوغة بصبغة وطن من الأوطان ، وهي تلقي بالها كله الى شعور الإنسان في جميع الطبقات ، وهي على هذا مدرسة الطبيعة والإنسانية » • ولقد قال الأستاذ العقاد في مقدمته للجزء الثاني من ديوان عبد الرحمن شكري سنة ١٩١٣ •

« إن الشعر قد يسلي ويرفه عن الخواطر ، ولكنه فوق ذلك يهذب الأخلاق

---

(١) وهو بهذا ينمي على حافظ وشوقي وعبد المطلب ومحرم وإخوانهم شعرهم الاجتماعي وحثهم أولي الامر على العناية بالفقير ومحاربة الجهل والمرض في مصر •

ويلطف الشعور ، ويعين الأمة في حياتها المادية والسياسية والاجتماعية » وقال في موطن آخر[١] : « إن الأدب الصحيح السامي الذي ينبغي مقياساً تقاس إليه الآداب هو الأدب الذي تمليه بواعث الحياة القومية ، وتخاطب به الفطرة الإنسانية عامة ، أما إن أملته بواعث التسلية والبطالة ، وخاطب الأهواء العارضة ، فهو أدب غث مرذول مكشوف ينبغي نبذه ومحاربته » •

فهو في هذين النصين يعدِّل من فكرته في محاربة الشعر القومي كما فهمه شوقي وحافظ ومن سار على نهجهما ، فقد كان هذا الشعر يعين الأمة في حياتها المادية والسياسية والاجتماعية ، وتمليه بواعث الحياة القومية ولا ريب •

وتراه في مواطن آخر يفسر الشعر الاجتماعي تفسيراً جديداً فيقول :

« إن الشعر الصادق يعبر عن كل نفس ، وهو بذلك يعبر عن المجتمع بأسره ويؤثر فيه ولذا نعده شعراً اجتماعياً وإن لم يدون حادثاً قومياً أو نحوه[٢] » • ولا شك أن الجمال والجلال ليسا وقفاً على مصر وحدها ، والشاعر المرهف الحس ، الذوَّاقة للجمال والجلال يراهما في مواطن كثيرة من العالم ، وهو حين يصفهما ، وينقل إلينا عواطفه إزاء ما يرى سواء كان ذلك في لندن أو باريس أو غيرهما من بلاد العالم إنما ينقل الينا إحساسه الذاتي ومشاعره الخاصة ، ومن التعسف أن نسمي شعره هذا شعراً قومياً ، لأن المراد بالشعر القومي ذلك الذي يحفز المشاعر ويحث الهمم على إعلاء شأن الوطن أو تمجيد تاريخه ، أو وصف روائع آثاره وجمال طبيعته مما يبعث في النفوس الإعجاب به والحب له والفناء في سبيله •

ولعل الأستاذ العقاد أراد ألا يقف الشعراء أنفسهم على هذا الضرب من الشعر القومي الذي يحمل اسم النيل والهرم ومصر ، وأن تسع آفاقهم الإنسانية جمعاء •

ولكن عذر هؤلاء الشعراء في تلك الحقبة أن مصر كانت في صراع مرير مع قوى الاستعمار الغاشم الذي جهد كل الجهد في أن يمكن لأقدامه في هذه الديار واصطنع كثيراً من ذوي النفوس الضعيفة ، وفرض علينا لغته وثقافته ، وعمل على مسخ الروح القومية والتشكيك في القيم التي كنا نقدسها ونحتفي بها • فكان

(١) مطالعات في الكتب والحياة ص ٤ •

(٢) الفصول ص ١٩ •

الشعراء يحسون بآلام هذه الأمة المكافحة ، ويدركون عنف هذا الصراع ، فترجموا عن أحاسيس مواطنيهم وشجعوهم وثبتوهم بهذا الشعر القومي ، وعملوا على غرس محبة هذا الوطن وإعزازه في قلوب مواطنيهم .

ومع هذا فإن شوقي بخاصة لم يقف شعره عند حد النيل والهرم ومصر وآثارها فله عشرات القصائد الرائعة التي قالها في غير مصر قال في : دمشق وبيروت ولبنان وغاب بولون وقبو نابليون والبسفور والأندلس وطوكيو وسواها .

وأمّا فكرة الاشتراكية العقيمة التي عابها الأستاذ العقاد على شوقي وزملائه ، وسماها حرب الطبقات ، فلم يكن يقصد سوى الشعر الاجتماعي الذي يحارب الجهل والفقر والمرض ، ويعمل على رفع مستوى الحياة في مصر ويحث على بعث روح الإسلام والنخوة الوطنية حتى يهتم ذوو الثراء بمواطنيهم الذين قتر عليهم في رزقهم .

إن هذه مآس وطنية قومية ، وكنا في مستهل النهضة ، وهذه قوىً معنوية معطلة ، ويجب على الشاعر ألاّ يعيش في عزلة عن قومه ، لا يفرح لأفراحهم ولا يأسى لمآسيهم ، ويكتفي باستبطان ذاته وسبر أغوار نفسه ، وترجمة عواطفه الخاصة كما فعل شكري .

إن هذا الشعر القومي ، والشعر الاجتماعي شعر إنساني ما في ذلك شك ما دام مصحوباً بالعاطفة المعبرة ، وما دام هدفه الخير والجمال والحق .

واهتمام العقاد وزملائه بالإنسان ترديد لمذهب ورد سورث الذي ذكره في أكثر من موضع من رواياته وقصائده ، وعرفه عنه مواطنوه ومعاصروه ، من ذلك قوله في التوطئة The Prelude ليس موضوعي إلا قلب الإنسان وحده .

My theme, no other than the very heart of man.

ويقول في (ميخائيل) Michael إنه قيد للتفكير في الإنسان ، وفي قلب الإنسان ، وفي الحياة الإنسانية .

On man, heart of man, and human life.

وقد اهتم وردسورث فوق هذا بالقوانين الفطرية للطبيعة البشرية ، وهو يرى أن هذه القوانين يمكن دراستها أحسن دراسة في الظروف العادية ، لشخص عادي ،

أما من جدّت أقلام المؤرخين جذِلة لتشهرهم فإنه يراهم لا يستحقون كل هذا[1] .

وقد قال العقاد في كتابه (الديوان) وهو ينقد شوقي ويوجه الخطاب إليه . « أعلم أيها الشاعر العظيم ، أن الشاعر من يشعر بجوهر الأشياء ، لا من يعددها ، ويحصي أشكالها وألوانها ، وأن ليست مزية الشاعر أن يقول لك عن الشيء ماذا يشبه ، وإنما مزيته أن يقول ما هو ، ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به[2] . وقد فسّر هذا مبيناً أثر التشبيه والاستعارات في الشعر وأن الغرض منها ليس تعداد الأشكال والألوان بقوله : « وإذا كان وكدك من التشبيه أن تذكر شيئاً أحمر ، ثم شيئين أو أشياء مثله في الاحمرار ، فما زدت على أن ذكرت أربعة أو خمسة أشياء حمراء بدل شيء واحد ، ولكنّ التشبيه أن تطبع في وجدان سامعه وفكره صورة واضحة مما انطبع في ذات نفسك . وما ابتدع التشبيه لرسم الأشكال والألوان ، فإن الناس جميعاً يرون الأشكال والألوان محسوسة بذاتها كما تراها ، وإنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس .. وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى صميم الأشياء يمتاز الشاعر على سواه . ولهذا لا لغيره كان كلامه مطرباً مؤثراً ، وكانت النفوس تواقة إلى سماعه واستيعابه ، لأنه يزيد الحياة حياة ، كما تزيد المرآة النور نوراً ، فالمرآة تعكس على البصر ما يضيء عليها من الشعاع فتضاعف سطوعه . والشعر يعكس على الوجدان ما يصفه فيزيد الموصوف وجوداً إن صح هذا التعبير ، ويزيد الوجدان إحساساً بوجوده .

وصفوة القول أن المحك الذي لا يخطيء في نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره فإن كان لا يرجع إلى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وإن كنت تلمح وراء الحواس شعوراً حياً ووجداناً تعود إليه المحسوسات ، كما تعود الأغذية إلى الدم ، ونفحات الزهر إلى عنصر العطر فذلك شعر الطبع القوي والحقيقة الجوهرية . وهناك ما هو أحقر من شعر القشور والطلاء وهو شعر الحواس الضالة والمدارك الزائفة ، وما إخال غيره كلاماً أشرف منه إلا بكَمْ الحيوان الأعجم » .

وهو بهذا يشرح تلك النظرية التي قال بها شكري وحدد فيها مهمة التشبيه ، وقرّر الفرق بين التخيل والوهم .

---

(١) راجع Wordsworth poetry and prose. Introduction by, D. N. Smith, P. xii.

(٢) ص ١٦ ج ١ .

وفي الحق إن هذا فهم طيب لوظيفة الشعر وهو أن ينقل الأثر الذي انطبع في نفس الشاعر إلى سامعه فيزيد الموصوف قوة وجلاءً ، فالشعر هو التعبير الجميل عن الشعور الصادق ، وإن كان الكشف عن حقائق الأشياء ولبابها لم يهتد إليه أحدٌ بعد، وبحسب الشاعر أن يبين لنا في صيغة عذبة جميلة أثر الأشياء في نفسه وعاطفته إزاءها.

ونرى العقاد أكثر وضوحاً في نقده حين يقول : « إن القصيدة ينبغي أن تكون عملاً فنياً تاماً ، يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة ، كما يكمل التمثال بأعضائه ، والصورة بأجزائها ، واللحن الموسيقي بأنغامه ، بحيث إذا اختلف الوضع ، أو تغيرت النسبة أخلّ ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها . فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته »(١) .

ولقد قال بعض النقاد القدماء بوحدة القصيدة كالحاتمي وهو من علماء القرن الرابع الهجري : « مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فمتى انفصل واحد عن الآخر وباينه في صحة التركيب ، غادر الجسم ذا عاهة تتخون محاسنه ، وتعفّي معالمه ، وقد وجدت حذاق المتقدمين ، وأرباب الصناعة من المحدثين يحترسون في مثل هذا الحال احتراساً يجنبهم شوائب النقصان ، ويقف بهم على محجة الإحسان ، حتى يقع الاتصال ويؤمن الانفصال ، وتأتي القصيدة في تناسب صدورها وأعجازها وانتظام نسيبها بمديحها كالرسالة البليغة ، والخطبة الموجزة لا ينفصل جزء منها من جزء »(٢) ، وإن كان هذا الكلام يخالف بعض الشيء ما قال به العقاد . فهو لم يكتف بأن تكون القصيدة ذات موضوع واحد ، بل تطلب أن تكون كائناً حياً : وبهذا نادى بالوحدة العضوية ، ونكرر هنا ما قلنا آنفاً من أن الشعر الغنائي الوجداني لا يمكن أن تتحقق فيه هذه الوحدة العضوية إلا إذا كان أقصوصة غنائية ، لأن الوجدان يأتي على دفعات وموجات ولا يكون شعوراً دائماً متصلاً وفكرة متماسكة مترابطة .

إن النداء بوحدة القصيدة ثورة موجهة إلى نظام القصيدة العربية التي كانت تحتوي على عدة أغراض ، ويكون البيت فيها وحدة مستقلة ، بل عُدّ من عيوب الشعر أن يكون له اتصال إعرابي بما بعده أو يتوقف معناه على غيره من الأبيات .

---

(١) الديوان ص ٤٦ ج ٤ .

الآداب للحصري ج ٢ ص ١٧ ، وابن الرومي للعقاد ص ٤٦ .

وقد نادى بوحدة القصيدة قبل العقاد وشكري خليل مطران كما سيأتي بعد ، وقد أفادت هذه الحملة فتغير نظام القصيدة وبطل النسيب التقليدي الذي كان يتصدرها ، ولكن لم يستطع أي شاعر أن يحقق في القصيدة الغنائية وفي الشعر الوجداني الذاتي الوحدة العضوية كما نادى بها العقاد إلاّ في القصة الغنائية ؛ وهذه كانت معروفة قديماً في الشعر العربي .

ويرى أن لا يكون في الشعر إحالة ويعني بها فساد المعنى . وهي ضروب فمنها : الاعتساف ، والشطط ، ومنها المبالغة ومخالفة الحقائق ، ومنها الخروج بالفكر عن المعقول ، أو قلة جدواه وخلو مغزاه[1] . وينعي على الشعر إذا كان فيه تقليد ، وهو تكرار المألوف من القوالب اللفظية والمعاني ، وأيسره على المقلد الاقتباس المقيد والسرقة[2] ويقول عن المبالغة بصفة خاصة إنها علامة من علامات انحطاط الفكرة فهي خليقة بأن تقل إذا ما انتشرت المعرفة وعنيت الأمة بالوقوف على الحقائق والاهتمام بالجواهر دون الأغراض »[3] ، ولكنّ العقاد يحاول بعد ذلك أن يدافع عن المبالغة في الشعر فيقول : « لقد ظنوا في حيرتهم أن الشعر العصري هو اجتناب المبالغة ، وأن اجتناب المبالغة هو التزام الصحة العلمية ، وعندي أن الذي يقول لحبيبه إنه أبهى من الشمس صادق في قوله ؛ لأن الشمس لا تسره كما يسره حبيبه ، ولا تغمر نفسه بالضياء كما تغمرها طلعة الحبيب » ، ويوجه النصيحة للأدباء بقوله : « بالغوا ، والتزموا الحقيقة الفنية ، تكونوا عصريين كأحدث العصريين »[3] .

ولعلك تحس بالتناقض في قوله ، فهو يعد المبالغة من عيوب الشعر ، ثم هو يدعو إلى المبالغة مع التزام الحقيقة الفنية ، والمبالغة زيادة في الحقيقة سواء كانت فنية أو غير فنية .

ويقول العقاد منتقداً هؤلاء الذين يدعون الشعراء لكي يمثلوا عصرهم وأحداثه ، وينفعلوا لها : « اطلب من الشعر أن يكون عنواناً للنفس الصحيحة ، ثم لا يعنيك بعدها موضوعه ، ولا منفعته ، ولا تتهمه بالتهاون إذا لم يحدثك عن

---

(١) الديوان ص ٥٤ .
(٢) نفس المصدر ص ٥٩ .
(٣) خلاصة اليومية ص ١٥ .
(٤) البلاغ الاسبوعي ٢٧ من مايو سنة ١٩٢٧ ص ١٣ .

الاجتماعيات والحماسيات ، والحوادث التي تلهج بها الألسنة ، والصيحات التي تهتف بها الجماهير[١] » ، ولا يرى العقاد من الضرورة أن يمثل الشاعر بيئته « فتمثيل البيئة ليس من الشرائط الشاعرية ، لأن البيئة الجاهلة المقلدة يمثلها الشعراء الجاهلون المقلدون ؛ ولأن الشاعر المتفوق قد يخالف بيئته ، وينقطع ما بينه وبينها فلا تشبهه ولا يشبهها إلا في معارض لا يصح بها الاستقلال[٢] » .

وقد أخرج ديوانه (عابر سبيل) جاعلا فيه أغراض الشعر هي الأمور العادية التي لم يكن ينظم فيها الشعراء من قبل « فليست الرياض وحدها ، ولا البحار ولا الكواكب ، هي موضوعات الشعر الصالحة لتنبيه القريحة ، واستجاشة الخيال ، وإنما النفس التي لا تستخرج الشعر إلا من هذه الموضوعات كالجسم الذي لا يستخرج الغذاء إلا من الطعام المتخير المستحضر ، أو كالمعدم الذي يظن أن المترفين لا يأكلون إلا العسل والباقلاء .

كل ما نخلع عليه من إحساسنا ، ونفيض عليه من خيالنا ، وتتخلله بوعينا ، ونبث فيه من هواجسنا وأحلامنا ومخاوفنا هو شعر ، وموضوع للشعر ، لأنه حياة وموضوع للحياة ... وعلى هذا الوجه يرى (عابر السبيل) شعراً في كل مكان إذا أراد . يراه في البيت الذي يسكنه وفي الطريق الذي يعبره كل يوم ، وفي الدكاكين المعروضة ، وفي السيارة التي تحسب من أدوات المعيشة اليومية ، ولا تحسب من دواعي الفن والتخيل ، لأنها كلها تمتزج بالحياة الإنسانية فهو ممتزج بالشعور ، صالح للتعبير ، واجد عند التعبير عنه صدى مجيبا في خواطر الناس »[٣] .

ولعلك ترى العقاد لا يركز نقطة واحدة يدور حولها نقده . ولا يتمسك برأي في هذا النقد ، وليس لذوقه أصول يرتكز عليها نقده ، شأنه في ذلك شأن أستاذه (هازلت) ، وليس من همي الآن أن أناقشه مستحسناً أو معارضاً وإنما أحاول أن أبين أثر نقده في الشعر المعاصر ، فالعقاد كما رأيت يدعو إلى وحدة القصيدة ، ويدعو إلى عدم الإحالة والتعسف والمبالغة ثم يفسر المبالغة بأنها التي لا تتنافى والحقيقة الفنية ، ويرى أن موضوع القصيدة يشمل كل شيء في الحياة ، وأن الشعر ليس من

---

(١) البلاغ الاسبوعي ٣ من يونيه ١٩٢٧ .

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) مقدمة عابر سبيل ص ٧ — ٨ .

الضروري أن يكون ذا فائدة ، وأنه ليس من شروطه أن يمثل البيئة أو المجتمع ، ثم بعد ذلك يرى أن كل ما يمتزج بالحياة الإنسانية فهو ممتزج بالشعور جدير بأن يكون موضوعاً شعرياً ، صالح للتعبير ، واجد عند التعبير عنه صدى مجيباً في خواطر الناس • أو ليس ذلك هو ما يشغل أذهان الناس في زمن ما وفي بيئة ما ، فما باله يعيب على شعرائنا أن يقولوا في الحوادث السياسية ، وأن يصفوا طبيعة مصر ، ويصوروا المجتمع المصري بما فيه من أدواء تستحق العلاج ويتحسروا على إهمال الطبقات الفقيرة ، أو ليس ذلك اهتماما بالطبقة العاملة في الأمة واهتماما بالإنسانية التي حرص العقاد على أن يكون شعره وقفاً عليها ؟ ؟ • ولكنه يعارض فكرة القومية كما فهمها هيكل ، وكما طبقها شوقي وحافظ وغيرهما •

ومهما يكن من أمر ، فإن مدرسة العقاد وشكري والمازني عنيت بالمعنى عناية فائقة ، وعنيت بالفكرة ، وإخراجها واضحة ، ولو لم تكن في أسلوب رائق ، ولفظ مونق ، وإن حاولوا مرارا أن يدافعوا عن بلاغة العبارة • وفي ذلك يقول المازني في انتقاده لشكري : « وأنت أيها القارىء قد تعلم أن سر النجاح في الأدب هو علو اللسان ، وحسن البلاغ ، وقوة الأداء ، وأن على من يريد أن يشرح ديناً جديداً « لأطفال » هذا العالم أن يحثهم بما أحب أسلافهم في سالف الزمن ، أو بما يلذهم أن يحبوه لو عرفوه •• وأنه لكي يغريهم به ينبغي له أن يتوخى القوة في العبارة عما يريد ، فإن الناس خليقون ألا يؤمنوا إلا بمن عمر صدره بالإيمان •

وقلما ظهر كاتب أو شاعر إلا بالأداء ، وكثيراً ما يمتاز بعض الكتاب ، وتخلد آثارهم لما أوتوه من المقدرة على إجادة العبارة عن آراء غيرهم • ولعل هذا أكبر الأسباب التي أفضت إلى خمول شكري وفشله في كل ما عالجه من فنون الأدب ، لأنه لا أسلوب له ، إذ كان يقلد كل شاعر ويقتاس بكل كاتب[1] » •

ونرى العقاد كذلك يدافع عن جودة العبارة ، وإن لم يستطع كل شعراء المدرسة الحديثة إلا علي محمود طه المهندس أن يجمعوا بين جدة المعنى ، ورشاقة اللفظ وحلاوة موسيقاه ، إذ أن حرصهم على أن يغص شعرهم بالأفكار والحقائق ، جعلهم يؤدون هذه الحقائق بأي لفظ تهيأ لهم ، لأنها مقصودة لذاتها ، ولذلك لا تستسيغه الآذان ، ولا يقبل عليه أهل الغناء ، ومع كل هذا لا يرى العقاد بدا من الدفاع عن

---

(١) الديوان جـ ١ ص ٤٩ •

بلاغة الأسلوب وقوته وجماله . إذ يقول ناقضاً رأي ميخائيل نعيمة في الغربال . « الكتابة الأدبية فن ، والفن لا يكتفى فيه بالإفادة ولا يغني فيه مجرد الإفهام ، وعندي أن الأديب في حل من الخطأ في بعض الأحيان ؛ ولكن على شرط أن يكون الخطأ خيراً ، وأجمل وأوفى من الصواب . إن مجاراة التطور فريضة وفضيلة ، ولكن يجب أن نذكر أن اللغة لم تخلق اليوم فتخلق قواعدها وأصولها في طريقنا وأن التطور إنما يكون في اللغات التي ليس لها ماض ، وقواعد ، وأصول ، ومتى وجدت القواعد والأصول فلماذا نهملها أو نخالفها إلا لضرورة لا مناص منها ؟[١] » .

وكان العقاد في مستهل حياته النقدية يشجع النظم بالشعر المرسل كما جاء في مقدمته التي كتبها لديوان المازني الجزء الأول ، ولكنه عدل عن رأيه هذا لأنه آمن بأن سليقة الشعر العربي تنفر من إلغاء القافية كل الإلغاء[٢] .

وقد لخص العقاد رأيه في مقاييس الشعر ، وماذا يجب أن يكون بعد أن نيف على الستين وتركزت فكرته بقوله : « أما هذه المقاييس فهي في جملتها ثلاثة ألخصها فيما يلي : « فأولها » : أن الشعر قيمة إنسانية ، وليس بقيمة لسانية ؛ لأنه وجد عند كل قبيل ، وبين الناطقين بكل لسان ، فإذا جادت القصيدة من الشعر فهي جيدة في كل لغة ، وإذا ترجمت القصيدة المطبوعة لم تفقد مزاياها الشعرية بالترجمة إلا على فرض اوحد ، وهو أن المترجم لا يساوي الناظم في نفسه وموسيقاه ، ولكنه إذا ساواه في هذه القدرة لم تفقد القصيدة مزية من مزاياها المطبوعة أو المصنوعة ، كما نرى في ترجمة « فتزجيرالد » لرباعيات الخيام .

« وثانيها » أن القصيدة بنية حية ، وليست قطعاً متناثرة يجمعها إطار واحد ، فليس من الشعر الرفيع شعر تعير أوضاع الأبيات فيه ، ولا تحس منه ثَمّ تغييراً في قصد الشاعر ومعناه .

« وثالثها » أن الشعر تعبير ، وأن الشاعر الذي لا يعبر عن نفسه صانع ، وليس بذي سليقة إنسانية ، فإذا قرأت ديوان شاعر ، ولم تعرفه منه ، ولم تتمثل لك شخصية صادقة لصاحبه ، فهو إلى التنسيق أقرب منه إلى التعبير »[٣] .

---

(١) مقدمة الغربال ص ٨ .	(٢) يسألونك ص ٦٤ .

(٣) معراج الشعر ، مقال للأستاذ العقاد بمجلة الكتاب أكتوبر سنة ١٩٤٨ .

ونكرر هنا ما سلف أن لاحظناه على النقد لدى شكري من أن هذه المدرسة وقفت عند باب الشعر الوجداني الذاتي ، منصرفة عن سواه من ضروب الشعر الأخرى ، ومناداتهم بالنظر إلى من قال لا إلى ما قيل ، واهتمامهم بظهور شخصية الشاعر في شعره جَبٌ للشعر الموضوعي كله : وهو من أنواع الشعر التي نادى بها الغربيون وأحلوها منزلة عالية وتتجلى في الملحمة والمسرحية . ولذلك لا تجد لهم في هذا الميدان كثيراً أو قليلا ، وإنما عكفوا على ذواتهم يسبرون أغوارها ، ويتأملون ما حولهم ويعبرون عن أحاسيسهم بعد هذا التأمل،وهذا تضييق للشعر وحدٌ من آفاقه.

ومهما يكن من أمر فقد أفادت حملات العقاد والمازني على الشعر التقليدي ، فحاول الشعراء الذين كانوا ينهجون في مستهل حياتهم الأدبية منهج الأقدمين أن يجددوا في شعرهم ، وإن لم يتيسر لمعظمهم أن يأتي بجديد يعتد به ، ولا سيما في المعاني والقوالب ؛ لأن القرائح كانت في نضوب ، والطباع في شبه جمود ، بيد أن فريقاً من الشعراء الشبان الذين اطلعوا على الآداب الغربية وتأثروا بتوجيهات النقاد ، وحملاتهم الصارمة على الشعر التقليدي جدوا في الإتيان بشعر جديد ، ولكنهم وللأسف لم يكن عند أكثرهم تلك القوة الخالقة المبتكرة ، ولا هذا الأسلوب المتين ، ولا تلك الينابيع الغزيرة من المعاني التي كانت للجيل السابق لهم ، فلم يرتفعوا بالشعر إلى المستوى الذي كنا نرجوه .

— ٦ —

ومن نقاد هذه المدرسة التي حذقت الإنجليزية وأوغلت في قراءتها وتأثرت بنقادها ، وحاولت جاهدة أن تعطي مفهوماً جديداً للأدب بعامة والشعر بخاصة : المازني ، وهو أحد الفرسان الثلاثة الذين كونوا هذه المدرسة الأدبية النقدية .

ولكن المازني لم يكثر من تقرير النظريات النقدية المجلوبة ، بل حاول أن يمزج في نقده بين القديم والجديد ، وكانت له شخصية في النقد التطبيقي ، ويغلب عليه طبع الفنان الأديب أكثر مما تغلب عليه سمات الناقد ؛ فهو يغالي في مدحه كما يغالي في سخطه ، نراه مثلاً يتحامل على شكري حتى يجرده من كل صفات الشعراء ، ويتحامل على حافظ إبراهيم في رسالته (شعر حافظ) التي يقول في ختامها : « ولو كان له حسنات لاغتفرنا له ما في شعره من السيئات ، فإن للمتنبي سرقات كثيرة ، ولكن حسناته أكثر » .

ونحن لا نبرىء المازني من الهوى في هذا التحامل ، وقد ذكرنا آنفاً ما أفسد ما بينه وبين شكري من مودة ، ثم ندمه على ما فرط منه في هذا النقد الجارح . أما حافظ فكان الوشاة يبلغون المازني أنه يكيد له في (نظارة المعارف) ، فأوغروا صدره عليه حتى جرده من كل نعت جميل ، ثم أسف فيما بعد على هذا الشطط ، وتمنى على الله أن ينسى ما كتبه عن حافظ ، أو ما سماه « الهراء القديم »[1] .

أمّا إذا أعجب بشخص فهو يتجاوز عن سيئاته ، بل يتلمس له المعاذير ويبالغ في تصوير حسناته كما فعل مع ابن الرومي ، فدافع عن تشاؤمه وسخريته ، عازياً نقمته على العصر وأبنائه إلى ذكاء الشاعر وفرط حساسيته ، حتى لكأنه يحس الحياة بأعصابه ، يحس ما فيها من الظلم والغبن والخلط والفساد والتناقض . وإحساسه هذا بثقل القيود المحيطة به أبرز (أنا) في شعره وفي حياته إلى المكان الأول من الواعية ، فحفل شعره بذكر نفسه ، واكتنظ بالمقابلة بين الرغبة والإمكان ، وبين الأمل والواقع . والذاتية إنما يبرزها إدراك حدودها ، والتصادم بما هو خارج عنها .

ولعل سر إعجاب المازني بابن الرومي طبيعة المازني الساخرة ، وأن المذهب الذي دعت إليه هذه المدرسة يؤكد ذاتية الشاعر ويعنى بإبرازها ويكشف عن أعماقها ، فلا بدع إذا صرح بأن ابن الرومي أحب الشعراء إليه[2] ، ويزعم أن ابن الرومي أعظم شاعر في العربية ويعلل لذلك بنسبه إلى الروم فهو آري الأصل ، ولذلك سلم من عيوب العرب في أدبهم من فساد الذوق وشطط الذهن ، فتجد عندهم الحدة والطغيان والغلو ونحوها مما يجعل شعرهم جافياً جامحاً ، ومما يجعلهم ليسوا أشعر الأمم كما يظن بعضهم ، وإن كانت لهم محاسنهم كصدق النظر وذكاء المشاعر ، وصفاء السريرة وعلو النفس ، ولكن الشعوب الآرية أفطن منهم لمفاتن الطبيعة وجلالة النفس الإنسانية وجمال الحق والفضيلة ــ على أن أنبغ العرب هم أولئك الذين ينتهي نسبهم إلى غير العرب كابن الرومي مثلاً فهو آري الأصل فارسي يوناني ــ وقد ورث كثيراً من صفات قومه ، فهو أقرب إلى شعراء الغرب في أسلوب الشعر »[3] .

---

(١) حصاد الهشيم ص ٢٨٤ .
(٢) المرجع السابق ص ٢٣٢ .
(٣) راجع حصاد الهشيم عن ابن الرومي من صفحة ٢٣٢ ــ ٤٢٢ .

ولا نريد أن نصف المازني بالشعوبية ، وتعبده لمقاييس الأدب الغربية وبخاصة تلك المدرسة الإنجليزية ، وبهذا التحامل الذي يزري بالشعر العربي القديم كله ويجرده من سمات الشاعرية ، وما في كلامه من تناقض ، ولكنا إذا التمسنا له العذر أرجعنا هذه الآراء إلى إعجاب المازني بالأدب الغربي نتيجة قراءاته الكثيرة فيه وبخاصة في الإنجليزية ، وتأثره بهازلت في طريقة نقده ، ومحاولته تقويض الفكرة الشائعة عن الشعر والتي ورثها شعراء العصر الحديث ، وساروا على نهجها منذ البارودي ، فكان يضرب بمعوله من غير رحمة ، ثم إلى طبيعته الجامحة وانفعالاته في غضبه ورضاه ، فيشتد في سخطه كما يبالغ في ثنائه .

ولسنا بصدد نقد ابن الرومي وتبيان طريقته وما فيها من عيوب وحسنات ولكنا بصدد المازني وطريقته في النقد ، وإن كان لا يفوتنا هنا التنويه بما كان للعرب من نظرة صادقة إلى الحياة ، ومن إكبارهم النفس الإنسانية وسبر أغوارها كما تجلى في حكمهم الكثيرة التي نعدها قوانين مركزة تشف عن النفس الإنسانية في كل زمان ومكان .

أما الحق والفضيلة فلا أظن أمة من الأمم عنيت بهما مثلما عنيت الأمة العربية في أدبها وسلوكها وقانونها ، ولولا خشية الاستطراد والخروج عن البحث لوفيت هذا الموضوع حقه ، وبحسبي أن أحيل القارىء على كتابنا (الفتوة عند العرب) في الفصل الذي عقدته للموازنة بين العرب وسواهم من الأمم وبخاصة الغربية منها . ونستطيع أن نضيف هذا الجموح والشطط في نقد المازني للشعر العربي إلى نقده لشكري وحافظ ذلك النقد الذي تبرأ منه فيما بعد وندم عليه .

ويفسر لنا المازني مذهبه في النقد فقال : « مذهبي في النقد أن أنظر إلى جملة ما في الكتاب من الإحسان مقيسة إلى جملة ما فيه من العيب ، فإذا أربى الإحسان على الإساءة تقبلته ، وتجاوزت عما فيه من نقص أو مأخذ ، وإلا رفضته ، فهو ميزان ينصب ، وأي كفتيه رجحت أخذت بها ، وهذا في مذهبي هو العدل الميسور في وزن الآراء والأعمال والحكم عليها » . ويعلل لرأيه هذا بأن كتابا ما لا يخلو من نقص ولو خلا ــ وتلك مرتبة لا تنال ــ لما كان إنسانياً ، « بل أنا أذهب إلى أن من البواعث الخفية على الإعجاب أن يفطن القارىء إلى مواضع النقص ومواطن الضعف ، وأن

يحس ولو إحساسا غامضاً أن الكتاب من الكتب على جلال قدره وعظم شأنه وندرة مثله ، وعجز الأكثرين عن الإتيان بما يقاربه لا يخلو من زلات وعثرات ، ووهن هنا وسقوط هناك ، أو إسفاف أو خمولة ، أو قصور أو تقصير أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى ويلحق به[1] » .

ولعله في نقده لحافظ ابراهيم يبين لنا بعض اتجاهاته النقدية ورأيه في الشعر فهو يدعو إلى الإقلاع عن التقليد في الأدب فإن ذلك يفقده فضيلة الصدق ، ومزية النظر ، وهما عماد الأديب وقوام الشعر والكتابة ، ولكن على الأديب أن يستفيد من آثار القدماء في أدبهم ، ويدرس في فنهم الأصول الأدبية العامة التي لا ينبغي لأديب أن يحيد عنها أو يغفلها بحال من الأحوال ـ كالصدق والإخلاص في العبارة عن الرأي أو الإحساس ، وهذا وحده كفيل بالقضاء على فكرة التقليد ، والتقليد على كل حال دليل على ضعف الخيال ، وعدم القدرة على الابتداع ، وفقدان الشخصية .

ويرى إباحة التصرف في اللغة تصرف الوارث في إرثه ، فلا يجمد أمامها بل ينبغي أن يجعلها تساير التطور والحاجة ، ولكنه كان لا ينادي بالعامية أو التساهل في معجم اللغة كما رأينا من قبل .

والأديب الحق عنده هو الذي يصور الوجدان والأحاسيس في صدق ويعطي صورة صادقة للناس وللحياة ، ولا يقيم وزناً للزخرف اللفظي إنما يوجه كل عنايته للمعنى ، وكل معنى صادق مهما كان موضوعه أو هدفه وغايته فهو خليق بأن يكون موضوعاً للأدب .

ولعلك ترى من هذا أنه يلتقي مع شكري والعقاد وإنهم جميعاً يصدرون عن فكرة واحدة في قضية اللفظ والمعنى ، وموضوع الأدب .

ويرى أن الناقد يجب أن ينظر إلى غرض الشاعر الذي يهدف إليه في القصيدة جملة حتى ندرك ما يرمي إليه كاملاً ، وعليه فلا ينبغي في ذلك النظر إلى جزء منها دون سواه »[2] .

وقد رأى أن حافظاً وشكري على طرفي نقيض في شعرهما في الغرض والأسلوب

---

(١) مجلة الكتاب عدد نوفمبر ١٩٤٥ ص ٧٩ ــ ٩٠ .

(٢) راجع شعر حافظ ص ٢ وما بعدها .

والمنهج ، وغالى كعادته في الحكم وزعم أن بيتاً واحداً من ديوان شكري يفضل كل ما قاله حافظ وأضرابه[١] ، مع أنه هدم شكري فيما بعد وجرده من كل ما يمت إلى الشعر بصلة .

ويرى أن الشعر لا بد أن يكون مطبوعاً ليس فيه أثر من آثار الصنعة والتكلف أو الإجهاد ، وأن يستلهم الخيال الواسع ، ويعمد إلى الابتكار والتجديد ، وأن يعبر تعبيراً صادقاً عن نفس صاحبه ، مصوراً لآمال النفس البشرية وآلامها ، ومعبراً خير تعبير عن معاني الطبيعة والعقل التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحياة وبالنفس فيكون بحق وحي الطبيعة ورسالة النفس ، ثم لا يهمه بعد ذلك أي ثوب ألبس هذه المعاني ما دامت صحيحة صادقة .

ونرى المازني في نقده التطبيقي لشعر حافظ يسلك مسلك القدماء ويتكلم على النحو واللغة والإحالة والتعسف ، والسرقة ، ويعيب عليه ثقل الروح وبرود الفكاهة وجمود الخيال والسخف ، وفساد الذوق وفساد المعنى ، والخطأ العلمي والحشو والتكرار[٢] .

ومن أمثلة نقده لحافظ مؤاخذته على استعماله المفعول المطلق في قوله :

غالهـــا قبلـــك الزمـــان اغتيـــالا

« فلفظة اغتيال لا ضرورة لها بعد غالها » ، وكان المازني يضيق ذرعاً بالمفعول المطلق ، وقد رأينا هذا الضيق على أشده في نقده للمنفلوطي حيث أخذ يحصي ما ورد للمنفلوطي في العبرات من هذا المفعول[٣] .

والمازني في نقده هذا يتعسف في نقده ، وكأني به يريد أن يحذف المفعول المطلق من اللغة ، ولكنا نراه في (قبض الريح) يدافع عن هذا المفعول المطلق ويقول :

« والواقع أن هذا المفعول المطلق يمثل في تاريخ النشوء اللغوي خطوة انتقال اتسع بعدها الأفق ورحب على أثرها المجال ، وتفتحت أبواب التعبير المغلقة ، ومن شاء أن يقدر فضل المفعول المطلق على اللغة وعلى العقل الإنساني أيضاً فليتصورها مجردة منه ولينظر إليها كيف تعود أو إلى أي حد تضيق[٤] » .

---

(١) شعر حافظ ص ١٢ .
(٢) نفس المصدر ص ٢ .
(٣) الديوان جـ ٢ ص ٢٥ .
(٤) راجع قبض الريح ص ١٥٦ .

والشعر في رأي المازني ذاتي شخصي مثله في ذلك مثل شكري والعقاد فهو عنده خاطرٌ لا يزال يجيش بالصدر حتى يجد مخرجاً ويصيب متنفساً ، وهو غنائي خالص ليست له وظيفة سوى التنفيس الشخصي عن قائله[1] .

ويرى المازني أن الشعر ابن الخيال ، إذا لم يكن للخيال فيه مجال فهو غث لا خير فيه ويستشهد برأي سانت بيف : « ليس الأصل في الشعر الاستقصاء في الشرح والإحاطة في التبيين ، ولكن الأصل فيه أن تترك كل شيء للخيال[2] » .

وهذا يخالف ما دعت إليه هذه المدرسة من الاهتمام بالمعاني ، وما اشتهرت به من إعجابها بابن الرومي الذي كان يستقصيها في شعره حتى يستنفدها ، والمازني في هذا يتمشى مع مذهب العرب في الشعر الذي أشار إليه البحتري :

والشعر لمح تكفي إشارته وليس بالهذر طولت خطبه

ويتفق المازني مع مذهب العرب في شيء آخر حين يقول : « والشعر في حقيقته لغة العواطف لا العقل ، وإن كان لا يستغني عن العقل فيما يخدم هذه العواطف ، وليس هو بشعر ما لم يعبر عن عاطفة أو يثيرها ... ... وبما أن العاطفة تحتاج إلى لغة حارة تعبر عنها ، فقد استخدمت الحسنات البديعية . والعاطفة إذن هي الأصل في هذه المحسنات ، ولكن هذه المحسنات صارت مرذولة بالصنعة والتكلف ، أما عند شعراء الطبع فتأتي عفواً ، وتكاد لا تحس ، فهي جميلة الوقع ، معبرة تعبيراً صادقاً عن العاطفة » .

ويدافع المازني دفاعاً قوياً عن ضرورة الوزن في الشعر ، فكما أنه لا تصوير بغير ألوان كذلك لا شعر إلا بالوزن ، وقد يكون النثر شبيهاً بالشعر في تأثيره وتعبيره عن العاطفة ، أو يغلب عليه روح الخيال ، ولكنه مع ذلك ليس بشعر ، إذ يعوزه الجسم الموسيقي . ومثل الوزن في ذلك القافية ، فلا شعر إلا بهما أو بالوزن على الأقل » .

ولعلنا نتذكر محاولة شكري صديقه التخلص يوماً ما من القافية في ديوانه الأول أضواء الفجر حين نظم قصيدته « كلمات العواطف » من الشعر المرسل الموزون غير

---

(١) راجع مقدمة الجزء الثاني لديوان المازني ١٩١٢ .
(٢) الشعر غاياته ووسائطه ص ٣ — ٢٠ .

المقفى . وقد أطرى المازني شكري على جرأته هذه في أول الأمر ، ثم عاد فعابه عليها حين ساءت العلاقة بينهما .

ومن آراء المازني التي وافق فيها زميليه قوله : « إن الجيد في لغة جيد في سواها ، لأنه لا يختص بلغة أو زمان أو مكان ، فمرده إلى أصول الحياة العامة لا إلى المظاهر والأحوال الخاصة والعارضة ، وكذلك الغث في لغة غث في غيرها ؛ على أن محك القدرة في الأدب بوجه عام هو في تصوير حركات الحياة والعاطفة المعقدة ورسم الانفعالات واعتلاج الخوالج الذهنية ونحوها ، وليست غاية الأدب تصوير قشور الأشياء وظواهرها »(١) .

وهذا يذكرنا بكلام الأستاذ العقاد ولكنه يرى « أن الأدب لا بد أن تكون له غاية سامية فيدفع الأمة إلى تطلب الحياة العالية الكريمة »(٢) ، فالأدب يجب أن يخدم المجتمع ، فليس الفن للفن وحده(٣) . ولذا ينبغي أن تكون هذه الدعامة وسيلة لغيرها لا غاية ، وأن تكون أداة يستعان بها على تحريك إحساسات متزاوجة أو مركبة غير التي ينبهها منظر الدمامة ، وقل أن تجد من الإحساسات البغيضة ما لا يكون مختلطاً بغيره أو نقيضه(٤) .

ومن الآراء التي نادى بها المازني أن تكون القصيدة عملاً فنياً تاماً قائماً على فكرة معينة ، ليس الشاعر فيها مسوقاً بباعث مستقل عن النفس(٥) .

ويعتبر المازني الشطط في الخيال ومخالفته للواقع ليس دليلاً على النبوغ والبراعة ، ولكن آية النبوغ والبراعة في صدقه وعدم تجافيه للحقائق ، وفي قدرته على اختيار التفاصيل المميزة حتى ولو كان الشيء من المألوف الذي تقع عليه كل عين فليس في تناوله إسفاف كما يتوهم بعضهم ، والبراعة في كيفية تناوله حتى ليبدو كأنه غير ذلك المألوف القديم(٦) .

ويرى المازني أن الأديب الأصيل هو الذي يكون له أسلوبه الخاص ؛ لأن

---

(١) الديوان الجزء الثاني .
(٢) نفس المصدر ص ٢ .
(٣) حصاد الهشيم ص ١٠٦ وما بعدها .
(٤) نفس المصدر ص ١٢٠ وما بعدها .
(٥) حصاد الهشيم ص ٣٥ وما بعدها .
(٦) نفس المصدر ص ١٩٥ .

الأسلوب صورة من النفس ، ولكل ذهن التفاتاته الخاصة ، وطريقته في تناول المسائل وعرضها . وكلما كانت هذه الخصوصيات أوكد وأعمق ، كانت المحاكاة أشق والإخفاق فيها أقرب ، فهي لا تسهل إلا حيث يكون الأسلوب خالياً من الخصائص التي ترجع في مرد أمرها إلى النفس وما ركبت عليه وانفردت به » : ولذلك رأى المازني أن أسلوب طه حسين خالٍ من الخصائص المميزة له ، وأن كثيرا من الكتاب يستطيعون تقليده .

وهناك ظاهرة في المازني الناقد تسترعي النظر ، تلك هي كثرة استطراداته وتهربه أحياناً من النقد كما فعل في نقد كتاب (النثر الفني) لزكي مبارك ، وكما فعل في نقده لكتابي الآنسة مي (الصحائف ، وظلمات وأشعة) ، وقد كان يتعمد ذلك تخابثاً منه ، وهرباً من مجابهة المنقود برأيه الجارح .

نقد المازني عدداً من الشعراء والكتاب ، وهو في نقده يمزج بين النقد اللغوي والنظريات النقدية الحديثة كما فعل في نقد المنفلوطي وشكري وابن الرومي ، وهو متأثر في نقده غالباً بعلاقاته الشخصية ، وحبه وسخطه ، وكثيراً ما عدل عن آرائه وتجريحه وندم عليها . ولكنه في جملة آرائه يمثل هذه المدرسة المجددة في الأدب مثل شكري والعقاد ، وهو أقرب إلى العقاد من سواه .

— ٧ —

ولقد سبق العقادَ والمازني وشكري في توجيه الشعر المصري الحديث وجهة جديدة الشاعرُ خليل مطران ، وكان من واجبنا أن نقدمه في الكلام ، ولكننا لا نعتبره ناقداً ، ونحن في صدد الكلام على النقاد وأثرهم ، وإنما هو شاعر ، ثم إن مطران تأثر بالمدرسة الفرنسية في الشعر أكثر من تأثره بالمدرسة الإنجليزية التي حذا حذوها العقاد وزملاؤه . وبالإضافة إلى كل هذا فمطران ــ وإن كان مجدداً في الشعر ــ قد حاول في فترات أن يجمع بين القديم والجديد ولا سيما في الأغراض ، ولم يكن ثائراً ثورة هؤلاء .

لقد أخرج مطران ديوانه (الخليل) في سنة ١٩٠٨ ، وإن كانت أول قطعة إبداعية في ديوانه ترجع إلى سنة ١٨٩٣[1] . وقد ابتدأ مطران ثورته على الشعر

(١) راجع الدكتور إسماعيل ادهم عن مطران ص ٣٣ .

التقليدي ، والدعوة إلى التجديد بقوله : « اللغة غير التصور والرأي ، وإن خطة العرب في الشعر لا يجب حتما أن تكون خطتنا ، بل للعرب عصرهم ولنا عصرنا ، ولهم آدابهم وأخلاقهم وحاجاتهم وعلومهم ولنا آدابنا ، وأخلاقنا ، وحاجاتنا وعلومنا، ولهذا وجب أن يكون شعرنا ممثلا لتصورنا وشعورنا لا تصورهم وشعورهم ، وإن كان مفرغاً في قوالبهم محتذيا مذاهبهم اللفظية[١] » .

وأول تجديد دعا إليه مطران هو وحدة القصيدة ، وتماسك أبياتها بعضها ببعض لأنه لم يجد في الشعر العربي « ارتباطاً بين المعاني التي تتضمنها القصيدة الواحدة ، ولا تلاحماً بين أجزائها ، ولا مقاصد عامة تقام عليها أبنيتها ، وتوطد أركانها ، وربما اجتمع في القصيدة الواحدة من الشعر ما يجتمع في أحد المتاحف من النفائس ، ولكن بلا صلة ولا تسلسل وناهيك عما في الغزل العربي من الأغراض الاتباعية التي لا تجمع إلا لتتنافر ، وتتناكب في ذهن القارىء[٢] » .

أما من حيث الأغراض فهو يرى الشعر فناً منبها للتصوير والحس عن طريق الرمز ، وأن الشعر يفترق عن الرسم في أن الرسم فن منبه للتصوير والحس عن طريق النظر ، وهما يفترقان عن الموسيقى في أنها تنبه التصوير والحس عن طريق السمع[٣]» وقد نقل مطران أغراض الشعر العربي الى أغراض أوربية ، وإن سبق إليها رفاعة الطهطاوي ، بيد أنه لم يكن شاعراً مكتمل الشاعرية ، فلم تتأثر به النهضة الأدبية[٤] وإن سبق إليها كذلك (سليم عنحوري) في ديوانه « مرآة العصر » ، ولعله كان قدوة ونموذجاً لمطران في حركته الجديدة[٥] . ولكن لم يرزق ديباجة مطران ولم يكن عصره مهيأ لتقبل دعوته التجديدية .

ولما نشر مطران ديوانه في سنة ١٩٠٨ قدم إليه بمقدمة وضح فيها مذهبه الشعري الجديد الذي دعا إليه ، وبين أنه ابتدأ مقلداً ، ولكنه وجد في الشعر المألوف

---

(١) خليل مطران في المجلة المصرية السنة الاولى جـ ٣ (يولية سنة ١٩٠٠) ص ٨٥ .
(٢) خليل مطران في المجلة المصرية ــ السنة الاولى جـ ٢ (١٦ يونية ١٩٠٠) ص ٢٢ ــ ٤٤ .
(٣) خليل مطران ــ المجلة المصرية ــ السنة الثانية جـ ١ يونية سنة ١٩٠٠ ص ١٢ .
(٤) الدكتور احمد ضيف المقتطف المجلد ٦٨ جـ ٦ (يونية ١٩٢٦) ص ٦٣٧ ــ ٦٣٩ .
(٥) الدكتور اسماعيل أدهم ص ٣٢ .

جموداً أنكره فترك الشعر فترة ثم قال : « عدت إليه وقد نضج الفكر ، واستقلت لي طريقة في كيف ينبغي أن يكون الشعر ، فشرعت أنظمه لترضية نفسي حيث أتخلى ، أو لتربية قومي عند الحوادث الجلى ، متابعاً عرب الجاهلية في مجاراة الضمير على هواه ومراعاة الوجدان على مشتهاه ، وموافقاً زماني فيما يقتضيه من الجرأة على الألفاظ والتراكيب ، لا أخشى استخدامها أحياناً على غير المألوف من الاستعارات ، والمطروق من الأساليب ، ذلك مع الاحتفاظ جهدي بأصول اللغة ، وعدم التفريط في شيء منها إلا ما فاتني علمه » وقال كذلك : « هذا شعر ليس ناظمه بعبده ، ولا تحمله ضرورات الوزن أو القافية على غير قصده ، يقال فيه المعنى الصحيح باللفظ الفصيح ، ولا ينظر قائله إلى جمال البيت المفرد ، ولو أنكر جاره وشاتم أخاه ودابر المطلع ، وقاطع المقطع ، وخالف الختام ، بل ينظر إلى جمال البيت في ذاته وفي موضوعه وإلى جملة القصيدة في تركيبها وفي ترتيبها ، وفي تناسق معانيها وتوافقها ، مع ندور التصور ، وغرابة الموضوع ، ومطابقة كل ذلك للحقيقة ، وشفوفه عن الشعور الحر ، وتحري دقة الوصف واستيفائه فيه على قدر[1] » .

وفي الحق أن شعر مطران ، وما فيه من القصائد الجديدة في مادتها ، وطريقة عرضها ولا سيما تلك القصائد القصصية . « العصفور » و « الجنين الشهيد » و « فتاة الجبل الأسود » و « نيرون » و « حكاية عاشقين » الذي ظل ينظمها سنوات متتبعاً حوادث العاشقين ، إذ ابتدأ فيها سنة ١٩٠٧ ، وانتهى منها سنة ١٩١٣ . أقول : إن شعر مطران قد أثر في شعراء مصر حين سمعوه إما مباشرة أو غير مباشرة . ولقد حاول بعض النقاد أن ينسبوا إلى مطران كل تجديد في الشعر المصري ويقولون : إن إبراهيم رمزي لم ينظم قصة (يوسف الصديق) شعراً في اثنتي عشرة قصيدة سنة ١٩٠٠ وإن نقولا رزق الله لم ينظم كليوباترا سنة ١٩٠٠ إلا بوحي من شعر مطران الذي دأب على نشره في المجلات قبل أن يجمعه في ديوان ، بل إن عبد الرحمن شكري الذي أخرج أول ديوان له سنة ١٩٠٩ وهو بعد في العشرين من عمره وفيه قال حافظ:

أفي العشرين تعجز كل طرق   وترقصنا بأحكــام القوافي

والعقاد والمازني ، وأحمد زكي أبو شادي ، وإبراهيم ناجي ، وخليل شيبوب

---

(١) مقدمة خليل مطران الجزء الأول من الديوان ص ٨ — ٩ .

وعلي محمود طه المهندس ، والصيرفي وكثير غيرهم من تلامذة مطران ، ومن الذين نأثروا بطريقته الجديدة ، وإن اختلفوا عنه بعد ذلك ، واستقل كل بمذهب خاص به[١] فعكف شكري على دراسة الأدب الإنجليزي الواقعي الذي كان سائداً في انجلترا في أخريات القرن الماضي وأوائل هذا القرن ، وساد شعره التشاؤم والانقباض والخوف من الحياة ، وترديد ذكر الموت ، ووصف ما يعانيه الأموات ، كأنما شاهد ذلك بنفسه ، وتبعه العقاد والمازني رَدَحاً من الزمن وإن لم نجد في شعرهما هذا النزوع العجيب إلى التحرر المطلق كما في قصيدة شكري (كلمات العواطف) التي نظمها من الشعر المرسل ، وقد أولع بهذا النوع فنجد له في الجزء الثاني قصيدة منه عنوانها (واقعة أبي قير) وأخرى (نابليون والساحر المصري) وبذلك كان أول من أدخل هذا النوع من الشعر في العربية . كما لم نجد في شعرهما هذا الإفراط في التشاؤم إلى حد الهوس والجنون ، بل إن المازني نفسه يحمل على شكري ، حملة قاسية ويرميه بالجنون ، وهو متأثر به وتتلمذ له وإن أنكر هذا[٢] في الديوان ثم عاد فاعترف بأستاذيته بعد أن صمت شكري[٣] طويلا كما ذكرنا ذلك من قبل .

ولكننا نرى العقاد ينكر أن يكون مطران هو الذي هداه إلى هذا الشعر الجديد أو هدى زميله فهو « لم يؤثر بعبارته أو بروحه فيمن أتى بعده من المصريين ، لأن هؤلاء كانوا يطلعون على الأدب العربي القديم من مصدره ، ويطلعون على الأدب الأوربي من مصادره الكثيرة ، ولا سيما الإنجليزية ، فهم أولى أن يستفيدوا اللغة من الجاهليين والمخضرمين والعباسيين ، وهم أولى أن يستفيدوا نوازع التجديد من آداب الأوربيين وليس للأستاذ مطران مكان الوساطة في الأمرين ولا سيما عند من يقرءون الإنجليزية ولا يرجعون في النقد إلى موازين الأدب الفرنسي ، أو إلى الاقتداء بموسييه ولامرتين وغيرهما من أمراء البلاغة في إبان نشأة مطران[٤] » .

أما أبو شادي فقد اعترف بتأثره بمطران في أسلوبه الجديد[٥] ، وإن اختلف

---

(١) إسماعيل أدهم ص ٣٣ — ٣٤ .
(٢) راجع الديوان في النقد والادب الجزء الأول مقال : (صنم الالاعيب) ص ٤٨ والجزء الثاني ص ٨٩ .
(٣) جريدة البلاغ أول سبتمبر سنة ١٩٣٤ .
(٤) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي للعقاد ١٩٩ — ٢٠٠ .
(٥) راجع ابو شادي في انداء الفجر ص ١٢٨ وفي قطرة من يراع في الادب والاجتماع ج ٢ ص ٣ ومجلة ابولو اكتوبر ١٩٣٤ ص ٢٦٤ ، ومختار الوكيل في رواد الشعر الحديث عن مطران وابي شادي وشكري والعقاد ، ومحاضرة الدكتور إبراهيم ناجي (اتجاهات الشعر الحديثة) الاهرام ١٩٣٦/٦/٢٠ .

عنه بعد ذلك ، لأنه من قراء الأدب الإنجليزي ، كما اختلف عن شكري في أن نزعته تفاؤلية . وقد أقام مدرسة شعرية جديدة عرفت بمدرسة (أپولو) ولكنها لم تكن ذات منهج معين في الشعر بل جمعت أنماطا مختلفة من الشعراء بين مغرق في التقليد وجانح إلى التجديد أو مفرط فيه، وإذا كان لها من أثر فهو في نهوضها بالشعر وتشجيع الشعراء الشاذين والأخذ بيدهم والعناية بدراسة الشعر العربي الحديث ونقده ، ونقل بعض الشعر الغربي . إلاّ أن أبا شادي قد انصرف عن الشعر العربي ، وآثر النظم باللغة الإنجليزية ، فانقطع تيار تأثيره[١] ثم هاجر إلى أمريكا في أعقاب الحرب العالمية الثانية وظل هناك حتى توفي ثمة .

وقد أعجب الدكتور طه حسين بمطران ، وأشاد بشعره ، وبمقدمته التي كتبها لديوانه[٢] وذكر رأيه في المثل الأعلى للشعر بأنه « الكلام الموسيقي الذي يحقق الجمال الخالد في شكل يلائم ذوق العصر الذي يقال فيه ويتصل بنفوس الناس الذين ينشد بينهم ، ويمكنهم من أن يذوقوا هذا الجمال حقاً فيأخذوا بنصيبهم النفسي من الخلود[٣] » ، ويعجب بشعراء فرنسا ، وينقل قطعاً من (بودلير) وغير بودلير ، ويردد أن الشعر الجيد يمتاز قبل كلّ شيء بأنه مرآة لما في نفس الشاعر من عاطفة ، مرآة تمثل هذه العاطفة تمثيلاً فطرياً بريئاً من التكلف والمحاولة ، فإذا خلت نفس الشاعر من عاطفة ، أو عجزت هذه العاطفة عن أن تنطق لسان الشاعر بما يمثلها فليس هناك شعر ، وإنما هناك نظم لا غناء فيه[٤] ويرى أن الشعر الخالد هو الذي يلائم كل العواطف في كل الأزمان والبيئات وهو الذي يخاطب العواطف الإنسانية العامة[٥] » ، ويعلل جمود شعرائنا بأنهم « مرضى بشيء من الكسل العقلي ، بعيد الأثر في حياتهم الأدبية فهم يزدرون العلم والعلماء ولا يكبرون إلاّ أنفسهم ولا يحفلون إلا بها ، وهم لذلك أشد الناس انصرافاً عن القراءة والدرس والبحث والتفكير ، وكيف يقرءون أو يبحثون أو يفكرون وهم أصحاب خيال ، ومن شأن الخيال أن يصعد في السماء بجناحيه في غير تفكير ولا بحث ، فأمّا البحث والتفكير

---

(١) راجع Leonard Harker في كتابه Blazing the Trail ١٩٣٨ ص ١٢٩ ، وراجع الدكتور إسماعيل ادهم عن مطران ص ٣٤ .

(٢) حافظ وشوقي للدكتور طه حسين ص ١٧ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٧ .

(٤) المصدر السابق ص ١٠٩ .

(٥) حديث الأربعاء جـ ٢ ص ٨٣ وما بعدها .

فشأن العقل ، والعقل عدو الخيال ، وهو عدو الشعر . وليس من الحق في شيء أن الشعر خيال صرف ، وليس من الحق في شيء أن الملكات الإنسانية تستطيع أن تتمايز وتتنافر فيمضي العقل في ناحية لينتج العلم والفلسفة ، ويمضي الخيال في ناحية لينتج الشعر . وإنما حياة الملكات الإنسانية الفردية كحياة الجماعة رهينة بالتعاون ، ومضطرة إلى الفشل والإخفاق إذا لم يؤيد بعضها بعضاً[1]» . ويرى أن يشترك العقل والقلب في النظم معاً[2] . ولكن الواقع يظهر لنا أن الشعراء الذين تأثروا كثيراً بالحقائق العلمية وحاولوا الموازنة بين العقل والخيال أحياناً أو تغليب الفكرة على العاطفة والخيال قد جاء شعرهم رديئاً بل هو إلى النظم أقرب منه إلى الشعر ، ولا بدع فالشعر لا يحتمل كثيراً من حشد الحقائق وقضايا المنطق والبراهين العلمية ، وليس معنى هذا أن يصدف الشعراء عن القراءة والدرس والإفادة من تجارب سواهم وسير أغوار النفوس الإنسانية وتحليلها ، بل إن هذا واجبهم في عصرنا هذا بشرط أن يأتي شعرهم انعكاساً للانفعالات النفسية التي استحوذت عليهم حين قراءتهم أو إفادتهم تجارب جديدة لا أن يكون كتاباً علمياً .

ويتهكم طه حسين بشعر المناسبات ، وينعي عليه ويشبهه بالكراسي الجميلة المزخرفة التي تتخذ في الحفلات والمآتم[3] . وهو في هذا محق بعض الحق ، وقد كان لحملته وحملات غيره أثرها في إقلاع الشعراء عن هذا الضرب من الشعر إلاّ بقية متخلفة .

والدكتور طه ممن عني بدراسة الأدب القديم بجانب دراسته للأدب الحديث بل لقد اهتم بالقديم اهتماماً كبيراً ورأى فيه جمالاً فنياً ، وأن العرب أحدثوا هذا الجمال فيه وفهموه وقدروه ، وليس الأمر كما يزعم بعضهم من أنه خلو من هذا الجمال الشعري الذي يكسو الآداب الأفرنجية في زعمهم . وليس هناك ما يرد هذا الجحود ، ويدفع هذا الزعم مثل ما نجده من جمال في شعر ابن ذريح وجميل بن معمر وأضرابهما من شعراء الغزل ، ومن ذلك قصيدة قيس بن ذريح التي يقول فيها :

أقضي نهاري بالحديث وبالمنى ... ويجمعني والهم بالليل جامع

---

(١) حافظ وشوقي ص ١٤١ .
(٢) تجديد ذكرى أبي العلاء ص ٢١٣ .
(٣) حافظ وشوقي ص ١٥٠ .

نهاري نهار الناس حتى إذا بدا لي الليل هزتني إليك المضاجع
لقد رسخت في القلب منك محبة كما رسخت في الراحتين الأصابع[١]

ومن دفاعه عن الشعر القديم قوله : « لا بد أن تنقده بذوق عصره لا بذوق العصر الذي يعيش فيه الناقد وإلا لما أنصفناه[٢] » .

وهو ممن قال بأن القصيدة العربية القديمة فيها وحدة معنوية[٣] ، واستنكر ما رُمي به الشعر القديم من خلوه من هذه الوحدة ، وعلل هذا الزعم بأن أصحابه لم يطلعوا على الشعر القديم كاملاً ، وضرب مثلاً بمعلقة (لبيد) ، وأخذ يبين ما فيها من وحدة معنوية[٤] ، وتنسيقها وملاءمتها الشديدة للموسيقى التي تجمع بين جمال اللفظ والمعنى والوزن والقافية ، ووضح أن هذه النغمة المتصلة هي التي كونت وحدة القصيدة المعنوية .

وأثر الدكتور طه في الشعر يرجع إلى ما تناوله من قصائد بالنقد كما فعل في قصيدة شوقي التي قالها في مصطفى كمال والتي مطلعها :

الله أكبر كم في الفتح من عجب يا خالد الترك جدد خالد العرب

ووازن بينها وبين قصيدة أبي تمام في فتح عمورية :

السيف أصدق أنباءً من الكتب في حدّه الحدُ بين الجد واللعب

وكما فعل في قصيدة شوقي :

قفي يا أخت يوشع خبرينا أحاديث القرون الغابرينا

وبتأريخه للأدب على طريقة جديدة تأثر فيها بأستاذه (نللينو) وطبق فيها طريقة الغربيين في البحث الأدبي ، وكانت باكورة هذه الأبحاث (ذكرى أبي العلاء) الذي نال عليه شهادة الدكتوراه من الجامعة المصرية القديمة وصار نموذجاً لمن أتى بعده من مؤرخي الأدب ، وكذلك بما ترجمه من الأدب الفرنسي شعراً ونثراً ، ليضربه نماذج وأمثلة لشعرائنا كي يحتذوه .

---

(١) نفس المصدر ص ١٥٠ .
(٢) حديث الأربعاء جـ ١ ص ٢٢٣ وما بعدها .
(٣) حديث الأربعاء جـ ٢ ص ٨٣ .
(٤) الأدب الجاهلي ص ٢٥٨ ، وحديث الأربعاء جـ ١ ص ٣٠ .

والدكتور طه لا يقيس الأدب بمقياس جمالي أو سيكلوجي أو لغوي معين ، وإن كان ينتفع في نقده بنتائج هذه الدراسات انتفاعاً واضحاً كما رأيت في الشمول الذي يريده لمنهجه • وليست له نظرية واضحة المعالم في فلسفة الفن والجمال ، ولكنه يصدر في نقده عن ذوق ومعرفة[١] • ونقده في مجمله ذاتي ، وكثيراً ما يعمم الأحكام كقوله : « إن عمر بن أبي ربيعة زعيم الغزلين الأمويين جميعاً لا نستثني منهم أحداً ، ولا نفرق فيهم بين أهل البادية وأهل الحاضرة ، بل نحن نذهب إلى أبعد من هذا فنزعم أن عمر زعيم الغزلين في الأدب العربي كله على اختلاف ظروفه وتباين أطواره منذ كان الشعر العربي إلى الآن[٢] » •

وكثيراً ما كان يصدر أحكامه بدون تعليل ، وقد تكون هذه الأحكام قاسية ولكنه لا يعللها دائماً حتى يبرىء نفسه من تهمة التحكم والتحامل[٣] ، ومن أمثلة هذه الأحكام غير المعللة رغبته إلى علي محمود طه أن يلغي قصيدته (ميلاد شاعر) عند طبع ديوانه الملاح التائه[٤] ، وقوله : إنه لم يجد في قصيدة ناجي (قلب راقصة) جديداً[٥] إلى غير ذلك من عشرات الأحكام التي يصدر فيها عن ذوقه الخاص دون الرجوع إلى مقاييس معينة أو التعليل لها •

— ٨ —

ولعلك ترى أن ثمة مدرستين في النقد الأدبي إحداهما فرنسية ومن زعمائها : هيكل وطه حسين ، ومن شعرائها شوقي ومطران وصبري ، والأخرى إنجليزية ومن زعمائها العقاد وشكري والمازني وأبو شادي وهم أنفسهم شعراء ونقاد • وبين المدرسة الإنجليزية والمدرسة الفرنسية في الشعر تباين يرجع إلى أن المدرسة الإنجليزية الشعرية أقوى من الفرنسية ، والمدرسة الفرنسية في النثر أقوى من الإنجليزية وذلك لأسباب •

منها : أن البيئة الإنجليزية معتمة تدعو الفرد إلى الانطواء على نفسه وعلى

---

(١) من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده لمحمد خلف الله ص ١٣٥ وما بعدها •

(٢) حديث الاربعاء ج ١ ص ٢٨٧ •

(٣) خليل سكاكيني — مطالعات في اللغة والأدب ص ٧٣ •

(٤) حديث الاربعاء ج ٣ ص ١٦٧ •

(٥) نفس المصدر ص ١٧٢ •

الكآبة والحزن ، فيكثر التفكير في الطبيعة ولو من وراء جدار ، وفي الله وكمال صنعه • وعلى العكس من ذلك البيئة الفرنسية فهي أكثر إشراقاً ، وأضحى شمساً والشعر لا يَعمق عادة في مثل هذه البيئة ؛ لأنها بوضوحها أورثت الفرنسي المنطق ونصاعة الحجة ، والصراحة في التعبير والتفكير نوعاً ما • إن الفرنسي يعيش في عالم الشعور ، ويطمئن للطبيعة المحيطة به ، لأنها ليست طبيعة صاخبة عاصفة مدمِّرة ، سوداء معتمة ، كما هو الحال في الطبيعة التي تكتنف بلاد الإنجليز •

لا يرى الإنجليزي الشمس في أغلب أيام السنة إلا لحظات ، وجو بلاده ملبد دائماً بالغمام ، والضباب يجتاحها في فصل الشتاء حتى يتعذر على الإنسان أن يرى يده في أثناء النهار ، وهي جزيرة تحيط بها بحار صاخبة ، وتهب عليها أعاصير مريعة ، وكثيراً ما تغطى أرضها بالثلوج ، وقد أدى هذا إلى كآبته ، وانقباضه ، وإلى كبت وحرمان ، فنما عقله الباطن ، وتساقطت فيه رغبات كثيرة لم تحقق له ، ولذلك كثرت أحلامه وخيالاته وآماله •

كما أن هذه البيئة حببت إليه العمل حتى صار طبعاً له محبوباً لذاته ، ينزل من نفسه منزلة الهواء الذي يتنفسه ، والماء الذي يشربه ، والطعام الذي يغذيه ، كما أورثته البطء في التفكير ، فليس له ذلك الذكاء اللمّاح الذي تراه عند الفرنسي ، حتى أصبح الإنجليزي يكره التفكير النظري المنطقي • إنهم يعملون ولا يجهدون أنفسهم في التفكير في عاقبة أعمالهم ومن أمثالهم المشهورة (انتظر وترقب ما يحدث) •

وهذه البيئة الصارمة أورثتهم المحافظة على التقاليد والتدين • ولا شك أن الوحدة والانفراد ــ وهما أثر من آثار الكآبة والانقباض ــ جعلتهم يكثرون من نجوى أنفسهم ومن التأمل في الحياة وخلقها وخالقها ، وربما رجع هذا الميل إلى التدين والتمسك الشديد بالتقاليد إلى أصلهم السكسوني ؛ وبينا ترى الفرنسي يعيش في عالم الواقع ويبحث دائماً في تصرفات الإنسان ويحللها ، ترى الألماني السكسوني يتجه دوماً نحو الله ، ونحو أسرار هذا العالم الخفي • وقد صبغت الرومانتيكية الألمانية في القرن الثامن عشر بالبحث فيما وراء الطبيعة ، واشتهرت بقصص الجن والشياطين ، والمفزعات من كل نوع ، وأخذ الإنجليز عنهم هذا النوع من القصص وأحبوه ، وفتنوا به[1] ، وقد ورث عنهم الإنجليز هذا الميل وزاده

(١) راجع : C. M. Bowra, The Romantic Imagination p. 51

تثبيتاً طبيعة بلادهم المقبضة • وتدينهم أورثهم التزمت والجد في الحياة ، والخجل المفرط من كل ما يشين ، وقد يخطئون ويخالفون القانون ، ولكنهم يتسترون ، ويخشون العار والفضيحة ، ولذلك ساد بينهم نوع من النفاق الاجتماعي ، يسيطر على كثير من تصرفاتهم • كما اشتهروا بضبط النفس وقلة الانفعال ، لأنهم تعودوا الكبت ، ومغالبة الرغبات •

وإذا درست المجتمع الفرنسي وجدته مجتمعاً يحب المرح ، والصخب ، ولذلك يفضل حياة (الصالون) والمقهى ، وفي الصالون يسود الذكاء ، والنكتة ، وحسن التعبير ، والتفكير الفلسفي ، ولا يحوي المنزل الفرنسي أشخاصاً (انفراديين) ، يغلب عليهم الجد والكآبة ، ولكنه منزل تنطلق فيه الألسنة بحرية وصراحة ، ومجتمعهم تسود فيه اليقظة ، وعدم الخجل مع مراعاة الآخرين والالتفات إلى أذواقهم ، ورغباتهم •

وفي الصالون تكون الرئاسة لسيدة ، وفي حضرة السيدات تحسن المجاملة ، والرقة ، والبساطة ، والوضوح ، والذكاء ، والنكتة ، ومثل هذا المجتمع لا يجد وسيلة للتعبير أحسن من النثر ، لأن النثر يمتاز بالسلاسة ، والبسط والإيضاح ، والسهولة ، وذلك لأن شاعر الصالون مشغول دائماً بسواه وقلما يفرغ لقلبه ، وبهذا نستطيع أن نقرر : أن الإنجليز فاقوا الفرنسيين في الشعر ، وفاقهم الفرنسيون في النثر • فاق الإنجليز في الشعر لأنهم مكبوتو العواطف ، والشعر ينفس عنهم ؛ لأن العنصر الغالب فيه لا شعوري ، ومهما يبلغ الخجل بنفس إنسان ، فإنها تستطيع أن تقف عارية مكشوفة أمام اللاشعور ، دون أن تحس بأدنى خجل • ولأنهم انفراديون، يؤثرون العزلة ، أكثر من التأمل في الطبيعة ، والطبيعة منبع الشعر ، ومصدر إلهامه • ولأنهم منقبضون ، جاء أدبهم مشوباً بالكآبة حتى في أغانيهم ، ولذلك نبغوا في المآسي العنيفة ، وقد لاحظ ذلك (رابين) Rapin الفرنسي فقال : « يمتاز الإنجليز بعبقرية في (المآسي ــ التراجيديا) تساعدهم على ذلك طبيعتهم التي تعجب لفظائع الأمور ، وامتياز لغتهم بالتعبيرات الفخمة » •

أما الشاعر الفرنسي فهو في يقظة عقلية ، وبيئة واضحة ، يحب الاجتماع والحديث ، ولذلك لا يعرف الرهبة ولا الأحلام الشاردة ، ولا الخيال الشاذ ، وتعجه

حياة الصالون فيعبر عن آرائه برفق وهوادة ، مراعياً أن يفهمه سامعوه ليعجبوا به .

وليس معنى هذا أن فرنسا لم ينبغ فيها شعراء ، وأن إنجلترا لم يتفوق فيها كتاب ، ولكن هذه هي الصفة العامة للأدبين . وقد عبر أناتول فرانس عن نظرة الفرنسيين للشعر بقوله : « من المحقق أننا نحب الشعر ، ولكننا نحب فيه طابعاً خاصاً ، فنحن ، نريد شعراً فصيحاً ، ولكن ليس الغرض من الفصاحة مجرد الإغراب في الخيال » .

استطاع النثر الإنجليزي في القرن الثامن عشر أن ينافس النثر الفرنسي ، وظهر في انجلترا من الكتاب العظام أمثال پوب ، وسوِفت ، وإديسون ، وصامويل جونسون ، ووليام كوبر وغيرهم ، كما أن الشعر الفرنسي قد بلغ القمة على يد راسين ، ولامارتين ، وبودلير وغيرهم ، ومن هذا نرى أن ما سقناه من الموازنة بين الأدبين إنما هو القواعد العامة والصفات الغالبة(١) .

ولست أريد التوسع في هذه الدراسة ، فإنها لا تعنينا إلاّ بهذا القدر الذي يوضح لنا الفرق بين الخصائص العامة للمدرستين الإنجليزية والفرنسية ؛ لأن ثقافة أدبائنا المحدثين أخذت عنهما ، أو اكتفت بواحدة منهما ، وقد كان لها أثرها في الأدب وفي جمهرة القراء المثقفين الذين يحبون الأدب الرفيع ، لأن الثقافتين كما علمت في الفقرة الأولى كانتا في صراع طويل على السيادة في مصر .

تأثر بعض أدبائنا بالثقافة الفرنسية ، وبمذاهب الأدب الفرنسي الذي ساد في القرن التاسع عشر . وظهر ذلك في أسلوبهم الشعري ، وفي معانيهم ، وفي خيالاتهم ، ومن هؤلاء إسماعيل صبري ، وشوقي ، ومطران ، وعلي محمود طه ، وشيبوب . ومن الذين تأثروا بطابع المدرسة الإنجليزية العام : شكري ، والعقاد ، والمازني ،

---

(١) راجع في هذا البحث :

(1) Studies French and English, by F. L. Lucas.
(2) A Comparison of Literatures, English, French, German and American, by R. D. Jameson.
(3) A Critical Survey of French and English Literary Ideals in the Eighteenth Century, by F. Green.
(4) World Literature, by Moulton.
(5) Some Principles of Literary Criticisim, by Winchester.
(6) The Romantic Agony by Maria Praz Translated from Italian by A. Davidson.

(٧) رسالة الأستاذ الطيب حسن عن أثر الثقافة الغربية في الأدب المصري الحديث (مخطوط) .

وأبو شادي ، والصيرفي . وسنرى عند الكلام عن كل شاعر إلى أي حد أفاد من اطلاعه على هذه الثقافة أو تلك . وقد يتوهم بعضهم أن مطران مترجم شكسبير يعرف الإنجليزية ويجيدها إلى حد ترجمة روائع الأدب فيها ، والحق أن مطران نقل روايات شكسبير عن الفرنسية[1] . كما قد يظن بعضهم أن رواية كليوباطرة لشوقي أثر من آثار قراءته لشكسبير أو برناردشو ، وعندي أنها أثر من آثار المسرح الفرنسي كما أشرنا إلى ذلك آنفاً ، وكما سنرى فيما بعد .

لقد بلغ هذا التأثر ببعض شعرائنا إلى حد السطو على الشعر الغربي ، ونقل القصيدة موضوعاً ، وعنواناً ، وأبياتاً ، أو على الأقل معظم الأبيات[2] .

وقد أحصى إسماعيل أدهم مئات الصور الشعرية والمعاني التي أخذها مطران من الأدب الفرنسي[3] .

— ٩ —

ومهما يكن من أمر فإن هؤلاء الشعراء والنقاد المجددين قد وجّهوا الشعر العربي الحديث وجهة جديدة ، وحسبنا أن نقول مع الدكتور طه حسين : « ومهما قيل من القدح في شعر هؤلاء الشعراء المجددين الذين تثقفوا ثقافة غربية ، فإنهم يكفيهم شرفاً أنهم ابتعدوا بالشعر عن الأغراض المادية ، وأننا حين نقرأ أشعارهم نرى فيها شخصية لها وزن وقيمة ، وعقلية تفكر ، وتعرف كيف تعلن عن تفكيرها للناس »[4] .

لقد كان بجانب هؤلاء جميعاً أنصار المدرسة القديمة في النقد ، يعنون بالنقد اللغوي ، وصحة الألفاظ والتراكيب ، ومقاييس البلاغة العربية ، وأوجه الاستعارة والمجاز والتشبيه ، كما كان يفعل نقاد العرب قديماً ، ويحملون على هذه المذاهب الجديدة ، وعلى الشعر الضعيف الذي توحي به ، أو على الشعر التقليدي ، والسرقات التي أخذت من الشعراء الأقدمين .

---

(١) ميخائيل نعيمة في الغربال ص ١٧١ .

(٢) راجع مقدمة الجزء الثاني من ديوان المازني ، وراجع رسائل النقد لرمزي مفتاح ، ومقدمة رسائل النقد لجبران سليم ص ـ د ، ومقدمة الجزء الخامس من ديوان عبد الرحمن شكري (ص ٦ ـ ٧) وقد اثبتت القصائد المسروقة ، وما يقابلها .

(٣) راجع إسماعيل ادهم عن مطران ص ١٤٧ ـ ١٤٨ .

(٤) حافظ وشوقي ص ١٤٥ .

فمن النقاد اللغويين الذين اشتهروا إبراهيم اليازجي في نقده لشعر شوقي ، وإبراهيم المويلحي في نقده لشعر شوقي[١] والرافعي في نقده لشعر العقاد ولشعر شوقي[٢] ، والعقاد في نقده لشعر شوقي ، والمازني في نقده لشعر شكري[٣] ، وطه حسين في نقده لشعر حافظ وشوقي[٤] . على أننا نظلم الرافعي إذا أدرجناه ضمن أنصار المدرسة القديمة في النقد ، تلك التي عنيت بالنقد اللغوي دون سواه . فالحق أن للرافعي آراء جديدة كل الجدة في نقد الشعر ، وهو لا ينتسب في نقده لمدرسة من المدارس إنجليزية أو فرنسية ، وإنما كان نقده وليد بصيرته النفاذة ، وطبعه الصافي ، وتأثره بالحركة التجديدية المعاصرة له بعض التأثر .

فتجده مثلا يعيب الشعر العربي القديم بعدم تماسك قصائده ، بحيث لا تكون وحدة تامة البناء ، وبعدم النظرة الشاملة للكون لدى الشعراء ، بل نراهم يعنون بالجزئيات دون الكليات ، وبقلة التفكير والعمق فيه بوجه عام ، استمع إليه حيث يقول :

« حتى الطبيعة تظهر في الشعر العربي كأنها قطع مبتورة من الكون داخلة في الحدود لابسة الثياب ؛ ومن ذلك ينبغ الشاعر وليس فيه من الإحساس إلا قدر نفسه لا قدر جمهوره ، وإلا ملء حاجاته لا ملء الطبيعة ؛ فلا جرم يقع بعيداً عن المعنى الشامل المتصل بالمجهول ويسقط بشدة على صور فردية ضيقة الحدود ، فلا تجد في طبعه قوة الإحاطة والتبسط والشمول والتوفيق ، ولا تؤاتيه طبيعته أن تستوعب كل صورة شعرية بخصائصها فإذا هو على الخاطر العارض يأخذ من عفوه ولا يحسن أن يوغل فيه ، وإذا هو على نزوات ضعيفة من التفكير لا يطول لها بحثه ، ولا يتقدم فيها نظره ، وإذا نفسه تمر على الكون مراً سريعاً ، وإذا شعره مقطع قطعاً ، وإذا آلامه وأفراحه أوصاف لا شعور ، وكلمات لا حقائق ، وظل طامس ملقى على الأرض إذا قابلته بتفاصيل الجسم الحي السائر على الأرض »[٥] . وهذا ولا ريب حكم قاس كل القسوة يصدره الرافعي ضد الشعر العربي وهو من هو في دفاعه عن

(١) راجع مختارات المنفلوطي ، وشوقي للأمير شكيب ارسلان .
(٢) راجع على السفود ، ووحي القلم الجزء الثالث .
(٣) الديوان في النقد والأدب للمازني والعقاد جـ ١ ، ٢ .
(٤) حافظ وشوقي .
(٥) وحي القلم الجزء الثالث ص ٣٥٠ .

العروبة . ولقد ناقشنا هذا الرأي في كتابنا النابغة الذبياني فلا نرى داعياً لتكرار ما قلناه ثمة ، ولعلك رأيت أن الرافعي لا يقل ثورة عن هؤلاء النقاد الثائرين ، ولقد عني في أول حياته بالشعر ، وطمع في أن يكون أمير الشعراء ، وهو من شعراء المعاني الذين اهتموا بها كل الاهتمام يؤدونها بأي لفظ تهيأ لهم ولذلك جاء في شعره كثير من السقط ، المهلهل النسج .

ويرى الرافعي أن العلم والتجربة وكثرة الأسفار ضرورية للشاعر تغذي فكره وتجدد نشاط خياله وعقله وتلهمه الصور وذلك حيث يقول : « إنما قوة الشعر في مساقط الجو ففي كل جو جديد روح للشاعر جديدة . والطبيعة كالناس ، هي في مكان بيضاء وفي مكان سوداء ، وهي في موضع نائمة تحلم ، وفي موضع قائمة تعمل ، وفي بلد هي كالأنثى الجميلة ، وفي بلد هي كالرجل المصارع ، ولن يجتمع لك روح الجهاز العصبي على أقواه وأشده إلا إذا أطعمته مع صنوف الأطعمة اللذيذة المفيدة ألوان الهواء اللذيذ المفيد »[١] .

وإذا كان الرافعي قد عني بالعبارة وبالألفاظ حتى نسب إليه أنه من نقاد المدرسة القديمة فإن له نظرات نقدية جديدة في وقت مبكر من حياته الأدبية ، وأظهر ما ترى ذلك في كتابه «تاريخ آداب العرب» ومن ذلك قوله : «إن جودة الكلام ترجع إلى ما فيه من أسرار الوضع اللغوي الذي تعتمد على إبانة المعنى في تركيب حي من الألفاظ يطابق سُنَنَ الحياة في دقة التأليف وإحكام الوضع وجمال التصوير وشدة الملاءمة[٢] .

ولكن هذه الملاءمة لا تعتبر في اللغة ومتعلقاتها بقدر اعتبارها في التوفيق بين أجزاء الشعور وأجزاء العقل على أتمها في الجهتين فيلتقي حينئذ البيان والعقل والشعور[٣] .

وجودة الكلام تكون بتخير حر اللفظ وأنسبه ، وبتخير نادر المعنى وتمكنه . وتكون بخلوه من الإحالة والاستكراه والحشو والسفساف ، والضعف والهلق ، وبتميزه بالوضوح وبتوكيد معناه بالترادف ودنو المأخذ ، وإصابة السر ، وعدم

(١) وحي القلم الجزء الثالث

(٢) تاريخ آداب العرب ج ٧ ص ١٥٧ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٨٥ .

تكلف الصنعة إلا ما جاء عفو البديهة ، ثم تمييزه بالسهولة والابتكار ، وبالتناسب الموسيقي في حروفه وكلماته[1] » .

ومن اللمحات النقدية الطريفة مناداته بأن يمثل الشعر المعاني النفسية الخاصة والعامة ، وهذه متأثرة بالحياة ، وإذاً فالشعر تمثيل حقيقي للحياة ، وفي هذا التمثيل خلوده[1] . وكذلك فهو تمثيل حقيقي للشاعر ، ولذا فإن دراسة أخلاق الشاعر وحياته عامة مهمة لتفسير شعره .

ورأى أن الشعر لا يتسع لبسط المعاني . فإذا بسطت فيه وشرحت سقطت مرتبته من الشعر وأصبح نظماً كنظم المتون[2] ودعا الرافعي[3] إلى الاهتمام بجوهر الشعر وروحه لا إلى قشوره وظواهره ، وأن تكون نظرة الشعراء شاملة لا جزئية . وذمّ التكلف الذي يفرض فيه الفكر على الإرادة ، والإرادة على العاطفة ، فلا تصدق العاطفة ، ولا تخلو من الغلو ، وذمّ كذلك التكلف الذي يأتي من عبادة الأوزان ، وتقليد القدماء في صورهم ومعانيهم .

ورأى أن المعاني في الشعر لا تضيء إلاّ بشعاع من الخيال ، فهو يريد من الشعر أن يكون تصويراً للطبيعة ملونا بالعاطفة حتى يؤثر في نفس السامع والقارىء .. إلى غير ذلك من الآراء النقدية التي لا تقل تحرراً عن المدارس الجديدة في النقد .

وقد وضح الرافعي طريقه في نقد الشعر وكيف ينظر إليه بقوله : « وأنا حين أكتب عن شاعر لا يكون همي إلا البحث في طريقة ابتداعه لمعانيه ، وكيف ألمّ وكيف لَحَظ ، وكيف كان المعنى مَنبَهةً له ، وهل ابتدع أم قلّد ، وهل هو شَعَر بالمعنى شعوراً فخالط نفسه وجاء منها أم نقلاً فجاء من الكتب ، وهل يتسع في الفكرة الفلسفية لمعانيه ، ويدقق النظرة في أسرار الأشياء ، ويُحسن أن يستشف هذه الغيوم التي يسبح فيها المجهول الشعري ، ويتصل بها ويستصحب للناس من وحيها ، أم ان فكره استرسال وترجيم في الخيال وأخذ للموجود كما هو موجود في الواقع ؟ وبالجملة هل هو ذاتية تمر فيها مخلوقات معانيه لتُخلق فتكون لها مع

---

(١) نفس المصدر ص ٢١٤ ، وص ٢٢٤ .

(٢) تاريخ آداب العرب جـ ٣ ص ٧٢ .

(٣) رسائل الرافعي ص ٦٧ .

(٤) مقدمة ديوان الجزء الثالث الصادر سنة ١٩٠٨ .

الحياة نفسها حياة من نفسه أم هو تبعية كالمسمار بين طرفين يكون بينهما وليس منهما ولا من أحدهما »[١] . وأنت ترى من هذا أن الرافعي يطلب من الشاعر أن يستشف أسرار الحياة وأن يبتكر المعاني ويجدد فيها ويشعر بالوجود شعوراً عميقاً يخالط نفسه ، وتراه لا يستحسن الأدب الواقعي الذي ينقل الحياة كما هي دون أن يتأثر بها . ويرى الرافعي أن حركة التجديد في الشعر قد أفادته على الرغم مما بها من سوءات ، ومما جرته على الشعراء . استمع إليه يقول : « وعلى ما نزل بالشعر العصري فقد استقلت طريقته وظهر فيه أثر التحول العلمي والانقلاب الفكري وعدل به أهله إلى صور الحياة بعد أن كان أكثره صوراً من اللغة ، وأضافوا به مادة حسنة إلى مجموعة الأفكار العربية ؛ ونوعوا منه أنواعاً بعد أن كان كالشيء الواحد ، واتسعت فيه دائرة الخيال بما نقلوا إليه من المعاني المترجمة من لغات مختلفة »[٢] .

وللرافعي غير ذلك آراء كثيرة في نقد الشعر تحتاج إلى فصل خاص فحسبنا ما ذكرناه .

وظلت الصياغة وجودتها تجد من يدافع عنها ، وعن الموسيقى في الشعر من أمثال الأستاذ الزيات[٣] والرافعي ، والمنفلوطي وأساتذة دار العلوم والأزهر .

وكانت الثمرة الطبيعية لكل هذه الآراء في النقد وفي توجيه الشعر أن تعددت مدارسه : فمدرسة آثرت الشعر التقليدي العربي في روحه ومعانيه ، وتشبيهاته وأخيلته ، وموضوعاته وصياغته ، وإن لم تنج من التأثر بمظاهر الحضارة ، والنهضة القومية ، وتوجيه النقاد ، ومن هؤلاء : عبد المطلب ، وتوفيق البكري ، والجارم ، وإسماعيل صبري ، وحافظ ابراهيم ، وأحمد محرم . ومدرسة جمعت بين القديم والجديد ، أخذت من الأول حسن الصياغة ، وطريقة القصيدة ، وتأثرت بالشعراء القدامى في موسيقاهم ومعانيهم ، وعارضتهم ، وأخذت من الجديد بطرف في الموضوعات ، والتشبيهات وأحياناً في القالب ، وانفعلت بحوادث عصرها من مثل شوقي وعلي محمود طه المهندس . ومدرسة قلدت ، ثم جددت باعتدال دون خروج

---

(١) وحي القلم جـ ٣ ص ٣٥٠ .
(٢) وحي القلم جـ ٣ ص ٣٧٩ .
(٣) راجع دفاع عن البلاغة للزيات ، ووحي الرسالة جـ ١ ، ٢ .

في الجملة على قواعد اللغة من أمثال مطران ، وشكري والعقاد والمازني وأبي شادي ، والصيرفي ، وشيبوب . ومدرسة آثرت أن تنحو النحو الغربي وتهجر كلَّ ما يمت إلى الشعر العربي بصلة ، ومن هذه المدرسة بعض شعراء المهجر .

أما شعراء الشباب ففيهم نزعات كثيرة لم تتركز بعد ، وهم يقلدون عدة مدارس غربية تقليداً لم يصدروا فيه عن حاجة طبيعية ، أو ضرورة اجتماعية ، أو سياسية كما فعل شعراء أوربا بـل أمعنوا في التجديد والتقليد فصار منهـم الرمزيون والسرياليون ، والواقعيون ... إلى غير ذلك من المذاهب التي ما أنزل الله بها من سلطان في مصر .

وجدَّت منذ سنوات معدودة بدعة النظم بالشعر الحر المبني على التفعيلة ففيه ضرب من الموسيقى ولكنه متحرر من القافية والبحور ، وأغلب الذين أقبلوا عليه من شعراء الشباب والشادين في الأدب . ولا يزال في موضع التجربة ، ولم يأت بعد الشاعر القوي الذي يلفت الأنظار إليه ويجذب الأسماع نحوه ويضع هذا الضرب من الشعر في منزلة الأدب الرفيع ، ولنا إلى كل هذه المذاهب عودة عند الكلام على مدارس الشعر في الأجزاء التالية إن شاء الله .

ورأى بعض العلماء حين تعددت مذاهب النقد ، ومدارس الأدب ، وتناول النقدَ الأدبي من لا يستطيعه ، ومن لا يحكم فيه إلا ذوقه ، الذي قد يكون مصقولا ، يغذيه علم وسعة اطلاع ، وقد لا يكون مصقولا ، ولا يعرف شيئاً في الأدب العربي القديم أو الحديث ـ رأى هؤلاء العلماء أن الحاجة ماسة إلى وضع كتب في النقد الأدبي وتبيان أصوله ، فترجم الدكتور محمد عوض (النقد الأدبي) لأوبر كرومبي ، ووضع الأستاذ أحمد الشايب كتاب أصول النقد الأدبي متأثراً فيه بكتاب Winchester في أصول النقد ، وظهر في السنوات الأخيرة (في الأدب والنقد) و (الميزان الجديد) للدكتور محمد مندور ، و (من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده) لمحمد خلف الله ، و (دراسات في علم النفس الأدبي) لحامد عبد القادر ، و (الأصول الفنية للأدب) لعبد الحميد حسن ، والمدخل إلى النقد الحديث للدكتور غنيمي هلال.

الفصل الرابع

الشعر بعد البارودي

وثب البارودي بالشعر وثبة عالية ردت إليه ديباجته المشرقة المتينة ، وأغراضه الشريفة ، ومعانيه السامية ، وحررته ــ كما ذكرنا ــ من الغثاثة والركة ، وقيود البديع المتصنع وحلاه المسترذلة • وكان للبارودي مدرسة قوية تتلمذ عليه فيها شعراء نجباء ، فجاروه في متانة أسلوبه والبعد عن مظاهر الضعف ، واختلفوا بعد ذلك عن أستاذهم تبعاً لاختلاف ثقافاتهم ، ومواهبهم الشعرية ، وتأثرهم بأحداث زمانهم •

كثر عدد الشعراء بمصر في مستهل القرن العشرين ، والربع الأول منه ، وقد تباينوا حظاً في الشهرة وإدراك المجد ، وخلفوا لنا جميعاً تراثاً زاخراً بالثروة الأدبية ، جعل مصر في مقدمة الشعوب العربية في الشعر • وقد تضافرت عدة عوامل عامة على تجويدهم ، وبروزهم ذكرناها آنفاً ؛ وخير شعراء العصر الحديث هم المخضرمون الذين أدركوا القرن التاسع عشر ، وشهدوا النهضة في مستهلها ، وتثقفوا ثقافة عربية قوية في بدء نشأتهم ، ثم عاشوا في القرن العشرين ردحاً من الزمن ، وشهدوا الوثبات الوطنية الرائعة والأحداث المحلية المثيرة ، والتطور العلمي فكراً ومادة •

وإذا نظرنا إلى الشعر في هذه الحقبة نظرة عامة من حيث أغراضه نجد بعض القديم منها قد اندثر ، وعفى عليه الزمن ، وبعضها قد تجددت معانيه ، ودبت فيه روح جديدة ، وبعضها قد ابتكر ، ولم يعرف عنه العرب الأولون شيئاً •

فمن الأغراض التي كانت رائجة في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن العشرين، وكان لها شأن كبير في شهرة الشاعر ، وحظه من المجد ــ المديح ــ ولا نجد شاعراً مخضرماً لم يمدح ؛ وكانت جهات المديح متعددة ، فالخليفة في الآستانة ينتظر من شعراء العربية المسلمين ــ بل وغير المسلمين ــ أن يرفعوا إليه مدائحهم يصفونه فيها بكل جليل عظيم من المكرمات وهو عنها عار ومنها براء ، والأمير في مصر قد جعل له

شاعراً خاصاً يتغنى بأعماله ويشيد بذكره في كل مناسبة ، والوزراء والعظماء ينتظرون من الشعراء مثل هذا المديح . وقد غالى الشعراء في مديحهم ، وساروا فيه على سنن الأقدمين من افتتاح القصائد بالغزل المتكلف ، ثم وصف الممدوح بالكرم والشجاعة وغير ذلك من الصفات التي استنفد شعراء الماضي كل معانيها . ولقد كان هذا الغرض هدفاً لهجمات النقاد المريرة ، ولوم الشعراء لوماً شديداً على عكوفهم عليه في عصر يجب أن يتطلع فيه الشاعر إلى الشعب لا إلى الأمراء والخلفاء ، ويجب أن يبني مجده على شاعريته ومواهبه باستنباط المعاني الجديدة ، ومجاراة الحياة التي يعيش فيها ، لا على التمسح بأعتاب الملوك والأمراء ، وبنظرته العامة إلى الإنسانية لا بنظراته الفردية المحلية . وقد أثمرت هذه النقدات ثمرتها ، وانصرف معظم الشعراء الذين كلفوا بالمديح الشخصي حيناً إلى غيره من أغراض الشعر ، وإذا مدحوا فلبطولة فائقة، أو لغرض شعبي عام ، أو لعمل وطني جليل ، أو ذهبوا إلى التاريخ يستوحونه أمجادهم ومفاخرهم . والمدح كما يقول الرافعي[1] « إذا لم يكن باباً من التاريخ الصحيح لم يدل على سمو نفس الممدوح بل على سقوط نفس المادح ، وتراه مدحاً حين يتلى على مسامعه ، ولكنه ذم حين يعزى إلى قائله ، وما ابتليت لغة من اللغات بالمديح والرثاء والهجاء ما ابتليت هذه العربية » .

ومن الأغراض التي أماتها استنكار النقاد ، والعرف العام ، والحياة العصرية وما فيها من قوانين مدنية تعاقب المعتدين على أعراض الناس ، النهاشين لها : الهجاء . ولم يبق منه إلا مداعبات لطيفة فيها تهكم وسخرية وتصوير ، لا تتناول المحارم والأعراض ، ولا تقذع ولا تفحش ، وإنما تعتمد على النكتة اللاذعة ، والتصوير البارع ، وإذا احتدم الهجاء بين الشعراء أفحشوا ولكنهم يستحيون من تدوينه وإنما يتناقله الرواة شفاها ، وكأنهم يخشون أن يؤثر عنهم في عصرنا هذا .

ومن الأغراض التي كادت تندر : الحماسة ، وإذا كان البارودي قد أبدع في الحماسة وأعادها قوية مشبوبة الأوار ، لماعة السيوف كما كانت في عهد البطولة العربية الأولى ، فإنه كان فارسا خاض غمرات الحروب ، وشهد المعامع وصيال الخيول ، وقصف المدافع . أما الذين أتوا بعده فإن أتوا بشيء من الحماسة في شعرهم فذلك عن تقليد لا عن أصالة . وكثيراً ما تثير ذكريات الماضي وما فيها من صور رائعة

---

(١) وحي القلم ج ٣ ص ٣٨٤ .

البطولة والحماسة في نفوسهم ، فيصفون هذا الماضي ، وما كان فيه من أحداث جليلة ، وما قام به الفرسان من أعمال • على أن هناك ما صرفهم عن الحماسة ، وأشبع نفوسهم من هذه الناحية ألا وهو الشعر الوطني القومي ، وسنأتي على ذكره بعد قليل •

ومن الأغراض التي اضمحلت ، وحبا بريقها من القصائد ، وقد كان لها شأن أي شأن في القديم ، وعند البارودي : الفخر • كان الشعراء في الجاهلية ، وفي الإسلام فرسانا شجعاناً أشرافا ، فكان من الطبيعي أن يتغنوا بمفاخرهم ومفاخر قبائلهم ، وأعمالهم ، ثم افتخر الشعراء بعد ذلك بشعرهم وباهوا بمواهبهم • ولكن العصر الحديث بعد بالشاعر عن ميادين القتال ، ولم يعد ذلك الشاعر الذي يُدلِّ بأعماله من كرم ونجدة ، ويدل بأعمال قبيلته ، بل انقلب الفخر إلى شيء آخر هو ما سيظهر في الشعر الوطني ، يشيد فيه الشاعر بأمجاد أمته وتاريخها كما فعل شوقي مثلا في ملاحمه العربية والإسلامية •

أما الغزل فقد احتل المقام الرفيع عند الشعراء ، وإن سار كثير منهم في أول الأمر سيرة الأولين وقلدوهم في الأوصاف المادية ، وفي تشبيهاتهم • ولكنه ما لبث أن دخل عليه شيء كثير من تحليل العاطفة ، وتصوير نزوات النفوس ، وفتقت فيه المعاني ـ وإن جنح عند بعض الشعراء المحدثين الذين ظهروا في أعقاب الحرب العالمية الأولى حتى اليوم ، إلى الشهوة والتخنث والإسفاف •

ولقد تباين الشعراء في هذا الفن فمنهم من تكلفه تقليداً للقدماء ، وإرضاء لفنه الشعري دون أن يصدر عن عاطفة أو هوى ، ولذلك جاء شعراً جافا خلوا من الأحاسيس تلمس فيه أثر الصنعة ، ومنهم من صدر فيه عن نار مشبوبة بين جوانحه فنفثه معنى جميلا ، ونظماً رقيقاً ، وصوراً زاهية طلية ، تنبض بالحياة ، لا تماثيل جامدة لا تتحرك ولا تحس فيها أثراً من الشعور • وقد اشتهر من بين شعراء الغزل شوقي ، وإن كانت الصنعة والتكلف ، وفقدان العاطفة قد غلب على ما قاله ، كما اشتهر به إسماعيل صبري وهو كذلك لا يصدر عن وجدان صادق كما سترى في ترجمته •

ومن اشتهر بالتجديد في هذا المضمار ، وبرع فيه براعة فائقة حتى سمى نفسه

أو سماه الناس : شاعر الهوى والجمال مصطفى الرافعي وله فيه معان علوية خالدة جاء بعضها شعراً منظوماً ، وأكثرها شعراً منثوراً .

ومن قصائده في الغزل هذه القصيدة ، وهو يعبر فيها عن حاله وأنه كان متعففاً في حبه تعصمه أخلاقه ودينه ، ولذلك اشتدت صبوته وحرمانه .

وهو في هذه القصيدة ينعي على هؤلاء الذين يحبون ونفوسهم تطفح بالشهوة وفي هذا ازدراء للحبيب ، فالحب تضحية وعبادة .

مَنْ للمحب ومَنْ يعينُه والحب أهنأه حزينُه
أنا ما عرفتُ سوى قسا وته فقولوا كيف لينُه
إنْ يَقْضِ دَيْنُ ذوي الهوى فأنا الذي بقيتْ ديونه
قلبي هو الذهب الكَرِ يمُ فلا يفارقه رنينُه
قلبي يحبُّ وإنما أخلاقه فيه ودينُه

. . .

يا من يحبُّ حبيبه وبظنه أمسى يهينه
وتعفُّ منه ظواهر لكنه نجسٌ يقينه
إن تنقلب لص العفا ف لمن تحبُّ فمن أمينُه
ما لذة القلب المدلَّه لا يطول به حنينُه ؟
الحب سجدةُ عابدٍ ما أرضُه إلاّ جبينُه
الحب أفق طاهر ما إن يُدَنِّسُه خَئُونه

ومنهم عبد الرحمن شكري وكان بئيساً في حبه كثير الشكوى والوله وله فيه معان جديدة وطريفة ، من ذلك قوله :

ليس جسمي الذي ترون ولكن ذاك قبر لما تكنّ الضلوع
من شجون ولوعة وادكارٍ وهموم تنم عنها الدموع

وقوله :

شكوت إليه ذلتي فتحكما وأرسلت دمعي شافعاً فتبرما

وقال له الواشون : أنت وصلته ... ببعثك طيفاً في الكرى فتظلما
وخُبِّرَ أني قد تخيلت أنني ... تزودت منه قبلة فتألما
وخُبِّرَ أني سوف أخلس نظرة ... إليه فأضحى بالحياء ملثما
وإني لأهوى أن أموت لعله ... إذا مرَّ ذكري في الحديث ترحما

وكان غزله كله يفصح عن حرمان وألم •

ومن هؤلاء الذين نسجوا على هذا المنوال ، وكان غزلهم نغماً حزيناً ، وألماً وشجناً ابراهيم ناجي ، وفي قصيدة (العودة) يتغنى بذكرياته الحزينة لمرتع صباه ومجالي لهوه وما كان له من حب ذوى قبل أوانه •

رفرف القلبُ بجنبي كالذبيح ... وأنا أهتف : يا قلبُ اتئدْ
فيجيب الدمعُ والماضي الجريح ... لمَ عُدْنا ؟ ليتَ أنّا لم نَعُدْ
لم عُدْنا ؟ أوَلم نطو الغرامْ ... وفرغنا من حنين وألمْ
ورضينا بسكون وسلامْ ... وانتهينا لفراغٍ كالعدمْ
موطن الحسن ثوى فيه السأم ... وسرتْ أنفاسه في جوِّه
وأناخ الليلُ فيه وجثَمْ ... وجَرَتْ أشباحُه في بَهوِه
والبلى أبصرتُه رَأيَ العيانْ ... ويداه تنسجان العنكبوت
صحت : يا ويحك تبدو في مكان ... كل شيء فيه حي لا يموتْ
كلُّ شيء من سرور وحَزن ... والليالي من بهيج وشجي
وأنا أسمع أقدامَ الزَّمنْ ... وخُطى الوحدة فوق الدَّرَج

أما الخمر ومجالس اللهو : فقد برع فيهما طائفة من الشعراء من أمثال شوقي وعلي محمود طه ، وحافظ ، إلا أن شوقي أجاد وصف المراقص العصرية في خمرياته ، وأجاد علي محمود طه في وصف أويقات الأنس في مغاني أوربا وأبدع في تصويرها •

ومن ذلك قوله يصف ليلة قضاها على ضفاف نهر (الرَّين) :

كنزٌ أحلامك يا شاعر في هذا المكانِ
سحرٌ أنغامك طوَّافٌ بهاتيك المغاني
فجر أيامك رفّافٌ على هذي المحاني
أيُّها الشاعر ، هذا الرَّين ، فاصدح بالأغاني

كلّ حَيٍّ وجماد ها هنا هاتفٌ ، يدعو الحبيب المحسنا
يا أخا الرُّوح ، دعا الشوق بنا فاسقنا من خمرة الرين اسقنا

عالمُ الفتنة يا شاعر أم دنيا الخيالِ ؟
أمروجٌ علّقت بين سحاب وجبالِ ؟
ضحكت بين قصور كأساطير الليالي
هذه الجنة فانظر أي سحرٍ وجمالِ

يا حبيب الروح يا حُلم السنا هذه ساعتنا ، قم غنّنا
سكر العشاق إلا أننا ... فاسقنا من خمرة الرَّين اسقنا

ومن الأغراض التي صار لها مقام مرفوع في الشعر الحديث الوصف بعامة ، ووصف الطبيعة بخاصة والوصف من أسمى ضروب الشعر ، لا تنفق الإجادة فيه والإكثار منه إلا إذا كان الشعر حيا ، وكانت نزعة العصر اليه قوية ، وكان النظر فيه صحيحاً . والإجادة في الوصف تدل على شاعرية قوية ، لأن الشاعر لا تدفعه إليه رغبة أو رهبة ، وإنما يدفعه إليه انفعاله وحساسيته بما يحيط به . وقد اختلف الشعراء في نظرتهم إلى الطبيعة اختلافاً بيناً : فمنهم من يرى وجهها الضاحك ، ورياضها المزدهرة ، وأطيارها المغردة ، وشمسها الضاحية ، ونجومها الزاهية ، ومروجها الخضراء ، ومياهها الندية ، وأريجها الشذي ، ومنهم من يرى وجهها العابس ، فلا يحس إلا ليلها الأسود ، وسماءها الملبدة بالغمام ، وريحها الزفوف ، وأعاصيرها الجارفة ، وبراكينها التي تصب الحمم ، وزلازلها المدمرة ، وأمطارها العنيفة ، ومفاوزها المهلكة .. إلى غير ذلك ، ومنهم من يراها في كلا وجهيها ، فينتشي طرباً حين تصفو وتحلو وتشرق ، ويكتئب حين تزمجر وتغضب ، وترينا

وجهها الكالح . ثم هم بعد ذلك كله يختلفون في تصويرها فبعضهم يصور ما في الطبيعة تصويراً مادياً محسوساً كأنه آلة تصوير ، يزخرف ، ويشبه ، ويغص شعره بشتى ألوان الاستعارات مثل البارودي وتوفيق البكري ، ومثل شوقي في وصف لبنان ودمشق . وبعضهم يبعث في الطبيعة روحاً حيةً ويكتنه أسرارها ويغوص في أعماقها ، ويصورها ملونة بعاطفته الخاصة ، وحسبما يوحي إليه خياله المجنح فينطقها ، ويشخصها كوصف شوقي لزحلة في قصيدته المشهورة :

يا جارة الوادي طربت وعادني　　　مـا يشبه الأحلام مـن ذكراك

ومثل معظم أوصاف مطران في الطبيعة وقد زاد نظراته الشاملة العامة للكون ، وللإنسانية وما يجري فيها من خير وشر ، وعدل وظلم ، مثل قصيدته : في المساء ، ووردة نبتت في مسفك دماء ، والنوارة ، وفي الغابة ، وغصن من زهر المشمش ، ومثلها وصف شوقي للجيزة أو الجزيرة ، أو وصفه للآثار المصرية التي تشبه الطبيعة لقدمها .

ومن الشعراء الذين احتذوا حـذو الغربيين في نظراتهم الشاملة للكون وللإنسانية جمعاء حين يصفون الطبيعة : جبران ، وإيليا أبو ماضي وكثير من شعراء المهجر محتذين في ذلك حذو شعراء الغرب .

وقد يقف الشعراء على آثار الأمم الماضية ، ومشاهد العمران فيغوصون في أعماق التاريخ ويصورونه تصويراً بارعاً ، وقد فاق شوقي سواه في هذا المضمار .

وقد وصف الشعراء المعارك الحديثة ، ولكنهم للأسف قلما جددوا في أساليبهم وتشبيهاتهم فتجدهم يتحدثون عن السيوف والرماح والدروع والمغافر ، وينسون أن الحرب الحديثة فيها المدافع والمدرعات والطائرات والغواصات ، وأنها تجتاح كل البشرية لا ينجو منها ومن عواقبها محارب أو مسالم من : غلاء وضيق وظلمة ، وتقييد للحريات ، وتدمير شامل للمدن . وقد تعرض شوقي لمثل هذه المعارك ، ولكنه لم يجدد إلا بقدر يسير .

ومن الأغراض التي امتدت واتسعت وراجت : الرثاء . وقد كان في بادىء الأمر مقصوداً به التزلف فلا يرثى إلا ملك أو أمير ، ثم خرج عن ذلك إلى رثاء العظماء

الذين أسدوا إلى بلادهم خدمات جليلة ، وصار رثاء فيه تصوير للمرثي وأعماله ، لا يصلح لسواه من الناس كما كان الحال من قبل حيث كان الرثاء يصلح لكل ميت . ولم يقف رثاء الشعراء على الأشخاص بل تعداهم إلى رثاء الدول والمدن ، كما فعل شوقي في رثاء أدرنه ، وعند زوال الخلافة .

ولقد حظي التاريخ بعناية الشعراء وهو من الأغراض المستحدثة ، ونظم فيه الشعراء ملاحم قوية ، كهمزية شوقي التي أنشدها في مؤتمر المستشرقين ، وكقصائده في دول العرب وعظماء الإسلام ، وكقصيدته البائية في وصف الحوادث العثمانية .

وكان لشوقي احتفاء زائد بالتاريخ إذ كان يرى فيه معلماً عظيماً ، وكنزاً كريماً وهو القائل «الشعر ابن أبوين : الطبيعة والتاريخ .» وكان له مقدرة على استحضار مشاهده واضحة زاهية وتراه يرجع بك إلى الماضي كأنك تراه :

أفضى إلى ختم الزمان ففضّه ... وحبا إلى التاريخ في محرابه
وطوى القرون القهقرى حتى أتى ... فرعونَ بين طعامه وشرابه
فترى الزمان هناك قبل مشيبه ... مثلَ الزمان اليومَ بعد شبابه

ومن الأغراض التي تقدمت بعد البارودي : الشعر القومي وهو يشمل الوطنية والاجتماع . ولقد رأينا البارودي يقف عند الحوادث الخاصة التي تأثر بها والتي في نفسه ، ولكن الأحداث التي مرت بمصر ، والاحتلال ومصائبه ، والمطالبة بالدستور، ثم الثورة الوطنية العامة سنة ١٩١٩ قد نبهت الشعراء إلى معان جديدة وأغراض حديثة في الشعر القومي كما مر بك في غير هذا الموضع .

فالوطنية تشمل : الأناشيد الحماسية ، وتصوير الفظائع التي ارتكبها الغاصب، والمناداة بالاستقلال ، والتحرر من ربقة الأجنبي ، والحث على الثورة ، وتصوير الصدام بين جنود الاحتلال والوطنيين المجاهدين . ولقد خاض معظم الشعراء في هذا الميدان ، وبرع كثير من الشعراء فيه ، كشوقي وحافظ ، وأحمد محرم ، والكاشف ، وعبد المطلب ، والجارم ، والرافعي ، ولم يبق إنسان يستطيع قول الشعر وليس له في هذا الميدان نصيب حتى مصطفى كامل ، وهو من الخطباء والكتاب البارعين في الوطنية ، أبت عليه حماسته إلا أن يقول نشيداً في الوطنية أثبتنا طرفاً منه هنا لطرافته ولأنه من بواكير قلمه .

هلموا يا بني الأوطان طرّاً لنرجعَ مجدنا ونُعزَّ مصرا
هلموا أدركوا العلياءَ حتى تنال بلادُنا عزاً وفخرا
هلموا واتركوا الشحناء منكم وكونوا أوفياء فذاك أحرى
أليس يشيننا ترك المعالي تباع بغير وادينا وتشرى
ونحن رجالها وبما لديها من الإسعاد والخيرات أدرى
فعارٌ أن نعيشَ بغير مجد ونبصر في السما شمساً وبدراً
وعارٌ أن يكون لنا وجود ويحظى غيرنا فوزاً ونصرا

وقد مر بك في غير هذا الموضع من الكتاب موقف الشعراء إزاء الوطنية المصرية وتفاعلهم معها كما مرت بك نماذج كثيرة في هذا الموضوع •

ومن الشعر القومي : الشعر الاجتماعي ، ويراد به تصوير عيب من عيوب المجتمع ، والحث على تلافيه من ذلك قول الشيخ نجيب الحداد في وصف القمار :

قد اختصروا التجارة من قريب فعُدْمٌ في الدقيقة أو يسارُ
كأن وجوههم ندماً وحزْناً كساها لونَ صفرته النُّضارُ
فبينا تبصرُ الوجناتِ ورداً إذا هي في خسارتهم بَهارُ
عصائب لا يود المرء فيها أخاه ولا يُراعي الجارَ جارُ
يلاحظ بعضهم بعضاً بعين يكاد يضيء أسودها الشرارُ
فكم غضبوا على الأيام ظلماً وكم حنقوا على الدنيا وثاروا
وكم تركوا النساءَ تبيت تشكو وتسعدها الأُصَيْبِيَةُ الصغار
تبيت على الطوى ترجو وتخشى يؤرقها السهاد والانتظار
فبئست عيشة الزوجات حزن وتسهيدٌ وهجرٌ وافتقار
وبئست خَلّة الفتيان : هم وأتعابٌ وخسران وعار !

والتعرض لمشكلة اجتماعية ، أو الإشادة بمظهر جديد من مظاهر النهضة ورقي الأمة يعتبر كذلك من الشعر الاجتماعي • وقد أكثر الشعراء من الكلام على الأخلاق ، وتصوير العيوب الخلقية التي ورثناها من عهود الضعف والاحتلال ، أو من مفاسد المدنية الحديثة ، كما أكثروا من الحث على التحلي بالفضائل ، وحضوا على تحرير المرأة ، أو قاوموا تحريرها ، كل حسب ميوله ونظرته وبيئته • وحثوا على تشييد المعاهد ، والمستشفيات ، والملاجىء ، وعالجوا مشكلة الفقر والغنى ، وتكلموا عن الحريات والدستور ، والطيران ، وتقدم الأمة اقتصادياً وإنشائها المصارف ، والشركات ودور الصناعة ونهضتها في الملاحة ، ولم يدعوا ظاهرة سيئة أو حسنة تهم الشعب اجتماعياً إلا كانوا لسان الشعب المعبر عنها أسفاً أو سروراً •

ولم يكن للشعر الاجتماعي منزلة كبيرة في الأدب العربي القديم ، وإنما كان يتمثل في أبيات الحكمة والأمثال ، والشكوى من الناس والزمان وتصويرهم من وجهة نظر الشاعر • وهو لا يصور عادة حسناتهم ، وإنما ينعي عليهم أخلاقهم ، وموقفهم منه ومن آماله كما فعل المتنبي ، وابن الرومي ، وأبو العلا ، والبارودي • وأنت ترى أنه قد اتسع اتساعاً عظيماً في الشعر الحديث، وتشعبت غاياته وموضوعاته، كما تعددت طرق التعبير عنه ، فمن قصيدة ، أو قصة كقصة (الجنين الشهيد) ومقتل بزر جمهر ، وفنجان قهوة لمطران وغيرهما ، أو رواية تمثيلية تصور فيها الشخصيات المتعددة ، المتباينة الطباع والعادات والأخلاق والغايات • وقد برع في الشعر الاجتماعي شوقي ، وحافظ ، ومطران على تفاوت بينهم في الموضوع والأسلوب على نحو ما بينّاه آنفاً •

ومن الأغراض التي أفاض فيها الشعراء في العصر الحديث : الشعر الديني فمن زهّاد متعبدين يحثون على التقوى ، وترك الموبقات ، والتمسك بالفضيلة وعدم الانخداع بالدنيا وزخرفها ، إلى شعراء يتغنون بفضائل النبي عليه السلام ، ويتقربون إلى الله بمدحه ، ويستشفعون به ، ويستحثون أممهم على استرجاع مجدهم القديم ، وعزهم الزائل • وقد أكثروا من الكلام في مطلع كل عام هجري احتفاء بالهجرة ، وجعلها موعظة وذكرى للأمم التي تنشد الحرية ، وشاع فيها الفساد ، كما اتخذوا من سير بعض الصحابة موضوعاً شعرياً سجلوا فيه فضائلهم ، وما قدموه للإنسانية كعمرية حافظ وعلوية عبد المطلب •

ومن الشعر الديني : إلياذة أحمد محرم التي صور فيها جهاد النبي عليه السلام في سبيل الدعوة ، وما لاقاه أنصاره من تعذيب وإيذاء في مبدأ الدعوة ، وبطولتهم الفائقة في الغزوات العديدة ، وأخلاقهم الكريمة في معاملاتهم لأعدائهم • وقد ألف بعض الشعراء الشبان قصصاً مسرحية شعرية في غزوة بدر ، وأحد ، وفتح مكة ومن أشهرهم محمد يوسف المحجوب •

وثمة جماعة رق دينهم ، وفتنتهم العلوم الحديثة ، فاستهزءوا بالدين وسخروا منه ، أو شكوا فيه ، وآخرون نقموا على رجال الدين جمودهم ، وساء ظنهم بهم • وأكثر هؤلاء من غير المصريين الذين اتخذوا هذه الديار موطناً لهم من أمثال فرح أنطون ، والدكتور شميّل •

ومما جدد فيه الشعراء من الأغراض القديمة : الشعر التعليمي ، وقد كثر من قبل في منظومات العلوم كالنحو والصرف ، والعروض ، والتوحيد وغيرها ، ثم استخدمه محمد عثمان جلال في نظم الخرافات والحكايات ، وجاء شوقي ، فأربى عليه في هذا الباب وجَدّد في موضوعات الشعر التعليمي ، ويصح أن نعد منه كتاب (دول العرب وعظماء الإسلام) • ولحافظ بعض الشعر في هذا النوع ، على أنه انتشر انتشاراً عظيما بعد شوقي حتى صار عندنا منه الشيء الكثير وأغلب الذين برعوا فيه هم المشتغلون بالتدريس للاطفال •

ومن الأغراض التي برع فيها الشعراء المحدثون : الوجدانيات ، وأظهرها الشكوى ، وبث لواعج النفس وآلامها وأحزانها ، ومناجاتها • وقد شكى البارودي وتألم في منفاه ، ولكن من أتى بعده ممن تعرف على الثقافة الغربية ، وقرأ شعر بيرون وشيلي ، ووردسورث وهاردي ، ويتمان في الإنجليزية ، وبودلير ، وپول ڤاليري وغيرهما في الفرنسية أفاض في هذه النفسيات التي ينفّس بها عن آلامه وأحزانه ، تسمع من مطران قصائده : « مشاكاة بيني وبين النجم » ، وقصيدة « ساعة يأس أو الأسد الباكي » و « المساء » وغيرها ، وقد كثر هذا في شعر شكري والمازني والعقاد وأحمد زكي أبو شادي ، ومعظم شعراء الشباب • استمع إلى العقاد في شكواه :

ظمآن ظمآن لا صوب الغمام ولا　　　عذبُ المدام ولا الأنداء ترويني

حيران حيران لا نجم السماء ولا ... معالم الأرض في الغمّاء تَهديني
يقظان يقظان لا طيب الرقاد يُدا ... نيني ولا سمر السمّار يُلهيني
غَصانُ غصان لا الأوجاع تبليني ... ولا الكوارث والأشجان تبكيني
شعري دموعي وما بالشعر من عوض ... عن الدموع نفاها جَفن محزون
يا سوء ما أبقت الدنيا لمغتبط ... على المدامع أجفانَ المساكين
هم أطلقوا الحزن فارتاحت جوانحهم ... وما استرحت بحزن فيَّ مدفون
أسوان أسوان لا طبُّ الأساة ولا ... سحرُ الرقاة من الأدواء يشفيني
سأمان سأمان لا صفو الحياة ولا ... عجائب القدر المكنون تغنيني
أصاحب الدهرَ لا قلب فيسعدني ... على الزمان ولا خل فيأسوني
يد يك فامح ضنىً يا موت في كبدي ... فلست تمحوه إلاّ حين تمحوني

أو استمع إلى المازني في (وصية شاعر) والتي يقدم لها بقوله :

هذه وصية بشعة في رأي الكثيرين ولا ريب ، وسيعتدونها دليلا على الحزن لؤم النفس ، وربما ذهبوا إلى أبعد من هذا الحد ، فأخذوا الأدب الحديث كله جريرتي في هذه القصيدة ، وفيها يقول :

سترخى على هذي الحياة الستائر ... وتطفأ أنوار ويقفر سامر
فهل راق هذا الخلق قصة عيشتي ... وماذا يبالي من طوته المقابر
تركت لهم من قبل موتي وصية ... نظير التي أوصت بها لي المقادر
وهبت لأعدائي إذا كان لي عدىً ... همومي وما منه أنا الدهرَ ثائر
وأوصيت للمحبوب بالسهد والضنى ... وبالدمع لا يرقا ولا هو هامر
وبالجدري في وجهه ليزينه ... وبالعرج المرذول والله قادر
وبالضعف والإملاق واليأس والجوى ... وبالسقم حتى تتقيه النواظر

وللشيب بالأوجاع في كـل مفصل وبالثكل في الأبناء والجـد عاثـر
وكل سقام قد تركت لذي الصبا ومـا كنت منه في الحياة أحاذر
وللناس ألـوان الشقـاء وإننـي إذا مت لا آسي على مـن يخامر

وهي وصية تدل على نفس قد آدها الدهر ، ولها عند كل إنسان وتر ، فهي توصي لهم بكل شر وضر ، ولعل فيما أصاب المازني في حياته ما جعله ساخطاً كل السخط في هذه القصيدة ، وقد أشار فيها إلى عرجه الذي كان شديد الحساسية به •

وباب الوجدانيات بحر لا ساحل له ، لأن عواطف النفس الإنسانية تتجدد بتجدد الأيام والحياة ، وما فيها من سرور وآلام وابتسامات ودموع ، وضحكات وآهات ، ولا نغالي إذا قلنا : إن معظم شعراء الشباب في عصرنا الحاضر لا همّ لهم إلاّ بث لواعج نفوسهم ، والشكوى من زمنهم ومن الحياة • لذلك جاء شعر أكثرهم حزيناً باكياً متشائماً منبعثاً عن نفسيات مفرطة في اليأس أو لا تقوى على احتمال الآلام • وقد تغير الحال نوعاً ما بعد ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وانتصاراتها المتتالية في الميدانين الداخلي والخارجي ، وتبنيهـا القضايا العربية في شتـى الميادين ممـا أوجد لدى شباب الشعراء مادة غزيرة تثير حماستهم وتلهب مشاعرهم وتحرك طموحهم لمجد أمتهم ، وتشعرهم بمستقبل بسّام ووحدة شاملة للعالم العربي، فتغيرت النغمة الحزينة لدى الكثيرين من الجيل الصاعد، ولم يعد الأفق أمامهم مظلماً، ولا المستقبل معتما ، ولم يعد ثمة مجال لاجترار أحزانهم ونشر مآسيهم إلا قلة متخلفة ران اليأس على أفئدتها •

* * *

أمّا من حيث الأسلوب فقد جرى الشعراء في أول الأمر مقلدين للقصيدة العربية ، محافظين على الأوزان التي ورثناها عن العرب الاولين ، ولكنهم ما لبثوا أن افتنوا في أنواع الموشحات وخرجوا بها عن أصولها المعروفة ، حتى صاروا بها إلى مسدسات ، ومسبّعات ومثمنات ، دون أي التفات إلى عدد الأقفال والأبيات ، وإن

راعوا نمطها في الوزن والتقفية •

ولما اشتد تأثرهم بالأدب الغربي في القرن العشرين أخذوا ينظمون القصيدة مقطعات ، تختلف في عدد أبياتها حيناً ، وتتفق حينا آخر ، ولكل مقطعة قافية تستقل بها عن أخواتها • ومنهم من جرى على أسلوب الشعر الغربي في تثنية قوافيه ، وتقطيعه وتفصيله ، وآثر البحور الخفيفة الرشيقة • ومنهم من أهمل القوافي والأوزان ، أو حافظ على الأوزان دون القوافي ، وهو ما يسمى بالشعر المرسل ، ومن حافظ على القوافي وأهمل الأوزان ، وسموا هذا الأخير الشعر المنثور • وقد تكلمنا عنه آنفاً ، ومن أمثلة الشعر المرسل ، وهو الموزون غير المقفى بعض ما ترجمه محمد فريد أبو حديد من روايات شكسبير فمن ذلك مناجاة روميو لنفسه حين رأى جوليت في حفل راقص لأول مرة :

نورُها الباهر في لمعتِه ... جعل الأنوار تزداد سنا
وبدت في صفحة الليل كما ... يلمع الجوهر في قرط الزنوج
إن هذا الحسن لا أحسبه ... حسنَ أهل الأرض حاشا أن يكون

ثم يراها في الشرفة تنظر إلى القمر مفكرة فيحدث نفسه وهو ينظر إليها :

أي نور يتلالا ... باهراً من خدرها
إن هذا أفق الشرق وقد ... أشرقت جوليت من أعلاه شمسا
أيها الشمس تعالي في السماء ... واقتلي بدر الدجى من غيظه
فهو يبدو شاحباً في حقده ... مذ رأى حسنك أبهى منظرا
ليتني كنت في يديها شعارا ... أو غطاء أمس تلك الخدودا

فإذا سمع صوتها صاح :

أسمعي صوتك حلواً أسمعي! ... يا ملاكا من ضياء الأفق
أنت في الليل تلوحين كما ... سبحت في الجو أملاك السماء

ومن ذلك مناجاته لها وقد رآها ملقاة على الأرض بعد أن خدرها القسيس فظنها روميو قد فارقت الحياة :

يا هوى مهجتي ؟ وزوجي سلاماً

إن يك الموت قد سطا بك واشتفّ م رحيق الشفاه من أنفاسك

فلعمري هذا جمالك رطب أعجز الموت ، لم يزل في بهائه

تلك أعلامه ترفرف حمرا ء على خده وفوق شفاهه

وأرى الموت تحت راياته الصفر كليلاً ملفعاً بصفاره

أي جوليت ! حبيبة قلبي ! كيف يبقى الجمالُ بعد الحمام

أترى الموت ذلك الشبح المرعب هذا الكريه يضمر حبك ؟

فطوى جسمك الحبيب رطيباً في دياجيره يريد وصالك ؟

لأقيمن هاهنا أبد الدهر قريباً إليك دون غريمي

ثاوياً في ظلام قبرك هذا راضياً لا أريد عنه انصرافا

فأنت ترى في هذا الضرب من الشعر فقرات موزونة كل فقرة مستقلة في وزنها عما قبلها وما بعدها ، وترى شعراً غير مقيد ببحر واحد ، وغير مرتبط بقافية .

ومن قصيدة شكري « كلمات العواطف » التي أشرنا إليها مراراً في فصل النقد وقد ختم بها الجزء الأول من ديوانه « ضوء الفجر » :

نرى في اليوم ما هو في أخيه كذاك حياة أبقار السواقي

ولولا عَصْبُ عينيها لكانت تعاني اليأس والسأم الدخيلا

ولولا خدعة الأمل المرجّى لأسلمنا النفوس إلى الحمام

وليس العيش إلا ما نعمنا به أيام نمرحُ في الشباب

إذا سقط العجوز على نعيم فقد سقط الهشيم على الزهور

بكائي أن أرى رجلاً لئيما   يقدمه الرياء على الكريم
فإن حركته للعرف يوماً   تبدّى منشداً قولا رخيصاً
بكائي أنني أعدو غريباً   وحولي معشري وبنو ودادي
بكائي أن لي طبعاً أبياً   ورأياً مثل حدّ السيف ماضي
بكائي أن في الدنيا أمورا   يضيق بمثلها الصدرُ الرحيبُ
وكم وغد رفيع الجاه يغدو   كأن الكون ليس به سواه

وقد جَد منذ سنوات في البلاد العربية نزعة إلى التحرر من القافية وجعل التفعيلة لا البحر وحدة موسيقية في القصيدة وسموه الشعر الحر ، ولا يزال هذا الضرب من الشعر في سبيل التجربة ، ولم يأت بعد الشاعر الفحل الذي يستهوي الأسماع بسحر نغمه ، والألباب بعذب شعره ، والنفوس بقوة بيانه ورائع تصويره ومجنح خياله ونفيس معانيه ليدعم هذا الشعر ويعطيه مكانته في الأدب . ومعظم ما ينظم به من النوع القصصي الساذج الذي يعبر عن أمور مألوفة وتجارب بسيطة . وقد رآه الشباب مطية ذلولا وعملا هينا فآثروه على الشعر الموزون المقفى ، وادعوا أنه يتمشى مع الدفقة الشعورية .

وقد نبغ من الشبان من تحداهم ، وبرهن على أن القيثارة العريقة التي ظل يعزف على أوتارها شعراء ستة عشر قرناً لا تزال تبدع أروع الأنغام وأجمل ضروب الموسيقى . نقول هذا ولا نستطيع الحكم بعد على هذا الشعر ، وإن كان ما سمعناه منه حتى اليوم لا يبشر بخير كثير .

أما الشعر المنثور الذي روعيت فيه القافية وأهمل الوزن ، فله أمثلة كثيرة ، وهو لا يخرج عن نظام النثر المسجوع في الأدب القديم ، ومثاله في أدبنا المعاصر قول شوقي يخاطب ولديه وهو يغادر مصر في طريقه إلى منفاه :

« تلكما يا ابني القناه ! لقومكما فيها حياه ، ذكرى اسماعيل ورياه ، وعليها مفاخر دنياه ، دولةُ الشرق المرجّاه ، وسلطانه الواسع الجاه ، طريق التجاره ، والوسيلة والمناره ، تعبرانها اليوم على مُزجاة ، كأنها فُلْك النجاة ، خرجت بنا بين

طوفان الحوادث ، وطغيان الكوارث ، نفارق برا مغتصبه مضريّ الغضبة ، قد أخذ الأهبة ، واستجمع كالأسد للوثبة ، ديك على غير جداره ، خلا له الجو فصاح ، وكلب في غير داره ، انفرد وراء الدار بالنباح ؛ ونقابل بحراً قدْ جُنّب جواريه ، ونزت بالشر نوازيه ، من نون ينسف الدوارع ، أو طير تقذف البيض مصارع .. الخ » . وقد جمع هذا الضرب من الكلام في كتاب خاص سماه (أسواق الذهب)[1] .

ومن ذلك وصف السيد توفيق البكري للبحر وهو في طريقه إلى القسطنطينية ، ولعمري ليس في هذا الكلام من الشعر إلا أنه موشى ببعض ألوان الخيال . وقد مرّ بنا رأي الرافعي وغيره من النقاد في هذه التسمية .

ولم يعد البيت عند الشعراء المجددين هو وحدة القصيدة . بل صارت القصيدة مرتبطة بعضها ببعض في بناء محكم ، ولجئوا إلى القصة الشعرية .

وقد عرف العرب قديماً هذا النوع في شعرهم من مثل قصيدة الحطيئة (وطاوي ثلاث) ، وقصيدة عمر بن أبي ربيعة (أمن آل نعم) ، وكثير من شعر عبد بني الحساس ، وقصيدة الأعشى في السموءل ، والفرزدق في الذئب ، والبحتري في الذئب وكثير من شعر الطَّرَد . بيد أنه لم يكن محبوك العقدة ، ولا منوع الموضوع ، ولا يرمي إلى تحليل دقيق ، بينا تراه في الشعر الحديث قد اتسع ميدانه ، وكثر فرسانه ، فنظم فيه مطران عشرات القصائد ، وتبعه إبراهيم رمزي ، وشوقي ، وحافظ ، وشكري ومحرم في الإلياذة الإسلامية وهي ملحمة طويلة جداً وستكلم عليها عند ترجمته إن شاء الله . وقد استمدوا موضوع القصة الشعرية من بطون التاريخ أحياناً ، ومن حوادث زمانهم أحياناً ، وأضفوا عليها من جميل خيالهم ، ورائق شاعريتهم ، فغلبت الصيغة الأدبية على التاريخية ، أو الحقائق العلمية . وإن كان لا يزال ينقصها حتى اليوم في أغلب الأحيان جودة تصوير الأشخاص ، وتحليل العواطف النفسية ، ولو أجادوها كما أجادوا عرض الحوادث ووصفها وسردها لبلغوا الغاية .

ولما اطلعوا على التمثيليات الشعرية لدى أدباء أوربا حاولوا محاكاتها ، وقد

---

(١) راجع نشأة النثر الحديث جـ ١ للمؤلف .

تجرأ الشيخ خليل اليازجي[١] فنظم تمثيلية (المروءة والوفاء) في ألف بيت سنة ١٨٧٦ ، ولكنها جاءت سقيمة العبارة ، ركيكة الأسلوب ، أشبه بأساليب المتون المنظومة منها بالأدب الرائق ، فذهب ضعف نسجها بحلاوة موضوعها . ونظم الشيخ عبد الله البستاني خمس قصص تمثيلية شعرية ولكنها جاءت ضعيفة[٢] ونظم الشيخ محمد عبد المطلب منذ سنة ١٩٠٩ عدداً من الروايات والمشاهد المسرحية ، متخذاً موضوعها من الأدب العربي في جاهليته وإسلامه مثل امرىء القيس ، ومهلهل بن ربيعة وغيرهما وجاءت هذه المسرحيات متينة الأسلوب قوية الديباجة فيها كثير من تعابير البدو وأخيلتهم لا يستطيع جمهور النظارة متابعته أو فهمه . كما أن الشيخ عبد المطلب كان ينقصه معرفة الفن القصصي كما تقررت مبادئه في الأدب الأوربي ، وينقصه شيء من الرقة حتى يستسيغ الجمهور أسلوبه ويدرك مرامي شعره ولكنها ولا شك كانت محاولة طيبة من جهة محافظة ما كان ينتظر أن تجدد كلَّ هذا التجديد[٣] .

وجاء شوقي بعد ذلك فقفز بالشعر المسرحي قفزة بارعة في أخريات أيامه ، وإن كانت أولى محاولاته في هذا النوع ترجع إلى أيام دراسته بباريس من سنة ١٨٨٧ — ١٨٩١ فاختار مأساة علي بك الكبير موضوعاً لمسرحية شعرية . ولكن يظهر أن وسائل التأليف المسرحي لم تكن قد تهيأت له ، ولم يجرؤ على أن يتصرف في وقائع التاريخ ليخرج مأساة قوية فجمد إزاءها ، ولذا جاءت الرواية متهافتة لا تبشر بمستقبل باسم في هذا الميدان .

وحاول شوقي محاولة أخرى في تلك الحقبة ، إذ نظم مسرحية قمبيز ، ولكنها كانت كسابقتها تهافتاً وضعفاً ، فأدرك أنه لم يتهيأ لهذا النوع فأقلع عنه ردَحاً طويلاً من الزمن حتى عاد إليه في أخريات حياته بعد أن انتقده مكرموه سنة ١٩٢٧ على

---

(١) هو ابن الشيخ ناصيف اليازجي الذي ترجمنا له في الجزء الأول من كتاب الأدب الحديث ، ولد ببيروت سنة ١٨٥٦ م : وتعلم في الكلية الامريكية ، ثم هاجر إلى مصر واشتغل بالصحافة مدة ثم عاد إلى بيروت ، واحترف التعليم : ومرض بداء الصدر ، فانقطع عن العمل حتى مات سنة ١٨٨٩ ، وكان جيد الكتابة كبقية أفراد أسرته ، وشعره وسط .

(٢) هي مسرحيات : حرب الوردتين ، ويوسف بن يعقوب . وبروتس أيام تروكين الظالم وبروتس أيام يوليوس قيصر . ومقتل هيرودس لولديه ؛ ونلاحظ أن معظمها بعيدة عن البيئة التاريخية العربية .

(٣) تجد دراسة وافية للمسرحية الشعرية وتطورها في الأدب العربي مع نماذج وافية في كتابنا المسرحية نشأتها وتاريخها وأصولها .

إهماله هذا الباب في شعره ، فأخرج عدة مسرحيات قوية وهي : مصرع كليوباطرة ، ومجنون ليلى ، وعنترة ، وأعاد النظر في قمبيز ، وعلي بك الكبير وأخرجهما كذلك • وفتح شوقي الباب على مصراعيه بهذه التمثيليات الشعرية لمن أتى بعده •

ومن العجيب أن دعاة التجديد في مصر أمثال مطران ، والعقاد وشكري والمازني ، لم يجرءوا على اقتحام هذا الميدان كما فعل شوقي ، ولكن ظهرت بعده طائفة من الشعراء ترسموا خطاه في المسرحية الشعرية وأبرزهم عزيز أباظة الذي اتجه إلى التاريخ العربي الإسلامي ووضع بعض مسرحيات شعرية منها (قيس ولبنى) و (العباسة) و (عبد الرحمن الناصر) واتجه أخيرا إلى المسرحيات الاجتماعية الشعرية كمسرحية (أوراق الخريف) •

وبين شوقي وعزيز أباظة كثير من أوجه الشبه فكل منهما قد عاش عيشة مترفة ، وفي بيئة ثرية ، تضطرب في محيط الطبقة العليا من الشعب ، وكل منهما قد عكف في أول أمره على الشعر الغنائي، وإن كان شوقي أوسع أفقاً، وأطول باعاً، وأبرع قصيداً، وأغزر معنى ، وأسمى عبارة ، وأحكم صياغة ، وأكثر تجديداً • على أن أباظة كان أغزر عبرة وأغنى عاطفة في ديوانه (أنات حائرة) الذي سفح فيه دم قلبه دموعاً تنطق بوفائه لزوجه بعد وفاتها • وثمة فرق آخر ، وهو أن عزيز أباظة قد أفاد من تجربة شوقي المسرحية فحاول جهده أن يتجنب ما وقع فيه من أخطاء ، كما أنه احتك كثيراً برجال المسرح فعرف أصوله وقواعده • ومن الشعراء الذين ترسموا خطى شوقي كذلك محمود غنيم وله (المروءة المقنعة) و (غرام يزيد) ومنهم علي عبد العظيم وقد ظهرت له (ولادة) وأحمد باكثير وله (قصر الهودج) •

* * *

كانت موضوعات مسرحيات شوقي من التاريخ ، ولم ينظم مسرحية اجتماعية ، ولم يبلغ فنه القصصي غايته فيما نظم ، لأنه كان متأثراً بالمسرح الغنائي ، لا المسرح التحليلي ، ولكن حسبه فضلا أنه سدّ الثغرة في الأدب العربي ، وأتى بما لم يستطعه سواه من معاصريه •

أمّا معاني الشعر الحديث وخيالاته وصوره ، فمما لا شك فيه أن شعراءنا قد تأثروا بقراءتهم للأدب العربي القديم حتى استقام أسلوبهم وتملكوا ناصية البيان ،

ووعت عقولهم مئات من الصور والمعاني القديمة أرادوا أو لم يريدوا ، وظهر أثر هذا في شعرهم . ولكنهم أضافوا إليها كثيراً مما قرأوه في الأدب الغربي إما مباشرة أو عن طريق الترجمة . وقد اهتموا بالمعنى اهتماما بالغاً ، وآثره كثير منهم على الصياغة . ومن الشعراء الذين جددوا في المعاني حق التجديد : الرافعي ، ومطران ، وشعراء المدرسة المصرية الذين تأثروا بالأدب الإنجليزي مثل شكري والمازني والعقاد وأبي شادي ، وإن كان أكثر الجديد في شعرهم اقتباساً من الشعر الغربي ، ثم من شوقي في بعض قصائده الممتازة .

لقد أصبح من الضروري لكل شاعر في عصرنا الحديث أن يتزود من ينابيع الثقافة المختلفة : من ينبوع الثقافة العربية ليستقيم أسلوبه ، ويعرف تاريخه وعقيدته، ومواطن الفخر والمجد في أيام سؤدد وطنه ، وحتى لا يقع في أخطاء فاحشة تزري به ، وتسقط منزلته سواء أكانت أخطاء لغوية أو تاريخية أو دينية ، ومن ينبوع الثقافة الأوربية الغربية التي تمكنه من مجاراة الحضارة الحديثة ، والاطّلاع على خير ما ابتكره الذهن الغربي في الأدب وعلم الاجتماع ، وعلم النفس ، والتاريخ الحديث والقديم ، وكثير غيرها من العلوم التي لا يجد مندوحة من الاطلاع عليها .. لأن القصيدة الغنائية لم تعد وحدها هدف الشعر في العصر الحديث ، فثمة القصة والمسرحية ، وكلاهما في حاجة إلى دراسة طويلة في علم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ لما ينطلبان من تحليل وتصوير لمختلف الشخصيات .

لقد عاب بعض النقاد على شعرائنا كسلهم العقلي ؛ لأنهم اكتفوا بعنايتهم الفائقة بأسلوبهم دون أفكارهم ومعانيهم ، فوقعوا في أخطاء فاحشة ، ولقد ضرب الدكتور طه حسين على ذلك مثلا ما قاله حافظ وشوقي[1] ونسيم في مترجم أرسطو أحمد لطفي السيد ، وكيف أنهم قد عرضوا لذكر أرسطو ومدحه والإشادة بآثاره وسلطانه على الأجيال وهم لا يكادون يعرفون من أمره شيئاً ، ويجهلون كتاب الأخلاق الذي ترجمه أحمد لطفي السيد .

والمعاني لا شك تأتي من كثرة الاطلاع ، والتزود من تجارب الآخرين ، وصدق النظرة في الحياة ، كما تأتي مبتكرة من نتاج الفكر الخالص عند العباقرة . وليس

(١) حافظ وشوقي ص ١١٨ ـ ١١٩ .

من الضروري أن تكون الحقائق جديدة مبتكرة ، بل إن في استطاعة الشاعر الملهم المقتدر أن يخلع من فيض عبقريته على الحقائق القديمة المألوفة التي تتخطاها الأذهان ، ولا تفطن لها لبساطتها وتفاهتها فيجعلها متألقة قوية ، تدب فيها الحياة ؛ لمقدرته وبراعته في انتقاء الألفاظ المعبرة . وهذا ما جعل شاعرا كبيراً مثل وردسورث — الذي فتن به بعض شعرائنا — يحتل تلك المكانة الممتازة في الأدب الانجليزي وقد قال (دي كوينسي) في شعره « إن الأديب الذي سيخلد على الأيام هو الذي يحير الناس بحقائق منتزعة من ينابيع جديدة كل الجدة — حقائق لم تر وجه الشمس ولذا فهي غامضة لا تدرك — بل هو الذي يبعث وجوهاً قديمة للحقيقة طال إغفاؤها في الذهن إلى انتباه مشع[١] » . إن العبرة بالنظرة التي يرى بها الشاعر الحقيقة والعاطفة التي يتقبلها بها ، ويسبغها عليها[٢] .

قد يرى الشاعر ما يرى الناس ، ويحس ما يحسون ، ولكنه يراه أوضح مما يرون ، ويحس به إحساساً أعمق مما يحسون ، ويتصوره في مناظر جديدة لم تخطر لهم على بال ، ثم يعبر عنه بطريقته هو تعبيراً قوياً يجعله في نظر الناس شيئا جديداً ، وهذا هو سر العبقرية .

إن العناية بالمعاني وتنوعها وتجددها تجعل الشعر مفيداً ، غير تافه ، ولكن الإسراف في ذلك يفسد الشعر لأنه يحمله ما لا يحتمله ، ويجعله أقرب إلى فنون العلوم ؛ لكثرة ما يحتوي عليه من حقائق جافة ، منه إلى الشعر الذي يهز العاطفة ، ولما يحتاج المرء في فهمه الى كد الذهن ، وإنعام النظر . والشعر إذا زاد فيه الفكر والعلم ذهب رواؤه ، وقل بهاؤه ، ولم تعد له تلك الميزة التي تفصل بينه وبين النثر ، لأن الشعر لغة الانفعال ؛ لأن الشعر في الأصل معان يريدها الشاعر ، وهذه المعاني ليست إلا أفكاراً عامة يشترك في معرفتها كثير من الناس . وإنما تصير هذه المعاني شعراً حين يعرضها الشاعر في معرض من فنه وخياله وأدائه فيجدد هذه المعاني تجديداً ينقلها من المعرفة إلى التأثر بالمعرفة ، ومن إدراك المعنى الى التأثر بالمعنى ، ومن فهم الحقيقة إلى الاهتداء للحقيقة . فالشعور والتأثر والاهتداء هي أصل الشعر ولا يكون شعر يخلو منها ومن آثارها إلا كلاما كسائر الكلام ليس له إلا فضل الوزن

(١) راجع الفقرة التاسعة من De Qiuncey's essay on Wordsworth's poetry

(٢) فنون الادب تأليف هـ — ب — تشارلتن وتعريب زكي نجيب محمود .

والقافية مثال ذلك قول العقاد في الحب :

مـا الحب روح واحد　　في جَسَدَي معتنقـين
الحب روحـان معـا　　كلاهمـا في جسديـن
مـا انتهيا مـن فرقـة　　أو رجعـة طرفة عـين

وإذا وازنا بين هذه الأبيات وبين أبيات مطران التي يقول فيها عن الحب :

أليس الهوى روح هذا الوجود　　كمـا شاءت الحكمة الفاطـرة
فيجتمـع الجوهـر المستَدِقُّ　　بـآخـر بينهمـا آصـره
ويحتضن التربُ حـب البذار　　فـيرجعـه جنـةً زاهـره
وهـذي النجوم أليست كدُرٍ　　طـوافٍ علـى أبحـر زاخره
يقيدهـا الحـب بعضـاً لبعض　　وكـلٌ إلـى صنوها صائـره

تبين لنا الفرق الواضح بين من يلبس المعنى الطريف ثوباً قشيباً حين ينظر نظرة شاملة إلى الحياة وبين من يأتي بالحقيقة العارية ينظمها نظماً غير شعري .

ومن الغزل الذي لا يصدر عن عاطفة ولا عن فكرة قول العقاد كذلك :

زرقة عينيك لا صفـاء　　فيهـا ولكنـه قضاء
حمرة خديك لا حيـاء　　فيهـا ولكنـه اشتهاء
قوامك الرمح لا اعتدال　　فيـه ولكنـه اعتـداء
يا حيرة القلب في هواه　　يـا غاية العمر في مناه
وجهك سبحان من جلاه　　ولـوث النفس بالطلاء

وخير الشعر ما سلمت فيه الفكرة ، ووضحت ، دون أن يفقد مقومات الشعر الأصلية من خيال رائق ، وعاطفة قوية ، وصورة واضحة ، وموسيقى عذبة .

ولكنَّ الملاحظ أن الشعراء الذين حفلوا بالمعاني ، وجعلوا همهم البحث عنها ، والجري وراءها ، واصطيادها أينما كانت كانوا أحد رجلين : إما شاعر متعقّد ، متغرب ؛ لأنه انتزع المعاني انتزاعاً من مواطن غير معهودة ، وأتى بشيء لم يألفه الذهن ، فهو غامض على السامع ، وقد يكون غامضاً على الشاعر لأنه لم يدركه تمام الإدراك ، أو لأنه لم يستطع التعبير عنه بوضوح لعدم جلائه في ذهنه ، مثل أبي تمام ، وأبي العلاء ، والمتنبي أحياناً . وإما شاعرٌ ركيك العبارة ، لا يعنى بأسلوبه ؛

إذ جعل همه الأول إبراز المعنى كاملاً بأي أسلوب وأي عبارة تهيأت له ، وأدت ما أراد ، وهذا هو الغالب على شعراء المعاني في عصرنا ، فكثيراً ما ترى المعنى جميلا بديعاً ، ولكن العبارة التي أدّي بها تذهب بجماله ، وتضعفه فلا تستسيغه الأذن ولا يتقبله العقل . وقد غاب عن هؤلاء أن الروائع في الأدب العربي والأدب الغربي لم تخلد لما فيها من معان فحسب ، ولكن خلدها جمال الأسلوب ولولا ذلك ما رواها الرواة وعني بها المتأدبون ؛ فالأدب فن ، وكل فن فيه ناحيتان : ناحية الموهبة الطبيعية من ذوق مرهف يجتذبه الجمال وقدرة على التخير والانتقاء ، وناحية الصنعة ، فليس يكفي في العبارة أن تنقل إلينا المعنى ، لأن المراد في الأدب ليس المعرفة وتقرير الحقائق ، وإنما نقلها مشفوعة بلذة ، ولا يتأتى هذا إلا اذا كانت العبارة مصوغة صياغة فنية خاصة .

ثم إن التعبير الجميل هو الذي يميز كلام الأديب من كلام الناس « إن هؤلاء الذين يزدرون الجمال اللفظي مصابون بشذوذ في الفكر أو سقم في الذوق أو عجز عن الكمال ، وإلا فكيف نعلل إنكارهم تجميل الأسلوب وهم لا يفتأون كسائر الناس يطلبون الجمال في شتى ضروبه ومختلف صوره ؟ لماذا يثورون على تنميق الكلام ويدعون أن الغرض منه الفهم والعلم ، ولا يثورون على تزيين الطعام والتأنق في الملبس ، وتزويق المسكن ، والغرض منها الغذاء والوقاء ؟ إذا كان أحدهم لا يحب أن يلبس الثوب المرقع ولا أن يسكن الكوخ النابي ، ولا أن يسلك الطريق الوعر ، ولا أن يركب المركب الخشن ، فلماذا يكره أن يسمع الكلمات العذبة ، والفقر المنسقة ، والجمل الموزونة والأصوات المؤتلفة[1] .

إذا عبّر الشاعر عن انفعاله مباشرة من غير أن يسيطر الفكر عليه ، ويجتهد في حشوه بالحقائق جاء كلامه حلواً ، وعباراته موسيقية طبيعية .

ومن الأمور التي يراعيها الشعراء في العصر الحديث تسلسل المعاني ، وارتباطها بعضها ببعض ، وعدم تنافرها ، فالقصيدة صارت وحدة ، وبناء متماسكاً ، ولم يعد البيت المفرد هو وحدة القصيدة كما كانت الحال عند العرب ، ولقد وضحت الفرق بين الطريقتين في غير هذا الكتاب ، وبينت ميزة كل طريقة[2] .

---

(١) احمد حسن الزيات : دفاع عن البلاغة .

(٢) راجع كتاب النابغة الذبياني للمؤلف ص ٥٣ وما بعدها .

والمعاني تتفاوت من حيث ابتذالها ، وشيوع استعمالها ، ومن حيث أنها تقليد ونقل عن معان سبقتها ، ومن حيث أنها مبتكرة جديدة . أمَّا المعاني المبتذلة ، فهي المألوفة المتداولة بين الخاصة والعامة ، كقول الشاعر مثلاً : والأرض فيها الماء والأشجار ، فهذه من البديهيات المتداولة . وأما التقليد فبابه واسع ، وقد ألفت فيه قديما كتب عدة[١] : وتجد لشعرائنا المحدثين في هذا الباب كثيراً من الشعر الذي نقلوا معانيه عن غيرهم ، وقد مرَّ بك في الجزء الأول عند كلامنا على البارودي كثير من هذه الأمثلة ، ومن هذا قول المتنبي يقصد سيف الدولة :

رمى واتقى رميي ومن دون ما اتقى　　هوىً كاسرٌ كفي وقوسي وأسهمي

فجاء إسماعيل صبري فقال :

إذا خانني خِلٌّ قديم وعقني　　وفوَّقت يوماً في مقاتله سهمي
تعرض طيف الود بيني وبينه　　فكسَّرت سهمي وانثنيت ، ولم أرم

وأنت ترى إسماعيل صبري سار في إثر المتنبي ، وقصَّر عنه ، والمعنى الذي أورده المتنبي في بيت واحد قويِّ الديباجة ، يأتي به صبري في بيتين ولم يوفّه . وقد وقع شوقي ، وصبري ، وحافظ وغيرهم في هذه المؤاخذات[٢] ولا سيما في القصائد التي عارضوا بها السابقين من الشعراء ، وقد لوحظ أن شوقي يستطيع التفوق على الشعراء الذين يعارضهم إلاَّ المتنبي . فإنه لقوة أسره وإحكام لفظه ومعانيه ، لا يستطيع إذا دخل في دائرة شعره أن يتخلص من قبضته وسيطرته ؛ وسنرى عند ترجمتنا فيهذا الجزء لصبري مقدار ما أخذه من سواه ، وكيف أن الابتكار لديه قليل .

والحق أن الابتكار في المعاني نادر ، ولكن قد تهيأ لبعض شعرائنا شيء من هذا ، ولا سيما مطران وشوقي ، وسنرى عند الكلام عليهما إلى أي حدٍ قلدا ، وإلى أي حد جددا[٣] .

---

(١) كالموازنة للآمدي ، والوساطة بين المتنبي وخصومه ، والرسالة الحاتمية في اقتباسات المتنبي من ارسطو .

(٢) راجع الديوان للعقاد ، وعلى السفود للرافعي، ومجلة أبولو سنة ١٩٣٣ مقال عن معارضات شوقي.

(٣) إذا أردت المزيد من الكلام على المعنى وأثره في الشعر فارجع إلى الكتب الآتية : الدراسة الأدبية لرئيف خوري ، واصول النقد الادبي لأحمد الشايب ، ونقد الشعر لنسيب عازار .

هذا ومن الأمور التي يجب النظر إليها عند تقدير الشعراء ، ومعرفة منزلتهم الأدبية بالنسبة لمعاصريهم ولشعراء لغتهم في القديم والحديث ، ولشعراء العالم أجمع : مقدار ما وصل إليه خيالهم الشعري .

والخيال : هو وضع الأشياء في علاقات جديدة ، وهو سمة بارزة من سمات الأسلوب الأدبي ؛ لأنه يصور العاطفة أو ينقلها إلى السامع أو القارىء ، ويبرز المعاني ويضفي عليها ثوباً زاهياً تخطر فيه فنتقبلها ونفهمها . ويلجأ إليه الأديب للإيضاح وحسن العرض وقوة الإبانة والتصوير ؛ ويرى القارىء والسامع الحقائق من ثنايا كل ذلك عن طريق خياله .

والخيال موهبة تنفذ بروح الأديب إلى أسرار الوجود ، واكتناه الحقائق المستكنة وراء مظاهر الأشياء ، وتجعله يحلق طليقاً في أجواء وعوالم جديدة مليئة بالرؤى الجذابة والصور الخلاّبة والموسيقى الساحرة . وهذه الموهبة تتباين قوة وضعفاً ، وضيقاً واتساعا ، وغنى وفقراً لدى الأدباء بحسب قدرتهم على استيعاب أسرار الحياة وهتك حجُب المادة ، والوصول إلى ينابيع الإلهام ، وقدرة نفوسهم على التوليد والتفاعل مع الحياة وانعكاس اشعاعاتها .

وهو نوعان : ابتكاري ، وتصويري أو تفسيري ، والأول يظهر في تأليف مجموعة من العناصر المختزنة في الذهن في صورة مبتكرة يتحقق معها كيان خاص" لها . والثاني يظهر في تصوير الأشياء على أساس إضافتها إلى أشياء أخرى تقويها وتظهرها ، ويستعين الأديب على الضرب الثاني بفنون البديع والبيان من تشبيه واستعارة وكناية ، وتمثيل وما إلى ذلك .

والخيال الابتكاري ضربان : خيال نافذ ، يعين صاحبه على استحضار أطياف الماضي وتصوير حوادثها ، وخيال خالق يجسم الإحساسات ويخلق الشخصيات ، ومن الضرب الأول الشعر التاريخي كقول شوقي :

كـمْ مركب تتخايل الدنيـا بـه ... يـُجلى كما تـُجلى النجوم وتنسق
(فرعون) فيه من الكتائب مقبل ... كالسحب قرن الشمس منها مُنفتِق
تعنـو لعزتـه الوجـوه ووجهـُه ... للشمس في الآفاق عـانٍ مُطْرِق
آبت مـن السفر البعيد جنـوده ... وأتتـه بالفتح السعيـد الفيلـقْ

ومشى الملوك مصفدين خدودهم نعلٌ لفرعون العظيم ونمرق
مملوكةٌ أعناقهم ليمينه يأبى فيضرب أو يَمُنُّ فيُعتق

أو كقوله في الهمزية التاريخية يصف ذلَّ فرعون ، وهزيمته أمام قمبيز :

جيء بالمالك العزيز ذليلاً لم تزلزل فؤادَه البأساء
يبصر الآل إذ يراح بهم في موقف الذل عَنوةً ويجاء
بنت فرعون في السلاسل تمشي أزعج الدهرَ عريها والحفاء
وأبوها العظيم ينظر لما رُدِّيت مثلما تردَّى الإماء
أعطيت جرَّةً وقيل إليك النهـ ـرَ قومي كما تقوم النساء

فقد نفذ الشاعر بعين خياله إلى الماضي واستحضر ذلك المشهد ثم وضعه وصوره . وأما الخيال الخالق فهو الذي يجسم الإحساسات ويخلق الشخصيات ، ويبث الحياة في الجماد كقول شوقي :

وقد صفى (برَدى) للريح فابتردت لدى ستور حواشيهن أفنانُ
ثم انثنت لم يزل عنها البلال ولا جَفَّت من الماء أذيال وأردان

ومثل قطعة فنجان قهوة عند خليل مطران ، فقد خلع شوقي على الريح الحياة ومثلها حية تبترد ، كما خلع مطران على فنجان القهوة الحياة .

ومن ذلك قول مطران في وردة ماتت وهي ملكة الزهور وقد غطتها الأعشاب فراحت الفراشات تحوم حولها فيدور بينها وبين الشاعر هذا الحوار :

ما الذي تبغين من جَوْبك يا شبهات الطير ؟ قالت وأبانت
نحن آمال الصِّبا كانت لنا ها هنا محبوبة عاشت وعانت
كانت الوردة في جنتنا ملكت بالحق والجنة دانت
ما لبثنا أن رأيناها وقد هبطت عن ذلك العرش وبانت
فترانا تتحرى أبداً إثرها أو تتلاقى حيث كانت

والخيال التصويري أو التفسيري يجيء من طريقتين : من القراءة في الأدب أو من التجارب الشخصية ، ويتمثل في التشابيه والاستعارات والكنايات . والخيال

بعامة قد يكون حسياً ، وقد يكون معنوياً ، ومعظم الخيال التصويري خيال حسي ، ومعظم الخيال الابتكاري خيال معنوي[(١)] •

نظر النقاد الغربيون عند معرفة المنزلة التي يحتلها الشاعر من الشعراء إلى كل هذا : الى الغرض ، وإلى اللغة التي أدى بها ، وإلى المعنى أو الفكرة ومقدار ما هي عليه من جدة أو تقليد أو ابتذال وما هي عليه من الصدق الأدبي ، أو الكذب ، ثم نظروا إلى الخيال وإلى العاطفة وصدقها •

وهم على هذا الأساس قسموا الشعراء إلى ثلاثة أنواع : شاعر بسيط الشخصية يعكس الحياة في صورة بسيطة ، وليس لشخصيته جوانب متعددة ، وبذا تنعكس الحياة من مرآة نفسه على دائرة ضيقة من الفكرة والخيال •

وشاعر مركب الشخصية ، يمثلون شخصيته بمنشور ذي أضلاع وجوانب متعددة ، تنعكس عليها أشعة الشمس في أشكال ، وتنحل في وجهات مختلفة ، وتأخذ صوراً متعددة •

وشاعر معقد الشخصية له بجانب شخصيته الخارجية شخصيات أخرى منطوية فيها وكل من هذه الشخصيات التي تحتويها شخصينه الخارجية ، معقدة في ذاتها ، تعكس الحياة في صور متنوعة وبذلك تستطيع نفسه أن تعكس المأساة الفنية للحياة في صور غنية قوية زاخرة •

وقد قسموا الشعراء بناء على ذلك إلى ثلاثة أقسام : فعدوا من النوع الأول البسيط الشخصية الشعراء الوجدانيين ، الذين يتغنون بالحياة أو بالطبيعة بالنسبة إلى نفوسهم ، وشعورهم إزاءها ، فتجيء الحياة من نفوسهم نغمة واحدة من وتر واحد هو الذي تتألف منه نفسيتهم • وهم عادة يشغلون بعواطفهم الداخلية عن النظر في أعماق الحياة التي تكتنفهم فلا يتكلمون إلا عن آمالهم وأفراحهم ومخاوفهم ومطامحهم •

وعدوا من النوع الثاني الشعراء القصاصين ، والحياة تأخذ في نفوسهم نغمات متنوعة وإن كانت خارجة من وتر واحد ،ولا تشغلهم عواطفهم الداخلية عن العطف

---

(١) ارجع في الاستزادة من الكلام عن الخيال إلى : أصول النقد الادبي لأحمد الشايب ، وإلى دراسات في علم النفس الادبي للأستاذ حامد عبد القادر وإلى كتاب إسماعيل أدهم عن مطران ص ١٤٥ وما بعدها I. A. Richards في كتابه Principles of Literary Criticism .

على الحياة المحيطة بهم • وذلك يرجع إلى أنهم أصحاب خيال واسع عميق ، ونظرتهم وإن كانت تعطف على الحياة إلا أنها لا تذهب الى درجة الشمول والنظر الى الكون جملة ، وإلى مجموع البشرية مرة واحدة في جميع الحالات التي تلابسها ؛ لأن الحياة والوجود متركزان في ذاتهم وذاتهم كمنشور يعكس عدة أشكال ، ولكن مصدرها واحد ، ويعجز عن عكس شخصية جديدة • وشعرهم عادة ذاتي ، لا يستطيعون التخلص من أثرتهم ، ويدخل تحت الشعر الذاتي أحاسيس الإنسان وانفعالاته وطربه ، وميوله ، وأحكامه التي تقوم على اعتبارات ذاتية •

وعدوا من النوع الثالث الشعراء الذين يستطيعون خلق شخصيات لم تكن ، وتصوير الحياة في جميع الأوضاع والملابسات ، وهم الذين برعوا في الشعر التمثيلي ، وأتوا بنماذج خالدة ، واستطاعوا أن يصلوا إلى أعماق أي نفس إنسانية ، وأن يترجموا ، عنها ، وشعرهم في الغالب موضوعي[١] ، والموضوعي يدخل تحته صفات الشيء ، أو الموضوع الخارجي ، والآراء التي تقوم على اعتبارات خارجية ، والأحكام التي تنبني على المشاهد المحسوس ، وعلى مقتضيات المنطق لا على الذوق والميل الشخصي[٢] •

هذه بعض الأمور التي يراعيها مؤرخو الأدب والنقاد المحدثون عند تقسيمهم للشعراء ووضعهم في منازلهم من موكب الأدب •

وسنراعي عند كلامنا على شعراء مصر بعد البارودي كل هذه الاعتبارات ، وننظر إليهم بمنظار النقد الحديث ، ونعرف إلى أي حد أضافوا الى تراث العالم الأدبي جديداً من فيض شاعريتهم •

وسنبدأ بشعراء المدرسة التقليدية الحديثة التي نهجت منهج الشعر العربي القديم في أغراضه وأسلوبه وتشبيهاته واستعاراته ونهجت نهج البارودي ، ثم بشعراء المدرسة التي أخذت بحظ من الجديد ، ثم شعراء المدرسة المجددة المعتدلة التي لم تخرج على قواعد اللغة ، ثم الشعراء المجددين المتطرفين في التجديد الذين ثاروا على الشعر العربي في كل شيء •

---

(١) راجع Encyclopedia Britanica N. 13 في مادة Poetry وراجع كذلك الدكتور ادهم عن مطران ص ١٢٩ — ١٣٠ ونسيب عازار في نقد الشعر ص ٣٧ — ٤٠ ، وكلاهما قد لخص المادة الموجودة بدائرة المعارف البريطانية ولكنها جاءت غير واضحة .

(٢) راجع من الوجهة النفسية في دراسة الادب ونقده للأستاذ محمد خلف الله ص ٣٥ — واحمد الشايب ص ١٣٨ — ١٤٢ .

الفصل الخامس

المدرسة التقليدية

عرف البارودي كيف يعيد للشعر العربي الحديث ديباجته القوية ، وينهض به نهضة فارعة تخطت عدة قرون إلى الخلف حتى رجعت إلى عهود القوة والنضارة ، متجنبة الزخرف والطلاء الغث ، والركاكة، وضحالة المعاني ، والتقليد لعصور الضعف والعجمة • ثم نهضت البلاد نهضات قوية في التعليم وإحياء التراث العربي القديم ، وأخذت المطبعة تزود المتأدبين بنفائس الأدب العربي في أبهى عصوره كما عرفت آنفاً.

وكان من الطبيعي أن يحذو الشعراء الذين جاءوا بعد البارودي حذوه في أول الأمر ، ولا سيما هؤلاء الذين لم يتزودوا بثقافة غربية ، أو عرفوها وثقفوها ولم يكن لهم تلك الطبيعة الثائرة ، أو القوة على ابتداع مذهب جديد في الأدب ، ولم يروا نموذجاً إبداعياً يحاكونه ، فحافظوا على المذهب الذي عرفوه ، وأجادوه •

لقد قلدوا الشعر العربي القديم في أوج عزته كما فعل البارودي ، ولم يلتفتوا إلا نادراً لما تخلف عن عصور الضعف من حلي وزخارف ومحسنات ، وتاريخ شعري•

وأهم خصائص تلك المدرسة التقليدية الحديثة متانة الأسلوب ، والعناية به عناية فائقة فقلما تجد خروجاً على قواعد اللغة ، أو خطأ ، أو ركاكة وإنما تجد شعراً مصقولا متينا ، مشرق الديباجة • تجد هذا عند صبري ، وعند حافظ ، وعند عبد المطلب ، وعند البكري ، والجارم ، ومحرم ، والكاشف ، ونسيم ومن على شاكلتهم ، على اختلاف بينهم في تقليدهم الشعراء الأقدمين الذين تأثروا بهم • فمنهم من راقه شعراء العصر العباسي والشعر في ازدهاره ، فقلدوا أبا نواس والبحتري وأبا العلاء ، وابن الرومي ، وعارضوهم في قصائدهم ونسجوا على منوال أسلوبهم : جزالة في رقة الحضارة وعذوبة المدنية القديمة ، وولع بالتشبيهات والاستعارات وأنواع المجاز • ومنهم من رجع إلى الخلف أكثر من هذا فتوعر قليلا وحاكى

شعراء العصر الأموي ، أو الجاهلي ، وجاء شعره بدويَّ النسج ، متين التركيب ، عليه سيما الفتوة العربية قبل أن ترققها الحضارة ، مثل عبد المطلب .

ومن خصائص تلك المدرسة كذلك استخدام القصيدة بمظهرها المعروف ذات الروي الواحد والقافية الواحدة ، والوزن الواحد . وكثيراً ما ابتدءوا تلك القصيدة بالنسيب كما كان يفعل شعراء العرب الأقدمون ، أو تركوا النسيب كما فعل ذلك من قبلهم بعض شعراء العصر العباسي حيث بدءوا بالغرض من غير تلك المقدمة الموروثة عن الجاهلية . على أن القصيدة الحديثة لا تختلف عن القديمة في تعدد عناصرها ، فلم ينظروا إليها نظراتهم الى بناء متماسك الأجزاء أو كائن حي ، إلا قليلاً حين وضعوها في الأسلوب القصصي كما ترى ذلك عند حافظ وعبد المطلب أحياناً . ولكنَّ الغالب على شعر هذه المدرسة هو جعل البيت — كما كان من قبل — وحدة القصيدة ، ويجوز فيها التغيير والتبديل من غير إخلال بالمعنى . وقليل منهم من جرؤ على استخدام الموشحات أو ما يشابهها .

ومن خصائص تلك المدرسة كذلك أن موضوعات شعرهم قلما طرأ عليها تجديد ، اللهم إلا ما تقتضيه خصائص العصر العامة . فأغلبهم كان مدّاحا ، يمدح الخليفة وإن لم يعرفه أو تكن بينه وبينه صلة ، أو ثمة أمل في أن يعرفه ، ويمدح الأمير وحاشيته ، ويغير ولاءه كلما تغيرت الوجوه الحاكمة من غير تحرج أو تردد ، لأنه لم يكن ينظر إلى المدح نظرتنا له اليوم ، ولأن الاهتمام بالشعب لم يكن قد بلغ غايته ، فكان الأمير هو المحور الذي يدورون حوله : مثلهم في ذلك مثل الأدباء الإنجليز والفرنسيين قبل أن تظهر الحركة (الروماتيكية)(١) .

وقد صرفهم المديح كما صرف أسلافهم العرب من قبل عن الاهتمام بالطبيعة ، وبالحياة الإنسانية ، وإن التفتوا في أخريات زمانهم ، نظراً لتطور الحياة في مصرَ إلى

---

(١) كانت الحركة الرومانتيكية في أوائل القرن التاسع عشر ثورة على تلك التقاليد ، فمن أدباء الانجليز في القرن الثامن عشر الذين مثلوا تلك المدرسة التقليدية وعنوا بالاسلوب ولم يلتفتوا للطبيعة وجعلوا الشعر الفاظا خاصة به . درايدون وبوب ، وتومسون وغيرهم ، وكلهم كان شاعر بلاط نغرم بالمديح ، ويتملق الحاشية راجع Modern English Literature ص ١٣٥ وما بعد لـ G. H. Mair and A. G. Ward
وراجع كتابنا (المسرحية) ففيه دراسة مستفيضة عن المدرسة الكلاسيكية، وبقية المذاهب الادبية الكبرى.

بعض ذلك وإلى الشعب وآماله ؛ ولكنهم على كل حال كانوا ينظرون من خلال ذاتهم ومقدار تأثرهم بالأحداث المحيطة بهم ، فلم يكن شعرهم في الشعب موضوعياً .

وكانوا يهتمون بالطبقة الراقية من الأمة ، فيمدحون أعلامها ، ويرثون عظمائها ، ويتبادلون وإياهم الرسائل الإخوانية .

وقد وصفوا بعض الأشياء ، ولكنهم قلما أفردوا للوصف قصائد بذاتها ، وأهمل أكثرهم الطبيعة المصرية ، أو قال فيها الشيء القليل ، ونظر إليها نظرة عابرة من غير أن يقف طويلا ، على الرغم من تنبه الشعور الوطني والإحساس القومي في أخريات عهودهم .

وتراهم يحاولون التجديد في الموصوفات ، وكأن لديهم عقدة نقص يحاولون إخفاءها ، فيكثرون من الكلام على البخار ، والطيارة وغيرها ، ليثبتوا أنهم يجارون عصرهم ، والحضارة التي يتمتعون بها .

وقد تخلف عند بعضهم شيء من الأغراض التي قضت عليها حركة التجديد ، فترى الهجاء الشخصي والاجتماعي كما عند صبري ، وترى الفخر كما عند عبد المطلب ، وعلى العموم فدائرة الشعر لديهم ضيقة ، وموضوعاتهم محدودة ، وإن أفاضوا في الشعر السياسي والاجتماعي متأثرين بالحركات القوية التي لم يجدوا بدأ من أن يتأثروا بها .

أما معانيهم فليس فيها جديد إلا النادر كما ترى ذلك عند توفيق البكري ، ومعظمها مأخوذة من الأدب العربي القديم ، أو من المعاني المتداولة ، وخيالهم تصويري مبني على الاستعارة والتشبيه والمجاز ، بل كثيراً ما تكون تشبيهاتهم غير مجارية لزمانهم أو بيئتهم ، وإنما نهجوا فيها نهج العرب الأقدمين ، متأثرين بالقوالب المحفوظة ، والعبارات المتداولة .

كان أغلبهم متزمتاً ، جاداً في حياته ، وإذا تغزل عفّ ولم يفحش ، وفي أدبهم تكثر الحكمة والموعظة والإرشاد ، فهم يجعلون للشعر غاية يهدف إليها ، ولم يعرفوا معنى (الفن للفن) .

وبعد ، فهذه أهم خصائص تلك المدرسة . على أن هذه الخصائص المشتركة بين شعرائها تختلف قوة وضعفاً أو وجوداً وعدماً في بعض الشعراء عن بعض ، مع ميل في بعضهم إلى التجديد بحذر ، أو نفور منه ألبتة . وستتضح تلك الميزات حينما ندرس شعراء تلك المدرسة .

ولا أستطيع أن أحصي كلَّ شعراء المدرسة التقليدية ، أو أترجم لهم جميعاً ، فإن ذلك يحتاج إلى موسوعة أدبية كبيرة ، وإنما سأترجم لنماذج منهم ، لأن مجال هذا الجزء أضيق من أن يتسع لهم جميعاً .

على أن أترجم للبقية الباقية منهم في الجزء الثالث إن شاء الله .

— ١ —

اسماعيل صبري

١٨٥٤ — ١٩٢٣

ولا تعجب إذا عددنا إسماعيل صبري في شعراء المدرسة التقليدية ، فعلى الرغم من أنه درس في فرنسا بعض الزمن ، واحتك بالثقافة الغربية احتكاكاً مباشراً سواء في دراسته بمدينة (إكس) ، أو باطلاعه على القوانين الفرنسية ، وشغله مناصب قضائية كثيرة فإنه لم يفد من تلك الدراسة القانونية ، وما عساه قرأ في الفرنسية إبان مقامه في فرنسا من أدب واجتماع ، كما لم يفد من اتصاله بالحياة الغربية ، وقضائه رَدَحاً من الزمن بين الغربيين إلا قشوراً وصفات عامة في شعره وجّهته نحو نوع خاص منه ، ثم صَقَلاً في الذوق ، وقد يكون هذا طبيعة فيه لا مكتسباً من إقامته بفرنسا ، وقد يكون من أثر الوظيفة ، وكثرة اختلاطه بالأجانب المقيمين بمصر[١] • فكم من شاعر عربي قبل صبري ، وبعد صبري اشتهر بالرقة ، وإرهاف الحس ، وجمال الذوق ، ولا سيما إذا كان من أهل القاهرة ، والقاهرة قد عرفت من قديم الزمان بأنها مدينة الظرف والدماثة ، والنكتة ، والمرح •

نشأ إسماعيل صبري بالقاهرة ، والتحق بمدرسة (المبتديان) وهو في الثانية عشرة من عمره ، وأتم دراسته في مدرسة الإدارة والألسن في سنة ١٨٧٤ ، وكان وهو في المدرسة يجيد الخط ، ويعنى به حتى بلغ في ذلك حداً جعل أولي الأمر يفكرون في تعيينه مدرساً للخط • وكاد إسماعيل يستجيب لهم لولا أن علي مبارك وزير المعارف حينذاك أقنعه بالعدول عن هذا ، ضناً بمواهبه أن تقبر في مثل هذه المهنة ، ولأنه كان يعده لما هو أسمى رتبة وأجدى عليه وعلى الأمة[٢] • وما زال يتعهده حتى أتم دراسته بمصر • ونبوغه في الخط وهو فن جميل يؤيد ما ذكرناه آنفاً من أن دقة

(١) تراجم شرقية وغربية لهيكل ص ١٨٦ •

(٢) أحمد الزين في مقدمة الديوان ص ٣٥ •

حسه ، وكمال ذوقه ، وحبه للجمال لم يكن مكتسباً من إقامته بفرنسا • وإنما كان طبيعة وميلاً فطرياً فيه •

ثم أرسل إسماعيل صبري لدراسة القانون بمدينة (إكس) سنة ١٨٧٤ ، وتقلب في مناصب القضاء المختلفة ، وترقى في سلمه حتى عين (نائباً عمومياً) وكان أول مصري يشغل هذه الوظيفة ، وذلك في سنة ١٨٩٥ • ثم عين محافظاً للإسكندرية سنة ١٨٩٦ ، ووكيلا لوزارة العدل (الحقانية) إلى أن اعتزل الخدمة في سنة ١٩٠٨ ، وقد أنعم عليه بعدة رتب وأوسمة ، وانتقل إلى رحمة الله في مارس ١٩٢٣ •

لم يذكر أحدٌ ممن تكلم عن صبري سواء من أصدقائه أو معاصريه شيئاً عن طفولته وأسرته ، وعوامل الوراثة فيه ، وهذا حقاً شيء يؤسَفُ له ، فإن كثيراً من هؤلاء الذين كتبوا عنه قد خالطوه وصادقوه ، وعرفوا من أمره ودخيلته ما لا يعرفه جمهرة الناس ، ولأن ذكر دراسته وتقلبه في مناصب عدة لا يفيد مؤرخ الأدب بقدر ما يخدمه معرفة البيئة التي ترعرع فيها الشاعر ونما •

ومهما يكن من أمر فقد أجمع الذين كتبوا عنه أنه كان مرهف الحس ، أنيق المظهر والمخبر ، دمث الخلق ، لين العريكة ، خفيف الروح ، حاد المزاج[1] ، كما أنه كان أبي النفس حيبا ، مترفعاً عن الدنايا ، لم يغش دار (كرومر) أو يتصل به على الرغم مما بذله من محاولة لاجتذابه إليه[2] •

ولعلك تلمس في شعره شيئاً من صفاته ، فقد كان حريصاً على أصدقائه الذين يتخيرهم بعد طول نظر ، وهم قلة ، فإذا صادق ضَنَّ بصديقه عن سماع أي وشاية ، بل يقابل الوشاية بالثناء • وكان كثيراً ما يردد قول الأحنف : « ما أقبح القطيعة بعد الصلة » وفي هذا يقول مخاطباً أصدقاءه الذين كرموه ، وهو يودع الإسكندرية :

واحفظوا عهديَ القديم فإني	حافظ عهدكم برغم البعـاد
فـإذا قرَّب النفوس ائتلافٌ	هـان عندي تفرقُ الأجساد

وهو القائل :

(١) الدكتور طه حسين في المقدمة ص ٨ •

(٢) احمد الزين في المقدمة ص ٣٠ •

وما المرء إلا بخلق كريم   وليس بما قد حوى من نَشَبْ

وله في أخلاق الناس ، والتبرم بهم قصيدة طويلة حين ظهر (مذنَّب هالي)[1] وتمنَّى صبري لو أنه صدم الأرض وأراحها من أهل النفاق والعقوق وأهل البغي والظلم إلى غير ذلك مما كان يؤلم حسَّه الرقيق ، وأخلاقه الدمثة ، فقال :

غاض ماء الحياة من كل وجه   فغدا كالح الجوانب قفرا
وتَفشَّى العقوق في الناس حتى   كاد ردُّ السلام يحسب برّا

وفيها يقول :

أغداً تستوي الأنوف فلا ينـ   ـظر قومٌ قوماً على الأرض شَزْراً ؟
أغداً كلنا تراب ولا مُلْـ   ـكَ خلافَ التراب براً وبحرا ؟
أغداً يصبح الصراع عناقاً   في الهَيولي ويصبح العبد حرا

ومن قوله في الاعتداد بكرامته ، وضناً بها عن أن تهان :

لَكِسْرَةٌ من رغيف خبز   تؤدَمُ بالملح والكرامه
أشهى إلى الحر من طعامٍ   يختم بالشهد والملامه

ومن شدة إبائه أنه لم يكن يتورع عن ردِّ الإهانة على طريقته ، ولو كان من أهانه عظيما ، استمع إليه يقول :

أيها التائه المدل علينا   ويك؟ قل لي : من أنت؟ (إني نسيت)

وفي قوله (إني نسيت) تهكم مر لأن هذا الشخص لو كان عظيما حقاً ما نسيه صبري ، ولكنه لا يستحق أن يذكره صبري ، وهو بهذا يخبره أنه أرفع منه شأناً :

وإذا خانه صديقه وعقه ، وحاول إيذاءه تذكر عهد الوداد ، فلم يرد على اعتدائه ، وحافظ عليه :

إذا خانني خِلٌ قديمٌ وعقني   وفَوَّقتَ يوماً في مقاتله سهمي

---

(١) ظهر هذا المذنب في سنة ١٩١٠ ، وقيل إنه كاد يمس الأرض ويصدمها ، ولو حدث هذا لانتهت الدنيا ، وسمي مذنب هالي نسبة لمكتشفه .

تعرض طيفُ الـود بيني وبينه فكسَّر سهمي فانثنيت ولم أرمِ

وكان يؤثر الحلم على الغضب فإذا ما دعت دواعي الغضب ، وأثارته الحادثات تذرع بالحلم ، ورجع إلى نداء العقل .

إذا ما دعا داعٍ إلى الشر مرة وهزت رياح الحادثات قناتي
ركبت إليه الحلم خيرَ مطيةٍ وسرت إليه مـن طريق أناتي

وسترى تلك الدماثة والرقة ، ولين العريكة واضحة في شعره ، حتى في الموقف الذي يتطلب نضالا وقسوة . ولقد ذكرنا شيئاً عن وطنية إسماعيل صبري فيما سبق(١) ، وعن أثر الحالة الاجتماعية فيه(٢) ، وأنه لم يكن ذلك الوطني المتحمس ، بل كان حذراً في كلِّ ما يقوله كما أنه لم يقل شيئاً في مآسي الشعب ومشكلاته لأنه كان في عزلة عنه إلا من خاصة أصدقائه الذين يتخيرهم بدقة .

ولقد كان إسماعيل صبري برماً بالحياة على الرغم مما أوتيه من منصب وجاه ولقب وسعة في العيش ، ولعل هذا راجع إلى أنه كان يأمل أن يصل بكرم خلقه وشاعريته إلى ما وصل إليه من هم أدنى منه موهبة ، وممن وسموا بالتملق والنفاق وسيء الأخلاق ، وقد أشار في شعره إلى أنه قد أصبح نسْياً منسيا لا يذكر اسمه عند توزيع المناصب ، لاعتزاله ، وعدم طمعه في شيء منها ، فكأنه في جوف الحيتان :

أين صبري ؟ من يذكر اليوم صبري بعـد أعـوام عزلـة وشهـور
أسألوا الشعر فهـو أعلمُ هـلاَّ أكلتـه الأسماك طـيَّ البحـور

ومن دلائل برمه بالحياة ، ذكره الكثير للموت ، تراه تارة ينظر للموت قلقا :

أتزودت من ضياء البدور لليـال كثيفـة الديجـور

وتارة ينظر إليه مرحباً مطمئناً :

يـا موت هأنذا فخـذ مـا أبقت الأيام منـي
بينـي وبينك خطـوة إن تخطها فرَّجت عني

---

(١) راجع ص ١٢٥ من هذا الكتاب وما بعدها .

(٢) راجع ص ١٩٣ من هذا الكتاب .

وأحيانا يعزي نفسه بأنها إن سئمت الحياة ، ففي التراب والموت الراحة ، فالأرض هي الأم الرءوم :

إن سئمت الحياة فارجع إلى الأر ض تنم آمناً من الأوصاب
تلك أمٌ أحنى عليك من الأمِّ التي خلّفتك للأتعاب
لا تخف فالممات ليس بماحٍ منك إلا ما تشتكي من عذاب
وحياةُ المرء اغترابٌ فإن ما ت فقد عاد سالماً للتراب

أما خفة روحه ، وحلو دعابته ، وبراعته في النكتة ففي أشعاره التي قالها على لسان الوزراء والحكام ، وفي المقطوعات التي نظمها في محمد المويلحي مشيراً إلى (الكف) الذي ضُربه ما ينبيء عن روح قاهرية محبة للنكتة التي تدور على التلاعبَ بالألفاظ ، وتداعي المعاني والتورية ، استمع إليه يقول في يوسف سابا باشا وقد تولى رئاسة شركة مياه القاهرة :

أين (سابا ؟) أين (سابا) يا ترى أين (سابا) ذو المزايا الباهرة ؟
قال لي قوم ثقات إنهم لمحوه في مياه القاهرة

وإلى ما قاله في اسكندر فهمي باشا مدير السكة الحديدية حين اعتزل منصبه.

أصلبٌ أنت ؟ قل لي ، حار أمري إذا فكرت فيك وضاع حدْسي
خرجتَ من الشريط ولم تهشّم كأنك خارجٌ من بيت عرس

ففي قوله (صلب) إشارة إلى المعدن الذي تصنع منه القضبان والقاطرات ، وفي قوله (خرجت من الشريط) تلميح إلى الشريط الحديدي المعروف . واسمع إليه كذلك يقول على لسان محمد المويلحي مشيراً إلى ذلك الكف الذي ضُربه على صدغه ولم يثأر لكرامته :

أنا فرع الألى رفعوا بناءً يرى للنسّر فوق ذ ّراه بيت
أرِيش يراعتي بمداد خبث وأنّى لاح لي هدف رميت
وإن أحدٌ تعرضٌ لي بسوء وقف وراء صُدْغي واختفيت

وقد أفاض الأستاذ أحمد الزين الذي صاحبه ثلاثة عشر عاماً في ذكر خلاله

ومزاياه في المقدمة ، وإن كان شعره لا ينم على الكثير مما ذكر ، لأنه كان مقلا ، وحسبنا هنا ما أوردناه ففيه الكفاية التي تلقى ضوءاً على وجه الشاعرية ، وعلى مذهبه في الكلام ، وفي الحياة .

أمّا ثقافة إسماعيل صبري ، فنعلم من تاريخ حياته أنه درس التركية والعربية في المدارس المصرية ، ثم درس الفرنسية في فرنسا ، ويدلنا شعره المبكر على أنه وعى من العربية قدراً مكنه من نظم الشعر وهو في السادسة عشرة من عمره . وقد ذكر الأستاذ أحمد الزين أنه كان يحفظ ديوان عمر بن الفارض وكان شديد الإعجاب بشعر البحتري[١] مدمناً لقراءته ، مفضلا له على غيره من الشعراء . وقد أخذ عن البحتري الكثير من حلاوة التنسيق ، وعذوبة الألفاظ ووضوح المعنى . على أن في شعره كما سنرى فيما بعد ما يدل على أنه قرأ لشعراء كثيرين ، وأفاد منهم لفظاً ومعنى ، أما الأدب الفرنسي فقد حاول الدكتور محمد صبري أن يتلمس آثاره في أدبه ، وساق غير مثل على ذلك[٢] ، ولكنا نرى أن ما أورده له شبيه في الأدب العربي القديم ، وأكاد أعتقد أن صبري حين فكّر فيه لم يرد على ذهنه الأدب الفرنسي ، وإنما أسعفته ذاكرته الواعية ، بما استظهره سابقاً حين كان يروض القول ويحاكي الأقدمين ، ليتمرس على قول الشعر ، بهذا المعنى أو ذاك ، والعربية بهذا كانت أقرب إليه من الفرنسية ، ولا سيما والألفاظ تكاد تكون متحدة مع ألفاظ الأبيات الغربية القديمة .

وعلى الرغم من أن النقاد أجمعوا على أنه كان معنياً بشعره « شديد النقد له ، كثير التبديل والتحويل فيه[٣] » وهو « يتخير اللفظ الشريف للمعنى الشريف ، واللفظ القوي للمعنى القوي ، واللفظ الرقيق للمعنى الرقيق[٤] » وعلى الرغم من قوله :

شعر الفتى عرضه الثاني فأحر به ... ألا يشُوه بالأقـذار والـوَضَر
فانقد كلامك قبـل الناقدين تحط ... ثاني النفيسين من لَغْوٍ ومن هذر
واقرأ فديتك تأمـن مـا تحاذره ... من قارىء هازىء أو قارىء ضَجِرِ

على الرغم من كل هذه العناية ، وهذا التحذير ، فإن إسماعيل صبري وقع في

---

(١) المقدمة ص ٣٨ .
(٢) الدكتور محمد صبري : أدب وتاريخ .
(٣) خليل مطران : مختارات المنفلوطي ص ٦٧ .
(٤) احمد امين في المقدمة ص ١٦ .

أخطاء كثيرة في اللغة والأسلوب وفي المعاني ، ولكنها أخطاء لا تذهب بمنزلته الأدبية ، وإن دلت على أنه لم يكن متمكناً كل التمكن في قواعد اللغة ومتنها ، وعلى أن لغة الصحافة قد جنت عليه ، وسنرى نماذج من الأخطاء فيما بعد .

وسترى من دراستنا لشعره أنه لم يفد من معرفته بالفرنسية إلا قليلا جداً يتمثل في الروح العامة لبعض المقطوعات ، فلا هو من الذين جددوا في القالب الشعري فأتى بقصص أو ملاحم أو مسرحيات ، ولا هو بالذي جدّد في المعاني أو الصور أو الخيالات على نحو ما ترى عند مطران الذي تأثر كثيراً بالأدب الفرنسي .

شعـره :

قال مطران : « أكثر ما ينظمه (إسماعيل صبري) فلخطرة تخطر على باله من مثل حادثة يشهدها ، أو خبر ذي بال يسمعه ، أو كتاب يطالعه ... ينظم المعنى الذي يعرض له في بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة ، وقلما يزيد على هذا القدر إلى حيث يتقصّد قصيدة وهو نادر[١] » .

ويقول أحمد محرم : « وصبري منذ القديم شاعر مقل ، فهو لا يستطيع المطولات ، ولا يكاد يجيدها ، وقد نضجت شاعريته فأبدع في مواضع كثيرة ، ولكنه بقي الشاعر المحدود والفنان الذي يأخذ من الفن ما يعجبه ، ويأبى أن يعطيه ما يحبه هو ويرضاه[٢] » .

فصبري شاعر مقل ، لا يكاد يجيد المطولات ، وذلك لأنه لم يحترف الشعر ، وإن أراد أن يكون شاعراً معروفاً . « فاقرأ الديوان من أوله فسترى فتى يحاول قرض الشعر على النحو الذي تعلم الناسُ من قبله عليه قرضَ الشعر ، يقول في الموضوعات التي كان الناس يقولون فيها ، في مدح الخديو إسماعيل ، وفي مدح بعض الأشخاص الذين كان يراهم في سِنه أهلا للمدح ، لا يريد بذلك إلا الفن ، وإلا أن ينظم الشعر ، ويرفعه إلى الممدوحين ، وينشره في الصحف ، ويتحدث الناس عنه بأنه شاعر[٣] » .

ولم يكن شعر صبري أول عهده بالأدب يبشر بشاعر مقتدر يحدث أثراً يذكر في عالم الشعر[٤] ، وأرى أن صبري على الرغم مما أسبغ عليه معاصروه من ثناء

---

(١) مختارات المنفلوطي ص ٦٧ .
(٢) مجلة ابولو سبتمبر ١٩٣٤ ص ١٠٥ .
(٣) طه حسين في المقدمة ص ٨ .
(٤) احمد محرم في مجلة ابولو سنة ١٩٣٤ ص ١٠٤ .

ومديح ، وما أطروا به شعره ، ولا سيما ذلك الذي قاله بعد عودته من فرنسا ، وعلى الرغم من أنهم كانوا يلقبونه تارة بالرئيس ، وتارة بشيخ الشعراء ، ومن أنهم أثنوا على صدق عاطفته ودقة معانيه ورقتها لم يأت بجديد يذكر في عالم الشعر ، وأنه فهم الشعر كما كان يفهمه الشيخ علي الليثي ، وإن كان أجود منه لفظاً ، وأحسن معنى ، وأمتن ديباجة • إن شعر إسماعيل صبري امتداد لمدرسة القدماء ، ولا أستطيع أن أقول : إنه امتداد لشعر البارودي • فشتان ما بينهما •

ولعل الذي جنى على صبري هو أنه ابتدأ حياته الشعرية مدّاحاً ، ولم يجد النموذج المعاصر القوي في فن المديح ، لأن البارودي لم يكن من فرسان هذا الفن وما ورد له قليل جداً بالنسبة لشعره ، وفن المديح قد استنفدت معانيه في الأدب العربي منذ زمن بعيد ؛ ولذلك أخذ يقلد القدماء من شعراء العربية ولكن لم تواته ذخيرته من محفوظ الروائع الخالدة على إجادة التقليد واكتفى بترديد المعاني المطروقة من قبل بأسلوب يناسب بيئته وثقافته • ولم يستطع فيما بعد التخلص من ربقة الأدب العربي القديم ، والافادة من دراسته للأدب الأجنبي أو من تقليد البارودي ، أستاذ المدرسة التقليدية الحديثة •

ولم أجد شاعراً صدق فيه القول : « بأن المعاصرة حجاب » خيراً من إسماعيل صبري فلا شك أن الرجل لدماثة خلقه ، وبعده عن المنافسات والحزازات ، ورقته ولطف معاملته للناس قد أجمعت القلوب على محبته • وهم إذا نظروا إلى شعره نظروا إليه بعين الصديق ، وتمثل لهم إسماعيل صبري الرقيق الحس ، المهذب الخلق ، الكريم الخصال ، صاحب الندوة العامرة التي كان يغشاها الشعراء ؛ ويلقبونه لكبر سنه ، ولمقامه الأدبي بالرئيس أو شيخ الشعراء ، وأنساهم كمال إسماعيل صبري ما في شعره من مساوىء •

ولا أريد أن أتجنى على إسماعيل صبري ، وهأنذا أعرض عليك شعره لترى صدق ما أقول :

فصبري لم يجدد في موضوعات شعره ، وإنما سار على نهج العرب الأقدمين ، وكان عالة عليهم في معانيهم وألفاظهم وأغراضهم : مدح ، ورثى ، وهجا ، وهنّأ ، وتغزل ، كما كانوا يفعلون • حتى الشعر السياسي الذي طرقه البارودي من قبل ، والذي أفاض فيه حافظ وشوقي ، وعبد المطلب ، ومحرم ، والكاشف — لم يكن له

فيه إلا نصيب ضئيل. كما أنه لم يهتم بالناحية الاجتماعية في مصر،فيصور حال الشعب وآماله ، ويشاركه أفراحه وأحزانه . وحتى شعره الذي كان يقوله لنفسه ، والذي لا يدفعه إليه إلا شعوره ترى فيه أثر التقليد ، وان بدا مصوغاً صياغةً ظريفةً ، فقد نظر فيه إلى معاني من سبقه من الشعراء وحاكاهم ، وقصّر عنهم في الأداء .

وأهم غرض قال فيه صبري ، وأكثر هذه الأغراض تداولا في شعره هو المديح والتهاني وما يتصل بهما . وقد بدأ حياته الشعرية بمدح الخديو إسماعيل ، وهو بعد طالب في مدرسة الإدارة والألسن لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره فمن ذلك قوله من قصيدة ، وقد نشرت بمجلة روضة المدارس تشجيعا له :

سَفَرَتْ فلاح لنا هلالُ سعود ⁂ ونما الغرام بقلبي المعمود
وجَلَتْ على العشاق روض محاسن ⁂ فسقى الحياءُ شقائق التوريد
ورنت بأحوَرِ طرفها وتبسمت ⁂ فبدا ضياءُ اللؤلؤ المنضود

إلى غير ذلك من الغزل المتصنع ، والمعاني القديمة التي عفّى عليها الزمن ، وابتذلت من طول ما رددها الشعر العربي القديم ، حتى وصل إلى مدح الخديو إسماعيل . هكذا ابتدأ إسماعيل صبري ، ولقي تشجيعاً من أولي الأمر ، ومن رئاسة تحرير الوقائع المصرية ، فقد ورد في الوقائع المصرية تقدمة لبعض قصائده في ذياك العهد ، والتي من هذا الطراز :

« ومن أبدع ما ورد من كلام الأفندية التلامذة المنتظم — ولا جرم — في سلك كلام الأساتذة ما جادت به قريحة الذكي النجيب ، الذي تحسنُ رواية كلامه وتطيب، إسماعيل أفندي صبري ..... وهي هذه الذاهبة محسّناتها البديعية مذهب الانسجام المفيد ، في التهنئة بقدوم الجناب الخديو الأفخم السعيد » .

ومن ذلك قوله من قصيدة يمدح بها الخديو :

أغرّتك الغراء أم طلعةُ البدر ⁂ وقامتك الهيفاء أم عادل السُّمر
وشعرك أم ليل تراخت سدوله ⁂ وثغرك أم عقد تنظم من در

إلى أن يقول في مدحه :

سَري" سما فوق السِّماك مقامه وفاق على الشمس المنيرة والبدر
وما الغيث إلا مـن بحار نواله ألم ترها تروي الوفود بلا نهر

ونحن في غنىً عن التعليق على هذا الشعر الذي قال فيه أحمد محرم : « إن أي شاعر في زمان إسماعيل صبري حينذاك كان خيراً منه »[1] ، وساق على ذلك عدة أمثلة . وليس حاله بعد أن رجع من البعثة ، وتزود من علوم الغرب في باب المديح — بل وفي غيره — بأحسن منه قبل أن يذهب . استمع إليه يقول في عام ١٨٧٨ وهو العام الذي انتهى فيه من دراسته بأوربا ، كيف يهنىء توفيقاً ، ويؤرخ في شعره على عادة شعراء الضعف . على أن السنة التي شرعها البارودي في الشعر ، وما وضعه له من منهج قويم ، وما ضربه للشعراء من نماذج غاية في الفحولة كانت حرية أن تجعل الشعراء يتقدمون بالشعر خطوة إلى الأمام ، ولا يرجعون خطوات إلى الوراء . وهذا هو يقول :

مولاي وافاك عام مشرق بَهِج" فيـه لآمال هـذا القطر تحقيق
أبشر بـه فلسان السعد أرّخه (صافاك عامُ العلا والخير توفيق)
١٨٧٨

ويقول من قصيدة أخرى في عام ١٨٨٦ ، فيبتدىء الشطر الأول بتأريخ :

(توفيق مصر العامُ وافاه سعده) وسعى إليـك بفيضه المتكاثـر

ويختم القصيدة بتأريخ :

مولاي هذا السعد قال مؤرخاً (بشرى أبا العباس عام بشائر)

وتجد له في كل قصيدة أبياتاً من هذا النوع ، حتى لقد برع في التأريخ الشعري براعة فاقت عصور المماليك والعثمانيين . لقد مدح من قبل إسماعيل صبري كثير من شعراء العربية الفحول ، ولكنك تقرأ شعر المتنبي أو البحتري أو أبي تمام في المدح فتهتز طرباً ، وتجد جديداً ، وتجد فحولة وقوة ، واستطراداً إلى الوصف الرائع ، والحكمة البالغة ، ولكن صبري للأسف لم يأت بأي جديد في مدائحه .

---

(١) مجلة ابولو — العدد السالف الذكر — ص ١٠٤ .

والأنكى من ذلك أنه في نسيبه كان يقف على الأطلال والدِّمن ، وأين في مصر الأطلال والدِّمن ؟! ، وهب أنه جعل منازل الحبيبة الغائبة في قصور القاهرة ومعالمها بمنزلة الطلل البالي فهلاّ جدّد في الصورة ، وافتنّ في التعبير ، بدلا من ترديد ما لاكته ألسنة الشعراء منذ قال امرؤ القيس : « قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل » ، يقول صبري في قصيدة يهنىء بها توفيقاً في عام ١٨٩٠ :

قف بالديار وحيِّ ركبا دارساً لو يستطيع إجابة حيّاكا
وانثر دموعك في ثراه صبابة عل البكاء يزيل بعضَ جَواكا

ويقول من قصيدة أخرى يمدح عباساً في عام ١٩٠٨ بعد أن شاعت ضروب الشعر الحديث على يد مطران وشوقي وشكري :

لو أن أطلال المنازل تنطق ما ارتدَّ حَرَّانُ الجوانح شيِّق

فأين هذه الصورة القديمة التي لا تتعدى ذكر القدم ووصف البلى ، وذلك الوصف الجاف الذي لا يفيد من الوجهة الفنية ولا يغني ، فضلا عن انحراف الذوق، فإن صبري يريد التهنئة ـ وليس من المناسب في مقام التهنئة إيراد مثل هذه الصور الحزينة ، ولا ذلك اللون القاتم ، أين هذه الصورة من قول أبي نواس الثائر على وصف الأطلال والدمن حين يقول :

ألا لا أرى مثلي امترى اليوم فيرسم تَغصُّ به عيني ويلفظه وهمي
أتت صور الأشياء بيني وبينه فظني كلا ظن وعلمي كلا علم

وقول أبي تمام :

على مثلها من أربع وملاعب أذيلت مصونات الدموع السواكب

أو قوله :

أدارَ البؤس حبَّبك التصابي إليَّ فصرت جناتِ النعيم
لئن أصبحتِ ميدان السَّوافي لقد أصبحت ميدان الهموم
أظن الدمع في خدي سيُبقي رسوماً من بكائي في الرسوم

وإذا تتبعنا أبياته في المدح من تلك القصيدة القافية التي اشتهرت ، لأنه أثنى

فيها على عباس ثناء عاطراً لعفوه عن سجناء حادثة دنشواي ، ولأنه استطرد إلى وصف تلك الحادثة وجدناه مقلداً في كل بيت من أبياتها ، ناظراً إلى بيت من الشعر القديم ، تارة يأخذ اللفظ والمعنى وتارة يكتفي بالمعنى وحده ، من غير توليد أو إضافة جديدة على الصورة ، ولنضرب على ذلك مثلا بقوله :

أحرزتَ يـا عباس ، كلَّ فضيلة ٭ وبلغتَ شأواً في العلى لا يُلحَق
من ذا يجاري أخمصيك إلى مدى ٭ وهواك سبـاقٌ ، وعزمك أسبق

فالثناء على الممدوح بأنه حاز كل الفضائل ، وبأنه بلغ في العلا شأواً لا يلحق ، كلام قديم جداً ، طالما ردده الشعراء ، هذا هو مهيار الديلمي يقول :

لا أدعي لأبي العلاء فضيلة ٭ حتـى يسلمها إليـه عداه

وما أشبه الشطر الثاني من البيت الأول بقول أبي تمام (هيهات تطلب شأو من لا يلحق) .

وفي السبق إلى الغايات يقول البحتري :

طلوبٌ لأقصى غاية بعد غاية ٭ إذا قيل يوماً قد تناهى تزيدا

ويقول أحمد محرم في نقد البيت الثاني : « ومن الخطأ قول صبري : من ذا يجاري أخمصيك » فإن الملوك لا تمدح بمثل هذا ، وأولى بهذه المجاراة أن تكون بين العدّائين ، كالسُّليك والشَّنفرى وأمثالهما ، فليس المجد مما ينال بالعدو على الأقدام فيكون للأخمصين عملهما فيه ، قال البحتري :

إذا سؤدد دانى له مدَّ همَّه ٭ إلى سؤدد نائي المحل يزاوله

فلم يقل مد قدمه أو طار بأخمصيه ، وإنما قال مد همه . وقد قال المتنبي أروع من هذا في نفس المعنى :

وحق له أن يسبق الناس جالساً ٭ ويدرك ما لم يدركوا غير طالب
ويُحذَى عرانين الملوك وإنهـا ٭ لمـن قدميه في أجلِّ المراتب

وقد عد بعضهم من مبتكرات صبري في هذه القصيدة قوله :

إن يرتجل عرفٌ فأنت إلى الذي ... لـم يرتجله المالكـون مُوَفّق

وهذا المعنى قديم طرقه غير واحد من الشعراء ، قال طريح الثقفي :

قـد كنت تعطيني الجزيل بديهـة ... وأنت لما استكثرتُ من ذاك حاقرُ
فأرجـع مغبوطاً وترجـع بالتـي ... لهـا أول في المكرمـات وآخـر

وقال الأبيوردي :

جاء الندى والبأس منك بديهة ... لمـا كرهت الوعد والإيعادا

ومن قبل هذين قال زهير بن عروة المازني :

مباذيلُ عفـواً جزيل العطاء ... إذا فضلة الزاد لـم تبـذل
همُ سبقوا يوم جري الكرام ... ذوي السبق في الزمن الأول

ولا تجد بيتاً من أبيات هذه القصيدة ، بل من قصائد المدح كلها عند صبري ليس له نظير في معناه ، أو معناه ومبناه عند شعراء العربية الأقدمين ، وذلك لأن باب المديح من أقدم أبواب المدح منذ اشترعه النابغةُ الذبياني ، وجرى الشعراء على سنته ، وافتنوا فيه ، وأهم صفة كان يتحلى بها الممدوح في نظرهم : الشجاعة والكرم • هل من الجديد قول صبري في هذه القصيدة ؟ :

عوذت مجدك أن تنام وفي الحمى ... أمـلٌ عقيم أو رجـاء مخفق

لقد قال المعري في هذا المجد المعوذ :

أعـاذ مجدك عبـدَ الله خالقُه ... من أعين الشهب لا من أعين البشر

وفي معنى بيت صبري قول الشريف الرضي :

نعمى أمير المؤمنين حَرِيةٌ ... ألا تنام عن الرجاء المهمل

ويا ليت صبري صاغ القصيدة كلها صياغة قوية جيدة ، فإنه لم يكن يقوى على المعنى في القصائد الطويلة من غير أن يبهر نفسه ، ويحل به الأين واللغوب ، ويتردى في حمأة الكلام السوقي المسترذل ، فمن ذلك قوله :

وأخذت رأي أولي النهى مستوثقاً   مستوزراً ، وكـذا الحكيم يدقق

فهل هذا شعر ؟ ويقول بعد هذا البيت :

حتى اهتديت إلى الصواب ولم يزل   بـين الصواب وبـين رأيك موثق

وفي هذا اتهام لرأي الممدوح وطعن عليه ، وإن حاول ستره بالشطر الثاني • وقال بعد هذا البيت :

وأهبت ، فابتكر النضار سحائباً   تهمـي ، وتفتقد المحيل وتغدق

والمحيل : ما أتى عليه الحول ، أو ما صار من حال إلى حال • وقد أراد بالمحيل الماحل فأخطأ • وبعد فهل هذا الأمر مشكل ؟ وهل معرفة جهل الأمة وسوء حالها كان خافياً على عباس ، حتى أخذ رأي أولي النهي ، واستوثق ، واستوزر ، ثم اهتدى بعد تخبط وضلال ، فأين هذا من قول مهيار الديلمي :

ودبر الدنيا برأي واحـد   يأنف أن يَشْرَكه فيه أحد
إذا استشار لم يزد بصيرة   ولا يلوم رأيه إذا استبد

أو قول الشريف الرضي :

يستمع الرأي وعنـه غنـى   قد يُصْقَل السيف ولم يطبع

وقول البحتري :

إذا ما جرى في حلبة الرأي برّزت   تجاربُ معروف له السبق قارحُ

أو قوله :

تشف أقاصي الرأي في بدآته   لعيني وستر الغيب غير رقيق

أو قول المتنبي :

كفتك التجاربُ الفكرَ حتى   قـد كفاكَ التجاربَ الإلهام

أو قول سلم الخاسر :

بديهتـه وفكرته سـواء   إذا ما نابه الخطب الكبير

وأحزم ما يكون الدهر رأياً　　إذا عَـــيَّ المشاور والمشير

وماذا عساي أقول في شعر صبري في المديح ، وهو تقليد في موضوعه ، وتقليد في طريقته وافتتاحه بالنسيب ، ووقوفه على الأطلال وتقليد معانيه ، وصوره وألفاظه ؟ فهل بعد هذا يقال إن صبري من الشعراء المجددين ؟ !

ومما يتصل بالمديح والتهاني ذلك الفيض من التقاريظ ، والقصائد التي تتخذ للزينة ، ومثل القصيدة التي قالها لتوضع في غرفة المائدة بقصر عابدين ، ومطلعها :

شمس المعالي كعقود الجمان　　قد نظّمت في صدر هذا المكان

ومثل البيتين اللذين قالهما ليكتبا على مَسْقى (سبيل) أم عباس :

أسستْ هذا على أسٍّ التقى　　أم عبـاس مـلاذ المعوزيـن
أيها الظامىء قفْ نلت المنى　　في حمى جدة أم المحسنين[١]

إن هذا الكلام لا يسمى شعراً ، بل هو نظم ، وصاحبه كما رأيت (نديم) لا شاعر ، يحاول أن يرضي البيت المالك ، والحاشية ، وتتمثل فيه الرقة والوداعة ، وسرعة البديهة ، والقدرة على القول في كل شيء ، كما هو شأن الندمان غالباً •

وإذا كان الأدب الفرنسي قد ترك أثراً في إسماعيل صبري ، فذلك الأثر يتمثل في أنه شاعر (صالون) ، وشاعر (الصالون) كما علمت آنفاً يراعي دائماً غيره ، قبل أن يراعي نفسه وقلما يفرغ إلى شعوره ووجدانه ، وفي (الصالون) يسود الذكاء ، وحسن التعبير والمجاملة[٢] •

ويذكر لنا الدكتور محمد صبري أن دار إسماعيل صبري كانت « تذكرنا بالأندية التي يرجع إليها الفضل في تهذيب اللغة الفرنسية وتجنب الكلمات الحوشية النافرة ، لأن السيدات كن فيها الآمرات الناهيات يحاسبن على كل لفظة ويتلطفن في الخطاب[٣] » ، وقد أيد هذا حافظ ابراهيم في رثائه •

---

(١) جدة أم المحسنين هي (بمبا قادن) وسبيل أم عباس كان بمدرسة بمبا قادن •
(٢) راجع ص ٢٦٠ — ٢٦٣ من هذا الكتاب •
(٣) ادب وتاريخ للدكتور محمد صبري ص ١٢٠ •

لقد كنت أغشاه في داره   وناديه فيهـا زها وازدهر
وأعرض شعري على مسمع   لطيف يحس نبـوّ الوتر

ولكني لا أوافقه على أن إسماعيل صبري قد انطبع في ذهنه كثير من الأدب الفرنسي[١]،اللهم إلا ذلك النوع من الأدب الذي ذكره الأستاذ العقاد بقوله :«ولما تهيأ لإسماعيل صبري أن يتلقى العلم في فرنسا ، ويطلع على آدابها وآداب الأوربيين في لغتها كان من الاتفاق العجيب أنه اطلع على الآداب الفرنسية ، وهي في حالة تشبه حالة الذوق القاهري من بعض الوجوه ؛ لأنها كانت تدين على الأكثر الأغلب بتلك الرفاهة الباكية التي كان يمثلها (لامرتين) وإخوانه الأرقاء الناعمون[٢] » •

ولكننا نعلم أن مدرسة (لامرتين) هي المدرسة الإبداعية التي عنيت بالأدب الذاتي عناية فائقة فانطلق شعراؤها يتغنون بكل ما يحسون به ، كما أنها عنيت بالطبيعة واكتناه أسرارها ، والتملي من محاسنها ومفاتنها ، وعنيت كذلك بالإنسانية والمجتمع عناية بالغة تصور مشكلاته بحماسة ، وكانت الحياة كلها موضوعا لشعرهم، وبرعوا في تصوير العواطف براعة فائقة ، وعنوا بالجمال والأناقة ، ولم يأخذ صبري من هذا كله إلا الجمال والأناقة وترك الهيام بالطبيعة والإنسانية والمجتمع • إن مدرسة الندمان هذه تشبه إلى حد كبير شعراء الأندية و (الصالون) ، « وإذا أتيح لك أن تحضر مجلساً من مجالس الظرفاء القاهريين في الجيل الماضي خيل إليك أنك في حجرة رجل نائم مريض : فالكلام همس ، والخطو لمس ، والإشارة في رفق ، وسياق الحديث لا إمعان فيه ••• في هذه البيئة نشأ إسماعيل صبري الشاعر الناقد البصير بلطائف الكلام ، فنشأ على ذوق قاهري صادق يعرف الرقة بسليقته وفكره ، وليس يتكلفها بشفتيه ولسانه[٣] » •

هكذا يقرر الأستاذ العقاد ، فإذا كان للأدب الفرنسي من تأثير عليه ، فإنه زاده إمعاناً في رقته ، وحباً في طريقته ، وجعله شاعراً عريقا من شعراء المنادمة ، لا شعراء الوجدان الذين يناجون نفوسهم ، ويستوحونها الإلهام ، ولا يفكرون في سواهم •

---

(١) ادب وتاريخ للدكتور محمد صبري ص ١١٢ — ١١٥ •
(٢) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ٣٣ — ٣٤ •
(٣) المصدر السابق ص ٣٢ — ٣٣ •

لقد برهن إسماعيل صبري بالقسم الأكبر من ديوانه الذي تضمن المديح والتهاني ، والتقاريظ ، وشعر الزينة ، والمناسبات ، وبتلك المقطوعات القصيرة التي تقال ليفهمها الناس والتي تعبر عن خاطرة عابرة ، لا فكرة متأصلة في نفس الشاعر ، على أنه من مدرسة علي الليثي التي لا تختلف كثيراً عن وجهة النظر الفرنسية في الشعر •

ولعله يقال إن عبقرية إسماعيل صبري قد تجلت في غير هذا الشعر الرسمي ، تجلت في « مقطوعاته القصيرة يجري فيها ذوب قلبه ، ويمزج فيها دم نفسه ، بمعناه ولفظه ، يغني فيها لنفسه ، ويقصد بها إلى بث لوعته وتخفيف كربته وتلطيف صبابته[1] » •

وهانذا أعرض هذا النوع من الشعر لنتبين ما فيه من صدق العاطفة ، وهل كان صبري فيه مجدداً ، مخلصاً للفن ، أو أنه تأثر بمدرسة الندماء ، وبحياة (الصالون) • قال صبري من قصيدته المشهورة (لواء الحسن) :

يا لواء الحسن أحزاب الهوى … أيقظوا الفتنــة في ظـل اللواء
فرقتهـم في الهـوى ثاراتهـم … فاجمعي الأمر ، وصوني الأبرياء
إن هــذا الحسن كالماء الــذي … فيــه لــلأنفس ريٌ وشفــاء
لا تذودي بعضنا عــن وِرْده … دونَ بعض واعدلي بين الظمّاء
أنت يـمُّ الحسن فيه ازدحمت … سفــن الآمال ، يزجيها الرجاء
يقذف الشوقُ بهــا في مائــج … بــين لجّين : عنــاء وشقــاء

ألا تشعر وأنت تقرأ هذه الأبيات أن صبري ليس محباً عاشقاً متيماً ؟ ، إن المحب ذا أثرَةٍ ، وغيرة ، لا يرضى إلا بأن يكون المحبوب له وحده ، ولكن صبري يحب سيدة (الصالون) يريد منها العدل في القسمة ، وتوزيع النظرات ، وقد جعل الحسن مشاعاً للجميع ، والواجب عليها ألا ترد بعضهم عن ورده ، وأن تعدل بين الظماء • وهل هذه هي العاطفة الملتهبة ؟ إنه شعر أنيق ظريف ، واضح ، ولكن ليس فيه حرارة الحب ، ولا لوعة العشق ، ولا إخلاص المحب وأثَرته •

---

(١) احمد امين في المقدمة ص ١٧ •

هذا فضلا عن أن المعاني التي طرقها صبري ، قد رددها من قبل غيره من شعراء العربية فأما أن المرأة فتنة فقضية مشهورة وهذا هو أبو نواس يقول :

ما براها الله إلا فتنة حين براها

وأما أنها لواء الحسن وأن الفتنة استيقظت في ظل اللواء فقديما قيل : « الفتنة نائمة لعن الله من أيقظها » وأما قوله : « فرقتهم في الهوى ثاراتهم » ، فقد قيل قبل هذا : « قامت حروب الهوى على ساق » . وأما قوله : « فأجمعي الأمر وصوني الأبرياء » فقد قال عمر بن الفارض أستاذ صبري :

تجمعت الأهواء فيها فما ترى بها غير صب لا يرى غير صبوتي

وقال صفي الدين الحِلّي :

لعل الحب يرفق بالرعايا فيأخذ للبريء من المليم

وتشبيه الحسن بالماء قديم قال أبو القاسم العطار :

رقت محاسنها ، وراق نعيمها فكأنما ماء الحياة أديمها

وقال أبو تمام :

صبٌّ الشباب عليها وهو مقتبل ماءٌ من الحسن ما في صفوه كدر

وأما قول : « أنت يم الحسن ... الخ » فقد نظر في هذا المعنى إلى قول السَّراج الوراق :

يا بني الآمال قد خاب الرجاء إنها اشتدت ، وقد عز العزاء
سفُن الآمال في بحر المنى رحلت منا ، فأين الرؤساء

وقال صبري بعد هذه الأبيات من نفس القصيدة :

ساعفي آمال أنضاء الهوى بقبول من سجاياك رُخاء
وتجلّي واجعلي قوم الهوى تحت عرش الشمس في الحكم سواء

وعاد صبري في هذين البيتين إلى طلب المساواة في الحب ، وطلب النَّصفة

والعدل ، وهذا طلب غير مقبول في الحب ، فلا الحبيب يستطيع أن ينصف ، لأنه يتبع ميل فؤاده ، ولا المحب يريد هذه النصفة ، إلا أمثال صبري الذين يمزحون ولا يحبون ، فالحب ذو أثرة ، وهيهات أن يرضى محب بالشركة ! وإذا نظرت إلى الصورة التي أتى بها في هذين البيتين وجدتها قديمة ، مرقعة من أبيات عدة نظر إليها الشاعر ، فأنضاء الحب ، صيغة قديمة جداً ، ومن قبل قال الطغرائي : « يقتلن أنضاء حب لا حراك بها » ، وأما تشبيه السجايا بالريح الهيّنة اللينة الرخاء فكذلك تشبيه قديم قدم البحتري حيث قال :

خلقٌ طيعٌ إذا ريض للجو　　د انثنى عطفه وطاع عنانه

وإذا قلت : إن صبري أراد أن يقيم للحب دولة ، ويشرع نظاماً ، تسود فيه النصفة والمساواة ، فلعلَّ هذا من الجديد ، وإن كانت شريعته لا يرضى بها الحاكم ولا المحكوم ، فأقول : إن هذا معنى قديم ، ومن ألطف ما قيل في هذا المعنى قول محمد بن سارّة :

كم قد رأت عيناي َ مثلَك والياً　　للحسن ، تنتهب النفوس جنودُه
الدهرُ طوعُ يديه ، والدنيا له　　أمَـة ، وأحرار الأنـام عبيده

وقول ابن النبيه :

أيا ملك القلوب فتكتَ فيها　　وفتكك في الرعية لا يحـلّ

وقال صبري بعد ذلك :

أقبلـي نستقبل الدنيـا ومـا　　ضمنتـه مـن معدات الهنـاء
واسفري ، تلك حُلىً ما خلقت　　لتـوارى بلثـام أو خبـاء
واخطِري بـين الندامى يحلفوا　　أن روضاً راح في النادي وجاء
وانطقـي يَنْـتثر إذا حدثتِنـا　　ناثـر الدرّ علينـا مـا نشاء
وابسمي مـن كان هـذا ثغرُه　　يمـلأ الدنيـا ابتساماً وازدهاء

وفي أول هذه الأبيات كلمة (معدات الهناء) ، والمعدات لعمري ثقيلة جديداً في هذا البيت فضلاً عن أن الهناء بمعنى هناءة لم تسمع في الفصيح • وطلبه في البيت

الثاني من المحبوبة أن تسفر لأن هذا الجمال لم يخلق ليتوارى وراء الحجاب ، معنىً ردده من قبل أكثر من شاعر عربي ومن أحسن ما قيل في هذا قول الحسن التهامي :

حطّي النقاب لعلّ سربَ عيوننا في روض حسنك يرتعين قليــلا

وفي البيت الثالث يظهر محبوبته على عادته ، بأنها امرأة (صالون) أو ناد كما أراد ، وهذا ابتذال لها إذا كان حقاً يحبها ، ولكنه متأثر كما ذكرت بالطريقة الفرنسية ، وقيل إن هذه الأبيات نظمت في الآنسة (مي زيادة) ، إذ كان يغشى ناديها مع من يغشاه وكانت تستقبل زوارها كل (ثلاثاء) ولم يكن صبري ينقطع عن ندوتها إلا لضرورة ملحة ، وقد اعتذر لها مرة عن تأخره بقوله •

روحي على دور بعض الحي حائمة كظامىء الطـير تواقاً إلـى المـاء
إن لـم أمتّع بمَي ناظريَّ غـداً أنكرت صبحكَ يـا يوم الثلاثاء

ومع هذا فالبيت ليس فيه جديد ، فتشبيه المرأة بالروضة قديم وفي ذلك يقول أبو تمام :

خرجن في نضرة كالروض ليس لها إلا الحلـي علـى أعناقها زهـر

ولعل بيت صبري أقرب شيء إلى بيت كشاجم •

رزئته روضةً تـروق ولـم أسمع بروض يمْشي على قدم

وأما تشبيه حديثها بالدر في البيت الرابع فكذلك من الصور المتداولة ، التي كثرت جداً لدى الأقدمين ، ومن أشهر ذلك قول البحتري •

ولما التقينا واللّوى موعد لنا تعجّب رائي الدر منا ولاقطه
فمن لؤلؤ تجلوه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

وقال صبري بعد ذلك :

لا تخافي شططاً من أنفس تعثر الصبوة فيهـا بالحياء

فهو يريد أن نفوس الجلساء مهذبة يحول الحياء بينها وبين ما لا ينبغي ، ومقصده أنها نفوس عفيفة تستطيع أن تكبح جماحها على الرغم من الفتنة ، وقديما قال المتنبي في العفة :

يـرد يـداً عـن ثوبها وهو قادر ويعصي الهوى في طيفها وهو راقد

وقال الشريف الرَّضي :

وإذا هممتُ بمن أحب أمالني حصَرٌ يعوق ، وعفة تنهاني

وقد أجاد صبري في قوله : « تعثر الصبوة فيها بالحياء » وإن ورد مثل هذا في غير موضع الحب .

وقال صبري بعد ذلك :

أنــت روحانيــة لا تدعــي أن هذا الحسن من طين وماء

وقد قال شوقي في هذا المعنى ، ولسنا ندري أيهما أسبق :

صوني جمالك عنــا إننــا بشر من التراب وهذا الحسن روحاني

وقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى : « فلما رأينَه أكبرنه ، وقطّعن أيديهنّ ، وقلنَ حاش لله . ما هذا بَشَراً ، إن هذا إلا ملكٌ كريم » .

وأخيراً قال صبري في هذه القصيدة :

وانزعي عن جسمك الثوبَ يَبِنْ للملا تكوينُ سكــان السمــاء

وعجيب من صبري المهذب الرقيق الحاشية رجل النادي ، الذي اشتهر بأنه لا يفحش أن يطلب من محبوبته أن تنزع الثوب عن جسمها أمام الندامى ، لا ، بل أمام الملأ أجمعين ليروا تكوين سكان السماء . ولا شكّ أن هذه فلتة من فلتات صبري ، ما فطن إليها . وبغض النظر عن هذا كله ، وعن أنه مقلد ، فإن صبري شغل بهذه القطعة — مقتفياً أثر المدرسة الفرنسية — بمحاسن المحبوب الظاهرة ، عن الكشف عن لواعج نفسه ، ومكنون قلبه ، وبث لوعته ، وحرقة فؤاده ، فهو ينظر إليها نظرة مادية رخيصة ، يريدها أن تسفر لأن هذا الحسن لا يصح أن يتوارى ويريدها أن تخطر بين الندامى ليتمتعوا بهذا الجمال كأنهم في سوق الرقيق ، ويريدها أن تتحدث وتبتسم ، ويعنى كل العناية بحسنها ومفاتنها حتى لم يستطع إلا أن يطلب منها أن تخلع ثيابها ، ولا يبرئه ما وصف به نفسه ونداماه من العفة ، ومن أنها ملك . إنه تقليد مزدوج للعرب القدماء ، وللمدرسة الفرنسية على السواء ثم هو شعر ليس فيه عمق ولا تحليل للعواطف ، ولا تصوير رائع ، وهذه القطعة

من أحسن قطعه في الغزل ، وأطراها غير واحد من النقاد ، وإن وافقنا الأستاذ العقاد في نقدنا حيث يقول : « هنا ذوق وكياسة ، وليس هنا عشق وحرارة ، ولن تذكرنا هذه الأبيات بعاشق يهوى معشوقا يقف عليه نفسه ويطلب إليه أن يقف نفسه عليه ، وإنما تذكرنا بنديم قاهري في سهرة من سهرات الطرب يلتف مع صحبه بغانية أو مغنية ، يتلطف في الزلفى إليها ، والثناء عليها ، ولا يشعر من وراء ذلك بلوعة ولا غيرة من المنافسين قناعة منه بالراحة بين الأحزاب ، والعدل بين الظماء [1] » .

وعلق الدكتور مندور في الكتيب الصغير الذي أصدره عن إسماعيل صبري على رأينا في هذه القصيدة بأن كلامنا هذا ليس تعسفا فحسب ولكنه خطأ في الفهم . « فالبيت الخاص بنزع الثوب لا يمكن فصله عن البيت السابق له وهو :

أنت روحانية لا تدعي   أن هذا الحسن من طين وماء

ولا يمكن فصله عن البيت الذي يليه وهو :

وأري الدنيا جَناحَي مَلَكٍ   خلف تمثالٍ مصوغ من ضياء

فالأبيات الثلاثة تكون رؤية شعرية واحدة يزعم الشاعر أن الفتاة (روحانية) ليس حسنها من طين وماء وإنما هي تمثال مصنوع من ضياء وبه « جناحا ملك » : وهو يريد منها أن تنزع الثوب لكي تثبت صحة رؤيته الشعرية ، فلن يظهر عندئذ جسم بشري بل تمثال مصنوع من ضياء » هو « تكوين سكان السماء » وبذلك لا تكون « فلتة » من إسماعيل صبري ، ولا يكون هناك « سوق رقيق » ولا « عرض لجسم عار بين الندامى وإنما هناك رؤية شعرية روحية [3] » .

ويعود فيقول « الواقع أن لواء الحسن أو المرأة الجميلة التي يتحدث عنها إسماعيل صبري في هذه القصيدة ليست امرأة مبتذلة ولا نهبا للأطماع . وإنما هي امرأة روحانية تقصر عن التطلع إليها شهوات النفوس ، وليس في القصيدة نغمة حسية أو مستهترة أو مبتذلة » وهي أبعد ما تكون عن روح الندماء ومجالس الظرف أو الخلاعة » [2] .

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ٣٥ .

(٢) ص ٩ ، وكذلك ص ١٥ .

(٣) ص : ١٢ .

والدكتور مندور يرد على نفسه في كتاب آخر من كتبه وهو « الشعر المصري بعد شوقي » [1] حين وازن بين علي الجارم وإسماعيل صبري ، وقد قال في هذه الموازنة : « ولا يعقل أن يكون إحساسه بمعاني الحب مطابقاً لأحساس رجل كاسماعيل صبري القاهري المترف الذي كان يقنع من الحب بمجالس الطرب وصالونات المؤانسة دون أن يستشعر شيئاً من ذلك الحب العنيف الأثر الذي يثير الغيرة ، فتراه لا يطلب من الحسناء التي يغازلها إلا أن تسوي بين عاشقيها حيث يقول :

« يا لواء الحسن ... ... الأبيات »

فالدكتور مندور يعترف معنا بأنها كانت في مجلس طرب وصالون مؤانسة وأن إسماعيل صبري لم يكن لديه ذلك الحب العنيف الأثر الذي يثير الغيرة ، وأنه كان يغازلها ، ولم يطلب منها إلا أن تسوي بين عاشقيها » .

فأي امرأة هذه ذات العشاق الكثيرين الذين يغازلونها في « صالونات المؤانسة ومجالس الطرب » ؟!

لقد نسي الدكتور مندور أول القصيدة وأخذ أبياتها الثلاثة الأخيرة — نسي أنه طلب منها أن تعدل في توزيع الحب .

« لا تذودي بعضنا عــن ورده   دون بعض ، واعدلي بين الظماء »

ونسي أنها تخطر في النادي بين الندامى ، وأنه يطلب منها أن تتكلم لتنثر الدر ، وأن تبتسم ليملأ ثغرها الدنيا ابتساما فهو هنا يؤكد بشريتها ، ولو كانت روحانية حقاً ما قال لها : « لا تخافي شططا من أنفس ... البيت » إذ أن الملائكة لا تخاف شطط النفس البشرية ، بينما صبري يؤكد في هذا البيت بشريتها بأن نفوسهم عفيفة تستطيع أن تكبح جماحها على الرغم من الفتنة التي تخطر أمامهم وهم (ندامى) وهذه الكلمة توحي وإن منع الحياء ظهورها وأكد هذا في البيت الذي يليه :

---

(١) ص ٣١ .

راضت النخوة من أخلاقنا ... ... البيت

أما الأبيات الثلاثة الأخيرة التي ثار الدكتور مندور علينا من أجلها حين تعجبنا من صبري القاهري المهذب أن يطلب إليها أن تنزع الثوب بين الندامى ، وراح ينبئنا بأنها صورة ملائكية وأنها روحانية ، ولسنا نعلم أن الملائكة تلبس ثيابا وإنما هي أجسام نورانية شفافة ، كل الذي أراده صبري أنها تشبه الملائكة في جمالها . كما قال النسوة في سيدنا يوسف « ما هذا بشراً إن هذا إلا مَلَكٌ كريم » ولم يمنع ذلك امرأة العزيز من الهيام به ومراودته عن نفسه .

ولقد نظرنا إلى القصيدة في عمومها وإلى أنها قيلت في مجلس طرب وصالون مؤانسة وأنه كان يغازلها كما يغازلها سواه ، وكلُّ الذي طلبه المساواة في البسمات والنظرات والعطف وأن تسمح لهم جميعاً أن يردوا من منهل حبها فلا تذود بعضهم عن ورده دون بعض ، ونظر الدكتور مندور إلى الأبيات الثلاثة الأخيرة ، وشتان بين النظرتين ، ومع هذا فلا نقول إنه خطأ في الفهم كما قال ، وإنما هو اجتهاد منه في التأويل :

ومن القطع الغزلية التي اشتهر بها صبري قوله :

أقصر فؤادي فما الذكرى بنافعة ولا بشافعة في ردِّ ما كانا
سلا الفؤادُ الذي شاطرته زمنا حملَ الصبابة فاخفِق وحدك الآنا
ما كان ضرك إذ علّقت شمس ضحى لو ادّركت ضحايا العشق أحيانا
هلاّ أخذت لهذا اليوم أهبته من قبل أن تصبح الأشواق أشجانا
لهفي عليك قضيت العمر مقتحما في الوصل ناراً وفي الهجران نيرانا

لقد أثنى الدكتور طه حسين ثناء لم نعهده منه في أي شاعر آخر على هذه القطعة وهو الخبير بفنون القول ، والذي يتطلب من الشعراء الشيء الكثير ، وذلك حيث يقول في مقدمة ديوان صبري : « فهل تعرف روحاً أعذب من هذا الروح ؟ وعاطفة أصدق من هذه العاطفة ؟ ولهجة أرق من هذه اللهجة ؟ وموسيقى أجل وأظرف وأحسن تمثيلا للروح المصري الشعبي من هذه الموسيقى التي يلائم بها بين « نافعة وشافعة » في البيت الأول ، يأخذ هاتين الكلمتين من حديث الشعب

في حياته اليومية العادية ، فيرتفع بهما إلى أشد الشعر روعة ، وأعظمه حظاً من سذاجة ، وهل تجد شيئاً من الغرابة في أن يغنّي الشعر بعضُ المغنين[١] » .

حقاً إن صبري في هذه القطعة عذب الروح ، رقيق اللهجة ، حلو الموسيقى يمثل الروح المصري الشعبي ، ولكنه ليس بصادق العاطفة ، ولعلَّ الدكتور طه حَمِد من صبري هذه الصفات ، لأنه جرى في شعره هذا على نسق المدرسة الفرنسية في الوضوح ، وحسن الديباجة في الشعر ، والرقة المتناهية ، وإذا نظرنا إلى هذا الشعر نظرة أخرى وجدنا صبري مقلداً في معانيه وأخيلته ، وإن حسنت ديباجته وصياغته : فقد قال البهاء زهير في نافعة وشافعة :

فمـا تنفع في الدنيا ولا تشفع في الأخرى

وقد جمع المتنبي في شطر بيت ما أراد صبري أن يقوله في بيت بأكمله وذلك حيث يقول : « ولا يَرُدُّ عليك الفائت الحزن » أما البيت الثاني فقد نقده نقداً بديعاً الشاعر أحمد محرم حيث قال : الصورة في هذا البيت معكوسة ، والمعنى غير مستقيم ، فقد أراد الشاعر أن يقول لقلبه : إن القلب الذي كان يشاطرك حمل الصبابة قد سلا ، فأجرى فعل المشاطرة على قلبه هو ، وأنت ترى أن وقوع الفعل من قِبَله هو يعفيه من عناء هذا السلو ، ويريحه من ذلك العبء الذي كان يحمله وإذاً فلا معنى لأن يخفق وحده[٢] .

وموضع النقد هو أن صبري قال لقلبه : لقد شاطرت قلبَ الحبيب حَمْل الصبابة فما معنى أن يخفق وحده إذا سلا قلب الحبيب ؟ إذا سلا قلب الحبيب فقد أعفى قلب صبري من المشاطرة ومن حمل الصبابة . ولكنه كان يريد غير ذلك فأخطأ في التعبير . على أن معنى البيت على وجهه الصحيح مما سبق إليه الشعراء وفي ذلك يقول الطغرائي :

يا قلب مالك والهوى من بعدما طـاب السلو ، وأقصر العشاق
أو ما بدا لك في الإفاقة ، والألى نازعتهم كـأس الغرام أفاقـوا

ومعنى البيت الثالث من أبيات صبري قديم قدم الشمس يوم طلعت على

(١) مقدمة الديوان ص ١٢ .
(٢) مجلة ابولو اكتوبر سنة ١٩٣٤ ص ١٦٥ .

شاعر عربي في الصحراء ، وضحاياه العشق كذلك معرقون في القدم منذ وجد الحب على ظهر البسيطة ، وطالما ردده الشعراء ، فلا داعي لتكراره ، ولكن تعال معي إلى البيت الرابع واعجب كيف يأخذ المحب عدته لسلو الحبيب أو لغدره ، اللهم إن هذا لا يكون إلا اذا رثت حبال المودة ، وانتقض الحب ، وفسدت الصلة ، أما أن يفكر المحب وهو بعد محب ومحبوب في أن حبيبه سيغدر به ، ويعد العدة لسلوه فهذا أمرٌ لا يفهم في عالم الحب ، إلا إذا كان حبا من النوع الذي أغرم به صبري وهو الحب العابر ، المتنقل ، غـير العميق الغور أو الصادق العشق ، ثم كيف يستطيع القلب أن يتخذ العدة والأشواق هي الغالبة عليه ، ولم تتحول بعد إلى أشجان ، وقديماً قال الشاعر : « لا يعرف الشوق إلا من يكابده » فهلا تذكر قول قيس لبنى :

فواكبدي من شدة الشوق والجوى ••• وواكبدي ، إنـي إلـى الله راجع

إن الشوق هو الذي يُسعِّر النار في الأفئدة المدلَّهة ، وهو الذي وصفه أبو تمام بقوله :

هذا محبك أدمى الشوقُ مهجته ••• فكيف تنكـر أن تدمى مآقيه

لست أدري ، لعمر الحق كيف فرَّق صبري بين الأشواق والأشجان ، ولا كيف يفكر المحب في السلو ويعد له عدته وهو في معمعان الشوق ؟ إذا كان صادق العاطفة حقاً فكيف يطلب من قلبه أن يسلو ، هلاَّ تذكر قول المجنون :

فيا حبها زدني جوىً كلَّ ليلة ••• ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

ومالي أضرب الأمثلة بالغابرين ، وقد نـاقض صبري نفسه في غير هذه القصيدة ، وبرهن على أن الشوق نار ملتهبة حيث يقول :

يـا مـن أقـام فؤادي إذ تملكه ••• ما بين نارَين من شوقٍ ومن شجن

وحيث يقول من قطعة أخرى :

يا شوق رفقاً بأضلاع عصفتَ بها ••• فالقلبُ يخفق ذعراً في حناياها

وإذا رحنا نبحث عن غزل صبري فإننا نجده يشبه حبيبته تارة بالروض والغصن •

يـا فتاة الحي قـد أذكرتِنا نضرة الروض وميلَ الغصن

وبالبدر كقوله :

عارضي البـدر إذا لـم يعترف لـك بالحسن بوجـه حسـن

وكقوله :

أتزودت مـن ضيـاء البـدور لليـال كثيفـة الديجـور

ومرة هي ظبية وأين بمصر الظباء ؟

يا ظبية مـن ظباء الإنس راتعة بـين القصور تعالى الله باريك

وكقوله :

يا مقرّ الغزال قد صح عندي الـ يوم أنـي اقتحمت منك العرينا

ومرة هي مهاة تمشي في سِرْبها :

وحيّها بـين المهـا إن بَدَتْ في سربهـا مقبلـة مدبـرة

إلى غير ذلك من التشبيهات الأثرية التي لا تلائم ذوق العصر ، وليس فيها رائحة من تجديد ، زد على هذا أنه عني كل العناية بوصف محاسن المرأة ومفاتنها الجسمية ، وقلما التفت إلى الجمال المعنوي ، أو تحليل العاطفة ، أو تصوير الحب على حقيقته تصويرا غنيا قويا . يعجبه من المرأة قوامها المياس المرهف :

تمسي تذكرنـا الشباب وعهـده حسناءُ مرْهفة القـوام فنذكرُ

ويعجب بنحرها ، وبثناياها ويشبه الثنايا بالدر :

وتبيت تكفـر بالنحور قلائـد فـإذا دنت مـن نحرها تستغفر
وتزيـد في فمهـا اللآلي قيمـة حتـى يسودَ كبيرُهن الأصغر

وثغرها مورد عذب يُغنِي به عن كل مورد آخر :

يا موردا كنت أغنى مـا أكون به عن كلِّ صاف إذ ما بات يُرْويني
عندي لمائك ــ والأقداحُ طوع يدي ملأى عن الماء ــ شوق كاد يُرْديني

ويفتن بشعرها الأسود المعقوص :

أرسلي الشعر خلف ظهرك ليلا   واعقديه من فوق رأسك تاجا
أنتِ في الحالتين بَدْرٌ تراه   صادعا آية الدجى وهّاجا

وقد يقال إن لصبري قطعاً أخرى غير هذه ، فيها حرقة الجوى ، ولهيب الشوق ، وجمر الحب ، وفيها التوجع والشكوى وفيها العاطفة المشبوبة من مثل قوله :

يا آسي الحي هل فتشت في كبدي   وهل تبينت داء في زواياها
أواه من حُرَقٍ أودت بأكثرها   ولم تزل تتمشى في بقاياها
يا شوق رفقاً بأضلاع عصفت بها   فالقلبُ يخفق ذعراً في حناياها

أجل ؟ إن هنا حرقة ، وداء يرعى في كبده ، وشوقاً قد عصف بأضلاعه ، وقلباً يخفق ذعراً ، ولكن هنا أيضا زوايا ، وبقايا وحنايا ، وآثاراً قديمة من مخلفات الماضي ، ومن أثر محفوظه من الشعر العربي القديم ، وقال البهاء زهير في (الزوايا) وما فيها .

ويميل بي نحو الصّبا   قلب رقيق الحاشيه
فيه من الطرب القد   يم بقيةٌ في الزاويه

وله في المعنى الذي ذكره صبري في البيت الثاني :

لك الحياة فإني   أموت لا شك عشقا
لم يبق مني إلا   بقية ليس تبقى

وإذا قال صبري في قطعة أخرى فيها شيءٌ من وهج اللوعة .

أبثك ما بي فإن ترحمي   رحمت أخا لوعة ذاب حبا
وأشكو النوى ما أمر النوى   على هائم إن دعا الشوقُ لبّى
وأخشى عليك هبوب النسيم   وإن هو من جانب الرّوْض هبّا
واستغفر الله من برهة   من العمر لم تلقني فيك صبا

تعالـي نجـدد زمـان الهنـا ء ونـهب لياليـه الغـر نهبـا
تعالَيْ أذق بـك طعـم السلا م وحسبي وحسبك ما كان حربا

لم أجد خيراً من تعليق الأستاذ العقاد عليها بقوله « إن صبري لم يذب حباً هنا إلا كما ذاب كل قاهري ظريف يقول لصاحبته • (أنا أذوب) وأنه لم يخف على صاحبته هبوب النسيم من جانب الروض إلا كما يخشى كل قاهري ظريف من الهواء وما هو أرق من الهواء • وإنما هو إسماعيل صبري في صميمه ، وحقيقة نجواه حين يقول لها : إنه تعب من اللوعة ، وكَلّ من الحرب ، ولا أمل له في غير السكينة والسلام [(١)] » •

وهذه الأبيات محاكاة لما قيل من قبل في هذه المعاني ، وليست منبعثة عن عاطفة قوية ، وأغلب الظن أن صبري لم يكن يعبر عن خلجات فؤاده ، وإنما كان إذا أراد القول في الحب ازدحمت على مخيلته تلك الصور القديمة التي وعتها ذاكرته فرددها ، وأعادها إلى الحياة لا تنطق عن جوى كامن في فؤاده ، أو تنقل قبساً من روحه ، وكيف تكون كذلك وهي رداء صنع لغيره ، ورَثّ من قبل ان يتناوله ، ومرة يجيء وفق ما يريد من معنى ، وما يجيش في قلبه من فكرة وعاطفة وأحيانا يضيق • وأخرى يتسع • ألا ترى معي أن الشكوى من النوى وتلبية الشوق إذا دعا عبارات لاكتها ألسنة القدماء حتى ملتها الأسماع ؟ أولا ترى أن مسألة الخشية من هبوب النسيم على المحبوبة ولو هب من جانب الروض فيها مبالغة سخيفة ثم هو معنى قديم وحسبي أن أذكر قول الشاعر :

خَطَرات النسيم تجرح خدَّيْـ ـه ولمسُ الحرير يدمي بنانه

وقد عارض صبري قصيدة الحصري القيرواني[(٢)] التي مطلعها :

يا ليل الصب متى غده أقيـام الساعة موعـده

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ٢٦ •

(٢) القيرواني هو ابو الحسن علي بن عبد الغني الفهري المقري الضرير الحصري القيرواني الشاعر المشهور ، وفد على جزيرة الاندلس في منتصف المائة الخامسة وتوفي بطنجة سنة ٤٨٨ هـ ، وهو صاحب زهر الآداب ، وقد عارض قصيدته كثيرون في القديم والحديث منهم في عصرنا شوقي ، وولي الدين يكن ونسيب ارسلان وصبري وغيرهم •

فقال في قصيدته المشهورة :

أقريب" من دَنِف" غده ... فالليل تمرّد أسوده
والتفت تحت عجاجته ... بيض في الحي تؤيده

وهي قصيدة في الغزل ، ولكن فكرة المعارضة توحي بأنه لم يقلها استجابة لانفعال خاص ، أو فيضا لعاطفة ملتهبة ، وإنما قالها ليدل على أنه يستطيع أن يجيد كما أجاد القيرواني ولكن هيهات ! فنظرة عابرة إلى القصيدتين تريك أن صبري لم يستطع الفكاك من معاني قصيدة القيرواني وصورها ، وأنها غلبته على أمره فردّدها، لا ! بل كان مضطربا شأن من وقع في شباك متينة يحاول الخلاص منها فلا يتأتى له ، بل تأتت صورة ممسوخة • انظر إلى هذا الاضطراب في قوله :

كم صُغتُ التبرَ له شركاً ... وقضيتُ الليلَ أنضّده
وأشاور شوقي بل أدبي ... هل أقصر أمْ أتصيدُه

فهل تجد معنى للمشاورة بعد أن مد الشرك فعلا ، ونصب الحبائل لصيده ، ثم ألا يذكرك هذا الشرك المصنوع من الذهب بشرك ابن الوردي حيث يقول :

ورب غزالة طلعت ... بقلبي وهو مرعاها
نصبت لها شباكا من ... لجين ثم صِدْناها

وإذا قلت : إن شَرَك صبري من ذهب وشرك ابن الوردي من فضة ، وشتان ما بينهما فاستمع إلى شاعر آخر نصب شركا من ذهب هو الأمير (مَنجك) يقول على لسان من يحبه :

لا تنقضي لك حاجة" ... عندي بشعر أو طرب
إن رُمْتَ صيدي في الهوى ... فانصب شراكا من ذهب

ولست أريد أن أتتبع القصيدة فحسبي ما ذكرت منها ، وهو دليل على سائرها ولا أدل على أن كثيراً من غزل صبري محاكاة ، من قوله :

يا وامض البرق كم نبهت من شجن ... في أضلع ذهلت عن دائها حينا

فالماء في مُقَلٍ ، والنار في مُهَج ... قـد حـار بينهمـا أمـر المحبينا
لـولا تذكـر أيـام لنـا سلفت ... ما بات يبكي دماً في الحي باكينا
يـا نسمة ضمخت أذيالهـا سحراً ... أزهـارُ أنـدلس هبـي بوادينـا

وهو يقولها رداً على قصيدة شوقي الأندلسية « يانائح الطلح » وتعجب كيف أن صبري في أخريات حياته ، وبعدما سمع عن الشعر الحديث وقرأ منه لا يزال يردد البرق في شعره وأنه ينبه شجنه ، متتفياً أثر العرب وهم في صحرائهم يـوم كانوا يحتفلون بالبرق الذي يبشر بسحاب ممطر ، فيه الحيا والحياة ، فيهتزون طرباً لرؤياه ، ويتذكرون الحبيبة الغائبة ، التي يودون أن تشاركهم هذه المسرة ، أما في القاهرة فلا محل لذكر البرق والمطر •

ومما يدل على التكلف قوله : « فالماء في مقل ، والنار في مهج » وحديث الماء والنار قديم جداً في الأدب العربي ، وقد أبدع الشريف الرضي في هذا المعنى حين قال :

الماء في ناظري ، والنار في كبدي ... إن شئت فاغترفي ، أو شئت فاقتبسي

أما تلك النسمة المضخمة الأذيال فقديمة كذلك ، وهي تشبه أذيال الصَّبا عند ابن معتوق حين يقول :

وتنفَّس النِّسْرين من عبق ... منـه بأذيال الصَّبا عطـر

هذا ما كان من أمر الغزل ، وقد تبين لك أن جلّه محاكاة ، وندر أن تجد فيه شيئاً من صدق العاطفة • أما الوصف فهو فيه مقلٌ جدا بحيث لا تجد له في بـاب الوصف إلا قصيدة واحدة في البرق والسحاب ، ومقطوعة في ثلاثة أبيات في وصف النيل ذكرناها في غير هذا الباب عند الكلام في موقف الشعراء من الطبيعة المصرية وذكرنا أنها مسروقة من ابن خروف النحوي الأندلسي (١) •

وقصيدة البرق والسحاب مما سبق أن أتى عليه الشعراء ، ولا سيما والبرق في مصر نادر • وليس فيها ما يستحق الذكر إلا تذكره لعهد الشباب ، وفي هذه القصيدة يقول :

---

(١) راجع ص ١٦٦ من هذا الكتاب ، والأبيات مذكورة في بغية الوعاة للسيوطي ص ٣٥٤ مطبعة السعادة ١٣٢٦ هـ •

أبـرق يتوّج هـام الربـا وإلا فهاتيـك نـار القِرى
كـأن سناه عيـونٌ مراض يحاولن تحقيق شمس الضحى
وإلا فتلك مصابيح قبـل انـطفاءٍ يَنْثُرْنَ لصَدع الدجى

وهذا كما ترى خيال بدوي ، سبق إليه امرؤ القيس وغيره ، وأين نار القرى بمصر توقد فوق رءوس الربى لجلب الضيفان ؟ ولعلـك تتذكر وصف امرىء القيس للبرق بقوله :

يضيء سناه أو مصابيح راهب أمالَ السليط بالذُّبال المفتّل

اما الأبيات التي يذكر فيها عهد الشباب فهي :

سقى رِيها العذب عهدَ الشباب فقـد كـان روضاً شهيَّ الجنا
إذ العيش كالغصـن في لينـه يميـل بعـبء ثمـارِ المنـى
أقلبيَ كـم ذا توالى الحنـين وكـم ذا يشوقك عصرُ الصّبا
رويدك إنـي رأيـت القلـوب تفطّر مـن ذا ومـن بعض ذا
صحبتَ الأسى بعد ذاك الزمان كأنـك مستعـذبٌ لـلأسى

وليس في هذه الأبيات أي صورة جديدة ، فاستمطار السحب على العهود السعيدة الماضية جلباً للرحمة خيال بدوي قديم ، وتشبيه العيش بالغصن الرطـب مما أكثر الشعراء من ذكره ، وربما كان في هذه القصيدة بعض العاطفة الحزينة ، ولكنها ليست عميقة ولا قوية •

وعجيب من صبري ألا يعنى بالوصف ، وهو أدلُّ ابواب الشعر على قوة الشاعرية ، وعلى تحرر الشاعر من قيود المجتمع ومجاملاته ؛ لأن الوصف لا باعث له إلا انفعال الشاعر للجمال أو الخير ، لكن صبري كان يرسف في أغلال التقليد فلم يستطع الفكاك من قيود المجتمع ومجاملاته ، مادحاً ، أو راثياً أو مقرظاً ، أو متغزلا في سيدة النادي الذي يغشاه وفي أمثالها •

هذا وباب الاجتماع لدى صبري بابٌ قصير ، وكله شخصي ، ينظر فيه الشاعر إلى نفسه قبل أن ينظر إلى من حوله ، وكله نظرات حزينة وتبرم بالناس ، واستجلاب للسخط على الحياة وساكنيها • استمع إليه يقول في الشباب والشيب :

لـم يدر طعم العيش شبانٌ ولـم يدركـه شيبْ

جهـلٌ يضِلُّ قوى الفتى ... فتطيشُ والمرمـى قـريب
وقـوى تخـور إذا تشب ... ث بالقوى الشيخ الأريب
بينـا يقـال كبـا المغفـ ... ـل إذا يقـال خبـا اللبيب
أو ّاهُ لـو عقـل الشبـا ... ب وآهِ لـو قدر المشيب

وإذا لم يدر طعم العيش شبان ، ولم يدركه شيب ، فمن يدريه ؟ هل يقصد أن طعم الحياة ولذتها لا يدركهما أحد أبداً لا الشبان ولا الشيب ؟ وما حد الشباب عنده ، وما حد الشيب ؟ إذا كان الأمر كما يصوره صبري فلا كانت الدنيا ولا كان السعي فيها • أليس بين عهد الشباب الجامح ، وضعف الشيخوخة مرحلة طويلة من العمر ، وفسحة من الأجل يتمتع فيها الإنسان بالحياة على هينة ، ويدرك مغزاها تمام الإدراك ؟ وهل العبرة بالسنّ ، أو العبرة بالشعور ؟ • كم من فتى في ريعان العمر يشعر إزاء الحياة شعور الشيخ الذي هدّه المرض ، وأثقلته تكاليف السنين ، وكم من شيخ لا يزال فتيّ القلب ، نضر الآمال •

وإذا تركنا البيت الأول وجدنا الأبيات الأربعة التالية تدور كلها حول معنى واحد ، وهو أن الشباب سن الطيش ، كثيراً ما يخطىء فيه الإنسان لحماقته وغروره واندفاعه ، وعدم تحكم القوى العاقلة في أمور نفسه ، وأن المشيب سن الضعف تخون الإنسان قوتهُ ، ويود ، وما وده بنافع له ، لأنه لا يملك الإرادة المنفذة ، ولا العزيمة المبرمة •

أما أن الشباب مظنة الخطأ والجهل فمعنى قديم ، وفي ذلك يقول النابغة : « وإن مطيةَ الجهل الشبابُ » ويقول العتبي :

قالت عهدتك مجنوناً ، فقلت لها ... إن الشبابَ جنونٌ برؤه الكبر

وأما أن المشيب زمن الضعف ، وانطفاء الآمال فمعنى ردده غير واحد من الشعراء ، ومن أحسن ما قيل في هذا قول أبي العلاء :

سُقيـا لأيـام الشبا ... ب وما حَسَرْتُ مطيتيا
أيام آمـل أن أمس الـ ... فرقديـن بـراحتيـا
فالآن تعجـز همتـي ... عمـا يُنـال بخطوتيا

ومن خير قصائده الاجتماعية قصيدته التي قالها في مذنب (هالي) وقد سبقت الإشارة إليها ، وفيها ينعي على الناس فساد أخلاقهم ، ويستمطر شآبيب السخط والغضب على هذه الدنيا ، وما فيها من وجوه كالحة كئيبة ، ويصور في براعة بطش القوي بالضعيف شأن الدنيا في تنازع البقاء ، وفي ذلك يقول :

غاض مـاء الحياة مـن كل وجهٍ فغـدا كـالحَ الجـوانب قفـرا
وتفشّى العقوقُ في الناس حتـى كـاد ردُّ السـلام يحسب بِـرا
أوجه" مثلما نثرتَ علـى الأجدا ث ورداً إن هـُـنّ أبديـن بشرا
وشفاه" يقلن : أهلا ، ولـو أدين ن مـا في الحشا لما قلن خيرا
عَمـرَكَ اللهُ هـل سـلام وداد ذاكَ أم حـاول المسلّم أمـرا
عميت عـن طريقهـا أم تعـامت أمـم في مفـاوز الجهل حـيرى
غرّها سَعدها ومـن عـادة السعـ د يؤاتـي يومـاً ويخذل دهـرا
فتجنـت علـى الشعـوب وشنت غارةً في البلاد مـن بعـد أخرى
نسيت في الصعود يـوم التدلـي والتدلي بصاعـد الجَدّ مُغـرى
تعـبَ الفيلسوف في الناس عصرا وتولـى السرائرَ الديـنُ عصرا
والـورى طـارد" إزاء طـريـد وعُقـاب" يمسي يطـارد صقـرا
عِبَر" كلهـا الليالـي ، ولكـن أيـن مَن يفتـح الكتاب ويقـرا
أنت نعـم النذير يـا نجم هالي زَلْزِلِ السهلَ والرواسيَ ذعـرا
ظنّ قـوم فيك الظنونَ وقالوا : آية" أُرسلت إلـى الأرض كبرى
إن يكن في يمينك الموت فاقذفـ ـه شواظاً علـى الخلائـق طـرا
أغـداً تستوي الأنوف فـلا ينـ ـظر قوم" قوماً على الأرض شَزْرا
أغـداً يصبـح الصـراع عِناقـا في الهَيولي ، ويصبح العبد حـرا
إن يكن كلُّ مـا يقولون فاصدع بالذي قـد أمـرت حُيّيت عشرا

هذا موضوع مُغر بالشعر حقاً ، وهو المأساة الإنسانية ، أو المهزلة الإنسانية

إن شئت ، وفي استطاعة الشاعر المركب الشخصية أو المعقد الشخصية أن يجعل من هذا الموضوع تحفة فنية رائعة ، بتصوير آلام الإنسانية تصويراً دقيقاً زاهياً تنفطر منه القلوب وتدمى العيون ثم تصوير ذلك النزاع البشري الطويل من لدن آدم حتى اليوم ، وما في الحياة كلها من مظاهر قانون تنازع البقاء •

ولكن كيف يتهيأ لصبري هذا ، وهو شاعر مفرد الوتر ، سطحي الشعور أن يبدع في هذا الموضوع أو شبهه • وليس معنى هذا أنه لم يقل شيئاً بل إنه قال على قدر استطاعته ، وإذا علمنا أن صبري لا يستطيع نظم المطولات ، ويعيا بها عرفنا السبب في تقصيره ، إنه مسّ برفق آلام الإنسانية ، وساق كثيراً من أبيات الحكمة ورجع في كثير من معاني القصيدة إلى الشعر القديم والاستعانة به على تأدية أغراضه مثال ذلك قوله : « غاض ماء الحياة من كل وجه » وكثيراً ما تكلم الشعراء في ماء الحيـــاء هذا :

كثير حياء الوجه يقطر ماؤه على أنه من بأسه النارُ تلفح

وأما عن ملق الناس ونفاقهم الذي عبر عنه بقوله :

وشفاهٌ يقلن أهلاً ولو أدّيـ ن ما في الحشا لما قلن خيرا

فقد قال الله سبحانه وتعالى وهو أكرم القائلين : « يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » ، وقديماً قال الشاعر :

يقولون لي أهلاً وسهلاً ومرحباً ولو ظفروا بـــي ساعةً قتلوني

وأما غرور الأمم ونسيانها في حَمَيّا انتصارها أن سيأتي يوم تدال فيه إن لم تحط ملكها بالعدل والرحمة والاعتدال في كل شيء فمأخوذ من قول الشاعر :

ما طار طيرٌ وارتفع إلا كمـــا طـــار وقع

والمغالبة في الحياة ، والمزاحمة على مواردها ، وانتصار القوي على الضعيف شريعة الوجود منذ نشأة الإنسان ، وقديماً قال الشريف الرضيّ :

والناس أسدٌ تحامي عن فرائسها إمـــا عقرت ، وإما كنت معقورا

وهكذا كل معاني القصيدة إلا النادر من مثل قوله :

أوجه مثلما نثرت على الأجدا ث ورداً إن هنّ أبدين بشرا
أغـدا يصبح الصراع عناقـا في الهيولي، ويصبح العبد حرا

فالصورة في البيت الثاني رائعة : لأن الإنســان قد يتصور هذا الصراع البشري العنيف وقد استحال بعد الموت وآثاره عناقاً وضماً والتزاماً بين بقايا البشرية وأنقاضها ، أو بين موادها المنحلة المتناثرة ، وقد جاور بعضها بعضاً ، لا فرق بين ملك وسوقة ، ولا ظالم ولا مظلوم ، وقديماً قال المعري في المنايا ، وأنها تفرق بين الرأس والرجل ، والقدم والرأس :

فكم قارنّ من رأس برجل وكم ألحقن من قدم برأس

وكان إسماعيل صبري يرى الاقتصار على زوجة واحدة ، وهو بهذا من أنصار قاسم أمين ، وقد عبر عن رأيه شعراً ونثراً ، أما الشعر فقوله :

يـا من تزوج باثنتين ألا اتئد ألقيت نفسك ظالمـاً في الهاوية
مـا العدل بين الضرتين بممكن لو كنتَ تعدل ما أخذت الثانية

وأما النثر فقوله : « أحب التوحيد في ثلاثة : (الله) و (المبدأ) و (المرأة) »

ولم يخض في مسألة السفور والحجاب كما ذكرنا آنفاً ، ولعل رأيه يتضح من قوله : أحب الحرية في ثلاثة : « حرية المرأة في ظل زوجها ، وحرية الرجل تحت راية الوطن ، وحرية الوطن في ظل الله » . ولا شك أن حرية المرأة في ظل زوجها هي ما شرعه الإسلام ولكن هذه جملة مبهمة لا تفيد كثيراً في معرفة رأيه .

هذا كل ما نستطيع أن نأخذه من باب الاجتماع عند صبري ، ومنه نرى أنه شاعر لا فكرة له في المجتمع وإصلاحه ، وإنما هي بعض الشـكوى والتبرم ، والشكوى والتبرم ليسا مذهباً إصلاحياً ، ولا فلسفة يدين بها الشاعر ؛ لأنها عمل سلبي . ومعظم شعرائنا ، وللأسف ــ لا أخص صبري وحده ــ ليس لهم فلسفة يدور حولها شعرهم ، ولا فكرة يدعون إليها ، كما هو الحال عند شعراء الغرب البارعين ، لا أولئك الذين يخدعون الناس بعبارة (شعراء الفن للفن) ليهرفوا بما

لم يعرفوا ، وليقولوا ويأمنوا النقد . وما أظن صبري ولا سواه ممن اختفت لديهم الفكرة الجامعة ، والمبدأ القويم الذي يدور حوله شعرهم كانوا يفكرون في مسألة (الفن للفن) ، لأن الشعر عندهم كان ُلمعا ، وخطرات ترد على الذهن ، فينشأ منها انفعال عارض يدفعهم إلى قول بضعة أبيات أو قصيدة .

هذا وسياسات صبري من قبيل الفكاهة والنكتة ، لا تعرف له مبدءا يدين به ، أو حزبا ينتمي إليه ، وإن كانت فيها سخرية مرة أحياناً وتهكم لاذع بهؤلاء الذين مالئوا الاحتلال ، أو لم يخلصوا لأمتهم فيما استأمنتهم عليه من عمل أو وزارة. وهي أشبه بالصور الهزلية (الكاريكاتورية) منها بالصور الحقيقية ، خذ مثلاً قوله في مصطفى فهمي ، وهو من عرفت فيما سبق : نصيراً قوياً للمحتل ، وعدواً لرغبات الأمة وأمانيها الوطنية ، ولا أدل على ذلك من أنه مكث في الوزارة ثلاث عشرة سنة ، وعميد الاحتلال راض عنه ، لأنه كان أشد منه حماسة في توطيد أقدام الإنجليز بمصر ، فلما سقطت وزارته بعد ذلك الأمد الطويل في تاريخ الوزارات سنة ١٩٠٨ قال إسماعيل صبري .

عجبت لهم قالوا : سقطت ومن يكن — مكانَكَ يأمن مِنْ سقوط ويسلم
فأنت امرؤ ألصقت نفسك بالثرى — وحرَّمتَ خوفَ الذلِّ ما لم يُحَرَّم

وقال على لسان مصطفى فهمي هذا عند استقالته ، مشيراً إلى أنه لم يجد في مصر رجالا ولو وجد فيها رجالا ما تركوه في الوزارة طوال هذه المدة ، يعين عدوهم عليهم ، ويستتر وراء اسمه لتنفيذ أغراضه ، وتوطيد سياسته ، وأنه لم يستقل إلا بعدما أراد قومه أن يكلفوه ما لم يرض ، وهو ألا ينصاع لما يريده المحتل الغاصب :

إنني أستغفر الله لكم — آل مصر ليس فيكم من رجال
فَلَّ غَرْبي ما أرى من نومكم — ورضاكم بوجود الاحتلال
بَحَّ صوتي داعياً مستنهضاً — صارخاً حتى تولاني الكلال
لم أجد فيكم فتى ذا هِمَّة — إن عدا الدهر عداء أو صال صال
رحم الله وزيراً سامه — قومه ما ليس يرضى فاستقال

وليس بصحيح أن صوته قد بح من دعوتهم للنهوض ، وأنه كان يرجو أن

يبرز من بينهم فتى ذو همة ، إن عدا الدهر على قومه عدا وإن صال صال • فهذا من قبيل التهكم اللاذع ، لأن مصطفى فهمي كان يريد مصر نائمة ، راضية عن الاحتلال ؛ وإنما الذي فَل غربه حقا تلك الثورة العنيفة التي أجج نارها مصطفى كامل وصحبه ، حتى طوّحت به وبأضرابه •

ويصور بطرس باشا غالي • بأنه رجل قُلّب ، يلبس لكل زمان لبوسه ، ويعرف من أين تهب الريح فينحني أمامها •

أهلا ببطرسَ أهلا   بالملتوي المستقيم
قديم كــل جديد   جديد كــل قديم

ويقول في احمد حشمت باشا حين تولى وزارة المالية ؛ وكان صبري يرى أنه ليس بكفء لهذه الوزارة وأنه ظلم حين أسندت إليه ، وأنه لولا الإنجليز ما تولاها

أبعدوا (أحمداً) وجاءوا بثان   ظلمــوه كمــا أراد الغشوم
فتسلت خــزائن المــال مظلو   م تولى ، وجاءها (مظلوم)[1]

وهذا النوع من الشعر يؤيد رأينا في شعر صبري ، وهو أنه شعر مناسبات ، ينتمي إلى مدرسة الندماء ، لا يصدر عن عاطفة ، وإنما يقال لخطرة بدت ، أو للتسلية في الندوة ، يتفكه بها الصحب ، ويعجبون للبراعة الفائقة التي مكنت صبري من أن يصور هذه الشخصيات السياسية في مثل ذلك الإيجاز الواضح •

وقد ذكرنا في غير هذا الموضع موقف صبري من الأتراك والخلافة العثمانية ، ومن الاحتلال ، والحركة القومية ورجالها ، ومن الخديو ورجاله [2] ، وإن كانت قصيدته التي قالها حين اشتد الخلاف بين الأقباط والمسلمين [3] في سنة ١٩١١

---

(١) كان وزير المالية قبل احمد حشمت هو احمد مظلوم ، وقد تلاعب الشاعر بالالفاظ كما رايت .

(٢) راجع ص ١٢٤ — ١٣١ من هذا الكتاب .

(٣) في ٦ من مارس ١٩١١ عقد الاقباط مؤتمراً بمدينة أسيوط للنظر في حالهم مع المسلمين ، وطلبوا من الحكومة عدة مطالب ظناً منهم أن المسلمين قد استأثروا بكل شيء في البلاد ، فاجتمع المسلمون في مؤتمر عام توالت جلساته خمسة أيام للنظر في حال المسلمين اقتصادياً وادبياً واجتماعياً وللرد على مطالب الأقباط ، وشبت نار الفتنة ، وزادها اشتعالا من يعنيهم ان تتفاقم نارها ، وقد ارسل واصف غالي إلى إسماعيل صبري من باريس يطلب منه الوساطة في الصلح لان لشعره منزلة في نفوس المصريين جميعاً .

تدل على بعد نظر ، وحصافة رأي ؛ لأن من مصلحة الأجنبي أن يشتد هذا الخلاف ليمزق وحدة الأمة ، وليدعي أن وجوده ضروري لحماية الأقليات ، وطالما ادعى هذه الدعوى حتى أبطلها الواقع ، ووقفت الأمة كلها صفاً واحداً في ثورة ١٩١٩ تندد به وبأساليبه في التفرقة لأن مصر وطن الجميع ، ولأن الأقباط ظلوا طوال هذه القرون المديدة منذ الفتح حتى اليوم لا يجدون من إخوانهم المسلمين في الوطن إلا كل مودة ، وحسنَ عشرة • وفي تلك القصيدة يقول صبري :

ويحكم ما كذا تكون النصارى ... راقبوا الله بارىءَ العذراء
مصر أنتم ونحن إلا إذا قا ... مت بتفريقنا دواعي الشقاء
مصرُ مِلْكٌ لنا إذا ما تماسك ... نا وإلا فمصر للغرباء
لا تطيعوا منا ومنكم أناساً ... بذروا بيننا بذور الجفاء
لا تولوا وجوهكم شطر من عك ... ـر ما في قلوبنا من صفاء

وهو شعر سامي الغرض ، سهل المعاني ، قريب المأخذ ليفهمه الخاصة والعامة ، ولذلك جاء أشبه بالكلام العادي منه بالشعر الرفيع الذي يفتن فيه صاحبه • ومن القصائد التي أشرنا إليها فيما سبق ، وتنبىء عن غرض شريف من أغراض الوطنية ، والحث على العمل والجد في سبيل رفعة الوطن عن طريق العلم والدأب في تأسيس الدعامات القوية التي يشاد عليها مجد البلاد ، وإن لم تدع إلى الثورة الجامحة ، أو العنف ، وإنما دعت إلى الأخذ بأسباب الإصلاح قول صبري على لسان فرعون :

لا القومُ قومي، ولا الأعوان أعواني ... إذا ونى يومَ تحصيل العلا واني
ولست إن لم يؤيدني فراعنة ... منكم ، بفرعون عالي العرش والشان
ولست جبار ذا الوادي إذا سلمت ... جباله تلك من غارات أعواني
لا تقربوا النيل إن لم تعملوا عملا ... فماؤه العذب لم يخلق لكسلان
رِدوا المجرَّة كداً دون مورده ... أو فاطلبوا غيره رِيّاً لظمآن
وابنوا كما بنت الأجيال قبلكمُ ... لا تتركوا بعدكم فخراً لإنسان

أمرتكم فأطيعوا أمر ربكمُ ... لا يَثْنِ مستمعاً عن طاعة ثان
فالملك أمر" وطاعات بسابقه ... جنباً لجنبٍ إلى غايات إحسان

وموضوع القصيدة من الموضوعات القوية ، التي يستطيع الشاعر أن يستحضر فيها تلك المشاهد الرائعة التي وقفها فرعون ، والتي رفع فيها مجد مصر ، ثم يتخذها موعظة وتذكرة لأبنائها في الوقت الحاضر ؛ إذ ليس هذا من الشعر الذاتي ، وإنما هو من الشعر الموضوعي ، والشعر الموضوعي ينطلق فيه الشاعر انطلاقاً قوياً إذا تهيأت له الشاعرية المبتكرة المبتدعة .

ويجب أن يكون الخيال في هذا النوع خيالا معنوياً مبتكراً كما تقدم لك في غير هذا الموضع (١) ، ولكنّ شاعرية صبري عجزت عن أن تنهض بمثل هذا الموضوع ، وجاء شعره كثير التناقض ، قريب المعاني ؛ ضحل الغور ، داني الخيال .

فمن التناقض البيّن قوله في البيت الثاني : « ولست إن لم تؤيدني ... إلخ » فهو يظهر الاعتماد على قومه ، وأنه ليس بفرعون العظيم إذا لم يكن كل فرد في شعبه فرعوناً آخر يؤيد عرشه ويدعمه ، وفضلا عن أن هذا المعنى من المعاني الظاهرة ، وأنه ترديد لقول ذي القرنين في القرآن « فأعينوني بقوة » فإنه مخالف لطبيعة فرعون ، وما أثر عنه ، ولسنا هنا بصدد مناقشة الحقائق التاريخية ولسنا من دعاة التمسك بها إذا كانت مخالفتها إلى خير ، ولكن صبري نقض هذه الفكرة بقوله فيما بعد :

أمرتكم فأطيعوا أمرَ ربكم ... لا يثن مستمعاً عن طاعة ثانٍ

فهنا يظهر فرعون على حقيقته التي عرفت عنه في قوله : « أنا ربكم الأعلى » هنا يأمرهم فرعون أن يطيعوه ، ويحذرهم بعنف ، ويتوعدهم في صلف « لا يثن مستمعا عن طاعة ثانٍ » ، فأين هذا من فرعون الأول المتواضع الذي يدعي التماثل بينه وبين قومه بأن جعلهم فراعين مثله يؤيدون عرشه ، وأنه ليس بشيء إذا لم يحدث هذا التأييد ؟

ثم ألا تشعر بأن كلمة (يوم تحصيل العلا) ليست من الكلمات الشعرية ،

---

(١) راجع ص ٣١٣ وما بعدها من هذا الكتاب .

وأنها مأخوذة من لغة رجال الدواوين وطلبة العلم ، وأنها ذهبت بروعة البيت . وفي البيت الرابع يقول : « إن ماء النيل لم يخلق لكسلان » ولست أدري لم خصص ماء النيل ، وكل شيء في الكون صغيرا كان أو كبيرا لم يخلق إلا لذوي الهمة والمضاء ، وخليق بالكسلان ألا يذوق جرعة من النيل أو غيره ، وأن يحرم كسرة الخبز ، وعلى كل فمعنى البيت ليس باهراً قوياً ، وإنما هو من المعاني الدارجة .

وفي البيت الخامس « ردوا المجرة كداً دون مورده » أدعاء بأن المجرة نهر يشرب منه . ومعنى البيت ، إن كنتم من الكسالى العاجزين فدعوا النيل لا تقربوا ماءه ، واصعدوا إلى السماء لتشربوا من نهر المجرة ، أو اطلبوا مورداً آخر غيره . ولست أدري كيف يتأتى لهؤلاء العاجزين أن يردوا المجرة كداً ، إلا على معنى أن يقول لهم . موتوا ظمأً ، وذلك لاستحالة صعودهم إليه ، وذلك مستحيل عليهم وعلى سواهم . فأنت ترى أن المعنى غير واضح ، وفيه تناقض .

وإذا نظرت إلى قوله : « وابنوا كما بنت الأجيال قبلكم .. البيت » وجدته لم يقل شيئاً أكثر مما قيل من قبل :

نبني كما كانت أوائلنا   تبني ونفعل مثل ما فعلوا

ومن قول الشريف الرضيّ :

من معشر أخذوا الفضلى فما تركوا   منها لمن يطلب العلياء متّركا

ومن الأبيات القوية في قصيدة صبري هذه :

مادت لها الأرض من ذُعر ودان لها   ما في المقطم من صخر وصوان
لو غير فرعونَ ألقاها على ملأ   في غير مصر لعدت حلم يقظان
لكنَّ فرعون إن نادى بها جبلا   لبَّتْ حجارته في قبضة الباني

ولست أوافق الشاعر أحمد محرم في انتقاده عبارة (حلم يقظان) وأنها من العبارات الجديدة في اللغة ، وكيف يحلم اليقظان ... إلخ[1] .

وأحلام اليقظة من الموضوعات التي عني بها علم النفس الحديث ، وقد ظهر

---

(١) راجع مجلة ابولو أكتوبر سنة ١٩٣٤ ص ١٠٩ .

فيه كتاب ممتع في هذه الأيام[١] ، وحرمان اللغة هذه التعبيرات الجديدة التي لها مدلولات علمية خاصة تعسف مضر باللغة .

والمعنى في البيت الثالث على روعته سبق إليه المعري في قوله :

وأقسم لو غضبت على ثَبيرٍ — لأزمع عن محلّته ارتحالا

ويقول صبري في القصيدة :

وآزرته جماهيرٌ تسيل بها — بطاحُ وادٍ بماضي القوم ملآن
ويشبهون إذا طاروا إلى عمل — جناً تطير بأمر من سليمان
بِراً بذي الأمر، لا خوفاً ولا طمعاً — لكنهم خلقوا طلاّب إتقان

الصورة في البيت الأول تمت بصلة إلى قول الشاعر : « وسالت بأعناق المطيّ الأباطح » وتشبيه القوم المهرة بالجن تشبيه قديم تردد كثيراً على ألسنة الشعراء من ذلك قول النابغة :

سَهكِين من صَدَأ الحديد كأنهم — تحت السنَوَّر جنة البَقّار[١]

وقول عنترة :

لا أبعد الله عن عيني غطارفة — إنساً إذا نزلوا ، جناً اذا ركبوا

ويظهر إسماعيل صبري في أحسن حالاته الشعرية حين يقول :

أين الألى سجلوا في الصخر سيرتهم — وصغروا كلّ ذي ملك وسلطان
بادوا وبادت على آثارهم دول — وأدرجوا طيّ أخبار وأكفان
وخلفوا بعدهم حرباً مخلدة — في الكون ما بين أحجار وأزمان
وزحزحوا عن بقايا مجدهم وسطا — عليهم العلم ، ذاك الجاهل الحاني
ويلٌ له ، هتكَ الأستار مقتحما — جلال أكرم آثار وأعيان

---

(١) هو كتاب احلام اليقظة للدكتور جورج جرين ، وترجمة الأستاذ إبراهيم حافظ ، ومراجعة الأستاذ زكي المهندس .

(٢) السهكة : رائحة كريهة من صدأ الحديد على الأبدان ، والسنور : السلاح التام ، والبقار : واد من أودية العرب اشتهر عندهم بالجن .

للجَهل أرجح منه في جهالته   إذا همـا وُزنا يوماً بميزان

وهذه الأبيات تدل على نزعة قومية في نفس صبري وإن جرى في بعض هذه لأبيات في اثر البارودي في قصيدته التي مطلعها (١) :

سل الجيزة الفيحاء عن هرَمي مصر   لعلك تدري غيبَ ما لم تكن تدري

وازدراؤه العلم الذي انتهك حرمات تلك الآثار الغالية واقتحم جلالها ، وتفضيله الجهل البريء عليه معنى بديع جداً من صبري ، لأن العلم لم يستطع حتى اليوم على الرغم من تبجحه أن يكشف عن كل عظمتهم ، وأن يصل إلى بعض أسرارهم ، ورحم الله أبا العلاء المعري حين قال :

إذا علمي الأشياء جـرّ مضرة   إليّ فإن الجهلَ أن أطلب العلما

فالجهل بأسرار المصريين القدماء قد أضفى على آثارهم هالة من المجد الغامض ونظرة من التقديس ، أما العلم فقد حاول أن يفسّر هذه الأسرار ويدنيها من عقول المعاصرين ، وهذا يذهب من روعتها وقدسيتها •

وتعد هذه القصيدة على الرغم مما ذكرت لك من أحسن شعر صبري ، بل من أحسن الشعر الحديث ، في غرضها ومعانيها وديباجتها ، وحسبه هذا فخراً •

ومن الأغراض التي عقد لها باب خاص في ديوان صبري « الشكوى من الحياة » وهي من باب الزهد ، وذم الدنيا ، وتدل على نظرة متشائمة • وهكذا كان صبري متبرما بالحياة ، راغباً عنها يتعجل الموت ، ويتمناه ، كما كان غير راضٍ عن الناس ، شأنه في ذلك شأن بعض الزاهدين الحكماء أمثال أبي العلاء ، وأبي العتاهية ، وصالح بن عبد القدوس وغيرهم ، وإن لم يبلغ مبلغهم في زهدهـم وفلسفتهم الحكيمة •

ومن القصائد الطريفة التي وردت في هذا الباب قوله عن (الساعة) وقد دخل مرة كنيسة (رمس) المشهورة بفرنسا ، فرأى مكتوباً على عقرب إحـدى

(١) راجع الجزء الأول من كتاب الأدب الحديث ص ٢٠٦ ط سادسة .

ساعاتها ما ترجمته : « كلهن جارحات ، والأخيرة القاتلة » يريد ساعات العمر ، والساعة الأخيرة ، فأوحت إليه هذه العبارة بالمعاني التي أتى بها في قصيدة (الساعة) •

كم ساعةٍ آلمني مسها — وأزعجتني يدها القاسيه
فتشت فيها جاهدا لم أجد — هُنَيْهة واحدة صافيه
وكم سقتني المرَّ أخت لها — فرحت أشكوها إلى التاليه
فأسلمتني هذه عَنْوة — لساعة أخرى وبي ما بيه
ويحك يا مسكين هل تشتكي — جارحةَ الظُّفر إلى ضاريه
حاذر من الساعات ويلٌ لمن — يأمن تلك الفئة الطاغيه
وإن تجد من بينها ساعة — جعبتها من غصص خاليه
فاله بها لهو الحكيم الذي — لم ينسه حاضرهُ ماضيه
وامرح كما يمرح ذو نشوة — في قُلَّة من تحتها الهاويه
فهي وإن بشت وإن داعبت — محتالةٌ ختالة عاديه
عناقها خَنْق وتقبيلها — كما تعض الحيةُ الباغيه
هذا هو العيش فقل للذي — تجرحه الساعة والثانيه
يا شاكي الساعات أسمِع عسى — تنجيك منها الساعة القاضيه

وهي قطعة طريفة ، جسَّم فيها الساعة الزمنية ، ووهبها شيئا من الحياة ، فصارت تسقيه المر ، وتسلمه إلى أختها التي بثها شكواه ، وهذه الساعات فئة باغية ، وقد تكون فيها ساعة جعبتها خالية من الغصص ، فيجب على الإنسان أن يستمتع بها ، ويكون منها على حذر ، فهي غدارة محتالة ، معتدية على الرغم من بشاشتها ، وعناقها خنق ، وتقبيلها سم • فهذا التشخيص الذي أضفاه صبري على الساعة ، جعل هذه القطعة حية قوية على الرغم من قرب معانيها ، وأن فيها كثيراً من المعاني المتداولة في عالم الزهد ، وعند الشعراء الذين أكثروا من ذم الزمن والدنيا ، كأبي العلاء ، وأبي العتاهية وأضرابهم • فمثلا قوله : « هل تشتكي جارحة الظفر إلى ضارية » قريب من المثل المشهور « كالمستجير من الرمضاء بالنار » والفكرة التي تدور حولها الأبيات : « فهي وإن بشت وإن داعبت •• الخ » مأخوذة من قول الشاعر :

دار متى ما أضحكت　　في يومها أبكت غدا

ونصيحته هذه بأن ينتهز الإنسان الفرصة المواتية ، وساعة الصفو فيغتنمها ويتمتع بها ما استطاع إلى ذلك سبيلا مذهب طرفة بن العبد ومن أتى بعده منذ قال :

«ألا أيها ذا الزاجري أحضُرَ الوغي　　وأن أشهدَ اللذات هل أنت مخلدي»

وهذه الشكوى من الحياة وتمني الموت يرددهما صبري في شعره ، وله أبيات عنوانها (راحة القبر) يقول فيها :

إن سئمت الحياة فارجع إلى الأ　　رض تنم آمنا من الأوصاب
تلك أم أحنى عليك من الأ　　م التي خلّفتك للأتعاب
لا تخف فالممات ليس بماح　　منك إلا ما تشتكي من عذاب
وحياة المرء اغتراب" فإن ما　　ت فقد عاد سالما للتراب

وهذه نظرة سوداء للحياة ، وفرار من ميدان النضال ، لا تصدر إلا من نفس ضعيفة خوّارة ، وصبري كان يؤثر السلامة دائماً في كل أموره ، فأولى به أن يهرب من الحياة إن وجد فيها سأما ومللا • وما أشبه البيت الأول بقول أبى العلاء •

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ　　جسم فيها والعيش مثل السهاد

ومعنى البيت الثاني وهو أن الأرض أم أحنى علينا من أمنا التي خلفتنا للتعب فيه روح أبي العلاء ونفسه ، وهو تارة يدعو التراب أباً •

والثرى نقليه ظلما وهو والدنا　　وكم لنا فيه من قربى ومن رحم

وتارة يدعوه اماً :

أتعلم الأرض وهي أم　　خفّ" زمان" فما ازدهاها
بأي جرم ، وأي حكم　　سُلّط ليث على مهاها

وفي معنى البيت الثالث قال الشريف الرضيّ :

فإن لم يكن فرَج في الحياة　　فكم فرج في انقضاء العمر

وقال المتنبي « كفى بك داء أن ترى الموت شافياً » ، وكذلك ليس في البيت الأخير جدة وقد قال المعري من قبل :

قد طال سيري في الحياة ولي ببطن الأرض منزل

ولصبري غير هذه القطعة في شكوى الحياة ما يخرج في معناه عنها ، فالقبور مواطن الراحة ، والميت هو ميت الأحياء :

مقابر من ماتوا مواطن راحة فلا تك إثر الهالكين جزوعاً
وإن تبك ميتا ضمه القبر فادخر لميت على قيد الحياة دموعا

ولصبري بعض المقطوعات يناجي بها الله سبحانه وتعالى ، ويسترحمه ، ويطلب منه أن يعفو عن ذنوبه الكثيرة ، وإن شط في بعضها شططا كبيراً كقوله :

يا رب أين ترى تقام جهنم للظالمين غداً وللأشرار ؟
لم يبق عفوك في السموات الملا والأرض شبراً خاليا للنار

أجل ! إن رحمة الله وسعت كل شيء ، ولكن هل اطلع صبري على جهنم فلم يجد في الأرض ولا في السماء شبراً خاليا للنار ؟ إن هذا شطط ، فقدرة الله أعظم من أن يحيط بها صبري ، ولا شك أنها بلبلة استجار منها بقوله :

يا رب أهلني لفضلك واكفني شطط العقول وفتنة الأفكار

ويتهكم الأستاذ العقاد بصبري حين يقول :

ومر الوجود يشف عنك لكي أرى غضب اللطيف ورحمة الجبار
يا عالم الأسرار حسبي محنة علمي بأنك عالم الأسرار

فيقول : « أنه يستكفي الله الشطط لأنه لا يطيق العناء ، وهو يستطلع الغيب لأنه يتعب من الحيرة ، ويجفل مما وراء الفناء ، وهو يحن إلى المجهول ، ولكنه لا يسعى إليه ، ولا يتجشم المشقة فيه ، بل يسأل الله أن يأمر الوجود ليشف عنه ، ثم

يسأله ان يشف عن لطف إذا شف عن غضب،وعن رحمة إذا تكشف عن جبروت»[١]•

ويقول أحمد محرم : « إنه يريد أن يرى الله ، ولكن لغير ما يريدون هم (المتصوفة) فهم يطلبون المشاهدة لذاتها وأمَّا شاعرنا فيريدها ليشهد نوعا خاصا من الجمال ، وحالة بعينها من العظمة والجلال ، وهو يريد أن يرى الغضب قائما في اللطف ، والرحمة ماثلة في الجبروت •• والعقل والعلم الإلهي على اتفاق في أن هذا الوجود بنوعيه من كثيف أو لطيف لا يقوى أن يحجب الله جل شأنه بل هو كما قال العارفون مرآة قدرته ، ومظهر صفاته » [٢] •

وأخيراً ختم صبري هذه القطعة بقوله :

أخلق برحمتك التي تسع الورى   ألا تضيق بأعظم الأوزار

وهذا رجوع إلى الثقة بالله بعدما فرط منه • وهو شبيه بقول أبي نواس :

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة   فلقد علمت بأن عفوك أعظم

فهو يشك في رحمة الله طورا :

خشيتك حتى قيل إني لم أثق   بأنك تعفو عن كثير وترحم

وطوراً يأمل في تلك الرحمة :

عظمت آمالي وصَغرَت الورى   من ذا لها إن لم تك المأمولا ؟

وهو لا يـُدِلّ بطاعته على الله :

حاشا لمثلي أن يُدِلّ بطاعةٍ   فيها مسجّلةٍ على الغفّار
أو أن يعد وثيقة ينجو بها   يوم القيامة من يد القهار

لأنه يعتقد أن وجود الله ، أعظم من طاعته وما قدمت يداه :

ما جئت أطلب أجر ما قدمته   حاشا لجودك أن يكون قليلا

ومن الأغراض التي احتلت صفحات عديدة في الديوان (الرثاء) ، وقد رثى

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ٣٧ •
(٢) مجلة ابولو اكتوبر ١٩٣٤ ص ١٩٩ •

صبري بعض أصدقائه وأبناءهم ، ورثى بعض أعضاء الأسرة الحاكمة ، ورثاء صبري غاص بالحكم والمواعظ من مثل قوله :

يـا من يَغُرّهُ بدنياه وزخرفها تا لله يوشك أن يودي بك الغَرَر

وقوله في مطلع قصيدته التي يرثي بها توفيق باشا .

نحن لله مـا لحي بقـاء وقصارى سوى الإله فناء

ويكرر قوله أن الدنيا غرارة ، وكل من فيها إلى فناء ، من يعيش ألف عام ومن يعيش أياماً معدودات سواء ، وهو معنى بديهي لا قيمة له ، ولكنه ،عجب به فذكره أكثر من مرة في قوله :

سواء من يعيش الألف فيها ومـن أيامه فيهـا قليلـة

وفي قولـه .

نحن لله راجعون فمـن مـا ت ومن عاش ألف عام سواء

ولا تشعر في رثائه بلوعة الأسى وحرقه العاطفة ، والتفجع والجزع ، شأن الشعراء المرهفي الإحساس ، الجياشي العواطف إلا نادراً ، من مثل مرثيته التي قالها في الإمام الشيخ محمد عبده .

تدفق دموعاً ، أو دما ، أو قوافيا مآتم أولى الناس بالحزن هاهيا
أيجمل أن تنعى الفضائل للورى ولم تك في الباكين ويحك باكيا

وإن كان البيت الثاني قد جاء ضعيفا متخاذلا ؛ لأنه لا يبكي إلا لأن ذلك لا يجمل به ، وهو يبكي مشاركة للباكين لا لباعث خاص سواء بكى الناس أم لم يبكوا شأن المحزون الصادق الحزن .

وقد بينا لك فيما سبق موقفه من رثاء مصطفى كامل ، وكيف بكى فيه الصديق ، ولم يبك فيه الزعيم الوطني ، وأن رثاءه هيِّن فاتر ، ومعظم معانيه في الرثاء مأخوذة من مراثي السابقين ؛ ولا سيما شعر الفحول أمثال أبي تمام وابن الرومي ، فمن ذلك هذه الأبيات المشهورة التي يرثي بها (عمر) ولد الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد .

يا مالىءَ العين نوراً والفؤاد هوى | والبيت أنسا ، تمهل أيهـا القمر
لا تخل أفقك يخلفك الظلام بـه | والزم مكانك لا يحلل به الكدر
في الحي قلبان بـاتا يـا نعيمهما | وفيهمـا إذ قضيت النـار تستعر
وأعين" أربـع تبكي عليك أسى ً | ومن بكاء الثكالى السيلُ والمطر
قد كنت ريحانة في البيت واحدة | يروح فيهـا ويغدو نفحها العَطِر
ما كان عيشك في الأحياء مختصراً | إلا كمـا عاش في أكمامه الزّهر
فارحــل تشيعك الأرواح جازعـة | في ذمة القبر بعد الله يا (عمر)

وقد تأثر في هذه الأبيات برثـاء أبي تمام لولدي عبد الله بن طاهر وقد ماتا صغيرين •

نجمـان شاء الله ألا يطلعـا | ألا ارتداد الطرف حتى يأفلا
إن الفجيعة بالرياض نواضراً | لأجلُّ منهـا بالرياض ذوابلا
لهفي على تلك الشمائل فيهما | لو أمهلت حتى تكون شمائلا
إن الهـلال إذا رأيت نموه | أيقنت أن سيكون بدراً كاملا

وإن كان صبري قد تصرف في هذه المعاني ، وزاد عليها ، وألبسها ثوبا رقيقا جميلا • ومن مراثيه المشهورة قوله في رثاء صديقه أمين فكري وفيها يقول :

وهبتك يـا دهر من تطلب | أبعـد أمـين أخ يُصْحـب
طويتَ المـودة في شخصـه | فأي وِداد امرىءٍ أخطب ! ؟
وأي بديـل لـه أرتضـي | وأي شمـائلـه أنـــدب
أمين اتئد في النوى وارعني | فبينـي وبينـك مـا يوجب
أتذكر إذ أنت منـي النياط | من القلب أو أنت لي أقربُ
وإذ نحـن هـذا لهذا أخ" | وهذا لذا ابن" ، وهذا أبُ
حسبتُ بأنـك لـي خالد" | فكان الذي لم أكن أحسب

ومطلع القصيدة فيه خلل فني واضح ، إذ كيف يهب صبري للموت من يطلب ــ وهو من يحبه ــ في هدوء شامل وسخاء عميم ؟ وهل يدل هذا على أنه يحبه ؟ إن المرء يتشبث بمن يحب ، وينازع الموت عليه ، ولو استطاع أن يستخلصه منه لفعل ، وهذا هو الشريف الرضي ينبئنا عن شعوره إزاء الموت بقوله :

لو كان يدفع ذا الحِمام بقوة لتكدست عُصَبٌ وراء لوائي
بمدرّبين على القراع تفيئوا ظلّ الرماح لكل يوم لقاء

ولعلّ صبري يريد أن من مات (وهو أمين فكري) كان أعز إنسان لديه وليس بعده من الإخوان والأهل من يحرص عليه صبري ، فإذا طلب الموت أحداً بعده هان عليه أن يجود به ؛ لأن الذي كان يحرص هو على حياته قد مات ، وهو معنى قديم جداً قاله أمرؤ القيس حين بلغه أن بني أسد قتلوا والده :

بنو أسد قتلوا ربهم ألا كل شيء سواه جلل

ويقول صبري بعد هذه الأبيات شعراً فيه محاكاة غير مرغوبة في عصرنا الحاضر للشعر العربي القديم ، ذلك الذي يستمطر السماء على أجداث الموتى ، وقد كان مقبولا في الصحراء التي يشح فيها المطر ، والذي يعد فيها الغيث رحمة . استمع لصبري يقول :

ويا تربةً حلّ فيها الأمين لأنت الفراديس او أخصبُ
حبستِ على رحمات الرحيم وجاءك رضوانه الصَّيبُ
ولا زالت السحب منهلة وأنت لأذيالها مسحب

وتشبيه القبر بالروضة ليس بالجديد ، وقد قال تمام :

مضى طاهر الأثواب لم تبق روضة غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبر

وقد بلغ المتنبي الغاية في هذا حيث يقول :

وما ريح الرياض لها ولكن كساها دفنهم في الأرض طيبا

وأما الدعوة لهذا القبر بأن يجوده الحيا ، فالأدب العربي القديم غاصّ به ،

ولا يحتاج منا إلى دليل فهو من التقاليد الموروثة منذ أن رثى شاعر جاهلي عزيزا عليه •

ولا تشعر في رثاء صبري بتلك اللوعة التي تحس بها في رثاء المفجوعين ، وإنما يسير في رثائه على هينة كأنه يقص خبراً من الأخبار • ولقد صدق الأستاذ العقاد حين قال في شعر صبري : « إن شعره لطيف لا تعمل فيه ، ولكنه كذلك لا قوة فيه ولا حرارة ••• وإن شئت فقل إن أدب الرجل كان أدب الذوق ، ولم يكن أدب النزعات والخوالج ، وأدب السكون ، ولم يكن أدب الحركة والنهوض ، وأدب الاصطلاح الحسن ، ولم يكن أدب الابتكار الجسور » وضرب مثلا على ان صبري ناعم يمثل الترف في حزنه ، وحماسته ، وعاطفته ، وأنه تنقصه الحرارة والانفعال والعاطفة بقوله : « إذا قال شاعر إن عزيمة البطل الممدوح تصدم الصخر الأشم فتهده وتمهده ، قال صبري : إن عزيمة بطله « تلامس » الصخر فتنبت فيه الأزهار :

وعزيمـــة ميمونةٍ لـــو لامست ... صخراً لعاد الصخر روضاً أزهراً

ولعلك ترى مما ذكرت لك من أغراض صبري الشعرية ، ومن عرض بعض ما قاله ، ودراسته أن صبري شاعر مقلد" ، لم يوهب تلك الشاعرية المبدعة المبتكرة ، وأنه كان قصير النفس ، لا يستطيع نظم القصائد الطويلة ، وأنه لم يكن شاعراً محترفاً ، وإنما كان يقول الشعر لخطرات ترد على ذهنه •

هذا وقد كان صبري في مطلع حياته الشعرية مغرما بفنون البديع يتصنع التورية والجناس كقوله •

والبس على طول المدى حلل «الرّضا» ... بشمار « مأمون » ورُشد « رشيد »

وقوله :

فيا«مالكي» «نعمانُ» خدكَ«شافعي» ... لدى « حنبليٍّ » المذل إذ قام بالعذر

وقوله :

عن رفده حَدّث فكم في رفده ... إنعام بحر « وافر » و « مديد »

وقوله :

يا عاذلي أقصر وكن عاذري ولا تطل لومي على شهندي

وقوله :

قَــدٌّ قلبي وانثنى معجبـاً قال لي : كيف ترى قدِّي ؟

إلى غير ذلك من الحلى اللفظية والمعنوية ، وظل مغرماً بهذا النوع حتى أواخر حياته وإن خفت وطأته كثيراً في شعره الأخير كما اختفى التاريخ الشعري ، وقد ضربت لك منه أمثلة في أول هذا الفصل .

لقد اشتهر صبري بحسن الديباجة ، ورقة الشعر ، والعناية باللفظ والأسلوب ومع ذلك وجدت له عدة أخطاء ، وجُلُّ أخطائه في استعمال الكلمات والحروف من مثل قوله :

حسبت بأنك لــي خالــد فكان الذي لم أكن أحسب

يقال حسبتُه وحسبتُ أنه ، فلا محل للباء في بأنك ، ومن مثل قوله :

غرها سعدها ، ومن عادة السعد يؤاتــي يومـاً ويخذل دهــراً

يقال من عادته أن يفعل كذا ، فلا وجه لإسقاط أن ، ومن مثل قوله :

يا آسي الحي هل فتشت في كبدي وهــل تبينــت داءً في زواياهــا

يقال فتشت الشيء ، وفتشت عنه ، لا فتشت في ، ومثل قوله :

إذا خانني خلٌ قديم وعقني وفوقت يوماً في مقاتله سهمي

ففوَّق السهم جعل لهُ فوقاً ، وهو موضع الوتر منه ، وقد أتى الشاعر بهذه الكلمة مضمناً إياها معنى سددت أو صوبت ، والصحيح أن يقال : إلى مقاتله لا فيها ومثل قوله :

لك الإمارة ، والأقوام ما برحت بكل عاري الذُّرى في الكون تأتمر

يقال ائتمر الأمر امتثله ، وبه أمر نفسه ، وائتمر فلانا شاوره . وبفلان همَّ به (إن الملأ يأتمرون بك) ، ولم يرد ائتمر به بمعنى اقتــدى أو اتبع أمره ، ومثل قوله :

فأقمنا عليه في كــل نادٍ مأتماً داوياً بصوت البكاء

والمعروف في كتب اللغة « مدوّيا » بتشديد الواو •

ومثل هذه الهنات غير قليلة العدد في شعر صبري ، وقد أتت له من الاستعمال الشائع في الصحف ، وعدم التمكن في الدراسة ؛ ولكنها لا تقدح في رقة ديباجته وصقل شعره وعنايته الفائقة بأسلوبه ، وهذه أظهر ميزاته الشعرية وهو بهذا يمثل أهم خصائص المدرسة التقليدية الحديثة •

- ٢ -

وهناك شاعراً آخر من شعراء الدرسة المحافظة على منهج العرب الأقدمين في شعرهم ، يتميز عن اسماعيل صبري بعراقته في الدراسة العربية والدينية ، وبأنه لم يتصل بالثقافة الغربية إلا عن طريق ما ترجم من الكتب ، وقد كان قليلا في الوقت الذي نضجت فيه شاعريته ، وبأنه كان متبدّياً في خياله ومعانيه ، وألفاظه ، وطريقة حياته ؛ تسمع شعره فيخيل إليك أنك تسمع شاعراً عربياً قديماً عاش في العصر الأموي أو العباسي ، بل يذكرك أحياناً بشعراء العصر الجاهلي في متانة نسجه ، وإحكام قوافيه ، وتشبيهاته واستعاراته المستمدة من حياة البادية •

كان عبد المطلب على الرغم من كل هذا شاعراً مطبوعاً ، أصيل الشاعرية ، لا يفتعل هذه المحاكاة ، ولا يملك إلا أن يكون كما صوره شعرُه ، وذلك بحكم نشأته وثقافته •

ولد محمد بن عبد المطلب بن واصل بن بكر بن بخيت بن حارس بن قراع بن علي بن ابي خير حوالي سنة ١٨٧١ ببلدة (باصونه) إحدى قرى مديرية جرجا من أبوين عربيين ينتميان إلى أسرة أبي الخير ، وأبو الخير هذا أبو عشيرة من عشائر جهينة تربي على خمسة آلاف عدّا ويشاركها في الانتماء إلى جهينة عدة عشائر تناهز الخمسين ألفاً ينزل أكثرهم مديرية جرجا •

وكان والده رجلا صالحاً متفقهاً ، متصوفاً ، معتَقَداً في بلدته ، محبوبا عند جميع عشائر جهينة ، أخذ طريق الصوفية عن الخلوتية عن شيخ الطرق الشهير

اسماعيل أبي ضيف ثم كان خليفة له بناحية جهينة .

في هذه البيئة العربية الدينية المتزمتة نشأ محمد عبد المطلب ، وحفظ القرآن — كما يقال — وهو دون العاشرة ، وجاء إلى القاهرة للدراسة بالأزهر ، ونزل وهو في هذه السن المبكرة ببيت الشيخ اسماعيل أبي ضيف بين أولاده وأسرته ، ومكث بالأزهر سبع سنين ، ثم التحق بدار العلوم ، وتخرج فيها سنة ١٨٩٦ بعد أن تتلمذ لكبار علماء عصره أمثال الشيخ حسن الطويل ، والشيخ محمود العالم ، والشيخ حسونة النواوي ، والشيخ سليمان العبد وغيرهم .

واشتغل بالتدريس في المدارس الابتدائية سنين عديدة قضاها في مدينة سوهاج ، وتنقل بعد ذلك في عدة مدارس ابتدائية وثانوية حتى اختير مدرساً بالقضاء الشرعي قبيل الحرب العالمية الأولى ، ثم مدرساً بمدارس الأوقاف الخصوصية إلى أن انتقل مدرساً بدار العلوم في سنة ١٩٢١ وظل بها إلى أن أدركته المنية في أواخر سنة ١٩٣١ .

كان يحفظ القرآن الكريم ، ويقرؤه ببعض الروايات ، ويقول عنه زميله في التدريس بدار العلوم الأستاذ الشيخ أحمد الإسكندري . « كان حجة في الأدب واللغة ، محيطاً بأكثر جزلها وغريبها ، وكان شاعراً منقطع النظير في شعره ، لا يكاد سامعه يفرق بينه ، وبين شعراء أهل القرن الثالث والرابع ، فجدَّد ما كاد يَدرس من أساليب الشعر القديمة ، وأحيا كثيراً من غريب اللغة ، ونظم في أكثر بحور الشعر وقوافيه . . . وكان رحمه الله شديد الحفاظ على شعائر الإسلام ، وآثاره ، عاملا على نشر آدابه ، فهو من أكبر أعضاء جمعية المحافظة على القرآن الكريم ، وجمعية الشبان المسلمين ، وجمعية الهداية الإسلامية وله في كل منها آثار محمودة .

وكان شديد العصبية لسلف هذه الأمة وقوادها وعلمائها وشعرائها ومؤلفاتها فلا يكاد يسمح بحديث مُزْرٍ عليها أو غاضّ من كرامتها حتى يغضب لها غضبة الليث الهصور ، فينبري له تزييفاً وتهجيناً ، خطابة أو شعراً أو كتابة [1] » .

كان عبد المطلب كما رأيت عربي النشأة والمولد والبيئة معتزاً بنسبه هذا كل

---

(١) مقدمة ديوان عبد المطلب للمرحوم الشيخ احمد الاسكندري .

الاعتزاز ، يعرف للعرب فضلهم على الدنيا بكرم طباعهم ، وشريف خصالهم ، وأنهم أهل السماحة والنجدة ، والاباء والكرم ، وحسن العفو ، وزادهم الإسلام فضلا وأريحية ، فكانوا النور الذي هدى العالم في حندس الجهالة والبغي ، وأسسوا حضارة اقتبس منها وهو بعد يضرب في مجاهل الضلال • استمع إليه يفتخر بهذه العروبة :

وأنا ابن الصِّيد من أنكرني ينكر الليث إذا ما انتسبا
من أبيِّين كرامٍ ضربوا فوق هامات المعالي قببا
وكفاني من فخاري نسبة جمعت في طرفيها العربا
نحن رأس الناس في الناس ومن ذا يسوِّي بالرؤوس الذنبا
نركب الجُلَّى ولا نرهبها يوم يَلْوي الناس عنها هربا

ويقول مفتخراً بأسرته :

نمت صُعُداً في دوحة عربية هوت دونها الأفلاك منحدرات

ويذكر فضل العرب على الشرق •

فإن تبغنا في مشرق الأرض تلقنا بآثارنا معروفةً في سِماتها
وإن تلتمسنا في بني الغرب تلقهم على ضوئنا يعشون في فَلواتها
فلله منا والعلا في قديمنا أحاديثُ حار الدهر في معجزاتها
ولله ما يَرْوِها الورى من حديثنا إذا حدَّثت عنا ثِقاتُ رُوَاتها

فلم لا يفخر بنسبته إلى العرب ؟

والدهر شاهد عدل أن لي نسبا قد حلَّ منه محلَّ العقد في الجيد

إنه من قوم سنّوا للورى سنن العلا فأحرى به أن يفتخر بانتسابه إليهم ، وأن يستمسك بسنتهم ، ويتحلى بشيمهم •

لقد سَنَّ قومي للورى سنن العلا وما أنا عما سَنَّ قومي بحائد

اذا افتخر الناس بمجدهم التليد فللعرب قصب السبق ، وبما أنه منهم ، ويسير على سننهم ، فهو كذلك من السابقين يوم يباهي الناس بمجدهم :

لنا قصب السبق يوم الفخار كما كان آباؤنا والجدود
تراث لنا منذ عليا معد يدل به كهلنا والوليد

ولا يكتفي بذكر مجد العرب هكذا مجملا ، ولكنه يحاول أن يذكر في شيء من التفصيل بعض فضائلهم الفطرية ، ويتطرق من ذلك إلى ذكر نسبه وأن جهينة أصيلة في العروبة ، وذلك حين يقول :

ما البيضُ إلاّ لقوم بالفخار لهم على الزمان خلاعات وإدلالُ
في المطعمين على الحالين عافبهم إذا اصاب كرام الناس إمحالُ
والمرحبين إذا ضاق الزمان بهم والمكثرين وفي الأيام إقلالُ
والناقضين على الأيام ما عقدت وما لما عقدوهُ الدّهر حلاّلُ
من الذين إذا قالوا مقالتهم فالدهر ماضٍ بما قالوه فعّالُ
من كلّ أروعَ في أعراقه كرم وفي شمائله لطف وإجمالُ

ومن أهم صفات العرب الفصاحة ، ولما كان شاعراً فصيح البيان كان من الطبيعي أن يهتم بذكر فصاحة العرب وقوة حجتهم في الكلام ، وشهرتهم في البيان .

وإن تذكري أيامنا في قديمها سموتِ إلى ماض أغر نبيل
سلي الشعر عنا إن يسيرُ قصيده مسيرَ الحيا في قفرة ومحول
ملأنا به الدنيا بياناً وحكمة بها جاء في التنزيل خير رسول
وشدنا به في كل دهر مكانة رست في قراري عزة وأثول

ولا ينفك عبد المطلب يحدثك في كل قصيدة عن أمجاد قومه ، وعن عظمة الأمة العربية التي ينتمي إليها ، وهذا الشعورُ المتأصل في نفسه تأصل العقيدة هو الذي جعله يتشبث بمحاكاة الفحول المعرقين من شعراء العربية ، ويود أن يصل إلى مرتبتهم متجاهلا كل ما يتطلبه عصره وحضارته .

زد على هذا أن محمد عبد المطلب نشأ نشأة دينية في بيت يفد عليه طلاّب الهداية ، ويحيطونه بالتجلة والاحترام ، لاعتقادهم في والده . وهذه النشأة مع ما

صاحبها من دراسة دينية في الأزهر ودار العلوم كفيلة بأن تجعل محمد عبد المطلب شديد الحفاظ على القديم ، لا يفرط فيه أبداً مهما كانت المغريات ، نافراً من كل جديد .

مازوا الجديد من القديم وما دروا … أن الجديد من القديم سليل
حلبات إفك في مهالك فتنة … هوجاء كيد غواتها تضليل
دعوى وما ضربوا لنا مثلاً بها … يجري عليه من القياس مثيلُ
وإذا الدعاوى لم تقم بدليلها … في العقل فهي على السفاه دليل

وقد عكف عبد المطلب في دار العلوم على دراسة الأدب العربي القديم بشغف ولذة ، تغذيهما محبة قوية للعرب وتراثهم ، وملكة شعرية فطرية ، وإذا كان عند طالب دار العلوم أي موهبة أدبية ، ولو بقدر يسير ، سرعان ما تنمو وتترعرع وتزدهر في هذه البيئة العربية الخالصة ، لكثرة ما يسمع الطالب في حجرات الدراسة من الكلم الفصاح ، وروائع الشعر والأمثال ، التي خلفها أدباء العربية في عصورها الذهبية ، ولكثرة ما يحفظ من هذه الأمثال والحكم ، والنوادر ، والقصائد الخالدة، والحفظُ هو سبيله إلى التزود من معين العربية ألفاظاً ومعاني .

ولهذا تعجب كلَّ العجب لدار العلوم ، فهي في كلِّ عهد تغص بمن يقرضون الشعر في أثناء الطلب ، ويثبت منهم في الميدان ، ويجلي في حلبة السباق من تعهَّد هذه الموهبة بالصقل والدراسة ، وربما كانت دار العلوم متميزة عن سواها في هذه الناحية ، لأن الدروس تلقى فيها بلغة فصيحة سليمة أدبية ، ولأنها كلها تدور حول العربية ، وإتقانها : نحواً ، وبلاغة ، ونقداً ، وأدباً ؛ ولأن الطالب يأتي إليها وعنده ذخيرةٍ سابقة من القرآن الكريم وعلوم الدين ، وقدر لا بأس به من العلوم العربية ، هذا فضلا عن الرعاية والعناية والتوجيه والتشجيع من جانب الأساتذة الذين يوجهون الطالب الوجهة القويمة التي تنمي من مواهبه وتدفعه قدما إلى الأمام فلا يلبث إلا قليلا في هذه البيئة الجديدة حتى تتفتح ملكاته اللسانية الكاملة ، ويلهج بقول الشعر . ولقد صوَّرها عبد المطلب أبدع تصوير ، وبيّن فضائلها على اللغة العربية ، وعلى الأدب والشعر بقوله يخاطبها :

يا أم كم من شرعةٍ لك في الهدى … لا وِردها رَنِقٌ ولا مملولُ

وهديتنا سبل العلـوم قواصـداً — فالغور نجـد" والحزون سهـول
دان القريض لنـا فأمـا روضـه — فجنـيٌ وأمـا صعبـه فـذلول
ولنـا إذا شئنـا جزالـة جرولٍ — وإذا نَـرقّ فتوبَـة" وجميـل
ولربمـا ملـك النديّ خطيبنـا — والجمـع بُهْرٌ والمقـام يهـول
أحييت أحيـاء الجزيرة مَنْ نمـا — قحطـانُ مـن ولـدٍ وإسماعيلُ
فبكل (فصلٍ) منك مظهرُ أمـة — من أهلهـا وبكـل يـوم جيـل
ولو استدار بك الزمان لأصبحـت — لك في عكاظ من البيان فصـول

هذه هي المدرسة العريقة التي درس فيها عبد المطلب اللغة والأدب على أعلامها في عصره ولهج لسانه فيها وهو بعد طالب بالشعر القوي الفصيح ، وهي بيئة عربية خالصة ، لا تعرف من الثقافة الغربية إلاّ القدر اليسير الذي يمت إلى العلوم العربية بصلة أو يزود الطالب بحظ من الثقافة العامة • أما اللغات الأجنبية ، فكانت على هامش الدراسة أحياناً لا يعنى بها الطلبة كثيراً ، وقد ألغيت في عهود مختلفة ، ولم تحتل في نفوسهم مكانة ممتازة لأنهم يتعلمونها في الكبر ، ولا ريب أنهم لم يعرفوا عن الأدب الغربي ومذاهبه وأنواعه إلاّ القليل عن طريق الترجمة ، وقد كان هذا المترجَم ضئيلا في عهد عبد المطلب ، وأشك في أنه كان يتذوق مثل هذا الأدب أو يعجب به •

وقد أثرت هذه النشأة العربية الخالصة في أخلاق محمد عبد المطلب ، فقد ورث عن العرب كثيراً من صفاتهم ، وأعجب بمثُلهم الخلقية العليا ، ومكّن الدين الإسلامي الذي شبّ بين تعاليمه وتقاليده ، ودرسه في الأزهر ودار العلوم هذه الصفات في نفسه • ويتمثل هذا الخلق العربي الإسلامي في عبد المطلب حينما تقرأ شعره ، إذ يطالعك في كلّ قصيدة بنفسه سافرة مجلوة ، لا تضمر نفاقاً أو رياءً • وللخلق والطبع أثر عظيم في اتجاه الشاعر ؛ لأنه هو الذي يوجهه نحو الأغراض المختلفة ، فإن كان كريم النفس أبيّا ، مترفعاً عن السفاسف ربأ بنفسه عن شعر المداهنة والرياء ، والمدح الكاذب ، والوصول عن طريق القول المزوّق والخداع المنمّق إلى ما تصبو إليه نفسه التي تستهين بالمثل العليا في سبيل غايتها ، واتجه نحو الوطنية الصادقة ، والحماسة للحق ، والغرام بالخير إلى غير ذلك من الأغراض الشريفة •

تراه لا يرثي إلا صديقاً ، ولا يمدح إلا شكراً على مكرمة أسديت اليه ، أو لأن الممدوح حقّق هدفاً جميلا من الأهداف التي ترمقها نفسه وترعاها . وهكذا كان عبد المطلب .

وحريٌ بنا قبل أن نتعرف إلى الأغراض التي اتجه إليها شعره ، أن نلقي نظرة عابرة على خلقه .

كان عبد المطلب كما ذكرت بدويٌ الطباع ، ومن شأن الطبع البدوي الجد والصرامة في الحق ومقاومة العسف .

والقـوة الهوجـاء يمحقهـا حق قضى في أهلـه الغلبـا

وهو في هذه المقاومة ، وهذا الجد لا يعرف اللين ، أو الهزيمة أو النكوص عن غايته .

أفتطمعون بـأن تلـين قناتنا لين الأبيّ على الشدائد عابٌ

ومن شيمة الأبي الكريم ألا يتضجر أو يشكو إذا آده الحمل ، وآذاه الجهاد :

ليس من شيمة مثلـي أنـه يشتكي البؤس ويخشى النوبا

ويقول :

أأشمت حسادي فأشكووإنني أراه على الأحرار غير حـلال

بل يتجمل بالصبر ، قويٌ العزم ، مبرم الإرادة لا يَـفَلُّ له غرب ، أو تهن له نفس .

سأصبر للأيـام حتـى أردّهـا بصبري لمـا أرجوه منها حبائلا
وأحمـل فيهـا عزمـة عربيـة تفوت العوالي إن مضت والعواملا

ورجل هذا شأنه في خلقه لا شك يتخلف في الحياة عن كثير من نظرائه الذين لا يثبتون في سبيل الحق وإعلاء كلمته مثلما يثبت ، ولا يتمسكون بإبائهم وكرامتهم، وعزة نفوسهم ويضعونها في المنزلة الأولى مثلما يضع نفسه ، وقد قال في هذا معبرًا عن ذلك النقص الاجتماعي :

وإن سلبت قدري حقوقاً من العلا تحلّى بها غيري وأصبحت عاطـلا

فمن قبلُ كم عادت كريماً وأنكرت حقوقاً له في أهلها وفواضلا

ولقد تغنى في شعره كثيراً بأنه كريم النفس ، والقلب واليد :

ولي همامة نفس بالعلا كلفت قدماً ، وقلب بأهل الفضل محلال
يهوى الكرام ، وما غير الكرام له من البرية أخدان وأمثال

أما كرم اليد فقد أفصح عنه بقوله :

حبّب الفاقةَ لي أنّي فتى يجمع الحمد ويفني النشبا

أما كرم القلب والحلم وامتلاك أزمة النفس حين يجتاحها الغضب فقد قال عن نفسه :

إن الكريم إذا ما اهتاجه غضب لم يلوه عن طريق الحكمة الغضب

ومن شأن هذا البدوي العربي ، ولو كان في بيئة متحضرة يكثر فيها النفاق ، وحب المنفعة الخالصة ، وإيثارها على المثل العليا ، أن يتمسك بالأصول الخلقية العربية النبيلة ، إذا قوّاها في نفسه دين متين" وعلم" غزير" ، ونشأة في أحضان البادية منذ الصغر ، وتطلب" لفضائلها في كتب الأدب عند الكبر — من شأن هذا البدوي أن يكون وفياً لأصدقائه ، عفيفاً في هواه ، لا يعرف الصغائر والدنايا . أما وفاؤه فقد تمثل في ديوانه أتم تمثيل ، استمع إليه يقول لصديق له :

وكلما اشتد بي حال ذكرتك في سرٍ فيفرج عني ذلك الحالُ
يا روح روحي وريحاني إذا صَرمَت حبلي من الناس والأيام آمالُ
خفّض عليك فودّي ليس يُخلقه كر الجديدين أوفى الناسُ أو مالوا

إن الوفاء شيمة العربي ، وقد زاده قوة في نفسه دينه الكريم :

للهِ في الود والقربى فإن لها حقاً على الناس جاءتنا به الكتب

وترى هذا الوفاءَ في توديعه لأصدقائه وخلصائه الذين اصطفاهم لنفسه ، ووافقت طباعهم طبعه ، في مواساتهم إن ألم بهم خطب ، وفي تهنئتهم إن ابتسمت لهم الحياة ببعض زخارفها وفي رثائهم إن أودَوا ، واختارهم الله لجواره .

ألا ترى أن عبد المطلب في هذا الوفاء ، وفي تلك السجايا الغرّ التي ذكرت

لك طرفاً منها يمثل فتىً من فتيان البادية الأقدمين وكأنك تتمثله عنترة الفوارس ، أو عروةَ بن الورد أو حاتمَ طيىء ، أو ربيعة بن مكدَّم في شهامته ، وقوته ، وكرمه ، ووفائه ، وذرابة لسانه ، وبعده عن الدنايا :

ومن كان مثلي في ذرى الأدب اعتلى　　يعاف الدنايا شيمة والرذائلا
ورثتُ أبا بكر فخاراً وعزةً　　ومن بعده أورثتُ في المجد واصلا
بهاليل في عليا جهينة أصعدوا　　على خير ما يحذو الأخيرُ الأوائلا
فذرني أسر حيث المكارم واحدٌ لي　　على نغماتِ المجد إن كنتَ فاعلا

وهو يتغزل على طريقة العرب ويبتدىء قصائده بالنسيب ، وهذا لا شك تكلف منه لا يصدر عن عاطفة ولكنّ عبد المطلب يحب الجمال في عفة ، وهو يتغزل في هذا الجمال ، والعربي مرهف الحس ، جياش العاطفة ، ذوّاقة للجمال ، وإذا أضيف إلى هذا الميل نحو الجمال ، دينٌ وخُلُقٌ ، وشاعرية ، رأينا عبد المطلب لا ينحدر في غزله إلى فحش اللفظ ، والتغني بمفاتن النساء في مباذلهن ولا يصبو إلى دنس الهوى:

وما أنا من يصبو إلى دَنَس الهوى　　ولا ضلَّ في نهج العفاف دليلي

إنه يعشق الجمال ، ويغري به ، لأن له نفس شاعر ، وذوق فنّان ، ولكنه لا يتبع النفس اللجوج هواها ، ولا ينزلق في تيار الغرام . وحسبه من ذلك الجمال هذه المتع المعنوية التي تنتشي لها نفسه ، ولا يذهب في حميا هذه المتعة رشدها ، إنه يناء ملء جفونه شأن من لم يعلق قلبُه بشباك الغرام .

وما شغلت عيني عن النوم صبوة　　جبينٌ يَروعُ الشمس بالحسن أبلجُ
ولم ينسني حظي من الحلم والنهى　　بها شاقني طرف من العين أبرَج[1]
ولا بات يغريني بمعسولة اللّمى　　إذا ابتسمت ذاك الجمان المفلّجُ
لويت زمام النفس عن سنن الهوى　　وخلّيتُ أتراب الهوى حيث عرجوا

ولكنْ هل يستطيع عبد المطلب أن يتصرف في فؤاده دائما ، والحب إذا أتى

---

(١) الأبرج : الذي يحيط بياض عينيه بسوادهما فيظهر السواد كله لا يختفي منه شيء .

فلا رادّ له لأن المرء لا يعرف متى يأتي ، ولا كيف يأتي ، ولا شك أن عبد المطلب قد غلب على أمره أحياناً ، ولكنّ دينه وخلقه صان هذا الحب عن الرّجس •

بتنا وكان العفـاف سِتـراً بـين الضميريـن ليس يبلـى
وللتقـى بيننـا عهـود تقدستْ في القلـوب قبلا
وما على الحب مـن مُليـم إذا الهوى بالتقـى تحلّـى

من أهم صفات العرب المتميزة الغَيْرة ، وقد تجلت غيرة عبد المطلب وحماسته، وإباؤه الضيم في وطنيته الملتهبة الصادقة • لقد ملك حب مصر عليه شغاف قلبه ، دع جانباً تلك القصائد السياسية المتأججة التي أسلفنا القول عليها ، بل تأملْ عشقه لمصر ، ولصعيد مصر ، وترداده لذكرها بقلب مليء بحبها ، مدله بها ، يراها منبت المجد منذ نشأةِ الحياة على الأرض بل قبل ذلك :

ولربما شهدَ الزمانُ وجودَه والأرض ماء ، والسماء ضباب
النيلُ آيته ، وسطر حديثه في العالمين ، ولابتاهُ كتـاب(١)
حتى إذا برز الورى من غيبهم وتميـزت ببنيهـم الأنساب
فإذا عروس الأرض مصر يزينها آطام عـز تعتلـي وثيـاب

وهو لا يتردد أن يفدي مصر بحياته ، ويدعو الله أن تسلم من الأذى ، وينزلها منزلة الأم :

مصر أمي ، فداء أمي حياتـي سلمت أمّنا مـن العاديـات

ومن فرط حبه لمصر نسي أنه عربي بدوي ، وراح يشيد بمناقب مينا وخوفو ، ورمسيس • والحق ألاّ تعارض بين نسبه العربي ، وفخره بمصر ، وبمن شادوا مجدها القديم فهو اليوم مصري الموطن والمولد ، ينعم بخيرات مصر ، ويتمتع بجناتها وأجوائها ، وقد دافع عن رأيه هذا بقوله :

---

(١) اللابة : الحرة من الأرض أي السوداء منها ، ويريد باللابتين الصحراء الشرقية ، والصحراء الغربية ، والوادي بينهما •

رويدك إنّا في العلا يوم ننتمي ... كلانا أبوه النيل أو أمه مصر
لنا آية الأهرام يتلو قديمها ... حديث الليالي فهي في فمها ذكر
ملأنا بها لوح الوجود مناقباً ... إذا ما خلا عصر تلاها به عصرُ
وللعلم من آثارنا في جبالنا ... على الدهر آيات بها ينطق الصخر
إذاجهلوا«مينا»و«خوفو»و«خفرعا» ... فليس « برمسيس » على ملكه نكر
لنا كل ما في الأرض من مدنية ... بها تعمر الأمصار والبلد القفر
لنا في الورى حقّ المعلم لو رعوا ... لنا ذمةٌ ، والدهر شيمته الغدر

ويقول في هذه القصيدة مضمناً المثل الأوربي المشهور « الدين لله والوطن للجميع » :

كلانا على دين به هو مؤمن ... ولكن خذلان البلاد هو الكفر
إذا ما دعت مصر ابنها نهض ابنها ... لنجدتها سيان مرقس أو عمرو

وهو في وطنيته هذه يأنف من الاحتلال وذل العبودية والاستعمار ؛ شأن العربي الذي ألف الحرية المطلقة :

حرام علينا أن نعيش أذلة ... وذو الذلّ أولى ما يكون به القبر

ولما رأى الخلف دبّ بين المصريين بعد ثورتهم العظيمة ، وانقسموا شيعاً وأحزاباً وهنت بها قوى مصر ، وخفت صوتها في المطالبة بحقوقها قال :

فيا مصر إن عزّ الوفاء فإننا ... على العهد لا نلوي ولا نتغير
إذا صاع قوم بالخلاف رأيتنا ... لبرّك أيقاظاً لضرك نحذرُ (١)
أتخذل مصراً في بنيها وهذه ... ذئاب الليالي حولها تتنمر

وقد ندّد بهذا الخلاف في قوة وصرامة ، وأنذر قومه عاقبة أمرهم ، وأنها خسران مبين ، وضياع للوطن :

---

(١) صاع : تحامل بعضهم على بعض .

عبثت بوحدتنا الخطوب وأعملت ... في غرس أيدينا يدُ الإتلاف
والخصم يحجل بيننا للشر في ... ثوبين ثوب : موافق ومنافي
متنمر يغري العداوة بيننا ... بالكيد والتفريق والإرجاف
أو ليس فيما قد مضى من عبرة ... لبني أبي والأسرُ ليس بخاف
أو لم يروا أو يسمعوا نذُرَ الورى ... تطوي إلينا لجّة الرّجّاف[1]

ولعلك تذكر قول مطران في صعيد مصر ، وتعلّيقنا عليه بأنه لم يكن محباً له ، ولو كان محباً حقاً لرأى مساوئه مفاخر ، وشينه زيناً[2] على حد قول الشاعر القديم : « حسن في كل عين من تود » وعبد المطلب كان عاشقاً لمصر ولصعيدها ، يرى الجمال حيث لا يراه سواه والمحب مفتون .

سر الجمال جمال مصر إذا سرت ... ريح الشمال بها وعب النيلُ
بلد جريتُ إلى المنى في ظله ... سَبْحاً على اللذات وهي شكول
أرد المرابع والمصايف سادراً ... أختال بين ظلالها وأجول
لي في الصعيد إذا شتوت منازل ... فيها سَرَاةُ العالمين نزول
بَهرت مصانعها الزمانَ ولم تزل ... للعقل فيها حيرة وذهول
جلست على الآباد في جَبَرّية ... يقف البلى من دونها ، فيحول[3]
مشتى الملوك ، مَرَاد أرباب النهى ... هذا يحلُّ بها وذاك يزول
فيح إذا نهض القريض لوصفها ... يحلو القريض بوصفها ويطول
وإذا بكى الأثلات (يحيى) شاقه ... مَغْنى جفاه بقَرْقرى ومقيل[4]

---

(١) الرجاف : البحر : سمي بذلك لاضطرابه .
(٢) راجع ص ١٧٣ من هذا الكتاب .
(٣) الجبرية : الجبروت والقهر والقوة ، ويحول : يتحول .
(٤) الأثلات : شجر الأثل ، ويحيى هو ابن طالب الحنفي . وكان شيخاً فصيحاً يقري للناس ، أثقله الدين بسبب ذلك فنزح عن قرقرى، فلما وصل خراسان حن إليها، وتذكر أيامه في ظل أثلاتها فقال : =

غنيت نشوان القريض يهزني   سِدْر بريف جهينة ونخيـل

هذه هي نظرة المحب ، وشتان بين نظرة عبد المطلب ونظرة مطران للصعيد ، وقد بلغ من حبه لمصر وللنيل أن يطلب من محبوبته أن تحب النيل معه ، أو أن تحبه حباً يعادل حبه للنيل :

عديني حب النيل إني أحبه   ولا تمطلي فالحر غير ملوم

وأفصح عن هذه المحبة وهو بعد شاب ، في أول عهده بالتدريس ، وأخذ ينشىء تلاميذه على تقديس مصر والوطن والفناء في خدمتها ورقيها ، فيحفّظهم قوله :

نعـم لخدمـة مصر   نرى الكثير قليـلا
بـلادنـا ترتجينـا   لهـا النصير الكفيلا
مصر لنـا خـيرٌ أم   عن حبّها لن نحولا
فـإن رأتنـا صغاراً   غـداً ترانا كهـولا
ذوي نفوس كبـار   نبغـي المكارم سولا

هذه قطرات من فيض الشعر الوطني الذي خلّفه عبد المطلب ، ولقد بينت بعض اتجاهاته في غير هذا الموضوع[١] ، وكله ينبىء عن نفس حرة غيور تأبى الذل ، وتضيق بالعبودية • ولقد كان قاسياً على الأعداء ، سلّط عليهم من لسانه ناراً حامية ، بل كان من أجرأ الشعراء وأعظمهم أثراً في الثورة • ولا ريب أن للنشأة البدوية العربية الدينية ولدراسته أثراً قوياً في هذا الاتجاه ، وفي هذه الحماسة التي لا تهاب شيئاً •

والآن ، وبعد أن عرفت شيئاً عن خلقه وعن أثره في شعره ، دعنا نلقي نظرة عجلى على هذا الشعر :

= أيـا أثلات القاع من بطن توضح   حنينـي إلـى أطلالكن طويـل
الا هل إلى شم الخزامى ونظرة   إلى قرقرى قبل الممات سبيل

(١) راجع ص ١٣١ من هذا الكتاب وما بعدها في شعر عبد المطلب السياسي .

شعـره :

ومحمد عبد المطلب شاعر غنائي ذو وتر واحد ، ولكنه وتر قديم ، وقد يترنم أحياناً بنغمات جديدة حين يعزف أغنيات الوطنية أو يصور بعض الحالات ؛ حاكى في شعره الأقدمين من فحول الشعر العربي ووعى من ذخائر اللغة ما مكّنه من أن يتصرف في الألفاظ كيف شاء ، ولا بدع فقد قرأ القرآن صغيراً واستظهره ، وقرأه بالقراءات ، وحفظ دواوين الفحول •

ومحمد عبد المطلب نسيج وحده في العصر الحديث ؛ لأنه يتبدّى في شعره : خيالا ولفظاً ، ومعنى ، ولم يحد عن طريقة العرب في نظم القصيدة ، وطريقتها ، وإن كان قد حاول التجديد في القالب حين نظم مسرحية (ليلى العفيفة) ، ومسرحية (المهلهل بن ربيعة وحرب البسوس) ، وحين كتب قصة امرىء القيس ، وطرزها بشيء من شعره ، ولكن المعاني والخيالات ظلت بدوية شأن بقية شعره •

قلنا إن محمد عبد المطلب نسيج وحده ؛ لأن شعراء المدرسة القديمة أمثال صبري ، والبكري ، وحافظ ، ونسيم وغيرهم حين حاكوا الشعر العربي القديم ، لم يلجأوا إلى غريب اللغة ، والعصر الجاهلي ، وإنما حاكوا شعراء العصر العباسي المتازين ، وشعراء الصنعة في العصور المتأخرة ، وشعراء مصر المشهورين بالرقة أمثال البهاء زهير ، والشاب الظريف • أما محمد عبد المطلب فكان لتمكنه في اللغة ، وحفظه لغريبها يحاكي شعراء بني أمية أو شعراء العصر الجاهلي •

إن محمد عبد المطلب كان يعيش بخياله الشعري في جزيرة العرب ، يستمد منها تشابيهه ويرى معالمها بين خياله فيسجلها في شعره ، أو كأن روح شاعر من شعراء الجاهلية أو العصر الأموي قد تقمصت جسده ، فهي تحكي ما كانت ترى في العصر الذي عاشت فيه ، استمع إليه يقول :

ولاحت لعيني تلك البروق   بـوادي تهامـة والمنحنى

ومرّت تهادى نَجارِيَّةٌ لهــا زفرات ترج الفلا[١]
ذكرت ربوعاً لسلمى مضى من العيش في ظلها ما مضى

ولا شك أنه لم ير في مصر بروقاً ، ولا وادي تهامة ، ولا المنحنى ، وإنما سبح بخياله في تلك الديار ، واستمع إليه يقول من قصيدة أخرى :

سُقيتَ النَّدى يا منزل الثمراتِ وجاءتك غـُـرُّ المـزن مُنهمرات
مغانٍ بهــا عيش الصِّبا كان ناعماً وغرسُ الأمانــي طيـب الثمرات
وقفتُ بهـا صحبي فحيَّت ركابنا ضواحك مــن أزهارهــا النضرات
ولم ينسني عهدي به منزل الغضا وغــرُّ ليـالٍ فيــه مزدهــرات
ولا مسرحُ الآرام فيــه أوانســاً تهادين في شــرخ الصِّبا خَفِرات

فمنزل الغضا ، ومسرح الآرام ليسا بمصر ، وإنما هما في نجد أو الحجاز . إن عبد المطلب يتشوق أن يرحل إلى الحجاز أو نجد ، ويستعيد عهد أسلافه ، فروحه متعلقة بتلك الديار ، ولا أدل على ذلك من قوله :

برقٌ يلوح ، وسائق يحدو يا شوق هل لك غايةٌ بعدُ
ونوىً تشطُّ بنــا مطرَّحة أنــا بالغوير ، ودارهم نجد
يــا رحمتا ، كبـدٌ تخونها بَرْح الغرام ، ولاحها البُعْد
ذكرت معاهدنا بـذي سَلَم أفلا يعود لنا بهــا عَهْد[٢]
لــو أن أيام الغضا رُجُعٌ أو أنَّ ما سلفتْ بــه رَدُّ

فهو يتشوق لنجد ، وذي سلم ، وقد شطت به النوى حتى تفطرت كبده من شدة الغرام وغيَّرها البعد ؛ لأنها ذكرت معاهده بذي سلم (موضع بالحجاز) ويتمنى أن تعود تلك العهود ، وترجع أيام الغضا ... الخ ، وليس هذا شعر شخص

---

(١) نجارية : ذات نجار واصل .

(٢) ذو سلم : موضع بالحجاز .

يعيش في مصر ويرى النيل والجزيرة ، وسيف البحر المتوسط ، والمغاني العامرة ، والجنان الفيح والآثار الباهرة ، إنه يعيش في مصر بجسده ، ولكنّ روحه في رحلة طويلة إلى جزيرة العرب ، وقد تعود فترتد مصرية الشعور والعاطفة •

ولما قال شوقي قصيدته المشهورة « اختلاف النهار والليل ينسي » يتشوق فيها إلى الثغر والمكس ، ويحن حنينا شديداً لمصر ويقول :

يصبح الفكر و « المسلة » ناد   يه و « بالسّرحة الزكية » يمسي

وينفثها نفثة الملتاع من حرِّ الفراق ، الذي تجسمت أمامه كل معالم مصر ، وتفطرت نفسه حسرات أسفاً لغيابه عنها ، وشوقاً إليها أجابه عبد المطلب بأنه إذا حَنَّ إلى مصر فإنه يحن إلى « الغوير وجَلْس » حين يقول :

ما له في الحنين يضحي ويمسي   شفّه البرق لاح من « عين شمس »
واستخفت بـه الصَّبا فتناسى   عهـده في الوقـار والشوق ينسي
حـن في شجوه إلـى جبل الطيـ   ـرِ حنيني إلـى الغوير وجلس[1]

وهو يشبه نفسه بامرىء القيس إذ يبكي ما بين (حومل فالدخول) :

ما لي وللربع المُحيل   أبكيـه بالدمع الهطول
نـوحَ الحمامة رجعت   بـين المعاهد والطلول
أو كابن حُجر إذ بكى   ما بين حومل والدخول

وقد تهيم نفسه ، ويغلو في حنينه إلى تلك الديار التي يسبح خياله في عرصاتها ووديانها ، والتي تشبع بها عقله من كثرة ما قرأ في الأدب القديم ووعى منه ، ولكثرة ما فكر فيها ، فيفضل الخزامى على رياض النيل ، وثرى نجد وإن كان حجارة على تربة مصر الخصبة الممرعة ، والسحب التي تمر بنجد وإن كانت جَهاما على النيل العظيم • وهذا غلو" منه ولا ريب ، وجموح في الخيال ، ولم يصدر عنه ونفسه في اتزانها وهدوئها ، وعقله في تمام وعيه ، ولكنه الهيام والشوق إلى معيشة البادية ، والحنين إلى الماضي العتيق :

---

(١) الغوير : ماء لبني كلب ، وجلس : بلاد نجد .

فذكا الشوق بقلبٍ لم يخن — لر بى نجد وإن شطت ذِماما
لم يخن عهداً لأيام الغضا — إن أيام الغضا كانت ذِماما
ما رياض النيل ما عهدي بها — ناعمَ العيش كعهدي بالخزامى
ما ثرى مصر ، وإن كان الثرى — كثرى نجد وإن كان رضاما
لا ولا النيل وإن كان الحيا — كغواديها وإن مرّت جَهاما

وشاعر هذا خياله البدوي ، وهذه ثقافته القديمة لا ينتظر منه أن ينتزع تشبيهاته واستعاراته وألفاظه إلا من تلك البيئة المتبدية ، وإلا أن يحاكي الشعراء الأقدمين ، ويحاول جهده أن يكون مثلهم في كلّ شعره • فعاطف بركات حين مات تحمله (نجب الرّدى) •

وهل حملت نُجب الرّدى مثل راحل — بكته المعالي من بني بركات

وعدلي وزملاؤه في الوزارة (أسْد بيشة) •

في رفاقٍ هم أسْدُ بيشةَ بأساً — أو همُ النجم في سناءٍ ونُبْل[1]

وأحمد تيمور حين يموت جبل أشم يصير إلى القبر :

وأرى المكارم يومَ أحمد صوّرت — فسعت إلى الأجداث وهي سرير
يا حامليه إلى الثرى أرأيتم — شمَّ الجبال إلى الرجام تصير[2]

ويرى الموت يغتال عظماء مصر واحداً بعد الآخر ، فيرمي اليوم قارحا ، وفي صبح غد بازلا[3] ، فرجال مصر في رأيه جمال •

ما للردى في مصر مستأسداً — يعدو على أبنائها غائلا
إذا رمى اليوم بها قارحاً — منهم رمى صبح غدٍ بازلا

---

(١) بيشة : مكان على خمس مراحل من مكة جهة اليمن وبها نخل كثير ، وفي وادي بيشة موضع مشتجر كثير الأسد •

(٢) الرجام : القبور او حجارة تنصب عليها •

(٣) قرح الفرس : بلغ الخامسة من عمره فهو قارح ، ومثله الجمل ، والبازل من الابل ما كان في التاسعة من عمره ، ويريد أن الموت يخترم رجال مصر شباناً وشيباً •

وحين يرثي سعد زغلول يمدحه بأنه كريم النجار ، شريف المحتد فيقول : أن (محتده خندفي)[١] .

وعدلي يكن يسافر للمفاوضة فهو « يزجي إلى حلبات السلام النجب » :

قالوا : السلام ، فقام قائدنا يزجي إلـى حلباته النجبا

وحبيبته :

لها الأسْدُ أهلٌ والأسنة غيل ذليلـةُ أجفانٍ عزيزةُ مَعشَرٍ

وغاية الجزالة عنده جزالة الخطيئة وهو ما نعلم في بداوته ، وعدم تأثره بالإسلام ، وغاية الرقة عنده رقة (توبة) أو رقة جميل بن معمر .

ولنا إذا شئنا جزالة جرْوَل وإذا نَرِق فتوبـة وجميـل

أما نسيبه وتشبيهات حبيبته فمعرقة في البداوة ، ولا أستطيع أن أسوق هنا كلّ ما قاله في النسيب من هذا الطراز البدوي ، وحسبي قطعة واحدة لأن كلّ نسيبه على هذه الشاكلة ، قال فيما سماه « دالية أسوان » .

خليليّ قلبـي لسلمى عميـد ووجدي بهـا كـلّ يوم يزيدُ
يذكرنيهـا إذا جَـن لَيلـي شَمالٌ تهـب وغصـن يميـد
وبَرْقٌ يلـوحُ وطَير ينـوح وحـادٍ لـه في المطايا نشيـد
فأمـا الشّمال فتهـدي شَذاها وكالغصن ذاك القـوامُ الميود
ونـوحُ الحمام نشيـد الغرام يُشَنّف سمعيَ منـه القصيد
ومـا البرق إلا وميض الثنايـا إذا ابتسمت فهـي در نضيـدُ
وابكي إذا ما حدا الركبَ حادٍ لمـا كـان يـومَ افترقنا بعيد
تناءى بك البينُ عن دار سلمى وكـلُّ قـريب المطايـا بعيـد

---

(١) خندف : قبيلة عربية مشهورة بالكرم والنجدة ولعله يريد خندفيا من الخندفة وهي الاسراع لاغاثة الملهوف .

فهل لــك في صفو عيش رجاءٌ | ومن دون سَلْمى فيافٍ وبيدْ
رعــى اللهُ عهدكَ مــن عالــجٍ | وحيًا ربوعــاً حوتها زَرُود[1]
وعهــدُ الهوى بيننــا قائــمٌ | أواخيــه محكمــة والعقــود
ليالِيَ ألهو بهــا لا أخاف الـ | ـقِلى والحواسدُ عنــا رقــود

إلى غير ذلك من هذا النسيب الذي يدل باديء الأمر على أنه مفتعل لم يصدر عن عاطفة ، وإنما قيل محاكاة للأقدمين في ابتدائهم القصائد بمثل هذا النسيب ، ويدل بعد ذلك على عدم ابتكار في أي معنىً من معانيه ، فكله ترديد لما قال شعراء الجاهلية والعصر الأموي ، ولا أود أن أقول العصر العباسي لأن هؤلاء ربما افتنوا في المعاني ؛ ويدل ثالثاً على خيال بدوي لشاعر يقيم في الصحراء ، تشتد حساسيته للبرق ، ولقدوم الليل ، ولريح الشمال حين تهب ، وتحرك الغُصن ، وللطير حين ينوح ، وللحادي الذي ينشد المطايا يستحثها على السير ؛ لأن لهذه الأمور معنى لديه ، إذ تذكره ببعض التغيير في حياته الرتيبة ، ولأن في بعضها منافع له كالبرق وهو نذير المطر ، والحادي وهو يقدم القافلة سواء كانت آتية بتجارة ، أو ذاهبة بها ، فهذه أمور تتصل بحياة البدو ويهتمون بها أكثر من اهتمام الحضر لها . ثم ألا تراه يتذكر عهدها بعالج وزرود ، وأين الشاعر من عالج وزرود وهو يعيش في حضن النيل العظيم وفي كنف القاهرة عروس الشرق ؟ . إن هذا تقليد عجيب ، عللنا له فيما سبق بأن خيال الشاعر يفلت منه أحيانا ، ويهيم بالبادية ، ثم أين هو الحادي الذي يحدو الركب ، فيبكيه ويشجيه ، وليس في مصر إلا القطر البخارية ؟ . وهل حقا من دون سلمى فياف وبيد ؟ أتقيم سلمى في مصر أم في جزيرة العرب ؟ إن كان هذا يدل ، على شيء فهو ولا ريب ، على أن الشاعر يحاكي شعراء البادية ، بل إن لشعراء البادية غزلا عاطفيا جميلا ينم عن لوعة ترعى الفؤاد ، ونار غرام عاتية ، وقد افتنوا في المعاني الغزلية ، وأتوا بكثير مما يقال في إخلاف الوعد ، والهجر ، والشوق ، والعذال ، واللقاء . وحسبك أن تقرأ شعر جميل بن معمر ، وكثيِّر عزة ، وقيس بن الملوح ،

---

(١) عالج : رملة بالبادية وقيل هي رمل بين فيد والقريات ينزلها بنو بحتر من طيء ، وهي متصلة بالثعلبة على طريق مكة ، لا ماء بها ولا يقدر احد عليها ، وزرود : رمال بين الثعلبة والخزيمية بطريق الحاج إلى الكوفة .

استمع إلى قيس بن الملوح يقول في ريح الصّبا وأثرها في نفسه ومنزلتها عنده :

أيا جَبَلَي نعمانَ بالله خليا ... سبيلَ الصّبا يخلُص إليّ نسيمُها
أجدْ بَرْدها أو تشف مني حرارة ... على كبدٍ لم يبق إلاّ صميمُها
فإن الصّبا ريح إذا ما تنسمت ... على نفس محزون تجلّت همومُها

هذا وحبيبة عبد المطلب ـ إن كانت له حبية ـ ليست إلا ظبياً أو جؤذرا[1]

صبٌ بربع البانة الأخضر ... بات صريع الظبي والجؤذر

وإذا ترك ربع البانة الأخضر وتذكر أنه في مصر ، انتقل بهذا الجؤذر إلى سيف الجزيرة على النيل .

على النيل من سيف الجزيرة جؤذر ... هفا تائها والحسن بالتيه يأمر

أو انتقل به إلى (الحلمية) :

درَجْن من الحلميتين فما المها ... إذا ما توسطن الطريق وما العُفر[2]
فهن كأسراب الحمام تتابعت ... سوابحَ مرماها الجزيرة والجسر

لقد انطبعت هذه الصور والتعبيرات في ذهنه ، وكان له بها غرام ، ولقد هام بغريب الألفاظ هياماً عجيباً ، وضمن قصائده كثيراً من أمثال العرب المشهور منها وغير المشهور مما يدل على غزارة محفوظة من التراث القديم ، من ذلك قوله :

عِدْونا إذا بانت بكم عن رِباعنا ... نَوىً قَذَفٌ بالعَوْد ، فالعودُ أحمد

وقوله :

أسعديهن بالهديل فقد عيّ ... م لسان القريض بالإسناف[3]

---

(١) الجؤذر : البقرة الوحشية ، وتشبه به الحسناء في جمال عينيها ، وهفا : مر مسرعاً ، وتائها : متكبراً .

(٢) المها : بقر الوحش واحدها مهاة والعفر من الظباء : التي يعلو بياضها حمرة .

(٣) الاسناف : مصدر أسنف بمعنى شد البعير بالسناف ، والسناف للبعير بمنزلة اللبب للفرس ويقال « على فلان بالاسناف » إذا دهش من الفزع كمن لا يدري أين يشد السناف .

وقوله :

وإن تر شعباً بالجهالة سابحاً   فقل لعداه رمَّد الضأن رَبِّق

مأخوذ من المثل : « رمدت الضأن فربق ربق » ، ورمَّدت الضأن نزل لبنها قبل النتاج ، وربق أي هيىء الأرباق وهي الحبال التي تشد فيها رؤوس أولادها ، ومعنى المثل إن الضأن قد عظمت ضروعها فأعد الحبال لأولادها ، وهو يريد أن هذا الشعب السابح في الجهالة اليوم سيكون منه ما لا ينتظر وقوعه في غد .

وهو يعدل عن الكلمات المألوفة إلى الكلمات الغريبة لغير ما عذر أحيانا مثال ذلك قوله :

يلقى أخاه كما يلقى أباه على   حال بها يتباهى الخيم والأدب

فاستعمل كلمة الخيم بدل الطبع أو الخلق ، و « الطبع » تستقيم في البيت ، ومثل كلمة « الرجام » أي القبور في قوله :

ما زلت سراً في الرِّجام محجبا   من دونه الصخر الأصم حجاب

وله استعمالات معرقة في الغرابة كقوله « اليوم أيومُ والنهار شَرِير » وقوله : فما لداري أصبحت حَجِرة ؟ « أي كثيرة الحجارة » وقوله :

فوارحمتا لابن الحكومة قوسه   قلوع وهل يُرجى سداد قَلوع

والقوس القلوع هي التي تنفلت حين النزع فتنقلب ، فلا يرمى بها ، وإذا رمي بها فلا يُصاب الهدف .

وقوله : « نجلته أمهة » يريد أماً[1] ، والخمر عنده « جربال » في قوله :

يهفو النسيم عبيراً من شمائله   كأنما هو في الألباب جربال

ولا نشعر حين يختار القوافي الصعبة النادرة كقافية الجيم ، أو القاف مثلا أنه يتكلف هذه القوافي ، أو أنها قلقة ، أو أنه برِم بها ، فلا يلبث أن يوجز وينهي

(١) ص ١٧٦ من الديوان .

القصيدة ، وإنما الأمر عنده على العكس فقصيدته القافية في حوادث الحرب الكبرى الأولى تزيد عن المائتي بيت جمع فيها كل قافية مستعصية مثل « الزنيم الحفـلق[١] »، و « ميثاء سملَق[٢] » ، و « الحارش المتنفق[٣] » ، ومثل قوله :

فما لبثوا أن أرزم الموت بينهم   بداهية من حول (غزة) بَهلَقِ[٤]

ومثل قوله :

فهذا فريق في التلال مصرّع   وذلك فوق الأمعَرِ المتوهّق[٥]

وهذه القصيدة وحدها أكبر دليل على تمكنه من غريب اللغة ، وله غيرها قصائد وعرة القافية واللفظ كقصيدته في رثاء حمزة فتح الله التي مطلعها :

كبد بما صنع الأسى تتمزع   بان الخليط بها عشية ودعوا

وكل شعره جزْل ، قوي التركيب ، شديد الأسر ، محكم القوافي ، غاص بالغريب ، له جلجلة ورنين في الأذن وانسجام موسيقي رائع ، يدل على أن صاحبه لم يتكلفه وإنما كان ينطلق من لهاته كالسيل الجارف .

وإذا نظرنا إلى أغراضه وجدناه يقول في الأغراض المعروفة عند العرب من قبل ، وإن كان قليل المديح ؛ لأنه لم يك يرجو ثوابا من أحد ، أو يطمع في منصب ، وليس من شعراء الحاشية ، وطبعه البدوي يربأ به عن الزلفى والنفاق ، ولذلك لم يمدح إلا لفكرة ، أو غاية سامية ، وجلُّ ثنائه على أصدقائه الذين أسدوا إليه جميلا ، وليس له في السلطان عبد الحميد إلا قصيدة واحدة بمناسبة إعلان الدستور،

---

(١) الزنيم : الملحق بقوم ليس منهم كانه زنمة ، وهي ما يقطع من اذن البعير والشاة فتترك معلقة ، والحفلق : الاحمق الضعيف .

(٢) الميثاء : الارض السهلة ، والسملق : الارض المستوية الجرداء التي لا شجر فيها .

(٣) حرش : الضب صاده فهو حارش ، وهو أن يحرك يده على جحره ليظنه حية فيخرج ذنبه ليضربها فياخذه ، وتنفق الرجل اليربوع أخرجه من نافقائه فهو متنفق .

(٤) ارزم الرعد اشتد صوته ، والناقة حنت على ولدها ، والبهلق : الداهية قال رؤبة :

حتى ترى الاعداء مني بهلقا   انكر مما عندهم واقلقا

(٥) الامعز : المكان الصلب ، الكثير الحصى ، والمتوهق : الشديد الحرارة .

وقد كان نافراً من حكمه ينعي عليه استبداده وجبروته ، وقد ذمّ عهد عبد الحميد في قصيدة طويلة بعث بها إلى صديقه الشيخ عبد القادر المغربي ، وكان مضطهداً في عهد عبد الحميد وفيها أبيات تجري مجرى الأمثال ، من هذا قوله :

إذا المَلْك لم يعط الرعية حقها   فغير عجيب أن يُهان ويخلعا

وقوله :

وما المُلك إلا مـا أقامت لـه الظبّا   على الحق صرحاً سامي العرش أتلعا(١)

وليس له في الخديو عباس سوى قصيدتين إحداهما قالها حين عاد الخديو من الحج . ولقد أفاد عبدَ المطلب من انصرافه عن المديح ، فعني بالأمور العامة لوطنه ، ومراثيه أكثر من تهانيه ومديحه ، وهي قوية جدّ ، تنم عن عاطفة غلاّبة ، ولم يرث إلا صديقاً أو زعيماً وطنياً . وقد علمتَ مبلغ وطنيته ، وصدق ولائه لفكرة الوطن والاستقلال ، وعداوته للمحتل الغاصب ، فإذا مات الزعيم فقد فقدت الأمة قائداً محنكا وهي في أمس الحاجة إليه . وإذ رثى أعطاك صورة واضحة عن المرثي ، ولا يَحفِل بهذه الحكم المبتذلة ، والمواعظ المتصنعة ، وذلك لأنه يقول عن عقيدة وفكرة ، ومعرفة تامة بخلال من يرثي وأعماله ومنزلته . خذ مثلا رثاءه لسعد زغلول :

نعى الناعي بجنح الليل سعداً   فيـا لله مـا فعـل الصباح !
جمـوعٌ بالعـراء مدلهات   تموج بها على السّعة البراح
وأفـئدة خوافـق داميـات   تفرّي في جوانبها الجـراح(٢)
وأجفانٌ أجفّ الدمعَ فيهـا   جَوِيٌ بالضلوعَ له التياح(٣)
وأبصار سكرن فـلا انطباق   ترِفُ به الغداةَ ولا انفتاح
وليـل بالأسى والخطب ساج   ويوم من جوى الأحشاء راح(٤)
فـلا تلم النفوس جرين دمعاً   وراء الظاعنين غـداة راحوا

---

(١) أتلعا : مرتفعا .
(٢) تفري : تقطع .   (٣) الالتياح : الحرقة والعطش .
(٤) راح : شديد الريح .

أتَلحا أمة ثكلت أباها ... أضلهم الحجا فبكوا وناحوا
إذا كتموا الأسى جلَدا ألحت ... عليهم لوعة البلوى فناحوا
أب لولاه ما عرفوا حياة ... ولا عرْفاً للاستقلال راحوا[1]

ثم يروح يصور لك سعداً ومنزلته ، وما صنعه لقومه تصويراً بديعاً قوياً ، مشوقاً بعاطفة تضطرم بين جوانحه أسى ولوعة لفقد هذا الزعيم . وكل مراثيه عامرة بهذه العاطفة ، مما يدل على أنه لم يكن يرثي مجاملة أو نفاقاً ، وإنما كان يرثي لأنه محزون مكلوم الفؤاد ، استمع إلى رثائه في صديقه الشيخ عبد العزيز جاويش بعد مضي عام على وفاته وكيف يبدأ قصيدته :

ليل شربتُ به الهموم أجاجا ... جُعل الأسى لكؤوسهن مِزاجا
خَرِستْ جوانبه ولجَّ ظلامه ... يا ليل ما لك بالدجى مِلجاجا

وله فيه قصيدة أخرى طويلة حين وفاته وفيها يقول :

يا قوم من أبكي ومنذا الذي ... أنعي إليهم بالأسى ذاهلا
أنعي أخا العُمر شقيق الصبا ... هيهات قد ولىَّ الصبا حافلا
من لمضيمٍ لم يجد موئلاً ... من ليتيمٍ لم يجد عائلا ؟
من للتي تحت سواد الدجى ... يذْري أساها دمعها الهاملا ؟
ما بين أطفالٍ كزُغب القطا ... ما كسيت زَفاً ولا طائلا[2]
عوَّدها عبد العزيز الندى ... ترجو لديه غيثَها الشاملا[3]
دار العلوم احتسبي فقده ... نجماً هوى تحت الثرى آفلا
أرسلتِه نحو العلا فانبرى ... لا واهنَ العزم ولا واهِلا[4]

---

(١) راحوا : شموا .
(٢) الزف : صغار الريش ، والطائل : القدرة والرغد من العيش .
(٣) الشامل : من لمل قومه بمعنى الفائهم واطعمهم ، وسقاهم وقام بأمرهم .
(٤) الواهل : الفزع .

يغريه بالبأساء حبُّ العلا | يَلَذُّ فيها الموقف الهائلا
سائل به (برلين) إن شئت أو | (لندن) أو (باريس) أو (نابلا)
واسأل به (جيرون) أو أختها | (فروق) أو سائل به (كابلا)[١]
كلٌّ لـه فيها مقام على الـ | إسلام لـم تعدل بـه عادلا
مجاهـد في الله لـم يرتقب | مـن أحدٍ بِراً ولا نافلا

ويؤسفني أن يضيق المقام عن إثبات هذه القصيدة كلها هنا ، لأن ما اخترته منها ليس بخيرها ، وهو غير مرتب • لأنها كسائر شعره في الرثاء من عيون القصائد ، وإن كانت معانيه كلها قديمة ، ولكنَّ عاطفته وحسن تصويره لمواقف الحزن ، وإشادته بمآثر المرثي تضفي على القصيدة روحاً جديدة • ولعلك تلحظ أنه يظهر اللوعة والألم وشدة الحزن في رثائه وهذا شأن الشعراء الذين يرثون وهم مفجوعون ، ولا تجد له في رثائه بيت حكمة أو موعظة كما ترى عند شوقي ، فالقصيدة كلها في المرثي ، ويعد هذا الباب من أقوى أبوابِ شعره •

وثمة غرض آخر من أغراض شعره كان فيه صادقاً لأصله العربي ، وذلك هو الوصف ، فقد اشتهر العرب بالدقة في الوصف ، ولا سيما إذا كانوا بدواً ؛ لأن الصحراء قد أرهفت حواسهم ، فعنوا بدقائق الأشياء ، وقد بينت في غير هذا الكتاب أثرها فيهم وفي أدبهم[٢] •

ومن الغريب أن عبد المطلب يحسن تصوير الحالات أكثر من تصوير الأشياء ، ولعلك تتذكر ما نقله نجيب حداد عن الفرق بين الشعر العربي والغربي[٣] في هذا الموضوع ، وأن الغربيين اشتهروا بوصف الحالات على العكس من العرب ، وهذا يدل على شاعرية قوية لدى عبد المطلب ، ولو أوتيت حظاً من ثقافة غربية أو وجهت توجيها جديداً لأبدعت أيما إبداع •

ومن تلك الحالات التي صورها فأجاد تصويرها حال المعلم ، وتعسف الإنجليز

---

(١) جيرون : موضع عند باب دمشق ، وفروق : اسم القسطنطينية .
(٢) ارجع إلى النابغة الذبياني ص ٤٥ وما بعدها ، وإلى الفتوة عند العرب الفصل الثاني .
(٣) راجع فصل النقد الادبي من هذا الكتاب .

في مصر وتصوير حاله وهو ضيف بقصر الباسل ، وتصويره لموظف الحكومة إبان الحرب العالمية الأولى ، وما عاناه من غلاء ، وبؤس وشقاء ، وتصويره للجنود الإنجليز وسواهم بمصر أيام الحرب العالمية الأولى ، إلى غير ذلك من الحالات التي هاجت شاعريته ، فاستجابت لها ، وأبدعت في تصويرها • خذ مثلاً قوله يصف حال بعض الطلبة المصريين وقد هوى بهم القطار في طريقهم إلى برلين يطلبون العلم بعد الثورة المصرية :

حملوا مُنَى لو أنَّ جذوتها لفحت جبال الألب تستعر
بأبي نفوس في الدُّنا زهدت فمضت لدار الخلد تبتدر
بأبي غرانيق الصِّبا ذهبت أشلاؤها في الترب تنتثر
بأبي دم قانٍ هناك جرى فوق الثرى كالمسك ينتشر
بأبي صريع لا وِساد له إلا الثرى المخضوب والحجر
صاح يَخُدُّ الأرض من ألم أو ذاهل مما به خَدِرْ
ولربما نادى : أبي ، ودعا : أمي ، ودمعُ العين ينحدر

لقد استطاع عبد المطلب في هذه القطعة أن يحلق في سماء الخيال ويستحضر المنظر البشع ، ويعطيك منه صورة قريبة من الحقيقة وهذه هي الشاعرية المركبة كما مرَّ بك • استمع إليه كذلك يصف حال المعلم وبؤسه ، وكدَّه في سبيل العيش ، وسهره المتواصل في سبيل النشء ، والناس يثرون وهو لا يزال في فقره :

سلوا عنه جنح الليل كم بات مُتْنَصِبا تنام حواليه النجوم ويسهر
سلوا عنه عيناً قرح السهدُ جفنها يخط عليها في الظلام ويسطر
سلوا عنه جسما بات بالسقم ناحلا فلا البرء مأمول ولا هو يُعذَرُ
سلوا عنه أسفاراً قضى الليل بينها غريباً عن الدنيا وأهلوه حضَّر
سلوا عنه قلباً بات يخفق رحمة على فتية من حوله تتضور

يروّعه صَرْف الليالي عليهمُ ... وعاتٍ حواليهم من البؤس يزأر
فإن مدّ للدنيا يداً يستمدها ... لهم ، عنه ولت وهي غضبى تشزّر
سلوا عنه إخواناً قضى العمر بينهم ... غدوا في ثراء وهو بالفقر أخبر

وهذا وصف دقيق صادق لحال المعلم المخلص في عمله ، لا نجد له نظيراً في أدبنا الحديث . وهاك ما قاله وهو ضيف بقصر الباسل ، وهو على ما به من إيجاز يعطيك صورة واضحة عن حاله ثمة :

وليال مضيتُ بالقصر غر ... ضافيات السرور والإيناس
لم أكن فيه مثل ما ينزل الضيـ ... ـف غريباً في حشمة واحتراس
إنما كنت بين أهلي وإخوا ... ني مقيما في معشري وأناسي

وهاك ما قاله في موظف الحكومة إبان الحرب العالمية الأولى وقد اشتد به الضيق وحزَبَه الضرُّ ، من شدة الغلاء ، وكثرة البلاء حتى وضعت منزلته بين قومه ، وهان على الناس ، على حين أثرى الجهال وارتفع السّفلة .

طليح أسىً كابن الحكومة لاحه ... تباريحُ همٍّ بالفؤاد وجيع
لقد كان في بحبوحة من حياته ... وحرزٍ من الفقر المَهين منيع
يمر فيغضي الناظرون مهابةً ... وإن هو حيّا أومئوا بركوع
فأصبح مهزول المكانة خاملا ... همامة حرٍّ في ثياب وضيع
يرى الناس في أكناف مصر تربعوا ... منازل عيش باليسار وسيع
فمن زارع ضاقت خزائن بيته ... بغلات جنات له وزروع
ومن تاجر إن ترجع القول عنده ... حرَمت إذا لم تأته بشفيع

إن هذه صور زاهية فيها إلمام بالحالة النفسية والظاهرية ، تدل على مقدرة ، وعلى دراسة وتمكن من الموضوع ، وعلى شاعرية وحسن أداء .

ولا تحسبن أنه في وصف الأشياء دونه في وصف الحالات ، فوصف الشيء هو

ما برع فيه العرب • وقد أثبت ديوان عبد المطلب فيضاً من الموصوفات ما بين حسي ومعنوي ، وكان له غرام بوصف بعض المخترعات الحديثة كالقطار والطيارة ، وتراه لا ينفك في كثير من القصائد يذكر البخار وعجائبه •

فمن موصوفاته البديعة ما صوَّر به مختلِف الجنود التي جلبها الحلفاء إبان الحرب العالمية الأولى إلى مصر ، من طويل عملاق ، وقصير قزم ، وأسود ، وأبيض ، وأحمر ، ووصف عربدتهم وفسقهم :

تبصَّر خليلي هل ترى من كتائب ... دَلَفْن بها كالسَّيل من كل مَوْدِقِ (١)
سراعاً إلى الحانات تحسبهم بهـا ... نعاماً تمَشَّى رَزْدَقاً خلف رَزْدَقِ (٢)
يهـزك مرآها إذا اصطحبت بهـم ... مواخير تجلـو فاسقاتٍ لِفسَّقِ
إذا أجلبـوا فيهـا حسبت جنادبا ... تجاوَبْن إيقاعاً على صوت نقنَقِ (٣)
كـأن بنـي حـام بمصر تواعدوا ... ليجتمعوا مـن بعـد ذاك التفرق
زعانف شتى : مـن طويل مشذب ... طـري القَرا عاري الأشاجع أعنق (٤)
وملتصق بالأرض تحسب خطـوه ... إذا مرَّ في أحيائها خطو خِرْنِقِ (٥)
وأخنس ممحوق الحجاجين ينتحـي ... لأصمع معروق العِذارين أشنـق (٦)
وأسود نهـد الوجنتـين حديثـه ... بجحفلة تنهال عـن شدق أفـوق (٧)

---

(١) المودق : معترك الشر . (٢) الرزدق : الصف من الناس معرب (رسته) بالفارسية .

(٣) النقيق : أصوات الضفادع .

(٤) الزعنف : كل جماعة ليس لهم أصل واحد ، المشذب : المقشور او المقطوع الاطراف ، ولعله يريد به المشوه ، والقرا بفتح القاف : الظهر ، والاشاجع : أصول الاصابع التي تتصل بعصب ظاهر الكف والامنق : الطويل العنق .

(٥) الخرنق : الفتى من الارانب .

(٦) الاخنس : الذي يتأخر انفه عن وجهه مع ارتفاع قليل في الأرنبة . والحجاجان : العظمان اللذان ينبت عليهما الحاجبان ، وممحوق الحجاجين : لا اثر لهذين العظمين لديه ، والأصمع : الصغير الأذن والمعروق : القليل اللحم : والعذار : هو من الوجه ما ينبت عليه الشعر المستطيل المحاذي لشحمة الأذن إلى أصل اللحي ، والأشنق : الطويل الرأس .

(٧) نهد الوجنتين : بارزهما ، والجحفلة من الحيوان كالشفة للانسان ، والافوق : المتكسر الاسنان ماخوذ من قولهم : « سهم أفوق » أي كسر فوقه .

إنه تصوير رائع لهذا الخليط من البشر ، وكل شخص من هؤلاء صورة حيَّة . وقد وصف في هذه القصيدة ذات القافية المشهورة أعمال دانلوب مستشار وزارة المعارف الذي مرت علينا مساوئه في الفصل الأول من هذا الكتاب وصفاً قوياً دقيقاً فقال :

وبالعلم سل «دنلوبهم» لِمَ لم يدع ... ذواقاً من العرفان للمتذوق
رمتنا به حمى أصابت بلاده ... تطاير عنها كل فدْم حَبلَّق[1]
ولو وزنوا في غير مصر مقامه ... لأرخصة في السوم كلٌّ مُدَنِّق
فأصبح داءً في المعارف قاتلا ... يسدد فيها كلَّ سهم مفوق
فواهاً على تلك العقول التي ثوت ... بكفيه في لحد من الجهل ضيِّق
ثلاثين عاماً يسكب النيلُ حسرة ... على العلم دمع الوالد المتشوِّق

وله قصيدة في وصف ذهاب سعد زغلول إلى عميد بريطانيا يطلب هو وصحبه منه رفع الحماية عن مصر ، وكيف كانت حالة البلاد في تلك الأيام ، وكيف قابل الإنجليز هذا الطلب المتواضع بعنجهية وغلظة أدّيا إلى قيام الثورة ، وفيها يقول مخاطباً سعد زغلول :

ما تنس لا تنس يوما قمت فيه على ... سجية الليث لا وَهْن" ولا خور
والناس هلكى تموج الحادثات بهم ... فالأرض ترجُف والبأساء تستعر
« لا نوم إلاّ على خوفٍ وزلزلة » ... فيها ، ولا ضوء إلاّ النار والشرر
والحق بين القنا والبيض مختدر ... أو مضمر" في بطون الغيب تستتر
لم تخش وقع الردى لما صدعت به ... والسيف يلمع والخطيُّ مشتجرُ
عمادُكَ الحقُّ لا جند" ولا حُصُن ... ولا حصون" ولا بيض"ولا سُمُر[2]
إلاّ عزائمَ أهلوها إذا زخرت ... ريح العظائم في تصريفها زخروا
سكوا وجوهَ العوادي وهي تزجرهم ... إلى المصارع ما طاشوا وما ذعروا

---

(١) الفدم : العي عن الكلام في ثقل ورخاوة وغباوة ، والحبلق : الصغير القصير .
(٢) حصن : جمع حصان .

قامت تساورهم غضبى يؤيدها   جند من البغي والعدوان مقتدر
في كل شعواء ترتج البلاد لها   تستنفد الصبر لا تبقي ولا تذر
للنفي قوم وللإعدام طائفة   وفي السجون فريق للردى حشروا

وهذا وصف قوي لابتداء الثورة المصرية ، وكيف صدع سعد بالحق في وقت اشتد فيه بأس العدو ، وقد خرج مظفراً من حرب طاحنة ، وذهبت مصر تؤيد زعيمها ، واضطربت البلاد وزلزلت زلزالا شديداً ، والناس يطلبون حقهم من يد عدو قوي عنيف مدجج بالسلاح ولكنّ سعداً لم يقدم على الثورة إلاّ معتمداً على الحق وحده إذ ليس وراءه جند يؤازرونه ، ولا حصون تحميه ، ولا مدافع تؤيده ، وما هي إلا عزائم قومه صكوا بها وجوه العوادي ، وهي تزجرهم إلى المصارع ، ومع ذلك فلم تطش أحلامهم ، أو يدب الذعر إلى قلوبهم ، وقام العدو يردهم عن باطله تؤيده جنوده ودباباته ، يثب عليهم مرة بعد أخرى ، وقد بغوا وطغوا فنفوا ، وأعدموا وسجنوا كثيراً من المصريين .

ولكن يلاحظ أنه في وصفه هذا لا زال بدويا في تشبيهاته ؛ فسعد في إقدامه « ليث » لا يهن ولا يخور ، والحق بين « القنا والبيض مختدر » ولا قنا هناك ولا بيض ، بل مدافع رشاشة ، وبنادق سريعة ، وسعد لا يعتمد على بيض ولا سُمر .

ويقول في هذه القصيدة يصف « سيشل » تلك الجزيرة التي نفي إليها سعد زغلول ، وقد أجمل في بيت واحد مساوىء تلك الجزيرة ، فأعطى صورة واضحة عنها ، لأنها جزيرة موحشة ، موبوءة الأمراض ، لا يرتاح فيها ساكنها ، أو يهدأ له بال حتى يغشى الكرى جفنيه .

حتى أناخوا بأرض أمنها فزع   والبرء فيها سَقامٌ والكرى سَهَرُ

وله في وصف انقسام المصريين على أنفسهم ، وتصدع وحدتهم ، وشماتة العدو الجاثم في البلاد بهم قصيدة رائعة ، ولكنها بدوية النسج ، غريبة اللفظ وإن كانت دقيقة الوصف ، استمع إليه كيف يصور ذلك الانقسام الذي أدى إلى خذلان مصر في قضيتها :

يا قومُ ما هذا العداء ، وكم هوى   قِدماً بعز ممالك وملوك
يرمون بالخطب الطوال وكلها   خطرات أرعنَ أو سباب أفيك[1]

---

(١) الافيك : الضعيف العقل .

مـن كـل مرتبك المقالـة رأيـه ⁂ زيفـان بـين مسَنفه وربيـك[1]
تركوا البلاد علـى الهوان تخب في ⁂ أذيـال أسـود بالبـلاء محَوك
يذكي بهـا لهب العداوة بينهـم ⁂ خطَـلُ السفيـه وإمـرة المأفوك
والليـث منتشـر المخـالب فاغـر ⁂ يختـال في جبَرَيةٍ وفتـوك[2]
جـاث يخاف النيل مـن غدراته ⁂ بأساءَ يـوم بالخطوب عتيـك[3]
يـا مصرُ ما لك غير أهلك فتنة" ⁂ في الله مـا لاقيت مـن أهليـك
مـا أنت بالبلـد الشقي وإنمـا ⁂ جلب الشقاءَ علـى بنيك بنوك
فتنتهـم الدنيـا فلمـا استيئسوا ⁂ منهـا علـى أهوائهـم فتنـوك

فهل رأيت وصفاً أدق من هذا الوصف لتلك الحالة المزرية التي آلت إليها مصر على يد المتزعمين فيها ، وهم يرمون بالخطب الطويلة ، وكلها خطرات أرعن ، أو سباب أفيك كذاب ، والكتاب يزوّرون مقالات زائفة يحررها أحد رجلين ، إما شخص سفيه الرأي ، أو مرتبك لا يدري وجه الصواب ، وقد ترك الجميع البلاد في هوان وذلة عليها ثياب الحداد وخزي الاستعمار ، وقد أذكى العداوة بينهم خطل السفيه وتزعم المأفوك ، بينما العدو يختال في البلاد كالليث الفاغر فاه يفتك ويبطش. فأهل مصر بهذه العداوات الصغيرة والحزازات الوضيعة هم سبب بلائها ومصدر شقائها ، وقد رد على حافظ ابراهيم حين قال :

فما أنت يا مصر دار الأديب ⁂ ومـا أنت بالبلـد الطيب

فمصر عند عبد المطلب ليست بالبلد الشقي ، وإنما جلب الشقاء عليها بنوها الذين يعتسفون الطريق ، ولا يعرفون كيف يتحدون فيما بينهم على الأهداف الواضحة ، ويدعون عدوهم يعيث في البلاد فساداً ، ويشغلون أنفسهم بتوافه الأمور وبحزازاتهم الشخصية عن تنغيص مقامه عليه ، وطرده من بلادهم لأنهم قد :

فتنتهم الدنيا فلما استيئسوا ⁂ منهـا علـى أهوائهم فتنوك

وقد أولع عبد المطلب بوصف بعض المخترعات الحديثة كالطيارة ، والقطار ،

---

(١) زيفان : زائف .
(٢) جبرية : مصدر بمعنى القوة .
(٣) العتيك : الشديد .

والباخرة ، وكأنه شعر بأنه لن يكون شاعراً مكتمل الشاعرية ، ممثلاً لعصره أتم التمثيل إلا إذا وصف هذه المخترعات ، وهو الذي ينعته النقاد بالشاعر المتبدّي ، والشاعر المقلد ، فأراد أن يبرهن على أنه على الرغم من نزوعه إلى القديم في شعره لا يقل عنهم احتفاءً بالجديد من الموصوفات .وقد أثار الأستاذ العقاد موضوع هذه المخترعات في كلمته عن عبد المطلب وقال : « ولما ظهر المذهب الحديث في الشعر حاول عبد المطلب أن يفهمه ليرد عليه ويتحداه ، فلم يفهم منه إلا أنه وصف المخترعات العصرية ، والآلات الحديثة والنظم في الطيارة كما كان الشعراء الأقدمون ينظمون في النوق والأفراس » .

وذكر أنه لقيه بعد أن سمع قصيدته « العلوية » وسأله عن رأيه فيها فأثنى على جودة سبكها ومتانة نسجها ، وذكر أن هذا موضوع للتحليل ، ولكن عبد المطلب عالجه على طريقته القديمة ، ولم يعالجه على طريقة المحدثين ، فردّ عبد المطلب بأنه وصف الطيارة ، فتهكم به العقاد ، وقال : إنك لم تصف الطيارة التي تود أن تلاقي بها الإمام على السحب إلا كما وصف الأقدمون الناقة التي توصلهم إلى الممدوح « وموطن الخطأ أنكم تحسبون الشاعر العربي يصف الناقة لأنها أداة مواصلات ، فتحسبون وصف هذه الأشياء في عصرنا فرضا على الشاعر الحديث ، وليس الأمر على هذا الحسبان » وذكر أن الشاعر العربي إنما كان يصف الناقة لأنها جزء من حياته يحس بها الأنس في القفار الموحشة ، ويأكل من لبنها ولحمها ، وينسج ثيابه ، ومسكنه من وبرها ، ويعرفها وتعرفه كما يتعارف الصحاب من الأحياء « ويعيب على هؤلاء الذين يتلقفون ما تخرجه المصانع من مخترعات ويروحون يصفونها ، لأنهم لا يدرون لماذا يصفون وينظمون ، وهم في هذا الوصف محاكون أقدم من الشاعر الجاهلي ، وأبعد من الشاعر العصري عن واصف الناقة في البيداء ؛ لأن الشرط الأول في الشعر الحديث أن يصف الإنسان ما يحس ويعي ، لا أن يصف الأشياء مجاراة للأقدمين عكساً وطرداً في أنواع المجاراة »[1] .

على أن وصف المخترعات الحديثة يجب ألاّ ينظر إليه هذه النظرة ، فإذا كانت الناقة في القديم جزءاً من حياة العربي البدوي ، وعاملاً مهماً فيها ، فإن المخترعات

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ٤٩ ـ ٥٢ .

الحديثة قد ينظر إليها الشاعر على أنها ثورة الإنسان على الطبيعة ، وتغلبه عليها ، وتذليله لها ، وعلى أنها عامل مهم في حياته كذلك ، قربت له البعيد ، ومهدت له سبيل الثراء إلى غير ذلك من المنافع . ثم إنه قد يرى فيها حلما من أحلام الإنسانية صار حقيقة ملموسة فهو يتخذ من الجو بساطاً ممهداً ، يشارك العقبان في أجوائها ، والهواء في مساربه ، ويعتلي ظهر الماء آمناً مطمئناً سريعاً ، بل يغوص في أغواره يشارك الحيتان مسابحها ، ويصعد فوق صهوات السحب ويلقي نظرة من عليائه على الدنيا فإذا المدن العظيمة كأنها لعب أطفال فتثير هذه الحال في نفسه مشاعر وأحاسيس جديدة .

وقد خلد بعض شعراء الغرب لأنهم عنوا بمظاهر الحضارة الحديثة ، ووصفها ، وخصوها بحظ كبير من شعرهم مثل كبلنج Kipling الشاعر الإنجليزي وهو من شعراء القرن العشرين وقد قال عنه نقاد الأدب الإنجليزي ومؤرخوه : « إنه عظيم لإنه كشف عن موضوع جديد للشعر ، وخلع عليه من خياله وحرارة وجدانه ما جعله موضوعاً شعرياً جذاباً ، إنه تميز عن سواه بوصف آلات الحضارة الحديثة ، كالقطار ، والباخرة ، والمسرة ، والبرق ، والطيران ووجد فيها منبع إلهام ، لم يتهيأ لسواه من الشعراء لاعتقاده أن الناس في هذه الأيام لا يرون زمانهم أجمل من زمن أسلافهم ويحلمون دائماً بالماضي ويتحسرون عليه ، مع أن جمال الحاضر أروع من جمال الماضي »[1] .

وإذا كان عبد المطلب في وصفه للطيارة في مطلع القصيدة العلوية نهج سبيل العرب في وصفهم للناقة التي توصلهم إلى الممدوح أو إلى الغاية من رحلتهم وذلك حيث يقول :

إذا مـا هزّمت في الجـو خلنا	جبـال النجـم تتهـدم انهداما
وإن زجرَ الرِّياح جرت رُخاءً	وولت حيـث يأمرهـا الزّماما
يسف على الثرى طوراً وطوراً	تراه علـى الذُّرى شق الغماما
أجِدّكَ مـا النياق وما سُراها	تخوض بهـا المهامـه والأكامـا
ومـا قَطْرُ البخار إذا استقلت	بهـا النـيران تضطرم اضطراما

(١) راجع Modern English Literature, by G. H., Maire and A. C. Pard, P. 202

فهب لـي ذات أجنحـة لعلّي   بهـا ألقى على السحب الإماما

فإنه في غير هذه القصيدة قد أبدع في وصف الطيارة على طريقته • وذلك حين قدم الطائران التركيان لأول عهد الشرق بالطيران إلى مصر ، وذلك حيث يقول :

وقفتْ لكِ الدنيا فسيري   مَسْرى الضياء من الأثير
يـا أختَ سابحـة النجو   مِ وبنت سانحـة الضمير
مـن عهـد آدم لـم تزل   عـذراءَ مسبلـة الستور
بكـرا تقلبهـا أكـف الغيـب في طـي الدهـور
حتـى جلتهـا للعيـو   ن منصة العهـد الأخـير
ثـارت لتأخـذ باسمـه   عهداً علـى ملـك الطيور
ملك البخار علـى السما   ك بصولة الملـك القديـر
في كـل غـواص ورسّا   بٍ بـأحشـاء البحـور
ثـم انثنـى يرمـي سما   ك الجـو بالجيش الغزير
فالنجـم في فـرق يجـو   ل بجفـن مرتاع حسـير
والسحب مـن حذر البخا   ر وبأسه حـيرى المسـير
يـا منذر الأفـلاك هـل   للأرض دونك مـن نصير
مـا هـذه الوُرق التـي   في الجو تعلـو في الهدير
غَيْـرى مـن الأطيـار في   أحشائها لهـب السعـير
فُتْـخ مخالبهـا الحـد   يد وريشها نسـج الحرير[١]
غنيـت بمجبـول الدمق   س عن القوادم والشكير[٢]

(١) الفتخ : لين المفاصل ، ويقال للعقاب فتخاء لانها إذا انحطت انكسر جناحاها وهذا لا يكون إلا من اللين ، وهو يريد ان يشبهها بالعقاب ، وبأنها لينة الحركات .
(٢) الشكير من الشعر والريش ، صغاره بين كباره . والدمقس : الحرير الابيض .

تــرد السحــاب الغُر إن ورد الحمام علــى الغدير
خشعت لهــا هوج العوا صف في الرواح وفي البكور

وفي هذا الوصف خطرات شعرية رائعة لا تتأتى إلا للموهوبين وذلك حين وصف الطائرة بأنها نجم من النجوم وأنها « بنت سانحة الضمير » وفكرة ظلت عذراء من عهد آدم مرخىً عليها الستر ، وبكرٌ لم يخترعها عقل إنسان ، تقلبها أكف الغيب في طي الدهر حتى جلتها للعيون الحضارة الحديثة ؛ وكأني به يتصور العالم العلوي دهشاً لهذا الشيء الذي يصعد إليه من الأرض ، هل صعدت الطائرة لتأخذ ثأراً من عقاب الجو أو النسر ؟ ! وانظر النجم هل تراه فزعاً مرتاع الجفن ؟ والسحب ما بالها حيرى حذر البخار ؟ . أهي ورقاء في الجو تغلو بالهدير ، تغار من الأطيار فأضرمت الغيرة في أحشائها ناراً ؟ ثم انظر معي لهذا الخيال العجيب ، أنها ورقاء ولكن ترد السحب لتشرب حين يرد الحمام الغدير . فهل عبد المطلب كما يقول العقاد كان يقول الشعر للمهارة اللغوية فحسب من غير أن يصدر عن خيال أو عاطفة ؟

لم يصف عبد المطلب الطيارة وصفاً علمياً ، أو تاريخياً ، وإنما وصفها وصفاً شعرياً مبيناً أثر العقل الإنساني في تذليل قوى الطبيعة وتسخيرها لخدمة البشرية ، وهذا ما يتطلبه الشعر ، وحسبه هذه النظرة للمخترعات الحديثة .

ولكننا نلاحظ أن عبد المطلب لم يعن بوصف الطبيعة ومناظرها ، مصرية كانت أو غير مصرية ، وفي البيداء التي يَغْرَم بها مناظر ساحرة ، خليقٌ بشاعرٍ حساس محب للبادية مثل عبد المطلب أن يقف أمامها وقفات طويلة ، يستجلي جمالها وروعتها، كما فعل أسلافه شعراء العربية ، من قبل . ولست أدري سبباً لخلو شعره من وصف الطبيعة ، ولعل نضوج شاعريته في سني الحرب العالمية الأولى ، وقيام الثورة المصرية شغله بالنظر إلى الأحداث القومية والشئون الاجتماعية عن النظر إلى الطبيعة ، ولم يكن هذا عيبه وحده ، بل هو عيب لحق غيره من معاصريه ، وقد تكلمنا عن موقفهم إزاء الطبيعة المصرية آنفاً .

ويلاحظ كذلك أن عبد المطلب لم يلتفت أدنى التفاتة إلى الآثار المصرية كما فعل شوقي وإنما نظر إليها نظرة خاطفة حين افتخر بمصريته . وقد تبع هذا الإهمال لآثار مصر أنه لم يعرج على التاريخ المصري القديم ، ولكن عبد المطلب ــ والحق

بقال ـ كان عربياً مسلماً ، ولذلك وقف بعض الوقفات أمام أحداث التاريخ الإسلامي كما سيأتي عند الكلام عن أثر الدين في شعره .

على أن الشاعر المكتمل الشاعرية ، القوي الإحساس بالجمال والعظمة لا يملك حين يرى الطبيعة في أوج حسنها ، أو عنفوان سخطها إلا أن يتأثر وينفعل ويقول ، كما لا يملك حين يفكر ملياً في عظمة آثار مصر ، وكيف شيدت ، وغالبت الدهر ، ومرت عليها أحداث القرون فيمواكب متتابعة ، ومصر الخالدة بنيلها وآثارها لم تتأثر بتلك الأحداث لا يملك حين يفكر في كل هذا إلا أن تتفتح أمامه مغاليق المعاني ، ويسبح في سماوات الخيال . ولعل العلة الحقيقية في عزوف كثير من شعراء الجيل الماضي عن وصف الطبيعة واستلهام التاريخ هي أنهم جروا في أغراض الشعر على مذهب الأقدمين، وشغلوا بأنفسهم عن العالم الخارجي، وكانوا ذاتيين لا موضوعيين، فجنى عليهم التقليد،وحبس شاعريتهم عن الانطلاق إلى آفاق جديدة إلا القليلينمنهم.

هذا ومن الأغراض الشعرية التي عـُني بها عبد المطلب الحياة الاجتماعية بمصر . وقد سبق أن أشرنا إلى مواقفه من مشكلة الفقر والغنى[1] ، وأنه اكتوى بنار العوز إبان الحرب العالمية الأولى ، وكان من الطبقة المتوسطة في الشعب لم يرث مالا ، أو يحرز ثراء فلمس بنفسه ألم الحاجة ، وكان من الكادحين في سبيل الرزق فعرف عن قرب مرارة الفقر والحرمان .

ولعبد المطلب فيما يتصل بهذه الناحية عن قرب قصة طريفة لامرأة فقيرة عجوز جاءت وابنتها إلى القاهرة تبحث عن عمل يكفيها شر السؤال ، وكانت هذه أول مرة تفد فيها إلى القاهرة ، فما أن نزلت ميدان (باب الحديد) حتى بهرتها الأضواء والضوضاء وتعدد السبل فوقفت حائرة برهة ولكنَّ عين الشيطان كانت ترقبها ، فما أن لحظ ترددها وهيبتها حتى دلف إليها في صورة ملاك يتقدم للأخذ بيدها ، وإرشادها إلى سواء السبيل فأقبلت عليه بوجه باش تبثه خبيئة نفسها ، وهو يبدي لها من صنوف العطف والرحمة ما ألهج لسانها بالدعاء له ، ولما رآها قد أمنت جانبه قليلا أخذ ينصب حبائله للظفر بالفتاة ، بيد أن الأم التي نشأت في الريف ، ولها طبيعة لم تتدنس ، ارتابت في حركاته وتودده لابنتها . وما أن تيقنت من كيـده ، ورأت بعين فطرتها الخيرة أنه شيطان مريـد ، حتى حذرته ، وخشيت

(١) راجع ص ١٩٣ من هذا الكتاب .

سطوته ، وأخذت تقاوم ألاعيبه وكيده ، وهو يلين تارة ويشتد أخرى ، ولم ينقذهما من حبائله إلا رسول جمعية المواساة في صورة شاب متعلم متدين ، إذ قدم لهما طيب المأوى والرِّفد والعناية . ولأسمعك بعض هذه القصة ؛ لأنها تدل على موهبة طيبة عند عبد المطلب في حياكة القصة شعراً لو كان قد عني بهذا واتجه إليه ، وإن كان قد ساق هذه القصة بأسلوبه الجزل القوي ولم ينح عنها خياله البدوي :

أسألت باكيــة الدياجي ما لهــا ... أرقت فأرّقت النجوم حيــالهــا
باتت تكفكفُ بالوقار مدامعــاً ... غلب الأسى عبراتِهــا فأســالها
تطوي على الآلام مهــجة صــابر ... قطــع الزمــانُ بريبه آمالَهــا
تبكي إذا انقطــع الأنيس لصبية ... يتضورون يمينهــا وشمالهــا
مــن كل ناعمة الحيــاة ومترف ... ورد الحيــاة معينهــا وزُلالهــا
يشكو الطوى فتفيض مهجة أمه ... شــنقاً عليه وليس يدري حالهــا
ولأختــه عينٌ تحــدّث أمهــا ... وحيا ، وقد حبس الحياءُ مقالها
كلبَ الشــتاء بجسمها فتعطفت ... تطوي على خاوي الحَشا أوصالها

ثم ينطرق من هذا إلى قصة تلك العجوز فيقول :

ويتيمة شــهد الزمــان بيتمهــا ... في الحسن لم تلد الحسان مثالهــا
خرجت مــن الإسكندرية غدوة ... تزجي إلى أكناف مصر رحالهــا
حتى إذا وقف القطــار بهــا على ... باب الحــديد تلفعت أسمالهــا
وســعت تقلب مقــلة محزونــة ... في الذاهبــين يمينهــا وشمالهــا
حيرى يضيق بهــا المجــال، وطالما ... فسح اليسار على المُضيق مجالها
تقتــاد في الطرقات فانيــة القوى ... محنية صــبغ المشيب قَذَالهــا
أربت على السبعين ما لمس الخنا ... يومــاً مآزرهــا ولا سربالهـــا
وهناك أبصرها أمرؤ دنس الهوى ... شرب المخــازي علّهــا ونهالهــا

متكلف" خُلُق الكريم ببزّةٍ ... قد خاطمن وَضَر الفجور جِلالها(١)
يدعو إلى دار الفسوق تقية ... عنفَّت وما نقضَ العفاف حِمالها
لما تبينت النقيصة أمُّها ... في حاجبيه تبينتْ ما هالها
نظرت إلى الوجه الصفيق وأقبلت ... غضبى تصكُّ بصفحتيه نعالها

ويمضي في القصة على نحو ما ذكرتُ سابقاً ، وينتهي بالحديث عن جمعية المواساة وآثارها الجليلة في المجتمع • ومن المشكلات الاجتماعية التي استرعت انتباهه ما أصاب اللغة العربية على يد الإنجليز ، واللغة ظاهرة اجتماعية ، وعنوان على ضعف الأمة ورقيها ، وقد حاول الإنجليز كما علمت في الفصل الأول أن يبلبلوا ألسنة المصريين ، ويضعفوا لغتهم فتضعف قوميتهم ، وكان (دانلوب) مستشارهم في المعارف هو المنفذ لهذه السياسة حتى بلغ من سخرية القدر ان كان مفتش المعارف للغة العربية انجليزيا هو (المستر روب) ، وظل الامر علىهذه الحال السيئة حتى أخرج (دانلوب) من مصر ، وجاءت الثورة وعهد الاستقلال ، وتولى وكالة المعارف (عاطف بركات) وهو من أبناء دار العلوم النابهين ، ودار العلوم حصن اللغة العربية الحصين ، فكان حرياً به أن ينهض باللغة ، وأن يلتفت عبد المطلب إلى هذه المأثرة حين رثاه فقال :

وكدنا نرى أمَّ اللغى قبل عاطف ... فريسة عاث بالمعارف عاتي
يريد بها السُّوءى ويحملُ أهلَها ... على جَنَفٍ من بَغْيه وأذاة
تلين لأيدي الغامزين قناتُها ... لقلة أنصار وضعف حُماة
ويوئسنا منها أناس نعدهم ... لكف أذىً عنها وردِّ عُداة
فلما تولاها تحوَّل نجمها ... إلى اليمن عن أيامها النَّحسات

وكان من الطبيعي أن يخوض عبد المطلب في مشكلة المرأة ، وجنوحها إلى السفور ، وهو الشيخ المتدين المحافظ على شعائر الدين ، فيقول للنساء في حفل خاصٍ بتربية الطفل حضره أكثر من ألف وخمسمائة سيدة من عقائل مصر ، مزيناً لهن الحجاب بخياله الشعري :

---

(١) الجلال : جمع جل وهو الكساء .

زعموهـن بالحجـاب عـن العلـم ونور العـرفـان محتجبـات
بنتُ مصر كالشمس يحجبها الليـل وراءَ الآفـاق والظلمـات
وهي في أفقهـا ضـياءٌ ونورٌ سـاطع في بدورهـا النـيرات
أو هي المسكُ ينفذ العَرف عنه مـن وراء الأسـتار والحجرات

فينفي أن الحجاب يحجبها عن العلم ، ويصفها بأنها كالشمس والحجاب كالليل يحجبها وراء الآفاق والظلمات ، وإن لم يوفق في هذا التشبيه على الرغم من محاولته بترديده في البيت التالي بأنها في أفقها ضياء ونور سـاطع في أبنائها الذين يشبهون البدور ، أي أنها تعكس ضوءها على أبنائها ، ولكن هل يغني البدر عن الشمس ؟ أو ليس مغيب الشمس مبعثاً لليل ووحشته ، والظلمة ورهبتها ؟ أو ليس محواً للوجود ، ودعوة إلى الهدوء والركود في معترك الحياة ؟

على أن لعبد المطلب قصيدة أخرى أفردها لهذه المشكلة نعى فيها على المرأة المصرية تبذلهـا في ذلك النقاب الذي تدعوه حجاباً ، وما هو بحجاب ، بل يزيد في مفاتنها ، وهي التي آثرت هجر البيت ، وغشيان الحدائق ، والمنتزهات ودور اللهو ، ورأى أن الحجاب الحقيقي هو ما دعا إليه الشرع ، وأنكر الدعوة الى السفور .

مـا هــذه الجبـرات تهـفو في الخمـائل والحقـول
تَـكــر العفـافُ ذيولهـا ومـن الخَنا قصـر الذيول
إن ينتسبن إلى الحجـاب فإنه نسـب الدخيـل
يَختتِلنَ أبنـاء الهـوى بالدّلّ والنظر الختول
من كل خائنة الحليـــــل تهيم في طلـب الخليـل
نقم الضحى منهـن مـا خجلت له شمس الأصيـل
بكت الخـدور جَفونَهـا وهجرنهـا هجـر الملول
مـا لابنـة الخدر المصون وربة المجـد الأثيـل
أودى شفيفُ نقابهـا بكرامة الأم البتـول

وانجـاب جيب قميصهـا عن وصمة الشيخ البجيـل
وعـلى رنين حجولهـا أسـفاً على الذيل الطويـل
فإذا مشت هتـك النقا بُ محاسن الوجه الجميـل
وجـلا المقـوَّرُ تحتـه رخصاً من الصدر الثقيل

وهكذا يمضي عبد المطلب في وصف تبرجها ، ويأسف لحالهـا ، وحال وليٍّ أمرها ، ويرى أن هذا الذي سمته حجاباً ، وهو يفصح عن زينتها ويزيدها فتنة ليس هو الحجاب الشرعي ، وأنها ليست بالمرأة المسلمة الممتثلة لأوامر الدين •

أهي التي فرضَ الحجـا بَ لصونهـا شرع الرسول
جعـلَ الحجـاب معاذها مـن ذلك الداء الوبيل
يـا منـزلَ القـرآن نو راً للبصـائر والعقـول
عميت بصـائر أهل وا دي النيل عن وضح السبيل
ذِهلوا عن الأعراض لو يدرون عاقبة الذهول

ومن المظاهر الاجتماعية التي اهتم لها ، واحتفل بها ، وصارت غرضاً واضحاً في شعره فساد الأخلاق وانحلالها ، وتفشي الإلحاد ، وضعف وثاق الدين على النفوس • وللدين عند عبد المطلب ــ كما عرفت في ترجمته ــ منزلة مكينة في قلبه ، تشرب حبه صبياً ، وشب على تعاليمه ، ودرسه وتفهم أهدافه السامية • وقد كثر نحيبه وبكاؤه لما أصاب الدين في مصر من وهن ، وانصراف أهله عن التمسك به ، والمحافظة على شعائره،وذلك ولا ريب أثر من آثار الحضارة الأجنبية التي فُتن بها كثير من المصريين المسلمين ، ونتيجة طبيعية لتلك السياسة التي اتبعها المستعمر الغاصب ؛ لأنه يعلم حق العلم أنه لن يستقر له بمصر قرار ما دام هذا الدين العظيم يسيطر على نفوس أبنائها، ويدعوهم إلى العزة والأنفة من ممالأة الأجنبي أو الرضا بحكمه ، وهو الذي جعلهم أعزّة ، وملّكهم العالم يوماً ما •

والشعر الديني عند عبـد المطلب ألوان : فمنه تشوق ومـدح لمهبط الوحي والأرض التي خرج فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم داعياً إلى تلك الرسـالة الخالدة :

منــازل جبريل ، ومثوى محمــد ‏ فــلله منهــا منــزل وثواء
ومشرق ديــن الله ، والأرض غيهب ‏ جوانبهــا في ظلمتيه ســواء
ومبعث أرواح الســعادة في الورى ‏ إذ الناس فوضى ، والحيــاة شــقاء
ومطلع ما في العالمين مــن الهــدى ‏ إذ الكفــر داء" في النفوس عَيــاء
ومَشْرَع ما في الأرض من مدنيــة ‏ لها نَضرة في أهلهــا ونمــاءُ

ومنه فخر بأيام الإسلام الخالدة التي مكّنت له في الأرض ، ونصرت دعوته يوم بدر ، ويوم حنين ، ويوم الفتح ، وفخر كذلك برجاله الأماجد أمثال أبي بكر وعمر وخالد وعلي والأنصار الذين آووا رسول الله وعزروه ونصروه :

وسل عنهم بدراً وسل أحُداً وسل ‏ عُصَباً مــن الأحزاب يوم تحزبوا
سل الخيــل إذ جالت ببطحاء مكة ‏ وودّ العــدا لو أنهــم لم يكذّبوا

ويقول عن أبي بكر رضي الله عنه :

جزى الله خيراً شيخ تَيم وجنــده ‏ وراياته في الشرق والغــرب تضرب
كأني بركن الدين يهتز خيفــة ‏ عشيةَ مــات الهاشــمي المحبَّبُ
فقــام بأعبــاء الخــلافة شيخهــا ‏ وأصحابه من شــدة الخطب غُيَّبُ
فمــا شــهد الإســلام رأياً كرأيه ‏ وقــد قــام في يوم السقيفة يخطب

وإذا كان عبد المطلب لم يلتفت إلى التاريخ المصري القديم الا نادراً ، فإنه عُني أشد العناية باستلهام التاريخ العربي الإسلامي ، وجاءت هذه القصيدة البائية وغيرها حافلة بذكر كبريات الأحداث ، وبعظماء الرجال الذين جاهدوا في سبيل نصرة الدين، وتثبيته في العالمين. وهو في كثير من قصائده الدينية يعرج على ماضي الأمة الإسلامية، ويذكرها بأمجادها لعلها تخجل مما أصابهــا من وَهَن ، ومما حلّ بها من فساد ، تهب لاسترجاع ذلك المجد وتستأنف سيرها في موكب العزة والسؤدد ، اســتمع ليه يقول :

أنكرت قومي فلا قربى ولا رحم ‏ وأنكروني فــلا أم" ولا ولــد

يـا رحمتـا لغريب بـين عِترته   نبا به العيش حتـى أوحش البلد
يـُذْري الدموعإذا ما الركبأزعجهم   داعي السرى فتنادى البين وانجردوا
يا نازلي ذلك الوادي تموج بهم   بطـاح مكـة والعلياء والسند(١)
هل يبلغ الركب عن قلبي إذا نزلوا   ذاك الحمى لوعةَ الوجد الذي يجد
أحبابَنا ضاقَتْ الدنيا بما رحبت   والدهر في صرفه يغلـو ويحتشد
أكلَّ يوم لنـا في الدين مرزؤةٌ   تهتز مـن وقعها الدنيـا وترتعد
في كل وادٍ على الإسلام منتحب   وكـل وادٍ بـه للديـن مفتَقَـِد
يسعى الفساد إليـه غـير متئـد   لمـا رأى أهلـه في نصره اتـأدوا
يا منزل الدين أهل الدين قد خرجوا   بغيـاً عليـه وعـن منهاجه حردوا
ضلوه جحداً لما أودَعت من حكم   فيه ولو أنهم ذاقوه مـا جحدوا
مـا الدين إلا نظـام للحيـاة إذا   سار الأنام علـى منواله سعـدوا

ويمضي عبد المطلب في تعداد فضائل الدين ، ولعلك لحظت أنه يتألم غاية الألم لما أصاب الدين ، كما أصبح يرى نفسه غريباً في قومه، لأنهم فتنوا عن دينهم، وفرطوا في شعائره ودبَّ الفساد إلى حياتهم من جرَّاء ذاك الإهمال.ولو أنهم تمسكوا بالدين لاستعادوا عزهم المفقود واسترجعوا مجدهم وهو :

مجدٌ به تشهد الدنيا وإن عميت   أبصار قوم فما راءوا ولا شهدوا(٢)

ومنه مدح للنبي عليه السلام ، وهو من الأغراض القديمة التي حفل بها الشعراء ولا سيما في العصور التي ضعفت فيها الأمة العربية ، وكثر فيها الفساد في الأرض فتوسلوا بالنبي ، وتشفعوا لعلهم يصيبون من الله مغفرة ، ولعلَّ مجد الإسلام يرجعه الله ، ولكن هيهات فالله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . ومن تلك المدائح النبوية تلك القصيدة التي قالها عبد المطلب في حضرة سيد المرسلين حين ذهب للحج سنة ١٨٩٩ :

---

(١) العلياء والسند : مكانان بالبادية .
(٢) راء : لغة في راي .

إليـك أجـلّ المرسلين مدائحٌ   توافيك ما غنَّى على الأيك صائح

وهي لا تخرج في معانيها عما تداوله الشعراء في مثل هذه المناسبة من قبل ، ندامة على ما فرط من الذنوب ، وخوف من يوم الحساب وخِزْيِ المقصرين ، وتوسل بالنبي عليه السلام ليشفع له .

فكن يا شفيع المذنبين شفيعه   إذا شهدت يوما عليه الجوارح

إلى غير ذلك من المعاني التي يتطلبها الموقف . وله في سيد المرسلين قصيدة أخرى طويلة سماها « ظل البردة » ، ولعله تبع شوقي حين نظم « نهج البردة » فأبى إلا أن يحاكي بردة البوصيري مثله ، وهذا ميدانه ، وليس ميدان شوقي فقال :

أغرى بك الشوقَ بعد الشيب والهَرَم   سارٍ طوى البيد من نجد إلى الهَرَم
يـا ساري الطيف يجتاب الظلام إلى   جَفنٍ مـع النجم لم يهدأ ولم ينم

ويسير في هذه القصيدة متتبعاً أثر البوصيري ، وشوقي ، فيتحدث عن مجد الإسلام الغابر وأن هذا المجد خلفه لنا رسول الله بعد أن وضع أساسه :

مجد بناه الذي فاض الوجود به   نوراً ، له قامت الدنيا من العدم
طه أبو قاسم المبعوث من مضر   إلى البرية من عرب ومن عجم

ويصف حال الدنيا قبيل بعثة النبي عليه السلام وما كانت عليه من الفوضى والاضطراب والظلم ، وما كان عليه الناس من جهل مطبق ، فقد أضلهم الشيطان وأعمى أبصارهم وبصائرهم فاتخذوا من الحجارة آلهة لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً ، وهام بعضهم بالأفلاك ، وآخرون بالنار .

تفرقوا شيعاً في الكفر وانقسموا   شتى فباءوا بما يُخزي من القسم
هذا عن الحق بالأفلاك في عَمهٍ   وذاك بالنار عن نور الجلال عمي
وذا يؤله من لا يستجيب لـه   من ناطق بَشَراً أو صامت صَنَم

أضف إلى كل هذا كثرة الأحقاد ، واستبداد الملوك والرؤساء ، واستعباد الرعية ، ثم يصل من هذا إلى أن رحمة الله شملت العالم ، فجاء محمد بن عبد الله

يهديهم إلى سواء السبيل ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن الله ، ويتكلم عن مولده ، وأن ليلة ولادته كانت وحيدة في الزمن .

تنفست عن سنا شمس الوجود بدا في موكب مـن جـلال الله منتظم
روح الحياتين ، نور القريتين إمام القبلتـين صفـي الله في القـدم

ويمضي في وصف الرسول وتعداد شمائله الكريمة ، وكيف ربي يتيما ، وكيف نما وترعرع بعيداً عن جنف الإثم ، ودنس الأوثان ومساوىء الجاهلية ، وكيف تعبد وتحنث بغار حراء ، حتى أتاهُ الوحي الكريم من الله العظيم .

بالنور بالحق بالعرفـان أرسله الله م الـذي علـم الإنسـان بالقلـم

وتذكر صراعه مع الكفار في سبيل نشر دعوته ، وكيف تحداهم بكتاب الله وآياته المحكمات حتى خرست ألسنتهم ، وهم المشهورون بالفصاحة والبيان .

لم يبق حين تحدّاهم به لَسِن" إلا" تردّى شعار العِيِّ واللسم[1]

وهكذا يمضي في قصيدته مبينا جهاد النبي في نشر الدعوة ، ومعرجاً على مواقفه الرائعة ، وهجرته وغزواته ، فالقصيدة تحوي سيرة النبي عليه السلام ، وليس فيها جديد من الخيالات ، أو الأفكار ، وقد يستطيع شاعر نابغة أن يصنع من حياة محمد عليه السلام ملحمة قويّة ، غاصة بالمشاهد العظيمة ، ولكنَّ عبد المطلب تبع البوصيري ، ثم شوقي ، فلم يجدد في فكرته أو طريقه عرضه . وكان واجب الدراسة يقتضي أن نعقد موازنة بين شوقي والبوصيري وعبد المطلب ، ونرى أيهم كان أقوى عاطفة ، وأصدق حديثاً وأغزر شاعريةً ، وأسمى خيالا ، بيد أن هذه الموازنة تخرج بنا عما قصدنا إليه في هذا الكتاب . ومهما يكن من أمر ، فعبد المطلب في قصيدته (ظل البردة) دونه في قصائده الأخرى وذاك لأنه وضع أمام ناظريه قصيدتين عامرتين في مثل موضوعه وبحره وقافيته ، وأهم ظاهرة تحس بها في قصيدة عبد المطلب أنه على الرغم من تدينه ، وشدة عاطفته الدينية لم يستطع إبراز هذه العاطفة على حقيقتها في تلك القصيدة لأنها تقليد .

ومن الألوان الدينية في شعر عبد المطلب نشيد الشبان المسلمين ، وعبد المطلب

---

(١) اللسم : السكوت عيا .

كان من رجال النهضة الدينية ، وله أثر محمود كما ذكرنا عند ترجمته في جمعية المحافظة على القرآن الكريم ، وجمعية الهداية الإسلامية ، فلما دعت جمعية الشبان المسلمين الشعراء إلى نظم نشيد يكون شعاراً لها تقدم عبد المطلب فيمن تقدم وقال نشيده :

داع مـن العليا دعـا   يدعـو بنيهـا مسمعا
يدعـو الشباب الأروعا   يدعـو شباب المسلمين

ولكن نشيده لم يكن في منزلة نشيد الرافعي « يا شباب العالم المحمدي » فلم يكتب له الخلود .

ومما يتصل بهذا الشعر الديني أو الذي تأثر فيه الشاعر بالدين قصيدته « العلوية » التي ألقاها بالجامعة المصرية في ٧ من نوفمبر سنة ١٩١٩ ، وهي تزيد عن ثلثمائة بيت . وحياة علي ابن أبي طالب حافلة بأحداث جسيمة ، ويصح أن تكوّن مأساة شعرية ؛ لأن علياً قد أسلم وهو لم يبلغ العاشرة ، وشب في حضن الدين الجديد ، ونشأ في بيئة معادية لدينه ، وحرص على الدفاع عنه ومناوأة أعدائه ، فتهيأت له بذلك الفرصة ليكون خصما قوياً . وبلغ الإسلام على عهد النبي عليه السلام غايته ، وعلي في شرخ شبابه ، فكان فتى قوي الشكيمة ، أبلى في الحروب بلاء مبيناً ، وتميز عن سواه من شباب المسلمين ، ينتدب نفسه لكل كريهة ، ويخرج منها مظفراً ، وقد شهد كل غزوات النبي إلا واحدة . ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم رنت عينه إلى الخلافة ، وهو ابن عمه وزوج ابنته ، ولكن إجماع المسلمين كان على غير رأيه ، فامتنع عن البيعة قليلا ؛ ثم دخل فيما دخل فيه المسلمون . ومضت خلافة أبي بكر ، وعمر ، ومعظم خلافة عثمان ، وعليٌّ مرموق المكانة من الخلفاء يحتل منزلة المستشار والوزير . وفي أخريات عهد عثمان ظهرت الفتنة الكبرى ، وأودت بحياة عثمان ، واتهم علي بممالأة الثائرين ، وطالبه معاوية بأن يسلم له قتلة عثمان ، وبايع أهل الحجاز علياً ، وامتنع معاوية عن البيعة ، وخرجت عائشة وطلحة والزبير إلى العراق . وحدثت معركة (الجمل) ، ثم (صفين) ، وانتهى الأمر بمقتل علي رضي الله عنه وهو خارج لصلاة الفجر على يد أحد الخوارج . وكانت فيه صفات تؤهله للزعامة والسيادة أهمها : الشجاعة الفائقة والفصاحة

النادرة ، والعدل الشامل ، ولكنه كان سيء الحظ ، فلم تيسر له الأمور كما يسرت لمن قبله من الخلفاء ، وخرج عليه بعض أنصاره وجادلهم ، وحاربهم ، ثم حارب معاوية وأهل الشام ، وكانت ملاحم دامية ، وفتنة فظيعة •

إن هذه الحياة تستغرق جزءاً حافلا من حياة الإسلام ، والجهاد الحر في سبيل دعوته ، وخروج العرب من جزيرتهم إلى شتى البلاد المجاورة ، مما غيّر الحياة العربية وتقاليدها إلى شيء جديد وجعلها أمة ممتازة : ديناً وجيشاً ، وحضارة ، ولغة• والشاعر الموهوب يستطيع أن يقف وقفات طويلة أمام السمات البارزة لهذه الحياة ، ويصورها تصويراً دقيقاً بشيء من التفصيل ، والخيال ، ولكن عبد المطلب أجمل القول في كثير من الأحيان ، ومر على بعض المشاهد الرائعة مروراً سريعاً ، لأنه تقيد بقافية واحدة، ولأنه كان أقرب إلى سرد الحقائق التاريخية منه إلى التصوير الشعري•

وأغلب الظن أن محمد عبد المطلب لم ينظم هذه القصيدة إلا ّ تحدّياً لعمرية حافظ إبراهيم التي ألقاها في ٨ من فبراير سنة ١٩١٨ بمدرج وزارة المعارف أي قبل علوية عبد المطلب بأكثر من عام •

وقد ابتدأ قصيدته العلوية بالحديث عن الإنسان وطموحه ، وباختراعه الطيارة ، وود أن توهب له طيارة ليلقى بها الإمام على هامات السحب :

فهب لـي ذات أجنحة لعلّي بها ألقى على السحب الإماما

وأخذ يتحدث عن الإمام ومكانته ومقامه ، وأنه :

مقام دونه تـجـّب القوافي وإن كـانت مسوّمة كراما

وأخذ يقدم المعذرة بين يدي سامعيه إذا قصّر في وصف مناقب الإمام :

وما أدراك ويحك ما علي فتكشف عن مناقبه اللثاما

وبعد أن انتهى من هذه المقدمة ، قسم القصيدة إلى فصول صغيرة ، فتحدث عن علي في صباه ، وإسلامه ، وكيف جنّب الرجس والشرك ، ودنس الجاهلية ، وكيف لبى دعوة الإسلام صغيراً بينما صدف عنها الشيوخ والكهول •

فكهـل في جهالته تولى وشيخ في ضلالته تعامى

وكيف كان معتزاً بإسلامه لا يخاف فتنة قريش للمسلمين ، وايذاءهم لهم :

يروح على مجامعهم ويغدو كشبل الليث يعترم اعتراما
صغيرَ السن يخطر في إباء فلا ضيما يخاف ولا ملاما

ثم ينتقل إلى فصل آخر عن استخلافه ليلة الهجرة ، ولكنه أجمل فيه القول ، ولم يصور تآمر قريش على قتل النبي تصويراً شعرياً مفصلا ، ويضفي على هذه الحادثة التي غيرت وجه التاريخ شيئاً من الخيال الشعري ليظهرها في جلالها وروعتها، ويبين عظم المعجزة وكلُّ ما وصف به قوة قريش ومؤامراتهم هو قوله :

وأقبلت الصوارم والمنايـا لحرب الله تنتحم انتحاما(١)

وهذا قول موجز ، فيه توعر في الألفاظ ، وكان يستطيع أن يصور هؤلاء الأوشاب الذين اجتمعوا من قبائل شتى ، وهم يتسللون في جنح الليل إلى دار النبي عليه السلام يقدمهم الشيطان ، ويهيمن عليهم الشر ، وكيف منُّوا نفوسهم الآثمة بقتل سيد الخلق عليه السلام ولكن الله العلي القدير الذي حفظ نبيه وأراد نشر دينه كان لهم بالمرصاد ، ثم يستطيع أن يصور في خيال شعري رائع علياً وهو نائم في بردة النبي وخروج الرسول على الكفار وقد عميت أبصارهم عن رؤيته ، وما تهامست به نفسه حين رأى جمعهم وشبابهم وسيوفهم ، وتغلب إيمانه وثقته بربه على همهمات نفسه ، وكيف مرّ من بينهم سالماً إلى آخر قصة الهجرة . ولكن عبد المطلب لم يشأ أو قل لم يستطع أن يحلل ، ويسبر غور النفوس ويصور تلك المؤامرة الرهيبة والليل دامس ، والكون كله يترقب تتيجتها ، وتاريخ البشرية يتطلع إلى إخفاقها كي يحظى بخير شريعة على يد أفضل نبي ، واكتفى بأنأجمل القول في هذا كله :

وأغشى الله أعينهـم فراحت ولم تـر ذلك البدر التماما
عَمُوا عن أحمد ومضى نجياً مـع الصديق يدّرع الظلاما

ويعقد بعد ذلك فصلا عن علي بالمدينة ، وقد صور فيه شجاعة علي في غزوة بدر في إيجاز ، استمع إليه يقول في هذا :

---

(١) الانتحام : الصوت والجلبة من النحيم وهو صوت الفهد ، وهو ايضا بمعنى الاعتزام .

كأني بابـن عتبة يـوم بـدر ... يعاني تحـت مَجثَمه جُثاما[1]
ولـو علـم الوليد بمن سيلقى ... لألقـى قبـل مصرعـه السلاما
رويد بنـي ربيعة قـد ظلمتم ... بنـي الأعمـام والرّحم الحراما
وصلناكـم بهـا وقطعتموهـا ... فكان الحزْم أن تردوا الحِماما

ثم تكلم عن زواجه من فاطمة الزهراء ، وأن قرانه بها :

قـران زاده الإسلام يمنا ... وشمل" زاده الحب التئاما

أما يوم أحد فقد وفق فيه بعض التوفيق ؛ إذ صور هزيمة المسلمين وعلل لها : وكيف أرجف المشركون بقتل رسول الله ، وكيف ارتاع علي لهذه الفرية وراح يبحث بنفسه بين القتلى عن رسول الله •

أتـى الشهداء مفتقـداً أخـاه ... لعـل المـوت عاجلـه اختراما
أخي ! بأبي ! يخيم ؟ يفر ؟ حاشا ... أخي في الخطب جبناً أو خياما[2]
أم اجترأت عليه يـد العوادي ... فغالتـه اجتـراء واجترامـا

ثم انتقل إلى يوم الخندق ومبارزة علي لعمر بن وُد ، وموقفه يوم خيبر وقتله مرحب ابن منسية ، ثم انتقل إلى مواقف علي في السلم ، وصور خلقه في إيجاز وقيامه بالليل وتقواه ، وقد تأثر في هذا الوصف بكلمة ضرار الصدائي عن علي بن أبي طالب المذكورة في كتب الأدب • ثم تكلم عن مقتل عثمان ونفى عن علي اشتراكه في القتل أو علمه به قبل أن يحدث له •

وحاشا أن يريد أبـو حسين ... بذي النورين سوءاً أو ظلاماً
علـي كان أول مـن وقـاه ... ومن ذاد الردى عنه وحامى

ومضى في سيرة علي إلى نهايتها على طريقته في التصوير الموجز ، والتزام الحقائق التاريخية إلى حد سردها ، من غير إبداع في التصوير أو اهتمام بالتحليل ،

---

(١) الجثام : الكابوس .
(٢) يخيم : يجبن .

أو جنوح إلى الخيال ، كل ذلك في أسلوب جزل ، وفصاحة بدوية • ومهما يكن المقياس الذي وضعناه لهذه القصيدة فهي تعد من القصائد الممتازة في الشعر من حيث موضوعها ، وقوتها ومتانة نسجها ، وطولها ، وهي تدل على قدرة فائقة في اللغة ، ونفس مديد في قرض الشعر ، وتمكن من القافية وإلمام بالغريب •

هذا هو محمد عبد المطلب في شعره ، وقد أتيت على أهم الأغراض التي قال فيها : وقد احتل بإيثاره الأسلوب الفحل ، والقول الجزل ، والخيال البدوي ، منزلة تفرد بها بين شعراء زمانه ، وقد قال فيه العقاد : « ولكن عبد المطلب كان وحيداً في مدرسته الأدبية التي استقامت لها صحة الأسلوب من طريق الدعوة الدينية ، وكان أوضح دليل على فائدة الدعوة الإسلامية قبل نيف وستين سنة في إراحة العربية من آفات البهارج والطلاوات »[1] وكان يحتل كذلك منزلة رفيعة في نفوس زملائه الشعراء ، ورثاه كبارهم ، فهذا شوقي يؤبنه ويمتدح بداوة شعره :

شاعـر البدو ومنهم جاءنـا ... كل معنى رق أو لفظ عَذُب
قـد جرت ألسنهم صافيـة ... جريان المـاء في أصل العشب
سلمت من عنت الطبع ومن ... كلفة الأقلام أو حشو الكتب

ويثني على أخلاقه ووطنيته التي كانت أكبر ملهم لشاعريته • والتي فاض بها ديوانه :

القريب العتب من معنى الرضا ... والقريب الجد من معنى اللعب
والأخ الصادق في الـود إذا ... ظهـر الإخوان بالود الكذب
قلـد الأوطان نشئـاً صالحاً ... وشباباً أهـل ديـن وحسب

وقد رثاه مطران وأشاد بتملكه لزمام اللغة ، ورد على من عاب جزالة لفظه ، واهتمامه بالغريب •

فكـلام بـدوي لـو بـدا ... فيه لون لم يكن إلا الذهب
خالص النسبة في العتق إذا ... ما دعا للفخر داعٍ فانتسب

---

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ٥٢ •

ومعـانٍ حضريـات جـلا   حسنها منه طراز لـم يُعَب
رب ممرور مـن الجهل نعى   صحـة القـول عليـه فنعب
خال إغراباً ومـا الإغراب في   ذلـك اللفظ الأصيل المنتخب
إنمـا الإغـراب فيـه أنـه   عربـي بـين أهليـه اغترب
آخـذ المعدن مـن منجمـه   هل عليه حرج : يا للعجب ! !

ويطري كذلك خلقه الكريم ، ويشيد بوفائه وحرية رأيه وصراحته •

كـان حـر الرأي لا يَطْرُفه   رَغَـب لمـا رآه أو رَهَـب
وافيـا مهمـا يَسُمْه عهـده   صادقاً مهما يقـم عذر الكذب
حسـن السـيرة في أسرتـه   حسن الخـيرة فيمـن يصطحب
بالغـاً في كـل نفـس رتبـة   قصَّرت عن شأوها أسمى الرتب

هذا وقد أقيمت له حفلتا تأبين وقد رثاه فيهما أكثر من ثلاثين شاعراً وأديباً : وقد جمعت هذه المراثي في عدد خاص أصدرته « مجلة الهداية الإسلامية »[1] •

---

(١) جـ ٤ م ٤ رمضان ١٣٥٠ — يناير ١٩٣٢ •

السيد توفيق البكري

وهاكم نموذجاً آخر لشعراء المدرسة القديمة ، الذين طغى حب المحاكاة للقديم على ما لهم من ثقافة حديثة ، ومعرفة باللغات الأجنبية وآدابها ، ومشاهدة لحضارة أوربا عن كثب بالزيارة والاختلاط ، وتجدون هذا النموذج ممثلا في السيد توفيق البكري •

هو أبو النجم محمد بن علي بن محمد الملقب بتوفيق البكري الصديقي العمري التميمي الهاشمي القرشي ، وسبط آل الحسين ، ونقيب الأشراف بمصر ، وشيخ مشايخ الطرق الصوفية •

ولد البكري[1] بقصر والده المطل على النيل بجزيرة الروضة في يوم الجمعة السابع والعشرين من جمادى الثانية عام ١٢٨٧ هـ — ١٨٧٠ م •

قرأ القرآن ، وتعلم مبادىء اللغة العربية في بيته ، ثم دخل المدرسة العلية التي أنشأها الخديوي توفيق لأنجاله ، وكان يلتحق بها ابناء السادة والعظماء من المصريين ، فقرأ ثمة طائفة من العلوم العقلية والنقلية ، وأظهر من التفوق والنجابة ما جعله أول التلاميذ •

وألغيت هذه المدرسة في سنة ١٨٨٥ ، وسافر أنجال الخديو إلى أوربا ليتموا تعليمهم بها فأحضر له ذووه مهرة المدرسين في البيت ليتم ما بدأ من صنوف العلم ، وفي سنة ١٨٨٩ تقدم لامتحان (البكالوريا) بنظارة المعارف فجاز الامتحان ، ونال الشهادة وكان الأول بين جميع الناجحين • ثم أبت عليه نفسه الطموح أن يقنع بهذا الحظ من التعليم ، فتقدم للشيخ الإنبابي شيخ الازهر حينذاك ليختبره بنفسه فيما يدرس الأزهر من علوم وليمنحه الإجازة فامتحنه ومنحه الإجازة وقال فيها : « وممن اعتنى بعد ما اقتنى ، وقطع المفازة فطلب الإجازة ولدنا النبيل العالم النجيب الجليل ، فخر السلالة الهاشمية ، وطراز العصابة الصديقية ، السيد محمد توفيق ، نخبة نسل الرسول ، وصاحب رسول الله أبي بكر الصديق بعد أن قرأ عليّ رسالة الأوائل

---

(١) ترجم البكري لنفسه في صحيفة أودعها عند خلفه وابن اخيه السيد عبد الحميد البكري قبل مرضه ومنها استقينا هذه المعلومات عنه ؛ وقد ضنت الكتب عليه بترجمة وافية .

للشيخ عبد الله بن سالم البصري ، ونبذة من الأصول والفقه ، والحديث والتفسير ، وطرفاً من العلوم العربية كالنحو والصرف والمعاني والبيان البديع — مع جودة الألفاظ ، وحسن التوضيح والتقرير ، فلما لاح كوكب صلاحه ، وفاح لي نشر مسك فلاحه ورأيته أهلا لتلك الصناعة ، وجدير بتعاطي هاتيك البضاعة ، حيث أفاد وأجاد وأجاب ، وكشف عن المعاني النقاب ، وأخذ من الفنون بأقوى طرف ، وأراد الاقتداء في أخذ الأسانيد عن السلف بادرت لطلبه بإعطائه بلوغ أربه » .

وفي سنة ١٨٩٣ توفي أخوه السيد عبد الباقي البكري بعد وفاة خديو مصر توفيق باثني عشر يوماً ، فولاّه الخديو عباس الثاني وظائف بيتهم جميعاً : المشيخة البكرية ، ومشيخة المشايخ الصوفية ، ونقابة الأشراف .

وفي شوال ١٣٠٩ هـ الموافق مايو ١٨٩٣ عين عضواً دائماً في مجلس شورى القوانين وفي الجمعية العمومية ، وأنعم عليه بكسوة التشريفة من الدرجة الأولى وبالنيشان المجيدي الثاني . وفي أواخر تلك السنة رحل إلى أوربا فقابل كثيرا من وزرائها وعلمائها وأدبائها . ثم قصد القسطنطينية فأكرمه السلطان عبد الحميد واحتفى به وقابله مراراً ، وقلده بيده (النيشان) العثماني الأول ، ومنحه رتبة الوزارة العلمية ، وهي قضاء عسكر الأناضول .

وفي ٢٥ من رجب ١٣١٢ الموافق يناير ١٨٩٥ طلب أن يعفى من نقابة الأشراف ، فأجابه عباس إلى طلبه ، وقد قال السيد توفيق في سبب تخليه عن هذه الوظيفة : « والسبب في ذلك أنني حين كنت رئيساً لجلسة الميزانية في مجلس شورى القوانين طلبت أن يرتب للأزهر مبلغ من المال ، ثم سعيت حتى رتب له ألف جنيه ولم يكن لي غرض في ذلك إلا مساعدة العلماء ، فوشى بعض أعدائي بي إلى جناب الخديو ، وزعم أن لي في ذلك مقصداً سياسياً ، فتغير خاطره الكريم مني فرأيت من الواجب المبادرة بالاستعفاء ، وقد أظهرت الأيام كذب الواشين ، وإخلاصي له فرجع سموه إلى جميل رعايته وعنايته ، وأهداني صورته موقعاً عليها بخطه الكريم إظهاراً لثقته ورضاه » .

وفي سنة ١٨٩٧ أنعم عليه السلطان عبد الحميد بمداليتي الامتياز الذهبية والفضية . وفي سنة ١٩٠٠ أنعم عليه بمدالية اللياقة الذهبية ، وعلى والدته بنيشان الشفقة المرصع من الدرجة الأولى . وفي سنة ١٩٠٣ أعاد له الخديو عباس نقابة الأشراف . ومكث مدة يتولى هذا المنصب حتى مرض ، ثم بعد ذلك يسكت البكري

فلا يحدثنا عما انتابه ، ولا يظهر السبب في مرضه[1] ، ولكن يظهر أنه لما وفد البكري على السلطان عبد الحميد ومنحه تلك الأوسمة نمي إلى الخديو عباس أن البكري قال : « لن يظفر سمو الخديوي بالإنعام على رتبة الوزارة العلمية على مصري غيري » فغضب الخديوي ، وأنعم بالنيشان العثماني الأول على الشيخ الإنبابي شيخ الأزهر ، وعلى المفتي ، وعلى الشيخ محمد العباسي المهدي ، وعلى قاضي القضاة جمال الدين أفندي ، ثم أرسل إلى السلطان ملتمساً الإنعام على شيخ الأزهر والمفتي برتبة الوزارة العلمية وهي قضاء عسكر الأناضول ، وعلى القاضي برتبة قضاء عسكر الروملي ، فلم يصادف طلبه قبولاً .

وكان إخفاق الخديو مضاعفاً لغضبه ، فتوعد البكري ، وبلغ البكري هذا الوعيد ، فأزعجه ، واستولى عليه الهمُّ ، ثم الوهم حتى خُيِّل إليه أن أعوان الخديو يطاردونه لقتله ، فلجأ إلى إحدى حجرات بيته ، ولزمها ، وامتنع عن الزوار ، حتى لم يعد أحد يطرق بابه إلا لماما . وكان البكري يبعث في أثناء ذلك برسائله إلى المحافظة ، وإلى النائب العام ، وإلى رئيس النظار يستجدهم ويطلب حمايتهم . ولما لم يجده ذلك نفعاً ، ذهب الشيخ علي يوسف صاحب المؤيد — وكان من خلصاء البكري — إلى الخديو عباس يتوسل إليه أن يصفح عن البكري ، ثم أطلعه على ما صار إليه أمره من سوء .

وأمر عباس رئيس ديوانه أحمد شفيق باشا أن يذهب إلى البكري ويبث في روعه الأمن ، ولكن الداء كان قد استحكم ، والمرض قد استعصى على العلاج . وبعد سنوات ثلاث قضاها في آلام حتى لا يكاد يرشد ، نقل إلى مصحة العصفورية بلبنان سنة ١٩١٢ وظل ثمة حتى سنة ١٩٢٨ ، ثم نقل إلى مصر لم يزايله المرض ، وعاش ما بقي من عمره في ظلام خياله وأوهامه حتى يوم السبت ٣١ من أغسطس سنة ١٩٣٢ .

وقد حدثنا عن دراسته وما قدمه من خدمات لوطنه بقوله : أمّا العلم ، فقد اختصصت منه بعلم الأدب ، والاختصاص سر النجاح ؛ لأن العلم يعطيك من نفسه بقدر ما تعطيه من نفسك ... وقد تم لي من المؤلفات :

---

(١) يظهر أن هذه المحنة لم تشتد إلا في سنة ١٩٠٩ لانه ظل في قواه العقلية الكاملة حتى سنة ١٩٠٦ حين كتب الرسالة المفتوحة لولي عهد انجلترا لما زار مصر ، وذكر في تاريخ مرضه انه مكث سنوات حتى ارسل إلى العصفورية سنة ١٩١٢ .

صهاريج اللؤلؤ[١] — وأراجيز العـرب[٢] ، وفحول البلاغة[٣] ، وبيت الصديق[٤] ، وبيت السادات الوفائية[٥] ؛ وأما العمل فإما عمل في بيت ، أو وظيفة ، أو أمة ، فما يتعلق بالبيت ، فقد ثَبت عقدَه ، وضاعفت مجده[٦] ، وما يتعلق بالوظائف فقد توليت مشيخة المشايخ وأمرها فوضى ، فاستصدرت لها لائحة رسمية سنة ١٣١٢ هـ (١٨٩٤) ، فأصبحت بها أشبه بحكومة منظمة ، وإدارة مقوَّمة ، ثم رسمت بوضع كتاب (التعليم والإرشاد) ليستنير به المشايخ الصوفية وخلفاؤهم في تربية المريدين ، وإرشاد السالكين ، وطبعته ووقفته لله •

وما يتعلق بالأمة ، فقد نشأت في بلاد ترسف في الأغلال ، ضائعة الاستقلال ، فرأيت أن أول ما يندب على المرء أن يسعى فيه هو إرجاع استقلالها الإداري ، ثم استقلالها السياسي ، فرفعت صوتي بطلب الأول ، وكنت أول مصري نادى به في زمن الاحتلال وذلك في رسالة كتبتها لجريدة التيمس في مايو سنة ١٨٩٣ (وفيها يقول : وقد أنشيء في مصر مجلس نواب بعد أن ساد فيها الاستبداد والظلم أربعة آلاف سنة ، فألغاه الاحتلال واستبدله بمجلس شورى القوانين ، وهو مجلس ليس له إلا إبداء رأيه كما يبديه محرر جريدة فقط ، فإلغاء مجلس نوابنا هذا نقطة من أشد النقط سواداً في تاريخ الاحتلال) • ويواصل حديثه عن عمله فيقول : ثم لم

---

(١) سنتكلم عنه بعد قليل .

(٢) مختارات من أراجيز العرب ، وشرحها ، وقد قرظه علي باشا رفاعة الطهطاوي بقوله :

منها خلدوا أوفى نصيب وفر ‏ ‏ ‏ ‏ قد شرحت ما كان شبه الجفر

نوراً كزهر وشذا كزهر

وقال عنه الشيخ سليم البشري شيخ الأزهر : فكان أول دليل ، وأعظم برهان على فضل مؤلفه علامة الزمان .

(٣) مختارات من شعراء العصر العباسي الفحول ، وقال في مقدمته : « إنه كان كالنقطة الصغيرة من العطر ، محصل جملة كبيرة من الزهر » .

(٤) يشتمل على أخبار البيت البكري بمصر ، وعلى تراجم رجاله ، وينتسب البيت البكري إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه أول خلفاء المسلمين ، ويرجع تاريخ إنشائه إلى أيام الفتح الاسلامي على ما كتب في التاريخ ، فهو قائم بمصر منذ اكثر من الف وثلثمائة سنة ، وقد ظهر منه رجال من أهل الطبقة العليا والطراز الاول في كل عصر (راجع بيت الصديق للبكري) .

(٥) وأما بيت السادة الوفائية فينسبون إلى وفاء الامام المشهور المتصل بالادارسة ، ملوك المغرب من آل الحسن بن أبي طالب ، وانشيء بمصر من أوائل القرن الثامن حين انتقل إليه ملوك المغرب وكان رجاله يتمتعون بمنازل رفيعة ومقامات سامية بمصر منذ ذلك الوقت (راجع بيت السادة الوفائية للبكري) .

(٦) يشير إلى مصاهرته السيد عبد الخالق السادات ، والى مصاهرة ابن أخيه السيد عبد الحميد له وحين توفي السيد توفيق عين السيد عبد الحميد في مشيخة السادة الوفائية ، واصبح بذلك هذان البيتان بيتاً واحداً .

أفتأ أعمل لهذا الغرض بما يؤدي إليه ، ويبعث الهمم للحصول عليه ، وسأثابر إن شاء الله على ذلك •

ولما جاء ولي عهد الدولة الإنجليزية إلى مصر في سنة ١٩٠٦ كتبت له الكتاب المفتوح الذي قالت عنه جريدة المؤيد : « إنه فعل بمصر في النفوس والعقل ما تفعله شعلة النار ألقيت في بحر من البترول » •

ولقد كان البكري ذا مكانة ، ومنزلة رفيعة ، وكانت داره ندوة العلماء والأدباء والحكام ، ومقصد ذوي الحاجات • وكان في بحبوحة من العيش ، أنيق الملبس ، حسن البزة راجح العقل ، تدل على ذلك حكمه الكثيرة المنثورة في ثنايا كتابه صهاريج اللؤلؤ :

ولعلك رأيت من تاريخه هذا أنه نشأ في بيت دين وحسب على قوله :

وإني من البيت الذي تعلمينه ... أقام عمود الدين لما تأوّدا
وأول هذا الأمر نحن أساته ... وآخره حتى يكون كما بدا

وقد جاءه التزمت ، والتمسك بتقاليد العرب في الأدب من جهتين : من جهة حسبه ودينه ، ومن جهة دراسته الأدبية العميقة لآثار العرب • إن له فطرة شاعر وإحساس فنان ، وذوقا مصقولا مهذباً ، وعقلا حكيما مجربا ، ولكنك تتخيل كأنه في صراع بين حاسته الفنانة وبين حنينه للقديم • لقد حفظ كثيراً من أمثال العرب وحكمهم ، وشعرهم ، وأحاط بغريب اللغة إحاطة عالم ، وقد حشد ذلك كله حشداً في كتابه صهاريج اللؤلؤ •

وصهاريج اللؤلؤ هو ذلك الكتاب الذي أودعه السيد توفيق البكري ما قاله من شعر ونثر أدبي ، وتكلف فيه تكلفاً كثيراً ، وحرص على أن يظهر فيه أديباً غزير المحفوظ واسع الاطلاع على ما خلف العرب من كتب أدبية ودواوين شعرية ، وأمثال وحكم وحكايات ، ولغويا كثير المحصول من غريب اللغة على نسط ما كان يفعل كتاب المقامات مع فارق بينه وبينهم ، وهو أنه كان يمثل عصره ، وآراءه وحضارته ، وأنه لم يكن يحكي قصة تنقصها الحبكة الفنية ، وإنما كان يكتب مقالة مسجوعة في موضوع أقرب إلى الشعر منه إلى النثر ، وأنه كان يوفق في بعض أجزائه حتى ليحلق في سماوات الخيال البديع ، ويقدم باقة منمقة من الشعر المنثور •

والذي يعنينا في كتابنا هذا من صهاريج اللؤلؤ هو شعر البكري ، بيد أنه في نثره كان شاعراً كذلك . ولولا أنه أراد أن يحاكي أدباء العصر العباسي في لغتهم وأسلوبهم حتى جنت عليه هذه المحاكاة ، فلم ينطلق على سجيته ، وصار يتصيد الألفاظ الغريبة ، والأمثال ، والإشارات التاريخية ، لولا هذا كله لاحتل بين أدباء عصره منزلة سامية .

ولقد صدقت فيه نظرة الشاعر خليل مطران حيث قال : « أما نظمه فمتين ، وله فيه نظرات إلى زمانه ، ولكنها أشبه شيء بنظرات موجهة من عهد عهيد إلى عهد جديد . ليس له فكر عام ثابت يتجه إليه ، ولو التفاتاً في أكثر ما ينظمه ، كما يلتفت حافظ إلى اجتماعياته وشوقي الى خلقياته ، فهو يقول إجابة لدعوات الطوارىء ، ويلبس لكل حالة لبوسها .

على أننا إنما أشرنا إلى انتقاء الجامعة التي تجمع ، ولو بصلة ضعيفة ، بين أقسام شعره لأسباب منها : أن السيد شاعر مباه بالشاعرية عن حق ، وكان في وسعه أن يحل في الرتبة الأولى من شعراء زمانه ، لو أنه أراد أن يكون من زمانه ، ولكنه انتهى إلى عصر آخر ، فلم يبلغ ولن يبلغ هو ولا سواه أدباء ذلك العصر لأنهم كانوا يأخذون اللغة رضاعاً وفطاما وعادة يقظة ومنام ، وعشرة ومعاش ، ومنها أن السيد طالع شعر الإفرنج ، وعلم منه المهمة العليا التي ينتدب لها الشاعر لا بين أمته منفردة ، بل بين الأمم جمعاء أحياناً ، ومنها أن سماحته أدرى بأن الشعر في بلد محتاج إلى التربية والتأديب كمصر ، إذا لم يكن إلا طوائف أسطر ترسم مقسومة الى أشطر ففضل الشاعر رب المقاصد والمعاني على الوزان مقطع عروض الكلام ليس بالكبير ، وهو إذاً بما يقتضيه من المنزلة والتجلة غير جدير .

هذا وللسيد من المقاطيع الشعرية ما لا يدع في معناه مقالا لقائل ، ولا مجالا لجائل ، فلو جارى في كثيره قليله لأصبح قطباً من أقطاب الزمان في الجمع بين البلاغة والبيان ، أما وطريقته العامة ما وصفناه ، فالكلمة التي تغلب في وصف شعره أنه في القرن الرابع عشر المحمدي شعر البعثة الجاهلية[1] » .

وهذا النقد المركز الذي صور به مطران شعر البكري صادق في جملته ، ويحتاج إلى شيء من التوضيح ، فالبكري جنت عليه محاكاته للقديم ، ووعى من

(١) مختارات المنفلوطي ص ٧٦ ط ثانية .

كتب الأدب الشيء الكثير ، وقد يمكن أن يفيد الأديب مما قرأ في كتب الأدب من غير أن يفقد شخصيته ، ومن غير أن يستغلق على القارىء ، ومن غير أن يتكلف الوعورة والفخامة ، واقتناص الأمثال الشاردة ، والألفاظ الغريبة . ولكن البكري لم يفعل ذلك بل استمد صوره وخيالاته وتعبيراته من بطون الكتب القديمة التي كان يعيش فيها بعقله وفكره ووجدانه .

وإذا تصفحت صهاريج اللؤلؤ وجدت أن البكري مغرم بحشد الأمثال ، والإشارات التاريخية والألفاظ الغريبة ، كأنه يباهي بكثرة ما وعت ذاكرته من ذلك ، خذ مثلا قوله في وصف « غابة بولونيا » الذي آثر أن يعبر عنه نثراً مع أنه موضوع شعري جذاب : « وكأنما كل بستان شِعْب بَوّان[1] وكل حائط سدُّ ذو القرنين ، وكل طريق واد بين الصدفين ، وكل قنطرة قنطرة خَرّازاذ[2] ، أو قنطرة البَرَدان[3] ببغداد ، وكل قصر قصر المشتَهى[4] ، وكل كنيسة كنيسة الرُّها[5] .

وهاك مثلا آخر يريك ولوعه بضرب الأمثال والإشارات التاريخية والأدبية ، وإن لم تفد فائدة جديدة في إيضاح المعنى ، وانما ساقها للتعالم ، على طريقة المقامات « وإذا هو أجود من حاتم[6] ، وأبأى من حُنَيف الحناتم[7] ، وأحزم من سنان[8] ،

(١) شعب بوان : بأرض فارس بين أرجان ، والنوبندجان ، وقد اشتهر بجماله ، لكثرة أشجاره وأغاريد أطياره ، وتدفق عيونه ، وطيب فاكهته ، وقيل فيه :

إذا أشرف المحزون من رأس تلعة	على شعب بوان استراح من الكرب
والهاه بطن كالحريرة مسه	ومضطرب يجري من البارد العذب
وطيب ثمار في رياض أريضة	على قرب أغصان جناها على قرب

وفيه يقول المتنبي :

مغاني الشعب طيباً في المغاني	بمنزلة الربيع من الزمان

(٢) قنطرة خرازاذ : منسوبة إلى خرازاذ أم أردشير ، وهي بسمرقند بين « إيدج والرباط » وكانوا يعدونها قديماً من عجائب الدنيا ، لأن طولها ألف ذراع وعلوها مائة وخمسون ، وأكثرها مبني بالرصاص والحديد .

(٣) قنطرة البردان : نسبة إلى قرية قريبة من بغداد على سبعة فراسخ ، وفيها يقول جحظة :

في رقة البردان بين مزارع	محفوفة ببنفسج وبهار
بلد يشبه صيفه بخريفه	رطب الأصائل بارد الأسحار

(٤) وقصر المشتهي : أحد القصور التي أعدها الفاطميون للنزهة بمصر .

(٥) كنيسة الرها : نسبة إلى مدينة الرها ـ بالجزيرة بين الموصل والشام .

(٦) هو حاتم الطائي الجواد المشهور ، وقد ذكرنا قصص جوده في كتابنا « الفتوة عند العرب » ووضعنا له صورة تاريخية واضحة بعنوان « فتى كريم » ص ٣٨٢ ط ثالثة .

(٧) أبأي : من البأي وهو الفخر ، وقد بلغ من فخر حنيف وزهوه أنه لم يكن يكلم أحداً حتى يبدأه بالكلام .

(٨) سنان : هو سنان بن أبي حارثة ، وقيل لم يجتمع الحزم والحلم في رجل فسار بهما المثل إلا في سنان .

وأعدل من الميزان وأحمى من مجير الظعن[١] ، وأعقل من ابن تقن[٢] ، وأحيا من كعاب[٣] ، وأحلم من فرخ عقاب[٤] ، وأجمل من ذي العمامة[٥] ، وآثر من كعب ابن مامة[٦] ، وأجسر من قاتل عقبة[٧] ، وأحكم من هرم بن قطبة[٨] ، وأبطش من دوسر[٩] وأجرأ من قسور[١٠] » .

فهذه مجموعة من الأمثال العربية ، لا أظن أنه قصد بها وصف شخص من الأشخاص ، وأنه قد اجتمعت فيه كل تلك الصفات المجيدة التي بلغت في هؤلاء الأشخاص الذين ضرب بهم المثل الغاية التي ليس وراءها مزيد حتى تميزوا بها عن سواهم ؛ لأن مثل هذا الشخص من نسج الخيال ولا سيما وهذا الذي يصفه مولود لم يعرف من الدنيا شيئا ، فأي مبالغة وأي تكلف ! وما قصد توفيق البكري

---

(١) مجير الظعن : والظعن جمع ظعينة وهي المرأة في هودجها ومجير الظعن هو ربيعة بن مكدم وقد وضعنا له صورة كاملة زاهية في كتابنا « الفتوة عند العرب » بعنوان « حامي الظعينة » ص ٢٤٢ ط ثالثة .

(٢) ابن تقن : يقال إنه من قوم « عاد » ، وقد اراد لقمان ان يشتري إبلا له اعجبته ، فامتنع ابن تقن عن البيع ،فاحتال لقمان لسرقتها ، فلم يتمكن لفرط حذره وفيه قال الشاعر :

تجمع إن كنت ابن تقن قطانة … وتغبن أحيانا هنات دواهيا

فضرب بعقله المثل .

(٣) الكعاب : الفتاة الناهد ، وتكون عادة أشد حياء من غيرها من النساء الكبيرات .

(٤) أحلم من فرخ عقاب . ذكر الأصمعي انه سمع اعرابيا يقول : « سنان بن حارثة أحلم من فرخ عقاب » فقال له وما حلمه : قال : يخرج من بيضة على رأس نيق ، فلا يتحرك حتى يقر ريشه ، ولو تحرك سقط ، فضرب به المثل .

(٥) ذو العمامة : هو سعيد بن العاص بن امية ، وكان في الجاهلية إذا لبس عمامته لا يلبس قرشي عمامة على لونها ، وإذا خرج لم تبق امرأة إلا برزت للنظر إليه من جماله ولما افضت الخلافة إلى عبد الملك ابن مروان خطب بنت سعيد إلى أخيها عمرو بن سعيد الاشدق فأجابه عمرو بقوله :

فتاة أبوها ذو العمامة وابنه … أخوها فما أكفاؤها بكثير

ويصح أن يكون هذه اللقب لرياسته لا لجماله ، وكان يلقب كذلك بذي العصابة .

(٦) كعب بن مامة الايادي : جواد مشهور وقد ذكرنا قصة إيثاره ، حتى ضحى بنفسه في سبيل غيره في كتابنا « الفتوة عند العرب » في باب الكرم ص ١٨٤ ط ثالثة .

(٧) عقبة : هو عقبة بن سلم من بني هناءة من أهل اليمن وكان أبو جعفر المنصور ، قد وجهه إلى البحرين ، وأهلها من ربيعة ، فقتل منهم خلقا كثيرا ، وانضم إلى خدمته رجل من عبد القيس لازمه سنتين فلما عزل عقبة ورجع إلى بغداد رحل معه العبدي ، وبينا عقبة واقف بباب المهدي بعد موت أبي جعفر وجاء العبدي بسكين في بطنه فقتله أخذا بثأر قومه ، فضرب بجسارته المثل ، لأن عقبة كان مهيبا جدا .

(٨) هرم بن قطبة : هو الذي تحاكم إليه عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة الجعفريان ، فقال لهما : أنتما كركبتي البعير تقعان معا ، ولم يفضل أحدهما على الآخر فضرب به المثل .

(٩) الدوسر : الجمع الضخم أو الأسد الصلب والدوسر كان يطلق على كتيبة النعمان بن المنذر وبها يضرب المثل .

(١٠) القسور والقسورة : الأسد وجراته معروفة .

إلا أن يسوق هذه الأمثلة للإفادة على طريقة المقامات أو لإظهار علمه ، وكثرة اطلاعه ومعرفته بأمثال العرب .

وحسبي هذان المثلان للتدليل على غرامه بحشد الأمثال والإشارات التاريخية . وفي صهاريج اللؤلؤ مجموعة من هذه الأمثال يصح أن يؤلف في شرحها كتاب خاص ، أمّا عن توخيه شدة الأسْر في عبارته ، واصطياد غريب الألفاظ ، فقد أشرنا إلى أنه اهتم بجمع مختارات من أراجيز العرب وشرحها ، وكلنا يعلم أن الرجازين الذين اشتهروا في العصر الأموي كانوا مثالاً في معرفة اللغة ، وأن أراجيزهم كانت منبعاً يستقي منه الأدباء والشعراء ، فلا بدع إذاً حين نرى البكري ملماً بكثير من غريب اللغة ، مجيداً لاستعماله .

هذا وقد اختار لفحول الشعراء في العصر العباسي مثل أبي نواس ومسلم بن الوليد ، وأبي تمام ، والبحتري ، وابن الرومي ، وابن المعتز ، والمتنبي ، وأبي العلاء، وشرح مختاراته هذه ، فاجتمع له من الأراجيز ، ومن الشعر العباسي المنخل المختار مدد من الفصاحة والبيان أعانه على أن يظهر في صهاريج اللؤلؤ بمظهر المتبحر في آداب اللغة المطلع على أسرارها .

على أنك تجد البكري في شعره لا يعمد إلى الغريب إلاّ في النادر ، على حين يهتم في نثره بهذا كل الاهتمام ، ولعله رأى الشعر لا يحتمل مثل هذه الألفاظ الوعرة المطمورة في ثنايا المعاجم ، وأنه مقيد بالوزن والقافية ، أما النثر فأمامه متسع لأن يغير ويبدل ، ويضع الكلمة التي يريدها ، وقد يعينه هذا الغريب على طريقته التي آثرها في الكتابة ، وهي طريقة السجع ولذلك لا تجد له شعراً مثل شعر عبد المطلب في طول القصيدة ، وكثرة ما بها من ألفاظ غريبة .

استمع إليه يصف منتزه « البَنْدَلر » في القسطنطينية : « وقد حف الشجر الدوّاح [١] بتلك البطاح ، فمن شَوع [٢] ودَرْماء [٣] ، وخِلاف [٤] ، وطحماء [٥] ،

(١) الدواح : الشجر العظيم .
(٢) الشوع : شجر البان وينبت في السهل والجبل ، ويقال لثمره حب البان ولزيته دهن البان .
(٣) الدرماء : نبت أحمر الورق .
(٤) الخلاف : نوع من الصفصاف .
(٥) والطحماء : النجيل .

وريحان نضر ، وعَيْدانة[١] مرَجحنّة[٢] من سِدْر ، وقد تلاحقت غصونها ، وتعرشت خيطانها وفنونها ، وخَضَب بينها العرفج[٣] ، وأزهر الياسمين والبنفسج ، فكأن تحت كلِّ عرش إيوانا ، وفوق كل فرش ديوانا ، وفي كل ترب جونة[٤] عطار ، أو مسك بين أفهار[٥] » .

ولا ريب أن البكري لم يكن يعرف أسماء الأشجار التي رآها في هذا المنتزه ، ولو عرفها بالتركية لعجز عن أن يجد لها نظيراً بالعربية . فأين ما ينبت في الجزيرة الحارة من شجر ونبات يحتمل الحر الشديد ، مما ينبت في بيئة باردة غزيرة الأمطار؟ ولكنه استعار أسماء يعرفها في العربية معرفة قراءةٍ لأشجار أخرى لا تنطبق عليها هذه الأسماء .

وهاك مثلا آخر يصف فيه معركة « أسترليتز[٦] » : « كأني أنظر إليه يوم « استرليتز » وقد خرج لقتاله القيصران ، في يوم أرْوَنان[٧] « فصابت بقُر »[٨] و « ما يوم حليمة بسر[٩] » فاصطف حياله الروس ، كالسطور في الطروس ، وثبتوا في الأخاديد كالجلاميد وابذعرّوا[١٠] ، في السهول كالوعول ، وأقبل النمساوي في كتيبة جأواء[١١] وململمة[١٢] شملاء ، ينزل أولاها ، وليس بنازل ، ويرحل أخراها وليس براحل ، فقابلهم الفرنسيس بالدهياء الدردبيس[١٣] ... الخ » .

---

(١) العيدانة : اطول ما يكون من الشجر .
(٢) المرجحنة : المائلة المهتزة .
(٣) العرفج : شجر ينبت في السهول واحدته بهاء .
(٤) جونة عطار : الجونة . سلة صغيرة مغشاة بالجلد تكون مع العطار .
(٥) الأفهار : جمع فهر وهو حجر يدق به .
(٦) استرليتز : اسم الموقعة التي هزم فيها نابليون جيوش الروس والنمسا معاً في ٢ ديسمبر سنة ١٨٠٥ ، وقد شهد الموقعة قيصرا الروس والنمسا .
(٧) يوم اروناں : صعب شديد .
(٨) صابت : من الصوب وهو النزول ، والقر : القرار ، وصابت بقر اي استقرت في مقرها ، ويقال هذا المثل عند شدة المصيبة اي ان الشدة صارت في قرارها متمكنة .
(٩) حليمة : هي بنت الحارث بن ابي شمر الغساني ، ويوم حليمة كان بينه وبين المنذر بن ماء السماء وفيه قتل المنذر . واشتهر هذا اليوم لان حليمة طيبت فيه جند أبيها في قصة معروفة .
(١٠) ابذعروا : تفرقوا وانتشروا .
(١١) جأواء : كدراء اللون في حمرة من صدأ الحديد .
(١٢) الململمة : المخيفة ، والشملاء : الشملة المتفرقة .
(١٣) الدردبيس : الداهية العظيمة .

ولعلك رأيت من هذه الأمثلة أن البكري كان يعدل عن الكلمة المعروفة إلى الكلمة غير المألوفة ولو كانت مما ينفر منه السمع مثل « ابذعروا » و « جأواء » ، و « دردبيس » ، وأنه كان يجمع بين المثل الشارد واللفظ الغريب أحياناً .

وإذا نظرنا إلى شعر البكري وجدناه كما قال مطران ، لا تنتظمه فكرة ، أو يصدر فيه عن مذهب خاص ، بل كان الشعر عنده وسيلة من وسائل التعبير ، وحسبه أن يظهر بأنه يملك هذه الوسيلة ، حتى لا يكون أدنى من سواه ممن يتصدرون في موكب الأدب ؛ ولما كان البكري من رجال الدين وشيخ الطرق الصوفية كان من الطبيعي ألا ينطلق على سجيته في الشعر ، ويخوض في كل أغراضه ، ويعبر بحرية عما يجيش في نفسه .

الشعر فيض الوجدان يظهر في صورة موسيقية جذابة ، والوجدان ينفعل بمؤثرات عديدة فإذا كان الشاعر غير متزمت ، أو متحرج مما يصدر عنه جاء شعره صادق العاطفة ، معبراً عن حقيقة نفسه ، ولكنه إذا كان مثل البكري رجل دين ، وسيداً من الأشراف الذين يحتلون في المجتمع منزلة رفيعة كان من الطبيعي ألا يستجيب في شعره لكل ما ينفعل له وجدانه . ولهذا لا نرى للبكري غزلا عاطفيا قوياً وإنما هو نسيب يأتي به في أوائل القصائد محاكاة للأقدمين في طريقتهم وتشبيهاتهم ، ووقوفهم على الأطلال من غير أن تكون ثمة أطلال ، استمع اليه يقول من قصيدته ذات القوافي :

سقى دور ميّة بالأجرع ... مسفٌّ من الدَّجْن لم يُقلع(١)
ولو ترك الشوق دمعاً بجفني ... سقيت المنازل من أدمعي

* * *

شجيٌّ يحنُّ لألافه ... ويصبو إلى دهره الغابر
فهل عائد لي زمان مضى ... بنعف الغوير إلى الحاجر (٢)

ولا ريب أن البكري لم يكن محباً لميّة وديارها بالأجرع ، وإنما هو محاكاة

---

(١) الأمرع : المكان فيه سهولة ورمل ، وهو هنا مكان بعينه .

(٢) النعف : المكان المرتفع ، والغوير : تصغير غور وهو ما تداخل وهبط ، والأغوار في جزيرة العرب كثيرة ، والحاجر : منزل للحاج في البادية .

لطريقة الأقدمين في نظم الشعر ، ولم يكن البكري ممن يصبو إلى الزمن الغابر ويتمنى عودته إلى نعف الغوير والحاجر إلا على تأويل أنه قرأ عن هذه الأماكن كثيراً ويود لو أتيحت له الفرصة ليراها رأي العين ، فليس البكري كعبد المطلب في حنينه إلى البادية ، لأن عبد المطلب كان يحن إليهـا عن عاطفة واخلاص ، لنشأته في بيئة قريبة منها ، ولاعتزازه بانتسابه إلى البدو ، أما البكري فقد نشأ في بيت ترف ومجد في أحضان القاهرة ، ورأى من معالم الحضارة الأوربية الشيء الكثير ، ولم يكن على الرغم من شرف محتده وعلو نسبه ممن يشتهي الرجوع إلى البادية أو يعتز بهـا ، ولكنه حنين أتى إليه من الكتب ومن المحاكاة . والأبيات ليست فيها أي عاطفـة أو سمات تفصح عن شخصية الشاعر .

وكثيراً ما يلجأ إلى هذا النوع في ابتداء القصائد التي يحتفي بها كقصائد المديح متبعاً في ذلك خطة كبار الشعراء الذين يعارضهم أو يعجب بهم ، فأبو نواس على الرغم من ثورته على هذه الطريقة ظل يتبعها حين يمدح أمير المؤمنين أو أحد الولاة .

ونرى هذا لدى البكري عند مدحه للخديو عباس .

ألا جمّعي شمل الدموع المبدّدا ... وردي لجفنيـك المنـام المشرّدا
وإن تجزعي للبين لست بجـازع ... ولا تارك رأي الصواب المسدّدا

والجزع وسح الدموع ساعة الفراق مما ردده كثير من شعراء العربية ، وهذا هو المتنبي يقول :

ولم أر كالألحاظ يوم رحيلهـم ... بعثن إلينا القتـل من كل مشفق
عشية يعدونا عـن النظر البـكا ... وعن لذة التوديع خوف التفرق

نرى هذا كذلك في أول قصيدته مصر التي أشرنا إليها فيما سلف عند الكلام على التغني بالطبيعة المصرية في الشعر الحديث :

أديـار مي تنظـر ... فدموع عينك تمطـر
أم أبـرق العلمـين أم ... سـفح اللوى تتذكر[1]

---

(١) الأبرق : ج برق وهو المكان الذي اجتمعت فيه الحجارة والرمل والطين ، والعلمان : مثنى علم وهو الجبل : وأبرق العلمين : مكان بعينه ، واللوي : ما استرق من الرمل ، وسفح اللوى : مكان بعينه .

أم تـام قلبـك جؤذَر" أحوى المدامـع أحور[1]

فلا زال ينظر إلى ديار ميـة ، وأبرق العلمين ، وسفح اللوى ، ولا زالت المرأة عنده جؤذَراً •

وفيما عدا هذه الابتداءات لا ترى للبكري غزلاً أو تشبيباً في المرأة ، تزمتاً منه ، وحرصاً على مكانته في المجتمع ، وهو الحسيب النسيب ، وشيخ مشايخ الطرق الصوفية •

وإذا انتقلنا إلى غرض آخر من أغراض الشعر وهو المديح ، وجدنا أن البكري ربأ بنفسه أن يمدح إلا الملوك على حد قول النابغة :

وكنت امرءاً لا أمدح الدهرَ سوقة فلست على خير أتاك بحاسـد

وقد انحصر مديحه في أمير المؤمنين « عبد الحميد » وقد علمت كيف احتفى به ، وأغدق عليه من الأوسمة والرتب ما ألهج لسانه بالثناء المستطاب ، وفي عباس وهو أمير البلاد ، وهو الذي ولاه مشيخة الطرق الصوفية ، وإن كان قد نفس عليه مكانته من الخليفة ، وجفاه ، بل اشترك في المؤامرة التي حيكت لاتهامه بالجنون •

وله في عبد الحميد قصيدة واحدة أثنى فيها على بلاء جيوشه في محاربة أعداء الدين ، وعرّج على وصف بعض الملوك ، وأثنى فيها على كرمه وجوده حتى انطلق الشعراء بمدحه ، وهو في وصف المعارك يخلط الجديد بالقديم ، فيصف عدة السلاح التي عرفها العرب من السيف والرمح والدّرع ، ويصف المدفع وقصفه وحصده للنفوس • وهو يتوخى غريب اللفظ كعادته ويلجـأ إلى محفوظه مـن التشبيهات العربية القديمة ، وهاك بعض ما قاله في تلك القصيدة :

أمـا ويمين الله حلفـةَ مقسم لقد قمت بالإسلام عن كل مسلم
فلولاك بعد الله أمست ديـاره بأيدى الأعادي مثـل نهب مقسم
لقد سرّ هـذا النصر قبراً بطيبة وبيتاً ثوى عنـد الحطيم وزمزم

وهذا مدح" ينكره الواقع فلم يقم عبد الحميد عن كل مسلم بالإسلام ، بل هو الذي طوح بالإسلام حتى عرفت تركيا في عهده بالرجل المريض ، ونهب الأعداء

(١) الجؤذر : ولد البقرة الوحشية وتشبه به الحسان لجمال عينيه ؛ والأحوى : من به لون الحوة وهي سواد إلى الخضرة ، والأحور : من اشتد بياض عينيه وسواد سوادهما .

ولايات عديدة من تركيا مثل طرابلس وتراقيا وغيرهما ، وإذا كان عبد الحميد وجنده قد انتصروا في بعض المواقع ، فإن العاقبة كانت وخيمة . ويقول في مدح عبد الحميد كذلك :

له في الأعادي حملة يعرفونها ... وأكبر منها حملة في التكرم
عطايا تظناها لإعظام قدرها ... أمانيّ نفسٍ أو رؤىً من مُهَوِّمِ
أياديه أبدت خافي الشعر للورى ... وكان مُجَنًّا مثل سِرٍ مكتَّم
كذلك زهر الروض يبدو من الثرى ... إذا ما سقاه مُسْجِمٌ بعدَ مُسْجِم

والمدح بالشجاعة والكرم ـ وهما أعظم خلتين لدى العرب ـ قديم جداً في الشعر العربي، وقد افتن الشعراء في توليد المعاني منهما ، ولم يدعوا مجالاً لقائل ، ومن قوله يصف جيوش عبد الحميد :

أسأل فجاج الأرض بالجند يلتوي ... كأغدرة الوديان في كل مخرم

وقد نظر في هذا البيت إلى قول الشاعر : « وسالت بأعناق المطيّ الأباطح »

يموج بها الماذيُّ في رونق الضحى ... كما ماج لجٌّ بين أرجاء عَيْلم
فمن كل مغوار ترى الروم دونه ... هُوِيَّ شهاب أو عقاب محوِّم
ومن كلِّ ذيال كأن هويه ... طرائد وحش بين أظفار قشعم
ومن كل حصداءٍ دلاص كأنها ... على عاتق الأجناد بردة أرقم

فهو يشبه الجيش في الضحى بالأمواج المتدفقة في بحر كبير ، ويشبه التركي الشجاع بالنسر الذي يطارد وحشاً ، ويصف الفرسان بأنها في هويِّها كالشهاب أو العقاب ، ويصف الدروع الواسعة السابغة بأنها على أكتاف الجنود كأثواب الثعابين في نمنمتها ونقشها ، وهذه كلها أسلحة قديمة ، وأوصاف مطروقة من قبل ، ويطول بنا الحديث لو تعقبناه وعرفنا مآخذه ، ومن وصفه للمدفع قوله :

ومن منجنيق يستطير شُواظه ... بفوهة فيه كباب جهنم
عليه دخان يقطر الجمر بينه ... كأسود دِجن بالصواعق يرتمي

وقد سمى المدفع منجنيقاً لأن العرب كانت تعرفه ، ولم تعرف المدفع ، وشتان بينهما .

وفي مدحه لعباس تراه يبتدىء بذلك النسيب الذي أشرنا إليه ثم يعرج على وصف السفينة التي أقلته إلى مصر ، وقد عدل عن وصف الناقة التي كانت توصل الشاعر إلى الممدوح وتشق به الصحارى إلى السفينة التي أوصلته الى مصر وشقت به عباب البحر ، وقد وصف عباساً بالحلم في حزم ، وانجاز الوعد ، والكرم ، وبأنه حسام في يد الإسلام وبأنه كالنجم الثاقب في الرأي ، ثم انتقل إلى مدح الأسرة العلوية مشيداً بفتوحهم وبلائهم في خدمة مصر ، ومن قوله يصف السفينة والبحر :

أخوض عبابا فوق فلك تظنها ... على سَرَوات الماء قصراً مشيدا[1]
تهادى به مثل العقاب ، وتارة ... ترقى من الأمواج صرحاً ممرّدا
وترزم حيناً فيه حتى كأنها ... تجوز على العِلات حَزْناً وقَرددا[2]
خُضارةُ مرآة السَّماء فلم تزل ... ترى وجهها فيها وإن بعد المدى[3]
فإن أشرقت فيه الغزالة خلتها ... كعين بجوف البحر تقذف عسجدا
وإن لاح تحت الماء بدرٌ رأيته ... كماوية يعلو على متنها الصدا
وربّتما خِلتَ النجوم عشيةً ... لآلىء في قاعيه مثنى ومفردا
كأنّا وقد جزنا لمصر فرنجه ... حنيفٌ تخطى من ضلال إلى هدى
نؤم بها العباس في دَسْت ملكه ... كما أم سَفّارٌ على الجهد موردا

وهنا ترى البكري يلجأ إلى القديم تارة ، ويجدد في وصفه أخرى ، فإرزام السفينة من إرزام الناقة وهذا قديم، كما أن تشبيه هويها بهويّ العقاب قديم كذلك، وتشبيه البحر بأنه مرآة للسماء ترى فيه وجهها على الرغم من بعد الشقة ، وتصوير الشمس المشرقة في البحر بأنها عين تقذف عسجدا ، وتشبيه البدر بأنه مرآة صدئة وصف جديد حقاً . وطريقته في التخلص من وصف السفينة إلى المدح هي طريقة القدامى في التخلص من وصف الرحلة والناقة إلى المدح تماماً :

---

(١) السروات : جمع سراة وهي من الطريق أعلاه ومتنه .
(٢) إرزام الناقة : صوتها حين التعب . ويريد هنا أن السفينة تتعثر في الموج ، والعلات : الحالات المختلفة . وجرى على علاته أي على كل حال ، والحزن : ما غلظ من الارض والقردد : الارض الغليظة المرتفعة.
(٣) خضار : علم البحر .

ومن قوله يمدح عباسا :

حليم يزيد الحلم منه حِفاظه ... كما خشّن اللينُ الجُراز المهنّدا[1]
أجلُّ أمير قام بأساً ونائلا ... وأنجزهم طَراً وعيداً وموعداً
تراه بمصر بعد والده الرّضى ... كمثل الربيع الجون خلّفه الجدا
يذود عن الإسلام حتى كأنه ... حسام به الإسلام أضحى مقلّدا
له شيمةٌ فيها ثوى الفضلُ كلُّه ... كما قد ثوى كل الكلام بأبجدا
ورأيٌ إذا ما أظلم الخطبُ خلته ... كنجم به في ظلمة الخطب يُهتدى
وفكر كمرآة المنجّم في الورى ... يرى اليوم فيها ما يبين لهم غدا

ولعلك تلحظ ظاهرة واضحة في شعر البكري ، بل وستجدها في كل آثاره الأدبية وهي فرط غرامه بالتشبيهات ، فكل صفة مهما بلغت من الوضوح لا بد لها عنده من تشبيه يؤكدها ، وقد يوفق في بعض هذه التشبيهات ويبتكر ، وقد يخفق في التجديد ، ويحاكي الأقدمين ، وكأن التشبيه لديه مقصود لذاته ، وربما أتى هذا لاعتقاده أنه مظهر الخيال ، وهو يريد أن يباهي بخياله الأدبي ، ويظهر للملأ أنه يحتل منزلة لا تداني في هذا الميدان .

فوصف الأمير بالحلم مع الحفاظ والذود عن المكارم وصف قديم ، وأشهر ما قيل في هذا قولهم « لين في غير ضعف » ، ووصفه بالشجاعة والكرم وبإنجاز الوعد والوعيد ليس فيه جديد ، أما عن تشبيهه بالربيع الذي خلّفه المطر فقديم كذلك ، ومن أحسن ما قيل في هذا قول الشاعر :

وما روضة حلّ الربيع نطاقها ... وجرّت بها الأنواء حاشية البُرْد
إذا حدرت فيه النّعامى لثامها ... ثنى عطفه الحواذنُ والتف بالرّند
بأطيب نشراً من خلائقه التي ... تنم برياها عن العنبر الورد

ثم ألا ترى معي أنه أضعف الوصف حين شبهه بحسام تقلده الإسلام بقوله

---

(١) الجراز المهند : هو السيف ، والحفاظ : الشدة والبأس ، والحرص على الكرامة والذب عن المحارم.

« حتى كأنه حسام » ، وتشبيه الأمراء والقواد والممدوحين بالسيف معرق في القدم : وما أردأ قوله « كما قد ثوى كل الكلام بأبجدا » فليس فيه أي رائحة من الشعر ، وكان في غنىً عن الالتجاء إلى التشبيه إذ أعوزته المقدرة على الابتكار • وتشبيه الرأي بالنجم الثاقب من التشبيهات المتداولة المعروفة منذ أن نظر شاعر عربي في صفحة السماء في ليلة حالية بالنجوم ، ويخيل إليك أنه جدّد في وصف فكر الأمير بأنه كمرآة المنجم يرى فيها اليوم ما سيأتي به الغد ، ولكن ألا ترى أن هذا المعنى قد أتى في قول البحتري :

تشف أقاصي الرأي في بدآته   لعيني ، وستر الغيب غير رقيق

ولم يتورط بذكر المنجم الذي يوفق حيناً ، ويضل في أغلب الأحيان ؟؟ ومرآة المنجم هذه ليست مما يؤمن به العصر الحاضر وقد كانت شائعة في القديم وهي معرفته بحساب الجمّل والجفر الذي ادعى الناس أن أهل البيت هم الذين ألفوا فيه، قال أبو العلاء المعري :

لقد عجبوا لأهل البيت لما   أتاهم علمهم من مسك جَفْر
ومرآة المنجم وهي صغرى   أرته كلَّ عامرة وقفر

ولعل مرآة المنجم اليوم هي ما يسمى بالمندل ، وهذا كله رجم بالغيب وقد تفرد الله بعلمه •

وبعد أن انتهى الشاعر من مدح عباس والثناء على خلاله وسجاياه ، ومدح آباءه وأثنى على شجاعتهم وقيادتهم الجيوش يدافعون عن الخلافة ، وعن البيت الحرام [1] •

فقلَّ جموع الخارجين بيأسهم   وأتهم فيهم بالفتوح وأنجدا
وحامى عن القبر الذي عند طيبة   وذاد عن البيت الذي عند كِدا

ولم يمدح البكري كما ذكرنا غير الخليفة والخديو ، وليس له في كل منهما سوى قصيدة واحدة وإن مدح عباساً في خلال قصيدته التي يصف بها مصر بما لا يخرج عما قاله في هذه القصيدة ، ومن ذلك قوله :

---

(١) يشير إلى معاونة الجيوش المصرية للخليفة في غزو كريت ، وتهدئة الثورة في اليونان ، ومحاربة الوهابيين .

ملك بضوء جبينه تسقى البلاد وتمطر
السيد المحض العلا والجوهر المتخير
العدل مما ينشرُ والمجد مما يُذْخِرُ
خلق حوى كل الفضا ئل فهي عنه تؤثر
جود وبأس في الورى بهما يُخَصُّ ويشهر

وهذا الوصف ليس فيه جديد يضيفه إلى قصيدته السابقة ، وقد خلا مديحه من الاستجداء ، ولم يطل فيه ضناً بكرامته وشرفه ، ولعله أتى من قبيل أداء الواجب وهو الشاعر المباهي بشاعريته ، والذي ينتظر منه أن يقدم ولاءه لخليفته وأميره ، ولو قصر لليم على تقصيره . ولعلك رأيت أنه وصف عباساً بكثير من الصفات التي لم يتحل بها على عادة الشعراء القدامى في المدح .

ومن الأغراض التي أجاد فيها الوصف ، ولكنه قليل في شعره ، بل إن شعره كله قليل ، وقد وصف مصر في قصيدة عامرة له فيها لفتات شعرية سامية ، ومن هذه القصيدة التي أشرنا إليها في غير هذا الموضع(١) قوله يصف جمال مصر :

والنيل في لبّاتها عِقد يلوح مجوهَرَ
والجو صحو مشرق وكأنما هو ممطر
والظل من خلل الشمو س مُدرهمٌ ومدنَّر
وغصونها لُدْنٌ تميـ دُ بما تُقل وتُثمرُ
فكأنهن ولائد في حَلْيها تتكسَّر
هي نسجُ وشى نيلها فيه الطراز الأحمر
هي مثل لوح صور الـ فردوسَ فيه مصوِّر
يا جنةٌ يجني الجنى فيها ويجري الكوثر
أنا شاعرٌ في وصفها لكنها هي أشعر

وفي بعض هذا الوصف جدة ، فتشبيه النيل بأنه عقد جوهر يحلي جيد مصر ،

---

(١) راجع هذا الكتاب ص ١٦٨ .

وتشبيه الأغصان المحملة بالثمار المختلفة الألوان بالولائد اللاتي يتكسرن في مشيتهن وهن حاليات ، وتشبيه مصر بأنها لوح صورت فيه الجنة ، وقوله إنها بجمالها أشعر منه في شعره الذي يمدحها به من الجديد في الوصف ، ويدل على حبه لبلاده وعلى خيال سام في تصويرها .

وتراه في بعض أبيات هذه القصيدة يقتفي أثر البحتري في وصف إيوان كسرى ، استمع إليه يصف قصر « عابدين » والصور التي تزين جدرانه ، وقد مثلت عليها وقائع حربية .

فترى الوقائع منظراً وكأنما هي مخبر
والجند تخطر في الحديـ ـد فدارعون وحسَّر
والخيل بين عجاجها تخفى وحيناً تظهر
وتظن أحياءً بها فتمس كيما تخبرُ

ففي هذه الأبيات شبه كبير وتأثر واضح بتلك الأبيات التي يصف فيها البحتري معركة أنطاكية :

والمنايا مواثل وأنو شر وان يزجي الصفوف تحت الدِّرَفس
وعراك الرجال بين يديه في خفوت منهم وإغماض جرْس
من مشيح يهوي بعامل رمح ومليح من السنان بتُرس
تصف العين أنهم جد أحيا ء لهم بينهم إشارة خرس
يغتلي فيهمُ ارتيابي حتى تتقراهم يداي بلمس

وقد وصف البكري في هذه القصيدة الجزيرة وخروج النساء للنزهة بين أرجائها من مركباتهن وقد أبدع في الوصف حين قال :

عجلاتها فلك بأشبا ه النجوم يدوَّر
من كل خرْكاةٍ بحسنـ ـاء تضيء وتقمر
فكأنها المشكاة والمصـ ـباح فيها يزْهر

والخركاة مركبة النساء في المواكب ، وتصويره المركبة بأنها كالمشكاة والحسناء فيها كالمصباح تصوير طريف ، وتراه بعد ذلك يصف حديقة الحيوان :

فيهــا النعامــةُ والحبــا ري والمهــا والقســور
كسفــين نــوح أظهــرت مــا كان فيهــا يُضْمَر
وترى الغصون على الأرا ئك تلتــوي فتَشجَــر
وجــداولٌ كسبائــك بسنــا الأصيــل تعصفــر

وقد نظر في البيت الأخير إلى قول الشاعر : «ذهب الأصيل على لجين الماء» :

مــاءٌ كبلــور يــذو بُ وأدمــعٌ تتقطــر
يروي القطا الكدري منـ ـه وينتحيه الجــؤذر
في حافتيه الــورد والنّـ ـسريــن والنيلــوفــر
وعليه من نسج الصَّبا درع هنــاك ومِغْفَر

وفي هذا المعنى قال ابن المعتز يصف روضاً :

فكأن الروض وشيٌ بالغت فيــه التّجار
نقشــه آسٌ ونسر يــن وورد وبَهــار

وقال في وصف غدير :

غديــر ترجــرج أمواجــه هبوب الرياح ومــرُّ الصَّبا
إذا الشمس من فوقه أشرقت توهمتــه جَوَشنا مُذْهبــا(١)

وقال الطغرائي في وصف غدير كذلك :

حصبــاؤه درٌ ورَضراضــه سُحَالة العسجد حول الدُّرَر(٢)
وقد كسته الريح من نسجها درعاً بهــا يلقى نبــال المطر
وألبسته الشمس من صِبغها نوراً بــه يخطف نور النظر
كأنــه المــرأة مجلــوةٌ على بساط أخضر قــد نُشر

---

(١) الجوشن : الدرع .
(٢) الرضراض : صغار الحصى والعسجد : الذهب ، وسحالته : برادته .

ولم يزد ما قاله البكري عما أتى به ابن المعتز والطغرائي شيئاً :

ومن الجديد في هذه القصيدة قوله في وصف المتحف • وقد حشدت فيه أجساد الفراعنة :

نشـرت بـه أمواتهـم — فكأنمـا هـو محشـر
رمسيس أيـن مطارف الد — يبـاج أيـن الجوهـر ؟
أيـن السريـر وأيـن تا — ج الملك أيـن العسكر ؟
نـم في رقـادٍ ليـس في — أحـلامـه مـا يذعـر
فالمـوت نـوم أكبـر — والنـوم مـوت أصغـر
دنيـا تشابـه ملعبـا — والليـل ستـر يستـر
والفصـل يضحـك والثر — يا الشمس فيـه تنـوّر
جنـد هنـاك وسوقـة — ومتـوَّجٌ ومسخَّـر
فـإذا طـرحت ثيابهـم — ساوى الأعـزّ الأحقـر

وتشبيه الدنيا بأنها ملعب تمثل فيه رواية الحياة ، والليل هو الأستار التي تسدل على المسرح قبل الرواية ، والشمس هي الثريا التي تضيء المسرح ، والناس هم المثلون ، هذا يمثل جنديا ، وهذا سوقة ، وهذا ملك ، وهذا خادم ، ولكنك إذا طرحت هذه الثياب وجدتهم جميعا سواءً في التركيب الجسماني ــ لعمري لفتة شعرية بديعة من البكري • ومن الجديد في تلك القصيدة التفاته إلى خلق المصريين ووداعتهم ، وقلما التفت من وصفوا مصر من الشعراء إلى خلق أهلها :

وطن الغريب وداره — وقبيلـه والمعشـر

وقد تكلم عن مجد مصر القديم وأنه كلما ازداد قدماً ازداد حسناً وروعة :

والمجد مثـل الخمر يكـ — ـرُم مـا توالى الأعصرُ
كانت سلاطين الـورى — فيـه تشيـد وتعمُرُ
والغرب مـن أعمالـه — والقبلتـان وتدمُر[1]

---

(١) يشير إلى امتلاك المصريين لبلاد المغرب أيام الفاطميين ولبيت المقدس والحجاز ، وقلعة تدمر •

والخيلُ خيلُ الله تر ... كب والصوائف تنصر
وفرنجة ومليكها ... تغزى بمصر وتؤسر
هذي مناقب مصر تُر ... وى في الأنام وتسطر

ولم يكتف بذكر الماضي ، ولكنه نظر إلى المستقبل ، وكان متفائلاً في نظرته ، محباً لبلاده :

ولسوف يرجع ما مضى ... ويعود ذاك المفخر
وكذا الزمان يدور وال ... قدر المغيَّب محور
والبدر إن وافى السرا ... رَ فبعد ذلك يبدُر
والعود ييبس برهة ... فإذاه عودٌ أخضر

ومن روائع وصفه قوله يصف « النيازج » في إحدى حفلات القصر الليلية ، وقد خرجت منها مناظر عدة ، فمن ثعابين ، وطيور ، وأزهار ونخيل ، في ألوان وأصباغ مختلفة .

فمن شهب تمتد في الجو مصعداً ... وتلوَى على جنبيه مثلَ الأراقم
وتمطر فيه لؤلؤاً وزبرجداً ... شآبيب منها ساجم بعد ساجم
فطوراً نرى أن السماء حديقةٌ ... تفتح فيها النَّور بين الكمائم
وحيناً نرى أن الحديقة في الدجى ... سماءٌ تهاوى بالنجوم الرواجم

ولكنك لا تجد له شعراً كثيراً في الوصف ، فهو مقلٌ جداً ، ولو أنه عني بالشعر واحتفل به ، ولم يأنف من أن يصير شاعراً مكتمل الشاعرية يخوض في كل أغراض الشعر ويستجيب لانفعالات قلبه ووجدانه ، لكان في طليعة شعراء مصر .

وله قصيدة في الفخر والرثاء معاً بعنوان : « أبي » عارض فيها المتنبي حين رثى جدته حين قال :

ألا لا أرى الأحداث مدحاً ولا ذما ... فما بطشها جهلا ولا كفها حلما
أحن إلى الكأس التي شربت بها ... وأهوى لمثواها التراب وما ضما

وإن لـم تكوني بنت أكرم والد … فإن إباك الضخم كونك لـي أما

وقد قال البكري من نفس البحر والقافية :

سقت رحمة الله الضريح وما ضما … وروّت بـه هاما وروّت به عظما
يعز على العلياء أن يسكن الندى … ترابا وأن نلقى به الحسب الضخما

وفيها يقول واصفاً خلال والده :

وكفـان كانـا كالفـرات ودجلـة … يريشان من خصا بجود ومن عما
وعلم هو اليم الذي قـد تنورت … أواذيّه الورادُ فاستصغروا اليمـا
وبطش لمـن عـاداه تحسب أنـه … شهاب هوى في إثر عِفرية رَجْما
وصدر هو الهناء في الأزم فسحة … وليلة سـر عنـد إسراره كتمـا
وقول" عريق في الفصاحة لو غدت … تساجله عرب إذاً أصبحوا عجمـا
وعدل هو العدل الذي قد قضى به … أبو حفص الفاروق في طيبةٍ حكما
فهذا أبي من بيت تيم بـن مرة … إلى نَضَد من هاشم يفرع النجما
وما ذاك في مدحيه شعـر وإنما … خلائقه در" أجـدت لـه نظمـا

هذا ويقف وقفة على قبور آل الصديق يتذكر فيها أمجادهم ، فتأسى نفسه لما أصابهم :

وإمـا تراءت هيلت النفس عندها … قشعريرة للهيب أو وجمت وجمـا
أهيل علـى مثـل العوالي ترابُها … ووارت لدى إطباقها الدين والعلما

على أن البكري أشعر ما تراه في مقطوعاته الصغيرة : وقد ضمنها بعض الحكم والأفكار الجديدة ، والخطرات العارضة ، فمن ذلك قوله في ظلم السادة للرعية ، وفي هيبة الناس للملوك وخشيتهم إياهم مع أنهم هم الذين ملكوهم •

لا تعجبوا للظلم يغشى أمة … فتنوء منـه بفادح الأثقال
ظلم الرعية كالعقاب لجهلها … ألم المريض عقوبة الإهمال

وقوله في هذا الغرض كذلك :

والناس يخشون من بطش المليك بهم ... وما لـه دونهم بأس ولا جاه
كصانع صنماً يومـاً علـى يـده ... وبعـد ذلـك يرجـوه ويخشـاه

فهو وإن نظر إلى قول المعري :

مـلّ المقام فـلا أجاور أمـة ... أمرت بغـير صلاحها أمراؤهـا
ظلموا الرعية واستباحوا كيدها ... وعدوا مصالحها وهـم أجراؤها

إلا أنه جدد وابتكر ، وما أبدع قوله « كصانع ... » في وصف علاقة الرعية بمليكها ومن هذه الحكم قوله :

وفي وسعة المرء نيل العلا ... وقد يمنع المرءَ مـا يمنع
صغيرٌ من الأمر يلهيه عن ... بلـوغ العظائم أو يقطـع
كعين تحيط بهـذا الوجو ... د جميعاً ويحجبها إصبـع

وفي هذا التشبيه براعة وتجديد ، ومن قبيل هذا قوله في وصف شقيين :

شقيان في خلـق واحـد ... تؤلـف بينكما الزندقـة
كشِقّي مقص تجمعتمـا ... على غير شيء سوى التفرقة

وله في قصيدته التي سماها « ذات القوافي » خطرات بارعة مثل هذا الذي ذكرناه ، حتى ليصل فيها إلى القمة فمن ذلك قوله متغزلاً :

نحلتُ فلو زرتها ما خشيـ ... ـت رقيباً يرانيَ فيمن يرى
ولـو زرت ميّة في يقظة ... لظنت بأنـي خيـال سرى

* * *

يمر ولـم أدر شهر فشهر ... كأني في فلك لـم يـدر
وأرتـاح إمّـا تمنيتهـا ... ويـا رب أمنيـة كالظفر

أسير ولا أرتضي بالعِتاق ومُضنىً وأجزع أن أبرأ
وإن سلّمت خلتها ودّعت وأحسب مقتربي منتأىَ

* * *

إذا كنت وحدي أكون وإيا ك أو خالياً فاشتغالي بك
وأطّلب المجد والمكرما ت لتحسن لي شيمة عندك

* * *

ليحنو قلبك رفقاً عليّ فالصخر بالماء قد ينبجس
وصوني الوداد وفيه الذّماءُ فلن يورق العود إما يبس

وما أجمل قوله في ختام هذه القصيدة :

زمان إذا ما تذكرته تخيلته حلما في الكرى
وعهدُ الشباب كرؤيا إذا مضت أدركتها نفوس الورى

ومن هذه المقطوعات الصغيرة قوله في الشيب :

أشعرة بيضاء أم أول خيط الكفنِ
أم تلك سهم مرسل لا يتقي بالجُنَنَ
والزرع إن هاج فقد حان الحصاد وأني

وقد قال ابن الرومي في هذا المعنى :

لم أخضب الشيب للغواني لأبتغي عندها ودادا
لكن خضابي على شبابي لبست من بعده حدادا

وقد علق الأستاذ العقاد على قول الشاعرين في الشيب بقوله : « كذلك الفرق بين خضاب الحداد ، وأول خيط الكفن ، فكلاهما مغالطة لا تعبر عن الواقع ، ولكن وصف الخضاب بالحداد تهكم جائز من حيث لا يجوز أن يخطر على بال أن شعرة الشيب الأولى خيط من خيوط الكفن لا على سبيل الجد ، ولا على سبيل التهكم ».

ولكن يخطر على البال أن الكفن أبيض اللون ، وكذلك الشيب ، وأن الشعرة

الأولى إذا انضمت إليها شعرة وأخرى ، وأخذ شعر المرء في البياض دلّ ذلك عادة على شيخوخة وضعف ، فإذا تمّ الشيب فكأنما تمّ نسج الكفن في انتظار المنية .

ومن قبيل هذا قوله :

وما أذّن النوم لما أقاموا صلاة الجنازة يوم الوفاة
وأذن للطفل يوم الولاد فهذا الأذان لتلك الصلاة

وقد اقتفى فيهما أثر ابن الرومي عند قوله :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها لأرحب مما كان فيه وأرغد

وقد علق الأستاذ العقاد على هذه المعارضة بقوله : « أنه يعتسف أحيانا ويهتدون ، ومن أمثلة ذلك فيما تقدم قوله في أذان الولادة وصلاة الجنازة ، وقول ابن الرومي في بكاء الوليد عند استهلاله ، فإن بكاء الطفل وهو يخرج من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا مثل صادق من تصاريف الحياة ، ومثل شائع بين جميع الناس ، أما النسبة بين أذان الولادة وصلاة الجنازة فهي مناسبة « موضوعة طارئة » لا توافق هذا المعنى المتصل بالمولد والممات ، وهما أعم شيء وأعمقه في وجود الإنسان ، وقد كان جائزاً أن يختلف الأمر فنصلي شكراً للولادة ، ونؤذن إعلاناً للوفاة ، وقد جاز عند ملايين من الأحياء ألا تقام الشعيرتان ، فالفرق بين معنى ابن الرومي ومعنى البكري هو الفرق بين المناسبة الموضوعة والمناسبة الصادقة التي لا يؤثر فيها اختلاف الشعائر والعادات والأقوام والأزمان[1] » .

هذا هو كل ما قاله البكري من الشعر ، لا يزيد عن أربع قصائد وبعض مقطوعات وشذرات ضمّنها آراءه العارضة وخطراته ، وبهذا يصدق عليه قول مطران : بأنه لم تكن له جامعة تربط بين أجزاء شعره ، وأنه كان مقلا في هذا الشعر . وقد علل الأستاذ العقاد لهذه القلة بأن البكري كان يكتب كثيراً ، ولا ينظم إلا عرضا في أثناء الكتابة ، أو في خاطرة عابرة قلما يسترسل معها إلى الإطالة ، فاتسعت له في النثر مجالات السليقة الشاعرة ، وظهرت فيه لفتات الشاعر وأعراضه وخصائص ذوقه وفكره ، ولعله لو أطال النظم كما أطال النثر لكثرت موضوعاته ، وتساوت

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ٥٧ — ٥٨ .

في هـذه المزية قصائده ومقاماته ، وربما كان البكري ممن يرون كمـا كان يرى الأقدمون « أن الشعر أسرى مروءة الدني ، وأدنى مروءة السري ّ » ، وأن الانقطاع له والإكثار منه لا يجملان بصاحب المقام الديني والحسب العريق ، وليست الكتابة كذلك عند أصحاب هذا الرأي ، ولا سيما الكتابة التي تصاغ في قالب الرسائل بين الأكفاء ولا يطلع عليها القراء إلا إذا طالعهم بها أديب من محترفي الصناعة ، ليتولى هو شرحها وتقديمها إلى الناس ، كما جرى في كتاب صهاريج اللؤلؤ ديوان البكري الجامع لنخبة نثره وشعره[1] » .

وفي الحق إن في نثر البكري شعراً لا ينقصه إلا الوزن ، فكثير من موضوعاته التي دبجها نثراً ، لا تصلح إلا للشعر ، وقد استطاع ــ على الرغم من أنه قيد نفسه بالفخامة والجزالة ، وتصيد الغريب ، وإيراد الأمثال العربية القديمـة ، وبالعبارة المسجوعة ــ أن يقبس من سماوات الخيال الشعري قبسات مشعة ، وأن يمثل عصره أتم تمثيل في فكرته لا في عبارته ، وفي خياله لا في صياغته .

دعنا نستعرض نثر البكري لنتبين هـذه الحقيقة فأول موضوعات صهاريج اللؤلؤ عن رحلته إلى القسطنطينية ، وفيها وصف للسفينة والبحر والليل والقطـار والبسفور ، ونساء الأتراك ومنتزهات المدينة وهي كلها من الموضوعات التي يصح أن ينظم فيها شاعر حساس ذو خيال ووجدان . ولم يتعرض البكري لوصفها نثراً إلا لأنه يملك هذه الحاسة الفنية ، ويملك الخيال الذي يصور به مشاعره . ولعله لم يجد القدرة في الشعر حتى يؤثره بتسجيل خواطره ، ولم يكن أمامه إلا البارودي وكان لا يزال في منفاه ، ولم يضرب في كل ميادينه ولم يجمع شعره إلا بعد عردته من المنفى . ولعله برم بالشعر لتقيده بالوزن والقافية ، فآثر العبارة المنثورة لتحمل خياله المجنح ، وتتسع لوصفه البديع .

ولا يسعنا أن نأتي على كل موصوفاته ، ولنتخير من وصفه للقسطنطينية قوله في وصف البحر « والبحر آونة كالزجاج الندي ، أو السيف الصَّدي ّ ، يلوح كالفيحة المدحوة[2] أو المرآة المجلوة ، وحينا يضرب زخَّاره ، ويموج مواره ، فكأنما سُيرت الجبال ، وكأنما ترى قبابا فوق أفيال ، وكأن قبوراً في اليم تحفر ، وألوية عليه تنشر ، وكأن العِـد[3] يمخض عن زبد ، وكأن الدوي ّ من جرجرة الآذي ّ زئير

(١) المصدر السابق ص ٧٠ .
(٢) المدحوة : المبسوطة .
(٣) العد بالكسر : البحر ، ويمخض : يحرك .

الأسد وهزيم الرعد .

يكب الخليـة ذات القـلا ع وقـد كاد جؤجؤها ينحطم[١]

فإذا كان الأصيـل ، وسرى النسيم العليل رأيت البحـر كأنه مبرد ، أو درع مسرد[٢] أو أنه ماوية[٣] تنظر السماء فيها وجهها بكرة وعشية ، وكأنما كسر فيه الحلي ، أو مزج بالرحيق القطربلي[٤] وكأنما هو قلائد العقيان ، أو زجاجة المصور يؤلف عليها الأصباغ والألوان » .

فهنا ولا شك خيـال شاعر فنان ، وصف البحر في هـدوئه وغضبه ، ووقت الأصيل وصفاً دقيقاً جميلا .

واستمع له كذلك يصف الليل وهو على ظهر السفينة ، وماذا عسى أن يرى الناظر بالليل ، والبحر أمامه ساكن أسود ، وستر الليل يحجب عنه الدنيا ، والسفينة ماضية في طريقها لا تخشي ضيراً ، ولا تلوي على شيء ، ولا تسمع إلا جرجرتها وهدير الأمواج من حولها كأنها تتألم من وقع خطاها ، ولكن الشاعر يرى مالا يراه الناس ، ويحس ما لا يحسون ، ويسبح خياله في عالم قل أن يدركوه إلا أن يحققه لهم في نثره الشعري ، أو شعره القوي ، قال البكري .

« حتى إذا أخضل[٥] الليل . وأرخى الذيل ، بدا الهلال كأنه خنجر من ضياء يشق الظلماء ، أو قلادة ، أو سوار غادة ، أو سوار لواه الضراب ، والليل فيل وهو ناب ، أو عرجون قديم ، أو نون من خط ابن العديم[٦] ، أو برثن ضيغم ، أو مخلب قشعم[٧] أو ماء في أنبوب في روض ، أو ثمد[٨] في أسفل حوض ، أو وشي مرقوم أو دملج من فضة مفصوم ، أو قلامة ظفر ، أو صِنار في شبك في بحر .

---

(١) جؤجؤ السفينة : صدرها ومقدمتها ، والخلية : السفينة العظيمة .

(٢) المسرد : المثقب . (٣) الماوية : المرآة .

(٤) القطربلي : منسوب إلى قطربل بلد بالعراق اشتهر بالخمر في القديم .

(٥) اخضل : اظلم ، واقبل طيب برده .

(٦) ابن العديم : هو كمال الدين عمر بن احمد بن هبة الله بن ابي جرارة ولد في سنة ٥٨٦ هـ وكان محدثا حافظا مؤرخا صادقا ، فقيها مفتيا ، منشئا بليغا ؛ وكان راسا في الخط المنسوب ولا سيما النسخ والحواشي وله من المصنفات : تاريخ حلب ، وكتاب الدراري في ذكرى الدراري ، وكتاب في الخط وعلومه وضروبه وتوفي سنة ٦٦٦ هـ .

(٧) القشعم : النسر الكبير . (٨) الثمد : الماء القليل لا مادة له .

أيـا ضـوء الهـلال لطفت جـداً كأنك في فـم الدنيـا ابتسام
يحبِّب لي سناك العشق حتى يصاحبني وأصحبه الغـرام

ثم إذا غاب الهلال ، وتوارى في الحجال ألفيت الكون من السواد في لبوس حداد ، وكأنما الماءُ سماء ، وكأن السماء ماء ، وكأن النجوم در تموج في بحر ، أو ثقوب في قُبَّة الديجور ، يلوح منها النور ، أو سكاك دلاص[1] ، أو فِلق رَصاص ، أو عيون جراد ، أو جمرٌ في رماد ، أو الماء صـفائح فضة بيضـاء سمِّرن بمسامير صغار من نضار ، فلا تفتأ السفينة تكابد الويل من البحر والليل ، حتى يلوح مـن الأفق الضياء كابتسام الشفة اللمياء ، فإذا السفينة كأنها سر كتمه الظلام ، وكشفه الضرام » .

لقد افتن البكري أيما افتتان في وصف الهلال في ظلمة الليل ، ولم يدع تشبيها يخطر على البال ، وقد لا يخطر على بال أحد إلا أتى به ، وكذلك فعل في وصف النجوم ، وقد أبدع في وصف النجوم حين عكس الماء صورتها بأن الماء صفيحة فضة سمرت بمسامير من ذهب ، وهذا الوصف قيل لذاته لا يحمل إلا فكرة شعرية .

وللبكري غير هذا النوع من الوصف الذي تردد في غير ما موضع من صهاريج اللؤلؤ موضوع اجتماعي جذاب هو «العزلة» وصف فيه مجتمعه ، ولم آثر العزلة : وصف فيه الحاكم وغطرسـته وجهله ، واستعباده للمرءوسين ، ووصف فيه أبنـاء الخاصة وزهوهم ، وتبديدهم للمال الذي لم يجمعوه بالكد والكدح ولم يعرفوا مقداره ، ووصف أبناء العامة ، وشقاءهم ، وله فيه خطرات اشتراكية تدل على سعة أفق ، وعلى نفس حساسة تتألم للبشر وللفقر الذي يرزح تحته الشعب المصري المسكين ، وعلى ثورة نفسية على الأوضاع السيئة في المجتمع المصري . وما لي أتكلم عن البكري وقد أبدع أيما أبداع فلأدعك وإياه . قال :

« كتابي إلى السيد أيّده الله ، وكلأه ورعاه ، وأنا حل بقُرى السواد ، وريف البلاد ، بعيد عن المدينة ، وما فيها من الشينة والزينة ، في عزلة عن الناس ، بين سِقْني وغراس ، سليم الجسم من السقم ، والنفس من الألم ، والحمية من الأنام كالحمية من الطعام ، شفاء من كل داء ، وخليق بمن ارتطم ، في المزدحم ، أن يصاب ببعض الأوصاب » .

(١) الدلاص : الدرع الملساء اللينة .

وهذا لعمر الحق قول سديد ، ورأي رشيد في العزلة ، يدل على تبرم بالمجتمع، وهو فلسفة من يريد العافية بالعزلة .

ويقول واصفاً الريف : « يا ما أحيلى الوحدة والريف ، وذلك المشتى والمصيف والجو السجسج[١] والظل الوريف . فجر يلوح في الأفق ، كالنور في الأعين الزرق ، وضياء ، ينبثق في الفضاء كما ينبثق الماء ، وشمس تبدو للإشراق في الآفاق كبودقة فيها ذهب ، أو قنبلة ترمي باللهب ، فيرتفع جرس كل حيوان كممنون في الأوثان[٢] » ويقول في وصف النواعير: «ونواعير كأنها عشاق بعد فراق ، لم يبق فيها غير ضلوع، وأنين ودموع ، قد أوشم[٣] النبت حولها وطرّ ، واستدار الحَدَجُ واخضرّ » وبعد أن وصف الريف وما فيه من ماشية وزروع ، وأنهار وغدران ، وما فيه من حر لافح في الصيف،وبرد قارس في الشتاء وما فيه من طعام مليء بالخيرات والدسم.. الخ ذكر أنه في عزلته هذه لا يصحب إلا العلماء والأدباء ذوي الألباب والأفهام منهم: أبو تمام ، والحارث بن همام ، وعروة بن الورد،وطرفة بن العبد ، والمعري ، ويقول:

ذريني وكتبي والرياض ووحدتي أظلُّ كوحشيٍ بإحدى الأمالس[٤]
يسوّفُ أزهار الربيع تَعِلة ويأمن في البيداء شر المجالس[٥]

يسأل صاحبه : لماذا يدعوه إلى هجر الريف ، والحضور إلى المدينة : « أأفعل ذلك ، وأقطع تلك المسالك رغبة في جوار حاكم ديوان ، أو صحبان وخلان ، أم لمنافسة أبناء السامة ، أم ملابسة هذه العامة » .

ويأخذ بعد ذلك في الحديث عن كل واحد من هؤلاء : عن الحاكم ، وعن الأصحاب وعن أبناء الخاصة ، وعن عامة الشعب .

---

(١) السجسج : الوقت الذي لا حر فيها ولا قر ، وهو بين طلوع الشمس وطلوع الفجر ، والوريف : المتسع الممتد .
(٢) ممنون : تمثال لبعض آلهة المصريين القدماء بجوار مدينة طيبة ، كان إذا أشرقت الشمس صاح صيحة واحدة ، وربما كان ذلك حيلة من الكهنة .
(٣) أوشم : ابتدأ يلون . وطر : ظهر .
(٤) الأمالس : ج أملس وهي الفلاة ليس بها نبات .
(٥) يسوف : يشتم .

« أما الحاكم فأكثر ما لقيت امرؤ إن أونس تكبَّر ، وإن أوحش تكدّر ، وإن قصد تخلف وان ترك تكلف ، إمع[1] ، لا يضر ، ولا ينفع ، قبة جوفاء ، تردد ما يلقى فيها من النغم إن لا فلا ، وإن نعم فنعم ، ألقاب وأكاليل ، على شخص في مرسح التمثيل ، فإن طرحت الألقاب ، ونزعت هاتيك الثياب ، ألفيت تحتها العجب العُجاب .

أبا الأسماء والألقاب فيكم ينال المجد والشرف اليفاع

لا عدة ولا عدد ، وملك أقامه الله بلا رجال ، كما رفع السماء بغير عمد :

ويقضى الأمر حين تغيب تيم ولا يستأذنون وهم شهود

إلى تيه وخيلاء ، وعنجهية وكبرياء ، كأنه جاء برأس خاقان[2] ، أو أدال دولة بني مروان » .

وهذا وصف صادق للرؤساء والوزراء والحكام في عهد توفيق البكري : لأن الإنجليز كانوا هم الحكام الحقيقيين ، والمصريون دمى تحرك من وراء ستار ؛ ولقد أدى إخفاق الثورة العرابية إلى فقدان المصريين الثقة بأنفسهم ، وخضعوا لأوامر المحتل الغاصب ، الذي نازع البلاد وأميرها سلطانه في شخص ممثله بمصر اللورد كرومر . وكثير من هؤلاء الذين تولوا إدارة البلاد على عهد الإنجليز يصدق عليهم هذا الوصف ، يظهرون الصلف والكبرياء لمواطنيهم ، تعويضاً عن الذلة والضراعة التي يظهرونها أمام المحتلين وعميدهم بمصر ، ولم يدركوا التبعة الملقاة على عاتقهم ، حتى أتى مصطفى كامل وزأر زأرته ، وصال صولته ، وبرهن على أن هذا المحتل أدنى من أن يهابه الوطني الحر الجريء ، وظل أمر هؤلاء الذين طبعهم الإنجليز بطابعهم على ما هو عليه إلى أن ماتوا . ولا تزال منهم بقية في دواوين الحكومة حتى اليوم تضرب المثل على صدق هذا الوصف الذي سطره توفيق البكري .

ويقول عن أبناء الخاصة في مصر ، وهم الطبقة التي تقتني العقار والضياع ، وتبدد الأموال ذات اليمين وذات اليسار من غير أن تؤدي للدولة عملا ، ويعيشون في البلاد فسادا .

(١) الامع والامعة : الرجل الذي يتبع كل أحد على رأيه ولا يثبت على شيء .

(٢) خاقان : أحد رؤساء الترك خرج على الخلافة من ناحية باب الابواب ، وظهر على أرمينية وقتل الجراح بن عبد الله عامل هشام بن عبد الملك فبعث إليه هشام سعيد بن عمر والحرشي ، فاوقع سعيد بخاقان ففض جمعه وأخذ رأسه وبعث به إلى هشام فعظم اثره ، وضرب به المثل .

« وأما أبناء السامة[١] ، فإن أحدهم غادة ينقصها الحجاب ، ينظر في مرآة ولا ينظر في كتاب ، إنما هو لباس على غير ناس ، كما تضع الباعة مبهرج الثياب على الأخشاب .

وهل ينفع الوشي السجيبُ مضلّلا ... وإن ذكرت في القوم قيمته خزي[٢]

رماد" تخلف عن نار ، وحوض شرب أوله ، ولم يبق منه غير أكدار ، آباء وأحساب وحال كشجر الشلجم[٣] أحسن ما فيه ما كان تحت التراب « ترى الفتيان كالنخل ، وما يدريك ما الدخل » إلى رطانة بالعجمة بين الأعراب « أبرد من استعمال النحو في الحساب » ، « لو كان ذا حيلة لتحوّل » ، « وهل عند رسم دارس من مُعول » .

وُقح تواصوا بترك البـر بينهم ... تقول : ذا شرهم بل ذاك بل هذا

ميسر يُلعب ، وما يُسلب ، وخدن يخدع ، وكلب يتبع ، وعطر ينفح : وفرس يضبح[٤] .

أبا جعفر ليس فضل الفتى ... إذا راح في فضل إعجابه
ولا في فراهـة بِرْذَوْنه ... ولا في نظافـة أثوابـه[٥]

أيها الرجل ، وكلكم ذلك الرجل ، إن المال وسيلة لا غاية ، فإن أصبت منه الكفاية فقد بلغت النهاية » .

وهذا لعمري وصف خالد لهؤلاء الفتيان الذين ورثوا المال الجم عن آبائهم ، فلم يعرفوا في جمعه عناء ولا رهقاً ، ولم يأبهوا للمجد يشيدونه أو للفخر يحرزونه ، وإنما همهم التطري والزينة وعقولهم هواء ، وأفئدتهم خاوية إلا من الشر ، فهم رماد تخلف عن نار ومثلهم كشجر الشلجم أحسن ما فيه ما كان تحت التراب ، وكثيراً ما نراهم حتى اليوم يباهون برطانة أعجمية ، ويتنكرون للغتهم القومية ، ولكنهم والحق يقال عاجزون عن الإفصاح وعن العمل ، وليس في مقدورهم أن يغيروا من حالهم ،

---

(١) السامة : الخاصة من الناس .
(٢) السحيب : المسحوب .
(٣) الشلجم : اللفت ويريد أن آباءهم الذين واراهم التراب أحسن منهم .
(٤) الضبح : صوت انفاس الخيل عند عدوها .
(٥) البرذون : البغل .

يجتمعون للفساد ، ويفترقون على ميعاد ، لا تعرف أيهم أسوأ نفساً ، يقتلون الوقت في لعب الميسر ، وفي سلب أموال الفلاحين الكادحين • ولقد صورهم أحسن صورة في قوله : « خدن يخدع ، وكلب يتبع ، وعطر ينفح ، وفرس يضبح » هذا هو كل ما يشغلهم في الحياة ، ان يظلوا عالة على المجتمع • ومن الأسف أنه على الرغم من تقدم الأمة خطوات واسعة في سبيل المساواة الاجتماعية بانتشار التعليم ، وبتغير الأفكار ، ووجود الأنظمة الديمقراطية ، فقد ظل نفر كبير من أبناء الخاصة لا يدركون خطورة حالهم ، وأنهم يفتنون الفقراء باستهتارهم ، يستمطرون على أنفسهم اللعنات بتبذلهم وقحتهم وتبذيرهم المال في غير ما شرع له إلى أن قضت عليهم الثورة •

ثم أرأيت هذه النظرة السامية « المال وسيلة لا غاية فإن أصبت منه الكفاية فقد بلغت النهاية » ، ولكن أنّى لهؤلاء أن يدركوا هذه الحقيقة ، إنهم ينعَمون ، ويدعون سواهم من أفراد الشعب يتضورون من الجوع ، ويموتون من الألم والمرض •

إن البكري في هذا ثائر على أوضاع شاذة في مصر ، مع أنه من أبناء الخاصة الذين شبوا في حضن النعيم ، ولكنه كان ذا نظرة ثاقبة وفكر رشيد ، وقلب رحيم ، وعقل حكيم ، ولعله رأى في رحلاته إلى أوربا مبلغ ما وصل إليه الناس من المساواة ، وأن أبناء الخاصة يعملون لنفع أمتهم كما يعمل أبناء العامة • وربما كانت آراؤه هذه هي التي تأذى منها « عباس » فنظرته إلى الحكام ، وإلى أبناء الخاصة ، وآراؤه الاشتراكية لم يكن يرضى عنها عباس ، وهو الذي اشتهر بحبه لجمع المال ، وبعداوته للنظم الديموقراطية وحرم الأمة مجلساً نيابياً صحيحاً •

ثم استمع إليه كيف يصور أبناء العامة ، ويصف شقاءهم وتعاستهم ، والتفاوت العظيم بينهم وبين أبناء الخاصة الذين وصفهم من قبل •

« وأما العامة أيدك الله فهم عظم على وضَم ، وصيدٌ في غير حَرَم ، سيد مأسور ، والإخشيد في يد كافور ، ويتيم غني في يد وصي •

وغيظ على الأيام كالنار في الحشا ... ولكنه غيظ الأسير على القِدِّ[1]
وأرى رجالا لا تحوط رعية ... فعلام تؤخذ جزية ومكوس

(١) القد : السير من جلد مدبوغ •

ظلموا الرعية واستباحوا كيدها وعدوا مصالحها وهم أجراؤها

فبينما ترى قصوراً وثراء ، وحبوراً ، وسرّاءَ ، وعربات تترى ، يعدو أمامها السليك والشنفرى[1] ، ويقودها داحس والغبراء[2] على بساط الغبراء ، وخراج قرية أو قريتين يذهب في لهو ليلة أو ليلتين ، تجد أرملة صناعا ، وأيتاماً جياعاً ، وشيخاً يعمل وهو في أرذل العُمُر ، يقعده العجز ، ويقيمه الفقر ، أو عذراء كادت تبيع عرضها للاحتياج ، أو مريضاً عاجزاً عن العلاج ، وبينما ترى وَذاحاً[3] في جيدها عقد ، كأنه فُرود حَضَار[4] ، وفي أخمصها نعل من نضار ، ترى بائسة في عنقها عقد من دموع ، وفي بينها فقر وجوع ، حال تطرف العيون وتثير الشجون » .

إن هذه آراء متقدمة على زمانه ولا سيما في مصر . وإذا كان جمال الدين قد نبه المصريين إلى المطالبة بالشورى ، فإنه لم يُعن العناية الكافية بالإصلاح الاجتماعي على الرغم من صيحته المدوية للمصريين بأنهم نشئوا في الاستعباد ، وربوا في حجر الاستبداد ، وعلى الرغم من تحريضه لهم على الثورة[5] ، لأن غايته كانت سياسية ، وإن كان بعض تلاميذه قد تأثر بدعوته إلى الإصلاح الاجتماعي ، مثل عبد الله نديم ، ونادى في جريدته « التنكيت والتبكيت » بإصلاح المفاسد الاجتماعية ، ولكنّ آراءه لم تبلغ في جرأتها ، وتقدمها نحو المساواة الحقيقية بين طبقات الأمة مثل آراء توفيق البكري ، وإن لم يكن لها الصدى الذي تستحقه لأن الأسلوب الذي صيغت فيه يعلو على مستوى أبناء الخاصة وجمهور العامة في ذيَّاك الوقت .

لقد ابتدأ حديثه عن العامة بتقريره أنهم أصحاب السلطان الحقيقي وأنهم أشبه بسيد مأسور والأخشيد في يد كافور ، فالإخشيد هو الملك الشرعي وكافور هو الملك الفعلي ، وأنهم أشبه بيتيم غني في بد وصي يستبيح ماله وينهب حقوقه من

---

(١) السليك والشنفري : من العرب المدائين .

(٢) داحس والغبراء : جوادان قامت بسبب سباقهما حرب طويلة بين عبس وذبيان في الجاهلية .

(٣) الوذاح : الفاجرة .

(٤) فرود حضار : كواكب . وحضار اسم كوكب يشبه بسهيل قال الشاعر :

اری نار لیلی بالعقیق کأنها حضار إذا ما اعرضت وفرودها

(٥) انظر الأدب الحديث جـ ١ ص ٢٤٣ ط سادسة .

غير أن يراعي في هذه الحقوق إلاً أو ذمة • ويصور هذا الغيظ الذي يضطرم في نفوس العامة من الشعب ، ولكنه أشبه بغيظ الأسير المغلول اليد ، لا يستطيع إلاّ أن يغتاظ من غير أن يحطم قيده ، ثم يبدي رأياً جريئاً ، تنادي بها الشعوب الحية اليوم : إذا كان حكام الأمة لا يولونها عناية أو رعاية فعلام يدفع الناس الجزية والضرائب ؟ إنه تمرد على الظلم ، وبث على الإصلاح ، ثم يقتبس بيت أبي العلاء المعري الذي يقرر فيه أن الحكام هم أجراء لدى الأمة ، ومع ذلك يظلمونها وهذا أعجب العجب •

ويعقد موازنة بين هذه الفئة القليلة من الأغنياء التي تبعثر على موائد الفساد ما جمع هؤلاء المساكين في حمّارة القيظ وصبارة الشتاء ، وهم يبيتون على الطوى ، وأبناؤهم يتضاغون من المسغبة والفاقة ، ويتضورون من الجوع والعري ، ويتلوون من السقام والأوصاب • وله في غير هذا الموضع بيتان صور فيهما العلاقة بين الحاكم والمحكوم في مصر :

حمق الألى يحكمون الناس يضحكني — وسوء فعلهم في الناس يبكيني
ما الذئب قد عاث بين الضأن أفتك من — هذي الولاة بهاتيك المساكين

إنه صور الآفات الاجتماعية التي تفتك بهذه الأمة المسكينة وهي الفقر والجهل والمرض ، وعرض في إيجاز أدبي مشكلة التشرد والبؤس ، ووازن بين الفقيرة الكادحة في سبيل العيش والفاجر التي تتحلى بالدر ، وتنتعل الذهب ، وذكر أن هذه حال تطرف العيون وتثير الشجون •

ويطول بنا المقام لو تتبعنا البكري في كل موضوعاته الطلية ، وأوصافه المبتكرة ، ولكنا نرى أنه حقاً شاعر في نثره ، لولا أنه كان متزمتاً ، مؤثراً ، للغريب وإيراد الأمثلة القديمة ، والإرشادات التاريخية والأدبية ، ولو لم يتكلف السجع ويتنكر للطبع لكان البكري في مقدمة أدباء جيله • وقد علق الأستاذ العقاد على نثر البكري بقوله : « وفي هذه الفقرات وفي أمثالها من نثره المجود موضوعات شعر ، ولفتات شاعر ، ولكن الصنعة أفسدت الطبيعة ، والمحفوظ جنى على الملحوظ ، أو لك أن تقول إنك تلمح هنا مجس شاعر يضرب مواضع الماء من الأرض ، ولكنه

يقف عند حجارة من التقليد ولا ينفذ بعدها إلى النبع المخبوء على مدى أصبعين من مجسّه » :

ويقول عن أدبه شعره ونثره : « وأحسب أن القارىء قد تبين أن الشعر عند البكري كان مسألة إحساس مرهف وشاعرية مطبوعة ، وقد تقصر هذه الشاعرية فلا توفي على الغاية ، أو تطفو فلا تتغلغل إلى الأعماق بيد أنها من معدن الفن ولبابه ... إن القديم كان يستولي من البكري على جانب التعليم والقصد والتكلف والصناعة فيه ، وإن الحديث كان يستولي منه على الإحساس والسجية وما يصدر عن النفس بلا كلفة ولا إرادة »[1] .

(١) شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي ص ١٥ .

أهم المراجع

١ ـ المراجع العربية

الدكتور إبراهيم ناجي: اتجاهات الشعر الحديثة (الأهرام ٢٠/٩/١٩٣٦ م)

إبراهيم المازني: ١ ـ إبراهيم الكاتب
٢ ـ قبض الريح
٣ ـ حصاد الهشيم
٤ ـ الديوان
٥ ـ ديوان المازني
٦ ـ الشعر غاياته ووسائطه
٧ ـ شعر حافظ

إبراهيم اليازجي: اللغة والعصر (مختارات المنفلوطي)

أحمد أمين: ١ ـ مقدمة ديوان حافظ إبراهيم •
٢ ـ مقدمة ديوان إسماعيل صبري •

أحمد حسن الزيات: ١ ـ وحي الرسالة جـ ١ ، ٢ •
٢ ـ دفاع عن البلاغة •

أحمد زكي: مقال عن شوقي (مجلة أپولو ديسمبر سنة ١٩٣٢)

أحمد زكي أبو شادي: ١ ـ أنداء الفجر
٢ ـ قطرة من يراع في الأدب والاجتماع
٣ ـ مجلة أپولو •

أحمد الزين: مقدمة ديوان إسماعيل صبري

أحمد الإسكندري: مقدمة ديوان عبد المطلب •

أحمد الشايب: أصول النقد الأدبي •

أحمد شوقي: الشوقيات •

الدكتور أحمد عزت عبد الكريم — تاريخ التعليم في مصر ·

أحمد فتحي زغلول — ١ ـ سر تقدم الإنجليز السكسونيين ·
٢ ـ ماهية اللغة (مختارات المنفلوطي) ·

أحمد الكاشف — الديوان ·

أحمد محرم — ١ ـ الديوان ·
٢ ـ دراسة عن إسماعيل صبري (مجلة أپولو ١٩٣٤)

الدكتور إسماعيل أدهم — مطران ·

أنطون الجميل — ١ ـ مقدمة ديوان إسماعيل صبري ·
٢ ـ مقدمة ديوان ولي الدين يكن ·

أنيس المقدسي — العوامل الفعالة في الأدب الحديث

بطرس البستاني — أدباء العرب جـ ٣ ·

تشارلتن — فنون الأدب (ترجمة الدكتور زكي نجيب محمود) ·

تشالز آدمز — الإسلام والتجديد في مصر (ترجمة عباس محمود) ·

توفيق البكري — ١ ـ بيت الصدّيق ·
٢ ـ تاريخ السادة الوفائية ·
٣ ـ فحول البلاغة ·
٤ ـ أراجيز العرب ·
٥ ـ صهاريج اللؤلؤ ·

حافظ إبراهيم — ١ ـ ديوان حافظ ·
٢ ـ ليالي سطيح ·

حامد عبد القادر — دراسات في علم النفس الأدبي ·

حسين شوقي — مقال عن شوقي (أپولو سنة ١٩٣٢) ·

حسين عفيف — الشعر المرسل (الأهرام ١٩٣٦/٩/٢٠) ·

خليل سكاكيني — مطالعات في اللغة والأدب

خليل مطران
١ ــ ديوان الخليل
٢ ــ الشعراء المعاصرون (مختارات المنفلوطي)
٣ ــ المجلة المصرية سنة ١٩٠٠ ، ١٩٠١ م •

داود بركات
مقال عن شوقي (أپولو ١٩٣٢) •

رئيف الخوري
الدراسة الأدبية •

رشيد رضا
١ ــ مجلة المنار •
٢ ــ تاريخ الشيخ محمد عبده (ثلاثة أجزاء) •

رمزي مفتاح
رسائل النقد •

روكسي العزيزي
مطران والوطنية •

الدكتور طه حسين
١ ــ حافظ وشوقي •
٢ ــ حديث الأربعاء •
٣ ــ في الأدب الجاهلي •
٤ ــ مستقبل الثقافة في مصر •
٥ ــ مقدمة ديوان صبري •

الطيب حسن
أثر الثقافة الغربية في الأدب الحديث (مخطوط)

عباس محمود العقاد
١ ــ جورج برنارد شو (سلسلة اقرأ) •
٢ ــ ديوان أعاصير مغرب •
٣ ــ ديوان عابر سبيل •
٤ ــ الديوان في النقد والأدب •
٥ ــ ساعات بين الكتب •
٦ ــ شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي •
٧ ــ معراج الشعر (مقال في مجلة الكتاب أكتوبر سنة ١٩٤٧) •
٨ ــ مطالعات في الكتب والحياة •
٩ ــ مقدمة بلاغة العرب في القرن العشرين •
١٠ــ مقدمة الغربال •

عبد الحميد حسن	الأصول الفنية للأدب •
عبد الرحمن الرافعي	١ ـ مصطفى كامل •
	٢ ـ محمد فريد •
	٣ ـ ثورة سنة ١٩١٩ جـ ١ ، ٢ •
	٤ ـ في أعقاب الثورة المصرية جـ ١ ، ٢ •
عبد الرحمن شكري	مقدمة الجزء الخامس من ديوان شكري •
عبد العزيز محمد	التربية الاستقلالية (ترجمة) •
علي مبارك	الخطط التوفيقية •
عمر الدسوقي	١ ـ في الأدب الحديث ـ الجزء الأول •
	٢ ـ ترجمة للشيخ علي يوسف صاحب المؤيد (الكتاب يولية سنة ١٩٤٨) •
	٣ ـ الفتوة عند العرب •
	٤ ـ دراسات أدبية ـ جـ أول •
الأمير عمر طوسون	البعثات العلمية في عهد محمد علي وعهد عباس الأول وسعيد •
فيليب دي طرازي	تاريخ الصحافة العربية •
قاسم أمين	١ ـ تحرير المرأة •
	٢ ـ المرأة الجديدة •
الأب لويس شيخو	الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين •
محمد تيمور	وميض الروح •
الدكتور محمد حسين هيكل	١ ـ أوقات الفراغ •
	٢ ـ تراجم شرقية وغربية •
	٣ ـ ثورة الأدب •
	٤ ـ مقدمة الشوقيات •
محمد الخضري	ضرورة التعريب (مختارات المنفلوطي) •
محمد خلف الله	من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده •

محمد رفعت	تاريخ مصر السياسي •
الدكتور محمد صبري	أدب وتاريخ •
محمد عبد المطلب	الديوان •
محمد فريد أبو حديد	شكسبير ـــ سلسلة اقرأ •
الدكتور محمد مندور	الميزان الجديد •
مختار الوكيل	رواد الشعر الحديث •
مصطفى صادق الرافعي	١ ـــ تاريخ آداب العرب •
	٢ ـــ على السفود •
	٣ ـــ وحي القلم •
مـــيّ	باحثة البادية •
ميخائيل نعيمة	الغربال •
نجيب حداد	بين الشعر العربي والأفرنجي (مختارات المنفلوطي) •
نسيب عازار	نقد الشعر •
ولي الدين يكن	الديوان •

٢ ـــ المراجع الأجنبية

Augstin Birrell	William Hazlit
C. M. Bowra	The Romantic Imagination
Earl Cromar	Modern Egypt
H. R. Gibb	B. S. O. S.
F. Green	A. Critical Survey of French and English Literary Ideas in the Eighteenth Century
Gustave le Bon	La Psychologie du Socialism
Huart	Littérature Arabe
R. D. Jameson	A Comparison of Literature : English, French, German & American
Jullian Leopold	(Semailles Français)
Lecarpentier	L'Egypte Moderne
Lenard. S. Harker	Blazing the Trail
Lord Lloyd	Egypt Since Cromer
J. W. Long	English Literature
E. L. Lucas	Studies French and English
Marcel Braunschvig	Notre Littérature Etudueé dans les textes
G. H. Mair and A. G. Word	Modern English Literature
Maria Proz	The Romantic Agony
Dr Maulton	World Literature
J. A. Richards	Principles of Literary Criticism
D. N. Smith	Introduction to Wordsworth Poetry and Prose
Tahir Khamiry and Kampfmeyer	Leaders in Contemporary Arabic Literature
Sir Valentine Chirol	The Egyptian Problem
William Hazlit	The Spirit of the Age
William Willcocks	Syria, Egypt North Africa and Multa Speak Punic not Arabic.
Willmor - J. Solden	The Spoken Arabic of Egypt
Winchester	Some Principles of Literary Criticism
Wordsworth	1, Michael 2, Lyrical Ballads 3, Prelude
Yacoub Artin Pasha	L'instruction Publique en Egypte
G. Young	Egypt.

فهرست

صفحة

صفحة

للمؤلف

١ — إخوان الصفاء :

دراسة تاريخية ادبية فلسفية ، تكشف السر عن جماعتهم ونظمها ، وعن فلسفتهم مع مناقشة علمية لكل ما كتب عنهم ، والوصول إلى الحقيقة في أمرهم . (مكتبة نهضة مصر بالفجالة) .

٢ — النابغة الذبياني :

ترجمة مستفيضة مع تصوير شامل للبيئة العربية في العصر الجاهلي ، وتطور اللغة العربية ، وتاريخ النابغة ، دراسة لديوانه وطبعاته ، وشعره مع تحليل ونقد وموازنة . (دار الفكر) .

٣ — الفتوة عند العرب :

اول كتاب في اللغة العربية في موضوعه ، ودراسة تحليلية عميقة جامعية لأمجاد الأمة العربية ، وتاريخ للفتوة منذ نشأة العرب حتى عصر المماليك . مع موازنة واسعة بين فتوة العرب وفروسية الغرب وصور جذابة تاريخية لشتى ضروب الفتوة في أسلوب قصصي بديع . (نهضة مصر بالفجالة) .

٤ — في الأدب الحديث (الجزء الأول) :

تاريخ للأدب الحديث منذ الحملة الفرنسية حتى نهاية القرن التاسع عشر ، مع ذكر المؤثرات العامة في الادب . وتراجم واسعة للكتاب والشعراء ، وتحليل ونقد وموازنة لآثارهم الأدبية . (دار الفكر العربي) .

٥ — محمود سامي البارودي :

من سلسلة نوابغ الفكر العربي وهي دراسة ممتازة مركزة لعصره وحياته وشعره مع عشرات القصائد المشروحة شرحاً وافياً (دار المعارف) .

٦ — المسرحية :

اول كتاب في اللغة العربية يدرس فن المسرحية دراسة علمية جامعة عميقة ، ويتتبع نشأتها حتى عصرنا الحاضر ، ويفصل أنواعها ويدرس كل نوع ، ويبين المذاهب الادبية الكبرى في الغرب فيحدث عن الكلاسيكية ، والرومانتيكية ، والواقعية والرمزية والطبيعية بالتفصيل ، ثم يوضح الأسس التي تبنى عليها المسرحية بأنواعها ، ويختم البحث بدراسة تطبيقية . (دار الفكر) .

٧ — دراسات أدبية (الجزء الأول) :

يعالج كثيراً من موضوعات الأدب المعاصر ، ويلقي نظرات فاحصة على بعض الادباء المعاصرين الذين لم يحظوا بمزيد من العناية . وفيه دراسة مستفيضة عن ادب القصة ، ودراسات من زوايا خاصة لبعض الشعراء والكتاب (نهضة مصر بالفجالة) .

٨ — لغتنا القومية :

دراسة مركزة قومية عن اللغة العربية منذ نشأتها حتى يومنا الحاضر نشرت في سلسلة (اخترنا للطالب)

٩ — نشأة النثر الحديث وتطوره (الجزء الأول) :

يتناول بدراسة تفصيلية نشأة النثر الحديث ، وكبار أعلامه ، وتطور المقالة وأنواعها إلى نهاية القرن التاسع عشر . (دار الفكر) .

١٠ — خريدة القصر للعماد الأصبهاني القسم الرابع (بالاشتراك) الجزء الأول

نشر وتحقيق وتقديم ، ويشمل هذا القسم الشعر في صقلية والأندلس مع ترجمة وافية للأعلا التي وردت به . (نهضة مصر) .

١١ — إظهار الحق للسيد رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي :

نشر وتحقيق مع تعريف بأهم الاعلام التي وردت به ، وتقديم له ، وترجمة النصوص الفارسية .